الدروس والعبر في غزوات وسرايا خير البشر ﷺ

غزوة الأحزاب (٢)

فهرسة أثناء النشر
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

قاسم ، غريب محمود
الدروس و العبر فى غزوات وسرايا خير البشر صلى الله عليه وسلم:موسوعة شاملة للأحداث ودروس الغزوات والسرايا النبوية/ د. غريب محمود قاسم
- ط١ - القاهرة: دار النشر للجامعات، ٢٠٢٠م.
٦٦٠ ص، ٢٤سم.
تدمك ٠ ٤٨ ٦٥١٥ ٩٧٧ ٩٧٨
١- السيرة النبوية-عصر الجهاد فى سبيل نشر الدعوة ٢- غزوة الأحزاب(٢)
أ- العنوان ٢٣٩,٤

حقوق الطبع: محفوظة
الطبعة: الأولى
رقم الإيداع: ٢٠١٩/١٥٩٣٩م
الترقيم الدولي: ISBN: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٦٥١٥ - ٤٨ - ٠



ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518
E-mail: darannshr@hotmail.com

الدروس والعبر

في

غزوات وسرايا خير البشر ﷺ

موسوعة شاملة لأحداث ودروس الغزوات والسرايا النبوية

غزوة الأحزاب (٢)

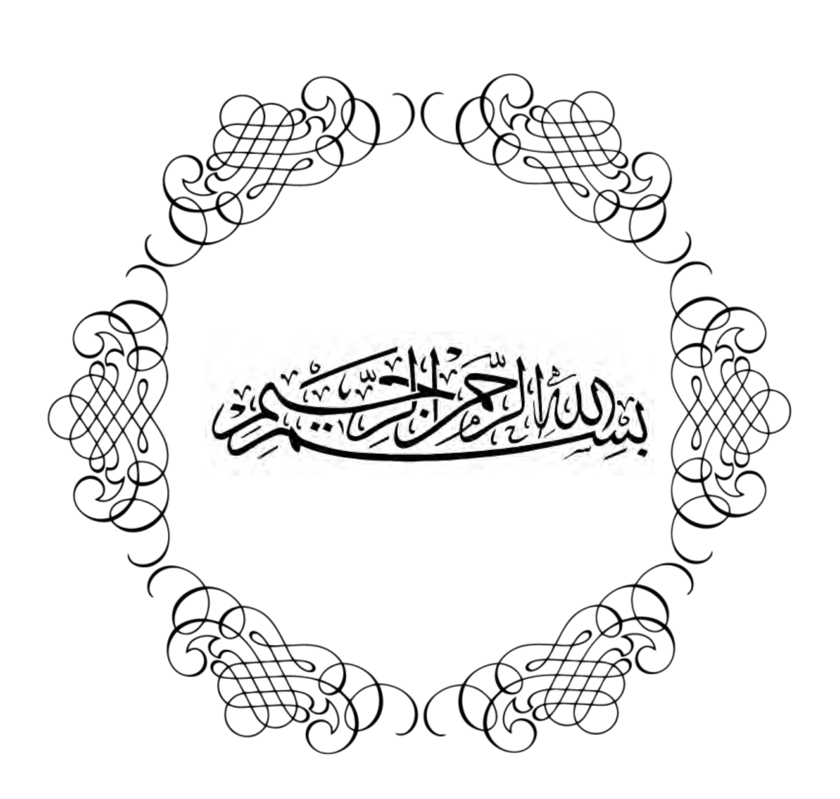
الباب الثالث: غزوة بني قريظة

الباب الرابع: الغزوات والسرايا بين بني قريظة والحديبية



غريب محمود قاسم

من علماء الأزهر الشريف


بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الثالث

غزوة بني قريظة

٢٣ من ذي القعدة ٥ هـ/ ١٥ أبريل ٦٢٧م/
٢٠ برمودة ٣٤٣ قبطي

الفصل الأول
عرض غزوة بني قريظة
المبحث الأول
ما قبل غزوة بني قريظة

بنو قريظة وإبادة المسلمين:

يقول أ/ باشميل: «لقد اعتبر بنو قريظة وجود جيوش الأحزاب الضاربة حول المدينة فرصة ثمينة للتعجيل بسحق المسلمين وإبادتهم إبادة كاملة.

وما كانوا يَشُكُّون لحظة ـ إذ ارتكبوا ما ارتكبوا ـ في أن جيوش الأحزاب قادرة كل المقدرة على إبادة المسلمين واستئصال شأفتهم استئصالًا كاملًا؛ ولذلك لم يتورعوا عن الانضمام إلى الغزاة، إذ فعلوا ذلك غير مبالين بما أعطوا من عهود وأبرموا من مواثيق.

وقد ذكرنا عبر كتابنا (غزوة الأحزاب) كيف انتهى ذلك الغزو المخيف بانسحاب الأحزاب دون أن تتمكن قواتهم من اقتحام المدينة، ودون أن تحقق أي شيء من الأهداف التي جاءت لتحقيقها وكيف تُرك بنو قريظة وحدهم في الميدان ليواجهوا المصير الذي يستحقه كل خائن وغادر وناكث.

غزوة بني قريظة امتداد لغزوة الأحزاب:

غزوة بني قريظة في حد ذاتها هي امتداد لمعركة الأحزاب، فقد كان يهود بني قريظة يمثلون الجناح الثالث للاتحاد العسكري الوثني اليهودي الذي قام لسحق المسلمين وإبادتهم إبادة كاملة.

فبنو قريظة بالإضافة إلى ارتكابهم جريمة الخيانة العظمى، يُعتبرون غزاة محاربين بانضمامهم إلى جيوش الأحزاب الغازية، وإعلانهم بأنهم جزء لا يتجزأ منهم ضد المسلمين، ومباشرتهم بالفعل التحرك لضربهم من الخلف مساندة للغزاة وقيامهم بمد هؤلاء الغزاة بالتموينات.

وعلى هذا فإن الأحزاب عندما انتهت بذلك النصر المؤزر للمسلمين على المشركين باندحارهم وانسحابهم خائبين لم يحققوا شيئًا من أهداف غزوهم، هذه المعركة عندما انتهت باندحار المشركين، إنما انتهت فقط بالنسبة لجناحين من أجنحة ذلك الاتحاد الوثني اليهودي، وهما جناحا قريش وغطفان اللذين انشمرت حشودهم الضخمة من حول المدينة وعادت إلى ديارهم مجللة بعار أشنع هزيمة في تاريخها العسكري الطويل، بعد حصار رهيب مزعج مخيف دام شهرًا كاملًا». [غزوة الأحزاب لباشميل ١٤٠-١٤١].

ويقول أ/ شقرة: «الفاصل الزمني بين غزوة الأحزاب وبين غزوة بني قريظة، يكاد يكون هو الفاصل بين الآيات التي تحدث فيها القرآن عن الأولى منهما، وبين الآيات التي تحدث فيها القرآن عن الثانية.

بل إن غزوة بني قريظة كانت امتدادًا لغزوة الأحزاب، إذ لم يكد الرسول ﷺ ينفض يديه من آثار غزوة الأحزاب حتى نزل الوحي بأمر الله له أن يتوجه إلى بني قريظة.

وكانت قريظة قد نقضت عهدها الذي كانت أبرمته مع النبي ﷺ وتحالفت مع الأحزاب سرًّا على المسلمين». [السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٤٠٠].

تصفية الحساب مع اليهود:

يقول أ/ باشميل: «أما الجناح الثالث من أجنحة هذا الاتحاد المخيف الذي يمثله يهود بني قريظة الذين سجَّلوا بصنيعهم ذاك أخس وأشنع جريمة في تاريخ الخيانة والغدر، فلم ينته الحساب معه بعد.

لقد كان بنو قريظة يتوقعون من الجيش الإسلامي هذا الحساب الذي ما كانوا يشكون لحظة في أنه سيكون حسابًا عسيرًا يتناسب وفظاعة الجريمة التي ارتكبها هؤلاء اليهود ضد هذا الجيش الذي لم يروا من قائده الأعلى وكافة زعمائه وأفراده إلا الصدق والبر والوفاء بالعهد.

ولذلك فقد اعتصم هؤلاء اليهود الغادرون بحصونهم يرتجفون فزعًا من المصير المرعب الذي ينتظرهم على أيدي المسلمين جزاء غدرهم وخيانتهم التي قاموا بها ضد المسلمين في ذلك الظرف الحرج الذي بلغت فيه حالة المسلمين أقصى درجات الخطورة، والذي فيه ـ بدلًا من أن يفي هؤلاء اليهود بالتزاماتهم العسكرية نحو المسلمين فينضموا بأسلحتهم ضد جيوش الأحزاب الغازية الباغية، كما تفرض عليهم اتفاقية الدفاع المشترك المعقودة بينهم وبين المسلمين (تنظر بنود هذه المعاهدة مفصلة في كتاب (الوثائق السياسية) للدكتور محمد حميد الله ص ١ وما بعدها، وسيرة ابن هشام ١/ ٥٠١)ـ استداروا بأسلحتهم وحاولوا طعن المسلمين من الخلف بغية التعجيل بالقضاء عليهم.

مع أن هؤلاء اليهود لم يروا من النبي ﷺ وصحبه رضي الله عنهم ـ منذ تم التحالف بين الفريقين ـ إلا الصدق والبر والوفاء، ولكنه الغدر السابح في دماء هؤلاء اليهود الذين هم أئمته وأساتذته في كل عصر وزمان.

غير أن تصفية الحساب مع هؤلاء الغادرين، كانت على قدر الرصيد، فقد كان مستوى العقوبة في مستوى الجريمة؛ ذلك أن جريمة غدر اليهود وخيانتهم إذا كانت قد بلغت غايتها في الفظاعة والبشاعة، فإن نتيجة محاكمتهم على هذه الخيانة كانت غاية في الشدة والصرامة... جزاءً وفاقًا».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٤١-١٤٢].

ويقول الشيخ الغزالي: «انفضت حشود الأحزاب حول المدينة، وعادت المطيُّ بها من حيث أتت تذرع رحاب الصحراء، وليس تحمل معها إلا الفشل والخيبة، وبقي يهود قريظة وحدهم، أو بقوا وبقيت غدرتهم التي فضحت طواياهم، فأصبحوا وأمسوا أشبه بالمجرم الذي ثبتت إدانته، فهو يرقب ـ بوجه كالح ـ قصاص العدالة منه.

وكانت مشاعر التغيظ في أفئدة المسلمين نحو أولئك اليهود قد بلغت ذروتها، إنهم هم الذين استخرجوا العرب استخراجًا، واستقدموهم إلى دار الهجرة ليجتاحوها من أقطارها، ويستأصلوا المسلمين فيها، إن جراحات المسلمين لطردهم من ديارهم ومطاردتهم في عقيدتهم، واستباحة أموالهم ودمائهم لكل ناهب ومغتال، لـمَّا تندمل بعد، بل لن تندمل أبدًا، فكيف ساغ لأولئك الخونة من بني إسرائيل أن يرسموا بأنفسهم الخطة لإهلاك الإسلام وأبنائه على هذا النحو الذليل؟

ثم ما الذي يجعل بني قريظة خاصة ـ وهم لم يروا في جوار محمد ﷺ إلا البر والوفاء ـ يستديرون بأسلحتهم منضمين إلى أعداء الإسلام كي يَشركوهم في قتل المسلمين وسلبهم؟

وها قد دخل في حصونهم حيي بن أخطب رأس العصابة التي طافت بمكة ونجد تحرِّض الأحزاب على الله ورسوله، وتزعم أن الوثنية أفضل من التوحيد». [**فقه السيرة للغزالي ٣٢٠-٣٢١**].

ويقول د/ طنطاوي: «ارتدت جيوش الأحزاب مدحورة إلى ديارها، تحمل معها الفشل والخيبة، وتنفس المسلمون الصعداء، وحمدوا الله ﷻ أن نجاهم من عدوهم.

أما بنو قريظة فقد قبعوا في حصونهم وحدهم، تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، وعلى رأسهم غدرتهم الشنيعة، فأصبحوا وأمسوا، وهم أشبه ما يكونون بالمعتدي الأثيم، الذي قامت كل البراهين على إدانته، فهو يترقب برهبة وفزع قصاص العدالة منه.

وشاء الله ﷻ أن يكون القصاص العادل منهم سريعًا وحاسمًا». [**بنو إسرائيل لطنطاوي ٢٩٨**].

فسبب غزوهم إذن هو نقضهم للعهد الذي كان بينهم وبين النبي ﷺ، في أحلك الظروف وأصعبها على المسلمين، في أثناء حصار الأحزاب للمدينة، وهذا السبب قد ثبت بطرق قابلة بمجموعها للاحتجاج بها، وقد ثبت أن الرسول ﷺ قد أرسل الزبير بن العوام ﵁ لاستطلاع خبرهم كما جاء ذلك في الصحيح. [**صحيح السيرة للعلي ٢٨٣**].

مرجع النبي ﷺ من الأحزاب:

عَنْ كَعْبِ بن مَالِكٍ ﵁ قَالَ: لَـمَّا رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ طَلَبِ الأَحْزَابِ، فَنَزَلَ المَدِينَةَ، وَضَعَ لأْمَتَهِ، وَاغْتَسَلَ، وَاسْتَجْمَرَ». [**مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٤ في المغازي والسير (١٠١٦٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط [٨/ ١٣٥ رقم ٨١٩٥] [المعجم الكبير ١٩/ ٧٩ رقم ١٦٠]، ورجاله ثقات**].

يقول د/ حبيشي: «ومع إجهاد المسلمين الشديد الذي يحتاجون معه إلى راحة، إلا أن الأسباب التي اجتمعت للنبي ﷺ والمسلمين معه، قد أثبتت أن اليهود من بني قريظة حين فعلوا فعلتهم، كادوا أن يعجلوا بالمسلمين تدور بهم الدوائر، لولا أن الله سلم.

ولم يقبل بنو قريظة رجاء وفد النبي ﷺ إليهم أن يتراجعوا عن موقفهم الذي اتخذوه في وقت عصيب، مما أصاب سعد بن معاذ رضي الله عنه ورفاقه بالضيق الشديد المصحوب بخيبة الأمل والرجاء في بني قريظة أن يقدروه، وأن يقبلوا شفاعته.

لقد اكتملت الأسباب الدافعة إلى غزوة بني قريظة، والتي لو اجتمع عُشر معشارها لأمة من الأمم المعاصرة مع بعض حلفائها، لأهلكت بعد فراغها من همومها حرث الخارجين ونسلهم، ومع هذا كله فلقد كان النبي ﷺ راغبًا في أن يلتقط المسلمون أنفاسهم بعد هذا العناء الشديد، قبل أن ينظروا في أمر بني قريظة وما عساهم أن يفعلوا معهم.

أما بنو قريظة أنفسهم فقد أصابهم الغم والهم لفداحة ما ارتكبوا، ولجلاء الأحزاب عن المدينة وتركهم مع النبي ﷺ وجهًا لوجه، ينظر في خياناتهم غير المسبوقة، والتي فاقت خيانة بني قينقاع، وبني النضير مفترقين ومجتمعين.

مال النبي ﷺ إلى أن يلتقط المسلمون أنفاسهم، وشاء ذلك لهم، ولكن الله شاء شيئًا آخر ومشيئته خير». [**رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٣٧**].

ويظهر من سير الحوادث أن النبي القائد ﷺ كان يفضل إعطاء جيشه قسطًا من الراحة قبل الزحف على معاقل الغدر والخيانة في بني قريظة لمحاسبتهم.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: لَـمَّا انْصَرَفَ الـمُشْرِكُونَ عَنْ الخَنْدَقِ، وَخَافَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ خَوْفًا شَدِيدًا، وَقَالُوا: مُحَمَّدٌ يَزْحَفُ إِلَيْنَا، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَمْ يُؤْمَرْ بِقِتَالِهِمْ حَتَّى جَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام.

[**المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٦-٤٩٧**].

ويقول د/ هيكل: «عاد محمد ﷺ بعد رحيل الأحزاب يفكر في موقفه، لقد أذهب الله عنه عدوه الذي كان يهدده، لكن اليهود قادرون على أن يعودوا لمثلها، وأن يختاروا فصلًا من السنة غير الشتاء القارس الذي كان من جند الله في هزيمة عدوه، ثم إن قريظة لولا ارتحال الأحزاب ولولا ما وقع في صفوفهم من شقاق وانقسام، كانت على أهبة النزول إلى المدينة والفتك بالمسلمين والمعاونة على استئصالهم، لا تقطعنَّ إذًا ذنب الأفعى وتتركها.

ولابد من القضاء على بني قريظة بما فعلوا». [**حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤٧**].

الأمر الإلهي بغزو بني قريظة:

بعد غدرهم وخيانتهم جاءته ﷺ الأوامر الصريحة المشددة من السماء بأن يسارع ـ قبل أن يضع جنده السلاح ـ بالزحف على حصون اليهود لإنزال العقاب العادل بأولئك الخونة المجرمين الذين كادوا ـ نتهم ـ يتسببون في إبادة الجيش الإسلامي الناشئ الصغير ومحو الكيان الإسلامي من الوجود.

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: لَـمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الخَنْدَقِ، وَوَضَعَ السِّلَاحَ، وَاغْتَسَلَ، أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﵇ [وَقَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ الغُبَارُ] [وَهُوَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الغُبَارِ] [وَعَلَى رَأْسِهِ الغُبَارُ] فَقَالَ: «**قَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ! وَاللهِ مَا وَضَعْنَاهُ [وَضَعْتُهُ، وَضَعْتُهَا]، فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ**»، قَالَ ﷺ: «**فَإِلَى أَيْنَ؟**» قَالَ: «**هَا هُنَا**»، وَأَشَارَ [وَأَوْمَأَ] إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ.

[البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٣)، وفي المغازي (٤١١٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٩)، ومسند أحمد ٤٠/ ٣٣٦-٣٣٧ رقم ٢٤٢٩٥، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٦-٢٧].

وعَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَـمَّا فَرَغَ مِنْ الأَحْزَابِ، دَخَلَ الْمُغْتَسَلَ لِيَغْتَسِلَ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ ﵇ فَقَالَ: «**أَوَقَدْ وَضَعْتُمْ السِّلَاحَ؟! مَا وَضَعْنَا أَسْلِحَتَنَا بَعْدُ، انْهَدْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى جِبْرِيلَ ﵇ مِنْ خَلَلِ البَابِ قَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ مِنْ الغُبَارِ [قَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ الغُبَارُ]. [مسند **أحمد ٤١/ ٤٥٨ رقم ٢٤٩٩٤، ٤٣/ ٤٠٥ رقم ٢٦٣٩٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].**

وعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ:... وَبَعَثَ اللهُ ﷻ الرِّيحَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، فَكَفَى اللهُ ﷻ الْمُؤْمِنِينَ القِتَالَ، وَكَانَ اللهُ ﷻ قَوِيًّا عَزِيزًا، فَلَحِقَ أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ بِتِهَامَةَ، وَلَحِقَ عُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ وَمَنْ مَعَهُ بِنَجْدٍ، وَرَجَعَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ فَتَحَصَّنُوا فِي صَيَاصِيهِمْ، وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَضَعَ السِّلَاحَ، وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَضُرِبَتْ عَلَى سَعْدٍ ﵁ فِي الْمَسْجِدِ.

قَالَتْ: فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ ﵇، وَإِنَّ عَلَى ثَنَايَاهُ لَنَقْعُ الغُبَارِ، فَقَالَ: «**أَقَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ؟! وَاللهِ مَا وَضَعَتْ الْمَلَائِكَةُ بَعْدُ السِّلَاحَ، اخْرُجْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَقَاتِلْهُمْ**».

قَالَتْ: فَلَبِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَأْمَتَهُ، وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالرَّحِيلِ أَنْ يَخْرُجُوا، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَمَرَّ عَلَى بَنِي غَنْمٍ - وَهُمْ جِيرَانُ الْمَسْجِدِ حَوْلَهُ - فَقَالَ: «**مَنْ مَرَّ بِكُمْ؟**»، فَقَالُوا: مَرَّ بِنَا دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ، وَكَانَ دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ تُشْبِهُ لِحْيَتُهُ وَسِنُّهُ وَوَجْهُهُ جِبْرِيلَ ﵇... [مسند **أحمد ٤٢/ ٢٦ رقم ٢٥٠٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: بعضه صحيح وجزء منه حسن وهذا إسناد فيه ضعف عمرو بن علقمة لم يرو عنه غير ابنه محمد].**

وعَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سَمِعَ صَوْتَ وَثْبَةٍ شَدِيدَةٍ؛ [صَوْتَ رَجُلٍ فَوَثَبَ وَثْبَةً شَدِيدَةً]، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَاتَّبَعْتُهُ أَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى عُرْفِ بِرْذَوْنِهِ، وَإِذَا هُوَ دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ - فِيمَا كُنْتُ أَرَى - وَإِذَا هُوَ مُعْتَمٌّ مُرْخٍ مِنْ عِمَامَتِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، فَلَـمَّا دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قُلْتُ: لَقَدْ وَثَبْتَ وَثْبَةً شَدِيدَةً ثُمَّ خَرَجْتَ، فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ، قَالَ: «**أَوَرَأَيْتِهِ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**ذَاكَ جِبْرِيلُ ﵇، أَمَرَنِي أَنْ أَخْرُجَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ**».

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ : أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ ، عَنْ عَمْرَةَ ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ مِثْلَهُ. وَرَوَاهُ خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ أَخِيهِ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، عَنِ القَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ .

وَشَاهِدُ هَذَا الحَدِيثِ فِي رُؤْيَةِ عَائِشَةَ جِبْرِيلَ عليه السلام، وَقَوْلِهَا: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ يَمْسَحُ الغُبَارَ عَنْ وَجْهِ جِبْرِيلَ فَقُلْتُ: هَذَا دِحْيَةُ يَا رَسُولَ الله؟ فَقَالَ: «**هَذَا جِبْرِيلُ**».

[دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٠-١١، مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٤-٢٠٥ في المغازي والسير (١٠١٦٥)، وقال الهيثمي: قلت: هو في الصحيح باختصار، رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه مقدام بن داود، وهو ضعيف].

وقال الحافظ ابن حجر: وَقَعَ فِي «دَلَائِلِ البَيْهَقِيِّ» وَفِي «الغَيْلَانِيَّاتِ» مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَن بْن القَاسِمِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّهَا رَأَتِ النَّبِيَّ ﷺ يُكَلِّمُ رَجُلًا وَهُوَ رَاكِبٌ، فَلَـمَّا دَخَلَ قُلْتُ: مَنْ هَذَا الَّذِي كُنْتُ تُكَلِّمُهُ؟ قَالَ: «**بِمَنْ تُشَبِّهِينَهُ؟**» قُلْتُ: بِدِحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ، قَالَ: «**ذَاكَ جِبْرِيلُ أَمَرَنِي أَنْ أَمْضِيَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ**». [فتح الباري ٨/ ٦٢٢ كتاب فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل رقم ٤٩٨٠].

وقَالَ يَزِيدُ بْنُ الأَصَمِّ: لَـمَّا كَشَفَ اللهُ الأَحْزَابَ وَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى بَيْتِهِ فَأَخَذَ يَغْسِلُ رَأْسَهُ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ: «**عَفَا اللهُ عَنْكَ! وَضَعْتَ السِّلَاحَ وَلَمْ تَضَعْهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ، آتِنَا عِنْدَ حِصْنِ بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَنَادَى رَسُولُ الله ﷺ فِي النَّاسِ أَنِ: «**ائْتُوا حِصْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ**»، ثُمَّ اغْتَسَلَ رَسُولُ الله ﷺ فَأَتَاهُمْ عِنْدَ الحِصْنِ». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٩١-٣٩٢ في المغازي (٣٧٩٨٩)، وقال الشيخ عوامة: «هذا مرسل، يزيد بن الأصم تابعي ثقة، وهو ابن أخت السيدة ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها، ومَنْ دونه ثقة، والحديث رواه ابن سعد في طبقاته ٢/ ٧٥-٧٦ بمثل إسناد المصنف، ويشهد له روايات عائشة رضي الله عنها السابقة].

وعَنْ كَعْبِ بن مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَـمَّا رَجَعَ مِنْ طَلَبِ الأَحْزَابِ، نَزَعَ لأْمَتَهُ [اللَّأْمَةَ]، وَاغْتَسَلَ، وَاسْتَجْمَرَ.

زَادَ دُحَيْمٌ فِي حَدِيثِهِ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَتَبَدَّا لِي جِبْرِيلُ** عليه السلام، فَقَالَ: «**عَذِيرَكَ مِنْ مُحَارِبٍ** (أي: من يعذرك كمحارب إذا وضعت السلاح)، **أَلَا أَرَاكَ قَدْ وَضَعْتَ اللأْمَةَ وَمَا وَضَعْنَاهَا بَعْدُ**»، فَوَثَبَ رَسُولُ الله ﷺ فَزِعًا، فَعَزَمَ عَلَى النَّاسِ أَلَّا يُصَلُّوا العَصْرَ إِلَّا فِي بني قُرَيْظَةَ، فَلَبِسَ [النَّاسُ] السِّلاحَ، وَخَرَجُوا، فَلَمْ يَأْتُوا بني قُرَيْظَةَ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، فَاخْتَصَمَ النَّاسُ فِي غَزْوَتِهَا فِي صَلاةِ العَصْرِ [عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ]، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ عَزَمَ عَلَيْنَا أَنْ لا نُصَلِّيَ العَصْرَ حَتَّى نَأْتِيَ بني قُرَيْظَةَ، وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي عَزْمَةٍ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِثْمٌ، فَصَلَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمُ العَصْرَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَطَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ تُصَلِّ حَتَّى أَتَوْا بني قُرَيْظَةَ بَعْدَمَا غَابَتِ الشَّمْسُ، فَصَلَّوْهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، فَلَمْ يُعَنِّفْ رَسُولُ الله ﷺ وَاحِدَةً مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ».

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٤ في المغازي والسير (١٠١٦٤)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٩/ ٧٩-٨٠ رقم ١٦٠] ورجاله رجال الصحيح غير ابن أبي الهذيل وهو ثقة، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٧-٨].

وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ عِنْدَهَا، فَسَلَّمَ عَلَيْنَا رَجُلٌ وَنَحْنُ فِي البَيْتِ، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَزِعًا، فَقُمْتُ فِي أَثَرِهِ، فَإِذَا بِدِحْيَةَ الكَلْبِيِّ، فَقَالَ: «**هَذَا جِبْرِيلُ يَأْمُرُنِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى**

بَنِي قُرَيْظَةَ»، فَقَالَ: «قَدْ وَضَعْتُمُ السِّلاحَ، لَكِنَّا لَمْ نَضَعْ طَلَبْنَا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى بَلَغْنَا حَمْرَاءَ الأَسَدِ»، وَذَلِكَ حِينَ رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ.

فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فزِعًا فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُصَلُّوا صَلَاةَ الْعَصْرِ حَتَّى تَأْتُوا بَنِي قُرَيْظَةَ»، فَغَرَبَتِ الشَّمْسُ قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُمْ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُرِدْ أَنْ تَدَعُوا الصَّلَاةَ فَصَلَّوْا؛ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: وَالله إِنَّا لَفِي عَزِيمَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا عَلَيْنَا مِنْ إِثْمٍ، فَصَلَّتْ طَائِفَةٌ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَتَرَكَتْ طَائِفَةٌ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَلَمْ يَعِبِ النَّبِيُّ ﷺ وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ.

[دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٨-٩، ومصنف عبد الرزاق ٥/ ٣٦٨-٣٧٠ في المغازي (٩٧٣٧) «من مرسل سعيد ابن المسيب، وهو أصح المراسيل، والرواية صالحة للاحتجاج» صحيح السيرة للعلي ٢٨٢].

وقَالَ عُرْوَةُ: فَبَيْنَمَا رَسُولُ الله ﷺ يُرَجِّلُ رَأْسَهُ، قَدْ رَجَّلَ أَحَدَ جَانِبَيْهِ، أَتَاهُ أَمْرُ الله ﷻ، فَأَقْبَلَ جِبْرِيلُ ؈ عَلَى فَرَسٍ عَلَيْهِ لَأْمَتُهُ، فَذَكَرَ هَذِهِ الْقِصَّةَ بِمَعْنَى مَا ذَكَرَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ، إِلَّا أَنَّهُ زَادَ عَنْهُ قَوْلَهُ: فَاخْرُجْ بِالنَّاسِ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٤].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا كَانَتْ الظُّهْرُ أَتَى جِبْرِيلُ ؈ رَسُولَ الله ﷺ كَمَا حَدَّثَنِي الزُّهْرِيُّ، مُعْتَجِرًا (**الاعتجار**: أن يتعمم الرجال دون تلح، أي: لا يلقى شيئًا تحت اللحية) بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ (ضرب من الديباج غليظ) عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا رِحَالَةٌ (سرج) عَلَيْهَا قَطِيفَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ فَقَالَ: «**أَوَقَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ يَا رَسُولَ الله؟**»، قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقَالَ جِبْرِيلُ: «**فَمَا وَضَعَتْ الْمَلَائِكَةُ السِّلَاحَ بَعْدُ، وَمَا رَجَعْتُ الْآنَ إِلَّا مِنْ طَلَبِ الْقَوْمِ، إِنَّ اللهَ ﷻ يَأْمُرُكَ يَا مُحَمَّدُ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنِّي عَامِدٌ إِلَيْهِمْ فَمُزَلْزِلٌ بِهِمْ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٣].

وقَالَ الْوَاقِدِيُّ: قَالُوا: فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْخَنْدَقِ دَخَلَ بَيْتَ عَائِشَةَ ﵂، فَغَسَلَ رَأْسَهُ وَاغْتَسَلَ، وَدَعَا بِالْمِجْمَرَةِ لِيُجْمِرَ، وَقَدْ صَلَّى الظُّهْرَ، وَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ؈ عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا رِحَالَةٌ، وَعَلَيْهَا قَطِيفَةٌ، عَلَى ثَنَايَاهُ النَّقْعُ فَوَقَفَ عِنْدَ مَوْضِعِ الْجَنَائِزِ فَنَادَى: «**عَذِيرَكَ مِنْ مُحَارِبٍ**»، قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ فَزِعًا، فَقَالَ: «**أَلا أَرَاكَ وَضَعْتَ اللأْمَةَ وَلَمْ تَضَعْهَا الْمَلَائِكَةُ بَعْدُ؟ لَقَدْ طَرَدْنَاهُمْ إِلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ، إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَسِيرَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنِّي عَامِدٌ إِلَيْهِمْ فَمُزَلْزِلٌ بِهِمْ حُصُونَهُمْ**».

وَيُقَالُ: جَاءَهُ عَلَى فَرَسٍ أَبْلَقَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٧].

وفي رواية ابن سعد: فَوَضَعَ رَسُولُ الله ﷺ، وَأَصْحَابُهُ السِّلَاحَ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ ؈، إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ مُتَسَانِدٌ إِلَى لِبَانِ الْفَرَسِ، قَالَ: يَقُولُ جِبْرِيلُ ؈: «**مَا وَضَعْنَا السِّلَاحَ بَعْدُ** - وإن الغبار لعاصب على حاجبه - **انْهَدْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ**»، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ فِي أَصْحَابِي جَهْدًا فَلَوْ أَنْظَرْتَهُمْ أَيَّامًا**» قال: يَقُولُ جِبْرِيلُ ؈: «**انْهَدْ إِلَيْهِمْ، لأُدْخِلَنَّ فَرَسِي هَذَا عَلَيْهِمْ**

فِي حُصُونِهِمْ ثُمَّ لأُضَعْضِعَنَّهَا»؛ قَالَ: فَأَدْبَرَ جِبْرِيلُ عليه السلام، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ المَلائِكَةِ حَتَّى سَطَعَ الغُبَارُ فِي زُقَاقِ بَنِي غَنْمٍ مِنَ الأَنْصَارِ، وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ». [الطبقات الكبرى لابن سعد ٢/ ٧٣].

وعَنْ قَتَادَةَ، قَوْلَهُ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأحزاب] وَهُمْ بَنُو قُرَيْظَةَ، ظَاهَرُوا أَبَا سُفْيَانَ وَرَاسَلُوهُ، فَنَكَثُوا الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ نَبِيِّ الله، قَالَ: فَبَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رضي الله عنها يَغْسِلُ رَأْسَهُ، وَقَدْ غُسِلَتْ شِقُّهُ، إِذْ أَتَاهُ جِبْرَائِيلُ عليه السلام، فَقَالَ: **عَفَا اللهُ عَنْكَ، مَا وَضَعَتِ المَلَائِكَةُ سِلَاحَهَا مُنْذُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَانْهَضْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنِّي قَدْ قَطَعْتُ أَوْتَارَهُمْ، وَفَتَحْتُ أَبْوَابَهُمْ، وَتَرَكْتُهُمْ فِي زِلْزَالٍ وَبِلْبَالٍ** (شدة الهم والوسواس)... [تفسير الطبري ط هجر ١٩/ ٧٢].

مرسوم الزحف على اليهود:

وأمام هذا الأمر العاجل بالزحف على حصون بني قريظة لم يسع النبي ﷺ إلا أن يسارع بتنفيذ أمر ربه عز وجل الذي تلقاه من جبريل عليه السلام.

فقد أصدر القائد الأعلى النبي ﷺ أوامره الحازمة العاجلة إلى جند الإسلام بالتحرك (فورًا) نحو منازل يهود بني قريظة لتصفية الحساب معهم.

فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ مُؤَذِّنًا، فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ: «**مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا، فَلَا يُصَلِّيَنَّ العَصْرَ إِلَّا بِبَنِي قُرَيْظَةَ**».[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٤].

وَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ بِلالًا فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ: **إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَلَّا تُصَلُّوا العَصْرَ إِلَّا بِبَنِي قُرَيْظَةَ**. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٧].

يقول الشيخ الغزالي: «والأذان للقتال في هذه الضحوة المشرقة بالظفر والنجاة قرع مسامع المسلمين نديًّا جليًّا، فهم في غمرة من الشعور بتأييد الله وملائكته لهم، أين هم اليوم مما كانوا عليه بالأمس القريب؟ إنهم مدينون بحياتهم وكرامتهم للعناية العليا وحدها». [فقه السيرة للغزالي ٣٢١].

وكان صدور الأمر النبوي بالتحرك نحو منازل بني قريظة بعد دخول وقت الظهر في اليوم التالي لمعركة الأحزاب.

وقد أطاع المسلمون أوامر قائدهم الأعلى ﷺ فابتدروا سلاحهم وأخذت كتائب الإسلام تتدفق في اتجاه معاقل اليهود.

وسارع الرسول ﷺ إلى سلاحه فتدجج به، فلبس الدرع والمغفر والبيضة وأخذ الرمح في يده، ثم امتطى صهوة جواده المسمى بـ (اللحيف).

حامل لواء المسلمين:

من حديث عروة قال: «فَبَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عَلَى الْمُقَدِّمَةِ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ اللِّوَاءَ، وَأَمَرَ أَنْ يَنْطَلِقَ حَتَّى يَقِفَ بِهِمْ إِلَى حِصْنِ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَفَعَلَ، وَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى آثَارِهِمْ».

[دلائل النبوة للبيهقي٤/ ١٤، ونسبه الحافظ في الفتح ٧/ ٤١٣ إلى الحاكم والبيهقي، وقال د/ العمري: وقد وردت آثار مرسلة تتقوى ببعضها إلى رتبة الحسن لغيره تفيد أنه ﷺ بعث عليًّا ﷺ على المقدمة برايته. السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٣١٤، صحيح السيرة للعلي ٢٨٣].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيًّا ﷺ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ لِوَاءً، وَكَانَ اللِّوَاءُ عَلَى حَالِهِ لَمْ يُحَلَّ مِنْ مَرْجِعِهِ مِنَ الخَنْدَقِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٧].

لقد أصدر النبي ﷺ أمره إلى علي بن أبي طالب ﷺ بأن يكون في مقدمة الجيش، ويسبق باللواء إلى ديار بني قريظة حتى يصل إليه قبل وصول عامة الجيش.

فسارع علي ﷺ في مفرزة من جند الإسلام حتى إذا ما وصل بين حصون اليهود، غرز اللواء هناك، فعلمت قريظة أنها الحرب ولا شيء سواها.

أمير على المدينة:

ولما كانت منازل بني قريظة الواقعة جنوب شرقي المدينة، تبعد عن المدينة عدة أميال، فقد أصدر النبي ﷺ مرسومًا عين بموجبه أميرًا على المدينة حتى يفرغ من أمر بني قريظة، «وَاسْتَعْمَلَ عَلَى المَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ﷺ فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ». **[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٤، المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٦].**

تاريخ الغزوة:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: سَارَ إِلَيْهِمْ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الأَرْبعَاءِ لِسَبْعٍ بَقِينَ مِنْ ذِي القَعْدَةِ، فَحَاصَرَهُمْ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، ثُمَّ انْصَرَفَ يَوْمَ الخَمِيسِ لِسَبْعٍ خَلَوْنَ مِنْ ذِي الحَجَّةِ سَنَةَ خَمْسٍ. **[المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٦].**

الأمر بصلاة العصر في بني قريظة:

لقد كان الرسول ﷺ حريصًا على أن يخرج المسلمون إلى بني قريظة بأقصى سرعة، ليباغتوهم ويبادؤوهم قبل أن يستكملوا عدتهم، ويقووا حصونهم، ويستجمعوا أشتات فكرهم.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَأَدْرَكَ بَعْضُهُمْ العَصْرَ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَل نُصَلِّي لَمْ يُرِدْ مِنَّا ذَلِكَ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ وَاحِدًا مِنْهُمْ. **[البخاري في الجمعة (٩٤٦)، وفي المغازي (٤١١٩)].**

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: نَادَى فِينَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ انْصَرَفَ عَنْ الأَحْزَابِ: «**أَلَّا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الظُّهْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَتَخَوَّفَ نَاسٌ فَوْتَ الوَقْتِ فَصَلَّوْا دُونَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَالَ آخَرُونَ: لَا نُصَلِّي إِلَّا حَيْثُ أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ، وَإِنْ فَاتَنَا الوَقْتُ.

قَالَ: فَمَا عَنَّفَ وَاحِدًا مِنْ الفَرِيقَيْنِ. [مسلم في الجهاد والسير (١٧٧٠)].

وفي رواية البيهقي: فَقَالَ ﷺ: «**الْحَقُونِي بِبَنِي قُرَيْظَةَ، فَصَلُّوا فِيهِمُ العَصْرَ**»، فَقَامَ وَمَنْ شَاءَ اللهُ ﷻ مِنْهُمْ، فَانْطَلَقُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَحَانَتِ العَصْرُ، وَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، فَذَكَرُوا الصَّلَاةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَمَرَكُمْ أَنْ تُصَلُّوا العَصْرَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ الصَّلَاةُ، فَصَلَّى مِنْهُمْ قَوْمٌ، وَأَخَّرَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمُ الصَّلَاةَ، حَتَّى صَلَّوْهَا بِبَنِي قُرَيْظَةَ، بَعْدَ أَنْ غَابَتِ الشَّمْسُ، فَذَكَرُوا لِرَسُولِ الله ﷺ مَنْ عَجَّلَ مِنْهُمُ الصَّلَاةَ، وَمَنْ أَخَّرَهَا، فَذَكَرُوا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمْ يُعَنِّفْ أَحَدًا مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٢-١٣].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَتَلَاحَقَ بِهِ النَّاسُ، فَأَتَى رِجَالٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ العِشَاءِ الآخِرَةِ، وَلَمْ يُصَلُّوا العَصْرَ لِقَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا بِبَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَشَغَلَهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ فِي حَرْبِهِمْ وَأَبَوْا أَنْ يُصَلُّوا لِقَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ «**حَتَّى تَأْتُوا بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَصَلُّوْا العَصْرَ بِهَا، بَعْدَ العِشَاءِ الآخِرَةِ، فَمَا عَابَهُمْ اللهُ ﷻ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ، وَلَا عَنَّفَهُمْ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٥].

الجيش الإسلامي:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَلَبِسَ رَسُولُ الله ﷺ السِّلاحَ وَالمِغفَرَ وَالدِّرْعَ وَالبَيْضَةَ، وَأَخَذَ قَنَاةً بِيَدِهِ وَتَقَلَّدَ التُّرْسَ وَرَكِبَ فَرَسَهُ، وَحَفَّ بِهِ أَصْحَابُهُ وَتَلَبَّسُوا السِّلاحَ وَرَكِبُوا الخَيْلَ، وَكَانَتْ سِتَّةً وَثَلاثِينَ فَرَسًا، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ قَادَ فَرَسَيْنِ وَرَكِبَ وَاحِدًا، يُقَالُ لَهُ: اللُّحَيْفُ فَكَانَتْ ثَلاثَةُ أَفْرَاسٍ مَعَهُ، وَعَلِيٌّ رضي الله عنه فَارِسٌ، وَمَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ رضي الله عنه.

وَفِي بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه فَارِسٌ، وَأَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَعُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَارِسٌ، وَسَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ رضي الله عنهم.

وَمِنْ بَنِي زُهْرَةَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنهما.

وَمِنْ بَنِي تَيْمٍ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله رضي الله عنهما.

وَمِنْ بَنِي عَدِيٍّ: عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه.

وَمِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ: عَبْدُ الله بْنُ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه.

وَمِنْ بَنِي فِهْرٍ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ رضي الله عنه.

وَمِنَ الأَوْسِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، وَأَبُو نَائِلَةَ، وَسَعْدُ بْنُ زَيْدٍ رضي الله عنهم.

وَمِنْ بَنِي ظَفَرٍ: قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ رضي الله عنه.

وَمِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ: عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ، وَمَعْنُ بْنُ عَدِيٍّ، وَثَابِتُ بْنُ أَقْرَمَ، وَعَبْدُ الله بْنُ سَلَمَةَ رضي الله عنهم.

وَمِنْ بَنِي سَلِمَةَ: الحُبَابُ بْنُ الـمُنْذِرِ بْنِ الجَمُوحِ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَقُطْبَةُ بْنُ عَامِرِ بْنِ حَدِيدَةَ رضي الله عنهم.

وَمِنْ بَنِي مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ: عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ﷺ.

وَفِي بَنِي زُرَيْقٍ: رُقَادُ بْنُ لَبِيدٍ، وَفَرْوَةُ بْنُ عَمْرٍو، وَأَبُو عَيَّاشٍ، وَمُعَاذُ بْنُ رِفَاعَةَ ﷺ.

وَمِنْ بَنِي سَاعِدَةَ: سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٧-٤٩٨].

مشاركة جبريل عليه السلام في محاربة بني قريظة:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الغُبَارِ سَاطِعًا فِي زُقَاقِ [سِكَّةِ] بَنِي غَنْمٍ، مَوْكِبَ جِبْرِيلَ عليه السلام حِينَ سَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

[البخاري في المغازي (٤١١٨)، وفي بدء الخلق (٣٢١٤)، وأحمد ٢٠/ ٤٤٤ رقم ١٣٢٢٩].

قَالَ البَيْهَقِيُّ: «فَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ وَأَذِنَ بِالخُرُوجِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا السِّلَاحَ؛ فَفَزِعَ النَّاسُ لِلحَرْبِ، فَبَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عَلَى المُقَدِّمَةِ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ اللِّوَاءَ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْطَلِقَ حَتَّى يَقِفَ بِهِمْ إِلَى حِصْنِ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَفَعَلَ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى آثَارِهِمْ، فَمَرَّ عَلَى مَجْلِسٍ مِنَ الأَنْصَارِ فِي بَنِي غَنْمٍ يَنْتَظِرُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَزَعَمُوا أَنَّهُ قَالَ: **«مَرَّ بِكُمُ الفَارِسُ آنِفًا»** قَالُوا: مَرَّ بِنَا دِحْيَةُ الكَلبِيُّ عَلَى فَرَسٍ، تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ حَمْرَاءُ عَلَيْهِ لَأْمَةٌ، فَزَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«ذَاكَ جِبْرِيلُ عليه السلام»**، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُشَبِّهُ دِحْيَةَ الكَلْبِيَّ بِجِبْرِيلَ عليه السلام، ثُمَّ ذَكَرَ بَاقِيَ القِصَّةِ بِنَحْوِهِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقُل: بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٤].

وفِي مَغَازِي يُونُسَ بْنِ بُكَيْرٍ ، عَنْ عَنْبَسَةَ بْنِ الأَزْهَرِ ، عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ ، عَنْ عِكْرِمَةَ ، وَفِي رُؤْيَةِ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ مَرَّ بِهِمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«هَل مَرَّ عَلَيْكُمْ أَحَدٌ؟»** فَقَالُوا: نَعَمْ، مَرَّ عَلَيْنَا دِحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ الكَلبِيُّ عَلَى بَغْلَةٍ بَيْضَاءَ عَلَيْهَا رِحَالُهُ عَلَيْهَا قَطِيفَةُ دِيبَاجٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«ذَاكَ جِبْرِيلُ؛ بَعَثَهُ اللهُ ﷻ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ يُزَلزِلُ بِهِمْ حُصُونَهُمْ، وَيَقْذِفُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ»**.

وفِي مَغَازِي يُونُسَ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنَا الزُّهْرِيُّ، أَخْبَرَنَا بِهِمَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَافِظُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاسِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الجَبَّارِ قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ فَذَكَرَهُمَا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ قَدَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ مَعَهُ رَايَتُهُ، وابْتَدَرَهَا النَّاسُ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١١].

وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَمَرَّ بِمَجَالِسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَقَالَ: **«هَلْ مَرَّ بِكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟»** قَالُوا: مَرَّ عَلَيْنَا دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ عَلَى بَغْلَةٍ شَهْبَاءَ، تَحْتَهُ قَطِيفَةُ دِيبَاجٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَيْسَ ذَلِكَ بِدِحْيَةَ، وَلَكِنَّهُ جِبْرِيلُ عليه السلام أُرْسِلَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ لِيُزَلزِلَـهُمْ، وَيَقْذِفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ»**. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٩].

وعَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ قَالَ: فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَا يَزْعُمُونَ فِي المُغْتَسَلِ يُرَجِّلُ رَأْسَهُ، قَدْ رَجَّلَ أَحَدَ شِقَّيْهِ، أَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام عَلَى فَرَسٍ عَلَيْهِ لَأْمَتُهُ، حَتَّى وَقَفَ بِبَابِ المَسْجِدِ عِنْدَ مَوْضِعِ الجَنَائِزِ،

فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام: «**غَفَرَ اللهُ لَكَ، أَقَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ؟**»، قَالَ: «**نَعَمْ**»، قَالَ جِبْرِيلُ: «**لَكِنْ نَحْنُ لَمْ نَضَعْهُ مُنْذُ نَزَلَ بِكَ العَدُوُّ، وَمَا زِلْتَ فِي طَلَبِهِمْ، فَقَدْ هَزَمَهُمُ اللهُ**».

وَيَقُولُونَ: إِنَّ عَلَى وَجْهِ جِبْرِيلَ عليه السلام لَأَثَرَ الغُبَارِ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَمَرَكَ بِقِتَالِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَأَنَا عَامِدٌ لَهُمْ بِمَنْ مَعِيَ مِنَ المَلَائِكَةِ ـ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ ـ لِأُزَلْزِلَ بِهِمُ الحُصُونَ، فَاخْرُجْ بِالنَّاسِ**»، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَثَرِ جِبْرِيلَ عليه السلام، فَمَرَّ عَلَى مَجْلِسِ بَنِي غَنْمٍ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُمْ: «**مَرَّ عَلَيْكُمْ فَارِسٌ آنِفًا؟**» فَقَالُوا: مَرَّ عَلَيْنَا دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ، عَلَى فَرَسٍ أَبْيَضَ، تَحْتَهُ نَمَطٌ أَوْ قَطِيفَةٌ مِنْ دِيبَاجٍ، عَلَيْهِ اللَّأْمَةُ، فَذَكَرُوا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**ذَاكَ جِبْرِيلُ**»، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُشَبِّهُ دِحْيَةَ الكَلْبِيَّ بِجِبْرِيلَ عليه السلام. [**دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١١-١٢**].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: «وَمَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِنَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ بِالصَّوْرَيْنِ (موضع قرب المدينة) قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَقَالَ: «**هَلْ مَرَّ بِكُمْ أَحَدٌ؟**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ مَرَّ بِنَا دِحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ الكَلْبِيُّ، عَلَى بَغْلَةٍ بَيْضَاءَ عَلَيْهَا رِحَالَةٌ عَلَيْهَا قَطِيفَةُ دِيبَاجٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَلِكَ جِبْرِيلُ بُعِثَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ يُزَلْزِلُ بِهِمْ حُصُونَهُمْ، وَيَقْذِفُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ أَيُّوبَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ قَالَ: فَسَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ وَالخَيْلُ وَالرَّجَّالَةُ حَوْلَهُ، فَمَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِنَفَرٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ بِالصُّورَيْنِ فِيهِمْ حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، قَدْ صَفُّوا عَلَيْهِمُ السِّلَاحَ، فَقَالَ: «**هَلْ مَرَّ بِكُمْ أَحَدٌ؟**» قَالُوا: نَعَمْ دِحْيَةُ الكَلْبِيُّ مَرَّ عَلَى بَغْلَةٍ عَلَيْهَا رِحَالَةٌ عَلَيْهَا قَطِيفَةٌ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، فَأَمَرَنَا بِلُبْسِ السِّلَاحِ، فَأَخَذْنَا سِلَاحَنَا وَصَفَفْنَا، وَقَالَ لَنَا: **هَذَا رَسُولُ اللهِ يَطَّلِعُ عَلَيْكُمُ الآنَ**.

قَالَ حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ: فَكُنَّا صَفَّيْنِ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَلِكَ جِبْرِيلُ**»، فَكَانَ حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ يَقُولُ: رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عليه السلام مِنَ الدَّهْرِ مَرَّتَيْنِ ـ يَوْمَ الصُّورَيْنِ، وَيَوْمَ مَوْضِعِ الجَنَائِزِ حِينَ رَجَعْنَا مِنْ حُنَيْنٍ.

وَانْتَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَنَزَلَ عَلَى بِئْرٍ لَنَا أَسْفَلَ حَرَّةِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ عَلِيٌّ رضي الله عنه قَدْ سَبَقَ فِي نَفَرٍ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ رضي الله عنه. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٨-٤٩٩**].

تواضع النبي ﷺ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُ المَرِيضَ، وَيَشْهَدُ الجَنَازَةَ، وَيَرْكَبُ الحِمَارَ، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ العَبْدِ، **وَكَانَ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِنْ لِيفٍ، عَلَيْهِ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ**».

[الترمذي في الجنائز (١٠١٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٨)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف. الإكاف: البرذعة].

وَعَنْ أَبِي رَافِعٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَدَا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى حِمَارٍ عُرْيٍ يُقَالُ لَهُ: يَعْفُورُ.

[**مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٥ في المغازي والسير (١٠١٦٦)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط [٩/ ٥٦ رقم ٩١١٦] ورجاله ثقات**].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ خَرَجَ إِلَى بني قُرَيْظَةَ عَلَى حِمَارٍ، وَمَعَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام عَلَى بَغْلَةٍ بَيْضَاءَ، تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، حَمَّلَهَا اللِّوَاءُ، فَسَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: «**يَا مُحَمَّدُ، أَمَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لا أَنْزِلُ عَنْهَا حَتَّى تُفْتَحَ لَكَ، وَلأَرُضَّهَا كَمَا تُرَضُّ البَيْضَةُ عَلَى الصَّفْوَانِ**».

قَالَ رضي الله عنهما: فَلَمْ يَرْجِعْ حَتَّى فُتِحَ لَهُ. [**مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٥ في المغازي والسير (١٠١٦٧)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١١/ ٦٦ رقم ١١٠٦٢] عن شيخه المقدام بن داود وهو ضعيف**].

رؤيا امرأة نَبَّاش بن قيس:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَكَانَتْ امْرَأَةُ نَبَّاشِ بْنِ قَيْسٍ قَدْ رَأَتْ وَالـمُسْلِمُونَ فِي حِصَارِ الخَنْدَقِ، قَالَتْ: أَرَى الخَنْدَقَ لَيْسَ بِهِ أَحَدٌ، وَأَرَى النَّاسَ تَحَوَّلُوا إِلَيْنَا وَنَحْنُ فِي حُصُونِنَا قَدْ ذُبِحْنَا ذَبْحَ الغَنَمِ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِزَوْجِهَا، فَخَرَجَ زَوْجُهَا فَذَكَرَهَا لِلزَّبِيرِ بْنِ بَاطَا، فَقَالَ الزَّبِيرُ: مَا لَهَا لا نَامَتْ عَيْنُهَا، تُوَلَّى قُرَيْشٌ وَيَحْصُرُنَا مُحَمَّدٌ وَالتَّوْرَاةِ، وَلَـمَا بَعْدَ الحِصَارِ أَشَدُّ مِنْهُ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٧**].

المبحث الثاني
أحداث غزوة بني قريظة

نَيْلُ اليهود من الذات النبوية الكريمة:

يقول د/ هيكل: «ومع ما كان عليه المسلمون من نَصَب بعد طول حصار قريش وغطفان إياهم، فقد خفوا لهذا القتال الذي لم يكن لديهم أي شك في نتيجته، صحيح أن بني قريظة يقيمون في حصون محصنة كالتي كانت لبني النضير، لكن هذه الحصون إن أغنتهم في الدفاع عن أنفسهم فلن تغنيهم في مهاجمة المسلمين، والميرة قد أصبحت في متناول أيدي أهل المدينة بعد جلاء الأحزاب عنها؛ لذلك خف المسلمون فرحين وراء علي ﷺ، حتى أتوا بني قريظة، فإذا بهم ومعهم حيي بن أخطب النضيري يقعون في محمد ﷺ بأقبح مقالة، يكذِّبونه ويطعنون عليه وينالون من أعراض نسائه، وكأنما شعروا بعد انخذال الأحزاب عن المدينة بما هُيئ لهم». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤٧].

وعندما نظر يهود بني قريظة إلى طلائع الجيش النبوي تتقدم نحو معاقلهم بقيادة علي بن أبي طالب ﷺ، فاضت نفوسهم الشريرة ببعض ما تختزنه من خبث ودناءة ووضاعة.

فقد أسمعوا ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ في نبي الله ﷺ ونسائه الطيبات الطاهرات من السبِّ والشتم والقذف ما لم يسمح أحد من المؤرخين لنفسه بأن يورد نصه لفظاعته وبشاعته.

ومع هذا فلم يرد المسلمون على هؤلاء اليهود السفهاء، بل التزموا الصمت، وكان الجواب الذي سمعه اليهود على شتمهم للنبي ﷺ ونسائه الطيبات، وكان ردهم: **السَّيْفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**.

ولم يرد المسلمون على الشتم بمثله؛ لأنهم يسيرون في معاملتهم للناس (أيًّا كانوا) حسب توجيه القرآن وتأديبه، وليس من آداب القرآن أن يقابل المسلم فاحش القول بمثله.

غير أن علي بن أبي طالب ﷺ ـ وهو أول من سبق باللواء إلى بني قريظة ـ أشفق على الرسول ﷺ من أن يسمع في نفسه وفي نسائه ذلك السب القبيح.

قَالَ البيهقي: وَلَـمَّا رَأَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ رَسُولَ الله ﷺ مُقْبِلًا تَلَقَّاهُ وَقَالَ: «**ارْجِعْ يَا رَسُولَ الله، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ الْيَهُودَ**»، وَكَانَ عَلِيٌّ ﷺ سَمِعَ مِنْهُمْ قَوْلًا سَيِّئًا لِرَسُولِ الله ﷺ وَأَزْوَاجِهِ، فَكَرِهَ عَلِيٌّ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**لِمَ تَأْمُرُنِي بِالرُّجُوعِ؟**» فَكَتَمَهُ مَا سَمِعَ مِنْهُمْ، فَقَالَ: «**أَظُنُّكَ سَمِعْتَ لِي مِنْهُمْ أَذًى، فَامْضِ فَإِنَّ أَعْدَاءَ الله لَوْ قَدْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا مِمَّا سَمِعْتَ**».

[دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٣].

وقَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَقَدَّمَ رَسُولُ الله ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ بِرَايَتِهِ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَابْتَدَرَهَا النَّاسُ، فَسَارَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، حَتَّى إذَا دَنَا مِنَ الْحُصُونِ سَمِعَ مِنْهَا مَقَالَةً قَبِيحَةً لِرَسُولِ الله ﷺ،

فَرَجَعَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ الله ﷺ بِالطَّرِيقِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، لَا عَلَيْك أَنْ لَا تَدْنُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ الأَخَابِثِ، قَالَ: «**لِمَ؟ أَظُنُّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ لِي أَذًى؟**»، قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**لَوْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ:... عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﵁ قَالَ: انْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ فَلَـمَّا رَأَوْنَا أَيْقَنُوا بِالشَّرِّ، وَغَرَزَ عَلِيٌّ ﵁ الرَّايَةَ عِنْدَ أَصْلِ الحِصْنِ، فَاسْتَقْبَلُونَا فِي صَيَاصِيهِمْ يَشْتُمُونَ رَسُولَ الله ﷺ وَأَزْوَاجَهُ.

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: وَسَكَتْنَا، وَقُلْنَا: **السَّيْفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٩].

تبرؤ أسيد بن حضير ﵁ من عهد اليهود:

قَالَ الوَاقِدِيُّ:... عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﵁ قَالَ: وَطَلَعَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَـمَّا رَآهُ عَلِيٌّ ﵁ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَأَمَرَنِي أَنْ أَلْزَمَ اللِّوَاءَ فَلَزِمْتُهُ، وَكَرِهَ أَنْ يَسْمَعَ رَسُولُ الله ﷺ أَذَاهُمْ وَشَتْمَهُمْ، فَسَارَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ، وَتَقَدَّمَهُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﵁ فَقَالَ: **يَا أَعْدَاءَ الله لا نَبْرَحُ حِصْنَكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا جُوعًا، إِنَّمَا أَنْتُمْ بِمَنْزِلَةِ ثَعْلَبٍ فِي جُحْرٍ**.

قَالُوا: **يَا ابْنَ الحُضَيْرِ، نَحْنُ مَوَالِيكُمْ دُونَ الخَزْرَجِ**، وَخَارُوا.

وَقَالَ: **لا عَهْدَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَلا إِلَّ**. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٩].

النبي القائد ﷺ في ديار قريظة وحديثه معهم:

واصل الرسول القائد ﷺ تقدمه نحو حصون اليهود تحيط به هيئة أركان حربه من صفوة أصحابه، حتى دنا من حصون قريظة الغادرة.

فَلَـمَّا نَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ بِحِصْنِهِمْ، وَكَانُوا فِي أَعْلَاهُ، نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ نَفَرًا مِنْ أَشْرَافِهَا، حَتَّى أَسْمَعَهُمْ فَقَالَ: «**أَجِيبُونَا يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، يَا إِخْوَةَ القِرَدَةِ، قَدْ نَزَلَ بِكُمْ خِزْيُ الله**».

[دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٣].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَـمَّا أَتَى رَسُولُ الله ﷺ بَنِي قُرَيْظَةَ نَزَلَ عَلَى بِئْرٍ مِنْ آبَارِهَا مِنْ نَاحِيَةِ أَمْوَالِهِمْ يُقَالُ لَهَا بِئْرُ: أَنَا. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: بِئْرُ آنَا (من آبار بني قريظة).

فَلَـمَّا دَنَا رَسُولُ الله ﷺ مِنْ حُصُونِهِمْ قَالَ ﷺ: «**يَا إِخْوَانَ القِرَدَةِ، هَلْ أَخْزَاكُمْ اللهُ وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ؟**»، قَالُوا: **يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالَ أَبُو قَتَادَةَ:... وَدَنَا رَسُولُ الله ﷺ مِنْهُمْ وَتَرَّسْنَا عَنْهُ فَقَالَ: «**يَا إِخْوَةَ القِرَدَةِ وَالـخَنَازِيرِ وَعَبَدَةَ الطَّوَاغِيتِ أَتَشْتُمُونَنِي؟**» قَالَ: فَجَعَلُوا يَحْلِفُونَ بِالتَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى: مَا فَعَلْنَا، وَيَقُولُونَ: **يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا**. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٩-٥٠٠].

يقول أ/ باشميل: «لقد أدركتْ اليهود طبيعتهم: سفاهة واعتداء وغدرًا وتطاولًا إذا قدروا، واستكانة وتلطفًا ووداعة إذا عجزوا، فعندما رأوا الرسول القائد ﷺ تحيطه هيئة أركان حربه وقد

اتخذت كتائبه مواقعها حول الحصون، تأكد لديهم تصميم المسلمين على الإيقاع بهم ومحاسبتهم على ما ارتكبوا من فظيع الغدر وشنيع الخيانة، فأسقط في أيديهم فصاروا يتوددون إلى الرسول القائد ﷺ.

فقد أنكروا، أن يكونوا شتموه ونساءه، وانطلقوا يحلفون كذبًا أنهم ما فاهوا بشيء مما بلغه بهذا الشأن، ثم اندفعوا ـ في ليونة الأفاعي ـ يُسمعون رسول الله ﷺ من لين القول وطيب الكلام وجميل الإطراء، ما ظنوا، أنه سيساهم في تخفيف عقوبة خيانتهم العظمى التي صممت قيادة المدينة على إنزالها بهم.

فقد قال هؤلاء اليهود لرسول الله ﷺ: **يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا**، وغير ذلك من الكلام المغلف بالطيبة والوداعة.

طبيعة اليهود التي لا تتغير:

وهذه هي جبلة اليهود وخلتهم المتغلغلة في نفوسهم أبد الدهر، لا يتورعون عن ارتكاب أية جريمة ـ مهما كانت بشاعتها ـ إذا ما قدروا.

ولا يخجلون من أن يقفوا موقف الحليم الواعظ الوديع البريء، يذكِّرون بالحلم والصفح إذا ما أحاطت بهم خطيئتهم وأدركهم الوهن، وكان التذكير والوعظ في صالحهم، أما إذا لم يكن في ذلك فائدة لهم، فإنهم أول من يسخر بالمُثل ويهزأ بالقيم.

فها هم ـ وقبل أن يصل إليهم القائد الأعلى النبي ﷺ بدقائق معدودات ـ يشتمون ويسبون ويهددون ويتوعدون، ظانين أنهم مانعتهم حصونهم ولكنهم ـ وبعد دقائق معدودات مما فاهوا به من فاحش القول ـ إذا بهم يرون القائد الأعلى النبي ﷺ ـ الذي سلكوا كل درب من دروب الغدر والخيانة والنكث للقضاء عليه وعلى أمته ـ قد أحاطتهم كتائبه المظفرة من كل جانب، فلجأوا إلى المكر والخديعة، واندفعوا يذكِّرون القائد المنتصر عليهم بما يمتاز به من حلم وعلم في عبارات كلها مدح وإطراء وتودد طمعًا في التأثير عليه ليعفو عنهم.

ولكن هؤلاء اليهود وقفوا ساعتئذ موقف الواعظ الوديع المستكين البريء، نسوا ـ أو قل تناسوا ـ أنهم قد ضربوا بكل القيم الإنسانية والمثل الأخلاقية عرض الحائط، وداسوا العهود والمواثيق بأرجلهم في خسة ونذالة عندما رأوا جيوش الأحزاب الجرارة تحيط بالقلة المسلمة إحاطة البحر الهائج بالجزيرة الصغيرة من كل جانب، فأعلنوا الترحيب بهذه الجيوش الغازية الباغية وأعلنوا الانضمام إليها ضد المسلمين الذين تربطهم بهم رابطة حلف عسكري متين، هي معاهدة الدفاع المشترك.

نعم تناسى هؤلاء اليهود أنهم عندما جاءهم الوفد النبوي في تلك الساعات الحاسمة يطلب منهم القيام بالتزاماتهم العسكرية مع المسلمين ضد الغزاة، كما تُلزمهم بذلك نصوص معاهدة الدفاع المشترك بينهم وبين المسلمين، تناسوا أنهم لم يكتفوا في تلك اللحظات الحرجة بمخالفة نصوص

المعاهدة بتوقفهم عن مساندة حلفائهم المسلمين بل أنكروا ـ في وقاحة وصفاقة ـ أن يكون بينهم وبين النبي ﷺ أي حلف أو عهد.

نعم نسي هؤلاء اليهود الذين يطلبون الرحمة ويذكِّرون بالحلم، أن جوابهم لرئيس الوفد النبوي الذي جاء إليهم يطلب تنفيذ المعاهدة، كان تجاهل وجود النبي ﷺ ذاته حيث قالوا ـ وقد ظنوا أن المسلمين قد انتهى أمرهم: ومن هو رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

نعم تناسى هؤلاء اليهود أنهم في الوقت الذي بلغت فيه قلوب المسلمين الحناجر من شدة الحصار، قد تفجرت في نفوسهم ينابيع الخسة والغدر، فاغتنموا اشتداد محنة المسلمين فسارعوا إلى إحكام حلقاتها، فانضموا إلى جيوش الغزاة ـ بالرغم من العهد الذي بينهم وبين المسلمين ـ مستهدفين بعملهم الدنيء هذا استعجال إبادة المسلمين ومحو كيانهم من الوجود، ظنًا منهم أن تلك الأيام العصيبة هي الأيام الأخيرة للكيان الإسلامي الذي كان هؤلاء اليهود يعتقدون أن جيوش الأحزاب العظيمة لن تعود إلى بلادهم إلا بعد تحطيم هذا الكيان.

والآن وقد دحر الله جيوش الأحزاب الغازية وتبددت الأحلام العريضة التي كانت تحملها قريظة، وجاءت كتائب القرآن لتصفي الحساب مع هؤلاء الخونة الغادرين الناكثين، عرفت ألسنتهم الطريق إلى الحديث عن القيم الإنسانية والمثل الأخلاقية، وأخذت الأفاعي السامة الغادرة تتظاهر بالبراءة والطيبة، وتبدي مظهرها الناعم اللين: «**يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا**».

هكذا قالت قريظة الغدر والخيانة عندما أحاطت بها خطيئتها وحاق بها مكرها السيء، فوجدت حصونها الشامخة غارقة في بحور متلاطمة من جند الإسلام الحانقين الذين بلغت في نفوسهم مشاعر الغيظ حد الغليان على هؤلاء اليهود الذين ما كانوا ليترددوا لحظة في سحق المسلمين سحقًا كاملًا لو تمكنوا من ذلك، فقد كان هذا غاية مرادهم عندما نقضوا الحلف وخانوا العهد، ولكن الله غالب على أمره، فقد أبى الله ﷻ إلا أن ينصر عبده ويعز جنده ويهزم الأحزاب وحده.

فها هم اليهود من قريظة الخائنة يتعثرون في دروب الحسرة والندامة، ويسيرون نحو المصير المرعب الذي أرادوه للمسلمين وسعوا جهدهم للدفع بهم إليه... ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٥٣-١٥٦].

فرض الحصار على اليهود:

يقول أ/ باشميل: «وتتابعت كتائب الإسلام بقيادة الرسول ﷺ حتى أحاطت بمعاقل بني قريظة وطوقتها من كل مكان.

ويظهر أن زحف المسلمين على بني قريظة كان على غير تعبئة حيث ثبت أنهم كانوا يتجهون نحـو اليهود جماعات، فلم يكونوا في هذه الحركة جيشًا واحدًا يمشي على تعبئة بساقة ومجنبة ومقدمـة، كـما هو الحال في كل الحملات التي كان النبي ﷺ يقودها.

ويظهر أن السبب في ذلك هو قِصر المسافة التي لا يخشى فيها المسلمون أيـة مباغتـة مـن عـدو أو كمين ينصب لهم؛ لأن كل المنطقة التي قطعوها إلى بني قريظة أراض إسلامية صرفة».

[غزوة بني قريظة لباشميل ١٥٤-١٥٥].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَاجْتَمَعَ الـمُسْلِمُونَ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ عِشَاءً، فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُصَلِّ حَتَّى جَاءَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ صَلَّى، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَمَا عَابَ عَلَى أَحَدٍ صَلَّى، وَلا عَلَى أَحَدٍ لَمْ يُصَلِّ حَتَّى بَلَغَ بَنِي قُرَيْظَةَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٠].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:... عَنْ مَعْبَدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ السُّلَمِيِّ ؓ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ حَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ (وقيل: خمس عشرة ليلة، وقيل: بضع عشرة. (راجع الطبقات وشرح المواهب) لَيْلَةً حَتَّى جَهِدَهُمْ الحِصَارُ، وَقَذَفَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ.

وَقَدْ كَانَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ دَخَلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي حِصْنِهِمْ حِينَ رَجَعَتْ عَنْهُمْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ، وَفَاءً لِكَعْبِ بْنِ أَسَدٍ بِمَا كَانَ عَاهَدَهُ عَلَيْهِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٥، دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٥].

الترامي بين الفريقين:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: ثُمَّ قَدَّمَ رَسُولُ الله ﷺ الرُّمَاةَ مِنْ أَصْحَابِهِ.

فَحَدَّثَنِي فَرْوَةُ بْنُ زُبَيْدٍ، عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهَا، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا سَعْدُ تَقَدَّمْ فَارْمِهِمْ**»، فَتَقَدَّمْتُ حَيْثُ تَبْلُغُهُمْ نَبْلِي، وَمَعِي نَيِّفٌ عَلَى الخَمْسِينَ فَرَمَيْنَاهُمْ سَاعَةً، وَكَأَنَّ نَبْلَنَا مِثْلُ جَرَادٍ فَانْجَحَرُوا فَلَمْ يَطْلُعْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَأَشْفَقْنَا عَلَى نَبْلِنَا أَنْ يَذْهَبَ فَجَعَلْنَا نَرْمِي بَعْضَهَا وَنُمْسِكُ البَعْضَ.

فَكَانَ كَعْبُ بْنُ عَمْرٍو الـمَازِنِيُّ - وَكَانَ رَامِيًا - يَقُولُ: **رَمَيْتُ يَوْمَئِذٍ بِمَا فِي كِنَانَتِي، حَتَّى أَمْسَكْنَا عَنْهُمْ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ.**

قَالَ: وَقَدْ رَمَوْنَا وَرَسُولُ الله ﷺ وَاقِفٌ عَلَى فَرَسِهِ عَلَيْهِ السِّلاحُ وَأَصْحَابُ الخَيْلِ حَوْلَهُ، ثُمَّ أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ فَانْصَرَفْنَا إِلَى مَنْزِلِنَا وَعَسْكَرْنَا فَبِتْنَا.

ثُمَّ غَدَوْنَا عَلَيْهِمْ بِسُحْرَةٍ، فَقَدَّمَ رَسُولُ الله ﷺ الرُّمَاةَ، وَعَبَّأَ أَصْحَابَهُ فَأَحَاطُوا بِحُصُونِهِمْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَجَعَلَ المُسْلِمُونَ يُرَامُونَهُمْ بِالنَّبْلِ وَالحِجَارَةِ، وَجَعَلَ المُسْلِمُونَ يَعْتَقِبُونَ فَيُعْقِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَمَا بَرِحَ رَسُولُ الله ﷺ يُرَامِيهِمْ حَتَّى أَيْقَنُوا بِالهَلَكَةِ.

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: كَانُوا يُرَامُونَنَا مِنْ حُصُونِهِمْ بِالنَّبْلِ وَالحِجَارَةِ أَشَدَّ الرَّمْيِ، وَكُنَّا نَقُومُ حَيْثُ تَبْلُغُهُمْ نَبْلُنَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٠ - ٥٠١].

قِمْ يَا زُبَيْرُ:

عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: قَالَ يَهُودِيٌّ يَوْمَ قُرَيْظَةَ: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قِمْ يَا زُبَيْرُ**» ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ: **يَا رَسُولَ اللهِ، وَاحِدِي؟** فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيُّهُمَا عَلَا عَلَى صَاحِبِهِ قَتَلَهُ**»، فَعَلَاهُ الزُّبَيْرُ فَقَتَلَهُ، فَنَفَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ سَلَبَهُ. [السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٥٠٣ كتاب قسم الفيء والغنيمة رقم ١٢٧٧٤، وقال البيهقي: هَذَا مُرْسَلٌ، وَقَدْ رُوِيَ مَوْصُولًا بِذِكْرِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِيهِ].

نعم الطعام التمر:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: قال كَعْبُ بْنُ عَمْرٍو المَازِنِيُّ رضي الله عنه: وَكَانَ طَعَامُنَا تَمْرًا بَعَثَ بِهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه أَحْمَالَ تَمْرٍ فَبِتْنَا نَأْكُلُ مِنْهَا، وَلَقَدْ رُئِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما يَأْكُلُونَ مِنْ ذَلِكَ التَّمْرِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**نِعْمَ الطَّعَامُ التَّمْرُ**». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٠].

محاولة عقلاء اليهود إنقاذ الموقف:

يقول أ/ باشميل: «ذكرنا في غزوة الأحزاب أن أربعة من عقلاء اليهود حذروا قومهم من مغبة نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين وطلبوا منهم عدم الاستجابة لوساوس شيطان بني النضير حيي بن أخطب، الذي حمل بني قريظة على نقض العهد وخيانة الميثاق.

وذكرنا أن هؤلاء العقلاء الأربعة ـ وعلى رأسهم عمرو بن سعدى أخو بني قريظة أنفسهم ـ قد أبوا الاشتراك في جريمة خيانة المسلمين والغدر بهم، وأعلنوا للملأ أنهم باقون على عهدهم، وذكرنا أن ثلاثة منهم قد أسلموا، وأن الرابع ـ هو عمرو بن سعدى، سيد من ساداتهم ـ بقي على يهوديته ولكنه بقي على عهده وأعلن تمسكه بالميثاق الذي بين المسلمين واليهود، وأبى الغدر بالمسلمين.

وقد حاول هذا اليهودي الزعيم الوفي أن ينقذ قومه من المصير المرعب الذي كان ينتظرهم جزاء غدرهم وخيانتهم، وذلك بأن اقترح عليهم اتباع النبي ﷺ والدخول في الإسلام.

لا سيما وأنهم يعلمون أن محمدًا ﷺ نبي مرسل، كما هو مكتوب عندهم في التوراة.

زعيم يهودي يدعو قومه للدخول في الإسلام:

فعندما بلغ عمرو بن سعدى انسحاب الأحزاب، جاء إلى قومه بني قريظة ودعاهم إلى اجتماع عاجل، وذلك قبل وصول جيش النبي ﷺ لضرب الحصار عليهم.

وفي هذا الاجتماع الذي حضره كل زعماء بني قريظة، وقف هذا اليهودي العاقل، وجعل يؤنب قومه، ويوبخهم على نقضهم العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وذكَّرهم بما نصحهم به قبل إقدامهم على جريمة الخيانة». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٥٦-١٥٧].

روى البيهقي بسنده عن مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ الوَاقِدِيُّ ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ: لَـمَّا خَرَجَتْ بَنُو النَّضِيرِ مِنَ الـمَدِينَةِ أَقْبَلَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى فَأَطَافَ بِمَنَازِلِهِمْ، فَرَأَى خَرَابَهَا، وَفَكَّرَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَوَجَدَهُمْ فِي الكَنِيسَةِ، فَنَفَخَ فِي بُوقِهِمْ، فَاجْتَمَعُوا، فَقَالَ الزَّبِيرُ بْنُ بَاطَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَيْنَ كُنْتَ مُنْذُ اليَوْمِ لَمْ نَرَكَ؟ وَكَانَ لَا يُفَارِقُ الكَنِيسَةَ، وَكَانَ يَتَأَلَّهُ (يتعبد) فِي اليَهُودِيَّةِ، قَالَ: **رَأَيْتُ اليَوْمَ عِبَرًا قَدْ عُبِّرْنَا بِهَا** (اشتد علينا أمرها)، **رَأَيْتُ مَنَازِلَ إِخْوَانِنَا خَالِيَةً بَعْدَ ذَلِكَ العِزِّ وَالجَلَدِ** (القوة) **وَالشَّرَفِ الفَاضِلِ، وَالعَقْلِ البَارِعِ، قَدْ تَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ، وَمَلَكَهَا غَيْرُهُمْ، وَخَرَجُوا خُرُوجَ ذُلٍّ، وَلَا وَالتَّوْرَاةِ مَا سُلِّطَ هَذَا عَلَى قَوْمٍ قَطُّ لله بِهِمْ حَاجَةٌ، وَقَدْ أَوْقَعَ قَبْلَ ذَلِكَ بِابْنِ الأَشْرَفِ ذِي عِزِّهِمْ، ثُمَّ بَيَّتَهُ فِي بَيْتِهِ آمِنًا، وَأَوْقَعَ بِابْنِ سُنَيْنَةَ سَيِّدِهِمْ، وَأَوْقَعَ بِبَنِي قَيْنُقَاعٍ فَأَجْلَاهُمْ** (أخرجهم وأبعدهم)**، وَهُمْ أَهْلُ جَدِّ يَهُودَ** (الجد: المكانة العظيمة والغنى)**، كَانُوا أَهْلَ عِدَّةٍ وَسِلَاحٍ وَنَجْدَةٍ** (شجاعة)**، فَحَصَرَهُمْ فَلَمْ يُخْرِجْ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ رَأْسَهُ حَتَّى سَبَاهُمْ، فَكُلِّمَ فِيهِمْ فَتَرَكَهُمْ عَلَى أَنْ أَجْلَاهُمْ مِنْ يَثْرِبَ، يَا قَوْمُ! قَدْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ فَأَطِيعُونِي، وَتَعَالَوْا نَتَّبِعْ مُحَمَّدًا، فَوَاللهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ بَشَّرَنَا بِهِ وَبِأَمْرِهِ: ابْنُ الهَيِّبَانِ أَبُو عُمَيْرٍ، وَابْنُ حِرَاشٍ [جَوَّاس]، وَهُمَا أَعْلَمُ يَهُودَ، جَاءَا مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ يَتَوَكَّفَانِ قُدُومَهُ وَأَمَرَانَا بِاتِّبَاعِهِ، وَأَمَرَانَا أَنْ نُقْرِئَهُ مِنْهُمَا السَّلَامَ، ثُمَّ مَاتَا عَلَى دِينِهِمَا وَدَفَنَّاهُمَا بِحَرَّتِنَا هَذِهِ.**

فَأُسْكِتَ القَوْمُ، فَلَمْ يَتَكَلَّمْ مِنْهُمْ مُتَكَلِّمٌ، فَأَعَادَ هَذَا الكَلَامَ [أو نحوه]، وَخَوَّفَهُمْ بِالحَرْبِ وَالسِّبَاءِ وَالجَلَاءِ، فَقَالَ الزَّبِيرُ بْنُ بَاطَا: قَدْ وَالتَّوْرَاةِ قَرَأْتُ صِفَتَهُ فِي كِتَابِ بَاطَا التَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى، لَيْسَ فِي المَثَانِي الَّذِي أَحْدَثْنَا.

قَالَ: فَقَالَ لَهُ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ: مَا يَمْنَعُكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنِ اتِّبَاعِهِ؟ قَالَ: أَنْتَ، قَالَ كَعْبٌ: وَلِمَ؟ وَالتَّوْرَاةِ مَا حُلْتُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَطُّ، قَالَ الزَّبِيرُ: أَنْتَ صَاحِبُ عَهْدِنَا وَعَقْدِنَا، فَإِنِ اتَّبَعْتَهُ اتَّبَعْنَاهُ، وَإِنْ أَبَيْتَ أَبَيْنَا.

[فَأَقْبَلَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى عَلَى كَعْبٍ فَقَالَ: أَمَا وَالتَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سِينَا إِنَّه لَلعِزُّ وَالشَّرَفُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ لَعَلَى مِنْهَاجِ مُوسَى، وَيُنْزَلُ مَعَهُ وَأُمَّتُهُ غَدًا فِي الجَنَّةِ.

قَالَ كَعْبٌ: نُقِيمُ عَلَى عَهْدِنَا وَعَقْدِنَا فَلا يَخْفِرُ (ينقض عهدهم) لَنَا مُحَمَّدٌ ذِمَّةً، وَنَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ حُيَيٌّ، فَقَدْ أُخْرِجَ إِخْرَاجَ ذُلٍّ وَصَغَارٍ، فَلا أَرَاهُ يَقِرُّ حَتَّى يَغْزُو مُحَمَّدًا، فَإِنْ ظَفِرَ بِمُحَمَّدٍ فَهُوَ مَا أَرَدْنَا، وَأَقَمْنَا عَلَى دِينِنَا، وَإِنْ ظَفِرَ بِحُيَيٍّ فَمَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ، وَتَحَوَّلْنَا مِنْ جِوَارِهِ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى: وَلِمَ نُؤَخِّرُ الأَمْرَ وَهُوَ مُقْبِلٌ؟ قَالَ كَعْبٌ: مَا عَلَى هَذَا فَوْتٌ، مَتَى أَرَدْتُ هَذَا مِنْ مُحَمَّدٍ أَجَابَنِي إِلَيْهِ.

قَالَ عَمْرٌو: وَالتَّوْرَاةِ، إِنَّ عَلَيْهِ لَغَوْثًا، إِذَا سَارَ إِلَيْنَا مُحَمَّدٌ فَتَخَبَّأْنَا فِي حُصُونِنَا هَذِهِ الَّتِي قَدْ خَدَعَتْنَا، فَلَا نُفَارِقُ حُصُونَنَا حَتَّى نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِهِ، فَيَضْرِبُ أَعْنَاقَنَا].

فَأَقْبَلَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى عَلَى كَعْبٍ فَذَكَرَ مَا تَقَاوَلَا فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ قَالَ كَعْبٌ: مَا عِنْدِي فِي أَمْرِهِ إِلَّا مَا قُلْتُ، مَا تَطِيبُ نَفْسِي أَنْ أَصِيرَ تَابِعًا [لِقَوْلِ هَذَا الإِسْرَائِيلِيِّ، وَلا يَعْرِفُ لِي فَضْلَ النُّبُوَّةِ وَلا قَدْرَ الفِعَالِ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى: بَل لَعَمْرِي لَيَعْرِفَنَّ ذَلِكَ.

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَرُعْهُمْ (يفزعهم) إِلا بِمُقَدِّمَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ حَلَّتْ بِسَاحَتِهِمْ، فَقَالَ: هَذَا الَّذِي قُلْتُ لَكَ.

وَذَلِكَ أَنَّهُم نَقَضُوا عَهْدَ رَسُولِ الله ﷺ، وَحَارَبُوهُ فِي وَقْعَةِ الخَنْدَقِ».

[دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٦١-٣٦٢، سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٤٦٣-٤٦٥ وما بين المعكوفتين منه].

ومع كل هذا فقد رفض بنو قريظة نصيحة عمرو بن سعدى الذي دعاهم فيها إلى الدخول في الإسلام.

فتقدم إليهم ـ كمحاولة أخيرة ـ باقتراح آخر محاولًا إنقاذهم.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حِبَّانَ، قَالَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى ـ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْهُمْ ـ: **يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ! إِنَّكُمْ قَدْ حَالَفْتُمْ مُحَمَّدًا عَلَى مَا حَالَفْتُمُوهُ عَلَيْهِ أَلَّا تَنْصُرُوا عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ عَدُوِّهِ، وَأَنْ تَنْصُرُوهُ مِمَّنْ دَهَمَهُ، فَنَقَضْتُمْ ذَلِكَ العَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ فَلَمْ أَدْخُل فِيهِ، وَلَمْ أَشْرَكْكُمْ فِي غَدْرِكُمْ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا مَعَهُ فَاثْبُتُوا عَلَى اليَهُودِيَّةِ وَأَعْطُوا الجِزْيَةَ، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي يَقْبَلُهَا أَمْ لا.**

قَالُوا: **نَحْنُ لا نُقِرُّ لِلعَرَبِ بِخَرْجٍ فِي رِقَابِنَا يَأْخُذُونَنَا بِهِ، القَتْلُ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ.**

قَالَ: **فَإِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ.** [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٣-٥٠٤].

اليهودي الذي نجاه الله بوفائه:

وهنا أدرك هذا اليهودي المتعقل عمرو بن سُعدى أن عناد قومه الأغبياء سوف يقودهم إلى الفناء دونما شك، فأعلن براءته منهم وفارقهم إلى الأبد.

فقد خرج هذا اليهودي ابن سعدى من حصون قومه بني قريظة بعد أن طوقها الجيش الإسلامي من كل مكان وكان خروجه ليلًا.

وعندما خرج هذا الزعيم اليهودي من حصون قومه مفارقًا لهم، التقى به رجال الحرس النبوي الذين كانوا يقومون بأعمال الدورية، فألقوا عليه القبض، ثم أتوا به إلى قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه.

وعندما عرف قائد الحرس أنه عمرو بن سعدى ـ وكان موقفه النبيل قد بلغ المسلمين ـ أمر بإطلاق سراحه ليذهب حرًّا حيث شاء؛ لأنه لم يرتكب ما يوجب قتله أو حتى اعتقاله، حيث بقي على عهده ولم يدخل مع بني قريظة فيما دخلوا فيه من جريمة الغدر ونكث العهد.

قال ابن إسحاق يصف خروج عمرو بن سعدى من حصون بني قريظة مفارقًا لهم: وَخَرَجَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى القُرَظِيُّ، فَمَرَّ بِحَرَسِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه تِلكَ اللَّيْلَةَ فَلَـمَّا رَآهُ قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: أَنَا عَمْرُو بْنُ سُعْدَى ـ وَكَانَ عَمْرٌو قَدْ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي غَدْرِهِمْ بِرَسُولِ الله ﷺ، وَقَالَ: **لَا أَغْدِرُ بِمُحَمَّدٍ أَبَدًا** ـ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه حِينَ عَرَفَهُ: **اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي إِقَالَةَ عَثَرَاتِ الكِرَامِ**، ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ، فَخَرَجَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أَتَى بَابَ مَسْجِدِ رَسُولِ الله ﷺ بِالمَدِينَةِ تِلكَ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ ذَهَبَ فَلَمْ يُدْرَ أَيْنَ تَوَجَّهَ مِنَ الأَرْضِ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، فَذُكِرَ لِرَسُولِ الله ﷺ شَأْنُهُ، فَقَالَ: «**ذَاكَ رَجُلٌ نَجَّاهُ اللهُ بِوَفَائِهِ**»، وَبَعْضُ النَّاسِ يَزْعُمُ أَنَّهُ كَانَ أُوثِقَ بِرُمَّةٍ (الحبل البالي) فِيمَنْ أُوثِقَ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ حِينَ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَصْبَحَتْ رُمَّتُهُ مُلقَاةً، وَلَا يُدْرَى أَيْنَ ذَهَبَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِيهِ تِلكَ المَقَالَةَ، وَاللهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ». [**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٨-٢٣٩**].

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى اليَهُودِيُّ فِي الأَسْرَى، فَلَـمَّا قَدِمُوا إِلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ فَقَدُوهُ، فَقَالَ ابْنُ عَمْرٍو: قَالُوا: وَالله مَا نَرَاهُ، وَإِنَّ هَذِهِ لَرُمَّتُهُ الَّتِي كَانَ فِيهَا فَمَا نَدْرِي كَيْفَ انْفَلَتَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَفْلَتَنَا بِمَا عَلِمَ اللهُ فِي نَفْسِهِ**». [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٠].

والأول أقرب إلى منطق الإسلام، فلا يمكن أن يعتقل المسلمون رجلًا بقي على عهده وأبى الغدر بهم.

وقال الواقدي: «وَخَرَجَ فِي تِلكَ اللَّيْلَةِ مَعَ بَنِي سَعِيَّةَ فَمَرَّ بِحَرَسِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عَمْرُو بْنُ سُعْدَى، فَقَالَ مُحَمَّدٌ رضي الله عنه: **مُرَّ، اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنِي إِقَالَةَ عَثَرَاتِ الكِرَامِ**، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، وَخَرَجَ حَتَّى أَتَى مَسْجِدَ رَسُولِ الله ﷺ فَبَاتَ بِهِ حَتَّى أَصْبَحَ، فَلَـمَّا أَصْبَحَ غَدَا فَلَمْ يُدْرَ أَيْنَ هُوَ حَتَّى السَّاعَةِ، فَسُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنْهُ فَقَالَ: «**ذَلِكَ رَجُلٌ نَجَّاهُ اللهُ بِوَفَائِهِ**».

وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَطْلُعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَمْ يُبَادِرْ لِلقِتَالِ فِي رِوَايَتِنَا.

حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: مَرَّ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى عَلَى الحَرَسِ فَنَادَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: عَمْرُو بْنُ سُعْدَى، قَالَ مُحَمَّدٌ رضي الله عنه: قَدْ عَرَفْنَاك، ثُمَّ قَالَ مُحَمَّدٌ رضي الله عنه: **اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنِي إِقَالَةَ عَثَرَاتِ الكِرَامِ**. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٣-٥٠٤].

وهكذا أطلق الحرس النبوي سراح الزعيم عمرو بن سعدى مع أنه خرج من حصون قومه بني قريظة وكان لا يزال على يهوديته.

وبدهي ألا يتعرض المسلمون لعمرو بن سعدى اليهودي بأي أذى؛ لأن القصد من ضرب الحصار على يهود بني قريظة وإعلان الحرب عليهم، لا لأنهم يهود لا يدينون بالإسلام.

كلا وإنما لأنهم غدروا، وارتكبوا ـ في ظروف حربية دقيقة للغاية ـ الخيانة العظمى التي عقوبتها في كل قوانين الدنيا الموت.

وما دام أن هذا اليهودي ابن سعدى لم يشترك مع قومه في جريمة الغدر ونقض العهد، فإن تركه وشأنه حرًّا، وعدم التعرض له بأي أذى إنما هو ترجمة فعلية لأحد مبادئ الإسلام العادلة المنبثقة من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام:١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾[البقرة].

مقاومة اليهود واشتداد الحصار عليهم:

استمرت قريظة في غيها ورفضت كل الاقتراحات التي تقدم بها عمرو بن سعدى لحقن دمائها، فاعتصمت بحصونها مصممة على القتال والمقاومة.

أما المسلمون فقد أحكموا الحصار حول الحصون وقاموا بتطويقها من كل جانب، وقطعت الجيوش الإسلامية كل اتصال بين اليهود وبين الخارج، ووضعت القوات الإسلامية أيديها على كل مزارعهم ونخيلهم الواقعة خارج حصونهم.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ: حَصَرْنَاهُمْ أَشَدَّ الحِصَارِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ غَدَوْنَا عَلَيْهِمْ قَبْلَ الفَجْرِ، فَجَعَلْنَا نَدْنُو مِنَ الحِصْنِ، وَنَرْمِيهِمْ مِنْ كَثَبٍ، وَلَزِمْنَا حُصُونَهُمْ فَلَمْ نُفَارِقْهَا حَتَّى أَمْسَيْنَا، وَحَضَّنَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الجِهَادِ وَالصَّبْرِ، ثُمَّ بِتْنَا عَلَى حُصُونِهِمْ مَا رَجَعْنَا إِلَى مُعَسْكَرِنَا حَتَّى تَرَكُوا قِتَالَنَا وَأَمْسَكُوا عَنْهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠١].

مقر قيادة الرسول ﷺ أثناء الحصار:

يقول أ/ باشميل: «وقد نزل الرسول ﷺ أثناء ضرب الحصار على بني قريظة ـ على بئر من آبارهم يقال له: بئر أنا، وجعل مقر قيادته هناك.

ولقد كانت مقاومة اليهود للحصار أول الأمر شديدة، ولكنهم بعد مرور حوالي عشرين ليلة على هذا الحصار بدأ الضعف والقلق يتسرب إلى نفوسهم، بعد أن أجهدهم الحصار وأيقنوا أن المسلمين ليسوا بمنصرفين عنهم حتى يستسلموا، أو يقتحموا عليهم حصونهم ويفتحوها بحد السلاح، فبالرغم من الإمكانيات المادية المتوفرة لديهم من مياه ومواد غذائية وسلاح كامل وحصون منيعة، تساعدهم على المقاومة وقتًا طويلًا، فقد امتلأت نفوسهم بالرعب والخوف والفزع، فخارت قواهم، وأخذوا يفكرون في الطريقة التي يمكنهم بها حقن دمائهم. [غزوة بني قريظة لباشميل ١٦٦].

اليهود يطلبون المفاوضة:

«وهكذا اليهود في كل زمان ومكان عندما يظنون أنفسهم في أمان يَسُبُّون ويتطاولون، وعندما تواتيهم الفرصة يقتلون ويفجرون، فإذا ما ضاق الخناق حول رقابهم يتباكون ويتذللون، فهم يتلونون

لكل حالة بالشكل الذي يظنونه نافعًا لهم، أما العهود والمواثيق، والقيم الخلقية، والمعاني الإنسانية، فلا حساب لها في ميزانهم.

على أن هذه السفاهات والمحايلات لم تغنهم شيئًا، فقد ضيَّق المسلمون عليهم الخناق، وأحكموا حصارهم لمدة خمس وعشرين ليلة، فلم يستطع بنو قريظة خلالها أن يخرجوا من حصونهم.

وأيقنوا أن حصونهم لن تغني عنهم من الهلاك شيئًا، إذا استمر الحال على ذلك ».

[بنو إسرائيل في القرآن والسنة لطنطاوي ٢٩٩-٣٠٠].

«وعندما بلغ الحصار ذروته قام زعماء بني قريظة بعدة محاولات للحصول على ضمان من النبي ﷺ يحقن لهم دماءهم ويعفي نساءهم وذراريهم من السبي، ثم يخرجون من يثرب إلى غير رجعة.

وكانت أولى هذه المحاولات، أن بعثت قريظة إلى النبي ﷺ تعرض عليه استعدادها للجلاء عن يثرب وعلى الصورة التي تم بها إجلاء إخوانهم من بني النضير بعد معركة أُحُد.

وقد حمل هذا العَرْض اليهودي إلى النبي ﷺ أحد زعماء بني قريظة، وهو نباش بن قيس، فقد طلب هذا الزعيم اليهودي من النبي القائد ﷺ أن يسمح له بالحضور إلى مقر قيادته حول الحصون للمفاوضة، فسمح له النبي ﷺ بذلك.

النبي ﷺ يرفض المفاوضة على غير التسليم:

ولما أتى الحرس النبوي بهذا الزعيم اليهودي إلى النبي القائد ﷺ قدم له العرض الذي يحمله من بني قريظة والذي يطلبون فيه السماح لهم بالخروج من يثرب مع نسائهم وذراريهم وما تقدر الإبل على حمله من متاع ـ سوى السلاح ـ على أن يتركوا بقية كل ما يملكون في يثرب للمسلمين».

[غزوة بني قريظة لباشميل ١٦٧].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَقَالُوا (أي اليهود): نُكَلِّمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نَعَمْ**»، فَأَنْزَلُوا نَبَّاشَ بْنَ قَيْسٍ، فَكَلَّمَ رَسُولَ الله ﷺ سَاعَةً، وَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ نَنْزِلُ عَلَى مَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ بَنُو النَّضِيرِ، لَكَ الأَمْوَالُ وَالحَلْقَةُ وَتَحْقِنُ دِمَاءَنَا، وَنَخْرُجُ مِنْ بِلادِكُمْ بِالنِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ، وَلَنَا مَا حَمَلَتْ الإِبِلُ إِلَّا الحَلْقَةَ**، فَأَبَى رَسُولُ الله ﷺ فَقَالُوا: **فَتَحْقِنُ دِمَاءَنَا وَتُسَلِّمُ لَنَا النِّسَاءَ وَالذُّرِّيَّةَ، وَلا حَاجَةَ لَنَا فِيمَا حَمَلَتْ الإِبِلُ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لا، إِلَّا أَنْ تَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِي**». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠١].

يقول أ/ باشميل: «رفض النبي ﷺ هذا العرض رفضًا باتًّا وأبلغ مندوب بني قريظة أنه لا يقبل إلا أن يسلم هؤلاء اليهود بدون قيد أو شرط.

فعاد إلى قريظة مندوبها وأبلغها نتيجة مفاوضاته مع النبي القائد ﷺ الذي رفض العرض اليهودي.

ومع هذا الرفض فلم ييأس اليهود فأرسلوا مندوبهم إياه نباش بن قيس ثانية ليعرض على النبي القائد ﷺ عرضًا آخر، يطلبون فيه أن يسمح لهم ـ رجالًا ونساء وأطفالًا ـ بالجلاء عن يثرب والنجاة

بأرواحهم، وأبلغوه أنهم يوافقون على ترك كل ما يملكون للمسلمين، فلا يحملون معهم أي شيء من المال.

وعندما تقدم نباش بن قيس بهذا الطلب إلى القائد الأعلى للجيش الإسلامي ـ باسم بني قريظة ـ رفض الموافقة عليه وكرر القول بأنه لا يقبل من هؤلاء اليهود إلا التسليم بدون قيد أو شرط.

ولما تبلغت قريظة رَفْض عرضها الأخير هذا، أسقط في يدها وازدادت مخاوفها وتضاعف قلقها وصار زعماؤها يتخبطون في دوامة من الحيرة والقلق، لا يدرون كيف يتصرفون، لا سيما وأن الحصار قد أجهدهم وأخذ بخناقهم فحطم أعصابهم». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٦٧-١٦٨].

سيد بني قريظة يدعوهم إلى الإسلام:

يقول أ/ باشميل: «ففي ذلك الظرف العصيب دعا سيد بني قريظة (كعب بن أسد) دعا زعماء قومه إلى اجتماع في مقر قيادته لتبادل وجهات النظر بشأن الموقف الحربي ولإبداء الرأي حول ما يجب اتخاذه لإنقاذ الموقف المتدهور.

ولما اجتمع رؤساء الغدر والخيانة بسيدهم كعب بن أسد وكان عاقلًا متزنًا، لولا رفقاء السوء الذين غلبوه على أمره وحملوه على نقض العهد الذي بينه وبين النبي ﷺ.

فقد كان كعب هذا ـ كما تقدم ـ كارهًا لنقض العهد وراغبًا رغبة أكيدة في البقاء على ولائه للمسلمين، ومن أجل ذلك أقفل باب حصنه عندما علم أن شيطان بني النضير حيي بن أخطب جاء لمقابلته عندما وصلت جيوش الأحزاب إلى ضواحي المدينة.

لأنه كان يعلم أن حييًّا هذا ما جاء إلا ليطلب من بني قريظة الغدر بالمسلمين والانضمام إلى الأحزاب، فكان كعب بن أسد متخوفًا من نقض العهد، وكان يُقدِّر النتائج الوخيمة التي ستترتب على الغدر بالمسلمين قبل وقوعها.

ولهذا رفض أول الأمر مقابلة حيي بن أخطب واستقبح رأيه الداعي إلى الغدر بالمسلمين، وعندما أراد حيي التأثير عليه بقوة الأحزاب الضاربة وإقناعه بأن قضاءها على المسلمين في حكم المؤكد فقال له: **وَيْحَكَ يَا كَعْبُ! جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ** (يعني جيوش الأحزاب).

فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ ـ وكأنه ينظر جهارًا إلى ما سيحل ببني قريظة نتيجة الانضمام إلى الأحزاب ـ: **جِئْتَنِي وَاللهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ، وَبِجَهَامٍ** (السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه) **قَدْ هَرَاقَ مَاءَهُ، فَهُوَ يُرْعِدُ وَيُبْرِقُ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ** (يعني بذلك كعب: أن جيوش الأحزاب على كثرتها وعظمتها ليست إلا كالسحاب العظيم الذي تصك رعوده الآذان ويخطف برقه الأبصار وليس فيه قطرة ماء)، **وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً.**

وعندما اجتمع يهود بني قريظة بسيدهم كعب بن أسد عندما خنقهم الحصار، ذكَّرهم، وذكَّر حيي بن أخطب على وجه الخصوص، بأنه قد حذرهم هذا المصير عندما مانع في نقض العهد والغدر بالمسلمين في بداية الأمر.

وكان حيي بن أخطب عندما نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين قد تعهد لسيد بني قريظة بأن يدخل معه حصنه ليصيبه ما أصاب بني قريظة إذا ما انسحبت جيوش الأحزاب دون أن تستأصل شأفة المسلمين وتقضي عليهم قضاء تامًا، وفعلًا، فقد وفَّى له حيي بذلك، فقد أتى الله به إلى حصون بني قريظة ليجني ثمار أعماله الشريرة فبقي معهم داخل حصونهم حتى نهاية أمرهم.

ثم واصل كعب بن أسد حديثه مع قومه في هذا الاجتماع فدعاهم ـ لإنقاذ الموقف ـ إلى اتباع أمر من ثلاثة:

(أ) إما اتباع النبي ﷺ والدخول في الإسلام.

(ب) وإما الهجوم على المسلمين بطريقة انتحارية، بعد قتل نساء بني قريظة وأطفالها.

(ج) وإما أخذ المسلمين على حين غرة بالهجوم عليهم يوم السبت وهو يوم لا يعمل فيه اليهود شيئًا (تدينًا).

ولكن اليهود رفضوا العمل بأي من هذه الاقتراحات». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٦٢-١٦٥].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : ... عَنْ مَعْبَدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه:... فَلَـمَّا أَيْقَنُوا بِأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ عَنْهُمْ حَتَّى يُنَاجِزَهُمْ قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ لَهُمْ: **يَا مَعْشَرَ يَهُودَ! قَدْ نَزَلَ بِكُمْ مِنَ الأَمْرِ مَا تَرَوْنَ، وَإِنِّي عَارِضٌ عَلَيْكُمْ خِلَالًا ثَلَاثًا، فَخُذُوا أَيَّهَا شِئْتُمْ**، قَالُوا: وَمَا هِيَ؟

قَالَ: **نُتَابِعُ هَذَا الرَّجُلَ وَنُصَدِّقُهُ، فَوَالله لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّهُ لَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَأَنَّهُ لَلَّذِي تَجِدُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ؛ فَتَأْمَنُونَ عَلَى دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَنِسَائِكُمْ.**

قَالُوا: **لَا نُفَارِقُ حُكْمَ التَّوْرَاةِ أَبَدًا، وَلَا نَسْتَبْدِلُ بِهِ غَيْرَهُ.**

قَالَ: **فَإِذَا أَبَيْتُمْ عَلَيَّ هَذِهِ، فَهَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، ثُمَّ نَخْرُجْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ رِجَالًا مُصْلِتِينَ السُّيُوفَ لَمْ نَتْرُكْ وَرَاءَنَا ثِقَلًا يُهِمُّنَا، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، فَإِنْ نَهْلِكْ نَهْلِكْ وَلَمْ نَتْرُكْ وَرَاءَنَا فَلَا نَخْشَى عَلَيْهِ [نَسْلًا يُهِمُّنَا نَخَافُ عَلَيْهِ]، وَإِنْ نَظْهَرْ فَلَعَمْرِي لَنَجِدَنَّ النِّسَاءَ وَالأَبْنَاءَ.**

قَالُوا: **نَقْتُلُ هَؤُلَاءِ المَسَاكِينَ فَمَا خَيْرُ العَيْشِ بَعْدَهُمْ؟**

قَالَ: **فَإِنْ أَبَيْتُمْ عَلَيَّ هَذِهِ فَإِنَّ اللَّيْلَةَ لَيْلَةُ السَّبْتِ، وَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ قَدْ أَمِنُونَا فِيهَا، فَانْزِلُوا لَعَلَّنَا نُصِيبُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ غِرَّةً.**

قَالُوا: **نُفْسِدُ سَبْتَنَا عَلَيْنَا، وَنُحْدِثُ فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا إِلَّا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ، فَأَصَابَهُ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْك مِنْ المَسْخِ.**

قَالَ: مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الدَّهْرِ حَازِمًا».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٥-٢٣٦، دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٥].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَرَجَعَ نَبَّاشٌ إِلَى أَصْحَابِهِ بِمَقَالَةِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ: يَا مَعْشَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَالله إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيُّ الله، وَمَا مَنَعَنَا مِنَ الدُّخُولِ مَعَهُ إِلَّا الـحَسَدُ لِلعَرَبِ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَهُوَ حَيْثُ جَعَلَهُ اللهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ كَارِهًا لِنَقْضِ العَهْدِ وَالعَقْدِ، وَلَكِنَّ البَلاءَ وَشُؤْمَ هَذَا الجَالِسِ عَلَيْنَا وَعَلَى قَوْمِهِ، وَقَوْمُهُ كَانُوا أَسْوَأَ مِنَّا، لا يَسْتَبْقِي مُحَمَّدٌ رَجُلًا وَاحِدًا إِلَّا مَنْ تَبِعَهُ، أَتَذْكُرُونَ مَا قَالَ لَكُمْ ابْنُ خِرَاشٍ حِينَ قَدِمَ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ: تَرَكْتُ الخَمْرَ وَالخَمِيرَ وَالتَّأْمِيرَ وَجِئْتُ إِلَى السِّقَاءِ وَالتَّمْرِ وَالشَّعِيرِ؟ قَالُوا: وَمَا ذَلِكَ؟ قَالَ: يَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ نَبِيٌّ، فَإِنْ خَرَجَ وَأَنَا حَيٌّ اتَّبَعْتُهُ وَنَصَرْتُهُ، وَإِنْ خَرَجَ بَعْدِي فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُخْدَعُوا عَنْهُ فَاتَّبِعُوهُ وَكُونُوا أَنْصَارَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ، وَقَدْ آمَنْتُمْ بِالكِتَابَيْنِ كِلَيْهِمَا الأَوَّلِ وَالآخِرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَتَعَالَوْا فَلْنُتَابِعْهُ وَلْنُصَدِّقْهُ، وَلْنُؤْمِنْ بِهِ فَنَأْمَنُ عَلَى دِمَائِنَا وَأَبْنَائِنَا وَنِسَائِنَا وَأَمْوَالِنَا، فَنَكُونُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ مَعَهُ.

قَالُوا: لا نَكُونُ تَبَعًا لِغَيْرِنَا، نَحْنُ أَهْلُ الكِتَابِ وَالنُّبُوَّةِ وَنَكُونُ تَبَعًا لِغَيْرِنَا؟

فَجَعَلَ كَعْبٌ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ الكَلامَ بِالنَّصِيحَةِ لَهُمْ قَالُوا: لا نُفَارِقُ التَّوْرَاةَ وَلا نَدَعُ مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ مُوسَى.

قَالَ: فَهَلُمَّ فَلنَقْتُل أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، ثُمَّ نَخْرُجُ فِي أَيْدِينَا السُّيُوفُ إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، فَإِنْ قَتَلَنَا قُتِلْنَا وَمَا وَرَاءَنَا أَمْرٌ نَهْتَمُّ بِهِ، وَإِنْ ظَفِرْنَا فَلَعَمْرِي لَنَتَخِذَنَّ النِّسَاءَ وَالأَبْنَاءَ.

فَتَضَاحَكَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، ثُمَّ قَالَ: مَا ذَنْبُ هَؤُلاءِ الـمَسَاكِينِ؟

وَقَالَتْ رُؤَسَاءُ اليَهُودِ، الزَّبِيرُ بْنُ بَاطَا وَذَوُوهُ: مَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ بَعْدَ هَؤُلاءِ.

قَالَ: فَوَاحِدَةٌ قَدْ بَقِيَتْ مِنَ الرَّأْيِ لَمْ يَبْقَ غَيْرُهَا، فَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوهَا فَأَنْتُمْ بَنُو إِسْتِهَا.

قَالُوا: مَا هِيَ؟

قَالَ: اللَّيْلَةُ السَّبْتُ، وَبِالحَرِيِّ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ آمِنِينَ لَنَا فِيهَا أَنْ نُقَاتِلَهُ، فَنَخْرُجُ فَلَعَلَّنَا أَنْ نُصِيبَ مِنْهُ غِرَّةً.

قَالُوا: نُفْسِدُ سَبْتَنَا، وَقَدْ عَرَفْتَ مَا أَصَابَنَا فِيهِ؟

قَالَ حُيَيٌّ: قَدْ دَعَوْتُكَ إِلَى هَذَا وَقُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ حُضُورٌ، فَأَبَيْت أَنْ نَكْسِرَ السَّبْتَ فَإِنْ أَطَاعَتْنِي اليَهُودُ فَعَلُوا.

فَصَاحَتِ اليَهُودُ: لا نَكْسِرُ السَّبْتَ.

قَالَ نَبَّاشُ بْنُ قَيْسٍ: **وَكَيْفَ نُصِيبُ مِنْهُمْ غِرَّةً وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ أَمْرَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ يَشْتَدُّ، كَانُوا أَوَّلَ مَا يُحَاصِرُونَنَا إِنَّمَا يُقَاتِلُونَ بِالنَّهَارِ وَيَرْجِعُونَ اللَّيْلَ، فَكَانَ هَذَا لَكَ قَوْلًا: لَوْ بَيَّتْنَاهُمْ، فَهُمْ الآنَ يُبَيِّتُونَ اللَّيْلَ، وَيَظَلُّونَ النَّهَارَ فَأَيُّ غِرَّةً نُصِيبُ مِنْهُمْ؟ هِيَ مَلْحَمَةٌ وَبَلاءٌ كُتِبَ عَلَيْنَا.**

فَاخْتَلَفُوا وَسُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَنَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا، وَرَقُّوا عَلَى النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، وَذَلِكَ أَنَّ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ لَـمَّا رَأَوْا ضَعْفَ أَنْفُسِهِمْ هَلَكُوا، فَبَكَى النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ فَرَقُّوا عَلَيْهِمْ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٠١-٥٠٣].

لا أمل في النجدة:

يقول أ/ باشميل: «ولا شك أن يهود بني قريظة قد قلَّبوا الأمر من جميع وجوهه للاستعانة والاستغاثة بأية فئة يمكنها المساهمة في تخليص رقابهم من الموت المحقق الذي ينتظرهم جزاء خيانتهم العظمى.

ولكن ماذا عسى أن يجديهم التفكير والبحث في هذا الوجه، وبمن يستغيثون ويستنجدون؟ أبقريش أم بغطفان؟

إن هذه القبائل بحق هي أشد قبائل الجزيرة العربية قوة، وأقواها شكيمة، مع العداء الشديد لرسول الله ﷺ وهذه القبائل هي التي يمكن لقريظة أن تستنجد بها ولو لفك الحصار عن معاقلها، ولكن قريظة تعلم أن هذا الحصار الذي تغرق الآن حصونها في محيطه المتلاطم، إنما كان من أهم أسباب التعجيل به هو غضب تلك القبائل القرشية والنجدية ونقمتها على هؤلاء اليهود.

ولهذا فإنه لا أمل لهؤلاء اليهود المحصورين في أن تستجيب لهم تلك القبائل إذا ما استنجدوا بها.

موقف خيبر من بني قريظة:

أما يهود خيبر من بني النضير وغيرهم ـ وهم أقوى قوة يهودية مسلحة في جزيرة العرب، والذين لهم اليد الطولى في تجميع جيوش الأحزاب وتموينها لغزو المدينة، فقد أصابهم الذعر وتملكهم الفزع لانسحاب جيوش الأحزاب دون أن تحقق شيئًا من الهدف الذي جاءت من أجله.

يُضاف إلى هذا أن يهود بني النضير هؤلاء قد خرجوا من المدينة أذلاء مطرودين، بعد أن حاربوا المسلمين حربًا خاسرة كانت نهايتها الاستسلام وطرد هؤلاء اليهود من المدينة.

فلو أن فيهم بقية من قدرة على منازلة المسلمين ما قبلوا الجلاء عن المدينة على تلك الصورة المهينة.

فهم إذن أضعف من أن يفكروا في الزحف على المدينة لفك الحصار الخانق المضروب على سيدهم حيي بن أخطب مع عصابة الغدر والخيانة من بني قريظة.

ولهذا فإن بني قريظة لم يفكروا مطلقًا في الاستنجاد بإخوتهم من يهود خيبر وبني النضير؛ لأنهم على يقين بأن هؤلاء اليهود لن يصنعوا لهم شيئًا إذا ما استنجدوا بهم.

ولهذا فإنه لم يبق ـ أمام يهود بني قريظة ـ بعد الذي بذلوه من محاولات فاشلة لحقن دمائهم، سوى الإقدام على أحد أمرين.

إما أن تفتح قريظة حصونها وتدخل في معركة فاصلة مع المسلمين يكون الحكم فيها للسيف.

وإما الاستسلام للقائد الأعلى النبي ﷺ بدون قيد أو شرط.

أما الدخول في معركة فاصلة مع المسلمين، فقد أثبتت قريظة أنها أجبن من أن تفكر فيه أبدًا؛ ذلك أن سيدها كعب بن أسد قد عرض عليها القيام بهذا العمل البطولي ولكنها رفضت الإقدام عليه وهي ترتجف جبنًا لمجرد ذكره.

إذن، فلا مناص لقريظة من الاستسلام لقوات المسلمين والنزول على حكم الرسول ﷺ بدون قيد أو شرط.

وهذا هو الذي قرره بنو قريظة أخيرًا؛ وذلك طمعًا منهم في أن يعفو عنهم النبي ﷺ ويحقن دماءهم كما فعل مع بني قينقاع وبني النضير الذين تمردوا عليه واستسلموا له فعفا عنهم».

[غزوة بني قريظة لباشميل ١٦٨-١٧٠].

وساطة أبي لبابة رضي الله عنه وإفشاء سر الرسول ﷺ:

«حاول بنو قريظة أن يظفروا بصلح كالذي ناله إخوانهم بنو النضير من قبل، بيد أن المسلمين أبوا عليهم إلا أن يستسلموا دون قيد أو شرط، فإن ما أسلف هؤلاء من جرم بيّن وغدر شائن أحفظ عليهم الصدور، فلم يبق فيها مكان لسماح، وتمحض الموقف للعدل المجرد يقرُّ الأمور في نصابها كيف يشاء». **[فقه السيرة للغزالي ٣٢٤].**

ولكن بني قريظة ـ قبل أن يبلغوا النبي ﷺ قرار استسلامهم رسميًّا ـ قاموا بمحاولة أخرى لعلهم بها ينالون شيئًا من تخفيف العقوبة التي كانوا يتوقعونها جزاء غدرهم وخيانتهم.

فعلى إثر رفض الرسول ﷺ عرضهم الأول والثاني عقدوا اجتماعًا خاصًّا، لبحث ما يجب اتخاذه حيال الموقف المتأزم.

وفي هذا الاجتماع اتفق زعماء قريظة على أن يتصلوا بالنبي القائد ﷺ ويطلبوا منه أن يسمح لحليفهم أبي لبابة الأنصاري رضي الله عنه، بأن يأتي إليهم ليستشيروه في أمرهم.

وكان أبو لبابة رضي الله عنه حليفًا لبني قريظة، وكانت أمواله وولده في منطقتهم، فكانوا لذلك يعتقدون فيه الإخلاص لهم والعطف عليهم.

وقد سمح النبي ﷺ لأبي لبابة رضي الله عنه أن يذهب إلى بني قريظة ـ كما طلبوا ـ لمقابلتهم، فقد استدعاه وقال له: «**اذْهَبْ إِلَى حُلَفَائِكَ، فَإِنَّهُمْ أَرْسَلُوا إِلَيْكَ مِنْ بَيْنِ الأَوْسِ**».

وقد ذهب أبو لبابة ﷺ إلى بني قريظة، وعندما دخل حصنهم الرئيس قام النساء والصبيان يبكون في وجهه من شدة الحصار، ويظهر أن اليهود قد دبروا حشر النساء والصبيان ليجهشوا بالبكاء في وجه أبي لبابة ﷺ للتأثير عليه، وعندما اجتمع اليهود إلى أبي لبابة ﷺ شرحوا له ما هم فيه من جهد وهمٍّ وضيق، واستشاروه: هل من مصلحتهم النزول على حكم النبي ﷺ دونما قيد أو شرط؟

عَنِ ابْنِ أَبِي خَالِدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي قَتَادَةَ، يَقُولُ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال:٢٧]، قَالَ: سَأَلُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ ﷺ بَنُو قُرَيْظَةَ يَوْمَ قُرَيْظَةَ: مَا هَذَا الْأَمْرُ (أي النزول على حكم الله ورسوله)؟ فَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ يَقُولُ: الذَّبْح، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَ: قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ أَبُو لُبَابَةَ ﷺ: **مَا زَالَتْ قَدَمَايَ حَتَّى عَلِمْتُ أَنِّي خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ.** [التفسير من سنن سعيد بن منصور ٥/ ٢٠٥-٢٠٦ رقم ٩٨٧، وقال محققه: سنده رجاله ثقات، لكنه ضعيف لإرساله، فعبد الله بن أبي قتادة تابعي، وقول سفيان معضل. وقال الشيخ الصوياني: حسن، وسنده مرسل. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٠].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: فَلَـمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الحِصَارُ أَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرْسِل إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الـمُنْذِرِ.

فَحَدَّثَنِي رَبِيعَةُ بْنُ الحَارِثِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، عَنْ السَّائِبِ بْنِ أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَـمَّا أَرْسَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يُرْسِلَنِي إِلَيْهِمْ دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**اذْهَبْ إِلَى حُلَفَائِكَ، فَإِنَّهُمْ أَرْسَلُوا إِلَيْكَ مِنْ بَيْنِ الأَوْسِ**».

قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمْ وَقَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الحِصَارُ فَبَهَشُوا (أسرعوا) إِلَيَّ، وَقَالُوا: **يَا أَبَا لُبَابَةَ نَحْنُ مَوَالِيكَ دُونَ النَّاسِ كُلِّهِمْ**، فَقَامَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ، فَقَالَ: **أَبَا بَشِيرٍ قَدْ عَلِمْتَ مَا صَنَعْنَا فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِ قَوْمِكَ يَوْمَ الحَدَائِقِ وَبُعَاثٍ، وَكُلِّ حَرْبٍ كُنْتُمْ فِيهَا، وَقَدْ اشْتَدَّ عَلَيْنَا الحِصَارُ وَهَلَكْنَا، وَمُحَمَّدٌ يَأْبَى يُفَارِقُ حِصْنَنَا حَتَّى نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِهِ، فَلَوْ زَالَ عَنَّا لَحِقْنَا بِأَرْضِ الشَّامِ أَوْ خَيْبَرَ، وَلَمْ نَطَأْ لَهُ حُرًّا أَبَدًا، وَلَمْ نُكْثِرْ عَلَيْهِ جَمْعًا أَبَدًا.**

قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: **أَمَّا مَا كَانَ هَذَا مَعَكُمْ فَلا يَدَعُ هَلاكَكُمْ** ـ وَأَشَرْتُ إِلَى حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، قَالَ كَعْبٌ: **هُوَ وَاللهِ أَوْرَدَنِي ثُمَّ لَمْ يُصْدِرْنِي**، فَقَالَ حُيَيٌّ: **فَمَا أَصْنَعُ؟ كُنْت أَطْمَعُ فِي أَمْرِهِ، فَلَـمَّا أَخْطَأَنِي آسَيْتُكَ بِنَفْسِي، يُصِيبُنِي مَا أَصَابَكَ.**

قَالَ كَعْبٌ: **وَمَا حَاجَتِي إِلَى أَنْ أُقْتَلَ أَنَا وَأَنْتَ وَتُسْبَى ذَرَارِيُّنَا؟**

قَالَ حُيَيٌّ: **مَلحَمَةٌ وَبَلاءٌ كُتِبَ عَلَيْنَا.**

ثُمَّ قَالَ كَعْبٌ: **مَا تَرَى، فَإِنَّا قَدْ اخْتَرْنَاك عَلَى غَيْرِك؟ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ أَبَى إِلَّا أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِهِ أَفَنَنْزِلُ؟**

قَالَ: **نَعَمْ فَانْزِلُوا** ـ وَأَوْمَأَ إِلَى حَلقِهِ هُوَ الذَّبْحُ. (كأن أبا لبابة فهم ذلك من عدم إجابة الرسول ﷺ لهم بحقن دمائهم، وعرف أن الرسول ﷺ سيذبحهم إن نزلوا على حكمه، وبهذا أشار لبني قريظة. يراجع: شرح المواهب).

قَالَ: **فَنَدِمْتُ فَاسْتَرْجَعْتُ**، فَقَالَ لِي كَعْبٌ: **مَا لَكَ يَا أَبَا لُبَابَةَ؟** فَقُلْتُ: **خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ**، فَنَزَلتُ وَإِنَّ لِحْيَتِي لَمُبْتَلَّةٌ مِنَ الدُّمُوعِ، وَالنَّاسُ يَنْتَظِرُونَ رُجُوعِي إِلَيْهِمْ، حَتَّى أَخَذْتُ مِنْ وَرَاءِ الحِصْنِ طَرِيقًا آخَرَ حَتَّى جِئْت إِلَى المَسْجِدِ فَارْتَبَطْتُ، فَكَانَ ارْتِبَاطِي إِلَى الأُسْطُوَانَةِ المُخَلَّقَةِ (أي التي طليت بالخلوق، وهو ما يخلق به من الطيب) الَّتِي تُقَالُ [لها]: أُسْطُوَانَةُ التَّوْبَةِ ـ وَيُقَالُ: لَيْسَ تِلكَ إِنَّمَا ارْتَبَطَ إِلَى أُسْطُوَانَةٍ كَانَتْ وِجَاهَ المِنْبَرِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ. وَهَذَا أَثْبَتُ القَوْلَيْنِ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٥-٥٠٧**].

وقد ارتكب أبو لبابة ﷺ غلطة كبيرة اعترف هو فيها بعد بأنها خيانة كبرى، فقد رق أبو لبابة ﷺ عندما رأى النساء والصبيان يبكون في وجهه، فتغلبت عليه العاطفة، فانحرفت به عن جادة الصواب.

وَقال البيهقي:... فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ بِكَتَائِبِ الـمُسْلِمِينَ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَرَدَّ اللهُ ﷻ حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ، حَتَّى دَخَلَ حِصْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَذَفَ اللهُ ﷻ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الحِصَارُ؛ فَصَرَخُوا بِأَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ المُنْذِرِ وَكَانُوا حُلَفَاءَ لِلأَنْصَارِ، فَقَالَ أَبُو لُبَابَةَ: **لَا آتِيهِمْ، حَتَّى يَأْذَنَ لِي رَسُولُ الله** ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قَدْ أَذِنْتُ لَكَ**»، فَأَتَاهُمْ أَبُو لُبَابَةَ، فَبَكَوْا إِلَيْهِ وَقَالُوا: **يَا أَبَا لُبَابَةَ، مَاذَا تَرَى؟ وَمَاذَا تَأْمُرُنَا؟ فَإِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِالقِتَالِ**، فَأَشَارَ أَبُو لُبَابَةَ بِيَدِهِ إِلَى حَلقِهِ، وَأَمَرَّ عَلَيْهِ أَصَابِعَهُ، يُرِيهِمْ أَنَّمَا يُرَادُ بِكُمُ القَتْلُ. [**دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٣**].

وقال ابن إسحاق: ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ أَنْ ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ المُنْذِرِ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَكَانُوا حُلَفَاءَ الأَوْسِ؛ لِنَسْتَشِيرَهُ فِي أَمْرِنَا، فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامَ إِلَيْهِ الرِّجَالُ وَجَهَشَ (بكى) إِلَيْهِ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ يَبْكُونَ فِي وَجْهِهِ، فَرَقَّ لَهُمْ، وَقَالُوا لَهُ: يَا أَبَا لُبَابَةَ أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: **نَعَمْ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلقِهِ إِنَّهُ الذَّبْحُ**.

قَالَ أَبُو لُبَابَةَ ﷺ: **فَوَالله مَا زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانِهِمَا حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي قَدْ خُنْتُ اللهَ** ﷻ **وَرَسُولَهُ** ﷺ.

ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو لُبَابَةَ ﷺ عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ الله ﷺ حَتَّى ارْتَبَطَ فِي المَسْجِدِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِهِ وَقَالَ: **لَا أَبْرَحُ مَكَانِي هَذَا حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ مِمَّا صَنَعْتُ**، وَعَاهَدَ اللهَ: **أَنْ لَا أَطَأَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَدًا، وَلَا أُرَى فِي بَلَدٍ خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيهِ أَبَدًا**». [**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٦-٢٣٧، دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٦**].

إن أبا لبابة المؤمن الصادق، لم يكد ينطق بآخر كلمة من هذه الإشارة حتى أسقط في يده، وأدرك عظم الخطيئة التي ارتكبها في حق نبيه وأمته.

ما نزل في موقف أبي لبابة ﷺ:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أَبِي لُبَابَةَ ﷺ فِيمَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي قَتَادَةَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال]». [**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٧**].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَنَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الـمُنْذِرِ ﷺ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾[التوبة].

وَيُقَال: نَزَلَتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[الأنفال:٢٧].

وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: نَزَلَتْ فِيهِ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ الآيَةَ [المائدة:٤١].

وَأَثْبَتُ ذَلِكَ عِنْدَنَا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾. **[المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٩]**.

أبو لبابة ﷺ يربط نفسه في المسجد:

ولقد ضاقت الأرض على أبي لبابة ﷺ بما رحبت، وأخذ ضميره في تأنيبه وتقريعه على ما فعل، وفورًا غادر أبو لبابة ﷺ حصن حليفه كعب بن أسد مهمومًا حزينًا.

وخجلًا من رسول الله ﷺ لم يذهب إليه، وإنما توجه إلى المسجد والدموع تسيل من عينيه، وقرر أن يربط نفسه بسارية من سواري المسجد إلى أن يموت أو يتوب الله عليه.

ولقد كان امتحانًا نفسيًّا قاسيًا تعرَّض له هذا الصحابي الجليل، فقد ربط نفسه بسلسلة ثقيلة بالأسطوانة التي ينصرف إليها رسول الله ﷺ من صلاة الصبح، وهي تقع عند باب أم سلمة.

موقف الرسول ﷺ من أبي لبابة ﷺ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَـمَّا بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ خَبَرُهُ، وَكَانَ قَدْ اسْتَبْطَأَهُ قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ لَوْ جَاءَنِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمَّا إِذْ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ فَمَا أَنَا بِالَّذِي أُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ**».

[السيرة لابن هشام ٢/ ٢٣٧].

هَكَذَا قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ بِإِسْنَادِهِ، وَزَعَمَ سَعِيدُ بْنُ الـمُسَيِّبِ أَنَّ ارْتِبَاطَهُ بِسَارِيَةِ التَّوْبَةِ كَانَ بَعْدَ تَخَلُّفِهِ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، حِينَ أَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَهُوَ عَلَيْهِ عَاتِبٌ بِمَا فَعَلَ يَوْمَ قُرَيْظَةَ، ثُمَّ تَخَلَّفَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فِيمَنْ تَخَلَّفَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَفِي رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، وَعَطِيَّةَ بْنِ سَعْدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ارْتِبَاطِهِ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، مَا يُؤَكِّدُ قَوْلَ ابْنِ الـمُسَيِّبِ. **[دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٦]**.

فَلَـمَّا انْصَرَفَ أَبُو لُبَابَةَ سُقِطَ فِي يَدِهِ وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ، فَقَالَ: وَالله لَا أَنْظُرُ فِي وَجْهِ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى أُحْدِثَ لله ﷻ تَوْبَةً نَصُوحًا، يَعْلَمُهَا اللهُ ﷻ مِنْ نَفْسِي، فَرَجَعَ إِلَى الـمَدِينَةِ، فَرَبَطَ يَدَيْهِ إِلَى جِذْعٍ مِنْ جُذُوعِ الـمَسْجِدِ، فَزَعَمُوا أَنَّهُ ارْتَبَطَ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ كَمَا ذُكِرَ حِينَ رَاثَ (أبطأ) عَلَيْهِ أَبُو لُبَابَةَ ﷺ: «**أَمَا فَرَغَ أَبُو لُبَابَةَ مِنْ حُلَفَائِهِ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، قَدْ وَالله انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِ الحِصْنِ، وَمَا نَدْرِي أَيْنَ سَلَكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَقَدْ حَدَثَ لِأَبِي لُبَابَةَ أَمْرٌ، مَا**

كَانَ عَلَيْهِ؟» فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ عِنْدِ الـمَسْجِدِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ رَأَيْتُ أَبَا لُبَابَةَ ارْتَبَطَ بِحَبْلٍ إِلَى جِذْعٍ مِنْ جُذُوعِ المَسْجِدِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَقَدْ أَصَابَتْهُ بَعْدِي فِتْنَةٌ، وَلَوْ جَاءَنِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَإِذْ فَعَلَ هَذَا فَلَنْ أُحَرِّكَهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيهِ مَا يَشَاءُ**». [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٣-١٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَبَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ ذَهَابِي وَمَا صَنَعْتُ، فَقَالَ: «**دَعُوهُ حَتَّى يُحْدِثَ اللهُ فِيهِ مَا يَشَاءُ، لَوْ كَانَ جَاءَنِي اسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمَّا إِذْ لَمْ يَأْتِنِي وَذَهَبَ فَدَعُوهُ**»، قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: فَكُنْتُ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَأَذْكُرُ رُؤْيَا رَأَيْتُهَا.

فَحَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَيُّوبَ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ وَنَحْنُ مُحَاصِرُو بَنِي قُرَيْظَةَ كَأَنِّي فِي حَمْأَةٍ آسِنَةٍ، فَلَمْ أَخْرُجْ مِنْهَا حَتَّى كِدْتُ أَمُوتُ مِنْ رِيحِهَا، ثُمَّ أَرَى نَهَرًا جَارِيًا، فَأَرَانِي اغْتَسَلْتُ مِنْهُ حَتَّى اسْتَنْقَيْتُ، وَأَرَانِي أَجِدُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَاسْتَعْبَرَهَا أَبُو بَكْرٍ ﷺ، فَقَالَ: لَتَدْخُلَنَّ فِي أَمْرٍ تَغْتَمَّ لَهُ ثُمَّ يُفَرَّجُ عَنْكَ، فَكُنْتُ أَذْكُرُ قَوْلَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ وَأَنَا مُرْتَبِطٌ، فَأَرْجُو أَنْ تَنْزِلَ تَوْبَتِي.

فَحَدَّثَنِي مَعْمَرٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ اسْتَعْمَلَ أَبَا لُبَابَةَ ﷺ عَلَى قِتَالِهِمْ، فَلَـمَّا أَحْدَثَ مَا أَحْدَثَ عَزَلَهُ، وَاسْتَعْمَلَ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ، وَارْتَبَطَ أَبُو لُبَابَةَ سَبْعًا بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِنْدَ الأُسْطُوَانَةِ الَّتِي عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ لا يَأْكُلُ فِيهِنَّ وَلا يَشْرَبُ، وَقَالَ: لا أَزَالُ هَكَذَا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا أَوْ يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٧].

توبة الله ﷻ على أبي لبابة ﷺ:

وبعد أن أقام هذا الصحابي الممتحَن مربوطًا ما شاء الله أن يقيم تاب الله عليه وأطلقه الرسول ﷺ بيده الكريمة.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الله بنِ قُسَيْطٍ: أَنَّ تَوْبَةَ أَبِي لُبَابَةَ ﷺ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْ السَّحَرِ وَهُوَ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ مِنَ السَّحَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ الله؟ أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ، قَالَ: **تِيبَ عَلَى أَبِي لُبَابَةَ**، قَالَتْ: قُلْتُ: أَفَلا أُبَشِّرُهُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: **بَلَى، إِنْ شِئْتِ**.

قَالَ: فَقَامَتْ عَلَى بَابِ حُجْرَتِهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْهِنَّ الحِجَابُ، فَقَالَتْ: **يَا أَبَا لُبَابَةَ، أَبْشِرْ فَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَيْكَ**.

قَالَتْ: فَثَارَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيُطْلِقُوهُ، فَقَالَ: **لَا وَالله حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ الله ﷺ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُنِي بِيَدِهِ**، فَلَـمَّا مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ خَارِجًا إِلَى صَلَاةِ الصُّبْحِ أَطْلَقَهُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَقَامَ أَبُو لُبَابَةَ ﷺ مُرْتَبِطًا بِالجِذْعِ سِتَّ لَيَالٍ تَأْتِيهِ امْرَأَتُهُ فِي كُلِّ وَقْتِ صَلَاةٍ فَتَحُلُّهُ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَرْتَبِطُ بِالجِذْعِ، فِيمَا حَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ العِلمِ، وَالآيَةُ الَّتِي نَزَلَتْ فِي تَوْبَتِهِ قَوْلُ الله ﷻ:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [التوبة]».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٧-٢٣٨].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالَ: فَلَمْ يَزَل كَذَلِكَ حَتَّى مَا يَسْمَعُ الصَّوْتَ مِنَ الجَهْدِ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، ثُمَّ تَابَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَنُودِيَ: **إِنَّ اللهَ قَدْ تَابَ عَلَيْكَ**، وَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ لِيُطْلِقَ عَنْهُ رِبَاطَهُ، فَأَبَى أَنْ يُطْلِقَهُ عَنْهُ أَحَدٌ غَيْرُ رَسُولِ الله ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ بِنَفْسِهِ فَأَطْلَقَهُ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَحَدَّثَتْنِي هِنْدُ بِنْتُ الحَارِثِ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَحِلُّ عَنْهُ رِبَاطَهُ، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَيَرْفَعُ صَوْتَهُ يُكَلِّمُهُ وَيُخْبِرُهُ بِتَوْبَتِهِ، وَمَا يَدْرِي كَثِيرًا مِمَّا يَقُولُ مِنَ الجَهْدِ وَالضَّعْفِ.

وَيُقَالُ: مَكَثَ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرْبُوطًا، وَكَانَتْ ابْنَتُهُ تَأْتِيهِ بِتَمَرَاتٍ لِفِطْرِهِ فَيَلُوكُ مِنْهُنَّ وَيَتْرُكُ، وَيَقُولُ: **وَالله مَا أَقْدِرُ عَلَى أَنْ أَسِيغَهَا فَرَقًا أَلَّا تَنْزِلَ تَوْبَتِي**، وَتُطْلِقُهُ عِنْدَ وَقْتِ كُلِّ صَلاةٍ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ تَوَضَّأَ، وَإِلَّا أَعَادَتْ الرِّبَاطَ، وَلَقَدْ كَانَ الرِّبَاطُ حَزَّ فِي ذِرَاعَيْهِ، وَكَانَ مِنْ شَعَرٍ، وَكَانَ يُدَاوِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ دَهْرًا، وَكَانَ ذَلِكَ يَبِينُ فِي ذِرَاعَيْهِ بَعْدَ مَا بَرِئَ، وَقَدْ سَمِعْنَا فِي تَوْبَتِهِ وَجْهًا آخَرَ.

حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ يَزِيدَ بْنِ قُسَيْطٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ ثَوْبَانَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: إِنَّ تَوْبَةَ أَبِي لُبَابَةَ نَزَلَتْ فِي بَيْتِي، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَضْحَكُ فِي السَّحَرِ، فَقُلْتُ: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ الله أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ؟ قَالَ: «**تِيبَ عَلَى أَبِي لُبَابَةَ**»، قَالَتْ: قُلت: أُوذِنُهُ بِذَلِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**مَا شِئْتِ**»، قَالَتْ: فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الحُجْرَةِ ـ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الحِجَابُ ـ فَقُلْتُ: **يَا أَبَا لُبَابَةَ أَبْشِرْ فَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَيْكَ**، فَثَارَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيُطْلِقُوهُ.

فَقَالَ أَبُو لُبَابَةَ: لا، حَتَّى يَأْتِيَ رَسُولُ الله، فَيَكُونَ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُ عَنِّي، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الصُّبْحِ أَطْلَقَهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٧-٥٠٩].

يمنعه الرسول ﷺ من التصدق بكل ماله:

وكم كانت فرحة هذا الصحابي الجليل أبي لبابة رضي الله عنه بقبول الله توبته حتى إنه أراد أن ينخلع من كل ماله تكميلًا لتوبته.

قال الواقدي: حَدَّثَنِي مَعْمَرٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: جَاءَ أَبُو لُبَابَةَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: **أَنَا أَهْجُرُ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا هَذَا الذَّنْبَ، فَأَخْرُجُ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى الله وَرَسُولِهِ**، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يُجْزِئُ عَنْكَ الثُّلُثُ**»، فَأَخْرَجَ الثُّلُثَ، وَهَجَرَ أَبُو لُبَابَةَ رضي الله عنه دَارَ قَوْمِهِ، ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَبِنْ فِي الإِسْلامِ مِنْهُ إِلَّا خَيْرٌ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٩].

انهيار اليهود في المقاومة:

يقول أ/ باشميل: «لقد كانت استشارة أبي لبابة ﵁ آخر محاولة يقوم بها بنو قريظة للحصول على أي شرط يحقنون به دماءهم عند الاستسلام، ولكنهم بدلًا من أن يظفروا بشيء من ذلك تلقوا من أبي لبابة ﵁ (بإشارته تلك) ما يؤكد لهم أن الموت مصيرهم إن هم استسلموا للمسلمين ونزلوا على حكم النبي ﷺ.

وبهذا انقطع آخر خيط من الأمل لهم في التخفيف، وبدلًا من أن يكون ذلك حافزًا لهم على الاستبسال والقتال حتى الموت تملَّكهم الرعب والفزع وسيطرت عليهم روح الجبن، فانهاروا كليًا.

لقد كان بوسع بني قريظة ـ وخاصة في ذلك الظرف ـ أن يستمروا في المقاومة لأشهر طويلة، يكسبون فيها بعض التنازلات من جانب المسلمين كالاكتفاء بنفيهم من المدينة.

لقد كان المسلمون المحاصِرون لهم في حالة تعب شديد نتيجة الجهد المضني الذي بذلوه في ليالي الخندق التي تحالف فيها البلاء على المسلمين وأحاطهم من كل جانب طيلة أكثر من خمس وعشرين ليلة، حُرموا فيها حتى النوم لشدة الخوف ودوام الحراسة والمرابطة في وجه عدوهم الجبار المحاصر لهم والذي ما كان يترك لهم فرصة يستريحون فيها.

يضاف إلى ذلك أن المسلمين كانوا في حالة مجاعة شديدة، والجو كان مع ذلك في غاية البرودة، فكان المسلمون يرابطون حول اليهود في العراء فيتعرضون للفح البرد الشديد مع شدة الجوع، بينما بنو قريظة ـ وهم من أثرى سكان يثرب ـ يحتمون بحصونهم المنيعة الشامخة في مأمن من لفح البرد القارس، موفورًا لديهم كل ما يحتاجونه من الطعام لأشهر طويلة، كما أن الماء كان موجودًا لديهم بصفة دائمة داخل الحصون حيث كانت هذه الحصون تحتوي على آبار كثيرة.

ولكن اليهود ـ مع كل هذه العوامل التي توحي بقوتهم المادية التي تمكنهم من الاستمرار في المقاومة لمدة طويلة ـ قد انهارت أعصابهم وتحطمت معنوياتهم إلى درجة لم يحتملوا معها الحصار أكثر من خمس وعشرين ليلة.

فقد قذف الله في قلوبهم الرعب، وهم على تلك الحالة من القوة والمنعة والتحصن ووفرة السلاح وكثرة العدد، فكانوا يفكرون في كل شيء إلا استعمال السلاح للدفاع عن حصونهم.

قال اللواء الركن محمود شيت خطاب في كتابه (الرسول القائد ﷺ): «لم تكن حرب بني قريظة حرب ميدان، وإنما كانت حرب أعصاب، فلم يستطع يهود أن يتحملوا الحصار على الرغم من توفر المواد الغذائية لديهم وتوفر المياه والآبار ومناعة حصونهم وصعوبة اقتحامها، فآثروا الاستسلام على مكابدة الحصار.

والحق أن الموقف العسكري كان إلى جانبهم لتلك الأسباب كلها؛ ولشدة تعب المسلمين، ولبرودة الطقس، ولكن معنوياتهم المنحطة انهارت، فلم يقاوموا طويلًا كما كان المؤمل».

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٤٦].

على أن سفاهتهم لم تغنهم، فقد أحكم المسلمون الحصار عليهم، وأمسكوا بخناقهم، فاستيقن القوم أن الاستسلام لا محيص عنه، وامتلأت قلوبهم باليأس والفزع». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٧٦-١٧٨].

إسْلامُ بَعْضِ بَنِي هَدَل:

روى البيهقي بسنده عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ شَيْخٍ مِنْ قُرَيْظَةَ أَنَّهُ قَالَ: هَلْ تَدْرِي عَمَّ كَانَ إِسْلَامُ ثَعْلَبَةَ وَأُسَيْدٍ ابْنَيْ سَعْيَةَ، وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ نَفَرٌ مِنْ هُدَلَ لَمْ يَكُونُوا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَلَا نَضِيرٍ كَانُوا فَوْقَ ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدِمَ عَلَيْنَا رَجُلٌ مِنَ الشَّامِ مِنْ يَهُودَ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْهَيْبَانِ فَأَقَامَ عِنْدَنَا، وَالله مَا رَأَيْنَا رَجُلًا قَطُّ لَا يُصَلِّي الْخَمْسَ خَيْرًا مِنْهُ، فَقَدِمَ عَلَيْنَا قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ الله ﷺ بِسَنَتَيْنِ، فَكُنَّا إِذَا قَحِطْنَا وَقَلَّ عَلَيْنَا الْمَطَرُ نَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ الْهَيْبَانِ اخْرُجْ فَاسْتَسْقِ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا وَالله حَتَّى تُقَدِّمُوا أَمَامَ مَخْرَجِكُمْ صَدَقَةً، فَنَقُولُ: كَمْ نُقَدِّمُ؟ فَيَقُولُ: صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ مُدَّيْنِ مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى ظَاهِرَةِ حَرَّتِنَا [حَيِّنَا] وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَسْتَسْقِي، فَوَالله مَا يَقُومُ مِنْ مَجْلِسِهِ حَتَّى تَمُرَّ الشِّعَابُ [تَسِيلُ]، قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ لَا مَرَّتَيْنِ وَلَا ثَلَاثَةً، فَحَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ فَاجْتَمَعْنَا إِلَيْهِ، فَقَالَ: **يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، مَا تَرَوْنَهُ أَخْرَجَنِي مِنْ أَرْضِ الْخَمْرِ وَالْخَمِيرِ إِلَى أَرْضِ الْبُؤْسِ وَالْجُوعِ؟** فَقُلْنَا: أَنْتَ أَعْلَمُ ، فَقَالَ: **إِنَّهُ إِنَّمَا أَخْرَجَنِي أَتَوَقَّعُ خُرُوجَ نَبِيٍّ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ [يُبْعَثُ الآنَ]، هَذِهِ الْبِلَادُ مُهَاجَرُهُ، فَأَتَّبِعُهُ، فَلَا تُسْبَقُنَّ إِلَيْهِ إِذَا خَرَجَ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، فَإِنَّهُ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَسْبِي الذَّرَارِيَّ وَالنِّسَاءَ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَلَا يَمْنَعْكُمْ ذَلِكَ مِنْهُ،** ثُمَّ مَاتَ، فَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الَّتِي افْتُتِحَتْ فِيهَا قُرَيْظَةُ قَالَ أُولَئِكَ الْفِتْيَةُ الثَّلَاثَةُ، وَكَانُوا شُبَّانًا أَحْدَاثًا: **يَا مَعْشَرَ يَهُودَ لَلَّذِي كَانَ ذَكَرَ لَكُمُ ابْنُ الهَيبَانِ،** قَالُوا: مَا هُوَ؟ قَالُوا: **بَلَى وَالله لَهُوَ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، إِنَّهُ وَالله لَهُوَ لِصِفَتِهِ،** ثُمَّ نَزَلُوا فَأَسْلَمُوا وَخَلَّوْا أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَهَالِيَهُمْ، قَالَ: وَكَانَتْ أَمْوَالُهُمْ فِي الْحِصْنِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا فُتِحَ رُدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ.

[السنن الكبرى للبيهقي كتاب السير ٩/ ١٩٢ رقم ١٨٢٦٣، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣١-٣٢، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٥].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ ثَعْلَبَةَ بْنَ سَعْيَةَ، وَأُسَيْدَ بْنَ سَعْيَةَ، وَأَسَدَ بْنَ عُبَيْدٍ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنْ بَنِي هَدَلٍ لَيْسُوا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَلَا النَّضِيرِ، نَسَبُهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ، هُمْ بَنُو عَمِّ القَوْمِ، أَسْلَمُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ الله ﷺ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٨].

وروى الواقدي بسنده عَنْ ثَعْلَبَةَ بْنِ أَبِي مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ ثَعْلَبَةُ وأُسَيْدُ ابْنَا سَعِيَّةَ، وَأَسَدُ بْنُ عُبَيْدٍ عَمِّهُمْ: **يَا مَعْشَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَالله إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ الله، وَأَنَّ صِفَتَهُ عِنْدَنَا، حَدَّثَنَا بِهَا عُلَمَاؤُنَا**

وَعُلَمَاءُ بَنِي النَّضِيرِ، هَذَا أَوَّلُهُمْ ـ يَعْنِي حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ ـ مَعَ جُبَيْرِ بْنِ الـهَيِّبَانِ أَصْدَقُ النَّاسِ عِنْدَنَا، هُوَ خَبَّرَنَا بِصِفَتِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ.

قَالُوا: **لا نُفَارِقُ التَّوْرَاةَ.**

فَلَمَّا رَأَى هَؤُلاءِ النَّفَرُ إِبَاءَهُمْ نَزَلُوا فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي فِي صُبْحِهَا نَزَلَتْ قُرَيْظَةُ، فَأَسْلَمُوا فَأَمِنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٣].

التهديد باقتحام حصون اليهود والنزول على حكم سعد ﷺ:

يقول أ/ باشميل: «ومع شدة الجزع والانهيار الكلي الذي عم حملة السلاح من اليهود فقد ظلوا يماطلون في التسليم في انتظار معجزة خارقة تتدخل لإنقاذهم من وحل الورطة الخانقة، ولكن هيهات، فالمسلمون لما رأوا مماطلة اليهود في التسليم ـ مع الانهيار الذي لاحظوه عليهم ـ أرهبوهم إرهابًا شديدًا إذ أعلنوا أنهم سيقتحمون الحصون ويفتحونها بحد السيف.

لقد كان المسلمون دونما شك يفضلون أن يتم استسلام بني قريظة دونما قتال؛ ولهذا ظلوا ـ على ما هم فيه من تعب وجوع ـ يحاصرونهم أكثر من عشرين ليلة.

ولكنهم لما رأوا مماطلتهم في الاستسلام، ورأوا أن بقاء القوات الإسلامية مرابطة في العراء هكذا حول الحصون في ذلك البرد القارس مع قلة المواد الضرورية، مما يعود بالضرر الكبير على القوات الإسلامية المحاصرة وقد يعود بالفائدة على اليهود، قرروا اقتحام الحصون المغلقة وفتحها مهما كان الثمن». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٧٨].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: حَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ أَثِقُ بِهِ مِنْ أَهْلِ العِلمِ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ صَاحَ وَهُمْ مُحَاصِرُو بَنِي قُرَيْظَةَ: **يَا كَتِيبَةَ الإِيمَانِ،** وَتَقَدَّمَ هُوَ وَالزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ ﷺ، وَقَالَ: **وَاللهِ لَأَذُوقَنَّ مَا ذَاقَ حَمْزَةُ أَوْ لَأَفْتَحَنَّ حِصْنَهُمْ،** فَقَالُوا: **يَا مُحَمَّدُ نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٠].

يقول د/ هيكل: «فاختار اليهود سعد بن معاذ ﷺ، وكأنما أعماهم القدر عما كتب لهم في لوح حظهم، فأنساهم مقدم سعد ﷺ إليهم أول نقضهم عهدهم، وتحذيره إياهم، ووقوعهم في محمد ﷺ أمامه، وسبهم المسلمين بغير حق». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤٩].

ويقول الشيخ الغزالي: «وكان سعد ﷺ سيد الأوس، وهم حلفاء قريظة في الجاهلية، وقد توقع يهود أن هذه الصلة تنفعهم، وتوقع الأوس أيضًا من رجلهم أن يتساهل مع أصدقائهم الأقدمين، فلما استقدمه الرسول ﷺ ليصدر حكمه، جاء من الخيمة التي يمرَّض فيها إثر إصابته بسهام الأحزاب، واكتنفه قومه يقولون له: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك...

لكن سعدًا ﷺ لم ينس ـ في ضجيج الرجاء الموجه إليه ـ أن الإسلام وأبناءه، والمدينة وثمارها وحرثها ونسلها وحرماتها، لم تنج من وطأة الأحزاب الهاجمين إلا بأعجوبة خارقة، وأن بني قريظة

هؤلاء ومن آووهم، كانوا المحرِّضين والشركاء المقبوحين في هذه الحرب التي أُعلنت لاستئصال التوحيد الحق واجتياح أهله.

ولم ينس سعد ﭬ كيف نقضت قريظة عهدها، واستقبلته بالألفاظ البذيئة عندما ذهب يناشدهم الوفاء! ألم يقل لهم يومئذ: **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ بَنِي النَّضِيرِ**، فكان ردهم عليه: **أَكَلتَ أَيْرَ أَبِيكَ!**

لذلك ما لبث سعد ﭬ أن صاح بقومه ـ وقد أكثروا عليه الرجاء ـ: **لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ**. [فقه السيرة للغزالي ٣٢٥-٣٢٦].

استسلام اليهود وانتهاء الحصار:

ويقول أ/ باشميل: «وبعد هذا الإنذار الذي سمعه اليهود من حامل لواء الجيش علي بن أبي طالب ﭬ، تحركت قطاعات الجيش الإسلامي وتأهبت للهجوم العام، واقتحام الحصون كلها في هجوم كاسح.

ولكن اليهود ـ وهذا الذي كانت تتوقعه القيادة الإسلامية منهم ـ لما رأوا كتائب الجيش الإسلامي تتحرك، وأيقنوا أن الهجوم على حصونهم أمر لا مفر منه، طلبوا إيقاف الهجوم، وأعلنوا الاستسلام والنزول على حكم الرسول ﷺ دونما قيد أو شرط.

فأوقف المسلمون الهجوم، وسارع اليهود إلى فتح أبواب معاقلهم وحصونهم فورًا، بعد أن ألقوا سلاحهم وأخذوا في مغادرة الحصون مستسلمين.

فابتدرهم جند الإسلام لحراستهم وصاروا يجمعونهم منعزلين في ناحية، وبعد أن تكامل خروجهم من الحصون ـ رجالًا ونساء وأطفالًا ـ أمر النبي القائد ﷺ باعتقال الرجال ووضع القيود في أيديهم، وقد تم ذلك تحت إشراف الرئيس محمد بن مسلمة الأنصاري ﭬ قائد الحرس النبوي.

أما النساء والذراري، فقد أمر النبي ﷺ بعزلهم عن الرجال البالغين فجعلوا ناحية، بعد أن أوكل أمرهم إلى عبد الله بن سلام ﭬ.

وبعد أن تمت عملية الاستسلام أمر النبي ﷺ أن يوضع الرجال في حبس خاص بهم.

أما النساء والذراري فقد أمر ﷺ أن يُحفظوا في كل مكان ليس فيه صفة الحبس والتضييق.

وقد حُبس الرجال من بني قريظة ـ وعددهم حوالي ثمانمائة مقاتل ـ في دار أسامة بن زيد ﭭ.

أما النساء والأطفال، فقد أعدت لهم القيادة النبوية دارًا، ينزلون فيها ليست لها صفة السجن، إذ أمر النبي القائد ﷺ بإنزالهم في دار الضيافة، وهي دار ابنة الحارث النجارية المعدة دائمًا لنزول الوفود التي تقصد المدينة، وكان عدد هؤلاء النساء والذراري يناهز الألف». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٧٨-١٧٩].

عَنْ عَائِشَةَ ﭫ قَالَتْ: ... فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا اشْتَدَّ حَصْرُهُمْ وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ [عَلَيْهِمْ] قِيلَ لَهُمْ: انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ

الْمُنْذِرِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ، قَالُوا: **نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**»، فَنَزَلُوا. [مسند أحمد ٤٢/ ٢٦ عن عائشة رضي الله عنها رقم ٢٥٠٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: بعضه صحيح، وجزء منه حسن وهذا إسناد فيه ضعف عمرو بن علقمة لم يرو عنه غير ابنه محمد، مجمع الزوائد ٦/ ١٩٩-٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٥)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه، رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات، والمصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٦٨-٣٧١ في المغازي (٣٧٩٥١)].

وعَنْ عُرْوَةَ ـ يعني ابن الزبير ـ قَالَ: وَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بني قُرَيْظَةَ حَتَّى سَأَلُوهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَكَمًا يَنْزِلُونَ عَلَى حُكْمِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اخْتَارُوا مِنْ أَصْحَابِي مَنْ أَرَدْتُمْ، فَلْنَسْتَمِعْ لِقَوْلِهِ**»، فَاخْتَارُوا سَعْدَ بن مُعَاذٍ رضي الله عنه، فَرَضِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَسَلَّمُوا، وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَسْلِحَتِهِمْ، فَجُعِلَتْ فِي بَيْتٍ، وَأَمَرَ بِهِمْ فَكُتِّفُوا، وَأُوثِقُوا، فَجُعِلُوا فِي دَارِ أُسَامَةَ بن زَيْدٍ رضي الله عنهما.

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٦)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه عن عائشة رضي الله عنها متصل الإسناد، رواه الطبراني [المعجم الكبير ٦/ ٧٠٨٥ رقم ٥٣٢٧] مرسلًا وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف. وقال محقق المعجم الكبير: قلت: وهذا من الضعيف].

وقال الواقدي: قَالُوا: وَلَـمَّا جَهَدَهُمْ الحِصَارُ وَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَسْرَاهُمْ فَكُتِّفُوا رِبَاطًا، وَجُعِلَ عَلَى كِتَافِهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه وَنُحُّوا نَاحِيَةً، وَأَخْرَجُوا النِّسَاءَ وَالذُّرِّيَّةَ مِنَ الحُصُونِ فَكَانُوا نَاحِيَةً.

وَاسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلامٍ رضي الله عنه، وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِجَمْعِ أَمْتِعَتِهِمْ وَمَا وُجِدَ فِي حُصُونِهِمْ مِنْ الحَلَقَةِ وَالأَثَاثِ وَالثِّيَابِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٩-٥١٠].

المبحث الثالث

محاكمة بني قريظة

الأوس يشفعون لليهود عند رسول الله ﷺ:

يقول أ/ باشميل: «لقد كان بنو قريظة حلفاء الأوس في الجاهلية، كما كان يهود بني النضير وبني قينقاع حلفاء الخزرج.

ولما كانت آثار هذا الحلف لا تزال قائمة حتى بعد مجيء الإسلام، حيث ظل الحليف يبذل لحليفه كل عون يقدر عليه ـ وإن اختلفا في الدين والعقيدة ـ دون أن يعترض الإسلام على ذلك.

فقد توجه وفد من وجوه الأوس إلى رسول الله ﷺ للتوسط لديه بشأن حلفائهم اليهود.

ولما اجتمع وفد الشفاعة من الأوس بالنبي ﷺ تقدموا إليه بالتماس، طلبوا فيه أن يتكرم بالتخفيف من عقوبة هؤلاء اليهود ولو بالاكتفاء بنفيهم من المدينة.

وقد ذكَّر وفد الشفاعة هذا النبي ﷺ بموقف التسامح الذي وقفه من حلفاء الخزرج (يهود بني قينقاع) الذين قبل فيهم (عندما نزلوا على حكمه) شفاعة زعيم الخزرج عبد الله بن أُبي، فاكتفى في معاقبتهم بنفيهم من المدينة». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٨٠-١٨١].

قَالَ ابن إسحاق: فَلَـمَّا أَصْبَحُوا نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ الله ﷺ فَتَوَاثَبَتِ الأَوْسُ، فَقَالُوا: **يَا رَسُولَ الله إِنَّهُمْ مَوَالِينَا دُونَ الخَزْرَجِ، وَقَدْ فَعَلتَ فِي مَوَالِي إِخْوَانِنَا بِالأَمْسِ مَا قَدْ عَلِمْتَ** ـ وَقَدْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَبْلَ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ حَاصَرَ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَكَانُوا حُلَفَاءَ الخَزْرَجِ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ فَسَأَلَهُ إِيَّاهُمْ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولَ فَوَهَبَهُمْ لَهُ ـ فَلَـمَّا كَلَّمَتْهُ الأَوْسُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَوْسِ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟**»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ رَسُولُ الله: «**فَذَاكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي خَارِجَةُ بْنُ عَبْدِ الله، عَنْ دَاوُدَ بْنِ الحُصَيْنِ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه قَالَ: وَتَنَحَّى رَسُولُ الله ﷺ فَجَلَسَ، وَدَنَتْ الأَوْسُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالُوا: **يَا رَسُولَ الله، حُلَفَاؤُنَا دُونَ الخَزْرَجِ، وَقَدْ رَأَيْتَ مَا صَنَعْتَ بِبَنِي قَيْنُقَاعَ بِالأَمْسِ حُلَفَاءِ ابْنِ أُبَيٍّ، وَهَبْتَ لَهُ ثَلاثَمِائَةِ حَاسِرٍ وَأَرْبَعَمِائَةِ دَارِعٍ، وَقَدْ نَدِمَ حُلَفَاؤُنَا عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَقْضِهِمْ العَهْدَ فَهَبْهُمْ لَنَا**، وَرَسُولُ الله ﷺ سَاكِتٌ لا يَتَكَلَّمُ حَتَّى أَكْثَرُوا عَلَيْهِ وَأَلَحُّوا، وَنَطَقَتْ الأَوْسُ كُلُّهَا.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونَ الحُكْمُ فِيهِمْ إِلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ؟**» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**فَذَلِكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**»، وَسَعْدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الـمَسْجِدِ فِي خَيْمَةِ كُعَيْبَةَ بِنْتِ سَعْدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَكَانَتْ تُدَاوِي

الجَرْحَى، وَتَلُمُّ الشَّعَثَ وَتَقُومُ عَلَى الضَّائِعِ وَالَّذِي لا أَحَدَ لَهُ، وَكَانَ لَهَا خَيْمَةٌ فِي المَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ جَعَلَ سَعْدًا رضي الله عنه فِيهَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥١٠].

تحكيم سعد بن معاذ رضي الله عنه في بني قريظة:

يقول أ/ باشميل: «ومع فظاعة الجريمة، جريمة الغدر والنكث والخيانة العظمى التي ارتكبها يهود بني قريظة، فإن النبي ﷺ ـ بما جُبل عليه من نبل وشهامة ومراعاة لعواطف أصحابه، الذين آووا ونصروا ـ لم يشأ أن يرفض وساطة الأوس في حلفائهم القدامى اليهود.

بل مراعاة لهؤلاء الصحابة الأجلاء الذين ـ تحت ضغط رماحهم وإرهاب سيوفهم استسلم هـؤلاء المجرمون من اليهود ـ جعل مصيرهم في أيدي الأوس أنفسهم، حيث فوض أمر هؤلاء اليهود إلى سيد الأوس، سعد بن معاذ رضي الله عنه ليحكم فيهم بما يريه الله تعالى.

وقد طابت نفس الأوس من صحابة محمد ﷺ بهذا التفـويض حيـث كـانوا يـأملون مـن ورائـه أن يخفف سيدهم سعد بن معاذ رضي الله عنه من عقوبة حلفائه.

إلا أن حكم سيدهم سعد رضي الله عنه في هؤلاء اليهود جاء على خلاف ما كان يتوقع قومه».

[غزوة بني قريظة لباشميل ١٨١].

روى البيهقي بسنده عَنِ ابْنِ شِهَابٍ وعَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ سَأَلُوهُ أَنْ يُحَكِّمَ فِيهِمْ رَجُلًا: «**اخْتَارُوا مَنْ شِئْتُمْ مِنْ أَصْحَابِي**»، فَاخْتَارُوا سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه، فَرَضِيَ بِذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ، فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِسِلَاحِهِمْ، فَجُعِلَ فِي قُبَّتِهِ، وَأَمَرَ بِهِمْ فَكُتِّفُوا، وَأُوثِقُوا، وَجُعِلُوا فِي دَارِ أُسَامَةَ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٩].

وروى البيهقي بسنده عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، قَالَ: وَأَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، حَتَّى سَأَلُوهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ حَكَمًا، يَنْزِلُونَ عَلَى حُكْمِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اخْتَارُوا مِنْ أَصْحَابِي مَنْ أَرَدْتُمْ**» وَذَكَرَ القِصَّةَ بِمَعْنَى مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، إِلَّا أَنَّهُ زَادَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧] فَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا خَيْبَرُ، وَلَا أَحْسَبُهَا إِلَّا كُلَّ أَرْضٍ فَتَحَهَا اللهُ عز وجل عَلَى الـمُسْلِمِينَ، أَوْ هُوَ فَاتِحُهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

[دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٢].

الحَكَمُ الجريح:

يقول أ/ باشميل: «ولم يكن سعد بن معاذ رضي الله عنه ممن اشتركوا في عملية حصار بني قريظة؛ لأنه كان في المدينة، تحت العلاج من جرحه الخطير الذي أصابه وقطع شريانه يوم الخندق، نتيجة سهم أصابه به أحد فرسان المشركين عبر الخندق.

وكانت تقوم بعلاج سعد ﷺ الجريح سيدة صحابية جليلة صالحة كانت قد أقامت لها خيمة في المسجد النبوي، تحتسب فيها عند الله القيام بمداواة جرحى المعارك من الصحابة ممن لم يكن له من يعالجه من أهله.

وسعد بن معاذ ﷺ ليس من هذا النوع؛ لأنه سيد الأوس وله أهله وعشيرته القادرون على رعايته وعلاجه، ولكن النبي ﷺ أمر أن يوضع في الخيمة في المسجد، وهدف الرسول ﷺ من هذا هو أن يكون هذا الزعيم الأوسي قريبًا منه فيعوده ويتعرف حاله متى شاء.

وقَالَ ابن إسحاق: وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ جَعَلَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ﷺ فِي خَيْمَةٍ لِامْرَأَةٍ مِنْ أَسْلَمَ (وقيل: إنها أنصارية. راجع: الإصابة وشرح المواهب)، يُقَالُ لَهَا: رُفَيْدَةُ، فِي مَسْجِدِهِ، كَانَتْ تُدَاوِي الجَرْحَى، وَتَحْتَسِبُ بِنَفْسِهَا عَلَى خِدْمَةِ مَنْ كَانَتْ بِهِ ضَيْعَةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ قَالَ لِقَوْمِهِ حِينَ أَصَابَهُ السَّهْمُ بِالخَنْدَقِ: «**اجْعَلُوهُ فِي خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ**». [**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩**].

وبعد أن أبلغ النبي ﷺ أعيان قبيلة الأوس أنه قد جعل أمر حلفائهم اليهود إلى سعد بن معاذ ﷺ ليحكم فيهم بما يريه الله، توجه هؤلاء الأعيان من المعسكر النبوي في بني قريظة إلى المدينة لمقابلة سيدهم الشاب الجريح وإبلاغه القرار النبوي بشأن اليهود.

وقد قابل أعيان الأوس سيدهم سعدًا ﷺ في المسجد النبوي وأخبروه أن النبي ﷺ قد جعل أمر بني قريظة إليه ليحكم فيهم بما يريه الله، وأنه لابد من حضوره إلى حيث يعسكر الجيش الإسلامي في ديار بني قريظة ليبت في موضوعهم.

ولما كان جُرْحُ سعد ﷺ جرحًا خطيرًا، وهو نفسه كان جسيمًا، فقد هيأ له قومه دابة (حمارًا) ليركبه حتى مقر قيادة الرسول ﷺ في بني قريظة». [**غزوة بني قريظة لباشميل ١٨٢-١٨٤**].

شفاعة وجوه الأوس عند سيدهم لليهود:

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن جعل النبي ﷺ مصير يهود بني قريظة في يد حليفهم سعد بن معاذ ﷺ ليحكم فيهم بما شاء، طمع قومه الأوس في أن يصدر عنهم عفوًا ينجيهم من القتل.

ولذلك توجه وفد من زعماء الأوس إلى سيدهم سعد بن معاذ ﷺ ليطلبوا منه أن يرأف في الحكم بحلفائه بني قريظة، ذكَّروه بأن النبي ﷺ لم يجعل إليه أمرهم إلا ليحسن فيهم.

وعندما توجه سعد ﷺ إلى ديار بني قريظة أحاط به وجوه قومه من الأوس وصاروا يستعطفونه ليترفق في حكمه بحلفائهم اليهود.

فلما أكثروا عليه أبلغهم بأنه لن يحكم فيهم إلا بما يستحقون، وأن ما بينهم وبين اليهود من حلف لا يمكن أن يحول بينهم وبين ما يستحقون من عقاب». [**غزوة بني قريظة لباشميل ١٨٤**].

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ:... وَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه فَأُتِيَ بِهِ [فَحُمِلَ] عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ قَدْ حُمِلَ عَلَيْهِ، وَحَفَّ بِهِ قَوْمُهُ، فَقَالُوا: **يَا أَبَا عَمْرٍو، حُلَفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ، وَأَهْلُ النِّكَايَةِ، وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ**، قَالَتْ: وَأَنَّى لَا يُرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ دُورِهِمْ التَفَتَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ: **قَدْ آنَ لِي [لِسَعْدٍ] أَلَّا أُبَالِيَ فِي الله لَوْمَةَ لَائِمٍ**.

[مسند أحمد ٤٢/ ٢٦ -٢٨ رقم ٢٥٠٩٧، وقد سبق تخريجه قريبًا].

وعَنْ عُرْوَةَ - يعني ابن الزبير - قَالَ: وَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى سَعْدِ بن مُعَاذٍ رضي الله عنه، فَأَقْبَلَ عَلَى حِمَارٍ أَعْرَابِيٍّ، يَزْعُمُونَ أَنَّ وَطْأَةَ بَرْذَعِهِ [بَرْدَعَتِهِ] مِنْ لِيفٍ، وَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ مِنْ بني عَبْدِ الأَشْهَلِ، **فَجَعَلَ يَمْشِي مَعَهُ يُعَظِّمُ حَقَّ بني قُرَيْظَةَ، وَيَذْكُرُ حِلفَهُمْ، وَالَّذِي أَبْلَوْهُمْ يَوْمَ بُعَاثٍ، وَأَنَّهُمُ اخْتَارُوكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ رَجَاءَ عَطْفِكَ، وتَحَنُّنِكَ عَلَيْهِمْ، فاسْتَبْقِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَكَ جَمَالٌ وَعَدَدٌ**، قَالَ: فَأَكْثَرَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، وَلَمْ يَحِرْ إِلَيْهِ سَعْدٌ رضي الله عنه شَيْئًا، حَتَّى دَنَوْا، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَلَا تُرْجِعُ إِلَيَّ شَيْئًا؟ فَقَالَ سَعْدٌ: **وَالله لا أُبَالِي فِي الله لَوْمَةَ لائِمٍ**، فَفَارَقَهُ الرَّجُلُ، فَأَتَى إِلَى قَوْمِهِ، قَدْ يَئِسَ مِنْ أَنْ يَسْتَبْقِيَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ بِالَّذِي كَلَّمَهُ بِهِ، وَالَّذِي رَجَعَ إِلَيْهِ.

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٦)، وقد سبق تخريجه قريبًا].

وروى البيهقي بسنده عَنِ ابْنِ شِهَابٍ وعَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ قَالَ:... وَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَأَقْبَلَ عَلَى حِمَارٍ أَعْرَابِيٍّ، يَزْعُمُونَ أَنَّ وَطْأَةَ بَرْذَعَتِهِ مِنْ لِيفٍ، وَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَجَعَلَ يَمْشِي مَعَهُ، وَيُعَظِّمُ حَقَّ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَيَذْكُرُ حِلفَهُمْ، وَالَّذِي أَبْلَوْهُ يَوْمَ بُعَاثٍ، وَيَقُولُ: **اخْتَارُوكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ مِنْ قَوْمِكَ رَجَاءَ رَحْمَتِكَ وَعَطْفِكَ وَتَحَنُّنِكَ عَلَيْهِمْ، فَاسْتَبْقِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَكَ جَمَالٌ وَعَدَدٌ**، قَالَ: فَأَكْثَرَ ذَلِكَ الرَّجُلُ، وَلَا يُرْجِعُ إِلَيْهِ سَعْدٌ شَيْئًا، حَتَّى دَنَوْا، فَقَالَ الرَّجُلُ: أَلَا تُرْجِعُ إِلَيَّ فِيمَا أُكَلِّمُكَ فِيهِ؟ فَقَالَ سَعْدٌ: **قَدْ أَلَّا أَنْ لا تَأْخُذَنِي فِي الله لَوْمَةُ لَائِمٍ**، فَفَارَقَهُ الرَّجُلُ فَأَتَى قَوْمَهُ فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَبْقِيهِمْ، وَأَخبَرَهُمْ بِالَّذِي كَلَّمَهُ بِهِ، وَالَّذِي رَجَعَ سَعْدٌ إِلَيْهِ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٩].

وقَالَ ابن إسحاق: فَلَمَّا حَكَّمَهُ رَسُولُ الله ﷺ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ أَتَاهُ قَوْمُهُ فَحَمَلُوهُ عَلَى حِمَارٍ قَدْ وَطَّؤُوا لَهُ بِوِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ، وَكَانَ رَجُلًا جَسِيمًا جَمِيلًا، ثُمَّ أَقْبَلُوا مَعَهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُمْ يَقُولُونَ: **يَا أَبَا عَمْرٍو، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيكَ، فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ إِنَّمَا وَلَّاكَ ذَلِكَ لِتُحْسِنَ فِيهِمْ**، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ رضي الله عنه: **لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَلَّا تَأْخُذَهُ فِي الله لَوْمَةُ لَائِمٍ**.

فَرَجَعَ بَعْضُ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ إِلَى دَارِ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَنَعَى لَهُمْ رِجَالَ بَنِي قُرَيْظَةَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِمْ سَعْدٌ رضي الله عنه عَنْ كَلِمَتِهِ الَّتِي سَمِعَ مِنْهُ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَلَمَّا جَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ الحُكْمَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه خَرَجَتِ الأَوْسُ، حَتَّى جَاؤُوهُ، فَحَمَلُوهُ عَلَى حِمَارٍ بِشَنَذَةٍ مِنْ لِيفٍ، وَعَلَى الحِمَارِ قَطِيفَةٌ فَوْقَ الشَّنَذَةِ وَخِطَامُهُ حَبْلٌ مِنْ لِيفٍ.

فَخَرَجُوا حَوْلَهُ يَقُولُونَ: **يَا أَبَا عَمْرٍو، إِنَّ رَسُولَ الله قَدْ وَلَّاك أَمْرَ مَوَالِيك لِتُحْسِنَ فِيهِمْ، فَأَحْسِنْ، فَقَدْ رَأَيْتَ ابْنَ أُبَيٍّ وَمَا صَنَعَ فِي حُلَفَائِهِ**، وَالضَّحَّاكُ بْنُ خَلِيفَةَ يَقُولُ: **يَا أَبَا عَمْرٍو، مَوَالِيَكَ، مَوَالِيَكَ، مَوَالِيَكَ قَدْ مَنَعُوك فِي المَوَاطِنِ كُلِّهَا، وَاخْتَارُوكَ عَلَى مَنْ سِوَاك وَرَجَوْا عِيَاذَكَ، وَلَـهُمْ جَمَالٌ وَعِدَدٌ.**

وَقَالَ سَلَمَةُ بْنُ سَلامَةَ بْنِ وَقْشٍ: **يَا أَبَا عَمْرٍو، أَحْسِنْ فِي مَوَالِيك وَحُلَفَائِك، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يُحِبُّ البَقِيَّةَ، نَصَرُوك يَوْمَ البُعَاثِ وَالحَدَائِقِ وَالمَوَاطِنِ، وَلا تَكُنْ شَرًّا مِنْ ابْنِ أُبَيٍّ.**

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ: وَجَعَلَ قَائِلُهُمْ يَقُولُ: **يَا أَبَا عَمْرٍو! وَإِنَّا وَالله قَاتَلنَا بِهِمْ فَقَتَلْنَا، وَعَازَزْنَا بِهِمْ فَعَزَزْنَا.**

قَالُوا: وَسَعْدٌ لا يَتَكَلَّمُ، حَتَّى إِذَا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ قَالَ سَعْدٌ: **قَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَلَّا تَأْخُذَهُ فِي الله لَوْمَةُ لائِمٍ.**

فَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ خَلِيفَةَ: **وَاقَوْمَاهُ!** ثُمَّ رَجَعَ الضَّحَّاكُ إِلَى الأَوْسِ فَنَعَى لَهُمْ بَنِي قُرَيْظَةَ.

وَقَالَ مُعَتِّبُ بْنُ قُشَيْرٍ: **وَاسُوءَ صَبَاحَاهُ.**

وَقَالَ حَاطِبُ بْنُ أُمَيَّةَ الظَّفَرِيُّ: **ذَهَبَ قَوْمِي آخِرَ الدَّهْرِ.** [المغازي للواقدي ٢/ ٥١٠-٥١١].

وأمام هذا التصريح من سعد الزعيم رضي الله عنه يئس قومه من أية تخفيضات يعطيها في حُكمه على اليهود، وتأكد لديهم أن الحكم من سعد رضي الله عنه على بني قريظة سيكون الإعدام، حتى إن بعض الأوس ممن كانوا يسألون سعدًا رضي الله عنه الإحسان إلى بني قريظة قد اعتبر هؤلاء اليهود ـ بعد ذلك التصريح من سعد رضي الله عنه ـ في عداد الأموات ونعاهم إلى قومه قبل أن يصل سعد رضي الله عنه إلى المعسكر النبوي في بني قريظة.

سعد رضي الله عنه في المعسكر النبوي:

ولقد وصل سيد الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه إلى مقر قيادة النبي ﷺ في بنـي قريظـة، وكـان سـعد رضي الله عنه عظيم الشأن عند النبي ﷺ ورفيع المقام بين المسلمين عامة وبين قومه خاصة.

روى أبو داود بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ أَهْلَ قُرَيْظَةَ لَـمَّا نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَرْسَلَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ أَقْمَرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ إِلَى خَيْرِكُمْ**»، فَجَاءَ حَتَّى قَعَدَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ.

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ شُعْبَةَ بِهَذَا الحَدِيثِ، قَالَ: فَلَـمَّا كَانَ قَرِيبًا مِنْ المَسْجِدِ قَالَ لِلأَنْصَارِ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**». [أبو داود في الأدب (٥٢١٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: نَزَلَ أَهْلُ قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ: فَأَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى سَعْدٍ رضي الله عنه، فَأَتَاهُ عَلَى حِمَارٍ، فَلَـمَّا دَنَا قَرِيبًا مِنَ المَسْجِدِ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ خَيْرِكُمْ**»، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ**». [مسند أحمد ١٧/ ٢٥٩، ٢٦٢ رقم ١١١٦٨، ١١١٧٠، ١٨/ ٢١٦-٢١٧ رقم ١١٦٨٠ وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: ... قَالَ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَلَـمَّا طَلَعَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ فَأَنْزِلُوهُ**»، فَقَالَ عُمَرُ ﵁: سَيِّدُنَا اللهُ ﷻ، قَالَ: «**أَنْزِلُوهُ**»، فَأَنْزَلُوهُ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**احْكُمْ فِيهِمْ**». [مسند أحمد ٤٢/ ٢٦ -٢٨ رقم ٢٥٠٩٧، وقد سبق تخريجه قريبًا].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَأَقْبَلَ سَعْدٌ ﵁ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَالنَّاسُ حَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ جُلُوسٌ، فَلَـمَّا طَلَعَ سَعْدٌ ﵁ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**»، فَكَانَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ يَقُولُونَ: فَقُمْنَا لَهُ عَلَى أَرْجُلِنَا صَفَّيْنِ، يُحَيِّيهِ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: إِنَّمَا عَنَى رَسُولُ الله ﷺ بِقَوْلِهِ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُم**» يَعْنِي بِهِ الأَنْصَارَ دُونَ قُرَيْشٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥١١-٥١٢].

وبينما الحديث يجري هكذا في المعسكر النبوي حول تفويض سعد بن معاذ ﵁ في أمر بني قريظة، كان هؤلاء اليهود الذين حاق بهم مكرهم السيئ يرتجفون خوفًا من المصير المرعب الذي يتوقعونه.

إلا أنهم مع شعورهم بالخوف الشديد، فقد بقي لديهم شيء من الأمل في الحياة، بعد أن علموا أن حلفاءهم الأوس قد بذلوا وساطتهم لدى الرسول القائد ﷺ ليخفف من عقوبتهم، وأن الرسول ﷺ ـ نتيجة لهذه الوساطة ـ قد جعل أمر هؤلاء اليهود لحليفهم وسيد حلفائهم سعد بن معاذ ﵁.

سعد ﵁ يطلب موافقة الحاضرين على تحكيمه:

وعندما استقر بسيد الأوس المقام في مقر القيادة النبوية في بني قريظة قال له النبي ﷺ: **احكم فيهم يا سعد، فقال: الله ورسوله أحق بالحكم، فقال ﷺ: قد أمرك الله أن تحكم فيهم**. [السيرة الحلبية ٢/ ١١٩].

غير أن سعدًا ﵁ ـ وقد علم حرص قومه الأوس على التساهل في الحكم على حلفائهم اليهود ـ أحب أن يستوثق من الجميع ويأخذ عليهم العهد ـ الرسول ﷺ والأوس وبني قريظة ـ بأن حُكمه إذا ما صدر يكون غير قابل للنقض أو النقاش.

فقد وقف الحَكَم الشاب الجريح سعد بن معاذ ﵁ في المعسكر النبوي، ووجَّه حديثه إلى قومه الأوس خاصة وإلى من في المعسكر عامة.

قَالَ ابن إسحاق: فَلَـمَّا انْتَهَى سَعْدٌ ﵁ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**»، فَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ، فَيَقُولُونَ: إِنَّمَا أَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ الأَنْصَارَ، وَأَمَّا الأَنْصَارُ، فَيَقُولُونَ: قَدْ عَمَّ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ.

فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالُوا: **يَا أَبَا عَمْرٍو، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ وَلَّاكَ أَمْرَ مَوَالِيكَ لِتَحْكُمَ فِيهِمْ**.

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﵁: **عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ الله وَمِيثَاقَهُ، أَنَّ الْحُكْمَ فِيهِمْ لَمَا حَكَمْتُ؟**

قَالُوا: **نَعَمْ**، فَقَالَ سَعْدٌ ﵁: **وَعَلَى مَنْ هَاهُنَا؟** فِي النَّاحِيَةِ الَّتِي فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ إِجْلَالًا لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نَعَمْ**».

قَالَ سَعْدٌ ﷺ: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الرِّجَالُ، وَتُقْسَّمَ الأَمْوَالُ، وَتُسْبَى الذَّرَارِيُّ وَالنِّسَاءُ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩-٢٤٠].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالَتْ الأَوْسُ الَّذِينَ بَقُوا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ لِسَعْدٍ ﷺ: **يَا أَبَا عَمْرٍو، إِنَّ رَسُولَ الله قَدْ وَلاَّكَ الحُكْمَ، فَأَحْسِنْ فِيهِمْ وَاذْكُرْ بَلاءَهُمْ عِنْدَكَ.**

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ: **أَتَرْضَوْنَ بِحُكْمِي لِبَنِي قُرَيْظَةَ؟** قَالُوا: **نَعَمْ قَدْ رَضِينَا بِحُكْمِكَ وَأَنْتَ غَائِبٌ عَنَّا، اخْتِيَارًا مِنَّا لَكَ وَرَجَاءَ أَنْ تَمُنَّ عَلَيْنَا كَمَا فَعَلَهُ غَيْرُكَ فِي حُلَفَائِهِ مِنْ قَيْنُقَاعَ، وَأَثَرُنَا عِنْدَكَ أَثَرُنَا، وَأَحْوَجُ مَا كُنَّا اليَوْمَ إِلَى مُجَازَاتِكَ،** فَقَالَ سَعْدٌ ﷺ: **لا آلُوكُمْ جَهْدًا،** فَقَالُوا: **مَا يَعْنِي بِقَوْلِهِ هَذَا؟** ثُمَّ قَالَ: **عَلَيْكُمْ عَهْدُ الله وَمِيثَاقَهُ أَنَّ الحُكْمَ فِيكُمْ مَا حَكَمْتُ؟** قَالُوا: **نَعَمْ،** فَقَالَ سَعْدٌ ﷺ لِلنَّاحِيَةِ الأُخْرَى الَّتِي فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْهَا إِجْلالًا لِرَسُولِ الله ﷺ: **وَعَلَى مَنْ هَاهُنَا مِثْلُ ذَلِكَ؟** فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَنْ مَعَهُ: «**نَعَمْ**». [المغازي للواقدي ٢/ ٥١٢].

اللحظة الرهيبة في تاريخ بني قريظة:

يقول أ/ باشميل: «وجاءت اللحظة الحاسمة، ووقف سعد بن معاذ ﷺ ليعلن كلمته النهائية في يهود بني قريظة، وأرهف هؤلاء اليهود أسماعهم مشدودة ناحية حليفهم الحَكَم سعد ﷺ، الذي أصبح مصيرهم جميعًا في يده، وسمروا أبصارهم عليه في جزع وقلق وركضت قلوبهم الخبيثة بين جنوبهم ووقفت نبضاتها في انتظار النطق بالحكم عليها.

وحتى الذين في المعسكر من المسلمين، شدت أبصارهم ناحية الحكم سعد ﷺ، وخاصة قومه الأوس الذين بذلوا كل مساعيهم لتخفيف الحكم على حلفائهم.

شدت أبصار الجميع إلى سعد ﷺ ليروا كيف يصدر حكمه على حلفائه اليهود.

لأن الجميع ـ وحتى النبي القائد ﷺ ـ لا يعلمون ما هو الحكم الذي سيصدره سعد ﷺ على هؤلاء اليهود.

وصدر الحكم النهائي، وكان صارمًا قويًّا ورهيبًا». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٨٨].

سعد ﷺ يحكم بالإعدام على اليهود:

فقد حكم سعد بن معاذ ﷺ بالإعدام ضربًا بالسيف على كل من بلغ الحلم من رجال يهود بني قريظة.

عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ:... فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ الله ﷺ، فَرَدَّ رَسُولُ الله ﷺ الحُكْمَ فِيهِمْ إِلَى سَعْدٍ ﷺ [(١)]، قَالَ: **فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ المُقَاتِلَةُ، وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ وَالنِّسَاءُ، وَتُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ.**

---

(١) يقول أ/ باشميل: «وبعض المؤرخين يذكر أن اليهود لما اشتد عليهم الحصار وافقوا على الاستسلام للقوات المحاصرة بشرط أن يحكم فيهم حليفهم سعد بن معاذ ﷺ، وأن النبي ﷺ وافق على هذا الشرط. ==

وحَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ حَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ حَدَّثَنَا هِشَامٌ قَالَ: قَالَ أَبِي: فَأُخْبِرْتُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ الله** ﷻ». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٦٩)، ومسند أحمد ٤٠/ ٣٣٦-٣٣٧ رقم ٢٤٢٩٥، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٦-٢٧].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: لَـمَّا نَزَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ ـ هُوَ ابْنُ مُعَاذٍ ﷺ ـ [أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ] بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ، فَجَاءَ عَلَى حِمَارٍ، فَلَـمَّا دَنَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ [لِلأَنْصَارِ]: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ [أَوْ خَيْرِكُمْ]**»، فَجَاءَ فَجَلَسَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ ﷺ: «**إِنَّ هَؤُلَاءِ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِكَ**»، قَالَ: **فَإِنِّي أَحْكُمُ أَنْ تُقْتَلَ الـمُقَاتِلَةُ وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ**، قَالَ ﷺ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ [قَضَيْتَ] فِيهِمْ بِحُكْمِ [الله أَوْ بِحُكْمِ] المَلِكِ**». [البخاري في الجهاد والسير (٣٠٤٣)، وفي المناقب (٣٨٠٤)، وفي المغازي (٤١٢١)، وفي الاستئذان (٦٢٦٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٨)، ومسند أحمد ١٧/ ٢٥٩، ٢٦٢ رقم ١١١٦٨، ١١١٧٠، ١٨/ ٢١٦-٢١٧ رقم ١١٦٨٠].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: رُمِيَ يَوْمَ الأَحْزَابِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ فَقَطَعُوا أَكْحَلَهُ أَوْ أَبْجَلَهُ، فَحَسَمَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّارِ فَانْتَفَخَتْ يَدُهُ، فَتَرَكَهُ فَنَزَفَهُ الدَّمُ فَحَسَمَهُ أُخْرَى، فَانْتَفَخَتْ يَدُهُ، فَلَـمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: «**اللَّهُمَّ لَا تُخْرِجْ نَفْسِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَاسْتَمْسَكَ عِرْقُهُ فَمَا قَطَرَ قَطْرَةً حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ **فَحَكَمَ أَنْ يُقْتَلَ رِجَالُهُمْ وَيُسْتَحْيَا [وَتُسْتَحْيَى] نِسَاؤُهُمْ [وَذَرَارِيُّهُمْ] يَسْتَعِينُ بِهِنَّ [بِهِمْ] المُسْلِمُونَ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَصَبْتَ حُكْمَ الله فِيهِمْ**».

وَكَانُوا أَرْبَعَمِائَةٍ، فَلَـمَّا فَرَغَ مِنْ قَتْلِهِمْ انْفَتَقَ عِرْقُهُ فَمَاتَ. [الترمذي في السير (١٥٨٢)، وقَالَ: وَفِي البَاب عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَعَطِيَّةَ القُرَظِيِّ، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، والدارمي في السير (٢٥٥١)، ومسند أحمد ٢٣/ ٩٠ عن جابر ﷺ رقم ١٤٧٧٣، وقال الشيوخ الألباني والداراني والأرناؤوط: صحيح].

وعَنْ عُرْوَةَ ـ يعني ابن الزبير ـ قَالَ: ونَفَذَ سَعْدٌ ﷺ، حَتَّى أَتَى رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: «**يَا سَعْدُ، احْكُمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ**»، فَقَالَ سَعْدٌ ﷺ: **أَحْكُمُ فِيهِمْ بِأَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، ويُغْتَنَمَ [وَيُقْسَمُ] سَبْيُهُمْ، وَتُؤْخَذَ أَمْوَالُهُمْ، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ وَنِسَاؤُهُمْ.**

== والذي عليه جمهرة المؤرخين وأصحاب الحديث والمغازي أن سعدًا ﷺ لم يكن حكمًا إلا بعد أن توسط قومه لدى رسول الله ﷺ، ليخفف العقوبة عن هؤلاء اليهود.

يؤيد قولنا هذا ما ثبت في صحيح البخاري (وهو أصح المصادر التاريخية على الإطلاق) من أن اليهود نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، دونما قيد أو شرط فرد الحكم فيهم إلى حليفهم سيد الأوس سعد بن معاذ ﷺ.

أما ما ثبت في صحيح البخاري من أن النبي ﷺ قال لسعد ﷺ لما جاء إلى بني قريظة ـ بعد استسلامهم: «**هؤلاء (يعني اليهود) نزلوا على حكمك**»، فإنه يعني أن النبي ﷺ قد جعله نائبًا عنه في الحكم عليهم بعد أن رد ذلك إليه كما هو صريح في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه عن عائشة». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٩٠-١٩١].

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**حَكَمَ فِيهِمْ سَعْدُ بن مُعَاذٍ بِحُكْمِ اللهِ**».

وَيَزْعُمُ نَاسٌ أَنَّهُمْ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ الحُكْمَ فِيهِمْ إِلَى سَعْدِ بن مُعَاذٍ رضي الله عنه.

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٦)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه عن عائشة رضي الله عنها متصل الإسناد، رواه الطبراني [المعجم الكبير ٦/ ٧ رقم ٥٣٢٧] مرسلًا وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف. وقال محقق المعجم الكبير: قلت: وهذا من الضعيف].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ:... قَالَ ﷺ: «**أَنْزِلُوهُ**»، فَأَنْزَلُوهُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**احْكُمْ فِيهِمْ**».

قَالَ سَعْدٌ رضي الله عنه: «**فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُمْ، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُمْ، وَتُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ**»، وَقَالَ يَزِيدُ بِبَغْدَادَ: وَيُقْسَمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ ﷻ وَحُكْمِ رَسُولِهِ**».

[مسند أحمد ٤٢/ ٢٦ رقم ٢٥٠٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: بعضه صحيح، وجزء منه حسن وهذا إسناد فيه ضعف عمرو بن علقمة لم يرو عنه غير ابنه محمد، مجمع الزوائد ٦/ ١٩٩-٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٥)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه، رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات، والمصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٦٨-٣٧١ في المغازي (٣٧٩٥١)].

قَالَ ابن إسحاق: قَالَ سَعْدٌ رضي الله عنه: **فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الرِّجَالُ [مَنْ جَرَتْ عَلَيْهِ الْمُوسَى]، وَتُقَسَّمَ الأَمْوَالُ، وَتُسْبَى الذَّرَارِيُّ وَالنِّسَاءُ**.

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، عَنْ عَلقَمَةَ بْنِ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِسَعْدٍ رضي الله عنه: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ ﷻ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ** (سماوات، الواحدة: رقيع)». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٠، المغازي للواقدي ٢/ ٥١٢].

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: إِنَّ يَهُودَ النَّضِيرِ وَقُرَيْظَةَ حَارَبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَجْلَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَنِي النَّضِيرِ وَأَقَرَّ قُرَيْظَةَ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ، حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ، وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا بَعْضَهُمْ لَحِقُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَمَّنَهُمْ وَأَسْلَمُوا، وَأَجْلَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَهُودَ المَدِينَةِ كُلَّهُمْ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَهُمْ قَوْمُ [رَهْطُ] عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ، وَيَهُودَ بَنِي حَارِثَةَ، وَكُلَّ [يَهُودِ المَدِينَةِ] يَهُودِيٍّ كَانَ بِالـمَدِينَةِ. [البخاري في المغازي (٤٠٢٨)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٦)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٠٥)، ومسند أحمد ١٠/ ٤٣٤ عن ابن عمر رضي الله عنهما رقم ٦٣٦٧].

يقول أ/ باشميل: «إلا أن سعدًا رضي الله عنه ـ وقد فُوِّض في أمر اليهود تفويضًا مطلقًا ـ حكم باجتهاد منه، أن تكون ديار يهود بني قريظة كلها للمهاجرين دون الأنصار؛ وذلك لأن المهاجرين ليس لهم في المدينة بيوت؛ لأنهم قد تركوا كل ممتلكاتهم في مكة عند المشركين عندما فروا بدينهم وهاجروا إلى المدينة.

وقد برر سعد ﷺ حكمه هذا عندما عارضه بعض الأنصار بقوله لهم: (إني أحببت أن يستغنوا عنكم). [السيرة الحلبية ٢/ ١١٩].

وبعد أن صدر الحكم على اليهود من سعد ﷺ، لم يبد قومه الأوس أية معارضة؛ لأنه قد أخذ عليهم (مسبقًا) العهد والميثاق أن ليس لأحد منهم المعارضة أو التعقيب على حكمه.

أما اليهود فقد صعقوا لهذا الحكم الصارم وعلاهم الذهول وخيم عليهم الوجوم، ولم يرو أحد من المؤرخين أن هؤلاء اليهود ناقشوا هذا الحكم أو عارضوه بأي احتجاج.

لأن ذلك ليس لهم؛ لأنهم (أولًا) قد نزلوا على حكم رسول الله ﷺ دونما قيد أو شرط، ولأنهم (ثانيًا) قد وافقوا بعد استسلامهم على تحكيم سعد ﷺ ـ عندما أخذ موافقتهم قبل إصدار الحكم».
[غزوة بني قريظة لباشميل ١٨٩-١٩٠].

يقول د/ هيكل: «ولم يكن بنو قريظة يتوقعون هذا الحكم من سعد بن معاذ ﷺ حليفهم، بل كانوا يحسبونه يصنع بهم ما صنع عبد الله بن أبيٍّ مع بني قينقاع، ولعل سعدًا ﷺ ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بني قريظة لما كان أمام المسلمين إلا أن يُستأصلوا وأن يُقتلوا وأن يمثَّل بهم، فجزاهم بمثل ما عرَّضوا المسلمين له». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤٩].

المبحث الرابع
تنفيذ الأحكام

استثناء من لم يبلغ الحلم:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أَمَرَ بِقَتْلِ كُلِّ مَنْ أَنْبَتَ مِنْهُمْ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي شُعْبَةُ بْنُ الحَجَّاجِ عَنْ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ عَطِيَّةَ القُرَظِيِّ ﵁، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أَمَرَ أَنْ يُقْتَلَ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ كُلُّ مَنْ أَنْبَتَ مِنْهُمْ، وَكُنْتُ غُلَامًا، فَوَجَدَنِي لَمْ أُنْبِتْ فَخَلَّوْا سَبِيلِي». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٤].

وعَنْ عَطِيَّةَ القُرَظِيِّ ﵁، قَالَ: كُنْتُ فِي سَبْيِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْ أَنْبَتَ أَنْ يُقْتَلَ، فَكُنْتُ فِيمَنْ لَمْ يُنْبِتْ فَتُرِكْتُ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٥].

وعَنْ عَطِيَّةَ القُرَظِيِّ ﵁، قَالَ: كُنْتُ مِنْ سَبْيِ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَكَانُوا يَنْظُرُونَ [وَكَانَ يُنْظَرُ]، فَمَنْ أَنْبَتَ الشَّعْرَ [خَرَجَ شِعْرَتُهُ] قُتِلَ، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ [تَخْرُجْ اسْتُحْيِيَ] لَمْ يُقْتَل، فَكُنْتُ فِيمَنْ لَمْ يُنْبِتْ.

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ بِهَذَا الحَدِيثِ قَالَ: فَكَشَفُوا عَانَتِي فَوَجَدُوهَا لَمْ تَنْبُتْ، فَجَعَلُونِي مِنَ السَّبْيِ.

[أبو داود في الحدود (٤٤٠٤، ٤٤٠٥)، والنسائي في قطع السارق (٤٩٨١)، وقال الشيخ الألباني عنهما: صحيح].

وعَنْ عَطِيَّةَ القُرَظِيِّ ﵁ قَالَ: عُرِضْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ، فَشَكُّوا فِيَّ، فَأَمَرَ بِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَيَّ هَل أَنْبَتُّ بَعْدُ؟ فَنَظَرُوا فَلَمْ يَجِدُونِي أَنْبَتُّ، فَخَلَّى عَنِّي، وَأَلْحَقَنِي بِالسَّبْيِ.

[مسند أحمد ٣٢/ ١٦٣ رقم ١٩٤٢١، ٣٧/ ٣٣٠ رقم ٢٢٦٥٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيه فقد روى له أصحاب السنن].

وعَنْ عَطِيَّةَ القُرَظِيِّ ﵁ قَالَ: عُرِضْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ قُرَيْظَةَ فَكَانَ مَنْ أَنْبَتَ [الشَّعْرَ] (أي شعر العانة، كأنه علامة البلوغ في الظاهر، فاعتمدوا عليها) قُتِلَ، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّيَ سَبِيلُهُ، فَكُنْتُ فِيمَنْ لَمْ يُنْبِتْ [الشَّعْرَ] فَخُلِّيَ سَبِيلِي [فَلَمْ يَقْتُلُونِي].

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ أَنْبَأَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَطِيَّةَ القُرَظِيَّ ﵁ يَقُولُ: فَهَا أَنَا ذَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ.

[الترمذي في السير (١٥٨٤)، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ العِلْمِ، أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الإِنْبَاتَ بُلُوغًا إِنْ لَمْ يُعْرَفْ احْتِلَامُهُ وَلَا سِنُّهُ، وَهُوَ قَوْلُ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ، وابن ماجه في الحدود (٢٥٤١)، ومسند أحمد ٣١/ ٦٧ رقم ١٨٧٧٦، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح].

وعَنْ عَطِيَّةَ القُرَظِيِّ ﵁ قَالَ: كُنْتُ يَوْمَ حُكْمِ سَعْدٍ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ غُلَامًا، فَشَكُّوا فِيَّ فَلَمْ يَجِدُونِي أَنْبَتُّ فَاسْتُبْقِيتُ، فَهَا أَنَا ذَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ. [النسائي في الطلاق (٣٤٣٠)، ومسند أحمد ٣٢/ ١٦٤ رقم ١٩٤٢٢، و٣٧/ ٣٣٠ رقم ٢٢٦٦٠، وقال الشيخان الألباني الأرناؤوط: إسناده صحيح].

وعَنْ كَثِيرِ بْنِ السَّائِبِ قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنَا قُرَيْظَةَ أَنَّهُمْ عُرِضُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ [زَمَنَ] قُرَيْظَةَ فَمَنْ كَانَ مُحْتَلِمًا أَوْ نَبَتَتْ عَانَتُهُ قُتِلَ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُحْتَلِمًا أَوْ لَمْ تَنْبُتْ عَانَتُهُ تُرِكَ.

[النسائي في الطلاق (٣٤٢٩)، وقال الشيخ الألباني: صحيح، ومسند أحمد ٣١/ ٣٤٠ عن ابني قريظة ﵄ رقم ١٩٠٠٢، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف، كثير بن السائب لا يعرف وقد اختلف فيه، و٣٨/ ٢٣١ رقم ٢٣١٦٢، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف].

وَعَنْ أَسْلَمَ [بْنِ بَجْرَةَ] الأَنْصَارِيِّ ﵁ قَالَ: جَعَلَنِي رَسُولُ الله ﷺ عَلَى أُسَارَى [أَسْرَى] بَنِي قُرَيْظَةَ، فَكُنْتُ أَنْظُرُ إِلَى فَرْجِ الغُلَامِ، فَإِنْ رَأَيْتُهُ قَدْ أَنْبَتَ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ لَمْ أَرَهُ قَدْ أَنْبَتَ جَعَلتُهُ فِي غَنَائِمِ [مَغَانِمِ] الْمُسْلِمِينَ. [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٥ في المغازي والسير (١٠١٦٨)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير [١/ ١٢٢ رقم ١٨١]، والأوسط [٢/ ١٦٣ رقم ١٥٨٥]، [والمعجم الكبير ١/ ٣٣٤ رقم ١٠٠٠، ١٩/ ٤٣٦ رقم ١٠٥٦]، وفيه جماعة لم أعرفهم].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ:... عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ القُرَظِيِّ، قَالَ: قُتِلُوا إِلَى أَنْ غَابَ الشَّفَقُ ثُمَّ رُدَّ عَلَيْهِمْ التُّرَابُ فِي الخَنْدَقِ، وَكَانَ مَنْ شُكَّ فِيهِ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ بَلَغَ نُظِرَ إِلَى مُؤْتَزَرِهِ، إنْ كَانَ أَنْبَتَ قُتِلَ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يُنْبِتْ طُرِحَ فِي السَّبْيِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥١٧].

إجارة مَن استجار بالمرأة المسلمة:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي أَيُّوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ أَخُو بَنِي عَدِيِّ ابْنِ النَّجَّارِ أنَّ سَلمَى بِنْتَ قَيْسٍ، أُمَّ الْمُنْذِرِ أُخْتَ سَلِيطِ ابْنِ أُخْتِ سَلِيطِ بْنِ قَيْسٍ - وَكَانَتْ إِحْدَى خَالَاتِ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ صَلَّتْ مَعَهُ القِبْلَتَيْنِ وَبَايَعَتْهُ بَيْعَةَ النِّسَاءِ - سَأَلَتْهُ رِفَاعَةَ بْنَ سَمَوْأَلٍ القُرَظِيَّ، وَكَانَ رَجُلًا قَدْ بَلَغَ فَلَاذَ بِهَا (التجأ إليها)، وَكَانَ يَعْرِفُهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَقَالَتْ: **يَا نَبِيَّ الله، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، هَبْ لِي رِفَاعَةَ، فَإِنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّهُ سَيُصَلِّي وَيَأْكُلُ لَحْمَ الجَمَلِ**، قَالَ: فَوَهَبَهُ لَهَا فَاسْتَحْيَتْهُ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَنَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى سَلمَى بِنْتِ قَيْسٍ، وَكَانَتْ إِحْدَى خَالاتِهِ، وَكَانَتْ قَدْ صَلَّتِ القِبْلَتَيْنِ وَبَايَعَتْهُ، وَكَانَ رِفَاعَةُ بْنُ سَمَوْأَلٍ لَهُ انْقِطَاعٌ إِلَيْهَا وَإِلَى أَخِيهَا سَلِيطِ بْنِ قَيْسٍ، وَأَهْلِ الدَّارِ، وَكَانَ حِينَ حُبِسَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا أَنْ كَلِّمِي مُحَمَّدًا فِي تَرْكِي، فَإِنَّ لِي بِكُمْ حُرْمَةً وَأَنْتِ إِحْدَى أُمَّهَاتِهِ فَتَكُونَ لَكُمْ عِنْدِي يَدًا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا لَكِ يَا أُمَّ الْمُنْذِرِ؟**» قَالَتْ: **يَا رَسُولَ الله رِفَاعَةُ بْنُ سَمَوْأَلٍ كَانَ يَغْشَانَا وَلَهُ بِنَا حُرْمَةٌ فَهَبْهُ لِي**، وَقَدْ رَآهُ رَسُولُ الله ﷺ يَلُوذُ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نَعَمْ هُوَ لَكِ**»، ثُمَّ قَالَتْ: يَا

رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ سَيُصَلِّي وَيَأْكُلُ لَحْمَ الجَمَلِ، فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**إِنْ يُصَلِّ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَإِنْ يَثْبُتْ عَلَى دِينِهِ فَهُوَ شَرٌّ لَهُ**».

قَالَتْ: فَأَسْلَمَ، فَكَانَ يُقَالُ لَهُ: مَوْلَى أُمِّ المُنْذِرِ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَاجْتَنَبَ الدَّارَ حَتَّى بَلَغَ أُمَّ المُنْذِرِ ذَلِكَ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ: إِنِّي وَاللهِ مَا أَنَا لَكَ بِمَوْلاةٍ، وَلَكِنِّي كَلَّمْتُ رَسُولَ اللهِ فَوَهَبَكَ لِي، فَحَقَنْتُ دَمَكَ وَأَنْتَ عَلَى نَسَبِكَ، فَكَانَ بَعْدُ يَغْشَاهَا، وَعَادَ إِلَى الدَّارِ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥١٤-٥١٥**].

الوصية بالأسرى:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحْسِنُوا إِسَارَهُمْ وَقَيِّلُوهُمْ وَأَسْقُوهُمْ حَتَّى يُبْرِدُوا، فَتَقْتُلُوا مَنْ بَقِيَ، لا تَجْمَعُوا عَلَيْهِمْ حَرَّ الشَّمْسِ وَحَرَّ السِّلاحِ ـ وَكَانَ يَوْمًا صَائِفًا ـ فَقَيِّلُوهُمْ وَأَسْقَوْهُمْ وَأَطْعِمُوهُمْ**»، فَلَمَّا أَبْرَدُوا رَاحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْتُلُ مَنْ بَقِيَ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥١٤**].

تنفيذ حكم الإعدام في اليهود:

وبعد أن تمت إجراءات الحكم في بني قريظة (وكان ذلك في ديارهم) تحرك النبي ﷺ بجيشه نحو المدينة فدخلها، وكانت عودته من بني قريظة في اليوم السابع من ذي الحجة سنة خمس للهجرة.

وقد أمر الرسول القائد ﷺ بيهود بني قريظة فأُدخلوا إلى المدينة، دخلت بهم جميعًا قوة من الحرس النبوي بقيادة محمد بن مسلمة وعبد الله بن سلام.

وقد أمر النبي ﷺ بحبس الرجال في دار أسامة بن زيد رضي الله عنهما، ووضع النساء والذراري في دار الضيافة دونما أي حبس أو تضييق، كما فصلنا ذلك فيما مضى.

قال الواقدي: فَأَمَرَ ﷺ بِالسَّبْيِ فَسِيقُوا إِلَى دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما وَالنِّسَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ إِلَى دَارِ ابْنَةِ الحَارِثِ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَحْمَالِ التَّمْرِ فَنُثِرَتْ عَلَيْهِمْ، فَبَاتُوا يَكْدُمُونَهَا كَدْمَ الحُمُرِ، وَجَعَلُوا لَيْلَتَهُمْ يَدْرُسُونَ التَّوْرَاةَ، وَأَمَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ وَلُزُومِ التَّوْرَاةِ.

وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالسِّلاحِ وَالأَثَاثِ وَالمَتَاعِ وَالثِّيَابِ فَحُمِلَ إِلَى دَارِ بِنْتِ الحَارِثِ، وَأَمَرَ بِالإِبِلِ وَالغَنَمِ فَتُرِكَتْ هُنَاكَ تَرْعَى فِي الشَّجَرِ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥١٢-٥١٣**].

وبعد عودة الرسول ﷺ من ديار بني قريظة، شرع في إجراءات تنفيذ حكم الإعدام في هؤلاء اليهود.

فأمر بحفر خنادق عميقة لتدفن جثث هؤلاء الخونة بعد إعدامهم، وكان المكان الذي اختير لإعدامهم ودفنهم هو سوق المدينة الذي يغلب على الظن أنه المسمى اليوم (بسوق المناخة).

وحفرت الخنادق بسوق المدينة لتنفيذ هذا الحكم، وسيق إليها مقاتلة اليهود أرسالًا ـ طائفة بعد أخرى ـ ليدفعوا ثمن خيانتهم وغدرهم.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ اسْتُنْزِلُوا، فَحَبَسَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ بِالْـمَدِينَةِ فِي دَارِ بِنْتِ الحَارِثِ [(١)] امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى سُوقِ الْمَدِينَةِ، الَّتِي هِيَ سُوقُهَا اليَوْمَ فَخَنْدَقَ بِهَا خَنَادِقَ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِمْ فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ فِي تِلْكَ الخَنَادِقِ، يُخْرَجُ بِهِمْ إِلَيْهِ أَرْسَالًا، وَفِيهِمْ عَدُوُّ الله حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، وَكَعْبُ بْنُ أَسَدٍ، رَأْسُ القَوْمِ، وَهُمْ سِتُّمِائَةٍ أَوْ سَبْعُمِائَةٍ وَالْمُكْثِرُ لَهُمْ يَقُولُ: كَانُوا بَيْنَ الثَّمَانِمِائَةِ وَالتِّسْعِمِائَةِ».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٠-٢٤١].

روى البيهقي بسنده عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ ، فَذَكَرَ قِصَّةَ نُزُولِهِمْ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، وَمَا قِيلَ لِسَعْدٍ وَمَا قَالَ سَعْدٌ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٢-٢٣].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: ثُمَّ غَدَا رَسُولُ الله ﷺ إِلَى السُّوقِ فَأَمَرَ بِخُدُودٍ فَخُدَّتْ فِي السُّوقِ مَا بَيْنَ مَوْضِعِ دَارِ أَبِي جَهْمٍ العَدَوِي إِلَى أَحْجَارِ الزَّيْتِ بِالسُّوقِ فَكَانَ أَصْحَابُهُ يَحْفِرُونَ هُنَاكَ، وَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَعَهُ عِلْيَةُ أَصْحَابِهِ، وَدَعَا بِرِجَالِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَكَانُوا يَخْرُجُونَ رَسْلًا رَسْلًا، تُضْرَبُ أَعْنَاقُهُمْ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥١٣].

فَقَتَلَ رَسُولُ الله ﷺ مُقَاتِلَتَهُمْ، وَكَانُوا زَعَمُوا سِتَّمِائَةِ مُقَاتِلٍ، قُتِلُوا عِنْدَ دَارِ أَبِي جَهْمٍ الَّتِي بِالبَلَاطِ، وَلَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ بَلَاطًا، فَزَعَمُوا أَنَّ دِمَاءَهُمْ بَلَغَتْ أَحْجَارَ الزَّيْتِ الَّتِي كَانَتْ بِالسُّوقِ، وَسَبَى نِسَاءَهُمْ وَذَرَارِيَّهُمْ، وَقَسَّمَ أَمْوَالَهُمْ بَيْنَ مَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٠].

دفن اليهود في الخنادق بعد إعدامهم:

وبعد أن انتهت عملية حفر الخنادق المعدة لدفن اليهود جلس النبي ﷺ في المكان الْمُعَد لإعدامهم ومعه كبار الصحابة، ثم أمر بإحضار الرجال من بني قريظة المحكوم عليهم، فأمر بإعدامهم، فأعدموا دفعة بعد دفعة حتى لم يبق منهم أحد، وكان الصحابة كلما تم إعدام دفعة من هؤلاء اليهود قذفوا بهم في الخنادق وواروهم بالتراب، حتى انتهوا منهم.

أفي كل موطن لا تعقلون؟:

وكان بنو قريظة المحتجزون في السجن مع سيدهم كعب بن أسد، كلما استدعى الحرس جماعة منهم لإعدامهم، لاذوا بسيدهم كعب، يسألونه في جزع وارتباك: ما تراه يصنع بنا؟ فيجيبهم في ثبات ورباطة جأش: أفي كل موطن لا تعقلون؟ هو والله القتل.

---

(١) قال السهيلي: «واسمها: كيسة بنت الحارث بن كريز بن حبيب بن عبد شمس، وكانت تحت مسيلمة الكذاب، ثم خلف عليها عبد الله بن عامر بن كريز».

وقال الزرقاني: «هي رملة بنت الحارث بن ثعلبة بن الحارث بن زيد، زوجة معاذ بن الحارث بن رفاعة تكرر ذكرها في السيرة، والواقدي يقول: رملة بنت الحدث (بفتح الدال المهملة). وليست.

وَقَدْ قَالُوا لِكَعْبِ بْنِ أَسَدٍ، وَهُمْ يُذْهَبُ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ أَرْسَالًا: **يَا كَعْبُ مَا تَرَاهُ يَصْنَعُ بِنَا؟** قَالَ: **أَفِي كُلِّ مَوْطِنٍ لَا تَعْقِلُونَ؟ أَلَا تَرَوْنَ الدَّاعِيَ لَا يَنْزِعُ، وَأَنَّهُ مَنْ ذُهِبَ بِهِ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُ؟ هُوَ وَاللهِ الْقَتْلُ**، فَلَمْ يَزَل ذَلِكَ الدَّأْبَ حَتَّى فَرَغَ مِنْهُمْ رَسُولُ الله ﷺ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤١-٢٤٢].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَقَالُوا لِكَعْبِ بْنِ أَسَدٍ: مَا تَرَى مُحَمَّدًا مَا يَصْنَعُ بِنَا؟ قَالَ: **مَا يَسُوؤكُمْ وَمَا يَنُوؤكُمْ وَيْلَكُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ لا تَعْقِلُونَ أَلا تَرَوْنَ أَنَّ الدَّاعِيَ لا يَنْزِعُ، وَأَنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنْكُمْ لا يَرْجِعُ؟ هُوَ وَاللهِ السَّيْفُ، قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى غَيْرِ هَذَا فَأَبَيْتُمْ**، قَالُوا: لَيْسَ هَذَا بِحِينِ عِتَابٍ لَوْلا أَنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُزْرِيَ بِرَأْيِكَ مَا دَخَلنَا فِي نَقْضِ العَهْدِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ.

قَالَ حُيَيٌّ: اُتْرُكُوا مَا تَرَوْنَ مِنَ التَّلاوُمِ فَإِنَّهُ لا يَرُدُّ عَنْكُمْ شَيْئًا، وَاصْبِرُوا لِلسَّيْفِ.

فَلَمْ يَزَالُوا يُقْتَلُونَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانَ الَّذِينَ يَلُونَ قَتْلَهُمْ عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥١٣].

وهكذا لم تخطئ فراسة سيد بني قريظة كعب بن أسد، عندما قال لشيطان بني النضير حيي بن أخطب ـ إذ طلب منه الغدر بالمسلمين ـ: **وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! إِنَّكَ امْرِؤٌ مشؤوم**.

فقد توالت الأحداث، وأثبتت الأيام صدق تقدير وفراسة كعب بن أسد، بأن حيي بن أخطب كان أشأم إنسان على بني قريظة، حيث وصل بهم في النهاية إلى الإبادة الكاملة.

شيطان بني النضير يتكلم قبل إعدامه:

وكان على رأس الذين نفذ فيهم حكم الإعدام من هؤلاء، كبير مجرميهم ورأس الفتنة والشر حيي بن أخطب [1] سيد بني النضير الذي حزَّب الأحزاب وجمع جيوشها لغزو المدينة، وحمل بني قريظة على نكث العهد، وشجعهم على تسديد تلك الضربة الغادرة المخيفة للجيش الإسلامي من الخلف في تلك الساعات الدقيقة.

فقد قاد هذا المجرم الخبيث (حيي بن أخطب) عمله السيء إلى مصرعه، حيث شاء الله أن يكون هذا اليهودي الشيطان ـ ساعة ضرب الحصار على بني قريظة ـ بينهم في الحصون.

فاستسلم حيي للمسلمين ضمن بني قريظة، فتم إعدامه معهم يوم أعدموا.

وذلك أن هذا اليهودي الشرير ـ عندما جاء لإقناع بني قريظة بضرورة نقض العهد والغدر بالمسلمين ـ قد تعهد لسيد بني قريظة كعب بن أسد بأن يبقى مع بني قريظة في حصونهم إذا ما انشمرت جيوش الأحزاب عن المدينة دون أن تحقق الهدف الذي يرمي إليه اليهود وهو سحق المسلمين وإبادتهم إبادة كاملة.

---

(١) ينظر تفاصيل قصة حمل حيي بن أخطب بني قريظة وإغرائهم بالغدر بالمسلمين في «غزوة الأحزاب».

وفعلًا، وفَّى هذا الزعيم اليهودي النضري لإخوانه بني قريظة بالعهد، فدخل معهم حصونهم وبقي بينهم حتى استسلموا للمسلمين فاستسلم معهم، فأعدم ضمنهم.

قال ابن أبي شيبة: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ أَخْبَرَنَا هِشَامٌ عَنْ مُحَمَّدٍ قَالَ: عَاهَدَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ رَسُولَ الله ﷺ أَلَّا يُظَاهِرَ عَلَيْهِ أَحَدًا وَجَعَلَ اللهَ عَلَيْهِ كَفِيلًا، قَالَ: فَلَـمَّا كَانَ يَوْمُ قُرَيْظَةَ أُتِيَ بِهِ وَبِابْنِهِ سَلَمًا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَوْفِي الكَفِيلَ**»، فَأَمَرَ بِهِ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ وَعُنُقُ ابْنِهِ». [**المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٨٩ في المغازي (٣٧٩٨٣)، وقال الشيخ عوامة: «هذا مرسل بإسناد صحيح، ومحمد: هو ابن سيرين، ومراسيله صحيحة»**].

وعندما جيء بهذا الزعيم اليهودي الخطر (حيي بن أخطب) إلى ساعة الإعدام، لم يُخف بغضه للنبي الأعظم ﷺ وحقده عليه.

بل أعلن ذلك بكل صراحة وتبجح، في تلك الساعات الأخيرة من حياته الشريرة.

عَنْ عُرْوَةَ ـ يعني ابن الزبير ـ قَالَ: فَأُخْرِجُوا رَسْلًا رَسْلًا (جماعة)، فَضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ.

وَأُخْرِجَ حُيَيُّ بنُ أَخْطَبَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَل أَخْزَاكَ اللهُ؟**»، فَقَالَ: **قَدْ ظَهَرْتَ عَلَيَّ، وَمَا أَلُومُ نَفْسِي فِيكَ [فِي جِهَادِكَ وَالشِّدَّةِ عَلَيْكَ]**، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ، فَأُخْرِجَ إِلَى أَحْجَارِ الزَّيْتِ الَّتِي بِالسُّوقِ، فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

كُلُّ ذَلِكَ بِعَيْنِ سَعْدِ بن مُعَاذٍ رضي الله عنه. [**مجمع الزوائد ٦/ ٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٦)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه عن عائشة رضي الله عنها متصل الإسناد، رواه الطبراني [في الكبير ٦/ ٧٠٨٥ رقم ٥٣٢٧] مرسلًا، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف. وقال محقق المعجم الكبير: قلت: وهذا من الضعيف. دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٠**].

وقال ابن إسحاق: وَأُتِيَ بِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ عَدُوِّ الله وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ لَهُ فُقَّاحِيَّةٌ (لونها يضرب إلى الحمرة، على لون الورد حين هم أن يتفتح) ـ قَالَ ابْنُ هِشَام: فُقَّاحِيَّةٌ ضَرْبٌ مِنْ الوَشْيِ ـ قَدْ شَقَّهَا عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ قَدْرَ أُنْمُلَةٍ أُنْمُلَةٍ لِئَلَّا يُسْلَبُهَا، مَجْمُوعَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ بِحَبْلٍ، فَلَـمَّا نَظَرَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: **أَمَا وَالله مَا لُـمْتُ نَفْسِي فِي عَدَاوَتِكَ، وَلَكِنَّهُ مَنْ يَخْذُلِ اللهُ يُخْذَل**، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: **أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِأَمْرِ الله كِتَابٌ وَقَدَرٌ وَمَلحَمَةٌ كَتَبهَا (كُتِبَتْ) اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**، ثُمَّ جَلَسَ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

فَقَالَ جَبَلُ بْنُ جَوَّالٍ الثَّعْلَبِيُّ [(١)]:

لَعَمْرُك مَا لَامَ ابْنُ أَخْطَبَ نَفْسَهُ ... وَلَكِنَّهُ مَنْ يَخْذُلِ اللهُ يُخْذَلِ

لَجَاهَدَ حَتَّى أَبْلَغَ النَّفْسَ عُذْرَهَا ... وَقَلْقَلَ يَبْغِي العِزَّ كُلَّ مُقَلْقَلِ [(٢)]

[**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤١، مصنف عبد الرزاق ٥/ ٣٧١ رقم ٩٧٢٧**].

---

(١) كان ابن جوال هذا من بني ثعلبة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان، وكان يهوديًّا أسلم، وكانت له صحبه. (راجع الروض والاستيعاب).

(٢) **قلقل**: تحرك.

وَبَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ: حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ قَالَـهَا. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٣].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: ثُمَّ أُتِيَ بِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ مَجْمُوعَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ عَلَيْهِ حُلَّةٌ شَقْحِيَّةٌ قَدْ لَبِسَهَا لِلقَتْلِ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَيْهَا فَشَقَّهَا أُنْمُلَةً أُنْمُلَةً لِئَلا يَسْلُبُهُ إِيَّاهَا أَحَدٌ، وَقَدْ قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ طَلَعَ: «**أَلَمْ يُمَكِّنِ اللهُ مِنْكَ يَا عَدُوَّ الله؟**» قَالَ: **بَلَى، وَالله مَا لُـمْتُ نَفْسِي فِي عَدَاوَتِكَ، وَلَقَدْ التَمَسْتُ العِزَّ فِي مَكَانِهِ، وَأَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُمَكِّنَكَ مِنِّي، وَلَقَدْ قَلقلتُ كُلَّ مُقَلقَلٍ، وَلَكِنَّهُ مَنْ يَخْذُلِ اللهُ يُخْذَل.**

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لا بَأْسَ بِأَمْرِ الله قَدْرٌ وَكِتَابٌ، مَلحَمَةٌ كُتِبَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.**

ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَضُرِبَ عُنُقُهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥١٣-٥١٤].

يقول أ/ باشميل: «ومن الجدير بالذكر أن هذا اليهودي المجرم لم يظهر عليه أي أثر للخوف، بل كان ساعة إعدامه على جانب كبير من الشجاعة والثبات.

ومما تجدر الإشارة إليه أيضًا، ويُثبت أن الشر يخرج منه الخير، هو أن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها هي ابنة هذا اليهودي (حيي بن أخطب) تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن قتل زوجها في معركة خيبر، فكانت رضي الله عنها من خيرة أمهات المؤمنين ومن أرجحهن عقلًا». [غزوة بني قريظة لباشميل ٢٠٠].

كيف أُعدم سيد بني قريظة؟:

وبعد أن تم إعدام سيد بني النضير (حيي بن أخطب) جاء الحرس النبوي إلى ساحة الإعدام بسيد بني قريظة (كعب بن أسد).

وكان كعب هذا على جانب كبير من العقل وبُعد النظر، وكان كارهًا لنقض العهد وغير راغب في الغدر بالمسلمين، بل إنه كان يميل إلى الإسلام؛ لذلك دعا قومه إلى اعتناقه، ولكن غلبت عليه وعليهم الشقوة، وغلب عليه شيطان بني النضير حيي بن أخطب حتى انحرف به عن الخط المستقيم الذي كان يريد السير عليه، فقاده وقاد قومه بني قريظة في النهاية إلى ذلك المصير المخيف وهو الإعدام.

وقد كان كعب بن أسد ـ على النقيض من حيي بن أخطب ـ يمتاز عليه بعفة اللسان ووفرة الأدب.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِكَعْبِ بْنِ أَسَدٍ مَجْمُوعَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَكَانَ حَسَنَ الوَجْهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ؟**»، قَالَ كَعْبٌ: **نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ**، قَالَ: «**وَمَا انْتَفَعْتُمْ بِنُصْحِ ابْنِ خِرَاشٍ وَكَانَ مُصَدِّقًا بِي، أَمَا أَمَرَكُمْ بِاتِّبَاعِي، وَإِنْ رَأَيْتُمُونِي تُقْرِؤُونِي مِنْهُ السَّلامَ؟**»، قَالَ: **بَلَى وَالتَّوْرَاةِ يَا أَبَا القَاسِمِ! وَلَوْلا أَنْ تُعَيِّرَنِي اليَهُودُ بِالجَزَعِ مِنَ السَّيْفِ لاتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي عَلَى دِينِ اليَهُودِ**، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قَدِّمْهُ فَاضْرِبْ عُنُقَهُ**»، فَقَدَّمَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥١٦].

مقتل غزَّال ونباش:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: ثُمَّ أُتِيَ بِغَزَّالِ بْنِ سَمَوْأَلٍ، فَقَالَ ﷺ: «**أَلَمْ يُمَكِّنْ اللهُ مِنْكَ؟**» قَالَ: **بَلَى يَا أَبَا القَاسِمِ**، فَأَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

ثُمَّ أُتِيَ بِنَبَّاشِ بْنِ قَيْسٍ، وَقَدْ جَابَذَ الَّذِي جَاءَ بِهِ حَتَّى قَاتَلَهُ فَدَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ أَنْفَهُ فَأَرْعَفَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلَّذِي جَاءَ بِهِ: «**لِمَ صَنَعْتَ بِهِ هَذَا؟ أَمَا كَانَ فِي السَّيْفِ كِفَايَةٌ؟**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! جَابَذَنِي لأَنْ يَهْرُبَ، فَقَالَ: كَذَبَ وَالتَّوْرَاةِ يَا أَبَا القَاسِمِ، وَلَوْ خَلاَّنِي مَا تَأَخَّرْتُ عَنْ مَوْطِنٍ قُتِلَ فِيهِ قَوْمِي حَتَّى أَكُونَ كَأَحَدِهِمْ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥١٤].

التواصي بالصبر بين اليهود:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: وَكَانَ نِسَاءُ بَنِي قُرَيْظَةَ حِينَ تَحَوَّلُوا فِي دَارِ رَمْلَةَ بِنْتِ الحَارِثِ، وَفِي دَارِ أُسَامَةَ يَقُلْنَ: عَسَى مُحَمَّدٌ أَنْ يَمُنَّ عَلَى رِجَالِنَا أَوْ يَقْبَلَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَلَـمَّا أَصْبَحْنَ وَعَلِمْنَ بِقَتْلِ رِجَالِهِنَّ صِحْنَ وَشَقَقْنَ الجُيُوبَ وَنَشَرْنَ الشُّعُورَ وَضَرَبْنَ الخُدُودَ عَلَى رِجَالِـهِنَّ فَمَلأْنَ الـمَدِينَةَ.

قَالَ: يَقُولُ الزَّبِيرُ بْن بَاطَا: اُسْكُتْنَ فَأَنْتُنَّ أَوَّلُ مَنْ سُبِيَ مِنْ نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُنْذُ كَانَتْ الدُّنْيَا؟ وَلا يُرْفَعُ السَّبْيُ عَنْهُمْ حَتَّى نَلتَقِي نَحْنُ وَأَنْتُنَّ، وَإِنْ كَانَ فِي رِجَالِكُنَّ خَيْرٌ فَدُوكُنَّ، فَالزَمْنَ دِينَ اليَهُودِ فَعَلَيْهِ نَمُوتُ، وَعَلَيْهِ نَحْيَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥١٨].

التنافس بين الأوس والخزرج:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَجَاءَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَالحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ ـ وهما من الخزرج ـ فَقَالا: يَا رَسُولِ اللهِ، إِنَّ الأَوْسَ كَرِهَتْ قَتْلَ بَنِي قُرَيْظَةَ لِـمَكَانِ حِلفِهِمْ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﵁ (سيد الأوس): يَا رَسُولَ اللهِ، مَا كَرِهَهُ مِنَ الأَوْسِ مَنْ فِيهِ خَيْرٌ، فَمَنْ كَرِهَهُ مِنَ الأَوْسِ لا أَرْضَاهُ اللهُ.

فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﵁ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لا تُبْقِيَنَّ دَارًا مِنْ دُورِ الأَوْسِ إِلَّا فَرَّقْتَهُمْ فِيهَا، فَمَنْ سَخِطَ ذَلِكَ فَلا يُرْغِمُ اللهُ إِلَّا أَنْفَهُ، فَابْعَثْ إِلَى دَارِي أَوَّلَ دُورِهِمْ.

فَبَعَثَ إِلَى بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ بِاثْنَيْنِ فَضَرَبَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ رَقَبَةَ أَحَدِهِمَا، وَضَرَبَ أَبُو نَائِلَةَ الآخَرَ، وَبَعَثَ إِلَى بَنِي حَارِثَةَ بِاثْنَيْنِ فَضَرَبَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ النَّيَارِ رَقَبَةَ أَحَدِهِمَا، وَذَفَّفَ عَلَيْهِ مُحَيِّصَةُ، وَضَرَبَ الآخَرُ أَبُو عَبْسِ بْنُ جَبْرٍ ذَفَّفَ عَلَيْهِ ظُهَيْرُ بْنُ رَافِعٍ.

وَبَعَثَ إِلَى بَنِي ظَفَرٍ بِأَسِيرَيْنِ.

فَحَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، قَالَ: قَتَلَ أَحَدَهُمَا قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، وَقَتَلَ الآخَرَ نَصْرُ بْنُ الحَارِثِ.

قَالَ عَاصِمٌ: وَحَدَّثَنِي أَيُّوبُ بْنُ بَشِيرٍ الـمُعَاوِيُّ، قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيْنَا ـ بَنِي مُعَاوِيَةَ ـ بِأَسِيرَيْنِ فَقَتَلَ أَحَدَهُمَا جَبْرُ بْنُ عَتِيكٍ، وَقَتَلَ الآخَرَ نُعْمَانُ بْنُ عَصْرٍ؛ حَلِيفٌ لَهُمْ مِنْ بَلِيٍّ.

قَالَ: وَأَرْسَلَ إِلَى بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بِأَسِيرَيْنِ عُقْبَةَ بْنِ زَيْدٍ وَأَخِيهِ وَهْبِ بْنِ زَيْدٍ، فَقَتَلَ أَحَدَهُمَا عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ، وَالآخَرَ سَالِمُ بْنُ عُمَيْرٍ.

وَأَرْسَلَ إِلَى بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥١٥-٥١٦].

وعَنْ مُحَمَّدِ بن مَسْلَمَةَ ﷺ قَالَ: «لَـمَّا حَكَمَ النَّبِيُّ ﷺ فِي بني قُرَيْظَةَ وَجَدَتِ الأَوْسُ مِنْ ذَلِكَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى كُلِّ دَارٍ مِنْ دُورِ الأَوْسِ بِأَسِيرَيْنِ، وَأَرْسَلَ إِلَى بني حَارِثَةَ بِأَسِيرَيْنِ».

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٣ في المغازي والسير (١٠١٦٠)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٩/ ٢٣١] وفيه ذؤيب بن عمامة وهو ضعيف].

المرأة الوحيدة التي أُعدمت:

هكذا تم إعدام جميع رجال بني قريظة جزاء غدرهم وخيانتهم ونكثهم العهد، أما النساء من بني قريظة فلم يقتل المسلمون منهن أحدًا؛ لأن آداب الحرب في الإسلام تُحَرِّم تحريمًا قاطعًا قتل نساء العدو إلا حدًّا أو قصاصًا، أو في الميدان إذا كانت المرأة تقاتل.

ولهذا فإنه لم يقتل من نساء بني قريظة إلا امرأة واحدة، أمر النبي ﷺ بقتلها قصاصًا برجل من المسلمين قامت هذه المرأة باغتياله.

عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: لَمْ يُقْتَلْ مِنْ نِسَائِهِمْ - تَعْنِي بَنِي قُرَيْظَةَ - إِلَّا امْرَأَةٌ [وَاحِدَةً]، [وَالله] إِنَّهَا لَعِنْدِي تُحَدِّثُ [مَعِي،] تَضْحَكُ ظَهْرًا وَبَطْنًا، وَرَسُولُ اللهَّ ﷺ يَقْتُلُ رِجَالَهُمْ بِالسُّيُوفِ [بِالسُّوقِ]، إِذْ هَتَفَ هَاتِفٌ بِاسْمِهَا: أَيْنَ فُلَانَةُ؟ قَالَتْ: أَنَا [وَالله]، قُلْتُ: وَمَا شَأْنُكِ؟ [وَيْلَكِ، وَمَا لَكِ؟ قَالَتْ: أُقْتَلُ، قَالَتْ: قُلْتُ: وَلِمَ؟]، قَالَتْ: حَدَثٌ أَحْدَثْتُهُ، قَالَتْ: فَانْطَلَقَ بِهَا فَضُرِبَتْ عُنُقُهَا، فَمَا أَنْسَى عَجَبًا مِنْهَا أَنَّهَا تَضْحَكُ ظَهْرًا وَبَطْنًا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّهَا تُقْتَلُ [وَالله مَا أَنْسَى عَجَبِي مِنْ طِيبِ نَفْسِهَا، وَكَثْرَةِ ضَحِكِهَا وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا تُقْتَلُ].

[قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَهِيَ الَّتِي طَرَحَتْ الرَّحَا عَلَى خَلَّادِ بْنِ سُوَيْدٍ ﷺ، فَقَتَلَتْهُ].

[أبو داود في الجهاد (٢٦٧١)، ومسند أحمد ٤٣/ ٣٨٣ رقم ٢٦٣٦٤، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: حسن، والسيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٢، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٥].

أمر عجيب!:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: وَكَانَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ، يُقَالُ لَهَا: نُبَاتَةُ، وَكَانَتْ تَحْتَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَكَانَ يُحِبُّهَا وَتُحِبُّهُ فَلَـمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ الحِصَارُ بَكَتْ إِلَيْهِ، وَقَالَتْ: إِنَّكَ لَـمُفَارِقِي، فَقَالَ: هُوَ وَالتَّوْرَاةِ مَا تَرَيْنَ، وَأَنْتِ امْرَأَةٌ فَدَلِّي عَلَيْهِمْ هَذِهِ الرَّحَى، فَإِنَّا لَمْ نَقْتُلْ مِنْهُمْ أَحَدًا بَعْدُ وَأَنْتِ امْرَأَةٌ، وَإِنْ يَظْهَرْ مُحَمَّدٌ عَلَيْنَا لا يَقْتُلِ النِّسَاءَ.

وَإِنَّمَا كَانَ يَكْرَهُ أَنْ تُسْبَى، فَأَحَبُّ أَنْ تُقْتَلَ بِجُرْمِهَا، وَكَانَتْ فِي حِصْنِ الزَّبِيرِ بْنِ بَاطَا، فَدَلَّتْ رَحًى فَوْقَ الحِصْنِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ رُبَّمَا جَلَسُوا تَحْتَ الحِصْنِ يَسْتَظِلُّونَ فِي فَيْئِهِ، فَأَطْلَعَتِ الرَّحَى، فَلَمَّا رَآهَا القَوْمُ انْفَضُّوا، وَتُدْرِكُ خَلَّادَ بْنَ سُوَيْدٍ فَتَشْدَخُ رَأْسَهُ، فَحَذِرَ الْمُسْلِمُونَ أَهْلَ الحِصْنِ.

فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُقْتَلُوا، دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَةَ، فَجَعَلَتْ تَضْحَكُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، وَهِيَ تَقُولُ: سَرَاةُ بَنِي قُرَيْظَةَ يُقْتَلُونَ، إِذْ سَمِعَتْ صَوْتَ قَائِلٍ يَقُولُ: يَا نُبَاتَةُ، قَالَتْ: أَنَا وَاللهِ الَّتِي أُدْعَى، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلِمَ؟ قَالَتْ: قَتَلَنِي زَوْجِي ـ وَكَانَتْ جَارِيَةً حُلْوَةَ الكَلَامِ ـ فَقَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَيْفَ قَتَلَكِ زَوْجُكِ؟ قَالَتْ: **كُنْتُ فِي حِصْنِ الزَّبِيرِ بْنِ بَاطَا، فَأَمَرَنِي فَدَلَّيْتُ رَحًى عَلَى أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ فَشَدَخَتْ رَأْسَ رَجُلٍ مِنْهُمْ فَمَاتَ، وَأَنَا أُقْتَلُ بِهِ**.

فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهَا، فَقُتِلَتْ بِخَلَّادِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَتْ عَائِشَةُ: لا أَنْسَى طِيبَ نَفْسِ نُبَاتَةَ وَكَثْرَةَ ضَحِكِهَا، وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا تُقْتَلُ.

فَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: قُتِلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ يَوْمَهُمْ حَتَّى قُتِلُوا بِاللَّيْلِ عَلَى شُعَلِ السَّعَفِ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥١٦-٥١٧].

قصة عجيبة من قصص اليهود:

يقول أ/ باشميل: «وفي الوقت الذي تم فيه تنفيذ حكم الإعدام العادل في عصابة الغدر والخيانة والإجرام من يهود بني قريظة، حدثت قصة عجيبة مثيرة، محورها محارب يهودي قديم عنيد.

كان يهودي محارب واسمه (الزبير بن باطا) من قادة بني قريظة في الجاهلية، وكان قد أسدى معروفًا كبيرًا إلى رجل من صحابة محمد ﷺ قبل الإسلام، وهو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي رضي الله عنه [(١)]، فحاول هذا الصحابي الجليل أن يجزي هذا اليهودي على معروفه السابق.

فذهب هذا الصحابي إلى نبيه محمد ﷺ وذكر له قصة فضل هذا اليهودي ومنته عليه، وطلب منه ـ بصفته القائد الأعلى ذا الصلاحيات المطلقة في العفو عمن يرى ـ أن يعفو عن هذا اليهودي المحكوم عليه بالإعدام؛ ليرد له بذلك فضله السابق عليه.

فوافق النبي القائد ﷺ وأجاب صاحبه إلى ما طلب، ولكن الغريب في الأمر هو أن هذا اليهودي، أبى ـ بعد صدور العفو عنه ـ إلا أن يقتل كما قتل قومه ليلحق بهم إلى الجحيم.

وتفصيل ذلك هو أن بني قريظة كانوا يُعتبرون في السلم والحرب جزءًا من قبيلة الأوس، وذلك بفعل رابطة التحالف القائمة بين القبيلتين، كما هي القاعدة المتبعة عند العرب في الجاهلية.

---

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس بن زهير الخزرجي الأنصاري، خطيب الأنصار الشهير، وهو الذي قال للرسول الله ﷺ عند مقدمه المدينة: نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا فما لنا؟ فقال ﷺ: (الجنة)، أول مشاهده العسكرية مع رسول الله ﷺ معركة أحد وشهد ما بعدها مع رسول الله ﷺ، قُتل ثابت المذكور شهيدًا في معركة اليمامة.

ولذلك فإن يهود بني قريظة كانوا، إذا ما نشبت في تلك الحروب الأهلية الطويلة معركة بين الأوس والخزرج يقفون إلى جانب الأوس فيقاتلون معهم حتى النهاية كجزء لا يتجزأ منهم، كما كان يفعل يهود بني النضير وبني قينقاع مع الخزرج حلفائهم.

وعندما نشبت معركة بُعاثٍ الشهيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج والتي كان النصر الساحق فيها للأوس على الخزرج، وقع ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي أسيرًا في يد القائد اليهودي الزبير بن باطا هذا، الذي كان يقود بعض اليهود في تلك المعركة ضد الخزرج.

وقد مَنَّ الزبير هذا على ثابت بن قيس حيث أخلى سبيله بعد أن جز ناصيته، فحفظها قيس يدًا بيضاء للزبير بن باطا.

فلما وقع بنو قريظة في عملهم السيء ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وحكم عليهم القاضي سعد بن معاذ ﵁ بالإعدام جميعًا، تذكر ثابت بن قيس ﵁ ما لليهودي الزبير بن باطا عليه من فضل سابق، فأحب أن يردَّ له جميله، فتوجه إلى رسول الله ﷺ، وطلب منه ـ كما تقدم ـ أن يمن على هذا اليهودي فيهبه له لينجو من القتل، ففعل النبي ﷺ، بل وأمر ـ استجابة لالتماس آخر قدمه صاحبه ثابت ـ بأن يُعاد إلى هذا اليهودي كل أبنائه ونسائه وكامل أمواله، ولكن هذا اليهودي العنيد الذي تخطى الستين من عمره رفض كل ذلك وأبى إلا أن يموت كما مات زملاؤه في الخسة والغدر والخيانة من بني قريظة».

[غزوة بني قريظة لباشميل ٢٠٥-٢٠٧].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ كَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ ﵁ ـ كَمَا ذَكَرَ لِي ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ ـ أَتَى الزَّبِيرَ(١) بْنَ بَاطَا القُرَظِيَّ، وَكَانَ يُكَنَّى أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ الزَّبِيرُ قَدْ مَنَّ عَلَى ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ ﵁ فِي الجَاهِلِيَّةِ، ذَكَرَ لِي بَعْضُ وَلَدِ الزَّبِيرِ أَنَّهُ كَانَ مَنَّ عَلَيْهِ يَوْمَ بُعَاثٍ أَخَذَهُ فَجَزَّ نَاصِيَتَهُ ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ، فَجَاءَهُ ثَابِتٌ ﵁ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ! هَل تَعْرِفُنِي؟ قَالَ: وَهَل يَجْهَلُ مِثْلِي مِثْلَكَ، قَالَ: إِنِّي قَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَجْزِيَكَ بِيَدِكَ عِنْدِي، قَالَ: إِنَّ الكَرِيمَ يَجْزِي الكَرِيمَ، ثُمَّ أَتَى ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ ﵁ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: **يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِلزَّبِيرِ عَلَيَّ مِنَّةٌ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَجْزِيَهُ بِهَا، فَهَبْ لِي دَمَهُ،** فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هُوَ لَكَ**»، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ وَهَبَ لِي دَمَكَ، فَهُوَ لَكَ، قَالَ: شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا أَهْلَ لَهُ وَلَا وَلَدَ، فَمَا يَصْنَعُ بِالحَيَاةِ؟ قَالَ: فَأَتَى ثَابِتٌ ﵁ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ، هَبْ لِي امْرَأَتَهُ وَوَلَدَهُ، قَالَ: «**هُمْ لَكَ**».

---

(١) قال السهيلي: «هو الزَّبِير، بفتح الزاي وكسر الباء، جد الزبير بن عبد الرحمن المذكور في الموطأ في كتاب النكاح. واختلف في الزبير بن عبد الرحمن، فقيل: الزبير، بفتح الزاي وكسر الباء» كاسم جده، وقيل الزبير».

قَالَ: فَأَتَاهُ فَقَالَ: قَدْ وَهَبَ لِي رَسُولُ الله ﷺ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ، فَهُمْ لَكَ، قَالَ: أَهْلُ بَيْتٍ بِالحِجَازِ لَا مَالَ لَهُمْ، فَمَا بَقَاؤُهُمْ عَلَى ذَلِكَ؟ فَأَتَى ثَابِتٌ ﷺ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَالَهُ، قَالَ: «**هُوَ لَكَ**»، فَأَتَاهُ ثَابِتٌ ﷺ فَقَالَ: قَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ الله ﷺ مَالَكَ، فَهُوَ لَكَ، قَالَ: أَيْ ثَابِتُ، مَا فَعَلَ الَّذِي كَأَنَّ وَجْهَهُ مِرْآةٌ صِينِيَّةٌ يَتَرَاءَى فِيهَا عَذَارَى الحَيِّ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ؟ قَالَ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ سَيِّدُ الحَاضِرِ وَالبَادِي حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ؟ قَالَ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ مُقَدِّمَتُنَا إِذَا شَدَدْنَا، وَحَامِيَتُنَا إِذَا فَرَرْنَا، عَزَّالُ بْنُ سَمَوْأَلٍ؟ قَالَ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ المَجْلِسَانِ؟ يَعْنِي بَنِي كَعْبِ بْنِ قُرَيْظَةَ وَبَنِي عَمْرِو بْنِ قُرَيْظَةَ؟ قَالَ: ذَهَبُوا قُتِلُوا، قَالَ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ يَا ثَابِتُ بِيَدِي عِنْدَكَ إِلَّا أَلحَقْتَنِي بِالقَوْمِ، فَوَالله مَا فِي العَيْشِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مِنْ خَيْرٍ، فَمَا أَنَا بِصَابِرٍ لله قَتْلَةُ دَلْوِ نَاضِحٍ [(١)] حَتَّى أَلْقَى الأَحِبَّةَ، فَقَدَّمَهُ ثَابِتٌ فَضَرَبَ عُنُقَهُ.

فَلَـمَّا بَلَغَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ قَوْلُهُ (أَلْقَى الأَحِبَّةَ)، قَالَ: **يَلْقَاهُمْ وَالله فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا مُخَلَّدًا.**

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٢-٢٤٣].

وعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: كَانَ الزَّبِيرُ رَجُلًا أَعْمَى، فَقَالَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ ﷺ لِرَسُولِ الله ﷺ: إِنَّ الزَّبِيرَ مَنَّ عَلَيَّ يَوْمَ بُعَاثٍ فَأَعْتَقَنِي، فَهَبْهُ لِي أَجْزِهِ، فَقَالَ ﷺ: «**هُوَ لَكَ**»، فقال لِلزَّبِيرِ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ قَالَ: نَعَمْ أَنْتَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ، قَالَ: إِنِّي أَمُنُّ عَلَيْكَ كَمَا مَنَنْتَ عَلَيَّ يَوْمَ بُعَاثٍ، قَالَ: هَلْ تَنْفَعُنِي؟ أَيْنَ أَهْلِي؟ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: هَبْ لِيَ أَهْلَهُ، قَالَ: فَوَهَبَ لَهُ أَهْلَهُ، فَأَتَاهُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ رَدَّ لَهُ أَهْلَهُ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي مَا يَنْفَعُنِي أَنْ نَعِيشَ أَجْسَادًا؟ أَيْـنَ المَالَ؟ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يـا رَسُولَ الله، هَبْ لِيَ مَالَهُ، قَالَ: «**وَلَكَ مَالُهُ**»، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: إن رَسُولِ الله ﷺ قَدْ رَدَّ عَلَيْكَ مَالَكَ، وَقَدْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بِكَ خَيْرًا، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي مَا فَعَلَ حُيَيُّ بنُ أَخْطَبَ سَيِّدُ الحَاضِرِ وَالبَادِي؟ قَالَ: قَدْ قُتِلَ، قَالَ: يَا بْنَ أَخِي مَا فَعَلَ زَيْدُ بنُ بُوطَا [رُوطَا] حَامِيَةُ اليَهُودِ؟ قَالَ: قَدْ قُتِلَ، قَالَ: مَا فَعَلَ كَعْبُ بنُ أَشْطَا [أَسَدَ] الَّذِي تَظَلُّ عَذَارَى الحَيِّ يَتَعَجَّبْنَ مِنْ حُسْنِهِ؟ قَالَ: قَدْ قُتِلَ، قَالَ: مَا فَعَلَ الـمَجْلِسَانِ؟ قَالَ: هُمَا كَأَمْسِ الذَّاهِبِ، قَالَ: فَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ لِقَاءِ الأَحِبَّةَ إِلَّا كَإِفْرَاغِ الدَّلْوِ، أَسْأَلُك بِيَدِي عَلَيْكَ إِلَّا أَلحَقْتنِي بِالقَوْمِ، قَالَ: فَقَتَلَهُ. **[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٥-٢٠٦ في المغازي والسير (١٠١٦٩)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط [٨/ ١٤٥-١٤٦]، وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف].**

وقال البيهقي: وَأَقْبَلَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ أَخُو بَنِي الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ إِلَى رَسُـولِ الله ﷺ فَقَـالَ: هَبْ لِيَ الزَّبِيرَ وَامْرَأَتَهُ فَوَهَبَهُمَا، فَرَجَعَ ثَابِتٌ إِلَى الزَّبِيرِ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ هَـل تَعْرِفُنِـي؟ وَكَـانَ الـزَّبِيرُ يَوْمَئِذٍ كَبِيرًا، أَعْمَى، قَالَ: هَل يُنْكِرُ الرَّجُلُ أَخَاهُ؟ قَالَ ثَابِتٌ: أَرَدْتُ أَجْزِيكَ اليَوْمَ بِتِلْـكَ، قَـالَ: افْعَـل فَـإِنَّ

---

(١) **الناضح**: الحبل الذي يُستخرج عليه الماء من البئر بالسانية. وأراد بقوله له: قتلة دلو ناضح: مقدار ما يأخذ الرجل الدلو إذا أخرجت فيصبها في الحوض، يفتلها أو يردها إلى موضعه.

الكَرِيمَ يَجْزِي الكَرِيمَ، قَالَ: قَدْ فَعلتُ، قَدْ سَأَلْتُكَ رَسُولَ الله ﷺ فَوَهَبَكَ لِي، فَأَطْلَقَ عَنْكَ الإِسَارَ، قَالَ الزَّبِيرُ: لَيْسَ لِي قَائِدٌ، وَقَدْ أَخَذْتُمُ امْرَأَتِي وَبَنِيَّ، فَرَجَعَ ثَابِتٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَسَأَلَهُ ذُرِّيَّةَ الزَّبِيرِ وَامْرَأَتَهُ فَوَهَبَهُمَا لَهُ، فَرَجَعَ ثَابِتٌ إِلَى الزَّبِيرِ، فَقَالَ: قَدْ رَدَّ إِلَيْكَ رَسُولُ الله ﷺ امْرَأَتَكَ وَبَنِيكَ، قَالَ الزَّبِيرُ: فَحَائِطٌ لِي فِيهِ أَعْذُقٌ لَيْسَ لِي وَلِأَهْلِي عَيْشٌ إِلَّا بِهِ، فَرَجَعَ ثَابِتٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَسَأَلَهُ حَائِطَ الزَّبِيرِ، فَوَهَبَهُ لَهُ، فَرَجَعَ ثَابِتٌ إِلَى الزَّبِيرِ فَقَالَ: قَدْ رَدَّ إِلَيْكَ رَسُولُ الله ﷺ أَهْلَكَ وَمَالَكَ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، قَالَ: مَا فَعَلَ المَجْلِسَانِ؟ فَذَكَرَ رِجَالًا مِنْ قَوْمِهِ بِأَسْمَائِهِمْ، فَقَالَ ثَابِتٌ: قَدْ قُتِلُوا وَفُرِغَ مِنْهُمْ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يَهْدِيَكَ وَأَنْ يَكُونَ أَبْقَاكَ لِخَيْرٍ، قَالَ الزَّبِيرُ: **أَسْأَلُكَ بِالله، وَبِيَدِي عِنْدَكَ إِلَّا مَا أَلْحَقْتَنِي بِهِمْ، فَمَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ بَعْدَهُمْ**، فَذَكَرَ ذَلِكَ ثَابِتٌ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَأَمَرَ بِالزَّبِيرِ فَقُتِلَ. [**دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٠-٢١**].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حِبَّانَ، وَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي حَبِيبَةَ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ الحُصَيْنِ، وَكُلٌّ قَدْ حَدَّثَنِي مِنْ هَذَا الحَدِيثِ بِطَائِفَةٍ، قَالا: كَانَ الزَّبِيرُ بْنُ بَاطَا مَنَّ عَلَى ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ يَوْمَ بُعَاثٍ، فَأَتَى ثَابِتٌ الزَّبِيرَ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ هَل تَعْرِفُنِي؟ قَالَ: وَهَل يَجْهَلُ مِثْلِي مِثْلَكَ؟ قَالَ ثَابِتٌ: إِنَّ لَكَ عِنْدِي يَدًا، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَجْزِيَكَ بِهَا، قَالَ الزَّبِيرُ: إِنَّ الكَرِيمَ يَجْزِي الكَرِيمَ، وَأَحْوَجُ مَا كُنْتُ إِلَيْهِ اليَوْمَ.

فَأَتَى ثَابِتٌ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ كَانَ لِلزَّبِيرِ عِنْدِي يَدٌ جَزَّ نَاصِيَتِي يَوْمَ بُعَاثٍ، فَقَالَ: أُذْكُرْ هَذِهِ النِّعْمَةَ عِنْدَكَ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَجْزِيَهُ بِهَا فَهَبْهُ لِي، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَهُوَ لَكَ**»، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله قَدْ وَهَبَكَ لِي، قَالَ الزَّبِيرُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ لا أَهْلَ وَلا وَلَدَ وَلا مَالَ بِيَثْرِبَ مَا يَصْنَعُ بِالحَيَاةِ؟ فَأَتَى ثَابِتٌ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَعْطِنِي وَلَدَهُ، فَأَعْطَاهُ وَلَدَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَعْطِنِي مَالَهُ وَأَهْلَهُ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ الله ﷺ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَأَهْلَهُ، فَرَجَعَ إِلَى الزَّبِيرِ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله قَدْ أَعْطَانِي وَلَدَكَ وَأَهْلَكَ وَمَالَكَ، فَقَالَ الزَّبِيرُ: يَا ثَابِتُ أَمَّا أَنْتَ، فَقَدْ كَافَأْتَنِي وَقَضَيْتَ بِالَّذِي عَلَيْكَ، يَا ثَابِتُ مَا فَعَلَ الَّذِي كَأَنَّ وَجْهَهُ مِرْآةٌ صِينِيَّةٌ تَتَرَاءَى عَذَارَى الحَيِّ فِي وَجْهِهِ ـ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ؟ قَالَ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ سَيِّدُ الحَاضِرِ وَالبَادِي، سَيِّدُ الحَيَّيْنِ كِلَيْهِمَا، يَحْمِلُهُمْ فِي الحَرْبِ وَيُطْعِمُهُمْ فِي المَحَلِّ ـ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ؟ قَالَ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ أَوَّلُ غَادِيَةِ اليَهُودِ إِذَا حَمَلُوا، وَحَامِيَتُهُمْ إِذَا وَلَّوْا ـ غَزَّالُ بْنُ سَمَوْأَلٍ؟ قَالَ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ الحُوَّلُ القُلَّبُ الَّذِي لا يَؤُمُّ جَمَاعَةً إِلَّا فَضَّهَا وَلا عُقْدَةً إِلَّا حَلَّهَا ـ نَبَّاشُ بْنُ قَيْسٍ؟ قَالَ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ لِوَاءُ اليَهُودِ فِي الزَّحْفِ ـ وَهْبُ بْنُ زَيْدٍ؟ قَالَ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ وَالِي رِفَادَةِ اليَهُودِ وَأَبُو الأَيْتَامِ وَالأَرَامِلِ مِنْ اليَهُودِ ـ عُقْبَةُ بْنُ زَيْدٍ؟ قَالَ: قُتِلَ، قَالَ: فَمَا فَعَلَ العَمْرَانِ اللَّذَانِ كَانَا يَلْتَقِيَانِ بِدِرَاسَةِ التَّوْرَاةِ؟ قَالَ: قُتِلا، قَالَ: يَا ثَابِتُ فَمَا خَيْرٌ فِي العَيْشِ بَعْدَ هَؤُلاءِ، أَأَرْجِعُ إِلَى دَارٍ كَانُوا فِيهَا حُلُولًا فَأَخْلُدَ فِيهَا بَعْدَهُمْ؟ لا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ، فَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِيَدِي عِنْدَكَ إِلَّا قَدَّمْتَنِي إِلَى هَذَا القَتَّالِ الَّذِي يَقْتُلُ سَرَاةَ بَنِي

قُرَيْظَةَ، ثُمَّ يُقَدِّمُنِي إِلَى مَصَارِعِ قَوْمِي، وَخُذْ سَيْفِي، فَإِنَّهُ صَارِمٌ فَاضْرِبْنِي بِهِ ضَرْبَةً وَأَجْهِزْ وَارْفَعْ يَدَكَ عَنِ الطَّعَامِ وَأَلْصِقْ بِالرَّأْسِ، وَاخْفِضْ عَنِ الدِّمَاغِ، فَإِنَّهُ أَحْسَنُ لِلجَسَدِ أَنْ يَبْقَى فِيهِ العُنُقُ، يَا ثَابِتُ لا أَصْبِرُ إِفْرَاغَ دَلْوٍ مِنْ نَضْحٍ حَتَّى أَلْقَى الأَحِبَّةَ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﵁: وَهُوَ يَسْمَعُ قَوْلَهُ: وَيْحَك يَا ابْنَ بَاطَا، إِنَّهُ لَيْسَ إِفْرَاغَ دَلْوٍ وَلَكِنَّهُ عَذَابٌ أَبَدِيٌّ، قَالَ: يَا ثَابِتُ، قَدِّمْنِي فَاقْتُلْنِي، قَالَ ثَابِتٌ: مَا كُنْتُ لأَقْتُلَنَّكَ، قَالَ الزَّبِيرُ: مَا كُنْتُ أُبَالِي مَنْ قَتَلَنِي، وَلَكِنْ يَا ثَابِتُ أُنْظُرْ إِلَى امْرَأَتِي وَوَلَدِي فَإِنَّهُمْ جَزِعُوا مِنَ المَوْتِ فَاطْلُبْ إِلَى صَاحِبِكَ أَنْ يُطْلِقَهُمْ، وَأَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ.

وَأَدْنَاهُ إِلَى الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ، فَقَدَّمَهُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ.

وَطَلَبَ ثَابِتٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ فَرَدَّ رَسُولُ الله ﷺ كُلَّ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَلَدِهِ وَتَرَكَ امْرَأَتَهُ مِنَ السَّبَا، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ الأَمْوَالَ مِنَ النَّخْلِ وَالإِبِلِ وَالرَّثَّةِ إِلَّا الحَلقَةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَرُدَّهَا عَلَيْهِمْ، فَكَانُوا مَعَ آلِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥١٨-٥٢٠**].

عدد قتلى اليهود:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ، قَالَ: كَانُوا سِتَّمِائَةٍ إِلَّا عَمْرَو بْنَ السُّعْدَى وُجِدَتْ رُمَّتُهُ وَنَجَا.

قَالَ ابْنُ وَاقِدٍ: خُرُوجُهُ مِنْ الحِصْنِ أَثْبَتُ.

وَحَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الـمُنْكَدِرِ، قَالَ: كَانُوا مَا بَيْنَ سِتِّمِائَةٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﵄ يَقُولُ: كَانُوا سَبْعَمِائَةٍ وَخَمْسِينَ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥١٧-٥١٨**].

مصير السبي والغنائم:

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن فرغ رسول الله ﷺ من أمر رجال بني قريظة تنفيذًا للحكم الذي أصدره القاضي سعد بن معاذ ﵁، أمر الرسول القائد ﷺ، بتشكيل هيئة من كبار الصحابة للقيام بجرد وإحصاء جميع أموال بني قريظة المنقولة وغير المنقولة من ديار وسلاح وأثاث ومزارع وخيول وجمال وغير ذلك.

وتم إحصاء السبي من النساء والذراري فكانوا ألف رأس، وقد وجد المسلمون في حصون بني قريظة من العتاد الحربي الكميات التالية:

(أ) ١٥٠٠، ألفًا وخمسمائة سيفٍ.

(ب) ٢٠٠٠، ألفين من الرماح.

(ج) ٣٠٠، ثلاثمائة درع.

(د) ٥٠٠، خمسمائة ترس (بضم التاء وسكون الراء ـ صفحة من الفولاذ يحتمي بها المحارب من السيف ونحوه) وجحفة (بضم الجيم وسكون الحاء ـ نوع من الدرق يحتمي به المحارب أيضًا).

كما وجدت اللجنة جِرارًا كثيرة من الخمر المخزون المعتق، فأمر النبي ﷺ بإراقتها، وعدم قسمتها مع الغنائم، وفي هذا دليل على أن الخمر قد نزل بها التحريم قبل غزوة خيبر، والله أعلم بالصواب.

وبعد أن تم إحصاء الغنائم من سبي وأموال، أمر النبي ﷺ، بتقسيمها على جند الإسلام الذين اشتركوا في حصار بني قريظة فقط.

وقد تم تقسيم الغنائم حسب القانون الذي نزل به القرآن، وهو أن تقسم خمسة أقسام: قسم يبقى تحت تصرف النبي القائد ﷺ يتصرف فيه حسبما تقتضيه المصلحة، وذلك تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١].

وأربعة أقسام توزع أسهمًا على المحاربين الذين بسيوفهم جاءت هذه الغنائم.

وكما هو القانون الثابت، أعطيت من الغنائم ثلاثة أسهم للفارس، سهم له، وسهمان لفرسه.

أما المحارب الراجل الذي لا فرس له فقد أعطي ـ حسب القانون ـ سهمًا واحدًا فقط.

وذلك أن أثر الفارس في المعركة على العدو أشد بكثير من أثر الراجل الذي لم يقاتل على فرس.

فعلى هذا النظام قسمت غنائم يهود بني قريظة بعد استسلامهم وإعدامهم».

[غزوة بني قريظة لباشميل ٢١٠-٢١١].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَسَّمَ أَمْوَالَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَنِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَعْلَمَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ سُهْمَانَ الخَيْلِ وَسُهْمَانَ الرِّجَالِ، وَأَخْرَجَ مِنْهَا الخُمُسَ، فَكَانَ لِلفَارِسِ ثَلَاثَةُ أَسْهُمٍ الفَرَسُ سَهْمَانِ وَلِفَارِسِهِ سَهْمٌ، وَلِلرَّاجِلِ مَنْ لَيْسَ لَهُ فَرَسٌ سَهْمٌ.

وَكَانَتْ الخَيْلُ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ سِتَّةً وَثَلَاثِينَ فَرَسًا، وَكَانَ أَوَّلَ فَيْءٍ وَقَعَتْ فِيهِ السُّهْمَانُ، وَأُخْرِجَ مِنْهَا الخُمُسُ، فَعَلَى سُنَّتِهَا وَمَا مَضَى مِنْ رَسُولِ الله ﷺ فِيهَا وَقَعَتْ المَقَاسِمُ، وَمَضَتْ السُّنَّةُ فِي المَغَازِي».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٤].

وقال الواقدي: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ المِسْوَرِ بْنِ رِفَاعَةَ، قَالَ: وُجِدَ فِيهَا أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةِ سَيْفٍ، وَثَلَاثُمِائَةِ دِرْعٍ، وَأَلْفَا رُمْحٍ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةِ تُرْسٍ وَجَحْفَةٍ، وَأَخْرَجُوا أَثَاثًا كَثِيرًا، وَآنِيَةً كَثِيرَةً، وَوَجَدُوا خَمْرًا وَجِرَارَ سُكَرٍ فَهُرِيقَ ذَلِكَ كُلُّهُ وَلَمْ يُخَمَّسْ، وَوَجَدُوا مِنَ الجِمَالِ النَّوَاضِحِ عِدَّةً، وَمِنْ المَاشِيَةِ، فَجُمِعَ هَذَا كُلُّهُ.

حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: أَنَا كُنْتُ مِمَّنْ كَسَرَ جِرَارَ السُّكَرِ يَوْمَئِذٍ. **[المغازي للواقدي ٢/ ٥١٠].**

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: لَمَّا اجْتَمَعَتْ المَغَانِمُ أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِالمَتَاعِ، فَبِيعَ فِيمَنْ يُرِيدُ، وَبِيعَ السَّبْيُ فِيمَنْ يُرِيدُ، وَقُسِمَتْ النَّخْلُ، فَكَانَ بَنُو عَبْدِ الأَشْهَلِ، وَظَفَرٍ وَحَارِثَةَ وَبَنُو مُعَاوِيَةَ وَهَؤُلاءِ النَّبِيتُ لَهُمْ سَهْمٌ، وَكَانَ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ وَمَنْ بَقِيَ مِنْ الأَوْسِ سَهْمًا.

وَكَانَتْ بَنُو النَّجَّارِ، وَمَازِنٍ وَمَالِكٍ وَذُبْيَانَ وَعَدِيٌّ سَهْمًا.

وَكَانَتْ سَلِمَةُ وَزُرَيْقٌ وَبَلحَارِثُ بْنُ الخَزْرَجِ، سَهْمًا.

وَكَانَتْ الخَيْلُ سِتَّةً وَثَلاثِينَ فَرَسًا، فَكَانَتْ أَوَّلَ مَا أُعْلِمَتْ سُهْمَانُ الخَيْلِ يَوْمَ المُرَيْسِيعِ، ثُمَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ أَيْضًا عُمِلَ فِيهَا مَا عُمِلَ فِي المُرَيْسِيعِ، أُسْهِمَ لِلفَرَسِ سَهْمَانِ وَلِصَاحِبِهِ سَهْمٌ وَلِلرَّاجِلِ سَهْمٌ.

وَأَسْهَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِخَلَّادِ بْنِ سُوَيْدٍ، قُتِلَ تَحْتَ الحِصْنِ، وَأَسْهَمَ لأَبِي سِنَانِ بْنِ مِحْصَنٍ مَاتَ وَرَسُولُ الله ﷺ مُحَاصِرُهُمْ وَكَانَ يُقَاتِلُ مَعَ المُسْلِمِينَ.

وَكَانَ الـمُسْلِمُونَ ثَلاثَةَ آلافٍ وَالخَيْلُ سِتَّةً وَثَلاثِينَ فَرَسًا، فَكَانَتْ السُّهْمَانُ عَلَى ثَلاثَةِ آلافٍ وَاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ سَهْمًا، لِلفَرَسِ سَهْمَانِ وَلِصَاحِبِهِ سَهْمٌ.

وَحَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَتْ الخَيْلُ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ سِتًّا وَثَلاثِينَ فَرَسًا، وَقَادَ رَسُولُ الله ﷺ ثَلاثَةَ أَفْرَاسٍ فَلَمْ يَضْرِبْ إِلَّا سَهْمًا وَاحِدًا، وَكَانَتْ السُّهْمَانُ ثَلاثَةَ آلافٍ وَاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ سَهْمًا، وَأَسْهَمَ يَوْمَئِذٍ عَلَى الأَمْوَالِ فَجُزِّئَتْ خَمْسَةَ أَجْزَاءٍ، وَكُتِبَ فِي سَهْمٍ مِنْهَا «لله»، وَكَانَتْ السُّهْمَانُ يَوْمَئِذٍ بَوَاءً فَخَرَجَتْ السُّهْمَانُ وَكَذَلِك الرِّثَّةُ وَالإِبِلُ وَالغَنَمُ وَالسَّبْيُ، ثُمَّ فُضَّ أَرْبَعَةُ أَسْهُمٍ عَلَى النَّاسِ.

وَأَحْذَى النِّسَاءَ يَوْمَئِذٍ اللَّاتِي حَضَرْنَ القِتَالَ وَضَرَبَ لِرَجُلَيْنِ ـ وَاحِدٍ قُتِلَ وَآخَرَ مَاتَ.

وَأَحْذَى رَسُولُ الله ﷺ نِسَاءً شَهِدْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَلَمْ يُسْهِمْ لَهُنَّ ـ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأُمُّ عُمَارَةَ، وَأُمُّ سَلِيطٍ، وَأُمُّ العَلاءِ، وَالسُّمَيْرَاءُ بِنْتُ قَيْسٍ، وَأُمُّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ.

فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ مَالِكِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ نَجْرَةَ السَّاعِدِيُّ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: حَضَرْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَبِيعُ سَبْيَ بَنِي قُرَيْظَةَ فَاشْتَرَى أَبُو الشَّحْمِ اليَهُودِيُّ امْرَأَتَيْنِ مَعَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا ثَلاثَةُ أَطْفَالٍ غِلْمَانٍ وَجَوَارٍ بِخَمْسِينَ وَمِائَةِ دِينَارٍ، وَجَعَلَ يَقُولُ: أَلَسْتُمْ عَلَى دِينِ اليَهُودِ؟ فَتَقُولُ المَرْأَتَانِ: لا نُفَارِقُ دِينَ قَوْمِنَا حَتَّى نَمُوتَ عَلَيْهِ، وَهُنَّ يَبْكِينَ.

فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ زَيْدِ بْنِ طَلحَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَـمَّا سُبِيَ بَنُو قُرَيْظَةَ ـ النِّسَاءُ وَالذُّرِّيَّةُ ـ بَاعَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْهُمْ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ طَائِفَةً وَبَعَثَ طَائِفَةً إِلَى نَجْدٍ، وَبَعَثَ طَائِفَةً إِلَى الشَّامِ مَعَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، يَبِيعُهُمْ وَيَشْتَرِي بِهِمْ سِلاحًا وَخَيْلًا.

وَيُقَالُ: بَاعَهُمْ بَيْعًا مِنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَاقْتَسَمَا، فَسَهَمَهُ عُثْمَانُ ﷺ بِمَالٍ كَثِيرٍ، وَجَعَلَ عُثْمَانُ ﷺ عَلَى كُلِّ مَنْ جَاءَ مِنْ سَبْيِهِمْ شَيْئًا مُوفِيًا، فَكَانَ يُوجَدُ عِنْدَ العَجَائِزِ المَالُ وَلا يُوجَدُ عِنْدَ الشَّوَابِّ، فَرَبِحَ عُثْمَانُ مَالًا كَثِيرًا ـ وَسَهَمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ﷺ ـ وَذَلِكَ أَنَّ عُثْمَانَ ﷺ صَارَ فِي سَهْمِهِ العَجَائِزُ.

وَيُقَالُ: لَـمَّا قَسَمَ جَعَلَ الشَّوَابَّ عَلَى حِدَةٍ وَالعَجَائِزَ عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ خَيَّرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عُثْمَانَ، فَأَخَذَ عُثْمَانُ العَجَائِزَ.

حَدَّثَنِي عَبْدُ الحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ السَّبْيُ أَلفًا مِنْ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، فَأَخْرَجَ رَسُولُ الله ﷺ خُمُسَهُ قَبْلَ بَيْعِ المَغْنَمِ جَزَّأَ السَّبْيَ خَمْسَةَ أَجْزَاءٍ فَأَخَذَ خُمُسًا، فَكَانَ يُعْتِقُ مِنْهُ وَيَهَبُ مِنْهُ وَيُخْدِمُ مِنْهُ مَنْ أَرَادَ، وَكَذَلِكَ صَنَعَ بِمَا أَصَابَ مِنْ رِثَّتِهِمْ قُسِمَتْ قَبْلَ أَنْ تُبَاعَ، وَكَذَلِكَ النَّخْلُ عَزَلَ خُمُسَهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُسْهِمُ عَلَيْهِ ﷺ خَمْسَةَ أَجْزَاءٍ وَيَكْتُبُ فِي سَهْمٍ مِنْهَا «لله»، ثُمَّ يُخْرِجُ السَّهْمَ فَحَيْثُ صَارَ سَهْمُهُ أَخَذَهُ وَلَمْ يَتَخَيَّرْ، وَصَارَ الخُمُسُ إِلَى مَحْمِيَّةِ ابْنِ جَزْءٍ الزَّبِيْدِي وَهُوَ الَّذِي قَسَمَ المَغْنَمَ بَيْنَ المُسْلِمِينَ.

حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ نَافِعٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يُسْهِمُ وَلا يَتَخَيَّرُ.
[المغازي للواقدي ٢/ ٥٢١-٥٢٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي عُتْبَةُ بْنُ جَبِيرَةَ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مَحْمُودٍ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ رضي الله عنه: ابْتَعْتُ يَوْمَئِذٍ مِنَ السَّبْيِ ثَلاثَةً امْرَأَةً مَعَهَا ابْنَاهَا، بِخَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ دِينَارًا، وَكَانَ ذَلِكَ حَقِّي وَحَقَّ فَرَسِي مِنْ السَّبْيِ وَالأَرْضِ وَالرِّثَّةِ وَغَيْرِي كَهَيْئَتِي، وَكَانَ أَسْهَمَ لِلفَارِسِ ثَلاثَةَ أَسْهُمٍ، لَهُ سَهْمٌ وَلِفَرَسِهِ سَهْمَانِ.

وَحَدَّثَنِي المُغِيرَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الحِزَامِيُّ ـ وَكَانَ يُلَقَّبُ قُصَيًّا ـ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ خَارِجَةَ، قَالَ: قَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ رضي الله عنه: شَهِدْتُ بَنِي قُرَيْظَةَ فَارِسًا، فَضُرِبَ لِي سَهْمٌ وَلِفَرَسِي سَهْمٌ.

وَحَدَّثَنِي عَبْدُ المَلِكِ بْنُ يَحْيَى، عَنْ عِيسَى بْنِ مَعْمَرٍ، قَالَ: كَانَ مَعَ الزُّبَيْرِ يَوْمَئِذٍ فَرَسَانِ، فَأَسْهَمَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ خَمْسَةَ أَسْهُمٍ. **[المغازي للواقدي ٢/ ٥٢٤-٥٢٥]**.

ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ سَعْدَ بْنَ زَيْدٍ الأَنْصَارِيّ رضي الله عنه أَخَا بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ بِسَبَايَا مِنْ سَبَايَا بَنِي قُرَيْظَةَ إِلَى نَجْدٍ، فَابْتَاعَ لَهُمْ بِهَا خَيْلًا وَسِلَاحًا». **[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٥]**.

مشاركة المرأة في المغنم:

يقول أ/ باشميل: «إلا أن النبي ﷺ ـ وبطريقة استثنائية ـ رضخ (**الرضخ** ـ بفتح الراء ـ هو إعطاء قليل من كثير، دونما الرجوع إلى قاعدة معينة) من غنيمة بني قريظة لستٍّ من نساء المسلمين كن قد حضرن عمليات الحصار، أي أنه لم يسهم لهن في الغنيمة كالرجال وإنما أعطاهن شيئًا قدره بنفسه.

وهؤلاء النسوة الفاضلات اللواتي حضرن حصار بني قريظة هن في السيرة الحلبية:

(١) أم عمارة ـ نسيبة بنت كعب المازنية ـ الصحابية الشهيرة التي قاتلت المشركين في معركة أحد.

(٢) صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ.

(٣) أم سليط.

(٤) أم العلاء.

(٥) السميراء بنت قيس.

(٦) أم سعد بن معاذ.

وهذه أول مرة يعطي فيها النبي ﷺ النساء من غنائم العدو.

كما أن غزوة بني قريظة هو ثاني عمل حربي تشترك فيه المرأة المسلمة، فقد اشتركت في معركة أُحُد مقاتِلة ومسعفة.

وكذلك أسهم رسول الله ﷺ لرجلين من المسلمين كانا قد ماتا في حصار بني قريظة.

أحدهما: خلاد بن سويد، وهو الذي قتلته مزنة اليهودية بحجر رحى ألقته عليه من رأس الحصن، فقتلته به كما تقدم، وخلاد هذا هو ابن سويد بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي كان من السابقين في الإسلام، شهد العقبة وبدرًا.

وقد دفع رسول ﷺ سهمه إلى ورثته، وقال: «**إن له أجر شهيدين**». [**السيرة الحلبية ٢/ ١٢٠**].

وثانيهما: أبو سنان بن محصن أخو عكاشة بن محصن مات غير مقتول أيام حصار بني قريظة، وهو ضمن الجيش المحاصِر، وقد تسلم ورثته سهمه في الغنيمة.

وهذه أيضًا، أول مرة يُسهم فيها النبي ﷺ لميت في غنيمة من غنائم العدو».

[**غزوة بني قريظة لباشميل ٢١١-٢١٣**].

منع التفريق بين الأم وولدها:

وعند توزيع الغنائم على المحاربين أصدر النبي ﷺ أمرًا مشددًا بأن لا يُفرِّق أحد بين أم وولدها من سبي بني قريظة، عندما يرغب في بيعهم.

فإما البيع معًا، وإما الاستبقاء معًا؛ لأن في التفريق بين الأم وولدها تعذيبًا شديدًا لهم لا يقره الإسلام، بل إن الرسول القائد ﷺ ذهب في الشفقة والرحمة إلى أبعد من منع التفريق بين الأم وولدها فأصدر أمره مشددًا أيضًا بأن لا يفرق أحد بين الأخت وأختها حتى يبلغا.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الحَمِيدِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: نَهَى رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ سَبْيِ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي القَسْمِ وَالبَيْعِ وَالنِّسَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ.

وَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ الله، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَئِذٍ: «**لا يُفَرَّقُ بَيْنَ الأُمِّ وَوَلَدِهَا حَتَّى يَبْلُغُوا**»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله وَمَا بُلُوغُهُمْ؟ قَالَ :«**تَحِيضُ الجَارِيَةُ وَيَحْتَلِمُ الغُلامُ**».

وَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ يَوْمَئِذٍ يُفَرَّقُ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِذَا بَلَغَتَا، وَبَيْنَ الأُمِّ وَابْنَتِهَا إِذَا بَلَغَتْ، وَكَانَتْ الأُمُّ تُبَاعُ وَوَلَدُهَا الصِّغَارُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ العَرَبِ، وَمِنْ يَهُودِ الـمَدِينَةِ وَتَيْمَاءَ وَخَيْبَرَ يَخْرُجُونَ بِهِمْ، فَإِذَا كَانَ الوَلِيدُ صَغِيرًا لَيْسَ مَعَهُ أُمٌّ لَمْ يُبَعْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلا مِنَ اليَهُودِ، إِلَّا مِنَ الـمُسْلِمِينَ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٢٤**].

ونتيجة لهذه الأوامر النبوية المشددة بشأن سبي العدو، كان قادة الجيوش الإسلامية في حروب الإسلام يمنعون التفريق بين الأم وولدها وبين الأخت وأختها والأخ وأخيه.

وقد كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى قادة الجيوش الإسلامية في الشام والعراق: **(لا تفرقوا بين الأخوين، ولا بين الأم وولدها في البيع لأنه ذو رحم)**.

وقد حكم الإمام الشافعي بفساد بيع المفرَّق بينهما سواء كان المفرَّق بينهما بالبيع أخوين، أو أمًّا وولدها. [ينظر: المغني لابن قدامة ٨/ ٢٤٢ كتاب الجهاد، قسم الغنائم].

الرسول ﷺ يتزوج من بني قريظة:

وقد تزوج رسول الله ﷺ من سبايا يهود بني قريظة امرأة اسمها (ريحانة بنت عمرو) وهو (شمعون مولى رسول الله ﷺ) تزوجها بعد أن أعتقها.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدِ اصْطَفَى لِنَفْسِهِ مِنْ نِسَائِهِمْ رَيْحَانَةَ بِنْتَ عَمْرِو بْنِ خُنَافَةَ، إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي عَمْرِو بْنِ قُرَيْظَةَ (وقيل: كانت من بني النضير متزوجة في قريظة رجلًا يقال له: الحكم. راجع شرح المواهب)، فَكَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى تُوُفِّيَ عَنْهَا وَهِيَ فِي مُلْكِهِ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ عَرَضَ عَلَيْهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا، وَيَضْرِبَ عَلَيْهَا الحِجَابَ فَقَالَتْ: **يَا رَسُولَ الله، بَل تَتْرُكُنِي فِي مُلْكِكَ، فَهُوَ أَخَفُّ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ**، فَتَرَكَهَا.

وَقَدْ كَانَتْ حِينَ سَبَاهَا قَدْ تَعَصَّتْ بِالإِسْلَامِ وَأَبَتْ إِلَّا اليَهُودِيَّةَ، فَعَزَلَـهَا رَسُولُ الله ﷺ وَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ لِذَلِكَ مِنْ أَمْرِهَا، فَبَيْنَا هُوَ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ سَمِعَ وَقْعَ نَعْلَيْنِ خلفَهُ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَذَا لَثِعْلَبَةَ بْنِ سَعْيَةَ يُبَشِّرُنِي بِإِسْلَامِ رَيْحَانَةَ**»، فَجَاءَهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ أَسْلَمَتْ رَيْحَانَةُ، فَسَرَّهُ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهَا».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٥].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: وَكَانَتْ رَيْحَانَةُ بِنْتُ زَيْدٍ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ مُتَزَوِّجَةً فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ أَخَذَهَا لِنَفْسِهِ صَفِيًّا، وَكَانَتْ جَمِيلَةً، فَعَرَضَ عَلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ تُسْلِمَ فَأَبَتْ إِلَّا اليَهُودِيَّةَ، فَعَزَلَهَا رَسُولُ الله ﷺ وَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ، فَأَرْسَلَ إِلَى ابْنِ سَعِيَّةَ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ ابْنُ سَعِيَّةَ: فِدَاك أَبِي وَأُمِّي، هِيَ تُسْلِمُ، فَخَرَجَ حَتَّى جَاءَهَا، فَجَعَلَ يَقُولُ لَهَا: لا تَتَّبِعِي قَوْمَكَ، فَقَدْ رَأَيْتِ مَا أَدْخَلَ عَلَيْهِمْ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، فَأَسْلِمِي يَصْطَفِيكِ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ.

فَبَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فِي أَصْحَابِهِ إِذْ سَمِعَ وَقْعَ نَعْلَيْنِ، فَقَالَ: «**إِنَّ هَاتَيْنِ لَنَعْلا ابْنِ سَعِيَّةَ يُبَشِّرُنِي بِإِسْلَامِ رَيْحَانَةَ**»، فَجَاءَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ أَسْلَمَتْ رَيْحَانَةُ، فَسُرَّ بِذَلِكَ.

فَحَدَّثَنِي عَبْدُ المَلِكِ بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَيُّوبَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ، عَنْ أَيُّوبَ بْنِ بَشِيرٍ المُعَاوِيِّ، قَالَ: أَرْسَلَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَيْتِ سَلمَى بِنْتِ قَيْسٍ أُمِّ المُنْذِرِ، وَكَانَتْ عِنْدَهَا حَتَّى

حَاضَتْ حَيْضَةً، ثُمَّ طَهُرَتْ مِنْ حَيْضِهَا، فَجَاءَتْ أُمُّ الْمُنْذِرِ، فَأَخْبَرَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَجَاءَهَا رَسُولُ الله ﷺ فِي مَنْزِلِ أُمِّ الْمُنْذِرِ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله: «**إِنْ أَحْبَبْت أُعْتِقُكِ وَأَتَزَوَّجُكِ فَعَلتُ، وَإِنْ أَحْبَبْتِ أَنْ تَكُونِي فِي مِلكِي أَطَؤُكِ بِالمِلكِ فَعَلتُ**»، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُ أَخفُّ عَلَيْكَ، وَعَلَيَّ أَنْ أَكُونَ فِي مِلكِكَ، فَكَانَتْ فِي مِلكِ النَّبِيِّ ﷺ يَطَؤُهَا حَتَّى مَاتَتْ عِنْدَهُ.

فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ، قَالَ: سَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ عَنْ رَيْحَانَةَ، فَقَالَ: كَانَتْ أَمَةً لِرَسُولِ الله ﷺ فَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، وَكَانَتْ تَحْتَجِبُ فِي أَهْلِهَا، وَتَقُولُ: لا يَرَانِي أَحَدٌ بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ، فَهَذَا أَثْبَتُ الحَدِيثَيْنِ عِنْدَنَا.

وَكَانَ زَوْجُ رَيْحَانَةَ قَبْلَ النَّبِيِّ ﷺ الحَكَمَ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٢٠-٥٢١**].

شهداء المسلمين في بني قريظة:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: خَلَّادُ بْنُ سُوَيْدٍ مِنْ بَلحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ، دَلَّتْ عَلَيْهِ نُبَاتَةُ رَحًى فَشَدَخَتْ رَأْسَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَهُ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ**»، وَقَتَلَهَا بِهِ.

وَمَاتَ أَبُو سِنَانِ بْنُ مِحْصَنٍ، فَدَفَنَهُ رَسُولُ الله ﷺ هُنَاكَ، فَهُوَ فِي مَقْبَرَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ اليَوْمَ.

[**المغازي للواقدي ٢/ ٥٢٩-٥٣٠**].

وصول الخبر إلى يهود خيبر:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَـمَّا قُتِلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ، قَدِمَ حُسَيْلُ بْنُ نُوَيْرَةَ الأَشْجَعِيُّ خَيْبَرَ، قَدْ سَارَ يَوْمَيْنِ، وَيَهُودُ بَنِي النَّضِيرِ ـ سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ، وَكِنَانَةُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ أَبِي الحُقَيْقِ، وَيَهُودُ خَيْبَرَ جُلُوسٌ فِي نَادِيهِمْ يَتَحَسَّبُونَ خَبَرَ قُرَيْظَةَ، قَدْ بَلَغَهُمْ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ حَصَرَهُمْ، وَهُمْ يَتَوَقَّعُونَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: الشَّرُّ، قُتِلَتْ مُقَاتِلَةُ قُرَيْظَةَ صَبْرًا بِالسَّيْفِ، قَالَ كِنَانَةُ: مَا فَعَلَ حُيَيٌّ؟ قَالَ حُسَيْلٌ: حُيَيٌّ قَدْ طَاحَ، ضُرِبَتْ عُنُقُهُ صَبْرًا، وَجَعَلَ يُخْبِرُهُمْ عَنْ سَرَاتِهِمْ ـ كَعْبِ بْنِ أَسَدٍ، وَغَزَّالِ بْنِ سَمَوْأَلٍ، وَنَبَّاشِ بْنِ قَيْسٍ ـ إِنَّهُ حَضَرَهُمْ، قُتِلُوا بَيْنَ يَدَيْ مُحَمَّدٍ.

قَالَ سَلَّامُ بْن مِشْكَمٍ: **هَذَا كُلُّهُ عَمَلُ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، شَأَمَنَا أَوَّلًا وَخَالَفَنَا فِي الرَّأْيِ، فَأَخْرَجَنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَشَرَفِنَا وَقَتَلَ إِخْوَانَنَا، وَأَشَدُّ مِنَ القَتْلِ سِبَاءُ الذُّرِّيَّةِ، لا قَامَتْ يَهُودِيَّةٌ بِالحِجَازِ أَبَدًا، لَيْسَ لِليَهُودِ عَزْمٌ وَلا رَأْيٌ**.

قَالُوا: وَبَلَغَ النِّسَاءَ فَصَيَّحْنَ وَشَقَقْنَ الجُيُوبَ، وَجَزَزْنَ الشُّعُورَ، وَأَقَمْنَ الـمَآتِمَ، وَضَوَى إِلَيْهِنَّ نِسَاءُ العَرَبِ.

وَفَزِعَتِ اليَهُودُ إِلَى سَلَّامِ بْنِ مِشْكَمٍ، فَقَالُوا: فَمَا الرَّأْيُ أَبَا عَمْرٍو؟ وَيُقَالُ: أَبَا الحَكَمِ، قَالَ: وَمَا تَصْنَعُونَ بِرَأْيٍ لا تَأْخُذُونَ مِنْهُ حَرْفًا؟ قَالَ كِنَانَةُ: لَيْسَ هَذَا بِحِينِ عِتَابٍ قَدْ صَارَ الأَمْرُ إِلَى مَا تَرَى، قَالَ: **مُحَمَّدٌ قَدْ فَرَغَ مِنْ يَهُودِ يَثْرِبَ، وَهُوَ سَائِرٌ إِلَيْكُمْ فَنَازِلٌ بِسَاحَتِكُمْ وَصَانِعٌ بِكُمْ مَا صَنَعَ بِبَنِي قُرَيْظَةَ**.

قَالُوا: فَمَا الرَّأْيُ؟ قَالَ: نَسِيرُ إِلَيْهِ بِمَنْ مَعَنَا مِنْ يَهُودِ خَيْبَرَ، فَلَهُمْ عَدَدٌ، وَنَسْتَجْلِبُ يَهُودَ تَيْمَاءَ، وَفَدَكٍ، وَوَادِي الْقُرَى، وَلا نَسْتَعِينُ بِأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ فِي غَزْوَةِ الخَنْدَقِ مَا صَنَعَتْ بِكُمُ العَرَبُ بَعْدَ أَنْ شَرَطْتُمْ لَهُمْ تَمْرَ خَيْبَرَ نَقَضُوا ذَلِكَ وَخَذَلُوكُمْ، وَطَلَبُوا مِنْ مُحَمَّدٍ بَعْضَ تَمْرِ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، وَيَنْصَرِفُونَ عَنْهُ مَعَ أَنَّ نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ هُوَ الَّذِي كَادَهُمْ بِمُحَمَّدٍ، وَمَعْرُوفُهُمْ إِلَيْهِ مَعْرُوفُهُمْ، ثُمَّ نَسِيرُ إِلَيْهِ فِي عُقْرِ دَارِهِ فَنُقَاتِلُ عَلَى وِتْرٍ حَدِيثٍ وَقَدِيمٍ.

فَقَالَتِ اليَهُودُ: هَذَا الرَّأْيُ، فَقَالَ كِنَانَةُ: إِنِّي قَدْ خَبَرْتُ العَرَبَ فَرَأَيْتُهُمْ أَشِدَّاءَ عَلَيْهِ، وَحُصُونُنَا هَذِهِ لَيْسَتْ مِثْلَ مَا هُنَاكَ، وَمُحَمَّدٌ لا يَسِيرُ إِلَيْنَا أَبَدًا لِمَا يَعْرِفُ.

قَالَ سَلَّامُ بْنُ مِشْكَمٍ: هَذَا رَجُلٌ لا يُقَاتِلُ حَتَّى يُؤْخَذَ بِرَقَبَتِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ وَاللهِ مَحْمُودًا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٠-٥٣١].

المبحث الخامس
استشهاد سعد بن معاذ ﵁

عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الخَنْدَقِ رَمَاهُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهُ حِبَّانُ بْنُ العَرِقَةِ، وَهُوَ حِبَّانُ بْنُ قَيْسٍ مِنْ بَنِي مَعِيصِ بْنِ عَامِرِ ابْنِ لُؤَيٍّ، رَمَاهُ فِي الأَكْحَلِ، فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْمَةً فِي المَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الخَنْدَقِ وَضَعَ السِّلَاحَ وَاغْتَسَلَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ﵇ وَهُوَ يَنْفُضُ رَأْسَهُ مِنَ الغُبَارِ، فَقَالَ: **قَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ وَاللهِ مَا وَضَعْتُهُ اخْرُجْ إِلَيْهِمْ**، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَأَيْنَ؟**»، فَأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَأَتَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ فَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِهِ، فَرَدَّ الحُكْمَ إِلَى سَعْدٍ ﵁، قَالَ: **فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ المُقَاتِلَةُ، وَأَنْ تُسْبَى النِّسَاءُ وَالذُّرِّيَّةُ، وَأَنْ تُقْسَمَ أَمْوَالُهُمْ**.

قَالَ هِشَامٌ: فَأَخْبَرَنِي أَبِي عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ سَعْدًا ﵁ [تَحَجَّرَ كَلْمُهُ لِلْبُرْءِ (أي: يبس جرحه، وكاد أن يبرأ)]، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ** ﷺ **وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي لَهُ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الحَرْبَ فَافْجُرْهَا، وَاجْعَلْ مَوْتَتِي فِيهَا**»، فَانْفَجَرَتْ مِنْ لَبَّتِهِ (هي موضع القلادة من الصدر، وكان موضع الجرح ورم حتى اتصل الورم إلى صدره، فانفجر من ثَمَّ)، فَلَمْ يَرُعْهُمْ (يفزعهم) وَفِي المَسْجِدِ [مَعَهُ] خَيْمَةٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ إِلَّا الدَّمُ يَسِيلُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا أَهْلَ الخَيْمَةِ! مَا هَذَا الَّذِي يَأْتِينَا مِنْ قِبَلِكُمْ؟ فَإِذَا سَعْدٌ ﵁ يَغْذُو (يسيل) جُرْحُهُ دَمًا فَمَاتَ مِنْهَا ﵁.

وزاد مسلم: وحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْكُوفِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدَةُ، عَنْ هِشَامٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ نَحْوَهُ، غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: فَانْفَجَرَ مِنْ لَيْلَتِهِ، فَمَا زَالَ يَسِيلُ حَتَّى مَاتَ، وَزَادَ فِي الْحَدِيثِ، قَالَ: فَذَاكَ حِينَ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

أَلَا يَا سَعْدُ سَعْدَ بَنِي مُعَاذٍ ... فَمَا فَعَلَتْ قُرَيْظَةُ وَالنَّضِيرُ
لَعَمْرُكَ إِنَّ سَعْدَ بَنِي مُعَاذٍ ... غَدَاةَ تَحَمَّلُوا لَهُوَ الصَّبُورُ
تَرَكْتُمْ قِدْرَكُمْ لَا شَيْءَ فِيهَا ... وَقِدْرُ الْقَوْمِ حَامِيَةٌ تَفُورُ (١)
وَقَدْ قَالَ الْكَرِيمُ أَبُو حُبَابٍ ... أَقِيمُوا قَيْنُقَاعُ وَلَا تَسِيرُوا
وَقَدْ كَانُوا بِبَلْدَتِهِمْ ثِقَالًا ... كَمَا ثَقُلَتْ بِمَيْطَانَ الصُّخُورُ (٢)

[البخاري في المغازي (٤١٢٢)، وفي الصلاة (٤٦٣) مختصرًا، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٩)].

---

(١) تَرَكْتُمْ قِدْرَكُمْ: هذا مثل لعدم الناصر وأراد بقوله تركتم قدركم الأوس لقلة حلفائهم، فإن حلفاءهم قريظة وقد قتلوا. وأراد بقوله: **وَقِدْرُ الْقَوْمِ حَامِيَةٌ تَفُورُ**: الخزرج لشفاعتهم في حلفائهم بني قينقاع حتى من عليهم النبي ﷺ وتركهم لعبد الله بن أبي ابن سلول، وهو أبو حباب المذكور في البيت التالي.

(٢) **وَقَدْ كَانُوا بِبَلْدَتِهِمْ ثِقَالًا**: أي بنو قريظة، وثقالًا أي راسخين من كثرة ما لهم من القوة والنجدة والمال، كما رسخت الصخور وهي الحجارة الكبار بتلك البلدة. **مَيْطَانَ**: هو اسم جبل من أرض الحجاز في ديار بني مزينة، وهو بفتح الميم على المشهور، وقال أبو عبيد البكري وجماعة هو بكسرها، وإنما قصد هذا الشاعر تحريض سعد على استبقاء بني قريظة حلفائه، ويلومه على حكمه فيهم، ويذكره بفعل عبد الله بن أبي ويمدحه بشفاعته في حلفائهم بني قينقاع.

وعَنْ عُرْوَةَ ـ يعني ابن الزبير ـ قَالَ: وَزَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بَرِئَ كَلْمُ سَعْدٍ ﷺ، وَتَحَجَّرَ بِالبُرْءِ، ثُمَّ إِنَّهُ دَعَا، فَقَالَ: **اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الأَرْضِ قَوْمٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ، وَأَخْرَجُوهُ، وَإِنِّي أَظُنُّ أَنْ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَإِنْ كَانَ بَقِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ قِتَالٌ، فَأَبْقِنِي أُقَاتِلهُمْ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فافْجُرْ هَذَا المَكَانَ، وَاجْعَل مَوْتِي فِيهِ**، فَفَجَرَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَإِنَّهُ لَرَاقِدٌ بَيْنَ ظَهْرَيِ اللَّيْلِ، فَمَا دَرَوْا بِهِ حَتَّى مَاتَ، وَمَا رَقَأَ الكَلْمُ حَتَّى مَاتَ ﷺ.

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٦)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه عن عائشة متصل الإسناد، رواه الطبراني [المعجم الكبير ٦/ ٧٠٨٥ رقم ٥٣٢٧] مرسلًا وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف. وقال محقق المعجم الكبير: قلت: وهذا من الضعيف].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَكَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي فِي صُبْحِهَا نَزَلَتْ قُرَيْظَةُ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ دَعَا، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا، فَإِنَّهُ لا قَوْمَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أُقَاتِلَ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَ الله، وَآذَوْهُ، وَأَخْرَجُوهُ، وَإِنْ كَانَتْ الحَرْبُ قَدْ وَضَعَتْ أَوْزَارَهَا عَنَّا وَعَنْهُمْ، فَاجْعَلْهُ لِي شَهَادَةً، وَلا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَأَقَرَّ اللهُ عَيْنَهُ مِنْهُمْ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥١٢].

وعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ:... ثُمَّ دَعَا [الله] سَعْدٌ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ أَبْقَيْتَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْئًا فَأَبْقِنِي لَهَا، وَإِنْ كُنْتَ قَطَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ**»، قَالَتْ: فَانْفَجَرَ كَلْمُهُ، وَكَانَ قَدْ بَرِئَ حَتَّى مَا يُرَى مِنْهُ إِلَّا مِثْلُ الخُرْصِ، [فَرَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ] وَرَجَعَ (أي سعدٌ ﷺ) إِلَى قُبَّتِهِ الَّتِي ضَرَبَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَحَضَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قَالَتْ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ بُكَاءَ عُمَرَ مِنْ بُكَاءِ أَبِي بَكْرٍ وَأَنَا فِي حُجْرَتِي، وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩].

قَالَ عَلقَمَةُ: قُلْتُ: أَيْ أُمَّهْ! فَكَيْفَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَصْنَعُ؟

قَالَتْ: كَانَتْ عَيْنُهُ لَا تَدْمَعُ عَلَى أَحَدٍ وَلَكِنَّهُ، كَانَ إِذَا وَجِدَ فَإِنَّمَا هُوَ آخِذٌ بِلِحْيَتِهِ».

[مسند أحمد ٤٢/ ٢٦ رقم ٢٥٠٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: بعضه صحيح، وجزء منه حسن وهذا إسناد فيه ضعف عمرو بن علقمة لم يرو عنه غير ابنه محمد، مجمع الزوائد ٦/ ١٩٩-٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٥)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه، رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات، والمصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٦٨-٣٧١ في المغازي (٣٧٩٥١)].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: لَـمَّا حَكَمَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ رَجَعَ إِلَى خَيْمَةِ كُعَيْبَةَ بِنْتِ سَعْدٍ الأَسْلَمِيَّةِ وَكَانَ رَمَاهُ حِبَّانُ بْنُ العَرِقَةِ ـ وَيُقَالُ: أَبُو أُسَامَةَ الجُشَمِيُّ ـ فَقَطَعَ أَكْحَلَهُ، فَكَوَاهُ رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّارِ، وَانْتَفَخَتْ يَدُهُ فَتَرَكَهُ فَسَالَ الدَّمُ، فَحَسَمَهُ أُخْرَى فَانْتَفَخَتْ يَدُهُ، فَلَـمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: **اللَّهُمَّ رَبَّ**

السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرَضِينَ السَّبْعِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي النَّاسِ قَوْمٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُقَاتِلَ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ قُرَيْشٍ، وَإِنِّي أَظُنُّ أَنْ قَدْ وُضِعَتْ الحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَإِنْ كَانَ بَقِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَأَبْقِنِي أُقَاتِلُهُمْ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ فَافْجُرْ هَذَا الكَلْمَ، وَاجْعَلْ مَوْتِي فِيهِ، فَقَدْ أَقْرَرْتَ عَيْنَيَّ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ لِعَدَاوَتِهِمْ لَكَ وَلِنَبِيِّكَ وَلأَوْلِيَائِكَ.

فَفَجَرَهُ اللهُ وَإِنَّهُ لَرَاقِدٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ اللَّيْلِ وَمَا يُدْرَى بِهِ.

وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُهُ فَأَتَاهُ وَهُوَ يَسُوقُ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَوَجَدُوهُ قَدْ سُجِّيَ بِمُلَاءَةٍ بَيْضَاءَ، وَكَانَ سَعْدٌ ﷺ رَجُلًا أَبْيَضَ طَوِيلًا، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَجَعَلَ رَأْسَهُ فِي حِجْرِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنَّ سَعْدًا قَدْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِكَ، وَصَدَّقَ رَسُولَكَ، وَقَضَى الَّذِي عَلَيْهِ فَاقْبِضْ رُوحَهُ بِخَيْرِ مَا تَقْبِضُ فِيهِ أَرْوَاحَ الخَلْقِ**»، فَفَتَحَ سَعْدٌ عَيْنَيْهِ حِينَ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: **السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**، وَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَأْسَ سَعْدٍ ﷺ مِنْ حِجْرِهِ، ثُمَّ قَامَ وَانْصَرَفَ وَلَمْ يَمُتْ بَعْدُ، وَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَمَكَثَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ سَاعَةٍ وَمَاتَ خِلافَهُ.

وَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ حِينَ مَاتَ سَعْدٌ ﷺ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ، فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ، مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ الَّذِي مَاتَ فِيكُمْ؟ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَاهْتَزَّ لَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ.**

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ ﷺ: «**عَهْدِي بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ وَهُوَ يَمُوتُ**».

ثُمَّ خَرَجَ فَزِعًا إِلَى خَيْمَةِ كُعَيْبَةَ يَجُرُّ ثَوْبَهُ مُسْرِعًا، فَوَجَدَ سَعْدًا قَدْ مَاتَ، وَأَقْبَلَتْ رِجَالُ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ فَاحْتَمَلُوهُ إِلَى مَنْزِلِهِ.

قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَثَرِهِ فَيَنْقَطِعُ نَعْلُ أَحَدِهِمْ، فَلَمْ يُعَرِّجْ عَلَيْهَا، وَيَسْقُطُ رِدَاؤُهُ فَلَمْ يَلْوِ عَلَيْهِ، وَمَا يُعَرِّجُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ حَتَّى دَخَلُوا عَلَى سَعْدٍ ﷺ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ: وَقَدْ سَمِعْنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَضَرَهُ حِينَ تُوُفِّيَ.

وَأَخْبَرَنِي مُعَاذُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا انْفَجَرَتْ يَدُ سَعْدٍ ﷺ بِالدَّمِ قَامَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاعْتَنَقَهُ وَالدَّمُ يَنْفَحُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلِحْيَتِهِ، لا يُرِيدُ أَحَدٌ أَنْ يَقِيَ رَسُولَ اللهِ ﷺ الدَّمَ إِلَّا ازْدَادَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرْبًا، حَتَّى قَضَى.

وَحَدَّثَنِي سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، عَنْ الحُصَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ خَرِيشٍ ﷺ قَالَ: رَأَيْت رَسُولَ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ عَلَى البَابِ نُرِيدُ أَنْ نَدْخُلَ عَلَى أَثَرِهِ فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَمَا فِي البَيْتِ أَحَدٌ إِلَّا سَعْدٌ ﷺ مُسَجًّى، قَالَ: فَرَأَيْتُهُ يَتَخَطَّى، فَلَـمَّا رَأَيْتُهُ يَتَخَطَّى وَقَفْتُ، وَأَوْمَأَ إِلَيَّ قِفْ، فَوَقَفْتُ، وَرَدَدْتُ مَنْ وَرَائِي، وَجَلَسَ سَاعَةً ثُمَّ خَرَجَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا رَأَيْتُ أَحَدًا وَقَدْ رَأَيْتُكَ تَتَخَطَّى، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا قَدَرْتُ عَلَى مَجْلِسٍ حَتَّى قَبَضَ لِي مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ أَحَدَ جَنَاحَيْهِ فَجَلَسْتُ**».

وَرَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: «**هَنِيئًا لَكَ أَبَا عَمْرٍو! هَنِيئًا لَكَ أَبَا عَمْرٍو**».

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: فَانْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ وَأُمُّ سَعْدٍ تَبْكِي وَتَقُولُ:

وَيْلُ أُمِّ سَعْدٍ سَعْدَا جَلادَةً وَحَدَّا

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ: **مَهْلًا يَا أُمَّ سَعْدٍ لا تَذْكُرِي سَعْدًا.**

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعْهَا يَا عُمَرُ، فَكُلُّ بَاكِيَةٍ مُكْثِرَةٌ إِلَّا أُمَّ سَعْدٍ، مَا قَالَتْ مِنْ خَيْرٍ فَلَمْ تَكْذِبْ**».

وَأُمُّ سَعْدٍ كَبْشَةُ بِنْتُ عُبَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ الأَبْجَرِ بْنِ عَوْفِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ، وَأُخْتُهَا الفَارِعَةُ بِنْتُ عُبَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ عُبَيْدٍ، وَهِيَ أُمُّ سَعْدِ بْنِ زُرَارَةَ.

قَالُوا: ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يُغَسَّلَ، فَغَسَّلَهُ الحَارِثُ بْنُ أَوْسِ بْنِ مُعَاذٍ وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَسَلَمَةُ بْنُ سَلامَةَ بْنِ وَقْشٍ يَصُبُّ المَاءَ، وَرَسُولُ الله ﷺ حَاضِرٌ، فَغُسِّلَ بِالمَاءِ الأُولَى، وَالثَّانِيَةَ بِالمَاءِ وَالسِّدْرِ، وَالثَّالِثَةَ بِالمَاءِ وَالكَافُورِ، ثُمَّ كُفِّنَ فِي ثَلاثَةِ أَثْوَابٍ صُحَارِيَّةٍ، وَأُدْرِجَ فِيهَا إِدْرَاجًا، وَأُتِيَ بِسَرِيرٍ كَانَ عِنْدَ آلِ سَبْطٍ يُحْمَلُ عَلَيْهِ الـمَوْتَى، فَوُضِعَ عَلَى السَّرِيرِ، فَرُئِيَ رَسُولُ الله ﷺ يَحْمِلُهُ بَيْنَ عَمُودَيْ سَرِيرِهِ حِينَ رُفِعَ مِنْ دَارِهِ إِلَى أَنْ خَرَجَ.

وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ الله ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَمْرَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: رَأَيْت رَسُولَ الله ﷺ يَمْشِي أَمَامَ جِنَازَةِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ.

وَحَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ، عَنْ رُبَيْحِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ حِينَ بَلَغَهُ مَوْتُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ، فَخَرَجَ بِالنَّاسِ، فَلَـمَّا بَرَزَ إِلَى البَقِيعِ قَالَ: «**خُذُوا فِي جِهَازِ صَاحِبِكُمْ**». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٢٥-٥٢٨].

إِكْرَامُ سَعْدٍ ﷺ فِي مَوْتِهِ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا حُمِلَتْ جَنَازَةُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ قَالَ الـمُنَافِقُونَ: مَا أَخَفَّ جَنَازَتَهُ؛ وَذَلِكَ لِحُكْمِهِ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّ المَلائِكَةَ كَانَتْ تَحْمِلُهُ**».

[الترمذي في المناقب (٣٨٤٩)، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ].

وعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ قَالَ: لَـمَّا أُصِيبَ أَكْحَلُ سَعْدٍ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَثَقُلَ، حَوَّلُوهُ عِنْدَ امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا رُفَيْدَةُ، وَكَانَتْ تُدَاوِي الجَرْحَى، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا مَرَّ بِهِ يَقُولُ: «**كَيْفَ أَمْسَيْتَ؟**»، وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ: «**كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟**»، فَيُخْبِرُهُ، حَتَّى كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي نَقَلَهُ قَوْمُهُ فِيهَا فَثَقُلَ، فَاحْتَمَلُوهُ إِلَى بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، وَجَاءَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ كَمَا كَانَ يَسْأَلُ عَنْهُ، وَقَالُوا: قَدِ انْطَلَقُوا بِهِ، فخرج رَسُولُ اللهَّ ﷺ، وَخَرَجْنَا

مَعَهُ، فَأَسْرَعَ المَشْيِ حَتَّى تَقَطَّعَتْ شُسُوعُ نِعَالِنَا، وَسَقَطَتْ أَرْدِيَتُنَا عَنْ أَعْنَاقِنَا، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ: **يَا رَسُولَ الله أَتْعَبْتَنَا فِي المَشْيِ**، فَقَالَ: «**إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَسْبِقَنَا المَلَائِكَةُ إِلَيْهِ، فَتَغْسِلُهُ كَمَا غَسَلَتْ حَنْظَلَةَ**»، فَانْتَهَى رَسُولُ اللهَّ ﷺ إِلَى الْبَيْتِ وَهُوَ يُغْسَلُ، وَأُمُّهُ تَبْكِيهِ، وَهِيَ تَقُولُ: **وَيْلُ أُمِّ سَعْدٍ سَعْدَا... حَزَامَةً وَجِدًّا**

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُلُّ نَائِحَةٍ تَكْذِبُ إِلا أُمَّ سَعْدٍ**»، ثُمَّ خَرَجَ بِهِ، قَالَ: يَقُولُ لَهُ الْقَوْمُ، أَوْ مَنْ شَاءَ اللهُ مِنْهُمْ: **يَا رَسُولَ الله مَا حَمَلْنَا مَيِّتًا أَخَفَّ عَلَيْنَا مِنْ سَعْدٍ**، فَقَالَ: «**مَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَخِفَّ عَلَيْكُمْ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا ـ قد سَمَّى عِدَّةً كَثِيرَةً لَمْ أَحْفَظْهَا ـ لَمْ يَهْبِطُوا قَطُّ قَبْلَ يَوْمِهِمْ، قَدْ حَمَلُوهُ مَعَكُمْ**. [الطبقات الكبير تح عمر ٣/ ٣٩٥ رقم ٤٣٨٢، وقال الشيخ الصوياني: سنده حسن. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٦].

وقال ابن سعد: أَخبَرنا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَر، قال: حَدثَني سُلَيمانُ بن داوُدَ بن الحُصَينِ، عَن أَبيهِ، عَن أَبي سُفيانَ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ أَسْلَمَ بْنِ حَرِيسٍ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَنَحْنُ عَلَى الْبَابِ نُرِيدُ أَنْ نَدْخُلَ عَلَى أَثَرِهِ، فَدَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ إِلا سَعْدٌ ﵁ مُسَجًّى، قَالَ: فَرَأَيْتُهُ يَتَخَطَّى، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ وَقَفْتُ، وَأَوْمَأَ إِلَيَّ: «**قِفْ**»، فَوَقَفْتُ وَرَدَدْتُ مَنْ وَرَائِي، وَجَلَسَ سَاعَةً ثُمَّ خَرَجَ، فَقُلْتُ: **يَا رَسُولَ الله مَا رَأَيْتُ أَحَدًا، وَقَدْ رَأَيْتُكَ تتخطى**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا قَدَرْتُ عَلَى مَجْلِسٍ حَتَّى قَبَضَ لِي مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ أَحَدَ جَنَاحَيْهِ فَجَلَسْتُ**»، وَرَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: «**هَنِيئًا لك يا أَبَا عَمْرٍو، هَنِيئًا لَكَ أَبَا عَمْرٍو، هَنِيئًا لك أبا عَمْرٍو**».

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: فَانْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ وَأُمُّ سَعْدٍ تَبْكِي، وَهِيَ تَقُولُ:

وَيْلُ أُمِّ سَعْدٍ سَعْدَا   جلادَةً وَجِدًّا

فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﵁: **مَهْلًا يَا أُمَّ سَعْدٍ لا تَذْكُرِي سَعْدًا**، فقال النبي ﷺ: «**مَهْلًا يَا عُمَرُ، فَكُلُّ بَاكِيَةٍ مُكَذَّبَةٌ إِلا أُمَّ سَعْدٍ، مَا قَالَتْ مِنْ خَيْرٍ فَلَمْ تكذب**». [الطبقات الكبرى تح عمر ٣/ ٣٩٦رقم٤٣٨٣، ٤٣٨٤].

وروى ابن أبي شيبة بسنده:... قَالَ عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ: لَـمَّا نَامَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ أَمْسَى أَتَاهُ جِبْرِيلُ ـ أَوْ قَالَ مَلَكٌ ـ فَقَالَ: **مَنْ رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِكَ مَاتَ اللَّيْلَةَ، اسْتَبْشَرَ بِمَوْتِهِ أَهْلُ السَّمَاءِ**، فَقَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ سَعْدٌ، فَإِنَّهُ أَمْسَى دَنِفًا، مَا فَعَلَ سَعْدٌ؟**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! قَدْ قُبِضَ، وَجَاءَهُ قَوْمٌ فَاحْتَمَلُوهُ إِلَى دَارِهِمْ، قَالَ: فَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ الفَجْرَ، ثُمَّ خَرَجَ وَخَرَجَ النَّاسُ، فَبَتَّ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ مَشْيًا حَتَّى إِنَّ شُسُوعَ نِعَالِهِمْ لَتُقَطَّعُ مِنْ أَرْجُلِهِمْ، وَإِنَّ أَرْدِيَتَهُمْ لَتَسْقُطُ عَنْ عَوَاتِقِهِمْ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، بَتَتَّ النَّاسَ؟ فَقَالَ: «**إِنِّي أَخْشَى أَنْ تَسْبِقَنَا إِلَيْهِ الـمَلَائِكَةُ كَمَا سَبَقَتْنَا إِلَى حَنْظَلَةَ**».

قَالَ مُحَمَّدٌ: فَأَخْبَرَنِي أَشْعَثُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: فَحَضَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ يُغَسَّلُ، قَالَ: فَقَبَضَ رَسُولُ الله ﷺ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: «**دَخَلَ مَلَكٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَجْلِسٌ فَأَوْسَعْتُ لَهُ**»، وَأُمُّهُ تَبْكِي وَهِيَ تَقُولُ:

وَيْلُ أَمِّ سَعْدٍ سَعْدًا بَرَاعَـــةً وَجَـــدًّا
بَعْدَ أَيَادٍ لَـهُ وَمَجْـدًا مُقَدَّمٌ سَدَّ بِهِ مَسَدًّا

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُلُّ البَوَاكِي يَكْذِبْنَ إِلَّا أُمَّ سَعْدٍ**».

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَقَالَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِنَا: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَـمَّا خَرَجَ لِـجِنَازَتِهِ قَالَ نَاسٌ مِنَ الـمُنَافِقِينَ: مَا أَخَفَّ سَرِيرَ سَعْدٍ أَوْ جِنَازَةَ سَعْدٍ، قَالَ: فَحَدَّثَنِي سَعْدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ مَاتَ سَعْدٌ: «**لَقَدْ نَزَلَ سَبْعُونَ أَلفَ مَلَكٍ شَهِدُوا جِنَازَةَ سَعْدٍ، مَا وَطِؤُوا الأَرْضَ قَبْلَ يَوْمَئِذٍ**».

قَالَ مُحَمَّدٌ: فَسَمِعْتُ إِسْمَاعِيلَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدٍ ، وَدَخَلَ عَلَيْنَا الفُسْطَاطَ وَنَحْنُ نَدْفِنُ وَاقِدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ فَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِمَا سَمِعْتُ أَشْيَاخَنَا؟ سَمِعْتُ أَشْيَاخَنَا يُحَدِّثُونَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ يَوْمَ مَاتَ سَعْدٌ ﷺ: «**لَقَدْ نَزَلَ سَبْعُونَ أَلفَ مَلَكٍ شَهِدُوا جِنَازَةَ سَعْدٍ مَا وَطِؤُوا الأَرْضَ قَبْلَ يَوْمَئِذٍ**».

قَالَ مُحَمَّدٌ: فَأَخبَرَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: «**مَا كَانَ أَحَدٌ أَشَدَّ فَقْدًا عَلَى الـمُسْلِمِينَ، بَعْدَ رَسُولِ الله ﷺ وَصَاحِبَيْهِ أَوْ أَحَدِهِمَا مِنْ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**».

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الـمُنْكَدِرِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ شُرَحْبِيلَ : **أَنَّ رَجُلًا أَخَذَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابِ قَبْرِ سَعْدٍ يَوْمَئِذٍ فَفَتَحَهَا بَعْدُ فَإِذَا هُوَ مِسْكٌ!**

قَالَ مُحَمَّدٌ: وَحَدَّثَنِي وَاقِدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَعْدٍ ـ قَالَ: وَكَانَ وَاقِدٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ، قَالَ: دَخلتُ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: فَقَالَ لِي: مَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: أَنَا وَاقِدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، قَالَ: يَرْحَمُ اللهُ سَعْدًا! إِنَّكَ بِسَعْدٍ لَشَبِيهٌ، ثُمَّ قَالَ: يَرْحَمُ اللهُ سَعْدًا كَانَ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ وَأَطْوَلِهِمْ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أُكَيْدِرِ دُومَةَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِجُبَّةِ دِيبَاجٍ مَنْسُوجٍ فِيهَا ذَهَبٌ، فَلَبِسَهَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَامَ عَلَى الـمِنْبَرِ، فَجَلَسَ فَلَمْ يَتكَلَّمْ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلمِسُونَ الجُبَّةَ وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا؟ فَقَالَ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْهَا؟**»، قَالُوا: **يَا رَسُولَ الله، مَا رَأَيْنَا ثَوْبًا أَحْسَنَ مِنْهُ**، قَالَ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَـمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الجَنَّةِ أَحْسَنُ مِمَّا تَرَوْنَ**». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧١ -٣٧٦ في المغازي (٣٧٩٥٢)، وقال الشيخ عوامة: «هذا إسناد مرسل حسن من أجل محمد بن عمرو بن علقمة»].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَـمَّا انْقَضَى شَأْنُ بَنِي قُرَيْظَةَ انْفَجَرَ بِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ جُرْحُهُ فَمَاتَ مِنْهُ شَهِيدًا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُعَاذُ بْنُ رِفَاعَةَ الزُّرَقِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ شِئْتَ مِنْ رِجَالِ قَوْمِي: إِنَّ جِبْرِيلَ ﷺ أَتَى رَسُولَ الله ﷺ حِينَ قُبِضَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ، مَنْ هَذَا المَيِّتُ الَّذِي فُتِّحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَاهْتَزَّ لَهُ العَرْشُ؟** قَالَ: فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ سَرِيعًا يَجُرُّ ثَوْبَهُ إِلَى سَعْدٍ ﷺ، فَوَجَدَهُ قَدْ مَاتَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَتْ: أَقْبَلَتْ عَائِشَةُ قَافِلَةً مِنْ مَكَّةَ، وَمَعَهَا أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، فَلَقِيَهُ مَوْتُ امْرَأَةٍ لَهُ، فَحَزِنَ عَلَيْهَا بَعْضَ الحُزْنِ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: **يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا يَحْيَى، أَتَحْزَنُ عَلَى امْرَأَةٍ، وَقَدْ أُصِبْتَ بِابْنِ عَمِّكَ، وَقَدْ اهْتَزَّ لَهُ العَرْشُ!**

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ الحَسَنِ البَصْرِيِّ، قَالَ: كَانَ سَعْدٌ رضي الله عنه رَجُلًا بَادِنًا، فَلَمَّا حَمَلَهُ النَّاسُ وَجَدُوا لَهُ خِفَّةً، فَقَالَ رِجَالٌ مِنْ المُنَافِقِينَ: وَاللهِ إِنْ كَانَ لَبَادِنًا، وَمَا حَمَلْنَا مِنْ جِنَازَةٍ أَخَفَّ مِنْهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «**إِنَّ لَهُ حَمَلَةً غَيْرَكُمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ اسْتَبْشَرَتْ المَلَائِكَةُ بِرُوحِ سَعْدٍ، وَاهْتَزَّ لَهُ العَرْشُ**».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُعَاذُ بْنُ رِفَاعَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الجَمُوحِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا دُفِنَ سَعْدٌ رضي الله عنه وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَبَّحَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَسَبَّحَ النَّاسُ مَعَهُ، ثُمَّ كَبَّرَ فَكَبَّرَ النَّاسُ مَعَهُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مِمَّ سَبَّحْتَ؟ قَالَ: «**لَقَدْ تَضَايَقَ عَلَى هَذَا العَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ، حَتَّى فَرَّجَهُ اللهُ عَنْهُ**».

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَمَجَازُ هَذَا الحَدِيثِ قَوْلُ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ لِلقَبْرِ لَضَمَّةً لَوْ كَانَ أَحَدٌ مِنْهَا نَاجِيًا لَكَانَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ**».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلِسَعْدٍ رضي الله عنه يَقُولُ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ:

وَمَا اهْتَزَّ عَرْشُ اللهِ مِنْ مَوْتِ هَالِكٍ ... سَمِعْنَا بِهِ إِلَّا لِسَعْدٍ أَبِي عَمْرِو

وَقَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ حِينَ احْتُمِلَ نَعْشُهُ وَهِيَ تَبْكِيهِ - قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَهِيَ كُبَيْشَةُ بِنْتُ رَافِعِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَبْدِ بْنِ الأَبْجَرِ[1] وَهُوَ خُدْرَةُ بْنُ عَوْفِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ:

وَيْلُ أُمِّ سَعْدٍ سَعْدًا ... صَرَامَةً وَحَدًّا

وَسُؤْدَدًا وَمَجْدًا ... وَفَارِسًا مُعَدًّا

سُدَّ بِهِ مَسَدًّا ... يَقُدُّ هَامًا قَدًّا

يَقُولُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**كُلُّ نَائِحَةٍ تَكْذِبُ إِلَّا نَائِحَةَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**». [السيرة لابن هشام ٢/ ٢٥١-٢٥٢].

وروى البيهقي بسنده عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ العَرْشُ - يَعْنِي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ - وَشَيَّعَ جِنَازَتَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً، ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ**».

وعَنِ الحَسَنِ قَالَ: «**اهْتَزَّ لَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ فَرَحًا بِرُوحِهِ**».

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ عليه السلام إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: **مَنْ هَذَا العَبْدُ الصَّالِحُ الَّذِي مَاتَ فَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَتَحَرَّكَ لَهُ العَرْشُ؟** قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَإِذَا سَعْدُ بْنُ

---

(١) في الاستيعاب: «كبشة بنت رافع بن عبيد بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر».

مُعَاذٍ. قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى قَبْرِهِ وَهُوَ يُدْفَنُ، فَبَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ إِذْ قَالَ: «**سُبْحَانَ الله**» مَرَّتَيْنِ، فَسَبَّحَ القَوْمُ، ثُمَّ قَالَ: «**اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ**»، فَكَبَّرَ القَوْمُ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**عَجِبْتُ لِهَذَا العَبْدِ الصَّالِحِ؛ شُدِّدَ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ، حَتَّى كَانَ هَذَا حِينَ فُرِّجَ لَهُ**».

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ شِئْتُ مِنْ رِجَالِ قَوْمِي أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ، مَنْ هَذَا المَيِّتُ الَّذِي فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ؟ وَاهْتَزَّ لَهُ العَرْشُ؟** فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ يَجُرُّ ثَوْبَهُ مُبَادِرًا إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَوَجَدَهُ قَدْ قُبِضَ.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: لَـمَّا وُضِعَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رضي الله عنه فِي حُفْرَتِهِ، سَبَّحَ رَسُولُ الله ﷺ وَسَبَّحَ النَّاسُ مَعَهُ، ثُمَّ كَبَّرَ وَكَبَّرَ القَوْمُ مَعَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، بِمَ سَبَّحْتَ؟ فَقَالَ: «**هَذَا العَبْدُ الصَّالِحُ، لَقَدْ تَضَايَقَ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَّجَهُ اللهُ عَنْهُ**».

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنَا أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ الله، أَنَّهُ سَأَلَ بَعْضَ أَهْلِ سَعْدٍ: مَا بَلَغَكُمْ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ الله ﷺ فِي هَذَا؟ فَقَالُوا: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**كَانَ يُقَصِّرُ - فِي بَعْضِ الطُّهُورِ مِنَ البَوْلِ**». [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٨-٣٠].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: وَكُنْتُ أَنَا مِمَّنْ حَفَرَ لَهُ قَبْرَهُ، وَكَانَ يَفُوحُ عَلَيْنَا المِسْكُ كُلَّمَا حَفَرْنَا قَبْرَهُ مِنْ تُرَابٍ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى اللَّحْدِ.

قَالَ رُبَيْحٌ: وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ المُنْكَدِرِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ شُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ، قَالَ: أَخَذَ إِنْسَانٌ قَبْضَةً مِنْ قَبْرِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه فَذَهَبَ بِهَا، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ فَإِذَا هِيَ مِسْكٌ.

قَالُوا: ثُمَّ احْتُمِلَ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله! إِنْ كُنْتَ لَتَقْطَعُنَا فِي ذَهَابِك إِلَى سَعْدٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَشِينَا أَنْ تَسْبِقَنَا المَلائِكَةُ إِلَيْهِ كَمَا سَبَقَتْنَا إِلَى غُسْلِ حَنْظَلَةَ**».

وَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله كَانَ سَعْدٌ رَجُلًا جَسِيمًا، فَلَمْ نَرَ أَخَفَّ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**رَأَيْت المَلائِكَةَ تَحْمِلُهُ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله إِنَّ المُنَافِقِينَ يَقُولُونَ: إِنَّمَا خَفَّ لأَنَّهُ حَكَمَ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، قَالَ: «**كَذَبُوا، وَلَكِنَّهُ خَفَّ لِحَمْلِ المَلائِكَةِ**».

فَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ رضي الله عنه يَقُولُ: طَلَعَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَقَدْ فَرَغْنَا مِنْ حُفْرَتِهِ وَوَضَعْنَا اللَّبِنَ وَالمَاءَ عِنْدَ القَبْرِ، وَحَفَرْنَا لَهُ عِنْدَ دَارِ عُقَيْلٍ اليَوْمَ، وَطَلَعَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَيْنَا، فَوَضَعَهُ رَسُولُ الله ﷺ عِنْدَ قَبْرِهِ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ مَا مَلأَ البَقِيعَ.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الحُصَيْنِ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ الحُصَيْنِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَـمَّا انْتَهَوْا إِلَى قَبْرِهِ نَزَلَ فِي قَبْرِهِ أَرْبَعَةُ نَفَرٍ: الحَارِثُ بْنُ أَوْسِ بْنِ مُعَاذٍ، وأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَأَبُو نَائِلَةَ، وَسَلَمَةُ بْنُ سَلامَةَ، وَرَسُولُ الله ﷺ وَاقِفٌ عَلَى قَدَمَيْهِ عَلَى قَبْرِهِ فَلَـمَّا وُضِعَ فِي لَحْدِهِ تَغَيَّرَ وَجْهُ

رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسَبَّحَ ثَلاثًا، فَسَبَّحَ الْمُسْلِمُونَ ثَلاثًا حَتَّى ارْتَجَّ البَقِيعُ، ثُمَّ كَبَّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاثًا، وَكَبَّرَ أَصْحَابُهُ ثَلاثًا حَتَّى ارْتَجَّ البَقِيعُ بِتَكْبِيرِهِ.

فَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْنَا لِوَجْهِكَ تَغَيُّرًا وَسَبَّحْتَ ثَلاثًا، قَالَ: «**تَضَايَقَ عَلَى صَاحِبِكُمْ قَبْرُهُ، وَضُمَّ ضَمَّةً لَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا مِنْهَا سَعْدٌ، ثُمَّ فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ**».

حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الحُصَيْنِ، عَنْ الِمسْوَرِ بْنِ رِفَاعَةَ، قَالَ: جَاءَتْ أُمُّ سَعْدٍ ـ وَهِيَ كَبْشَةُ بِنْتُ عُبَيْدٍ ـ تَنْظُرُ إِلَى سَعْدٍ فِي اللَّحْدِ، فَرَدَّهَا النَّاسُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**دَعُوهَا**»، فَأَقْبَلَتْ حَتَّى نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي اللَّحْدِ قَبْلَ أَنْ يُبْنَى عَلَيْهِ اللَّبِنُ وَالتُّرَابُ، فَقَالَتْ: **أَحْتَسِبُكَ عِنْدَ اللهِ**، وَعَزَّاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى قَبْرِهِ، وَجَلَسَ نَاحِيَةً، وَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يَرُدُّونَ تُرَابَ القَبْرِ وَيُسَوُّونَهُ، وَتَنَحَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَجَلَسَ حَتَّى سُوِّيَ عَلَى قَبْرِهِ وَرُشَّ عَلَى قَبْرِهِ الْمَاءُ، ثُمَّ أَقْبَلَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَدَعَا لَهُ ثُمَّ انْصَرَفَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٢٨-٥٢٩].

وروى البخاري بسنده عَنْ جَابِرٍ ﷺ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**اهْتَزَّ العَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**».

فَقَالَ رَجُلٌ لِجَابِرٍ ﷺ: فَإِنَّ البَرَاءَ ﷺ يَقُولُ: اهْتَزَّ السَّرِيرُ، فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنَ هَذَيْنِ الحَيَّيْنِ ضَغَائِنُ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**».

[البخاري في المناقب (٣٨٠٣)، والمصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٧ في المغازي (٣٧٩٥٦)].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: «**لَقَدِ اهْتَزَّ العَرْشُ لِحُبِّ لِقَاءِ اللهِ سَعْدًا**»، قَالَ: وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ، قَالَ: تَفَسَّخَتْ أَعْوَادُهُ، قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَبْرَهُ فَاحْتَبَسَ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا حَبَسَكَ؟ قَالَ: «**ضُمَّ سَعْدٌ فِي القَبْرِ ضَمَّةً، فَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُ**».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٦ في المغازي (٣٧٩٥٥)، ١٧/ ٢٤٠ رقم ٣٢٩٨٢، وقال الشيخ عوامة: «رواه من طريق المصنف الحاكم ٣/ ٢٠٦ وصححه، ووافقه الذهبي، ورواه الطبراني والنسائي...»].

وعَنِ امْرَأَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهَا: أَسْمَاءُ بِنْتُ يَزِيدَ بْنِ السَّكَنِ ﷺ قَالَتْ: لَمَّا خُرِجَ بِجِنَازَةِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ صَاحَتْ أُمُّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأُمِّ سَعْدٍ: «**أَلَا يَرْقَأُ دَمْعَكِ، وَيُذْهَبُ حُزْنَكِ، أَنَّ ابْنَكِ أَوَّلُ مَنْ ضَحِكَ اللهُ لَهُ وَاهْتَزَّ لَهُ العَرْشُ**».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٧ في المغازي (٣٧٩٥٧)، ١٧/ ٢٤١ رقم ٣٢٩٨٤، و١٩/ ٥٧٦ رقم ٣٧٠٩٧، وقال الشيخ عوامة: «رواه ابن أبي عاصم في السنة (٥٥٩)، والحاكم ٣/ ٢٠٦ وصححه، ووافقه الذهبي،، ورواه الطبراني...»].

وعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: قَدِمْنَا مِنْ حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ، فَتُلُقِّينَا بِذِي الحُلَيْفَةِ، وَكَانَ غِلْمَانُ الأَنْصَارِ يَتَلَقَّوْنَ أَهَالِيَهُمْ، فَلَقُوا أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ فَنَعَوْا لَهُ امْرَأَتَهُ فَتَقَنَّعَ، فَجَعَلَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: **غَفَرَ اللهُ لَكَ! أَنْتَ صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَكَ مِنَ السَّابِقَةِ وَالقِدَمِ مَا لَكَ، وَأَنْتَ تَبْكِي عَلَى امْرَأَةٍ**، قَالَتْ: فَكَشَفَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: **صَدَقْتِ، لَعَمْرِي لَيَحُقَّنَّ أَلَّا أَبْكِيَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**، وَقَدْ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا قَالَ: قُلْتُ: وَمَا قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: «**لَقَدِ اهْتَزَّ العَرْشُ لِوَفَاةِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**»، قَالَتْ: هُوَ يَسِيرُ بَيْنِي

وَبَيْنَ رَسُولِ الله ﷺ». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٧-٣٧٨ في المغازي (٣٧٩٥٨)، وقال الشيخ عوامة: «رواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٢٩)، والحاكم، وابن حبان، والطبراني...»].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**اهْتَزَّ العَرْشُ لِـمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**».

[المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٨ في المغازي (٣٧٩٥٩)].

وعَنْ حُذَيْفَةَ ؓ قَالَ: لَـمَّا مَاتَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ؓ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اهْتَزَّ العَرْشُ لِرُوحِ سَعْدِ ابْنِ مُعَاذٍ**». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٨ في المغازي (٣٧٩٦٠)].

قال السهيلي: «وَحَدِيثُ اهْتِزَازِ العَرْشِ ثَابِتٌ مِنْ وُجُوهٍ، وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِهِ: أَنَّ جِبْرِيلَ ؑ نَزَلَ حِينَ مَاتَ سَعْدٌ مُعْتَجِرًا بِعِمَامَةٍ مِنْ إِسْتَبْرَقٍ فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ! مَنْ هَذَا المَيِّتُ الَّذِي فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَاهْتَزَّ لَهُ العَرْشُ؟**، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ قَالَ ؑ: «**لَقَدْ نَزَلَ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ مَا وَطِؤُوا الأَرْضَ قَبْلَهَا**»، وَيُذْكَرُ أَنَّ قَبْرَهُ وُجِدَ مِنْهُ رَائِحَةُ المِسْكِ، وَقَالَ ﷺ: «**لَوْ نَجَا أَحَدٌ مِنْ ضَغْطَةِ القَبْرِ لَنَجَا مِنْهَا سَعْدٌ**»، وَفِي كِتَابِ الدَّلَائِلِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَلَسَ عَلَى قَبْرِ سَعْدٍ ؓ حِينَ وُضِعَ فِيهِ، فَقَالَ: «**سُبْحَانَ الله! لِهَذَا العَبْدِ الصَّالِحِ ضُمَّ فِي قَبْرِهِ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ**»، وَأَمَّا ضَغْطَةُ القَبْرِ الَّتِي ذَكَرَ فِي الحَدِيثِ فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ ؓ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله! مَا انْتَفَعْتُ بِشَيْءٍ مُنْذُ سَمِعْتُكَ تَذْكُرُ ضَغْطَةَ القَبْرِ وَضَمَّتَهُ [وَصَوْتَ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ]، فقَالَ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ! إِنَّ ضَغْطَةَ القَبْرِ عَلَى المُؤْمِنِ ـ أَوْ قَالَ ضَمَّةُ القَبْرِ عَلَى الـمُؤْمِنِ ـ كَضَمَّةِ الأُمِّ الشَّفِيقَةِ يَدَيْهَا عَلَى رَأْسِ ابْنِهَا، يَشْكُو إِلَيْهَا الصُّدَاعَ، وَصَوْتُ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ كَالكُحْلِ فِي العَيْنِ، وَلَكِنْ يَا عَائِشَةُ وَيْلٌ لِلشَّاكِّينَ [فِي الله]، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُضْغَطُونَ فِي قُبُورِهِمْ ضَغْطَ البَيْضِ عَلَى الصَّخْرِ**» ذَكَرَهُ أَبُو سَعِيدِ بْنُ الأَعْرَابِيِّ فِي كِتَابِ المُعْجَمِ. [الروض الأنف ٦/ ٣٢١-٣٢٣].

وعَنِ البَرَاءِ ؓ قَالَ: أُهْدِيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ثَوْبُ حَرِيرٍ، فَجَعَلُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْ لِينِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَمَنَادِيلُ سَعْدٍ فِي الجَنَّةِ أَلْيَنُ مِمَّا تَرَوْنَ**». [المصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٧٦ في المغازي (٣٧٩٥٣)، وقال الشيخ عوامة: «رواه أحمد والترمذي والبخاري...»].

المبحث السادس

ما قيل من الشعر في غزوة بني قريظة [(١)]

شِعْرُ حَسَّانَ رضي الله عنه فِي يَوْمِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَبُكَاءُ ابْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه فِي يَوْمِ بَنِي قُرَيْظَةَ يَبْكِي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه وَيَذْكُرُ حُكْمَهُ فِيهِمْ:

لَقَدْ سَجَمَتْ مِنْ دَمْعِ عَيْنِي عَبْرَةٌ ... وَحُقَّ لِعَيْنِي أَنْ تَفِيضَ عَلَى سَعْدِ [(٢)]

قَتِيلٍ ثَوَى فِي مَعْرَكٍ فُجِعَتْ بِهِ ... عُيُونٌ ذَوَارِي الدَّمْعِ دَائِمَةُ الوَجْدِ [(٣)]

عَلَى مِلَّةِ الرَّحْمَنِ وَارِثَ جَنَّةٍ ... مَعَ الشُّهَدَاءِ وَفْدُهَا أَكْرَمُ الوَفْدِ

فَإِنْ تَكُ قَدْ وَدَّعْتَنَا وَتَرَكْتَنَا ... وَأَمْسَيْتَ فِي غَبْرَاءَ مُظْلِمَةِ اللَّحْدِ [(٤)]

فَأَنْتَ الَّذِي يَا سَعْدُ أُبْتَ بِمَشْهَدٍ ... كَرِيمٍ وَأَثْوَابِ المَكَارِمِ وَالحَمْدِ

بِحُكْمِكَ فِي حَيَّيْ قُرَيْظَةَ بِالَّذِي ... قَضَى اللهُ فِيهِمْ مَا قَضَيْتَ عَلَى عَمْدِ

فَوَافَقَ حُكْمَ اللهِ حُكْمُكَ فِيهِمُ ... وَلَمْ تَعْفُ إِذْ ذُكِّرْتَ مَا كَانَ مِنْ عَهْدِ

فَإِنْ كَانَ رَيْبُ الدَّهْرِ أَمْضَاكَ فِي الأُلَى ... شَرَوْا هَذِهِ الدُّنْيَا بِجَنَّاتِهَا الخُلْدِ

فَنِعْمَ مَصِيرُ الصَّادِقِينَ إِذَا دُعُوا ... إِلَى اللهِ يَوْمًا لِلْوَجَاهَةِ وَالقَصْدِ

شِعْرُ حَسَّانَ رضي الله عنه فِي بُكَاءِ ابْنِ مُعَاذٍ وَغَيْرِهِ:

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه أَيْضًا، يَبْكِي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه، وَرِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الشُّهَدَاءِ، وَيَذْكُرُهُمْ بِمَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الخَيْرِ:

أَلَا يَا لَقَوْمِي هَلْ لِمَا حُمَّ دَافِعُ ... وَهَلْ مَا مَضَى مِنْ صَالِحِ العَيْشِ رَاجِعُ [(٥)]

تَذَكَّرْتُ عَصْرًا قَدْ مَضَى فَتَهَافَتَتْ ... بَنَاتُ الحَشَى وَانْهَلَّ مِنِّي المَدَامِعُ [(٦)]

صَبَابَةَ وَجْدٍ ذَكَّرَتْنِي أَحِبَّةً ... وَقَتْلَى مَضَى فِيهَا طُفَيْلُ وَرَافِعُ [(٧)]

---

(١) السيرة لابن هشام ٢/ ٢٦٩-٢٧٣.

(٢) **سجمت**: سالت.

(٣) **ثوي**: أقام. **والمعرك**: موضع القتال. **ذواري الدمع**: تسكبه. **والوجد**: الحزن.

(٤) يريد: «**بالغبراء**» القبر. **اللحد**: ما يشق للميت في جانب القبر.

(٥) **حم**: قدر (بالبناء للمجهول فيهما).

(٦) **تهافتت**: سقطت بسرعة. **بنات الحشى**: القلب وما اتصل به. **انهل**: سال وانصب.

(٧) **الصبابة**: رقة الشوق.

وَسَعْدٌ، فَأَضْحَوْا فِي الجِنَانِ وَأَوْحَشَتْ ... مَنَازِلُهُمْ فَالأَرْضُ مِنْهُمْ بَلَاقِعُ [(١)]

وَفَوْا يَوْمَ بَدْرٍ لِلرَّسُولِ وَفَوْقَهُمْ ... ظِلَالُ المَنَايَا وَالسُّيُوفُ اللَّوَامِعُ

دَعَا فَأَجَابُوهُ بِحَقٍّ وَكُلُّهُمْ ... مُطِيعٌ لَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَسَامِعُ

فَمَا نَكَلُوا حَتَّى تَوَلَّوْا جَمَاعَةً ... وَلَا يَقْطَعُ الآجَالَ إِلَّا المَصَارِعُ [(٢)]

لِأَنَّهُمْ يَرْجُونَ مِنْهُ شَفَاعَةً ... إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا النَّبِيُّونَ شَافِعُ

فَذَلِكَ يَا خَيْرَ العِبَادِ بَلَاؤُنَا ... إِجَابَتُنَا للهِ وَالمَوْتُ نَاقِعُ [(٣)]

لَنَا القَدَمُ الأُولَى إِلَيْكَ وَخَلفَنَا ... لِأَوَّلِنَا فِي مِلَّةِ اللهِ تَابِعُ [(٤)]

وَنَعْلَمُ أَنَّ المُلْكَ للهِ وَحْدَهُ ... وَأَنَّ قَضَاءَ اللهِ لَا بُدَّ وَاقِعُ

شِعْرٌ آخَرُ لِحَسَّانَ رضي الله عنه فِي يَوْمِ بَنِي قُرَيْظَةَ:

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه أَيْضًا فِي يَوْمِ بَنِي قُرَيْظَةَ:

لَقَدْ لَقِيَتْ قُرَيْظَةُ مَاسَآهَا ... وَمَا وَجَدَتْ لِذُلٍّ مِنْ نَصِيرِ [(٥)]

أَصَابَهُمْ بَلَاءٌ كَانَ فِيهِ ... سِوَى مَا قَدْ أَصَابَ بَنِي النَّضِيرِ

غَدَاةَ أَتَاهُمْ يَهْوِي إِلَيْهِمْ ... رَسُولُ اللهِ كَالقَمَرِ المُنِيرِ

لَهُ خَيْلٌ مُجَنَّبَةٌ تَعَادَى ... بِفُرْسَانٍ عَلَيْهَا كَالصُّقُورِ [(٦)]

تَرَكْنَاهُمْ وَمَا ظَفِرُوا بِشَيْءٍ ... دِمَاؤُهُمْ عَلَيْهِمْ كَالغَدِيرِ

فَهُمْ صَرْعَى تَحُومُ الطَّيْرُ فِيهِمْ ... كَذَاكَ يُدَانُ ذُو العَنَدِ الفَجُورِ [(٧)]

فَأَنْذِرْ مِثْلَهَا نُصْحًا قُرَيْشًا ... مِنَ الرَّحْمَنِ إِنْ قَبِلَتْ نَذِيرِي [(٨)]

---

(١) **بلاقع**: قفار خالية.

(٢) **نكلوا**: رجعوا هائبين. **المصارع**: أي مصارع الذل.

(٣) **بلاؤنا**: اختبارنا. **ناقع**: ثابت.

(٤) **القدم الأولى**: أي السبق إلى الإسلام. **خلفنا**: أي آخرنا.

(٥) **ماسآها**: يريد ما ساءها، فقلب، والعرب تفعل ذلك في بعض الأفعال، يقولون: رأى وراء، بمعنى واحد على جهة جهة القلب.

(٦) **الخيل المجنبة**، هي التي تقاد ولا ترتكب. **تعادي**: تجري وتسرع.

(٧) **تحوم**: تجتمع حولهم محلقة. **يدان**: يجزي. **العند**: الخروج عن الحق.

(٨) **النذير**: الإنذار.

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ:

لَقَـدْ لَقِيَـتْ قُرَيْظَـةُ مَاسَـآهَا ... وَحَـلَّ بِحِصْـنِهَا ذُلٌّ ذَلِيـلُ

وَسَـعْدٌ كَـانَ أَنْـذَرَهُمْ بِنُصْـحٍ ... بِـأَنَّ إِلَهَكُـمْ رَبٌّ جَلِيـلُ

فَمَا بَرِحُوا بِنَقْضِ العَهْـدِ حَتَّـى ... فَلَاهُمْ فِي بِلَادِهِـمْ الرَّسُـولُ (١)

أَحَاطَ بِحِصْـنِهِمْ مِنَّـا صُـفُوفٌ ... لَهُ مِنْ حَـرٍّ وَقْعَـتِهِمْ صَـلِيلُ (٢)

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ أَيْضًا فِي يَوْمِ بَنِي قُرَيْظَةَ:

تَفَاقَدَ مَعْشَرٌ نَصَرُوا قُرَيْشًا ... وَلَيْسَ لَـهُمْ بِبَلْـدَتِهِمْ نَصِـيرُ (٣)

هُمْ أُوتُوا الكِتَابَ فَضَيَّعُوهُ ... وَهُمْ عُمْيٌ مِنَ التَّـوْرَاةِ بُـورُ (٤)

كَفَرْتُمْ بِالقُرْآنِ وَقَدْ أُتِيـتُمْ ... بِتَصْـدِيقِ الَّـذِي قَـالَ النَّـذِيرُ

فَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُـؤَيٍّ ... حَرِيـقٌ بِـالبُوَيْرَةِ مُسْـتَطِيرُ (٥)

شِعْرُ أَبِي سُفْيَانَ فِي الرَّدِّ عَلَى حَسَّانَ ﷺ:

فَأَجَابَهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ، فَقَالَ:

أَدَامَ اللهُ ذَلِـكَ مِـنْ صَـنِيعٍ ... وَحَـرَّقَ فِي طَرَائِقِهَـا السَّـعِيرُ (٦)

سَـتَعْلَمُ أَيُّنَـا مِنْهَـا بِنُـزْهٍ ... وَتَعْلَـمُ أَيُّ أَرْضِـينَا تَضِـيرُ (٧)

فَلَوْ كَانَ النَّخِيـلُ بِهَـا رِكَابًـا ... لَقَـالُوا لَا مُقَـامَ لَكُـمْ فَسِـيرُوا

شِعْرُ ابْنِ جَوَّالٍ فِي الرَّدِّ عَلَى حَسَّانَ ﷺ:

وَأَجَابَهُ جَبَلُ بْنُ جَوَّالٍ الثَّعْلَبِيُّ أَيْضًا، وَبَكَى النَّضِيرَ وَقُرَيْظَةَ، فَقَالَ:

أَلَا يَـا سَـعْدُ بَنِـي مُعَـاذٍ ... لِـمَا لَقِيَـتْ قُرَيْظَـةُ وَالنَّضِـيرُ

لَعَمْرُكَ إِنَّ سَعْدَ بَنِي مُعَـاذٍ ... غَـدَاةَ تَحَمَّلُـوا لَـهُوَ الصَّـبُورُ

---

(١) **فلاهم**: قتلهم بالسيوف.

(٢) **الصليل**: الصوت.

(٣) **تفاقد معشر**: فقد بعضهم بعضًا، وهو دعاء عليهم.

(٤) **بور**: ضلال، أو هلكي.

(٥) **سراة القوم**: خيارهم. **البويرة**: موضع بني قريظة.

(٦) **الطرائق**: النواحي. **السعير**: النار الملتهبة.

(٧) **النزه**: البعد. **تضير**: تضر.

فَأَمَّا الخَزْرَجِيُّ أَبُو حُبَابٍ فَقَالَ لِقَيْنُقَاعِ لَا تَسِيرُوا
وَبُدِّلَتْ المَوَالِي مِنْ حُضَيْرٍ أُسَيْدًا وَالدَّوَائِرُ قَدْ تَدُورُ [(١)]
وَأَقْفَرَتْ البُوَيْرَةُ مِنْ سَلَامٍ وَسَعْيَةَ وَابْنِ أَخْطَبَ فَهْيَ بُورُ
وَقَدْ كَانُوا بِبَلْدَتِهِمْ ثِقَالًا كَمَا ثَقُلَتْ بِمَيْطَانَ الصُّخُورُ [(٢)]
فَإِنْ يَهْلِكْ أَبُو حَكَمٍ سَلَامٌ فَلَا رَثُّ السِّلَاحِ وَلَا دَثُورُ [(٣)]
وَكُلُّ الكَاهِنِينَ وَكَانَ فِيهِمْ مَعَ اللِّينِ الخَضَارِمَةُ الصُّقُورُ [(٤)]
وَجَدْنَا المَجْدَ قَدْ ثَبَتُوا عَلَيْهِ بِمَجْدٍ لَا تُغَيِّبُهُ البُدُورُ [(٥)]
أَقِيمُوا يَا سَرَاةَ الأَوْسِ فِيهَا كَأَنَّكُمْ مِنَ المَخْزَاةِ عُورُ [(٦)]
تَرَكْتُمْ قِدْرَكُمْ لَا شَيْءَ فِيهَا وَقِدْرُ القَوْمِ حَامِيَةٌ تَفُورُ

(١) **الموالي**: الحلفاء. **حضير وأسيد**: قبيلتان.

(٢) **ميطان**: جبل من جبال المدينة مقابل الشوران، به بئر ماء. (راجع معجم البلدان).

(٣) **الرث**: الخلق. **الدثور**: الدارس المتغير.

(٤) **الكاهنان**: حيان. **الخضارمة**: الأجواد الكرماء، الواحد: خضرم.

(٥) **البدور**: الشهور والدهور.

(٦) **عور**: جمع أعور.

المبحث السابع

خرائط غزوة بني قريظة

(١)

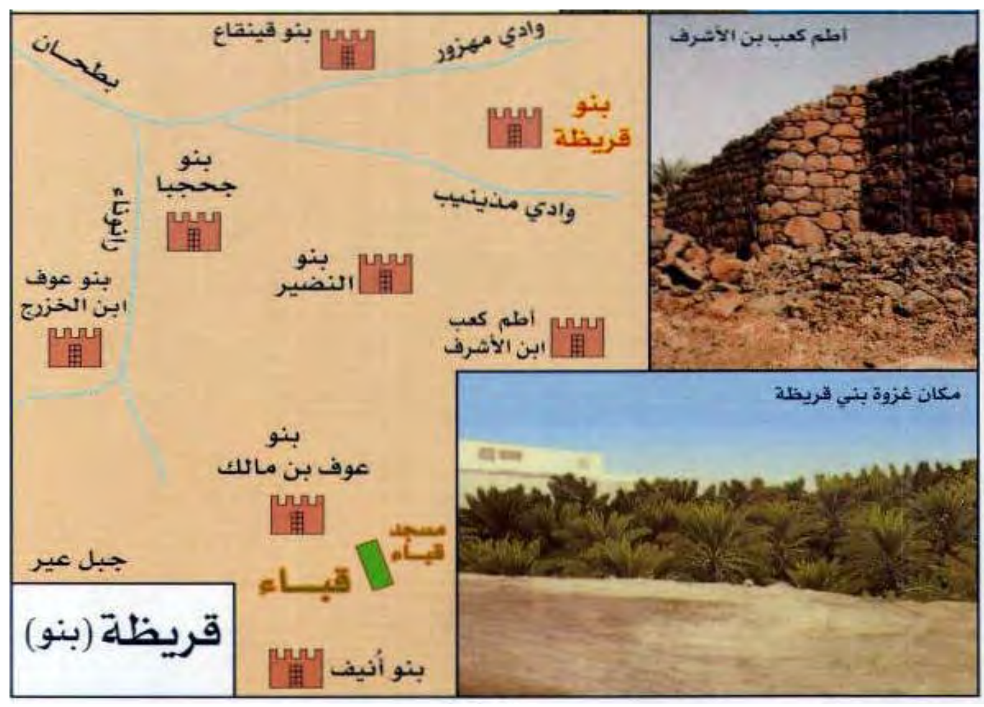
موقع الخنـــدق
حرَّة واقم
(اللابة الشرقية)
بنو حارثة
بنو عبد الأشهل وزعوراء
النبيت
بنو ظفر
ثنيّة الوداع
بنو الحارث من الخزرج
السّنح
مسجد رسول الله ﷺ
البَقِيع
جبل سلع
بنو زُرَيق
بنو واقف
وادي بطحان
بنو الحارث
منازل بني قينقاع
وادي مهزور
بنو قريظة
وادي مذينب
منازل بني النّضير
بنو عوف بن الخزرج
موقع بني قريظة
بنو عوف بن مالك بن أوس
مسجد قُبَاء

غزوة بني قُرَيْظَة

(٥ هـ)
أبو لبابة
رفاعة بن عبد المنذر
﴿ وَآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى اللهُ أن يتوبَ عليهم إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾
(التوبة ٩/١٠٢)

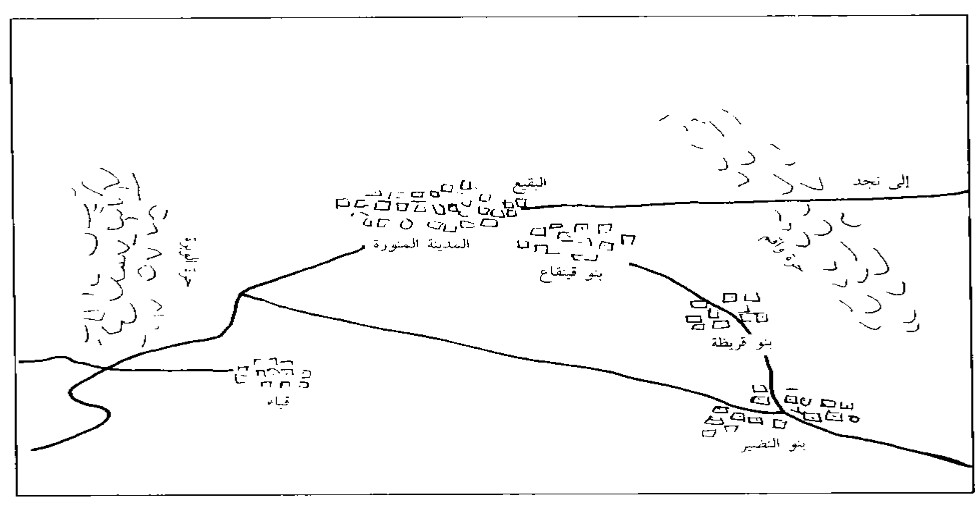
أطلس السيرة لأبي خليل ١٣٨، وأطلس القرآن لأبي خليل ٢٣٧.

(٢)



أطلس الحديث النبوي لأبي خليل ٣٠٧.

(٣)



(خريطة رقم ٦)
اليهود المحيطون بالمدينة

قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ١٨٤.

(٤)



الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ١٧٦.

(٥)

إجلاء بني قريظة

حدائق الأنوار لبحرق ٥٤٢.

(٦)



الإدارة العسكرية في حروب الرسول محمد ﷺ لوتر ٢٠٩.

الفصل الثاني

الدروس والعبر المستفادة من غزوة بني قريظة

المبحث الأول

الدروس العقائدية

١ ـ السمة الجدية لهذا الدين:

يقول د/ أبو فارس: «تجد هذه السمة تبرز واضحة في غزوات الرسول ﷺ، إذ كان لا يكتفي ﷺ بمواجهة الفكر بالفكر والحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان، لكنه لا يقف عند هذا إذا تمرد عدوه فطغى وبغى، وأقفل العقل، واعتمد على قوته وجبروته يريد كبت أنفاس الحق ودعاته، نعم إنه ﷺ في هذه الحالة يواجه القوة بقوة أعظم منها، ويواجه التحدي بتحد أشد، بل إنه يتجاوز هذا إلى أنه يقابل عدوه الذي يفكر باستخدام القوة ضده أن يفاجئه ويبدأ باستخدام القوة معه.

إن رسول الله ﷺ حين رأى اليهود يلعبون بالنار في المدينة ويهددون أمن الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة اتخذ موقفًا حاسمًا حازمًا منهم، وهذه هي السمة الجدية لهذا الدين.

إن هذا الدين يوجب على أتباعه أن يحموا مبادئهم وحقوقهم بالقوة، فإن القوة أضمن طريق لإحقاق الحق، وما أجمل أن تسير القوة والحق جنبًا إلى جنب، إن الحق بغير قوة ضائع، والقوة بلا حق ظلم، والإسلام يأبى الأمرين ويرفضهما، إن كثيرًا من قضايا المسلمين اليوم ضائعة، وهي حق لا ظلم فيها، ولا شبهة ظلم، ولكن هذه الحقوق ضائعة لأن أهلها غير قادرين على حمايتها، وغير قادرين على الوقوف بجانبها بقوة وحزم مهما كلف الثمن.

إن هذا الدين يُعلِّم أتباعه الجدية في مواجهة التحديات، ويُحرِّم على أتباعه الخنوع والخضوع والذل والهوان والاستسلام المخزي الذليل.

إن هذا الدين يوجب على أتباعه أن يصارعوا من يصارعونهم ويصرعوهم، ويفرض على أهله أن يقاتلوا من يقاتلونهم ويقتلوهم، ويرموا من يريدون رميه وتدميره.

حين يتحلى المسلمون بهذه الصفة، ويمتازون بهذه السمة، ترهبهم أعداؤهم، وتحترمهم أمم الأرض، تطلب ودهم، وتسعى لتنال رضاهم.

أما اليوم فهم في غاية من الهوان لا يسرون صديقًا ولا ينكؤون عدوًّا، صداقتهم وعداوتهم سواء، هذه هي حال ومآل الذي يتخلى عن دين الله ﷻ وعن سيرة رسول الله ﷺ، فلا يستفيد منها، ولا يقتفي أثرها». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٤٧-٤٨**].

٢ ـ الإيمان بوجود الملائكة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد شاركت الملائكة في غزوة بني قريظة، كما شاركت في غزوة الخندق، بل إن الذين شاركوا في غزوة الخندق هم نفسهم الذين شاركوا في غزوة بني قريظة، بهذا صرحت الأحاديث المتقدمة، إذ أخبر جبريل عليه السلام أن الملائكة التي شاركت في غزوة الخندق لم تضع السلاح، وهي على أهبة الاستعداد لإكمال الواجب عليها، وهو المسير إلى بني قريظة، ولقد سار جبريل عليه السلام ولمسيره غبار شاهده أكثر من واحد من الصحابة، وجاءت بذلك الأخبار الصحيحة.

لقد كانت مهمة الملائكة في الغزوتين إلقاء الرعب والخوف والهلع والجزع في قلوب جيوش الأحزاب، واليهود، فلا يقوون على قتال المسلمين والوقوف في وجوههم، وقد حصل هذا في غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة، إذ انهارت معنويات الأحزاب فساروا يجرون أذيال الهزيمة، ورجعوا مدحورين مقهورين لم ينالوا خيرًا، كما انهارت معنويات بني قريظة واستسلموا صاغرين».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٤٨-٤٩].

٣ ـ طاعة الرسول ﷺ:

يقول د/ الحميدي: «فيه مثال لحرص الصحابة رضي الله عنهم على طاعة أمر رسول الله ﷺ، فحينما قال: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، امتثلوا أمره إلى حد أن بعضهم حينما تأخر مضطرًّا أخر صلاة العصر حتى وصل إلى بني قريظة تنفيذًا لظاهر أمر النبي ﷺ». **[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٦٠]**.

٤ ـ البراءة من الكفار:

يقول د/ الحميدي: «موقف في البراءة من الكفار لأسيد بن حضير رضي الله عنه وذلك حينما هدد بني قريظة، وقوله حينما ذكَّروه بولائهم لقومه الأوس: **لا عَهْدَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَلا إِلَّ**، وهذا دليل على قوة إيمانه ورسوخ يقينه؛ لأن التخلص من أحلاف الجاهلية ليس بالأمر اليسير إلا على من يسره الله عليه».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٦٠-١٦١].

٥ ـ هيبة النبي ﷺ في نفوس أعدائه:

يقول د/ أبو فارس: «لقد نال يهود بني قريظة من رسول الله ﷺ ومن أزواجه، في غيابه، فلما حضر، وخاطبهم فأنبهم لم يجرؤ أحد على أن يتلفظ أمامه كلمة؛ رهبة منه، وهيبة، لكن هذه الهيبة صاحبتها قوة وحزم وجد وصرامة، فخافوا وجبنوا عن الرد.

ومن الحق أن يُقال: إن رسول الله ﷺ كان يهابه من يراه، ويُجله من يسمع قوله إذا كان ذا لب».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٥٤-٥٥].

٦ ـ تأكد اليهود من نبوة محمد ﷺ:

ويقول د/ البوطي: «لقد رأيت من مجرى كلام كعب بن أسد مع إخوانه اليهود، أنهم كانوا على يقين من نبوة محمد ﷺ وعلى اطلاع تام على ما أثبتته التوراة من الحديث عنه ﷺ وعن علاماته وبعثته، ولكنهم كانوا عبيدًا لعصبيتهم وتكبرهم، وذلك هو سبب الكفر عند كثير ممن يتظاهر بعدم الإيمان والفهم، وذلك هو الدليل البين على أن الإسلام في عقيدته وعامة أحكامه إنما هو دين الفطرة البشرية الصافية، ينسجم في عقيدته مع العقل وينسجم في تشريعاته وأحكامه مع حاجات الإنسان ومصالحه، فلن تجد من عاقل سمع باسم الإسلام وألمَّ بحقيقته وجوهره ثم كفر به كفرًا عقليًّا صادقًا، إنما هو أحد شيئين: إما أنه لم يسمع بالإسلام على حقيقته، وإنما قيل له عنه كلام زائف باطل، وإما أنه وقف على حقيقته واطلع على جوهره، فهو يأباه إباءً نفسيًّا لحقد على المسلمين أو غرض هوى يخشى فواته». [**فقه السيرة للبوطي ٢٣٩**].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد قامت الحجة على صدق رسالة الرسول ﷺ، فهو نبي بشَّرت التوراة به، وأقر بهذا زعيم بني قريظة، وكان هذا أمام يهود بني قريظة، فلم ينكر عليه ما قال، بل السكوت في معرض الحاجة إلى بيانٍ بيانٌ.

تأمل قول كعب لقومه: **فَوَاللهِ لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّهُ لَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَأَنَّهُ لَلَّذِي تَجِدُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ**.

إن مما يقضي منه العجب أن تقوم الأدلة عند بني قريظة على صدق هذا الرسول ﷺ، ويدعوهم زعيمهم إلى الإسلام فلم يسلموا، فما الباعث على إصرارهم على الكفر؟ إنه العناد والاستكبار والعلو، واتباع الهوى، وحين يسيطر على الإنسان هواه، ويعجب بنفسه، ويستعلي على الناس يعمى عن إبصار الحقيقة، ويحرم السعادة بها». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٦٠**].

و يقول د/ فيض الله: «كان اليهود يعرفون جيدًا أن محمدًا رسولُ الله ﷺ ـ كما قدمنا ـ وكما أخبر القرآن عنهم أكثر من مرة بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾[البقرة:١٤٦، الأنعام:٢٠].

ومن مقتضيات هذه المعرفة، ومن حقوقها أن يؤمنوا به، ويوقروه ويعزروه، ولا يمسوه بأي أذى.

لكن يهود بني قريظة، كانوا كغيرهم من اليهود، كافرين بمحمد ورسالته، يُظهرون له المودة والاحترام، ويُضمرون له في أنفسهم حقدًا دفينًا، ومكرًا سيئًا ماكرًا.

غير أن المناسبات الخاصة كانت تحرجهم، فتُظْهِر ما يُبَيِّتُون من المكر، ويدفنون من الحقد؛ وليست الخدعة التي ضرب بها الأشجعي بينهم وبين المشركين بالشيء الهين اليسير، فقد فَرَّقت الجمع، وقطعت دابر الكفر بألوانه، فخرج القوم عن طورهم، ونالوا بألسنتهم من رسول الله ﷺ، وسمع مقالتهم عليٌّ ﷺ بأُذُنِه، فهرع إلى الرسول ﷺ ورجاه ألا يقابل هؤلاء الأخابث.

فعلم ما وراء ذلك، وقال: «**لَوْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا**».

لكنه سعى إليهم موبخًا، قائلًا: «**يَا إِخْوَانَ القِرَدَةِ! هَل أَخْزَاكُمْ اللهُ وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ؟**».

ولا يخفى ما يحمل هذا التعنيف في شحنته من معانٍ؛ ولا تخفى على أحد صفات القردة، فانظر كيف قابل الجبناء هذا التعنيف بقولهم: **يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا!**

وإذا لم يكن محمد ﷺ فاحشًا، فهل من مقتضيات ذلك أن يُتَطَاوَلَ عليه، أو أن يُمَسَّ بسوء؟ وهل من لوازم الإسلام ورسول الإسلام، أن يُتَآمَرَ عليه، ويُتَأَلَّبَ ضده، والعهد قائم بينه وبينهم، وتحشد جموع الكفار كلها، وتضرب الحصار عليه، للقضاء عليه، فلا ينطق بكلمة سوء، وليست الكلمة إلا تلك التي وسمهم بها رب العالمين بقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف].

إنهم يعرفون أخلاق محمد ﷺ، ويعرفون الحق الذي يدعو إليه، لكنهم يُنكرون كل حق لهذه المعرفة، ولا يعترفون لها بحرية ولا تقدير سلطان.

إنهم يريدون أن ينالوا من محمد ﷺ كل نيل باللسان والسنان؛ ليشفوا ما في قلوبهم من غل وعلل، إزاء الإسلام ورسوله، ولا يرضون بعد ذلك أن يدافع محمد ﷺ عن نفسه، بكلمة ما؛ لأن خلقه عظيم، وليس بفحاش ولا سباب.

لهذا لم يأبه محمد ﷺ بأمانيهم وترهاتهم هذه، فواجههم بفتنتهم، وتصدى لهم ـ بعد أن ولى المشركون بخزيهم ـ ليصفي حسابه معهم، ويكيل لهم بالصاع الذي كالوه له مع المشركين.

ولقَّنهم درسًا في عواقب الغدر، لا تنساه الأجيال، ولا تبليه الليالي، جزاءً وفاقًا».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٥٧-٢٥٩].

٧ ـ بين العقيدة والعمل:

ويقول الشيخ أبو خوات: «نأخذ من محادثة كعب بن أسد لقومه أن اليهود كانوا يعلمون أن محمدًا ﷺ رسولُ الله، وكثير منهم أسلموا عن رضا وطواعية، ولكنْ هناك فرق بين العلم والانقياد، فكثيرون يعلمون عن رجل أو شيء أو دين أنه خير، ولكن الحقد والعناد يحولان بين العلم وثمرته، فإن ثمرة العلم الانقياد لما يقتضيه.

وقضية العقيدة وأثرها في السلوك ما تزال شغل المربين الشاغل.

كيف يصلون إلى أن يعمل ذو العقيدة ما يقتضيه الإيمان بها، بحيث يكون سلوكه تطبيقًا عمليًّا لعقيدته؟ فالمسلم الذي يعلم أن الكذب محرم ثم يكذب مثلًا، **والاشتراكي** الذي يتغنى بالمبادئ **الاشتراكية** ثم يسلك سلوك البخلاء الأشحاء مع من يعيش معه في مجتمعه [1]، كل هؤلاء مرضى

---

(١) سقطت النظرية الاشتراكية سقوطًا ذريعًا، ولكن الكاتب كتب هذا الكلام تحت ضغط التأثير الإعلامي للاشتراكية في مصر في فترة الستينيات من القرن العشرين، وقد تَراجَع الدكتور مصطفى السباعي عن كتابه (اشتراكية الإسلام)، كما تولى كثير من علمائنا نقض النظرية الاشتراكية، من أمثال سيد قطب، والمودودي، والسباعي، والغزالي، وينظر على سبيل المثال: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، والإسلام والمناهج الاشتراكية للشيخ محمد الغزالي، وكذلك كتاب: موقف الإسلام من الاشتراكية للدكتور مناع القطان، وغيرها الكثير. غريب.

الانفصال بين العقيدة والسلوك.

كما نأخذ أنهم يعرفون تمامًا أن طائفة منهم اعتدت بالصيد يوم السبت فمسخوا قردة خاسئين، ولكن يهود اليوم يتعالون على المسخ الذي حدث، ويحاولون الانتقام من البشرية تشفيًّا وإثلاج صدر».

[**دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٩٤-٩٥**].

٨ ـ اليهود لا يؤمنون بالتوراة إلا شكلاً، ولا يؤمنون إلا بأنفسهم:

يقول د/ فيض الله: «دلت قصة سيد اليهود كعب بن أسد، وعرضه عليهم ثلاث خصال: الإيمان بمحمد، فإنه تبين لهم ـ على حد تعبيره ـ أنه رسول الله؛ أو الخروج إليه بعد تقتيل النساء والأولاد، ليجرؤوا على قتاله؛ أو مباغتته يوم السبت.

على أن اليهود كانوا يتعللون بالإيمان بالتوراة، وما كانوا بها مؤمنين، كانوا يؤمنون منها بما يحلو لهم؛ كانوا يؤمنون بأنفسهم، وبما يحقق مصالحهم، وآمالهم، فإذا جد الجد، وأُمِرُوا بأن يقتلوا أنفسهم، تكفيرًا لذنوبهم، أو أن يقتلوا ذراريهم، لِيَخْلُصُوا للجهاد، تثاقلوا وانقبضوا: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة]، ومن قبل قالوا لموسى ؑ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة].

إنهم كالطفل المدلل بالمادة، والمعلل باللهو واللعب، لا شخصية له ولا وجهة، ولا رأي ولا مبدأ، كان أحسن وصف لهم ما قاله سيدهم كعب بن أسد، في هذه المحاورة، وبعد أن طرح عليهم هذه العروض: «**مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الدَّهْرِ حَازِمًا**»، لقد قال لهم سيدهم: «**لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّهُ لَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ**» وأُخذ عليهم في التوراة أن يؤمنوا به، وبينت لهم فيها صفاته، وأمارات النبوة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

كفروا به؛ لأنهم كانوا يحرصون على أن يكونوا هم السادة، لا أن يكونوا تابعين لمحمد ﷺ؛ وما كانت أنفسهم لتطيب بهذه التبعية؛ ولو أنهم نسوا أنفسهم، وذكروا التوراة، وآمنوا، لانتهت كل المشكلات والمتاعب.

وفي سبيل أنفسهم، خالفوا أحكام التوراة، بل وعتوا واجترأوا، وحَرَّفُوا كَلِمَهَا، وغيَّروا ما شاؤوا أن يغيِّروا؛ لتنسجم مع مصالحهم المادية، فنقضوا المواثيق، وصدوا عن سبيل الله، وقتلوا الأنبياء بغير حق، وأكلوا الربا، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وتَقَوَّلوا على مريم، وزعموا أنهم قتلوا المسيح ابنها ؑ وَعَدُوا في السبت، وهمُّوا بقتل محمد بن عبد الله ﷺ، كما بَيَّنا في غزوة النضير، بل هَمَّ ـ الآن ـ بنو قريظة بأن يفتكوا به وبالمسلمين جميعًا، ويسبوا ذراريهم، ويسترقوا نساءهم، ويبيعوا أطفالهم في أسواق الرقيق؛ فهل بذلك أمرتهم التوراة، وهي التي نزلت نورًا وهدى لهم؟ وهل هذا كله من محاسن إيمانهم بها؟

إن هذا ليدل على أنهم ما فهموها، ولا آمنوا بها، ولا طبقوا أحكامها، فكانوا كما قال القرآن الكريم فيهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة].

لقد آمن بالتوراة فريق منهم، كما نزلت، وآمن بها أوجبت، وسارع إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ كورقة، وابن سلام، ومخيريق، وآخرين، فلم يزدهم ذلك إلا عتوًّا ونفورًا، وحقدًا على الإسلام، وإيغالًا في ماديتهم، وإغراقًا في حب أنفسهم». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٥٩-٢٦٠].

٩ ـ فقه نفسية العدو:

تعليقًا على العروض التي عرضها كعب بن أسد على قومه يقول د/ الغضبان: «ها نحن نجد كعب بن أسد يدرك أبعاد المعركة ونتائجها، ويعلم أن الموقف خاسر، وأن نزوله على حُكم محمد ﷺ يعني الإبادة التامة، والمقاومة يائسة خاسرة، ويبحث عن طريق النجاة فلا يراها إلا في الإسلام، والإسلام هو الذي يحقن دمه ودم بني قريظة جميعًا، فمحمد ﷺ يقول: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**». [البخاري في الإيمان (٢٥)، وفي الصلاة (٣٩٣)، وفي الزكاة (١٤٠٠)، وفي الجهاد والسير (٢٩٤٦)، وفي استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم (٦٩٢٤)، وفي الاعتصام بالكتاب (٧٢٨٥)، ومسلم في الإيمان (٢٠، ٢١، ٢٢)، وفي فضائل الصحابة ﵃ (٢٤٠٥)، وأبو داود في الزكاة (١٥٥٦)، وفي الجهاد (٢٦٤٠، ٢٦٤١)، وفي الجنائز (٣١٩٤)، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٦، ٢٦٠٧، ٢٦٠٨)، وفي تفسير القرآن (٣٣٤١)، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٣)، وفي الجهاد (٣٠٩٠- ٣٠٩٥)، وفي تحريم الدم (٣٩٦٧، ٣٩٦٩- ٣٩٧٧، ٣٩٧٩، ٣٩٨٢، ٣٩٨٣)، وفي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٣، ٥٠٣٩)، وابن ماجه في المقدمة (٧١، ٧٢)، وفي الفتن (٣٩٢٧-٣٩٢٩)، والدارمي في السير (٢٤٤٦)، ومسند أحمد عن أبي بكر الصديق وعمر وأبي هريرة وأنس وجابر بن عبد الله وأوس بن أبي أوس الثقفي ومعاذ بن جبل ﵃].

وتفكير كعب بالإسلام ولو من باب المصلحة يدل على أنه أقل حقدًا من حيي بن أخطب وتفانيه في الزعامة والرئاسة، وطمس الحقد على بصره وبصيرته، ولئن شُبِّه حيي بأبي جهل في حقده وكفره، فكعب أشبه ما يكون بعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة زعيمي بني أمية، إذ كانوا يدركون المصلحة كثيرًا ويعجزون عن تنفيذها خضعانًا لقومهم، ولئن استطاع عبد الله بن سلام حبر اليهود ﵁ أن يتجاوز عصبيته، ويستجيب لأمر ربه، فكعب عاجز عن ذلك؛ لأن الزعامة عنده كذلك هدف لا يفوت، إنه يعرف أن محمدًا ﷺ حق، وأن إصراره على التمسك باليهودية عناد وحقد، لكن رآها فرصة سانحة أن يقود قومه للإسلام، ولو كان من باب حقن دمائهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، غير أن الأتباع كثيرًا من الأحيان ما يكونون أسوأ عصبية من القيادات وخاصة اليهود الذين وصفهم رب السماوات والأرض بقوله: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ﴾ [البقرة: ٩٣].

لقد دخلت عبادة العجل في دمائهم وبطونهم فشربوها شربًا، وامتزجت بكل شرايينهم، فكان جواب اليهود القاطع: **لَا نُفَارِقُ حُكْمَ التَّوْرَاةِ أَبَدًا، وَلَا نَسْتَبْدِلُ بِهِ غَيْرَهُ.**

وكعب يعرف أن قضية اليهودية عندهم عصبية أكثر منها عقيدة، ومن أجل ذلك حينما عرض عليهم الدخول في الإسلام ورفضوا أراد أن يضعهم عند التزامات هذه العقيدة، فعرض عليهم التضحية الخالصة، عرض عليهم قتل أبنائهم ونسائهم لتكون الحرب طاحنة، فلا يأسوا على مال أو زوج أو ولد، فالقتل لا يخيفهم لاطمئنانهم أن ذراريهم لن تكون أسرى بيد المسلمين، ولن تفتضح أعراضهم، غير أن القوم حياتهم أغلى عليهم من أعراضهم وأولادهم، فما لذة العيش بعدهم؟

وهكذا لم يتخل بنو قريظة عن دينهم، ولم يضحوا بنسائهم وأولادهم وأرواحهم من أجل هذا الدين، فلم يعد إلا الحل الثالث: الهجوم المباغت على المسلمين ليلة السبت، فاعتذروا أنهم لا يفسدون سبتهم، وهكذا رفض الأتباع كل اقتراحات القيادة، ويئس كعب من قومه، فليس أمامهم إلا الموت جوعًا وعطشًا أو النزول على حكم محمد ﷺ، أما أن يُقاتِلون بشرف، أو يقاتِلوا ببسالة أو يقاوموا ببطولة، فهذا في منطق اليهود لا يقوم.

وما أحوجنا إلى أن نتعرف على هذه الطباع، والمعركة بيننا وبينهم قائمة، والحرب مستمرة.

إن فقه نفسية العدو تعطينا كثيرًا من الإضاءات على طبيعة مواجهته.

والغريب أننا نواجه اليوم ظاهرًا بنماذج جديدة حتى أصبح العربي يخشى اليهودي، وأصبح العرب وهم يناهزون المائة مليون ونصف (؟؟!!) عاجزين عن المواجهة، عاجزين عن الحرب، هُزموا نفسيًّا بعد حربين خاضوها، وكانت الحربان خاسرتين، لقد أصبحوا جميعًا يتحدثون عن السلام، وأصبحت قياداتهم تؤمن بالحل السلمي ـ أو الاستسلامي ـ أكثر من إيمانها بالله، وبعد حرب الـ ٧٣ مع اليهود، انتهت فكرة الحرب والمواجهة عند العرب، وراحوا يحلمون باسترداد الأراضي بالطرق السلمية، وتُجمع مؤتمراتهم على ذلك، ويقدمون مشروع الحل السلمي هم، ولا يناقشون إطلاقًا بالوجود اليهودي، بل يطلبون استعادة الضفة الغربية لتكون وطنًا للفلسطينيين، وكفى الله العرب القتال. [١]

إن قَرْنَنا قد شهد هذه المأساة، مأساة الاستسلام المتخاذل، مأساة اليقين عند حكام العرب وكثير من شعوبهم أن إسرائيل لن تُقهر، وأن العرب لن ينتصروا، إنهم يمثلون تمامًا عرب الأوس والخزرج قبل الإسلام، حين كان الكيان اليهودي في المدينة يهدد الكيان العربي ويقول له: **أظل زمان نبي نتبعه، فنقتلكم به قتل عاد وإرم**، وكان العرب يقبلون من اليهود أحكامهم فيتهاوتون على التحالف معهم ويتسابقون.

---

(١) كان هذا قديمًا، فقد نال العرب آمالهم المرتقبة!! وتمت اتفاقية غزة أريحا وقام وطن للفلسطينيين وليته ما قام؟ وما زالت مؤتمرات الاتفاقيات تتجدد كل يوم!

وهؤلاء هم عرب اليوم، لقد كان الرعب يجتاح الإنسان العربي في الماضي من اليهود لأنهم أهل علم، وأهل سلاح، بل كان سلاح العرب في المدينة من صُنع اليهود، فكيف يحاربونهم، وعرب اليوم الذين غدوا بلا عقيدة وبلا دين قد أكلهم الرعب من اليهود لعلمهم وسلاحهم، وعلم اليهود علم بشري وسلاحهم اليوم صُنع غربي أو محلي، لم تنقلب الآية بعد، ولم تتغير الطبائع، ولم تتبدل النفوس.

لقد كان اليهود يهددون الكيان العربي بالنبي الذي سيُبعث، وقد أطل زمانه، وكان العرب ينتظرون أن يأتيَ هذا النبي حتى يُبادوا، فهم يعرفون أن اليهود أهل الكتاب الأول وعندهم التوراة، لكن عندما تبنى العرب هذا النبي ﷺ، وساروا وراءه عرفوا أنهم لابد قاتلو اليهود قتل عاد وإرم: «**إن هذا هو النبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه**»، وسبقوا اليهود إلى هذا النبي، آمنوا به، وعرف اليهود في قرارة نفوسهم أنهم منهزمون ما لم يتبعوا هذا النبي، ومع ذلك رفضوا، كما رأينا رفضهم مع كعب أن يدخلوا في الإسلام حقدًا وضغينة وعصبية، لقد كانوا يعلمون أنهم يخوضون معركة خاسرة، وأنهم لو قُتلوا عن بكرة أبيهم فلن ينتصروا على محمد النبي ﷺ.

وعرب اليوم حين يعودون إلى هذا النبي ﷺ، ويعودون إلى هذا الدين، ويقاتِلون به سوف تظهر طبائع اليهود، وسوف يعرى اليهود في جبنهم وتخاذلهم كما تعروا في بني قينقاع والنضير وقريظة.

إن الجديد في المعادلة هو أن عنصر التفاعل لم يقع بعد، وقاتَل اليهودُ عربًا، ولم يقاتِلوا مسلمين، وحين يقاتلون المسلمين يظهر اليهود على حقيقتهم بلا خلاف». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٣٠٤-٣٠٦].

١٠ ـ الافتراء على الأنبياء في التوراة:

يقول الشيخ الصوياني: «هذا هو حكم الله في هؤلاء اليهود الذين كادوا ينشرون الموت والرعب في كل شبر في المدينة لو انتصر الأحزاب، حُكم عاجل وحازم وحاسم، أخرج نبيه من بيته، من استراحته، وأمره على الفور بالخروج لتنفيذ هذا الحكم العادل.

قد يتعاطف أحد مع يهود بني قريظة ويقول: لماذا هذا الحزم مع اليهود، لماذا كل هذه الشدة؟

ولا أجد جوابًا أعظم من أنه حُكم الله وحده لا شريك له، لكن هناك إضافة يسيرة وجدتها في توراة القوم، تُخوِّل اليهود أن يفعلوا ما يشاؤون بأعدائهم إذا بدرت منهم إساءة لليهود، فكيف إذا كانوا في نظرهم كفارًا كالمسلمين؟!

هذه الإضافة تجدها في قصة «دينة بنت يعقوب».

تقول القصة إن يعقوب عليه السلام وأبناءه سكنوا مدينة «شكيم» واشتروا أراضي لهم، فخرجت «دينة» ذات يوم تتمشى فرآها ابن الملك «حمور» واسمه «شكيم»، فاغتصبها، ثم طلب من أبيه أن يخطبها، فتكدر يعقوب عليه السلام لما حدث لابنته، وسكت حتى جاء أبناؤه، وقال لهم: إن الملك عرض عليه الإقامة الدائمة

والمصاهرة بين العائلتين، فتظاهر الأبناء ـ وهم أعظم أنبياء اليهود ـ بالموافقة، لكن اشترطوا أن يختتن كل من أراد الزواج منهم، ولما اختتن الملك وابنه ورجال شعبه، وأثناء فترة آلام الختان هجم بنو يعقوب وغدروا بالملك رغم العهود والمواثيق، وقتلوا كل ذكر، ثم نهبوا حميرهم وبقرهم وغنمهم وجميع ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في بيوتهم. [تنظر تفاصيل القصة في (التوراة - التكوين- ٣٤)].

إذا كان هذا ما ينسبونه لأعظم أنبياء بني إسرائيل، والذين إليهم ينسب كل اليهود، إذا كان الغدر هو مبدؤهم ـ كما يقول كاتب التوراة ـ فكيف بالرعاع والحاقدين من بني قريظة؟! ما هو حجم الكارثة التي سيرتكبها اليهود في المدينة، لا أحد يعلم إلا الله، ولا شيء يردع تهور اليهود ودسائسهم سوى السيف، وها هو السيف يبطش بهم في سوق المدينة، وها هي المرأة الخائنة تقتل في سوق المدينة، ويقتل رجال بني قريظة ومحاربوها.

وهكذا أهال الإِسلام التراب على جسد الخيانة القرظية المتعفن، وأراح العالم منه، وبقي من بني قريظة من اختار الحياة والإِسلام والهواء النقي من كل خبث ودسيسة، فعاشوا أحرارًا بالإِسلام، إلا من أبى».
[السيرة النبوية للصوياني ٣/ ١٢٦ - ١٢٧].

١١ ـ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله:

يقول أ/ دروزة: «وننبه إلى أن عبارة ﴿ظَٰهَرُوهُم﴾ [الأحزاب: ٢٦] تُلهم أنه بدا من اليهود أثناء حصار الأحزاب للمدينة أعمال مؤذية للمسلمين، أو بالأحرى أعمال تمتُّ إلى الحرب، تضرَّر المسلمون منها وأثارت في نفوسهم السخط فوق ما أثاره موقف الغدر والخيانة فيهم من خوف وزاد من شدة الخطر على ما رأينا في غزوة الأحزاب، وليس من ريب في أن التنكيل الشديد بهم يمتُّ بسبب وثيق إلى هذه الظروف كلها، لا سيما أن هذا قد كان منهم دون أن يعتبروا بما كان من إجلاء بني قينقاع وبني النضير أولًا، وبسعي وجد في إيقاد نار الحرب بغية القضاء المبرم على المسلمين ثانيًا، فلا غرو أن كان عقابهم أشد صرامة من عقاب من سبقهم؛ لأن جريمتهم أشد أثرًا، وأبعد مدى.

أما عبارة ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧]، فقد قال المفسرون: إنها أرض خيبر، وإن الجملة بشرى سابقة لفتحها، غير أن الذي تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر لنا أنها أرض لبني قريظة بعيدة عن مساكنهم، آلت إلى المسلمين دون حرب أو حصار، ونتيجة للمصير الذي صار إليه أصحابها».
[سيرة الرسول ﷺ لدروزة ٢/ ٢٠١-٢٠٢].

ويقول د/ الحميدي: «وهكذا كانت نهاية غدر اليهود بالمسلمين أن لقوا نفس المصير الذي كانوا يريدونه لرسول الله ﷺ والمؤمنين، فقد تحالفوا مع الأحزاب وكان من تخطيطهم أن يهجموا على المسلمين من خلفهم من الداخل، وأن يهجم الأحزاب على المسلمين من أمامهم، ولو فعلوا ذلك لشغلوا المسلمين

عن حراسة الخندق ولربما استطاع فِرسان الأحزاب أن يقتحموا الخندق، ولكن الله تعالى ملأ قلوب اليهود رعبًا وفزعًا فلم يستطيعوا أن يجاوزوا حصونهم حتى هزم الله تعالى الأحزاب فعادت الدائرة على اليهود الخائنين.

ولقد وفَّى من يهود بني قريظة عمرو بن سعدى الذي أبى أن يدخل معهم في نقض العهد وذكَّرهم بما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من حلف ثم نجاه الله بصدقه ووفائه.

وهذا الخبر يثبت العهد الذي قطعه اليهود على أنفسهم من وجوب نصرة المسلمين إذا دهمهم عدو من خارج المدينة، وأن لا يناصروا أعداء المسلمين، وتأتي قيمة هذا الخبر من كون هذا الاعتراف صادرًا من أحد اليهود وإقرار اليهود لذلك، وإلا فإن هذا الاعتراف قد ثبت في نصوص أخرى كما تقدم لنا في المعاهدة التي تمت بين رسول الله ﷺ ويهود المدينة». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٧٢-١٧٣**].

ويقول أ/ وجدي: «إن اليهود الذين تخيروا البلاد العربية دار هجرتهم، كان لهم يدٌ قوية في حمل المشركين على التألب على المسلمين حرصًا على طمأنينتهم، وسلامة وجودهم، ولو كانوا أبعد نظرًا لساعدوا المسلمين على التغلب على الجاهليين؛ لأن الإسلام بما جاء به من سعة الصدر، وحماية الضعفاء، والوفاء بالعهد، كان أجدى عليهم من سلطان أهل الشرك، وقد تبين ذلك فيما عاملهم به من العدل والكرم بعد أن دالت له الدولة، فبدل أن يحفظ عليهم ما قاموا به من التأليب عليه في عهد تكوُّنه، وصى بالإحسان إليهم والبر بهم وبسائر أهل الكتب السماوية، فكان وجوده رحمة لهم.

وإننا ننبه إلى هذا هنا تبريرًا لما قام به النبي ﷺ بعد هذه الوقعة من إجلاء مَنْ بقي منهم عن حصونهم، دفعًا للغوائل التي تتطرق إلى جماعة المسلمين من ناحيتهم، وهذا حق مشروع لكل جماعة تود أن تنال نصيبها من الوجود، ما دامت لا تُضمر لجماعة سخيمة نفسية، ولا تصدر فيما تعمله عن العصبية الجاهلية». [**السيرة المحمدية لوجدي ٢٢٢**].

١٢ ـ لا تزر وازرة وزر أخرى:

يقول د/ أبو فارس: «إن الإسلام يقرر أن كل إنسان يحاسب على عمله وما اقترفت يداه، فلا يُسأل عن جريرة الآخرين، ولا يُسأل الآخرون عن جريرته، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤، الإسراء:١٥، فاطر:١٨، الزمر:٧].

ومن هذه القاعدة المحكمة في هذا الدين عامل المسلمون عمرو بن سعدى القرظي معاملة طيبة، فلم يؤذوه، بل أحسنوا إليه، وبات في مسجد الرسول ﷺ؛ لأنه لم ينقض العهد ولم يغدر كما غدر قومه، وأعلن ذلك على الملأ، أنه لن يغدر بمحمد أبدًا، فنجاه الله ـ تبارك وتعالى ـ بوفائه، كما أخبر رسول الله ﷺ».

[**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٦٠-٦١**].

١٣ ـ التأكيد على عقيدة الولاء والبراء:

يقول د/ أبو فارس: «إن المرء ليعجب من تصرف الأوس في قضية بني قريظة، إذ جاؤوا يشفعون فيهم، ويطلبون من الرسول ﷺ ومن سعد بن معاذ ﷺ أن يُحسن معاملتهم وأن يعفو عنهم، ونسوا أن هؤلاء اليهود قد تآمروا على الإسلام والمسلمين وصمموا على أن يبيدوا خضراءهم، وكانوا قبل قليل في خوف شديد من بني قريظة، يترقبون هجومهم في كل لحظة، إن أعراض المسلمين وذراريهم مهددة بمهاجمة بني قريظة، كل هذا ينسونه، ويشفعون في بني قريظة.

أقول: إن هؤلاء الأوس لم يتخلصوا من كل رواسب الجاهلية، بل بقيت بعضها، تؤثر عليهم بين الحين والآخر، حتى طهرهم الله منها في النهاية، إنهم في هذا الوقت يحنون إلى أحلاف الجاهلية، فهم يعطفون على قريظة لأنهم حلفاء الأوس قبل الإسلام، كما عطف رأس النفاق على يهود بني قينقاع لأنهم حلفاؤه في الجاهلية.

إنهم يطلبون من الرسول ﷺ أن يعفو عن بني قريظة كما عفا عن بني قينقاع، حين أكرم الخزرج بذلك.

والحق أن هناك فرقًا شاسعًا بين الجريمة التي ارتكبها بنو قريظة والجريمة التي ارتكبها بنو قينقاع، فبنو قينقاع تآمروا على حياة رجل من الصحابة فقتلوه، أما بنو قريظة فقد تآمروا على كيان الأمة ودولتها وشعبها، يريدون ألا تقوم للمسلمين قائمة، فهل الجريمتان تتساويان؟!

إن جريمة بني قريظة أفدح بكثير من جريمة بني قينقاع، إنها تستهدف وجود الأمة، وسحقها وتدميرها، وتدمير إمكاناتها، وقتل رجالها، ونسائها وأطفالها، إنها جريمة بشعة صمموا على اقترافها، وأعدوا لها، وشرعوا في تنفيذها، ولكن الله ﷻ حال بينهم وبين تنفيذها.

وعلى هذا يجب أن يتناسب الجزاء مع الجريمة، ولا يصلح العفو مع الخيانة والغدر، ولا يَمنع الغادر عن الغدر بالعفو عنه، بل يزيده غدرًا وعتوًّا.

حزم سعد ﷺ وعدله في الحكم: لقد كان سعد بن معاذ ﷺ عادلًا في حكمه حين حكم على بني قريظة من قتل المحاربين، وسبي النساء والذراري، وتقسيم أموالهم على المقاتلين، أيد هذا العدل مُنزل العدل من السماء إلى الأرض، الله رب العالمين، وحاشا لله أن يظلم أحدًا من العالمين، قال سبحانه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت].

لقد أدرك سعد بن معاذ ﷺ خطورة الجريمة التي ارتكبها بنو قريظة بحق الدولة الإسلامية، وكيان الأمة، ومؤسساتها، وشعبها، وحذرهم من مغبة هذه الخيانة، ولكنهم لم يتعظوا ولم يعتبروا، بل سدروا في غيهم.

إن سعد بن معاذ ﷺ قد تخلى عن كل عاطفة تستجيب لرواسب الجاهلية، فلم يعبأ برجاء الراجين، وبتوسل المتوسلين، الذين لم يُقدروا الموقف حق التقدير، وجرفتهم عاطفتهم المشوبة برواسب الجاهلية ليضغطوا على سعد ﷺ ليميل عن الحق والعدل بالتخفيف في العقوبة، ولكنه لم يستجب، ونعم ما فعل. هذا هو جواب الوحي وتأييده.

لقد قال سعد ﷺ بوضوح للذين جاؤوا يذكرونه بأن يحسن في مواليه: **لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ**». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٠٧-١٠٩**].

ويقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر تصوير لقوة الأحلاف الجاهلية وأثرها على النفوس، حيث لم يتخلص منها إلا أقوياء الإيمان، وما جرى في هذا الخبر من قول الأوس: «**يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُمْ مَوَالِينَا دُونَ الـخَزْرَجِ**» محمول على أنه صدر من بعضهم إذ إنه يبعُد أن يصدر من كبارهم المشهورين بقوة الإيمان.

وكان مما يغذي وجود هذه العصبية والتمسك بالأحلاف الجاهلية وجود عدد من المنافقين في مجتمع الأنصار، حيث إن المنافقين هم من الأوس والخزرج.

وكان النبي ﷺ يعاني كثيرًا من هذه النظرة المتأصلة لدى بعضهم، ولكنه كان يداريها بسياسته الحكيمة حتى استطاع أن يتلافى أخطارها المدمرة.

ومن هذا الموقف الحرج استطاع النبي ﷺ أن يخرج من هذا المأزق بتحكيم رجل من الأوس؛ لأنه إذا حَكم بما يُرضي الله تعالى ورسوله ﷺ لن يستطيع المنافقون أن يُرجفوا ولا أن يحدثوا فتنة في مجتمع الأوس، بينما موقف النبي ﷺ محرج فيما لو حكم على يهود بني قريظة بالقتل لكونه قبل ذلك قد مَنَّ على حلفاء الخزرج من يهود بني قينقاع، فستكون القضية مرتعًا خصبًا للمنافقين ليقوموا بإرجافهم.

ولقد اختار النبي ﷺ رجلًا منهم يعلم أن لديه من قوة الإيمان ورسوخ اليقين ما يكفي لإنقاذ الموقف، وذلك بتنفيذ ما كان عزم عليه في الحكم بقتل اليهود مع تلافي الحساسية التي لدى بعض الأوس فيما لو حكم فيهم النبي ﷺ.

ولقد واجه سعد بن معاذ ﷺ حرجًا كبيرًا من بعض قومه، وتعرض لضغوط شديدة من بعضهم حيث أتوا إليه ورافقوه في الطريق من المسجد النبوي إلى بني قريظة وحاولوا إقناعه في تخفيف الحكم لإعفائهم من القتل، فلما أكثروا عليه قال كلمته العظيمة: «**لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ**»، فطبق بذلك المبدأ الإسلامي العالي الذي لا ينظر فيه المسلم إلى أي هدف سوى إعلاء كلمة الله ـ تعالى ـ وابتغاء مرضاته.

ولما وصل إلى الميدان وحكَّمه الرسول ﷺ في بني قريظة حكم بقتل رجالهم وسبى ذراريهم ونسائهم وتقسيم أموالهم، فأثنى عليه النبي ﷺ ببيان أن حكمه وافق حكم الله تعالى.

وهكذا كان هذا الموقف العظيم من أبي عمرو سعد بن معاذ ﷺ حيث حكم بالحق وإن كان ذلك يغضب بعض قومه وجميع حلفائه من اليهود، وهذا دليل على تجرد قلبه لله ـ تعالى ـ حيث لم يتسرب إليه اعتبار القوى البشرية، وأصبح المتحكم في سلوكه هو اعتبار رضا الله ﷻ وحده، وإن أغضب حلفاءه والمخالفين له من قومه، وهذا علامة على كمال التوحيد.

إن كثيرًا من المسلمين يستطيعون أن يؤدوا تكاليف الإسلام التي لا تحرجهم مع الناس، ولكنهم يخضعون أحيانًا لبعض الناس في أمور لا يرضاها الله ﷻ.

أما المصطفَوْن الأخيار فإنهم لا يفرقون بين تكاليف الدين، ولا يُلقون بالًا لمواجهة المخالفين والتعرض لسخطهم ما داموا قد استقاموا على الطريق الموصل إلى رضوان الله تعالى والجنة: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾[الفتح: ٢٩]». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٦٩-١٧١، وينظر للتفصيل: مسائل العقيدة المستنبطة من غزوة بني قريظة للدلو ١٠١-١٠٥**].

١٤ ـ العقيدة وأثرها في حياة المسلمين:

يقول ل/ خطاب: «ظهر لنا في هذه الفترة من جهاد النبي ﷺ، أثر العقيدة في توحيد الصفوف للعمل للمصلحة العامة وحدها، وأثرها في اندفاع المسلمين كل يسابق أخاه إلى الشهادة، وأثرها في جعل المسلم يحاسب نفسه على ما اقترفه من ذنب لا يعلم به أحد غيره من الناس.

طلبت بنو قريظة من المسلمين حضور أبي لبابة بن عبد المنذر ﷺ ليستشيره، وقد كان أبو لبابة ﷺ حليفًا لهم في الجاهلية وصديقًا شريفًا لا يشكُّون في إخلاصه، فبعثه الرسول ﷺ إليهم؛ فاستقبله الرجال والنساء والأطفال بالبكاء والعويل، فأثر ذلك في نفسه إنسانًا.

واستشاره يهود: أينزلون على حكم محمد؟ فقال لهم: (نعم).

وأشار إلى حلقه كأنه ينبههم إلى أن مصيرهم الذبح.

ولكنَّ أبا لبابة ﷺ أدرك لفوره أنه خان النبي ﷺ بـ (إشارته) تلك؛ وأنه خضع لشعوره العاطفي لا لعقيدته الملتزم بها فيما وقع منه، فمضى هائمًا على وجهه نادمًا حتى وصل مسجد المدينة، فربط نفسه إلى سارية فيه، محلف: لا يفك نفسه حتى يتوب الله عليه.

وبقي على حاله هذا متشفعًا بالرسول ﷺ حتى تاب الله عليه.

لم يعرف أحد بـ (إشارة) أبي لبابة ﷺ إلى حلقه حين استشاره يهود في الاستسلام، ولم تكن إشارته هذه نتيجة تدبر وتفكير، ومع ذلك لم يستر أبو لبابة ﷺ فعلته هذه وأعلنها للناس جميعًا، وعاقب نفسه عقابًا صارمًا، مما يدل على عقيدته الراسخة وإيمانه العميق.

وحُكم سعد بن معاذ ﷺ على بني قريظة بأن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتُقسم الأموال يدل على عقيدته الراسخة أيضًا.

لقد كان سعد ﷺ سيد الأوس حلفاء بني قريظة في الجاهلية، وقد توقع يهود أن تنفعهم هذه الصلة القوية عند الحكم عليهم، كما توقع الأوس أيضًا أن يتساهل سعد ﷺ مع أصدقائهم وأصدقائه الأقدمين، بل استقبله الأوس حين قدومه للحكم هاتفين: يا أبا عمرو! أحسن في مواليك.

وقد أحسنت الخزرج قبل ذلك في مواليها من يهود عندما استسلموا للمسلمين، فلماذا لا يحسن الأوس إلى مواليهم مثلما أحسن الخزرج؟

ولكنَّ سعدًا ﷺ صاح بقومه وقد أكثروا عليه الرجاء: (**قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم**).

وأصدر سعد ﷺ حكمه العادل غير متأثر بالأهواء بل بعقيدته الراسخة فقط وإيمانه العظيم.

هذه الأمثلة التي ظهرت لنا في هذه الفترة من حياة المسلمين ومثلها كثير، تدل بوضوح على رسوخ العقيدة في نفوسهم، مما جعلهم يستهينون بكل شيء في سبيل عقيدتهم».

[**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٦١-٢٦٢**].

١٥ ـ فَوْقِيَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ:

يقول الإمام السهيلي: «وَفِيهِ مِنَ الفِقْهِ تَعْلِيمُ حُسْنِ اللَّفْظِ إِذَا تَكَلَّمَتْ بِالفَوْقِ مُخْبِرًا عَنْ الله سُبْحَانَهُ، أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ قَالَ: «**بِحُكْمِ اللهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ**»، وَلَمْ يَقُلْ: فَوْقَ عَلَى الظَّرْفِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الحُكْمَ نَازِلٌ مِنْ فَوْقٍ، وَهُوَ حُكْمُ الله تَعَالَى، وَهَذَا نَحْوٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[النحل: ٥٠]، أَيْ: يَخَافُونَ عِقَابًا يَنْزِلُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَهُوَ عِقَابُ رَبِّهِمْ.

فَإِنْ قِيلَ: أَوَلَيْسَ بِجَائِزٍ أَنْ يُخْبَرَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتٍ؟

قُلْنَا: لَيْسَ فِي هَذِهِ الآيَةِ وَلَا فِي هَذَا الحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى إِطْلَاقِ ذَلِكَ، فَإِنْ جَازَ فَبِدَلِيلٍ آخَرَ وَكَذَلِكَ قَوْلُ زَيْنَبَ: «**زَوَّجَنِي اللهُ مِنْ نَبِيِّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ**»، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: أَنَّ تَزْوِيجَهُ إِيَّاهَا نَزَلَ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ، وَلَا يَبْعُدُ فِي الشَّرْعِ وَصْفُهُ سُبْحَانَهُ بِالفَوْقِ عَلَى المَعْنَى الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، لَا عَلَى المَعْنَى الَّذِي يَسْبِقُ لِلوَهْمِ مِنَ التَّحْدِيدِ، وَلَكِنْ لَا يُتَلَقَّى إِطْلَاقُ ذَلِكَ الوَصْفِ مِمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الآيَةِ وَالحَدِيثَيْنِ؛ لِارْتِبَاطِ حَرْفِ الجَرِّ بِالفِعْلِ حَتَّى صَارَ وَصْفًا لَهُ لَا وَصْفًا لِلبَارِي سُبْحَانَهُ، وَقَدْ أَمْلَيْنَا فِي حَدِيثِ الأَمَةِ الَّتِي قَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، مَسْأَلَةً بَدِيعَةً شَافِيَةً رَافِعَةً لِكُلِّ لَبْسٍ وَالحَمْدُ لله».

[**الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣٣١-٣٣٢**].

ويقول الشيخ الوكيل: «حقيقة الفوقية هي: علو ذات الشيء على غيره، والجهميون يزعمون أن فوقية الله فوقية رتبة وقهر، كقولنا: الذهب فوق الفضة.

وأهل السنة وسلفنا الصالح يقولون: إن العهد والفِطَر والعقول والشرائع وجميع كتب الله المنزلة على خلاف ما يزعم الجهميون، وأنه سبحانه فوق العالم بذاته، فالخطاب بفوقيته ينصرف إلى ما استقر في الفِطَر والعقول والكتب السماوية.

والمجاز في الفوقية وإن احتمل في قوله :﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[الأعراف]؛ فذلك لأنه قد علم أنهم جميعًا مستقرون على الأرض، فهي فوقية قهر وغلبة، ولكن هذا المجاز لا يحتمل في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، إذ قد علم بالضرورة أنه وعباده ليسوا مستوين في مكان واحد حتى تكون فوقية قهر وغلبة.

واقرأ كتاب (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم) ولا سيما من أول ص ٢٠٥، فقد أقام الأدلة القاطعة من القرآن والسنة والعقل على فوقية الله سبحانه بذاته من سبعة عشر وجهًا.

واقرأ لابن رشد الفيلسوف في إثبات جهة العلو لله سبحانه في كتابه مناهج الأدلة.

وكانت زينب ﵂ تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: (**زَوَجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ، وَزَوَّجَنِي اللهُ مِنْ نَبِيِّهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ**) رواه البخاري في الصحيح». [**الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣٣٢ هامش ١، وينظر للتفصيل: مسائل العقيدة المستنبطة من غزوة بني قريظة للدلو ٧٣-٧٦**].

١٦ ـ إثبات العرش وأنه مخلوق:

قال الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم: «اِخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهِ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَاهْتِزَازُ العَرْشِ تَحَرُّكُهُ فَرَحًا بِقُدُومِ رُوحِ سَعْدٍ ﵁، وَجَعَلَ اللهُ تَعَالَى فِي العَرْشِ تَمْيِيزًا حَصَلَ بِهِ هَذَا، وَلَا مَانِعَ مِنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وَهَذَا القَوْلُ هُوَ ظَاهِرُ الحَدِيثِ، وَهُوَ الـمُخْتَارُ.

وَقَالَ المَازِرِيُّ: قَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَأَنَّ العَرْشَ تَحَرَّكَ لِـمَوْتِهِ.

قَالَ: وَهَذَا لَا يُنْكَرُ مِنْ جِهَةِ العَقْلِ؛ لِأَنَّ العَرْشَ جِسْمٌ مِنَ الأَجْسَامِ يَقْبَلُ الحَرَكَةَ وَالسُّكُونَ.

قَالَ: لَكِنْ لَا تَحْصُلُ فَضِيلَةُ سَعْدٍ ﵁ بِذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ حَرَكَتَهُ عَلَامَةً لِلمَلَائِكَةِ عَلَى مَوْتِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: الـمُرَادُ: اِهْتِزَازُ أَهْلِ العَرْشِ، وَهُمْ حَمَلَتُهُ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الـمَلَائِكَةِ، فَحَذَفَ الـمُضَافَ، وَالـمُرَاد بِالِاهْتِزَازِ: الِاسْتِبْشَارُ وَالقَبُولُ، وَمِنْهُ قَوْلُ العَرَبِ: فُلَانٌ يَهْتَزُّ لِلمَكَارِمِ، لَا يُرِيدُونَ اِضْطِرَابَ جِسْمِهِ وَحَرَكَتِهِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ اِرْتِيَاحَهُ إِلَيْهَا، وَإِقْبَالَهُ عَلَيْهَا.

وَقَالَ الحَرْبِيُّ: هُوَ كِنَايَةٌ عَنْ تَعْظِيمِ شَأْنِ وَفَاتِهِ، وَالعَرَب تَنْسُبُ الشَّيْءَ المُعَظَّم إِلَى أَعْظَمِ الأَشْيَاءَ، فَيَقُولُونَ: أَظْلَمَتْ لِمَوْتِ فُلَانٍ الأَرْضُ، وَقَامَتْ لَهُ القِيَامَة.

وَقَالَ جَمَاعَةٌ: الـمُرَادُ: اِهْتِزَازُ سَرِيرِ الجِنَازَةِ، وَهُوَ النَّعْشُ، وَهَذَا القَوْلُ بَاطِلٌ، يَرُدُّهُ صَرِيحُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا مُسْلِم: (**اهْتَزَّ لِمَوْتِهِ عَرْش الرَّحْمَن**)، وَإِنَّمَا قَالَ هَؤُلَاءِ هَذَا التَّأْوِيل لِكَوْنِهِمْ لَمْ تَبْلُغْهُمْ

هَذِهِ الرِّوَايَات الَّتِي فِي مُسْلِم. وَاللهُ أَعْلَمُ».

[شرح النووي ١٦/ ٢٢ كتاب المناقب باب من فضائل سعد بن معاذ ﵁ رقم ٢٤٦٦].

وروى البخاري بسنده عَنْ جَابِرٍ ﵁: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**اهْتَزَّ العَرْشُ لِمَوْتِ سَعْدِ ابْنِ مُعَاذٍ**».

وَعَنِ الأَعْمَشِ: حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ، فَقَالَ رَجُلٌ لِجَابِرٍ: فَإِنَّ البَرَاءَ يَقُولُ: اهْتَزَّ السَّرِيرُ، فَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ بَيْنَ هَذَيْنِ الحَيَّيْنِ ضَغَائِنُ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**». [**البخاري في المناقب (٣٨٠٣)**].

قال الحافظ في الفتح: «قَوْله: (فَإِنَّ البَرَاءَ يَقُولُ: اِهْتَزَّ السَّرِيرُ) أَيْ: الَّذِي حُمِلَ عَلَيْهِ.

قَوْله: (إِنَّهُ كَانَ بَيْن هَذَيْنِ الحَيَّيْنِ) أَيْ: الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ.

قَوْله: (ضَغَائِن) بِالضَّادِ وَالغَيْن المُعْجَمَتَيْنِ: جَمْعُ ضَغِينَةٍ وَهِيَ الحِقْدُ.

قَالَ الخَطَّابِيُّ: إِنَّمَا قَالَ جَابِرٌ ﵁ ذَلِكَ لِأَنَّ سَعْدًا ﵁ كَانَ مِنَ الأَوْسِ، وَالبَرَاءُ ﵁ خَزْرَجِيٌّ، وَالخَزْرَجُ لَا تُقِرُّ لِلأَوْسِ بِفَضْلٍ.

كَذَا قَالَ، وَهُوَ خَطَأٌ فَاحِشٌ، فَإِنَّ البَرَاءَ ﵁ أَيْضًا أَوْسِيٌّ؛ لِأَنَّهُ اِبْنُ عَازِبِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ مُجَدَّعَةَ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ بْنِ عَمْرِو بْنِ مَالِكِ بْنِ الأَوْسِ، يَجْتَمِعُ مَعَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﵁ فِي الحَارِثِ بْن الخَزْرَجِ، وَالخَزْرَجُ وَالِدُ الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ، وَلَيْسَ هُوَ الخَزْرَجُ الَّذِي يُقَابِلُ الأَوْسَ، وَإِنَّمَا هِيَ عَلَى اِسْمِهِ، نَعَمْ الَّذِي مِنَ الخَزْرَجِ الَّذِينَ هُمْ مُقَابِلُو الأَوْسِ جَابِرٌ ﵁؛ وَإِنَّمَا قَالَ جَابِرٌ ﵁ ذَلِكَ إِظْهَارًا لِلحَقِّ، وَاعْتِرَافًا بِالفَضْلِ لِأَهْلِهِ، فَكَأَنَّهُ تَعَجَّبَ مِنَ البَرَاء ﵁ كَيْف قَالَ ذَلِكَ مَعَ أَنَّهُ أَوْسِيٌّ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا وَإِنْ كُنْتُ خَزْرَجِيًّا، وَكَانَ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ مَا كَانَ، لَا يَمْنَعنِي ذَلِكَ أَنْ أَقُولَ الحَقَّ، فَذَكَرَ الحَدِيثَ.

وَالعُذْر لِلبَرَاءِ ﵁ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ تَغْطِيَةَ فَضْلِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﵁، وَإِنَّمَا فَهِمَ ذَلِكَ فَجَزَمَ بِهِ، هَذَا الَّذِي يَلِيق أَنْ يُظَنَّ بِهِ، وَهُوَ دَالٌّ عَلَى عَدَم تَعَصُّبِهِ.

وَلَـمَّا جَزَمَ الخَطَّابِيُّ بِمَا تَقَدَّمَ اِحْتَاجَ هُوَ وَمَنْ تَبِعَهُ إِلَى الِاعْتِذَارِ عَمَّا صَدَرَ مِنْ جَابِرٍ ﵁ فِي حَقِّ البَرَاءِ ﵁، وَقَالُوا فِي ذَلِكَ مَا مُحَصَّلُهُ: إِنَّ البَرَاءَ ﵁ مَعْذُورٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُل ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ العَدَاوَةِ لِسَعْدٍ ﵁، وَإِنَّمَا فَهِمَ شَيْئًا مُحْتَمَلًا فَحَمَلَ الحَدِيث عَلَيْهِ، وَالعُذْر لِجَابِرٍ ﵁ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ البَرَاءَ ﵁ أَرَادَ الغَضَّ مِنْ سَعْدٍ فَسَاغَ لَهُ أَنْ يَنْتَصِرَ لَهُ، وَاللهُ أَعْلَم.

وَقَدْ أَنْكَرَ اِبْن عُمَرَ مَا أَنْكَرَهُ البَرَاءُ فَقَالَ: إِنَّ العَرْشَ لَا يَهْتَزُّ لِأَحَدٍ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ، وَجَزَمَ بِأَنَّهُ اِهْتَزَّ لَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، أَخْرَجَ ذَلِكَ اِبْنُ حِبَّانَ مِنْ طَرِيق مُجَاهِدٍ عَنْهُ.

وَالمُرَادُ بِاهْتِزَازِ العَرْشِ: اِسْتِبْشَارُهُ وَسُرُورُهُ بِقُدُوم رُوحِهِ، يُقَالُ لِكُلِّ مَنْ فَرِحَ بِقُدُوم قَادِمٍ عَلَيْهِ: اِهْتَزَّ لَهُ، وَمِنْهُ: اِهْتَزَّتْ الأَرْضُ بِالنَّبَاتِ إِذَا اِخْضَرَّتْ وَحَسُنَتْ، وَوَقَعَ ذَلِكَ مِنْ حَدِيث اِبْنِ عُمَرَ عِنْدَ الحَاكِم بِلَفْظِ: «**اِهْتَزَّ العَرْشُ فَرَحًا بِهِ**»، لَكِنَّهُ تَأَوَّلَهُ كَمَا تَأَوَّلَهُ البَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ ﵄، فَقَالَ: اِهْتَزَّ العَرْشُ فَرَحًا بِلِقَاءِ

الله سَعْدًا حَتَّى تَفَسَّخَتْ أَعْوَادُهُ عَلَى عَوَاتِقنَا، قَالَ اِبْنُ عُمَرَ ﵁: يَعْنِي: عَرْشَ سَعْدٍ ﵁ الَّذِي حُمِلَ عَلَيْهِ، وَهَذَا مِنْ رِوَايَةِ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ اِبْنِ عُمَرَ، وَفِي حَدِيثِ عَطَاءٍ مَقَالٌ؛ لِأَنَّهُ مِمَّنْ اِخْتَلَطَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ، وَيُعَارِضُ رِوَايَتَهُ أَيْضًا مَا صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﵁ قَالَ: لَـمَّا حُمِلَتْ جِنَازَة سَعْد بْن مُعَاذ قَالَ الْمُنَافِقُونَ: مَا أَخَفَّ جِنَازَته، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانَتْ تَحْمِلُهُ**» قَالَ الحَاكِمُ: الأَحَادِيثُ الَّتِي تُصَرِّحُ بِاهْتِزَازِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ مُخَرَّجَةٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَلَيْسَ لِـمُعَارِضِهَا فِي الصَّحِيحِ ذِكْرٌ، اِنْتَهَى.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِاهْتِزَازِ العَرْشِ: اِهْتِزَازُ حَمَلَةِ العَرْشِ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ «إِنَّ جِبْرِيل ﵇ قَالَ: **مَنْ هَذَا المَيِّتُ الَّذِي فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَاسْتَبْشَرَ بِهِ أَهْلُهَا**» أَخْرَجَهُ الحَاكِمُ.

وَقِيلَ: هِيَ عَلَامَةٌ نَصَبَهَا اللهُ لِـمَوْتِ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ؛ لِيُشْعِرَ مَلَائِكَتَهُ بِفَضْلِهِ.

وَقَالَ الحَرْبِيُّ: إِذَا عَظَّمُوا الأَمْرَ نَسَبُوهُ إِلَى عَظِيمٍ، كَمَا يَقُولُونَ: قَامَتْ لِمَوْتِ فُلَانٍ القِيَامَةُ، وَأَظْلَمَتِ الدُّنْيَا وَنَحْو ذَلِكَ.

وَفِي هَذِهِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِسَعْدٍ ﵁، وَأَمَّا تَأْوِيلُ البَرَاءِ ﵁ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِالعَرْشِ السَّرِيرَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَيْهِ، فَلَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ فَضْلًا لَهُ؛ لِأَنَّهُ يَشْرَكُهُ فِي ذَلِكَ كُلُّ مَيِّتٍ، إِلَّا أَنَّهُ يُرِيدُ اِهْتَزَّ حَمَلَةُ السَّرِيرِ فَرَحًا بِقُدُومِهِ عَلَى رَبِّهِ فَيَتَّجِهُ.

وَوَقَعَ لِـمَالِكٍ نَحْوَ مَا وَقَعَ لِابْنِ عُمَر ﵄ أَوَّلًا، فَذَكَرَ صَاحِبُ «العُتْبِيَّة» فِيهَا أَنَّ مَالِكًا سُئِلَ عَنْ هَذَا الحَدِيثِ فَقَالَ: أَنْهَاكَ أَنْ تَقُولَهُ، وَمَا يَدْعُو المَرْءَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهَذَا؟ وَمَا يَدْرِي مَا فِيهِ مِنَ الغُرُورِ.

قَالَ أَبُو الوَلِيدِ بْنِ رُشْدٍ فِي «شَرْح العُتْبِيَّة»: إِنَّمَا نَهَى مَالِكٌ لِئَلَّا يَسْبِقَ إِلَى وَهْمِ الجَاهِلِ أَنَّ العَرْشَ إِذَا تَحَرَّكَ يَتَحَرَّكُ اللهُ بِحَرَكَتِهِ، كَمَا يَقَعُ لِلجَالِسِ مِنَّا عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَلَيْسَ العَرْشُ بِمُوضَعِ اِسْتِقْرَارِ اللهِ، تَبَارَكَ اللهُ وَتَنَزَّهَ عَنْ مُشَابَهَةِ خَلقِهِ. اِنْتَهَى مُلَخَّصًا.

وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ مَالِكًا مَا نَهَى عَنْهُ لِهَذَا، إِذْ لَوْ خَشِيَ مِنْ هَذَا لَـمَا أَسْنَدَ فِي «الـمُوَطَّأ» حَدِيث «**يَنْزِلُ اللهُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا**»؛ لِأَنَّهُ أَصْرَحُ فِي الحَرَكَةِ مِنْ اِهْتِزَازِ العَرْشِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَمُعْتَقَدُ سَلَفِ الأَئِمَّة وَعُلَمَاءِ السُّنَّةِ مِنَ الخَلَفِ أَنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عَنْ الحَرَكَةِ وَالتَّحَوُّلِ وَالحُلُولِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَيَحْتَمِلُ الفَرْقُ بِأَنَّ حَدِيثَ سَعْدٍ ﵁ مَا ثَبَتَ عِنْده فَأَمَرَ بِالكَفِّ عَنْ التَّحَدُّثِ بِهِ بِخِلَافِ حَدِيثِ النُّزُولِ، فَإِنَّهُ ثَابِتٌ فَرَوَاهُ وَوَكَّلَ أَمْرَهُ إِلَى فَهْمِ أُولِي العِلمِ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ فِي القُرْآن اِسْتَوَى عَلَى العَرْش، وَنَحْو ذَلِكَ.

وَقَدْ جَاءَ حَدِيثُ اِهْتِزَازِ العَرْشِ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﵁ عَنْ عَشَرَةٍ مِنَ الصَّحَابَة أَوْ أَكْثَر، وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، فَلَا مَعْنَى لِإِنْكَارِهِ. [فتح الباري لابن حجر ٧/ ١٥٥-١٥٦].

وقال السهيلي: «وَذَكَرَ اهْتِزَازَ العَرْشِ وَقَدْ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي مَعْنَاهُ وَظَنُّوا أَنَّهُ مُشْكِلٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الِاهْتِزَازُ هَاهُنَا بِمَعْنَى الِاسْتِبْشَارِ بِقُدُومِ رُوحِهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُرِيدُ حَمَلَةَ العَرْشِ وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الـمَلَائِكَةِ

لا أَنْ يَهْتَزَّ العَرْشُ عَلَى الحَقِيقَةِ، وَلَا بُعْدَ فِيهِ؛ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ وَتَجُوزُ عَلَيْهِ الحَرَكَةُ وَالهَزَّةُ وَلَا يُعْدَلُ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ مَا وُجِدَ إِلَيْهِ سَبِيلٌ، وَحَدِيثُ اهْتِزَازِ العَرْشِ لِـمَوْتِ سَعْدٍ صَحِيحٌ.

قَالَ أَبُو عُمَرَ: هُوَ ثَابِتٌ مِنْ طُرُقٍ مُتَوَاتِرَةٍ، وَمَا رُوِيَ مِنْ قَوْلِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ فِي مَعْنَاهُ: أَنَّهُ سَرِيرُ سَعْدٍ ﷺ اهْتَزَّ، لَمْ يَلتَفِتْ إِلَيْهِ العُلَمَاءُ، وَقَالُوا: كَانَتْ بَيْنَ هَذَيْنِ الحَيَّيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ ضَغَائِنُ.

وَفِي لَفْظِ الحَدِيثِ: «**اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ**» رَوَاهُ أَبُو الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ يَرْفَعُهُ، وَرَوَاهُ البُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ وَأَبِي سُفْيَانَ، كِلَاهُمَا عَنْ جَابِرٍ، وَرَوَاهُ مِنَ الصَّحَابَةِ جَمَاعَةٌ غَيْرُ جَابِرٍ، مِنْهُمْ أَبُو سَعِيدٍ الخُدْرِيُّ، وأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَرُمَيْثَةُ بِنْتُ عَمْرٍو، ذَكَرَ ذَلِكَ التِّرْمِذِيُّ.

وَالعَجَبُ لِمَا رُوِيَ عَنْ مَالِكٍ ﷺ مِنْ إِنْكَارِهِ لِلحَدِيثِ، وَكَرَاهِيَتِهِ لِلتَّحَدُّثِ بِهِ مَعَ صِحَّةِ نَقْلِهِ وَكَثْرَةِ الرُّوَاةِ لَهُ، وَلَعَلَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ لَمْ تَصِحَّ عَنْ مَالِكٍ. وَاللهُ أَعْلَمُ». [**الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣٤٠-٣٤١**].

وقال ابن سيد الناس: «قلت: هذا يقتضي أن يكون إنكار مالك محمولًا عنده على أمر عنده يرجع إلى الإسناد، وليس كذلك، بل قد اختلف العلماء في هذا الخبر: فمنهم من يحمله على ظاهره، ومنهم من يجنح فيه إلى التأويل.

وما كانت هذه سبيله من الأخبار المُشكلة فمن الناس من يكره روايته إذا لم يتعلق به حكم شرعي، فلعل الكراهة المروية عن مالك من هذا الوجه. والله أعلم». [**عيون الأثر لابن سيد الناس ٢/ ١١٥-١١٦**].

ويقول الشيخ الوكيل: «وأقول: دين السلف: إذا ثبت النص ثبوتًا لا اختلاف عليه، فإنه لا يجوز تأويله تأويلًا يفسد معناه، أو يجرده من حقيقته، وإنما يجب حمله كما ورد دون تشبيه لما نُسب إلى الله من صفة أو اسم أو فعل بما يُنسب إلى الخلق من ذلك، فلله مثلًا يدان حقيقيتان ليستا هما النعمة أو القدرة أو غير ذلك مما يهرف به المعطلة، لكنهما ليستا كيد الخلق، وإذا كانت أيدي البشر لا تتشابه، فكيف نُشبِّه يد الخالق بيد الخلق، فنقع في وصف الله بأنه عدم حين نُجرد صفاته من معانيها، أو بأنه صنم حين ننسب إليه عين ما ننسبه إلى الخلق، تعالى الله عن هذا علوًّا كبيرًا». [**الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣٢٢ هامش ٢، وينظر للتفصيل: مسائل العقيدة المستنبطة من غزوة بني قريظة للدلو ١٦٨-١٧٦**].

١٧ ـ إثبات الكرامات في هذا الدين:

يقول د/ أبو فارس: «وما حدث لسعد ﷺ من كرامات في حياته من استجابة الله دعاءه، وبعد موته، من حَمْل الملائكة في جنازته، وسَيْرها فيها، واهتزاز العرش لموته أدلة شرعية صحيحة على وجود الكرامات واعتبارها في هذا الدين لأولياء الله الصالحين.

هذا ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُنكر وجود الكرامات في هذا الدين، ما دامت قد قامت الأدلة الصحيحة من السنة النبوية على الإخبار بها وبحدوثها.

ولكن ينبغي أن يفرق بين هذا وبين إنكار إنسان على شخص وعدم تصديقه بكرامة زعمها لنفسه، خاصة إذا كان ليس ثقة في دينه أو عدلًا في نقله أو ليس موثوقًا في عقله، وخاصة إذا كان هذا العمل الذي يزعم أنه كرامة جاء بعد عصور خير القرون، فتجد كثيرًا من الناس يتوسعون في هذا، ويتوهمون هذا، ويتخيلون هذا، وربما ذكروا وزعموا حدوث كرامات لهم، وهي تتنافى مع أصول العقيدة».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٣٣].

١٨ ـ إثبات عذاب القبر:

يقول د/ أبو فارس: «ومن الأمور التي تحدث للميت في الحياة البرزخية ـ أي الفترة الواقعة بين موته وبين بعثه يوم القيامة ـ ضغطة القبر ـ وهي مؤلمة ـ بهذا جاءت الأخبار الصحيحة، فقد مر خبر سعد بن معاذ ﷺ، وكيف ضمه القبر ضمة ثم فرج عنه، وهذا الخبر ذكره ابن كثير، وقال: إسناده جيد.

وهذه الضغطة أو الضمة أخبر النبي ﷺ أنه لا ينجو منها أحد من المسلمين الصالحين، ولو كان أحد ينجو منها لنجا سعد بن معاذ ﷺ.

وهذه الضغطة غير فتنة القبر التي يُعفى منها الشهيد، فتأمل». **[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٣٣-١٣٤، وينظر للتفصيل: مسائل العقيدة المستنبطة من غزوة بني قريظة للدلو ١٧٨-١٨٨].**

١٩ ـ الأخذ بالأسباب:

يقول د/ أبو فارس :«نتعلم من هذه الغزوة وغيرها الأخذ بالأسباب ثم التوكل على الله تبارك وتعالى، فحينما قرر رسول الله ﷺ أن يسير إلى حرب بني قريظة لبس درعه ومغفره والجحفة وتقلد سيفه، وتناول رمحه بيده، قد دُجِّج بالسلاح كما ترى، وهو نبي قد تكفل الله بحمايته، وعصمته من الناس حتى يبلغ دين الله للناس.

فالدين الإسلامي يُعلِّم أصحابه كيف يأخذون بالأسباب، ويبذلون جهدهم ويفرغون كل ما في وسعهم من طاقة، ثم يتوكلون بعد ذلك على الله، يفوضون أمرهم إليه، فهو نعم المولى ونعم النصير».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٥٩-٦٠].

٢٠ ـ لا إكراه في الدين:

الإسلام لا يُكره أحدًا على اعتناقه، فقد دعا رسول الله ﷺ ريحانة ﵂ إلى الإسلام فأبت أن تُسلم، وبقيت مدة لم تعتنق الإسلام، فلم يكرهها رسول الله ﷺ على ذلك، بل تركها وشأنها.

والإسلام يضمن لكل متدين دينه وعقيدته ولا يُضيِّق عليه، وهذا ما يُسمى في العصر الحديث بحرية العقيدة والتدين، وهكذا عوملت ريحانه.

وكان سرور الرسول ﷺ بإسلام ريحانة ﵂؛ لأنها أُنقذت من النار».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٧-١١٨].

٢١ ـ العرض القرآني للغزوة:

يقول أ/ شقرة: «وجاء ذكر غزوة بني قريظة في سورة الأحزاب في آيتين فقط: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

وتطوي هاتان الآيتان أحداث الغزوة العديدة التي رسمتها أقدام الصحابة وحوافر خيلهم على طول الطريق من المدينة إلى منازل بني قريظة، وحول أسوار حصونهم المنيعة المنيفة، والكلمات التي رددتها ألسنتهم، والأصوات التي تردد صداها في أرجاء الأرض المنبسطة حول تلك الحصون، والتدبير العقلي المسدد بالوحي السماوي، والدعوات التي جأرت بها قلوب الصحابة المتدفقة حبًّا لله وللرسول، المفعمة بالشوق الكبير إلى الجهاد في سبيل الله، وصورة سعد بن معاذ ﷺ سيد الأوس وهو ينهض من قبته داخل المسجد، فيمتطي حمارًا ليلتحق برسول الله ﷺ، فيقول كلمة الفصل في يهود بني قريظة، التي توافق حكم الله من فوق سبع سموات: «**إِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ، وَأَنْ تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ وَالنِّسَاءُ، وَتُقْسَمَ أَمْوَالُـهُمْ**».

كل هذا وغيره مما أوجز ابن كثير ﷺ مما هو مبسوط مطول في كتب السيرة أحكمته الآيتان في تسع وعشرين كلمة، فأي إعجاز هذا الذي رسم بتلك الكلمات التسع والعشرين صورة معركة بكاملها، من تدبير، وزحف، وحصار، وإنزال من الحصون، وأسر، وقتل، ومصادرة للأموال، واستيلاء على الأرض.

وتُسرع الآيتان في ذكر النتيجة التي تولَّى الله سبحانه بنفسه تحقيقها كما تولى تحقيق نتيجة الغزوة التي قبلها ـ غزوة الأحزاب ـ ويطوي ما قبلها كله؛ لأن العبرة بالغايات والنتائج، والغزوات كلها غايتها واحدة، وهي التمهيد لإعلاء كلمة الله في الأرض.

ولأهمية النتيجة ـ التي حرص عليها القرآن ليُنهي نبأها إلى أسماع الأجيال القادمة، فتفرح بما نال أسلافها، وتطمع في مثل ما وصلوا إليه ـ يؤخر شيئًا مهمًّا جدًّا له أثر كبير في إحراز مثل هذه النتيجة وهو: الخوف الذي ملأ قلوب أولئك اليهود: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، والتعبير القرآني بكلمة: ﴿وَقَذَفَ﴾ تعبير تصويري رائع، فقد جعل الرعب شيئًا يُقذف، صوَّبه إلى القلب، والقلب إذا أُصيب أودى إلى الموت، وقد كان ذلك، فقد استسلموا، وأنفذ فيهم الرسول ﷺ حُكم سعد بن معاذ ﷺ، ومن بقي أُجلي عن أرضه، فأقفرت من أهلها، فلم يبق أثر لشيء إلا ما بقي من أثر الموت.

ولم يذكر القرآن بني قريظة صراحة، وإنما قال: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، أي: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب الرسول ﷺ، ولعل التكنية عنهم بقوله: ﴿ظَـٰهَرُوهُم﴾ إشعارًا بالعلاقة الوثيقة بين الغزوتين: غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة، وإعلامًا بأن الثانية كانت نتيجة من نتائج الأولى، وأثرًا من آثارها.

والجزاء من جنس العمل، فكما أن اليهود مالؤوا المشركين، وتظاهروا على إخافة المسلمين في غزوة الأحزاب، فإن الله سبحانه رد هذه الإخافة إلى بني قريظة، وملأ قلوبهم رعبًا، فلم تفلح حصونهم المنيعة في رد الرعب عنهم، وأهبطهم الخوف منها، فأُسيموا ذُل الأسر، وأُذيقوا ألم التقتيل، ولبث الموت فيها مليًّا يتربص بمن تحدثه نفسه العودة إليها، وليس شيء آلم للنفس من فراق الإنسان أرضه التي وُلد عليها، وترعرع فوقها، فأُخذت منهم أرضُهم، وصارت تحت يد الإسلام إلى قيام الساعة إن شاء الله، وأُودعت قلوب من بقي منهم حيًّا حسرة، وتحرك فيها حشرجة الموت في كل لحظة من لحظات حياتهم التي عاشوها، ولم تفارقهم إلا حين قبضتهم يد الموت إليها.

لكن ماذا يقول المسلمون اليوم وهم يسمعون كبراء يهود فلسطين يرتلون في حزن وشقٍّ أنّات أجدادهم شوقًا إلى أرضهم الأولى على أفواه البنادق والرشاشات والمدافع، وفي هدير أصوات الدبابات والجرافات والطائرات؟!

وما من شك أن حصون بني قريظة هذه لو بقيت، وبقي فيها المكر اليهودي يرسل شواظه الخفي على المسلمين في المدينة، لكان أمرٌ لا يدرك إلا بعد وقوعه، ولاستطاع المشركون أن يُعيدوا الكرة على المدينة بالتواطؤ مع يهود بني قريظة، فتقع في قبضتهم، ويوأد الإسلام في مهده قبل أن يستوي على سوقه، ولكن الله سلَّم، وسُقط في أيدي اليهود كما سُقط في أيدي الأحزاب من قبل، ورأى المؤمنون بأم أعينهم المعجزة السماوية تتجلى في بهاء واستعلاءٍ، يظهرها الله سبحانه لأوليائه ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وتطمئن قلوبهم بنصر الله الذي أحرزوه بفضل الله وحده، بعد أن علم منهم الإعداد للقتال، والعزم على بلوغ الغاية وتحقيق النتيجة مهما كلفهم ذلك من ثمن، فأنالهم إياه كرامة لهم بجهد قليل.

ولم تكن غزوة بني قريظة بتدبير من الرسول ﷺ، ولا بمشورة أحد من الصحابة، بل كانت بأمر من الوحي، أعقبت غزوة الأحزاب، بعد جهد نفسي وبدني ضخم بذله الرسول ﷺ وأصحابه في حفر الخنادق، والسهر المتواصل، والحذر البالغ، والترقب والفزع الشديدين، فكان أمر الوحي بها إيذانًا من الله بالنتيجة التي انتهت إليها؛ لذلك خف الصحابة رضي الله عنهم إليها في غير تردد، ولم يكن الجهد النفسي والبدني الذي بذلوه في الخندق ليُقعدهم، بل كان حافزًا لهم على الإسراع في إنجاز ما طلبه الرسول ﷺ منهم، أوفوا به على شرف النصر، وأخافوا به عرب الجزيرة الذين لم يكن عندهم من وسائل الدفاع والقتال ما عند أولئك اليهود، وأوقعوا في قلوبهم الرعب، وأضعفوا شوكة المشركين، ولا شك أن نتيجتي الغزوتين مجتمعتين (الأحزاب وبني قريظة) ـ على قرب العهد بينهما ـ أمضيا أمرًا على مشركي الجزيرة لم يكن في حسبانهم ألبتة، كان له ـ في ظني ـ دور في تخفيف الوطأة عن المسلمين في المدينة، وتوهين قوتهم ولفت

أنظارهم إلى التفكير في أمر القوة التي أصبح لها ذلك الشأن الخطير فوق أرض الجزيرة، بحيث صارت تتابع الحرب في بأس لم يكن لهم به عهد ـ ولم يكن ليخطر في بالهم أن يكون ـ لأنهم كانوا يحسبون الأشياء حسابًا رقميًّا ماديًّا محضًا، وينشؤونها إنشاءً قياسيًّا يخضع للكم وحده.

ولست هنا بصدد المقارنة والمقايسة بين الماضي وبين الحاضر، لأسوق النبأ للناس من بعدي ما كان من أمر المسلمين مع اليهود في فلسطين، والخوف منهم الذي أحاط بالمسلمين في كل أرض، والإمعان في الذل على أيدي بقية بني قريظة والنضير وقينقاع، والمؤامرات الدنيئة التي كان يتسابق إليها الكبراء إرضاء لسادتهم سدنة البيوت البيضاء والحمراء والسوداء، فإن التاريخ قد أوعب ذلك وغيره ليُظهر عليه الأجيال في غير مَنٍّ ولا أذى، وفي غير تبرير وكذب ومَين، وسيعلم أولئك أي منقلب ينقلبون: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)﴾ [المعارج]، فلنترك نبأهم للتاريخ، فليعلمن نبأهم بعد حين». [**السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٤٠١-٤٠٢**].

المبحث الثاني
الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ قضية حياة أو موت:

يقول أ/ فتح الباب: «لم يكد المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ ينصرفون إلى تنظيم حياتهم في الحياة آمنين مطمئنين حتى تواردت أنباء عيونهم وأرصادهم عن احتشاد المشركين من قريش لقتالهم بتحريض من بني قينقاع وبني النضير الموتورين الذين قاموا بالدور الرئيس في تجميع شمل القبائل المعادية للانقضاض على محمد ﷺ وأصحابه بالمدينة؛ أخذًا بالثأر وقضاء على الدعوة التي هدمت مصالحهم التجارية والسياسية وأصبحت تنتشر في الجزيرة العربية يومًا بعد يوم حتى لتوشك أن تحاصر قريشًا وحلفاءها ثم تقضي عليهم، وكانت غزوة الخندق التي نصر الله فيها المؤمنين نصرًا عزيزًا، وباء المشركون واليهود بخذلان مبين.

وقد سبق أن ذكرنا في تحليل هذه الغزوة ما كان من أمر يهود بني قريظة بعد تفكير الأحزاب في الانسحاب، إذ نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ والمسلمين، وكادوا أن يُعرِّضوهم لهزيمة مُرة لولا ثبات المؤمنين وكشفهم في الوقت المناسب خيانة اليهود، فليس من الحكمة أن ينجو هؤلاء من العقاب بعد فرار الأحزاب وعودة النبي ﷺ وصحبه منتصرين إلى ديارهم، لا ردعًا وزجرًا لهم فحسب بل تأمينًا للوطن والعقيدة.

فهم لا شك عائدون إلى مؤامراتهم بما جُبلوا عليه من طباع الحقد والجحود والخيانة ومن ثم أهدر رسول الله ﷺ دماء بني قريظة وأمر أن يتجهز المسلمون لمهاجمتهم، والقضاء عليهم، ونادى مناديه: «**مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا، فَلَا يُصَلِّيَنَّ العَصْرَ إِلَّا بِبَنِي قُرَيْظَةَ**».

وهرع المسلمون إلى الجهاد، واجتمعوا عند ديار اليهود فوجدوهم يهجون النبي ﷺ ويلقون فاحش القول في نسائه، وهم معتصمون بقلاعهم الحصينة، وأقبل النبي ﷺ يتحداهم ناعتًا إياهم بإخوان القردة، ناعيًا عليهم أن الله أخزاهم وأنزل بهم نقمته، فلم يجترؤوا على الرد عليه.

ثم حاصرهم المهاجرون والأنصار حصارًا دام خمسًا وعشرين يومًا وليلة تخللها بعض التراشق بالسهام والحجارة حتى يئس اليهود وأيقنوا أنهم هالكون لا محالة ولا حول لهم ولا قوة في مواجهة عزمات فولاذية أرهفها الإيمان ولن تحيد عما انعقدت عليه مهما طال أمد الحصار حتى يستسلم بنو قريظة.

هنالك انخلعت قلوب أولاد الأفاعي ـ كما وصفهم المسيح ﷺ ـ وغشَّاهم الذعر، فاستجاروا بأبي لبابة ﷺ من أصحاب الرسول ﷺ وكان من الأوس حلفائهم وبكت نساؤهم بين يديه، فنصحهم أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وانتهت مشاوراتهم إلى التسليم فعرضوا على النبي ﷺ أن يخرجوا إلى أذرعات تاركين أموالهم فأصر على أن يستسلموا بلا قيد ولا شرط، واستشفع فيهم الأوس فعرض

عليهم أن يحكِّموا واحدًا منهم يختاره اليهود ويرتضي الطرفان بقضائه، فاختاروا سعد بن معاذ ﷺ، وكان قد حضر نقضهم عهد المسلمين وإطلاقهم أقبح الهجاء في النبي ﷺ، وحذَّرهم فلم يتعظوا، فأمر بأن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح، فأذعنوا، فحكم بأن يُقتل المقاتِلون منهم، وتقسم الأموال، وتسبى الذرية والنساء.

ونُفِّذ الحكم، وهو قصاص عادل، وجزاء من جنس العمل، فلو أن قريشًا وحلفاءها قد انتصروا بخيانة بني قريظة لأجهزوا على المسلمين ولم يُبقوا منهم أحدًا، وهم لا شك فاعلون ذلك لو أتيحت لهم الفرصة، فما فعله المسلمون كان أمرًا لابد منه، وكان دفاعًا عن الحرية والأمن والعقيدة، كان قضية مصير». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٢٢٣-٢٢٥].

٢ ـ الحزم مع أهل الغدر والخيانة:

يقول الشيخ عبيد: «بنو قريظة قبيلة يهودية تحركت بكل ما لديها ولم ترع ذمة الجوار ولم تحافظ على شروط المعاهدة المبرمة مع رسول الله ﷺ ومعهم والتي تنص على «وجوب التزام الفريقين بالتعايش السلمي والتعهد بعدم اعتداء أحدهما على الآخر»، وكان المفروض طبقًا «لهذه المعاهدة» أن ينضم يهود بني قريظة إلى جانب المسلمين للدفاع عن المدينة عندما أحاطت بها جيوش الأحزاب، لكن الذي حدث من بني قريظة غير ذلك فقد أعلنوا انضمامهم إلى الغزاة المعتدين في تلك الأيام الرهيبة التي كان فيها مصير كل الكيان الإسلامي في مهب العاصفة، وهذا غدر من بني قريظة بحلفائهم المسلمين.

لكن اليهود لم يبالوا بشرف الكلمة، ولا بتوقيعهم على معاهدة التحالف، ولا مقدرين لما يترتب على ذلك الغدر الشنيع من نتائج خطيرة أساسها الغدر والخيانة في حالة الحرب، ثم هم لم يستجيبوا لأحد زعمائهم «كعب بن أسد» الذي ذكَّرهم «بأنهم لم يروا من النبي ﷺ وأصحابه إلا الصدق والوفاء بالعهد والوقوف بشرف عند الكلمة التي أعطوها للمسلمين في عهد التحالف»، لكن من الذي يستجيب لهذا النداء العاقل لواحد منهم، لكن الأحداث دائمًا كانت تدل على خبث معدنهم وعلى ما تأصل فيهم من لؤم ونذالة، وأن العهود والمواثيق عندهم لا قيمة لها ولا احترام، ولقد أراد الرسول ﷺ وهو الكريم السمح الوفي بالعهد محاولة إصلاح اليهود فأرسل إليهم وفدًا بقيادة سعد بن معاذ ﷺ فذكَّرهم ونصحهم وحذرهم مغبة الإصرار على السير في طريق الغدر والخيانة، إلا أنهم ردوا عليه ردًّا قبيحًا وأعلنوا أنهم لن يتراجعوا عن محالفتهم للأحزاب، وأنهم لا يعرفون محمدًا ﷺ، وبالتالي فليس هناك عهد ولا حلف، ثم إنهم بدأوا يستعدون للهجوم على المسلمين من الخلف طبقًا للخطة المتفق عليها مع الأحزاب.

إلا أن الحق ﷻ أفسد تخطيط هؤلاء جميعًا: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب].

إذًا هل ينتهي الموقف دون مساءلة اليهود على ما ارتكبوه؟

المفروض أن تكون هناك تصفية حساب، وهذا ما يرشد إليه العقل السليم فلابد من محاسبة يهود بني قريظة على خيانتهم وغدرهم؛ لأنهم بدل أن ينضموا مع المسلمين ليدافعوا عن المدينة كان العكس منهم حاولوا ضرب المسلمين من الخلف.

بهذا المسلك وبهذا الأسلوب فإن بني قريظة يمثلون جناحًا عسكريًّا ضد المسلمين في وقت الحرب، وهي جريمة حربية وخيانـة عظمى، وإذا كان الأحزاب قد ولوا مدبرين إلى مكة وهما «قريش وغطفان»، فإن الجناح الثالث وهم اليهود سجلوا بصنيعهم أخس وأشنع جريمة في تاريخ الخيانة والغدر.

لهذا خرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه لم يستريحوا بعد». [**غزوة الأحزاب لعبيد ٤٨-٤٩**].

ويقول عميد/ فرج: «لعب اليهود دورًا خطيرًا خلال غزوة الخندق... دورًا كاد يودي بالمسلمين وبالإسلام لولا رعاية الله تبارك وتعالى لدينه ولرسوله وللمؤمنين به.

لقد نكثوا عهدًا بينهم وبين رسول الله ﷺ في وقت لم يجدوا فيه من المسلمين غير الوفاء العظيم الذي اعترف به كعب بن أسد في قوله لحيي بن أخطب: «**فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً**»، والذي دعا بعضًا منهم إلى نصح البعض الآخر وحيي يراودهم على نقض العهد: «**إِذَا لَمْ تَنْصُرُوا مُحَمَّدًا فَدَعُوهُمْ وَعَدُوَّهُمْ**».

لقد نقضوا الميثاق بينهم وبين النبي ﷺ، وحسبوها فرصة للقضاء عليه فتصبح المدينة لهم، وكان نقضهم للعهد وانضمامهم للأحزاب هو الثغرة التي أُتي منها المسلمون، كانوا في مواقعهم نقطة الضعف التي يخشى منها المسلمون أن ينزل بهم أمر يكرهونه ولم يعد جوارهم مأمونًا، ولا سلمهم مكفولًا، ولا وعدهم مضمونًا.

وكان لا بد من اتخاذ موقف حازم معهم حتى تأمن المدينة شرهم، وكان لا بد من وجهة نظر الأمن العسكري تأمين مستقبل المسلمين من شرهم وغدرهم، فلم يكن من المقبول أن يُتركوا في المدينة إلى جوار المسلمين يطلعون على أسرارهم ويذيعونها لدى أعدائهم، ويبذلون المحاولة وراء الأخرى لتحريك القوى ضدهم.

إذن كان من الضروري مراجعة الحساب معهم، كما قال إميل درمنجم صاحب كتاب (حياة محمد): «**إنه كان من الصعب ألا يصفي المسلمون حسابهم مع بني قريظة، اليهود الذين انحازوا إلى العدو أيام غزوة الأحزاب**». [**العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٩٩**].

ويقول أ/ دويدار: «على أن هذا الغدر الذي أوشك أن يكون فيه فناء دولة الإسلام، لم يكن له من سبب يدفع إليه إلا الحفيظة الكامنة في نفوس اليهود على المسلمين، فقد كان المسلمون مقيمين على الوفاء والصدق في عهدهم لبني قريظة، حتى لقد كان هذا الوفاء والصدق هو الحجة البالغة، التي حاول كعب

ابن أسد أن يحتج بها على حيي بن أخطب، وهو يراوده على نقض العهد مع رسول الله ﷺ، إذ يقول له: «**وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً!**»، فلو أنه كان هناك من جانب المسلمين سبب يدعو بني قريظة إلى هذا الغدر، لكان لهم شيء من العذر فيما فعلوا، فكيف وهو الغدر الذي يجزي على الصدق والوفاء..؟ وكيف وهو الغدر الذي كان فيه القضاء على دولة بأكملها، وعلى دين الحق الذي أرسل به خاتم النبيين ليظهره على الدين كله...؟ وكيف وقد كان العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ يقضي عليهم أن يدافعوا مع المسلمين عن مدينتهم، لا أن يخونوهم ويغدروا بهم في أصعب الظروف وأشدها حرجًا...؟

الحق أن عمل بني قريظة هذا لم يكن نقضًا لعهودهم وحسب، بل كان غدرًا وخيانة في وقت معًا، حتى لقد استنكره رجال من رجالهم وهم يتحاورون فيما جاءهم به حيي بن أخطب، فقالوا: «**إِذَا لَمْ تَنْصُرُوا مُحَمَّدًا فَدَعُوهُمْ وَعَدُوَّهُمْ**»، ثم هو فوق ذلك غدر دنيء، وخيانة سافلة؛ لأنه طعن من الخلف لمن أدار إليك ظهره وهو واثق بك، مطمئن إلى أمانتك ومروءتك.

ماذا يكون جزاء الذين يغدرون هذا الغدر في عرف القانون الدولي؟ وماذا يكون جزاؤهم في عرف الدين والحق والعدالة المطلقة؟ أيكون من الظلم أن يُوقع بهم جزاء مثل ما فعلوا، وأن يصنع بهم ما كانوا يريدون أن يصنعوا بغيرهم؟ لا شك أن هذا جزاء طبيعي تقره الأديان كلها، وتقره قوانين الحرب قديمها وحديثها، ويقره منطق الحق والعدل والمروءة، فهل على المسلمين من حرج إذا هم حاصروا هؤلاء الغادرين حتى أسلموا لهم، ثم أبادوهم كما كانوا يريدون أن يبيدوهم؟ وهل كان من الممكن أن يأمن المسلمون جانب اليهود بعد ذلك، وأن يتركوهم جاثمين إلى جوارهم يطلعون على أسرارهم ويذيعونها بين أعدائهم؟ وهل كان من الحزم أن يخرجوهم كما أخرجوا بني النضير من قبل، فيذهبوا في الأرض طلقاء أحرارًا، يؤلبون عليهم القبائل ويحزبون الأحزاب، ويجمعون لهم الجموع ليغزوهم في عقر دارهم، كما فعل بنو النضير في غزوة الخندق، وهي الغزوة التي أوشكت أن تعصف بالإسلام وأهله، والتي لم ينجُ المسلمون منها إلا بمعجزة؟

لقد كان من الطبيعي جدًّا أن يصفي المسلمون حسابهم مع أولئك الخونة الغادرين، وأن يكيلوا لهم بنفس الكيل الذي أرادوا أن يكيلوا به لهم». [**صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٤٣٣-٤٣٤**].

٣ـ ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد:

يقول الشيخ الغزالي: «صدع الرسول ﷺ بالأمر وشدَّد على المسلمين أن يسارعوا في إنفاذه، روى البيهقي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُصَلُّوا صَلَاةَ العَصْرِ حَتَّى تَأْتُوا بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فَغَرَبَتِ الشَّمْسُ قَبْلَ أَنْ يَأْتُوهُمْ، فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُرِدْ أَنْ تَدَعُوا الصَّلَاةَ

فَصَلَّوْا؛ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: وَاللهِ إِنَّا لَفِي عَزِيمَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا عَلَيْنَا مِنْ إِثْمٍ، فَصَلَّتْ طَائِفَةٌ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَتَرَكَتْ طَائِفَةٌ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَلَمْ يَعِبِ النَّبِيُّ ﷺ وَاحِدًا مِنَ الفَرِيقَيْنِ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/٨-٩].

وذلك يمثل احترام الإسلام لاختلاف وجهات النظر ما دامت عن اجتهاد بريء سليم، والناس غالبًا أحد رجلين: رجل يقف عند حدود النصوص الظاهرة لا يعدوها، ورجل يتبين حِكمتها ويستكشف غايتها، ثم يتصرف في نطاق ما وعى من حِكمتها وغايتها ولو خالف الظاهر القريب.

وكلا الفريقين يشفع له إيمانه واحتسابه، سواء أصاب الحق أو ندَّ عنه، ومن العلماء من أهدر الوقت المعيَّن للصلاة بعذر القتال، وذلك مذهب البخاري وغيره، وهذا ـ عندي ـ أدنى إلى الصواب.

إنَّ ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد من أهم ما يحدِّد رسالة المسلم في الحياة، بل إنه لا يَفهم دينه فهمًا صحيحًا إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب.

إن الإسلام تعاليم وأعمال شتى، فيها الفرائض وفيها النوافل.

ولابد أن نعلم أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة، فالرجل الذي يستكثر من أعمال التطوع في الوقت الذي يهمل فيه فرائض لازمة رجل ضال.

والفرائض المطلوبة لحفظ الإيمان كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم.

وكما أن الجسم لا يقوم بالمواد النشوية وحدها، أو الزلالية وحدها، بل لابد من استكمال جمل منوعة من الغذاء، وإلا تعرض الجسم لعلل قد تنهكه أو تقتله؛ فكذلك الدين، إنه لا قيام له في كيان الفرد أو في صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض الملونة، تصون حياته وتضمن عافيته ونماءه.

وعلى المسلم أن يقسم وقته وأن ينظمه على هذه الفرائض المطلوبة، فلا يشغله واجب عن واجب، وبالأحرى لا تشغله نافلة عن واجب!

وقد رأى رسول الله ﷺ أن مباغتة بني قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم ويقووا حصونهم، هو الواجب الأول في تلك الساعة فلا ينبغي أن ينشغل المسلم عنه ولو بالصلاة، فحدود وقت الصلاة تذوب أمام ضرورات القتال.

ونستطيع ـ على ضوء هذا الإرشاد النبوي ـ أن نحكم على مسالك المسلمين اليوم، إنَّ المدرس الذي ينشغل عن تعليم تلامذته، والتاجر الذي ينشغل عن تثمير ثروته، والموظف الذي ينشغل عن أداء عمله، لا يقبل الله من أحدهم عذرًا أبدًا في تضييع هذه الفرائض، ولو كان أحدهم قد عاقه عن واجبه أنه صلى مائة ركعة، أو قرأ ألف آية، أو عدَّ أسماء الله الحسنى سبعين ألف مرة، كما يفعل جُهَّال المتصوفة.

ذلك أنه انشغال عن الفرائض المطلوبة بنوافل لم تطلب، وتعطيل لأمة يستحيل أن تنهض إلا إذا أجهدت نفسها في محاربة جهلها وفقرها وفوضاها.

والجهاد العام فريضة لا يغض من قدرها شيء، ولا يزاحمها على وقتها عبادة كما رأيت».

[فقه السيرة للغزالي ٣٢١-٣٢٣].

٤ ـ اليهود أصحاب مكر وفتنة وغدر:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما نطقت به أحداث الصفحات القليلة الماضية، وإذا كان الأمر كذلك فلا يطمأن إليهم، ولا يؤمن جانبهم، ولا يوثق بعهد يقطعونه على أنفسهم، أو يعطونه لغيرهم.

إن الذي يدفعهم لإشعال نار الفتنة وتأجيجها، وتسعير أوارها هو الحقد على الرسول ﷺ والحسد الذي أكل قلوبهم، وأثار حفيظتهم، فأعماهم عن الخير ورؤيته، وحال بينهم وبين الرأي السديد، والفكر الصائب، والموقف السليم.

إنهم يحرِّضون القبائل الوثنية المشركة على الفئة الإسلامية المؤمنة الموحدة، ويتعاونون مع كل عدو لها ويبغي شرًّا للمسلمين.

فها هو ذا حيي بن أخطب يقود وفدًا من اليهود للاتصال بالقبائل لحرب الرسول ﷺ، ولم يتعظ بما حدث له ولقومه بني النضير من تكتيف الرسول ﷺ لهم لضرب أعناقهم، ثم عفا عنهم، كان الأولى بحيي أن يذكر فضل الرسول ﷺ عليه ويكف عن معاداته ومعاداة صحابته رضوان الله عليهم أجمعين، ولكن صاحب الفتنة الحاقد الحاسد لا يتوقف عنها؛ لأنها تغلغلت في أعماقه، وفي شرايينه، فقام بما قام به؛ ولقي جزاءه العادل في نهاية المطاف.

ومن دراسة التاريخ اليهودي تجد خصلة الحقد والحسد متوافرة عند الغالبية العظمى من اليهود، وقلما تجد يهوديًّا لا يتصف بالحسد والحقد والكره للإسلام والمسلمين». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٢٣].

ويقول د/ أبو فارس أيضًا: «فقد يُظهرون مسالمة الناس، وهم يبحثون في الخفاء عن وسائل تدميرهم للعمل بها، في وقت يُطمئنون الناس أنهم يريدون السلم والسلام.

تأمل كيف يرسل زعيم بني قريظة من يفاوض رسول الله ﷺ على الصلح وهو لا يتوقف عن التفكير في كيفية الانقضاض على المسلمين بخديعتهم، ويقترح على اليهود أن يشنوا هجومًا على المسلمين في يوم السبت، يوم عيد اليهود، وقد مُنعوا من القتال فيه، بل من الصيد والعمل، كما اختاروا هذا لأنفسهم، ولكنهم لم يصبروا على ذلك، فجعلهم الله قردة.

إنه يقول لهم: إن المسلمين الآن غير متأهبين للقتال؛ لأنهم يعلمون أننا لا نقاتل يوم السبت، فهيا نفاجئهم بهجوم ساحق، ولكنهم جبناء قد انهاروا تمامًا، لا قدرة لهم على القتال، فعارضوا كعب بن أسد لا لحفاظهم على سبتهم، وإنما لأن الخوف قد أخذ عليهم كل مأخذ، ودب الذعر في نفوسهم فلا يقوون على مجابهة المسلمين». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٦١-٦٢].

٥ ـ ما يستفاد من أحداث الحصار:

١ ـ **الجزاء العادل**: إن بني قريظة قد نقضوا العهد مع المسلمين، وغدروا بهم، وأرادوا أن يطعنوا الدولة التي حمت أموالهم ودماءهم وأعراضهم سنين عدة، فمن المنطق العادل أن ينالوا العقوبة التي يستحقونها جزاءً وفاقًا لما اقترفوه.

٢ ـ أن الأمر بقتال بني قريظة كان وحيًا وليس باجتهاد أحد، يدلك على ذلك حديث جبريل عليه السلام المتقدم، جاء في بعض ألفاظه: **يَا مُحَمَّدُ! إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَسِيرَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنِّي عَامِدٌ إِلَيْهِمْ فَمُزَلْزِلٌ بِهِمْ حُصُونَهُمْ**.

٣ ـ أن يكون قتال بني قريظة بوحي من السماء يدلك هذا على خطورتهم، وضرورة الإسراع في علاجهم، وعدم التواني في عقوبتهم، والسير إليهم وحربهم، والقضاء عليهم قبل أن يستفحل خطرهم، ويعصفوا بكيان الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وإن كانوا قد فشلوا في محاولتهم مع الأحزاب، فقد يدبرون أمرًا آخر، فينبغي والحالة هذه ألا يُهملوا وأن يعاقبوا.

٤ ـ إن الفرصة مواتية للسير إليهم ومحاربتهم والقضاء عليهم، فليس لهم نصير، فقد تخلى عنهم الأحزاب وانسحبوا غاضبين منهم، غير مطمئنين لهم، بسبب حيلة نعيم بن مسعود رضي الله عنه إذ فرق وحدة الأحزاب، ولم يعد الأحزاب يثقون ببني قريظة، وليس عندهم استعداد لمساعدتهم.

أما معنويات بني قريظة فقد كانت منهارة، إذ انسحبت الأحزاب، وبقوا هم وحدهم في الميدان، ولا طاقة لهم بالوقوف في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه، فهم في حيرة من أمرهم، قد اضطرب أمرهم، وارتاعت نفوسهم، وسيطر عليهم الذعر والخوف». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٤٦-٤٧**].

٦ ـ اليهود أكثر الناس تفلتًا من القيم والأخلاق:

يقول د/ أبو فارس: «حينما اقترب علي بن أبي طالب رضي الله عنه من حصون بني قريظة واجهوه بشتم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونالوا من أزواجه أمهات المؤمنين، بكلام لم يصرح الرواة بألفاظه، لسوئه وفحشه وقبحه، إذ نزهوا أنفسهم وألسنتهم أن يتفوهوا بالكلام ولو كانوا ناقلين، ولما راجعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عما تفوهوا به أنكروا أنهم قالوا ما سألهم عنه، ونفوا نفيًا مؤكدًا ما نُسب إليهم، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على كذب اليهود ونفاقهم وجبنهم وخستهم، وعدم تحملهم المسؤولية عن تصرفاتهم، فقد شعروا أن الكلام الذي تفوهوا به يترتب على قائله تبعة ومسؤولية وعقوبة، فتخلوا عنه.

وانقلبوا على الفور يتأدبون في الحديث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويلاطفونه ويصطنعون الحكمة في مخاطبته، بل ويذكِّرونه بها، لا لأنهم أهلها، بل لأنهم يحققون من ورائها مصلحة لهم، أو يدفعون مضرة تحيق بهم، تأمل قولهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخاطبهم ويحاسبهم على بذاءة ألسنتهم: **يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا**.

إنهم يذكِّرون بالقيم والأدب وهم أكثر الناس تفلتًا من القيم، وأبعد الناس عن الحكمة والأدب، وأساليبهم في مواجهة الرسول ﷺ ومخاطبته قبل حربه الساخنة معهم تدلك على خبايا نفوسهم، وسوء أخلاقهم، وبذاءة لسانهم.

ويريك كلامهم لسعد بن معاذ ﵁ حين التقى بهم يوم الأحزاب، مدى حرصهم على الألفاظ البذيئة، والأقوال الفاحشة.

لقد قالوا لرسول الله ﷺ هذه العبارة: **يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا**، من قبيل الانحناء أمام العاصفة، حتى تمر، ثم يعودون إلى عتوهم وتمردهم وسوء أخلاقهم، إنهم يتلونون كالحرباء من أجل مصالحهم.

وما أجمل ما ذكره الشيخ الغزالي تعليقًا على عبارتهم: **يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا**.

«هذه خلال اليهود، يَسفهون إذا أَمِنوا، ويَقتلون إذا قدروا، ويذكِّرون الناس بالمُثل العليا إذا وَجِلوا؛ ليستفيدوا منها وحدهم لا لشيء آخر.

أما العهود، فهي آخر شيء في الحياة يقفون عنده». [**فقه السيرة للغزالي ٣٣٩**]».

[**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٥٣-٥٤**].

ويقول د/ طنطاوي: «وهكذا اليهود في كل زمان ومكان عندما يظنون أنفسهم في أمان يَسُبُّون ويتطاولون، وعندما تواتيهم الفرصة يقتلون ويفجرون، فإذا ما ضاق الخناق حول رقابهم يتباكون ويتذللون، فهم يتلونون لكل حالة بالشكل الذي يظنونه نافعًا لهم، أما العهود والمواثيق والقيم الخلقية والمعاني الإنسانية فلا حساب لها في ميزانهم». [**بنو إسرائيل في القرآن والسنة لطنطاوي ٢٩٩**].

ويقول الشيخ عبيد: «بدأ اليهود في التلطف والوداعة وأنكروا أنهم شتموا النبي ﷺ أو تطاولوا على نسائه، وكانوا يتكلمون في ليونة الأفاعي لأن قولهم لين ويحاولون الإطراء على النبي ﷺ ويقولون: «**يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا**»، وقد ظنوا أن ذلك سيساهم في تخفيف عقوبتهم العظمى، لقد أحاط باليهود خطيئتهم وحاق بهم المكر السيء وتبددت أحلامهم العريضة، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، وهم وإن تظاهروا باللين والوداعة في هذا الموقف لكنهم كالأفاعي السامة الغادرة تتظاهر بالبراءة حتى تتمكن وتبدي مظهرها الناعم اللين حتى تقتل من يداعبها». [**غزوة الأحزاب لعبيد ٥١-٥٢**].

٧ ـ الدعوة إلى التخلق بالكرم:

«حيث موَّن سعد بن عبادة ﵁ الجيش الإسلامي بالطعام، وذلك من التمر، فكانت تحمل أحمال التمر إلى معسكر المسلمين، وقد كان سعد ﵁ مشهورًا بالكرم الفياض». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٦١**].

٨ ـ إعنات اليهود في الحق والعدل:

يقول د/ حبيشي: «ومن موقف كعب وعمرو بن سعدى، وما عرضاه على اليهود من بني قريظة، تعلم كمًّا هائلًا من خلائق اليهود، تلزمهم جميعًا حتى أعنتوا الحق والعدل، وأرهقوا الشيخين من علمائهم على مشهد من خزي حيي وصَغاره حين دارت على مكائده الدوائر.

ومن المضحكات المبكيات أن صاحب كتاب اليهود في بلاد العرب أخذ يعد إعنات اليهود لشيخيهم، وإرهاقهم للحق والعدل ضربًا من الشجاعة والثبات على المبدأ، ولو كان ثمن ذلك الموت».

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٤٥].

٩ ـ فشل المفاوضات اليهودية مع الرسول ﷺ:

يقول د/ حبيشي: «أرسل اليهود إلى النبي ﷺ رجلًا منهم يقال له: نباش بن قيس، يعتقدونه محاورًا جيدًا، فجاء إلى رسول الله ﷺ يطلب إليه أن يُخرجهم على ما خرج عليه بنو النضير، يأخذون النساء والأموال ويتركون السلاح والأرض لأصحابها.

ورفض النبي ﷺ هذا العرض حيث إنه لا يكافئ خيانات اليهود من بني قريظة، فعاد نباش يعرض عرضًا آخر، وهو: أن يجليهم النبي ﷺ عن الأرض ويتركون السلاح والأموال، ويأخذون نساءهم وذراريهم.

ورأى النبي ﷺ أنه لو وافقهم على ذلك يكونون قد كسبوا الجولة مرتين:

أولاهما: أنهم قد أحدثوا في صفوف المسلمين يوم الخندق ما أحدثوه، ولو أمكنهم الله من رقاب المسلمين ما تركوا منهم على الأرض حيًّا يتنفس.

علم النبي ﷺ ذلك من خلائقهم التي ما يزال التاريخ يسطرها إلى اليوم، على نحو ما تراه ونراه على الأرض التي بارك الله فيها حول المسجد الأقصى.

وثانيتهما: أن النبي ﷺ لو وافق نباشًا على مقترحه وعفا وأصلح، لم يأمنهم أن يخرجوا إلى سائر العرب يؤلبونهم مرة أخرى على النبي ﷺ وعلى المسلمين، ولم يكن النبي ﷺ قد استفاد من تجاربه (وحاشاه).

وقد علم النبي ﷺ إيحاءات هذه الجزئية من تساهله مع بني النضير وعفوه عنهم، فما كان منهم إلا أن ألَّبوا عليه سائر العرب، وجمعوهم في معسكر واحد كاد يطيح بالمسلمين لولا أن الله سلم.

وما حديث حيي بن أخطب عنا وعنك ببعيد.

رفض النبي ﷺ مقترحات نباش كلها، وبيّن له أن الأمر لله، وأنهم لابد أن ينزلوا على حُكمه، فعاد نباش إلى قومه بما توصل إليه من نتائج في مباحثاته مع رسول الله ﷺ».

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٤٢].

١٠ ـ براعة اليهود في استدرار العاطفة:

يقول د/ أبو فارس: «أنا لا أتصور أن أطفال اليهود قد خرجوا من تلقائهم يبكون في وجه أبي لبابة ﷺ، وإنما أشعر أن اليهود قد دبروا هذا فعلًا إذ رتبوا النساء والأطفال يستقبلون أبا لبابة ﷺ بالبكاء والعويل حتى يرق قلبه لهم، فيؤثر على ما يقوله من كلام، أو ما ينقله من قول أو ما يراه من رأي يشير به على رسول الله ﷺ.

ولقد استطاعوا بهذه الوسيلة أن يستدرجوه، وأن يستدروا عطفه ليصرح بما صرح به.

فلا غرو إذًا أن نجد اليهود في العالم اليوم كيف يتمسكنون حتى يتمكنوا، ويستدرون عطف العالم عليهم، حين يتظاهرون بالضعف، وأنهم قد ظُلموا في التاريخ البشري الطويل، وبحاجة إلى الإنسان الذي يتمتع بالإنسانية الحقة حتى ينصفهم ويعطف عليهم.

ولقد استطاعوا بهذه الأساليب أن يستدروا عطف الناس، والشعوب، والدول في العالم، شرقًا وغربًا، فدفعوا إليهم مليارات من الدولارات وغير الدولارات، وساعدوهم بالسلاح والعتاد، على ظلم شعب كامل، فطردوه من أرضه، وسفكوا دمه، واستولوا على مقدسا ته». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٧٢**].

١١ ـ إذاعة سر من أسرار جماعة المسلمين خيانة:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما قرره أبو لبابة ﷺ، فاعتبر نفسه حين أباح سرًّا ليهود بني قريظة أنه قد خان الله ﷻ ورسوله ﷺ.

إن الإسلام يرى أن الأمانة، ليست هي الأمانة المالية فقط التي يجب على الشخص أن يحافظ عليها إذا وُضعت عنده، وأن يؤديها إلى أصحابها كاملة غير منقوصة، وإنما الأمانة هي كل ما استؤمن عليه الإنسان فهو أمانة، فإن تُستأمن على سر من أسرار المسلمين، فهذا أمانة فلا يحل لك أن تذيع هذا السر فتضر أحدًا من المسلمين، فكيف إذا كان السر يتعلق بمصلحة المسلمين عامة، وإفشاؤه يؤدي إلى مفسدة عظيمة، قد تُهلك الحرث والنسل؟! وبعض الأسرار قد تعصف بكيان الدولة الإسلامية وأجهزتها، وتقوِّض أركانها.

وما دام الشرع قد أوجب على المسلم أن يحافظ على الأمانة وألا يفرط فيها، والأسرار نوع من الأمانات الكثيرة فالمحافظة أيضًا عليها واجبة، تدخل في معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨]، والتفريط بذلك خيانة، وقد نهى الله تبارك وتعالى عن الخيانة فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[الأنفال]».

[**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٧٤-٧٥، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٣٤٣-٣٦١**].

١٢ ـ المؤمن صاحب ضمير حي:

يقول د/ أبو شهبة: «في قصة أبي لبابة ﷺ نرى مبلغ قوة الإيمان، وتذكر القلب ويقظة الضمير من صحابة رسول الله ﷺ، الذي أدرك الخطأ وندم عليه قبل أن يتحرك من مكانه الذي هو فيه، والمتقون هم الذين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون، وسرعان ما يتوبون ويعودون إليه جل شأنه عودة سريعة، ومبلغ ما وصل إليه المجتمع الإسلامي حينئذ من حياء من المعاصي والرذائل، وتقدير للقيم الخلقية، والمعاني الروحية، واستهانة بالنفس والولد والمال في سبيل رضاء الله ورسوله، وأن هذا المجتمع لم يصل إليه أي مجتمع متحضر إلى وقتنا هذا». [السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٤٠٨].

ويقول د/ أبو فارس : «إن الإسلام يربي أتباعه على تقوى الله تبارك وتعالى، وخشيته، والخوف منه، ومراقبته في السر والعلن؛ لأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**».

[الترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، والدارمي في الرقاق (٢٨٣٣)، ومسند أحمد ٣٥/ ٢٨٤ عن أبي ذر ﷺ رقم ٢١٣٥٤، وقال الشيخ الأرناؤوط: حسن لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير ميمون بن أبي شبيب فقد روى له مسلم في المقدمة].

والمسلم صاحب ضمير حي يقظ يراقب الله ﷻ، ولا يعني أنه لا يقع في المعصية، فقد يغفل فتزل قدمه، ولكنه إذا وقع في المعصية حاسبته نفسه اللوامة على ما وقع فيه من معصية، فنهض من كبوته، ولجأ إلى ربه، بالتوبة إليه والندم على ما كان منه.

أما صاحب الضمير الميت فإنه يستمرئ المعاصي، فإذا وقع في معصية من المعاصي، لم تلُمه نفسه، ولم يصغ لأصوات الناصحين له، فازداد بُعدًا عن ربه لكثرتها؛ ولأنه إذا ذُكِّر لا يذكر ولا يتذكر، وإذا وُعظ لا يتعظ، وإذا نُصح لا ينتصح، بل يسدر في غيه، ويظل ـ والعياذ بالله ـ يغرق في المعاصي حتى تغرقه وتهلكه، قد تبلد إحساسه، وغشي الران قلبه فغطاه، فخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

تأمل كيف نتعلم من أبي لبابة ﷺ صفاء القلب ونقاء السريرة، وسرعة العودة إلى الله، قد مَنَّ الله عليه بضمير حي لا يستمرئ المعصية بل يفر إلى الله بالتوبة والإنابة». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٧٥-٧٦].

ويقول الشيخ أبو خوات: «والعبرة في هذه الحادثة أن أبا لبابة ﷺ حين رق قلبه لهم فنسي وأشار إلى حلقه اعتبر هذا جريمة كبرى، وعمل ما عمل حتى أنزل الله توبته عليه وأخبرته بها أم سلمة ﷺ فكيف نفعل الذنوب الثقال ثم لا نشعر بألم نفسي أو وخز ضمير؟!

بل إن الكثيرين منا يتباهون بذنوبهم، ويذكرونها بين زملائهم في زهو وافتخار، والكثيرون أيضًا إذا لم يذكروا ذنوبًا فعلوها اختلقوا لأنفسهم ذنوبًا وعرضوها على المجتمع؛ لأنهم يرون الاستقامة ضربًا من التأخر لا يليق بمن يعيش في هذا القرن.

مع أن إعلان الذنب والمجاهرة بالمعصية سبب في عدم عفو الله عن المجاهرين، ومن حقنا في هذا المقام أن نذكر قول رسول الله ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ! عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ**». [**البخاري في الأدب (٦٠٦٩)**].

لقد اختلف الناس عن أولئك الناس، وغيَّروا الطريق والسبيل التي كانت من أسباب رعاية الله لهم ونصره وتأييده، فغيَّر الله ما بهم وصاروا في العالم كسقط المتاع، لا خطر ولا أثر، وفي الحق إنه ليخطر على بالي كثيرًا هذا التساؤل:

لماذا لا نؤلِّف مؤتمرًا كبيرًا تتعدد فيه اللجان المتخصصة التي تبحث في حياة المسلمين في عصر النبوة عاداتهم ومعاملاتهم مع بعضهم ومع غيرهم ومع الله، في الحرب والسلم، في الإقامة والسفر... إلخ ثم تحاول كل لجنة أن تجد العائق الذي يعوق تطبيق ما كان هناك في حياتنا المعاصرة ... وبذلك نشخص الداء، ونعرف مواضع الألم، ثم نقارن بين ما نرى أنه لا بد منه لحياتنا في هذا العصر، وبين ما كان في عصر النبوة، ونصل إلى تحديد مدى التضحية لو قبلنا أحد الأمرين ورفضنا الآخر، ثم نعرض هذه الدراسة كلها في صدق نية، وفي قوة رغبة في أن نصل إلى علاج ناجح على «**المجلس الاجتماعي المتخصص؟!**» الذي سيقوم تطبيقًا لبرنامج ٣٠ مارس الذي نادى بإقامة مجالس متخصصة تباشر البحث في الاقتصاد وفي السياسة وفي العلوم.

ولقد ناديت في إحدى محاضراتي التي كان يحضرها بعض المسؤولين بأننا نرغب في عرض هذه القضية: «قضية التوفيق بين الآداب الدينية والنزعات المدنية؟!» على المجلس الاجتماعي المقترح تأليفه، حتى يصل بنا إلى علاج يوفق بين الأمرين دون مساس بالدين ودون جمود بالحياة حتى لا يقع الناس في الحرج الذي يقعون فيه، وأرجو أن يتخذ هذا النداء صورة جدية عند تأليف المجلس المذكور إن شاء الله!». [**دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٩٦-٩٨، وينظر للتفصيل: مسائل العقيدة المستنبطة من غزوة بني قريظة للدلو ٩٥-١٠٠**].

١٣ ـ الإعلان عن الحقيقة وإن كانت مُرَّة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أعلن أبو لبابة ﷺ عن زلته، دون مواربة، أو تبرير، لم يحاول أن يدافع عن نفسه، ويوهمها أنها ما ارتكبت شيئًا يغض منها، أو على الأقل يخفي ما حدث معه حتى يبقى علمًا في عيون الناس.

وأريد أن أنبه إلى أمر آخر، وخطأ يقع فيه كثير من الشباب المسلم اليوم، إن الواحد قد يرتكب خطأ من الأخطاء، أو يتصرف تصرفًا يضرُّ به وبجماعة المسلمين، كأن يفشي سرًّا من أسرار المسلمين، فإذا ما

روجع وعوتب أو حوسب أخذ ينتحل الأعذار لنفسه، ويبرر تصرفه بمبررات لا تستساغ عقلًا وشرعًا، وهو يعلم في قرارة نفسه أنه غير محق في فعله أو في دفاعه عن نفسه.

ينبغي أن يتعلم المسلم من أبي لبابة ﵁، كيف يكون صادقًا مع نفسه، يدينها، ولا يدافع عنها إن هي اقترفت ذنبًا أو جرمًا، ويلجأ من فوره إلى ربه يسأله المغفرة والتوبة، حتى يطهر هذه النفس الأمارة بالسوء». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٧٦**].

ويقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر موقف جليل لأبي لبابة بن عبد المنذر ﵁ وذلك في الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح، وإن العبرة في هذا الموقف تكمن في تصرف أبي لبابة ﵁ بعدما وقعت منه هذه الزلة التي أفشى سرًّا حربيًّا خطيرًا، فأبو لبابة ﵁ لم يحاول التكتم على ما بدر منه والظهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرجل الذي أدى مهمته بنجاح وأنه لم يحصل منه شيء من المخالفات، وكان بإمكانه أن يخفى هذا الأمر حيث لم يطَّلع عليه أحد من المسلمين، وأن يستكتم اليهود أمره، وسيفعلون ذلك لما بينهم وبينه من صلات سابقة؛ ولأنه قدم لهم خدمة كبيرة بإفشاء هذا السر، ومن صالحهم أن يُكتم هذا الخبر، ولكنه ﵁ تذكر حالًا رقابة الله ﷻ عليه وعلمه بما يُسر ويعلن، وتذكر حق رسول الله ﷺ العظيم عليه وهو الذي ائتمنه على ذلك السر، ففزع لهذه الزلة فزعًا عظيمًا، جعله يحكم على نفسه بخيانة الله تعالى ورسوله ﷺ، وينطلق إلى مسجد رسول الله ﷺ ليحبس نفسه فيه حتى يتوب الله عليه.

إننا حينما نتصور هذا الخلق الرفيع ونقارنه بما عليه سلوك كثير من أبناء المسلمين اليوم نجد الفرق شاسعًا بين مجتمع الصحابة ومجتمع المسلمين في العصر الحاضر، حيث بلغ الرقي الأخلاقي في العهد النبوي أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه البشر.

وكون أبي لبابة ﵁ زلَّ وأخطأ لا يجرح من مكانته العالية ما دام يملك ضميرًا يقظًا وعقلًا حاكمًا يحكم على تصرفاته فيقوِّمها نحو الأفضل، وقد حكم على نفسه بالخيانة وعاقبها بالحبس من غير أن يحكم عليه أحد بذلك؛ لأن المطلب الكبير الذي يشغل باله أن تكون صحيفته بيضاء أمام الله ـ تعالى ـ ولن تكون كذلك إلا بالاعتراف بالخطأ والتوبة النصوح.

وهكذا رأينا في هذا الخبر مثلًا من الأمثلة العالية التي يتفوق فيها الإيمان الذي يكون من الرسوخ في القلب بحيث يكون حاكمًا على سلوك الإنسان في هذه الحياة، ولئن كان هذا الشعور الإيماني المسيطر على السلوك قد تخلله لحظات من الضعف البشري لدى أبي لبابة ﵁ فلم يحكم تصرفاته بسبب دهشته مما رأى فإنه سرعان ما عاد إليه إدراكه وقوي إيمانه بحيث أقدم على الحكم على نفسه بالخيانة وعاقب نفسه بالعقوبة المذكورة.

وإن السعادة الروحية التي ظفر بها حينما تاب الله تعالى عليه لا يعادلها أي سعادة دنيوية؛ لأنها محت من نفسه آثار الشعور بالذنب، وكان من نتائج فرحته بهذه التوبة أن استأذن النبي ﷺ في أن يتصدق بماله كله، فقال له: يجزئ عنك الثلث، كما أنه هجر ذلك المكان الذي عصى الله تعالى فيه».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٦٥-١٦٦].

١٤- هكذا تكون التوبة:

يقول د/ أبو فارس: «إننا نتعلم من توبة أبي لبابة رضي الله عنه كيف تكون التوبة، التي يقبلها الله تبارك وتعالى، إنها تبدأ بالشعور بالذنب، ويعقب ذلك ألم في النفس يصحبه بكاء ودموع تغسل الذنب، وتذلل وتخشع يطأ من علو النفس، ومن ثم إذلال النفس والتهوين من شأنها، وتأنيبها على ما بدر منها، ومن ثم التوجه إلى الله عز وجل بقلب مخلص، بعد ندم شديد.

لقد أذل أبو لبابة رضي الله عنه نفسَه الأمارة بالسوء أيما إذلال، وهو يربطها بسارية المسجد، والناس يرونه، فيذكرون جريمته، ويرى نفسه مربوطًا فيذكر جريمته، فيؤنب نفسه، حتى تتضاءل بين جنبيه، وهي التي تحب الغرور، وتغتر بكل ما يجعلها تنتعش وتعلو، يجب أن يُشعرها أنها كانت أعدى أعدائه يوم أن دفعته إلى خيانة الله عز وجل ورسول الله ﷺ.

وبعد ذلك يكون العزم على عدم العودة للإثم مرة ثانية، وهجر كل ما أدى إليه؛ ولهذا فقد عاهد الله ألا يدخل بني قريظة، تلك الأرض التي عصى الله فيها.

نعم إن هجرة البيئة التي ساعدته على ارتكاب المعصية أمر مستحسن، والاتجاه إلى بيئة الطاعة والفضيلة حتى تساعده على الالتزام والعبادة والتقوى، وهجر أصدقاء السوء أسلم طريقة للبعد عن المعاصي، والحياة مع أقران الخير، والأصدقاء الصالحين تعين على فعل الخير.

ويستحب أن يتبع التائب توبته بصدقة تغسل حوبته، وتطفئ خطيئته فإن الحسنات يذهبن السيئات، وفي الحديث «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»، وما شُرعت الكفارة إلا لتغطية الإثم ومحوه وإزالته، والكفارة: صدقة أو صيام». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٧٧-٧٨].

١٥ - صدق توبة أبي لبابة رضي الله عنه:

يقول د/ أبو فارس: «لقد علم الله تبارك وتعالى صِدْقَ توبة أبي لبابة رضي الله عنه فقبلها.

وما أحوجنا إلى الإخلاص في التوبة، والصدق في التوجه إلى جناب الله؛ ليتجاوز عن سيئاتنا، ويغسل حوبتنا، ويتقبل منا أعمالنا، وأن يرزقنا العمل الصالح الخالص». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٧٨].

١٦ - المؤمن يبادر إلى التوبة، ويفرح بتوبة الله عليه:

يقول د/ فيض الله: «كان أبو لبابة الأوسي رضي الله عنه، حليفًا لليهود، وقد استشاره هؤلاء - كما رأينا - في النزول على حكم محمد ﷺ، فأشار عليهم بالنزول على حكمه، وأومأ بيده إلى حلقه، يعلنهم أن محمدًا مصمم على إبادتهم ذبحًا، واستئصالهم إن لم ينزلوا على حكمه.

لكنه ما عتم أن علم أنه أفشى سرًّا مكتومًا لرسول الله ﷺ وأنه تسارع بذلك، وخان الله ورسوله.

فبادر إلى التوبة، وحكم على نفسه بالسجن، فارتبط بساريةٍ من سواري المسجد، لا تحل وثاقه إلا زوجه للصلاة؛ وظل على تلك الحال نحو أسبوع...

إنها إقرار بالذنب، واعتراف بالسيئة، ومبادرة إلى العقوبة الذاتية التلقائية، دون انتظار التحقيق وتوقيع العقوبة الواجبة.

إنها صورة تطبيقية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾[النساء].

إنها صورة فريدة لتوقيع العقوبة من الإنسان نفسه، على نفسه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان، وما ذلك إلا من آثار الإيمان العميق الراسخ، الذي لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثم أو فسوق.

ومن نظائر ذلك ـ وهي كثيرة ـ إسراع الغامدية إلى رسول الله ﷺ وقولها له: طهرني؛ وكذلك إلحاح ماعزٍ الذي ألمَّ بها على التطهير أيضًا، واعترافه بإثمه مرةً بعد مرة، حتى نفذ فيه وفي صاحبته الحكم.

وقد فرح الصحابة وفرح النبي ﷺ نفسه، بتوبة الله على أبي لبابة ﵁، وتسابقوا إلى تهنئته، حتى كانت أم سلمة زوجة النبي ﷺ هي التي بادرت بالتهنئة بعد الإذن، فبشَّرته بقبول الله وتوبته.

وهذا مما يشير إلى أن المجتمع المسلم وَحْدَهُ وِحْدَةٌ متماسكة متراحمة، تُعْنَى بالنظافة، وتحرص على الطهارة القلبية، ولا ترضى أن يكون فيها فاسق أو عاص، أو محروم من رحمة الله ومرضاته؛ تقلق لألم الفرد، وتسعد بسعادته، وتفرح بفرحه». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٦٠-٢٦١].

١٧ ـ النصيحة لله ورسوله:

يقول د/ الزيد: «ومن قصة أبي لبابة ﵁ نأخذ أهمية النصيحة لله ﷻ ولرسوله ﷺ ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، فلا تجوز الخيانة، لا خيانة الله ولا خيانة رسوله ولا خيانة كتابه ولا خيانة إمام المسلمين ولا خيانة عامة المسلمين». [فقه السيرة للزيد ٥١٢].

١٨ ـ الابتعاد عن مواطن المعاصي:

يقول د/ الزيد: «ومن قصة أبي لبابة ﵁ أيضًا نستفيد أهمية الابتعاد عن مواطن المعاصي، فإن أبا لبابة ﵁ جعل من توبته أن لا يعود مرة أخرى إلى ديار بني قريظة، وهذا مفيد للتائب، فإن من تاب من معصية ينبغي عليه أن يبتعد عن مواطنها، ومجالسة أصحابها، فإن ذلك من دلائل صدق توبته وعزمه ألا يعود إلى ذنبه ومعصيته مرة أخرى، وبخاصة أولئك الذين وقعوا في الخطأ نتيجة الارتباط بجلساء السوء، فإن من دلائل صدق التوبة عدم مقاربة أولئك القرناء». [فقه السيرة للزيد ٥١٢].

١٩ ـ أُمَّتان وتربية الصف الداخلي:

يقول د/ الغضبان: «هذه الأُمة النكدة التي ورثت الكتاب، وأخذت عَرَض هذا الأدنى، واتبعت هواها وتمنت على الله الأماني، ونكثت بعهد الله، فنزع الله منها الأمانة، واستحقت اللعنة، وبقي منها أفراد على العهد، يمثلون الأقلية القليلة الضئيلة، ولا يحولون دون استحقاق غضب الله عليها، وسقوطها في الامتحان الرباني.

هذه الأُمة النكدة من اليهود والتي نُزعت منها الأمانة، ونيطت بهذه الأمة الفتية، التي يقف على رأسها رسول الله ﷺ، وتمتد في أعماق الزمن إلى قيام الساعة، هذه الأمة الفتية، والتي تلقت التربية الدؤوبة المستمرة، وتعلمت من درس أُحُد القاسي الدروس الكثيرة، تبرز هذه الأمة في الخندق أمة عملاقة صابرة مجاهدة، تستحق رضوان الله وتكريمه، فأعطاها الله الثمرة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

هذه الأمة الوارثة المسلمة، والتي استلمت الراية من الأمة المغضوب عليها أمة اليهود والتي استحق رجالها القتل، ونساؤها السبي، هذه الأمة التي خانت الأمانة، وحادَّت الله ورسوله، قضى عليها بالهلاك إلا هؤلاء الأفراد الخمسة من رجالها ونسائها.

بينما نجد الأمة الوارثة الفتية، الأمة الربانية لا يسجل تاريخها في الخندق إلا معصية واحدة ومخالفة واحدة لأحد رجالها الكبار، أبي لبابة بن المنذر رضي الله عنه ...

إن زلة الرجال الكبار كبيرة، وخاصة من موفد رسول الله ﷺ إلى اليهود، وهو في موضع ثقة القائد الأعظم ﷺ ولكنها في نفس أبي لبابة رضي الله عنه أكبر منها في أي نفس أخرى على الإطلاق، على عكس ما نتعامل به من زلاتنا، وأخطائنا التي نحقرها، ونصغرها، ونبررها، وندافع عنها.

وخطيئة أبي لبابة رضي الله عنه أعظم درس تربوي للرجال في كيفية التعامل مع الخطأ، فالاعتراف به وأن يربط نفسه بسارية المسجد، حيث يعرف الصغير والكبير والغادي والرائح قصته وخطأه، ويتحدث الناس جميعًا به تحطيمًا لهذه النفس المخطئة، وقتلًا لهذه الزلة العنيفة، واستمرار الأمر أيامًا وليالي على هذا الحال، يعني في الوقت نفسه عظمة التربية لهذا الجندي ـ القائد ـ الذي استحيا أن يقابل قائده بعد هذه الزلة.

إن الرجل منا اليوم لو وقع في هذه الخطيئة لراح يدافع عنها، بأنه لا يريد أن يغش العدو، وقد وثق العدو به، ولابد أن يعلمه الحقيقة، وخاصة أنها ستعرف فيما بعد.

إن حالة فقدان التربية، وعبودية الذات لتدفع الكثير من الشباب المسلم، بل ورجالات الدعوة أحيانًا إلى الاستماتة في دفع الخطأ، واعتباره صوابًا، وإن اعترف به فهو يرفض أن يَعلم به أحد حتى لا تسقط

مهابته بين الناس، أما هذا الجيل الذي يعيش مع الله في الصبح والمساء والسَّحَر، فهو جيل متفرد في تاريخ البشرية، حيث يندفع أبو لبابة رضي الله عنه لا لينعزل في بيته معلنًا مقاطعته لمن واجهوه بخطئه، بل ليعلن خطيئته على الملأ، ويذكِّر بها الأمة في الغدو والعشي، حربًا على هذه النفس التي اقترفت هذه الزلة، وحرقًا للذات لتذوب في الله.

وكان المجتمع المسلم، لا يعيش جو اللغو والغيبة، والشماتة المتلبسة بالإشفاق التي تبرز عند أخطاء الرجال كما هو الحال في مجتمعاتنا المريضة، بل كان يعيش جو الألم والحزن الذي خيم عليه كله، تأثرًا لما ألم بأبي لبابة ـ رضوان الله عليه ـ إنه المجتمع الذي يحس أن لبنة من بنائه قد أصابها التصدع، وعندما تتم المعالجة، وتنزل التوبة، تعود أفراح المدينة للمجتمع كله.

إن الصارخ بالتوبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعلن النبأ الذي غمر المدينة بالفرحة، والناس يثورون جميعًا ليطلقوه، ويتم الاحتفال السعيد، بأن يكون القائد الأعظم صلى الله عليه وسلم هو الذي يفك إساره، وتُعلن عودته إلى الصف من جديد، وقد غفر الله تعالى له خطيئته.

أما فرحة أبي لبابة رضي الله عنه، فكانت فرحة عملية، ويحدثنا عنها ابْنُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَ أَبُو لُبَابَةَ إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: **أَنَا أَهْجُرُ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا هَذَا الذَّنْبَ، فَأَخْرُجُ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى الله وَرَسُولِهِ**، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**يُجْزِئُ عَنْكَ الثُّلُثُ**»، فَأَخْرَجَ الثُّلُثَ، وَهَجَرَ أَبُو لُبَابَةَ رضي الله عنه دَارَ قَوْمِهِ، ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَبِنْ فِي الإِسْلامِ مِنْهُ إِلَّا خَيْرٌ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٩**].

ونحن نتحدث عن التربية، لابد أن نذكر فعلها في نفس أبي لبابة رضي الله عنه وهو أحد القادة الاثني عشر الذين كانوا نقباء قومهم:

قال الواقدي: حَدَّثَنِي مَعْمَرُ بْنُ رَاشِدٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ عَتَبَ فِيهِ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عَلَى أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ رضي الله عنه أَنَّهُ خَاصَمَ يَتِيمًا لَهُ فِي عِذْقٍ، فَقَضَى رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بِالعِذْقِ لأَبِي لُبَابَةَ فَصَيَّحَ اليَتِيمُ، وَاشْتَكَى إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لأَبِي لُبَابَةَ: «**هَبْ لِي العِذْقَ يَا أَبَا لُبَابَةَ**» ـ لِكَي يَرُدَّهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إِلَى اليَتِيمِ، فَأَبَى أَبُو لُبَابَةَ أَنْ يَهَبَهُ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: «**يَا أَبَا لُبَابَةَ! أَعْطِهِ اليَتِيمَ وَلَكَ مِثْلُهُ فِي الجَنَّةِ**»، فَأَبَى أَبُو لُبَابَةَ أَنْ يُعْطِيَهُ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٥**].

لقد وقف أبو لبابة رضي الله عنه عند حقه، ولعله قد تأذى من اليتيم، فلم تطاوعه نفسه أن يتنازل عن حقه، ويعيده له، وهذا المستوى قد يُقبل من الرجل العادي، أما القادة الكبار، والصحب العظام، أما الأنصار أهل البذل والتضحيات، فهذا الموقف لا يتناسب مع مستوى عظمتهم، وكان هذا مما عتب به رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي لبابة رضي الله عنه.

إننا نستعيد صورة خطيئة الصحابي العظيم أبي حذيفة بن عتبة رضي الله عنه يوم قال كلمته المشهورة: (**نضرب آباءنا وأعمامنا وندع عم محمد، والله لو لقيت العباس عم محمد لألجمنه بالسيف**).

ونذكر كيف كانت عملية تربيته التي رفعته إلى الأفق الأعلى (**فما زلت أصوم، وأصلي، وأتصدق رجاء أن يكفرها الله عني، ولا أرى يكفرها إلا الشهادة**)، ورزقه الله تعالى الشهادة في اليمامة.

وهنا لابد أن يتلقى أبو لبابة ﷺ درسًا من أخيه ثابت بن الدحداحة ﷺ (قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَحَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: لَـمَّا أَبَى أَنْ يُعْطِيَهُ، قَالَ ابْنُ الدَّحْدَاحَةِ ـ وَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ـ: أَرَأَيْتَ يَا رَسُولَ الله إِنْ ابْتَعْتُ هَذَا العِذْقَ فَأَعْطَيْتُهُ هَـذَا اليَتِيمَ أَلِي مِثْلُـهُ فِي الجَنَّـةِ؟ قَـالَ رَسُـولُ الله ﷺ: «**نَعَـمْ**»، فَـانْطَلَقَ ابْـنُ الدَّحْدَاحَةِ حَتَّى لَقِيَ أَبَا لُبَابَةَ، فَقَالَ: أَبْتَاعُ مِنْكَ عِذْقَكَ بِحَدِيقَتِي ـ وَكَانَتْ لَهُ حَدِيقَةُ نَخْلٍ ـ، قَالَ أَبُو لُبَابَـةَ: نَعَمْ، فَابْتَاعَ ابْنُ الدَّحْدَاحَةِ العِذْقَ بِحَدِيقَةٍ مِنْ نَخْلٍ، فَأَعْطَاهُ اليَتِيمَ.

فَلَمْ يَلبَثْ ابْنُ الدَّحْدَاحَةِ أَنْ جَاءَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ إِلَى أُحُـدٍ، فَخَـرَجَ ابْـنُ الدَّحْدَاحَـةِ فَقُتِـلَ شَـهِيدًا، فَقَـالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**رُبَّ عِذْقٍ مُذَلَّلٍ لابْنِ الدَّحْدَاحَةِ فِي الجَنَّةِ**». [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٥**].

ولا شك أن موقف ثابت بن الدحداحة ﷺ ألقى بعض الأثر في نفس أبي لبابـة ﷺ، وقـد ابتـاع عذقـه بحائطه، ولكن الزمن مرَّ، ولم يغير في موقف أبي لبابة ﷺ شيئًا يُذكر.

أما عندما عانى ما عاناه، ولقي ما لقيه من جراء زلته تلك، وهو الذي لا يرضى أن يهب عذقـه لليتـيم، ولا يهبه لرسول الله ﷺ حيث يعطيه اليتيم، هو هو نفسه عندما نزلت توبة الله عليه، يعرض أن ينـزل عـن ماله كله صدقة لله ولرسوله، شكرًا لله على توبته عليه، فيقول له ﷺ: «**يُجْزِئُ عَنْكَ الثُّلُثُ**»، والانتقـال مـن حبس العذق إلى الانخلاع من الثروة كلها، هو تفسير جذري في البنـاء النفسـي لأبي لبابـة ﷺ، قَـالَ أَبُـو لُبَابَةَ: رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ وَنَحْنُ مُحَاصِرُو بَنِي قُرَيْظَةَ كَأَنِّي فِي حَمْأَةٍ آسِنَةٍ، فَلَمْ أَخْرُجْ مِنْهَا حَتَّى كِـدْتُ أَمُـوتُ مِـنْ رِيحِهَا، ثُمَّ أَرَى نَهَرًا جَارِيًا، فَأَرَانِي اغْتَسَلتُ مِنْهُ حَتَّى اسْتَنْقَيْتُ، وَأَرَانِي أَجِدُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَاسْتَعْبَرَهَا أَبُـو بَكْـرٍ ﷺ، فَقَالَ: لَتَدْخُلَنَّ فِي أَمْرٍ تَغْتَمَّ لَهُ ثُمَّ يُفَرَّجُ عَنْكَ، فَكُنْتُ أَذْكُرُ قَـوْلَ أَبِي بَكْـرٍ ﷺ وَأَنَـا مُـرْتَبِطٌ، فَـأَرْجُو أَنْ تَنْزِلَ تَوْبَتِي. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٧**].

لقد زلزلت هذه المحنة كيانة، وكان يمضي كل ليلة كأنما يتقلب على جمر، ينتظر الفـرج، بفـارغ الصـبر، إلى أن أذن الله تعالى بتوبته فأعادت هذه التوبة صياغته من جديد، ودخـل في الصـف الإسـلامي، وبـين قياداتـه العليا عَلَمًا من أعلامه، وانضم إلى صف سعد بن معاذ ﷺ وصف أسيد بن حضير وعباد بن بشر ﷺ.

لقد كان في وسط السُّلَّم الذي يقف على عتبته وسفحه عبد الله بـن أبي وأزلامـه وزبانيتـه، فهـو أرقـى كثيرًا، وأعلى من صف المنافقين، وهو بين ضعاف الإيمان على رأسـهم جميعًـا، لكـن الضـعف الـذي نالـه سلط عليه الأضواء أكثر فأكثر، لكنه ثبت للمحنة، وتحدى الضـعف بعزيمـة جبـارة، وتحمـل خطـر هـذا الضعف، حتى ارتقى إلى الصف العالي من جديد.

وهنا تكمن عظمة التربية النبوية، التي استطاعت أن ترفع الضعاف إلى الأفق الأعلى، دون أن تحطمهم تحت مطرقة التعيير بالضعف فيخلدون إليه، ودون أن تمرر خطيئاتهم، فيستهينون بها، ويستمرؤونها فتصبح مألوفة عندهم، فقد كان جوابه ﷺ من الحسم حين رآه مضى وربط نفسه بسارية المسجد: «**أَمَا إِنَّهُ لَوْ جَاءَنِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمَّا إِذْ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ فَمَا أَنَا بِالَّذِي أُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ**»، وهو الموقف نفسه الذي وقفه ﷺ من خطيئة الكبار، خطيئة كعب ﷺ: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ فِيكَ**».

وبهذا الخط التربوي العظيم الصاعد كان امتداد القاعدة الصلبة، ليس امتدادًا أفقيًا فقط، وليس اتساعًا رقميًا فقط، بل كان امتدادًا عموديًا في الأعماق، وعملًا هائلًا في البناء لا يدع فردًا من أفراده دون عناية أو رعاية، فكل فرد فيه مقصود بذاته، ولابد أن يكون يمرَّ بالتجربة الصعبة، والامتحان الدقيق، ليُسبر معدنه من خلاله، وليس سماح رسول الله ﷺ لأبي لبابة ﷺ بأن يمضي لليهود، إلا الثقة به وبدينه وعقيدته وإخلاصه، وفقهه ﷺ بالنفوس كان في موقعه، فالزلة العنيفة يتيقظ لها في اللحظة المناسبة وعلى التو.

(قَالَ: **فَنَدِمْتُ فَاسْتَرْجَعْتُ**، فَقَالَ لِي كَعْبٌ: **مَا لَكَ يَا أَبَا لُبَابَةَ؟** فَقُلْتُ: **خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ**، فَنَزَلَتْ وَإِنَّ لِحْيَتِي لَمُبْتَلَّةٌ مِنَ الدُّمُوعِ). [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٦].

فما أروع هذا الخطأ، لننفقه من خلاله عملية البناء!!». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٢٣-١٢٩].

٢٠ ـ رحمة الراعي بالرعية:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان رسول الله ﷺ رحيمًا بكل مسلم، يفرح لتوبة المسلم إذا قبلها الرب تبارك وتعالى؛ لأن هذا تعلمه من ربه، فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ**». [مسلم في التوبة (٢٧٤٧)].

وهذا الفرح يدل على رحمة الرسول ﷺ بالمسلمين، قال سبحانه يصف رسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة].

أي فرح هذا الذي يوقظ رسول الله ﷺ في جوف الليل، حتى ينفجر بالضحك بملء فيه، فتسأله أم سلمة عن هذا الضحك الذي يعبر عن سروره وفرحه ﷺ تعبيرًا يعجز القلم عن وصفه، فيخبر أم سلمة، أنه مسرور أيما سرور لأن الله تاب على أبي لبابة ﷺ». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٧٨-٧٩].

ويقول د/ الحميدي: «إنه موقف لرسول الله ﷺ في العفو والرحمة وغض النظر عن زلات الكرام، فمع هذه الزلة الكبيرة التي وقع فيها أبو لبابة ﷺ، والتي من شأنها أن تغير مجرى المعركة، وأن ترهق

الجيش الإسلامي، فإن النبي ﷺ لم يأمر بحضوره إلى المحاكمة، ولم يحكم عليه بشيء لعلمه بسلامة مقصده وحبه لله تعالى ولرسوله ﷺ، وأن الذي جرى منه إنما كان زلة من لسانه».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٦٦].

٢١ ـ تواد المسلمين وتعاطفهم:

يقول د/ أبو فارس: «إنك تشعر بهذا الود، وهذا الحب، وهذا التعاطف، وأنت تقرأ قصة أبي لبابة رضي الله عنه وتوبته، فترى الذين في المسجد حين تبشّر أم سلمة بقبول توبة أبي لبابة رضي الله عنه، يملأ السرور قلوبهم، ويطفح البشر على وجوههم، ويقومون ليهنؤوا أبا لبابة رضي الله عنه، ويثوروا لفكه من رباطه، حتى يعود إلى زمرة المؤمنين، يشاطرهم السعادة في المجتمع.

لقد عاش حزينًا أيامًا وليالي، وهم ينظرون إليه، ويحزنون لحزنه، قلوبهم تعتصر ألمًا وهم يرون جسمه يذوي ويذبل ويصفر، وينعدم نومه، ولا يذوق طعامًا أو شرابًا، كأني بهم وهم يضرعون إلى الله بالدعاء أن يتوب على أخيهم أبي لبابة رضي الله عنه، وينتظرون ثمرة أدعيتهم الحارة المخلصة، وبمجرد سماع أم سلمة ثاروا، هكذا العبارة في الرواية تقول، إنها العاطفة الصادقة، والمحبة الخالصة، والأخوة الحميمة تتجسد في هذه اللحظات، وتحقق قول رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الـمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الـجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الـجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالـحُمَّى**».

[البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم (واللفظ له) في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)].

أي تواد أعظم من هذا التواد، أي تراحم أعظم من هذا التراحم، أي تعاطف أعظم من هذا التعاطف، إنها نعمة الإسلام التي أَلَّفت بين هذه القلوب، وجمعت هذه النفوس، تسكب المودة والحب والعطف والشفقة في قلوب أتباعها.

نسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يرزقنا حب رسول الله ﷺ، وحب من يحب رسول الله ﷺ، وأن يديم هذه المحبة في قلوبنا ونفوسنا لكل مسلم، وأن يثبتنا على طريق الخير والصدق والمودة والحب».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٧٩-٨٠].

٢٢ ـ الحِكَم من حرص أبي لبابة رضي الله عنه أن يفكه الرسول ﷺ بيده:

يقول د/ أبو فارس: «لقد ثار صحابة رسول الله ﷺ الذين كانوا في المسجد ليفكوا رباط أبي لبابة رضي الله عنه، وهو في أمس الحاجة إلى ذلك فأبى على واحد منهم أن يفعل هذا، وأقسم ألا يفكه إلا رسول الله ﷺ، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ الذي يطلقني بيده، فكان له ذلك، إذ انتظر حتى قدم رسول الله ﷺ إلى صلاة الفجر ففكه بيده الشريفة.

ويلوح لي أن هذا الإصرار يعود إلى حِكَمٍ بحاجة إلى توضيح وشرح، أما هذه الحكم فقد أشار إليها صاحب شرح المواهب اللدنية رحمه الله فقال: (تعظيمًا له، ورجاء حصول بركته، وحتى لا يعود لمثلها).

ولقد تساءلتُ في نفسي عندما وقفت عند هذه العبارة المقتضبة الموجزة كل الإيجاز، كيف يكون فك رسول الله ﷺ تعظيمًا لرسول الله ﷺ؟

وكيف يكون رجاء حصول بركة رسول الله ﷺ؟

وكيف يكون لذلك أثر ألا يعود لمثل تلك المعصية؟

(١) ولقد انقدح في روعي بعد تأمل وتدبر أن فك رسول الله ﷺ لأبي لبابة رضي الله عنه، تعظيمًا لهذا الرسول الحبيب ﷺ، كيف أفسر هذا؟

رأيت إلى إنسان يعترف بذنبه، ويأتي لمن أساء إليه، ويعترف أمامه بأنه اقترف ما اقترف، وهو الآن جاء نادمًا معترفًا، ربط نفسه، طالبًا من الذي أساء إليه أن يتفضل عليه بالمن والعفو، وأن يفك رباطه.

لقد ألفت عادة في بلادنا وعن آبائنا أن الجاني إذا ثبتت عليه الجناية، واستحق العقوبة، يوثق بوثاق، أو يوضع عقاله في عنقه، ويقدم إلى أهل المجني عليه، ويجثو على ركبه بين يديهم ليستوفوا حقهم منه أو يعفوا عنه.

إن الأمر الآن بأيديهم إن شاؤوا أخذوا بالقود، وإن شاؤوا منوا عليه، وعفوا عنه، وأنقذوا رقبته من القطع، أليس تعظيمًا لهؤلاء أن يفكوا هذا الجاني بأيديهم، بلى إنه لتعظيم أي تعظيم، فإذا حدث منهم هذا، سارت الركبان بمدحهم والثناء عليهم.

نعم لقد كان أبو لبابة رضي الله عنه قد حرص على أن يطلقه رسول الله ﷺ بيده تعظيمًا لهذا الرسول، وتكريما له ﷺ.

(٢) وحرصُ أبي لبابة رضي الله عنه أن يفكه رسول الله ﷺ بيده حتى تحصل له البركة، بركة رسول الله ﷺ، أي بركة هذه التي تحصل؟

نعم إن جسم رسول الله ﷺ كله مبارك، شعره ﷺ مبارك، يده ﷺ مباركة، أطراف رسول الله ﷺ مباركة، ريق رسول الله ﷺ مبارك، دم رسول الله ﷺ مبارك، على هذا قامت الشواهد والأدلة من السنة القولية والعملية والتقريرية، وفعل الصحابة رضي الله عنهم، لقد كان صحابة رسول الله ﷺ يتسابقون على التبرك بمس يده ومصافحته وتقبيل يده الشريفة، وتقبيل بطنه ﷺ، والتبرك بشعره، والأخذ منه، والاحتفاظ به مدة طويلة يتناقله الأبناء عن الآباء، والخلفاء عن الخلفاء طلبًا لحصول البركة.

ألم يكن في ريق رسول الله ﷺ بركة حين وضع منه في طعام جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وكان قليلًا فبارك الله فيه، كان صاعًا من شعير، وكان سخلة صغيرة، ألم تكن يده مباركة حين مس طعام جابر رضي الله عنه، فأطعم مَنْ كان في الخندق يوم غزوة الأحزاب حين كانوا يحفرون الخندق.

ألم ينكب **سَوَادُ بْنُ غَزِيَّةَ** ﷺ في غزوة بدر يقبِّل بطن رسول الله ﷺ، فيسأله ﷺ: «**مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟**» فَقَالَ: «**حَضَرَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا قَدْ تَرَى، وَخَشِيتُ الْقَتْلَ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِي بِكَ أَنْ يَمَسَّ جِلْدِي جِلْدَكَ، وأَنْ أَعْتَنِقَكَ**»، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

[**ينظر غزوة بدر ـ د/ محمد أبو فارس ص ٥١**].

ألم يقف سهيل بن عمرو ﷺ عند المنحر يوم حجة الوداع يقرِّب إلى رسول الله ﷺ بدنة، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده، ويأخذ من شعر رسول الله ﷺ ويضعه على عينيه حين حلق شعره تبركًا.

[**ينظر غزوة الحديبية ـ د/ محمد أبو فارس ص ٧**].

ألم يزدرد أبو عبيدة عامر بن الجراح ﷺ في غزوة أُحُد شيئًا من دم رسول الله ﷺ حينما خلع حلقة المغفر من جسم رسول الله ﷺ، فلم ينكر عليه ذلك.

وإننا نقرأ في كتب السنة النبوية أن أحد التابعين كان يحرص على تقبيل يد أنس بن مالك ﷺ لأن هذه اليد مست يد رسول الله ﷺ، تأمل: يقول التابعي لأنس ﷺ: أمسست بيدك يد رسول الله ﷺ، فيقول أنس ﷺ: نعم، فيقول التابعي: أعطني يدك أقبلها.

ولما طلبت المرأة التي بايعت رسول الله ﷺ أن تبايعه كما بايعه الرجال حرصًا على أن تنال البركة بمصافحة رسول الله ﷺ، قال: **إني لا أصافح النساء**.

[**نفثات صدر المكمد وقرة عين المسعد شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد ٢/ ٩٢٥**].

هذا هو دافع المرأة في المصافحة، الحرص على حصول البركة لها، بالمصافحة وحتى لا يأتي من يعتمد على هذا ليبيح المصافحة، مصافحة الرجل للمرأة الأجنبية، لم يرض رسول الله ﷺ بالمصافحة.

قال السفاريني في شرحه لثلاثيات مسند الإمام أحمد ﷺ في شرحه للحديث: ومقصودها هنا (أي مقصود المرأة التي طلبت المصافحة كالرجال في البيعة) بايعنا بيدك الشريفة، وتحصل لنا بركة ذلك؛ ولذا قال مجيبًا لسؤالها: **لا أصافح النساء**. [**المصدر السابق ٢/ ٩٢٧**].

أجل إنه حب رسول الله ﷺ الذي لا يجد الإنسان المسلم غضاضة في أن يقبل يدي رسول الله ﷺ، ورجليه وأقدامه الشريفة المباركة، وأن يمسح عينيه بشعره الشريف.

وإني والذي نفسي بيده لتواق إلى رؤية شعرة من شعر رأس رسول الله ﷺ أو لحيته، أمسح بها وجهي وعيناي كما مسح سهيل بن عمرو وجهه وعينيه، بشعره الذي كان يتساقط وهو يحلقه ليحل من إحرامه يوم حجة الوداع، وإني والله لأسعد الناس حين أظفر بذلك.

اللهم ارزقنا حبك وحب رسولك ﷺ، وحب من يحب رسولك ﷺ، ووفقنا للالتزام بطاعته، والاقتداء بسنته، والثبات على دربه، والوفاة على الإيمان، والستر الجميل في الدنيا والآخرة.

(٣) وهناك حكمة ثالثة ألمح إليها صاحب شرح المواهب اللدنية ﷺ بقوله: (حتى لا يعود لمثلها)، ما العلاقة بين أن يطلقه الرسول ﷺ بيده، وبين عدم العودة لمثل تلك الخطيئة؟

أقول: إن أبا لبابة ﷺ حين يستذكر أو يمر في خاطره أنه ارتكب الخيانة في غزوة بني قريظة، فأفشى سرًّا من أسرار المسلمين، وحدَث ما حدث له بعدها من الشدة والمعاني، ثم تكرم الله ﷻ عليه بقبول توبته، وتفضل عليه رسول الله ﷺ بإطلاقه بيده بناء على رغبته وطلبه، يخجل من ربه، ومن نفسه، ويجد حرجًا شديدًا كيف يواجه رسول الله ﷺ، وقد تفضل عليه، وأحسن إليه، إن هذا سيكون له دافعًا لهجر المعاصي، التي أوقعته في القيد الذي فكه رسول الله ﷺ، وإذا وقع في القيد من يفكه؟

إن الإنسان المؤمن الشريف إذا ذكر لإنسان فضلًا عليه، فإن الوفاء والمروءة تقضيان عليه أن يقابل أهل الفضل بالفضل، والإحسان بالإحسان، بل يسعى جاهدًا ليكافئ أهل الفضل فلا يغضبهم، بل يقوم بكل ما يسرهم، ويرضيهم، ويُدخل السرور إلى أنفسهم.

والمسلم كأبي لبابة ﷺ الصحابي الجليل الذي تاب الله عليه، ومَنَّ رسول الله ﷺ بإطلاقه بيده، وفرح بتوبته لأولى أن يخجل منه، ويستحيي منه، فيكف عن مثل هذه المعاصي، بل ويتبعها بالطاعات، كصوم النافلة، والصدقة وما إلى ذلك.

هذا هو تفسيرنا لعبارة صاحب شرح المواهب اللدنية عبد العظيم الزرقاني ﷺ حين قال: (تعظيمًا له، ورجاء حصول بركته، وحتى لا يعود لمثلها)». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٨٠-٨٤**].

٢٣ ـ تعلق المؤمن بالشهادة والجهاد:

يقول د/ أبو فارس: «ترى هذا التعلق، وهذا الشغف عند سعد بن معاذ ﷺ،وهو يدعو الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يُبقيه لقتال قريش إن بقي معارك يخوض فيها القتال ضدها؛ انتقامًا لله ﷻ، ولرسوله ﷺ، فقد آذت قريش رسول الله ﷺ، ومَنْ آمن معه من أهلها وأخرجتهم من مكة.

وهو يحرص على الشهادة أيضًا ويتمناها، ويدعو الله بقلب مخلص أن يرزقه إياها إن كان قد قدَّر أن قريشًا لن تغزو المسلمين، وتكون غزوة الأحزاب آخر غزوة يهاجَم فيها المسلمون.

أقول: لقد كان سعد بن معاذ ﷺ يحرص على الشهادة ويتمناها لِما كان يعلم ويتعلم من رسول الله ﷺ من منزلة الشهيد ومكانته عند الله تبارك وتعالى، سواء بما يتلو عليه وعلى أصحابه من آيات القرآن، أو بما يحدثهم من حديثه الشريف عن هذه المنزلة، فهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾[آل عمران]، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[البقرة].

وهذه الحياة التي يتحدث عنها القرآن الكريم الخاصة بالشهيد تجعل كل مسلم حريص عليها أن يتمنى الشهادة، ويسأل الله أن يرزقه موتة الشهداء. [سبق تفصيل الحديث عن الشهداء ومكانتهم وأحكامهم في المبحث الرابع من الدروس المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة أُحد].

وإن الشهيد يتمنى أن يعود إلى الدنيا ويُقتل مرات لِما يرى من التكريم والمنزلة الرفيعة التي يمنها الله تعالى على الشهداء.

قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما: لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ لِي: «**يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتُشْهِدَ أَبِي قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا، قَالَ: «**أَفَلاَ أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: «**مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا** (مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول)، **فَقَالَ: يَا عَبْدِي! تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ! تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيةً**، قَالَ الرَّبُّ ﷻ: «**إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لاَ يُرْجَعُونَ**»، [قَالَ يَا رَبِّ فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي]، قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[آل عمران]».

[الترمذي في التفسير (٣٠١٠)، وابن ماجه في المقدمة (١٩٠)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ فَقَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: «**أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ القَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَل تَشْتَهُونَ [تَسْتَزِيدُونَ] شَيْئًا [فَأَزِيدُكُمْ]، قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي [رَبَّنَا وَمَا نَسْتَزِيدُ] وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَـمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَـمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَـهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا**».

وفي رواية عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مِثْلَهُ وَزَادَ فِيهِ: «**وَتُقْرِئُ نَبِيَّنَا السَّلَامَ، وَتُخْبِرُهُ عَنَّا أَنَّا قَدْ رَضِينَا وَرُضِيَ عَنَّا**». [مسلم في الإمارة (١٨٨٧)، والترمذي في التفسير (٣٠١١)].

وفوق هذا فإن الله يكرم الشهيد بأن يُشفِّعه في سبعين من أهل بيته من المسلمين.

عَنْ نِمْرَانَ بْنِ عُتْبَةَ الذِّمَارِيِّ قَالَ: دَخلنَا عَلَى أُمِّ الدَّرْدَاءِ وَنَحْنُ أَيْتَامٌ، فَقَالَتْ: أَبْشِرُوا فَإِنِّي سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُشَفَّعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ**».

[أبو داود في الجهاد (٢٥٢٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وفي سنن النسائي: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: **يَا رَسُولَ اللهِ! مَا بَالُ الْمُؤْمِنِينَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا الشَّهِيدَ؟** قَالَ ﷺ: «**كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً**». [النسائي في الجنائز (٢٠٥٣)، وقال الألباني: صحيح].

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٢٧-١٣٠].

٢٤ ـ إخلاص النية في الجهاد والاستشهاد:

يقول د/ أبو فارس: «هذا نفقهه من قول سعد بن معاذ ﷺ في دعائه: **اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ كَذَّبُوا رَسُولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ**، وقوله أيضًا: **فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي لَهُ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ**.

نعم إن الجهاد الحق هو الجهاد الذي يكون في سبيل الله؛ ولإعلاء رايته وليس لمغنم ولا لجاه، ولا لسمعة، ولا لسلطان، ولا ليُمدح عند الناس، فإن كان الجهاد لواحدة من هذه الأمور أو لجميعها فليس جهادًا، والموت في سبيلها ليس شهادة تستحق المنزلة الرفيعة عند الله ـ تبارك وتعالى ـ هذا ما أخبر به الرسول ﷺ، فعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ [وفي رواية: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً] فَمَنْ فِي سَبِيلِ الله؟ قَالَ ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله**».

[البخاري في العلم (١٢٣)، وفي الجهاد والسير (٢٨١٠)، وفي فرض الخمس (٣١٢٦)، وفي التوحيد (٧٤٥٨)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٦)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٦)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٨٣)، وأحمد رقم ١٨٩٩٩، ١٩٠٩٩، ١٩١٣٤، ١٩٢٤٠، ١٩٢٤١].

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٣٠-١٣١].

٢٥ ـ المؤمن ذو فراسة:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان سعد بن معاذ ﷺ ذا فراسة، يتوقع الأمور قبل حدوثها، يستنتجها من الظروف والأحوال والأمارات الدالة عليها، ومن جملة ذلك فراسته في غزوة الأحزاب بأنها آخر غزوة يتعرض فيها المسلمون لهجوم قريش، تأمل قوله: **اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ**.

وهذه الفراسة قد صدقت فعلًا إذ تحول المسلمون بعد هذه الغزوة إلى مهاجمين، يهاجمون قريشًا في عقر دارها، ويفتحون مكة في أول صراع دام بعد غزوة الأحزاب، ويؤكد ظن سعد بن معاذ ﷺ قول رسول الله ﷺ بعد غزوة الأحزاب: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**».

[البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣٠/ ٢٤٠، ٢٤١ عن سليمان بن صرد ﷺ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ٤٥/ ١٨٤ رقم ٢٧٢٠٦]. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٣١-١٣٢].

قال ابن حجر في الفتح: «وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ ظَنَّ سَعْدٍ ﷺ كَانَ مُصِيبًا، وَأَنَّ دُعَاءَهُ فِي هَذِهِ القِصَّةِ كَانَ مُجَابًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَقَع بَيْن المُسْلِمِينَ وَبَيْن قُرَيْش مِنْ بَعْد وَقْعَةِ الخَنْدَقِ حَرْبٌ يَكُونُ اِبْتِدَاء القَصْد فِيهَا مِنْ المُشْرِكِينَ، فَإِنَّهُ ﷺ تَجَهَّزَ إِلَى العُمْرَةِ فَصَدُّوهُ عَنْ دُخُولِ مَكَّةَ وَكَادَ الحَرْبُ أَنْ يَقَع بَيْنَهُمْ فَلَمْ يَقَع كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح]، ثُمَّ وَقَعَتْ الهُدْنَةُ وَاعْتَمَرَ ﷺ مِنْ قَابِلٍ، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ إِلَى أَنْ نَقَضُوا العَهْدَ، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ غَازِيًا فَفُتِحَتْ مَكَّةُ». [فتح الباري ٧/ ٢٩٢].

وقد قال رسول الله ﷺ في منصرفه عن غزوة الأحزاب، فيما رواه البخاري: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**». [البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣٠/ ٢٤٠، ٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ٤٥/ ١٨٤ رقم ٢٧٢٠٦].

وأخرج البزار بإسناد حسن من حديث جابر أنه ﷺ قال يوم الأحزاب، وقد جمعوا له جموعًا كثيرة: «**لَا يَغْزُوكُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَكِنْ تَغْزُوهُمْ**». [مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٢ في المغازي والسير (١٠١٥٧)، وقال الهيثمي: رواه البزار [كشف الأستار عن زوائد البزار ٢/ ٣٣٦ رقم ١٨١٠]، ورجاله ثقات. وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٧/ ٤٦٨: إسناده حسن]. [فقه السيرة للبوطي ٢٤١-٢٤٢].

٢٦ ـ يستجيب الله دعاء المتقين المخلصين، والرسول ﷺ يأمر بإكرامهم:

يقول د/ فيض الله: «كان سعد بن معاذ ﷺ سيد الأوس، الذين كانوا حلفاء بني قريظة؛ وقد أُصيب يوم الأحزاب، ودعا دعوةَ بني قريظةَ، فاستجاب له ربه، وحكم فيهم، فحكم عليهم، وكان حكمه هو حكم الله من فوق السموات.

وهذا دعاء يتجلى فيه الإخلاص لله في حرب قريش التي آذت الرسول ﷺ وكذبته، وفي طلب الشهادة في سبيله، وفي شفاء غليل النفس من خيانة اليهود، ونقضهم العهود، وتمالؤهم المقبوح لاجتياح المسلمين؛ وقد سمع الله ـ تعالى ـ هذا الدعاء المخلص، واستجاب له.

كان جرح سعد ﷺ بليغًا، فأمر النبي ﷺ بمداواته في خيمة رفيدة في مسجده، وكانت تداوي فيها الجرحى، وتخدم من كانت به ضيعة من المسلمين، وقال ﷺ: «**اجْعَلُوهُ فِي خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ**».

وحينما جاء سعد ﷺ ليحكم في بني قريظة، يقول الرسول ﷺ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ إِلَى خَيْرِكُمْ**».

وكفى بهذا تكريمًا لسعد ﷺ، وتقديرًا لشخصه، إذ سماه سيدًا، وأمر بالقيام له؛ فحكم بحكمه الحاسم الفاضل، كما رأينا، بعد أن أخذ المواثيق على التسليم بحكمه، ونفذ الحكم في بني قريظة، فاسْتُجِيبَتْ دعوتُه، وَقَرَّتْ عينُه، بوضع السيف فيهم، والإجهاز عليهم.

وكان قد انْدَمَلَ جرحُهُ الذي أصابه يوم الخندق، فاستجيبت دعوته الأولى، بأن يُسْتَشْهَدَ في حرب قريش.

وليس ذلك فحسب كل ما أُكْرِمَ به سعد ﷺ، بل غير ذلك الكثير مما فصلنا القول فيه من قبل.

وهكذا يستجيب الله ﷻ دعاء أوليائه المخلصين المتقين، وهكذا يحتفي بهم في الدنيا، وفي أول برازخ الآخرة، ويخصهم برحمته، ويسخر ملائكة لخدمتهم؛ وهكذا أيضًا يكرم رسول الله ﷺ أولياء الله المُجَابِي الدعوة، فيأمر بالقيام لهم احترامًا وإجلالًا، وَيُشَيِّعُ جنازتهم، ويشهد دفنهم، وَيُشِيدُ بما يرى لهم من تكريم في قبورهم في الأرض، ولأرواحهم في أعالي السماء.

وغني عن البيان بعد هذا، أن قصة سعد ﷺ هذه أشارت في ثناياها إلى شرعية تسويد أعلام المسلمين من الصحابة وغيرهم، والقيام لأهل العلم والفضل في الدين - كما تقرره كتب الفقه والحديث؛ كما أشارت إلى كرامات الأولياء، في الحياة وبعد الممات - كما تقرره كتب التوحيد.

اللهم اجعل لنا في سعد ﷺ وأمثال سعد ﷺ، أسوة صالحة، وقدوة تُحْتَذى، في إخلاص العمل، وتعلق القلب بالانتصار لدين الله، والشهادة في سبيله». [صور وعبر لفيض الله ٢٦٣-٢٦٦].

٢٧ - عدم المحاباة في الحق:

يقول د/ أبو فارس: «حُكم سعد ﷺ لم يجامل فيه أحدًا، ولم تأخذه في الله لومة لائم، بل كان منطلقًا من عقيدته ودينه، ليس للدنيا أثر في حُكمه، وهكذا ينبغي على كل مسلم ألا تأخذه في الله لومة لائم، لا يحابي أحدًا ولا يظلم عدوًّا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٨].

لقد ضرب سعد ﷺ بعرض الحائط كل الرجاءات ونطق الحكم الذي وافق حكم الله من فوق سبع سموات.

إن موقف سعد ﷺ من مواليه بني قريظة وحكمه عليهم، وعدم أخذه في ذلك لومة لائم، فلم ينظر إلى مصلحة خاصة أو مصلحة لقومه، فلم يدافع عنهم، ولم يخفف الحكم عنهم كما وقف عبد الله بن أبي ابن سلول حين دافع عن بني قينقاع، وألح على الرسول ﷺ فيهم حتى وهبهم رسول الله ﷺ له، وأجلاهم عن المدينة دون أن يعاقبهم، نتعلم منه الحب في الله والبغض في الله، وهي من أمارات الإيمان الصافي الحي». [غزوة الأحزاب لأبي فارس ١٥٢، ١٦٦].

٢٨ - فضل سعد ﷺ:

يقول د/ المدخلي :«كان سعد ﷺ في أثناء حياته ملازمًا لرسول الله ﷺ لم يخرج إلى غزوة إلا خرج سعد ﷺ معه، فنجده في الغزوات المشهورة والعظيمة مثل بدر، وما قام به من دور فيها مشهور، وفي غزوة أحد كان له دوره المشرِّف، وجاءت غزوة الخندق حيث أراد الله له الحسنى فضرب أروع الأمثلة.

وحتى بعد أن رُمي في أكحله استمر مجاهدًا في سبيل الله حتى حقق الله ما طلب وشفى قلبه من اليهود الذين خذلوا دين الله وخذلوا رسوله في وقت عصيب، ولكن الله ﷻ رد كيدهم في نحورهم، وحَكَّم فيهم سعدًا ﷺ، فأُخذوا وقتلوا تقتيلًا على مرأى ومسمع من المسلمين، وذلك انتقام من الله جزاء بعض ما فعلوه.

عقب ذلك كله مات ﷺ راضيًا مرضيًّا.

ويظهر فضله ويبرز للعيان بعد موته، ونعمت النهاية التي جاهد في حياته لنيلها يتمثل ذلك في اهتزاز العرش لموته.

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَنَازَةُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رضي الله عنه بَيْنَ أَيْدِيهِمْ: «**اهْتَزَّ لَهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ**». [مسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٢٤٦٦)، كما رواه البخاري والترمذي والنسائي ولفظه «تحرك له العرش» ـ ولم يذكر فيه سعد ـ وابن ماجه وأحمد].

وكانت هذه المنقبة العظيمة له عند موته.

كما أن منزلته رضي الله عنه في الجنة عظيمة وذلك لما قدمه من تضحيات وفداء في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمته ونصر دينه فوفاه الله ما وعده لذلك روى البخاري رحمه الله بسنده عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِثَوْبٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَجَعَلُوا يَعْجَبُونَ مِنْ حُسْنِهِ وَلِينِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا**».

[البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٩)، ومواضع أخرى، كما رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد].

هذا جانب من دوره رضي الله عنه في سبيل نصر هذا الدين، حتى إنه وفي آخر أيامه وبعد إصابته في أكحله صبر وصابر واحتسب وهانت نفسه في سبيل الله ودعا بدعائه المشهور وأبقاه الله حتى نفذ حكم الله في أعداء الله وأعداء رسوله وما مات حتى قرت عينه ورضي قلبه من أولئك اليهود الذين ما فتؤوا يكيدون للإسلام وأهله ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

أما حُكمه رضي الله عنه في بني قريظة فكان قويًّا ومؤثرًا وقاطعًا لدابر أي محاولة أخرى من قبل اليهود حيث صدر الحكم ممن يرجون ويأملون منه المساعدة، وهذه حكمة الله حيث أهلكهم بحكم سعد رضي الله عنه، وكانوا حلفاءه ومواليه، ولكنه رضي الله عنه أطلق كلمته المشهورة: «**لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ**».

قال ابن سعد: «وبعد أن حكم فيهم مرت عنز وهو مضطجع فأصابت الجرح بظلفها فما رقأ حتى مات». [الطبقات الكبرى ٢/ ٧٨، فتح الباري ٧/ ٤١٥]. [مرويات غزوة الخندق ٣٦٢-٣٦٦].

ويقول د/ البوطي: «وإنك لتقف خلال اطلاعك على هذه الغزوة، على مزية كبرى لسيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه، فإنك لتجد ذلك أولًا في إعطاء النبي ﷺ له صلاحية الحكم بما يشاء على بني قريظة، وجعل موقفه منه ـ وهو رسول الله ﷺ ـ موقف الموافق والمؤيد لكل ما سيحكم به، ونجد ذلك ثانيًا في أمر النبي ﷺ للأنصار بالقيام إليه حينما أقبل إليهم، وتلك مزية كبرى لسعد رضي الله عنه حينما يكون هذا الأمر صادرًا من رسول الله ﷺ.

ثم تجد ذلك في قصة الجرح الذي كان قد أصابه في كاحله في غزوة الخندق، لقد رفع يديه يدعو الله تعالى يوم أن أصابه هذا الجرح قائلًا: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ مِنْ قَوْمٍ**

كَذَّبُوا رَسُولَكَ ﷺ وَأَخْرَجُوهُ، اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي لَهُ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ»، وقد استجيب دعاء سعد بن معاذ ﵁ فتحجر جرحه وتماثل للشفاء، حتى كانت غزوة بني قريظة، وجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليه، وكفى الله المؤمنين شر اليهود وتطهرت المدينة من أرجاسهم، رفع سعد ﵁ يده يدعو الله ثانية يقول: «**اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ** (يعني قريشًا والمشركين)،... **فَإِنْ كَانَ بَقِيَ مِنْ حَرْبِ قُرَيْشٍ شَيْءٌ فَأَبْقِنِي لَهُ حَتَّى أُجَاهِدَهُمْ فِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ وَضَعْتَ الحَرْبَ فَافْجُرْهَا وَاجْعَل مَوْتَتِي فِيهَا**»، وقد استجيب دعاؤه فانفجر جرحه تلك الليلة ومات رحمه الله تعالى». [فقه السيرة للبوطي ٢٤١].

ويقول د/ أبو فارس: «إن اختيار رسول الله ﷺ سعد بن معاذ ﵁ ليحكم في يهود بني قريظة دليل على منزلة سعد ﵁ عند رسول الله ﷺ، كما هو دليل على كفاءة سعد ﵁ وقدرته أن يبتَّ في هذه القضية، وقد حكم فيها فعلًا فوافق حُكمه حُكم الله ﷻ في السماء، وأي رأي أصوب من أن يؤيَّد بالوحي؟!

وهو تزكية من رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ ﵁، بأنه حقاني، لا يتأثر بضغوط الأقارب عليه، ورجائهم له، وتذكيره بالماضي، وبأحلافه، وفي معمعة الرجاء والإلحاح فيه، لا ينسى ما فعلت بنو قريظة برسول الله ﷺ بالمسلمين، وما أقدمت عليه من غدر وخيانة، وأنها تستحق العقوبة الزاجرة.

إننا لا نبالغ إذا قلنا: إن سعد بن معاذ ﵁ كان خير رجل في الأنصار بإيمانه وغيرته على الإسلام، ونشره له، ومقاتلته لأعدائه، فهو بحق سيد الأنصار وخيرهم كما قال رسول الله ﷺ».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٠٥-١٠٦].

٢٩ ـ سعد بن معاذ ﵁ والتربية الإيمانية العالية:

يقول د/ الغضبان: «أما ثالث الثلاثة وسيدهم فهو البطل العظيم الذي يفتقده أهل السماء وأهل الأرض في الخندق إنه سعد بن معاذ ﵁، ولئن كانت المصيبة الجلل لرسول الله ﷺ في بدر بابن عمه عبيدة بن الحارث ﵁، وفي أُحُد بعمه حمزة بن عبد المطلب ﵁، فقد كانت مصيبته ومصيبة المسلمين والملائكة في الخندق باستشهاد سعد بن معاذ ﵁.

ولنرافق سعد في لحظاته الأخيرة، ليكون على رأس من قال فيهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

(١) نشير ابتداءً إلى حديث رسول الله ﷺ في فضل دور الأنصار: «**خَيْرُ دُورِ الأَنْصَارِ بَنُو النَّجَّارِ، ثُمَّ بَنُو عَبْدِ الأَشْهَلِ، ثُمَّ بَنُو الحَارِثِ بْنِ خَزْرَجٍ، ثُمَّ بَنُو سَاعِدَةَ، وَفِي كُلِّ دُورِ الأَنْصَارِ خَيْرٌ**».

[البخاري في مناقب الأنصار ﵃ (٣٧٨٩) ومواضع أخرى، ومسلم في الفضائل (١٣٩٢)، ومواضع أخرى، والترمذي في الفضائل (٣٩١١)، وأحمد في المسند عن أنس بن مالك ﵁].

(٢) وسيد بني عبد الأشهل هو سعد بن معاذ ﵁ بلا منازع، وهو سيد الأوس جميعًا.

نَقَلَ ابْنُ الكَلْبِيِّ، عَنِ عَبْدِ الحَمِيْدِ بنِ أَبِي عِيْسَى بنِ جَبْرٍ، عَنْ أَبِيْهِ أَنَّ قُرَيْشًا سَمِعَتْ هَاتِفًا عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ يَقُوْلُ:

فَإِنْ يَسْلَمِ السَّعْدَانِ يُصْبِحْ مُحَمَّدٌ ... بِمَكَّةَ لاَ يَخْشَى خِلَافَ المُخَالِفِ

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: مَنِ السَّعْدَانِ؟ سَعْدُ بَكْرٍ سَعْدُ تَمِيْمٍ؟ فَسَمِعُوا فِي اللَّيْلِ الهَاتِفَ يَقُوْلُ:

أَيَا سَعْدُ سَعْدَ الأَوْسِ كُنْ أَنْتَ نَاصِرًا ... وَيَا سَعْدُ سَعْدَ الخَزْرَجِيْنَ الغطارف

أَجِيْبَا إِلَى دَاعِي الهُدَى وَتَمَنَّيَا ... عَلَى اللهِ فِي الفِرْدَوْسِ مُنْيَةَ عَارِفِ

فَإِنَّ ثَوَابَ اللهِ لِلطَّالِبِ الهُدَى ... جِنَانٌ مِنَ الفِرْدَوْسِ ذَاتُ رَفَارِفِ

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: هُوَ ـ وَاللهِ ـ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، وَسَعْدُ بنُ عُبَادَةَ. [سير أعلام النبلاء ١/ ٢٨٠، وقال المحقق فيه: «ذكره البخاري في التاريخ الصغير ١/ ٢٥- ٢٦ وعند مسلم وعدد الأبيات اثنان»].

(٣) وبإسلامه تحولت عشيرته كلها إلى الإسلام: «أَسْلَمَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ ﷺ عَلَى يَدِ مُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ ﷺ، فَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: لَمَّا أَسْلَمَ وَقَفَ عَلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: **يَا بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ! كَيْفَ تَعْلَمُوْنَ أَمْرِي فِيْكُمْ؟** قَالُوا: **سَيِّدُنَا فَضْلًا، وَأَيْمَنُنَا نَقِيْبَةً**، قَالَ: **فَإِنَّ كَلاَمَكُم عَلَيَّ حَرَامٌ، رِجَالُكُمْ وَنِسَاؤُكُمْ، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُوْلِهِ**، قَالَ: فَوَاللهِ مَا بَقِيَ فِي دَارِ بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ رَجُلٌ وَلاَ امْرَأَةٌ إِلَّا وَأَسْلَمُوا.

[سير أعلام النبلاء ١/ ٢٨٠].

(٤) ونعود إليه في الخندق، وقد شهدناه عند حلفائه بني قريظة الذين لم يرعوا له حلفًا، ولا ذمة، ورأيناه كالسبع الضاري في مواجهة غطفان حين قال كما ذكرنا في غزوة الأحزاب.

إن بعض الرجال لَيحققون المنعطفات التاريخية، وسعد بن معاذ ﷺ أحد هؤلاء الرجال العظام، الذين كتبوا التاريخ بأعمالهم، وحققوا أهم المنعطفات فيه، في إسلامه، وفي موقفه في بدر، وفي موقفه في الخندق، وها هو نشهده في ختام حياته يحقق ذلك المنعطف التاريخي في بني قريظة.

(٥) وكما سقط البطل العظيم حمزة ﷺ صريعًا غيلة فلا يجرؤ على مواجهته أَحد، نجد سعدًا ﷺ يلقى المصير نفسه من بعيد، وقد قصت علينا عائشة ﷺ قصة جرحه، وقصة تحكيمه، وقصة وفاته.

ونتوقف قليلًا أمام دعائه الأخير، فهو دعاء عجيب، دعاء العظماء الذين يعرفون أن رسالتهم في الحياة ليست الاستشهاد فقط، بل متابعة الجهاد إلى اللحظة الأخيرة، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه وأمته.

ونجد عظمة فراسته ﷺ يوم يقول: «**فَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّكَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ**»، ومن كان يدرك من الأمة أن هذه هي الحرب الأخيرة بين رسول الله ﷺ وقريش، وقريش تقرع أبواب المدينة بعشرة آلاف مقاتل هي وحلفاؤها، لكنه يدرك بسعة أفقه، وبُعد نظره، أن هذه هي آخر محاولة لقريش فهي أعجز أن تفعل بعد الآن أكثر مما فعلته.

وهو المعنى الذي حدده رسول الله ﷺ فيما بعد: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**».

[البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣٠/ ٢٤٠، ٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ٤٥/ ١٨٤ رقم ٢٧٢٠٦].

إنه القائد العظيم الذي يستشف بالبصيرة النافذة التي أعطاه الله إياها حجب الغيب وهو يدرس سنن النصر والهزيمة في الأمم: «**وَلا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ**».

فهناك هدف آخر يرجوه من ربه قبل أن ينتقل من هذا العالم، هو أن يشتفي من بني قريظة حلفاء الأمس غدار اليوم وأعداء اليوم، إنه يعزم على ربه.

وكما نراه لو أقسم على الله لأبره، فهو وجيه في السماوات والأرض، فقد شاءت إرادة المولى ـ تعالى ـ أن يعيد الأمر في بني قريظة كله إليه، وأن يطلب بنو قريظة أن يكون الحُكم فيهم لسعد بن معاذ ﵁.

إنه لا يحرص كثيرًا على الحياة، بعد انتهاء الجهاد، وانتهاء المسؤولية، وتأدية الأمانة المناطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من الناس، فإذا انتهت الحرب، ووضعت الحرب بين المسلمين وقريش، وشفى غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة، وبدأ قطف الثمار للإسلام فلا ثمرة أشهى عنده من الشهادة «**وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَضَعْتَ الحَرْبَ فَافْجُرْ هَذَا الكَلْمَ، وَاجْعَلْ مَوْتِي فِيهِ**».

ومن تحتفل السماوات بمقدمه، ويهتز عرش الرحمن لاستقباله لا عجب أن تلبى مطالبه الثلاثة عند ربه، فهو حبيب إلى ربه ومقرَّب إليه، وآن الأوان لأن يرى بعينه مصرع بني قريظة، ويشهد انحسار المشركين خائبين يجرون أذيال الهزيمة.

(٦) **وبضدها تتميز الأشياء:** وحكَّم رسول الله ﷺ سعدًا في بني قريظة، وجاءه بعض قومه يريدون أن يخفف الحكم عليهم، وأن يفعل معهم كما فعل عبد الله بن أُبي مع بني قينقاع، وحَسِبَ بعض الأوس أن هذا الشرف لابن أُبي عند الخزرج لابد أن يُعامل سعد بن معاذ ﵁ بمثله فينقذ حلفاءه، كما أنقذ ابن أُبي حلفاءه، فراحوا يذكِّرون سعدًا ﵁ بهذه المزية.

هذا الاتجاه كان عند بعض رجالات الأوس، وبعضهم مغموص عليه بالنفاق، وبعضهم يَذكر الماضي كله، وينسى واقع نقضهم للعهد أو يتناساه، ولكن هؤلاء لم يكونوا مع سعد بن معاذ وأسيد ابن حضير يوم مضوا إلى بني قريظة يذكرونهم بعهد رسول الله ﷺ ـ وهو أعظم العهود كلها ـ فقد قال سيدهم كعب: لا نرده أبدًا قد قطعتُه كما قطعت هذا القبال ـ لقبال نعله... ونالوا من رسول الله ﷺ ومن المسلمين أقبح الكلام، وشتموا سعد بن عبادة ﵁ شتمًا قبيحًا حتى أغضبوه... ولم يكونوا مع سعد بن معاذ ﵁ يوم قال نباش بن قيس أحد قادتهم لسعد بن عبادة سيد الخزرج: عضضت ببظر أمك، ولم يكونوا مع سعد يوم قال له غزال بن سموأل: أكلت أير أبيك.

فسعد ﷺ إذن غدا أعظم ضراعته عند ربه: «**وَلا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فإذا أمر بني قريظة كله يلقى إليه، سواءً اختاره بنو قريظة ليحكم فيهم أو اختاره رسول الله ﷺ ليهدئ بعض هذه النفسيات الأوسية، فكان جواب سعد الحاسم القاصم على هذا الرجاء كله من بعض أفراد قومه الذي يلحون عليه، كلمة واحدة خالدة: قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.

وعرف هؤلاء الأفراد على ضوء هذه الكلمة أن بني قريظة قد انتهوا، فنعوهم إلى قومهم، وكان هذا الحكم الذي وافق حكم رب السموات والأرض: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ ﷻ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ**».

لكن الأوس لم يكونوا في معظمهم على رأي طالبي العفو.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَجَاءَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَالحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ - وهما من الخزرج - فَقَالا: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ الأَوْسَ كَرِهَتْ قَتْلَ بَنِي قُرَيْظَةَ لِمَكَانِ حِلفِهِمْ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ ﷺ (سيد الأوس): يَا رَسُولَ اللهِ! مَا كَرِهَهُ مِنَ الأَوْسِ مَنْ فِيهِ خَيْرٌ، فَمَنْ كَرِهَهُ مِنَ الأَوْسِ لا أَرْضَاهُ اللهُ.

فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لا تُبْقِيَنَّ دَارًا مِنْ دُورِ الأَوْسِ إِلَّا فَرَّقْتَهُمْ فِيهَا، فَمَنْ سَخِطَ ذَلِكَ فَلا يُرْغِمُ اللهُ إِلَّا أَنْفَهُ، فَابْعَثْ إِلَى دَارِي أَوَّلَ دُورِهِمْ.

وإذا كان أمر الله انتهى بابن أُبي فهو منهم: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة].

فأين انتهى الأمر بالعظيم الخالد سيد الأوس سعد ﷺ؟! نتابع الخطى معه إلى لحظاته الأخيرة، وقد أقر الله عينه ببني قريظة، ووضع الحرب مع قريش.

(٧) ها هو سعد ﷺ يرى تحقق كل آماله لحظة واحدة، فقد أصدر حُكمه، وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم، وها هو جرحه ينفجر، ويلقى الله شهيدًا ويستجيب الله بقية دعائه، ويحيط الله وفاته بكرامات تشهد بفضله عند الله ﷻ وعند رسوله ﷺ.

(٨) وتحدثنا عائشة - رضوان الله عليها - عن واقع فقدان سعد ﷺ على الأمة المسلمة كلها فتقول: «**مَا كَانَ أَحَدٌ أَشَدَّ فَقْدًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ أَوْ أَحَدِهِمَا مِنْ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**».

ولا عجب فعنده من المقومات والكفاءات، والقدرات والطاقات، ما لا يملكها إلا القليل القليل غيره، ولا شيء أعظم في تقدير هذه الكفاءات والطاقات من هذا الحكم النبوي العظيم من رسول الله ﷺ وهو يسمع بكاء أم سعد ﷺ تتحدث عن مآثره، فيقول ﷺ: «**كُلُّ نَائِحَةٍ تَكْذِبُ إِلَّا نَائِحَةَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**»، وفي رواية: «**كُلُّ بَاكِيَةٍ مُكْثِرَةٌ إِلَّا أُمَّ سَعْدٍ، مَا قَالَتْ مِنْ خَيْرٍ فَلَمْ تَكْذِبْ**».

ولا عجب أن تبكي أم سعد بن معاذ ﷺ، إذ كان سيد ولد آدم وصاحباه خير الأمة بعده بكوا سعدًا بكاءً مرًا، قَالَتْ عَائِشَةُ - رضوان الله عليها -: فَحَضَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، قَالَتْ: فَوَالَّذِي

نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ بُكَاءَ عُمَرَ مِنْ بُكَاءِ أَبِي بَكْرٍ وَأَنَا فِي حُجْرَتِي، وَكَانُوا كَمَا قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩].

ومع كل هذه المآثر والمحاسن لم ينج سعد ﷺ من ضمة القبر.

(٩) وأخيرًا نشير إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: أن هذه الشخصيات العظيمة، ما كان أن تبرز عبقريتها، ومواهبها الكامنة الكاملة بين يدي أعظم عظماء الأرض، محمد رسول الله ﷺ، وهي تمارس مسؤوليتها في جانب الجندية معظم الأحيان، فكثير من هذه النماذج التي لم يتح لها أن تتربع على مسؤولية الحكم، والقيادة في الأمة لتتفجر هذه الطاقات من خلالها، وقضت نحبها بين يدي قائدها ﷺ.

الثانية: أن سعد بن معاذ ﷺ استشهد وهو في ريعان شبابه، فقد كان في السابعة والثلاثين من عمره، يوم وافته منيته، وهذا يعني أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو في الثلاثين من عمره، ويعني كذلك أن هذه السيادة الكبرى التي جعلت قومه يقولون فيه: أفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة، والتي لم تجعل في بيته رجلًا ولا امرأة إلا دخل في الإسلام تلك الليلة، أقول: إن هذه السيادة إنما كانت إذن في العشرينيات من عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، وإنما تتفجر الطاقات الكامنة والمواهب بعد سن الأربعين، التي هي غاية الأشد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف: ١٥].

فأي طراز هذا الذي حفل تاريخه بهذه المآثر، واستبشر أهل السموات بقدومه، واهتز عرش الرحمن فرحًا بوفاته، من دون خلق الله أجمعين.

كان سعد بن معاذ، رجلًا أبيض، طوالًا، جميلًا، حسن الوجه، أعين، حسن اللحية، فرُمي يوم الخندق سنة خمس من الهجرة، فمات من رميته تلك وهو يومئذ ابن سبع وثلاثين سنة، فصلى عليه رسول الله ﷺ، ودفن بالبقيع [سير أعلام النبلاء ١/ ٢٩٠]». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ٦٨-٧٨].

٣٠ ـ معاملة الإسلام الإنسانية لغير المسلمين:

يقول الشيخ عبيد: «عند توزيع الغنائم على المحاربين أصدر النبي ﷺ أمرًا عامًّا بأنه:

١ ـ لا يفرق بين أم وولدها.

٢ ـ لا يفرق بين أخ وأخيه ما داما صغيرين.

٣ ـ سار هذا المبدأ من المبادئ الهامة التي يتمسك بها المسلمون إلى أن تقوم الساعة.

لما رواه الترمذي في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**». [الترمذي في السير (١٥٦٦)، وقال أبو عيسى: «وَفِي البَابِ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ، وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَالعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ، كَرِهُوا التَّفْرِيقَ بَيْنَ السَّبْيِ بَيْنَ الوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا، وَبَيْنَ الوَلَدِ وَالوَالِدِ، وَبَيْنَ الإِخْوَةِ»، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وعن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**لا يُفَرَّقُ بَيْنَ الأُمِّ وَوَلَدِهَا حَتَّى يَبْلُغُوا**»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ الله وَمَا بُلُوغُهُمْ؟ قَالَ: «**تَحِيضُ الجَارِيَةُ وَيَحْتَلِمُ الغُلامُ**».

ونتيجة لهذه الأوامر النبوية كتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى قادة الجيوش الإسلامية في الشام والعراق وغير ذلك يقول: «**لا تفرقوا بين الأخوين ولا بين الأم وولدها في البيع لأنه ذو رحم**».

وقد حكم الإمام الشافعي بفساد بيع المفرق بينهما سواء كان المفرق بينهما بالبيع أخوين أو أمًّا وولدها.

هذه هي الشفقة في أحلى مقاماتها الإنسانية والرحمة بكل ما اشتملت عليه من حنان وعطف ورعاية.

عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: وَهَبَ لِي رَسُولُ الله ﷺ غُلامَيْنِ أَخَوَيْنِ، فَبِعْتُ أَحَدَهُمَا، فَقَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا عَلِيُّ مَا فَعَلَ غُلامُكَ؟**»، فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ ﷺ: «**رُدَّهُ رُدَّهُ**».

[الترمذي في البيوع (١٢٨٤)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ أَهْلِ العِلمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمُ التَّفْرِيقَ بَيْنَ السَّبْيِ فِي البَيْعِ، وَيُكْرَهُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا، وَبَيْنَ الوَالِدِ وَالوَلَدِ وَبَيْنَ الإِخْوَةِ وَالأَخَوَاتِ فِي البَيْعِ، وَرَخَّصَ بَعْضُ أَهْلِ العِلمِ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ المُوَلَّدَاتِ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي أَرْضِ الإِسْلاَمِ، وَالقَوْلُ الأَوَّلُ أَصَحُّ، وَرُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ أَنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا فِي البَيْعِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي قَدِ اسْتَأْذَنْتُهَا بِذَلِكَ فَرَضِيَتْ». وقال الشيخ الألباني: ضعيف]. [غزوة الأحزاب لعبيد ٧٥].

٣١ ـ الإحسان إلى الأسرى خُلُق إسلامي:

يقول د/ أبو فارس: «إن الإسلام يحرم على أتباعه أن يمثِّلوا بالأسير، أو يعذبوه، وحتى لو حُكم بقتله، فينبغي أن تزهق روحه بأسرع وقت ممكن دون تعذيب، كما قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**». [مسلم في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (١٩٥٥)، وأبو داود في الضحايا (٢٨١٥)].

والإحسان إلى الأسير بمعاملته معاملة حسنة، فلا يُعذب ولا يُجاع ولا يُمنع عنه الماء، بل يُقدم له الغذاء والماء وما يحتاج.

هذه معاملة الأسير في الإسلام، ومن المؤسف حقًّا أن يكون في بعض السجون في البلاد الإسلامية دعاة إلى الله يُمنعون الطعام والشراب أيامًا في وقت شديد الحر، ويُقدم للمجموعة من الرجال كأس واحد من الماء كل أربع وعشرين ساعة، وكل ذلك مصحوب بالتعذيب من جلد وركل بالأرجل وكي بالنار وكسر للعظام وخنق للأحياء، وإهالة التراب على الأحياء، وإلقاء الفضلات عليهم حتى يموتوا من الرائحة النتنة موتًا بطيئًا، فيه من الآلام ما فيه.

هذه هي الحضارة، وهذا هو التقدم في القرن العشرين.

أقول: أيها المسؤولون، هَبُوا هؤلاء الدعاة أسرى وعاملوهم كمعاملة الأسرى في الإسلام إن كنتم مسلمين، أو معاملة الأسرى في القوانين الوضعية.

إن من عنده أثارة من إيمان أو عقل يذوب قلبه كمدًا لما يسمع من أحوال المسلمين في بلاد المسلمين.

لِـمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ القَلْبُ مِنْ كَمَدٍ إِنْ كَانَ فِي القَلْبِ إِسْلامٌ وَإِيمَانُ

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٠١-١٠٢].

٣٢ ـ الإسلام يُكرِّم المرأة ويعتبر شفاعتها:

يقول د/ أبو فارس: «هذه هي معاملة المرأة في هذا الدين، إنه يكرمها، ويساعدها ويشجعها على فعل الخير، تأمل هذه المرأة التي جاءت تشفع لرفاعة بن سموأل وقد لاذ بها، وكان يعرفها، فجاءت رسول الله ﷺ تقول له: **يَا نَبِيَّ الله! بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، هَبْ لِي رِفَاعَةَ**، فيهبه لها، فتنجيه من الموت.

وهكذا ينبغي أن يحرص القائد على اعتبار جنده، وتحقيق رغباتهم، فإن هذا يولد المحبة والثقة بين القائد وجنده، شريطة ألا يؤدي ذلك إلى الإضرار بالمصلحة العامة». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٦**].

٣٣ ـ المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله:

يقول د/ أبو فارس: « كم بذل حيي بن أخطب من جهد ومال لمعاداة رسول الله ﷺ، والصد عن الإسلام، فباءت محاولاته وهو في المدينة بالفشل، فلم يتعظ ويعتبر، فألَّب القبائل العربية واليهودية على قتله ﷺ وتدمير دولته فلم يفلح، وأقنع بني قريظة بضرورة نقض العهد مع الرسول ﷺ وطعنه من الخلف، فجعل الله كيده في نحره وَكَبَتَهُ، وفي النهاية قادته محاولاته إلى حتفه.

إن الله لا يهمل الظالمين، ولكنه يمهلهم، ويستدرجهم، حتى إذا أخذهم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فكان أخذه أليمًا شديدًا، قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ يُمْلِي لِلظَّالِمِ** (معنى يملي يمهل ويؤخر ويطيل له في المدة وهو مشتق من الملوة وهي المدة والزمان، بضم الميم وفتحها وكسرها)، **فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**» (أي لم يطلقه ولم ينفلت منه، قال أهل اللغة: يقال: أفلته أطلقه وانفلت تخلص منه)، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ١٠٢﴾[هود]. [**مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٣)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٨)**].

[**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٢**].

٣٤ ـ عداوة عمياء حاقدة:

يقول د/ أبو فارس: « لقد حمل حيي بن أخطب في حنايا ضلوعه قلبًا حاقدًا لا يعرف الخير إليه سبيلًا، قد أغلق قلبه عن كل نور، هو يعلم أن محمدًا رسول الله، ولكنه منذ أن قامت لديه الحجة على رسالته عاداه وقال مجيبًا على سؤال أخيه ياسر بعد أن رآه، ورأى أماراته في التوراة: **عداوته ما حييت**.

وظلت هذه العداوة تزداد رغم عفو رسول الله ﷺ وتجاوزه عن سيئاتهم، فلم يتعظ ولم يعتبر.

[**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٣**].

٣٥ ـ التجلد في موطن الشدة:

يقول د/ أبو فارس: « لقد تجلد حيي وتقدم لتُضرب عنقه حتى لا يشمت فيه شامت وهو يعرف أنه على باطل، ظالم لنفسه، قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزة بالإثم تأخذه إلى جهنم وبئس المصير؛ لأنه يعبد هواه، ولم يعبد ربه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[الجاثية: ٢٣]. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٣].

٣٦ ـ قد يموت أهل الباطل دفاعًا عن باطلهم:

يقول د/ أبو فارس: « إن المبادئ سواء كانت صحيحة أو فاسدة فإن الذي يحملها ويتحمل من جراء ذلك الألم والتعب هم الرجال الأشداء، وهم الذين يستحقون حمل المبادئ لأنهم يضحون من أجلها.

أما ضعاف الناس، ضعاف القلوب، ضعاف النفوس، ضعاف الهمم، خائرو العزائم فلا يصلحون لحمل المبادئ سواء كانت صحيحة أو فاسدة.

وإذا كان أهل الباطل يُضحون من أجل باطلهم، ويبذلون بسخاء من أجل نصرة هذا الباطل، فأولى بأهل الحق وسدنته أن يبذلوا كل ما يملكون في سبيل حقهم، وأولى بهم أن يثبتوا على هذا الحق، ويحملوه للأجيال». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٣].

«والحق أن مشركي قريش ومن رجال يهود أناس واجهوا الموت بثبات.

ولن تعدم المبادئ الباطلة والنحل الهازلة أتباعًا يفتدونها بالأرواح والأموال، غير أن شيئًا من هذا لا يجعل الباطل حقًّا ولا الجور عدلًا». [فقه السيرة للغزالي ٣٢٧].

٣٧ ـ من يخذل اللهُ يُخْذَل:

يقول د/ أبو فارس: « هذا ما نطق به حيي، نطق به لسانه، فدل على ما في جَنَانه في هذا الوقت العصيب.

وإنه عبَّر صراحة أن الله لم يكن معه يومًا من الأيام، بل كان حيي في شق الشيطان عدوًّا لأولياء الرحمن، يشاقق الله، فالله خاذله ومُسلمه لكل ما يؤذيه ويتعبه، والله تبارك وتعالى إذا تخلى عن شرير فلا توجد قوة في الأرض ولا في السماء تنصره، وتحول بينه وبين الهزيمة؛ لأن إرادة الله هي النافذة، وقدره هو الكائن، لا راد لقضائه، لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام].

نعم إن الله إذا خذل أحدًا فليس له نصير يمنعه أو يدفع عنه، قال سبحانه: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٤].

٣٨ ـ الحسد اليهودي للرسول ﷺ:

عداوة حيي للرسول ﷺ ليست مبنية على فكر سليم، ولا عقيدة صائبة وإنما هو الحسد؛ لأنه ﷺ من غير اليهود. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٤].

٣٩ ـ قول حيي: ملحمة كتبت على بني إسرائيل:

يقول د/ أبو فارس: «إن هذه الملحمة كانت بسبب من زعمائهم؛ لأنهم لم ينصحوا لأقوامهم، ولم يتبعوا الحق، بل صدوا عنه، وقاوموا أهله، إن هذه الملحمة حدثت لهم لأنهم نقضوا العهود، ونكثوا المواثيق، وخافوا وغدروا، وتخلوا عن كل القيم النبيلة، وصفات المروءة، إن هذه الملحمة حدثت لهم يوم أن أجمعوا واجتمعوا مع غيرهم على قتل الرسول ﷺ والذين آمنوا معه، ويوم أن قرروا ذبح المسلمين رجالًا ونساء وأطفالًا وشيوخًا.

فهم مسؤولون مسؤولية كاملة عن هذه الملحمة التي حلت بهم، وعن هذه المذبحة التي ذبح فيها رجالهم، وهذه الملحمة التي سبيت فيها نساؤهم وذراريهم، إنهم مسؤولون عن هذا كله، وجاء وقت الجزاء العادل، وضربت الأعناق، وهال رسول الله ﷺ التراب، دفنًا لجثثهم، ولذكراهم، ولمكرهم، ولغدرهم، ولخيانتهم، حتى يخلص الناس من شرهم». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٤-١١٥].

٤٠ ـ ما يستفاد من مقتل كعب بن أسد:

(أ) لقد علم بصدق رسالة النبي ﷺ ولكنه لم يؤمن، فأخذته العزة بالإثم، حيث حَرم نفسه نعمة الإيمان والنجاة في الدنيا والآخرة.

(ب) إن كعب بن أسد كان متعصبًا ليهوديته، وهو يعلم بطلانها.

(ج) إن كعب بن أسد لم يدخل الإسلام خوفًا من أن تعيره يهود بأنه جزع من السيف، فعدم الإيمان وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه، وحبه للثناء وخوفه من ذمه وتعييره، وهذا لعمر الحق هو السفه والحمق بعينه». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٥].

٤١ ـ ما يستفاد من قصة الزَّبير بن باطا:

(أ) الإسلام يشجع المسلم على أن يُحسن لمن أحسن إليه، ويكافئه على صنيعه، وهكذا شجع رسول الله ﷺ ثابت بن قيس حينما عرض عليه مكافأة الزبير ليدٍ له عليه في الجاهلية، فاستجاب رسول الله ﷺ لكل الطلبات التي طلبها ثابت ﷺ.

(ب) لقد أكرم رسول الله ﷺ الزَّبير بن باطا إكرامًا لثابت ﷺ فوهب له دمه وماله وأهله.

(ج) إن الزَّبير لم يؤثر فيه هذا الإحسان من رسول الله ﷺ؛ لأنه يهودي حاقد، قلبه يقطر حقدًا وحسدًا، لا يؤثر فيه شيء، وإن كانت القلوب النظيفة من الحقد والحسد تحب من أحسن إليها، وتقترب منه، وتتودد له.

(د) اليهود خالدون في النار لأنهم كفار لم يؤمنوا برسالة الرسول ﷺ ولم يعتنقوا الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران].

ولقد أخبر أبو بكر ﷺ أن الزبير سيلقى أحبته من يهود بني قريظة في نار جهنم، حيث العذاب الخالد، والتعذيب الشديد». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٥-١١٦**].

٤٢ ـ الإسلام يشجع المسلم على أن يُحسن لمن أحسن إليه، ويكافئه على صنيعه:

وهكذا شجع رسول الله ﷺ ثابت بن قيس ﷺ حينما عرض عليه مكافأة الزبير ليدٍ له عليه في الجاهلية، فاستجاب رسول الله ﷺ لكل الطلبات التي طلبها ثابت ﷺ.

ولقد أكرم رسول الله ﷺ الزَّبير بن باطا إكرامًا لثابت ﷺ فوهب له دمه وماله وأهله.

[**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٥-١١٦**].

٤٣ ـ احترام آدمية الإنسان:

يقول د/ الغضبان: «إن هذا الحكم العادل على بني قريظة، لم يكن غضبًا لنفس أو إهانة لآدمية، فلقد حرص رسول الله ﷺ على أن لا يكون التشفي والثأر هو الذي يسيطر على الموقف: أُتِيَ بِنَبَّاشِ بْنِ قَيْسٍ، وَقَدْ جَابَذَ الَّذِي جَاءَ بِهِ حَتَّى قَاتَلَهُ فَدَقَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ أَنْفَهُ فَأَرْعَفَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِلَّذِي جَاءَ بِهِ: «**لِمَ صَنَعْتَ بِهِ هَذَا؟ أَمَا كَانَ فِي السَّيْفِ كِفَايَةٌ؟**»... ثم قال ﷺ: «**أَحْسِنُوا إِسَارَهُمْ وَقَيِّلُوهُمْ وَأَسْقُوهُمْ حَتَّى يُبْرِدُوا، فَتَقْتُلُوا مَنْ بَقِيَ، لا تَجْمَعُوا عَلَيْهِمْ حَرَّ الشَّمْسِ وَحَرَّ السِّلاحِ ـ وَكَانَ يَوْمًا صَائِفًا ـ فَقَيَّلُوهُمْ وَأَسْقَوْهُمْ وَأَطْعِمُوهُمْ**»، فَلَمَّا أَبْرَدُوا رَاحَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْتُلُ مَنْ بَقِيَ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥١٤**].

إنها عظمة النبوة التي تحترم آدمية الإنسان، ولو كان يهوديًّا، حُكْمُ الله تعالى به القتل، واليوم وفي أقبية سجون مَنْ يُسمون بـ(المسلمين) من المآسي وفنون التعذيب والتجويع والإهانة والسحق ما يشيب من هوله الولدان، والأصل هو إهانة كرامة الإنسان وتمريغه بالتراب، وتجريعه غصص العذاب الذي يترفع عنه الوحوش، وكما يقول سيد قطب ﷺ: إن الوحوش تأكل لتقتات، أما هؤلاء فيتلذذون بالعذاب، ويبقى الإسلام الذي يكرم الإنسان بصفته إنسانًا، فيعاقبه بما يستحق دون شهوة غضب وحقد وتشفٍّ تنيله أكثر مما يستحق». [**المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٣١٣-٣١٤**].

٤٤ ـ حياة المؤمن مقرونة بالكفاح:

يقول الشيخ أبو خوات: «كان كعب بن أسد القرظي وادع النبي ﷺ وعاهده، ودخل النبي ﷺ المعركة وهو واضع هذا العهد موضعه من الوفاء، ولكن حيي بن أخطب فتنه عن عهده واستماله إلى أعداء الرسول ﷺ فمال وصار مع قومه في صفوف الأحزاب؛ مما كان له أبلغ الأثر في كرب المسلمين وشدة الأمر عليهم من أمامهم ومن خلفهم.

ومما أدى إلى استئصال شأفتهم بعد انتهاء غزوة الخندق ليستريح المسلمون من كيد اليهود لهم بالمدينـة، وإلى أن يخلو الجو للمسلمين وحدهم، وذلك من تدبير الله حتـى لا تكـون راحـة إلا بعـد جهـاد، وحتـى يعرف المسلمون أن حياتهم مقرونة بالكفاح فإن هم فتروا وألقوا أحمالهم على غيرهم ذلوا وهـانوا وتعلقـوا بالدنيا وأحبوا الحياة، ومتى أحب الأحياء الحياة كرهوا الجهاد واستمرأوا السلامة ولو على بساط الذل».

[**دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٨٨-٨٩**].

٤٥ ـ العقوبة المتوقعة:

يقول أ/ الشامي: «إن السلوك الشائن الذي انتهجه بنو قريظة، هو الذي أوردهم مورد الهلاك، ولو تـم لهم ما أرادوا لكان المسلمون في مثل موقفهم أو أسوأ منه.

إنهم غدروا في موطن يوجب عليهم النصر للمسلمين بموجب العهد الذي بينهم، ولما ذهـب إلـيهم وفد رسول الله ﷺ يذكِّرهم العهد، أنكروا معرفتهم برسول الله ﷺ وشتموا أفراد الوفد وتنكروا لهم.

إن العقوبة كانت متوقعة، وإن لم يصرح بها صاحب الحق في ذلك، وهذا ما جعل أبا لبابة ﷺ يشـير إلى حَلقه، وهو نفسه الذي جعل الأوس يتواثبون إلى رسول الله ﷺ يطلبـون حسـن معاملـة مـواليهم، وهـو نفسه الذي عرفه الذين كانوا يُقنعون سـعدًا ﷺ وهـو في طريقـه إلى رسـول الله ﷺ أن يحسـن إلى مواليـه، فقال: **لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ**، فرجع بعضهم إلى المدينة ينعي بني قريظة، ولم يكن سـعد ﷺ قد أصدر حكمه.

إنها بدهية عقلية، إنه لا يلام القاتل في ميدان المعركة؛ لأنه إن لم يكن القاتل فهو المقتول.

إن بني قريظة نزلوا إلى الميدان ظالمين معتدين فألقوا بأيديهم إلى التهلكة، وقد عرفوا هـذه النتيجـة، وإلا فلم كان بكاء النساء والصبيان في وجه أبي لبابة ﷺ.

وقديمًا قالت العرب: على نفسها جنت براقش». [**من معين السيرة للشامي ٣٢٣-٣٢٤**].

٤٦ ـ حديث الزور:

يقول د/ حبيشي: «من الأشياء التي تنسب إلى اليهود قدمائهم ومحـدثيهم، ولا تخطـئهم، أنهـم يقلبـون الحق زورًا، والزور حقًّا حين يؤرخون للأحداث، أو يتصدى بعضهم لكتابة التاريخ.

والشيء من معدنه لا يُستغرب ولا ينكر، لكن الشيء المستغرب المنكر أن يوافقهم على زورهـم أنـاس ليسوا منهم، ولا تربطهم بهم صلة.

والذي أقصده أن إسرائيل ولفنسون وهو يتحدث عن اليهود في بلاد العرب مـن خـلال أطروحـة أو بحث، تقدم به إلى نيل درجة علمية، وأشرف عليه عميد الأدب العربي د/ طه حسين، قد تحدث عن فعلـة اليهود من بني قريظة، وعما صنع حيي من تأليب العرب عـلى النبـي ﷺ، ودفـع بنـي قريظـة إلى الخيانـة، والثورة، ونبذ العهد إلى النبي ﷺ والمسلمين في وقت عصيب، فمجَّد حيي بـن أخطـب ورفعـه إلى مرتبـة

البطولة النادرة، وبرر له صنيعه وصنيع إخوانه، وجعل فعلته هذه قاعدة في الحروب، لا يغص بها إلا كل مارق، ولا يزهد فيها إلا كل جاهل.

أما حين أراد المسلمون أن ينتقموا لأنفسهم، وأن ينالوا من عدوهم بعد أن أمكنهم الله منهم، فإنه تطوع بالحكم على المسلمين ـ وسعد رضي الله عنه أولهم ـ بأنهم خونة سيئو الخلق، قليلو النخوة دون أن يقدم بين يدي أحكامه بمسوغ واحد.

وأنت خبير كما قلت أن هذا كله ليس بغريب على خلائق اليهود، لا يخطئ سجاياهم ولا تخطئه، وإنما الغريب المنكر هو أن يوافق المشرف على هذا البحث، وأن توافق اللجنة التي حكمت على هذا البحث.

إلى التزوير مرة أخرى: وقبل أن نبرح هذا المكان من البحث، أحب أن أعرض عليك لونًا آخر من التزوير هو قريب من الأول والكل من نسق واحد.

وهذا اللون الجديد من التزوير هو ما قاله اليهودي إسرائيل ولفنسون في بحثه السابق، من أن المدينة المنورة قد أصبحت بعد اليهود خرابًا، وباتت مجموعة من التلال، الأرض فيها قد أصبحت سبخة، والصناعة التي كانت نشطة قد اختفت، ولولا أن المدينة تمتاز بلون من الجذب الديني لاختفت من الخريطة، واتسعت بها رقعة الصحراء.

وكلام كثير هذا معناه.

والذي يقرأ التاريخ ويقف على سير الصحابة، يجد أن المدينة لم يختف منها شيء سوى صناعة السلاح، وهو لون من الحدادة كان اليهود قد فتحوا له سوقًا في المدينة، حين أشعلوا نار العداوة والبغضاء بين أبناء العمومة من الأوس والخزرج.

ونحن لا نستطيع أن نجزم بأن صناعة الحدادة التي أنشئت في بلاد العرب لصنع السلاح قد اختفت اختفاءً تامًّا، واعتمد العرب في تسليح أنفسهم على صناعات أجنبية أم لا.

لكن الذي يقبله المنطق هو أن يكون العرب قد اهتموا بهذه الصناعة في بلادهم، وإن كانوا لا يمارسونها بأنفسهم، حيث إن رجالهم وشبابهم كانوا قد تفرغوا للفتوحات في الإسلام، وتفرغوا للحروب التي أثارتها الإحن، والتي كان اليهود سببًا فيها قبل الإسلام.

ويبقى ادعاء إسرائيل ولفنسون كسابقه، ادعاء ليس له ما يسانده من الحيثيات أو الصادق من المقدمات.

هذا ولقد حكى الكاتب عن أستاذه د/ طه حسين أنه قد قَبِل منه الدعوة، وارتضى أن تكون المدينة قد تأخرت، وإن كان قد استحيا أن يقبل منه أن يكون غياب اليهود هو السبب في تأخرها.

ما أشبه الليلة بالبارحة!!: فإنا لنجد اليوم من يقومون على قدم وساق يساعدهم إعلام قوي، وضخ الأموال من الخارج بغير حدود داخل أرض اليهود، ومحاولة إضعاف المسلمين أمام اليهود.

إنا لنجد اليوم من يقومون على قدم وساق ويقولون: لولا اليهود في هذه المنطقة من العالم لتحولت إلى خراب.

وقد سبقت هذه الدعوة دعوة أخرى فيها أن اليهود قد استلموا هذه المنطقة من العالم ليس فيها بشر، وليس فيها زرع ولا ثمر، ولا هي بقادرة على ذلك إلا بيد اليهود، الأمر الذي دفع أحد الكتاب المعاصرين إلى إخراج سلسلة من الكتب، منها الصغير في الحجم، ومنها الكبير، وفي كلها تجد الحقيقة ناصعة بوثائقها وأدلتها [**ينظر في هذا كله: تاريخ اليهود في بلاد العرب لولفنسون ١٥٢-١٥٤، وينظر معه كتب روجيه جارودي ذات الصلة من نحو: ملف إسرائيل، وفلسطين أرض الرسالات، وغيرهما**]».

[**رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٥١-١٥٤**].

٤٧ ـ الجانحون إلى تضعيف روايات عقوبة بني قريظة:

يقول د/ العمري: «وقد جنح بعض المؤرخين المعاصرين إلى نفي الروايات المتعلقة بالعقوبات التي واجهتها بنو قريظة وتضعيفها، بزعم أن إثباتها يجرح المشاعر الإنسانية ويخدم الدعاية الصهيونية.

[**ينظر: بحث د/ وليد عرفات ضمن بحوث مؤتمر السيرة العالمي بقطر**].

وليس الأمر كذلك فإن أوثق المصادر الإسلامية قد أثبتت وقوع ذلك، ولم تكن العقوبة الشديدة إلا جزاء للخيانة العظمى التي ارتكبها بنو قريظة عندما غدرت بالمسلمين وتبرأت من حلفهم بدل أن تشترك معهم في الدفاع عن المدينة بموجب نصوص المعاهدة بين الطرفين.

وما زالت الدول تحكم بقتل الخونة المتواطئين مع الأعداء حتى في الوقت الحاضر.

وكان جزاء بني قريظة من جنس عملهم حين عرَّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل، وأموالهم للنهب، ونساءهم وذراريهم للسبي، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقًا، فليس من داع للتنصل من حقائق التاريخ وتكذيب الروايات الصحيحة». [**السيرة النبوية الصحيحة للعمري ١/ ٣١٧**].

وأقول: قد سبق هذا المؤرخَ كاتبٌ آخر في تفصيل القول في رد أكثر روايات غزوة بني قريظة، وليس روايات العقوبة فقط، وهو د/ بركات أحمد في كتابه (محمد [ﷺ] واليهود: نظرة جديدة) ص ١٣٢-١٦٠، ويكفينا هذا الرد الموجز للدكتور العمري بارك الله فيه.

المبحث الثالث

الدروس الفقهية

١ ـ طاعة الأمير واجبة:

يقول د/ أبو فارس: «نأخذ هذا من أمره ﷺ المسلمين المتعبين من أثر غزوة الأحزاب بالسير إلى بني قريظة بهذا النداء: «**مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا، فَلَا يُصَلِّيَنَّ العَصْرَ إِلَّا بِبَنِي قُرَيْظَةَ**»، إن الأمر النبوي مطاع، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[النساء: ٥٩]، وطاعة القائد المسلم من بعده واجبة ومستنبطة من هذه الوقعة وغيرها، ومن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة كقوله سبحانه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، وقوله ﷺ: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**». [رواه الإمام البخاري، وابن ماجه، وأحمد في المسند ـ مختصر شرح الجامع الصغير ٦٧].

وهذا الحديث كما ترى مبالغة في الحض على طاعة الأمير.

لقد لبوا النداء وانقادوا للأمر ورغبت نفوسهم في القتال والمسير والحصار بناء على أمره ﷺ، ولم ترو لنا كتب السيرة والسنة النبوية أن واحدًا من الصحابة قد تمرد على هذا الأمر، وتخلف عن المسير رضي الله عنهم أجمعين، هكذا تكون الجندية الإسلامية: طاعة لا معصية فيها، إنما الطاعة في المعروف».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٤٩].

ويقول د/ الزيد: «ونرى مبادرة الصحابة إلى امتثال أمر الرسول ﷺ رغم ما بهم من الجهد والمشقة بعد غزوة الأحزاب، ففور عودتهم نادى منادي رسول الله ﷺ: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فبادروا إلى الخروج فورًا امتثالًا لأمر رسول الله ﷺ، وهذا هو شأن المسلم، الامتثال للأمر، بل المبادرة إلى امتثال الأمر، ولو كان الأمر شاقًا، وتَرْك التسويف والتأجيل للامتثال والعيش مع الأماني، ينبغي على المسلم فور سماعه لآيات الله ﷻ، أو سماعه لأحاديث رسول الله ﷺ أن يمتثل ما فيها من أمر، ويجتنب ما تضمنته من نهي، طاعة لله ولرسوله ﷺ». [فقه السيرة للزيد ٥٠٩-٥١٠].

قال ابن حجر: «وَقَدْ جَمَعَ بَعْضُ العُلَمَاءِ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ بِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ قَبْلَ الأَمْرِ كَانَ صَلَّى الظُّهْرَ وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُصَلِّهَا، فَقِيلَ لِمَنْ لَمْ يُصَلِّهَا: لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الظُّهْرَ، وَلِمَنْ صَلَّاهَا: لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ، وَجَمَعَ بَعْضهمْ بِاحْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ رَاحَتْ بَعْدَ طَائِفَةٍ، فَقِيلَ لِلطَّائِفَةِ الأُولَى الظُّهْرَ وَقِيلَ لِلطَّائِفَةِ الَّتِي بَعْدَهَا العَصْرَ، وَكِلَاهُمَا جَمْعٌ لَا بَأْس بِهِ».

[فتح الباري ٧/ ٤٧٢، وينظر للتفصيل: مسائل العقيدة المستنبطة من غزوة بني قريظة للدلو ١٣٠-١٣٤].

٢ ـ جواز الاجتهاد في عهده ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ من قول رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا، فَلَا يُصَلِّيَنَّ العَصْرَ إِلَّا بِبَنِي قُرَيْظَةَ**»، ومن اختلاف الصحابة ﵃ في الطريق حول صلاة العصر، إذ صلى فريقٌ صلاة العصر في وقتها ثم تابع مسيره، وآخرون تابعوا مسيرهم ثم صلوا العصر في بني قريظة، ولم يعنف رسول الله ﷺ أحدًا من الفريقين: جواز الاجتهاد في عهده ﷺ، فالفريقان قد اجتهدا كما ترى، فريق صلى الصلاة في وقتها وفريق أجَّلها حتى صلاها في بني قريظة، وأقر الرسول ﷺ صلاة الفريقين ولم يعنف أحدًا منهما».

[**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٥٥، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٢٥٨-٢٧٧**].

٣ ـ ظاهر الكلام وتأويله:

يقول د/ أبو فارس: «يجوز الأخذ بظاهر الكلام وهو معناه الحقيقي دون تأويل، وهذه وجهة نظر الذين لم يصلوا في الطريق، إذ قالوا: ينبغي أن نصلي في بني قريظة كما أمرنا رسول الله ﷺ، وإلى هذا الرأي مال ابن حزم الظاهري ﵀، بل أكد عليه وشدد، وصوبه دون سواه فقال: (وعلم الله لو أننا كنا هناك ما صلينا العصر في ذلك اليوم إلا في بني قريظة ولو بعد أيام). [**جوامع السيرة لابن حزم ص ١٩٢**].

وكذلك جواز الأخذ من المعنى الذي يحتمل عدة معانٍ معنى يخصه، كالذين صلوا عند دخول الوقت في الطريق، إذ أخذوا بالمعنى المجازي للحديث ولم يأخذوا بالمعنى الحقيقي، وهو الظاهر من النص، وتأولوا قول رسول الله ﷺ بأنه أراد السرعة ليس إلا». [**ينظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧/ ٤٠٩، والروض الأنف للسهيلي ٣/ ٢٨١**]. [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٥٥-٥٦**].

٤ ـ أدب الاختلاف:

يقول د/ أبو فارس :«يعلمنا الصحابة ﵃ كيف يكون أدب الاختلاف، إذ اختلفوا كما رأيت في الاجتهاد، لكن هذا الاختلاف لم يفسد للود قضية عندهم، إذ لم ترو لنا كتب السنة ـ فيما نعلم ـ وكتب السيرة أن هؤلاء الصحابة الكرام قد تشاجروا، وتشاحنوا، بل ساروا وتكاتفوا جميعًا صفًّا واحدًا يحاصرون بني قريظة، ويُحكمون حصارها حتى تستسلم». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٥٩**].

ويقول أ/ الشامي: «إن الصحابة الكرام ﵃ اختلفوا في فهم النص في قوله ﷺ، وكلٌّ عمل بقناعته حسب ما أدى إليه اجتهاده، والجانب المهم الذي نحب أن نقف عنده، أن هذا الاختلاف لم تكن له مضاعفات، فلم ينتج عنه عداوة بين الفريقين، ولم يعتبر بعضهم أنه الأحسن وأن فهمه هو الأفضل، بل عمل بقناعته، مع احترامه الكامل وتقديره للفريق الآخر، والأهم من هذا وذاك أن هذا الخلاف لم يؤخرهم عن أداء المهمة التي انتدبوا إليه وهي الوصول إلى بني قريظة.

فليت المسلمين إذ يختلفون ـ حيث يكون الأمر محتملًا لوجهات النظر المتعددة ـ يبقي بعضهم على احترامه وتقديره لبعضهم الآخر، ثم لا ينسيهم ذلك مهامهم الأساسية وبهذا تكون لهم في القرن الأول ـ خير القرون ـ الأسوة الحسنة، وبهذا يكون الخلف على نهج السلف». [من معين السيرة للشامي ٣٢٦-٣٢٧].

ويقول د/ الزيد: «إن الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ اجتهدوا، واجتهادهم في طلب الحكم الشرعي فاختلفوا، ومع ذلك لم يعنف الرسول ﷺ أيًّا منهم، ولم يكن هذا الخلاف سببًا للعداوة والشقاق والنزاع بينهم؛ وذلك لأنه خلاف في أمور فقهية، والخلاف فيها سائغ لا يؤدي إلى عداوة وبغضاء.

والخلاف المذموم هو الخلاف الناشئ عن اجتهاد في نصوص شرعية لم يأذن الشارع في الاجتهاد فيها مثل: الخلاف في العقائد، أو ما فيه نص شرعي قاطع لا يسوغ لأحد أن يجتهد على خلافه».

[فقه السيرة للزيد ٥١٠].

٥ ـ جواز تعدد المذاهب الفقهية:

يقول د/ الزيد: «استدل البعض بفعل الصحابة ﷺ هذا بأن الحق يتعدد ـ وتحرير المسألة (أن يقال: إن كان المقصود بالحق الذي يقابل الباطل، فإن الحق لا يمكن أن يتعدد، والحق واحد، أما إن كان المقصود بالحق في نظر الشرع أي الذي يرضى عنه الشرع، فإن الحق بهذا المعنى يتعدد، أي علينا أن نفرِّق بين الحق في ذاته، وبين ما يعتبره الشرع حقًّا يُثاب صاحبُه.

فالحق في ذاته واحد لا يتعدد، وأما الذي يعتبره الشرع حقًّا ويرضى عنه ويُثيب عليه فيجوز أن يتعدد.

وورد في الحديث: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**». [البخاري في الاعتصام بالكتاب (٧٣٥٢)، ومسلم في الأقضية (١٧١٦)].

والله لا يعطي الأجر على الباطل.

ومثل هذا قصة صلاة العصر في الطريق إلى بني قريظة ومثله في عصرنا الحاضر تعدد المذاهب الفقهية الأربعة واختلاف أتباعها، فمع اختلافهم في بعض المسائل، فإن المقلد لواحد منها يكون ـ إن شاء الله ـ على حق أي على عمل شرعي مرضي) [فتاوى علي الطنطاوي ص ٥١]». [فقه السيرة للزيد ٥١١].

٦ ـ مشروعية الاجتهاد في الفروع وضرورة وقوع الخلاف فيها:

يقول د/ البوطي: «وفي اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول الله ﷺ: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، على النحو الذي روينا، مع عدم تعنيف النبي ﷺ أحدًا منهم أو معاتبته ـ دلالة هامة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى، وهو تقرير مبدأ الخلاف في المسائل الفرعية، واعتبار كل من المتخالفين معذورًا ومُثابًا، سواء قلنا إن المصيب واحد أو متعدد، كما أن فيه تقريرًا لمبدأ الاجتهاد والاستنباط للأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئصال الخلاف في مسائل الفروع التي تنبع من دلالات ظنية، أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم، فالله ﷻ تعبد عباده بنوعين من التكاليف:

أحدهما: تطبيق أوامر معينة واضحة تتعلق بالعقيدة أو السلوك.

ثانيهما: البحث وبذل الجهد ابتغاء فهم المبادئ والأحكام الفرعية من أدلتها العامة المختلفة، فليس المطلوب ممن أدركته الصلاة في بادية التبست عليه جهة القبلة فيها، أكثر من أن تتجلى عبوديته لله تعالى في أن يبذل كل ما لديه من وسع لمعرفة جهة القبلة حسب فهمه وما يبدو له من أدلة، حتى إذا سكنت نفسه إلى جهة ما، استقبلها فصلى إليها.

ثم إن هنالك حِكَمًا باهرة لمجيء كثير من الأدلة والنصوص الشرعية ظنية الدلالة غير قطعية، من أبرزها أن تكون الاجتهادات المختلفة في مسألة ما، كلها وثيقة الصلة بالأدلة المعتبرة شرعًا، حتى يكون للمسلمين متسع في الأخذ بأيها شاؤوا حسبما تقتضيه ظروفهم ومصالحهم المعتبرة، وتلك من أجلى مظاهر رحمة الله بعباده، في كل عصر وزمن.

وإذا تأملت هذا، علمت أن السعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع معاندة للحكمة الربانية والتدبير الإلهي في تشريعه، عدا أنه ضرب من العبث الباطل، إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألةٍ ما، ما دام دليلها ظنيًّا محتملًا؟... لو أمكن ذلك أن يتم في عصر ما، لكان أولى العصور به عصر النبي ﷺ، ولكان أولى الناس بأن لا يختلفوا هم أصحابه، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما قد رأيت؟».

[فقه السيرة للبوطي ٢٣٨-٢٣٩].

قال السهيلي رحمه الله في الروض الأنف: «وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ مُخْتَلِفَيْنِ فِي الفُرُوعِ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ مُصِيبٌ، وَفِي حُكْمِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عليهما السلام فِي الحَرْثِ أَصْلٌ لِهَذَا الأَصْلِ أَيْضًا، فَإِنَّهُ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وَلَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ صَوَابًا فِي حَقِّ إِنْسَانٍ وَخَطًا فِي حَقِّ غَيْرِهِ، فَيَكُونُ مَنْ اجْتَهَدَ فِي مَسْأَلَةٍ فَأَدَّاهُ اجْتِهَادُهُ إِلَى التَّحْلِيلِ مُصِيبًا فِي اسْتِحْلَالِهِ، وَآخَرُ اجْتَهَدَ فَأَدَّاهُ اجْتِهَادُهُ وَنَظَرُهُ إِلَى تَحْرِيمِهَا، مُصِيبًا فِي تَحْرِيمِهَا، وَإِنَّمَا الـمُحَالُ أَنْ يُحْكَمَ فِي النَّازِلَةِ بِحُكْمَيْنِ مُتَضَادَّيْنِ فِي حَقِّ شَخْصٍ وَاحِدٍ، وَإِنَّمَا عَسُرَ فَهْمُ هَذَا الأَصْلِ عَلَى طَائِفَتَيْنِ: الظَّاهِرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ.

أَمَّا الظَّاهِرِيَّةُ: فَإِنَّهُمْ عَلَّقُوا الأَحْكَامَ بِالنُّصُوصِ، فَاسْتَحَالَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ النَّصُّ يَأْتِي بِحَظْرٍ وَإِبَاحَةٍ مَعًا، إِلَّا عَلَى وَجْهِ النَّسْخِ.

وَأَمَّا الـمُعْتَزِلَةُ: فَإِنَّهُمْ عَلَّقُوا الأَحْكَامَ بِتَقْبِيحِ العَقْلِ وَتَحْسِينِهِ، فَصَارَ حُسْنُ الفِعْلِ عِنْدَهُمْ أَوْ قُبْحُهُ صِفَةَ عَيْنٍ، فَاسْتَحَالَ عِنْدَهُمْ أَنْ يَتَّصِفَ فِعْلٌ بِالحُسْنِ فِي حَقِّ زَيْدٍ وَالقُبْحِ فِي حَقِّ عَمْرٍو، كَمَا يَسْتَحِيلُ ذَلِكَ فِي الأَلْوَانِ وَالأَكْوَانِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ الصِّفَاتِ القَائِمَةِ بِالذَّوَاتِ.

وَأَمَّا مَا عَدَا هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ مِنْ أَرْبَابِ الحَقَائِقِ فَلَيْسَ الحَظْرُ وَالإِبَاحَةُ عِنْدَهُمْ بِصِفَاتِ أَعْيَانٍ، وَإِنَّمَا هِيَ صِفَاتُ أَحْكَامٍ، وَالحُكْمُ مِنَ اللهِ تَعَالَى يَحْكُمُ بِالحَظْرِ فِي النَّازِلَةِ عَلَى مَنْ أَدَّاهُ نَظَرُهُ وَاجْتِهَادُهُ إِلَى الحَظْرِ،

وَكَذَلِكَ الإِبَاحَةُ وَالنَّدْبُ وَالإِيجَابُ وَالكَرَاهَةُ، كُلُّهَا صِفَاتُ أَحْكَام، فَكُلُّ مُجْتَهِدٍ وَافَقَ اجْتِهَادُهُ وَجْهًا مِنَ التَّأْوِيلِ، وَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ أَدَوَاتِ الاِجْتِهَادِ مَا يَتَرَفَّعُ بِهِ عَنْ حَضِيضِ التَّقْلِيدِ إِلَى هَضْبَةِ النَّظَرِ، فَهُوَ مُصِيبٌ فِي اجْتِهَادِهِ مُصِيبٌ لِلحُكْمِ الَّذِي تَعَبَّدَ بِهِ، وَإِنْ تَعَبَّدَ غَيْرُهُ فِي تِلْكَ النَّازِلَةِ بِعَيْنِهَا بِخِلَافِ مَا تَعَبَّدَ هُوَ بِهِ فَلَا يُعَدُّ فِي ذَلِكَ إِلَّا عَلَى مَنْ لَا يَعْرِفُ الحَقَائِقَ أَوْ عَدَلَ بِهِ الهَوَى عَنْ أَوْضَحِ الطَّرائِقِ.

[الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣٢٦-٣٢٧].

ويقول د/ أبو فارس: «إن معظم النصوص من الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة ظنية الدلالة، يختلف المجتهدون في فهمها، واستنباط الأحكام الشرعية منها، فإذا كان المجتهد يملك شروط الاجتهاد التي نص عليها العلماء الأفاضل والفقهاء الأكارم من العلم والعدالة والتقوى، وملك ناصية البيان، ومعرفة آيات الأحكام ونحوها ثم اجتهد فهداه اجتهاده إلى حكم معين من نص معين، ثم اجتهد مجتهد آخر في فهم ذلك النص الظني الدلالة فأداه اجتهاده إلى حكم آخر يغاير الحكم الذي استنبطه المجتهد الأول، فإن كلًا منهما مأمور بالعمل بما أداه اجتهاده إليه، ومصيب في العمل به، أما كون مَنِ الصواب عند الله تعالى، فهذا أمر ظني لا نعلمه علم اليقين، ولا يترتب عليه كبير فائدة من حيث العمل والالتزام.

هذا ويصعب بل يكاد يشبه المستحيل أن يُجمع الناس على رأي واحد يكون صوابًا ومقنعًا عند جميع الفقهاء المجتهدين مستنبط من دليل ظني أصلي أو فرعي، لاختلاف قدراتهم العقلية والعلمية وعوامل أخرى لسنا بصدد استقصائها، وجَمْع الأمة على رأي في الفروع ضرب من الخيال وبحث عن تحقيق المحال، وهو محال، ثم إن الإصرار على أن هناك رأيًا معينًا هو الصواب ووجوب جمع الأمة عليه يؤدي إلى افتراق الأمة واختلافها وتدابرها وتنازعها، وفي آخر المطاف فشلها؛ لأن ما تراه كمجتهد مصيبًا قد يراه غيرك من المجتهدين غير ذلك، وله أدلته، واللغة العربية تستوعب هذا وذاك.

وقد فطن الإمام مالك ﷺ إلى خطورة إلزام الأمة برأي معين حتى ولو كان رأيه فأبى ذلك، ونهى عنه، إذ إن صحابة رسول الله ﷺ تفرقوا في الأمصار، وعند كل قوم فقه، فإن جُمعت الأمة على رأي واحد دون الآراء، فقد ألحق الحرج بها، والله ﷻ ما جعل علينا في الدين من حرج».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٥٧-٥٨].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «ولم يلم ﷺ أحدًا من الطائفتين، وهذا يدل على جواز الجمع جمع تأخير، ويدل أيضًا على أن الخطأ مرفوع عنه الإثم، كما قال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ [وَضَعَ] عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**». [ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣، ٢٠٤٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وكان ذلك استجابة لدعاء المؤمنين الذي حكاه الله تعالى عنهم بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة]، ولا شك أن إحدى الطائفتين مخطئة فيما عملت، ولكنها اجتهدت». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٠٤].

٧ ـ إذا اجتهد المجتهد فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد:

يقول د/ الفنيسان: «يدل على هذا حديث ابن عمر ﭭ: أن رسول الله ﷺ قال بعد منصرفه من الأحزاب: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا إلا ذلك، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فلم يعنف واحدًا منهم.

ووجه ذلك: أن كلًّا من الفريقين مأجور بقصده، إلا أن من صلى الصلاة في الطريق ولم يؤخرها عن وقتها حاز الفضيلتين، ولم يعنف الذين أخروها لقيام عذرهم بالتمسك في ظاهر الأمر».

[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٢٩-٢٣٠].

٨ ـ وفي حديث ابن عمر السابق متمسك لمن قال: إن كل مجتهد مصيب:

يقول د/ الفنيسان: «ووجه ذلك، أن طائفة فهمت المبادرة والسرعة في الخروج، ولم يرد الرسول ﷺ تأخير الصلاة عن وقتها، فصلوها في الطريق، ففهموا أن الحصر إضافي لا حقيقي.

وأخرت الطائفة الأخرى حتى وصلوا إلى بني قريظة بعد خروج وقتها، واحتجوا بأنه أطلق الحصر ويراد به عند الإطلاق حقيقته.

ولما بلغ الرسول ﷺ اختلافهم، لم ينكر على أحدٍ من الفريقين، بل أقر كلًّا منهم على ما فهمه، فالكل مجتهدون مأجورون على هدى من الله، ولا لوم على أحدٍ منهم، ولا ينسب إليه خلل أو تقصير، ولو كان شيء من هذه لبينه، حيث تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٠، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٢٧٨-٢٩٢].

٩ ـ أيهما كان أصوب؟:

يقول الإمام ابن القيم: «وَاخْتَلَفَ الفُقَهَاءُ أَيُّهُمَا كَانَ أَصْوَبَ؟

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: الَّذِينَ أَخَّرُوهَا هُمُ المُصِيبُونَ، وَلَوْ كُنَّا مَعَهُمْ لَأَخَّرْنَاهَا كَمَا أَخَّرُوهَا، وَلَمَا صَلَّيْنَاهَا إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ امْتِثَالًا لِأَمْرِهِ ﷺ وَتَرْكًا لِلتَّأْوِيلِ المُخَالِفِ لِلظَّاهِرِ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: بَلِ الَّذِينَ صَلَّوْهَا فِي الطَّرِيقِ فِي وَقْتِهَا حَازُوا قَصَبَ السَّبْقِ، وَكَانُوا أَسْعَدَ بِالفَضِيلَتَيْنِ، فَإِنَّهُمْ بَادَرُوا إِلَى امْتِثَالِ أَمْرِهِ ﷺ فِي الخُرُوجِ، وَبَادَرُوا إِلَى مَرْضَاتِهِ فِي الصَّلَاةِ فِي وَقْتِهَا، ثُمَّ بَادَرُوا إِلَى اللَّحَاقِ بِالقَوْمِ، فَحَازُوا فَضِيلَةَ الجِهَادِ، وَفَضِيلَةَ الصَّلَاةِ فِي وَقْتِهَا، وَفَهِمُوا مَا يُرَادُ مِنْهُمْ، وَكَانُوا أَفْقَهَ مِنَ الآخَرِينَ، وَلَا سِيَّمَا تِلكَ الصَّلَاةَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ صَلَاةَ العَصْرِ وَهِيَ الصَّلَاةُ الوُسْطَى بِنَصِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ الصَّحِيحِ الصَّرِيحِ الَّذِي لَا مَدْفَعَ لَهُ وَلَا مَطْعَنَ فِيهِ، وَمَجِيءِ السُّنَّةِ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، وَالمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا، وَالتَّبْكِيرِ بِهَا، وَأَنَّ مَنْ فَاتَتْهُ فَقَدْ وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، أَوْ قَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، فَالَّذِي جَاءَ فِيهَا أَمْرٌ لَمْ يَجِئْ مِثْلُهُ فِي غَيْرِهَا، وَأَمَّا المُؤَخِّرُونَ لَهَا، فَغَايَتُهُمْ أَنَّهُمْ مَعْذُورُونَ بَل مَأْجُورُونَ أَجْرًا وَاحِدًا لِتَمَسُّكِهِمْ بِظَاهِرِ النَّصِّ،

وَقَصْدِهِمْ امْتِثَالَ الأَمْرِ، وَأَمَّا أَنْ يَكُونُوا هُمْ المُصِيبِينَ فِي نَفْسِ الأَمْرِ وَمَنْ بَادَرَ إِلَى الصَّلَاةِ وَإِلَى الجِهَادِ مُخْطِئًا، فَحَاشَا وَكَلَّا، وَالَّذِينَ صَلَّوْا فِي الطَّرِيقِ جَمَعُوا بَيْنَ الأَدِلَّةِ، وَحَصَّلُوا الفَضِيلَتَيْنِ، فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَالآخَرُونَ مَأْجُورُونَ أَيْضًا رضي الله عنهم.

فَإِنْ قِيلَ: كَانَ تَأْخِيرُ الصَّلَاةِ لِلجِهَادِ حِينَئِذٍ جَائِزًا مَشْرُوعًا؛ وَلِهَذَا كَانَ عَقِبَ تَأْخِيرِ النَّبِيِّ ﷺ العَصْرَ-يَوْمَ الخَنْدَقِ إِلَى اللَّيْلِ، فَتَأْخِيرُهُمْ صَلَاةَ العَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ كَتَأْخِيرِهِ ﷺ لَهَا يَوْمَ الخَنْدَقِ إِلَى اللَّيْلِ سَوَاءٌ وَلَا سِيَّمَا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ شُرُوعِ صَلَاةِ الخَوْفِ.

قِيلَ: هَذَا سُؤَالٌ قَوِيٌّ، وَجَوَابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُقَالَ: لَمْ يَثْبُتْ أَنَّ تَأْخِيرَ الصَّلَاةِ عَنْ وَقْتِهَا كَانَ جَائِزًا بَعْدَ بَيَانِ المَوَاقِيتِ وَلَا دَلِيلَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا قِصَّةُ الخَنْدَقِ، فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي اسْتَدَلَّ بِهَا مَنْ قَالَ ذَلِكَ، وَلا حُجَّةَ فِيهَا؛ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا بَيَانُ أَنَّ التَّأْخِيرَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ عَنْ عَمْدٍ، بَل لَعَلَّهُ كَانَ نِسْيَانًا، وَفِي القِصَّةِ مَا يُشْعِرُ بِذَلِكَ، فَإِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه لَـمَّا قَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ! مَا كِدْتُ أُصَلِّي العَصْرَ حَتَّى كَادَتْ الشَّمْسُ تَغْرُبُ! قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَاللهِ مَا صَلَّيْتُهَا**»، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّاهَا.

وَهَذَا مُشْعِرٌ بِأَنَّهُ ﷺ كَانَ نَاسِيًا بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الشُّغُلِ وَالاِهْتِمَامِ بِأَمْرِ العَدُوِّ المُحِيطِ بِهِ.

وَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَدْ أَخَّرَهَا بِعُذْرِ النِّسْيَانِ، كَمَا أَخَّرَهَا بِعُذْرِ النَّوْمِ فِي سَفَرِهِ، وَصَلَّاهَا بَعْدَ اسْتِيقَاظِهِ، وَبَعْدَ ذِكْرِهِ؛ لِتَتَأَسَّى أُمَّتُهُ بِهِ.

وَالجَوَابُ الثَّانِي: أَنَّ هَذَا عَلَى تَقْدِيرِ ثُبُوتِهِ إِنَّمَا هُوَ فِي حَالِ الخَوْفِ وَالمُسَايَفَةِ عِنْدَ الدَّهْشِ عَنْ تَعَقُّلِ أَفْعَالِ الصَّلَاةِ وَالإِتْيَانِ بِهَا، وَالصَّحَابَةُ فِي مَسِيرِهِمْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ، بَل كَانَ حُكْمُهُمْ حُكْمَ أَسْفَارِهِمْ إِلَى العَدُوِّ قَبْلَ ذَلِكَ وَبَعْدَهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا، وَلَمْ تَكُنْ قُرَيْظَةُ مِمَّنْ يُخَافُ فَوْتُهُمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُقِيمِينَ بِدَارِهِمْ، فَهَذَا مُنْتَهَى أَقْدَامِ الفَرِيقَيْنِ فِي هَذَا المَوْضِعِ».

[زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٣١-١٣٣].

وجوب احترام وجهات النظر المختلفة: يقول أ/ باشميل: «قد وضع النبي ﷺ بتصرفه الحكيم هذا الذي لم يعنف فيه أحدًا من الفريقين على ما صنع... وضع قاعدة تشريعية هامة يتحتم بموجبها احترام وجهات النظر المختلفة في فهم النصوص بشرط أن يكون هذا الاختلاف عن اجتهاد نزيه سليم صادق.

كما هو الحال عندما اختلف الصحابة رضي الله عنهم حول مفهوم الأمر النبوي بشأن صلاة العصر، فقد كان هدف كل من الفريقين هو (فقط) أداء الصلاة على النحو الذي يرضى الله عنه ورسوله.

ومن الجدير بالذكر أن النبي ﷺ قد اعتبر صلاة كل من الطائفتين صلاة صحيحة، حيث لم يأمر أحدًا منهما بإعادة صلاته سواء الذين أدوها في الطريق في وقتها، أو الذين أدوها في بني قريظة بعد خروج وقتها.

أما فقهاء الإسلام فقد اختلفوا كذلك في فهم الأمر الصادر بهذا الصدد، عند البحث في باب تأخير الصلاة وتقديمها في السفر وغيره.. اختلفوا في أي من الفريقين من الصحابة هو المصيب يومئذ.

إلا أنهم مع هذا الاختلاف قد أجمعوا على أن كلًّا من الفريقين مأجور.

ففريق من العلماء (وعلى رأسهم أبو محمد بن حزم) يرى أن الذين أدوا الصلاة في الطريق في وقتها أخطأوا في اجتهادهم، وأن الذين أدوها في بني قريظة بعد غروب الشمس في غير وقتها هم المصيبون لأنهم صلوا كما أمرهم النبي ﷺ.

تأخير الصلاة أقرب إلى الصواب: فقد قال أبو محمد في كتابه (جوامع السيرة): وعلم الله أنا لو كنا هناك لم نصل العصر إلا في بني قريظة، ولو بعد أيام.

وهذه القول من ابن حزم قد جاء على قاعدته الأساسية في الأخذ بالظاهر، فهو ظاهري المذهب، لا يرى أي مبرر لصرف النص عن ظاهره ما لم يأت ما يوجب ذلك عن الشارع نفسه، وهو قول (في الحقيقة) أقرب إلى الحق والصواب من جميع الأقوال والآراء التي تخالفه.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن النبي ﷺ وبعضًا من أصحابه قد أخروا صلاة الظهر والعصر ولم يصلوها إلا بعد غروب الشمس، وذلك في أحد أيام الخندق العصيبة عندما اشتد زخم المشركين في هجومهم فشغلوا المسلمين طيلة نهارهم ولم يتركوا لهم فرصة يؤدون فيها الصلاة في وقتها، مما أجبر المسلمين على ملازمة مواقعهم الدفاعية، الأمر الذي أدى إلى فوات صلاة الظهر والعصر عليهم.

تأخير الصلوات لعذر القتال: وقد ذهب الإمام محمد بن إسماعيل البخاري إلى القول بتأخير الصلاة عن وقتها سواء كانت ظهرًا، أو عصرًا، أو مغربًا أو صبحًا، أو عشاء (لعذر القتال)، وذلك إذا ما اضطرت المعركة الجنود ملازمة مواقعهم، كما حدث في معركة الخندق، وسند البخاري في هذا القول هو فعل النبي ﷺ وصحابته في ذلك اليوم الذي اضطرتهم فيه ظروف القتال إلى تأخير صلاة العصر والظهر والمغرب إلى وقت العشاء.

وأعتقد (وهذا رأي شخصي فحسب) أن قول الإمام البخاري هذا هو أقرب إلى روح الشريعة الإسلامية، وأجدر أن يتبع وخاصة في هذا العصر، والله وحده أعلم بالصواب».

[غزوة بني قريظة لباشميل ١٤٨-١٥١].

١٠ ـ جواز قتال من نقض العهد:

يقول د/ البوطي: «وقد جعل الإمام مسلم ﷺ هذا الحكم عنوانًا لغزوة بني قريظة، فالصلح والمعاهدة والاستئمان بين المسلمين وغيرهم، كل ذلك ينبغي احترامه والتزامه على المسلمين، ما لم ينقض الآخرون العهد أو الصلح أو الأمان، وحينئذ يجوز للمسلمين قتالهم إن رأوا المصلحة في ذلك».

[فقه السيرة للبوطي ٢٣٨].

١١ ـ مَنْ دَخَلَ فِي عَقْدِ المُصَالَحِينَ ثُمَّ حَارَبَ المُسْلِمِينَ فَقَدْ نَقَضَ العَهْدَ:

يقول الإمام ابن القيم: «وَكَانَ هَدْيُهُ ﷺ أَنَّهُ إِذَا صَالَحَ قَوْمًا فَنَقَضَ بَعْضُهُمْ عَهْدَهُ وَصُلْحَهُ، وَأَقَرَّهُمْ البَاقُونَ وَرَضُوا بِهِ غَزَا الجَمِيعَ وَجَعَلَهُمْ كُلَّهُمْ نَاقِضِينَ كَمَا فَعَلَ بِقُرَيْظَةَ، وَالنَّضِيرِ، وَبَنِي قَيْنُقَاعَ، وَكَمَا فَعَلَ فِي أَهْلِ مَكَّةَ، فَهَذِهِ سُنَّتُهُ فِي أَهْلِ العَهْدِ وَعَلَى هَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَجْرِيَ الحُكْمُ فِي أَهْلِ الذِّمَّةِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ الفُقَهَاءُ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ، وَخَالَفَهُمْ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ، فَخَصُّوا نَقْضَ العَهْدِ بِمَنْ نَقَضَهُ خَاصَّةً دُونَ مَنْ رَضِيَ بِهِ وَأَقَرَّ عَلَيْهِ، وَفَرَّقُوا بَيْنَهُمَا بِأَنَّ عَقْدَ الذِّمَّةِ أَقْوَى وَآكَدُ؛ وَلِهَذَا كَانَ مَوْضُوعًا عَلَى التَّأْبِيدِ بِخِلَافِ عَقْدِ الهُدْنَةِ وَالصُّلحِ.

وَالأَوَّلُونَ يَقُولُونَ: لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا، وَعَقْدُ الذِّمَّةِ لَمْ يُوضَعْ لِلتَّأْبِيدِ، بَل بِشَرْطِ اسْتِمْرَارِهِمْ وَدَوَامِهِمْ عَلَى التِزَامِ مَا فِيهِ، فَهُوَ كَعَقْدِ الصُّلحِ الَّذِي وُضِعَ لِلهُدْنَةِ بِشَرْطِ التِزَامِهِمْ أَحْكَامَ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ العَقْدُ.

قَالُوا: وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يُوَقِّتْ عَقْدَ الصُّلحِ وَالهُدْنَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اليَهُودِ لَـمَّا قَدِمَ المَدِينَةَ، بَل أَطْلَقَهُ مَا دَامُوا كَافِّينَ عَنْهُ غَيْرَ مُحَارِبِينَ لَهُ، فَكَانَتْ تِلكَ ذِمَّتَهُمْ، غَيْرَ أَنَّ الجِزْيَةَ لَمْ يَكُنْ نَزَلَ فَرْضُهَا بَعْدُ، فَلَـمَّا نَزَلَ فَرْضُهَا، ازْدَادَ ذَلِكَ إِلَى الشُّرُوطِ المُشْتَرَطَةِ فِي العَقْدِ، وَلَمْ يُغَيِّرْ حُكْمَهُ، وَصَارَ مُقْتَضَاهَا التَّأْبِيدَ، فَإِذَا نَقَضَ بَعْضُهُمْ العَهْدَ وَأَقَرَّهُمْ البَاقُونَ وَرَضُوا بِذَلِكَ، وَلَمْ يُعْلِمُوا بِهِ المُسْلِمِينَ صَارُوا فِي ذَلِكَ كَنَقْضِ أَهْلِ الصُّلحِ، وَأَهْلُ العَهْدِ وَالصُّلحِ سَوَاءٌ فِي هَذَا المَعْنَى، وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا فِيهِ، وَإِنْ افْتَرَقَا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ يُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ المُقِرَّ الرَّاضِيَ السَّاكِتَ إِنْ كَانَ بَاقِيًا عَلَى عَهْدِهِ وَصُلحِهِ لَمْ يَجُزْ قِتَالُهُ وَلَا قَتْلُهُ فِي المَوْضِعَيْنِ، وَإِنْ كَانَ بِذَلِكَ خَارِجًا عَنْ عَهْدِهِ وَصُلحِهِ رَاجِعًا إِلَى حَالِهِ الأُولَى قَبْلَ العَهْدِ وَالصُّلحِ، لَمْ يَفْتَرِقْ الحَالُ بَيْنَ عَقْدِ الهُدْنَةِ وَعَقْدِ الذِّمَّةِ فِي ذَلِكَ، فَكَيْفَ يَكُونُ عَائِدًا إِلَى حَالِهِ فِي مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ، هَذَا أَمْرٌ غَيْرُ مَعْقُولٍ، تَوْضِيحُهُ: أَنَّ تَجَدُّدَ أَخْذِ الجِزْيَةِ مِنْهُ لَا يُوجِبُ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُوفِيًا بِعَهْدِهِ مَعَ رِضَاهُ وَمُمَالَأَتِهِ وَمُوَاطَأَتِهِ لِمَنْ نَقَضَ، وَعَدَمُ الجِزْيَةِ يُوجِبُ لَهُ أَنْ يَكُونَ نَاقِضًا غَادِرًا غَيْرَ مُوفٍ بِعَهْدِهِ، هَذَا بَيِّنُ الِامْتِنَاعِ.

فَالأَقْوَالُ ثَلَاثَةٌ: النَّقْضُ فِي الصُّورَتَيْنِ، وَهُوَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ سُنَّةُ رَسُولِ الله ﷺ فِي الكُفَّارِ، وَعَدَمُ النَّقْضِ فِي الصُّورَتَيْنِ، وَهُوَ أَبْعَدُ الأَقْوَالِ عَنِ السُّنَّةِ، وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَ الصُّورَتَيْنِ، وَالأُولَى أَصْوَبُهَا، وَبِالله التَّوْفِيقُ.

وَبِهَذَا القَوْلِ أَفْتَيْنَا وَلِيَّ الأَمْرِ لَـمَّا أَحْرَقَتِ النَّصَارَى أَمْوَالَ الـمُسْلِمِينَ بِالشَّامِ وَدُورَهُمْ، وَرَامُوا إِحْرَاقَ جَامِعِهِمْ الأَعْظَمِ حَتَّى أَحْرَقُوا مَنَارَتَهُ، وَكَادَ ـ لَوْلَا دَفْعُ الله ـ أَنْ يَحْتَرِقَ كُلُّهُ، وَعَلِمَ بِذَلِكَ مَنْ عَلِمَ مِنَ النَّصَارَى، وَوَاطَؤوا عَلَيْهِ وَأَقَرُّوهُ وَرَضُوا بِهِ، وَلَمْ يُعْلِمُوا وَلِيَّ الأَمْرِ، فَاسْتَفْتَى فِيهِمْ وَلِيُّ الأَمْرِ مَنْ حَضَرَهُ مِنَ الفُقَهَاءِ، فَأَفْتَيْنَاهُ بِانْتِقَاضِ عَهْدِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، وَأَعَانَ عَلَيْهِ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، أَوْ رَضِيَ بِهِ وَأَقَرَّ عَلَيْهِ، وَأَنَّ حَدَّهُ القَتْلُ حَتْمًا، لَا تَخْيِيرَ لِلإِمَامِ فِيهِ، كَالأَسِيرِ، بَل صَارَ القَتْلُ لَهُ حَدًّا، وَالإِسْلَامُ لَا يُسْقِطُ القَتْلَ إِذَا كَانَ حَدًّا مِمَّنْ هُوَ تَحْتَ الذِّمَّةِ، مُلتَزِمًا لِأَحْكَامِ الله بِخِلَافِ الحَرْبِيِّ إِذَا أَسْلَمَ، فَإِنَّ الإِسْلَامَ يَعْصِمُ دَمَهُ وَمَالَهُ،

وَلَا يُقْتَلُ بِمَا فَعَلَهُ قَبْلَ الإِسْلَامِ، فَهَذَا لَهُ حُكْمٌ وَالذِّمِّيُّ النَّاقِضُ لِلعَهْدِ إِذَا أَسْلَمَ لَهُ حُكْمٌ آخَرُ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ هُوَ الَّذِي تَقْتَضِيهِ نُصُوصُ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَأُصُولُهُ، وَنَصَّ عَلَيْهِ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ، وَأَفْتَى بِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

وَكَانَ هَدْيُهُ وَسُنَّتُهُ ﷺ إِذَا صَالَحَ قَوْمًا وَعَاهَدَهُمْ فَانْضَافَ إِلَيْهِمْ عَدُوٌّ لَهُ سِوَاهُمْ، فَدَخَلُوا مَعَهُمْ فِي عَقْدِهِمْ، وَانْضَافَ إِلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ، فَدَخَلُوا مَعَهُ فِي عَقْدِهِ، صَارَ حُكْمُ مَنْ حَارَبَ مَنْ دَخَلَ مَعَهُ فِي عَقْدِهِ مِنَ الكُفَّارِ حُكْمَ مَنْ حَارَبَهُ، وَبِهَذَا السَّبَبِ غَزَا أَهْلَ مَكَّةَ، فَإِنَّهُ لَـمَّا صَالَحَهُمْ عَلَى وَضْعِ الحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَشْرَ سِنِينَ، تَوَاثَبَتْ بَنُو بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ، فَدَخَلَتْ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ، وَعَقْدِهَا، وَتَوَاثَبَتْ خُزَاعَةُ، فَدَخَلَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَقْدِهِ، ثُمَّ عَدَتْ بَنُو بَكْرٍ عَلَى خُزَاعَةَ فَبَيَّتَتْهُمْ، وَقَتَلَتْ مِنْهُمْ، وَأَعَانَتْهُمْ قُرَيْشٌ فِي البَاطِنِ بِالسِّلَاحِ، فَعَدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا نَاقِضِينَ لِلعَهْدِ بِذَلِكَ، وَاسْتَجَازَ غَزْوَ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ لِتَعَدِّيهِمْ عَلَى حُلَفَائِهِ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُ القِصَّةِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَبِهَذَا أَفْتَى شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ بِغَزْوِ نَصَارَى المَشْرِقِ لَـمَّا أَعَانُوا عَدُوَّ المُسْلِمِينَ عَلَى قِتَالِهِمْ، فَأَمَدُّوهُمْ بِالمَالِ وَالسِّلَاحِ، وَإِنْ كَانُوا لَمْ يَغْزُونَا وَلَمْ يُحَارِبُونَا، وَرَآهُمْ بِذَلِكَ نَاقِضِينَ لِلعَهْدِ، كَمَا نَقَضَتْ قُرَيْشٌ عَهْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِإِعَانَتِهِمْ بَنِي بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ عَلَى حَرْبِ حُلَفَائِهِ، فَكَيْفَ إِذَا أَعَانَ أَهْلُ الذِّمَّةِ المُشْرِكِينَ عَلَى حَرْبِ المُسْلِمِينَ. وَاللهُ أَعْلَمُ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٣٦-١٣٨، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ١٦٧-١٨٣، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٦٣-١٦٤، ٣٠٨-٣١٦، والمسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٣٠٩-٣٢٣، ٣٦٢-٣٦٧].

١٢ ـ حكم الدعوة إلى الإسلام قبل القتال:

سبق تفصيلها في الدروس المستفادة من غزوة بني المصطلق ضمن غزوة أُحُد.

[وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٥٤-١٦٢].

١٣ ـ حكم القتال في الأشهر الحرم:

كانت غزوة بني قريظة في ذي القعدة وصدر من ذي الحجة من السنة الخامسة على أصح الأقوال.

وقد سبق تفصيلها في دروس سرية عبد الله بن جحش ﷺ إلى نخلة ٢هـ.

[وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٦٥-١٧٠].

١٤ ـ أهمية اتخاذ الألوية والرايات في الإسلام:

من حديث عروة قال: «فَبَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ عَلَى المُقَدِّمَةِ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ اللِّوَاءَ، وَأَمَرَ أَنْ يَنْطَلِقَ حَتَّى يَقِفَ بِهِمْ إِلَى حِصْنِ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَفَعَلَ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى آثَارِهِمْ».

[دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٤، ونسبه الحافظ في الفتح ٧/ ٤١٣ إلى الحاكم والبيهقي، وقال الدكتور العمري: وقد وردت آثار مرسلة تتقوى ببعضها إلى رتبة الحسن لغيره تفيد أنه ﷺ بعث عليًّا ﷺ على المقدمة برايته. السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٣١٤، صحيح السيرة للعلي ٢٨٣].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَدَعَا رَسُولُ الله ﷺ عَلِيًّا ﷺ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ لِوَاءً، وَكَانَ اللِّوَاءُ عَلَى حَالِهِ لَمْ يُحَلّ مِنْ مَرْجِعِهِ مِنَ الخَنْدَقِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٧].

وقد سبق تفصيلها في دروس سرية حمزة ﷺ إلى العيص ١ هـ.

[وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٧١-١٧٢].

١٥ ـ جواز حضور النساء القتال ومشاركتهن في الغزوة:

يقول د/ أبو فارس: «يؤخذ هذا من مشاركة بعض الصحابيات في غزوة بني قريظة على مرأى ومسمع من رسول الله ﷺ، وأقرهن رسول الله ﷺ على ذلك، فلم يمنعهن ولم ينكر عليهن، بل وشجعهن على الخروج، وكافأهن على خروجهن، لما رضخ لهن من غنائم بني قريظة، فدل ذلك على استحباب خروج النساء». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٦٠، ١١٧، وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ١٦٢-١٦٣، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٣٦-١٤١، وقد سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الثانية من غزوة أحد].

١٦ ـ حكم حصار العدو:

يقول د/ بربر: «لا خلاف بين الفقهاء في أنه يجوز للإمام أو نائبه محاصرة الكفار في بلادهم، في الحصون والقلاع، وتشديد الأمر عليهم بالمنع من الدخول والخروج حتى يستسلموا، وينزلوا على حكم المسلمين.

[بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٠٠، والمبسوط للسرخسي ١٠/ ٢٦، والمدونة الكبرى لمالك ٣/ ٢٤، ومنح الجليل لعليش ٣/ ١٤٩، ومغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٢٣، ومنهاج الطالبين للنووي ١/ ١٣٧، والأحكام السلطانية للماوردي ١/ ٥٥، والمغني لابن قدامة ٩/ ٢٥١، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٠/ ٥٢، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ٦/ ١٤٠].

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:٥].

ولحصاره ﷺ بني قريظة خمسًا وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس ﷺ. [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ١٣٣، والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ١٩٥، والسيرة الحلبية للحلبي ٢/ ٦٦١، والتفسير المنير للزحيلي ٢١/ ٢٩٠، وشرح صحيح البخاري لابن بطال ٥/ ٢٠٢].

وقد حاصر الرسول ﷺ أهل الطائف، فلم ينل منهم شيئًا. [البخاري في المغازي، ومسلم في الجهاد].

وحاصر ﷺ أهل خيبر، وفتحها الله عليه عنوة. [البخاري في المغازي]». [الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣١٧، وينظر للتفصيل: أحكام الحصار في الفقه الإسلامي والقانون الدولي: دراسة مقارنة (دكتوراه) ـ د/ مروان محمد أحمد بني أحمد ـ إشراف د/ محمود توفيق العواطلي، ود/ عمر صالح علي العكور ـ كلية الدراسات العليا ـ جامعة العلوم الإسلامية العالمية ـ الأردن ٢٠١٤هـ ـ ١٦١ص].

١٧ ـ جواز التحكيم في أمور المسلمين ومهامهم:

قال الإمام النووي ﷺ: فِيهِ: جَوَازُ التَّحْكِيمِ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَفِي مُهِمَّاتِهِمْ العِظَامِ، وَقَدْ أَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُخَالِفْ فِيهِ إِلَّا الخَوَارِجُ، فَإِنَّهُمْ أَنْكَرُوا عَلَى عَلِيٍّ ﷺ التَّحْكِيمِ، وَأَقَامَ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ.

وَفِيهِ: جَوَازُ مُصَالَحَةِ أَهْلِ قَرْيَةٍ أَوْ حِصْنٍ عَلَى حُكْمِ حَاكِمٍ مُسْلِمٍ عَدْلٍ صَالِحٍ لِلْحُكْمِ أَمِينٍ عَلَى هَذَا الأَمْرِ، وَعَلَيْهِ الحُكْمُ بِمَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، إِذَا حَكَمَ بِشَيْءٍ لَزِمَ حُكْمُهُ، وَلَا يَجُوزُ لِلإِمَامِ وَلَا لَهُمْ الرُّجُوعُ عَنْهُ، وَلَهُمْ الرُّجُوعُ قَبْلَ الحُكْمِ. [شرح النووي على مسلم ١٢/ ٩٢].

ويقول د/ أبو فارس: «لقد وافق رسول الله ﷺ أن يكون سعد بن معاذ ؓ حَكَمًا بينهم وبين بني قريظة، مما يدلك على أن التحكيم جائز في الحرب بين المسلمين وغيرهم.

وحُكم الحَكَم ملزم للطرفين، ولا يشترط رضاهما به، وهذا ما استعد الطرفان به».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٩٩-١٠٠، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣٢٠-٣٢٦، والمسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٣٢٤-٣٤٢، ومسائل العقيدة المستنبطة من غزوة بني قريظة للدلو ١٠٦-١١٠].

١٨ ـ جواز أن يكون الحَكَم مفضولاً ويحكم على من هو أفضل منه:

يقول د/ أبو فارس: «إذ كان سعد بن معاذ ؓ حَكَمًا حُكمه ملزِم لرسول الله ﷺ وللمسلمين معه، ومعلوم أن أفضل خلق الله وسيد ولد آدم هو رسول الله ﷺ، وأن أبا بكر وعمر وعليًّا وعثمان ؓ يتقدمون على سعد بن معاذ ؓ، وقد حكم فيهم.

والذي أريد أن أنبه إليه أن المسلمين إذا أرادوا أن يختاروا حكمًا يجب أن يراعوا فيه العدالة والتقوى، وأنه ينبغي أن يكون حريصًا على مصالحهم، عارفًا بأهدافهم وأمانيهم عاملًا لتحقيقها».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٠٠].

١٩ ـ جواز القيام لأهل الفضل والعلم احترامًا وتقديرًا:

يقول د/ البوطي: «أمر النبي ﷺ الأنصار حينما أقبل نحوهم سعد بن معاذ ؓ راكبًا دابته أن يقوموا إليه تكريمًا له، ودلَّ على هذا التعليل قوله: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ إِلَى خَيْرِكُمْ**»، وقد استدل العلماء بهذا وغيره على مشروعية إكرام الصالحين والعلماء بالقيام إليهم في المناسبات الداعية إلى ذلك عرفًا.

يقول الإمام النووي في تعليقه على هذا الحديث: (فِيهِ: إِكْرَامُ أَهْلِ الفَضْلِ وَتَلَقِّيهِمْ بِالقِيَامِ لَهُمْ إِذَا أَقْبَلُوا، هَكَذَا احْتَجَّ بِهِ جَمَاهِيرُ العُلَمَاءِ لِاسْتِحْبَابِ القِيَامِ، قَالَ القَاضِي: وَلَيْسَ هَذَا مِنَ القِيَامِ المَنْهِيِّ عَنْهُ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ فِيمَنْ يَقُومُونَ عَلَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ، وَيَمْثُلُونَ قِيَامًا طُولَ جُلُوسِهِ، قُلْتُ: القِيَامُ لِلقَادِمِ مِنْ أَهْلِ الفَضْلِ مُسْتَحَبٌّ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ أَحَادِيثُ، وَلَمْ يَصِحَّ فِي النَّهْيِ عَنْهُ شَيْءٌ صَرِيحٌ، وَقَدْ جَمَعْتُ كُلَّ ذَلِكَ مَعَ كَلَامِ العُلَمَاءِ عَلَيْهِ فِي جُزْءٍ وَأَجَبْتُ فِيهِ عَمَّا تَوَهَّمَ النَّهْيُ عَنْهُ).

ومن الأحاديث الثابتة الدالة أيضًا على ذلك، ما جاء في حديث كعب بن مالك ؓ المتفق عليه، وهو يقص خبر تخلفه عن غزوة تبوك، قال: فَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رَسُولَ الله ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّؤُونِي

بِالتَّوْبَةِ، وَيَقُولُونَ: لِتَهْنِئْكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ، حَتَّى دَخَلتُ الـمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، وَالله مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الـمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ... فَكَانَ كَعْبٌ لاَ يَنْسَاهَا لِطَلحَةَ. [مسلم في التوبة (٢٧٦٩)، ومسند أحمد ٢٥/ ٧٣ رقم ١٥٧٨٩].

ومن ذلك أيضًا ما رواه الترمذي وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد: عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الـمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها قَالَتْ: **مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ سَمْتًا وَدَلًّا وَهَدْيًا بِرَسُولِ الله فِي قِيَامِهَا وَقُعُودِهَا مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَتْ: وَكَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَامَ إِلَيْهَا [فَأَخَذَ بِيَدِهَا] فَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ مِنْ مَجْلِسِهَا [فَأَخَذَتْ بِيَدِهِ] فَقَبَّلَتْهُ وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا.**

[أبو داود في الأدب (٥٢١٧)، والترمذي [واللفظ له] في المناقب (٣٨٧٢)، والأدب المفرد في العطاس (٩٤٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح، وسنن النسائي الكبرى ٥/ ٣٩١ كتاب عشرة النساء (٩٢٣٦)].

واعلم أن هذا الكلام كله لا يتنافى مع ما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ أَحَبَّ [سَرَّهُ] أَنْ يَمْثُلَ [يَتَمَثَّلَ] لَهُ الرِّجَالُ [النَّاسُ] قِيَامًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» [أبو داود في الأدب (٥٢٢٩)، والترمذي في الأدب (٢٦٥٥)، وصححه الشيخ الألباني]؛ لأن مشروعية إكرام الفضلاء وتوقيرهم لا تستدعي السعي منهم إلى ذلك أو تعلق قلوبهم بمحبته، بل إن من أبرز صفات الصالحين والفضلاء أن يكونوا متواضعين لإخوانهم زهَّادًا في طلب هذا الشيء، أرأيت إلى الفقير المحتاج؟ إن الأدب الإسلامي يوصيه ويعلمه الترفع عن المسألة وإظهار الفاقة و الحاجة للناس، ولكن هذا الأدب الإسلامي نفسه يوصي الأغنياء بالبحث عن هؤلاء الفقراء المتعففين ويأمرهم بإكرامهم و إعطائهم من فضول أموالهم.

فلكلٍّ أدب ووظيفة، ولا ينبغي أن نخلط بينهما، أو ننسخ الواحد بالآخر فإن ذلك من أسوأ مظاهر التسرع والجهل.

غير أن من أهم ما ينبغي أن تعلمه في هذا الصدد أن لهذا الإكرام المشروع حدودًا إذا تجاوزها انقلب الأمر محرمًا، واشترك في الإثم كل من مقترفه والساكت عليه.

فمن ذلك ما قد تجده في مجالس بعض المتصوفة من وقوف المريدين وهم جلوس، يقف الواحد منهم أمام شيخه في انكسار وذل مطرقًا لا يطرف إلى أن يأذن له بالجلوس، ومنه ما يفعله بعضهم من السجود على ركبة الشيخ أو يده عند قدومه عليه، أو ما يفعله من الحبو إليه عندما يغشى المجلس، ولا يخدعنَّك ما قد يُقال في تسويغ ذلك من أنه أسلوب من التربية للمريد! فالإسلام قد شرع مناهج وأساليب للتربية وحظر على المسلمين الخروج عليها، وليس بعد الأسلوب النبوي في التربية من أسلوب يُقرُّ أو يعاج عليه». [فقه السيرة للبوطي ٢٣٩-٢٤١].

ويقول د/ أبو فارس: «استحباب القيام للأمير المسلم الصالح وتلقيه بالترحاب لإيناسه واحترامه، وهذا ما طلبه رسول الله ﷺ من أصحابه حينما حضر سعد رضي الله عنه من خيمة رفيدة الأسلمية على حماره، فقال رسول الله ﷺ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ إِلَى خَيْرِكُمْ**»، فقاموا واستقبلوه وأنزلوه عن حماره.

أقول: إن أمر الرسول ﷺ بالقيام متعلق بالقائم لا بالمُقام له، أما الحديث الذي تضمن النهي فهو متعلق بالمُقام له، حيث يحرص على أن يتمثل له الناس قيامًا لكِبْر وغرور يصيبه، فيستعلي على الناس ويعجب بنفسه، ويحتقر غيره ممن هم دونه من الناس، ويريدهم أن يقوموا له قيام الوضيع للشريف، والحقير للوزير، وهذا ولا شك ممنوع في الدين؛ لأن الكبرياء لا تنبغي لأحد من خلق الله، بل هي لله وحده قال سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية]، ومَنْ نازع الله في ذلك كان من الهالكين بهذا أخبرت الآيات في القرآن الكريم، قال سبحانه: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف]، وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر]، وقال سبحانه: ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل].

وأقول أيضًا: إن القيام للعالم الجليل، والأمير العادل، والرجل الكبير في السن، لاحترامه وتوقيره، فليس منا من لم يعرف قدر كبيرنا، لا شيء في هذا، بل هذا مستحب كما تقدم الكلام عنه، إلا أنه إذا علم الذي يريد أن يقوم أن هذا القيام يبعث العجب في نفس المُقام له والغرور، فلا ينبغي القيام له، وإذا علم أيضًا أن ذلك الأمير يحب أن يتمثل له الناس قيامًا فلا يقوم له؛ لأن القيام ينمي في نفسه الكبر، ويساعده على المعصية». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٠٦-١٠٧**].

ويقول د/ الزيد: «قول الرسول ﷺ لما جاء سعد بن معاذ رضي الله عنه: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ إِلَى خَيْرِكُمْ**» مشروعية احترام أهل الفضل والأكابر، وتوقيرهم وتقديرهم، سواء كانوا أكابر لمنزلتهم في السن أو في العلم أو الولاية، فيشرع القيام إلى الكبير والعالم والأمير واحترامهم وتقديرهم.

[**ينظر: النووي، شرح صحيح مسلم ١٢/ ٩٣**].

وينبغي أن نفرق هنا بين القيام إلى الشخص، والقيام للشخص، والقيام على الشخص.

فالقيام إلى الشخص: هو ملاقاته إذا دخل للترحيب به مثلًا أو تهنئته مثل ما حصل من طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه لما دخل كعب بن مالك رضي الله عنه المسجد بعد نزول توبة الله عليه، فقد قام طلحة إلى كعب فصافحه وهنأه بتوبة الله عليه كما سيأتي في قصة غزوة تبوك، وهذا القيام لا بأس به بل مستحب، وقد جاءت به السنة أمرًا وإقرارًا وفعلًا.

أما الأمر فقصة سعد بن معاذ ﷺ هنا، وأما الإقرار فقصة طلحة وكعب السابق الإشارة إليها، وأما الفعل فقيامه ﷺ إلى ابنته فاطمة ـ رضى الله تعالى عنها ـ لما دخلت عليه. [سبق تخريجه قريبًا].

والقيام للشخص: وهو أن تقوم للشخص وأنت باق في مكانك لا تتحرك إليه، فهذه الصفة قال الشيخ محمد بن عثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ فيها: (لا بأس به إذا اعتاده الناس؛ لأنه لم يرد النهي عنه، وإنما النهي والتحذير من الذي يُقام له لا من القائم وإن كان الأولى تركه، فإن من يُقام له قال فيه النبي ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ [سَرَّهُ] أَنْ يَمْثُلَ [يَتَمَثَّلَ] لَهُ الرِّجَالُ [النَّاسُ] قِيَامًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**».

[سبق تخريجه قريبًا، وينظر: شرح رياض الصالحين للعثيمين ١/ ٢٥٧، ٢٥٩].

وخالفه في ذلك آخرون فرأوا أن النهي كما يشمل الذي يُقام له فهو أيضًا يمنع الشخص من القيام، وذلك اتباعًا لعادة السلف ﷺ فما كانوا يقومون في عهد الرسول ﷺ وعهد خلفائه الراشدين، ولما فيه من التعاون على الخير وعدم فتح باب الشر، قال ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ: (وَمُحَصَّلُ الْمَنْقُولِ عَنْ مَالِكٍ إِنْكَارُ الْقِيَامِ مَا دَامَ الَّذِي يُقَامُ لِأَجْلِهِ لَمْ يَجْلِس، وَلَوْ كَانَ فِي شُغْلِ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ سُئِلَ عَنْ الْمَرْأَةِ تُبَالِغُ فِي إِكْرَام زَوْجِهَا فَتَتَلَقَّاهُ وَتَنْزِعُ ثِيَابه، وَتَقِف حَتَّى يَجْلِس؟ فَقَالَ: أَمَّا التَّلَقِّي فَلَا بَأْس بِهِ، وَأَمَّا الْقِيَامُ حَتَّى يَجْلِسَ فَلَا، فَإِنَّ هَذَا فِعْلُ الْجَبَابِرَة). [فتح الباري ١١/ ٥٠- ٥١، وللمزيد ينظر: شرح صحيح مسلم للنووي ١٢/ ٩٣، وفتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ١/ ١٤٤- ١٤٥، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ١/ ٧١- ٧٥، رقم ٣٥٧].

أما القيام على الشخص: وذلك بأن يكون الشخص جالسًا ويقوم واحد على رأسه تعظيمًا له فهذا منهي عنه إلا في حالتين:

أ ـ إذا دعت الحاجة إلى ذلك كأن يُخاف عليه أن يعتدي عليه أحد، فلا بأس أن يقوم عليه القائم.

ب ـ إذا قام عليه إكرامًا له في حال يُقصد فيه إكرامه وإهانة العدو مثل ما حصل من المغيرة بن شعبة ﷺ في صلح الحديبية حينما كانت قريش تراسل الرسول ﷺ للمفاوضة بينهما». [ينظر: شرح رياض الصالحين لابن العثيمين ١/ ٢٥٩-٢٦٠، وينظر أيضًا: الدرر السنية لابن قاسم ١٥/ ٣٨٧-٣٨٨]. [فقه السيرة للزيد ٥١٤-٥١٥].

ويقول أ/ باشميل: «وقد تباينت آراء الفقهاء حول مقاصد الأمر النبوي الكريم بالقيام لسعد بن معاذ ﷺ هل هو لتكريم أم لإنزال سعد ﷺ من على الدابة لأنه كان جريحًا متعبًا؟

والذي يظهر لنا (والله أعلم) أن القصد بالقيام إنما كان لإنزال سعد ﷺ لا لتعظيمه، يدلنا على هذا صيغة الأمر النبوي القائل: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ إِلَى خَيْرِكُمْ**»، فلو كان المقصود بالقيام التعظيم لقال ﷺ ـ والله أعلم ـ: **قوموا لسيدكم.**

غير أن ابن برهان الدين ذكر في السيرة الحلبية أن الصحابة قالوا (يصفون قيامهم لسعد): فقمنا صفين يحييه كل رجل منا حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ، وهذا صريح في أن القيام إنما كان لتحيته.

قَالَ ابن إسحاق: فَلَمَّا انْتَهَى سَعْدٌ ﷺ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**»، فَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ، فَيَقُولُونَ: إِنَّمَا أَرَادَ رَسُولُ الله ﷺ الأَنْصَارَ (يظهر أنهم لم يقوموا)، وَأَمَّا الأَنْصَارُ، فَيَقُولُونَ: قَدْ عَمَّ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ». [**غزوة بني قريظة لباشميل ١٨٥-١٨٦**].

ويقول د/ الفنيسان: «والقيام ثلاثة أنواع:

(١) قيام للرجل عند قدومه من السفر وهذا لا بأس به؛ لقيام الرسول ﷺ لجعفر ﷺ ومعانقته له لما قدم من سفر.

(٢) قيام للرجل على رأس الرجل، كما يُفعل عند الملوك والأمراء اليوم تعاظمًا وتكبرًا، وهذا حرام لا يجوز.

(٣) قيام الرجل عند رؤيته أو قدومه إلى منزله أو مقر عمله مثلًا، وهذا هو المتنازع فيه، والصحيح عندي أنه جائز غير مستحب، وما ذهب إليه النووي ﷺ من استحبابه لأهل الفضل والعلم غير سديد؛ لأن القول بندب القيام لأهل العلم والفضل أشد خطرًا في نظري من القيام للملوك؛ لأن القيام للملوك والزعماء لا يُطلب به ثواب، وإنما يقع عادة ليرفع به الإنسان الضرر عن نفسه خوفًا من بطش السلطان أو غضبه عليه، وهذا الخوف فطري، فليس عبادة فلا يُرجى به ثواب.

أما القيام لأهل الصلاح والفضل فإنما يفعل قربةً يرجو بها فاعلها ثوابًا من الله، فهو على هذا الوجه عبادة، والعبادة هي ما جاءت على وفق الشرع، أما إذا ترتب على ترك القيام مفسدة أعظم، فيجوز القيام، وقد يجب أحيانًا، وهذا فيما إذا لم يكن لمعانقة القادم أو مصافحته، وإنما يقومون إذا قام وقدم، ويجلسون إذا جلس، وهذا هو التعظيم المنهي عنه، وأعظم من هذا ما يعرف بـ «تحية العلم» يحييها الرجل إذا مر بها ويقوم لها إذا مرت من عنده». [**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣١-٢٣٢، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٢٩٣-٢٩٩، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٢٢-٢٢٩، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ١٢٠-١٣١**].

٢٠ ـ الخيانة جريمة تستوجب القتل:

يقول د/ أبو فارس: «وبهذا حكم سعد بن معاذ ﷺ، وتأيد هذا الحكم بأن جاء به الوحي من عند الله تبارك وتعالى، وقال رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ ﷺ حين حكم بما حكم قال له: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ ﷻ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ**».

وقد نص القرآن على عقوبة كل خائن للعهد، ناقض له بالقتل والتشريد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾[الأنفال].

قال كثير من المفسرين: نزلت هذه الآيات في بني قريظة إذ نقضوا العهد مع الرسول ﷺ أكثر من مرة». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٠٠-١٠١**].

٢١ ـ وقفة عند حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه:

يقول أ/ باشميل: «لقد كان المفروض والمتبادر إلى الذهن أن سعدًا رضي الله عنه ـ بعد أن أعطيت له الصلاحيات المطلقة في الحكم على حلفائه اليهود ـ سيراعي جانب رابطة الحلف التي بينه وبين بني قريظة، فيخفف الحكم عليهم بتخليص رقابهم من الموت على الأقل، وهذا هو الذي كان قومه الأوس يطمعون فيه عندما اغتبطوا بتفويضه في أمر حلفائهم اليهود، وتقدموا إليه يلتمسون منه تخفيف الحكم عليهم.

وكان اليهود من جانبهم كذلك يطمعون في أن تشفع لهم عند سيد حلفائهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، رابطة الحلف القديمة التي بينهم وبين الأوس؛ ولذلك أكثر زعماء قومه من الرجاء لديه لكي يتساهل في الحكم عليهم.

ولكن سعدًا رضي الله عنه لم ينس في زحمة موجات الرجاء الموجَّه إليه من قومه الأوس، أن الإسلام وكل المنتسبين إلى الإسلام، وأن المدينة، وما في المدينة من أعراض وحرمات وثمار وحرث ونسل، وكل كيان الإسلام الديني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي كان قاب قوسين أو أدنى من التدمير والتخريب بسبب غدر هؤلاء اليهود ونقضهم العهد وأنه لم ينج إلا بمعجزة خارقة، ولو لم تحدث لانتهى الكيان الإسلامي إلى الأبد.

ولم ينس سعد رضي الله عنه في ضجيج الرجاء الموجَّه إليه من قومه أن هؤلاء اليهود لو تم لهم وللأحزاب النصر على المسلمين لما تورعوا عن استئصال شأفة المسلمين وهتك أعراضهم وتخريب ديارهم وتدمير كيانه، كما هو الاتفاق بينهم وبين قيادة الأحزاب عندما طلبت منهم هذه القيادة الغدر بالمسلمين ونقض عهدهم؛ لذلك لم يلبث سعد رضي الله عنه أن قال قولته الخالدة تلك لقومه، وقد جاؤوا يشفعون لحلفائهم اليهود: **(لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم)**، ثم أصدر ذلك الحكم الصارم الذي هو تمامًا في مستوى الأحداث، والذي جاء عقوبة على قدر الجريمة.

ذكرى لم ينسها سعد رضي الله عنه: ومن الجدير بالذكر أن سعد بن معاذ رضي الله عنه هذا، كان أحد أعضاء الوفد الذين أرسلهم النبي ﷺ إلى بني قريظة لجس النبض عندما بدأت جيوش الأحزاب في محاصرة المدينة، وذلك بعد أن بلغه أن بني قريظة قد خانوا العهد ونقضوا الحلف وانضموا إلى معسكر الأحزاب.

فقد جاء هذا الوفد إلى بني قريظة يطلب منهم الوفاء بالعهد والقيام بالتزاماتهم العسكرية للدفاع عن المدينة بجانب المسلمين، كما تنص على ذلك المعاهدة المعقودة بين المسلمين واليهود.

وكان سعد بن معاذ ﷺ أحد أقطاب هذا الوفد، وقد سمع جواب اليهود على طلب الوفد، ورأى كيف شتم هؤلاء الخونة في تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ الإسلام، النبي ﷺ، وأعلنوا ـ دونما أي خجل أو حياء ـ نقضهم العهد، وأصروا علنًا على المشاركة الفعالة في استئصال شأفة المسلمين مغتنمين استحكام حلقات المحنة عليهم (صنيع النذل الخسيس الذي لا ضمير له ولا ذمة ولا عهد ولا شرف).

فقد تأثر سيد الأوس الشاب سعد بن معاذ ﷺ تأثرًا عميقًا عندما سمع من حلفائه اليهود ذلك القول القبيح ورأى منهم ذلك العمل الوضيع.

فتجسدت أمامه خسة هؤلاء اليهود ونذالتهم عندما وجهوا إلى حلفائهم المسلمين تلك الطعنة النجلاء في أحرج الساعات وأدق الظروف التي مرت بجيش محمد ﷺ في تاريخه منذ نشأ.

ولم ينس سعد ﷺ في ضجيج الاستعطاف الموجَّه إليه من قومه بشأن حلفائهم اليهود.. لم ينس ـ وهو يصدر ذلك الحكم الصارم العادل على هؤلاء اليهود ـ أنه قد حذرهم ونصحهم ـ بصفتهم حلفاءه ـ أن يبقوا على عهدهم وأن لا يغدروا برسول الله ﷺ لئلا ينتهوا إلى المصير المرعب الذي قادهم إليه أخيرًا غدرهم وخيانتهم.

فقد قال لهم سعد ﷺ يوم ذاك ناصحًا ومحذرًا: (**إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ** ـ من العهد ـ **يَا بَنِي قُرَيْظَةَ، وَأَنَا خَائِفٌ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ بَنِي النَّضِيرِ، أَوْ أَمَرَّ مِنْهُ**).

فكان منهم ذلك الجواب الفاحش القبيح الذي أملته نشوة الفرح بإطباق جيوش الأحزاب على المسلمين من كل جانب ونشوة الانتصار الذي تخيلوا أنهم سيحققونه على المسلمين، حيث أفحشوا لحليفهم الناصح في القول فسبوه سبًّا مقذعًا وسبوا رسول الله ﷺ إذ قالوا لسعد ﷺ يوم نصحهم: (**أَكَلتَ أَيْرَ أَبِيك**)، فقال ـ وكان حليمًا هادئ الطبع عفيفًا: **غَيْرُ هَذَا مِنَ القَوْلِ كَانَ أَجْمَلَ وَأَحْسَنَ مِنْهُ** ـ يا بني قريظة ـ ثم نالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من هو رسول الله؟! لا عهد بيننا وبين محمد.

لهذا فإن سعدًا ﷺ قد امتلأ (يوم ذاك) غيظًا على هؤلاء اليهود الخونة الأراذل، وكان يتمنى أن يشفي الله غليله منهم؛ ولهذا فإنه لما جُرح ذلك الجرح المميت يوم الخندق توجه إلى الله بالدعاء أن لا يميته حتى ينتقم من هؤلاء الخونة المجرمين.

وهكذا فإن حكم سعد ﷺ على هؤلاء اليهود إنما جاء بعد دراسة وإلمام كامل بنفسيات هؤلاء اليهود واقتناع بأنهم ـ بعد خبرة وتجربة عاشها سعد ﷺ معهم ولمسها فيهم ـ جرثومة وباءٍ قاتلة لا مفر من إبادتها». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٩١-١٩٦].

٢٢ ـ جواز الاجتهاد بحضرة النبي ﷺ:

يقول د/ الفنيسان: «دليل هذا تحكيم سعد بن معاذ رضي الله عنه في بني قريظة بحضرة الرسول ﷺ، وقال فيه رسول الله ﷺ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ**»، ولا معنى لهذا إلا تصويب ما حكم به سعد رضي الله عنه باجتهاده، كما يدل على هذا الحكم أيضًا حديث ابن عمر من صلاة العصر ـ أو الظهر في بني قريظة ولم يعنف أحدًا من الفريقين، فهذان في حكم الاجتهاد في حضرته ﷺ، الأول في تفويضه والثاني بإقراره». [**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٠-٢٣١**].

٢٣ ـ جواز استرقاق النساء والذرية:

يقول د/ العيساوي: «ذكرتُ فيما سبق أن الغنيمة تشتمل على أقسام: (أشخاص، وأرضون، وأموال)، فالأشخاص الذين يقعون في قبضة الدولة عمومًا بسبب الحرب، يقسمهم الفقهاء المسلمون إلى أصناف ثلاثة: (أسرى، وسبي، وعجزة)، والمراد بالسبي: النساء والأطفال.

[**الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٣٤، والأحكام السلطانية للفراء ص ١٢٧**].

وعند عرضنا لأحداث غزوة بني قريظة وغزوة خيبر، وجدنا أن من نتائجها وقوع عدد كثير من السبايا في يد المسلمين، فما موقف الشرع من ذلك؟ وماذا يفعل بهم؟ (القتل أو المن أو الفداء أو الأسر).

القتل: إذا وقع بعضُ النساء أو الصبيان في أسر المسلمين فلا يجوزُ قتلُهم باتفاق العلماء المسلمين، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من قوم ليس لهم كتاب كالدهرية وعبدة الأوثان.

[**شرح السير الكبير ٣/ ١٩٣، والخراج ص ١٩٦، والبدائع ٧/ ١٠١، والأم ٤/ ١٧٦، والمهذب ٢/ ٢٣٣، والمدونة ٣/ ، وبداية المجتهد ١/ ٣٧١، والمغني ٨/ ٢٤٦**].

فقد ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل النساء والصبيان.

[**شرح مسلم ٢/ ٤٨، وشرح الموطأ للسيوطي ٦/ ٦، ونيل الأوطار ٧/ ٢٤٦**].

وورد أن النبي ﷺ مَرَّ بامرأة مقتولة يوم حُنين، فقال: «**مَنْ قتل هذه؟**» فقال رجل: أنا يا رسول الله! غنمتُها فأردفتُها خلفي، فلما رأت الهزيمة فينا أهوتْ إلى سيفي أو إلى قائم سيفي لتقتلني فقتلتها، فقال النبي ﷺ: «**ما بالُ النساء، ما شأنُ قتلِ النساء**».

[**سنن البيهقي ٩/ ٨٢، ومجمع الزوائد ٥/ ٣١٦، والروضة الندية ٢/ ٣٣٩**].

أما ما ورد من أن النبي ﷺ أمر بقتل امرأة من بني قريظة بعد سبيها، فإنما كان ذلك بسبب قتلها لخلاد بن سويد رضي الله عنه، برَحا طَرَحتها عليه.

وفي ذلك جاء في حاشية ابن عابدين ما نصه: «لا تُقتل النساء ولا الذراري بل يُسترقون لمنفعة المسلمين». [**حاشية ابن عابدين ٣/ ٣٥٤**].

ويستثنى منه ما إذا اشتركوا في القتال وباشروا في مقاتلة المسلمين، فإنهم يُقتلون مقبلين، ويجب الإعراض عنهم مدبرين، كما أنه يُستثنى ما إذا تترس الكفار بصبيانهم ونسائهم، ولم يكن ردُّ غائلتهم إلا بقتلهم، فإن ذلك جائز، وعلى الإمام أن يتبع ما تقتضيه المصلحة.

[الأحكام السلطانية للماوردي ص ٤١، ومغني المحتاج ٤/ ٢٢٣].

أما بالنسبة للمَنِّ أو الفداء أو الأسرى، ففيما يأتي آراء الفقهاء في ذلك:

الأحناف: قالوا: إنَّ للإمام أن يسترق السبي، كما له أن يطلق سراحهم، ليعودوا إلى بلادهم على سبيل المفاداة عند الضرورة. [**حاشية ابن عابدين ٣/ ٣٥٣**].

وأما المالكية: فإنهم يتركون للإمام تقريرَ مصير السبي، على نحو ما جاء عند ابن جزي في قوله: وأما النساء والصبيان فيخير فيهم ـ أي الإمام ـ بين المنِّ والفداء والاسترقاق. [**منح الجليل ٣/ ١٦٦**].

وعند الشافعية: جاء في «المنهاج» وشرحه «مغني المحتاج» ما نصه: «نساء الكفار وصبيانهم إذا أُسروا رُقُّوا، أي: صاروا أرقاء بنفس الأسر، فالخمس منهم لأهل الخمس والباقي للغانمين؛ لأن النبي ﷺ كان يقسم السبي كما يقسم المال.

والمراد بالسبي النساء والولدان». [**مغني المحتاج ٤/ ٢٢٧، والإقناع للماوردي ص ١٨٧**].

ويذكر الماوردي من أحكام السبي: أنه يجوز للإمام أن يفادي بهم على مال، أو أسرى من المسلمين لدى العدوِّ، على أن يُعَوَّضَ المقاتلون من أصحاب الغنائم عن حقهم في السبي بما يقابل قيمتهم، وإن مَن امتنع من الغانمين عن ترك نصيبه من السبي لم يُستنزل عنه إجبارًا حتى يرضى.

[**الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٣٤**].

وعند الحنابلة: فقد جاء في «المغني» لابن قدامة، ما نصه: «من أُسر من أهل الحرب على ثلاثة أضرب: أحدها النساء والصبيان، فلا يجوزُ قتلهم، ويصيرون رقيقًا للمسلمين بنفس السبي؛ لأن النبي ﷺ نهى عن قتل النساء والولدان وكان ﷺ يسترقهم إذا سباهم».

[**المغني لابن قدامة ١٠/ ٤٠٠ وفيه تفصيل وأقوال أخرى في مسألة المفاداة ١٠/ ٤٠٥**].

وقد تبين مما تقدم أن استرقاق النساء ممن وقعنَ في الأسر من أهل الحرب هو متفق عليه بين جميع المذاهب على نحو ما سبق.. وأن هذا الاسترقاق هو حكم تلقائي نتيجة للأسر.

هذا ويجوز للمقاتلين ممن وزعتْ عليه الأسيراتُ من أهل الحرب أن يعاشروهن بعدما ضرب الرق عليهن، ويترتب على الحكم باسترقاقهنَّ فسخُ النكاح فيما بينهنَّ وبين أزواجهن من الكفار إذا كنَّ ذواتِ أزواج، وجواز وطئهن بعد الاستبراء.

عَنْ رُوَيْفِعِ بْنِ ثَابِتٍ الأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ: أَمَا إِنِّي لاَ أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا مَا سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ يَوْمَ حُنَيْنٍ، قَالَ: «**لاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْقِيَ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ ـ يَعْنِي إِتْيَانَ الحَبَالَى ـ وَلاَ**

يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَقَعَ عَلَى امْرَأَةٍ مِنَ السَّبْيِ حَتَّى يَسْتَبْرِئَهَا، وَلاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَبِيعَ مَغْنَمًا حَتَّى يُقْسَمَ».

[أبو داود في النكاح (٢١٥٨)، وقال الشيخ الألباني: حسن، ومسند أحمد ٢٨/ ٢٠٧ رقم ١٦٩٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح بشواهده وهذا إسناد حسن من أجل ابن إسحاق ـ وهو محمد ـ وقد صرح بالتحديث فانتفت شبهة تدليسه، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي مرزوق مولى تجيب فمن رجال أبي داود وابن ماجه وهو ثقة].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إِلَى أَوْطَاسٍ، فَلَقُوا عَدُوًّا فَقَاتَلُوهُمْ، فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ، وَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا، فَكَأَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَحَرَّجُوا مِنْ غِشْيَانِهِنَّ مِنْ أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي ذَلِكَ: ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[النساء: ٢٤]، أَي: فَهُنَّ لَكُمْ حَلاَلٌ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ». [مسلم في الرضاع (١٤٥٦)].

هذا ولا يخفى أن ما يترتب على استرقاق الأسيرات الحربيات من حلِّ الاستمتاع بهن من قِبَل مَن صِرن إليه إنما هو صون لهن من حيثُ هو طريق مشروع للإشباع الغريزي لديهن، وإذا حدث أن أثمر هذا الاستمتاع الإنجاب، فإن هذه الأسيرةَ المسترقَّةَ ترتقي لكي تصبحَ أم ولد مما يجعلُها كالزوجة الحرة، على ما هو مفصَّلُ في كتب الفقه.

كما أن حِلَّ الاستمتاع بالأسيرات الحربيات بعد ضرب الرق عليهن هو صون للمجتمع أيضًا، حتى لا تنتشرَ فيه الرذيلة، عن طريق وجود إماء، وقعن نتيجة لعدوان قومهن وإعراضهم عن الحق.. بين ضغط الغريزة والحاجة من ناحية، وبين طمع مرضى القلوب من ناحية أخرى، فيما لو لم يكن هناك حكم شرعي بإيوائهن ورعايتهن، وإباحة العلاقة المعنية بينهن وبين مَنْ يمتلكونهن».

[الجهاد والقتال في السياسة الشرعية لهيكل ٢/ ١٤٢٢]. [فقه الغزوات للعيساوي ١٨١-١٨٤].

ويقول د/ أبو فارس: «قد استرق رسول الله ﷺ وأصحابه في هذه الغزوة، وباعوا شيئًا من السبي، مما يدل على أنه أصبح رقًا ثم باعوه، وبهذا حكم سعد بن معاذ ﷺ وأيد اللهُ حكمه من السماء، بهذا جاءت الأخبار الصحيحة في كتب السنة، كصحيح البخاري وغيره.

أقول: إن الإسلام لم يحرم الرق حتى هذه الساعة، ولا يوجد نص من كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنة نبينا محمد ﷺ يدل من قريب أو بعيد بأي نوع من الدلالات أن الرق محرم في الإسلام، بل النصوص من القرآن والسنة تدل بجميع أنواع الدلالات وفي مقدمتها دلالة العبارة أن الرق حلال، فقد ورد في سورة المؤمنون ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون].

فالمسلم لا يصرف شهوته إلا من طريق الزواج أو التسري بالإماء كما نصت الآية، والآيات التي تحدثت عن الرق كثيرة لسنا بصدد إحصائها والتعليق عليها.

والسنة النبوية القولية والفعلية والتقريرية وعمل الصحابة ﭫ يدل على أن الرق والاسترقاق مباح، فقد استرق رسول الله ﷺ واسترق الصحابة ﭫ في غزوة بني قريظة وغزوة حنين، وظل المسلمون يتعاملون بالرقيق بيعًا وشراء قرونًا عديدة، فلم ينكر عليهم أحد، بل إنك لا تكاد تجد بابًا من أبواب الفقه إلا وفيه حديث عن الرق، سواء كان في الحدود أو القصاص أو العبادة أو الزكاة أو المعاملات.

وقد يتحرج بعض الناس من ذكر هذا الحكم، وإذا ذُكر أمامه حاول أن يتعسف في الدفاع عنه، ويتجاوز النصوص، وهذا في تقديري ليس صوابًا ولا صحيحًا.

إن المسلم ينبغي ألا يخجل من دينه، وأحكام شريعته، سواء استطاع العقل الإنساني أن يدرك حِكَم الأحكام أو لم يستطع.

إن الناس لا يُحكَّمون في شرع الله، وليس لهم ذلك، بل الله هو الذي يحكم في الناس بشرعه، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون عما يفعلون، فالبشر يعتريهم النقص فكيف يستدرك الناقص على الكامل، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

إن الإسلام لا يُحرِّم شيئًا إلا لمفسدة فيه، وقد يتوصل الإنسان إلى معرفة هذه المفسدة، وقد لا يتوصل، فإذا لم يهتد الإنسان إلى اكتشاف هذه المفسدة في وقت من الأوقات فلا يعني أن الحكم غير صحيح، وإنما يدل على جهل هذا الإنسان وعدم معرفته، والإسلام لا يبيح شيئًا من الأشياء إلا لمصلحة تتحقق للناس، وقد يتوصل الناس إلى اكتشاف هذه المصلحة وقد لا يتوصلون، وسواء توصلوا أو لم يتوصلوا فإن الحكم صحيح وباق لا يؤثر فيه جهلهم بهذه المصلحة.

إن الإسلام منع الطرق الظالمة في الاسترقاق وحرمها، كاسترقاق المدين إذا عجز عن الوفاء بدَيْنه للدائن، أو سرقة الأطفال واسترقاقهم ثم بيعهم، أو غير ذلك، أما الأسر فهو طريق مشروع في الاسترقاق منذ عهده ﷺ، ولم يأت نص يمنعه لا من الكتاب ولا من السنة.

نعم إن الإسلام شجع على تحرير الرق، فشرع الكفارات الكثيرة التي يتحرر قسم من الرقيق بواسطتها، ككفارة الظهار، وكفارة اليمين، وكفارة النذر، وكفارة الاعتداء على حرمة رمضان، وكفارة قتل الخطأ.

وكوْن الإسلام يشجع على تحرير الرق عن هذه الطرق فلا يعني أنه يحرم الرق أصلًا، وأقول أيضًا: إن ما يكتبه بعض العلماء والباحثين في عالمنا المعاصر، عن الرق ويغالي في كتابته وحديثه حتى يصرح بأن الإسلام حرَّم الرق، ولا يوجد في الشريعة ما يُحله، حتى يقنع الناس، أو الأعداء الذين لا هَمَّ لهم إلا توجيه الافتراءات والطعون للإسلام، يدفعهم حقدهم وحسدهم وبغضهم لهذا الدين والرسول ﷺ، ولأصحابه ﭫ، وفق منهج خبيث غير موضوعي ولا علمي.

إن هذه العاطفة عاطفة الدفاع عن الإسلام جيدة ـ رغم أن الإسلام ليس ضعيفًا يحتاج إلى دفاع المدافعين عنه، فهو صادر عن الله الذي يعلم والناس لا يعلمون ـ ومأجورون عليها إن شاء الله، ولكن هذه العاطفة ينبغي أن تتقيد بالأحكام الشرعية المستنبطة من النصوص من الكتاب والسنة، وألا تتجاوز حدودها، ولا تغالي ولا تشتط، فتطغى على الشرع وتنفي أحكامًا شرعية». **[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٠٢-١٠٤، وينظر للتفصيل: المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق لطيب ٣٦٨-٣٨٦، وقد سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من غزوة بني المصطلق بعنوان «إبطال الشبهة التي أثيرت حول الرق في الإسلام»]**.

٢٤ ـ جواز بيع السبي والانتفاع بثمنه:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما فعله الرسول ﷺ ببعض سبي بني قريظة، إذ باعه واشترى به سلاحًا وخيلًا، وهذا يؤخذ عنه أن الرقيق مال متقوم في نظر الشريعة الإسلامية، يباع ويشترى».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٠٤].

٢٥ ـ يجوز للإمام أن يبيع بعض الغنيمة ويشتري بذلك سلاحًا يعطيه للمسلمين:

يقول د/ الفنيسان: «وجه هذا أنه لما سُبيت السبايا والذرية يوم قريظة، بعث رسول الله ﷺ بطائفة منهم إلى الشام مع سعد بن عبادة رضي الله عنه، يبيعهم ويشتري بهم سلاحًا». **[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٤]**.

٢٦ ـ لا يفرَّق بين الأم المسبية وولدها عند البيع:

يقول د/ الفنيسان: «دليل ذلك أن النبي ﷺ نهى يوم قريظة أن يفرق بين الأم وولدها، ولفظه عن ابن عمر رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ أنه نهى عن بيع أمهات الأولاد وقال: «**لا يبعن ولا يوهبن ولا يورثن، يستمتع بها السيد ما دام حيًّا فإذا مات فهي حرة**»، والصحيح أنه موقوف على ابن عمر وهو حجة على كل حال لأنه في حكم المرفوع». [نيل الأوطار ٦/ ١٠٣]. **[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٤، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ١٤٠-١٥٤]**.

٢٧ ـ إنبات شعر العانة علامة البلوغ وحد قتل للكافر:

يقول د/ الفنيسان: «وجه ذلك أن سعد بن معاذ رضي الله عنه حكم في بني قريظة بحكم الله ـ أن تُقتل الرجال وتسبى النساء والذرية وتغنم الأموال ـ فنظروا من أنبت قُتل ومن لم ينبت تُرك، وكان منهم عطية القرظي فخلي سبيله ولم يُقتل». **[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٢]**.

وقال الإمام السهيلي: «وَذَكَرَ حَدِيثَ عَطِيَّةَ الْقُرَظِيِّ، وَهُوَ جَدُّ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَنْبَتَ فَتُرِكَ، فَفِي هَذَا أَنَّ الإِنْبَاتَ أَصْلٌ فِي مَعْرِفَةِ الْبُلُوغِ إِذَا جُهِلَ الِاحْتِلَامُ، وَلَمْ تُعْرَفْ سِنُوهُ».

[الروض الأنف للسهيلي ٦/ ٣٣٦، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ١٩٩-٢٠٥، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٤٠-٢٤٣].

٢٨ ـ حكم النظر إلى العورة عند الضرورة:

يقول د/ بربر: «لا خلاف بين العلماء في جواز النظر إلى عورة الرجل أو المرأة إذا دعت الضرورة أو الحاجة إلى ذلك، ولا يجوز للناظر أن ينظر أكثر مما دعت إليه الحاجة؛ لأنها تُقدر بقدرها. [ينظر: البحر الرائق لأبي نجيم ٤/ ١٣٤، وشرح فتح القدير للسيواسي ٥/ ٢٩٨، والفواكه الدواني لابن غنيم النفراوي ٢/ ٩٩، والذخيرة للقرافي ١٣/ ٢٨٠، والوسيط للغزالي ٥/ ٣٧، والمغني لابن قدامة ٨/ ١٨٤، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ٤٣٨، وشرح صحيح البخاري لابن بطال ١/ ٣٩٣، وعمدة القاري للعيني ٣/ ٢٣١، وطرح التثريب في شرح التقريب للعراقي ٢/ ١٩٨].

وذلك لحديث عطية القرظي ﷺ السابق في عرض الغزوة.

قال القرطبي: «إن مثل هذا يباح لمصلحة الجسم، كنظر الطبيب». [تفسير القرطبي ٢/ ٩٩].

وقال ابن حجر: «وفيه جواز النظر إلى العورة عند الضرورة الداعية لذلك، من مداواة، أو براءة ».

[فتح الباري لابن حجر ٦/ ٤٣٨].

وقال ابن قدامة: «ويجوز النظر إلى العورة للحاجة، والشهادة». [المغني لابن قدامة ٨/ ١٨٤].

[الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٢٤٤-].

٢٩ ـ إعدام مجرمي الحرب:

يقول د/ الفنيسان: «نقض يهود بني قريظة عهدهم مع المسلمين في أحرج وقت وأضيقه، وكان موقفهم هذا بمثابة طعنة للمسلمين من الخلف، ولو نجحت الأحزاب في غزو المدينة، لقتل يهودُ بني قريظة المسلمين وهتكوا أعراضهم، ونهبوا أموالهم وخرَّبوا عامر الديار.

وموقف يهود بني قريظة أشد وأخطر وأخسر ممن سبقهم من يهود بني قينقاع وبني النضير، وكان بإمكان بني قريظة أن يعلنوا إسلامهم، وأن يفوا بعهودهم مع المسلمين ليعصموا دماءهم وأموالهم، لا سيما بعد أن رأوا مصير من سبقهم، ولكن أنى لهم ذلك، وتاريخهم مليء بنقض العهود وقتل الأنبياء وخسة الطبع ونكران الجميل؟». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤٠-٢٤١].

ويقول الشيخ الندوي: «وقد وافق ذلك قانون الحرب في شريعة بني إسرائيل، فقد جاء في سفر التثنية (الإصحاح العشرون ١٠-١١-١٢-١٣): «**حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح، وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة ـ كل غنيمتها ـ فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك**».

وهذه كانت العادة المتبعة في بني إسرائيل في عهد أنبيائهم، فقد جاء في التوراة: «**فتجندوا على مديان كما أمر الرب، وقتلوا كل ذكر وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم، أوى، وراقم، وصور، وحور، ورابع،**

خمسة ملوك مديان، وبلعام بن باعور قتلوه بالسيف، وسبى بنو إسرائيل نساء وكل مديان وأطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم، وكل أملاكهم، أحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار» (سفر العدد، الإصحاح الحادي والثلاثون ٧-٨-٩-١٠).

وذلك في عهد موسى عليه السلام وبموافقة منه، وقد جاء في التوراة: «**فخرج موسى والعازر الكاهن وكل رؤساء الجماعة لاستقبالهم إلى خارج المخلة، فسخط موسى على وكلاء الجيش رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من جند الحرب، وقال لهم موسى: هل أبقيتم كل أنثى حية**» (سفر العدد، الإصحاح الحادي والثلاثون ١٣-١٦). [الكتاب المقدس، طبعة أوكسفورد ١٨٧٩م].

وكان ما عامل به رسول الله ﷺ بني قريظة مما اقتضته سياسة الحرب وطبيعة القبائل العربية واليهودية، وكان لابد من عقوبة صارمة تكون درسًا للعابثين بالعهود والمحالفات، ونكالًا لما بين يديها وما خلفها.

يقول بودلي في كتابه (حياة محمد الرسول): «كان محمد وحيدًا في بلاد العرب، وكانت هذه البلاد من حيث المساحة ثلث الولايات المتحدة الأمريكية، وكان عدد النفوس فيها يبلغ خمسة ملايين نفس... ولم يكن عنده من الجيوش التي تحمل الناس على امتثال أمره إلا الجيش الذي لا يزيد على ثلاثة آلاف جندي، ولم يكن هذا الجيش مسلحًا تسليحًا كاملًا، فإذا وهن محمد في هذه القضية أو تَرَك جريمة بني قريظة من غير أن يعاقبهم عليها، لم يكن للإسلام في جزيرة العرب بقاء، إنه لا شك أن عملية قتل اليهود كانت عنيفة، ولكن لم يكن ذلك حادثًا فريدًا من نوعه في تاريخ الديانات، وقد كان لهذا العمل مبرر من وجهة نظر المسلمين، قد تحتم الآن على القبائل العربية واليهود أن يتأملوا مرة بعد مرة قبل أن يقدموا إلى غدر أو نقض عهد؛ لأنهم قد عرفوا عواقبه الوخيمة وشاهدوا أن محمدًا يستطيع أن ينفذ ما يريده». [The Messenger – The Life of Mohammad (London 1946)pp.202–203]

وقد كان من فوائد القضاء على آخر حصن من حصون اليهود في المدينة الضعف الذي طرأ على معسكر النفاق، ونشاط المنافقين، فقد أثر ذلك في معنوياتهم، وأفقدهم الشيء الكثير من الثقة، والآمال الواسعة، فقد كانوا آخر معقل من معاقلهم الكبيرة.

يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون معلقًا على غزوة بني قريظة: «وأما المنافقون فقد خفت صوتهم بعد يوم قريظة، ولم نعد نسمع لهم أعمالًا أو أقوالًا تناقض إرادة النبي وأصحابه، كما كان يفهم ذلك من قبل».
[اليهود في بلاد العرب ١١٥]. [السيرة النبوية للندوي ٢٦٣- ٢٦٦].

٣٠ ـ تخميس الفيء وتوزيعه أسهمًا:

يقول د/ الفنيسان: «لما حوصر بنو قريظة وحُكم فيهم بحكم الله، أمر رسول الله ﷺ أن يُجمع كل ما في حصونهم فجُمع، فبلغ ألفًا وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفي رمح، وخمسمائة ترس، وجمالًا

نواضح يسقى عليها، وأثاثًا كثيرًا، فخمَّسه رسول الله ﷺ، وأخذ خُمسه، وقسَّم أربعة أخماسه على المسلمين، للراجل سهم، وللفارس سهمان، سهم له وسهم لفرسه، وقيل إن في بني قريظة هذا أول فيء وقعت فيه السهام». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٣-٢٣٤].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «كان ما استولى عليه في بني النضير أموالًا ثابتة، وما غنم في الوقائع السابقة لم يكن كثيرًا، أما ما كان في غزوة بني قريظة فكان أموالًا كثيرة بالنسبة لما سبقها، وخصوصًا في الأموال المنقولة؛ ولذلك كان التوزيع فيها تطبيقًا للنص القرآني: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[الأنفال: ٤١].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَسَّمَ أَمْوَالَ بَنِي قُرَيْظَةَ وَنِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَعْلَمَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سُهْمَانَ الْخَيْلِ وَسُهْمَانَ الرِّجَالِ، وَأَخْرَجَ مِنْهَا الْخُمُسَ، فَكَانَ لِلْفَارِسِ ثَلَاثَةُ أَسْهُمٍ الْفَرَسُ سَهْمَانِ وَلِفَارِسِهِ سَهْمٌ، وَلِلرَّاجِلِ مَنْ لَيْسَ لَهُ فَرَسٌ سَهْمٌ.

وَكَانَتِ الْخَيْلُ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ سِتَّةً وَثَلَاثِينَ فَرَسًا، وَكَانَ أَوَّلَ فَيْءٍ وَقَعَتْ فِيهِ السُّهْمَانُ، وَأُخْرِجَ مِنْهَا الْخُمُسُ، فَعَلَى سُنَّتِهَا وَمَا مَضَى مِنْ رَسُولِ الله ﷺ فِيهَا وَقَعَتِ الْمَقَاسِمُ، وَمَضَتِ السُّنَّةُ فِي الْمَغَازِي».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٤].

ونقول: إن هذا التقسيم لم يكن أول تقسيم بالأسهم، فقد سبق أن اخترنا ما قرره الحافظ ابن كثير في تاريخه أن آية: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ قد نزلت قبل تقسيم أنفال بدر، وأن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: نالني من خمسه راحلتان.

ولكن يظهر أن الجديد هو ما قرره النبي ﷺ من أن يكون للفارس ثلاثة أسهم اثنان للفرس، وواحد للفارس، وأن لمن لا فرس له سهمًا، ولم يكن ذلك التقسيم في أنفال بدر؛ لأنه لم يكن فرسان غنمت، بل كان هناك للمسلمين فرس واحد، قيل إنها للزبير بن العوام رضي الله عنه، هذا ما يظهر لي، والله تعالى أعلم».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٠٤-٨٠٥].

٣١ ـ حكم الأرض المفتوحة عنوة:

سبق تفصيلها في غزوة بني النضير، في مجموعة غزوة أُحُد.

[وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣٧٤-٣٨١].

٣٢ ـ النساء والصبيان يُرضخ لهم من الغنيمة ولا يُسهم لهم منها:

يقول د/ الفنيسان: «وجه هذا أن الرسول ﷺ لم يسهم للنساء اللاتي حضرن الخندق وقريظة، وإنما رضخ لهن، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**وَكَانَ يَغْزُو بِهِنَّ فَيُدَاوِينَ الْمَرْضَى، وَيُحْذَيْنَ مِنَ الْغَنِيمَةِ، وَأَمَّا يُسْهِمُ فَلَمْ يَضْرِبْ لَهُنَّ بِسَهْمٍ**». [مسلم في الجهاد والسير (١٨١٢)، والترمذي في السير (١٥٥٦)].

[ينظر: سنن البيهقي ٩/ ٥٣].[غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٤، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ١٥٥-١٦٠].

ويقول د/ أبو فارس: «فقد أعطى رسول الله ﷺ النسوة اللواتي شاركن في الغزوة من الغنائم، وخاصة من خمسه ﷺ، وهذا شيء جيد، يجعل المرأة تشارك الرجل في الجهاد وخاصة في سقي المقاتلين، ومساعدة الجرحى». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٧، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣٨٢-٣٨٥].

٣٣ ـ حكم سلب القتيل:

عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: قَالَ يَهُودِيٌّ يَوْمَ قُرَيْظَةَ: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قُمْ يَا زُبَيْرُ**»، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ: **يَا رَسُولَ الله، وَاحِدِي؟** فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَيُّهُمَا عَلَا عَلَى صَاحِبِهِ قَتَلَهُ**»، فَعَلَاهُ الزُّبَيْرُ فَقَتَلَهُ، فَنَفَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ سَلَبَهُ. [السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٥٠٣ كتاب قسم الفيء والغنيمة رقم ١٢٧٧٤، وقال البيهقي: هَذَا مُرْسَلٌ، وَقَدْ رُوِيَ مَوْصُولًا بِذِكْرِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِيهِ].

وقد سبق تفصيله في مبحث الدروس المستفادة من قضية الأنفال من غزوة بدر الكبرى.

[وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣٨٦-٣٩٢].

٣٤ ـ إذا قاتلتْ المرأةُ الكافرةُ تُقتل:

يقول د/ الفنيسان: «دليل هذا أن امرأة من نساء بني قريظة يوم قريظة ألقت حجرًا على خلاد بن سويد ﷺ فقتله فقُتلت به [عون المعبود ٧/ ٣٣١]، وفي هذه القصة دليل أيضًا على قتل المرتدة، وإذا قُتلت تقتل قصاصًا». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٤، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ١٩٦-١٩٨، والأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ١٨٦-١٩٠].

٣٥ ـ من السنة دفن الميت وإن كان كافرًا:

يقول د/ أبو فارس: «لقد حفر رسول الله ﷺ خنادق وارى فيها جثث القتلى من بني قريظة، يؤخذ من هذا استحباب دفن الأموات بمواراتهم في التراب، وإن كانوا كفارًا، وكما أن الدفن تكريم للميت، فهو في الوقت ذاته دفع للضرر عن الأحياء؛ لأن الجثث إذا تُركت تعفنت، وانبعثت منها رائحة كريهة، وتطايرت كثير من الجراثيم منها، وسرت في الهواء فتصيب العدوى الأحياء، فينتشر الوباء وتتلوث البيئة بسبب تحلل جسم الميت وتفسخه.

ولهذا كله نجد رسول الله ﷺ يحرص أن يواري جثمان الموتى حتى من المشركين، فقد وضع قتلى المشركين في بدر في القليب، ووضع قتلى قريظة في خنادق حفرها وهال التراب عليهم فيها، وكذلك فعل في قتلى المشركين في أُحُد وغير أُحُد». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١١-١١٢، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٩٣-٩٦].

٣٦ ـ حكم الأسير إذا أسلم قبل الظفر به:

يقول د/ بربر: «اختلف العلماء في حكم من أسلم قبل الظفر به إلى أربعة أقوال:

القول الأول: ذهب جماهير العلماء من: الشافعية، والحنابلة، والظاهرية، وبعض المالكية: إلى أن من أسلم قبل الظفر به، عصم بإسلامه ماله من غنيمة، ودمه من سفكه، وصغار أولاده الأحرار عن السبي؛ لأنهم يتبعونه في الإسلام. [الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع لشربيني الخطيب ٢/ ٥٥٩، وأسنى المطالب في شرح روض الطالب لزكريا الأنصاري ٤/ ١٩٤، والحاوي الكبير للماوردي ١٤/ ١٧٨، وشرح النووي على صحيح مسلم ١١/ ١٠٠، والأحكام السلطانية للماوردي ١/ ٥٢، وتحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام لابن جماعة ١/ ١٩٦، والكافي في فقه ابن حنبل لابن قدامة ٤/ ٢٧٦، والمحلي لابن حزم ٧/ ٣٠٩، والكافي لابن عبد البر ١/ ٢١٩، والسيل الجرار للشوكاني ٤/ ٥٥٤، ونيل الأوطار للشوكاني ٨/ ١٥٨].

القول الثاني: ذهب الحنفية: إلى أن من أسلم في دار الحرب، أحرز نفسه وطفله، وكل مال معه، دون ولده الكبير، وزوجته وحملها، وعقاره، وعبده المقاتل، ومن أسلم في دار الحرب، ثم خرج إلى دار الإسلام، فجميع ماله هناك فيء، إلا أولاده الصغار؛ لإسلامهم تبعًا له، ومن أسلم في دار الإسلام، ثم ظهر على داره، فجميع ما خلفه فيها من: الأولاد الصغار، والمال فيء.

[ينظر: البحر الرائق لابن نجيم ٥/ ٩٥، ٩٥، وتبيين الحقائق للزيلعي ٣/ ٢٥٣].

القول الثالث: قال مالك: إن أسلم قبل الظفر به عصم دمه، وأما ماله وولده وأهله، فهو فيء للمسلمين. [موطأ مالك ٢/ ٤٧٠، التاج والإكليل للعبدري ٣/ ٣٥٨، والكافي لابن عبد البر ١/ ٢١٩، والمدونة الكبرى لمالك ٣/ ١٩].

القول الرابع: قال ابن عبد البر، وسحنون وأشهب: يعصم دمه، وولده أحرار تبع له، وماله وامرأته فيء. [الكافي لابن عبد البر ١/ ٢١٩، والتاج والإكليل للعبدري ٣/ ٣٨٠].

أدلة القول الأول: استدل من قال أن من أسلم قبل الظفر به، عصم بإسلامه ماله من غنيمة، ودمه من سفكه، وصغار أولاده الأحرار عن السبي، بالأدلة التالية:

١ -«**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله**».

[البخاري في الإيمان (٢٥)...، ومسلم في الإيمان (٢٠، ٢١، ٢٢)، وفي فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٢٤٠٥)، وأبو داود في الزكاة (١٥٥٦)...، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٦، ٢٦٠٧، ٢٦٠٨)...، والنسائي في الزكاة (٢٤٤٣)...، وابن ماجه في المقدمة (٧١، ٧٢)...، والدارمي في السير (٢٤٤٦)، وأحمد عن أبي بكر الصديق، وعمر، وأبي هريرة، وأنس، وجابر بن عبد الله، وأوس بن أبي أوس الثقفي، ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم].

وجه الدلالة في الحديث: « **فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ** »، فأخبر عمن أسلم منهم أنه معصوم الدم والمال، وذلك يقتضي ألا يكون لأحد عليه سبيل. [أسنى المتاجر وبيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر لأبي العباس أحمد بن يحيى التلمساني الونشرسي ١/ ٣٨].

٢- حديث أَبِي سُفْيَانَ ﷺ، عن كِتَابِ النبي ﷺ إِلَى هِرَقْلَ، وفِيهِ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ**».

[البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٢) ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٣)].

وجه الدلالة في الحديث: أسلم تسلم، أي تسلم من كل ما تخافه من الآفات، فتسلم من خزي الدنيا ـ من الحرب والسبي، والقتل، وأخذ الديار والأموال ـ وفي الأخرة من العذاب.

[فتح الباري لابن حجر ٨/ ٢٢١، وشرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ١٠٨].

٣- عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: إِنَّ يَهُودَ النَّضِيرِ وَقُرَيْظَةَ حَارَبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَأَجْلَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَنِي النَّضِيرِ وَأَقَرَّ قُرَيْظَةَ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ، حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ، وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا بَعْضَهُمْ لَحِقُوا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَمَّنَهُمْ وَأَسْلَمُوا،...

[البخاري في المغازي (٤٠٢٨)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٦)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٠٥)، ومسند أحمد ١٠/ ٤٣٤ عن ابن عمر ﷺ رقم ٦٣٦٧].

أي جعلهم أمنين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم. [عمدة القاري للعيني ١٧/ ١٢٧].

وفي رواية أخرى: عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ، حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ شَيْخٍ مِنْ قُرَيْظَةَ أَنَّهُ قَالَ: هَلْ تَدْرِي عَمَّ كَانَ إِسْلَامُ ثَعْلَبَةَ وَأُسَيْدٍ ابْنَيْ سَعْيَةَ، وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ نَفَرٌ مِنْ هُدَلَ لَمْ يَكُونُوا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَلَا نَضِيرٍ كَانُوا فَوْقَ ذَلِكَ؟ فذكر قصة في اليهودي الذي أخبر بصفة النبي ﷺ، ثم قال: فَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الَّتِي افْتُتِحَتْ فِيهَا قُرَيْظَةُ قَالَ أُولَئِكَ الْفِتْيَةُ الثَّلَاثَةُ، وَكَانُوا شُبَّانًا أَحْدَاثًا: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ لَلَّذِي كَانَ ذَكَرَ لَكُمُ ابْنُ الْهَيِّبَانِ، قَالُوا: مَا هُوَ؟ قَالُوا: بَلَى وَاللهِ لَهُوَ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، إِنَّهُ وَاللهِ لَهُوَ لِصِفَتِهِ، ثُمَّ نَزَلُوا فَأَسْلَمُوا وَخَلَّوْا أَمْوَالَهَمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَهَالِيَهُمْ، قَالَ: وَكَانَتْ أَمْوَالُهُمْ فِي الْحِصْنِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا فُتِحَ رُدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ. [السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٩٢ رقم ١٨٢٦٣، ومعرفة السنن والآثار للبيهقي ١٣/ ٢٩١ رقم ١٨٢٢٦، والسيرة النبوية لابن هشام ١/ ٢١٣].

وجه الدلالة فيه: « فَأَسْلَمُوا وَخَلَّوْا أَمْوَالَهَمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَهَالِيَهُمْ، وَكَانَتْ أَمْوَالُهُمْ فِي الْحِصْنِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا فُتِحَ رُدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ»، فالمسلم طوعًا أحق بجميع أمواله وأولاده.

[نيل الأوطار للشوكاني ٨/ ١٥٩].

٤- عَنْ صَخْرِ بْنِ عَيْلَةَ ﷺ، أَنَّ قَوْمًا مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ فَرُّوا عَنْ أَرْضِهِمْ، حِينَ جَاءَ الْإِسْلَامُ، فَأَخَذْتُهَا، فَأَسْلَمُوا، فَخَاصَمُونِي فِيهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَرَدَّهَا عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: «**إِذَا أَسْلَمَ الرَّجُلُ، فَهُوَ أَحَقُّ بِأَرْضِهِ وَمَالِهِ**». [مسند أحمد ٣١/ ٧٠ رقم ١٨٧٧٨، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف، وقال الشيخ الألباني: إسناد حسن. سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣/ ٢٣١ رقم ١٢٣٠.

وفي رواية أخرى: «**يَا صَخْرُ، إِنَّ الْقَوْمَ إِذَا أَسْلَمُوا أَحْرَزُوا أَمْوَالَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ، فَادْفَعْ إِلَى الْقَوْمِ مَاءَهُمْ**».

[أبو داود في الجراح والإمارة والفيء (٣٠٦٧)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد].

وجه الدلالة في الحديث: فيه دليل على أن من أسلم من الكفار، حرم دمه وماله.

[سبل السلام للصنعاني ٤/ ٥٦].

أدلة القول الثاني: أما قول الحنفية أن من أسلم في دار الحرب، ثم خرج إلى دار الإسلام، ثم ظهر على الدار، فجميع ماله هناك فيء، قالوا: لأن التباين قاطع للعصمة وللتبعة. [البحر الرائق لابن نجيم ٥/ ٩٥].

أدلة القول الثالث والرابع: أما قول مالك وأصحابه من المالكية فلم أعثر لهم على دليل يسند قولهم.

الترجيح: الراجح ـ والله أعلم ـ هو قول الجمهور بأن من أسلم قبل الظفر به، عصم بإسلامه ماله من غنيمة، ودمه من سفكه، وصغار أولاده الأحرار عن السبي؛ لأنهم يتبعونه في الإسلام، لتظافر الأدلة الدالة على ذلك». [الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٣٥٥-٣٥٨].

٣٧ ـ صوت المرأة ليس بعورة:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما نستنبطه من إذن النبي ﷺ لأم سلمة رضي الله عنها أن تبشِّر أبا لبابة والذين معه في مسجد رسول الله ﷺ، بقبول توبته عند الله تبارك وتعالى، ووقوفها بعد ذلك بباب حجرتها، ومناداتها بصوت مسموع: **يَا أَبَا لُبَابَةَ أَبْشِرْ فَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَيْكَ**.

فكلام المرأة العادي ليس بعورة إطلاقًا، ولا كراهة في ذلك، وإنما المحظور والمنهي عنه، هو أن تخضع في أثناء مخاطبتها للرجال في قولها، فتتصنع وتتكلف النعومة، وتتغنج في كلامها، فيطمع الذي في قلبه مرض فيها، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[الأحزاب: ٣٢].

والذي يؤاخذ عليه هذه الأيام ـ كما علمت ـ ما كان خضوعًا في القول، كالغناء المرذول، والتمثيل الساقط من النساء، وتقديم البرامج بلهجة وأسلوب لا يشم منه إلا الإثارة، وهذه الأمور من أقل ما يرتكب من الفواحش المحرمة في وسائل الإعلام، إذا ما قورنت بالصورة شبه العارية، والكلمة الفاجرة، والأفكار الملحدة». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٨٤-٨٥].

٣٨ ـ لا يلزم التائب من المعصية الانتقال من المكان الذي اقترف به معصيته:

يقول د/ الفنيسان: «وجه هذا أن أبا لبابة الأنصاري رضي الله عنه لما تاب الله عليه، قال: **يا رسول الله، إن من تمام توبتي أَنْ أَهْجُرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا هَذَا الذَّنْبَ، فَأَخْرُجُ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**، فقال ﷺ: «**يُجْزِئُ عَنْكَ الثُّلُثُ**»، فقد أجابه على الصدقة وسكت عن طلب الانتقال، والسكوت تقرير».

[ينظر: الاستيعاب ٤/ ١٦٩، وسيرة ابن هشام ٢/ ٢٣٧]. [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٥].

٣٩ ـ الخمر ليس مالاً متقومًا في نظر الشرع الإسلامي:

يقول د/ أبو فارس: «إذ أمر النبي ﷺ بإراقة الخمور التي وجدها المسلمون في بيوت بني قريظة ولم يأذن لأحد بالانتفاع بها، كالبيع واقتضاء الثمن». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٧**].

ويقول د/ الفنيسان: «وجه ذلك أن المسلمين وجدوا عند بني قريظة جرار خمر، فأمر الرسول ﷺ بإهراقها لأنه لا مالية لها عند المسلمين، وهذا يدل على أن الخمر قد حُرِّمت قبل غزوة بني قريظة».

[**غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٣٥**].

٤٠ ـ حُكم من مات بعد المعركة متأثرًا بجراحه:

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: أُصِيبَ سَعْدٌ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فِي الأَكْحَلِ (عرق في اليد يفصد)، فَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْمَةً فِي الْمَسْجِدِ لِيَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ، فَلَمْ يَرُعْهُمْ (يفزعهم) ـ وَفِي الْمَسْجِدِ خَيْمَةٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ ـ إِلَّا الدَّمُ يَسِيلُ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا أَهْلَ الْخَيْمَةِ، مَا هَذَا الَّذِي يَأْتِينَا مِنْ قِبَلِكُمْ، فَإِذَا سَعْدٌ يَغْذُو (يسيل) جُرْحُهُ دَمًا، فَمَاتَ فِيهَا. [**البخاري في الصلاة (٤٦٣)**]

وقد سبق تفصيله بنفس العنوان في المبحث الرابع من الدروس المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة أحد، وينظر: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة لبربر ٤٨-٥٢.

٤١ ـ جواز الحزن على الميت والبكاء عليه:

يقول د/ أبو فارس: «فقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها أن سعد بن معاذ رضي الله عنه لما استشهد من جرحه الذي أصابه يوم الخندق حزن النبي ﷺ حزنًا شديدًا، أما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقد كان يبكيان وارتفعت أصواتها بالبكاء وسمعتهما السيدة عائشة رضي الله عنها وهي في بيتها وهما في المسجد.

وهذا لا يتعارض مع قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ الْحَيِّ**». [**البخاري في الجنائز (١٢٨٦)**].

ويلوح لي ـ والله أعلم ـ أن المنهي عنه هو بكاء أهل الجاهلية الذي يصاحب ضرب الخدود وشق الجيوب وما إلى ذلك من تصرفات قولية أو فعلية حرَّمها الشارع ونهى عنها.

وهذا الذي ذكرتُه وجدته بعد ذلك في قول رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**». [**البخاري في الجنائز (١٢٩٧)، ومسلم في الإيمان (١٠٣)**].

هذا ولقد بكى رسول الله ﷺ عندما أغمي على سعد بن عبادة رضي الله عنه في مرضه، وبكى الحاضرون على بكاء رسول الله ﷺ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه شَكْوَى لَهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهم، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةِ أَهْلِهِ، فَقَالَ: «**قَدْ قَضَى؟**»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ! فَبَكَى النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بَكَوْا، فَقَالَ: «**أَلَا تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا ـ وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ ـ أَوْ يَرْحَمُ، وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ**».

وَكَانَ عُمَرُ ﷺ يَضْرِبُ فِيهِ بِالعَصَا وَيَرْمِي بِالحِجَارَةِ وَيَحْثِي بِالتُّرَابِ.

[البخاري في الجنائز (١٣٠٤)، ومسلم في الجنائز (٩٢٤)].

ألا ترى أن النبي ﷺ في هذا الحديث قد جعل العذاب عائدًا إلى ما يصدر عن الإنسان من أقوال تخالف الشرع حينما يموت قريبه».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٣٢-١٣٣، وينظر للتفصيل: الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة للعبد اللطيف ٨٠-٨٥، وقد سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة أحد].

٤٢ ـ جواز النظر إلى الميت في اللحد وتعزية أهل الميت على المقبرة:

يقول د/ أبو فارس: «فلقد نظرت أم سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه وعنها ـ ولم ينكر عليها رسول الله ﷺ على قبره». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٣٤].

٤٣ ـ جواز رثاء الميت نثرًا أو شعرًا:

يقول د/ أبو فارس: «وهذا ما نأخذه من إقرار رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت ﷺ وهو يرثي سعد بن معاذ ﷺ بعد استشهاده بعد وقعة بني قريظة، وإقراره ﷺ حسان ﷺ برثاء كثير من الشهداء في غزوة أُحُد وغيرها.

وظل الناس يرثون شهداءهم شعرًا ونثرًا حتى يومنا هذا.

ولا بد من كلمة هنا حول الرثاء، إن الرثاء المشروع هو الذي ليس فيه كذب وقلب للحقائق، وليس من الرثاء المشروع ذكر الإنسان بخصال ليست فيه، بل هو على النقيض من ذلك، كأن يُقال في رثاء شخص لم يصل لله ركعة، ولم يتصدق صدقة خالصة، أنه قضى حياته في طاعة الله والبر وأعمال الخير، وكان أبعد الناس عن الخير، وأقربهم للشر، يعاقر الخمرة وينهش الأعراض، ويبيح ما حرم الله، وينفق أمواله على الفسق والفجور.

ومما يؤسف له أن في أيامنا هذه نجد الرثاء في أحوال كثيرة لأصحاب الجاه والسلطان نحا نحوًا غير سليم، ونجد فيه رائحة النفاق الذي يزكم الأنوف، ورائحة التسول سواء كان تسول المال، أو الرضا أو المركز، أو الجاه الزائل.

إنني أهيب بالشعراء والخطباء أن يكونوا أصحاب أقلام حرة، لا تداجي، ولا تنافق، ولا تكيل المدح للأموات كما تكيله للأحياء من أجل لعاعة من لعاعات الدنيا، فإن ما في الدنيا يبقى في الدنيا، ولن يأخذ أحد يرحل عن الدنيا شيئًا منها، ستبقى الأموال والعقارات والنقود والذهب على الأرض كما كانت، وسيعود إلى الأرض كما وُلد لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، إن الذي يفيده في الآخرة مواقفه الخيرة، وأعماله الصالحة، وسيسأل عن كل كلمة قالها ويُحاسب عليها، إن كانت خيرًا فيجزى بالخير، وإن كانت نفاقًا وتزلفًا وشرًّا فيجزى بالشر، قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[الزلزلة]». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٣٤-١٣٥].

المبحث الرابع
الدروس السياسية

١ ـ الإسلام يدعو إلى السلم، ويسالم المُعَاهَدين، ويفتك بالغادرين:

يقول د/ فيض الله: «وفَّى النبي ﷺ والمسلمون بعهدهم في الوثيقة التي عقدوها لليهود، وما أخلُّوا ببند منها؛ لكن اليهود؛ كانوا في كل مرة هم الغادرين، وهم الذين أَخَلُّوا مرة بعد مرة بما نصت عليه الوثيقة.

فبنو قينقاع منهم عبثوا بحجاب المرأة المسلمة، وهددوا الرسول ﷺ والعهد قائم بينهم وبينه؛ وبنو النضير هموا بقتل الرسول ﷺ والعهد ما يزال قائمًا؛ وها هم أولاء بني قريظة يؤلبون قريشًا والمشركين العرب على رسول الله ﷺ ليُجْهِزُوا نهائيًّا على الدولة المسلمة الناشئة، ورسول الإسلام ﷺ، وعلى المسلمين، فيقتلوا رجالهم، ويسترقوا نساءهم، ويمزقوا ذريتهم.

وما يكون للإسلام ـ وإن كان هو دين السلام ـ أن يقف ساكتًا مسالـمًا، مكتوف الأيدي حيال هذه الخيانات القذرة المسفرة؛ لهذا تصدى لهم في كل مرة؛ ولا خير في قوم ينقضون العهد مرة بعد مرة، وهم يرون عواقب نقض العهود، ونكث المواثيق، لا في غيرهم، بل في أنفسهم وإخوانهم.

ولا يمكن للسلم أن يستتب، ولا للعدالة أن تستقر، إلا بالقوة التي تذود عنها، وتحمي حماها، وتضرب على يد كل عابث بها:

وَلَا خَيْرَ فِي حُلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ   بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يَكْدَرَا

وإن من الحلم ومن السلم أن يقضي على الظلم، حينما يُكَشِّرُ عن أنيابه، ويقلِّم الغدر كلما أطال أظافره، وَاسْتَحَدَّ مخالبَه، كيلا تقوم لهما قائمة أمام السلام.

ففي مثل هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة].

ويقول: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال]».

[صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ٢٥٦-٢٥٧].

ويقول أ/ الندوي: «جاء في كتاب **Cambridge History of Islam** (١/ ٤٩) بقلم الأستاذ الإنجليزي **Montgomery**: «كانت قد بقيت في المدينة قبيلة عظيمة، هي قبيلة بني قريظة، وكانت تتظاهر بالإخلاص عندما حاصر المشركون المدينة، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت قد تمالأت مع المشركين، وكانت تنتهز أول فرصة للهجوم على المسلمين من خلف». **[السيرة النبوية للندوي هامش ٢ ص ٢٦٠].**

٢ ـ **اليهود والعرب بين الأمس واليوم:**

يقول د/ الغضبان: «أما اليهود، وما أدراك ما اليهود؟ فها هم يُساقون إلى مصارعهم، ولا يعرفون فيسألون زعيمهم كعب بن أسد عن الأمر فيقول لهم: **أَفِي كُلِّ مَوْطِنٍ لَا تَعْقِلُونَ؟ أَلَا تَرَوْنَ الدَّاعِيَ لَا يَنْزِعُ، وَأَنَّهُ مَنْ ذُهِبَ بِهِ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُ؟ هُوَ وَاللهِ القَتْلُ**، لقد أدرك ببصره الثاقب هذا المصير المروع، ونصحهم بمنعرج اللوى، فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد، وها هي رجالهم تُذبح، ونساؤهم تُسبى، وأموالهم تُقسم.

ويأتي زعيم الغدر والخيانة حييُّ بن أخطب ليُمَثِّل الجبلة اليهودية في كل جيل كما وصفها القرآن الكريم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة].

إن حيي بن أخطب ليدرك حظه من أوله، فهو يحارب الله ورسوله، وهو يعلم أن محمدًا ﷺ حق، ولكنها عنجهية الجاهلية.

إنه أبو جهل الذي رفض الإيمان حتى لا يسبقه بنو إسماعيل، أولاد هاجر الجارية، إنه الحقد الأسود، والكيد الأعمى، والحرب لله ورسوله، ولا يشتفي من ذلك كله: **وَاللهِ مَا لُمْتُ نَفْسِي فِي عَدَاوَتِكَ**، إنه ليعلم أن حقده أكبر من دينه، ويعلم أنه يحارب الله ورسوله، **وَلَكِنَّهُ مَنْ يَخْذُلِ اللهُ يُخْذَل**، إنها كلمات أبي جهل: **على من كانت الدبرة**، وفي رواية: **لمن الدائرة؟**، وكان الجواب: **لله ورسوله، ولقد أبقى الله لك ما يخزيك**، ويجيب: **هل أعمد، وفي لفظ: هل عدا رجل قتلتموه**، إنه عميد القوم، وسيد البطحاء يُقتل، وهو يرى الخزي فلا ينسى شرفه، ولا ينسى حقده، إن فرعون خير منه حين رأى الغرق فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس].

وتعود الجبلة اليهودية اليوم من جديد لتزكم الأفق، وتظهر من خلال آلاف الحوادث منها هذه الحادثة: وقف أحد المنافقين في الشام في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧م يخطب على منبر الجامع الأموي والإذاعة تنقل خطبته ليحرف حديث رسول الله ﷺ بقوله: **لا تقوم الساعة حتى يقاتل العرب اليهود، فيقتل العرب اليهود، فيقول الحجر والشجر: يا عربي، يا عبد الله ورائي يهودي تعال فاقتله، إلا الفرقد فإنه من شجر اليهود.**

وتخرج إذاعة إسرائيل في اليوم التالي لتصحح للشيخ المنافق الحديث وتذكر له روايته، وتذكره به: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ! يَا عَبْدَ اللهِ! هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ**». [مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩٢٢)، ومسند أحمد ١٥/ ٢٣٣ عن أبي هريرة ﷺ رقم ٩٣٩٨].

والذي يعنينا من الحديث هو معرفة اليهود بمصيرهم المشؤوم، أو قياداتهم على الأقل، ومعرفتهم أن النصر للمسلمين، لكنهم واثقون كذلك أنهم يقاتلون عربًا بدون عقيدة وبدون إسلام، وهم مطمئنون إلى نصرهم في هذه الحالة لما يبذلون من جهد، ويخططون من كيد؛ ولأنهم حين يحاربون المسلمين فهم منهزمون، ومع ذلك فهم يقاتلون، ويقولون كما قال زعيمهم حيي: **إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِأَمْرِ اللهِ كِتَابٌ وَقَدَرٌ وَمَلحَمَةٌ كَتَبَهَا (كُتِبَتْ) اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**.

أما الآن، فكما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وكما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

وهم مطمئنون اليوم أن الحرب الحقيقية لم تقم بعد، وأنهم حين يواجهون عنفًا في حرب فإنما يكون وراءه مسلمون حقيقيون، إنها نماذج بطولات فردية، وها هم العرب اليوم كلهم يعلنون سلمهم مع يهود ويطلبون منها الصلح، ونهاية اليهود التي كانت في بني قريظة ستكون نهايتهم ـ إن شاء الله ـ على أرض فلسطين، الأرض المباركة التي وعد الله تعالى فيها بنصر جنده المؤمنين، وكانت أسلحتهم وأموالهم غنيمة للمسلمين». [المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٣١١-٣١٣].

ويقول الشيخ الغزالي: «إن موقف اليهود من الإسلام بالأمس هو موقفهم من المسلمين اليوم.

فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود في صمتٍ وهم يحتلون فلسطين.

والغريب أن اليهود تركوا مَنْ نَصَبَ لهم المجازر في أقطار أوروبا، وجبنوا عن مواجهتهم بشرٍّ! واستضعفوا المسلمين الذين لم يسيؤوا إليهم من اثني عشر قرنًا، فنكَّلوا بهم على النحو المخزي الفاضح، الذي لا يزال قائمًا في فلسطين...تشهده وتؤيده وتسانده دول الغرب». [فقه السيرة للغزالي ٣٢٧-٣٢٨].

ويقول د/ عبد الباري الطاهر: «ونحن اليوم نرى بأم أعيننا تطور الخيانة اليهودية، وتشكُّل صورها، فقد بدأت بإغراء الفلسطينيين بالمال والذهب؛ ليخرجوهم من أراضيهم، فدافعوا دون عرضهم وأرضهم، فانتقل يهود إلى سياسة الطرد والتشريد، ثم إلى القتل والتعذيب، ثم إلى محاول استئصال تام، دون رحمة أو شفقة على الأبرياء، وما مقتل محمد الدرة وأقرانه منا ببعيد، وما قتل النساء والشيوخ الزمنى والشباب الذين في ريعان شبابهم بخاف عنا، وكل هذا على مرأى ومسمع من عالم يظن أنه متحضر، ويرعى حقوق الإنسان، ويتشدق بالديمقراطية، ويحسب لقتل هرة ألف حساب، ولا يعنيه سحق المسلمين في فلسطين في شيء، فالدم الإسلامي في نظرهم أقل من دم هرة صدمتها سيارة، وتزداد ضراوة الخيانة والغدر حين يعلن يهود بعد قتل الأبرياء أن هؤلاء المساكين كانوا يريدون الوقوف أمام حقوقهم، ويرهبونهم، ويضايقونهم.

فأين دعاة الرحمة، وحماة العدل، وأدعياء السلام، ورفقاء الطريق، ورعاة حقوق الإنسان، وحماة الفضيلة، والسعاة إلى عالم لا يعرف الشر فيه مكانًا في ظل عولمة لا معنى لها ولا ضمير!

ومع هذا أقول: والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وسيأتي فجر جديد يندحر فيه الباطل وأهله، ويعلو صوت الحق، وتعود الدنيا صالحة تحكم بمنهاج النبوة، ويسودها العدل والخير والسلام، فمتى سيكون ذلك؟؟ قل عسى أن يكون قريبًا. [تطور الخيانة اليهودية في عصر النبوة ـ د/ عبد الباري الطاهر ـ موقع التاريخ على شبكة المعلومات الدولية بتاريخ الاثنين ٢٢ أبريل ٢٠٠٧م/ ٥ ربيع الثاني ١٤٢٨ هـ].

ويقول ل/ خطاب: «لقد تنكر العرب والمسلمون لعقيدتهم وحضارتهم، والأمة التي لا تحترم نفسها لا يمكن أن تحترمها الأمم، والمرء حيث يضع نفسه، والأمة حيث تضع نفسها.

غيَّر العرب والمسلمون ما بأنفسهم، فتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة على الثريد، وأصبحوا مناطق نفوذ للدول الاستعمارية، وكانوا من قبل سادة الدنيا وقادة العالم.

حتى يهود أصبح لهم في بلاد العرب دولة، وأصبح لهم صولة، وأصبحوا قوة لها شأن ولها كيان!

هؤلاء الذين كانوا ولا يزالون وسيبقون وصمة عار في جبين الإنسانية، ولطخة خزي في ضمير البشرية، ونقمة على العالم كله.

هؤلاء الجبناء: سلاحهم الدس والخديعة، وعتادهم الغدر والخيانة، ودأبهم الخسة والمكر.

إن دولة إسرائيل نتيجة من نتائج إعراض العرب والمسلمين عن دينهم وحضارتهم، ولو كان العرب عربًا حقًّا، ولو كان المسلمون مسلمين حقًّا، لقال يهود كما قال أسلافهم من قبل: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].

تُرى! ماذا كان يحدث لو ترك الرسول القائد ﷺ، يهود المدينة المنورة وما حولها، ويهود خيبر، يرتعون ويمرحون، ويغدرون ويدسون، ويخونون ويتآمرون؟

إن رسول الله ﷺ، خاطب يهودًا باللغة الوحيدة التي يفهمونها هي لغة القوة: «**الخطة المُخزية أو الحرب المُجلية**»[(١)]، كما قال أبو بكر الصديق ﷺ.

فلماذا يدَّعي العرب والمسلمون، بأن رسول الله ﷺ هو أسوتهم الحسنة وقدوتهم الكريمة، ثم لا يتأسون به ولا يقتدون بأعماله؟

إننا عرب ولكن من قوارير، ومسلمون ولكننا مسلمون جغرافيون!

---

(١) أما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم في النار، ومن قتل منا في الجنة. وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم، ينظر: ابن الأثير ٢/ ٨٢، وفي البلاذري (١٠٤) وردت: «الحرب المجلية، والسلم المخزية». ينظر التفاصيل في قادة فتح العراق والجزيرة (٨٥).

في حرب سنة ١٩٤٨م بين العرب ويهود على أرض فلسطين، كنت ضابط ركن جحفل لواء (مؤلف من مقر اللواء وثلاثة أفواج، مع المدفعية والهندسة والطبابة والنقلية) مستقر في مدينة (جنين)، فلمست حقائق مذهلة عن جبن يهود الأصيل.

قبل الهدنة الأولى التي فرضتها هيئة الأمم المتحدة على العرب، كانت الجيوش العربية على أبواب (تل أبيب) عاصمة إسرائيل.

وفرض الهدنة الأولى، كان لإنقاذ يهود من اندحار أكيد.

وبعد معركة (جنين) التي خاضها فوج (وحدة مشاة لا يزيد تعداده على ألف شخص) عراقي واحد مقابل ما يزيد على العشرة آلاف يهودي، أخلى اليهود مدينة العفولة وحيفا، وانفجرت مظاهراتهم الصاخبة مطالبة بإيقاف الحرب بأي ثمن وبدون قيد أو شرط.

ومعركة (جنين)، هي معركة العراء الوحيد الذي اضطر يهود على خوضها، ولم يشهدوا بعدها معركة عراء أبدًا، وصدق الله العظيم: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

وكان ضباط يهود حين يحضرون المفاوضات مع ضباط العرب بإشراف ممثلي الهدنة من هيئة الأمم المتحدة، ويرفضون الحضور ما لم يتأكدوا من أن الضباط العرب عُزل من السلاح.

وقد هاجمت دورية (جماعة للاستطلاع والحصول على المعلومات إما بالقتل أو بدونه) قتال يهودية قرية (جلبون) في ليلة من ليالي خريف سنة ١٩٤٨م وأَسَرت ستة رجال وامرأتين، فما كان من جيش العراق المرابط في (جنين) إلا أن قصف مستعمرة (تل العمال) القريبة من (بيسان) بست عشرة قنبلة من قنابل المدفعية، وأشاع أن هذه العملية هي انتقام من يهود لأسرهم العرب من جلبون، فسارع يهود على أثرها بإطلاق سراح الأسرى، وأرسلوهم معززين مكرمين بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من موعد قصف المدفعية لمستعمرة (تل العمال).

ومع ذلك وطدت إسرائيل أقدامها في الأرض المقدسة، ومع ذلك استطاع يهود أن يحتلوا اللدَّ والرملة بثلاث مدرعات.

ومع ذلك استطاعت إسرائيل أن تفرض إرادتها على العرب.

لقد كان لمن وراء إسرائيل من الدول العظمى أثر بالغ على فرض إسرائيل في جزء مقدس من أرض العرب ودار الإسلام.

ولكن من وراء إسرائيل وزنوا العرب وهم مائة مليون أو يزيدون، ووزنوا المسلمين وهم خمسمائة مليون أو يزيدون، في ميزان القوة مع يهود إسرائيل، وهم يومئذ مليون ونصف، فوجدوا أن وزن يهود في

ميزان القوة أثقل من وزن العرب والمسلمين؛ لأن العرب والمسلمين حينذاك كانوا غثاء السيل، ولو كان الأمر خلاف ذلك لتبدل الحال غير الحال.

ويوم يُثبت العرب والمسلمون أنهم رجال حقًّا، فسيجدون العالم كله إلى جانبهم؛ لأن صوت القوة هو الصوت المسموع في العالم كله، وكل قول يخالف ذلك هراء في هراء.

لقد كانت الجيوش العربية عام ١٩٤٨م مقيدة بقيود ثقيلة من السياسيين المحترفين الذين كانت قلوبهم مع العرب وسيوفهم مع الاستعمار؛ لذلك قلتُ في حفلة توديع الجيش العراقي بمناسبة عودته من فلسطين إلى العراق:

لا تعذِلوا جيشَ العراقِ وأهلِه ... بَلْوَاكُمُوا ليست سوى بَلْوَانا

إن السِّنان يكون عند مُكبَّل ... بالقيد في رجليه ليس سِنانا

إني لأعلم أن دينَ محمدٍ ... لا يرتضي للمسلمين هوانا

وهو الخلود لمن يموت مجاهدًا ... ليس الخلودُ لمن يعيش جبانا

إن اللغة الوحيدة التي يفهمها يهود، هي لغة القوة، ولن يحل مشكلة العرب في فلسطين غير السيف.

أما هيئة الأمم المتحدة، أما مجلس الأمن الدولي، أما المؤتمرات الدولية، أو الاحتجاجات الصاخبة، أما الخطب والقصائد، أما الصراخ والعويل، فلن تحل هذه المشكلة، وينطبق عليها المثل العربي السائر: (**أَشْبَعْتُهُمْ شَتْمًا وَرَاحُوا بِالإِبِلِ**)». [تقديم غزوة بني قريظة لباشميل ٩-١٣].

٣ ـ سياسة اليهود وطبائعهم لم تتغير:

يقول د/ أبو فارس: «كعب بن أسد زعيم بني قريظة يصف قومه اليهود بقوله: «**مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الدَّهْرِ حَازِمًا**»، قال هذه العبارة بعد أن عرض عليهم ثلاثة اقتراحات ليأخذوا بواحد منها، حلًّا لمشكلتهم، ولكنهم لم يأخذوا بشيء منها، وأبوا عليه، وفي نفس الوقت لم يقترحوا تدبيرًا آخر، ينطلقون منه، لحل مشكلتهم.

هذا تقرير كعب وحكمه على اليهود، فهل تغيرت طبيعة اليهود بعد ذلك؟ وهل اليهود في عصرنا اليوم يختلفون في الخصائص عن يهود بني قريظة؟

إننا نرى اليهود اليوم يبادرون باتخاذ القرارات، ويقومون بتنفيذها في المنطقة، رغم أنهم ليسوا من أهالي البلاد، بل يُرهبون أهالي المنطقة، والدول العربية كلها، وأهل المنطقة الأصليون يترددون في اتخاذ القرار الحازم كما تردد يهود بني قريظة، ويخافون من التصريح به، بل يصرون علنًا على رفضه، واختيار طريق الحل السياسي.

أقول: إن طبيعة اليهود التي حدَّث عنها كعب بن أسد زعيم بني قريظة لم تتغير ولن تتغير، قد تحدث عنها القرآن في آيات كثيرة كقوله سبحانه: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

إن اليهودي كما سجل القرآن يخاف من المسلم المجاهد أكثر من خوفه من الله؛ لأنه ليس مؤمنًا بالله سبحانه حق الإيمان، قال تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر].

وإذا كان اليهود لم يغيروا طبيعتهم، وأخلاقهم، فما الذي تغير إذن حتى احتلوا بعض بلاد المسلمين كفلسطين والجولان وجنوب لبنان، ويعيثون في الأرض فسادًا فيجوبون المنطقة بجيوشهم ودباباتهم وطائراتهم.

إن الذي تغير في المنطقة هم أهلها، لقد كانوا مسلمين حقًّا يقولون ويفعلون، فأصبحوا يقولون كثيرًا ولا يفعلون شيئًا، نسمع منهم جعجعة ولا نرى طحنًا، قد استولى اليأس على قلوبهم، ونهش الخوف نفوسهم، ودب الذعر في أوصالهم، وأصبحوا على درجة من الذل والهوان والتردد والضياع، ما أطمع أجبن خلق الله فيهم، وهم اليهود.

كل هذا بسبب بعدهم عن الله تبارك وتعالى، واستبعادهم لشرع الله من واقع حياتهم، ونفورهم من القيم الإيمانية، والأخلاق الإسلامية التي تحلى بها صحابة رسول الله ﷺ، فذلت يهود لهم، وخضعت أعناقهم لهم في قريظة والنضير وقينقاع وخيبر.

ويوم أن تخلى المسلمون عن مبادئهم وقيمهم قذف الله في قلوبهم الوهن: حب الدنيا وكراهية الموت، فتخلقوا بأخلاق اليهود، وانطبق عليهم قول كعب بن أسد اليهودي: **مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنْكُمْ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الدَّهْرِ حَازِمًا.**

بالله عليك أخي القارئ، هل تسمع ـ مجرد سماع ـ صوتًا واحدًا على المستوى الرسمي ينادي بالحزم مع اليهود، ويعد للأمر عدة؟

هذا لا يحدث الآن، لكن لابد لليل أن ينجلي، ولابد للصبح أن يتنفس، ولابد لنور الفجر من بزوغ مهما طال الليل، وكان حالكًا.

إن إقبال الشباب على الله، وامتلاء المساجد بهذا الشباب، ودور العلم والجامعات ليبشر بقرب الفرج، والنصر ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء].

نسأل الله أن يمن علينا بأن نكون من جند الإسلام المجاهدين، وحزبه الغالبين على اليهود وعلى سائر أعداء الدين، أعداء المسلمين، فوق كل أرض وتحت كل سماء». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٦٢-٦٤**].

٤ ـ بين بني قريظة ومن سبقهم من اليهود:

يقول د/ الوكيل: «وجاء دور بني قريظة ـ تلك الفئة الباغية من اليهود، وثالثة الأثافي فيهم ـ لقد نقضوا العهد من غير موجب، وانضموا للعدو بلا مبرر، وفتحوا على المسلمين ثغرة كانت مغلقة، وكان المسلمون آمنين من جانبها، لا يحملون لها همًّا، ولا يُلقون لها بالًا، فماذا يكون موقف المسلمين من هؤلاء الذين ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى في حق وطن ضمهم بين جناحيه، ومتعهم بكل حقوق أبنائه، وأمَّنهم على أرواحهم وأموالهم، ومنحهم حرية ممارسة شعائر دينهم بمعاهدة محترمة؟ وماذا يكون لو تركهم المسلمون آمنين بعد ارتكاب هذه الجريمة الخسيسة؟

أليس من الممكن أن تتكرر منهم لو حانت لهم الفرصة؟ ومن ذا الذي يضمن استقامتهم، ويتحمل مسؤوليتهم؟

إن يهود قريظة لم يتخذوا عبرة من إجلاء إخوانهم بني النضير، ولا من إخراج بني قينقاع، ولعلهم ظنوا أنه ليس لدى المسلمين عقوبة سوى الطرد والإجلاء فأغراهم ذلك بالتمرد وقطع العلاقات والتمالؤ مع العدو، على أمل أن أقصى ما سيصيبهم إخراجهم من الديار، ولعلهم يفكرون حينئذ في الانضمام إلى بني النضير في خيبر.

ولكن هيهات هيهات، إن ما حصل من بني قينقاع كان مجرد حقد وبغي، وتعدٍّ على بعض أفراد الأمة الإسلامية لم يؤثر على حياة المسلمين بشيء يُذكر، كما أن ما ارتكبه بنو النضير كان مؤامرة لم تتم، وجريمة لم تنفذ، ولم يتأثر المجتمع الإسلامي من جرائها بما يعرضه للخطر، ويغري أعداءه بالتعدي عليه.

أما جريمة بني قريظة فكانت ضد الأمة بأكملها، لاستئصال قائدها، واجتثاث عقيدتها، وهدم ذلك الصرح الشامخ الذي بناه الإسلام بسواعد أبنائه المغاوير، فلا عجب إذن أن تكون عقوبة الأولين الطرد من البلاد، والاستيلاء على السلاح والأموال، وتكون عقوبة الآخرين استئصال شأفتهم، وقطع دابرهم بقتل المحاربين منهم، واسترقاق نسائهم وذراريهم، فهل كان ينتظر أحد أن يعفو النبي ﷺ عنهم كما عفا عمن قبلهم؟

لا شك أن العفو يكون مجرئًا لكل من معه عقد من المسلمين على نقضه، فليست هناك جريمة أبشع مما يسميه المقننون الخيانة العظمى، فإذا لم يتصرف المسلمون مع مرتكبيها تصرفًا رادعًا، فماذا ينتظرون ممن يتربصون بهم الدوائر؟

لقد كان بين المسلمين وبين بعض القبائل معاهدات، فكيف يكون احترام هؤلاء لتلك المعاهدات إذا لم يجدوا من المسلمين غيرة على عهودهم، وحماسًا للدفاع عن مواثيقهم.

لهذا كله كان لابد من وقفة جريئة وحاسمة لمعالجة تلك الخيانة، فكان لابد من القتل، فهو الدواء لأمثال هذه القلوب العفنة، والعقول البليدة، وهو الشفاء لتلك الرؤوس المصدعة.

ولقد صدق الشاعر حيث يقول:

وَسَيْفِي كَانَ فِي الهَيْجَا طَبِيبًا ... يُدَاوِي رَأْسَ مَنْ يَشْكُو الصُّدَاعَ

وسواء دارت هذه المعاني في رؤوس المسلمين أم لم تدر، فلم يكن هنالك حل سوى ذلك، ولذلك أمر الرسول ﷺ مناديه أن ينادي في الناس بالذهاب إلى بني قريظة، وقال: «**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**».

وتوجه الرسول ﷺ إلى بني قريظة، ونزل على بئر من آبارهم يقال لها: أَنَّا ـ بالفتح والتشديد ـ وتلاحق به المسلمون، وحاصر قريظة في منازلهم خمسًا وعشرين ليلة حتى أعياهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب.

وأحس سيدهم كعب بن أسد بالخطر يتفاقم عليهم، ولعله قد ذكر موقفه الأول من حيي بن أخطب، ولعله كذلك تذكر العهد الذي أعطاه إياه، تذكر كعب ذلك كله، ورأى بعينه الحصار يشتد، والمسلمين مصممين على استئصالهم عندئذ عرض على قومه الخلال الثلاثة، والتي رفضوها جميعًا.

إن هذا الموقف المخزي من اليهود ليسجل عليهم إصرارًا على الباطل برغم رؤيتهم للحق، وتعرفهم عليه كما يسجل عليهم جبنًا ليس جديدًا على طبيعتهم، ولكنه يكشفه ويعريه أمام الناس جميعًا، وعلى الملأ في كل العصور، إن قلوبهم تكاد تنخلع من صدورهم كلما سمعوا بذكر الموت، وهم لهذا يحاولون الفرار منه متعللين مرة بنسائهم وأبنائهم، ومرة يرفضونه حتى لا يفسدوا سبتهم، والحق أنه الهروب من الموت والحرص على الحياة ولو مع الذل والهوان، وصدق الله العظيم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

لقد رفض بنو قريظة ما اقترحه عليهم سيدهم كعب بن أسد فرارًا من الموت، وحرصًا على الحياة، ولكنهم لم يحققوا بهذا الرفض ما حرصوا عليه، بل قد يئسوا من الحياة يأسًا جعلهم ينزلون على حكم رسول الله ﷺ.

وجاء رجال من الأوس يرجون أن يعاملهم رسول الله ﷺ كما عامل بني النضير حلفاء الخزرج، ونسوا أن جريمة بني النضير مجرد تدبير مؤامرة لم يتمكنوا من تنفيذها، وأن جريمة بني قريظة الخيانة العظمى، وقد نفذوها، وأعانوا الحلفاء على تشديد الحصار، وأمدوهم بما احتاجوا إليه من الغذاء وعلف الدواب وشتان بين الجريمتين.

ولكن الرسول ﷺ مع ذلك لم يرد رجال الأوس خائبين، وهم أحد جناحيه في المدينة، فعرض عليهم أن يُحكِّم في بني قريظة رجلًا منهم، وهو سعد بن معاذ رضي الله عنه فرضي الأوس بذلك، وقد حاول هؤلاء الوسطاء أن يضغطوا على سعد رضي الله عنه ليخفف الحكم في بني قريظة، وذكَّروه بما بينه وبينهم من الحلف، ولكن سعدًا رضي الله عنه قطع آمالهم بقوله: **لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ**.

ورضي بنو قريظة بحكم سعد فيهم، فحكم ﷺ بقتل الرجال، وسبي النساء والذرية وتقسيم الأموال، عندئذ بارك رسول الله ﷺ حُكمه، وقال: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ** ﷻ».

وخاب أمل بني قريظة مرة أخرى في الحرص على الحياة حين فوجؤوا بحكم سعد ﷺ فيهم، وسيقوا من حصونهم وحبسوا في بيت كيسة بنت الحارث من بني النجار، وكان عددهم يتراوح بين السبعمائة والتسعمائة.

وخرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، وأمر بحفر الخنادق هناك فحُفرت، ثم سيقوا إلى الموت أفواجًا». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٩١-١٩٤**].

٥ ـ ضوابط الاجتماع والحوار مع الأعداء:

يقول د/ أبو فارس: «يجوز الاجتماع مع الأعداء والحوار معهم في شأن الحرب والسلم على ألا يتهاون مندوب المسلمين أو ممثلهم بحقوقهم، ولا يتنازل عن شيء منها، ولا يفشي سرًّا من أسرارهم، فلقد أذن رسول الله ﷺ لأبي لبابة رفاعة بن عبد المنذر ﷺ أن يذهب إلى يهود بني قريظة ويجتمع معهم ويتحاور معهم في قضيتهم، قضية إنهاء الحرب مع الرسول ﷺ، والطريقة إلى ذلك.

هذا ولقد اجتمع رسول الله ﷺ مع قادة المشركين ومندوبيهم أكثر من مرة، فقد اجتمع بأبي سفيان بعد نقضه عهد الحديبية، واجتمع مع عروة بن مسعود الثقفي ومكرز بن حفص وسهيل ابن عمرو مندوبي المشركين في الحديبية، ولقد أرسل ﷺ عثمان بن عفان ﷺ إلى زعماء مكة في الحديبية ليخبرهم أن رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين جاؤوا معتمرين للبيت ولم يأتوا مقاتلين.

ليس العيب في اللقاء مع الأعداء، ولكن العيب كل العيب، والخيانة كل الخيانة، والحُرمة كل الحُرمة، والمحظور كل المحظور في هذا الدين أن يفرط بحقوق المسلمين، وأن يخضع المفاوضون لضغط العدو، وابتزازه.

إن الشيء الذي يشجبه الإسلام ويرفضه كل مسلم أن يُقَرَّ لليهود في أرض فلسطين بشبر تُقام لهم دولة فيه، وتُسالَم هذه الدولة بعد ذلك، وتُمنع كل يد ترمي عليها حجرًا، ويُعتقل كل لسان بعد ذلك يتفوه بكلمة تنادي بحرب اليهود والقضاء على دولتهم، أو يَعمل لتمتين الحاجز النفسي وبنائه نحو اليهود المعتدين الذين جاؤوا من شتى بلاد الدنيا، ليخلعوا المسلمين من أرضهم ومقدسا تهم، ويقضوا على حضاراتهم.

هذه هي الجريمة التي يجب أن يحذر منها، وأن يُنصح الجناة حتى لا يرتكبوها، ويُبصَّروا بحقيقة الأمر، وخطورته عليهم في الدنيا والآخرة». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٦٩-٧٠**].

٦ ـ أهمية وجود القيادة السياسية الحكيمة:

يقول د/ أبو فارس: «إن الأوس كما علمت جاؤوا يشفعون في بني قريظة كما شفع ابن سلول في بني قينقاع، ولكن جريمة بني قريظة أعتى بكثير من جريمة بني قينقاع، ويستحقون العقوبة الزاجرة لا محالة، وهذه الجماهير ترجوه هذا الرجاء، وهي ليست بعيدة عنه، إنما جنوده، يقاتلون معه، وتحت الرئة، طوع بنانه يوجههم إلى أي وجهة يريد، لا يعارضونه، ولا يقولون: لا، ولكن عاطفتهم جياشة، غلبت العقل، وسيطرت عليه، وهي في هذه الحالة من الانفعال والتأثر تطلب من رسول الله ﷺ طلبًا خاطئًا، لو لباه لهم لخالف أمر ربه، ولعرَّض المجتمع الإسلامي في المستقبل إلى هزات عنيفة ربما عصفت به، ماذا يفعل؟

هل يطيعهم ويلبي رجاءهم وهو يعلم نتيجة ذلك؟

هل يصادم هذا الشعور المتأجج الملتهب الجارف؟

لقد قال لهم ﷺ: «**أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَوْسِ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟**»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ رَسُولُ الله: «**فَذَاكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩].

لقد أكرم رسول الله ﷺ الأوس وسواهم بالخزرج حين جعل الحَكَم الذي يحكم في أحلافهم منهم، كما ترك بني قينقاع لحليفهم عبد الله بن أبي بن سلول.

أما عبد الله بن أبي بن سلول فقد طلب أن يهبهم له، فوهبهم له، فنجاهم من القتل المحقق.

وها هو ذا سعد بن معاذ ﷺ قد جعل الرسول الله ﷺ مصير أحلافه بيده، إلا أن الرسول ﷺ يعرف أن سعدًا ﷺ يقدر الموقف وخطورته تمامًا، ولا يتأثر بضغوط العواطف من الأوس.

بهذا طيَّب الرسول ﷺ نفوس الأوس، وأكرمهم، وفي نفس الوقت لم يغير الرأي الذي يصلح لعلاج بني قريظة، ولكنه كان على لسان سعد ﷺ زعيمهم». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٠-١١١**].

ويقول د/ الغضبان: «نزل اليهود على حُكم رسول الله ﷺ، ورفضوا كل اقتراحات زعيمهم كعب بن أسد، وقرروا أن يتلقوا مصيرهم على يد مَنْ نكثوا عهدهم معه، وهناك بصيص من أمل عندهم أن يعفو عنهم رسول الله ﷺ، أو أن تتمكن الأوس من حمايتهم كما فعل عبد الله بن أُبي بحلفائه من بني قينقاع، وكان تصورهم أن تسيطر العصبية على حلفائهم الأوس فينجو بحياتهم على الأقل.

وطالب الأوس بحقهم في الحماية كما فعل عبد الله بن أُبي، فكرامة الفريقين الأوس والخزرج واحدة، غير أن اتجاه القيادة يخالف اتجاه القاعدة، فكيف يفعل رسول الله ﷺ أمام هذا الحرج، إنه يملك أن يحسم الأمر بالقتل وانتهى الأمر، والأوس طوع بنانه، غير أنه يحرص على أن لا تصدم عواطف جنده من الأوس، فاختار هذا الحل الموفق: «**أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَوْسِ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟**»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ رَسُولُ الله: «**فَذَاكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩].

فلقد تساوى الحيان في الحق، إذ حكم في بني قينقاع زعيم من الخزرج هو عبد الله بن أُبي حليفهم، فليحكم في بني قريظة زعيم الأوس سعد بن معاذ ﷺ.

إن القيادة الحكيمة هي التي تتجنب دائمًا الصدام مع عواطف شبابها، وتحرص على أن تمثل قناعاتهم وتطلعاتهم، بل تلبية رغباتهم، وحين تصطدم رغبة القيادة مع القاعدة، فالقيادة بحاجة إلى حلٍّ مريح يخفف جو الصدام.

إنهم جنودها بهم تقاتِل، ومن خلالهم سرُّ قوتها ونجاحها، وكلما استطاعت أن تعطي لهم الكرامة والاعتبار، كلما كان هذا أدعى إلى تلاحم الجانبين في صف واحد، بل راعى رسول الله ﷺ في هذه الحرب رغبات كل فرد من أفراد هذا الصف، فلقد كان لرجل من اليهود جميل في عنق ثابت بن قيس ﷺ خطيب رسول الله ﷺ، فطلب ثابت حماية هذا الرجل من القتل من قيادته فوافقت القيادة على ذلك، غير أن الزبير بعد أن عُفي من القتل وسَلِم له ماله وولده وأهله، قال لثابت: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ يَا ثَابِتُ بِيَدِي عِنْدَكَ إِلَّا أَلْحَقْتنِي بِالقَوْمِ، فَوَاللهِ مَا فِي العَيْشِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مِنْ خَيْرٍ. **[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٣]**.

وقد راعى رسول الله ﷺ كرامة امرأة من المسلمين حين طلبت حماية رفاعة بن سموأل القرظي قائلة: **هَبْ لِي رِفَاعَةَ، فَإِنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّهُ سَيُصَلِّي وَيَأْكُلُ لَحْمَ الجَمَلِ**، قَالَ: فَوَهَبَهُ لَهَا فَاسْتَحْيَتْهُ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٤].

إن القيادة العبقرية لا تعدم وسيلة تُطَمْئِنُ بها جنودها على احترام رأيهم وتقديره حتى ولو كانت خطتها تعاكس أهواء فريق من هؤلاء الجنود، إنها لا تعطِّل خطتها، لكن لا تتحدى رغبات جنودها بل تحرص على قناعتهم وإشعارهم بأهمية رأيهم ووجاهته.

صحيح أن على القاعدة أن تطيع، وصحيح كذلك أن السمع والطاعة ليسا كل شيء في علاقة القواعد مع القيادة، بل الحب والثقة، والتفاني هو الأصل في العلاقة؛ ومن أجل ذلك كان حديث رسول الله ﷺ يؤكد الخيرية في أمراء هذه الأمة من خلال الحب: «**خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ**». [مسلم في الإمارة (١٨٥٥)، والدارمي في الرقاق (٢٧٩٧)، ومسند أحمد ٣٩/ ٤٠٦ عن عوف بن مالك ﷺ رقم ٢٣٩٨١].

وما أحوج قيادة الحركة الإسلامية أن تدرك هذا المعنى وتعمل من خلاله!

وكان بعدها حُكم سعد بن معاذ ﷺ.

ورسول الله ﷺ يرعى قيادات الجماعة المسلمة، ويعطيها الأهمية الكبرى، فسعد ﷺ جريح في خيمة رفيدة، وكان بإمكان رسول الله ﷺ أن يُمضي أمره بدون رأي سعد ﷺ، لكنه التكريم العظيم لقائد من

قادات هذه الأمة، فلا يحكم بأمر حلفائه إلا بحضوره، بل يوجه الجميع إلى إكبار هذا القائد: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ أَوْ إِلَى خَيْرِكُمْ**»، فقاموا له.

ويأتي دور سعد ﷺ، ورسول الله ﷺ مطمئن إليه، واثق باختياره، وعارف مدى تفانيه بحب الله ورسوله، وترفعه عن العصبية أو الهوى أو حظ النفس، وكم أراده قومه على ذلك فقال: **لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ**.

بل لسعد ﷺ ثأر عند يهود بني قريظة حين واجهوه بالسباب والشتيمة، وذكَّرهم بعهدهم لرسول الله ﷺ فهزؤوا به، وحين أصابه سهم غادر من أحدهم فناجى ربه قائلًا في دعاء طويل: **وَلَا تُمِتْنِي حَتَّى تُقِرَّ عَيْنِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ**، وها هو أمرهم كله له، فأخذ العهد على قومه أولًا بقبول حُكمه، ثم على المهاجرين، وأصدر حُكمه بذبحهم لخيانتهم وغدرهم.

إن الذي يدرك مرامي المعركة وأبعادها هم القادة الذين يعيشون جوها، ومن أجل هذا وجدنا اتجاه سعد ﷺ يمثل اتجاه الرسول ﷺ تمامًا؛ لمعرفته ببواطن الأمور وخفاياها، بينما الأوس يدركون فقط في هذا المجال شرفهم وتساويهم في هذا الشرف مع الخزرج، ولا نقول الأوس جميعًا، إنما نقول هو تيار قوي فيهم، لكن الذي حدد الموقف تمامًا هو سيدهم سعد بن معاذ ﷺ.

وهذا يدعونا إلى القول: إن على القيادة العليا أن تعطي ثقتها الكبرى للقيادات الوسط التي هي سبيلها إلى الجنود، ونافذتها عليها، وحين تعجز القيادة أن تقنع هذه القيادات الوسط فلن تصل إلى قلوب جنودها، وستكبر الهوة بين الفريقين، ويتمزق الصف شذر مذر، بل يتمحور حول هذه القيادات الوسطية، ويشكل عقبة كؤودًا في وجه القيادة ومخططاتها». [**المنهج الحركي للسيرة للغضبان ٢/ ٣٠٩-٣١١**].

٧ـ أزمة اجتماعية طارئة:

يقول د/ حبيشي: «أيقن بنو قريظة أنه لم يعد هناك سبيل إلى الحوار، وكأنهم استسلموا إلى أمر الله وأمر رسوله فيهم.

غير أن هناك مشكلة اجتماعية قد طرأت، لابد من النظر فيها من قِبَل رسول الله ﷺ.

وهذه المسألة الطارئة هي أن الأوس ـ أو بعضهم على الأقل ـ قد اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ يفاوضونه في شيء يتصل ببني قريظة، قالوا: يا رسول الله، إن يهود بني قريظة كانوا حلفاء لنا في الجاهلية، وكان بيننا وبينهم ما علمت، وأنت قد وهبت بني قينقاع حلفاء الخزرج إلى عبد الله بن أبي ابن سلول، وفعلت ببني النضير ما علمناه، وإنا شفعاء عندك أن تهبنا بني قريظة يخرجون من ديارهم على نحو خروج بني قينقاع، أو خروج بني النضير.

وهنا أزمة حقيقية، فإن الأوسيين سينظرون اليوم إلى ما صنع رسول الله ﷺ للخزرجيين في حلفائهم، وينْفَسونهم عليه.

والخزرجيون سينظرون إلى رفض شفاعة الأوسيين عند رسول الله ﷺ إذا رُدت، على أن النبي ﷺ فضَّل الخزرجيين عليهم، فيتعالون على أبناء الأوس.

إنها مشكلة حقًّا تدركها معي إذا كنت خبيرًا بمجتمع العرب في الجاهلية.

ترى: كيف سيخرج النبي ﷺ من هذه الأزمة الاجتماعية على سنن الاجتماع والعوائد العربية؟

أما أنا فقد نبَّهتك قبلُ إلى أن الرسول ﷺ حين اختار سعد بن معاذ رضي الله عنه وهو زعيم الأوس، وأمره أن يذهب إلى بني قريظة يوم خيانتهم، كان هذا الاختيار من توفيقاته، أو من توفيق الله له، وهو توفيق يحيط به دائمًا ولا يخطئه.

كما أني قد ذكرت لك أن سعدًا رضي الله عنه قد أحفظه ما رأى من اليهود يوم خيانتهم، وردهم لرجائه ورجاء من معه، حتى سأل ربه يوم أن سأله وهو جريح، أن لا يميته حتى يشفي صدره من بني قريظة.

اجتمع الأوسيون عند رسول الله ﷺ يشفعون في بني قريظة، ويسألون النبي ﷺ أن يهبهم لهم على مثال ما فعل للخزرجيين.

ولم يتردد النبي ﷺ في موقفه، ولم تأخذه الحيرة فيما هو بصدده، ولكنه قد قال لهم: أيرضيكم أن يكون الحاكم عليهم، والحَكَم بيننا وبينهم سيدكم سعد، فقالوا جميعًا: اللهم نعم، وعلم اليهود بما توصل إليه الأوس مع نبيهم، ففرحوا وهدأ الجميع؛ لأنهم قد أدركوا أنها انفراجة في الموقف، ما ظن اليهود أنهم بالغوها ولا بشق الأنفس.

عرض النبي ﷺ على الأوس ما عرضه حتى يستل من نفوسهم ما يعتمل فيها من المشاعر والقلق، فقال لهم: «**أَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَوْسِ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْكُمْ؟**»، قَالُوا: بَلَى، قَالَ رَسُولُ الله: «**فَذَاكَ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٩].

وحكم سعد رضي الله عنه بحكم الله، ونفذ المسلمون الحكم بيد الخزرجيين.

وقد تقاعس أول الأمر الأوسيون عن أن يشاركوا في تنفيذ الحكم، ولكنهم رأوا أن ذلك قد يسيء النبي ﷺ، فنشطوا وشاركوا المسلمين في تنفيذ حكم الله في هؤلاء الخونة».

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٤٧-١٥١ باختصار].

٨ ـ رعاية الحاكم للقيادات وتدريبها:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان رسول الله ﷺ يُعنى بالعناصر القيادية، يُشركها في التخطيط والتنفيذ والقيادة، ويعطيها الحرية لتتخذ القرار بملء حريتها وإرادتها، حتى وإن كان القرار مصيريًّا، حتى تنمو شخصيتها القيادية، وحتى تتقدم في كفاءتها، تحت رعاية رسول الله ﷺ يوجهها، ويصوبها، ويستحسن ما

حسن من رأي، ويسدد ويقارب، لم يكن قائدًا فرديًا يستأثر بكل القرارات ويستحوذ على السلطة، وتذوب كل الشخصيات في شخصه.

تأمل هذه العناية، وهذا التقدير من رسول الله ﷺ لسعد بن معاذ ﷺ إذ يختاره ليتخذ أهم قرار مصيري بالنسبة للمسلمين.

ويحسن بالجماعة الإسلامية أن تُعنى بكوادرها القيادية، فتدربها، وتنمي قدراتها من خلال برامج معينة مرحلية بوسائل متجددة متطورة تناسب الواقع والعصر الذي تعيشه.

يحسن بالأمير العام أن يعطي كثيرًا من الصلاحيات لغيره، ويعطيهم من تجاربه وخبراته، ويفسح لهم المجال باتخاذ القرار، بهذا الأسلوب يستطيع أن يفرز كوادر قيادية وينمي قدراتها وإمكاناتها الفكرية والسياسية والإدارية، أما إذا طغت شخصية الأمير عقمت الحركة، وتعرضت للجمود، ومن ثم التخلف عن الركب». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٠٩-١١٠].

٩ ـ المصير السيئ لطلاب الزعامة:

يقول الشيخ الغزالي: «أجل.. هو القتل، وإنما تقع تبعات الحكم به على من تعرَّض له بسوء صنيعه، وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ فتتحقق، ولو قد تحققت لكان ألوف المسلمين هلكى تحت أقدام الأحزاب المنسابة من كل ناحية يحرضهم ويؤازرهم أولئك اليهود.

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعامة سببًا في هذه الكارثة التي حلَّت ببني قريظة، ولو أن حييَّ بن أخطب وأضرابه سكنوا في جوار الإسلام وعاشوا على ما أوتوا من مغانم، ما تعرَّضوا ولا تعرَّض قومهم لهذا القصاص الخطير.

لكن الشعوب تدفع من دمها ثمنًا فادحًا لأخطاء قادتها.

وفي عصرنا هذا دفع الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثمانًا باهظة لأثرة الساسة المخدوعين.

ولذلك ينعى القرآن على أولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التي يحملها غيرهم قبلهم: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[إبراهيم]».

[فقه السيرة للغزالي ٣٢٦-٣٢٧].

١٠ ـ تحقيق العدالة الاجتماعية:

يقول د/ أبو فارس: «إن توزيع أراضي بني قريظة على المهاجرين دون الأنصار ورد النخيل الذي أعطاه أهل المدينة عارية للمهاجرين ليعود إلى الأنصار كان في غاية الحكمة.

إذ ينبغي ألا تتكدس الثروة الاقتصادية في يد فئة من المسلمين في المجتمع الإسلامي؛ لأن هذا سوء في توزيع الثروة، وحصر للمال من جهة تتحكم في حياة المجتمع ومصيره، بل وتؤثر في ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية وسائر شؤون العامة إن أفلتت الأمور، فإن المال ورجال المال إذا لم

يتقوا الله فإنهم يسخرون جميع الطاقات لتنمية أموالهم، وفي نفس الوقت ينقسم المجتمع إلى فئتين: فئة غنية موسرة تعيش فوق السحاب، وفئة فقيرة معدمة لا تملك قوتها اليومي، شقية تعيش تحت التراب، وإذا كانت الظروف كذلك نشأ الحقد والحسد من الفقراء نحو الأغنياء، وانتهى إلى صراع طبقي بغيض، وحتى لا يقع هذا أو قريب منه رأى رسول الله ﷺ أن يوزع أرض قريظة على المهاجرين دون الأنصار كما فعل ذلك بأرض بني النضير ونخيلهم، وحتى لا يطغى نصيب المهاجرين على نصيب الأنصار أمر المهاجرين برد نخيل الأنصار إليهم.

إن سوء توزيع الثروة يتمثل في تكدس الأموال في أيد قليلة هي التي تتحكم في الناس وحياة الناس، والإسلام من منهاجه أن توزع الثروة على أفراد المجتمع توزيعًا عادلًا يستفيد منها جميع فئات المجتمع وأفراده، ويعملون فيه فتنشط الحركة المالية، وينتفع الناس من جراء ذلك».

[**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١١٦-١١٧**].

١١ ـ لماذا لا يأبه اليهود لتهديداتنا وصراخنا!!:

يقول م / أبو راس: «وهكذا عادت بحمد الله الطمأنينة إلى نفوس المسلمين، بعد أن ظهرت خيبة الأحزاب التي ظنت أن نهاية الإسلام قد دنت، ولكن للإسلام رب يحميه وللمسلمين إله يدفع عنهم ويدافع.

لقد انفضت حشود الأحزاب التي كانت تحيط بالمدينة، بعدما سلَّط الحق ﷻ عليهم الريح العاصف، التي أطفأت نيرانهم، وكفأت قدورهم وخلعت خيامهم، وألقت بإذن ربها الرعب في قلوبهم.

انفضت حشود الأحزاب ليتركوا يهود قريظة ليواجهو قدرهم المحتوم، قدرهم الذي ما ظلمهم الله ولا رسوله فيه بل كانوا أنفسهم يظلمون.

لقد عاشوا بين المسلمين وفي كنف محمد ﷺ وهم يتمتعون بحريتهم التامة، فهم وكما قال سيدهم لم يروا في جوار محمد ﷺ إلا البر والوفاء، ولكن نفوسهم المنحرفة المجرمة، ومعاملاتهم الملتوية الآثمة، وحقدهم الدفين في أغوار نفوسهم على الإسلام والمسلمين، هذا الحقد الذي ما ستره ولا يستره على مر السنين إلا قوة وشكيمة المسلمين، فما إن يظهر على المسلمين الضعف حتى يكشف الغدر عن بوائقه، ويُكَشِّر الشر المنطوية عليه نفوسهم، عن أسنانه الخبيثة.

هكذا كانوا منذ صدع رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الله ﷻ، وهكذا هم اليوم وإلى أن تقوم الساعة ويرث الحق ﷻ الأرض ومن عليها..

ولم تكن خطيئة بني قريظة في تحالفهم مع القوي المشركة الباغية بالخطيئة البسيطة التي يمكن التغاضي عنها، فهم عندما وافقوا على الانضمام إلى معسكر الشرك، فإنما كانوا يحلمون باللحظة التي يقودون فيها

محارِبة المسلمين إلى المقصلة، والتي يقتسمون فيها أبناء ونساء المؤمنين ليكونوا عبيدًا لهم، ولولا رحمة الله، ولولا توفيقه لسلمان الفارسي ﵁ بفكرة حفر الخندق، ولولا رحمة الله وتوفيقه لنعيم بن مسعود ﵁، ولولا تغمد الحق ﷻ الرحمن الرحيم بعباده الذين يقف العالم معاديًا لهم ناقمًا عليهم لا لشيء إلا لقولهم ربنا الله، لولا هذا لانطفأت شعلة الإيمان ولتحولت شوارع المدينة إلى خنادق يُقتل فيها خير القرون، وإلى أودية تسيل فيها دماؤهم.

لهذا فما أن وثق المسلمون من انصراف الأحزاب عن المدينة حتى أمر رسول الله ﷺ مؤذنًا يؤذن في الناس: «**مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا، فَلَا يُصَلِّيَنَّ العَصْرَ إِلَّا بِبَنِي قُرَيْظَةَ**»، نعم فكيف يضع المسلمون سلاحهم ولما تضعه الملائكة بعد، فلقد قال رسول الله ﷺ محدثًا عن الروح الأمين جبريل -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-: «**فَمَا وَضَعَتِ الْمَلَائِكَةُ السِّلَاحَ بَعْدُ، وَمَا رَجَعْتُ الآنَ إِلَّا مِنْ طَلَبِ القَوْمِ، إِنَّ اللهَ ﷻ يَأْمُرُكَ يَا مُحَمَّدُ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَإِنِّي عَامِدٌ إِلَيْهِمْ فَمُزَلْزِلٌ بِهِمْ**».

لذا قال ﷺ لأصحابه: «**عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُصَلُّوا صَلَاةَ العَصْرِ حَتَّى تَأْتُوا بَنِي قُرَيْظَةَ**»، فضربت الشمس قبل أن يأتوهم، فقالت طائفة من المسلمين: إن رسول الله ﷺ لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا، وقالت طائفة: والله إنا لفي عزيمة رسول الله ﷺ، وما علينا من إثم، فصلت طائفة إيمانًا واحتسابًا، وتركت طائفة إيمانًا واحتسابًا، ولم يعنف الرسول ﷺ واحدًا من الطرفين.

وحمل علي بن أبي طالب -كرَّم الله وجهه- راية المسلمين إلى حصون بني قريظة الذين -أي يهود بني قريظة- كانوا لا يزالون على غوايتهم وحقدهم وعمايتهم فلم يتورعوا حتى وهم على هذا الحال من سبِّ رسول الله ﷺ ونسائه سبًّا قبيحًا، فرأى علي بن أبي طالب ﵁ أن يصرف النبي ﷺ بعيدًا عن هؤلاء السفهاء فاعترض طريقه وهو مقبل قائلًا: يَا رَسُولَ اللهِ! لَا عَلَيْك أَنْ لَا تَدْنُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ الأَخَابِثِ، قَالَ: «**لِمَ؟ أَظُنُّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ لِي أَذًى؟**»، قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**لَوْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا**»، فَلَمَّا دَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ حُصُونِهِمْ قَالَ ﷺ: «**يَا إِخْوَانَ القِرَدَةِ! هَل أَخْزَاكُمْ اللهُ وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ؟**»، قَالُوا: **يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا**».

وأحكم المسلمون الحصار عليهم وأمسكوا بخناقهم، وعرض كعب بن أسد سيد قريظة عليهم الخيارات الثلاثة كما رأينا.

وحاول بنو قريظة أن يظفروا بصلح يحفظ عليهم حياتهم ولكن المسلمين كانوا أشد يقظة، وأشد وعيًا وأصروا على أن يُسَلِّم يهود بني قريظة دون قيد أو شرط.

وحدث أن استقدم اليهود -وهم محصورون- أبا لبابة بن عبد المنذر ﵁ يستشيرونه أينزلون على حكم محمد؟ فقال لهم: نعم، وأشار إلى حلقه كأنه ينبههم إلى أنه الذبح؟ ثم أدرك لفوره عِظَم ما أقدم عليه، فمضى هائمًا على وجهه حتى أتى مسجد رسول الله ﷺ فربط نفسه على سارية فيه، وحلف ألا يفك منها

حتى يتوب عليه الله، وقد قبل ﷻ توبته حيث قال: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة].

واستمر الحصار خمسًا وعشرين ليلة فلما قرر المسلمون الهجوم على الحصون ليقتحموها عنوة قال بنو قريظة: يا محمد ننزل على حكم سعد بن معاذ، فاستنزلوا من حصونهم وسيقوا إلى محبسهم حتى جيء بسعد بن معاذ ﷺ ليقضي في حلفائه بما يرى.

واختار اليهود سعد بن معاذ رضي الله عنه ليحكم فيهم لأنه كان سيد الأوس حلفاء بني قريظة في الجاهلية، فتوقعوا أن يتساهل سعد ﷺ مع أصدقائه وحلفائه، فلما جاء من الخيمة التي كان يُمرَّض فيها أحاط به قومه يقولون له: **يا أبا عمرو أحسن في مواليك.**

ولكن أنَّى لسعد رضي الله عنه أن ينسى أن الإسلام وأبناء الإسلام، والمدينة بما فيها من حرث ونسل كانوا في خطر ماحق، أنَّى له أن ينسى تصام اليهود وهو يحذرهم بالأمس القريب مغبة غدرهم، أنَّى له أن ينسى قولتهم له ردًا على نصيحته التي قال لهم فيها: «**وَأَنَا خَائِفٌ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ بَنِي النَّضِيرِ، أَوْ أَمَرَّ مِنْهُ**»، فما كان ردهم إلا أن قالوا له مستخفين بنصحه وتحذيره: **أَكَلتَ أَيْرَ أَبِيكَ!**

لقد آن لسعد رضي الله عنه ألا تأخذه في الله لومة لائم، وحكم الذي أخلص قلبه لله، أن يُقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال، وأقر النبي ﷺ هذا القضاء الحازم قائلًا لسعد: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ ﷻ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ**».

وحُفرت الخنادق بسوق المدينة لتنفيذ هذا الحكم، فقال اليهود لسيدهم كعب بن أسد وهم يساقون لمصارعهم: **يَا كَعْبُ مَا تَرَاهُ يَصْنَعُ بِنَا؟** قَالَ: **أَفِي كُلِّ مَوْطِنٍ لَا تَعْقِلُونَ؟ أَلَا تَرَوْنَ الدَّاعِيَ لَا يَنْزِعُ، وَأَنَّهُ مَنْ ذُهِبَ بِهِ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُ؟ هُوَ وَاللهِ الْقَتْلُ.**

ولابد لنا ونحن نسدل الستار على هذه الحوادث الجسام، أن نقف عند بعض النقاط نتمعنها ونطيل فيها الفكر علنا نستنبط منها العظة والعبرة..

تُرى ما الذي قاد بني قريظة إلى هذا المآل المخزي، لقد أغلقوا على أنفسهم كما علمنا، أبواب حصونهم عندما علموا بمقدم الأحزاب، وقرروا الالتزام بعهدهم مع محمد ﷺ الذي لم يروا منه إلا برًّا ووفاءً.

قد تعجبون إذا قلت لكم: إن السبب الأول يكمن في أن حيي بن أخطب استطاع أن يستفز كعب بن أسد قريظة!

لقد رفض كعب مجرد فتح الباب لحيي بن أخطب إلى أن قال الداهية: **وَاللهِ إِنْ أَغْلَقْتَ دُونِي الحِصْنَ إِلَّا تَخَوَّفْتَ عَلَى جَشِيشَتِكَ أَنْ آكُلَ مَعَكَ مِنْهَا؟!** وكان بعد ذلك ما كان من حديث طويل نجم عنه إقناع قادة بني قريظة بأنها نهاية الإسلام والمسلمين!

لذا فإن على المسلمين بشكل عام وعلى الدعاة بشكل خاص وعلى القادة بشكل أخص أن يحذروا هذه الناحية، فكم استطاعت المعسكرات المعادية للإسلام والمسلمين من إقحام الدعاة في معارك هم عنها في غنى، وإقحامهم في مواقف قالوا فيه ما يقال، وما لا يقال، وذلك عن طريق الاستفزاز!

والشيء الثاني: دفع بنو قريظة كلهم ـ إلا أولئك الذين ثبتت براءتهم بأنهم كانوا غير راضين عما يحدث ـ الثمن غاليًا من دمائهم وأبنائهم ونسائهم بقرار قيادي خاطئ، والحال هذا ليس مع بني قريظة فحسب ولكنه مع الشعوب التي يستخدمها قادتها وزعماؤها، مع الشعوب التي تُسلِم قيادها صاغرة ذليلة لكل من هب ودب وإن جاء من المجهول، مع الشعوب التي حصرت طموحاتها في شهوتي البطن والفرج فما عاد يهمها كرامة شعوب تُساق بقرارات قادتها إلى البوار في الدنيا وهم يعيشون في منطقة ظل الأحداث، والبوار في الآخرة: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم].

الأمر الثالث الذي يجب الوقوف عنده هي: صفات اليهود التي لم تتغير على مر العصور «فهم يَسفهون إذا أَمِنوا، ويَقتلون إذا قدروا، ويذكّرون الناس بالمُثل العليا إذا وَجِلوا، أما العهود فهي آخر شيء في حياتهم»، فالله ﷻ يحدث عنهم وهو العليم الخبير بهم وبما تنطوي عليه نفوسهم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة].

والغريب العجيب أن يركن مسلمو هذه الأيام إلى قَتَلة الأنبياء والمرسلين، فيعقدون معهم عهودًا ويوثقون معهم مواثيق غير آبهين إلى تحذيرات المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية، من أن هؤلاء اليهود لا عهد لهم، وغير مستفدين من تجربة مصر التي وقَّعت أيام السادات اتفاقية سلام، فما من يوم ينشق فجره إلا وتطالعنا وكالات الأنباء باكتشاف خلية تجسس صهيونية في مصر! وباختراق طائرات تجسس صهيونية الأجواء المصرية لأغراض تجسسية.

وباكتشاف خلايا صهيونية في مصر تهدف إلى العمل على انحلال الشباب المصري، وإصابته بمرض العصر «الإيدز» عن طريق عاهرات بني إسرائيل المصابات بهذا الوباء! ونشر المخدرات.

الأمر الرابع الذي أود الإشارة إليه: أننا ـ وللأسف الشديد ـ أصبحنا كاليهود في عدم الحزم والجزم، فكم من مؤتمر عقده العرب والمسلمون منذ كانت قضية فلسطين؟! وكم من بيان خطه العرب والمسلمون بخصوص قضية فلسطين؟! وكم من خطبة دبجها العرب والمسلمون في شأن قضية فلسطين؟! فما عادت فلسطين؛ لأن كل القرارات سكنت الأوراق التي سكنت في أروقة القاعات المظلمة، وسراديب مقار القمم العادية منها والطارئة.

لقد زلزل صوت علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما اليهود عندما قالا: «**يَا كَتِيبَةَ الإِيمَانِ، وَالله لَأَذُوقَنَّ مَا ذَاقَ حَمْزَةُ** ـ يعني الشهادة ـ **أَوْ لَأَفْتَحَنَّ حِصْنَهُمْ**»، لقد سارع بنو قريظة إلى القول: **يَا مُحَمَّدُ نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ!**

وما هذا إلا لأنهم يعلمون العلم كله أن علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما، يعنيان ما يقولان، وأنهما شديدا الشوق إلى لقاء حمزة رضي الله عنه، وعلى الطريقة التي مات عليها حمزة رضي الله عنه؛ لذا فسرعان ما استسلم اليهود.

في الحين الذي لا يأبه اليهود لست وأربعين إذاعة وتلفاز وسيل لا يُعد ولا يُحصى من الصحف اليومية والدورية علاوة على الآلاف المؤلفة من الخطب!! ومع ذلك تمددت دولة العدو ولم تنكمش، واستأسدوا ولم يستسلموا.

ألا إن سيرة رسولنا صلى الله عليه وسلم وأسلوب تعامله مع هؤلاء اليهود، مليئة بالعبر والعظات، التي ستنير طريق التائهين الضائعين لو أنهم أخلصوا النية في طريقة دراستهم وفهمهم لهذه السيرة العطرة!».

[تأملات حركية في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم لأبي راس ٢٥٤-٢٦٠].

١٢ ـ أهمية المحافظة على الأمن القومي للدولة المسلمة:

يقول أ/ شاكر: «تجمعت الأحزاب ليقضوا على المسلمين وينتهوا منهم، هؤلاء الأحزاب هم أعداء الله جميعًا في الجزيرة العربية، اليهود والمنافقون في داخل المدينة، وقريش والأعراب في خارجها.

وفشلت الأحزاب بل وخرجت متنافرة ولا يثق بعضها ببعض.

وانصرف الأحزاب، وكان على المسلمين أن يضربوا عدوًّا بعد عدو إذ افترقوا بعد اتفاق، وكانت الضربة الأولى يجب أن تتوجه إلى يهود بني قريظة الذين يعيشون مع المسلمين في ضاحية المدينة، والذين كان بينهم وبين المسلمين عهد فنقضوه، عندما وجدوا أن قوةً تحيط بالمسلمين، ومعنى هذا أنه لا يوثق بهم، وكلما سنحت لهم الفرصة قاموا بغدر جديد، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن التوسع يقضي أن يكون تطهير مركز الحكم قبل كل شيء ثم يكون الانطلاق خارجه، ويُطَهَّر جزء بعد جزء، والبدء باليهود لذلك أمر طبيعي حيث إن المنافقين يُظهرون الإسلام، ويحقدون على أتباعه، ولا يعرفهم المسلمون كلهم، وإنما يعرف بعض أفرادهم من تصرفاتهم، ولما كنا غير مكلفين بالشق على القلب ومعرفة الخفايا فإننا نحكم على الظاهر، وعليه فهم مسلمون، ثم إن المنافقين لا ينشطون إلا إذا خافوا على أنفسهم من القتال مع المسلمين، أو وجدوا قوة تكاد تعصف بالمسلمين عندها يبزغ قرن النفاق ويظهر جليًّا، أما إذا قوي المسلمون اختفى المنافقون وزاد إظهارهم للنسك والطاعة». **[التاريخ الإسلامي لشاكر ٢/ ٢٨٨]**.

ويقول د/ هيكل: «وطدت غزوة الأحزاب، ووطد القضاء على بني قريظة، للمسلمين في المدينة، فلم يبق للمنافقين فيها صوت قط، وذهبت العرب كلها تتحدث بقوة المسلمين وسلطانهم، وبمقام محمد صلى الله عليه وسلم

وقوته ورهبة جانبه، ولكن الرسالة لم تكن للمدينة وحدها بل كانت للعالم بأسره، فما يزال على النبي ﷺ وأصحابه إذًا أن يمهدوا لكلمة الله، وأن يدعوا الناس لدينه الحق، وأن يصدوا عنه كل معتد عليه، وهذا ما فعلوا». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٥١].

ويقول أ/ فرج: «وهكذا تم إخضاع بني قريظة وانهارت معنويات قريش وفقدت بأسها وخيلاءها وسكنت أصوات المدَّعين والمنافقين، واستتب الأمر لرسول الله ﷺ وسجل تاريخ الجهاد العربي لمعركة الخندق أهميتها الحربية ونتائجها الباهرة في تقويض دعائم قريش ودحر اليهود وتفرقة الأحزاب، وانتقال المسلمين من مرحلة الدفاع عن النفس إلى مرحلة الهجوم الوقائي والتعرض الذي لا غنى عنه لحماية المعتقد وصيانة السلم». [انتصارات عربية خالدة لفرج ٥٠].

ويقول د/ طنطاوي: «وبالقضاء على بني قريظة، زال نفوذ اليهود زوالًا تامًّا عن المدينة وأطرافها، وأصبحت قاعدة أمينة للمسلمين، وخفت كل صوت يقلق أمنها، ويكدر صفوها، وزادت هيبة المسلمين في قلوب أعدائهم، وتحدث بقوتهم ونفوذهم، من كان يستخف بهم، وانفسح المجال أمام المسلمين، ليخرجوا من مدينتهم آمنين، فينشروا نور الله في الأرض، وأيقنت قريش وأحلافها بأن الدعوة الإسلامية قد أصبحت قوة في مقدورها أن تتخطى الحدود، وتتجاوز السدود، وبشَّر النبي ﷺ أصحابه بأن قريشًا لن تستطيع غزو المدينة بعد الذي أصابها في غزوة الأحزاب.

فقد أخرج البخاري عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ حِينَ أَجْلَى الأَحْزَابَ عَنْهُ: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**». [البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣٠/ ٢٤٠، ٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ٤٥/ ١٨٤ رقم ٢٧٢٠٦].

وقد أيدت الأحداث صدق ما أخبر به الرسول ﷺ». [بنو إسرائيل في القرآن والسنة لطنطاوي ٣٠٦].

ويقول أ/ رضوان: «وهكذا تطهرت عاصمة الإسلام من مؤامرات اليهود واستعدت أمة الإسلام لنشر نور الله في مشارق الأرض ومغاربها.

ولم تعد قريش تجرؤ بعد الخندق على الدخول في معركة حاسمة ضد المسلمين، لقد تحولت دفة الحرب بعد الخندق وبني قريظة لصالح المسلمين تمامًا، وصاروا هم المهاجمين، وتكتفت قريش بأغلال الدفاع، حتى فتح الله مكة وانهيارها النهائي أمام جيوش الحق الزاحفة».

[محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٩٧].

ويقول أ/ الشامي: «تعتبر أيام الخندق ذروة الخط البياني لأيام الشدة التي أصابت المسلمين في المدينة إبان حياته ﷺ، وبانتهاء تلك الأيام وذهابها تبدأ المدينة عهدًا جديدًا، ويصبح زمام المبادرة بأيدي المسلمين، وقد قال ﷺ حين انصرف الأحزاب عنه: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**»، وجاءت الأحداث بعد ذلك مصداق قوله ﷺ.

إن قوة الشرك التي التقت على حرب المسلمين يومئذ هو أكبر قوة يمكن جمعها، ولئن فشلت وهي مجتمعة، فليس من السهل أن تفكر قريش بعد الآن وهي منفردة أن تجازف بسمعتها مرة أخرى فتخرج من مكة تريد حربه ﷺ.

وخرج المؤمنون من هذا الابتلاء مرفوعي الرؤوس بإيمانهم، شاكرين الله تعالى ذاكرين نعمه عليهم.

وخرجت المدينة أيضًا من هذه المحنة، وقد نظفت أرضها من بني قريظة آخر القبائل اليهودية التي كانت فيها، وبهذا تخلصت من عامل هام كان يسعى لبث الفرقة، وإثارة الفتن، وتقوية النفاق وأهله، وتأييد الباطل والساعين تحت لوائه.

وطأطأ النفاق رأسه، خاصة وأن أهله كانوا يتوقعون نتيجة أخرى، فجاء الواقع بغير ما يشتهون، ومما ساءهم وفضح نواياهم الآيات الكريمة التي نزلت بحقهم، فأبطلت كل زيف كانوا يتظاهرون به وبدت حقائقهم وليس هناك ما يسترها.

وكان على المنافقين أن يغيبوا وجوههم عن المؤمنين حياء وخجلًا ـ إن كان فيها ذلك ـ ولو إلى حين، ريثما يمضي على الحادثة الزمن الكافي، أو ريثما يشغل المسلمون بما يستجد من أحداث.

كما غابت القبائل اليهودية عن مسرح الأحداث في المدينة، وأضحت كلمة الإيمان لا مزاحم لها».

[من معين السيرة للشامي ٣٢٧-٣٢٨].

ويقول د/ حبيشي: «لقد استراح المسلمون والنبي ﷺ بعد أن أجلوا اليهود عن أرضهم من الخيانات اليهودية، ومن غَمْزهم ولَـمْزهم، ومن محاولة تفريق الصفوف بين المسلمين.. إلى غير ذلك من أساليبهم السيئة، ومكايدهم التي لا تحتمل.

وما كان لبشر أن يتصور أن اليهود الذين اغتصبوا الأرض في المدينة، سيحاولون أو يحاول بعضهم أن يذهب إلى حتفه بقدميه، أو يتسبب في إحداث القلق الذي ينتهي به إلى الجلاء عن الأرض المغتصبة، إلا أن يكون الذي سيتصور ذلك قد فهم طباع اليهود فهمًا قد أورثه خبرة بالقوم، وبصرًا بشؤونهم وخلائقهم». [**رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٥٢**].

ويقول د/ الغضبان: «لقد كانت المعركة شوكة كبيرة للمسلمين، ونصرًا ماحقًا لليهود، وإنهاءً لوجودهم في المدينة بعد ست سنوات من التعايش القلق، وهذا ما قاله سلام بن مشكم زعيم بني النضير بعد حيي بن أخطب، والذي أقام في خيبر، وتلقى مع بقية اليهود نبأ مقتل بني قريظة صبرًا بالسيف: هَذَا كُلُّهُ عَمَلُ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، شَأَمَنَا أَوَّلًا وَخَالَفَنَا فِي الرَّأْيِ، فَأَخْرَجَنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَشَرَفِنَا وَقَتَلَ إِخْوَانَنَا، وَأَشَدُّ مِنَ القَتْلِ سِبَاءُ الذُّرِّيَّةِ، لا قَامَتْ يَهُودِيَّةٌ بِالحِجَازِ أَبَدًا، لَيْسَ لِلْيَهُودِ عَزْمٌ وَلا رَأْيٌ».

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٣١٣].

ويقول أ/ سيد قطب: «ومنذ ذلك اليوم ذلت يهود، وضعفت حركة النفاق في المدينة، وطأطأ المنافقون رؤوسهم، وجبنوا عن كثير مما كانوا يأتون، وتبع هذا وذلك أن المشركين لم يعودوا يفكرون في غزو المسلمين، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزونهم، حتى كان فتح مكة والطائف.

ويمكن أن يُقال: إنه كان هناك تلازم بين حركات اليهود وحركات المنافقين وحركات المشركين، وإن طَرْدَ اليهود من المدينة قد أنهى هذا التلازم، وإنه كان فارقًا واضحًا بين عهدين في نشأة الدولة الإسلامية واستقرارها.

فهذا مصداق قول الله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

والصياصي: الحصون، والأرض التي ورثها المسلمون ولم يطؤوها، ربما كانت أرضًا مملوكة لبني قريظة خارج محلتهم، وقد آلت للمسلمين فيما آل إليهم من أموالهم، وربما كانت إشارة إلى تسليم بني قريظة أرضهم بغير قتال، ويكون الوطء معناه الحرب التي توطأ فيها الأرض.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

فهذا هو التعقيب المنتزع من الواقع، وهو التعقيب الذي يرد الأمر كله إلى الله، وقد مضى السياق في عرض المعركة كلها يرد الأمر كله إلى الله، ويسند الأفعال فيها إلى الله مباشرة؛ تثبيتًا لهذه الحقيقة الكبيرة، التي يثبتها الله في قلوب المسلمين بالأحداث الواقعة، وبالقرآن بعد الأحداث، ليقوم عليها التصور الإسلامي في النفوس.

وهكذا يتم استعراض ذلك الحادث الضخم، وقد اشتمل على السنن والقيم والتوجيهات والقواعد التي جاء القرآن ليقيمها في قلوب الجماعة المسلمة وفي حياتها على السواء.

وهكذا تصبح الأحداث مادة للتربية، ويصبح القرآن دليلًا وترجمانًا للحياة وأحداثها، ولاتجاهها وتصوراتها، وتستقر القيم، وتطمئن القلوب، بالابتلاء وبالقرآن سواء!».

[في ظلال القرآن لقطب ٥/ ٢٨٤٩].

المبحث الخامس

الدروس العسكرية

١ ـ الخطة الدفاعية الكاملة لابد أن يعقبها هجوم:

يقول أ/ فرج: «إن انصراف الأحزاب عن الخندق ـ وإن كانت هزيمة لقريش ـ إلا أنه لم يكن انتصارًا كاملًا للمسلمين إذ عادت الجماعات إلى دورها ـ وخاصة قريظة ـ دون أن تُحاسب على غرورها وإثمها، فكان لابد من متابعة الانسحاب والقضاء على بني قريظة.

هذه العملية هي ما يُطلق عليه في الحرب الحديثة «**تعزيز النجاح**» أي متابعة الخصوم المرتدين وضربهم حتى لا تقوم لهم قائمة، وحتى تكون لهم عبرة إذا فكروا في المعاودة.

كما أن هذه العملية تعتبر تنفيذًا عمليًّا للمبدأ القائل بأن الدفاع يجب أن ينتهي إلى الهجوم، إذ لا يحقق الدفاع وحده غاية المعركة، وإنما لابد في المعركة الدفاعية الناجحة من الانتقال إلى الهجوم [(١)]».

[انتصارات عربية خالدة لفرج ٤٧-٤٨].

٢ ـ أهمية الوقت في الحصول على النصر:

يقول ل/ خطاب: «انسحبت الأحزاب عن المدينة، وعاد المسلمون إلى ديارهم صباح ليلة الانسحاب، وأصدر الرسول ﷺ أمره الإنذاري للحركة إلى بني قريظة ظهر ذلك اليوم نفسه، على ألاَّ يُصلي المسلمون العصر إلا في ديار بني قريظة.

لقد أدرك الرسول ﷺ بثاقب فكره أهمية الوقت في الحصول على نتائج باهرة في القتال، فلو أنَّ الرسول ﷺ أبطأ بحركته هذه، لاستفاد يهود من الوقت في الاستعانة بحلفائهم أو إقناع يهود الآخرين بمعاونتهم، أو التشبُّث بالحصول على قوات من القبائل لتساند قواتهم، ولكان بإمكانهم إكمال قضاياهم الإدارية التي يحتاجون إليها في القتال، حتى يستطيعوا الصمود في حصارهم أطول مدة ممكنة.

ولكن إسراع الرسول ﷺ بتحريك قواته لتطويقهم، حالت بين يهود وبين كل ذلك، إذ لم يكن يهود يعلمون بالموعد الأكيد لانسحاب الأحزاب ليسبقوا النظر في إعداد كل متطلبات القتال المتوقع ضد المسلمين.

---

(١) في العرف العسكري العصري أن أية عملية دفاعية لا يتحقق الهدف منها إلا إذا تبعها هجوم ـ مهما تكبد الخصوم من خسائر في الأنفس والأسلحة والمعنويات ـ ولكن النصر رهن بهجوم يفصل في المعركة ويقضي على إرادة العدو ويجبره على التسليم.

وفي وقعة الخندق باءت محاولات المشركين بالفشل وتعرضوا للبقاء في العراء أيامًا وليال بين قسوة ظروف الحرب واشتداد العواصف ومما اضطرهم إلى الانصراف، ولكن لم تنزل بهم الهزيمة فكان لابد لدحرهم من عمليات هجومية يبادر إليها المسلمون.

ولهذا قال رسول الله ﷺ بعد الخندق: «**لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم**».

بل إنَّ حركة المسلمين السريعة لم تترك الوقت الكافي لليهود لتنظيم خطة دفاعية عن حصونهم، كما لم تترك الوقت الكافي لليهود لتنظيم أي خطة عسكرية على الإطلاق يقابلون بها المسلمين، فقد ظهر لنا من سير حوادث غزوة بني قريظة أنهم لم يفعلوا شيئًا، وكانوا مترددين في كل شيء.

وأكثر من ذلك فإن حركة المسلمين المبكرة شلَّت معنويات يهود وقضت على روح المقاومة فيهم، فلم يستطيعوا أن يستفيدوا من المحسنات العسكرية التي كانت بجانبهم والتي كان بإمكانهم ـ لو أحسنوا التصرف ـ الاستفادة من تلك المحسنات لكي يقاوموا المسلمين وقتًا غير قصير: حصونهم قوية منيعة، وعددهم كبير، وسلاحهم وفير، والأرزاق والماء لديهم متيسران، كل ذلك يساعدهم على الصمود.

ولكن هذه المحسنات العسكرية التي بجانب يهود لا تفيد شيئًا ما دامت معنوياتهم منحطة تمامًا، ولولا استفادة الرسول ﷺ من الوقت لتحسنت معنويات يهود ولاستطاعوا أن يقوموا بدور أكثر حزمًا من الدور الذي قاموا به (فعلًا) أثناء حصارهم.

ومما يزيد من قيمة حرص المسلمين على المحافظة على الوقت، أن ظروفهم لم تكن حسنة بعد انسحاب الأحزاب.

لقد كانوا منهوكي القوى لسهرهم الطويل على حراسة مواضعهم حوالي شهرًا في موقف عصيب يحطم أعصاب أشجع الشجعان.

وكان الطقس باردًا، وقد تحملوا البرد في العراء وقتًا طويلًا أثناء حصارهم، فلما انسحبت الأحزاب آن لهم أن ينالوا بعض الدفء في بيوتهم القريبة.

وكانت قضاياهم الإدارية بشكل لا يُحسدون عليه.

إنَّ عدم اكتراث المسلمين بكل هذه المشاكل لغرض الإسراع بتطويق حصون بني قريظة يدعوا إلى الإعجاب والتقدير». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٥٧-٢٥٨**].

ويقول عميد/ فرج: «من الواضح أن خروج المسلمين إلى بني قريظة تم في وقت لم يتصوره إنسان، فهم قد عادوا لتوهم بعد انصراف الأحزاب، فلم يكن أحد يتوقع القيام بعملية أخرى إلا بعد أن ينالوا قسطًا من الراحة، ولا شك في أن هذا التوقع كان عند بني قريظة أيضًا.

ومن هنا كان سير المسلمين إلى بني قريظة نوعًا من المفاجأة، مفاجأة في الزمن، فقد وجد بنو قريظة المسلمين أمامهم في موقف هجوم في وقت لا يتوقعونه، ولا شك في أن هذا النوع من المفاجأة كانت له آثاره عليهم ، مما أدى إلى شل تفكيرهم وتعثر خطواتهم.

ولقد أدرك رسول الله ﷺ أهمية الوقت في الحصول على نصر سريع، فلو أنه ﷺ أبطأ في التحرك لاستفاد اليهود من الوقت من عدة زوايا:

١ـ كان في إمكانهم طلب العون من الخارج من اليهود والأعراب.

٢ ـ كان في إمكانهم التجهيز في مواقع الدفاع بما يضمن لهم السيطرة على الموقف وحرية التصرف والحركة بما يخدم الموقف لصالحهم.

٣ ـ كان في إمكانهم استكمال الشؤون الإدارية التي تلزم في موقف الدفاع كالمؤن والماء وإعداد ما يلزم من متطلبات القتال.

٤ـ كان في إمكانهم تنظيم وسائل الدفاع ووضع خطة دفاعية عن حصونهم.

وكان إسراع الرسول ﷺ بتطويق مواقعهم مفاجأة حالت بينهم وبين الاستعداد الكامل، كما أثرت هذه المفاجأة على معنوياتهم وروحهم القتالية، فأسقط في أيديهم، وتخبطت آراؤهم، وضاقت بهم السبل، فاضطروا إلى التسليم وقبول حكم رسول الله ﷺ فيهم». [**العبقرية العسكرية لفرج ٣٠٦-٣٠٧**].

٣ ـ أهمية السرعة في الحركة والمباغتة:

يقول ل/ خطاب: «تكون المباغتة بالوقت، والمكان، والأسلوب.

المباغتة بالمكان: أن تقوم بحركة من مكان لا يتوقعه العدو.

والمباغتة بالزمان: أن تقوم بحركة في وقت لا يتوقعه العدو.

والمباغتة بالأسلوب: أن تقوم بالقتال بأسلوب جديد أو بسلاح جديد.

والقائد العبقري هو الذي يحاول أن يباغت خصمه حتى يقضي عليه ماديًّا ومعنويًّا؛ لأن المباغتة الناجحة تشل حركة العدو وتقضي عليه كليًّا.

لقد طبَّق الرسول ﷺ كل أساليب المباغتة؛ فقد رأينا كيف باغت الأحزاب بأسلوب جديد في القتال هو حفر الخندق، كما رأينا كيف أنه باغت قريشًا بالقتال بأسلوب الصفوف في غزوة (بدر) الحاسمة.

وفي غزوة بني قريظة باغت يهودًا بالزمان في حركته بسرعة ما كانوا ليتوقعوها، فشلَّ معنوياتهم واحتفظ بالمبادأة بيده حتى نهاية المعركة.

إنَّ المباغتة أهم مبادئ الحرب قديمًا وحديثًا، حرص المسلمون على تطبيق هذا المبدأ في أكثر غزواتهم، مما ساعدهم على النصر». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٥٨-٢٥٩**].

ويقول د/ أبو فارس: «أخذنا هذا من قوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا، فَلَا يُصَلِّيَنَّ العَصْرَ إِلَّا بِبَنِي قُرَيْظَةَ**»، ومن إجماع الفريقين الذين أدركتهم الصلاة في الطريق فمنهم من صلى ومنهم من أخَّر الصلاة حتى يصل إلى بني قريظة ويصليها هناك، إذ أجمعوا على وجوب السرعة، فكأني ببعضهم يريد الاستمرار في المسير وعدم التوقف في الطريق حتى ولو لأداء صلاة العصر، حتى يصل إلى بني قريظة في أسرع وقت ممكن ويصليها هناك، وكأني بالآخرين يرون السرعة في السير والجد فيه، والصلاة في وقتها لا تعيق عن الوصول مبكرًا إذا ما غذت الخطى، وأسرع الركب.

والسرعة في السير والوصول إلى بني قريظة في وقت قصير مباغتة لهم لا تدع فرصة لهم لتدبر أمرهم، وقد حط المسلمون فجأة وحاصروهم.

وأقول أيضًا: إن المباغتة عند العسكريين لها صور كثيرة، فقد تكون في الوقت، إذ يباغت الجيش عدوه بهجوم في وقت لا يتوقعه، ولم يخطر بباله، ولم يستعد فيه، فتكون الضربة مذهلة، صاعقة مدمرة له، تفقده وعيه، ولا يقدر على لم شتات جنده ويتلافى الضربة.

وقد تكون المباغتة بحشد أعداد ضخمة لا يتوقع العدو أن تكون بهذه الأعداد الضخمة، وبالتالي لم يحسب لها حسابًا في خطته، ولم يحشد لها من جنده ما يكافئها، فتقع الهزيمة.

وقد تكون المباغتة بسلاح فعال يستخدمه في قتال عدوه، وعدوه لا علم له بذلك السلاح حتى يستخدم سلاحًا مضادًّا له، أو يتصرف تصرفًا، أو يضع خطة لإبطال مفعوله، ومن ثم تشل حركته، ويضطرب أمره.

وقد تكون المباغتة بمهاجمة الجيش لعدوه في جهة لا يتوقعها، ومكان لم يحصنه، ولم يحسب له حسابًا، وقد تكون المباغتة بوسيلة من وسائل الحرب كأسلوب القتال، فيفاجئه بأسلوب الصفوف، كما فعل ﷺ في بدر، وعدوه لم يألف هذا القتال، بل كان لا يعرف إلا القتال الفردي الكر والفر، وقد تكون المباغتة بأسلوب الدفاع إذ يقوم الجيش بوسيلة للدفاع لم يتوقعها العدو، ولم يضع في خطته حسابًا لها، كحفر الخندق في غزوة الأحزاب، إذ فوجئ الأحزاب على كثرتهم بالخندق يحول بينهم وبين التقدم نحو المدينة، فشدهوا وحاروا ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا سوى الرجوع مدحورين إلى ديارهم.

والذي يدرس غزوات رسول الله ﷺ وسراياه يجد أن رسول الله ﷺ قد استخدم جميع هذه الصور في المباغتة.

ففي غزوة بني قريظة قد فاجأ رسول الله ﷺ يهود بني قريظة بأمرين:

الأول: الحشد الهائل الذي لم يكن باستطاعتهم أن يقفوا في وجهه، أو أن يقاوموه، أو ينقبوا سور حصاره، إذ حشد رسول الله ﷺ ثلاثة آلاف مقاتل وستة وثلاثين فرسًا، وهم في عددهم بين ستمائة مقاتل وسبعمائة مقاتل، إذ كان جيش المسلمين أضعاف جيش بني قريظة تقريبًا، مع قوة في الروح المعنوية عند الجند المسلمين، وضعف في الروح المعنوية عند اليهود، وشجاعة رجال العقيدة وثباتهم مشهود.

الثاني: لقد فاجأهم رسول الله ﷺ في الوقت الذي دهمهم فيه، إذ لم يخطر ببالهم أن يكون بهذه السرعة، ربما توقعوا نتيجة غدرهم وخيانتهم ونقضهم للعهد مع المسلمين أن يعاقبهم المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ، إلا أنه لم يكن ليخطر ببالهم أن يتحرك المسلمون هذا التحرك السريع، ويضربوا الحصار حول بني قريظة؛ لأن الذي يخطر على بال بني قريظة أن المسلمين بعد حصار شهر تقريبًا في غزوة الأحزاب، قد

تعبوا، ومسهم البرد، وأضناهم السهر، فهم بحاجة ماسة إلى الراحة، وبحاجة شديدة إلى الدفء، وبحاجة إلى النوم وقد كلت أجسامهم من السهر، نعم إن المنطق يقول هذا، هم يحتاجون إلى فترة من الاستجمام لا تقل عن شهر، ومن ثم يتحركون إن أرادوا، أما أن يتحركوا مباشرة، ويحملوا نفس اللواء الذي عُقد في الأحزاب إلى بني قريظة دون مهلة فهذا لم يكن في حسبان يهود بني قريظة، ففوجئت هذه المفاجأة التي شلت كل قدرة لها، كل هذا بتوفيق من الله ﷻ، وهدايته وإرشاده، وعونه ومدده وتسديده، له الحمد في الأولى وفي الآخرة، وله الأمر من قبل ومن بعد». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٤٩-٥١**].

٤ ـ أهمية أن يتقدم القائد وأقرباؤه الصفوف:

يقول د/ أبو فارس: «في اختيار رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليحمل الراية في هذه الغزوة دلالة على أنه: ليس للقائد أن يضن بنفسه أو بأقربائه عن مواطن الخطر، بل عليه أن يتقدم هو ويقدم أقرباءه إلى أخطر المهمات في أحلك الظروف، عليه أن يكون قدوة للناس بنفسه، عليه أن يكون قدوة للناس بأقاربه، فقبل أن يُعرضهم ويُعرض أقاربهم للفناء ينبغي أن يتعرض هو وأقاربه أولًا، حينئذ فقط يسير الناس وراءه، ويفدونه بأرواحهم وأموالهم، ويستهينون بكل ما يبذلونه.

إن الناس حين يرون قادتهم ينهزمون فلا لوم عليهم ولا عتب إذا فروا من وجه عدو، وإن الناس إذا رأوا أمراءهم قد انهاروا من أول صدمة وفي أول الطريق، فلا عليهم إذا لم يكملوا المشوار، إن الجنود إذا رأوا ضباطهم يعيشون في القصور الشاهقة والسيارات الفارهة، والرياش الفاخر، وهم محرومون من أسباب الحياة الحرة الكريمة، وإذا ما حزب الأمر، وادلهمت الخطوب، وخشي الضابط أن يفارق قصره وزوجه وسيارته وأن يغبر زيه العسكري فلا لوم على الجنود المسحوقين إن هم ولوا هاربين».

[**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٥٢-٥٣**].

٥ ـ حرص الجندي على قائده:

يقول د/ أبو فارس: «لقد حرص علي بن أبي طالب رضي الله عنه ألا يُسمع رسول الله ﷺ لفظة من يهود بني قريظة تؤذيه، وهذا الحرص يدل على حب عميق، وثقة أكيدة من الجندي بقائده.

ونأخذ من هذا أن الأمة يجب أن تحفظ لقادتها المخلصين، ولزعمائها المصلحين، ولعلمائها الناصحين مكانتهم، وأن تدافع عنهم، وترد عنهم كيد الكائدين، ودسائس الدساسين، وافتراءات المفترين.

وينبغي أيضًا ألا تسمح لنفسها إيذاء أبطالها، وتجريحهم وهدم ما بنوا، بأن تكون يومًا لأعداء هذا الدين، من المستشرقين الطاعنين بهذا الدين ورجاله وقادته ومفكريه». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٥٥**].

٦ ـ سرعة الاستعداد القتالي والجاهزية العالية للقوات:

يقول عميد/ كاخيا: «وتجلى ذلك بتنفيذ أوامر النبي ﷺ بالاستنفار الفوري والتوجه السريع إلى قتال اليهود في عقر دارهم «حصون بني قريظة» حتى إن بعض الصحابة لم يصلِّ العصر إلا متأخرًا بعد وصوله

إلى ساحة المعركة، واعتبر أمر النبي ﷺ واجب التنفيذ، فاستغرق وصول ثلاثة آلاف مقاتل بضع ساعات فقط». [الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٨٣-٨٤].

٧ ـ وجود الشؤون الإدارية في الميدان (١):

يقول ل/ خطاب: «الغنائم: قُسِّمت غنائم بني قريظة على المسلمين: سهم للراجل وثلاثة أسهم للفارس منها سهمان للفرس؛ وذلك تشجيعًا للإكثار من الخيل لفائدتها الكبيرة في القتال، وبقي الخمس للرسول ﷺ لتوزيعه على المحتاجين، ولتأمين إعاشة وركوب وسلاح المجاهدين الذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم في الجهاد.

لقد تحسَّنت الحالة الاقتصادية للمسلمين بهذه الغنيمة، فاستطاعوا الاستغناء عن بعضها لشراء الخيل والأسلحة من نجد استعدادًا للعمليات الحربية المقبلة.

الماء: عندما وصل المسلمون إلى حصون بني قريظة، سيطروا على بئر تعود لبني قريظة بسرعة خاطفة للاستفادة من مائها في أيام الحصار.

ولولا سرعة المسلمين في الاستيلاء على هذه البئر، لكان من المؤكد أن تقوم قريظة بتغويرها حتى تحرم المسلمين من مياهها الضرورية لهم للصبر على القتال». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٦٣].

ويقول د/ الفنيسان: «يُقصد بالشؤون الإدارية «إمداد الجيش بما يحتاجه من طعام وشراب وسلاح»، وقد كان تسليح وإعاشة المسلمين قبل بني قريظة ضعيفًا جدًّا، تمر بهم الليالي ذوات العدد ما ذاقوا طعامًا أو شرابًا، وكان تسليحهم أقل من اليهود، فلما فتحوا حصون بني قريظة، تحسنت حالهم من غنائمهم واستغنوا عن بعضها وباعوها وشروا بثمنها سلاحًا وخيلًا». [غزوة الأحزاب للفنيسان ٢٤١].

٨ ـ إفقاد العدو وسيلة الإمداد:

يقول د/ أبو فارس: «إن إحكام الحصار حول بني قريظة بهذه السرعة الفائقة أفقد بني قريظة أي وسيلة للإمداد، سواء كان إمدادًا عسكريًّا، أو إمدادًا ماديًّا، أو إمدادًا معنويًّا، إذ قطع الصلة بينهم وبين العالم الخارجي، ولم يبق لهم من مقومات القتال والثبات ما يجعلهم يصمدون في وجه الجيش الإسلامي».
[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٥٢].

٩ ـ أهمية الكفاءة القتالية وقوة معنويات الجيش:

يقول عميد/ كاخيا: «بالمصابرة والمرابطة حول حصن الأعداء من بني قريظة ما ينوف عن خمس وعشرين ليلة، رغم أنهم رجعوا لتوهم من قتال الأحزاب في موقعة الخندق التي استمر شهرًا طويلًا

---

(١) مبدأ من مبادئ الحرب الحديثة تختص بإمداد وإعانة القوات العسكرية ـ في الميدان ـ بجمع احتياجاتها الضرورية كالذخيرة والماء والطعام ووسائل النقل....

أيضًا، وبرزت القوة المعنوية لجيش الرسول ﷺ في موقف علي بن أبي طالب والزبير بن العوام، وأبي لبابة، وسعد بن معاذ رضي الله عنهم». [الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٨٤].

١٠ ـ كيفية القتال في المناطق المبنية وضد الحصون المنيعة:

يقول عميد/ كاخيا: «صادف الرسول ﷺ في معركة غزوة بني قريظة ظروفًا قتالية خاصة تختلف عن ظروف القتال في الشروط العامة، وهي القتال ضد الحصون والمناطق المبنية والأبراج والمناطق المزروعة، وهذا يفرض على القوات التي تصادف مثل هذه الشروط: أساليب قتالية معينة، وتدابير وإجراءات خاصة؛ لذا يمكن القول إن جيش الإسلام استفاد من القتال في معركة بني قريظة، وتعرَّف على أساليب قتال اليهود؛ مما أهَّله للقتال ضد حصون خيبر الحصينة فيما بعد، واكتسب من ذلك خبرة قتالية لا بأس بها». [الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب لكاخيا ٨٤].

١١ ـ الانضباط في الاستئذان من القيادة:

يقول د/ أبو فارس: «إن الجندي ينبغي ألا يتصرف أي تصرف من التصرفات التي لها علاقة بالجماعة، وبالصف المؤمن إلا بعد أن يستأذن من المسؤول أو القائد، لعله يسترشد بتوجيهاته، وعليه أن يعود إليه بعد ذلك بل ويطلبه، إن رسول الله ﷺ حين أذن لأبي لبابة رضي الله عنه وأرسله إلى يهود بني قريظة كان ينتظر عودته، حتى يسمع ما جرى بينه وبين يهود بني قريظة، ثم يتصرف بعد ذلك، وقد علمت أن رسول الله ﷺ قد استبطأ أبا لبابة رضي الله عنه، إذ تأخر في العودة إليه حتى يسمع منه، لكنه ذهب إلى المسجد النبوي ليكفِّر عما ارتكبه من خيانة». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٧١-٧٢].

١٢ ـ القوة طريق لإرهاب العدو واستسلامه:

يقول د/ أبو فارس: «إن طريق القوة والإعداد لتملك وسائل التأثير على العدو أمر من الواجبات الشرعية، التي خاطب الله بها عباده المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[الأنفال: ٦٠].

إن قوة المسلمين في غزوة بني قريظة العددية والمعنوية كانت لها أثر قوي على بني قريظة، إذ استسلموا لإرادة الرسول ﷺ، وسارعوا إلى طلب سعد بن معاذ رضي الله عنه ليحكم بينهم».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٩٩].

١٣ ـ أهمية الجدية والحزم لدى الجنود:

«إن جدية المسلمين وحزمهم هو الذي جعل يهود بني قريظة يرجون رسول الله ﷺ أن يحكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحينما صدر الأمر العسكري باقتحام الحصون، واستعد الجميع لذلك، خاف بنو قريظة، واستسلموا». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٩٩].

١٤ ـ الاهتمام بوجهات نظر الجنود:

يقول عميد/ فرج: «فإن رسول الله ﷺ قد أُمر أن يتحرك فور وصوله إلى بيته إلى بني قريظة، وهو قد أدرك موقفهم منه ومن المسلمين بالخندق، وأحس بما عاناه المسلمون من جهد وضغط وبلاء نتيجة موقفهم الذي فاق الحد، حين هاجموا بيته ﷺ وهو مشغول مع عدوه، وكان لابد أن يتخذ رسول الله ﷺ معهم ـ وقد استسلموا ـ أمرًا يرقى إلى مستوى خيانتهم ويتناسب مع جرمهم، ولكنه ﷺ لم يشأ في موقف كهذا، أن يتخذ قراره بنفسه، وهذه كانت طبيعته في كل المواقف التي كانت تتصل بجماعته، وخاصة أنه رأى للأوس رأيًا، وكان ﷺ يهتم بوجهات نظر أصحابه ويقدرها ويضعها موضعها؛ ولهذا رأى أن يترك الأمر لواحد من الأوس يقول الحكم بوحي من ضميره وقلبه وعقله، وهذه سنة حميدة لرسول الله ﷺ أكسبته كقائد عسكري محبة رجاله وثقة أصحابه وتعاطفهم معه تعاطفًا كان خيرًا للإسلام وبركة».

[العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٠٢].

١٥ـ من آداب الحرب في الإسلام:

يقول د/ أبو فارس: «من الآداب التي ينبغي أن تُراعى في الحرب بين المسلمين وغيرهم ألا يُقتل غير المقاتل من النساء والشيوخ والأطفال وغير ذلك، هذا هو أدب الحرب في الإسلام، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ والمسلمون، إذ لم يقتل من نساء بني قريظة ألا امرأة واحدة؛ لأنها شاركت في القتال، وقتلت أحد الصحابة وهو خلاد بن سويد رضي الله عنه.

ولقد كان رسول الله ﷺ يوصي الجيش المسلم أن يتجنب قتل النساء والشيوخ والأطفال، ورأى رسول الله ﷺ امرأة مقتولة، فأنكر قتلها، عَنْ رَبَاحِ بْنِ رَبِيعٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ، فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَيْءٍ، فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ: «**انْظُرْ عَلَامَ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ؟**»، فَجَاءَ فَقَالَ: عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ، فَقَالَ: «**مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ**»، قَالَ: وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَبَعَثَ رَجُلًا فَقَالَ: «**قُلْ لِخَالِدٍ لَا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلَا عَسِيفًا**».

[أبو داود في الجهاد (٢٦٦٩)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٢)، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح، ومسند أحمد ٢٥/ ٣٧٠-٣٧١ رقم ١٥٩٩٢، ٢٩/ ١٥١ رقم ١٧٦١٠، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح لغيره وهذا إسناد حسن].

وكان الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم بعد رسول الله ﷺ يودعون الجيوش ويوصونها بألا تَقتلَ امرأةً ولا طفلًا ولا شيخًا هرمًا، وألا تَقطع شجرة لغير ضرورة حربية.

هذا أدب من آداب الحرب في الإسلام، فماذا تجد في جاهلية القرن العشرين وحروبها، يكفي أن نعلم أن أمريكا زعيمة الحضارة وأعظم دولة في العالم، تشن حملات الإبادة ضد الشعوب، فهي قد أفنت وأهلكت الهنود الحمر سكان البلاد الأصليين، وألقت القنبلة الذرية في ناجازاكي، فقتلت عشرات الألوف من الأطفال والنساء والشيوخ، وشوهت عشرات الألوف كذلك».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٠٤-١٠٥].

١٦ ـ دحض دعوى الحرب الدفاعية:

ويقول د/ البوطي: «إن قصة سعد ﷺ هذه بملابساتها التي ذكرناها، تذكرك بما كنا قد قررناه سابقًا من أن الحرب الدفاعية في الإسلام ما كانت إلا مرحلة من مراحل الدعوة التي سار فيها رسول الله ﷺ، وقد جاءت من بعدها مرحلة دعوة الناس كلهم إلى الإسلام بحيث لا يقبل من الملاحدة والمشركين إلا الإسلام، ولا يُقبل من أهل الكتاب إلا الدخول فيه والخضوع تحت حكمه العام، مع قتال كل من وقف دون هذه السبيل، ما دام ذلك ممكنًا، وبعد استنفاد وسائل الدعوة السلمية المعروفة.

وليس بعد تكامل الحكم الإسلامي فيما يتعلق بالجهاد والدعوة، أي معنى لما يسمى بالحرب الدفاعية التي شاعت أخيرًا على ألسنة بعض الباحثين وإلا فما معنى قوله ﷺ: «**وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَغْزُونَهُمْ**».

[فقه السيرة للبوطي ٢٤١].

١٧ ـ للإعلام أثر في المعركة:

يقول د/ أبو فارس: «إن للإعلام الناجح أثرًا على الروح المعنوية لدى العدو إذا ما وُجِّه توجيهًا سديدًا، واستلمه إنسان كفء يعرف كيف يشن الحرب النفسية على عدوه، فيذكِّره بضعفه وبقلة أنصاره، وبمآله المحتوم ومصيره الذي ينتظره جزاءً وفاقًا لما اقترفت يداه.

والذي يدرس شعر حسان بن ثابت ﷺ، فقد قام بدور قوي في تحطيم معنويات بني قريظة، كيف لا، ورسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت ﷺ يوم قريظة: «**اهْجُ الـمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ**» **[البخاري في المغازي (٤١٢٤)]**». **[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٦١]**.

١٨ ـ ملاحظات على العرض التاريخي للغزوة:

يقول د/ المجدوب: «وهنا تعنُّ لنا ملاحظة على ما ورد بكتب التاريخ الإسلامي من أوصاف بشأن الغزوات والمعارك التي خاض المسلمون غمارها، فهم يُظهرون الأمر كما لو كان هجمة عشوائية شبيهة بالتظاهرات التي يقوم فيها الغوغاء بإلقاء الحجارة على الشرطة، في عملية كر وفر غير منظمة، بل تغلب عليها الفوضى والارتجال، وتسودها الفردية التي لا تخضع لأي ضوابط، ولا تلتزم بأي خطة.

وهو ما نلاحظه في وصفهم لغزوة بني قريظة التي قالوا بشأنها: إن الرسول ﷺ تلقى الأمر من السماء بواسطة جبريل ﷺ بعد عودته من غزوة الخندق مباشرة، بالهجوم على بني قريظة إلى آخر ما ذكرناه في هذا الشأن.

ويقولون: فانطلقوا، أي المسلمون، إلى أن بلغوا حي بني قريظة فضربوا عليه الحصار، وبطبيعة الحال فإن الصورة التي ستتبادر إلى أذهاننا هي انطلاق جمع غفير من المسلمين يتراوح ما بين سبعمائة وثلاثة آلاف مقاتل، وهم الذين قيل إنهم كانوا يواجهون الأحزاب عند الخندق ـ إلى حيث يقيم بنو قريظة، ولا

ندري كيف كان سيرهم، أو ما سموه انطلاقهم؟ أكان مشيًا عاديًّا متهاديًا، أم كان هرولة؟ أم كان جريًا؟ دون أن يحسبوا حسابًا لجيش بني قريظة المكون من ثمانمائة مقاتل أشداء، أخذوا الأهبة ـ ولا شك ـ بعد انسحاب الأحزاب وتوقعهم أن يتحول المسلمون إليهم لينزلوا بهم العقاب الرادع ـ أن يشن عليهم هجومًا ما مباغتًا قبل وصولهم إلى حصون بني قريظة، أو أن يكلف بعضًا منهم مناوشة المسلمين في سيرهم أو جريهم والانقضاض على أطرافهم! في حين أنهم يسيرون بدون نظام أو ترتيب.

ولست أخفي ما شعرت به دائمًا، وأنا أقرأ ما ورد في الكتب العربية بشأن الغزوات من دهشة شديدة للسهولة غير العادية التي اتسم بها إحراز المسلمين للنصر في معارك تغلب عليها السذاجة والارتجال، ويغيب عنها التنظيم وتفتقر إلى الإعداد المسبق والتخطيط وكأنها مشاجرة في حارة، أو خناقة في مباراة من مباريات كرة القدم، هذا في الوقت الذي يولي فيه هذا المؤرخ أو ذاك أمورًا أخرى قليلة القيمة أو عديمة الأهمية اهتمامًا شديدًا.

كذلك فقد نسي المؤرخون، في حديثهم عن انطلاق المسلمين إلى بني قريظة، المدينة ومن بها، حيث يقيم عدد كبير من المنافقين والذين في قلوبهم مرض ممن لا يؤمن جانبهم، وهم الذين ذمهم الله تعالى في سورة الأحزاب لما بدر منهم في غزوة الخندق التي لم يكن غبارها قد هدأ بعد، ولا قالوا لنا ماذا فعل الرسول ﷺ عندما مضى لغزو بني قريظة؟ وهل صحبوه أو رفضهم واستبعدهم؟ وهل حسب حسابًا لما يمكن أن يفعله ضعاف النفوس والمنافقون أثناء غيابه؟ بل هل فكر أصلًا في المدة التي سيغيبها عن المدينة في هذه الغزوة؟ وسوف نرى كيف أن كثيرين من الأوس ـ فضلا عن أتباع ابن سلول ـ كانوا يعطفون على بني قريظة، ولا يرغبون في توقيع العقاب العادل عليهم، فهل كان الرسول ﷺ مدركًا لذلك؟ وماذا فعل وكيف تصرف قبل أن يترك المدينة إلى حصون بني قريظة؟

هذا ما سكت عنه المؤرخون واكتفوا بالإفاضة في الحديث عن أمور ثانوية لا تقارن بما ذكرناه.

والواقع أن التاريخ الإسلامي بحاجة إلى أن تُعاد كتابته، وفقًا للأصول العلمية الحديثة، بحيث نتجنب الحشو والمبالغة في الاهتمام بالموضوعات الثانوية والبعد عن الإفاضة فيما لا يُعد من التاريخ مثل جواز أداء البعض لصلاة العصر قبل بلوغ بني قريظة، فهذا من الأمور التي لا تدخل في مفهوم التاريخ، وبالتالي تستبعد منه وتوضع في مكانها من العلوم الأخرى، ومثلها كثير تم حشره في كتب التاريخ حتى تضخمت بلا داع، في حين أُهملت أمور على جانب كبير من الأهمية مثل الغزوات والمعارك، على الرغم من أن ما جرى فيها يُعد من الدروس الهامة التي يجب على المسلم أن يعيها جيدًا، هذا فضلًا عن أن إبرازها في صورة صحيحة ودقيقة يجعل المسلم لا يستهين بما واجهه السلف العظام من صعوبات وما تحملوه من آلام ومعاناة من أجل أن يحافظوا على الدعوة سليمة قوية فاعلة.

وقد يقول البعض ممن لا تهمهم مثل هذه الأمور ولا يكفون عن ترديد العبارات التي تحمل معنى التواكل وعدم بذل الجهد والعناية اعتمادًا على الله كما يقولون، قد يقول هذا البعض: إن المسلمين اندفعوا في غمرة الحماسة إلى تلبية دعوة الرسول ﷺ لهم بالانطلاق إلى بني قريظة لإيمانهم بأن هذا هو ما أراده الله، وبالتالي فإنه ﷻ سيحميهم من أي أضرار قد تصيبهم لأي سبب كان، كأن يكون اليهود قد نصبوا لهم كمينًا أو كمائن هنا أو هناك أو قيامهم بشن هجوم مفاجئ على جموع المسلمين قبل أن يصلوا إلى حيهم.

ولكن أصحاب هذا القول يفوتهم أمر على جانب كبير من الأهمية، وهو أن الله تعالى الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، أمره وأمر المسلمين أن يأخذوا بالأسباب، وألا يتواكلوا فقال لهم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولقد رأينا كيف أنهم لما أهملوا في أُحُد، وتخلت كتيبة الرماة عن موقعها طمعًا في الأسلاب، مُخالِفة بذلك الأمر الذي أصدره الرسول ﷺ إليها بعدم ترك موقعها مهما كانت الأسباب، حتى وإن رأتهم يُهزمون ـ حلت الهزيمة بالمسلمين، وأي هزيمة؟ وما كان الله لينصرهم وقد أهملوا واستخفوا وخالفوا، وما ذلك إلا لأن الله يريد للمسلمين أن يكونوا أقوياء، أذكياء، يتميزون بالحصافة وبُعد النظر، وبالوعي والفطنة وحسن التصرف، والمهارة لا أن يتخذوا من الإسلام مطية لبلوغ أهدافهم أو حِصنًا يرد عنهم شر أعدائهم دون أن يبذلوا جهدًا أو يتحملوا عناء، أو يُعدوا أنفسهم لمواجهة أعدائهم مفضلين الترف والحياة اللينة على الكد والعرق والتضحية من أجل حياة كريمة آمنة حرة، يملكون فيها زمام أمورهم، ولا يخافون من شرذمة حقيرة كاليهود أن ينقضوا عليهم، ولا يخضعون لمن يناصبون دينهم العداء ويُكِنُّون لرسولهم ﷺ الكراهية والبغضاء.

ومما وجدناه متناثرًا في بعض الكتب تبين لنا أن الأمر لم يكن كما يصوره المؤرخون هجمة عشوائية، أو مظاهرة فوضوية تنتهي بإحراز المسلمين للنصر على أعدائهم، وإنما تنظيم متقن وتخطيط محكم وإعداد مسبق يأخذ فيه الرسول ﷺ بعين الاعتبار كافة الاحتمالات، ولا يترك شيئًا للصدفة، فقد كان له عيونه، وهم رجال أمناء محل ثقة ينقلون إليه ما يريد أن يعرفه عن أعدائه.. وكان منهم المقيمون وسط الأعداء بصفة دائمة والذين يقومون بمهمة واحدة، كما كان لديه فريق للاستطلاع مهمته الاقتراب، وإن أمكن التسلل إلى صفوف الأعداء لمعرفة عددهم وعدتهم وما اتخذوه من تدابير.

كذلك كان الرسول ﷺ يوزع المهام على أصحابه، ولا يترك الأمر فوضى: فهناك المسؤول عن السلاح، والمسؤول عن الخيل، والمسؤول عن الإمدادات، كما كان له حرسه، ولم يكن الجيش ـ كما يصوره

المؤرخون ـ مجموعة من الناس تنطلق كيفما كان، وإنما كان يسوده النظام والانضباط ويأخذ بالتخصص: فهناك المشاة والرماة والفرسان، ولكل دوره المحدد، والجيش نفسه يتكون من ميمنة، وميسرة، ومقدمة، وساقة، فضلًا عن القلب، وهي خمسة أقسام؛ لذلك سمي خميسًا، وكانت هناك فِرَق للاقتحام، وأخرى للهجوم الرئيس، وثالثة للتحرك في أعقاب المهاجمين مهمتها تطهير الميدان من فلول الأعداء، هذا بالإضافة إلى حامل الراية والأمير، ومن يخلف الأمير إذا هلك هذا، وغير هذا كثير مما لم يحظ بعناية المؤرخين.

وعلى هذه الصورة وبهذا الترتيب المحكم جرى ضرب الحصار على حي بني قريظة الحصين، فأحاط المسلمون بحصونهم لا يسمحون لأحد بالدخول أو بالخروج.

والمثير للدهشة ذلك الإصرار من جانب المؤرخين على القول إن المسلمين ضربوا الحصار على حصن بني قريظة، مما يجعل القارئ يفهم أنه لم يكن هناك غير حصن واحد ركز عليه المسلمون كل جهدهم حتى نجحوا في الاستيلاء عليه أو أرغموا من كانوا به على الاستسلام.. وهذا خطأ بلا شك، إذ أن هناك فَرْقًا كبيرًا بين أن يُوجَّه الهجوم ويُضرب الحصار على حصن واحد أو على عدد كبير من الحصون.

وهو الفرق الذي ينعكس على الخطة الموضوعة للهجوم وتوزيع المهاجمين وتشكيل القوة المهاجمة واتخاذ الاحتياطات اللازمة إزاء ما يمكن أن يحدث من تعاون أو اتصال بين الحصون بعضها وبعض أو بينها وبين أعوان اليهود من المنافقين، ثم هناك الجهد المطلوب بذله، والوقت الذي يستغرقه الحصار، إلى غير ذلك من الأمور الهامة.

ويقول ابن كثير: كانت بنو قريظة ـ وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقي المدينة ـ وهم قريب من ثمانمائة مقاتل!

فأي حصن هذا الذي يتسع لهذا العدد من المقاتلين؟ وهو قول يخالف ما جاء في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٢٦] يعني حصونهم، ومنه سميت صياصي البقر، وهي قرونها؛ لأنها أعلى شيء فيها، فهي إذن حصون عالية قوية جيدة التسليح.

ويقول توماس أرنولد: إن المدينة كانت في زمن النبي محمد ﷺ تضم عددًا عظيمًا من اليهود يقيمون في قلاع حصينة.

وإذا كان عدد المقاتلين اليهود ثمانمائة مقاتل، فمعنى ذلك أن هذه القبيلة كانت مكونة من حوالي ثلاثة آلاف ما بين رجال ونساء وأطفال لا يتصور أن يقيموا جميعًا في حصن واحد، خاصة أن الحصون في ذلك الوقت ـ وفي الحجاز على سبيل التحديد ـ لم تكن كبيرة بحيث تتسع لإقامة عدد كبير من الناس لمدة طويلة يمارسون حياتهم العادية من نوم وطعام وشراب وقضاء حاجة وغير ذلك، كما حدث حين حاصر المسلمون يهود بني قريظة لمدة خمسة وعشرين يومًا، وهو ما تذكره الروايات المختلفة.

لذلك نرجح أن يكون عدد حصونهم عشرين حصنًا، وهذا التقدير لم يقم على أساس ما يمكن أن يتسع له الحصن من أفراد، فهذه الحصون لم تكن مباني عامة أنشئت بغرض حماية كل السكان من اليهود، وإنما كانت مساكن لأصحابها من ذوي الجاه والثراء تأخذ شكل الحصن لكي يحتموا بها ومعهم أموالهم وثرواتهم، أما بقية اليهود ممن ليسوا على ثراء أو لا يملكون ما يخشون عليه فقد كانوا يقيمون في بيوت بنيت من مواد محلية كاللبن وسعف النخل وسوقه، ومن مواد أخرى كالخشب يستخدمونه للنوافذ والأبواب، وهو من النوع الصلب الثقيل، وغالبًا ما كانت الحصون تقام بطريقة تُمكِّن المقيمين فيها من توفير الحماية لسكان البيوت الذين كانوا يتركون بيوتهم ليختبؤوا في هذه الحصون إلى أن يزول الخطر.

ولا يذكر لنا المؤرخون المسلمون شيئًا مما حدث بعد أن ضرب الرسول ﷺ الحصار على آخر مستوطنة يهودية بالمدينة، ولا ما جرى من الثمانمائة مقاتل يهودي، وإنما اكتفوا بالقول: إن الحصار استمر خمسة وعشرين يومًا في قول، وشهرًا كاملًا في قول، وكأن الفرق بين القولين ـ وهو خمسة أيام من المعاناة والقلق ـ ليس بذي شأن، وكأن الفريقين ظلا ساكنين ينظر أحدهما إلى الآخر: المسلمون حيث يقفون حول الحصون، واليهود من فوق الأسوار ومن خلال نوافذ حصونهم، إلى أن اعتراهم الملل، ونال منهم الخوف والفزع، فطلبوا من الرسول ﷺ أن يبعث إليهم بواحد من المسلمين هو أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري رضي الله عنه، من الأوس، لكي يستشيروه، فأرسله، فلما رأوه قام إليه الرجال، وبكى النساء والصبيان، فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح.

وليس من شك في أن الأمر كان على خلاف ذلك، فقد حاول اليهود أن يردوا المسلمين عن حيهم ويفكوا حصارهم لحصونهم، ولا شك أيضًا في أن يهود بني النضير حاولوا أن يقدموا لهم المساعدة، فقد كان زعيمهم حيي بن أخطب محاصرًا هو الآخر منذ انسحاب الأحزاب، بل ولا نستبعد أن يكون بعض المنافقين والسذج، أو من كانوا يحسنون الظن باليهود من الأوس حلفاء بني قريظة، ومن الخزرج أنصار عبد الله بن أبي قد رقوا لحالهم وحاولوا أن يفعلوا شيئًا لأجلهم، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل أمام إصرار المسلمين على هزيمة بني قريظة وإنزال العقاب الرادع بهم جزاء خيانتهم وغدرهم.

ومما يدل على وجود ميل لدى بعض الأوس نحو بني قريظة، ما فعله الرسول الله ﷺ من ترك الحكم على بني قريظة لزعيم الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقد أحاط الأوس بالرسول ﷺ يقولون له: افعل في موالينا مثلما فعلت في موالي الخزرج، يعني بني قينقاع وبني النضير، فقال لهم: ألا ترضون أن يحكم فيهم سعد بن معاذ؟ قالوا: بلى.

وهنا يثور تساؤل بشأن السبب أو الأسباب التي جعلت الأوس يطلبون من الرسول ﷺ أن يعامل بني قريظة كما عامل بني قينقاع، على الرغم من الفارق الكبير بين ما فعله هؤلاء وما فعله أولئك: فبنو

قينقاع دبروا مؤامرة لإثارة الفتنة بين العرب، وذلك عندما كشف أحدهم عن عورة المرأة المسلمة، في حين أن بني قريظة فعلوا ما هو أخطر من ذلك، حيث نقضوا العهد مع الرسول ﷺ، وتحالفوا مع المشركين في أخطر غزوة وهي غزوة الأحزاب، فأصبحوا مصدر تهديد حقيقي وهم في مواقعهم فوق المسلمين، فلو أن الحرب وقعت واشتركوا فيها فعلًا لتمكنوا هم والمشركون من سحق المسلمين وقتل الرسول ﷺ.

فهل كان إلحاح الأوس في المطالبة بمعاملة بني قريظة مثل معاملة بني قينقاع وبني النضير سببه ألا يكون وضعهم عند الرسول ﷺ أدنى من وضع الخزرج، وهو أمر يعتبرونه ماسًا بكرامتهم وشرفهم، بغض النظر عن التفاوت في الذنب، خاصة أنه قد جاء في تفسير القرطبي أنهم قالوا: يا رسول الله، وقد علمت أنهم حلفاؤنا، وقد أسعفت عبد الله بن أبي بن سلول في بني النضير حلفاء الخزرج، فلا يكن حظنا أوكس وأنقص عندك من حظ غيرنا، فهم موالينا ـ أو أن مطالبتهم بأن ينال بنو قريظة نفس المعاملة التي نالها بنو قينقاع يرجع إلى العاطفة والوفاء، حيث سبق لبني قريظة أن أوهموهم بأنهم يناصرونهم ضد الخزرج، إيمانًا منهم بقضيتهم، وليس بدافع الرغبة في تأجيج الخلافات بينهم.

وهكذا نلاحظ أن البعض ممن أسلموا كانوا لا يزالون يولون الأمور ذات الطبيعة العصبية، اهتمامًا يفوق اهتمامهم بالمصالح العليا لجماعة المسلمين، ومع ذلك فإن الرسول الكريم ﷺ كان يعاملهم برفق، ولا يحاول أن يصدم مشاعرهم، أو أنه كان يجد أن مستواهم الفكري البسيط لا يحتمل أن يدخل معهم في حوار ليبين لهم الفرق بين ما يريدونه استنادًا إلى النعرة القبلية، وما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين.

وهكذا كانت معارك الرسول ﷺ ليست مع أعداء الإسلام من مشركين ويهود فقط، بل ومع بعض المسلمين الذين لم يرتقوا بفكرهم إلى مستوى الأحداث.

ولم يكتف الأوس بأن عهد الرسول ﷺ إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه بالحكم على اليهود، بل ترقبوا وصول سعد رضي الله عنه من المدينة إلى حيث يقع حي بني قريظة على أميال منها، ولاذوا به يقولون له: يا سعد، إنهم مواليك، فأحسن فيهم، ويرققونه عليهم ويعطفونه.

أما اليهود فقد قالوا لسعد يومئذ: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك، وأهل النكاية (يقال: نكيت في العدو نكاية: إذا أكثرت فيهم الجراح والقتل. يصفهم بالبأس والشدة)، ومَنْ قد علمت.

ولكن كل هذه التوسلات لم تجد، فإن سعدًا رضي الله عنه نحى مشاعره جانبًا، ولم يفعل كما فعل عامة الأوس، فنظر فقط إلى ما فعلوه وما كان سيترتب عليه من كل نتائج وآثار بالغة الخطورة، خاصة أنه هو نفسه قد حذرهم من مغبة أعمالهم، فشتموه وأساؤوا إلى الرسول ﷺ، فكان أن حكم أن تقتل المقاتلة، وتسبى الذرية والنساء، وتقسم الأموال، فضربت أعناقهم وكانوا ستمائة أو سبعمائة، وقيل: ما بين سبعمائة وثمانمائة، وفيهم حيي بن أخطب سيد بني النضير، وكعب بن أسد سيد بني قريظة.

ولقد كشف حيي بن أخطب في الكلمة التي قالها قبل أن يقتل ما يثبت أن العفو عنه وعن بقية اليهود ما كان ليؤدي إلى عدولهم عن موقفهم من الإسلام ومن المسلمين، وإنما كانوا سينسحبون من المدينة ليعيدوا تنظيم صفوفهم ويدبروا لغزوة أشد خطورة وأكثر إحكامًا من غزوة الخندق التي فشلت، فقد قال يوجه كلامه للرسول ﷺ: **وَاللهِ مَا لُمْتُ نَفْسِي فِي عَدَاوَتِكَ.**

وهكذا حاقت الهزيمة بثالث كبريات القبائل اليهودية في المدينة بني قريظة، ونزل فيهم قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب].

وقال بعض المفسرين: إن ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ هي «خيبر» والتي كانت أكبر مستوطنة يهودية في الحجاز لا يقيم بها غير اليهود، وعلى الرغم من أن غزوها وقهر من كانوا بها يلي في الترتيب، فإننا سنؤجل الحديث عنها إلى الفصل الثالث والأخير، نظرًا لارتباط فتحها بموضوع هام جدًّا هو زواج الرسول ﷺ بالسيدة صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها، وما قيل فيه، أي في هذا الزواج من آراء بعيدة كل البعد عن الصحة، وسنستمر مع بقية المستوطنات اليهودية الأخرى التي أخضعها المسلمون وقضوا على سيادة اليهود عليها.

لا شك أن أخبار الغزوات التي غزاها الرسول ﷺ لليهود، بالطريقة التي وردت بها في كتب السيرة، والتاريخ الإسلامي ـ تطمس الرابطة التي تربط هذه الغزوات بعضها ببعض، كما أنها تطمس الباعث الحقيقي عليها، والهدف الحقيقي الذي استهدفته، فتظهرها كما لو كانت أعمالًا عسكرية متفرقة جرت بطريقة عشوائية، أو كيفما اتفق، وهذا غير صحيح على الإطلاق.

ذلك لأن المعركة مع اليهود لم تكن تقل أهمية عن المعركة مع قريش والمشركين عمومًا، بل ربما تفوقها لأسباب عديدة: منها: أن المشركين كانوا عربًا، أصحاب البلاد، على خلاف اليهود الذين رأينا كيف غزوا الجزيرة العربية واستوطنوا الكثير من مناطقها الهامة، وأقاموا فيها دويلات تملك الثروة والقوة والسلطان.

كذلك، فإن ترك العرب الشرك واعتناقهم الإسلام، إذا حدث، مع بقاء اليهود الدخلاء، وهم أصحاب دين يقوم على التوحيد أيضًا، ولو في صورة مشوهة بعد أن عبث اليهود بالتوراة ـ كان سيؤدي إلى صراع بين الدينين لا يعلم مداه إلا الله، ومن يقرأ تاريخ الدعوة الإسلامية فسيرى كيف أن اليهود لم يكفوا عن مناوأة الرسول ﷺ وتكذيبه وإشاعة الشكوك والريب حول دعوته.

ليس ذلك وحسب، بل إن كثيرين منهم ممن اعتنقوا الإسلام كانوا لا يتورعون عن التشكيك في نبوة الرسول ﷺ، وبالذات أثناء غزوة تبوك.

ومن الأسباب أيضًا، أن بقاء اليهود بين ظَهْرَانَي العرب كان من شأنه أن يتيح لهم الفرصة لممارسة سياستهم الهادفة إلى تأليب العرب بعضهم على بعض ببعث الخلافات القديمة من مرقدها، وخلق الصراعات بين القبائل العربية، وهو ما كان رسول الله ﷺ حريصًا أشد الحرص على منعه بكل السبل، حتى لا تتبدد قوى المسلمين ويستمروا ـ كما كانوا ـ ضعافًا مقهورين يستذلهم اليهود والفرس والروم.

وحيث إن اليهود قد رفضوا منذ البداية التصديق بنبوة الرسول ﷺ، وناصبوا الإسلام العداء، وخالفوا عقد الموادعة، فإن طردهم من الجزيرة العربية أصبح أمرًا لا مفر منه، منعًا لشرورهم وتلافيًا لخطرهم.

ولكن كيف يتم ذلك؟ هذا هو ما كان الرسول ﷺ يفكر فيه، مع أخذه بعين الاعتبار قوتهم التي كان يُقال عنها الكثير، ولكنها ليست معروفة على وجه التحديد، وهو ما كانوا يحرصون عليه أشد الحرص، كما هو دأبهم الآن؛ لما لذلك من دور في إخافة أعدائهم وجعلهم يترددون في الهجوم عليهم.

وكذلك خطتهم في إقامة المستوطنات، التي روعي فيها أن يكون بعضها رديفًا لبعض بحيث يكون من السهل تقديم العون والدعم والمساعدة من المستوطنات المتأخرة إلى المستوطنات المتقدمة، واستخدام الأولى كخط رجعة في حالة ما إذا نزلت الهزيمة بالثانية، فيلجأ إليها المنسحبون بأموالهم وأسلحتهم وعتادهم، وهو ما فعله بنو قينقاع وبنو النضير، فقد قصد الأولون أذرعات، في حين قصد الأخيرون خيبر، التي تضاعفت قوتها وزاد خطرها.

ولذلك فإن بعض المستشرقين يعتبرون فتح خيبر أول فتح فِعلي يقوم به المسلمون، وهذا صحيح من جميع الوجوه، فلقد كانت خيبر مستوطنة يهودية خالصة لا يقيم بها غير اليهود، تتميز بالتسليح الجيد والحصون القوية المنيعة، وبوجود المقاتلين الأشداء المشهورين بين العرب واليهود على السواء.

وإذا كان اليهود قد فقدوا مستوطناتهم في المدينة، فإنهم عللوا ذلك بوجودها في متناول أيدي المسلمين، وذلك بخلاف المستوطنات الأخرى، وعلى رأسها خيبر، التي كانت بعيدة عنهم بمسافة طويلة، وهذا ما جعل اليهود يمنون أنفسهم بالنصر على المسلمين إذا ما فكروا في الهجوم عليها؛ نظرًا لبعد الشقة وما يترتب عليها من معاناة، فضلًا عما يتوفر لتلك المستوطنة من مزايا لا شك أنها ستتيح لها التفوق على المسلمين.

وكانت خطة الرسول ﷺ بعد أن قضى على المستوطنات الثلاث في المدينة، أن يقضي على أكبر وأخطر المستوطنات اليهودية التي تنتشر بين المدينة والحدود الشمالية للحجاز، وذلك لأسباب عديدة، منها: أنه لا يصح أن يتجاوز خيبر ويوجه هجومه إلى ما يليها شمالًا؛ لأنه بذلك سوف يجعل ظهره مكشوفًا ليهود خيبر ويعرِّض جيشه لهجومهم، فيقع بين فكي الكماشة وتلحق به الهزيمة.

هذا فضلًا عما سيؤدي إليه ذلك من انقطاع اتصاله بقاعدته في المدينة، مع احتمال أن يؤلب اليهود القبائل العربية عليه، فتهاجم المدينة وليس فيها إلا عدد ضئيل من المسلمين لا يمكنهم الدفاع عنها.

وهكذا كان لسقوط خيبر دوي هائل صك آذان اليهود على طول المنطقة الممتدة إلى الحدود الشمالية مع الإمبراطورية البيزنطية، واعتراهم خوف شديد؛ ولذلك فإن الرسول ﷺ لم يكد ينتهي من خيبر حتى توجه بجيشه إلى وادي القرى القريب من خيبر، فضرب عليه الحصار بضع ليال، أخذ اليهود أثناءها يقذفون المسلمين بسهامهم من وراء حصونهم، فأصابوا خادمًا لرسول الله ﷺ، فقتلوه، ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا عقم مقاومتهم، وأنهم لن يفلحوا حيث فشل يهود خيبر فعرضوا الصلح على الرسول ﷺ، على أن يؤدوا الجزية ويخضعوا للمسلمين ويعملوا لهم كمزارعين في الأرض مقابل نصف المحصول.

واستمر تأثير الهزيمة التي لحقت بخيبر، في اليهود القريبين منها، فبادر يهود تيماء الذين كانوا يُكنون عداء شديدًا للرسول ﷺ إلى إظهار استعدادهم للخضوع للمسلمين مختارين، وشجعهم على ذلك ما لقيه إخوانهم في وادي القرى من حسن المعاملة، وظلوا يعملون في أرضهم نظير أداء الجزية.

كذلك فعل يهود فَدَك الذين أصابهم رعب شديد لما سمعوا بهزيمة وسقوط خيبر، فبعثوا إلى الرسول ﷺ يصالحونه على النصف من فدك فقبل ذلك منهم وتم إبرام الصلح.

وهكذا أدى سقوط المستوطنة اليهودية القوية في خيبر إلى سقوط ثلاث مستوطنات يهودية أخرى هي: وادي القرى، وتيماء، وفدك، ولكن ابن سعد في طبقاته ذكر مستوطنة يهودية أخرى هي «الجرباء» قال إنها استسلمت هي الأخرى.

ولكن بقيت ست مستوطنات أخرى في أقصى الشمال يجب القضاء عليها، حتى يتخلص الحجاز كله من تسلط اليهود واستغلالهم، ويأمن غدرهم وخيانتهم.

صحيح أن المدينة كانت قد تطهرت منهم، ولكن منطقة الحدود الشمالية المتاخمة لدولة الروم كانت ما تزال تحت سيطرتهم هي والطرق التجارية الهامة التي تصل الجزيرة العربية بالشام وفلسطين ومصر».

[المستوطنات اليهودية للمجدوب ١٠١-١١٧].

المبحث السادس

الدروس الدعوية

١ ـ الداعية يقع في الإثم ولكنه يسرع إلى التوبة:

يقول د/ زيدان: «المسلم قد يقع في الإثم وفي الخطيئة؛ لأنه غير معصوم، ولكن عليه أن يسرع إلى التوبة: «**كُلُّ ابْنِ [بَنِي] آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الـخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**».

[الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١)، وقال الشيخ الألباني: حسن، ومسند أحمد ٢٠/ ٣٤٤ عن أنس ﷺ رقم ١٣٠٤٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده ضعيف].

كما جاء في حديث رسول الله ﷺ، وقد رأينا كيف أن أبا لبابة ﷺ عندما استشاره بنو قريظة في مسألة نزولهم على حُكم رسول الله ﷺ فأشار إلى حلقه ـ يريد الذبح ـ، وأنه سرعان ما تنبه إلى فعله الآثم، فندم وتاب وربط نفسه على جذع في المسجد حتى أنزل الله ﷻ توبته على رسوله ﷺ، وأبى أن يحله من رباطه أحد غير النبي ﷺ.

وعلى هذا فالوقوع بالإثم محتمل من قِبَل أي مسلم مهما علت منزلته وعمَّر ونوَّر الإيمان قلبه؛ لأنه غير معصوم.

فعلى الدعاة أن يعلموا ذلك، وأن يستحضروه في أذهانهم ولا ينسوه، والمطلوب منهم إذا وقع أحدهم في الإثم أن ينهض حالًا ويتوب إلى الله تعالى وأن يعينه إخوانه على التوبة، وأن لا يُشهِّروا به، أو يتعجبوا منه على وجه يحملهم على مقاطعته، فهذا ونحوه لا يجوز؛ لأن التوبة تمحو الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وإن كانت معصية الأخ في حق غيره من إخوته فعلى هذا الغير أن يسامحه ويعفو عنه ويستغفر له الله تعالى، فهذا هو شأن الإخوة في مجتمعهم الإسلامي الصغير: مجتمع الدعاة في جماعتهم المسلمة».

[المستفاد من قصص القرآن لزيدان ٢/ ٢٩٤].

٢ ـ الداعية بشر ليس معصومًا:

يقول د/ أبو فارس: «فأبو لبابة ﷺ صحابي جليل، لكنه هو وسائر الصحابة بشر ليسوا معصومين عن الزلل والوقوع في الإثم، وقصته تريك أنه اقترف إثمًا كبيرًا حكم هو على نفسه بأن هذا الفعل كان خيانة لله ﷻ والرسول ﷺ تستوجب الندم والتوبة.

إن المعصومين من اقتراف الذنوب والمعاصي: الملائكة، فهم لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، والرسل الذين حفظهم الله ـ تبارك وتعالى ـ من اقتراف الذنوب والمعاصي حتى يصدِّقهم الناس، ويبلِّغوا جميع ما أُنزل إليهم من ربهم، أما غيرهم من الجن والإنس فليسوا بمعصومين.

والرسول ﷺ يقرر أن الجنس البشري بما فيهم الصحابة ﷺ غير الرسل ليسوا معصومين، بل يذنبون ويستغفرون الله، فيغفر الله لهم، ولولا أنهم كذلك لما صلحوا لعمارة الأرض، ولذهب الله بهم، قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**». [مسلم في التوبة (٢٧٤٩)].

أقول: إن كثيرًا من الشباب المسلم اليوم، وبعض الدعاة المسلمين تسود عندهم فكرة خاطئة، ينطلقون منها في معاملة الناس، والحكم عليهم حكمًا جائرًا، وهذه الفكرة الخاطئة تقوم على تصورهم أن المؤمن يُستبعد أن يرتكب إثمًا من الآثام، أو مخالفة من المخالفات الشرعية، وبعضهم لا يتصور أن يرتكب المسلم الصالح شيئًا من المحظورات الشرعية، وبالتالي، إذا رأى مسلمًا قد ارتكب معصية من المعاصي، أو ذنبًا من الذنوب، أو جريمة من الجرائم يغضب أشد الغضب، ويخرج عن طوره، ويصدر بحق هذا المسلم أحكامًا جائرة، فيؤذيه وينهش عرضه، وربما أخرجه من زمرة المسلمين.

إن هذا التصور تصور خاطئ لا يقره الإسلام، ويرفضه رفضًا باتًّا، ويعد صاحبه من المغالين في الدين، المخالفين لسنة سيد المرسلين ﷺ، وهذا هو التنطع في الدين الذي أخبر الرسول ﷺ بهلاك صاحبه.

إن الصورة الصحيحة هي أن الناس المؤمنين في عهد رسول الله ﷺ، وحتى تقوم الساعة بشر، والبشر يخطؤون ويصيبون ويطيعون ويعصون ويذنبون ويستغفرون، ولا يُستثنى من ذلك أحد إلا الرسل، وما نزلت الأحكام الشرعية في الحدود والقصاص والتعازير وغيرها إلا لتطبق عليهم أولًا في مجتمعهم الإسلامي، ودولتهم الإسلامية.

وإني أفهم حين أقرأ هذه الأحكام الشرعية أنها أُنزلت لتطبق على المسلمين، بمعنى أن بعضهم سيقع في الزنى، وفي شرب الخمر، وفي السرقة وفي القذف، وفي القتل العمد، وسيرتكب بعضهم الآخر الغيبة، وآخرون يرتكبون السخرية بالآخرين، وآخرون يظنون الظن السيء بالمسلمين، وهكذا لا يسلم أحد في حياته من الوقوع في معصية من المعاصي، وبالتالي كل إنسان يُسأل عما ارتكب من المعاصي، فإن كانت تستوجب حدًّا حُدَّ، وإن كانت تستوجب قصاصًا اقتُص منه، وإن كانت توجب تعزيرًا عُزِّر على ما اقترف، وإن كانت توجب عقوبة أخروية عُوقب في الآخرة، وهكذا.

وأقرر هنا أن جميع الحدود والقصاص بأنواعه قد طُبِّق في المجتمع الإسلامي الأول، وطبقه رسول الله ﷺ ليس على غير المسلمين كما قد يخطر على بال البعض بل على صحابته ﷺ، فرجم من رجم، وجلد من جلد، وقطع من قطع، ولاعن من لاعن، وجلد من شارك في حديث الإفك...».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٧٢-٧٤].

٣ ـ عدم الاستجابة إلى ضغط العاطفة المنبتة عن العقل:

يقول د/ أبو فارس: «إن أبا لبابة ﷺ، حينما رأى نساء بني قريظة وأطفالهم يبكون ويجهشون بالبكاء رق قلبه لهم، ونسي الجرائم التي ارتكبها رجالهم بحق رسول الله ﷺ، وأزواجه أمهات المؤمنين، وخيانتهم وغدرهم بالمسلمين في أحلك الظروف، وتواطؤهم مع الأحزاب لاستئصال شأفة المسلمين ذكورًا وإناثًا، رجالًا وشيوخًا ونساء وأطفالًا، كما هو منصوص في كتبهم المزيفة.

لقد نسي هذا كله، وغلبت عليه عاطفته فأشار عليهم بألا ينزلوا على حكم الرسول ﷺ؛ لأنه سيذبحهم.

إن على الدعاة إلى الإسلام أن يستفيدوا هذا الدرس من هذه الحادثة، عليهم أن يستفيدوا من هذا الموقف، فيتجنبوا الانفعالات العاطفية البعيدة عن نظرات العقول المتأنية، عليهم أن يلجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأن يُقدِّروا كل كلمة تصدر عنهم، بل عليهم أن يفكروا قبل نطق هذه الكلمة، ما لها، وما عليها، فإن كانت خيرًا فلتخرج، وإن كانت غير ذلك فلا تخرج، وصدق رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُل خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**». [**البخاري في الأدب (٦٠١٨، ٦٠١٩)، ومسلم في الإيمان (٤٧)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٤)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٠٠)**].

إننا نجد في بعض الأحيان أن بعض الدعاة قد يستجيبون لفعل ما، أو لرأي ما تحت تأثير عاطفة القرابة، أو الصداقة، أو الرحمة، أو الشفقة الزائدة، فينسون القيم التي يدعون الناس إليها، ويعملون على ترسيخها، وإذا بهم ينقضونها من القواعد.

إنه ينبغي ألا تؤثر العاطفة أيًّا كانت في اتخاذ رأي من الآراء، أو موقف من المواقف، يستوجبه المبدأ والعقيدة، سواء كانت هذه العاطفة عاطفة حب أو عاطفة بغض، إنه لا بد من العدل والاعتدال وعدم الظلم مع الأعداء والأصدقاء». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ٧٠-٧١**].

المبحث السابع
الردود على استبشاع عقوبة بني قريظة

أطال وأجاد الأستاذ باشميل في استعراض الردود اللازمة على المستشرقين وأذنابهم من أبناء جلدتنا، حول موضوع عقوبة بني قريظة بالقتل، وأُثبت هذا المبحث من كتابه (غزوة بني قريظة)، مع إضافة بعض الردود التكميلية من أقوال علمائنا الأفاضل لمزيد الفائدة حول هذا الموضع الهام، القديم المتجدد.

يقول أ/ باشميل: «بعد أن فصلنا حوادث خيانة يهود بني قريظة وما ترتب على هذه الخيانة المنكرة من نتائج خطيرة كان أهمها إعدام حوالي ثمانمائة مقاتل من هؤلاء اليهود وسبي نسائهم وذراريهم، ومصادرة كل ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة.

بعد أن فصلنا هذا، لابد لنا من وقفة على أطلال هؤلاء اليهود نتناول فيها بالبحث والتحليل هذه الناحية لإزالة ما يكون قد علق ببعض الأذهان حول صرامة حكم الإعدام والمصادرة والسبي الذي صدر ونُفذ بحق يهود بني قريظة، والذي يبدو لأول وهلة (للسطحيين) أن فيه شيئًا من القسوة والوحشية، كما لابد لنا في هذه الوقفة من مناقشة الطعون والرد على الانتقادات التي أوردها البعض بشأن هذا الحكم الصارم الذي صدر ونُفذ في هؤلاء اليهود.

الطاعنون في حكم إعدام اليهود:

فهناك فريقان، لا يمر أحدهما بحادثة العقوبة النازلة بيهود بني قريظة، إلا ويعلن استنكاره للحكم النافذ في هؤلاء اليهود (وخاصة عقوبة الإعدام)، ويصفها بأنها عمل يتسم بالوحشية والقسوة.

فريق رئيس، وهم غير المسلمين الذين يحرصون (دائمًا) على نشر ظلال من الشكوك حول دعوة الإسلام، وإيجاد المطاعن في قطب هذه الدعوة وحامل لواء رسالتها محمد بن عبد الله ﷺ، وأهداف هذا الفريق الخبيثة ومقاصده السيئة معروفة مكشوفة، فهم أعداء أساسيون للإسلام ونبي الإسلام.

وفريق ثانوي، وهم بعض المنتسبين إلى الإسلام وبعض المحسوبين عليه، الذين لا يعرفون عن هذا الدين إلا ما تلقوه في مدارس ومعاهد وجامعات أعدائه.

كل هؤلاء وأولئك يلمِّحون ويصرِّحون (أحيانًا) بأن عملية الإعدام الجماعية التي تمت بحق يهود بني قريظة على تلك الصورة الصارمة السريعة، هي عملية قد اتسمت بطابع الوحشية والانتقام الذي يتنافى مع قواعد الإنسانية وروح القرن العشرين المتمدنة، لا سيما وأن اليهود قد وقعوا أسرى حرب في أيدي المسلمين.

تحذير لكل مسلم: وقبل الدخول في مناقشة هؤلاء الطاعنين في الحكم الصادر والنافذ بحق بني قريظة، وقبل رد هذه المطاعن وإبطالها بالحجج المنطقية والقانونية والوجدانية، لا بد لنا ولكل مسلم من الإقرار والتسليم ـ صيانة لديننا وحماية لإيماننا ـ بأنه ليس لنا الحق في أي تعقيب أو مناقشة ـ فضلًا عن الانتقاد ـ في أي حكم يصدر عن النبي الكريم ﷺ أو يقره ويمضيه.

لأن النبي محمدًا ﷺ لا يصدر في أي حكم إلا عن الله تعالى، إذ هو ﷺ كما قال جل وعلا: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم].

وأي إنسان ينتسب إلى الإسلام ويصدر منه أي طعن أو انتقاد لحكم يصدره رسول الله ﷺ أو يمضيه فهو كافر لا مكان له في الإسلام؛ لأن الذي يفعل شيئًا من هذا يعتبر معترضًا على الرسول الأعظم ﷺ، والذي يعترض على الرسول ﷺ إنما هو في الحقيقة معترض على الله وطاعن في حكم الله، والطاعن في حكم الله كافر حلال الدم بالإجماع.

والحكم الصادر في حق يهود بني قريظة هو ـ كما ثبت في صحيح البخاري ـ حكم الله الذي أراده وارتضاه كما بين ذلك النبي ﷺ، الذي قال للقاضي سعد بن معاذ ﷺ عندما أصدر حكم الإعدام على يهود بني قريظة: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ ﷻ مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ**».

ومع إيماننا الكامل بكل ما ذكرنا وتسليمنا المطلق بعدالة ذلك الحكم الذي صدر بحق يهود بني قريظة ونُفذ فيهم، فإننا مستعدون لمناقشة المعترضين الطاعنين في هذا الحكم، وأن نثبت لهم شرعية ووجاهة هذا الحكم، ومطابقته لكل قواعد العدالة التي يلتزمها القضاء والحكم في كل عصر وزمان، وحتى زمن القرن العشرين، وأنه يتمشى كل التمشي مع قواعد الإنسانية وأن ليس فيه أي تنافر مع إحساسات الضمائر الحية، والوجدانات المستقيمة.

ولنبدأ المناقشة.

طبيعة اليهود الأبدية: لقد أثبتت مجريات الأحداث ـ منذ وصول النبي ﷺ إلى منطقة يثرب ـ أن هؤلاء اليهود بل كل يهود يثرب على أمر مبيت للكيد للنبي ﷺ والقضاء عليه وعلى دعوته بأية وسيلة مهما بلغت من الخسة والوضاعة.

وأن الغدر والخيانة واستحلال دماء وأعراض وأموال كل من يخالف اليهود في دينهم ولا ينحدر من جنسهم، قاعدة عامة ثابتة لديهم، وطبيعة خبيثة متأصلة في نفوسهم وسابحة في دمائهم، لا تلبث أن تظهر وتبرز وتتجلى عندما تسنح لهم الفرصة، فيسيرون على هذه القاعدة اللعينة، حتى ولو كانوا قد أعطوا ألف عهد ووقعوا ألف ميثاق.

المعاهدة بين المسلمين واليهود: عندما جاء النبي ﷺ إلى يثرب ودان أهلها من الأوس والخزرج بالإسلام، وصار المسلمون في المدينة أغلبية ساحقة، عقد النبي ﷺ مع الطائفة اليهودية بقبائلها الثلاث: (بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة) معاهدة شاملة، كان أهم ما جاء في هذه المعاهدة أن المسلمين واليهود أمة واحدة يشتركون في وطن واحد، وأن عليهم الدفاع المشترك عن هذا الوطن (يثرب): المسلم واليهودي يلزمه حمل السلاح لصد أي عدوان يأتي من الخارج يستهدف هذه المنطقة مهما كان مصدره.

أربع سنوات من المعاهدة: وفي ظرف أربع سنوات من هذه المعاهدة كشفت الأحداث المتلاحقة أن اليهود جميعًا (بقبائلهم الثلاث) ما قبلوا تلك المعاهدة وارتضوا بنودها ووقَّعوا عليها إلا مكرًا وخداعًا، وأنهم ما كانوا يهدفون من ورائها إلا تطمين المسلمين ليثقوا بهم ويركنوا إليهم.

وحتى إذا ما سنحت لهم الفرصة داسوا هذه العهود والمواثيق وشرعوا ـ دون إقامة أي اعتبار لخُلُق أو وجدان أو ضمير أو دين ـ في تسديد ضربتهم التي يحرصون على أن تكون قاتلة حاسمة.

ولقد عانى النبي ﷺ من هذا الخُلُق اليهودي الخبيث المتأصل، متاعب كثيرة، فبالرغم من تمسك النبي ﷺ بالمعاهدة المعقودة بينه وبين اليهود، ورغبته الصادقة في تطبيقها حرفيًّا والوفاء بها إلى أبعد الحدود فإن هؤلاء اليهود ـ دونما استثناء ـ كانوا لا تسنح لهم فرصة يرون أنهم قادرون فيها على تسديد ضربة قاتلة إلى المسلمين إلا وحاولوا استغلالها، وكأن لم يكن هناك بينهم وبين المسلمين عهد أو ميثاق.

لقد رأينا كيف صنع بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة معهم فحاربوا النبي ﷺ ونقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين عندما ظنوا أنهم قادرون على نسف الكيان الإسلامي وتدميره، وكيف أن النبي ﷺ قد اكتفى بنفي بني قينقاع وبني النضير بعد أن ظفر بهم، وكانت عقوبة النفي هذه ـ فيما يبدو لنا ـ في مستوى الخطيئة التي ارتكبها بنو قينقاع وبنو النضير.

ولقد حاربت بنو قريظة المسلمين مع بني النضير، ولكن ـ لاعتبارات خاصة ـ لم يُنفهم النبي ﷺ بل أقرهم وعفا عنهم بعد أن جددوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين. [**عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: حَارَبَتِ النَّضِيرُ وَقُرَيْظَةُ، فَأَجْلَى بَنِي النَّضِيرِ، وَأَقَرَّ قُرَيْظَةَ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ، حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةُ فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلاَدَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بَعْضَهُمْ لَحِقُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ فَآمَنَهُمْ وَأَسْلَمُوا، وَأَجْلَى يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلاَمٍ وَيَهُودَ بَنِي حَارِثَةَ، وَكُلَّ يَهُودِ الْمَدِينَةِ. البخاري في المغازي (٤٠٢٨)**].

العهود والمواثيق في نظر اليهود:

ولكن هؤلاء اليهود عندما سنحت لهم الفرصة وظنوا أنهم قادرون على سحق المسلمين وإبادة خضرائهم إبادة كاملة، أقدموا على أحط عمل وأنذل صنيع في تاريخ النكث والغدر والخيانة.

فقد استغل هؤلاء الجبناء الموقف العصيب الذي صار إليه حلفاؤهم المسلمون حينما أغرقتهم جيوش الأحزاب الخانقة الجرَّارة من كل مكان.

فقد ثارت بهم ـ آن ذاك ـ خصائص النذالة المتأصلة في نفوسهم وطبيعة الخيانة السابحة في دمائهم، فكشفوا القناع وظهروا من جديد على حقيقتهم.

وإذا بالعهود والمواثيق التي أبرموها مع المسلمين تصبح وكأنها لم تكن.

فقد مزَّق هؤلاء اليهود هذه العهود والمواثيق ووطؤوها بأقدامهم حينما ذهبوا إلى قيادة الأحزاب الغزاة يضعون يدهم في أيديهم ويعاهدونهم ـ في تلك الساعات الرهيبة الحاسمة من تاريخ الإسلام والمسلمين ـ على سحق المسلمين وهدم كيان الإسلام إلى الأبد.

ويأتي إليهم المسلمون الذين ـ كما شهد زعيم هؤلاء اليهود كعب بن أسد ـ لم يروا منهم ومن نبيهم إلا صدقًا في المعاملة ووفاء بالعهد.. يأتون إليهم ليطلبوا منهم الثبات على العهد، ويذكِّرونهم بالمسؤولية العظمى والنتائج الوخيمة التي تترتب على النكث بهذه العهود والمواثيق، وخاصة في مثل تلك الظروف الحربية الدقيقة الحرجة.

وإذا بالجواب يأتي من قِبَل هؤلاء اليهود، سخرية واستهزاء بالنبي ﷺ وبالمسلمين، وبالعهود والمواثيق التي أبرموها معهم: «من هو محمد؟! هذا الذي يقول إن بيننا وبينه عهدًا، ومن هو رسول الله؟، نحن لا نعرف محمدًا وليس بيننا وبينه أي عهد»!

هكذا كان جواب يهود بني قريظة للمسلمين عندما جاء وفدهم إلى هؤلاء اليهود يطلب منهم الثبات على العهد الذي بين الفريقين والقيام بالالتزامات العسكرية التي عليهم والتي تفرض القيام بها نصوص تلك المعاهدة.

وهؤلاء اليهود لم يسلكوا هذا المسلك الوضيع المنحط إلا وقد تكوَّن لديهم ما يشبه اليقين بأنهم ـ بمساعدة الأحزاب ـ قادرون على تدمير الكيان الإسلامي تدميرًا كاملًا، واستئصال شأفة المسلمين استئصالًا كليًّا؛ ولهذا لم يترددوا في الغدر بحلفائهم المسلمين وعلى تلك الصورة الفظيعة البشعة.

وعلم الله لو أن هؤلاء اليهود قد ظفروا بالمسلمين، وتمكنوا ـ بمساعدة الغزاة ـ من احتلال المدينة لما ترددوا لحظة في الوصول بالمسلمين إلى أقسى مما وصل المسلمون بهم إليه، ولا أدلَّ على ذلك من أن هؤلاء اليهود قد اتفقوا مع قادة جيوش الأحزاب على أن لا ينصرفوا بجيوشهم عن المدينة إلا بعد القضاء على المسلمين وسحقهم سحقًا كاملًا، وذلك كشرط أساسي لانضمام هؤلاء اليهود إلى الأحزاب ضد المسلمين وإعلانهم نقض العهد الذي بينهم.

بل لحرص هؤلاء اليهود على استئصال شأفة المسلمين وحرصهم على إبادتهم إبادة كاملة، طلبوا من القيادة المشتركة للأحزاب أن يسلموا إليهم رهائن من أبنائهم سبعين شابًّا ليضمنوا أن جيوش الأحزاب لن تنسحب من منطقة المدينة إلا بعد أن تفرغ من المسلمين وتقضي عليهم قضاءً تامًّا.

فهل بعد هذا الصنيع الذي صنعه اليهود مع سبق الإصرار، والذي لم يُقدموا عليه إلا بعد درس وتخطيط وخبث نية مبيتة، هل بعد هذا الصنيع الخسيس الوضيع الذي قام به هؤلاء اليهود، يجوز لعاقل منصف أن يسمح لنفسه بالقول: إن حكم الإعدام الذي صدر ونُفذ بحق يهود بني قريظة هو حكم غير إنساني ولا عادل؟

إلى المدافعين عن بني قريظة: إننا نقول ـ بكل صراحة واطمئنان وثقة ـ لهؤلاء المعترضين على الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة: إن هذا الحكم ليس فيه ـ كما تتوهمون ـ أية قسوة أو وحشية.

وإنما هو عقاب عادل نزل بخونة مجرمين يستحقونه، عقاب يطمئن إليه الضمير والوجدان، وتقره جميع الأعراف والقوانين الدولية وتنفِّذ مثله حتى هذه اللحظة؛ ولكي نبرهن على صحة القول من الناحية العرفية والقانونية نقول:

أهم بنود المعاهدة:

١ ـ لقد كان اليهود من سكان يثرب، فكانوا هم والمسلمون من الناحية القانونية في العُرف الحديث يشكلون وحدة وطنية من حيث كونهم سكان بلد واحد قبل الإسلام وبعده.

وبعد أن قام شكل الحكم في يثرب ـ بعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة ودخول الأنصار في الإسلام ـ قَبِل اليهود ـ دونما أي ضغط أو إكراه ـ أن يكونوا مع المسلمين أمة واحدة لهم ما لهم وعليهم ما عليهم تجاه هذا الوطن الواحد: (يثرب).

٢ ـ فقد عقد النبي ﷺ مع هؤلاء اليهود معاهدة مكتوبة (تنظر بنود هذه المعاهدة مفصلة في كتاب (الوثائق السياسية) للسيد الدكتور محمد حميد الله ص١) وقَّع عليها زعماء الفريقين: (المسلمون واليهود) التزم فيها الفريقان الدفاع عن الوطن المشترك يثرب ـ يوم ذاك ـ ضد أي اعتداء يأتي من الخارج، سواء كان المقصود بهذا الاعتداء اليهود أو المسلمين.

فقد جاء في البند الرابع والأربعين من هذه المعاهدة بشأن الدفاع المشترك عن يثرب: (وأن بينهم ـ أي المسلمين واليهود ـ النصر على من دَهَمَ يثرب).

كما جاء في البند السادس والثلاثين من هذه المعاهدة: (أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ـ أي صحيفة المعاهدة ـ وأن بينهم النصح والبر دون الإثم).

اليهود والمسلمون أمة واحدة:

٣ ـ لقد أكد اليهود واعترفوا بتوقيعهم على هذه المعاهدة بأنهم والمسلمين أمة واحدة يجمعهم وطن واحد، يلزمهم ما يلزم كل مواطن إزاء وطنه، مع بقاء كل من المسلمين واليهود على دينه حرًا.

فقد جاء في البند الخامس والعشرين من هذه المعاهدة بهذا الشأن: (أن اليهود أمة مع المسلمين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم).

٤ ـ وبالإضافة إلى أن تقديم اليهود أية تسهيلات ـ مهما كان نوعها ـ لأي عدو يريد احتلال المدينة، بعد توقيعهم على هذه المعاهدة، يجعلهم ـ من ناحية العرف والقانون في جميع العصور ـ خونة يستحقون من العقوبة ما يستحق مرتكب الخيانة العظمى ضد وطنه في الظروف الحربية، فإن هؤلاء اليهود قد التزموا في هذه المعاهدة الامتناع عن تقديم أي عون لخصوم أيٍّ من الطائفتين (المسلمين واليهود)، وخاصة قريشًا (العدو رقم واحد للمسلمين).

فقد جاء في البند الثالث والأربعين من هذه المعاهدة: (وأنه لا تُجار قريش ولا من نَصَرَها).

٥ ـ بالإضافة إلى هذا كله اعترف يهود بني قريظة (في هذه المعاهدة) بالحكم الإسلامي القائم في يثرب، وإن لم يعترفوا بالإسلام رسميًا.

كان اليهود مواطنين يثربيين: كما أقروا في هذه المعاهدة بأنهم مواطنون يثربيون يجري عليهم (في ظل هذا الحكم) ما يجري على غيرهم، ما عدا الأمور المتعلقة بأحوالهم الشخصية كالزواج والطلاق والإرث، وما يتعلق بمعابدهم وطقوس عباداتهم، كما اعترفوا اعترافًا كاملًا بأن مرجعهم في جميع قضاياهم (عدا الدينية الخاصة بهم) هو الرئيس الأعلى لهذه الدولة محمد بن عبد الله ﷺ.

فقد جاء في البند الثاني والأربعين من هذه المعاهدة: (أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث واشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة).

٦ـ بل لقد اعترف اليهود بتوقيعهم على هذه المعاهدة بأن محمد بن عبد الله النبي ﷺ هو الحاكم الأعلى لهؤلاء اليهود أنفسهم.

فقد جاء في البندين الخامس والسادس والثلاثين: (وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد).

هذا هو الموقف العام الذي كان عليه المسلمون واليهود في منطقة يثرب، وهذه هي أهم بنود معاهدة التحالف والتواطن بين المسلمين واليهود.

لم يكن اليهود مجبرين على المعاهدة:

٧ ـ لقد قَبِل اليهود هذا الوضع، وارتضوا تلك المعاهدة، ووقَّعوا عليها، والتزموا العمل بمقتضاها طائعين مختارين دون أن يُكرههم أحد، فقد ارتضوا ذلك الوضع ووقَّعوا على تلك المعاهدة، والدولة الإسلامية لـمَّا تزل وليدة ليس لها أية قوة عسكرية شهيرة مرهوبة، حيث إن هذه المعاهدة قد عُقدت بين الفريقين، قبل معركة بدر الكبرى التي تكوَّنت بعدها القوة الإسلامية المرهوبة.

فقد كان اليهود عند عقد هذه المعاهدة ـ من الناحية العسكرية ـ في مركز ممتاز لا يمكن ـ معه ـ أن يُقال: إنهم قد عقدوا هذه المعاهدة بدافع من القوة والقسر.

فنظرة فاحصة مجرَّدة عن الهوى، إلى بنود هذه المعاهدة، ووقفة عدل وإنصاف وتدبر ومقارنة، عند أعمال الغدر والخيانة العظمى التي قام بها يهود بني قريظة ضد المسلمين في تلك الظروف الحربية العصيبة التي كانت فيها المدينة ـ بأعراضها وأرواحها وحرثها ونسلها وكل ما يرتبط فيها بالمسلمين ـ في مهب العاصفة، نعم نظرة فاحصة مجردة ووقفة عادلة منصفة عند هذه الأعمال الخطيرة التي أقدم عليها يهود

بني قريظة ضد مواطنيهم وحلفائهم المسلمين، تجعل من الصعب على أي إنسان يحترم نفسه ولا يخضع لحكم العاطفة والهوى، أن ينكر شناعة الجريمة الكبرى وبشاعة الخيانة العظمى التي ارتكبها هؤلاء اليهود في حق وطنهم ومواطنيهم.

كما أنه ـ أيضًا ـ من الصعب على أي إنسان يحترم نفسه، ويتمتع بكامل السيطرة على تفكيره وعقله، أن يزعم أن الحكم الذي صدر ونُفذ بحق هؤلاء اليهود المجرمين، فيه شيء يتنافى مع قواعد العدل ومبادئ الإنسانية وأسس القانون الدولي العام.

لقد كان اليهود بحكم وجودهم في منطقة يثرب وبحكم استيطانهم مع العرب في هذه المنطقة منذ مئات السنين ثم بحكم المعاهدة المعقودة بينهم وبين المسلمين التي بموجبها ارتضوا أن يكونوا أُمة مع المسلمين وارتضوا البقاء في ظل الدولة القائمة بعد الاعتراف بها وارتضائهم وإعلانهم بأنهم جزءٌ لا يتجزأ من مواطنيها، نعم بحكم ذلك كله أصبح يهود بني قريظة مواطنين يثربيين يلزمهم (في ظل الدولة القائمة) الدفاع عن هذه المنطقة، ويترتب عليهم من الأحكام والالتزامات ما يترتب على أي مواطن في هذا العصر.

لقد ارتكب يهود بني قريظة ثلاث جرائم، تكفي واحدة منها لإدانتهم (قانونيًّا) بالخيانة العظمى التي تبرر ـ في جميع قوانين الدنيا حديثًا وقديمًا ـ الحكم عليهم بالموت:

١ ـ اتصالهم بالعدو ونقلهم إليه أسرارًا عسكرية تفيده وتعرِّض سلامة جيش المدينة (وطن هؤلاء اليهود) لأشد الأخطار.

٢ ـ مدهم العدو الغازي بكل ما أمكنهم من عون مادي وتأييد أدبي ومعنوي ييسر له مهمة احتلال وطنهم المدينة والقضاء على مواطنيهم.

٣ ـ (وهو الأخطر) رفعهم السلاح ضد جيش المدينة (وطنهم) ونكثهم العهد وإعلانهم الاستعداد لضرب مواطنيهم من الخلف، في ظروف هي أدق ما شهد النبي ﷺ وجيشه في تاريخ حياته.

سؤال قانوني: والسؤال الذي نحب توجيهه إلى المعترضين والمستهجنين للحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة هو: ما هو الحكم اليوم الذي يجب إنزاله ـ في جميع القوانين الدولية ـ بمن خان وطنه وغدر بأمته وشرع ـ أثناء ظروف حربية قائمة ـ في الاتصال بالعدو الذي جاء غازيًا لاحتلال وطنه وسحق مواطنيه وأَخَذَ ـ بطريقة أو أخرى ـ ييسر له سبل هذا الاحتلال؟

أعتقد أن أحدًا من هؤلاء المعترضين لن يستطيع القول إن قانونًا واحدًا في أي بلد من بلاد الدنيا سيقول لمن أقدموا على مثل هذه الجرائم التي ذكرنا، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

بل أعتقد أن واحدًا من هؤلاء المعترضين لن يستطيع إلا أن يقول: إن أقل عقوبة يمكن إنزالها بمن ارتكب مثل هذه الجرائم التي أشرنا إليها هي الموت.

لأن جميع قوانين الدنيا ـ بلا استثناء ـ تنص على أن الموت ومصادرة الممتلكات هي العقوبة العادلة التي يجب أن تنزل بمن ارتكب مثل تلك الجرائم التي ذكرنا.

بنو قريظة في نظر القانون الدولي: فإذا عرفنا هذا واتفقنا على أنه ليس من الظلم ولا من الوحشية في شيء إصدار حكم الإعدام وتنفيذه بحق المواطن الذي يتصل بالعدو في حالة الحرب القائمة وييسر له ـ ولو ببعض المعلومات ـ مهمة احتلال وطنه أو الإضرار بدولته وأمته، فإن سؤالًا أهم من السؤال الأول لابد للمعترضين على الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة من الإجابة عليه وهو: ما هو ـ في عُرْف جميع القوانين ـ حكم الذي ينقل معلومات إلى العدو تنفعه وتيسر له الإضرار بالأمة وتعرِّض الوطن للخطر فحسب، بل ما حكم الذي يستغل حراجة ظروف وطنه ومواطنيه الذي هو جزء منهم ويقيم بينهم فيخون ويغدر، ويطعن وطنه وأُمته من الخلف.

فيشهر السلاح في وجه دولته ومواطنيه، ويعلن انضمامه إلى العدو الغازي في تلك الظروف الحربية الدقيقة المخيفة، قاصدًا من وراء غدره وخيانته إخضاع وطنه للغزاة وسحق الفئات الأخرى من بني وطنه وإسقاط النظام القائم ـ بحد السلاح وبالتواطؤ مع العدو ـ الذي ارتضاه واعترف به وعاش في ظله آمنًا مطمئنًا لم يُهْضَم له حق ولم يكن إلا محل الرعاية والوفاء؟

أعتقد أن أحدًا ـ وحتى من المستبشعين للحكم الصادر في حق بني قريظة ـ لن يكون جوابه ـ إذا كان يحترم عقله ـ على هذا السؤال إلا الاعتراف بأن جميع قوانين وأعراف الدنيا في الحاضر والماضي تنص ـ بالإجماع ـ على أن الموت والمصادرة هي عقوبة كل من يُقْدِم على هذه الجرائم التي أشرنا إليها.

وحيث إن هذا أمر متفق عليه ـ بلا جدال ـ عند جميع الأُمم ـ قديمًا وحديثًا ـ فإنه من التحامل والتعسف والافتراء القول بأن الحكم الصادر في حق بني قريظة هو حكم غير عادل ومخالف لقواعد الإنسانية.

لأن هؤلاء اليهود قد جمعوا في تصرفاتهم الخائنة الغادرة ضد المسلمين كل الجرائم التي عقوبة واحدة منها (فقط) الموت في جميع قوانين الدنيا في كل الأعصار والأزمنة.

فاليهود لم يكتفوا بالتجسس على مواطنيهم لحساب العدو في حالة الحرب، ولم يكتفوا بمد هذا العدو بالمساعدات المادية والأدبية التي تيسر له مهمة احتلال المدينة وطن الجميع المشترك ـ يوم ذاك ـ، وهي أعمال تُصَنَّف في باب الخيانة العظمى التي عقوبتها الموت في جميع قوانين العالم، نعم لم يكتفوا بهذه الأعمال فحسب، بل ـ بالإضافة إلى كل ذلك ـ شهروا السلاح في وجه الجيش الإسلامي المشغول بمواجهة الغزاة، وأعلنوا قطع كل صلة تصلهم بحلفائهم ومواطنيهم المسلمين، وانضموا في تلك الساعات المزلزلة، إلى قوات العدو الغازية مستهدفين سحق المسلمين ـ بسرعة ـ سحقًا كاملًا مستغلين الموقف

الدقيق المتأزم الذي بلغت فيه حالة المسلمين من الضيق والشدة حد الاختناق، ضاربين بكل المثل والأعراف والقوانين والعهود والمواثيق عرض الحائط.

إن يهود بني قريظة ـ وقد ظهرت نواياهم الخبيثة وتكشفوا على تلك الحالة من اللؤم والخسة والدناءة ـ لو تم النصر لهم وللأحزاب على المسلمين لما اكتفوا إلا باستئصال شأفة المسلمين ومصادرة كل أملاكهم وسبي جميع نسائهم وذراريهم.

وهذا أمر مبيَّت منهم للمسلمين بالتأكيد، فهم لم يُقدموا على تلك الخيانة العظمى فيتواطؤوا مع العدو الغازي إلا وقد وضعوا نُصب أعينهم ـ كهدف أول ـ إبادة المسلمين عن آخرهم.

وقد تجلى هذا المقصد الخبيث من اليهود عندما طلبوا من الأحزاب ـ كشرط أساسي لانضمامهم إليهم ـ أن لا ينسحبوا ويفكوا الحصار عن المدينة إلا بعد سحق المسلمين واستئصال شأفتهم، وأخذوا بذلك العهد على مندوب الأحزاب (حيي بن أخطب) فتعهد لهم بذلك باسم الأحزاب.

فكيف ـ إذن ـ بعد هذه الحقائق الدامغة كلها، وبعد هذه الأعمال التي قام بها اليهود، والتي يكفى البعض منها ـ فكيف بها مجتمعة ـ لإدانة هؤلاء اليهود بالخيانة العظمى التي عقوبتها الموت والمصادرة في جميع قوانين الدنيا.. كيف بعد هذا كله يسوغ لعاقل منصف يحترم نفسه أن ينفي صفة العدل والإنصاف عن الحكم الصادر والنافذ بحق هؤلاء اليهود الذين لم ينتهوا إلا إلى المصير الذي حاولوا ـ خيانة وغدرًا وبكل الوسائل الخسيسة ـ أن يصلوا بالمسلمين إليه؟

ولماذا يكون من العدل والإنصاف تنفيذ حكم الإعدام ـ في هذا العصر ـ فيمن ارتكب جريمة واحدة فقط من الجرائم التي أشرنا إليها والتي تكفى واحدة منها بإنزال عقوبة الإعدام بمرتكبها كنقل أسرار حربية إلى العدو ـ فقط ـ كما يحدث في هذا الزمن، ولا يكون من العدل والإنصاف، بل يصبح من القسوة والوحشية والظلم، تنفيذ حكم الإعدام فيمن ارتكب كل هذه الجرائم الخطيرة مجتمعة كما فعل بنو قريظة؟

أَلأَن المحكومين يهود والحاكمين مسلمون أم ماذا؟

إننا لا نزال نسمع كل يوم بأحكام الإعدام تصدر بحق أُناس في أمريكا وأوروبا وكل العالم المسمى ـ بالعالم الحر ـ لا لأنهم انضموا إلى الأعداء وشهروا السلاح في وجه دولتهم ومواطنيهم، وإنما لأنهم نقلوا إلى العدو معلومات تفيده وتيسر له الإضرار بوطنهم ومواطنيهم.

فما حلَّ ليهود بني قريظة ـ إذن ـ من عقاب صارم إنما هو جزاء عادل، يستند إلى قاعدة دولية عامة في كل عصر وزمان، وهو بعيد كل البعد عن أي شطط أو انحراف عن مبادئ العدالة والإنصاف، لا سيما في ذلك العصر الذي لو وقع فيه المسلمون في أيدي يهود بني قريظة والأحزاب الذين تواطأ معهم يهود بني قريظة، لما صاروا ـ أي المسلمون ـ إلا إلى أقسى مما صدر إليه هؤلاء اليهود على أيدي المسلمين.

اليهود خونة لا أسرى حرب: قد يقول قائل متبجح: لماذا لم يُعامِل النبي القائد ﷺ يهود بني قريظة كما يعامل القائد المنتصر رجال جيش العدو الذي حارب وكُتِبَ له الفشل في حربه فانهزم واستسلم، كما هو الحال في هذا العصر؟

والجواب على هذا التساؤل هو (من ناحية القانون الدولي العام المعاصر):

إن اليهود عندما فعلوا ما فعلوا بانضمامهم إلى قوات الأحزاب الغازية ضد المسلمين، لم يكونوا في حالة حرب مع المسلمين، بل لم يكونوا حتى في حالة تعاد أو تنافر.

وإنما كانوا أصدقاء متحالفين مع المسلمين، بل ومواطنين هم والمسلمون أمة واحدة يشكّلون وحدة وطنية لا تتجزأ، مُلزمون هم والمسلمون ـ على حد سواء ـ بالدفاع المشترك عن الوطن الواحد المشترك وهو الوطن اليثربي، كما نصت على ذلك الاتفاقية المعقودة بينهم.

فيهود بني قريظة ـ من وجهة نظر القانون الدولي العام ـ لا يمكن وضعهم في مكان العدو الذي استسلم وهو يخوض حربًا مشروعة ـ قانونًا ـ كالحرب التي تنشب ـ لسبب من الأسباب ـ بين دولة ودولة.

وإنما مكان هؤلاء اليهود ـ من وجهة نظر القانون الدولي العام ـ هو مكان الخائن المتآمر المتواطئ مع العدو على أمته ووطنه في حالة الحرب القائمة، وحكم الذي شأنه هكذا عند الظفر به معروف لدى الخاص والعام، ومنصوص عليه في جميع القوانين الدولية، وهو الإعدام لا غير.

فيهود بني قريظة ليسوا أسرى حرب بالمعنى المتعارف عليه دوليًّا، حتى يُقال: لماذا لم يعاملهم محمد ﷺ مثلما عامل غيرهم ممن وقع في يده من أسرى الحرب الآخرين، وإنما هم خونة غادرون ارتكبوا جريمة الخيانة العظمى ضد وطنهم وأمتهم، فظفرت بهم يد العدالة، بعد أن أدانتهم بالتواطؤ مع العدو ضد الوطن الذي هو وطنهم، والأمة التي هم جزء منها، والدولة التي هم في ظلها؛ ولهذا فالحكم الذي صدر بحق هؤلاء اليهود ونُفذ فيهم، إذا نظرنا إليه ـ فقط ـ من زاوية العُرْف والقانون المتعارف عليه والمعمول به في القرن العشرين عند جميع الدول، وجدنا أنه يتفق كل الاتفاق مع هذا العُرْف وذلك القانون من جميع الوجوه.

ولعل الذين يستبشعون الحكم الذي صدر ونُفذ بحق يهود بني قريظة، ينسون أو يتناسون أنه في القرن العشرين هذا ـ قرن التقدمية والتمدن كما يسمونه ـ قد سمعنا ولا نزال نسمع بأحكام تصدر بالموت وتنفذ ـ في ظل القانون ـ بحق أناس، لا لأنهم ارتكبوا مثلما ارتكب يهود بني قريظة من جرائم الغدر والخيانة العظمى ضد مواطنيهم ووطنهم المدينة، وإنما لأنهم نقلوا ـ فقط ـ إلى عدو غير محارب بعض الأسرار التي تتعلق بسلامة الجيش والقوات المسلحة، كذلك الأمريكي الذي نُفذ فيه حكم الإعدام؛ لأنه كان على اتصال بالروس ونقل إليهم أسرارًا حربية تتعلق بصنع القنبلة الذرية وغيرها.

فكيف بالله ـ إذن ـ يكون من العدل المتمشي مع روح القرن العشرين إعدام مواطن أو مواطنين، لأنهم ـ فقط ـ نقلوا إلى العدو أسرارًا تتعلق بسلامة الجيش.. أسرارًا ليس من المؤكد أن نقلها سيعرِّض الجيش للإبادة وإنما يمكِّن قيادة العدو المنتظر ـ روسيا ـ من الاستفادة عسكريًّا، ويكون من الظلم والوحشية إعدام المواطن الذي لم يكتف بنقل أسرار جيش بلاده إلى العدو والمحارب المحيط ببلاده، بل شهر السلاح في وجه هذا الجيش وهو في أحلك ليالي محنته، وشرع ـ بالاتفاق مع العدو الغازي ـ في تسديد طعنة إلى الجيش، فألَّف قوة مسلحة داخل الوطن المشترك، واتصل بالعدو اتصالًا مباشرًا مكشوفًا، وأعلن انضمامه إليه مستهدفًا إبادة الأمة التي هو جزء منها وتسهيل احتلال الوطن الذي هو شريك فيه، وتدمير الجيش الذي كان من المفروض أن يكون في صفوفه مدافعًا عن الوطن المشترك؟

أعتقد أنه لا جواب عند هؤلاء المعترضين والمستبشعين لما نزل بيهود بني قريظة إلا الفلسفة الفارغة والمغالطة المكشوفة التي تمليها الرغبة المبيَّتة الملحَّة في الطعن والتشويه لكل ما هو إسلامي فحسب..

إن يهود بني قريظة ـ بالإضافة إلى صفة المواطن ـ كانت لهم صفة الجندي والضابط الذي يجب أن يكون قوة محاربة داخل جيش المدينة ضد أي اعتداء تتعرض له (يثرب) الوطن المشترك للمسلمين واليهود ـ يوم ذاك ـ كما تنص على ذلك الاتفاقية المعقودة بين الفريقين.

فاليهود إذن ـ كما قلنا ـ ليسوا أسرى حرب بالمعنى المعروف حتى يُقال: إن إعدامهم على تلك الصورة الجماعية وحشية وقسوة تتنافى وروح القرن العشرين، بل هم قوم مواطنون ارتكبوا ـ ضد أمتهم ووطنهم ـ الخيانة العظمى، وعلى درجة لم يصل إليها أحد قبلهم ولا بعدهم في البشاعة والفظاعة والدناءة، هذا من جهة.

لكل دولة قانونها الخاص: ومن جهة أخرى، فإن المتعارف عليه ـ دوليًّا في كل عصر وزمان ـ هو أن لكل أمة ودولة قانونها الخاص الذي تسير على نهجه في سلمها وحربها.

ودولة الإسلام ـ يوم نزل العقاب ببني قريظة ـ كان لها قانونها الثابت الذي تنطبق نصوصه على كل مواطنيها: مسلمين وغير مسلمين، كما هو معروف بالتواتر لدى جميع المفكرين.

وقانون الإسلام ـ كما هو في الدستور الأعلى: القرآن ـ يجعل مصير أسرى الحرب إلى الإمام، وهو الحاكم والقائد الأعلى للجيش ليتصرف فيهم وفق مصلحة الأمة والدولة والدين.

[ينظر: المغني لابن قدامة ٨/ ٣٧٢، والمحلى لابن حزم ٧/ ٢٩١ وما بعدها].

وعلى ضوء هذا الحق الذي أعطاه القانون الإسلامي ـ في حالة الحرب ـ لرئيس الدولة والقائد الأعلى للجيش، فإن يهود بني قريظة حتى لو كانوا أسرى حرب بالمعنى المتعارف عليه، وأَمر القائد الأعلى النبي

ﷺ بإعدامهم، فإنه من ناحية العرف السائد دوليًّا لا مكان للاستنكار مطلقًا [(١)].

لأن النبي القائد ﷺ إنما كان تصرفه هذا في حدود القانون الذي التزم العمل به وقام بتطبيقه في كل مناسبة على نفسه وعلى جميع أفراد شعبه، ولا لوم من وجهة النظر الدولية ـ ولا اعتراض على من طبَّق قانون بلاده فيها على غير أبناء بلاده فكيف بأبناء بلاده؟

إعدام اليهود والاتفاقات الدولية:

يُضاف إلى هذا أنه ـ عند حادثة بني قريظة ـ لم تكن هناك معاهدات دولية تُحرِّم إعدام المحارِبين المستسلمين كما هو اليوم، ارتبط بها النبي القائد ﷺ حتى يسوغ للمشوِّشين والطاعنين بالباطل أن يقولوا: إن محمدًا ﷺ ـ بإعدام يهود بني قريظة ـ قد خالف العرف والقانون الدوليين.

بل إن النظام الشائع يوم ذاك عند جميع الأمم ـ مسلمين وغير مسلمين ـ أن أسرى الحرب يكون مصيرهم في يد الرئيس الأعلى للدولة، وأحيانًا إلى قائد الجبهة ليتصرف فيهم وفق المصلحة.

وعلى فرض أن يهود بني قريظة أسرى حرب بالمعنى المتعارف عليه، وليسوا خونة غادرين ارتكبوا الخيانة العظمى ضد وطنهم ومواطنيهم (مع أنهم كذلك بالتأكيد)، فإن مصلحة المسلمين وسلامة كيانهم استلزمت إبادة هؤلاء اليهود الذين ـ بالإضافة إلى ارتكابهم الخيانة العظمى التي عقوبتها الموت ـ كانوا قوة محاربة دلت الأحداث المتلاحقة على أن بقاء هذه القوة داخل المدينة أو إعطاءها الحرية في الجلاء سيكون ـ بالتأكيد ـ مصدر خطر كبير يهدد سلامة دولة الإسلام الوليدة في كل لحظة، هذه الدولة التي لم ير اليهود من رجالها إلا البر والعدل والوفاء.

فقد دلت التجارب العملية المتكررة مع هؤلاء اليهود أنهم على أتم استعداد لاغتنام أية فرصة، وسلوك أي سبيل ـ مهما كانت خسته ووضاعته ـ للإطاحة بحكومة المدينة، وهدم الكيان الإسلامي من الأساس.

كما حدث من إخوانهم يهود بني النضير الذين أعفاهم النبي ﷺ من القتل بعد استسلامهم، ثم سمح لهم بالجلاء من المدينة إلى حيث شاؤوا.

[ينظر تفاصيل محاصرة يهود بني النضير في الباب الخامس من مجموعة غزة أحد من هذا الكتاب].

فعندما سنحت الفرصة لبني النضير لم يترددوا في القيام بتنظيم أخطر غزو تعرضت له المدينة في تاريخها، حيث سعى زعماء هؤلاء اليهود واستخدموا أموالهم ونفوذهم لتحشيد أقوى القبائل العربية

---

(١) من الثابت المُجمع عليه عند جميع المؤرخين ورواة الحديث أن النبي ﷺ لم يقتل من الأسرى (طيلة حياته) سوى ثلاثة، وهم:

١ ـ عقبة بن أبي معيط. ٢ ـ النضر بن الحارث العبدري، وكان هذان الرجلان من كبار مجرمي الحرب.

٣ ـ أبو عزة ـ عمرو بن عبد الله الجمحي ـ أسره المسلمون في بدر وأطلق النبي ﷺ سراحه على أن لا يحمل السلاح ضد المسلمين، ولكنه غدر وحمله مرة أخرى في غزوة أحد، فأُسر مرة أخرى فأمر النبي ﷺ بإعدامه.

الوثنية المحاربة ضد المسلمين، وكوَّنوا منها ذلك الجيش الضخم الذي بلغ أكثر من عشرة آلاف مقاتل، وجاؤوا في مقدمة هذا الجيش العظيم مستهدفين سحق المسلمين وهدم كيان الإسلام من الأساس.

بل كما حدث من يهود بني قريظة أنفسهم الذين حاربوا النبي ﷺ مع بني النضير، ثم أعفاهم النبي ﷺ ـ بصفة خاصة ـ من القتل والنفي والمصادرة (كما هو ثابت في صحيح البخاري).

فيهود بني قريظة هؤلاء ـ بالرغم من إحسان النبي ﷺ إليهم وإعفائهم بصفة خاصة من القتل والنفي والمصادرة، بعد أن ثبت اشتراكهم في الحرب ضده مع بني النضير ـ فإنهم عندما سنحت لهم الفرصة، لم يتورعوا عن الإقدام على ذلك العمل الفظيع، الغدر بالمسلمين ومحاولة القضاء عليهم بالاشتراك مع الأحزاب.

فعملية إبادة حوالي ثمانمائة مقاتل من يهود بني قريظة إنما هي عملية تتطلبها مصلحة الأمة، وهو عمل ضروري لسلامة الأمة والدولة، ويقره القانون السائد في الأرض التي يقطنها هؤلاء اليهود.

سكان هيروشيما وبنو قريظة: وإذا قارنَّا عملية القصاص العادل الذي به أباد المسلمون حوالي ثمانمائة مقاتل من خونة يهود بني قريظة المحارِبين، إذا قارنَّا هذه العملية التي يستهجنها بعض الباحثين عن المطاعن الموهومة في الإسلام، إذا قارنَّا هذه العملية بما ارتكبه ولا يزال يرتكبه هؤلاء الذين يتشدقون بذكر وحشية عملية إبادة بني قريظة ويتبجحون بذكر مدنية القرن العشرين وعدالة القرن العشرين وحقوق الإنسان لوجدنا أن عملية واحدة من عمليات الإبادة التي أقدموا عليها تكفي لأن تجعل عملية إبادة بني قريظة شيئًا لا يكاد يُذكر.

فكم سمعنا ولا نزال نسمع ويسمع ويرى العالم كيف يحصد هؤلاء المتمدنون مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال الذين لم يكونوا يومًا من المحاربين، ويستأصلون شأفتهم باسم القانون وحماية الوطن وسلامة الدولة.

فأين ـ مثلًا ـ إبادة ثمانمائة مقاتل ـ خونة محاربين ناكثين غادرين ـ نزل بهم حكم الإعدام قصاصًا، من مائتين وخمسين ألفًا غير محاربين ولا خونة ولا ناكثين ولا غادرين، مسحتهم من الوجود هم ومدينتهم نساءً وأطفالًا وشيوخًا، قنبلة ذرية واحدة أَلقت بها عليهم ـ عن قصد وسابق تخطيط ـ طائرةٌ حربية تابعة لدولة يُقال حتى هذه اللحظة إنها أم الحريات ومعقل الدفاع عن الإنسانية، وهي دولة الولايات المتحدة الأمريكية، التي ألقى سلاح طيرانها تلك القنبلة على مدينة (هيروشيما العزلاء الآمنة في اليابان) في أواخر الحرب العالمية الثانية، كما ألقى مثلها على سكان مدينة (نجازاكي العزلاء كذلك) فأباد وشوه ـ أيضًا ـ مئات الآلاف من الشيوخ والنساء والأطفال العُزَّل؟

نعم أين إعدام ثمانمائة يهودي قُتِلُوا بعد محاكمة وإدانة صريحة بالخيانة العظمى والغدر البشع، من حصد أرواح مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال العُزَّل اليابانيين دون أن يقترفوا ذنبًا أو يرتكبوا خطيئة؟

وبعد: ألا يخجل هؤلاء المتعصبون ضد الإسلام والباحثون له كل يوم عن مطعن يحط من شأنه، ألا يخجل هؤلاء هم وفروخهم من المتسبين إلى الإسلام والطاعنين ـ باسم الإنسانية ـ في الحكم الصادر والنافذ بحق هؤلاء اليهود الخونة.. ألا يخجل هؤلاء هم وفروخهم من المحسوبين على الإسلام حينما يتشدقون بطعونهم في حكم الإعدام الصادر بحق ثمانمائة يهودي ارتكبوا الخيانة العظمى، ويصفونه بأنه حكم وحشي لا يتفق مع روح القرن العشرين المتمدنة، وهم يعلمون أن أسيادهم ـ ومن يُعتَبَرون في الذروة من مدنية القرن العشرين ـ قد حصدوا أرواح مئات الآلاف من غير المحاربين من الشيوخ والنساء والأطفال عن قصد وتخطيط وسابق إصرار؟ [**غزوة بني قريظة لباشميل ٢١٧-٢٤٣**].

عدالة المدنية في القرن العشرين؟!:

يقول الشيخ عبيد: «إن عملية إبادة حوالي ثمانمائة مقاتل من يهود بني قريظة مراعاة لصالح الأمة وسلامة الدولة نقارن هذا بما قامت به أمريكا في القرن العشرين برمي القنابل الذرية على سكان هيروشيما التي كان سكانها يزيد عددهم على «مائتين وخمسين ألفًا» مسالمين ليسوا بمحاربين ولا خونة ولا ناكثين للعهد ولا غادرين بأحد، وإنما هم من الآمنين الوادعين الذين لم يحملوا السلاح، وكان فيهم النساء والأطفال والشيوخ.

وقامت طائرة بعد تخطيط سابق وقَصْد ودمرت هذا العدد دون حساب.

كما ألقى مثل هذه القنبلة على سكان مدينة نجازاكي العُزَّل فأبادوا مئات الآلاف ومن نجا من المدينتين عاش مشوَّهًا بفعل أثر القنابل الذرية.

لقد حصدت مئات الأرواح من الأطفال والآلاف من النساء والآلاف من الشيوخ والآلاف من الرجال العُزَّل اليابانيين الذين لم يقترفوا ذنبًا ولم يرتكبوا أي خطأ.

فعدالة القرن العشرين ومع ميثاق هيئة الأمم المتحدة التي أعلنت حقوق الإنسان تمت هذه الإبادة التي أقدم عليها الذين يبكون على الثمانمائة من اليهود الخونة الذين مات ضميرهم وباعوا وطنهم، ألا يخجل هؤلاء؟! الذين حصدوا مئات الآلاف من أرواح الأبرياء بالقنبلة الذرية، ألا يخجل هؤلاء الذين لوثوا تاريخ البشر وهم يتشدقون ويقولون نحن في ذروة المدنية، أي مدنية هذه التي يتحدثون عنها؟ أهي التي أباحت بقانون لطياريهم في الحرب العالمية الثانية أن يقتلوا تحت الأنقاض في ليلة واحدة أربعين ألف إنسان من المدنيين العُزَّل؟ وقد حدث هذا في مدينة هامبورج الشهيرة عندما شنت طائرات الحلفاء غاراتها الوحشية وارتكبوا هذا الجُرم الفظيع، أهذه هي المدنية التي يجعلها ضعاف العقول مقياسًا أعلى

للإنسانية والرحمة والعدل؟ أين هذا العدل الذي يتحدثون عنه في ظل قوانينهم كانت التفرقة العنصرية التي ما زالت تسيطر على روح الكثير ممن يعتنقون مبدأ هذه الدول.

يا قوم آن لكم أن تفكروا وأن تعلموا أن ما يجري في ساحة المسجد الأقصى وحوله إنما يعود إلى ما قدمناه أن اليهود لا يحبون إلا أنفسهم، وقد قالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران].

إن اليهود لن يستطيعوا أن يتعايشوا بسلم وسلام مع المجتمع الإنساني إلا إذا قلمت أظافرهم وانحصر مدهم وتعامل المجتمع معهم بالقوة؛ لأنهم أحرص الناس على حياة ويحاولون سفك دماء غيرهم، ويقولون كما حكى القرآن عنهم: ﴿۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة].

إن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة لأنهم تمرسوا على الخطيئة وتشربت أرواحهم الإجرام فأنكروا الحق بعد معرفته وتطاولوا على «الله»، وخذ مثلًا عندما ذهبوا إلى النبي ﷺ وقالوا في تعنت وعبث واستهتار: يا محمد صف لنا ربك كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب الرسول ﷺ أشد الغضب فأتاه جبريل عليه السلام وتلا عليه الجواب المسكت لسؤالهم: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر].

إن اليهود في هذه الأيام يشنون على الإسلام وأتباعه الحرب الباردة، وفي نفس الوقت يخططون في كل يوم لحرب ساخنة، فأين المسلمون؟ سؤال له إجابته إن شاء الله عندما يظهر صلاح الدين الأيوبي، وهو آت في يوم قريب عندما يفهم المسلمون قدرهم ويعرفوا وضعهم الدولي ويعرفوا قدر أنفسهم وبما تحمله أوطانهم وبلادهم وأرضهم وبحارهم وأنهارهم من خير عظيم لو نظمناه في خطة خمسية لارتفع مستوانا واستطعنا أن نمسك بزمام الأمر ويومئذ نقول: «وامعتصماه» فنجد مليون معتصم يضع يده في يد صلاح الدين الأيوبي ويتقدمون إلى ساحة القتال وهم يرددون: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠]، ثم يردد الناس من ورائهم: دار ابن لقمان على حالها». [**غزوة الأحزاب لعبيد ٨٤-٨٧**].

خرافة مدنية القرن العشرين:

يقول أ/ باشميل: «وأية مدنية القرن العشرين هذه التي يتبجح هؤلاء المتعصبون وفروخهم بسُمُوِّها وعلو روحها، ويجعلون منها مقياسًا للعدل والرحمة والتمدن، وبمعيارها يُصدرون حكمهم بالقسوة والوحشية والهمجية على قرار حكم الإعدام الذي صدر ونُفذ في حق يهود بني قريظة.

أهي هذه المدنية التي - كما رأينا ورأى العالم - سمح أقطابها وحُماتها وسدنتها لأنفسهم أن يمسحوا من الوجود - بسلاح وحشي رهيب - مئات الآلاف من النساء والشيوخ والأطفال العُزَّل؟

أهي هذه المدنية التي سمح حُماتها وسدنتها لطياريهم ـ في الحرب العالمية الثانية ـ أن يقتلوا تحت الأنقاض في ليلة واحدة أربعين ألف إنسان من المدنيين العُزَّل؟. [١] إلخ.

أهي هذه مدنية القرن العشرين التي بها يتشدق الببغاوات من المحسوبين على الإسلام ويجعلونها مثلهم الأعلى ومرجعهم الأول في الحديث عن الإنسانية والمدنية وحقوق الإنسان، ويحتجون بأن إعدام ثمانمائة مقاتل من خونة يهود بني قريظة يتنافى مع روح مدنيتهم هذه؟

أهذه هي مدنية القرن العشرين التي أباحت بقانونٍ دمَ إنسان زنجي إذ حكمت عليه بالإعدام ونُفذ فيه هذا الحكم؛ لأنه سرق دولارين من إنسان أبيض [٢]، وحكمت بالإعدام على زنجي آخر لأنه (فقط) راود امرأة بيضاء عن نفسها ولم يرتكب الخطيئة؟

أهذه هي المدنية العالية التي يجعلها الحاقدون على الإسلام والمفتونون من المنتسبين إليه، مقياسًا أعلى للإنسانية والرحمة والعدل، توزن بميزان روحها أعمال أعظم وأعدل وأرحم رجل عرفه التاريخ محمد بن عبد الله ﷺ، ويَصفون حكم الإعدام الذي أقره ونفذه في يهود بني قريظة بالقسوة والهمجية بحجة أنه يتنافى مع روح هذه المدنية، مدنية القرن العشرين إياها؟؟ [٣]

وبعد: لقد تعمدنا في مناقشة المعترضين على حكم الإعدام الجماعي الصادر بحق يهود بني قريظة والنافذ فيهم.. تعمدنا إغفال النصوص الشرعية والاحتجاج بها، ومناقشتهم في حدود مفهوم الأعراف والقوانين العصرية التي يقدِّسونها؛ لأنهم لا يؤمنون بالإسلام الذي هو مصدر تلك الأحكام التي نُفذت في اليهود.

فصار من غير المجدي محاولة إقناعهم بوجاهة ذلك الحكم وعدالته عن طريق الرجوع بهم إلى قواعد ونصوص الشريعة الإسلامية من آيات وأحاديث.

---

(١) عندما كنت في زيارة لألمانيا الغربية عام ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، زرت مدينة هامبورج الشهيرة، وعندما كنا نتجول في أحد الأحياء الشهيرة من هذه المدينة قال لنا الدليل المرافق: إنه في ليلة واحدة قُتل من أهل هذه المدينة أربعون ألفًا بفعل الغارات الجوية التي شنتها طائرات الحلفاء بدون تمييز على هامبورج، وكم مِثْل هذه الأعمال الوحشية التي ارتكبها الذين يتشدقون بروح مدنية القرن العشرين المزعومة. [باشميل]

(٢) قبل ما يقرب من خمس سنوات حكمت محكمة أمريكية في الولايات المتحدة بالإعدام على الزنجي (جيمس ولسون) وجريمته (كما أعلنت المحكمة) أنه سرق دولارين إلا ربعًا من امرأة بيضاء.. انظر كتابنا [باشميل] (صراع مع الباطل ص١١٧).

(٣) وأين هؤلاء الذين يريدون الطعن في الحكم الصادر والنافذ في ثمانمائة مقاتل من بني قريظة بحجة أنه يتسم بطابع الوحشية والانتقام، أين هؤلاء المتمدنون من فعلة ريتشارد (قلب الأسد) قائد الحملة الصليبية في فلسطين الذي أعدم ثلاثة آلاف أسير من المسلمين في فلسطين بعد أن أعطاهم الأمان وقطع على نفسه عهدًا بحقن دمائهم؟! كما أثبت ذلك جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب)؟.

فهذه النصوص والقواعد إنما يُناقَش في حدودها من يؤمن بمصدرها ويرى نفسه مُلزمًا بالرضوخ لها والاحتكام إليها.

وأعداء الإسلام هؤلاء وفروخهم من الذين يسيرون على أصول قوانينهم في تشريعاتهم الوضعية إنما يهدفون بمحاولاتهم الطعن في الحكم الصادر بحق اليهود، انتقاص أصول هذه الشريعة الإسلامية الغراء؛ ولهذا لزم إبطال مزاعمهم ونقض مطاعنهم في حدود قانونهم وبمنطقهم ذاته.

حكم بني قريظة في شريعتهم:

وهناك أمر آخر مهم لابد من ذكره بهذه المناسبة، وهو أن الحكم الذي أصدره سعد بن معاذ ﷺ على يهود بني قريظة، وأقرَّه النبي ﷺ وقام بتنفيذه، قد جاء ـ تمامًا ـ وفق الشريعة الموسوية عند اليهود أنفسهم كما في التوراة عندهم.

فقد نصَّ الإصحاح العشرون في سفر التثنية من كتابهم المقدس، على أن لهم قتل كل الرجال من أعدائهم إذا ظفروا بهم، وامتلاك نسائهم وأطفالهم وكل ما يملكون.

وهذا هو نص الإصحاح العشرين من سفر التثنية: «**وإن لم تسالمك أية قرية بل حاربتك، فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة، كل غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك**».

[سفر التثنية: ٢٠، ١٣- ١٤].

وهذا النص الصريح في كتاب اليهود المقدس يجعل هؤلاء اليهود ـ بالتأكيد ـ يرون أن من حقهم تنفيذ حكم الإعدام فيمن وقع في أيديهم من أعدائهم الرجال، وسبي نسائهم وذراريهم، ومصادرة كل ممتلكاتهم.

وهذا يعني أن اليهود لو نجحوا في مؤامرتهم وتم لهم ولأحلافهم التغلب على المسلمين لما ترددوا لحظة في إبادة المحاربين منهم، وسبي نسائهم وذراريهم، ومصادرة أموالهم، تمشيًا مع حكم كتابهم المقدس الذي جاء صريحًا في سفر التثنية.

وهكذا جاءت العقوبة التي أنزلها المسلمون باليهود هي نفس العقوبة التي كان هؤلاء اليهود ينوون إنزالها بالمسلمين لو وقعوا في أيديهم.

فالحكم النازل باليهود إنما جاء ـ تمامًا ـ وفقًا لشريعتهم، فهو إذن جزاءً وفاقًا.

ولهذا لم يبق ـ لا من الناحية الدينية ولا الوجدانية ولا القانونية ـ أي مجال للانتقاد في الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة.

وبالإضافة إلى كل ما أوردنا من حجج لا تقبل الجدل فإنا نقول لهؤلاء الطاعنين والمستبشعين لهذا الحكم: إنه مهما تقُولون في صرامة هذا الحكم وقسوته، فإن أي واحد منكم لو كان مسؤولًا عسكريًّا عن

سلامة أمته ـ وفي أي عصر من العصور ـ فتعرَّض هو وجيشه ووطنه وأمته لمثل ما تعرض له محمد ﷺ من خطر خيانة يهود بني قريظة وغدرهم بانقلابهم على المسلمين في ذلك الظرف، ذلك الغدر والانقلاب الذي جعل جيش المدينة ـ الذي كان اليهود جزءًا منه بموجب المعاهدة ـ يقع في أخطر مأزق يمر به في تاريخ حياته العسكرية.

حيث وصل هذا الجيش ـ بسبب خيانة بني قريظة ـ إلى درجة من الخطر كانت قاب قوسين أو أدنى من الإبادة لولا عناية الله التي أنقذت المسلمين بمعجزة.

نعم نقول لهؤلاء المعترضين: لو أن واحدًا منهم كان قائدًا عسكريًّا وتعرَّض هو وجيشه وأمته ووطنه لمثل ما تعرَّض له النبي القائد ﷺ من يهود بني قريظة، لما وسعه إلا أن يُنزل بهم ـ على الأقل ـ ذلك الحكم الذي أنزله الرسول ﷺ بأولئك اليهود الخونة الغادرين.

دفاع مجيد:

لقد رأيت بحثًا أعجبني في الدفاع عن سعد بن معاذ ﷺ القاضي المحكَّم في بني قريظة لكاتب إسلامي فاضل هو الدكتور/ محمد رجب البيومي، فنَّد فيه مزاعم المستشرقين، وأنحى باللوم على المنتسبين إلى الإسلام من القانونيين الذين تأثروا بوساوس المستشرقين.

فقد نشرت مجلة الحج الغراء الصادرة بمكة المكرمة في عددها الثاني عشر من سنتها الثامنة عشرة مقالًا لهذا الكاتب الكريم تحت عنوان: (إنصاف سعد بن معاذ رضي الله عنه).

ولأهمية هذا المقال فإنا سنقتطف منه للقراء أهم النقاط المتعلقة ببحثنا هذا.

قال د/ البيومي: «ليس من الغريب أن يندفع غلاة المستشرقين في تجريد سيد الأوس سعد بن معاذ رضي الله عنه، حين أصدر حكمه العادل باستئصال بني قريظة، إذ خانوا الله ورسوله وتآمروا بالمسلمين، فحالفوا قريشًا على حرب محمد ﷺ، ناقضين عهودهم الوثيقة، ومعلنين دفائن أحقادهم الثائرة.

ويوم صدق الله وعده فرد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وحان أوان القصاص فارتضوا سعد بن معاذ رضي الله عنه حَكَمًا، فجزاهم بما اقترفوا من العقوق والغدر أعدل الجزاء.

ليس من الغريب أن يندفع غلاة المستشرقين في ذلك عن غرض جائر وهوىً مريض، إنما الغريب حقًّا أن يستمع إليهم بعض عقلائنا المسلمين من كبار رجال القانون، فيروا في حكم سعد رضي الله عنه مغالاة كبيرة.

ولا أدري كيف يقولون ذلك وقد درسوا القوانين المعاصرة دراسة نافذة، وكان في مقدرتهم أن يطبقوها على قضية بني قريظة ليروا أن قوانين القرن العشرين لا تختلف في شيء عما أصدره سعد بن معاذ رضي الله عنه.

ثم يقول د/ البيومي: ولكن أقوال ذوي الغرض من المستشرقين قد خدعت رجالنا عن عقولهم، فنسوا ما يحفظون وتجاهلوا ما يعلمون.

ثم يكر د/ البيومي على تلك المطاعن، فيثبت بطلانها عن طريق المقارنة بين القوانين العصرية الوضعية وبين حكم سعد ﷺ على اليهود قائلًا: وسنضطر هنا إلى مخاطبتهم القانونية.

ثم يقول: لقد كان بين الرسول ﷺ وبين يهود بني قريظة معاهدة تحفظ حقوق الفريقين، وتقضي على كل فريق أن ينصر الآخر إذا واجه خطرًا في حرب.

ولكنهم (أي اليهود) تآمروا فانضموا إلى أعدائه وأوقعوه بين شقي الرحى في المدينة، مصطليًا بنار أعدائه المشركين من جهة واعتداء حلفائه اليهود في ساعة العسرة من جهة ثانية.

فاقترفوا بذلك الغدر الشنيع ثلاث جرائم:

أولًا: رفع السلاح ضد سلطان المدينة مع الأجنبي المعتدي.

ثانيًا: دس الدسائس لدى العدو ضد المسلمين.

ثالثًا: تسهيل دخول العدو للبلاد.

ثم يعقب د/ البيومي على إدانة اليهود بهذه الجرائم الثلاث فيقول:

وقانون العقوبات المصري ـ وهو أقرب قانون يعرفه من يؤاخذون سعدًا ﷺ من رجالنا القانونيين ـ يجعل الإعدام عقوبة كل جريمة من الجرائم الثلاث (التي ارتكبها اليهود). [١]

وينص على ذلك في المواد ٧٧، ٧٨، ٧٩، وهذه هي نصوصه على الترتيب:

(المادة ٧٧): يُعاقب بالإعدام كل مصري رفع السلاح على مصر أو التحق على وجه بعمل في القوات المسلحة لدولة تحارب مصر.

(المادة ٧٨): كل مَنْ ألقى الدسائس إلى دولة أجنبية أو إلى أحد من مأموريها أو إلى أي شخص يعمل لمصلحتها، أو تخابر معها أو معه بقصد استعدائه على مصر أو تمكينه من العدوان عليها يُعاقب بالإعدام، سواء تحقق الغرض أم لم يتحقق.

(المادة ٧٩): يُعاقب بالإعدام كل من سهَّل دخول العدو إلى البلاد أو سلَّمه مواقع أو سفنًا أو طائرات مما يُستعمل في الدفاع عن البلاد، أو نقل إليه أخبارًا، أو أرشده، أو حرَّض الجنود على الانضمام إليه، أو أثار الفتن والشائعات، أو نحو ذلك. [٢]

---

(١) القانون المعمول به في مصر حتى الآن هو مزيج من القوانين الأجنبية الفرنسية والسويسرية والإيطالية والإنجليزية، ولم يكن هذا القانون يعتمد على الشريعة الإسلامية في أية ناحية من نواحيه كقاعدة يرجع إليها.. ينظر كتاب (حقيقة القومية العربية) للأستاذ المصري المشهور محمد الغزالي.

(٢) وبالرجوع إلى جميع القوانين الوضعية العصرية يتضح أنها جميعًا تتفق على هذه العقوبات في محاكماتها للمواطنين الخونة.

ثم يؤكد عدالة العقوبة النازلة بيهود بني قريظة ـ من وجهة نظر مدنية القرن العشرين ـ فيقول: فقانون القرن العشرين صريح في إدانة بني قريظة حيث ارتكبوا جميع ما تستحق جريمة واحدة منه الإعدام.

وسنعرض لخيانتهم بالتفصيل حين نوجز سيرة سعد ﷺ؛ ليعلم القارئ المنصف، كم تجنَّى عليه أعداء الإسلام إذ وصفوه بالوحشية والقسوة والغدر.

وكم تنكب رجالنا من القانونيين سبيل الإنصاف حين زعموا أن حُكْمه القضائي لا يوائم أحكام القرن العشرين، وقد فاتهم أن يحيطوا بالقضية من أطرافها ليروا شططهم البعيد.

أما الرجل (يعني سعد بن معاذ ﷺ) فبطل صادق ومسلم صريح.

إن هؤلاء الغادرين قد آسفوه بخيانتهم الأثيمة، فما راعوا إلًّا ولا ذمة، وكان سعد ﷺ مع قومه من الأوس قد شفع لديهم ـ بادئ ذي بدء ـ ليرجعوا عن غدرهم الفاضح، فما راقبوا الله في حلف أو ميثاق حتى انكشفت الغمة فقبعوا في حصونهم يترقبون ما تتمخض عنه الحوادث.

وطبيعي أن يعجِّل المسلمون بعقاب هؤلاء الخونة عقابًا رادعًا، فاتجهوا إليهم على الفور وحاصروهم في ديارهم خمسًا وعشرين ليلة أججت القلق والحسرة في ضلوعهم، فعرَضوا شروطًا للجلاء كما فعل بنو قينقاع، وأملوا أن يتقبلها الرسول ﷺ بقبول حسن.

وقد اتجهت أنظارهم إلى حلفائهم من الأوس ليكونوا شفعاءهم لدى محمد ﷺ، ورسول الله ﷺ يدرك نفسيات قومه، فيضع الشيء في موضعه، إذ يختار سعد بن معاذ ﷺ «حليف بني قريظة» ليكون فيصلًا قاطعًا يَنزل الفريقان على رأيه.

وسعد ﷺ قد قدَّر الموقف تقدير من شاهد كروبه ومآزقه، وعرف النُّذُر المستطيرة التي تراءت في الأفق، فأوشكت بالعصبة المؤمنة، لولا عناية الله التي أثارت الريح.

ولقد همَّ أصحابه يزيِّنون له الإحسان في مواليه، ويجنحون به إلى السلام والفداء، فماذا فعل عند ذاك؟

لقد حكم (سعد ﷺ) بأن تُقتل الرجال، وتُقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء، وأمر الرسولُ ﷺ بتنفيذ الحكم.

ولاقى اليهود أسوأ مصير على أفظع خيانة تُوَجَّه إلى مُعاهِد مسالم [1] يأمن حلفاءه، فيأتيه الروع من مأمنه الحصين.

---

(١) بل إلى مواطن آمن كان ينتظر النصر من هؤلاء الذين كانوا (يوم ذاك) جزءًا من الوطن الذي خانوه ومن الأمة التي غدروا بها؛ لأن هؤلاء اليهود كانوا (أمة مع المسلمين) بموجب المعاهدة المعقودة بين الفريقين، كما فصلنا ذلك فيما مضى من هذا الكتاب.

التَّقَوُّل على الإسلام:

ثم يقول د/ رجب البيومي: وقد كانت صرامة هذه العقوبة مدعاة للتقول على الإسلام دون عدالة وإنصاف، فالمسلمون لم يتجنوا على بني قريظة باستئصالهم المبيد؛ لأنهم متهمون بالخيانة العظمى، وقد ثبتت إدانتهم ثبوتًا قامت دلائله وفدحت نتائجه، وهذه الخيانة الخطيرة ليس لها في جميع الشرائع غير الإعدام السريع.

مقارنة بين قبائل اليهود الثلاث:

ثم ينفي الكاتب استحقاق بني قريظة لأية شفقة فيقول: ولم يكن اليهود أسرى حرب فيميل بهم إلى الشفقة، ولكنهم شر من الأعداء، إذ يبيِّتون لأناس يأمنونهم، ويخصونهم بحقوق الجار (والمواطنة) وواجبات الذمام، وموقفهم هنا يختلف اختلافًا واضحًا عن موقف بني قينقاع وبني النضير.

فالأولون قد أبدوا البغضاء من أفواههم، وأشاعوا الريب والشكوك، ورأوا في الدعاية المغرضة سلاحًا لا يفل.

والآخرون (أي بنو النضير) قد ائتمروا على قتل الرسول ﷺ وتحالفوا مع بعض المنافقين على المناجزة دون أن تتيح لهم الفرصة طريقًا يصلون منه إلى التنفيذ.

وهؤلاء وأولئك أهون خَطْبًا من الذين سَلُّوا السيوف ووقفوا في صفوف العدو، وأوقعوا الهلع في قلوب يحيط بها الروع من كل ناحية، فتعادل الكفتين بينهما طيش لا يقره إنصاف.

وقد جلا بنو قينقاع وبنو النضير عن المدينة، فكانوا مثار القلق والفتنة ومبعث الضيق للمسلمين، فهم الذين حزبوا الأحزاب وجمعوا القبائل مع المشركين ليوم الخندق، فأعطوا بمؤامراتهم المزعجة محمدًا ﷺ درسًا حاسمًا يحتم استئصال شأفتهم وتتبع أفاعيهم في كل مكمن، ليطفئ لهبًا يستعر إذا هبت عليه الريح.

ويختم د/ محمد رجب البيومي دفاعه عن الحكم الصادر والنافذ بحق يهود بني قريظة فيقول: وقد تحقق الدرس مبدئيًّا في يهود بني قريظة وظهرت نتائجه الحاسمة في خيبر، حيث تعرَّض اليهود على يد محمد ﷺ لزلزال رهيب. اهـ.

دفاع الدكتور محمد علي:

ومن الذين تعرضوا لشُبَه الوحشية والقسوة التي أراد خصوم الإسلام وفروخهم إلصاقها بحكم الإعدام الصادر بحق بني قريظة مولانا محمد علي، فقد تناول موضوع نهاية بني قريظة في كتابه الشهير (حياة محمد ﷺ ورسالته) بشيء من التحليل المنطقي، فرد (في اختصار) كل الاعتراضات التي جاءت بشأن ذلك الحكم الصارم.

فقد جاء في كتابه المذكور (أثناء حديثه عن مقتلة بني قريظة): ويتعين علينا أن لا ننسى هنا أن الإسلام كان يمر ـ آن ذاك ـ بمرحلة حرجة جدًّا من مراحل حياته، كانت هي فترة معركة أُحُد، عندما تألَّب الأعداء من كل صوب وشهروا السلاح لتسديد ضربة قاضية إلى الإسلام.

كان الهجوم الذي يشن من الخارج، خطرًا من غير ريب، ولكن الانفجار الداخلي المرتقب في كل لحظة كان أشد من ذلك خطرًا، ويقول المثل: الإنذار المسبق يساوي التسليح المسبق، وكان هذا ممكنًا في حال هجوم خارجي، لما يتيحه للمسلمين من وقت يستعدون خلاله لمواجهة الوضع.

أما الانفجار غير المرتقب في المدينة فخليق به أن يكون طعنة قاتلة تُوجَّه إلى فؤاد الإسلام نفسه.

وكان بنو النضير على صلات ودية مع أعداء الإسلام، ومثَّل بنو النضير دورًا هامًا في معركة الأحزاب، فبالإضافة إلى تحريضهم بيوتات قريش، راحوا يطوفون في الصحراء ملمِّين بمضارب البدو، يثيرونهم على الإسلام.

ثم يخلص مولانا (محمد علي) إلى الحديث عن جريمة الخيانة العظمى التي ارتكبها بنو قريظة فيقول: وتأثر بنو قريظة أيضًا، وكان موقفهم من الإسلام حتى ذلك الحين ـ أي حتى تحزيب الأحزاب ـ وديًّا[1].. تأثروا بهذه الحملة الدعاوية.

لقد رفض بنو قريظة أول الأمر أن يشاركوا ضد الإسلام، ولكنهم تلقوا تأكيدات تفيد أن المسلمين كانوا في وضع يائس، لن يتمكنوا معه من البقاء، إنهم لن يستطيعوا بأية حال الصمود في وجه الأعداد الضخمة التي نجمت مثل نبات الفطر (بضم أوله وسكون ثانيه، هو النبات الأولي الكثير الذي أول ما تنفطر عنه الأرض، والفطر أيضًا جنس من الكم أبيض عظام) في كل ناحية للقضاء على الإسلام. (وهذا الذي يجعل جريمة بني قريظة تبلغ نهايتها في الشناعة والخسة والوضاعة؛ لأنهم بدلًا من أن يخففوا من بلواء حلفائهم ومواطنيهم الذين وقعوا في ذلك المأزق المميت سارعوا إلى الإجهاز عليهم فانضموا إلى أعدائهم، وهذا أفظع ما شهدته سجلات النكث والغدر والخيانة، ومع هذا يأتي من يزعم أن الحكم النافذ في بني قريظة قد اتسم بطابع الوحشية المنافية لروح مدنية القرن العشرين).

ولقد قيل لبني قريظة أن قد آن لهم أن يختاروا بين الانحياز إلى المسلمين وبين التعاون مع الأحزاب، وهكذا أُقنع بنو قريظة بالانضمام إلى صف سائر القبائل المعادية للإسلام، فنقضوا عهدهم الذي أعطوه للمسلمين وتحالفوا مع الأحزاب، واعدين إياهم بأن يُسْدُوا إليهم العون في النزاع المقبل ـ معركة الأحزاب.

---

(١) الثابت (كما في صحيح البخاري) أن يهود بني قريظة قد حاربوا النبي ﷺ مع إخوانهم بني النضير عندما حاولوا اغتيال النبي ﷺ، ولكن الرسول ﷺ (لظروف خاصة) سمح لبني قريظة بالبقاء وأجلى إخوانهم بني النضير.

والحق أن الميثاق الجديد برغم أنه عُقد سرًّا، لم يبق حرفًا ميتًا، فقد شارك بنو قريظة عمليًّا في القتال، وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

والتاريخ أيضًا يشهد على اشتراكهم في المعركة، بل لقد بيَّتوا خطة للهجوم على نساء المسلمين أيضًا، وكان في خيانة بني قريظة ـ وقد برز في الجانب الآخر في الخندق أربعة وعشرون ألف مقاتل (لم نر في شيء من مصادر التاريخ أن جيوش الأحزاب قد بلغت هذا العدد) متحرقين لسحق الإسلام، وانهمك المنافقون في إنزال الأذى بالمسلمين في الداخل ـ مما زاد في متاعب الرسول ﷺ وأصحابه إلى حد بعيد..

وهكذا رُئي، عند انقضاء معركة الأحزاب، أن من المناسب أن تنزل ببني قريظة العقوبة التي يستحقون، والتي قد تَحُول دون تكرر مثل هذه الخيانة الغادرة في المستقبل.

ومن ثم ألقى المسلمون الحصار على معاقلهم، فاستسلموا بعد مقاومة قصيرة، وقد اختار بنو قريظة بأنفسهم سعد بن معاذ رضي الله عنه (وكان فيما مضى حليفهم) حَكَمًا يعيِّن العقوبة التي يستحقون، ولو أنهم فوَّضوا أمرهم إلى الرسول ﷺ إذن لعاملهم ـ في أغلب الظن ـ كما عامل أبناء عمومتهم بني قينقاع وبني النضير، لقد كان خليقًا به أن يحكم عليهم ـ في أسوأ الأحوال ـ بالنفي من المدينة. (هذا من المؤلف ظن أثبت عدم صوابه قول النبي ﷺ لسعد بعد صدور الحكم: حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات).

ولكن سعدًا رضي الله عنه، الحَكَم الذي اصطفوه هم، كان ينظر إلى غدرهم الخطر، في لحظة الحرج، باشمئزاز بالغ، لقد ارتأى أن عِظَمَ الأذى الذي أنزلوه بالمسلمين يقتضي عقوبة نموذجية بدونها لن تحظى المواثيق ـ في المستقبل ـ إلا باحترام ضئيل، وقد يعتبرها أي من الفريقين المعنيين عندئذ قصاصات ورق لا قيمة لها.

ومن هنا انتهى إلى هذا القرار، أن جزاءهم العادل يجب أن لا يكون ـ بأية حال ـ أخف من تلك التي قضى بها كتابهم المقدس (العهد القديم) في حق العدو المهزوم، وهذا ما يقضي به (العهد القديم) في هذا الصدد.

وبعد أن يشير مولانا محمد علي إلى النص الثابت في الإصحاح العشرين من كتابهم بهذا الصدد، يقول: «وهكذا حكم سعد رضي الله عنه، وفقًا للشريعة الموسوية، بقتل ذكور بني قريظة، وبسبي نسائهم وأطفالهم، وبمصادرة ممتلكاتهم».

ومهما بدت هذه العقوبة قاسية، فقد كانت على وجه الضبط، العقوبة التي كان اليهود ينزلونها ـ تبعًا لتشريع كتابهم المقدس بالمغلوبين من أعدائهم.

وإلى هذا فإن جريمة الغدر الشائن التي اتهم بها بنو قريظة خليق بها ـ في مثل تلك الظروف ـ أن لا تُجازَى بأيما عقوبة أخف، حتى في عصر المدنية هذا.. كان القاضي من اختيارهم، وكان الحُكم منطبقًا أشد الانطباق مع شريعتهم المقدسة نفسها، وفوق ذلك أُدينوا بخيانة من نوع خطير».

وهنا يخاطب المؤلف الفاضل، الطاعنين في حكم الإعدام الصادر بحق بني قريظة فيقول لهم: فهل من المنطق في شيء أن يُنتقد الرسول ﷺ لهذا السبب.. إن كل اعتراض على قسوة هذه العقوبة، هو اعتراض على الشريعة الموسوية.. إنه في الواقع انتقاد لا شعوري لتلك الشريعة، وتسليم بأن شريعة أكثر إنسانية يجب أن تحل محلها، وأيما مقارنة بالشريعة الإسلامية في هذا الصدد، خليق بها أن تكشف ـ في وضوح بالغ ـ أي قانون رفيق عطوف رحيم قدمه الإسلام إلى الناس. ا هـ. [**حياة محمد ورسالته ص ١٧٥**].

حديث الشيخ الغزالي:

يقول الشيخ الغزالي: «أجل.. هو القتل، وإنما تقع تبعات الحُكم به على من تعرَّض له بسوء صنيعه، وبما أسلف من نيات خبيثة لم يسعفها الحظ فتتحقق، ولو قد تحققت لكان ألوف المسلمين هلكى تحت أقدام الأحزاب المنسابة من كل ناحية يحرضهم ويؤازرهم أولئك اليهود.

وربما كانت مغامرات نفر من طلاب الزعامة سببًا في هذه الكارثة التي حلَّت ببني قريظة، ولو أن حييَّ بن أخطب وأضرابه سكنوا في جوار الإسلام وعاشوا على ما أُوتوا من مغانم، ما تعرَّضوا ولا تعرَّض قومهم لهذا القصاص الخطير».

ثم يتحدث الأستاذ الغزالي عن ظاهرة لا تزال في كل عصر وزمان، وهي أن الشعوب (فقط) هي التي تدفع الثمن باهظًا لمغامرات سادتها المتهوسين المصابين بمرض حب السيطرة والتحكم، فيقول: «لكن الشعوب تدفع من دمها ثمنًا فادحًا لأخطاء قادتها، وفي عصرنا هذا دفع الروس والألمان وغيرهم من الشعوب أثمانًا باهظة لأَثَرة الساسة المخدوعين (١).

ولذلك ينعى القرآن على أولئك الرؤساء مطامعهم ومظالمهم التي يحملها غيرهم قبلهم: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[إبراهيم] (٢)».

[فقه السيرة للغزالي ٣٢٦-٣٢٧]. [غزوة بني قريظة لباشميل ٢٥٨-٢٥٩].

---

(١) وفي هذه الأيام بالذات تُراق الدماء العربية المسلمة بغزارة رخيصة لا لتحرير وطن من غازٍ دخيل محتل، وإنما لإشباع شهوات فئة من القادة مصابين بوباء السيطرة والتسلط على غيرهم من إخوانهم، فصار لذلك العربي يقتل أخاه العربي، فأزهقت على مذابح أطماع هؤلاء الزعماء المتهوسين أرواح عشرات الآلاف من العرب، وذهبت دماؤهم هدرًا، وهكذا فالثمن (دائمًا) لطيش الزعماء وغرورهم، إنما تدفعه الشعوب من دم أبنائها.

(٢) ما أشد ما تنطبق هذه الآية على ذلك الذي دفع بخيرة جنده وصفوة ضباطه ليموتوا بالآلاف (في حرب خاسرة ظالمة) كما يموت المعتدي الأثيم الباغي، وما أسوأ المصير الذي يؤول إليه المسلم، إذ يقتله مسلم وهو يصد عدوانه عن عرضه وأرضه.

حديث ل/ خطاب:

ويقول ل/ خطاب: «القصاص العادل الذي أصاب بني قريظة بعد استسلامهم يُقِرُّه كل إنسان واقعي سليم التفكير منصفًا.

لقد طعن يهود المسلمين في أحرج وقت من أوقات محنتهم، ولو لم يكن هناك عهد بينهم وبين المسلمين لهان الخطب ولوجدنا بعض العذر لهم، ولكن أي عذر لهم وقد خانوا العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين في مثل تلك الظروف العصيبة؟

وأحب أن أتساءل: لو نجح الأحزاب في غزوة الخندق، فماذا كانوا يفعلون بالمسلمين؟

ألم تكن عاقبة المسلمين الإبادة والتمثيل؟

فلماذا لا يبيدون الذين حاولوا معاونة أعدائهم على إبادتهم؟

لقد أفسح المسلمون المجال أمام بني قينقاع وبني النضير من يهود للجلاء إلى (خيبر) وإلى ضواحي الشام، فماذا كانت النتيجة؟

أثار يهود الذي عفا عنهم النبي ﷺ الأحزاب وحشدهم أمام خندق المدينة للقضاء على المسلمين.

ومع ذلك فالموقف جدٌّ مختلف بين يهود الذين خانوا عهودهم في غزوة الخندق وبين يهود قريظة، إذ أن خيانة هؤلاء ونكثهم عهودهم كان في أحرج الأوقات وأشدها خطورة على مستقبل الإسلام والمسلمين.

فهل يبقى المسلمون سلمًا على بني قريظة أيضًا ليقوموا بدور أسلافهم بني قينقاع وبني النضير؟

لقد كان بإمكان يهود قريظة أن يتخلصوا من القتل لو أعلنوا إسلامهم كما فعل ثلاثة رجال منهم، فنجوا بحياتهم وأموالهم.

ولم يقض المسلمون بالقتل إلا على الرجال الذين قاتلوهم (فعلًا) بعد أن خانوا عهودهم وعرَّضوا المسلمين للإبادة، أما الأطفال والنساء فلم يصابوا بأذى، كما أن الذين ثبتوا على عهودهم من يهود لم يصابوا بسوء.

والمرأة الوحيدة التي قُتلت من بني قريظة هي التي قتلت مسلمًا بقذفه بالرحى من فوق سطحها، وإنما كان قتلها على جريمتها هذه لا بسبب آخر.

لقد كان قصاص المسلمين من يهود ومن غيرهم ضروريًّا عادلًا».

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٥٩-٢٦١].

رأي إنكليزي منصف:

يقول أ/ باشميل: «وإذا كانت جمهرة كُتَّاب الغرب قد جانبت الصواب، وحادت عن جادة الإنصاف عندما وصفت الحكم الصادر والنافذ بحق بني قريظة بالوحشية والقسوة، فإن هؤلاء الكُتَّاب لم يخلوا من

منصفين قالوا كلمة الحق، وأبوا الانجراف في تيار الهوى والعاطفة، فنفوا (بتجرد ونزاهة) أن يكون في ذلك الحكم أي شيء من الوحشية والهمجية، ومن هؤلاء المؤلف الإنكليزي الكبير الدكتور (مونتجمري وات)، فقد جاء في كتابه (محمد نبي ورجل دولة) ص١٧١ وما بعدها ـ ما يلي: «لقد انتقد بعض الأوربيين الحكم الصادر بحق بني قريظة ووصفوه بالهمجية، وقد اندهش بعض معاصري محمد ﷺ لعدم اكتراثه بالعواقب التي قد تنتج عن قتل بني قريظة.. إلا أن عمل هذه القبيلة أثناء محاصرة المدينة كان يعتبر ناقضًا للمعاهدة المبرمة مع محمد ﷺ».

ثم ينفي الدكتور (مونتجمري) ما ألصقه بعض المستشرقين بالنبي ﷺ من اتهامات باطلة، فيقول: ولا داعي للافتراض بأن محمدًا [ﷺ] قد ضغط على سعد بن معاذ [ﷺ] ليُنزل هذه العقوبة ببني قريظة، فإن رجلًا بعيد النظر كسعد [ﷺ] لابد أنه أدرك أن طغيان الولاء القبلي على الولاء الإسلامي سيجدد المعارك الدموية التي جاؤوا (أي الأوس والخزرج) بمحمد [ﷺ] لينقذهم منها، ويقال: إنه عندما مثل (سعد [ﷺ]) أمام محمد [ﷺ] لينفذ حكمه أشار سعد [ﷺ] إلى أن قُرب نهايته تحتم عليه أولًا القيام بواجبه تجاه ربه والجماعة الإسلامية حتى على حساب الأحلاف القديمة».

ثم يشير الكاتب الإنكليزي إلى حكمة الرسول ﷺ في اختيار حليف اليهود (سعد بن معاذ ﷺ) ليحكم فيهم، ويستدل من ذلك على بُعد النبي ﷺ عن الديكتاتورية التي اتهمه بها خصومه فيقول: «إن تعيين سعد بن معاذ [ﷺ] من قِبَل محمد [ﷺ] لم يكن يقصد به التستر وراء سلطة ديكتاتورية، لم يكن محمد [ﷺ] يملكها في ذلك الوقت، بل كان محاولة لمعالجة مشكلة عويصة بأحصف وأحذق طريقة ممكنة».

ثم يؤكد الدكتور مونتجمري بأن الحكم النافذ في حق بني قريظة لم يُنفَّذ لأنهم يهود، بل لأنهم خونة ارتكبوا الخيانة العظمى فيقول: «لم تبق قبيلة يهودية ذات أهمية بالمدينة بعد القضاء على بني قريظة، بل كانت هناك بعض المجموعات الصغيرة.. وتشير بعض الروايات إلى أن أحد أثرياء اليهود قد اشترى بعض نساء وأطفال بني قريظة، ولا شك أن اليهود الذين تخلَّفوا في المدينة كانوا على جانب كبير من الحذر، فلم يمتنعوا عن بعض النشاطات المعادية فحسب، بل حتى عن بعض النشاطات الاجتماعية، غير أن عواطفهم كانت بلا شك مع إخوانهم اليهود في غزوة خيبر.

إن استمرار وجود بعض اليهود في المدينة يمكن أن يعتبر دليلًا ضد وجهة نظر بعض العلماء الأوربيين التي تقول: إن محمدًا ﷺ انتهج في السنة الثانية من الهجرة سياسة إبادة جميع يهود المدينة لمجرد كونهم يهودًا، وأن هذه السياسة أخذت تزداد عنفًا، ثم يقول الدكتور (مونتجمري): «إلا أن محمدًا ﷺ لم يكن من طبيعته سلوك مثل هذه السياسة، فقد كان يتمتع بنظرة معتدلة لأسس المشاكل المعاصرة ولسياسة طويلة الأمد يكوِّن على ضوئها سياساته بموجب العوامل، أما بالنسبة لهجومه على القبيلتين

اليهوديتين (أي: بنو النضير وبنو قريظة) فقد كانت مجرد فرصة مواتية، غير أنه كانت هناك بعض الأسباب العميقة، فقد كان اليهود من جانبهم يحاولون زعزعة المجتمع الإسلامي بانتقاداتهم الموجهة ضد الوحي القرآني، كما أنهم كانوا يمنحون تأييدهم السياسي لأعداء محمد ﷺ ومناوئيه من المنافقين، وقد سمح لهم محمد ﷺ (مع هذا) بالعيش في المدينة دون أن يمسهم منه أي أذى.. ا هـ [ترجمة الأستاذ أحمد سالم بالعمش ص١٧١ وما بعدها]. [**غزوة بني قريظة لباشميل ٢٦٠-٢٦٢**].

ويقول الشيخ عبيد: «الإنسان العادل لا يميل مع الهوى ولا يحابي غيره؛ لأن الحق أحق أن يُتبع، والمعروف عن الغرب أن كُتَّابه يغمضون عيونهم عن عيوب اليهود ويضخمون كل صغيرة تقع من المسلمين، وهذا بلا شك ظلم وعدم إنصاف، لكنك دائمًا تجد في وسط الظلام بريق ضوء لشخص ينصف الحقيقة من هؤلاء الناس، ونقف أمام شخصية قالت كلمة الحق لأنه تجرد عن الهوى واتسم بالنزاهة فأنصف الحقيقة إنه الكاتب الإنجليزي الدكتور «مونتجمري وات» حيث ذكر في كتابه «محمد نبي ورجل دولة»، ما سبق إيراده.

هذا هو رجل منصف من الغرب لا يدين بالإسلام، ومع ذلك كان النبي ﷺ يعاملهم بالحلم والرفق؛ لأن هذا هو أساس دينه فهو المبعوث رحمة للعالمين والذي قال الله له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

لقد كان المد الإسلامي داخل المجتمع اليثربي أقوى من كل ما يقوم به اليهود من مناورات ودسائس، لقد تكشف للرأي العام حقيقة أمرهم وصبر الإسلام عليهم وأنهم كانوا دائمًا يثيرون الجدل المتعنت مع المسلمين حول ما جاء من نصوص تشريعية في القرآن الكريم، ولما باء سعيهم بالفشل في هذا الميدان ساءهم جدًّا أن تكون حصيلة صراعهم العقائدي مع دعوة الإسلام تلك الهزيمة المحطمة لآمالهم، فلجأوا إلى الإشاعات باعتبارها حربًا نفسية عنيفة، حتى إنهم في غزوة بدر أشاعوا بأن النبي ﷺ قد قُتل وأن جيش مكة زاحف بقيادة أبي جهل لاحتلال المدينة، وكانت هناك حملات دعائية واسعة من الأراجيف والتشويش لتحطيم معنويات المسلمين وإشاعة روح التخاذل والتفكك والفزع بينهم، وقد كانت هذه الأراجيف لها الفعل السيء في نفوس بعض المسلمين حيث كان المنافقون يؤازرونهم.

إذًا هناك حقد أعمى وحرص على تقويض معالم الدعوة الإسلامية والقضاء على حامل لوائها، ومع كل هذا فقد كان النبي ﷺ وهو الحاكم العام لم يقم بفرض حظر التجول على اليهود، ولم يسن قوانين (بأحكام عرفية) وكان هذا حقه الطبيعي، ولم يثبت أنه اتخذ ضدهم أي إجراء تأديبي مع علمه بما يقومون به من حرب نفسية وعدائية سلاحهم الإشاعات ونشرها بين الناس، ومع ذلك فقد كان النبي ﷺ وهو

الحاكم العام السيد المطلق لمنطقة يثرب وما حولها يتعامل معهم بلطف، ولم يحدث في أي يوم من الأيام أن تحرش بهم أو رد عليهم بمثل أعمالهم؛ لأن أساس دينه يقول له: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

والدين الإسلامي تقوم دعوته على السماحة وعدم إكراه أحد في الدخول فيه والدليل من قول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

بل هناك توجيه إلهي كذلك أن المسلم عليه أن يستقبل الكافر بسماحة ورفق وأن يفسح له في بيته ويضفي عليه الأمن والأمان لا يروعه ولا يزعجه وإنما حسن الخلق والتسامح والرفق يقول ربنا في هذا: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ [التوبة: ٦].

إذًا نقف أمام الذي حدث لليهود بعد حصارهم، ونقول ما علَّمنا ربنا في قوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾ [النور]، وقوله كذلك: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب].

ومن هنا فإننا نقول لكل مسلم وهو يناقش الحكم الصادر في حق يهود بني قريظة: إنه حكم عادل للأسباب الآتية:

(١) لأن القاضي سعد بن معاذ ﷺ من حلفاء اليهود.

(٢) لأنه يتفق مع منطوق شريعتهم وهو الأهم.

(٣) لأن النبي محمدًا ﷺ لا يرضى بظلم ولا يقره ولا يصدر أي حكم منه في مجلسه إلا بما يرضي الله لأنه مبلغ وحيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم].

لذلك كان تعقيبه ﷺ على حكم سعد ﷺ: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللهِ** ﷻ **مِنْ فَوْقِ سَبْعَةِ أَرْقِعَةٍ** (سماوات، الواحدة: رقيع)». [**غزوة الأحزاب لعبيد ٨٠-٨٤**].

نظرة في الحكم:

يقول الشيخ أبو زهرة: «لاشك أن الحكم شديد، ولكنه عادل، والنظر لا من ناحية أنه عادل، ولكن أما كان موضع للتخفيف، ونقول في ذلك:

إنهم مقاتِلون، واستمرت لهم صفة المقاتلين إلى آخر لحظة، وعلي بن أبي طالب ﷺ، عندما تقدم لهم خاطبهم على أنهم مقاتِلون، وقال ﷺ وهو يهاجمهم: لأذوقن ما ذاق حمزة، ولأفتحن حصنهم، فلما رأوا العزيمة في علي ومعه الزبير، وأنهم مغلوبون لا محالة، وطلبوا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ﷺ منهم

ارتضوا ما ينفذ فيهم قبل أن ينزل الحكم فيهم، فهم الذين نفذوا الحكم فيهم إذ ارتضوا المحكم فيهم، ومن المقررات القانونية أن من ارتضى محكمين ليحكموا فيه، فقد فوض لهم، ولهم بهذا التفويض أن يحكموا بما يرونه عدلًا، ولقد حكم، وهو الذي ذهب إليهم ليحول بينهم وبين تنفيذ نقض الميثاق فردوه ردًّا نُكرًا، وعرف أنهم يريدون اقتلاع الإسلام، وقتل أهله.

ولقد خضع المدبرون منهم لحُكمه، وأدركوا أنه بما قدمت أيديهم، حتى لقد روي أن حيي بن أخطب عندما قُدم للقصاص قال لرسول الله ﷺ: **أَمَا وَاللهِ مَا لُـمْتُ نَفْسِي فِي عَدَاوَتِكَ، وَلَكِنَّهُ مَنْ يَخْذُلِ اللهُ يُخْذَلْ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَا بَأْسَ بِأَمْرِ اللهِ كِتَابٌ وَقَدَرٌ وَمَلْحَمَةٌ كَتَبَهَا (كُتِبَتْ) اللهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، ثُمَّ جَلَسَ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ.**

وهكذا كانوا يحسون بأن ما نزل بهم قصاص، وما للناس يقولون: كان على النبي ﷺ أن يشفق عليهم، ومع ذلك إذا لم يقتل رجالهم، فماذا يصنع معهم، أيعفو عنهم، ولو تمكنوا لقتلوه وقتلوا الإسلام، وشردوا أهل المدينة، إن العفو عن الجاني ظلم في ذاته، أم يخرجهم من أرضهم ويجردهم من أموالهم، وذلك لا يخلو من عفو، وقد قلنا: إنه في هذا المقام ظلم، ثم ماذا يكون إذا خرجوا، وفيهم أكثر من سبعمائة مقاتل.

ألا يكونون حربًا عليه، ويتجمعوا يؤلبون يهود الجزيرة العربية، ويكون قد أشفق عليهم لينقضوا عليه إن واتتهم الفرصة، كمن يشفق على اللصوص ليجمعوا أمرهم، ويستلبوه ما يعتز به، ويأخذوا ما عنده.

إنه لم يكن إلا القتل، كفاء ما صنعوا، وهم الذين قتلوا أنفسهم بما دبروا وبما فعلوا.

قد يُقال: إنهم قد صاروا أسرى، والأسرى لا يُقتلون، ونقول في الجواب عن ذلك:

إن المسلمين والنبي ﷺ لم يشدوا الوثاق؛ لأنهم منهيون عن ذلك بحكم آية الأسرى إذ يقول ﷻ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾[الأنفال].

فما كان للنبي ﷺ أن يشد الوثاق وهو لم يثخن فيهم جراحًا، ولم ينل منهم نيلًا، بل إنهم هم الذين ارتضوا حكمًا معينًا، والقتل من جانب المسلمين قائم، لم تعد السيوف إلى أجفانها ولا القلوب إلى جنوبها.

بل إن قتالهم امتداد لقتال الأحزاب الذين مالؤوهم لم ينته، وإذا كان المشركون قد ألقى الله في قلوبهم الرعب، ففروا، فأولئك قد بقوا، وكان حقًّا عليهم أن يقاتلوا فما قاتلوا.

وقد يقول قائل: إن النبيين رحماء، ونقول لهم: إن العدالة رحمة والقصاص حياة، ورحمة الإسلام دفع الظلم، وإقلاعه من أساسه، والنبي ﷺ قال: أنا نبي الرحمة، وأنا نبي الملحمة، والله ﷻ عزيز حكيم».

[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٠٢-٨٠٣].

الجزاء من جنس العمل:

يقول أ/ كولن: «كان بنو قريظة قد خانوا المسلمين ـ ولا سيما في أثناء معركة الخندق ـ وأرادوا طعنهم من الخلف، وأرسلوا من يتجسس لهم حول حصن النساء لكي يقوموا بالهجوم عليه، ولكنهم لم يجدوا الفرصة المواتية لذلك، هذا مع العلم أنهم كانوا قد اتفقوا وتعاهدوا مع رسول الله ﷺ، ولكنهم نكثوا العهد وأعلنوا الحرب على المسلمين.

ولم يقف ذنبهم عند هذا الحد، بل فتحوا قلاعهم وحصونهم لاستقبال أعداء المسلمين ـ مثل حيي بن أخطب ـ الذين كان من المُبعدين السياسيين من قِبَل المسلمين، مع أن مثل هذا التصرف كان يعد انتهاكًا للعهد.

بالرغم من كل هذا فلو اعتذروا للرسول ﷺ عندما أقبل إليهم وطلبوا منه العفو لكان من الممكن أن يصفح الرسول ﷺ عنهم؛ ذلك لأنه كان يميل على الدوام إلى التعايش الجيد معهم، غير أنهم سلكوا سلوكًا معاديًا للمسلمين وللرسول ﷺ، فقد عشعش السوء في سويداء قلوبهم، وعندما أسقط في أيديهم استسلموا». [**النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/ ١٠٨**].

ويقول أ/ دويدار: «هذه قصة بني قريظة كما رواها التاريخ، فهل فيها ما يعاب على رسول الله ﷺ؟ لقد كانت مذبحة عظيمة حقًّا، قضى فيها على قبيلة كاملة من اليهود، ولكن هذه المذبحة نفسها كانت من نصيب المسلمين، لو تم ما أرادت الأحزاب من القضاء على محمد ﷺ وأصحابه، فهو الجزاء من جنس العمل إذن، وهو الجزاء الذي يحكم به الدين، ويحكم به العقل، ويحكم به القانون قديمه وحديثه.

يقول المؤرخ بودلي: «والحقيقة أنه لو فكر يهود المدينة في الأمر لوجدوا أن محمدًا ما فعل شيئًا ـ أكثر أو أقل ـ من تنفيذ التعليمات التي وضعها قومهم في الإصحاح العشرين من تثنية سفر الاشتراع.

ويقول د/ هيكل: «وفي رأينا أن دم بني قريظة معلق في عنق حيي بن أخطب، وإن كان قد قُتل معهم، فهو قد حنث في العهد الذي عاهد قومه من بني النضير حين أجلاهم محمد ﷺ عن المدينة ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمه أحدًا، وهو بتأليبه قريشًا وغطفان وتحزيبه العرب كلها لقتال محمد ﷺ، قد جسّم العداوة بين اليهود والمسلمين، وجعل هؤلاء يعتقدون أن بني إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد ﷺ وأصحابه ﭫ، وهو الذي حمل بني قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها والخروج من حيادها، ولو أنها بقيت عليه لما أصابها من الشر شيء، وهو الذي دخل حصن بني قريظة بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم، ولو أنهم نزلوا على حكم محمد ﷺ منذ اليوم الأول واعترفوا بخطئهم في نقض عهدهم، لما أُهدرت دماؤهم وضُربت أعناقهم، ولكن العداوة بلغت من التأصل في نفس حيي وانتقلت منه إلى نفوس بني قريظة حدًا جعل سعد بن معاذ ﭬ

نفسه، وهو حليفهم، يؤمن بأنهم إن أبقى على حياتهم لم تهدأ لهم نفس حتى يؤلبوا الأحزاب من جديد، وحتى يجمعوا العرب لقتال المسلمين، وحتى يقتلوهم عن آخرهم إن ظفروا بهم.

فالحكم الذي أصدره على قسوته إنما أصدره متأثرًا فيه بالدفاع عن النفس، معتبرًا بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين». [**حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٥٠**].

وهذا الذي يراه الدكتور هيكل من تحميل وزر هذه المذبحة على حيي بن أخطب، هو ما رآه سلام بن مشكم من رجال بني النضير حين بلغه خبر بني قريظة فقال: **هَذَا كُلُّهُ عَمَلُ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، شَأَمَنَا أَوَّلًا وَخَالَفَنَا فِي الرَّأْيِ، فَأَخْرَجَنَا مِنْ أَمْوَالِنَا وَشَرَفِنَا وَقَتَلَ إِخْوَانَنَا، وَأَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ سِبَاءُ الذُّرِّيَّةِ، لا قَامَتْ يَهُودِيَّةٌ بِالحِجَازِ أَبَدًا، لَيْسَ لِلْيَهُودِ عَزْمٌ وَلا رَأْيٌ**..

وهو ما تنبأ به كعب بن أسد وهو يحاور حيي بن أخطب إذ يقول له ـ حين جاء إليه يدق باب حصنه ويغُرُّه بما جمع له من رجال قريش وغطفان ـ: **وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! إِنَّكَ امْرُؤٌ مَشْؤُومٌ..! جِئْتَنِي وَاللهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ، وَبِجَهَامٍ قَدْ هَرَاقَ مَاءَهُ، فَهُوَ يُرْعِدُ وَيُبْرِقُ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ!** [صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٤٣٩-٤٤١].

ويقول عميد/ فرج: «صدر هذا الحكم عن رجل راسخ العقيدة عميق الإيمان يجله الجميع، ودليل ذلك أنهم قبلوا أن يكون الحَكَم وعاهدوه أن يقبلوا حكمه.

وهو حكم يقضي بقتل بني قريظة جميعًا، هو في مظهره حكم شديد فيه قسوة، ولكنه في جوهره حكم عادل لا جور فيه ولا ظلم.

ترى ماذا كان الموقف لو أن الأمر كان بأيديهم؟ كيف كانوا يتصرفون بالرسول ﷺ والمسلمين ﷺ إذا وقع هؤلاء جميعًا في أيديهم؟

إن المنطق يقول بأن بني قريظة كانوا سيقتلون محمدًا وأصحابه ليتخلصوا إلى الأبد منه ومن دعوته، وقتله وأصحابه كان أملًا يحلم به اليهود والمشركون، ألم يجتمع المشركون حول داره في بلده يستهدفون قتله؟ ألم يخرجوا إلى بدر ليتخلصوا منه ومن أصحابه؟ ألم يسعوا في أُحُد إلى قتله وقتل الرؤوس من رجاله! ألم يكن اتفاق الأحزاب كما ورد على لسان وفد اليهود إلى قريش: «**إِنَّا سَنَكُونُ مَعَكُمْ عَلَيْهِ حَتَّى نَسْتَأْصِلَهُ**»؟

إن اليهود لو تمكنوا منه لقتلوه وقتلوا الإسلام وشردوا أهل المدينة، فإذا ما أصبح زمام الموقف في يد محمد وأصحابه، فإن القتل واجب، وهو حكم عادل لا غبن فيه، وهو حكم دعا إليه وأوجبه الدفاع عن النفس.

إن نهاية بني قريظة تقع على عاتق حيي بن أخطب، فهو الذي دفعهم إلى حنث العهد، وهو الذي سعى إلى تحزيب الأحزاب لقتال الرسول ﷺ، وهو الذي ألب القبائل ضده، وهو الذي دخل حصنهم

بعد رحيلهم وحضهم على قتال الرسول ﷺ، ولو أنهم تمسكوا برأي كعب في أول الأمر، ولو أنهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ من بدء حصارهم، ولو أنهم اعترفوا بخطئهم في نقض العهد، لما تعرضوا لهذا الحكم ولما ضُربت أعناقهم، ولقد قال سلام بن مشكم حين بلغه خبرهم: «**هَـذَا كُلُّـهُ عَمَـلُ حُيَـيِّ بْـنِ أَخْطَبَ**»، وهذا القول تأكيد لما قاله كعب لحيي: «**وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! إِنَّكَ امْـرِؤٌ مَشْـؤُومٌ..! جِئْتَنِي وَاللهِ بِـذُلِّ الدَّهْرِ، وَبِجَهَامٍ قَدْ هَرَاقَ مَاءَهُ، فَهُوَ يُرْعِدُ وَيُبْرِقُ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ!**».

أما ما يثار من أن الرسول ﷺ قد قتل أسراه فهذا منطق منحرف وإثارة خاطئة، ذلك أن الرسول ﷺ وأصحابه كانوا قد نُهوا عن شد الوثائق حتى يثخن في الأرض، فوق أنهم قد ارتضوا حكم رجل اختاره حلفاؤهم ليحكم فيهم، ولو جاء حكمه بغير القتل لقبله الرسول ﷺ».

[**العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٠٣-٣٠٤**].

ويقول أ/ رضوان: «وقد صار الإعدام هو الجزاء العادل للخيانة العظمى في كل دول العالم المتحضرة في القرن العشرين.

وقد طبق عليهم الرسول ﷺ هذا الحكم لخيانتهم العظمى له وللمسلمين، ونقضهم عهده، ومحاولتهم القضاء على المسلمين بطعنهم في ظهورهم ومعاونة أعدائهم عليهم.

وطبق الرسول القائد ﷺ ـ أيضًا ـ عليهم شريعتهم». [**محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٩٧**].

ويقول د/ طنطاوي: «وبعد: فهل ظلم المسلمون اليهود بهذا الحكم؟

للإجابة على هذا السؤال نقول: كلا ما ظلمهم المسلمون، ولكن بني قريظة هم الذين سعوا إلى حتفهم بظلفهم، بسبب خيانتهم للعهود، التي بينهم وبين المسلمين في ساعة العسرة، والشرائع والقوانين جميعها تقضي بأن من خان عهده في مثل هذه الأوقات فجزاؤه الحرمان من الحياة.

وما صنعه المسلمون معهم ما هو إلا من باب الدفاع عن النفس، وبنو قريظة ما حافظوا على عهودهم قبل غزوة الأحزاب إلا خوفًا من المسلمين، فلما وجدوا أن المسلمين قد أحيط بهم من كل جانب، أعلنوا عن حقيقتهم، فنقضوا عهودهم، وانضموا إلى المشركين المهاجمين». [**بنو إسرائيل لطنطاوي ٣٠٥-٣٠٦**].

ويقول د/ أبو خليل: «غزوة بني قريظة قصاص عادل لخيانة علنية، مع نقض معاهدة موقَّعة تعهدوا بموجبها دعم المسلمين، إذا داهمهم عدو («وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه..». ابن هشام ٢/ ١٠٧)، فانحازوا إلى جانب العدو، ومتى؟! عندما رأوا عشرة آلاف مقاتل حول المدينة، فظنوا أن الأمر قد انتهى، واستؤصل المسلمون عن آخرهم.

والقوانين الدولية، قديمها وحديثها تجيز المعاملة بالمثل، المعاملة بالمثل مبدأ مقرر في القانون الدولي، وهذا المبدأ في الإسلام مقيد بالفضيلة، فإذا تعارض مع الفضيلة، أهمل واتبعت الفضيلة، فإذا قتل العدو الأطفال، أو هتك الأعراض بقي المسلمون مقيدين بالفضيلة لا يجارونه في رذائله.

عاهد رسول الله ﷺ اليهود منذ وصوله إلى المدينة، فلم يكن يرغب بقتال لذاته، ولكن لما أرادوا استئصال المسلمين عن بكرة أبيهم، فآن إذن القصاص المناسب، والذي يتناسب مع ضخامة الجرم.

وفي العاقبة الغادرُ خاسرٌ دومًا، والناكثُ لعهده خاسر، وهم الذين بدأوا العداء والإفناء واستئصال المسلمين بممالأتهم الأحزاب، فكانت صفقة خاسرة؛ لأنهم نبذوا عهودهم في أشد ساعات الحرج والشدة». [**غزوة الخندق لأبي خليل ١٣٨-١٣٩**].

ويقول د/ الزيد: «قد نجد من يستعظم حكم سعد بن معاذ ﷺ في بني قريظة؛ ولكي تتضح الرؤية الكاملة عن هؤلاء القوم ويتضح عدالة الحكم الذي صدر فيهم نشير إلى ما يلي:

(١) يقول ابن القيم ﷺ: «وَأَمَّا قُرَيْظَةُ فَكَانَتْ أَشَدَّ اليَهُودِ عَدَاوَةً لِرَسُولِ الله ﷺ وَأَغْلَظَهُمْ كُفْرًا؛ وَلِذَلِكَ جَرَى عَلَيْهِمْ مَا لَمْ يَجْرِ عَلَى إِخْوَانِهِمْ». [**زاد المعاد ٣/ ١٢٩**].

(٢) أن نتذكر ماذا سيحل بالمسلمين من هؤلاء اليهود لو نجح الأحزاب في غزوهم للمدينة، ماذا سيحصل لو تمكن بنو قريظة من مهاجمة المسلمين من ظهورهم والتعدي على نسائهم وذراريهم؟ إلى أي مدى ستكون الكارثة؟ لا شك أنها ستكون كارثة كبرى فيها الاعتداء على النساء والذراري، والمسلمون في صفوفهم أمام الأحزاب وتلك الخيانة الكبرى التي وقع فيها بنو قريظة وجعلتهم يستحقون هذه العقوبة.

(٣) أن بني قريظة كانوا مقاتلين واستمرت لهم هذه الصفة إلى آخر لحظة، ولم يكونوا ناكثين للعهد فقط، بل حملوا السلاح وأمدوا الأحزاب بالمؤن وساعدوهم واستمروا على الحرب حتى تم نزولهم على حكم رسول الله ﷺ. [**ينظر: خاتم النبيين لأبي زهرة ٢/ ٩٤٩**].

(٤) أن بني قريظة كانوا مواطنين مع المسلمين في المدينة يمثلون جميعًا الوطن الواحد الذي تعاهدوا فيه على النصرة على من دهمهم، وعندما جاء الأعداء من الخارج إذا ببني قريظة ـ وهم مواطنون في المدينة ـ يتآمرون ضد أبناء المسلمين ويرتكبون ثلاث جرائم:

(أ) اتصلوا بالعدو ونقلوا له أخبارًا عن المدينة وأهلها.

(ب) مدوا العدو الغازي بما أمكنهم من عون مادي ومعنوي.

(ج) رفعوا السلاح ضد جيش المدينة ونكثوا العهد وأعلنوا استعدادهم لضرب أبناء بلدهم من الخلف في ظرف بالغ الخطورة. [**ينظر: باشميل، غزوة بني قريظة ص ٢٥٠**].

لأجل هذا فليس غريبًا أن يصدر فيهم هذا الحكم من سعد بن معاذ ﷛ ويؤيده وينفذه رسول الله ﷺ، فتلك جريمة ضد المجتمع المسلم بكامله كبيره وصغيره، وضد مؤسساته، بل وضد الرسول ﷺ وكفى بها جرمًا.

(٥) أن حكم سعد ﷛ هذا هو ما قضى به كتابهم المقدس، كما سبق بيانه.

وهكذا يتبين لنا أن ما قضى به سعد ﷛ لم يخرج عما حكمت به التوراة، وأيضًا فهم ليسوا أعداء مهزومين فحسب بل خائنون غادرون غير وافين بالعهد [**السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٤٠٩ هامش**]».
[**فقه السيرة للزيد ٥١٦-٥١٨**].

الرد على ادعاءات المستشرقين:

يقول الشيخ عيد: «وبعد هذا نعلق على ما سماه المستشرقون قسوة ومخالفًا للعرف المتبع في الحروب في النهاية التي كُتبت على بني قريظة بعد غزوة الأحزاب، وهم الذين نقضوا العهد، وخانوا ذمة المسلمين، وعاونوا الأحزاب من الكفار عليهم.

ويحلو لي أن أسال هؤلاء المستشرقين ماذا كان مصير المسلمين لو ظفرت بهم الأحزاب؟

ليس هناك بديل من القتل والأسر وضياع الأموال وهتك الأعراض، على أن قضاء النبي ﷺ فيهم كان من صميم نصوص توراتهم التي يؤمنون بها، كان ذلك على يد رجل ارتضوه حَكَمًا بينهم، وهو سعد بن معاذ ﷛.

وبهذا نخلص بما خلص به العقاد من أن عبقرية محمد ﷺ في قيادته ودروسه الحربية الخالدة عبقرية ترضاها فنون الحرب، وترضاها المروءة، وترضاها شريعة الله والناس، وترضاها الحضارة في أحدث عصورها، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء». [**دروس من حياة الرسول ﷺ لعيد ١١٦-١١٧**].

ويقول د/ المجدوب: «يلاحظ من يقرأ ما كتبه المستشرقون والمؤرخون الغربيون عن غزوات الرسول ﷺ اهتمامهم الشديد بهذه الغزوة التي استغلوا ما انتهت إليه للإساءة إلى الإسلام والمسلمين، حيث لم يكفوا عن التنديد بما حدث من قتل المقاتلة من اليهود، وكان عددهم سبعمائة، وفي قول آخر ثمانمائة، وتباروا فيما بينهم في إظهار العطف والحزن والأسى لمقتل هذا العدد الكبير مما يوحي لمن يقرأ لهم أنهم أناس جُبلوا على الرحمة، وطُبعوا على الشفقة، وليسوا قتلة سفاحين تقطر أيديهم وأفواههم بدماء الملايين من الأبرياء الذين غزوا بلادهم، وعاثوا فيها فسادًا ونهبوها بطريقة بشعة واستنزفوا ثرواتها، وها هم يعيشون في رغد من العيش بفضل الثروات التي سرقوها، في حين أن أصحاب هذه الثروات الحقيقيين يعانون من الفقر والجوع والتخلف.

لقد تجاهلوا عن عمد ما ذكرناه حالًا من تصرفات يهود بني قريظة، وما كان سيؤدي إليه من قضاء على الإسلام وإبادة للمسلمين، ومضوا يذرفون الدموع على القتلى الأبرياء أجداد العصابات الصهيونية

المجرمة التي أعملت الذبح والتقتيل في الفلسطينيين الأبرياء العُزَّل الذين كانوا يقيمون في قراهم آمنين يظنون أن جنود بريطانيا التي كانت عظمى سيحمونهم بموجب ما يفرضه عليهم قرار الانتداب، ولكنهم تركوهم ليقعوا فريسة سهلة في أيدي القتلة السفاحين، الذين لم يتورعوا عن بَقْر بطون النساء الحبالى، وتمزيق أجساد الأطفال الصغار، وتدمير البيوت، ونهب محتوياتها في بطولة فريدة ليتهم أظهروا ربعها أو أقل من ذلك أمام هتلر وزبانيته.

ولكن هكذا هم اليهود في كل زمان ومكان، يعضون الأيدي التي تمتد إليهم بالمساعدة، ويستأسدون على الضعفاء والنساء والأطفال، ويتظاهرون بالشجاعة والجرأة أمام من يفوقونهم جبنًا ممن اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة». [**المستوطنات اليهودية للمجدوب ٩٩-١٠٠**].

كان الفتك ببني قريظة حُكْمًا موفقًا وقصاصًا عادلاً:

يقول أ/ شاكر: «وكان تقتيل بني قريظة بعد غدرهم الذي قاموا به، ونقضهم العهد الذي فعلوه، يدل على حكمة بالغة، إذ إن كثيرًا من الناس يطمع في رحمة المسلمين، وإنسانيتهم، وعدم حبهم لسفك الدماء، وعفوهم بعد المقدرة، والظن بهم خيرًا بعد أن يقعوا في قبضتهم، وكان هذا ما يشجعهم على القيام بأعمال ضد المسلمين ثم يرجون العفو.

وهذا ما كان يطمع به بنو قريظة، إلا إن سعدًا ﵁ حين حكم عليهم هذا الحكم كان يشعر أن غدرهم لو نجح لعصف بالكيان الإسلامي كاملًا؛ لذا كان معهم حازمًا.

وهذا ما يجب أن يعرفه المسلمون وأعداؤهم على سواء أن الحكمة قد تكون في الشدة، وأن للعطف موضعه، وأن للحزم موضعه أيضًا، وأن الأعداء عندما يتمادون في غيهم لابد من أخذهم بالشدة والضرب على أيديهم بقوة، ولو أدى الأمر إلى إبادتهم جميعًا كما أبيد بنو قريظة الذين كان إعدامهم درسًا لمن عاش أيامهم ولمن يعيش من بعدهم.

وكان في مقتل بني قريظة الانتهاء من العدو الداخلي، والاتجاه نحو العدو الخارجي».

[**التاريخ الإسلامي لشاكر ٢/ ٢٩٤**].

ويقول د/ فيض الله: «قد تبدو القسوة في إعدام رجال بني قريظة، بهذا الشكل، وكانوا مئات؛ فهلا خُفِّفَ الحكم بالنفي، كما كان شأن بني قينقاع وبني النضير، وأين رحمة الإسلام ـ كما قيل ـ من هذه الملحمة التاريخية؟

والجواب: أن بني قينقاع وبني النضير، خانوا العهد، ونقضوا الميثاق، فكانت الحكمة في تطهير الأرض منهم، إذ كيف يمكن أن يخلد إليهم، ويوثق بهم، وقد نبذوا المواثيق، وغدروا بالعهود.

أما بنو قريظة، فقد كانوا شيئًا غير ذلك، كانوا قتلة، متمالئين مع الكفار على سحق الإسلام والمسلمين، ووأد الإسلام في مهده، وكانوا مصرين على ذلك، لم يتوبوا، ولم يستغفروا ولم ينزعوا، حتى إن

حيي بن أخطب لما جيء به للقتل صرح بأنه ما لام نفسه على عدائه محمدًا ﷺ؛ وواجه الموت ـ كما ترى ـ بشيء من الرجولة والقوة، وتحمل التبعة، وصرح بأنه لا بأس بأمر الله، وأنه كتاب وقدر.

ومعنى هذا الكلام الإحساس العميق، بأن ما نزل فيهم كان بما اقترفته أيديهم، وأنهم نالوا جزاء فعلتهم قصاصًا عادلًا؛ تُرَى ماذا كانوا فاعلين بالمسلمين لو نجحوا مع المشركين في مؤامراتهم؟ أما كانوا ليجردوا حملة إبادة واستئصال، لا تُبقي من المسلمين ولا تذر؟

إن العفو عنهم، هو بمثابة إعطائهم مهلة ليقوموا فيما بعد بتنفيذ ما عجزوا عنه من قبل: وليس في ذلك حكمة ولا مصلحة... بل تمكين المجرمين من تنفيذ الجريمة.

إن في القصاص لحياة، وإن في العدالة لرحمة، وإن الرحمة في القصاص من المجرم منعًا لإجرامه، وفي القضاء على الإجرام حيث وُجِدَ، قطعًا لدابر الفساد، وحسمًا لمادة الشر... وقد قال النبي ﷺ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالحَاشِرُ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الَملحَمَةِ**». [1]

وللرحمة مواطنها، وللملحمة مواطنها، ومن الحكمة وضع الرحمة في أهلها، ووضع السيف في أهله، بحق وعدل.

نعم لم يرحم الإسلام بني قريظة، لفظاعة جريمتهم، وبالغ خيانتهم، وكان في ذلك عادلًا حكيمًا.

لكن هل عَدْلُ اليهود في تقتيل الآلاف من إخواننا في فلسطين، وفيما جاورها في أيامنا، وقت الاحتلال الغادر، وفي النزوح الغاشم، وفي الإبادات الجماعية جنوب لبنان؟ ولماذا نسي اليهود هتلر والنازيين الذين نصبوا لهم المجازر، وأوقدوا لهم الأفران في أوروبا؛ وذكروا إخواننا في فلسطين، أولئك العُزَّلُ الأبرياء، فحصدوهم، وما يزالون يَحْصُدُونَهم بالنار، ويسحقونهم بالمدرعات، ويقصفون قراهم

(١) مسلم في الفضائل (٢٣٥٥) عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﵁ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً، فَقَالَ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ**»، وأحمد بنفس اللفظ عن حذيفة بن اليمان ﵁ رقم ٢٣٤٤٣، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح لغيره، ورواه أحمد رقم ١٩٥٢٥، ١٩٦٢١، ١٩٦٥١ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﵁ قَالَ: سَمَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ نَفْسَهُ أَسْمَاءً مِنْهَا مَا حَفِظْنَا فَقَالَ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالحَاشِرُ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الَملحَمَةِ**»، وصححهم الشيخ الأرناؤوط. مجمع الزوائد ٨/ ٥٠٥ في علامات النبوة (١٤٠٦٠)، وقال الإمام الهيثمي: رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه سوء حفظ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم ١٤٧٣.

ورواه أحمد (٢٣٤٤٥) عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قَالَ حُذَيْفَةُ ﵁ بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي فِي طَرِيقِ المَدِينَةِ إِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَمْشِي، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَالحَاشِرُ، وَالْمُقَفَّى، وَنَبِيُّ المَلاحِمِ**»، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح لغيره.

وورد بلفظ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، أَنَا رَسُولُ الرَّحْمَةِ، أَنَا رَسُولُ المَلحَمَةِ، أَنَا المُقَفَّى، وَالحَاشِرُ، بُعِثْتُ بِالجِهَادِ وَلَمْ أُبْعَثْ بِالزِّرَاعِ**». (ابن سعد) عن مجاهد مرسلًا، وقال الشيخ الألباني: ضعيف ـ ضعيف الجامع الصغير (١٣٢١).

بالقنابل، على سَمْعِ العالم وبصره بعد أن أخرجوهم من ديارهم، واستعمروا أوطانهم، وجردوهم من كل قوةٍ وطوقٍ وقدرةٍ؟

إنهم عجزوا عن مواجهة القوة، فواجهوا المستضعفين.

إنهم لا يخضعون إلا للقوة؛ فهل فهم المسلمون جيدًا قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠﴾ [الأنفال]». [صور وعبر لفيض الله ٢٦٢-٢٦٣].

ويقول الشيخ القرني: «وانتهت صفحة من صفحات الختل والمكر والخسة، ولو قُدر لهم أن ينجوا أو أن يلقوا مصيرًا مشابهًا لمصائر السابقين لهم للقي المسلمون منهم الكثير من الكيد والدس والإيذاء، ماذا يصنع النبي ﷺ مع قوم يتيقنون من نبوته، ومع ذلك يلجون في عداوته، ويقفون في طريق دعوته، ويحرِّضون عليه أعداءه؟

إنهم لم يؤمنوا مكابرة وعنادًا وحسدًا من عند أنفسهم، ومثل هؤلاء لا علاج لهم إلا التخلص منهم اتقاءً لشرهم، وحفاظًا على دار الهجرة من أن تظل مكانًا للدسيسة والوقيعة بين المسلمين، أو أن يظل فيها مكان يُطعن فيه المسلمون من الخلف، وقد جرَّب المسلمون الإجلاء فلم يزد على أن جعل هؤلاء المطرودين يملأون الجزيرة فسادًا وكيدًا، فكان لابد من هذا الإجراء الحاسم الجريء».

[هدي السيرة للقرني ١٧١-١٧٢].

حوار مع عدو:

يقول د/ أبو فارس: «لقد قدمنا لك دراسة تحليلية لغزوة بني قريظة، بأسبابها وأحداثها، والجرائم التي ارتكبها يهود بني قريظة بحق المسلمين ودولة المسلمين، وحصارهم، ونزولهم عند حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس، وحليفهم في الجاهلية، فكان حَكَمًا عادلًا، عدَّله رب السموات والأرض، ونقل ذلك التعديل الوحي، وأخبر بذلك رسول الله ﷺ.

ولكن بعض المستشرقين المعادين للإسلام، الذين يجهلون القواعد الإسلامية، والموازين الإسلامية في الحكم على الأشياء، وتوزينها، وتقويمها أو يتجاهلونها، ينبرون ليشنوا على إسلامنا وديننا ورسولنا ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم هجومًا شرسًا، بهدف تشويه الإسلام في نفوس الناس، وتنفيرهم منه حتى لا يتعاطفوا مع أهله، ولا يعتنقوه فيضعف معسكر الإيمان، ويقوى معسكرهم معسكر الكفر.

ويحاول هؤلاء المستشرقون أن يؤثروا على أبناء المسلمين الذين لم يكن لهم حظ وافر في الاطلاع على هذا الدين، وفهمه، والتعمق فيه، وخاصة أولئك الذين يُعدون ليتسلموا مكان الريادة والقيادة في دولهم ومجتمعاتهم إذا عادوا إليها، فيعدونهم إعدادًا خاصًا، ويعتنون بهم عناية فائقة، حتى ينقلوا هذه الأفكار

المعادية للإسلام، والقيم غير الإسلامية، والسلوك المنحرف إلى بلاد المسلمين شيئًا فشيئًا حتى يعم الفساد ويطم.

ومما يؤسف له أن بعضًا من أبناء جلدتنا، يتكلمون بلغتنا، ويعيشون معنا قد انطلت عليهم الحيلة، وجرفهم التيار المعادي للإسلام، لعدم وجود حصانة سابقة أو مناعة قوية عندهم، فجاؤوا بعد ذلك، وقد صبغوا بثقافة الغرب، وفكره ينقلون ما سمعوه من أعداء هذه الأمة عنها دون تحقيق أو تمحيص أو دراسة.

ونحن الآن مع مستشرق خبيث، قد وجَّه سهام سمومه للنَّيل من الإسلام بمهاجمة الرسول ﷺ، وموقفه من بني قريظة، وكأن هناك تقاربًا ونسبًا بين هذا المستشرق وبينهم، فيتعاطف معهم تعاطفًا غريبًا، عجيبًا، يدفعه إلي قلب الحقائق وإخفائها، وتشويهها.

إنه المؤرخ المستشرق الأمريكي **واشنجتون أرفنج** صاحب كتاب حياة محمد، يثير واشنجتون أرفنج في كتابه هذا [(١)] تهمًا مفادها النَّيل من الرسول ﷺ ووصفه بالقسوة وانعدام الرحمة في غزوة بني قريظة، وأن دينه قام على السيف، ولم يقم على الحوار الفكري، والحجاج العلمي، وينال من سعد بن معاذ رضي الله عنه الذي حكم في يهود بني قريظة بوصفه بالقسوة والحنق، وأن حكمه كان انتقامًا لنفسه، ولم يكن عادلًا.

يقول واشنجتون أرفنج في كتابه بالنص [ص ١٩٥] في معرض الحديث عن بني قريظة:

(عامل محمد ﷺ اليهود معاملة تنطوي على القسوة، فقد جعل محمد مصيرهم في يد رجل قاس؛ ولذا نعتبر تلك المذبحة التي شهدتها سوق المدينة نقطة سوداء في تاريخ محمد ﷺ، وفي الحقيقة يعتبر موقف الرسول ﷺ من هذا الجنس منذ أن أصبحت السلطة والنفوذ في يده، يخالف ما نعرفه عنه من رحمة وإنسانية، وقد يكون الرسول ﷺ مدفوعًا إلى ذلك بما ظهر من اليهود من غدر وخيانة وحقد، ولكننا نلاحظ محمدًا ﷺ في بعض مراحل حياته كان رسول السيف).

فعند تأملنا لهذا النص نجده يتضمن الأمور التالية:

(١) قتل يهود بني قريظة في وجهة نظر الكاتب جريمة ومذبحة تشكل نقطة سوداء في تاريخ الرسول ﷺ.

(٢) يهاجم الرسول ﷺ من خلال حُكمه علي بني قريظة، بأنه كان قاسيًا، ولم يكن رحيمًا، وحكم رجلًا عديم الرحمة، شديد القسوة، يوافقه.

(٣) ثم يزعم أن انعدام الرحمة وشدة القسوة عند الرسول ﷺ تجاه اليهود ليس أمرًا طارئًا، وإنما هو شيء دائم، منذ أن ملك زمام القوة بيده.

---

(١) هذا الكتاب اسمه: حياة محمد، مؤلفه: واشنجتون أرفنج ـ ترجمة الدكتور علي حسني الخربوطلي ـ الطبعة الثانية ـ نشر دار المعارف بمصر ـ ينظر صفحة ١٩٣ وغيرها من الكتاب.

(٤) وحتى لا يُتهم بعدم المنهجية والموضوعية حاول أن يدفع التهمة عن نفسه، فذكر على استحياء ودون اكتراث، وبأسلوب التشكيك سبب الحكم فقال: وقد يكون الرسول ﷺ مدفوعًا إلى ذلك..

وصيغة (قد يكون) تفيد الشك، ولا تفيد اليقين، ويتأكد هذا المعنى إذا عدنا إلى اللغة الأجنبية التي كتب فيها الكتاب، ولكننا لم نعثر إلا على هذه النسخة المترجمة، فقد تكون العبارة بالإنجليزية **perhaps** أي ربما، أنه احتمال قد لا يحصل وقد يكون أو لا يكون.

(٥) وحتى لا يفتح مجالًا للقارئ أن يفكر أن هناك أسبابًا موجبة لهذه العقوبة، ومقنعة استدرك على الفور فأتبع عبارته هذه بقوله ـ ليحول انتباه القارئ وليقطع تفكيره ـ: ولكننا نلاحظ محمدًا في بعض مراحل حياته كان رسول السيف.

وحين يتحدث عن حكم سعد ﷺ في بني قريظة يقول [ص١٩٣]: (وقد يكون سعد مدفوعًا إلى اتخاذ هذا القرار بحنقه لما أصابه من جراح في حرب الخندق، وكأنه أراد الانتقام من بني قريظة.. وهكذا انتقم سعد بن معاذ من بني قريظة، وبعد فترة زادت حالة جروحه سوءًا ومات).

وإذا تأملنا قوله في سعد ﷺ وحُكم سعد ﷺ فإننا نلاحظ أنه حوى الأفكار الهدامة التالية:

(١) إن سعد بن معاذ ﷺ حين اتخذ حُكمه بحق بني قريظة لم يكن عاديًا، وبحالة هادئة، وإنما كان منفعلًا غاضبًا حانقًا، والإنسان في مثل هذه الحالة النفسية ينبغي أن يبعد تمامًا عن الحُكم في مثل هذه القضايا الحساسة المصيرية الخطيرة؛ لأن العاطفة الثائرة تتجاوز العقل وتلغيه، ولا تنظر إلى أسباب ومبررات.

وكأنه يقول للقارئ فاحكم على دقة الحكم إذا كان الأمر كذلك.

(٢) إنه يصرح بما يمكن أن يستنتجه القارئ حتى يؤثر عليه فيقول بوضوح: إن حُكم سعد بن معاذ ﷺ هذا لم يكن عادلًا، ولا رحيمًا؛ لأنه اتخذه انتقامًا لنفسه، إذ أصيب بسهم في غزوة الأحزاب التي نقضت قريظة العهد فيها.

(٣) إنه يصور الخلاف بين سعد بن معاذ ﷺ وبين بني قريظة خلافًا شخصيًّا ذاتيًّا، تلعب فيه المصالح وتسيره، ومن هنا كان الحكم كذلك انتقامًا في زعمه لا يستند إلى مبررات وأسباب وجيهة.

(٤) إنه يلمز بسعد بن معاذ ﷺ، وباستشهاده، فيقول: وبعد فترة زادت حالة جروحه سوءًا ومات.

والأمر ليس كذلك، فقد مر بنا الحديث سابقًا أن سعد بن معاذ ﷺ دعا الله ﷻ أن يرزقه الشهادة في جرحه هذا إذا انتهت فترة مهاجمة قريش للمسلمين، فاستجاب الله دعاءه، وأكرمه بالشهادة، كما روى ذلك الإمام البخاري ﷺ في صحيحه.

الحوار والمناقشة:

إننا من خلال دراستنا لأحداث غزوة بني قريظة وأسبابها ونتائجها نقول:

(١) إن المطَّلع على كتب السيرة النبوية يجد أن قبيلة يهود بني قريظة قد ارتكبوا جرائم عديدة بحق الرسول ﷺ، وبحق المسلمين ـ رضوان الله عليهم ـ في المدينة.

(أ) إن بني قريظة مواطنون في الدولة الإسلامية في المدينة، ومن رعاياها، قد ضمن لهم المسلمون الحرية الدينية فجاء في وثيقة العهد: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وهم كمواطنين يخضعون لقانون هذه الدولة، ولهم حقوق وعليهم واجبات قد تضمنت الوثيقة ذلك، وكان من بنود الوثيقة أن اليهود والمسلمين يلتزمون بالدفاع عن المدينة إذا دهمها عدو، وأنه لا تُجار قريش ومن ناصرها.

ويهود بني قريظة لم يقوموا بشيء من واجباتهم المقررة عليهم بموجب الوثيقة، وتمردوا على كل ما فيها، ودولتهم في حالة حرجة، إذ العدو على الأبواب يهدد أمنها ونظامها، وكيانها بالزوال.

أي جريمة أعظم من أن يتمرد المواطن علي دولته التي تحميه وتحمي عرضه وماله، فلا يهب يقاتل مَنْ جاؤوا ليسحقوا المواطنين في الدولة، ويقوضوا أركانها؟!

أليست هي الخيانة العظمى والخروج على النظام العام والأمن العام؟

(ب) لم يكتف يهود بني قريظة بجريمتهم تلك، وهي جريمة التمرد على الدولة، وعدم القيام بالواجبات في ظروف عصيبة، بل ضموا إلي جريمتهم جريمة أخرى، إنهم لم يقفوا محايدين، بل انضموا إلى معسكر الأعداء، وقرروا المشاركة في قتال المسلمين، وذبحهم، وكما قال حيي: ليتخلصوا من محمد ﷺ ومَنْ معه.

إنه تواطؤ مع عدو أثناء الحرب، ماذا تسمي القوانين الوضعية هذه الجريمة؟ إنها الخيانة العظمى الذي تستوجب عقوبة الإعدام.

(ج) وجاوزوا هذا إلى حد المباشرة في الجريمة، إذ خرج اليهودي نباش بن قيس في عشرة من أشداء رجالهم للاعتداء على نساء المسلمين، وذراريهم، فتصدى لهم أبطال المسلمين فرموهم بالنبال، فولوا على أعقابهم مدبرين، ولجأوا إلى حصونهم.

أليس هذا الفعل خيانة وغدرًا أكبر من الخيانة العظمى؟

(د) لقد قدَّم يهود بني قريظة المساعدات المالية للأحزاب فزودوهم بالتموين، إذ أرسلوا إلى الأحزاب عشرين جملًا محملة بالمؤن فاستولى عليها المسلمون في الطريق.

ماذا يُسمي هذا رجال القانون؟

التعاون مع العدو ضد الدولة التي ترعاك وتصون عرضك؟

(هـ) لقد نالوا من رئيس الدولة التي يعيشون في كنفها، فشتموه وشتموا أزواجه بكلام قبيح امتنع الرواة الذين سمعوه أن يصرحوا به لقبحه.

وكل قوانين الدنيا تمنع وتحظر أن يطيل أحد من الرعية لسانه على رئيس الدولة بشتم عرضه.

(و) لقد نالوا من الوفد الذي جاء يطالبهم بالوفاء بالتزاماتهم فواجهوه بكلام بذيء، كما أنكروا العهد مع المسلمين، واستخفوا برسول الله ﷺ.

أقول: إن القوانين في العالم الغربي والشرقي تحكم بالإعدام على من يتعاون مع دولة معادية فيقدم لها بعض المعلومات التي تمس الأمن في البلاد.

إن ما اقترفه يهود بني قريظة من جرائم ذكرناها سابقًا الواحدة منها تستوجب القتل والتنكيل، فكيف إذا اجتمعت هذه الجرائم منهم كلها؟ إن العدل يقضي أن تغلَّظ العقوبة، ويُشدد في الجزاء.

لقد حكم عليهم سعد بن معاذ رضي الله عنه بما يستحقونه من عقوبة جزاءً وفاقًا لما اقترفت أيديهم، وكان هذا الحكم هو حكم الله تبارك وتعالى، فلا معقِّب على حكمه، ولا راد لقضائه.

ولِمَ الإنكار على سعد بن معاذ رضي الله عنه أن يحكم بهذا الحكم؟

وإني أتسأل: تُرى لو كانت الغلبة للأحزاب وبني قريظة، ماذا سيكون مصير المسلمين؟ إن المصير قد اتفقوا عليه سلفًا أن يبيدوا خضراء المسلمين.

ثم ماذا نجد في كتاب اليهود من عقوبة مع أناس اقترفوا ما اقترفت يهود بني قريظة من الخيانة الكبرى.

إنهم يعاقبون غيرهم على أقل مما اقترفوه بالقتل والسبي، كما سبق بيانه من كتابهم المقدس.

لا مكان للعفو عن بني قريظة:

إن التجارب مع هذه القبيلة اليهودية تقرر أن العفو عما اقترفته من جرائم ليس علاجًا يحفظ للمسلمين دولتهم، ويبقي عليهم أمنهم، بل يطمع فيهم غيرهم، ويجرئ أعداءهم عليهم.

لقد نقض يهود بني قريظة العهد مع رسول الله ﷺ فعفا عنهم أكثر من مرة، فلم يتعظوا، ولم يعتبروا، ولم يرعووا عما هم فيه من الغدر والخيانة.

لقد نقضوا العهد مع الرسول ﷺ في غزوة بدر إذ زودوا قريشًا بالسلاح فراجعهم رسول الله ﷺ، فاعتذروا عن ذلك، فعفا عنهم، ونقضوا العهد مع الرسول ﷺ أثناء صراع الرسول ﷺ مع بني النضير فعفا عنهم، وجدد العهد معهم ونقضوا العهد للمرة الثالثة مع الرسول ﷺ فكان من المنطق العسكري، والعدل في الحكم أن يعاقبهم بالعقوبة التي تتناسب مع جرائمهم في المرة الثالثة، وإلا فسيطمع فيه الأعداء، ولا يسر الأصدقاء.

ثم تُرى لو عفا عن بني قريظة هل ستتوقف عن تآمرها ضد الرسول ﷺ، أم ستستمر المؤامرات، وستحشد الحشود، وتشن الحروب، وإذا قدر لها أن تنجح ولو مرة واحدة على المسلمين، ستكون الطامة الكبرى، وسبق السيف العذل كما يقولون.

إن يهود بني قريظة لا يمكن اعتبارهم أسرى بالمفهوم القانوني الحديث حتى يطلب أن يعاملوا معاملة الأسرى، وإن كان لا يمنع في دين الإسلام أن يُقتل الأسير إذا رأى رئيس الدولة الإسلامية أن قتله يحقق المصلحة العامة للمسلمين.

ومع هذا نقول: لا يمكن اعتبارهم أسرى؛ لأنهم ليسوا مقاتلين في جيش دولة معادية أُسروا نتيجة معركة من المعارك، إنما هم من رعايا الدولة الإسلامية، عاشوا فيها، وانتفعوا بمرافقها وخيراتها، ولهم حقوق وعليهم واجبات، ومن ثم فهم خونة غادرون خانوا دولتهم وشعبهم.

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا.

وبعد هذا كله يدعي واشنجتون أرفنج أن محمدًا ﷺ رسول السيف! كيف يكون هذا؟

فأرفنج إما أن يكون جاهلًا لتاريخ العلاقة بين الرسول ﷺ وبين اليهود، وإما أن يكون عالمًا بها.

أما الاحتمال الأول فبعيد جدًّا إذ لا يعقل أن يكتب في السيرة النبوية ولا يعلم عن هذه العلاقة الشيء الكثير.

والذي نرجحه الاحتمال الثاني هو أن أرفنج عالم بتاريخ العلاقة بين الرسول ﷺ وبين اليهود، ولكنه لم يرد أن يستخدم علمه ومعلوماته في البحث بدقة؛ لأنه إن فعل ذلك فقد فوت عليه تحقيق الهدف الذي يكتب من أجله، وهو الطعن والتشكيك في الدين الإسلامي، وتوجيه التهم الباطلة للرسول ﷺ حتى يشوه الصورة الصادقة لهذا الرسول ولهذا الإسلام.

إن النزاهة العلمية، والموضوعية في البحث، توجب عليه وعلى غيره ألا يخفي شيئًا مما يعلم، وإلا فهي الخيانة العلمية، واللامنهجية في البحث.

إن الذي يقرأ سيرة الرسول ﷺ مع اليهود يجد أنه أول مقدمه للمدينة قد وادعهم، ودعاهم إلى الإسلام وحاورهم في كتابهم المقدس، وأنهم مأمورون بالإيمان به واتباعه ومناصرته، وشهد بذلك بعض أحبارهم كعمران بن حصين الذي أسلم حينما رأى رسول الله ﷺ واستمع منه وغيَّر اسمه إلى عبد الله بن سلام، وميمون بن يامين، ومخيريق، وبعضهم عرف الحق وقامت لديه الأدلة ولكنه لم يؤمن بهذا الرسول حسدًا وحقدًا وعداوة كحيي بن أخطب وأخيه ياسر كما تروي صفية بنت حيي ذلك عن أبيها وعمها، ومنهم زعيم بني قريظة كعب بن أسد، إذ قال لقومه: إنكم والله لتعلمون أنه رسول الله، ودعاهم إلي الدخول في الإسلام، واعترف أمام رسول الله ﷺ بأنه رسول الله ولكنه لم يؤمن به خوفًا من أن تعيره اليهود، فأخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد.

لقد كان اليهود يحدِّثون أهل المدينة من أوس وخزرج عن قرب مجيء رسول سيتبعونه ويقاتلون أهل يثرب معه، ذكرهم بهذا الأوس والخزرج، ولكن لما ظهر هذا الرسول ﷺ، فلم يكن من اليهود إلا أن كفروا به، وحاربوه، وصدوا عن سبيله، وتعاونوا مع جميع أعدائه ضده.

كان الرسول ﷺ وأصحابه يجاورونهم، ويقيمون عليهم الحجة تلو الحجة، والبرهان إثر البرهان، ولكنهم لم يؤمنوا، ولهم ذلك، ولم ينكر الرسول ﷺ ذلك فألزمهم بالإسلام، بل أذن لهم أن يبقوا على يهوديتهم، نصت على ذلك الوثيقة، وبقي هذا النص دون أن يمس، وحرص على مسالمتهم، وعدم قتالهم، إلا أنهم أبوا مسالمته، وسعوا في حربه، ينقضون العهد، ويؤلبون عليه الأعداء، فحاربته بنو قينقاع فأجلاها ولم يكرهها علي الإسلام وقد استسلمت له، وكذلك فعل مع بني النضير وقد تآمروا على قتله، فحاصرهم، واستسلموا له، فلم يكرههم على الإسلام، بل رحلوا من المدينة وهم على يهوديتهم، بل إن ريحانة وهي امرأة يهودية من بني قريظة أراد الرسول ﷺ أن يعتقها ويتزوجها، وعرض عليها الإسلام فأبت فلم يكرهها، وظلت مدة حتى اعتنقت الإسلام، فجاء مَنْ يخبر رسول الله ﷺ بذلك، فسُرَّ سرورًا عظيمًا.

ولا نريد أن نسترسل في الاستدلال على أن هذا الدين لا يُكره أحدًا على اعتناقه؛ لأن القرآن قرر هذا الأمر وفرغ منه، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

والسيرة تخبرنا أن رسول الله ﷺ لم يُكره أحدًا من المجوس على الإسلام، والتاريخ الإسلامي بعد ذلك يخبرنا أن الإسلام فتح بلادًا كثيرة كالهند، وبقيت فيها دياناتها الوثنية التي تتجاوز ثلاثمائة ديانة.

وبعد كل هذا يدعي أرفنج أن الإسلام قام بالقوة، وعلى البطش وسفك الدماء، وأن رسول الله ﷺ كان رسول سيف.

أما إذا أراد أرفنج أن يقف الرسول ﷺ موقف: من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، ومن طلب منك الرداء فأعطه الثوب أيضًا، ومن طلب منك أن تمشي معه ميلًا فامش ميلين، فهذا ضرب من الخيال البعيد عن الحقيقة والواقع، والإسلام دين واقعي يواجه الفكرة بالفكرة والحجة بالحجة، ويقابل أيضًا القوة بالقوة، والغدر بالتأديب، والخيانة بالعقوبة الزاجرة سواء كان الخائن مسلمًا أو كافرًا يهدد أمن المجتمع الإسلامي، وكيانه السياسي.

إن الإسلام يحرِّم على أتباعه أن يقبلوا الظلم وأن يرضوا به، ويحرِّم عليهم أيضًا أن يكونوا ظالمين لأحد من الخلق: «**يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا**».

[حديث قدسي رواه الإمام مسلم في صحيحه، مختصر مسلم للمنذري رقم ١٨٢٨].

إن الإسلام من أهم سماته الواقعية والجدية، لا يطلب من أصحابه وأتباعه أن يعيشوا في الخيال، وإنما يأمر أهله أن يتعاملوا مع الواقع، وأن يكون هذا التعامل مبنيًا على العدل، والعدل يقضي على الظالم فينتصف منه، والمظلوم ينتصف له من الظالم، والجاني يُعاقَب بعقوبة عادلة، والعقوبة العادلة تكون بأن تتناسب مع الجريمة، التي ارتكبها الجاني.

فالظلم كل الظلم أن أعاقب من ارتكب جنحة بسيطة بالقتل، وبنفس المستوى، إن من الظلم ألا يعاقب القاتل بالقتل، والجارح بالجرح، والمعتدي بأن يُعتدى عليه بمثل ما اعتدى على الناس، ومن يهدد أمن المجتمع، ويسعى لتدمير الدولة ومؤسساتها، ويعمل لسفك دماء مواطنيها وهو منهم لا بد أن يُخلص الناس من شره ويذوق وبال أمره حتى يكون عبرة لمن اعتبر، وعظة لمن اتعظ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ولقد وقف سعد بن معاذ ﷺ ينصح اليهود أن يتوقفوا عن غدرهم هذا، ويذكِّرهم بما يجب عليهم أن يفعلوا من مناصرة لدولتهم، فأبوا وشتموا رسول الله ﷺ، وشتموه والوفد الذي معه، وأقدموا على جرائمهم التي ذكرناها لك في الصفحات السابقة، فماذا يحكم عليهم سعد بن معاذ ﷺ؟

إن الظلم البيِّن من سعد ﷺ أن يعاقب هؤلاء الخونة الغادرين بأقل من القتل والسبي، نعم إنه ظالم للمسلمين، ظالم للحقيقة والحق فلم ينطق بها، إنه ظالم للدولة التي يعيش فيها؛ لأنه يعرضها لتيارات عاصفة أخرى، ولمحاولات مجرمة قد تنجح في القضاء عليها، حينئذٍ يكون سعد بن معاذ ﷺ رحيمًا، أما أن يكون حازمًا فهو الانتقام للنفس وهو القسوة وهو الغلظة!

ليست الرحمة في العفو عن الجناة وعدم معاقبتهم وعدم إنصاف المجني عليهم، إنما الرحمة كل الرحمة أن يقتص من الجناة للمجني عليهم.

تنبيهات وملاحظات:

وأريد هنا أن أسترعي انتباه المسلمين الطيبين إلى النقاط التالية حرصًا مني عليهم، وعلى إيمانهم، وعلى مستقبلهم الأخروي فأقول:

(١) إن حكم سعد بن معاذ ﷺ بقتل محاربي بني قريظة وسبي النساء والذرية هو حكم الله تبارك وتعالى، كما روى الإمام البخاري في صحيحه وغيره من أصحاب السنن.

(٢) لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يعترض على هذا الحكم أو ينتقده ويتبرم منه.

(٣) إن الاعتراض على حكم سعد بن معاذ ﷺ، هو اعتراض على حكم الله، والاعتراض على حكم الله كبيرة من الكبائر تهلك أصحابها وتوردهم موارد الهلاك، فالمؤمن مطلوب منه أن يُسلم بحكم الله وحكم رسوله، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ

وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب]، وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور].

(٤) المستشرقون الذين لا يؤمنون بالإسلام ولا يعتنقونه عقيدة وشريعة ونظام حياة أعداء لهذا الدين، ومن منطلق عدائهم لهذا الدين يوجهون حملاتهم الظالمة على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه حتى يشوهوا الصورة المشرقة لهذا الدين، فيجب علينا أن نحذرهم، وألا نأخذ شيئًا عنهم فيما يتعلق بديننا؛ لأنهم يدسون السم مع الدسم.

(٥) إن هؤلاء الذين يسيرهم الحقد والكره للإسلام لا يمكن أن يكونوا موضوعيين، ولا علميين في نقدهم؛ لأن للنقد في الإسلام قواعده ومنطلقاته وأسسه ومرتكزاته، وهم لا يلتزمون بها، ولا يؤمنون بها، ويدعون إلى رفضها ونبذها.

(٦) إن هؤلاء في الغالب يقفون مع اليهود وفي صف الأعداء يناصرون كل عدو ويؤيدونه، وكأن الذي يجمعهم معه هو العداء لهذا الدين.

(٧) لِمَ التركيز علي الحديث عن يهود بني قريظة ووصف المسلمين بالقسوة في حكمهم عليهم، ولا يركزون في كتابتهم وأحاديثهم عن الحروب الصليبية وما اقترفه الصليبيون من جرائم تقشعر لهولها الأبدان، وتشيب لها الولدان، ومن أناس جاؤوا من بلادهم يريدون احتلال بلاد المسلمين، وغصب مقدساتهم، وما قتله الصليبيون المعتدون من المسلمين أضعافًا مضاعفة لما قتله المسلمون من بني قريظة، مع اختلاف في الأسباب والمبررات، إذ كان المسلمون محقين، وكان الصليبيون ظالمين غادرين.

(٨) التركيز في كتابة هؤلاء عن الماضي البعيد ويتناسون الحاضر القائم، أو الماضي القريب، لماذا وجدنا مئات الكتب تطعن في الرسول ﷺ، وتطعن في أصحابه، وتصف سعد بن معاذ ﷺ بالقسوة وما إلى ذلك من ألفاظ قبيحة تدل على قبح أهلها، ولا نجد عُشر معشار هذه الكتابات عن جرائم اليهود في فلسطين ولبنان وغيرها، لماذا لا نجد هؤلاء أنفسهم لا يتحدثون صدقًا ويقولون حقًّا عن مذابح صبرا وشاتيلا وتل الزعتر، وبرج البراجنة، ونهر البارد والبداوي، ومذابح الجنوب، ومدرسة بحر البقر، ومذابح دير ياسين وقبية وحوسان وفوكين وغزة وخان يونس إذ كانوا يجمعون الشباب في فلسطين عام ١٩٥٨م ويصفونهم صفوفًا رافعين أيديهم ثم يطلقون عليهم الرصاص.

نعم لا يتحدثون عن هذا لأن الضحايا مسلمون، وهم يريدون ذبح المسلمين وتشريدهم.

ألا فليتعظ المغفلون الذين يركضون وراء فتات هؤلاء المستشرقين الأعداء، وهل يأخذ الإنسان من عدوه ويطمئن إليه، لا سيما إذا كان بلا خلق ولا قيم». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ٢/ ١٣٧-١٥١، وينظر للتفصيل: غزوة بني قريظة: دراسة وصفية تحليلية مع نقد لبعض آراء المستشرقين لوقدان ٢٨٥-٣٣١].

الباب الرابع
الغزوات والسرايا بين قريظة والحديبية

الفصل الأول: سَرِيَّةُ عَبْدِ الله بْنِ عَتِيكٍ ﵁ لقَتْلِ سَلَّام بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ
الفصل الثاني: سَرِيَّةُ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ﵁ إِلَى نَجْدٍ وَأَسْرُ ثُمَامَةِ بْنِ أُثَالٍ وَإِسْلامُه﵁
الفصل الثالث: غَزْوَةُ بَنِي لِحْيَانَ
الفصل الرابع: سَرِيَّةُ عُكَّاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ ﵁ إِلَى الْغَمْرِ
الفصل الخامس: غَزْوَةُ الغَابَةِ (ذِي قَرَدٍ)
الفصل السادس: سَرِيَّةُ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ﵁ إِلَى ذِي الْقَصَّةِ إِلَى بَنِي ثَعْلَبَةَ وَعُوَالٍ
الفصل السابع: سَرِيَّةُ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاح ﵁ إِلَى ذِي القَصَّة
الفصل الثامن: سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﵁ إِلَى الجَمُومِ
الفصل التاسع: سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﵁ إِلَى الْعِيصِ
الفصل العاشر: سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﵁ إِلَى الطَّرَفِ
الفصل الحادي عشر: سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﵁ إِلَى حِسْمَى (جُذام)
الفصل الثاني عشر: سَرِيَّةُ زَيْدِ ثُمَّ أَبِي بَكْرٍ ﵄ إِلَى بَنِي فِزَارَةَ بِوَادِي القُرَى
الفصل الثالث عشر: سَرِيَّةُ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاح ﵁ إِلَى سَيْفِ الْبَحْر (الخبط)
الفصل الرابع عشر: سَرِيَّةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﵁ إِلَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ
الفصل الخامس عشر: سَرِيَّةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﵁ إِلَى بَنِي سَعْدٍ بِفَدَكٍ
الفصل السادس عشر: سَرِيَّةُ عَبْدِ الله بْنِ رَوَاحَةَ ﵁ لِقَتْلِ الْيُسَيْرِ بْنِ رِزَامٍ اليهودي
الفصل السابع عشر: سَرِيَّةُ كُرْزِ بْنَ جَابِرٍ ﵁ إِلَى العُرَيْنِيين

تمهيد

بين غزوة بني قريظة وصلح الحديبية

يقول أ/ باشميل: «لم تعد هناك قبيلة من قبائل الوثنيين العرب عندما ظهر الإسلام إلا وناصبته العداء.

وعندما وجد هذا الدين أنصارًا أقوياء في المدينة مؤمنين يذبون عنه وعن نبيه ﷺ أكثر مما يذبون عن نسائهم وأطفالهم، تضاعفت عداوة من بقي من الأعراب على الوثنية للإسلام.

وكان هؤلاء الأعراب الوثنيون يتربصون دائمًا بالإسلام الدوائر، ويحاول الكثير منهم الإغارة على المسلمين في المدينة حاضرة الإسلام الجديدة.

الأعراب والأحزاب:

وعندما كانت معركة الأحزاب في أواخر السنة الخامسة من الهجرة ناشبة بين المسلمين، وهم لا يزيدون على ألف مقاتل من جهة، وبين أعراب نجد وقبائل الحجاز واليهود وعددهم لا يقل عن أحد عشر ألف مقاتل من جهة أخرى، كان الأعراب الوثنيون ـ بعواطفهم ومشاعرهم وقلوبهم دونما استثناء مع إخوانهم الوثنيين من قبائل الحجاز وعشائر نجد وأحلافهم من اليهود ـ يتمنون أن يكون لهم النصر الساحق على جيش الإسلام الصغير، بل وما كانوا يشكون لحظة في تحقيق هذا النصر؛ لأن كل شيء مادي يشير على نحو ساحق بأن الأحزاب الوثنية ومحزبيها من اليهود سيكونون هم المنتصرين في المعركة.

ولكن الأمر جاء على خلاف ما يتوقع ويتمنى هؤلاء الأعراب الوثنيون حيث كتب الله الفشل الذريع لمشروع الغزو اليهودي الكبير، فاندحرت جيوش الأحزاب الجرارة، وعادت إلى نجد ومكة تجر أذيال الهزيمة والعار، بعد أن فشلت ـ أمام القلة المسلمة الجبارة ـ في اقتحام المدينة، فانتصر المسلمون انتصارًا عظيمًا لم يحققوا مثله في عهد النبوة، بالنسبة لقلتهم وكثرة عدوهم، ووقع اليهود في عملهم السيء، فتم إعدام ثمانمائة من خونة بني قريظة، وعلى رأسهم محزِّب الأحزاب ورأس الفتنة والشر حيي بن أخطب النضري، وفر إلى خيبر مرعوبًا زميله في الخيانة والتآمر سلام بن أبي الحقيق، الذي تمكن خمسة من الفدائيين الأنصار من قتله وهو على فراش نومه في رأس حصنه كما سيأتي تفصيله.

وبهذا انقلب ميزان القوى في جزيرة العرب انقلابًا خطيرًا لصالح معسكر الإسلام وبصورة جعلت القائد الأعلى لهذا المعسكر ـ النبي محمد ﷺ ـ يشدد من قبضته على دفة القيادة للجزيرة العربية بأكملها، الأمر الذي ما كانت تتخيل ـ سوى حدوث عكسه ـ أحزاب الوثنية والكفر، عندما كانت لها قوات ضاربة مؤلفة من أحد عشر ألفًا، تحاصر المدينة التي لم يبلغ الجيش المدافع عنها أكثر من ألف مقاتل.

العمليات العسكرية:

كانت الدروس المستفادة من الماضي والتي وعاها المسلمون من تجاربهم عبر خمس سنوات مع الأعراب الوثنيين وكل أحزاب الكفر من اليهود، أثبتت أن العمل العسكري ـ وخاصة ضد الأعراب واليهود ـ هو السبيل الوحيد لتأمين وسلامة أمن المنطقة، وتهيئة الجو لدعوة التوحيد لتأخذ طريقها إلى العقول والقلوب بالقدر المطلوب من الحرية المطلوبة.

ولهذا ـ كما أثبتت الأحداث فيما بعد ـ قرر النبي القائد ﷺ، مضاعفة النشاط العسكري ضد اليهود وسكان البوادي من الأعراب في نجد والحجاز على السواء.

فقرر اجتثاث سلطان اليهود الزنيم ـ بقوة السلاح ـ نهائيًّا في خيبر وبقية المناطق الشمالية، كما قرر القيام بحملات عسكرية تأديبية قوية ضد الأعراب في نجد والحجاز.

خيبر آخر المطاف:

وكان آخر المطاف في هذا العمل العسكري هو غزوة خيبر التي بها تم للمسلمين تصفية العنصر اليهودي الدخيل في جزيرة العرب تصفية كاملة.

وقبل القيام بالحملة الكبرى لتصفية اليهود في خيبر قام النبي ﷺ بعشرين عملية عسكرية كانت على شكل سرايا يبثها لتأديب العرب وخضد شوكتهم، ومنها حملتان وطئ فيهما رجاله من الأنصار مدينة خيبر، وتمكنوا من الفتك فيها بملكين من ملوكها الواحد تلو الآخر، وهما: سلام ابن أبي الحقيق الملقب بأبي رافع، وأسير بن رزام». [**صلح الحديبية لباشميل ١٩-٢١**].

«الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلا يَغْزُونَنَا»:

يقول د/ الصلابي: «كان ﷺ يحذر كل القوى المجاورة، ويعمل لها كل حساب، ولا يغفل عن أي قوة منها، وقد صرح بعد غزوة الخندق بأن الخطة القادمة هي غزو قريش، فقد تغيرت موازين القوى، وأصبح المسلمون لهم القدرة على الهجوم أكثر من قبل، فسعى ﷺ لبسط سيادة الدولة على ما تبقى من قوى حول المدينة؛ لأن ذلك له صلة بالإعداد لغزو قريش في مرحلة لاحقة، فقد قام ﷺ خلال عام واحد ـ العام السادس ـ بغزوتين وأرسل أربع عشرة سرية غير ما قام به في نهاية العام الخامس الهجري...، وهذه الأعمال والتحركات قصد منها المزيد من إنهاك قوى قريش وإحكام الحصار، وتقليم أظفارها من خلال اقتطاع كل ما يمدها بالقوة من حلفائها [**ينظر: دراسات في عهد النبوة للشجاع ص١٣٩**]، فقد استثمر رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم ما حققوه من نجاح في صد الأحزاب وإفشال خططهم، وردهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم، فباشروا نشاطًا واسع النطاق ضد خصومهم على جميع الجبهات، فقد ضيقوا الخناق الاقتصادي على قريش من جديد، كما نفذوا العديد من السرايا لمعاقبة

المشركين في الأحزاب من جهة، أو للثأر من القبائل التي كانت قد غدرت بالدعاة، أو ناصبت الإسلام العداء». [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣١١].

ويقول أ/ دويدار: «أخذ العرب بعد هزيمة الأحزاب، وبعد هزيمة بني قريظة ينظرون إلى دعوة الإسلام نظرة جديدة، وسرى في نفوسهم أن هذه الدعوة لابد أن تكون مؤيدة بقوة الله، وأن محمدًا ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم لابد أن يكونوا على الحق، وأنهم قد تكون لهم الغلبة والنصر في النهاية، فأخذت القبائل المعادية تخفف شيئًا من عداوتها، وأخذت القبائل الأخرى تحاول التقرب من المسلمين، وأخذ جو من الرهبة والجلال يملأ نفوس الناس عن الإسلام ورسوله، فذهبوا يتحدثون بقوة المسلمين وسلطانهم، وبمقام محمد ﷺ وقوته ورهبة جانبه.

على أن المسلمين مع ذلك ظلوا أيقاظًا لم يُلقوا سلاحهم قط؛ لأنهم يعلمون أن أعداءهم كُثر، وأنهم لا يزالون مُحنقين موتورين، يملأ نفوسهم الغيظ من هذه الدعوة التي يظهر أمرها يومًا بعد يوم، ومن هذه الطائفة التي يشتد ساعدها شيئًا بعد شيء، فكان على المسلمين أن يظلوا أيقاظًا لكل حركة من حركات أعدائهم، وأن يكونوا دائمًا على أهبة العمل والاستعداد لكل طارئة من الأمور، كما كان عليهم أن يؤكدوا في نفوس الناس أنهم أهلٌ لما أمدهم الله به من نصر، وأن يُشعروا أعداءهم بأنهم قوة قادرة على الإرهاب والغزو، وعلى صد العدو مهما كانت جموعه، ومهما كانت قوته، حتى لا يفكر أحد من العرب ولا من اليهود في غزو المدينة، أو يؤمل في هزيمة المسلمين بعد ذلك النصر المؤزر، الذي كتبه الله لهم في غزوة الأحزاب، وفي غزوة بني قريظة.

ومن أجل ذلك لم يُلق المسلمون سلاحهم، ولم يستنيموا لأعدائهم اتكالًا على أن الله معهم، وأنه مؤيدهم بحوله وقوته، فإن الله لا يكون مع الغافلين أبدًا، ولا يؤيد المتواكلين الذين يرجون منه النصر والتأييد دون أن يأخذوا بأسباب القوة ما استطاعوا.

فما كاد الرسول ﷺ ينتهي من أمر بني قريظة في أواخر السنة الخامسة، حتى بدأ منذا أوائل السنة السادسة يعمل على إرهاب العدو في كل ناحية، فأخذ يبعث السرايا ويقود الغزوات في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب؛ ليرهب أعداءه من العرب واليهود جميعًا؛ وليأخذهم على غِرَّة وهم فرادى، قبل أن يأخذوه وهم قوة مجتمعة.

وهكذا مضت السنة السادسة ـ أو أكثرها ـ في مثل هذه المناوشات، وكان العامل البارز فيها من الناحية الحربية هو عامل المفاجأة، وأَخْذ الطريق على العدو قبل أن يأخذ أهبته ويستجمع قوته، على أن الهدف فيها جميعًا لم يكن هو المبادأة بالعدوان، فإن العدوان مبدأ لا يقره الإسلام ولا يرتضيه، إنما كان الهدف هو الدفاع الهجومي لا غير: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾[البقرة].

فكل ما كان من هذه المناوشات إنما كان ردًّا لعدوان بادَى به عدو، أو إرهابًا لعدو يريد أن يعتدي.

ولقد أدت هذه المناوشات أغراضها على أتم وجه، فإنه ما كادت السنة السادسة تنتهي حتى كانت هيبة المسلمين قد استقرت في نفوس القبائل العربية فيما حول المدينة وفيما وراءها، وأخذ الجو يتهيأ لحياة استقرار وسلم بين المسلمين وجيرانهم، وصار من الممكن أن تقوم علاقة الجوار فيما بينهم على تناسي الثارات ودفن الحزازات، وعلى التعاون والتلاقي في سبيل الخير في طمأنينة وأمن».

[صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٢/ ٢٠٣-٢٠٤، ٢١١].

ويقول د/ شاكر «لقد كانت أخبار هذه الغزوات والسرايا تصل إلى الأعراب وإلى أكثر سكان الجزيرة العربية، فهاب الأعرابُ المسلمين، وعرف سكان جزيرة العرب مكانة المسلمين وقوتهم، واعترفوا بهم كقوة في المنطقة، وأصبح كل إنسان يريد أن يتعرف على هذا الدين الجديد، وبهذا تنتشر الدعوة، ويعلم أنه إذا دخل في الإسلام، فإن هناك مَنْ يحميه، وإذا هاجر إلى المدينة فقد وصل إلى مأمنه».

[التاريخ الإسلامي لشاكر ٢/ ٣٠٢].

ويقول د/ الغضبان: «لقد شهد العام السادس من الهجرة تصعيدًا عنيفًا جديدًا في عمليات المواجهة مع العدو، ولا يكاد يمر شهر دون سرية أو سريتين تضرب في الصحراء، وتفض جمعًا أو تحطم عدوًا أو تغتال طاغوتًا، وهي التي أسميناها من قبل: التربية بالإرهاب لتتناسب مع شعار المرحلة التي ابتدأت مع غزو الخندق: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا**». **[البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣٠/ ٢٤٠، ٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ٤٥/ ١٨٤ رقم ٢٧٢٠٦]**.

وليترجم الشعار عمليًّا حيًّا في أنحاء الجزيرة العربية كلها، وأسميناها في هذا الفصل بتربية جيل النصر بعد جيل الصبر، ونشهد حزب الله ينطلق في الآفاق باسم الله، يحمل المبادئ الخالدة، والقيم العليا يقدِّمها للخلق كافة، ويزيح كل طاغوت يحول دون وصول هذه المبادئ، ونشهد حزب الله في أفراده جميعًا، والذين تلقوا أعلى مستويات التربية الخلقية، والفكرية، والعسكرية، والسياسية، كيف ينفذون هذا المنهج، وكيف يكون واقعهم ترجمة عملية وحية لمبادئهم.

فهو جيل يقف على أهبة الاستعداد؛ ليرقى قمة البشرية، بعد أن أعيد بناؤه وتدريبه بعد أُحُد، وسقط مَنْ سقط من المنافقين، وارتقى الباقون إلى القمة؛ ليكونوا جيل الحديبية الجديد، الذي بلغ أربعة أضعاف جيل بدر، والذي أخذ اسمًا جديدًا هو أصحاب محمد ﷺ بعد أن كان موزعًا على الطبقات الثلاث: السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، وهو ما سنفرد عنه الحديث في الفصل القادم ومع إهلالة شهر ذي القعدة». **[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٩٠-١٩١]**.

الفصل الأول
سَرِيَّةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَتِيكٍ ﷺ لقَتْلِ سَلاَمِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ
الأحد ٤ من ذي الحجة ٥هـ/٢٦ أبريل (نيسان) ٦٢٧م / ١ بشنس ٣٤٣ قبطي
المبحث الأول
عَرْضُ سَرِيَّةِ عَبْدِ اللهِ بْنُ عَتِيكٍ ﷺ لقَتْلِ سَلاَمِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ

تاريخ السرية:

يقول د/ بريك: «وقد اختلف أهل المغازي في تاريخ هذا البعث اختلافًا كبيرًا، فروى البخاري تعليقًا عن الزهري قال: «هو بعد كعب بن الأشرف» (١)، أما ابن إسحاق الذي أخذ روايته عن الزهري، فحدد تاريخها بعد الخندق، وقريظة مباشرة [**سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٣، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٣، وتابعه ابن عبد البر في الدرر ١٩٥، والعامري في البهجة ١/ ١٩٣**]، وحددها الواقدي كعادته بدقة فقال: «خرجوا ليلة الاثنين في السَّحَر لأربعٍ خلون من ذي الحجة على رأس ستة وأربعين شهرًا، وغابوا عشرة أيام»، ولكنه يعقِّب في نهاية روايته «ويقال: كانت السرية في شهر رمضان سنة ست» [**المغازي للواقدي ٣٩١-٣٩٥**]، وهذا هو التاريخ الذي اعتمده كاتبه ابن سعد تاريخًا للسرية (٢)، وذكرها الطبري في حوادث السنة الثالثة [**ذكر ذلك الطبري بصيغة التمريض. ينظر: تاريخ الطبري ٢/ ٤٩٣**]، ونقل المتأخرون من أهل المغازي أقوالًا في تاريخها متعددة لم ينسبوها لأحد، وحاول بعضهم الجمع بينها أو الترجيح (٣). [**السرايا والبعوث لبريك ١٧٤-١٧٥**].

سبب السرية:

يقول الشيخ الغزالي: «لم تنته الخصومة بين المسلمين واليهود بانهزام قريظة وانكسار شوكتها، فإن بعض مؤلبي الأحزاب على الإسلام فَرَّ إلى خيبر لائذًا بحصونها مستظهرًا بإخوانه فيها، مثل أبي رافع بن

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٧/ ٣٤٠-٣٤٢، وقد وصله يعقوب بن سفيان في تاريخه عن الزهري (قاله ابن حجر، ولم أجد ذلك في كتاب التاريخ المطبوع) ولم يكن مراد الزهري ﷺ أنها كانت بعد قتل كعب بن الأشرف مباشرة كما يتوهم من النص، وإن كان البعض ظن ذلك فوضع لها تاريخًا بعده مباشرة. ينظر: شرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٦٥. السرايا والبعوث لبريك ١٧٤-١٧٥.

(٢) الطبقات لابن سعد ٢/ ٩١، وذكر القسطلاني أن ابن سعد ذكر في ترجمة عبد الله بن عتيك ﷺ أنه بعثه في ذي الحجة إلى أبي رافع سنة خمس بعد وقعة بني النضير. المواهب اللدنية للقسطلاني ١/ ١٢٢-١٢٣، وبالبحث في طبقات ابن سعد المتداولة لم أعثر على ترجمة عبد الله بن عتيك ﷺ فيها، فربما اطلع القسطلاني على نسخة أخرى، والله أعلم. السرايا والبعوث لبريك ١٧٥.

(٣) ينظر: سنن البيهقي ٩/ ٧٨-٧٩، وإمتاع الأسماع للمقريزي ١/ ١٨٩، وفتح الباري لابن حجر ٧/ ٣٤٢، وسبل الهدى للشامي ٦/ ٧٦، وشرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٦٥.

أبي الحقيق، وهو شريكُ حييٍّ في التطواف بالقبائل التي يستجلبها إلى يثرب بغية الإتيان على الإسلام وأهله، وليس يؤمن لليهود شر ما بقيت لهم قدرة على فعله.

وقد صوَّر حديث الرسول ﷺ نقمة اليهود على الإسلام بقوله: «**مَا خَلا يَهُودِيٌّ قَطُّ بِمُسْلِمٍ إِلَّا حَدَّثَ نَفْسَهُ [هَمَّ] بِقَتْلِهِ**» [1]، ولا نعرف لهذه النقمة الدفينة علَّة إلا انحراف أصحابها عن الجادة، ومن حق المسلمين أن يحذروها، وأن لا يَدعو لها بقية تنمو على الزمن.

لذلك خرج من المدينة خمسة من الخزرج ذاهبين إلى خيبر، بغيتهم القضاء على أبي رافع وإلقاء الذعر في قلوب شيعته، وقد أمَّر الرسول ﷺ عليهم عبد الله بن عتيك ﷺ، ونهاهم أن يقتلوا وليدًا أو امرأة». [فقه السيرة للغزالي ٣٢٨-٣٢٩].

روى البيهقي بسنده عَنْ عُرْوَةَ ، قَالَ: وَكَانَ سَلَامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ قَدْ أَجْلَبَ فِي غَطَفَانَ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى قِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَجْعَلُ لَهُمُ الْجُعْلَ الْعَظِيمَ؛ فَاجْتَمَعَتْ مَعَهُمْ غَطَفَانُ، وَحُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ بِمَكَّةَ قَدِ اسْتَغْوَى أَهْلَ مَكَّةَ، حَدَّثَهُمْ أَنَّ عَشِيرَتَهُمْ يَتَرَدَّدُونَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ، يَنْتَظِرُونَ الْمَدَدَ وَالْأَمْوَالَ، وَأَطَاعَتْ لَهُمْ غَطَفَانُ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَتِيكِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الْأَسْوَدِ، وَأَبَا قَتَادَةَ بْنَ رِبْعِيٍّ، وَأَسْوَدَ الْخُزَاعِيَّ ﷺ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَتِيكٍ ﷺ، فَبَيَّتُوهُ لَيْلًا فَقَتَلُوهُ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٨].

ويقول أ/ باشميل: «كان سلام بن أبي الحقيق النضري ـ بعد مصرع طاغية بني النضير حيي ابن أخطب ـ سيد خيبر المطاع، وكان لا يقل عن حيي بن أخطب عداوة للرسول ﷺ.

بالإضافة إلى ذلك كان من كبار مجرمي الحرب الغادرة الظالمة التي شنها على المسلمين في المدينة ـ وبتدبير من يهود خيبر ـ عشرة آلاف مقاتل من الأحزاب الوثنية المتحالفة: قريش وغطفان وأشجع وفزارة وأسلم.

فقد كان سلام بن أبي الحقيق في مقدمة وفد التحريض اليهودي الذي غادر خيبر في أواسط السنة الرابعة من الهجرة ليطوف بمضارب البدو وفي نجد ومواطن القبائل في الحجاز لتحريضهم على غزوة المسلمين وتدميرهم في المدينة.

وعندما تحول المشروع اليهودي من نطاق الفكر إلى حيز العمل، وتحركت ـ لإبادة المسلمين في المدينة ـ تلك القوة الضاربة من أعراب نجد وقبائل قريش.. كان سلام بن أبي الحقيق هذا مع حيي بن أخطب على رأس هذه القوة الضاربة الغازية.

---

(١) ضعيف: رواه الديلمي والخطيب وابن النجار عن أبي هريرة ﷺ ـ ضعيف الجامع الصغير للألباني رقم ٥٠٦٢، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف ١٠/ ٣٦٢ رقم ١٩٣٧٦ بنحوه، ورغم ضعف سند الحديث إلا أنه أصبح حقيقة لا تُنكر في عالم الواقع!!

كما أن سلام بن أبي الحقيق النضري هذا كانت له سابقة خطيرة في الإجرام والتآمر في المدينة قبل إجلاء بني النضير عنها.

فقد كان سلام هذا أحد أركان تلك المؤامرة الدنيئة التي كانت تستهدف حياة النبي الأعظم ﷺ، والتي شرع يهود بني النضير في تنفيذها عندما كان النبي ﷺ موجودًا أعزلًا في ديارهم مع قلة من أصحابه جاؤوا إلى ديار بني النضير للبحث معهم في القيام ببعض التزامات تفرضها على اليهود معاهدة الحلف المعقود بين المسلمين وهؤلاء اليهود.

ولم يكن العفو الكريم الذي منحه النبي ﷺ يهود بني النضير والذي شمل في الدرجة الأولى سلام بن أبي الحقيق، أحد أركان المؤامرة، لم يكن العفو الكريم ليغير شيئًا من طبيعة هذا اليهودي، طبيعة الأنانية والغدر والخيانة والتآمر والسعي للوصول ـ على أكتاف الغير ـ إلى الغرض المنشود بأية وسيلة مهما بلغت من الخسة والوضاعة، طبيعة اليهود في كل زمان ومكان.

فقد رأينا ـ كما تقدم ـ كيف أن سلام بن أبي الحقيق بالرغم من تلك المعاملة الكريمة التي عامل بها النبي ﷺ يهود بني النضير، رأينا كيف أن سلام هذا وعصابته، لم تكد أقدامهم تطأ مدينة خيبر، حتى شرعوا في حبك المؤامرة الخطيرة التي كانت ثمرتها تعريض النبي ﷺ وأصحابه لأعظم خطر شهدوه في حياتهم وهو غزوة الأحزاب، التي رافق قواتها الضاربة سلام ابن أبي الحقيق هذا وزميله في التآمر حي بن أخطب اللذان كانا يحلمان بالعودة إلى المدينة، أما حي بن أخطب فقد لقي مصرعه في المدينة على أثر محاكمة يهود بني قريظة.

أما أبو رافع سلام بن أبي الحقيق فقد تمكن من الإفلات، فعاد إلى خيبر عقب انفضاض جيوش الأحزاب عن المدينة مهزومة مدحورة.

وقد رأت القيادة الإسلامية العليا في المدينة أن التخلص من هذا اليهودي سلام بن أبي الحقيق، الذي آلت إليه زعامة اليهود في خيبر بعد حيي بن أخطب ـ رأت أن التخلص من هذا اليهودي كمجرم حرب أمر لا بد منه.

لأن عداءه المستحكم للإسلام وحقده العارم المغتلم في نفسه على النبي ﷺ لن يتركا له فرصة يستريح فيها من عناء الكيد للإسلام والتأليب على المسلمين لإفنائهم حتى ولو أعطاهم ألف عهد ووقّع معهم ألف ميثاق.

فمن المحتمل جدًّا ـ بما لدى هذا اليهودي المرابي من ثراء واسع، ولما يتمتع به من نفوذ اقتصادي كبير بين قبائل العرب الوثنية المعادية بطبعها للإسلام ـ أن يقوم مرة أخرى بتأليب هذه القبائل وتحزيبها وأن يزين لها غزو يثرب من جديد، فيشعل على المسلمين نارًا أخرى، كما أشعل ـ بالاشتراك مع حيي بن أخطب ـ نار حرب الأحزاب التي كاد فيها المسلمون أن يبادوا عن آخرهم.

بل إن حديث المؤرخين ليشير إلى أن سلام بن أبي الحقيق هذا لم يكد يصل خيبر ـ بعد فراره ـ حتى شرع في اتصالاته المشبوهة بزعماء القبائل الوثنية وخاصة قبائل غطفان، وأخذ يحرضها على المسلمين ويهيئها من جديد لشن حرب ثانية ضد المسلمين بقصد إبادتهم، الأمر الذي يجعل المسلمين ـ حفاظًا على سلامتهم وأمن أراضيهم ـ أن يفكروا في التخلص سريعًا من هذه اليهودي العنيد المتآمر الذي لن يترك لهم فرصة يستريحون فيها ما بقي على قيد الحياة، وما قدر على فعل ما يعتقد أن فيه تدميرًا ـ أو إزعاجًا وإقلاقًا وترويعًا على الأقل ـ لهم؛ لأن من طبيعة اليهود عدم التردد في ارتكاب فعل الشر ما وجدوا السبيل إلى فعله، وما دام أن فعله يخدم غرضًا من أغراضهم الخبيثة أو يحقق هدفًا من أهدافهم الشريرة.

لذلك رأت القيادة الإسلامية العليا في المدينة القضاء على هذا الزعيم اليهودي بأسرع ما يمكن باعتباره مصدر خطر جسيم يهدد أمن وسلامة أمة بأكملها هي أمة الإسلام الوليدة في يثرب، وباعتباره غادرًا وخائنًا متآمرًا، لن يتورع ـ لإلحاق الضرر بالمسلمين ـ عن سلوك أي سبيل، في وقت فيه المسلمون أحوج ما يكونون إلى الهدوء والاستقرار لمواجهة ما يهددهم من أخطار لا تزال نُذُرها تلمع في أفق نجد والحجاز، حيث تتحفز قبائل غطفان ـ في انتظار الفرصة ـ لضرب المسلمين في المدينة لسلبها ونهبها، ولإعادة الاعتبار الذي فقدته عندما عادت قوتها الضاربة مدحورة تجر أذيال الهزيمة في غزوة الأحزاب بعد حصار فاشل دام أكثر من أربعة أسابيع.

كما أن قريشًا من جانبها وكل قبائل الحجاز والوثنية تتحين الفرص للإغارة على المسلمين وكسر شوكتهم كأعداء عقائديين للوثنية التي هي دين تلك القبائل التي غضبت غضبًا شديدًا بسبب ظهور دعوة التوحيد التي جاء بها الإسلام لتقام أركانها على أنقاض هذه الوثنية.

وبالجملة فقد كانت القيادة الإسلامية العليا في المدينة ـ بالرغم من إحساسها إحساسًا كاملًا بأنها من الناحية العسكرية أقوى مما كانت عليه قبل معركة الأحزاب ـ تشعر بأنها لا تزال محاطة بالأخطار من الشمال والشرق والجنوب.

بالإضافة إلى الخطر الداخلي الذي لا يزال الكيان الإسلامي الوليد يعاني منه الشيء الكبير، وهو خطر المنافقين الذين يتربصون ـ داخل المجتمع الإسلامي ـ بالإسلام والمسلمين الدوائر.

ولعل أعظم خطر يخشاه المسلمون في تلك الفترة هو الخطر اليهودي الجاثم في خيبر على بعد مسافة لا تزيد على ٧٠ ميلًا من المدينة.

وهذا الخطر وإن لم يكن متمثلًا في قيام هؤلاء اليهود بغزو المدينة إذ أن ذلك بعيد الاحتمال، حيث إن القيام بالغزو ليس من طبيعة اليهودي طيلة وجودهم في جزيرة العرب، وإنما من طبيعتهم ـ كما وصفهم القرآن الكريم ـ القتال خلف جُدُر الحصون والقلاع والمستعمرات المحصنة. [**جاء في القرآن الكريم إشارة إلى واقع هؤلاء اليهود** : ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ [الحشر: ١٤].

وإنما يتمثل هذا الخطر اليهودي ـ في الدرجة الأولى ـ في أن تعاود اليهود طبيعتهم في التحريض على المسلمين والسعي لحشد حشود جديدة هائلة من الأعراب ليقوموا بحرب خاطفة شاملة ضد المسلمين لحساب هؤلاء اليهود تحت تأثير الإغراء بالعطايا الجزيلة والرشاوى الكبيرة.

ولهذا كان لابد للمسلمين من القيام بعمل حاسم يتسم بالترويع والتخويف، يكون فيه درس رادع لليهود وإنذار عملي بأن هؤلاء اليهود ـ وخاصة زعماءهم وكبار مجرميهم ـ لن يكونوا بمنأى عن تأديب المسلمين وإنزالهم العقاب الصارم بهم جزاء تآمرهم حتى ولو كانوا في بروج مشيدة وحصون محصنة.

ولم يكن هذا العمل الجريء المتسم بطابع المغامرة إلا قتل ملك اليهود وكبيرهم في قصره وعلى فراش نومه.

لأن ذلك يعطي اليهود فكرة مجسَّدة عن قدرة المسلمين على المغامرة وعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله.

وفي ذلك إذا ما نجح ـ دونما شك ـ تمزيق لأعصاب اليهود وجعلهم يتصورون أن المسلمين معهم أينما كانوا وأنهم قادرون على قتلهم متى شاؤوا، الأمر الذي ينسخ من أذهانهم فكرة السعي مرة أخرى لغزو المسلمين في المدينة، ويجعلهم فقط يحصرون همهم واهتمامهم في التحصن وحماية أنفسهم من هؤلاء المسلمين.

وهل هناك قوم يخيفون أكثر من الذين يتمكنون من قتل أكبر إنسان في قومه وهو في علياء حصنه وعلى فراشه بالسيف، بالرغم من كثرة الأبواب الموصدة دونه والأحراس المقامة عليه.

ذلك بعض ما هدف إليه الفدائيون الخمسة الذين اتجهوا من المدينة إلى خيبر خصيصًا لقتل سيدها اليهودي وكبير مجرميها وزعيم متآمريها على الإسلام والمسلمين سلام بن أبي الحقيق الملقب بأبي رافع».
[صلح الحديبية لباشميل ٧٥-٨١].

ابن أبي الحقيق:

يقول د/ بريك: «أبو رافع عبد الله بن أبي الحقيق، أو سلَام بن أبي الحقيق، اختلفت المصادر في ذلك، فمنها ما سماه عبد الله، ومنها ما سماه سلَّام، ومنهم من نسبه إلى أبيه دون ذكر اسمه، والبعض نسبه إلى كنيته فقط، ولكن الأكثر على أنه سلَام بن أبي الحقيق.

كان من زعماء اليهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة بعد نقضهم العهد والميثاق معه، فتوجه مع بقية زعماء بني النضير إلى خيبر، فدان لهم يهودها، ومع ذلك كانوا دائمًا يتطلعون إلى الفرص السانحة للثأر من المسلمين والعودة مرة ثانية إلى المدينة، ورأوا أن هذا الهدف صعب المنال ما لم

يتم القضاء على قوة المسلمين المسيطرة في المدينة وما حولها، وأن ذلك لن يكون إلا بعمل ضخم منسق ضد المسلمين، فقوة اليهود وحدها لا تكفي لذلك، ومن خيبر بدأوا اتصالات موسعة وسفارات متعددة كان الهدف منها تحزيب أكبر قوة ممكنة من العرب تغزو المسلمين في عقر دارهم وتستأصلهم، وقد تم تقسيم خطة العمل بين هؤلاء الزعماء لهذا الغرض، فكان سلَام بن أبي الحقيق ـ كما يذكر عروة ـ له اليد الطولى في تحزيب قبائل غطفان النجدية الكبيرة وحلفائها من «مشركي العرب يدعوهم إلى قتال رسول الله ﷺ ويجعل لهم الجعل (ما تجعل للغازي إذا غزا عنك بجعل) العظيم». [من رواية ابن عائذ عن عروة. ابن حجر فتح ٧/ ٣٤٣، ومغازي ابن عائذ مفقودة كما ذكرنا، ولكن البيهقي رواه من طريقه إلى عروة. ينظر: الدلائل ٤/ ٣٨ كما روى ذلك ابن سعد عن جمع من شيوخه. الطبقات ٢/ ٩١. السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة لبريك ١٧٣].

ولما انقضى أمر الخندق وبني قريظة بعد أن انفض الأحزاب عن المدينة بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وقُتل حُيي بن أخطب النضري شريكُ أبي رافع القوي في تحزيب الأحزاب ــ مع بني قريظة ـ فنال بذلك القصاص العادل الذي أفلت منه سلام بن أبي الحقيق حيث كان بعيدًا في قومه في حصون خيبر، فأصبح بالنسبة للمسلمين مجرم حرب خطيرًا هاربًا لابد من القضاء عليه حتى لا يقوم بتحركات مماثلة في المستقبل تهدد أمنهم وسلامتهم». [السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٧٢-١٧٣].

التنافس بين الأوس والخزرج في عمل الخير:

يقول د/ بريك: «وكانت الأنصار كما أشار أهل المغازي يتنافسون فيما بينهم تفانيًا في خدمة رسول الله ﷺ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾[المطففين]، فلما أصابت الأوس كعبَ بن الأشرف بمبادرة بطولية من جانبهم، فحققوا بذلك سبقًا إسلاميًّا على منافسيهم من الخزرج الذين بَدَوْا متحفزين للقيام بدور مماثل. [ينظر: المغازي النبوية للزهري ١١٣، والمصنف لعبد الرزاق ٥/ ٤٠٧-٤٠٨، وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٧٤، والمغازي للواقدي ١/ ٣٩١، والطبقات لابن سعد ٢/ ٩١، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٣].

فما أن ندب رسول الله ﷺ إلى ابن أبي الحقيق حتى سارعوا إلى التطوع للانخراط في هذه المهمة الشاقة على صعوبتها وما يحيط بها من أخطار، فالرجل بعيد عن قاعدة الإسلام: المدينة، وهو في مَنَعة من قومه وحصونهم وحلفائهم من غطفان». [السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٧٣-١٧٤].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَـمَّا انْقَضَى شَأْنُ [أَمْرُ] الْخَنْدَقِ، وَأَمْرُ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ سَلَامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ، وَهُوَ أَبُو رَافِعٍ فِيمَنْ حَزَّبَ (جمع) الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَكَانَتْ الْأَوْسُ قَبْلَ أُحُدٍ قَدْ قَتَلَتْ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ، فِي عَدَاوَتِهِ لِرَسُولِ الله ﷺ وَتَحْرِيضِهِ عَلَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَتْ الْخَزْرَجُ رَسُولَ الله ﷺ فِي قَتْلِ سَلَامِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ وَهُوَ بِخَيْبَرِ، فَأَذِنَ لَهُمْ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ، عَنْ عَبْدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: وَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللهُ بِهِ لِرَسُولِهِ ﷺ أَنَّ هَذَيْنِ الْحَيَّيْنِ مِنْ الْأَنْصَارِ ـ وَالْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ـ كَانَا يَتَصَاوَلَانِ

(يتفاخران، إذا فعل أحدهما شيئًا فعل الآخر مثله) [فِي الإِسْلَامِ] مَعَ رَسُولِ الله ﷺ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ (**الفحل**: الذكر من الإبل)، لَا تَصْنَعُ الْأَوْسُ شَيْئًا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ غَنَاءً (منفعة) إِلَّا قَالَتْ الْخَزْرَجُ: وَالله لَا تَذْهَبُونَ بِهَذِهِ فَضْلًا عَلَيْنَا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ وَفِي الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَلَا يَنْتَهُونَ حَتَّى يُوقِعُوا مِثْلَهَا؛ وَإِذَا فَعَلَتْ الْخَزْرَجُ شَيْئًا قَالَتْ الْأَوْسُ مِثْلَ ذَلِكَ.

وَلَـمَّا أَصَابَتْ الْأَوْسُ كَعْبَ بْنَ الْأَشْرَفِ فِي عَدَاوَتِهِ لِرَسُولِ الله ﷺ قَالَتْ الْخَزْرَجُ: وَالله لَا تَذْهَبُونَ بِهَا فَضْلًا عَلَيْنَا أَبَدًا [وَالله لَا نَنْتَهِي حَتَّى نُجْزِئَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ مِثْلَ الَّذِي أَجْزَأُوا عَنْهُ].

قَالَ: فَتَذَاكَرُوا: [فَتَذَاكَرُوا أَوْزَنَ رَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ] مَنْ رَجُلٌ لِرَسُولِ الله ﷺ فِي الْعَدَاوَةِ كَابْنِ الْأَشْرَفِ؟ فَذَكَرُوا [سَلَّامَ] ابْنَ أَبِي الْحُقَيْقِ [الأَعْوَرَ أَبَا رَافِعٍ]، وَهُوَ بِخَيْبَرِ، فَاسْتَأْذَنُوا رَسُولَ الله ﷺ فِي قَتْلِهِ فَأَذِنَ لَهُمْ. **[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٣-٢٧٤، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك. مصنف عبد الرزاق ٥/ ٤٠٧ رقم ٩٧٤٧، وما بين المعكوفتين منه].**

قائد وأفراد السرية:

يقول د/ بريك: «ومن أجل خطورة هذه المهمة تخيَّر رسول الله ﷺ رجالًا منهم فيهم بعض الشــروط المناسبة لهذه المهمة الصعبة، فكان عبد الله بن عتيك ﷺ قائدًا لهذه السرية، حيث تذكر بعـض المصـادر أنـه كان يتقن العبرية بطلاقة ـ إضافة إلى صلته السابقة بأبي رافع [(١)].

واهتمت روايات أهل المغازي بتسمية بقية أفراد السرية على خلاف بينها في بعضهم».

[السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٧٤].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَخَرَجَ إِلَيْهِ مِنْ الْخَزْرَجِ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ خَمْسَةُ نَفَرٍ: عَبْدُ الله بْنُ عَتِيكٍ، وَمَسْعُودُ بْنُ سِنَانٍ، وَعَبْدُ الله بْنُ أُنَيْسٍ، وَأَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رِبْعِيٍّ، وَخُزَاعِيُّ بْنُ أَسْوَدَ (في دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٤ «الْأَسْوَدُ بْنُ خُزَاعِيٍّ»، وكذلك في طبقات ابن سعد ٤/ ٤٠١ رقم ٧٠٩)، حَلِيفٌ لَهُمْ مِنْ أَسْلَمَ، [وَرَجُلٌ آخَرُ يُقَالُ لَهُ فُلَانُ بنُ سَلِمَةَ]، فَخَرَجُوا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ عَبْدَ الله بْنَ عَتِيكٍ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَنْ يَقْتُلُوا وَلِيدًا أَوْ امْرَأَةً».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٤، دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٤، المصنف لعبد الرزاق ٥/ ٤٠٨].

---

(١) ذكر ذلك الواقدي، وكاتبه ابن سعد رواية عن جمع من شيوخه، منهم الواقدي. وذكر خليفة أن أم عبد الله كانت بخيبر، ولكن الواقدي ذكر أنها أمه من الرضاعة.

ينظر: الطبقات لخليفة بن خياط ١٠٣، والمغازي للواقدي ١/ ٣٩١-٣٩٢، والطبقات ابن سعد ٢/ ٣٩٥. وربما يؤيد رواية الواقدي وابن سعد ما وقع في روايات الصحيح من أن عبد الله بن عتيك ﷺ حينما دخل على أبي رافع وضربه، ثم رجع إليه كلَّمه كهيئة المغيث، وتكرر ذلك منه مرارًا، ولا يمنع أن يكون الحديث بينهما باللغة العربية التي يتقنها أبو رافع، ولكن ما عُرف من خبث اليهود وحذرهم الشديد وجبنهم يجعلنا نستأنس بهذه الروايات على ضعفها. والله أعلم. السرايا والبعوث لبريك ١٧٤.

قال الصالحي: وعند محمد بن عمر، ومحمد بن سعد: أسود بن خزاعي، حليف لهم من أسلم، زاد البراء بن عازب ﵄ ـ كما في الصحيح ـ عبد الله بن عتبة ـ بضم العين المهملة وسكون الفوقية ـ فيكونون ستة، وزاد موسى بن عقبة والسهيلي أسعد بن حرام ـ بالراء ـ فيكونون سبعة.

[سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦/ ١٦٣].

وصايا الرسول ﷺ للسَّرِيَّة:

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن تهيأ هؤلاء الفدائيون للتوجه إلى خيبر لإنفاذ مهمتهم الشاقة الخطيرة، زودهم النبي الأعظم ﷺ بوصاياه الإنسانية النبيلة المعهودة التي يوصي بمثلها (دائمًا) كل من يريد الإقدام على أي عمل حربي.. أوصاهم بأن لا يقتلوا وليدًا ولا يعتدوا على امرأة». [صلح الحديبية لباشميل ٨٢].

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ عَمِّهِ، «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، لَـمَّا بَعَثَهُ إِلَى ابْنِ أَبِي الْحَقِيقِ **«نَهَاهُ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ»**.

[المصنف لابن أبي شيبة ١٧/ ٥٧١-٥٧٢ كتاب السير باب من ينهى عن قتله في دار الحرب رقم ٣٣٧٨٧، والسنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٣١ كتاب جماع أبواب السير باب النهي عن قصد النساء والولدان بالقتل رقم ١٨٠٨٦].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ **«نَهَى النَّفَرَ الَّذِينَ بُعِثُوا إِلَى ابْنِ أَبِي الْحُقَيقِ بِخَيْبَرَ لِيَقْتُلُوهُ، فَنَهَاهُمْ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ»**.

[مصنف ابن أبي شيبة ٢٠/ ٤٤٧-٤٤٨ كتاب المغازي باب غزوة خيبر رقم ٣٨٠٥٣].

وعَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ، أَنَّهُ قَالَ: **«نَهَى رَسُولُ الله ﷺ الَّذِينَ قَتَلُوا ابْنَ أَبِي الْحُقَيْقِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ»**.

قَالَ: فَكَانَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يَقُولُ: بَرَّحَتْ بِنَا امْرَأَةُ ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ بِالصِّيَاحِ، فَأَرْفَعُ السَّيْفَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَذْكُرُ نَهْيَ رَسُولِ الله ﷺ فَأَكُفُّ، وَلَوْلاَ ذَلِكَ اسْتَرَحْنَا مِنْهَا.

[موطأ مالك كتاب الجهاد باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو رقم ٩٧٤].

يقول أ/ باشميل: «وبعد أن تزود هؤلاء الفدائيون الخمسة بتلك الوصايا الإنسانية النبوية السياسية التي لا تزال قاعدة يتبعها العالم المتمدن في الحروب العادلة تحركوا من المدينة نحو منطقة خيبر.

الفدائيون في خيبر:

ولم تكن إلا عدة أيام حتى كان الفدائيون الخمسة في مدينة خيبر.

لقد كان دخول العرب إلى منطقة خيبر غير مستنكر لا سيما وأن أهلها ـ وخاصة أبا رافع المطلوب القضاء عليه ـ مرابون يقرضون الأعراب قروضًا ربوية تقوم عليها تجارة هؤلاء اليهود في خيبر بل في جميع أنحاء جزيرة العرب، فالربا صفة تجارية ملازمة لليهود أينما حلوا.

تخفي الفدائيين بالنهار:

ولقد كان بإمكان عبد الله بن عتيك وفصيلته من الفدائيين أن يتجولوا في مدينة خيبر، بل وأن يدخلوا إلى حصونها ويتحدثوا إلى أهلها بحرية تامة وفي أي وقت أرادوا كما يفعل غيرهم من الأعراب المجاورين لخيبر وغير المجاورين الذين يعرفهم يهود خيبر أو لا يعرفونهم؛ لأن اكتظاظ خيبر دائمًا بالأعراب شيء مألوف، لأنها سوقهم الرئيسة التي يبتاعون منها حاجاتهم الضرورية من المواد الغذائية كالتمر والبر والشعير والذرة وغير ذلك، إذ أن خيبر تعتبر من أعظم تلك المناطق إنتاجًا للحبوب والتمور؛ ولذلك يسميها العرب آن ذاك (ريف الحجاز)، غير أن الذي حال بين الفدائيين الخمسة وبين التجوال في مدينة خيبر والظهور فيها نهارًا، واضطرهم إلى الاختفاء بالنهار والتحرك بالليل فقط، وتحاشي التحدث إلى أن يهودي أو الاجتماع به، هو أن جميع يهود بني النضير نساءً ورجالًا والذين أصبحوا من سكان مدينة خيبر يعرفون هؤلاء الفدائيين الخمسة فردًا فردًا، وحتى أصواتهم سيعرفونهم بها لأنهم منذ خلقوا وهم يعيشون معهم في المدينة، ولم يمض على خروج يهود بني النضير من المدينة إلى خيبر إلا بضعة عشر شهرًا، ولو عرف يهود خيبر هؤلاء الفدائيين لاكتشفوا أمرهم ولألقوا عليهم القبض وقتلوهم في الحال.

لأنهم يعتبرون أنفسهم في حالة حرب مع المسلمين، ولأنهم سيدركون أن هؤلاء الفدائيين ـ وهم أعداء ألداء لليهود ـ إما أن يكونوا جواسيس، وإما أن يكونوا جاؤوا لقتل أحد من سادات اليهود.

اللغة العبرية:

غير أن هناك أمرًا ساعد قائد فصيلة الفدائيين على تخطي بعض هذه الصعاب الشديدة وهو أنه كان يجيد اللغة العبرية ـ لغة دينهم ـ كأهلها، وكانت هذه اللغة بالنسبة للسواد الأعظم من يهود الجزيرة تعتبر لغة ثانوية إلى جانب اللغة العربية التي يجيدها السواد الأعظم من اليهود أكثر مما يجيدون اللغة العبرية ـ لغة دينهم ـ والتي لا يجيدها إلا الأحبار والزعماء والقادة.

ولقد ساعد إلمام عبد الله بن عتيك ﷺ باللغة العبرية على تيسير مهمته، حيث يسر له الاختلاط ببعض يهود خيبر، ويحتمل أنه عن طريق مخاطبتهم باللغة العبرية حصل على أهم المعلومات الهامة التي يتوقف تنفيذ خطة قتل أبي رافع على الحصول عليها.

الخطة والتنفيذ:

بعد الحصول على المعلومات الهامة التي يظهر أن الحصول عليها استغرق عدة أيام، شرع الفدائيون الخمسة في رسم الخطة للقضاء على رأس الغدر والخيانة والتآمر أبي رافع سلام بن أبي الحقيق، حسب أوامر القيادة العليا في المدينة.

وكانت الخطة تتلخص فيما يلي حسب وصف جمهرة المؤرخين:

١ـ على الفدائيين الخمسة أن يتسللوا ليلًا إلى داخل الحصن بطريقة يتم الاتفاق عليها.

٢ ـ عند نجاحهم في الدخول إلى الحصن عليهم أن يستولوا على مقاليد أبواب الحصن التي كان قائد الفدائيين قد عرف أين توضع بعد قفل الأبواب.

٣ ـ بعد ذلك، عليهم الاختفاء في أماكن الدواب حتى يمضي من الليل أكثره فيسكن الناس وينام الحراس، وينصرف من مجلس أبي رافع سُمَّاره الذين يسامرونه من الزعماء كل ليلة.

٤ ـ في النصف الثاني من الليل، على الفدائيين أن يتحركوا في غلس الظلام نحو الممرات والدهاليز التي تؤدي إلى غرفة نوم أبي رافع، على أن يكون ذلك بحذر شديد ويقظة متناهية.

٥ ـ عند اجتياز كل باب من أبواب دهاليز وممرات الحصن عليهم أن يقفلوا هذه الأبواب من الداخل على أنفسهم ويأخذوا المفاتيح بأيديهم.

٦ ـ بما أن تحركهم في الممرات نحو غرفة الطاغية سيكون آخر الليل حيث يكون جميع الحرس قد ناموا، فإن عليهم أن يقفلوا من الخارج باب كل غرفة (في حذر) على من فيها من الحرس والخدم، ويأخذوا الأقاليد (المفاتيح) معهم بعد القيام بكل هذه العمليات التي كان تنفيذها يكاد يكون من المستحيلات؛ لأنها من الصعوبة بمكان عظيم في زمن يشعر فيه اليهود بأنهم معرَّضون لأي خطر من قِبَل المسلمين الذين هم معهم في حالة حرب.

٧ ـ بعد قيام الفدائيين بهذه العمليات الصعبة التنفيذ، عليهم أن يتجهوا بأسلحتهم المخفية داخل ثيابهم نحو غرفة الطاغية أبي رافع سلام بن أبي الحقيق، التي عرفها قائد الفدائيين بالتحديد لدى قيامه بالتحري، وذلك لتنفيذ المرحلة الأخيرة من الخطة وهي قتل الطاغية.

٨ ـ اتفقوا على أن يقتحموا غرفة الطاغية وهو على فراش نومه، ولدى اقتحام الغرفة ليس من حق أي من الفدائيين التحدث إلى كائن من كان، إلا قائد الفدائيين ابن عتيك ﷺ، فإن من حقه أن يتكلم بما تمليه الضرورة؛ لأنه الوحيد الذي يجيد اللغة العبرية والتي يمكنه عن طريقها التمويه على اليهود إذا ما اكتشف أمره وأمر فصيلته.

٩ ـ عليهم ألا يهيجوا أحدًا من يهود الحصن، وأن لا يقتلوا أحدًا إلا في حالة الدفاع عن النفس؛ لأن ذلك يفسد عليهم خطتهم ولأنهم لم يؤمروا إلا بقتل الطاغية أبي رافع فقط.

١٠ـ وكما هي أوامر النبي ﷺ عليهم أن لا يقتلوا امرأة أبي رافع التي أدخلوا في حسابهم أثناء وضع الخطة وجودها في حجرته وقيامها بمدافعتهم أو الصياح، وكل ما يجوز لهم فعله في حالة وجودها تهديدها أو تكميم فمها عند الفتك بأبي رافع، إذا اقتضت الضرورة ذلك.

هذه هي الخطوط العريضة للخطة التي رسمها الفدائيون الخمسة للتخلص من رأس الغدر والخيانة والتآمر أبي رافع.

لقد رسم الفدائيون هذه الخطة الجريئة، وعندم رسموها لم يفكروا كيف يمكنهم العودة من قمة الحصن الذي ينام في عليته أبو رافع وكيف يمكنهم المرور بالدهاليز والممرات الطويلة والحجر المنتشرة على جوانبها والتي لن يصلوا إليها إلا وقد وصل خبر اغتيال الطاغية إلى باقي اليهود، نعم لم يفكروا في العودة، لأن هدفهم هو تنفيذ أوامر قائدهم الأعلى النبي ﷺ، وإذا تم تنفيذ الأمر فلا يهمهم بعد ذلك كيف تجيء نتائج هذا التنفيذ». [صلح الحديبية لباشميل ٨٢-٨٧].

تفاصيل مقتل طاغية اليهود:

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَهْطًا مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى أَبِي رَافِعٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَتِيكٍ رضي الله عنه بَيْتَهُ لَيْلًا، وَهْوَ نَائِمٌ، فَقَتَلَهُ. **[البخاري في الجهاد (٣٠٢٣)، وفي المغازي (٤٠٣٨)]**.

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَهْطًا مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى أَبِي رَافِعٍ لِيَقْتُلُوهُ، فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَدَخَلَ حِصْنَهُمْ، قَالَ: فَدَخَلْتُ فِي مَرْبِطِ دَوَابَّ لَهُمْ، قَالَ: وَأَغْلَقُوا بَابَ الْحِصْنِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ فَقَدُوا حِمَارًا لَهُمْ، فَخَرَجُوا يَطْلُبُونَهُ، فَخَرَجْتُ فِيمَنْ خَرَجَ أُرِيهِمْ أَنَّنِي أَطْلُبُهُ مَعَهُمْ، فَوَجَدُوا الْحِمَارَ، فَدَخَلُوا وَدَخَلْتُ، وَأَغْلَقُوا بَابَ الْحِصْنِ لَيْلًا، فَوَضَعُوا الْمَفَاتِيحَ فِي كَوَّةٍ (بفتح الكاف وبضم، والكوة: الخرق في الحائط، وقيل بالفتح غير النافذة، وبالضم النافذة. ابن حجر، فتح (٧/ ٣٤٣)، والقاموس، مادة (كوه). السرايا والبعوث لبريك ١٧٦) حَيْثُ أَرَاهَا، فَلَمَّا نَامُوا أَخَذْتُ الـمَفَاتِيحَ، فَفَتَحْتُ بَابَ الْـحِصْنِ، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا أَبَا رَافِعٍ! فَأَجَابَنِي، فَتَعَمَّدْتُ الصَّوْتَ، فَضَرَبْتُهُ فَصَاحَ، فَخَرَجْتُ ثُمَّ جِئْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ كَأَنِّي مُغِيثٌ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا رَافِعٍ، وَغَيَّرْتُ صَوْتِي، فَقَالَ: مَا لَكَ لأُمِّكَ الْوَيْلُ، قُلْتُ: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: لاَ أَدْرِي مَنْ دَخَلَ عَلَيَّ فَضَرَبَنِي، قَالَ: فَوَضَعْتُ سَيْفِي فِي بَطْنِهِ، ثُمَّ تَحَامَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى قَرَعَ الْعَظْمَ، ثُمَّ خَرَجْتُ وَأَنَا دَهِشٌ، فَأَتَيْتُ سُلَّمًا لَهُمْ لأَنْزِلَ مِنْهُ، فَوَقَعْتُ فَوُثِئَتْ (أصابها وهن لا يبلغ الكسر) رِجْلِي، فَخَرَجْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِبَارِحٍ حَتَّى أَسْمَعَ النَّاعِيَةَ، فَمَا بَرِحْتُ حَتَّى سَمِعْتُ نَعَايَا أَبِي رَافِعٍ تَاجِرِ أَهْلِ الْحِجَازِ (بكسر الحاء المهملة: مكة والمدينة واليمامة ومخالفيها قاله الإمام الشافعي، وقال غيره: ما بين نجد والسراة، وقال الكلبي: ما حجز بين اليمامة والعروض، وما بين نجد والسراة. سبل الهدى والرشاد ٦/ ١٦٩)، قَالَ: فَقُمْتُ وَمَا بِي قَلَبَةٌ (**القلبة**: العلة، أو الداء والتعب، والمعنى أنه كان يمشي ولم يكن به ألم)، حَتَّى أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ. **[البخاري في الجهاد (٣٠٢٢)]**.

وعَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَبِي رَافِعٍ الْيَهُودِيِّ رِجَالًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَتِيكٍ رضي الله عنه، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤْذِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَيُعِينُ عَلَيْهِ، وَكَانَ فِي حِصْنٍ لَهُ بِأَرْضِ الْحِجَازِ، فَلَمَّا دَنَوْا مِنْهُ، وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَرَاحَ النَّاسُ بِسَرْحِهِمْ (المال السائم الراعي وسرحت الماشية، أي: أخرجتها بالغداة إلى المرعى)، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ لأَصْحَابِهِ: اجْلِسُوا مَكَانَكُمْ، فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ، وَمُتَلَطِّفٌ لِلْبَوَّابِ، لَعَلِّي أَنْ أَدْخُلَ، فَأَقْبَلَ حَتَّى دَنَا مِنَ الْبَابِ ثُمَّ تَقَنَّعَ بِثَوْبِهِ كَأَنَّهُ يَقْضِي حَاجَةً (أي: يتبول أو يتبرز، وكان الناس في ذلك

العهد تعودوا على قضاء حوائجهم خارج بيوتهم، وقد حققت له هذه الحيلة على بساطتها ما كان يهدف إليه حيث ظن البواب أنه من أهل الحصن يقضي حاجته خارجه، فهتف به للدخول غير شاك به. السرايا والبعوث لبريك١٧٦)، وَقَدْ دَخَلَ النَّاسُ، فَهَتَفَ بِهِ الْبَوَّابُ: يَا عَبْدَ اللهِ (لم يُرِد اسمه العلم لأنه لو كان كذلك لكان قد عرفه، فالذي يظهر أنه أراد معناه الحقيقي؛ لأن الجميع عبيد الله. فتح الباري لابن حجر ٧/ ٣٤٣)، إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَدْخُلَ فَادْخُلْ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُغْلِقَ الْبَابَ، فَدَخَلْتُ فَكَمَنْتُ، فَلَمَّا دَخَلَ النَّاسُ أَغْلَقَ الْبَابَ، ثُمَّ عَلَّقَ الأَغَالِيقَ (جمع غلق، وهو المفتاح، وكذلك الأقاليد جمع إقليد) عَلَى وَتَدٍ.

قَالَ: فَقُمْتُ إِلَى الأَقَالِيدِ، فَأَخَذْتُهَا، فَفَتَحْتُ الْبَابَ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُسْمَرُ عِنْدَهُ، وَكَانَ فِي عَلَالِيَّ (جمع عُلِيَّة، أي الغرفة) لَهُ، فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ أَهْلُ سَمَرِهِ صَعِدْتُ إِلَيْهِ، فَجَعَلْتُ كُلَّمَا فَتَحْتُ بَابًا أَغْلَقْتُ عَلَيَّ مِنْ دَاخِلٍ، قُلْتُ: إِنِ الْقَوْمُ نَذِرُوا بِي لَمْ يَخْلُصُوا إِلَيَّ حَتَّى أَقْتُلَهُ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ وَسْطَ عِيَالِهِ، لاَ أَدْرِي أَيْنَ هُوَ مِنَ الْبَيْتِ فَقُلْتُ: يَا أَبَا رَافِعٍ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَأَهْوَيْتُ نَحْوَ الصَّوْتِ، فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، وَأَنَا دَهِشٌ فَمَا أَغْنَيْتُ شَيْئًا، وَصَاحَ فَخَرَجْتُ مِنَ الْبَيْتِ، فَأَمْكُثُ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا الصَّوْتُ يَا أَبَا رَافِعٍ؟ فَقَالَ: لأُمِّكَ الْوَيْلُ، إِنَّ رَجُلًا فِي الْبَيْتِ ضَرَبَنِي قَبْلُ بِالسَّيْفِ، قَالَ: فَأَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أَثْخَنَتْهُ وَلَمْ أَقْتُلْهُ، ثُمَّ وَضَعْتُ ظُبَةَ (حد) السَّيْفِ فِي بَطْنِهِ حَتَّى أَخَذَ فِي ظَهْرِهِ، فَعَرَفْتُ أَنِّي قَتَلْتُهُ.

فَجَعَلْتُ أَفْتَحُ الأَبْوَابَ بَابًا بَابًا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى دَرَجَةٍ لَهُ، فَوَضَعْتُ رِجْلِي وَأَنَا أُرَى أَنِّي قَدِ انْتَهَيْتُ إِلَى الأَرْضِ فَوَقَعْتُ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، فَانْكَسَرَتْ سَاقِي، فَعَصَبْتُهَا بِعِمَامَةٍ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ حَتَّى جَلَسْتُ عَلَى الْبَابِ، فَقُلْتُ: لاَ أَخْرُجُ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَعْلَمَ أَقَتَلْتُهُ؟ فَلَمَّا صَاحَ الدِّيكُ قَامَ النَّاعِي عَلَى السُّورِ، فَقَالَ: أَنْعَى أَبَا رَافِعٍ تَاجِرَ أَهْلِ الْحِجَازِ، فَانْطَلَقْتُ إِلَى أَصْحَابِي فَقُلْتُ: النَّجَاءَ، فَقَدْ قَتَلَ اللهُ أَبَا رَافِعٍ، فَانْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ: «**ابْسُطْ رِجْلَكَ**»، فَبَسَطْتُ رِجْلِي، فَمَسَحَهَا، فَكَأَنَّهَا لَمْ أَشْتَكِهَا قَطُّ. [**البخاري في المغازي (٤٠٣٩)**].

وعَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَبِي رَافِعٍ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَتِيكٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عُتْبَةَ فِي نَاسٍ مَعَهُمْ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى دَنَوْا مِنَ الْحِصْنِ، فَقَالَ لَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَتِيكٍ: امْكُثُوا أَنْتُمْ حَتَّى أَنْطَلِقَ أَنَا فَأَنْظُرَ، قَالَ: فَتَلَطَّفْتُ أَنْ أَدْخُلَ الْحِصْنَ، فَفَقَدُوا حِمَارًا لَهُمْ، قَالَ: فَخَرَجُوا بِقَبَسٍ يَطْلُبُونَهُ، قَالَ: فَخَشِيتُ أَنْ أُعْرَفَ، قَالَ: فَغَطَّيْتُ رَأْسِي كَأَنِّي أَقْضِي حَاجَةً، ثُمَّ نَادَى صَاحِبُ الْبَابِ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ فَلْيَدْخُلْ قَبْلَ أَنْ أُغْلِقَهُ، فَدَخَلْتُ ثُمَّ اخْتَبَأْتُ فِي مَرْبِطِ حِمَارٍ عِنْدَ بَابِ الْحِصْنِ (كأنه كان للحصن بابان، باب من داخل، وآخر من خارج. السرايا والبعوث لبريك ١٧٦)، فَتَعَشَّوْا عِنْدَ أَبِي رَافِعٍ وَتَحَدَّثُوا حَتَّى ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ، فَلَمَّا هَدَأَتِ الأَصْوَاتُ وَلَا أَسْمَعُ حَرَكَةً خَرَجْتُ، قَالَ: وَرَأَيْتُ صَاحِبَ الْبَابِ حَيْثُ وَضَعَ مِفْتَاحَ الْحِصْنِ، فِي كَوَّةٍ فَأَخَذْتُهُ فَفَتَحْتُ بِهِ بَابَ الْحِصْنِ، قَالَ: قُلْتُ: إِنْ نَذِرَ بِي الْقَوْمُ انْطَلَقْتُ عَلَى مَهَلٍ، ثُمَّ عَمَدْتُ إِلَى أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، فَغَلَّقْتُهَا عَلَيْهِمْ مِنْ ظَاهِرٍ، ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَى أَبِي رَافِعٍ فِي سُلَّمٍ، فَإِذَا الْبَيْتُ مُظْلِمٌ قَدْ طَفِئَ

سِرَاجُهُ، فَلَمْ أَدْرِ أَيْنَ الرَّجُلُ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا رَافِعٍ! قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: فَعَمَدْتُ نَحْوَ الصَّوْتِ فَأَضْرِبُهُ، وَصَاحَ فَلَمْ تُغْنِ شَيْئًا، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ كَأَنِّي أُغِيثُهُ، فَقُلْتُ: مَا لَكَ يَا أَبَا رَافِعٍ! وَغَيَّرْتُ صَوْتِي، فَقَالَ: أَلَا أُعْجِبُكَ لِأُمِّكَ الْوَيْلُ، دَخَلَ عَلَيَّ رَجُلٌ فَضَرَبَنِي بِالسَّيْفِ، قَالَ: فَعَمَدْتُ لَهُ أَيْضًا فَأَضْرِبُهُ أُخْرَى، فَلَمْ تُغْنِ شَيْئًا، فَصَاحَ وَقَامَ أَهْلُهُ، قَالَ: ثُمَّ جِئْتُ وَغَيَّرْتُ صَوْتِي كَهَيْئَةِ الْمُغِيثِ، فَإِذَا هُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ، فَأَضَعُ السَّيْفَ فِي بَطْنِهِ ثُمَّ أَنْكَفِئُ عَلَيْهِ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتَ الْعَظْمِ، ثُمَّ خَرَجْتُ دَهِشًا حَتَّى أَتَيْتُ السُّلَّمَ أُرِيدُ أَنْ أَنْزِلَ، فَأَسْقُطُ مِنْهُ فَانْخَلَعَتْ رِجْلِي فَعَصَبْتُهَا، ثُمَّ أَتَيْتُ أَصْحَابِي أَحْجُلُ، فَقُلْتُ: انْطَلِقُوا فَبَشِّرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَإِنِّي لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَسْمَعَ النَّاعِيَةَ، فَلَمَّا كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ صَعِدَ النَّاعِيَةُ فَقَالَ: أَنْعَى أَبَا رَافِعٍ، قَالَ: فَقُمْتُ أَمْشِي مَا بِي قَلَبَةٌ، فَأَدْرَكْتُ أَصْحَابِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُوا النَّبِيَّ ﷺ فَبَشَّرْتُهُ. [**البخاري في المغازي (٤٠٤٠)**].

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ ﷺ قَالَ: «بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبَا قَتَادَةَ، وَحَلِيفًا لَهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عَتِيكٍ، إِلَى ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ لِنَقْتُلَهُ، فَخَرَجْنَا [فَجِئْنَا خَيْبَرَ] لَيْلًا، فَتَتَبَّعْنَا أَبْوَابَهُمْ، فَغَلَّقْنَاهَا عَلَيْهِمْ مِنْ خَارِجٍ ثُمَّ جَمَعْنَا الْمَفَاتِيحَ [فَأَرْقَيْنَاهَا]، فَأَصْعَدَ [فَصَعِدَ] الْقَوْمُ فِي النَّخْلِ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَتِيكٍ مِنْ [فِي] دَرَجَةِ ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ، فتكَلَّمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَتِيكٍ، فَقَالَ ابْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ عَبْدَ اللهِ، أَنَّى لَكَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ [الْبَلْدَةِ]؟ قُومِي فَافْتَحِي لَهُ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يُرَدُّ عَنْ بَابِهِ هَذِهِ السَّاعَةَ، فَقَامَتْ، فَقُلْتُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَتِيكٍ: دُونَكَ، فَشَهَرَ [فَأَشْهَرَ] عَلَيْهِ [عَلَيْهِمُ] السَّيْفَ، فَذَهَبَتِ امْرَأَتُهُ لِتَصِيحَ، فَأَشْهَرَ عَلَيْهَا السَّيْفَ، فَأَدْرَكَهُ [وَأَذْكُرُ] قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ «**نَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ**»، فَأَكَفَّ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي مَشْرُبَةٍ [مَشْرَبَةٍ] لَهُ، فَوَقَفْتُ أَنْظُرُ إِلَى شِدَّةِ بَيَاضِهِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ [الْبَيْتِ]، فَلَمَّا رَآنِي أَخَذَ وِسَادَةً فَاسْتَتَرَ بِهَا، فَذَهَبْتُ أَرْفَعُ السَّيْفَ لِأَضْرِبَهُ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ مِنْ قِصَرِ الْبَيْتِ فَوَخَزْتُهُ وَخْزًا، ثُمَّ خَرَجْتُ، فَقَالَ صَاحِبِي: فَعَلْتَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَدَخَلَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ، ثُمَّ خَرَجْنَا فَانْحَدَرْنَا مِنَ الدَّرَجَةِ، فَسَقَطَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَتِيكٍ مِنَ [فِي] الدَّرَجَةِ فَقَالَ: وَارِجْلَاهُ، كُسِرَتْ رِجْلِي، فَقُلْتُ [لَهُ]: لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ [بِرِجْلِكَ] بَأْسٌ، وَوَضَعْتُ قَوْسِي فَاحْتَمَلْتُهُ، وَكَانَ عَبْدُ اللهِ قَصِيرًا ضَئِيلًا، فَأَنْزَلْتُهُ فَإِذَا رِجْلُهُ لَا بَأْسَ بِهَا، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى لَحِقْنَا أَصْحَابَنَا، وَصَاحَتِ الْمَرْأَةُ: وَابَيَاتَاهُ، فَيَثُورُ أَهْلُ خَيْبَرَ لِقَتْلِهِ، فَذَكَرْتُ مَوْضِعَ قَوْسِي فِي الدَّرَجَةِ، فَقُلْتُ: [وَاللهِ لَأَرْجِعَنَّ] لَا أَرْجِعُ حَتَّى آخُذَ [فَلَآخُذَنَّ] قَوْسِي، [، فَقَالَ أَصْحَابِي: قَدْ تَثَوَّرَ أَهْلُ خَيْبَرَ، تُقْتَلُ؟ فَقُلْتُ: لَا أَرْجِعُ أَنَا حَتَّى آخُذَ قَوْسِي،] فَرَجَعْتُ فَإِذَا أَهْلُ خَيْبَرَ قَدْ ثَوَّرُوا [تَثَوَّرُوا]، وَإِذَا مَا لَهُمْ كَلَامٌ إِلَّا: مَنْ قَتَلَ ابْنَ أَبِي الْحُقَيْقِ؟ فَجَعَلْتُ لَا أَنْظُرُ فِي وَجْهِ إِنْسَانٍ وَلَا يَنْظُرُ فِي وَجْهِي، إِلَّا قُلْتُ كَمَا يَقُولُ: مَنْ قَتَلَ ابْنَ أَبِي الْحُقَيْقِ؟ حَتَّى جِئْتُ الدَّرَجَةَ، فَصَعِدْتُ مَعَ النَّاسِ، فَأَخَذْتُ قَوْسِي، ثُمَّ لَحِقْتُ بِأَصْحَابِي، فَكُنَّا نَسِيرُ بِاللَّيْلِ، وَنَكْمُنُ بِالنَّهَارِ، فَإِذَا كَمِنَّا النَّهَارَ أَقْعَدْنَا نَاطُورًا يَنْظُرُ لَنَا [يَنْظُرُنَا] حَتَّى إِذَا اقْتَرَبْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَكُنَّا بِالْبَيْدَاءِ، كُنْتُ أَنَا نَاطُورُهُمْ [نَاطِرُهُمْ]، ثُمَّ إِنِّي أَلَحْتُ لَهُمْ بِثَوْبِي فَانْحَدَرُوا، فَخَرَجُوا جَمْزًا،

وَانْحَدَرْتُ أَنَا فِي آثَارِهِمْ، فَأَدْرَكْتُهُمْ حَتَّى بَلَغْنَا الْمَدِينَةَ، فَقَالَ لِي أَصْحَابِي: هَلْ رَأَيْتَ شَيْئًا؟ فَقُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ رَأَيْتُ مَا أَدْرَكَكُمْ مِنَ الْعَنَاءِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَحْمِلَكُمُ الْفَزَعُ، وَأَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ بِالنَّاسِ، فَقَالَ ﷺ: «**أَفْلَحَتِ الْوُجُوهُ**»، فَقُلْنَا: أَفْلَحَ وَجْهُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**أَقَتَلْتُمُوهُ؟**» قُلْنَا: نَعَمْ، فَدَعَا بِالسَّيْفِ الَّذِي قُتِلَ بِهِ، فَقَالَ: «هَذَا طَعَامُهُ فِي ظُبَاتِ [ضُبَابِ، ذُبَابِ] السَّيْفِ».

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٩٢-٢٩٣ في المغازي والسير (١٠٣٣٤)، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى [مسند أبي يعلى ٢/ ٢٠٤ رقم ٩٠٧، وقال الشيخ أسد: إسناده ضعيف]، وفيه إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع وهو ضعيف، والمطالب العالية للحافظ ابن حجر العسقلاني ١٧/ ٤٣٧ كتاب السِّيَرةِ والمغازي باب قصة قتل ابن أبي الحُقَيْق رقم ٤٢٩١].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بن أُنَيْسٍ ﷺ: أَنَّ الرَّهْطَ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللهِ بن أَبِي الْحُقَيْقِ لِيَقْتُلُوهُ: عَبْدُ اللهِ بن عَتِيكٍ، وَعَبْدُ اللهِ بن أُنَيْسٍ، وَأَبُو قَتَادَةَ، وَحَلِيفٌ لَهُمْ، وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَنَّهُمْ قَدِمُوا خَيْبَرَ لَيْلًا، فَعَمَدْنَا إِلَى أَبْوَابِهِمْ نُغَلِّقُهَا عَلَيْهِمْ مِنْ خَارِجٍ، قَالَتِ امْرَأَةُ ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ: إِنَّ هَذَا لَصَوْتُ عَبْدِ اللهِ بن عَتِيكٍ، قَالَ: افْتَحِي، فَفَتَحَتْ، فَدَخَلْتُ أَنَا، وَعَبْدُ اللهِ بن عَتِيكٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: دُونَكَ، ذَهَبْتُ لأَضْرِبَهَا بِالسَّيْفِ، فَأَذْكُرُ «**نَهْيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ، وَالْوِلْدَانِ**»، فَأَكُفُّ عَنْهَا.

قَالَ عَلِيُّ بن الْمَدِينِيُّ: هَذَا عَبْدُ اللهِ بن أُنَيْسٍ الأَنْصَارِيُّ، وَلَيْسَ بِالْجُهْنِيِّ، هَذَا عَبْدُ اللهِ بن أُنَيْسٍ الأَنْصَارِيُّ الَّذِي رَوَى عَنْهُ جَابِرُ بن عَبْدِ اللهِ ﷺ. **[مجمع الزوائد ٢/ ٢٩٤ في المغازي والسير (١٠٣٣٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٣/ ١٣٤ رقم ٣٣٣]، وفيه إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع، وهو ضعيف].**

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:... فَخَرَجُوا حَتَّى إِذَا قَدِمُوا خَيْبَرَ، أَتَوْا دَارَ ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ لَيْلًا، فَلَمْ يَدَعُوا بَيْتًا فِي الدَّارِ إِلَّا أَغْلَقُوهُ عَلَى أَهْلِهِ، قَالَ: وَكَانَ فِي عِلِّيَّةٍ (العِلِّيَّة: جمعها علالي، وهي الغرفة المبنية فوق غرفة أخرى. النهاية ٣/ ٢٩٥) [مَشْرَبَةٍ] لَهُ إِلَيْهَا عَجَلَةٌ (جذع النخلة ينقر في موضع منه ويجعل كالسلم فيصعد عليه إلى العلالي والغرف)، قَالَ: فَأَسْنَدُوا فِيهَا (علوا، أي صعدوا إليه)، حَتَّى قَامُوا عَلَى بَابِهِ، فَاسْتَأْذَنُوا عَلَيْهِ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِمْ امْرَأَتُهُ، فَقَالَتْ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ نَلْتَمِسُ الْمِيرَةَ، قَالَتْ: ذَاكُمْ صَاحِبُكُمْ، فَأُدْخِلُوا عَلَيْهِ، قَالَ: فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ، أَغْلَقْنَا عَلَيْنَا وَعَلَيْهَا الْحُجْرَةَ، تَخَوُّفًا أَنْ تَكُونَ دُونَهُ مُجَاوَلَةٌ (**المجاولة:** حركة تكون بينهم وبينه) تَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، قَالَ: فَصَاحَتْ امْرَأَتُهُ فَنَوَّهَتْ بِنَا (رفعت صوتها تشهر بنا. ويروي: فوهت)، وَابْتَدَرْنَاهُ وَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ بِأَسْيَافِنَا، فَوَاللهِ مَا يَدُلُّنَا عَلَيْهِ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ إِلَّا بَيَاضُهُ كَأَنَّهُ قُبْطِيَّةٌ (ضرب من الثياب البيض تصنع بمصر) مُلْقَاةٌ، قَالَ: وَلَـمَّا صَاحَتْ بِنَا امْرَأَتُهُ، جَعَلَ الرَّجُلُ مِنَّا يَرْفَعُ عَلَيْهَا سَيْفَهُ، ثُمَّ يَذْكُرُ نَهْيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَيَكُفَّ يَدَهُ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَفَرَغْنَا مِنْهَا بِلَيْلٍ، قَالَ: فَلَمَّا ضَرَبْنَاهُ بِأَسْيَافِنَا تَحَامَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ بِسَيْفِهِ فِي بَطْنِهِ حَتَّى أَنْفَذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: قَطْنِي قَطْنِي: أَيْ حَسْبِي حَسْبِي، قَالَ: وَخَرَجْنَا، وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَتِيكٍ رَجُلًا سَيِّءَ الْبَصَرِ، قَالَ: فَوَقَعَ مِنْ الدَّرَجَةِ فَوَثِئَتْ (أصاب عظمها شيء ليس بكسر، وقيل: هو أن يصاب اللحم دون العظم) يَدُهُ وَثْئًا شَدِيدًا ـ وَيُقَالُ: رِجْلُهُ، فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ ـ

وَحَمَلْنَاهُ حَتَّى نَأْتِيَ بِهِ مَنْهَرًا (مدخل الماء من خارج الحصن إلى داخله) مِنْ عُيُونِهِمْ، فَنَدْخُلُ فِيهِ، قَالَ: فَأَوْقَدُوا النِّيرَانَ، وَاشْتَدُّوا فِي كُلِّ وَجْهٍ يَطْلُبُونَنَا، [وَأَخْفَى اللهُ عَلَيْهِمْ مَكَانَنَا]، قَالَ: حَتَّى إِذَا يَئِسُوا رَجَعُوا إِلَى صَاحِبِهِمْ، فَاكْتَنَفُوهُ وَهُوَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ، قَالَ: فَقُلْنَا: كَيْفَ لَنَا بِأَنْ نَعْلَمَ بِأَنَّ عَدُوَّ اللهِ قَدْ مَاتَ؟ قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَّا: أَنَا أَذْهَبُ فَأَنْظُرُ لَكُمْ، فَانْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ فِي النَّاسِ، قَالَ: فَوَجَدْتُ امْرَأَتَهُ وَرِجَالَ يَهُودَ حَوْلَهُ وَفِي يَدِهَا الْمِصْبَاحُ تَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ، وَتُحَدِّثُهُمْ وَتَقُولُ: أَمَا وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ ابْنِ عَتِيكٍ، ثُمَّ أَكْذَبْتُ نَفْسِي، وَقُلْت: أَنَّى ابْنُ عَتِيكٍ بِهَذِهِ الْبِلَادِ؟ ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ تَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: فَاظَ (مات) وَإِلَهِ يَهُودَ، فَمَا سَمِعْتُ مِنْ كَلِمَةٍ كَانَتْ أَلَذَّ إِلَى نَفْسِي مِنْهَا، قَالَ: ثُمَّ جَاءَنَا الْخَبَرُ، فَاحْتَمَلْنَا صَاحِبَنَا فَقَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَتْلِ عَدُوِّ اللهِ، [قَالَ: وَجَاؤُوهُ يَوْمَ الْجُمْعَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَلَى الْمِنْبَرِ يَخْطُبُ، فَلَـمَّا رَآهُمْ قَالَ: **أَفْلَحَتِ الْوُجُوهُ**، فَقَالُوا: **أَفْلَحَ وَجْهُكَ يا رسول الله**،] وَاخْتَلَفْنَا عِنْدَهُ فِي قَتْلِهِ كُلُّنَا يَدَّعِيهِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**هَاتُوا أَسْيَافَكُمْ**»، قَالَ: فَجِئْنَاهُ بِهَا، فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ لِسَيْفِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ: «**هَذَا قَتَلَهُ أَرَى فِيهِ أَثَرَ الطَّعَامِ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٤-٢٧٥].

وقال الواقدي: حَدَّثَنِي أَبُو أَيُّوبَ بْنُ النُّعْمَانِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: خَرَجْنَا مِنْ الـمَدِينَةِ حَتَّى أَتَيْنَا خَيْبَرَ.

قَالَ: وَقَدْ كَانَتْ أُمُّ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَتِيكٍ بِخَيْبَرَ يَهُودِيَّةً أَرْضَعَتْهُ، وَقَدْ بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَمْسَةَ نَفَرٍ: عَبْدُ اللهِ بْنُ عَتِيكٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ، وَأَبُو قَتَادَةَ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ خُزَاعِيٍّ، وَمَسْعُودُ بْنُ سِنَانٍ.

قَالَ: فَانْتَهَيْنَا إِلَى خَيْبَرَ، وَبَعَثَ عَبْدُ اللهِ إِلَى أُمِّهِ فَأَعْلَمَهَا بِمَكَانِهِ، فَخَرَجَتْ إِلَيْنَا بِجِرَابٍ مَمْلُوءٍ تَمْرًا كَبِيسًا وَخُبْزًا، فَأَكَلْنَا مِنْهُ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: **يَا أُمَّاهُ إِنَّا قَدْ أَمْسَيْنَا، بَيِّتِينَا عِنْدَكَ فَأَدْخِلِينَا خَيْبَرَ.**

فَقَالَتْ أُمُّهُ: **كَيْفَ تُطِيقُ خَيْبَرَ وَفِيهَا أَرْبَعَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ؟ وَمَنْ تُرِيدُ فِيهَا؟** قَالَ: **أَبَا رَافِعٍ**، فَقَالَتْ: **لَا تَقْدِرْ عَلَيْهِ**، قَالَ: **وَاللهِ لَأَقْتُلَنَّهُ أَوْ لَأُقْتَلَنَّ دُونَهُ قَبْلَ ذَلِكَ.**

قَالَتْ: **فَادْخُلُوا عَلَيَّ لَيْلًا**، فَدَخَلَ عَلَيْهَا فَلَمَّا نَامَ أَهْلُ خَيْبَرَ، وَقَدْ قَالَتْ لَهُمْ: **اُدْخُلُوا فِي خَمَرِ** (أي جماعتهم) **النَّاسِ، فَإِذَا هَدَأَتْ الرِّجْلُ فَاكْمُنُوا**، فَفَعَلُوا وَدَخَلُوا عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَتْ: **إِنَّ الْيَهُودَ لَا تُغْلِقُ عَلَيْهَا أَبْوَابَهَا فَرَقًا أَنْ يَطْرُقَهَا ضَيْفٌ، فَيُصْبِحُ أَحَدُهُمْ بِالْفِنَاءِ وَلَمْ يُضَفْ، فَيَجِدُ الْبَابَ مَفْتُوحًا فَيَدْخُلُ فَيَتَعَشَّى.**

فَلَمَّا هَدَأَتْ الرِّجْلُ قَالَتْ: **انْطَلِقُوا حَتَّى تَسْتَفْتِحُوا عَلَى أَبِي رَافِعٍ، فَقُولُوا: إِنَّا جِئْنَا لِأَبِي رَافِعٍ بِهَدِيَّةٍ، فَإِنَّهُمْ سَيَفْتَحُونَ لَكُمْ**، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، ثُمَّ خَرَجُوا لَا يَمُرُّونَ بِبَابٍ مِنْ بُيُوتِ خَيْبَرَ إِلَّا أَغْلَقُوهُ، حَتَّى أَغْلَقُوا بُيُوتَ الْقَرْيَةِ كُلَّهَا، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى عَجَلَةٍ (جذع النخلة ينقر في موضع منه ويجعل كالسلم فيصعد عليه إلى العلالي والغرف)، عِنْدَ قَصْرِ سَلَامٍ، قَالَ: فَصَعِدْنَا وَقَدَّمْنَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عَتِيكٍ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَرْطُنُ بِالْيَهُودِيَّةِ، ثُمَّ اسْتَفْتَحُوا عَلَى أَبِي رَافِعٍ، فَجَاءَتْ امْرَأَتُهُ فَقَالَتْ: مَا شَأْنُك؟ فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَتِيكٍ وَرَطَنَ بِالْيَهُودِيَّةِ: جِئْتُ أَبَا رَافِعٍ بِهَدِيَّةٍ، فَفَتَحَتْ لَهُ، فَلَمَّا رَأَتْ السِّلَاحَ أَرَادَتْ تَصِيحُ.

قَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُنَيْسٍ ﵁: وَازْدَحَمْنَا عَلَى الْبَابِ أَيّنَا يَبْدُرُ إِلَيْهِ، فَأَرَادَتْ أَنْ تَصِيحَ، قَالَ: فَأَشَرْتُ إِلَيْهَا السَّيْفَ، قَالَ: وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ يَسْبِقَنِي أَصْحَابِي إِلَيْهِ، قَالَ: فَسَكَنَتْ سَاعَةً، قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ لَهَا: أَيْنَ أَبُو رَافِعٍ؟ وَإِلَّا ضَرَبْتُكِ بِالسَّيْفِ، فَقَالَتْ: هُوَ ذَاكَ فِي الْبَيْتِ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَمَا عَرَفْنَاهُ إِلَّا بِبَيَاضِهِ كَأَنَّهُ قُطْنَةٌ مُلْقَاةٌ، فَعَلَوْنَاهُ بِأَسْيَافِنَا، فَصَاحَتْ امْرَأَتُهُ، فَهَمَّ بَعْضُنَا أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهَا، ثُمَّ ذَكَرْنَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ نَهَانَا عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ.

قَالَ: فَلَمَّا انْتَهَيْنَا جَعَلَ سَمْكُ (سقف) الْبَيْتِ يَقْصُرُ عَلَيْنَا، وَجَعَلَتْ سُيُوفُنَا تَرْجِعُ.

قَالَ ابْنُ أُنَيْسٍ ﵁: وَكُنْتُ رَجُلًا أَعْشَى لَا أُبْصِرُ بِاللَّيْلِ إِلَّا بَصَرًا ضَعِيفًا، قَالَ: فَتَأَمَّلْتُهُ كَأَنَّهُ قَمَرٌ، قَالَ: فَأَتَّكِئُ بِسَيْفِي عَلَى بَطْنِهِ حَتَّى سَمِعْتُ خَشَّهُ (أي شقه) فِي الْفِرَاشِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَضَى.

قَالَ: وَجَعَلَ الْقَوْمُ يَضْرِبُونَهُ جَمِيعًا، ثُمَّ نَزَلْنَا وَنَسِيَ أَبُو قَتَادَةَ قَوْسَهُ، فَذَكَرَهَا بَعْدَ مَا نَزَلَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: دَعِ الْقَوْسَ، فَأَبَى، فَرَجَعَ فَأَخَذَ قَوْسَهُ، وَانْفَكَّتْ رِجْلُهُ، فَاحْتَمَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَصَاحَتْ امْرَأَتُهُ، فَتَصَايَحَ أَهْلُ الدَّارِ بَعْدَ مَا قُتِلَ، فَلَمْ يَفْتَحْ أَهْلُ الْبُيُوتِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَيْلًا طَوِيلًا، وَاخْتَبَأَ الْقَوْمُ فِي بَعْضِ مَنَاهِرِ (جمع منهر، وهو خرق في الحصن نافذ يجري منه الماء) خَيْبَرَ، وَأَقْبَلَتْ الْيَهُودُ، وَأَقْبَلَ الْحَارِثُ أَبُو زَيْنَبَ، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ امْرَأَتُهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ الْقَوْمُ الْآنَ، فَخَرَجَ الْحَارِثُ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ فِي آثَارِنَا، يَطْلُبُونَنَا بِالنِّيرَانِ فِي شُعَلِ السَّعَفِ (**الشعل**: جمع شعلة، وهي قطعة الخشب تشعل فيها النار، والسعف: أغصان النخلة)، وَلَرُبَّمَا وَطِؤُوا فِي النَّهْرِ، فَنَحْنُ فِي بَطْنِهِ، وَهُمْ عَلَى ظَهْرِهِ، فَلَا يَرَوْنَا، فَلَمَّا أَوْعَبُوا فِي الطَّلَبِ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا رَجَعَ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالُوا لَهَا: هَلْ تَعْرِفِينَ مِنْهُمْ أَحَدًا؟ قَالَتْ: سَمِعْتُ مِنْهُمْ كَلَامَ عَبْدِ الله بْنِ عَتِيكٍ، فَإِنْ كَانَ فِي بِلَادِنَا هَذِهِ فَهُوَ مَعَهُمْ، فَكَرُّوا الطَّلَبَ الثَّانِيَةَ، وَقَالَ الْقَوْمُ فِيمَا بَيْنَهُمْ: لَوْ أَنَّ بَعْضَنَا أَتَاهُمْ فَنَظَرَ هَلْ مَاتَ الرَّجُلُ أَمْ لَا؟ فَخَرَجَ الْأَسْوَدُ بْنُ خُزَاعِيٍّ حَتَّى دَخَلَ مَعَ الْقَوْمِ، وَتَشَبَّهَ بِهِمْ، فَجَعَلَ فِي يَدِهِ شُعْلَةً كَشُعَلِهِمْ، حَتَّى كَرَّ الْقَوْمُ الثَّانِيَةَ إِلَى الْقَصْرِ، وَكَرَّ مَعَهُمْ وَيَجِدُ الدَّارَ قَدْ شُحِنَتْ (أي ملئت)، قَالَ: فَأَقْبَلُوا جَمِيعًا يَنْظُرُونَ إِلَى أَبِي رَافِعٍ مَا فَعَلَ، قَالَ: فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ مَعَهَا شُعْلَةٌ مِنْ نَارٍ، ثُمَّ أَحْنَتْ عَلَيْهِ تَنْظُرُ أَحَيٌّ أَمْ مَيِّتٌ هُوَ، فَقَالَتْ: فَاظَ وَإِلَهِ مُوسَى، قَالَ: ثُمَّ كَرِهْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَّا بِأَمْرٍ بَيِّنٍ، قَالَ: فَدَخَلْت الثَّانِيَةَ مَعَهُمْ، فَإِذَا الرَّجُلُ لَا يَتَحَرَّكُ مِنْهُ عِرْقٌ، قَالَ: فَخَرَجَتِ الْيَهُودُ فِي صَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ، قَالَ: وَأَخَذُوا فِي جَهَازِهِ يَدْفِنُونَهُ، قَالَ: وَخَرَجْتُ مَعَهُمْ، وَقَدْ أَبْطَأْتُ عَلَى أَصْحَابِي بَعْضَ الْإِبْطَاءِ، قَالَ: فَانْحَدَرْت عَلَيْهِمْ فِي النَّهْرِ فَخَبَّرْتُهُمْ، فَمَكَثْنَا فِي مَكَانِنَا يَوْمَيْنِ حَتَّى سَكَنَ عَنَّا الطَّلَبُ، ثُمَّ خَرَجْنَا مُقْبِلِينَ إِلَى الْـمَدِينَةِ، كُلُّنَا يَدَّعِي قَتْلَهُ، فَقَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَلَمَّا رَآنَا قَالَ: «**أَفْلَحَتْ الْوُجُوهُ**»، فَقُلْنَا: **أَفْلَحَ وَجْهُكَ يا رسول الله**، قَالَ: «**أَقَتَلْتُمُوهُ؟**»، قُلْنَا: **نَعَمْ، وَكُلُّنَا يَدَّعِي قَتْلَهُ**، قَالَ: «**عَجِّلُوا عَلَيَّ بِأَسْيَافِكُمْ**»، فَأَتَيْنَا بِأَسْيَافِنَا، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا قَتَلَهُ، هَذَا أَثَرُ الطَّعَامِ فِي سَيْفِ عَبْدِ الله بْنِ أُنَيْسٍ** ﵁».

قَالَ: وَكَانَ ابْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ قَدْ أَجْلَبَ فِي غَطَفَانَ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، وَجَعَلَ لَهُمْ الْجُعْلَ الْعَظِيمَ لِحَرْبِ رَسُولِ الله ﷺ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ النَّفَرَ.

فَحَدَّثَنِي أَيُّوبُ بْنُ النُّعْمَانِ قَالَ: حَدَّثَنِي خَارِجَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ [بْنِ أُنَيْسٍ ﷺ]، قَالَ: لَمَّا انْتَهَوْا إِلَى أَبِي رَافِعٍ تَشَاجَرُوا فِي قَتْلِهِ، قَالَ: فَاسْتَهَمُوا عَلَيْهِ، فَخَرَجَ سَهْمُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ، وَكَانَ رَجُلًا أَعْشَى، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَيْنَ مَوْضِعُهُ؟ قَالُوا: تَرَى بَيَاضَهُ كَأَنَّهُ قَمَرٌ، قَالَ: قَدْ رَأَيْتُ.

قَالَ: وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ، وَقَامَ النَّفَرُ مَعَ الْمَرْأَةِ يَفْرُقُونَ أَنْ تَصِيحَ، قَدْ شَهَرُوا سُيُوفَهُمْ عَلَيْهَا، وَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ، فَضَرَبَ بِالسَّيْفِ فَرَجَعَ السَّيْفُ عَلَيْهِ لِقِصَرِ السَّمْكِ، فَاتَّكَأَ عَلَيْهِ وَهُوَ مُمْتَلِئٌ خَمْرًا، حَتَّى سَمِعَ خَشَّ السَّيْفِ وَهُوَ فِي الْفِرَاشِ.

وَيُقَالُ: كَانَتْ السَّرِيَّةُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ سِتٍّ. [المغازي للواقدي ١/ ٣٩١-٣٩٥].

وروى البيهقي بسنده عن موسى بن عقبة، قال: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَتِيكٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أُنَيْسٍ، وَمَسْعُودَ بْنَ سِنَانِ بنِ الأَسْوَدِ، وَأَبَا قَتَادَةَ الحَارِثُ بْنُ رِبْعِيٍّ بنِ بَلْدَمَةَ، مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، وَأَسْوَدَ بْنَ خُزَاعِيٍّ حَلِيفًا لَهُمْ، وَيُقَالُ: نَجْدَةً، فِي غَيْرِ هَذَا الكِتَابِ، وَأَسْعَدَ بنَ حُرَامٍ، وَهُوَ أَحَدُ الْبُرَكِ حَلِيفٌ لِبَنِي سَوَادٍ، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَتِيكٍ، فَطَرَقُوا أَبَا رَافِعِ بْنَ أَبِي الحُقَيْقِ اليَهُودِيَّ بِخَيْبَرِ، فَقَتَلُوهُ فِي بَيْتِهِ.

قال موسى بن عقبة: قال ابن شهاب: قال ابن كعب: فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَقَالَ: «**أَفْلَحَتِ الوُجُوهُ**»، قَالُوا: أَفْلَحَ وَجْهُكَ يَا رَسُولَ اللهِ!، قَالَ: «**أَقَتَلْتُمُوهُ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**نَاوِلُونِي السَّيْفَ**»، فَسَلَّهُ، فَقَالَ: «**أَجَلْ هَذَا طَعَامُهُ فِي ذُبَابِ السَّيْفِ**». [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣٩].

شِعْرُ حَسَّانَ ﷺ فِي قَتْلِ ابْنِ الأَشْرَفِ وَابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ وَهُوَ يَذْكُرُ قَتْلَ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَقَتْلَ سَلَامِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ:

للهِ دَرُّ عِصَابَةٍ لَاقَيْتَهُمْ ... يَا ابْنَ الْحُقَيْقِ وَأَنْتَ يَا ابْنَ الْأَشْرَفِ (١)

يَسْرُونَ بِالْبِيضِ الْخِفَافِ إِلَيْكُمْ ... مَرَحًا كَأُسْدٍ فِي عَرِينٍ مُغْرِفِ (٢)

حَتَّى أَتَوْكُمْ فِي مَحَلِّ بِلَادِكُمْ ... فَسَقَوْكُمْ حَتْفًا بِبِيضٍ ذُفَّفِ (٣)

مُسْتَبْصِرِينَ لِنَصْرِ دِينِ نَبِيِّهِمْ ... مُسْتَصْغِرِينَ لِكُلِّ أَمْرٍ مُجْحِفِ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: قَوْلُهُ: «ذُفَّفِ»، عَنْ غَيْرِ ابْنِ إِسْحَاقَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٦].

---

(١) **العصابة**: الجماعة.

(٢) **البيض الرقاق**: السيوف. مرحًا: نشاطًا. **العرين**: غابة الأسد. **مغرف**: ملتف الأغصان.

(٣) **ذفف**: سريعة القتل.

العرض الأدبي للسرية [صور من جهاد الصحابة للخالدي ﷺ ٦٧-٨٣ بتصرف يسير]:

تسابق الأوس والخزرج في الخير:

كان مقتل طاغوت اليهود كعب بن الأشرف بعد غزوة بدر، في مطلع السنة الثالثة من الهجرة، والمجموعة التي قتلته (أَوْسِيَّة) من الأوس.

ومعلومٌ أنَّ الأنصار كانوا من قبيلتين هما: الأوس والخزرج، وكان بينهما تنافسٌ وتسابق في العمل الصالح، والعبادة والخير، والجهاد في سبيل الله.

فإذا فعل الأوس خيرًا غبطهم عليه الخزرج، وبحثوا عن خيرٍ مثله يعملونه، ويُسابقونهم فيه، يتقربون بذلك إلى الله، وإذا فعل الخزرج خيرًا غبطهم عليه الأوس، وبحثوا عن خيرٍ مثله يفعلونه!

فلما نجحت مجموعة محمد بن مسلمة الأوسية في قتل كعب بن الأشرف، غبطهم على ذلك إخوانهم الخزرج، وأرادوا أنْ يقوموا بعملٍ مماثل، يُسابقون فيه الأوس، وينتقمون فيه من أعداء الله!

فكَّر الخزرج في الأمر، وبحثوا عن زعيمٍ من زعماء اليهود، مثل كعب بن الأشرف في غدره وخيانته وكيده وتآمره.

ووجدوه.. إنه أبو رافع.. سلام بن أبي الحُقيق، زعيم يهود خيبر.

زعماء اليهود الثلاثة:

كان (سلام بن أبي الحُقيق) زعيم يهود خيبر، وإليه آلت زعامةُ اليهود بعد مقتل الزعيمين اليهوديين: كعب بن الأشرف، وحُيَيِّ بن أخطب.

كانت الصلة وثيقةً بين الزعماء اليهود الثلاثة، يلتقون فيما بينهم، ويتدارسون محاربة المسلمين والتآمر عليهم، فكانوا بذلك زعماء في الغدر والكيد والخيانة والأذى.

ذهب كعب بن الأشرف إلى قريش بعد غزوة بدر، يهيِّجُهم ضدَّ المسلمين؛ ولذلك أهدرَ رسول الله ﷺ دمه، ونَفَّذَت حكم الله فيه، مجموعة محمد بن مسلمة.

وبعد مقتل كعب بن الأشرف آلت زعامة اليهود إلى (حُيَيِّ بن أخطب)، زعيم يهود بني النضير، وبعد ما قام يهود بني النضير بغدرهم ونقضهم العهد مع رسول الله ﷺ، أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة، فخرجوا إلى خيبر وتيماء، وكان هذا بعد غزوة أُحُد في السنة الثالثة.

وانتقل زعيمهم حُيَيِّ بن أخطب إلى خيبر، وصار ينسق مع زعيم يهود خيبر (أبي رافع) كيفية التآمر على المسلمين.

وذهب حييُّ بن أخطب إلى قريش في مكة، ليهيِّجهم ضدَّ المسلمين، ويشجعهم على محاربتهم، بينما ذهب أبو رافع إلى قبيلة (غطفان) العربية للغاية نفسها!

ونجحت جهود الزعيمين اليهوديين في حشد قريش وغطفان لحرب المسلمين، وكانت غزوة الأحزاب ـ أو الخندق ـ في السنة الخامسة.

وتمكَّن (حييٌّ بن أخطب) من إقناع يهود بني قريظة، بنقض عهدهم مع رسول الله ﷺ، وغدرهم بالمسلمين، وانضمامهم إلى الأحزاب المشركة من قريش وغطفان.

ونَصَر الله المسلمين في غزوة الأحزاب، وردَّ الذين كفروا من المشركين واليهود بغيظهم، لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال!

وكان حيي بن أخطب مع يهود بني قريظة لما حاصرهم رسول الله ﷺ، ولما استسلموا منهزمين، نزلوا على حكم سعد بن معاذ ﷺ، وهو قتل رجالهم، وسبي نسائهم، وتملُّكُ أموالهم وأراضيهم.

وقتل المسلمون جميع رجال بني قريظة المحاربين، وكان بين القتلى حيي بن أخطب زعيم يهود بني النضير، وكعب بن أسد زعيم يهود بني قريظة.

وبعد قتل الغادر حيي بن أخطب انتقلت زعامة اليهود إلى أبي رافع ـ سلام بن أبي الحُقيق ـ في خيبر.

تآمر أبي رافع ضد المسلمين:

كان لسلام بن أبي الحُقيق حصنٌ منيعٌ في خيبر، وكان تاجرًا من كبار تجار اليهود، كثير المال واسع الثراء، جمع بين الزعامة السياسية والاقتصادية لليهود، وبسبب نشاطه التجاريِّ الواسع في المنطقة كان يُلقَّبُ بلقب (تاجر الحجاز).

واستغلَّ أبو رافع صِلاتِه التجارية مع القبائل العربية في الحجاز لإيذاء رسول الله ﷺ، ومحاربة المسلمين، وكان مشهورًا بالغدر والخيانة، واللؤم والحقد! لم يتوقَّف عن هذه الجرائم اليهودية ضدَّ المسلمين، ولم يتعظ بما جرى لابن الأشرف وابن أخطب!

وبعدما تجمَّع اليهود عنده في خيبر، قادمين من المدينة، بعد إجلاء الرسول ﷺ ليهود بني قينقاع وبني النضير ـ ضاعف أبو رافع من نشاطه المعادي ضدَّ المسلمين، وزياراته لزعماء المشركين واتصالاته بهم للتآمر على المسلمين!

وبسبب هذه الجرائم استحقَّ أبو رافع القتل، كما استحقَّه الشيطانان من قبله: كعب بن الأشرف وحييٌّ بن أخطب.

ابن عتيك يشكِّل مجموعة مجاهدة لقتله:

اجتمع نفرٌ من الخزرج، الذين كانوا يبحثون عن وسيلةٍ صالحة، يسابقون فيها إخوانهم الأوس، الذين قتلوا كعب بن الأشرف.

تدارسوا الأمر، وفكَّروا في الأعداء اليهود، فوجدوا أنَّ أبا رافع هو العدوُّ الأول للمسلمين الآن؛ لذلك لابدَّ أن يُقتل لجرائمه.

وحتى يكون تصرُّفهم صحيحًا، وفعلهم صوابًا، أتوا رسول الله ﷺ يسألونه عن صواب فعلهم، فإن كان صوابًا أذن لهم بقتل أبي رافع.

عرض عبد الله بن عَتيك ﷺ الأمر على رسول الله ﷺ، وذكر له عداوة زعيم يهود خيبر (أبي رافع) للإسلام والمسلمين، فأذن رسول الله ﷺ بقتله، بسبب جرائمه، وكلَّف عبد الله بن عتيك ﷺ بذلك، وأشار عليه باختيار مجموعة من إخوانه لهذه الغاية.

فرح عبد الله بن عتيك ﷺ بتكليف رسول الله ﷺ له بقتل أبي رافع، واعتبر هذا فضلًا من الله عليه، وجهادًا مبرورًا صالحًا يقوم به، ويتقرب به إلى الله.

(شكَّل) ابن عتيك مجموعته المجاهدة، أربعة من المجاهدين، وهو خامسهم، وكلُّهم خَزْرَجيُّون، في مقابل مجموعة ابن مسلمة الأوسية، التي قتلت ابن الأشرف!

والأربعة الذين مع ابن عتيك هم: عبد الله بن أُنيس، ومسعود بن سنان، والحارث بن ربعي ـ أبو قتادة ـ، والأسود بن خزاعي.

وأَمَّرَ رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك ﷺ على المجموعة، وكان اختياره أميرًا عليها في مكانه، ومعلومٌ أنَّ رسول الله ﷺ كان خبيرًا في الرجال، حكيمًا في اختيار الأمراء، يضع الرَّجُل المناسب في المكان المناسب!

لقد توفَّرت في عبد الله بن عتيك ﷺ صفتان، أهَّلتاه ليكون أميرًا لهذه المجموعة المجاهدة:

الأولى: أنه رضع وهو صغير من امرأةٍ يهودية، كانت في المدينة، وهذه اليهودية موجودةٌ في خيبر الآن، وبما أنها أُمُّه في الرضاع، فلا بدَّ أن يستفيد منها في مهمته!

الثانية: أنه كان يتقن اللغة العبرية التي يتكلم بها اليهود إتقانًا تامًّا! وهذا ضروريٌّ لتنفيذ هذه المهمة الجهادية، فعندما (يرطنون) بالعبرية يفهم عليهم، وإذا اضطرَّ إلى استخدامها استخدمها كأنه واحدٌ منهم.

المجموعة المجاهدة في خيبر:

في منتصف شهر ذي الحجة من السنة الخامسة للهجرة توجَّه المجاهدون الخمسة إلى خيبر؛ لتنفيذ تلك المهمة الجهادية، وودَّعهم رسول الله ﷺ، ودعا لهم بالتوفيق.

ووصلوا إلى مشارف خيبر، وكانت خيبر قلعةً يهوديةً منيعة، فيها الكثير من الحصون والقلاع، ولها سورٌ يحيط بها، عليه حُرَّاسٌ من اليهود!

توقَّف المجاهدون عند مشارف خيبر، وأرسل عبد الله بن عتيك ﷺ إلى أمه بالرضاع قائلًا: إنني على مشارف خيبر، وأُريدُ منكِ أن تأتي إليَّ!

وهذا تصرف ذكي من ابن عتيك ﷺ، فلو دخل المجاهدون الخمسة جهارًا نهارًا فسيلفتون أنظار الحراس اليهود، وبذلك تفشل المهمة الجهادية!

حملت المرأة اليهودية كيسًا من تمر وخبز، وخرجت لملاقاة ابنها بالرضاع (عبد الله) ولعلها كانت في شوقٍ شديدٍ إليه!

قابلتْ ابن عتيك وإخوانه، وقدمت لهم الكيس، فأكلوا من التمر والخبز.

كلَّمها ابن عتيك، وأخبرها بمهمته، وصارَحها بذلك؛ لأنه كان آمنًا من جهتها، ويبدو أنها كانت غير راضيةٍ عن ممارسات أبي رافع زعيم خيبر؛ ولذلك لم تُمانع في قتله على يد ابنها (عبد الله)!

ولكنَّ الأمر خطير، والحراسات على أبي رافع مشدَّدة؛ ولذلك خافت على ابنها أن يُقتل، وحاولت أن تُثنيه عن ذلك.

قالت له: يا بني: كيف تدخل خيبر وفيها حراسات مشددة؟ وكيف تستطيع قتل أبي رافع، وحوله أربعة آلاف مقاتل؟ إنني أخشى عليك يا بُني، وأخاف أن يقتلوك، فاصرف النظر عن ذلك، وَعُدْ سالمًا!

لكنَّ ابن عتيك أخبرها عن تصميمه على ذلك، وقال لها: والله لأقتُلنَّه أو لأُقتلنَّ دونه، فإمَّا أنا وإمَّا هو!

ثم قال لها: كلُّ ما نريده منكِ هو أن تعملي على إدخالنا داخل السور، بحيث لا يلتفتُ الحراسُ لنا!

تعاونت معه في ذلك، ورسمت خطتها لإدخالهم خيبر، انتظروا إلى أن حلَّ الظلام، عند ذلك دخلت من باب السور، ودخل معها عبد الله بن عتيك وإخوانه، ولم يثُيروا انتباه الحُراس اليهود، ويبدوا أنَّ المرأة اليهودية كلمتهم بالعبرية، وأنَّ ابن عتيك (رَطَنَ) لهم بالعبرية أيضًا، فاعتبروا الجميع يهودًا، وأدخلوهم من باب السور!

وهكذا نجحت الخطوة الأولى من خطة ابن عتيك الحكيمة، فها هم الآن داخل المدينة الحصينة!

توجَّهوا إلى بيت المرأة اليهودية، وأقاموا عندها فترة من الزمن!

الخطة المُحكمة لقتل أبي رافع:

انتقل ابن عتيك إلى تنفيذ الخطوة الثانية من خُطته، وهي الوصول إلى قصر (سلام بن أبي الحُقيق).

ورغم أنَّ قصره كان وسط خيبر، داخل سورها الخارجي إلا أنه كان حِصْنًا حَصينًا أيضًا!

كان الحصن مُحاطًا بسور، له بابٌ منيع، وعلى الباب حُرَّاس، مكلَّفون بإغلاقه عند المساء، وكان مكونًا من طابقين: الطابق الأول يجلس فيه حُرَّاسه وخدمه، والطابق الثاني له هو وزوجته، وبجانب القصر مكانٌ خاص للدواب!

قام ابن عتيك وإخوانه باستطلاعٍ دقيق للقصر، من قاعدتِهم الآمنة في بيت أمِّه من الرضاع!

عرفوا أنَّ للقصر بوَّابًا، وأنه مكلَّف بإغلاق الباب عند المساء، وأنه يعلِّق مفتاح الباب في (طاقةٍ) عند الباب، وأنَّ رجالًا من زعماء خيبر يجلسون مع أبي رافع في الطابق الثاني، ويسهرون معه إلى قريب منتصف الليل، ثم يعودون إلى بيوتهم.

وضع ابن عتيك وإخوانه الخطة المحكمة لتنفيذ ما عزموا عليه، وكُلِّفوا به.

كانت الخطة تقوم على أن يتولَّى عبد الله بن عتيك وعبد الله بن أُنيس مهمة قتل أبي رافع، ويقوم إخوانهم المجاهدون الثلاثة بمغادرة القاعدة ـ بيت اليهودية ـ والخروج من سور المدينة الخارجي قبيل التنفيذ، وانتظار ابن عتيك وابن أُنيس على مشارف خيبر، وبعدما يفرغان من مهمتهما يلحقان بهم!

ابن عتيك وابن أُنيس داخل قصر أبي رافع:

خرج المجاهدون الثلاثة من خيبر في النهار، وكَمنُوا في مكانٍ خاص.

وقبيل غروب شمس ذلك اليوم توجَّه ابن عتيك وابن أُنيس نحو قصر أبي رافع، وكُلِّف ابن عتيك بالحديث مع الحراس اليهود؛ لأنه يتقن التكلم بالعبرية!

وسهَّل الله لهما الأمر، ورتَّب سبحانه الأحداث بحكمته وتوفيقه.

فما إن وصلا باب السور مع الغروب، حتى وجدا رجال القصر منتشرين خارج السور، يبحثون عن (حمارٍ) مفقودٍ من حمير أبي رافع!

أوعز ابن عتيك لابن أُنيس بالسير مع رجال القصر وحُرَّاسه، والاشتراك معهم في البحث عن الحمار المفقود! ليوهِمَهم أنه واحدٌ منهم؛ وليدخل القصر معهم عندما يعودون، بدون أن يُلفت الأنظار إليه!

وطلب منه أن يذهب إلى مكان ربط الدوابِّ بجانب القصر، وأن ينتظره هناك ريثما يلحق به!

وجلس ابن عتيك ـ المتكلم بالعبرية ـ عند باب سور القصر، بانتظار عودة الحراس.

عاد الرجال مع الغروب، ومعهم الحمار المفقود، ودخلوا من باب السور ودخل معهم عبد الله ابن أُنيس، ولما وضعوا الحمار عند الدواب، تخلَّف ابن أُنيس عنهم، دون أن ينتبهوا له!

أمَّا ابن عتيك فقد كان بجانب باب السور من الخارج، ولاحظ دخول رجال القصر، فتقنَّع بثوبه، وغطَّى رأسه به، وجلس القرفصاء، كأنما يقضي حاجته!

وكان البوَّاب اليهوديُّ يريد أن يُغلق الباب، فرأى ابن عتيك بقرب الباب، فناداه: يا هذا! إن كنت تريد أن تدخل القصر فادخل، فإني أريد أن أُغلق باب السور!

وقال له هذا، وهو لا يشك في أنه يهوديٌّ من رجال القصر!

ودخل ابن عتيك، وأغلق البواب اليهودي باب السور، ووضع المفاتيح في المكان المعروف، وتوجَّه ابن عتيك نحو أخيه ابن أُنيس، في بيت الدوابِّ!

وهكذا سارت الأمور كما رتَّبها ابن عتيك ﷺ، بتوفيق الله الحكيم، ولم تبق إلا الخطوة التنفيذية!

المجاهدان يصعدان لقتل أبي رافع:

انتظر ابن عتيك وابن أُنيس في مكمنهما فترة؛ لأنَّ مجموعة من الرجال اليهود كانوا يسمرون عند أبي رافع، وكان المجاهدان يُراقبانهم، وينتظران مغادرتهم وعودتهم إلى بيوتهم.

وعند منتصف الليل انتهى السَّمر، وغادر السامرون القصر، وكانت ليلةً قمراء؛ لأنها كانت من ليالي العشر الأواسط من ذي الحجة!

وهدأ المكان، فالحُراس أَوَوْا إلى النوم، وأبو رافع في فراشه مع امرأته، ولم يبق أحدٌ مستيقظًا إلا المجاهدان ابن عتيك وابن أُنيس.

خرج المجاهدان من مكانهما، يحملان سلاحهما، وتوجَّها نحو قصر أبي رافع، ومدَّ ابن عتيك يده إلى المفاتيح في الطاقة، وفتح باب القصر، ودخل مع ابن أُنيس داخله، وفتح أبوابه الأخرى!

وكان كلَّما فتح بابًا ودخل، يغلقُه من الداخل بالمفتاح؛ وذلك ليسهل عليهما قتل أبي رافع، بحيث إذا شعر بهما الحرس أثناء العملية، يعجزون عن الصعود إليهما، لأنَّ الأبواب مغلقةٌ من الداخل!

صعد المجاهدان إلى الطابق الثاني، حيث ينام أبو رافع! فأحست بهما امرأتهُ، بينما كان هو يغطُّ في نوم عميق! فقامت من فراشها، وخرجت من الغرفة تستطلع الخبر!

طلب ابن عتيك من ابن أُنيس التعامل معها، وتوجَّه هو نحو أبي رافع في سريره لقتلِه!

شاهدت المرأة اليهودية ابن أُنيس، فخافت خوفًا شديدًا، ورفع سيفه عليها ليقتلها، لكنه أعاد السيف ولم يضربها به!

لماذا لم يقتلها بالسيف؟

لقد تذكَّر وصية رسول الله ﷺ لهم قبل توجُّههم إلى خيبر لتنفيذ العملية الجهادية، لقد أوصاهم قائلًا: **لا تقتلوا طفلًا ولا امرأة!**

وهذا تأكيدٌ من رسول الله ﷺ على أخلاق الجهاد السامية، وآدابه العالية، فهؤلاء المجاهدون متوجِّهون إلى قتل أبي رافع، بسبب غدره وخيانته وعدوانه، أمَّا الأطفال غير المقاتِلين، والنساء غير المقاتلات، فلا داعيَ لقتلِهم، وإن كانوا كفارًا!

تذكَّر عبد الله بن أُنيس ﷺ وصية رسول الله ﷺ، فلم يهو بالسيف على رأس المرأة اليهودية! واكتفى بحبسها واحتجازها داخل الغرفة، ومنعِها من الصراخ أو الاستنجاد! فوقفت بجانب الغرفة مرعوبةً فزعة، ووقف ابن أُنيس أمامها يحرسها!

تفاصيل قتل أبي رافع:

أمَّا عبد الله بن عتيك ﷺ فقد تابع سيره، ودخل غرفة نوم أبي رافع، وكانت الغرفة مظلمة.

نظر ابن عتيك وسط الغرفة المظلمة، فرأى أبا رافع نائمًا على سريره، وكان أبيض اللون، وبياضُه الناصع مشاهدٌ وسط ظلام الغرفة.

ها هو عبد الله بن عتيك أمام خصمه! وها هي ساعة تنفيذِ حكمِ الله فيه قد حانت! وإنَّ الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلتْه!

لقد كان مسلسلُ جرائِمه وخياناته طويلًا، وكان ملفُّ غدره وتآمرِه على المسلمين ضخمًا، وها هي ساعة الجزاء والعقاب قد حلَّت!

أراد ابن عتيك أن يوقظ أبا رافع النائم من نومه؛ لأنه رأى من غير المناسب قتله أثناء نومه، ولعلَّه أراد أن يريه الموت قبل إزهاق روحه!

وقف ابن عتيك وسط الغرفة، ونادى بالعبرية التي يتقنُها جيدًا: أبا رافع!

سمع أبو رافع الصوت، فاستيقظ وفتح عينيه، وقال: من هذا؟

أهوى عليه ابن عتيك بالسيف، وضربه ضربةً واحدة جرحته، لكنها لم تقضِ عليه ولم تزهق روحه!

صاحَ أبو رافع صيحةً عظيمةً، شقَّت سكون الليل، وسمعها اليهود في منازلهم حول القصر، فهبُّوا من نومِهم، وخرجوا من بيوتهم ليُنْجدوه!

توقَّف ابن عتيك قليلًا وسط الغرفة المظلمة، وأبو رافع لا يراه، وأراد أن يوجِّه له ضربة أخرى.

وتصرَّف ابن عتيك بحكمة، حيث أوهم أبا رافع أنه يهودي، سمع صرخته واستغاثته، فجاء لنجدتِه!

قال له بالعبرية: ما هذا الصوتُ يا أبا رافع؟ ما الذي جرى لك؟

وكان أبو رافع على سريره ينزف دمُه، وظنَّ أنه جاءه الغوث، فردَّ عليه قائلًا: الويلُ لك، في البيت رجلٌ غريب، ضربني بسيفه، فابحث عنه واقتُله!

عند ذلك أهوى عليه بالسيف، فضربه ضربة أُخرى، أشدُّ وأقوى من الضربة الأولى!

فصاح أبو رافع صيحةً أعلى وأشدَّ من الأولى.

وفي هذه اللحظةِ ترك عبد الله بن أُنيس المرأة التي كان يحتجزُها، وأراد أن ينال شرف الاشتراك في قتل عدوِّ الله..

هجم ابن أُنيس على أبي رافع، الذي كان يتخبَّطُ بدمائه على فراشه، ووضع سيفه في بطن عدوِّ الله، واتكأ عليه بقوة، وجذَبه إليه جذبًا قويًا، فقطع لحمَه ومعدته وأمعاءَه، وأوصله إلى عانتِه.

ذهبت امرأة أبي رافع المذعورة لإحضار المصباح، وتوافد رجال اليهود من المنازل المجاورة لإنقاذ زعيمهم، وإلقاء القبض على المعتدين؟

وأوعز ابن عتيك لابن أُنيس بمغادرة القصر فورًا قبل وصول النجدة، ونزلا درج القصر مسرعين.

أما ابن أُنيس فقد اجتاز الدرج كلَّه بأمان وسلام.

وأمَّا ابن عتيك فقد أُصيب بحادث، فلما كان على الدرجة قبل الأخيرة، ظنَّ أنها الأخيرة، وأنَّ المسافة إلى الأرض قريبة، فنقل خطوته، لكنه أخطأ تقدير المسافة، فسقط على الأرض، وانكسرت رجلُه!

تناول عمامتَه فورًا، وربط بها رجله، وتجلَّد على آلام الكسر، واستنجد بأخيه ابن أُنيس، فحمله، وخرج به بعيدًا عن القصر.

نجاح العملية وعودة ابن أُنيس لقوسه:

تابع المجاهدان سيرَهما في خيبر، ليلتحقا بالمجموعة خارجَها، وعلمت خيبر بمصرع زعيمها أبي رافع، فجاء اليهود من مختلف المنازل إلى قصره، وانطلق الرجال في طرق المدينة يبحثون عن القتلة! وأُوقدت المشاعلُ والمصابيح، وتحوَّل ليلُ خيبر في تلك الليلة إلى نهار!

ووصل المجاهدان إلى المكان الذي ينتظرهم فيه إخوانُهم خارج السور، وكان مكانًا أمينًا، بجانب عين ماءٍ كأنها نهر! وكان ابن عتيك يعاني آلام كسرِ رجله المبرحة!

وهنا تذكَّر عبد الله بن أُنيس شيئًا! لما صعد الدرج مع ابن عتيك إلى الطابق الثاني لقتل أبي رافع، وضع قوسه تحت الدرج، ولما نزلا مسرعين بعد مصرع أبي رافع نسيَ أن يتناول قوسَه من تحت الدرج! والآن تذكَّرها!

كيف يُبقي قوسه لليهود؟ إنها سلاحُهُ، فكيف يُمكِّنُ أعداءه من سلاحِه؟ أراد أن يعود إلى القصر لإحضار قوسه من تحت الدرج!

كلَّم إخوانه في ذلك، وطلب من أميره ابن عتيك أن يأذن له بالعودة إلى القصر لإحضار قوسِه!

تعجب إخوانه من جرأته وشجاعته وإقدامه وقوة قلبه، لكنهم خافوا عليه، فاليهود الآن مستنفرون يبحثون عن القتلة.

قالوا له: كيف تغامر وتُخاطر بحياتك؟ اليهود الآن منتبهون مستنفرون، وزعيمهم قد قُتِل، وهم يملؤون القصر وممراتِه، وإذا عدت إلى القصر فقد يكتشفونك وسيقتلونك! فلا تذهب، ودعِ القوس!

ولكنه ردَّ عليهم قائلًا: كيف أتركُ لهم قوسي وهي سلاحي؟ لن أُعطيهم سلاحي، ولن أدعهم يستفيدون منه!

واستأذن من الأمير بالعودة لإحضار القوس، فإذن له!

عاد عبد الله بن أُنيس إلى القصر، ودخل بين اليهود المنتشرين حول القصر وداخله، وتصرف كأنه واحدٌ منهم، وتمتَّع بأعصابٍ حديدية، ونفسٍ قوية، وشجاعةٍ نادرة، ودخل القصر، وصعد الدرج، وتوجَّه نحو المكان الذي وضع فيه القوس، وأخذ قوسه، وخرج من بين اليهود سالمًا، وعاد إلى إخوانه وقوسه معه، دون أن ينتبه له أحدٌ من اليهود!

وانتشر اليهود يبحثون عن المجاهدين خارج السور، ومعهم المشاعل المضيئة، يتحركون بها وسط الظلام الدامس! ووصلوا إلى النهر الصغير، عين الماء الغزيرة التي يكمنُ عندها المجاهدون.

وقفوا بمشاعلهم يبحثون ويُفتشون، ولكنَّ الله أعمى أبصارهم عن عباده المجاهدين، فلم يشاهدوهم، مع أنهم كانوا قريبين جدًّا منهم!

رغبة المجاهدين في التأكد من قتل أبي رافع:

تدارس المجاهدون في مكمنهم الأمر، تلقَّى أبو رافع ثلاث ضربات شديدة، ضربتين من سيف ابن عتيك، وضربةً من سيف ابن أُنيس، ولكنهم لم يعرفوا هل مات أم لا!

وهم سيذهبون إلى رسول الله ﷺ، ليقدِّموا له تقريرًا عن عمليتِهم الجهادية التي كلَّفهم بها، وهم لا يستطيعون أن يقولوا: لقد قتلنا أبا رافع، إلا إذا تأكدوا من موته!

ثم إنهم يتسابقون مع إخوانهم الأوس في العمليات الجهادية، ونجحت مجموعة ابن مسلمة في قتل ابن الأشرف، فمن غير اللائق بهم أن يُصيبوا أبا رافع بالجراح فقط!

إذن لا بد أن يتأكَّدوا من موتِ أبي رافع.

لكن ماذا يفعلون؟ وكيف يُخاطرون بأنفسهم ويعودون إلى القصر؟ واليهود مستنفرون في خيبر كلِّها، وقصره ممتلِئ باليهود، فكيف يصلون إليه؟

قرر المجاهدون أن يذهب واحدٌ منهم إلى القصر، وأن يدخل وسط اليهود، وأنْ يتأكد من موتِ أبي رافع!

إنها نفوس كبار، نفوسُ مَنْ نشأت على الجهاد، ملأ الإيمان قلوب أصحابها، فلم تعرف الخوف، ويقتحم أصحابُها الأهوال والأخطار بجرأةٍ وشجاعة، يتقربون بذلك إلى الله!

عودة ابن خزاعي ﷺ للتأكد من مقتله:

وقع الاختيار على الأسود بن خزاعي ﷺ، واستعدَّ الأسود للقيام بالمهمة الصعبة، فليس سهلًا على رجلٍ واحد أن يخترق رجال الأعداء، وأن يسيرَ وحيدًا وسط الآلاف منهم!

لكنها قوة الإيمان بالله، وعظمة اليقين بالله، وإحسان التوكل على الله!

خرج الأسود من القاعدة، وتوجَّه نحو خيبر، وحمل مشعلًا مُضيئًا، كما يحمل اليهود، وسار في طرقات خيبر بمشعله كما يسير اليهود، وأظهر اهتمامه بالأمر وحرصه على البحث عن قتلة أبي رافع كما يفعل اليهود، ولا تَسَل عن عظمة شجاعته، ورباطة جأشه، وهدوء أعصابه، وقوة إيمانه!

إنه الإيمان العميق، الذي يصنع هذه المواقف، ويدفع صاحبه إلى هذه القمم!

تابع ابن خزاعي ﷺ سيره نحو قصر أبي رافع، فوجده ممتلئًا باليهود ومعهم مشاعلُهم، ودخل بينهم ومعه مشعلُه!

وصعد للطابق الثاني، فرأى مجموعةً من اليهود، فدخل بينهم، ورأى امرأة أبي رافع تحمل مشعلًا، وتتقدم نحو زوجها لتنظر إليه، وتعرف أحيٌّ هو أم ميت!

نظرت إلى زوجها، وفحصته، وابن خزاعي ينظر إليها، ورفعت يد أبي رافع، وتركتها، فسقطت، وحسَّته فلم تجد به عرقًا ينبض!

فقالت للواقفين حولها: لقد (فاظ) وإله موسى! لقد مات!

قال ابن خزاعي: والله ما سمعت كلمةً ألذَّ إلى نفسي من هذه الكلمة!

أي أنَّ ابن خزاعي فرح فرحًا شديدًا؛ لأنَّ الله أعان مجموعته المجاهدة على قتل زعيم التآمر والخيانة.

ولما تأكد من موت أبي رافع (انسلَّ) من وسطِ اليهود المرتبكين، وذهب إلى إخوانه ليزفَّ لهم البشرى! فكبَّروا، وشكروا الله على هذه النعمة!

ولما طلع الفجر أذاع اليهود النبأ المفجع، فقال ناعيهم: أنعى لكم تاجر الحجاز، وزعيم خيبر، سلام بن أبي الحقيق، حيث قتله الليلة رجالٌ من أصحاب محمد!

واستيقظ يهود خيبر في الصباح على مقتل زعيمهم، فسيطر عليهم الخوف والرعب.

وملأ الفزع قلوبهم، وبذلك (أرهبت) هذه المجموعة الخزرجية المجاهدة أعداء الله!

عودة المجاهدين سالمين إلى المدينة:

بقيَ المجاهدون الخمسة في قاعدتهم عند عينِ الماء يومين، بسبب استمرار اليهود في تفتيش المنطقة، ولما هدأ الطلب، وخفَّ التفتيش، غادروا القاعدة، وعادوا إلى المدينة فائزين سالمين موفَّقين، وحملوا أميرهم ابن عتيك حملًا بسبب كسر رجله!

دخل المجاهدون المسجد النبوي، وكان رسول الله ﷺ على المنبر يكلم المسلمين.

فلما رآهم ﷺ بشَّرهم بالفوز والفلاح، وقال لهم: **أفلحت الوجوه!**

وكم كان سرورهم عظيمًا بهذه البشرى من رسول الله ﷺ، فها هم ينالون منه شهادة بالفوز والفلاح والنجاح، وهذه البشرى العظيمة أنستهم كلَّ ما أصابهم في عمليتهم الجهادية من تعبٍ وجهدٍ وآلام، واحتسبوا كلَّ ذلك عند الله!

وردُّوا على تحية رسول الله ﷺ بمثلها، فقالوا له: **وأفلح وجهك يا رسول الله!**

فقال لهم: **هل قتلتم عدوَّ الله.**

قال: **نعم، والحمد لله!**

ثناء الرسول ﷺ على المجاهدين وشِعرُ حسان ﷺ في ذلك:

نظر رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن عتيك فوجد رجله معصوبة، ولما سأله أخبره بخبر كسرها لما هبط درج القصر!

فمسح ﷺ عليها بيده الشريفة المباركة، ودعا الله له، فعافاهُ الله، وقام يمشي سليمًا، كأن لم يكن برجله كسر!

وسألهم رسول الله ﷺ: **مَنْ قتل ابن أبي الحُقيق؟**

فقال كلٌّ من عبد الله بن عتيك وعبد الله بن أنيس رضي الله عنهما: أنا قتلتُه يا رسول الله!

فقال رسول الله ﷺ: **ليُرِني كلٌّ منكما سيفه!**

فرأى ﷺ آثار الطعنِ في سيف ابن عتيك، ورأى آثار الطعن من معدة أبي رافع على سيف ابن أُنيس!

فقال ﷺ: كِلاكُما قتله!

وهكذا قضت مجموعة ابن عتيك الخزرجية المجاهدة على عدوِّ الله الغادر سلام بن أبي الحُقيق، وبذلك أرهبت اليهود في خيبر، ليتوقَّفوا عن الغدر والخيانة والتآمر على المسلمين.

وكانت هذه المجموعة تُطبِّقُ عمليًّا قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال].

وخَلَّدَ شاعر رسول الله ﷺ، حسَّان بن ثابت رضي الله عنه، العمليتين الجهاديتين، العظيمتين: قَتلُ كعب بن الأشرف على يد مجموعة ابن مسلمة الأوسية، وقَتلُ سلام بن أبي الحقيق على يد مجموعة ابن عتيك الخزرجية كما سبق بيانه. ا.هـ.

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ **كتب السنة:** المصنف لعبد الرزاق (٢١١هـ) ٥/ ٤٠٧-٤١٠، جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٨/ ٢٢٨-٢٣٤، مجمع الزوائد للهيثمي (٨٠٧هـ) ٦/ ٢٩٢، المطالب العالية لابن حجر (٨٥٢هـ) ١٧/ ٤٣٧، فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ٦/ ١٧٩-١٨٠، ٧/ ٣٩٥- ٤٠٠، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٠٥-٧٠٨.

ب ـ **كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي:** مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٤٠٢-٤٠٨، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٢٧٣-٢٧٦، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ١/ ٣٩١-٣٩٥، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨٧-٨٨، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٤٩٣-٤٩٩، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٣٣-٣٩، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ١٩٨-٢٠٠، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٤١-٣٤٥، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٧٥، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ١٢٧-١٣٥، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ١٩٥-١٩٦، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٦٢.

ج ـ **كتب السيرة الحديثة:** صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٩٣، السيرة النبوية لرزق الله ٤٦٥، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٢٩-٣٣٣.

د ـ **كتب الغزوات والسرايا:** صلح الحديبية لباشميل ٧٥-٩٥، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٩٨-١٠٣، الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨٥-١٩٦، السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٧١-١٧٩، فقه السرايا للعيساوي ١١٤ + ١٣٠، صور من جهاد الصحابة رضي الله عنهم للخالدي ٦٧-٨٤، مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٢٥-١٣٦.

خرائط سرية عبد الله بن عتيك رضي الله عنه

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥٤.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى نجد.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من سَرِيَّةِ عَبْدِ اللّهِ بْنُ عَتِيكٍ رضي الله عنه لقَتْلِ سَلامِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ

١ ـ دور التربية الإسلامية في توجيه الطاقات:

يقول د/ الغضبان: «هذه الطاقات التي أفنت الحيين في حرب بُعاث، ها هي تتوجه نحو حرب الكفر والكافرين في الأرض، وبدلًا من أن تزرع الحقد في القلوب، واليُتم في الأطفال، والترمُّل في النساء، ها هي تمضي في تنافسها العظيم لإحقاق الحق في الأرض، ومطاردة الطواغيت الذين استكبروا في الأرض وعتوا عتوًّا كبيرًا.

إن دور الإسلام في التربية هو توجيه هذه الطاقات وشحذها نحو الخير، وليس إيجادها من العدم، فالشجاعة عند العربي خلق أصيل في تكوينه، وكانت تُهدر هذه الطاقة في تدمير أمة العرب وإفناء قبائلها، فليس لهم هَم سوى أنفسهم كما يقولون:

وَأَحْيَانًا عَلَى بَكْرٍ أَخِينَا إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا

وأصبحت شهرة أيام العرب تملأ الآفاق، وفيها يمارسون أخلاقهم وبطولتهم وشجاعتهم.

لقد جاء نبي الهدى والرحمة ﷺ ليكون هذا المحوِّل العجيب لهذه الأمة، فيجعل الأُخوة بين الأوس والخزرج، الذي استمرت الحروب المنقطعة بينهم قرابة مائة عام، ليجعل بينهم تنافسًا في الاستشهاد في سبيل الله.

وبدلًا من أن يكونوا ملهاة بيد اليهود يمزقونهم بتوزيع التحالف معهم، ويضربونهم بعضهم ببعض، ها هم اليوم يتصاولون في تدمير طواغيت اليهود الذين أشعلوا النار، وأوقدوا نار الحرب، وقادوا الأحزاب إلى المدينة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٤٢-١٤٣].

٢ ـ الأهداف السامية والمقاصد العالية لأفراد المجتمع:

ومما رأينا من التنافس بين الأوس والخزرج في خدمة الرسول ﷺ ودعوة الإسلام «ندرك نموذجًا من الأهداف السامية والمقاصد العالية التي كانت تحكم حياة الصحابة رضي الله عنهم وتوجه سلوكهم، فهم لا يتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدنيا من المال والمناصب، وإنما يتسابقون إلى الفوز بمرضاة النبي ﷺ التي مآلها رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية.

وإنما اختاروا ابن أبي الحقيق لأنه كان يؤذي رسول الله ﷺ ويعين على المسلمين كما جاء في رواية للإمام البخاري عَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ:... **وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُؤْذِي رَسُولَ الله ﷺ وَيُعِينُ عَلَيْهِ**».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٧٧-١٧٨].

٣ـ جيل ما بعد بدر وأُحُد:

يقول د/ الغضبان: «من الملاحظ أن هذه المجموعة الفدائية كلها من الجيل الجديد الذي يُعَدُّ ويتربى بعد بدر، فباستثناء عبد الله بن أنيس ﷺ الذي صلى القبلتين، وشهد العقبة وبدرًا، فالخمسة الذين ذُكروا هم من جيل أُحُد أو بعد أُحُد، والقيادة النبوية العظيمة ترعاهم، وتدفع بهم في خضم الأحداث ليعجم عودهم، ويمارسوا مسؤولياتهم، ويكتبوا صفحات ناصعة في تاريخهم، ويكفى أن يكون فيهم رجل من الرعيل الأول؛ ليكون الهادي لهم وليكون فقيههم ومرشدهم، وليس بالضروري أن يكون أميرهم، فقد ذُلِّلَت نفسه، وتمكُّن الإيمان من قلبه كالجبال الرواسي لا يضير، أن يكون بمقدار ما يهمه أن يحقق دوره في التربية والهداية، وأن يمثل القدوة المحتذاة بين أخوته». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٤٧].

٤ ـ وجوب الإمارة:

يقول أ/ باشميل: «وقد أسند النبي ﷺ قيادتهم إلى عبد الله بن عتيك ﷺ؛ لأن من عادة النبي ﷺ أن لا يسند القيام بأي عمل إلى أكثر من اثنين إلا وأَمَّر عليهم أحدهم لتكون روح الانضباط سائدة، ولئلا تجد الفوضى لها أي منفذ. [صلح الحديبية لباشميل ٨١].

وقد سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٥ ـ اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب:

يقول د/ الغضبان: «ونفقه سر تولية عبد الله بن عتيك ﷺ إمارة هذه السرية حين نعلم من رواية الواقدي بعض التفصيلات الهامة: فعبد الله بن عتيك، وصِلَتُه بأمه اليهودية التي أرضعته، ومدى ثقته بها، وكونه يعرف اليهودية قليلًا، هذه العوامل هي التي ساعدته على نجاح مهمته، وهذا يعني اختيار الكفاءات المناسبة لتنفيذ المهمات الصعبة والاستفادة من الظروف والعوامل كلها في خدمة هذه القضية، فليس الأمر مجرد شجاعة قلب، وإن كانت الشجاعة جزءًا رئيسًا من القضية، إنما عملية فهم لغة العدو والتكلم بها ذات أثر في المجال يفوق شجاعة القلب، فالعمل في قلب العدو، يقتضى توفر مثل هذه الأولويات.

وتشير رواية الواقدي ﷺ إلى أن أم عبد الله بن عتيك ﷺ ساهمت في وضع الخطة المناسبة للتحرك داخل الصف اليهودي، ولا ندري أيعقل أن تفعل هذا الأمر كله وهي على يهوديتها، وأن تكون موضع ثقة عبد الله بن عتيك ﷺ ابنها من الرضاعة، بحيث تعرف الهدف، وتصمت عليه؟! وإن كان هذا منطوق النص، فهو يعني أن بالإمكان التغلغل داخل العدو ولو كان ظاهرًا في عداوته، مقابل مصلحة يحققها أو روابط ينطلق منها.

وها هي أم عبد الله ترسم له معالم الخطة المناسبة لإمكانية الدخول على العدو، وطريقة الوصول إليه والاستفادة من فتح البيوت الدائم.

إنها لا تضع خطة الدخول فقط، بل تضع الخطة الكاملة لقتله، ولا شك ـ إن صحت الرواية ـ أنها مؤمنة تكتم إيمانها مثل مؤمن آل فرعون.

ونعود إلى رواية البخاري نستمع إلى حديث ابن عتيك ﷺ ونرى فيه عبقرية القيادة، وعظمة البطولة.

إنها الجرأة النادرة أن يقتحم داخل بلد العدو، لأول مرة، وهو لا يعرف عنها شيئًا، إنما هو قد حدَّد هدفه أن يَقتل أبا رافع، واستفاد من المعلومات النظرية التي حصل عليها من أمه، لكننا هنا ابتداء أمام دقة الملاحظة وسرعة البديهة، وعظمة الوعي، واليقظة، فقد انتبه إلى الحارس قد علَّق المفاتيح على الوتد، فهذا عنصر جديد دخل في الخطة، لابد أن يستفيد منه إلى أقصى حدود الاستفادة، والتمعت بذهنه هذه الفكرة العجيبة، أن ينقض على المفاتيح فيأخذها، ويغلق الأبواب من الداخل، بحيث لا يمكن الوصول إليه وإلى أبي رافع إلا وقد نفَّذ المهمة، فالمهمة الرئيسة قتله، ولا شك أنه حين التنفيذ، سيفاجأ بجرس وأصوات أو استغاثة، فإلى أن يصلوا إليه، ويخلعوا الأبواب، ويكسروا الأقفال يكون قد قضى عليه، ولا يضيره بعدها أن يقع بين أيديهم فيقطعوه إربًا، لكن المهم أن تنجح المهمة.

ونتساءل: أين تلقى عبد الله بن عتيك ﷺ تدريبه؟ وأي حرب عصابات خاضها حتى تفتَّق ذهنه عن هذه الخطة الجديدة التي دخلت على الخطة القديمة؟ وما هي الكتب، والنشرات، والأفلام، والصور، والدراسات التي اطلع عليها؟ ولم يرض بأمر بسيط، إلا رأس أبي رافع، وفي حصون خيبر، وكل سلاحه أنه يرطن باليهودية، وله أم من الرضاعة في هذا البلد الغريب.

إن كل الذي تلقاه في مدرسة النبوة العظيمة هذه التربية الخالدة من الإيمان الخالص بالله، والتوكل عليه، والثقة بنصره وعونه، واللجوء إليه، والاستعاذة به، والخلوص من الذات والهوى، والتجرد لله من كل هدف إلا مرضاة الله ورسوله، كل الذي تلقاه في هذه المدرسة أن يكون ربانيًّا، وبهذه النفسية، وبهذا القلب، وبهذا البناء أقبل على تنفيذه مهمته، أما الشجاعة والبطولة وسرعة البديهة، وحدة الوعي، فقد تمت ضمن هذه البيئة التي تربي القادة وأخذت أقصى مداها في التوجيه والرعاية.

واستفاد ابن عتيك ﷺ من توجيهات أمه، حيث عرف مكانه، وتأكد من ذهاب السُّمَّار عنه، وأوى أبو رافع إلى فراشه ليمضي ليلة سعيدة في التخطيط للقضاء على محمد ﷺ، وسمع النداء فقال: من هذا؟ وانقض ابن عتيك ﷺ على الصوت، حيث لم يتمكن من السرعة أن يحقق الهدف بالضربة الأولى، تُرى أيُسقط في يده ويستسلم مثل مئات المحاولات الفاشلة حيث ينتبه أهل الدار على الصياح؟ إن قلبه الجريء لأكبر من ذلك كَمَن في ناحية بعيدة خارج في البيت، وعاد إلى الخطة بنفسها بصوت آخر مغيثًا أبي رافع، ولو لم يغير صوته لانكشف، فكل جزئية لو فُقدت، لدمَّرت المحاولة، وأجاب أبو رافع مستغيثًا به فأتى ليعيد التجربة متجنبًا الخطأ السابق، ومتجنبًا السرعة التي تفوِّت الهدف، فضربه الضربة القاتلة، ولم يكتف بذلك حتى سحق عظمه بسيفه ليتأكد من دقة التنفيذ، ونجاح المهمة، وبهدوء نادر، وفي بيت

العدو يمضي يفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهى إلى الدرج، وراح ينزل فيه، وتشاء إرادة الله تعالى أن يقع في امتحان عسير حيث يقع فتنكسر رجله، فهل يستسلم؟ أم يقتل نفسه حتى لا يقع أسيرًا بيد العدو؟ إنه بكل بساطة يعصب جرحه بعمامته ويحلج لا ليغادر الحصن، ومكمن الخطر، إنما لشيء آخر هو أعجب ما في هذه المهمة كلها.

إنه لن يغادر حتى يتأكد من نجاح مهمته، ورجله تنزف دمًا وقد كسرت، ولن يمضي حتى تأكد من نجاح مهمته مع خيوط الفجر، وصياح الديك الذي رافقه صياح الناعي بمقتل أبي رافع، ومضى يكابر على ألمه، ويكابر على جرحه، حتى وصل إلى أصحابه، فقال لهم: النجاء فقد قَتل الله أبا رافع».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٤٨-١٥١].

٦ ـ تواضع القيادات:

يقول د/ الغضبان: «وأن يكون عبد الله بن أنيس ﷺ جنديًّا في هذه الكوكبة، وليس أميرًا فيها له دلالته الكبرى في عملية التربية والتعليم، فهو العَقَبي البدري المصلِّي للقبلتين، فهو من السابقين الأولين من الأنصار، وليس عبد الله بن أنيس ﷺ نكرة في مجال الجهاد والبطولات، فلا بد أن نذكر أنه السرية وحده الذي ابتعثه رسول الله ﷺ إلى اغتيال سفيان بن خالد الهذلي في أطراف مكة، وهو الذي كان يَعد العدة لغزو المدينة، وهو الذي نجح نجاحًا باهرًا في مهمته تلك، وقتله في فراشه وداخل خيمته، وأعجز قومه هربًا، وعاد برأس سفيان إلى المدينة، فهو مليء بالمجد الذي لا يُبارى فيه، تضحية وبلاءً وبطولة، ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة، إنما كان أحد أفرادها، وهو يحمل هذا التاريخ الضخم المشرق في سجلاته عند ربه ﷻ قبل أن يكون عند الناس.

وهو درس تربوي خالد، لاشك أن إخوانه أبناء الجيل الجديد قد استوعبوه، ونحن لا نجد مثيلًا لهذه التربية له في عالم الأرض، فالذي يحكم في الجيوش تسلسل الرتب، حتى إن الرتبة الواحدة يتحكم فيها المتقدِّم بالمستجَد، وعلى المستجَد السمع والطاعة للمتقدِّم ولو بأشهر، وبهذا المنطق لا يجوز أن يتقدم على عبد الله بن أنيس ﷺ أحد، وإن كان في مجال الانتصارات والحروب، فلا يجوز أن يتقدم عليه من إخوانه أحد، ولكنها التربية النبوية العظيمة التي خطها النبي ﷺ في أكثر من موقع؛ لتجعل هذا الجيل يتعلم من سابقه ويتدرب على يديه، فلطالما أرسل ﷺ سرايا فيها أبو بكر وعمر جنديان عاديان في غمار الجنود».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٤٨].

٧ ـ النهي عن قتل النساء والولدان:

يقول د/ أبو فارس: «لقد مر معك أن النبي ﷺ قد وصى أصحابه بعدم قتل النساء والصبيان، وهذا أدب من آداب الحرب في الإسلام، وهذا هو القاعدة العامة.

فالمرأة لا تُقتل إلا إذا شاركت في القتال فتُقتل؛ لأن المقاتَل هو الذي يُقاتل، ولقد كان الرسول ﷺ وخلفاؤه ينهون الجيش عن قتال النساء المسالمات والأطفال، والغدر والخيانة والتمثيل في القتلى والتعرض للمدنيين من مزارعين وأُجراء وكانوا ينهونهم عن قطع الأشجار.

هذه هي القاعدة وقد يرد عليها استثناءات لظروف تقتضي هذا، والضرورة تُقدَّر بقدرها».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٥].

ويقول د/ بريك: «ومما يستفاد من الحديث ـ أي حديث وصية النبي ﷺ بعدم قتل النساء والصبيان ـ النهي عن قتل النساء والولدان إلا إذا كانوا من قوم مبيَّتين، وهي مسألة خلافية حيث فيها هذا الحديث وحديث الصعب بن جثامة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يُسأل عن أهل الدار من المشركين يُبيَّتون فيصاب من نسائهم وذراريهم، فقال النبي ﷺ: «**هُمْ مِنْهُمْ**».

[اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ محمد فؤاد عبد الباقي ٢/ ٢٣٧].

عَنِ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنْ عَمِّهِ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَـمَّا بَعَثَ إِلَى ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ «**نَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ**». لَفْظُ حَدِيثِ أَبِي عَبْدِ اللهِ، زَادَ أَبُو عَبْدِ اللهِ فِي رِوَايَتِهِ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ: «فَكَانَ سُفْيَانُ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «**هُمْ مِنْهُمْ**» إِبَاحَةٌ لِقَتْلِهِمْ، وَأَنَّ حَدِيثَ ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ نَاسِخٌ لَهُ.

قَالَ: وَكَانَ الزُّهْرِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِحَدِيثِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ أَتْبَعَهُ حَدِيثَ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ».

قَالَ الشَّافِعِيُّ ﷺ: «وَحَدِيثُ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ كَانَ فِي عُمْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنْ كَانَ فِي عُمْرَتِهِ الْأُولَى فَقَدْ قُتِلَ ابْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ قَبْلَهَا وَقِيلَ فِي سَنَتِهَا، وَإِنْ كَانَ فِي عُمْرَتِهِ الْآخِرَةِ فَهُوَ بَعْدَ أَمْرِ ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ غَيْرَ شَكٍّ، وَاللهُ أَعْلَمُ».

قَالَ: «وَلَمْ نَعْلَمْهُ رَخَّصَ فِي قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ثُمَّ نَهَى عَنْهُ».

وَمَعْنَى نَهْيِهِ عِنْدَنَا ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ أَنْ يَقْصِدَ قَصْدَهُمْ بِقَتْلٍ وَهُمْ يُعْرَفُونَ مُمَيَّزِينَ مِمَّنْ أُمِرَ بِقَتْلِهِ مِنْهُمْ.

قَالَ: وَمَعْنَى قَوْلِهِ «**هُمْ مِنْهُمْ**» أَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ خَصْلَتَيْنِ، أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حُكْمُ الْإِيمَانِ الَّذِي يَمْنَعُ الدَّمَ، وَلَا حُكْمُ دَارِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَمْنَعُ الْغَارَةَ عَلَى الدَّارِ».

قَالَ الشَّيْخُ ﷺ: «أَمَّا قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي عُمْرَتِهِ». **[السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٣٣ -١٣٤ كتاب السير باب قتل النساء والصبيان في التبييت والغارة من غير قصد رقم ١٨٠٩٢].**

وما أشار إليه الشافعي وجيه؛ لأن التبييت من نتائجه عدم التفريق بين الرجال والنساء والأطفال لحدوثه في الظلام، ولأجل المباغتة التي هي عنصر أساسي للتبييت، أما حديث أبي رافع فهو لإنسان مخصوص بعينه ومعروف، فلا يجوز قتل من سواه إذا اجتُهِد في الخلوص إليه، ومعرفة مكانه وهو ما حدث من الصحابي الذي قتله، والله أعلم.

وقد علق البيهقي على إمكانية حدوث النسخ بين الحديثين من عدمه، فقال: «وَأَمَّا تَارِيخُ قَتْلِ ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ، وَتَارِيخُ عُمْرَتِهِ، فَقَدْ أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ ، ثنا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ ، ثنا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ ، ثنا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ هُوَ ابْنُ يَسَارٍ ، قَالَ: فَلَمَّا انْقَضَى أَمْرُ الْخَنْدَقِ وَأَمْرُ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ سَلَامُ بْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ مِمَّنْ كَانَ حَزَّبَ الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، اسْتَأْذَنَتِ الْخَزْرَجُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي قَتْلِ سَلَامِ بْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ، وَكَانَ بِخَيْبَرَ، فَأَذِنَ لَهُمْ فِيهِ.

قَالَ: ثُمَّ غَزَا بَنِي الْمُصْطَلِقِ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ سِتٍّ، ثُمَّ خَرَجَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ مُعْتَمِرًا عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ».

قَالَ الشَّيْخُ: «ثُمَّ كَانَتْ عُمْرَتُهُ الَّتِي تُسَمَّى عُمْرَةَ الْقَضَاءِ، ثُمَّ عُمْرَةُ الْـجِعْرَانَةِ، ثُمَّ عُمْرَتُهُ فِي سَنَةِ حَجَّتِهِ، كُلُّهُنَّ بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَتْلُ ابْنُ أَبِي الْحُقَيْقِ كَانَ قَبْلَهُنَّ، فَكَيْفَ يَكُونُ نَهْيُهُ فِي قِصَّةِ ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ نَاسِخًا لِـحَدِيثِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ الَّذِي كَانَ بَعْدَهُ؟». [السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٣٥ كتاب السير رقم ١٨٠٩٤]. [السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٧٨-١٧٩].

٨ـ المَحَكُّ العملي لتطبيق المبادئ:

يقول د/ الغضبان: «وبالعودة إلى رواية ابن إسحاق والتي تلتقي مع رواية الواقدي يعنينا منها المبادئ الكبرى التي تحكم المسلم في أشد حالات الخطر حوله، فلا يتزحزح ولا يتراجع.

ففي بداية الرواية: (فخرجوا وأمر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك، ونهاهم عن أن يقتلوا وليدًا أو امرأة).

ثم يأتي المحك العملي لتطبيق هذه المبادئ، وقد يحول تطبيقها دون تحقيق الهدف كله، فتبقى هذه العصبة المؤمنة ملتزمة بإيمانها ومبادئها.

(ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه، ثم يذكر نهي رسول الله ﷺ فيكف يده، ولولا ذلك لفرغنا منها بليل).

إن صياح هذه المرأة قد يؤدي إلى قتلهم جميعًا، ومع ذلك فقارنوا بين احتمال هذه النتيجة، وبين تطبيق المبادئ العليا التي أمرهم بها ﷺ، فكان الالتزام بالأمر مقدمًا على حياتهم جميعًا، فنحن أمام عقيدة ومنهج تحكم البشرية، ولسنا أمام أهواء وعصابات تريد أن تدمر البشرية، والدعاة اليوم في الأرض مدعوون إلى الوقوف أمام كل جزئية للالتزام بها، لا أن يحرفوا النصوص، أو يغفلوا بعضها لتحقيق مآربهم وتبرير أخطائهم ومواقفهم، وطالما أن النصر من عند الله فلا ضير من تطبيق هذه المبادئ، ولو بدا ظاهرًا أن تحقيقها يحول دون النصر، فالنصر الحقيقي هو الالتزام بهذا المنهج، وسيادتها في الأرض، ولا سيادة الأشخاص على حساب هذه المبادئ». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٥٢].

٩ ـ جزاء من يؤلب الأعداء على المسلمين القتل:

يقول د/ أبو فارس: «أُخذ هذا من قرار النبي ﷺ قتل أبي رافع اليهودي لأنه ألب الأحزاب على قتال المسلمين». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٠**].

ويقول الشيخ أبو زهرة: «إن أبا رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي كان من أشد اليهود تحريضًا على النبي ﷺ، فهو ممن جمع جموع قريش وغطفان، وكان يحرضهم، حتى كانت غزوة الأحزاب، وكان ما كان من بني قريظة، ويظهر أنه لم يفعل ما فعل حيي بن أخطب من إقحام نفسه مع بني قريظة لعهد له مع كعب بن أسد من أن يكون معه في حصنه إن انتصروا أو هُزموا.

ولكن عين الحق لا تغفل عن ذلك الذي حرض العناصر المعادية للنبي ﷺ في كل أرض العرب، وأنه على استعداد لمثلها، فكان الحذر الذي أمر به في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء:٧١] يوجب على النبي ﷺ أن يتولاه قبل أن يعيد إفساده وتحريضه لما بدأه، فأرسل إليه من المؤمنين من قتله في حصنه الذي يقيم فيه بخيبر». [**خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٠٥-٨٠٦**].

١٠ ـ مساعدة الأعداء بالمال عداء:

يقول د/ أبو فارس: «مساعدة الأعداء بالمال تُعد عداوة من المساعد وتضعه في صف الأعداء من حيث الموقف والعقوبة.

إن اليهودي أبا رافع قد قدَّم المال الوفير للأحزاب من أجل استئصال شأفة المسلمين.

وبَذْلُ المال في غاية الأهمية؛ لأنه يساعد على الثبات والإقدام من أجل تحقيق الأهداف، فبالمال يشتري السلاح، ويزود الرجال به ويمونون هم وعيالهم». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٠**].

١١ ـ لماذا قَتل المسلمون أبا الحُقيق وأباحوا دمه؟:

يقول د/ الغضبان: «لقد قضى حيي بن أخطب مع بني قريظة، معلنًا استحقاق اليهود غضب الله ولعنته بقوله: **لا بأس، ملحمة كتبها الله على بني إسرائيل**، ومعلنًا كما أعلن إبليس من قبل إصراره على حرب رسول الله ﷺ وهو يُعْرَض على الموت لما يعاني من حقد على رسول رب العالمين، وهو يعلم أنه الحق من ربه: **والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل.**

قضى حيي بن أخطب مع بني قريظة، لكن الثعبان الداكن لا يزال يتلوى في خيبر، فهو شريك حيي في تعبئة الأحزاب ضد رسول الله ﷺ، إنه سلام بن أبي الحقيق، وآلت إليه رئاسة خيبر، فهو السيد الأول فيها، مع أنه من بني النضير، لكن يهود خيبر لم يكن فيهم نسب كنسب قريظة والنضير.

لقد قال ﷺ عندما أجلى بني النضير عن المدينة: «**هَؤُلَاءِ فِي قَوْمِهِمْ بِمَنْزِلَةِ بَنِي الْمُغِيرَةِ فِي قُرَيْشٍ**». [**المغازي للواقدي ١/ ٣٧٥**].

ولهذا آل أمر يهود خيبر وقيادتهم إلى حيي بن أخطب، ثم إلى أبي رافع سلام بن أبي الحقيق، وكليهما من يهود بني النضير.

وإن كنا قد رأينا حيي بن أخطب وهو يعلم أن محمدًا رسول الله حقًّا مرسل من ربه، وقرر عداوته رغم ذلك، فلم يكن سَلَّام يختلف عنه في هذا الأمر.

وهناك علاقة حميمة وصلة وثيقة بين غطفان واليهود، نتحدث عن آثارها فيما بعد، لكن الذي يعنينا منها الآن هو ثقة سلَّام بصدق محمد ﷺ، ينقلها لنا الحارث بن عوف سيد بني مرة من غطفان، يقول: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ أَبَا رَافِعٍ سَلَامَ بْنَ أَبِي الحُقَيْقِ يَقُولُ: إِنَّا نَحْسُدُ مُحَمَّدًا عَلَى النُّبُوَّةِ حَيْثُ خَرَجَتْ مِنْ بَنِي هَارُونَ، وَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَاليَهُودُ لَا تُطَاوِعُنِي عَلَى هَذَا.

وهو يعرف أن اليهود لابد مهزومون في حربهم له إن حاربوه، إذ يقول: وَلَنَا مِنْهُ ذَبَحَانِ: وَاحِدٌ بِيَثْرِبَ، وَآخَرُ بِخَيْبَرَ.

قَالَ الحَارِثُ: قُلْتُ لِسَلَّامٍ: يَمْلِكُ الأَرْضَ جَمِيعًا؟ قَالَ: نَعَمْ وَالتَّوْرَاةُ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى، وَمَا أُحِبُّ أَنْ تَعْلَمَ اليَهُودُ بِقَوْلِي فِيهِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٦٧٧].

ومضى على خط سلفه حيي في اعتداده بقوته، واستعداده لحرب المسلمين بلا هوادة، رغم علمه اليقيني بأن محمدًا رسول الله، فأثناء جلاء بني النضير عن المدينة ندَّت صرخة من عجوز يهودية جزعًا على قطع النخيل لبنى النضير (فَلَمَّا قُطِعَتْ العَجْوَةُ شَقَّ النِّسَاءُ الجُيُوبَ، وَضَرَبْنَ الخُدُودَ، وَدَعَوْنَ بِالوَيْلِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَا لَهُنَّ؟ فَقِيلَ: يَجْزَعْنَ عَلَى قَطْعِ العَجْوَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **إِنَّ مِثْلَ العَجْوَةِ جُزِعَ عَلَيْهِ**...

فَلَمَّا صِحْنَ صَاحَ بِهِنَّ أَبُو رَافِعٍ سَلَّامٌ: إِنْ قُطِعَتْ العَجْوَةُ هَاهُنَا، فَإِنَّ لَنَا بِخَيْبَرٍ عَجْوَةً، قَالَتْ عَجُوزٌ مِنْهُنَّ: خَيْبَرٌ، يُصْنَعُ بِهَا مِثْلُ هَذَا، فَقَالَ أَبُو رَافِعٍ: فَضَّ اللهُ فَاكِ! إِنَّ حُلَفَائِي بِخَيْبَرٍ لَعَشَرَةُ آلَافِ مُقَاتِلٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٣٧٣].

إنه يريد أن يتجلد على المصيبة وهو يعلم أن لليهود من رسول الله ﷺ مذبحتان في يثرب وفي خيبر، ولكنه الحقد الأعمى الذي يُفقده صوابه.

وليس أبو رافع مشهورًا فقط، بل سيف أبي رافع له صيت وشهرة، أهداه رسول الله ﷺ بعد بني النضير لسعد بن معاذ سيد الأوس (وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق، وكان سيف له ذكر عندهم). [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٤٦٣].

وقد تقاسم الدور التآمري على المسلمين مع حيي بن أخطب، فقد قام حيي بتعبئة قريش بحربها ضد رسول الله ﷺ، بينما كان دور سلام بن أبي الحقيق في غطفان الشريك الرئيس الثاني في غزوة الأحزاب، فها هو نعيم بن مسعود الغطفاني يحدثنا عن دوره فيقول: (وَكَانَ ابْنُ أَبِي الحُقَيْقِ قَدْ سَارَ فِينَا فَاجْتَمَعْنَا مَعَهُ لِنَصْرِكُمْ). [المغازي للواقدي ٢/ ٤٨١].

وهو الذي ضحى بتمر خيبر عامًا كاملًا مقابل هذا النصر (ثُمَّ سَارُوا فِي غَطَفَانَ، فَجَعَلُوا لَهُمْ تَمْرَ خَيْبَرَ سَنَةً وَيَنْصُرُونَهُمْ وَيَسِيرُونَ مَعَ قُرَيْشٍ إِلَى مُحَمَّدٍ إِذَا سَارُوا، فَأَنْعَمَتْ بِذَلِكَ غَطَفَانُ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَسْرَعَ إِلَى ذَلِكَ مِنْ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ). [المغازي للواقدي ٢/ ٤٨٣].

وانتهت غزوة الخندق، وقد زرعت الشقاق والحقد في نفوس الحليفين، وبعد أن سقط حيي بن أخطب صريعًا في بني قريظة، فغدا سلام بن أبي الحقيق سيد خيبر بلا منازع.

من هذا الموقع، كان اختيار الخزرج له، اختيارًا في غاية التوفيق، فقد يعيد الكرة ثانية ويعبئ اليهود لحرب رسول الله ﷺ ومعهم الأعراب ثأرًا لملحمة بني قريظة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٤٣-١٤٤].

ويقول ل/ خطاب: «أما قتل أبي رافع بن الحقيق، فلأنه أحد رؤوس يهود الذين حرَّضوا الأحزاب، وقتله كان عبرة لغيره من الذين يحاولون محاولته في المستقبل؛ وحتى قوانين الحرب الدولية الحديثة تجيز القتل في مثل هذه الموقف، فهذا اليهودي كان من بني النضير الذين أرادوا اغتيال الرسول ﷺ، فحاصرهم وتغلب عليهم واضطرهم على الاستسلام، ثم سمح لهم بالرحيل بعيدًا عن المدينة على ألا يعودوا إلى قتاله أو التحريض عليه، فإذا نكث هذا بالعهد وحرَّض الأحزاب على تطويق المدينة، وحرَّض بني قريظة على نكث عهدهم مع المسلمين.

إذا كانت هذه أعماله بعد أطلقه الرسول ﷺ مع قومه بعد استسلامهم، فمن حق المسلمين أن يقتلوه كمجرم حرب لا كمحارب شريف. [راجع قانون الحرب والحياد من القانون الدولي: يُطلق الأسير إذا أعطى كلمة (الشرف) بألا يقاتل الدولة التي أطلقت سراحه، ولا يحرض على قتالها، فإذا أخل بكلمة الشرف التي أعطاها والتحق بالجيش ثم أسرته الدولة التي أطلقت سراحه، جاز محاكمته على إخلاله، والعقوبة في العادة هي الإعدام].

وما يقال عن ذلك يقال عن سرايا القصاص التي بعثها الرسول ﷺ لمحاسبة الغادرين الآخرين».

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٦٠-٢٦١].

ويقول عميد فرج: «إن أبا الحقيق يهودي من بني النضير وقد سمح لهم رسول الله ﷺ بالجلاء عن المدينة على ألا يعودوا إلى قتاله، وألا يحرضوا عليه، إلا أنه وهو أحد رؤوس اليهود، أسهم مع حيي بن أخطب في التحريض على قتال المسلمين، وحرض بني قريظة على نكث عهدها، وهو بذلك يكون قد أباح دم المسلمين، وبالتالي فإن من حق المسلمين أن يعاملوه بالمثل، ولهذا أباح رسول الله ﷺ دمه بصفته مجرم حرب، وكان قتله عبرة لغيره من الذين يحاولون محاولته في المستقبل.

وإن خروج هذا النفر من الخزرج في مثل هذه المهمة يشبه تمامًا ما تؤديه قوات الصاعقة والفدائيين في حروب اليوم، ولا شك في أن قتله كان قصاصًا عادلًا يقره الإنصاف والحق».

[العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٠٦].

وبذلك يعتبر قتل سلام بن أبي الحقيق قصاصًا عادلًا لدوره الكبير في تأليب الأحزاب ضد المسلمين.

[السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٢٨].

١٢ ـ الكفر كله ملة واحدة:

يقول د/ أبو فارس: «الأحداث تدين اليهود بتآمرهم مع المشركين على المسلمين مما يدل على أن الكفر ملة واحدة». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٠].

١٣ ـ الشقاء في عدم الاتعاظ بالماضي:

يقول د/ أبو فارس: «أبو رافع كان شقيًّا؛ لأنه لم يتعظ بما حدث له ولقومه بني النضير على موقفهم من الرسول ﷺ والتآمر على حياته، وكان الأجدى له أن يكف عما هو فيه من الفساد والإفساد ولكنه أبى فاستحق جزاءه». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٠-١٩١].

١٤ ـ العلاج الحاسم لليهود:

يقول د/ أبو فارس: «إن علاج الرسول ﷺ لأبي رافع وغيره من يهود كان علاجًا صارمًا وحاسمًا، ذلك الحسم يحسم الشر والتهاون واللين يساعدانه على بقائه واستفحاله.

وهكذا ينبغي أن يكون العلاج لكل يهودي خوان للعهود متآمر على المسلمين، فليس له في هذا الدين إلا ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم وبغير هذا لا تستقيم الأمور ولا تهدأ الأحوال».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩١].

١٥ ـ أهمية معرفة لغة العدو:

يقول د/ أبو فارس: «لمعرفة المحارِب لغة عدوه فائدة جليلة تعود بالنفع عليه وعلى من معه، إذ يستطيع هو أن يخاطب عدوه بلغته فيبعث الطمأنينة في نفسه ولا يرتاب من أمره، مما يوهم المخاطب أنه على شاكلته.

وفي نفس الوقت يستطيع أن يطَّلع على أسرارهم ومعرفة ما عندهم إن كان يتقن لغتهم، وهم يتحاورون أمامه.

إن القارئ الكريم قد أدرك كيف استطاع عبد الله بن عتيك ﷺ أن يصعد إلى حصن أبي رافع وأن يخاطب امرأته وأن يدخل بيته مطمئنًّا؛ لأنه قد خاطبه بلغته لغة اليهود في ذلك الوقت.

ويؤخذ مما تقدم استحباب تعلم لغة غير المسلمين لا سيما الأعداء منهم وخاصة لأولئك العسكريين الذين يذهبون لمهمات استطلاعية تجمع أخبار العدو وتزود القيادة بها، والقيادة ترسم خطتها بناء على هذه المعلومات الواردة عن العدو بوساطتها وعن طريقها.

والذي يقرأ السيرة النبوية يجد أن رسول الله ﷺ قد أمر زيد بن ثابت ﷺ بتعلم لغة اليهود لغة التوراة، وقد فقهها زيد ﷺ في أقل من شهر، ثم أصبح يترجم للرسول ﷺ كل ما يرد إليه من يهود، وكذلك يترجم إلى يهود كل ما يريده الرسول ﷺ». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩١-١٩٢].

١٦ ـ الإصرار على الموقف أول درجات النصر:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أصر عبد الله بن عتيك ﵁ والذين معه ﵃ أن يقتلوا اليهودي الخبيث أبا رافع، ولم يعبأوا بالتكاليف المترتبة على ذلك، وإن كانت استشهادهم جميعًا فلا يحول بينهم وبين هذا الإصرار والثبات.

وأمام هذه الإرادة الحديدية والعزيمة الفولاذية قد زالت كل التوقعات وكل التحسبات وكل العقبات المثبطة». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٢].

١٧ ـ قوة الروح المعنوية العالية من عوامل النصر:

يقول د/ أبو فارس: «إن قوة الروح المعنوية العالية التي كان يتمتع بها أفراد السرية من عوامل النصر الحاسمة على العدو، ومن عوامل تحقيق الهدف.

إن العملية التي أقدموا عليها كانت عملية جريئة جدًّا، إنهم يريدون قتل رجل في حصن يعيش مع آلاف المقاتلين من اليهود، له مكانته وله سلطانه وأمواله.

إن الذي دفع أفراد السرية لتجاوز كل هذه الأمور قوة الروح المعنوية التي كانوا يتمتعون بها، وضرورة تنفيذ ما أراد رسول الله ﷺ، وإن كلفهم ذلك أنفسهم.

بهذه الروح المعنوية العالية واجه صحابة رسول الله ﷺ أعداءهم من اليهود وغير اليهود، وانتصروا عليهم رغم قلة عدد المسلمين وعُدتهم وكثرة عدد أعدائهم وعُدتهم.

إن الروح المعنوية العالية هي أهم أسباب النصر على الإطلاق». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٢].

١٨ ـ الدقة في اختيار رجال المهام الصعبة:

يقول د/ الحميدي: «وهكذا رأينا هذا الفاتك البطل عبد الله بن عتيك ﵁ قام بهذه المهمة الشاقة وحده، وتعرض لمخاطر كثيرة استطاع أن يجتازها حتى بعد أن أُصيب في ساقه.

ولقد كان بارعًا في استخفائه، دقيقًا في تنكره حتى خفي أمره على البواب المسؤول عن حماية الحصن ودخل كأي واحد من المقيمين داخله.

كما كان بارعًا في تخطيطه للهجوم حيث أقفل الأبواب من ظاهرها ليتمكن من أداء مهمته قبل أن يصلوا إليه، وأحسن التصرف حينما خفي عليه شخص من يريد الإيقاع به لشدة الظلام، فناداه ليعرف مكانه من صوته، ثم أحسن التصرف مرة أخرى حينما لم يستطع الإجهاز عليه في الضربة الأولى حيث غير صوته وناداه على هيئة من يريد إغاثته حتى تمكن منه.

كما كان بارعًا في تخطيطه للفرار فيما إذا علم به عدوه حيث فتح باب الحصن ليسهل عليه التخلص منهم.

فأي قلب يحمله هذا الرجل الشجاع؟ وما أبلغ حذره وتدبيره للأمور وهو مُقْدم على أداء مهمته!

ثم بعد أن أنهى المهمة لم يرض بما وصل إليه حتى يتأكد من نجاحها، وذلك بسماع نعي الرجل من قومه حسب المعتاد في حياتهم، وهذا منتهى الإخلاص والطاعة.

وبعد: فمن هو عبد الله بن عتيك؟ إنه فرد واحد من أفراد الجماعة التي رباها رسول الله ﷺ على مكارم الأخلاق فأحسن تربيتها، فانطلق أفرادها يبذلون كل طاقتهم في الإصلاح في الأرض وتطهيرها من المفسدين». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٧٩-١٨٠**].

ويقول د/ أبو فارس: «إن المتأمل لأحداث هذه الواقعة والدارس لها بتدبر يجد أن عبد الله بن عتيك ﷺ كان نعم القائد الواعي لمهمته والقادر على تنفيذها بدقة.

وأهم شيء اعتمد عليه في تحقيق خطته التمويه على العدو، فقد كان ذا قدرة على التمويه والتخفي ظهر ذلك من خلال الأمور التالية:

أ ـ ذهابه لوحده: لقد قرر أن يذهب وحيدًا إلى الحصن ويحاول أن يدخله ومن ثم يفتش عن طريقة يُدخل بها أفراد سريته، وهذا ما تم فعلًا فقد ذهب بمفرده ليتمكن من التسلل داخل الحصن دون أن يشعر به أحد، ولا يثير شكوك أحد، وهذا بخلاف ما لو رافقه جميع أفراد السرية، فقد يثيرون انتباه الحُرَّاس بوجوههم الغريبة، وحركاتهم الغريبة لغربتهم عن المنطقة.

ب ـ تصرفه العادي: الذي لم يلفت انتباه أحد من الحُرَّاس، بل جعل الحُرَّاس يطمئنون إليه ويدعونه للدخول في الحصن قبل أن يغلقوا بابه، كل هذا عائد إلى أن ابن عتيك ﷺ لم يكن مضطربًا ولا مرتبكًا يرتجف ويرتعد.

تُرى لو كان ابن عتيك ﷺ مضطربًا وشعر باضطرابه الحارس هل سيسمح له بدخول الحصن؟ لا إنه لن يكتفي بمنعه بل سيصطدم معه ويقاتله، وهذا ليس من أهداف السرية.

ج ـ قدرته على التمويه على الحارس وإيهامه أنه يقضي حاجته، وهذا يمنع الحارس من النظر إليه وتفحصه وتفرسه في وجهه.

د ـ مراقبة حركة الحارس الدقيقة بعد دخول الحصن وإغلاقه، لقد كمن في مكان لم يشعر به الحارس، وراقب الحارس حتى وضع مفتاح الحصن في مكان معين وتابعه حتى انصرف.

هـ ـ الطريقة السليمة التي أدخل بها بقية أفراد السرية داخل الحصن، لقد كانت الطريقة ذكية وخفية وهادئة لا يشعر به أحد من أهل الحصن، لقد تناول مفتاح الحصن وفتح الباب ودخلوا ثم أغلق الباب كما كان وأصبح المفتاح في حوزته يستخدمه كيفما شاء وفي أي وقت شاء».

[**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٢-١٩٤**].

١٩ ـ قدرة عبد الله بن عتيك ﷺ على التمويه عند قتل أبي رافع:

يقول د/ أبو فارس: «لقد استخدم كل إمكاناته في الوصول إلى أبي رافع، وهو لا يعرفه والمكان مظلم لا ضوء فيه يستطيع أن يميز بين الرجل والمرأة وبين الصغير والكبير، لقد نادى: **يا أبا رافع!** يرطن بلغتهم، فقامت امرأته وسمع صوته فضربه بالسيف، ولما لم تكن الضربة القاضية، جاءه ثانية وقد خاطبه مُغيِّرًا صوته بصورة المُغيث المُنجد، فتسنى له أن يوجِّه إليه ضربة ثانية، وجاء وقد غيَّر لهجته وصوته مُشعرًا إياه بالإغاثة فشكى إليه أمره فتمكن منه.

ويؤخذ من هذا جواز تقليد الأصوات وخاصة في الحرب حتى يُبعد الشك وتنفى الريبة.

أقول: ولا بأس بتقليد أصوات الحيوانات واستخدام ذلك في الحرب مما يوهم بوجود الحيوانات في هذا المكان وخلوه من الإنسان لا سيما إذا كانت الأصوات المقلدة أصوات وحوش أو حيوانات غير أليفة، ويكون هذا من قبيل التمويه على العدو وخدعته، والحرب كما هو معلوم من سنة النبي ﷺ القولية والفعلية خدعة، والمسلم مأمور بخدعة عدوه بأي أسلوب لا يتعارض مع الشرع يقدر عليه ويستطيع ابتكاره وتجديده وتنويعه». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٤-١٩٥**].

٢٠ ـ العقيدة وأثرها في حياة المسلمين:

يقول ل/ خطاب: «وماذا يعني دخول عبد الله بن عَتِيك ﷺ وحده الحصن الذي يسكنه اليهودي أبو رافع بن أبي الحقيق في وسط أهله وعشيرته، وتعريض عبد الله ﷺ نفسه للخطر الداهم، بينما أبقى أصحابه خارج الحصن في أمان؟

هل يعني هذا العمل إلا استئثار القائد لنفسه بالخطر دون أصحابه طمعًا في الشهادة، وقد كان بإمكانه أن يبعث أحد أصحابه لينهض بهذا الواجب، ولكنه آثر أن ينهض بنفسه بهذا العمل كله، فنجح في القضاء على ابن أبي الحُقيق، والتحق بأصحابه ليلًا بعد أن كسرت رجله أثناء نزوله من سطح الحصن...

هذه الأمثلة التي ظهرت لنا في هذه الفترة من حياة المسلمين ومثلها كثير، تدل بوضوح على رسوخ العقيدة في نفوسهم، مما جعلهم يستهينون بكل شيء في سبيل عقيدتهم». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٦٢**].

٢١ ـ التحلي بخلق التواضع:

يقول د/ أبو فارس: «تأمل عبارة عبد الله بن عتيك ﷺ لأصحابه حينما ظن أنه قتل أبا رافع اليهودي، فإنه قد نسب الفعل إلى الله ﷻ، لقد قال لأصحابه: **إن الله قتل أبا رافع**.

أقول: إن القاتل الحقيقي لأبي رافع هو الله ﷻ؛ لأنه قد حكم فيه بأن يُقتل، وما عبد الله بن عتيك ﷺ ومن معه إلا جنودًا لتنفيذ حكم الله في هذه الحالة وغيرها.

وفي نفس الوقت إنه يشكر الله ـ تبارك وتعالى ـ الذي أقدره على القيام بهذه المهمة الشاقة، فالفضل لله أولًا وآخرًا، والأمر له سبحانه من قبل ومن بعد، ألا له الخلق والأمر».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٤].

ويقول د/ الغضبان: «يا لله! ما أعظمها من شخصية! فليس يعبد ذاته ليقول: قتلتُ أبا رافع، ويتبجح ويطلق الأشعار والقصائد فخرًا وزهوًا، ولو وضع بهذه المهمة ديوان شعر لكان قليلًا عليها، كما كان يفعل فرسان الجاهلية وهم يتباهون ببطولاتهم ويتغنون بشجاعتهم، وما ديوان عنترة بن شداد عنا ببعيد، ويوضع مع المعلقات في الكعبة، إنه جواب خالد خلود الدهر، باق بقاء العمر (قد قَتل اللهُ أبا رافع)، ولم يعد القتل إلى نفسه إنما أعاده إلى الله ﷻ، دون تبجح أو مباهاة، إنها أمة النبوة تنمو في ربوع هذه الأرض بقيم جديدة، ونفسيات جديدة ومُثُل عليا جديدة لم تشهد البشرية لها مثيلًا من قبل.

وهنا تكمن عظمة التربية في انتزاع الأنانية، والذات من الذات، والاكتفاء بالقول: قد قتل الله أبا رافع، ولا ينسى أن يحدثنا عن بدء يد النبوة الحانية التي لمست هذا الكسر، فجبرته، وهذا الجرح فضمدته، (فكأني لم أشتكها قط)، وعاد من مهمته أعمق إيمانًا بالله، وأشد إيمانًا بنبوة رسول الله ﷺ بدل أن يتحول إلى بشر بصورة إله، تنتفخ أوداجه لعظمة بطولته». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٥١].

٢٢ ـ عناية الله ﷻ بأوليائه المؤمنين:

وفي هذه السرية نلاحظ عناية الله ﷻ بأوليائه المؤمنين، فهذا الصحابي الجليل ابن عتيك ﷺ استمر ـ بعون من الله تعالى ـ يمشي ويبذل طاقته حتى بعد أن أُصيبت رجله، وكأنه لا يشكو من علة، حتى إذا انتهت مهمته تمامًا، وأصبح غير محتاج لبذل الجهد عاد إليه الألم، وحمله أصحابه ﷺ».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٨٠].

٢٣ ـ اهتمام القيادة بالجنود:

يقول د/ أبو فارس: «لقد جاء في صحيح البخاري وكتب السيرة أن عبد الله بن عتيك ﷺ قد وقع فكُسرت ساقه وفُكت رِجله في هذه السرية، وعاد وهو يعرج ويعاني من آلام شديدة نتيجة الكسر والفك، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن مسح على رِجله وساقه، وإذا هي تُشفى بإذن الله ـ تبارك وتعالى ـ وتزول الآلام.

إن هذا الطب كان بقدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ أقدر عليه رسوله ﷺ وكرَّمه بذلك، كيف لا وهو أكرم مخلوق على الله وسيد ولد آدم». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٥].

٢٤ ـ التنافس في فعل الخير والبلاء في القتال:

يقول د/ أبو فارس: «هذا ما رأيناه من أفراد السرية الذين رافقوا عبد الله بن عتيك ﷺ، إذ جاؤوا إلى رسول الله ﷺ بعد مقتل أبي رافع اليهودي كلٌّ يحرص أن ينال هذا الشرف بادعائه أنه قد كانت ضربته هي القاضية التي قتلت أبا رافع.

هذا ولم ينكر عليهم رسول الله ﷺ هذا التنافس؛ لأنه في الخير والجهاد والبلاء، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، وليتسابق المتسابقون، ولمثل هذا فليعمل العاملون، ويخلص المخلصون، ويجد المجدون، ويبذل الباذلون». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٥-١٩٦].

٢٥ ـ جواز الحكم بالقرينة:

يقول د/ أبو فارس: «أُخذ هذا الأمر من حكم رسول الله ﷺ لعبد الله بن أنيس ﷺ بأن ضربته كانت هي القاضية، مع أن رسول الله ﷺ لم يكن قد شهد الوقعة وحضرهم وهم يضربون ذلك اليهودي الخبيث أبا رافع ـ لعنه الله وأخزاه في الدنيا والآخرة ـ إنما حكم بذلك بناءً على أمارة دلت على ذلك، وقرينة أظهرت أن القاتل هو عبد الله بن أنيس ﷺ، وهي ظهور طعام أبي رافع على سيف ابن أنيس ﷺ.

فقد استنتج رسول الله ﷺ أن هذا السيف قد نفذ إلى أحشاء اليهودي، فمزقها وقطعها فكانت هذه هي الضربة القاضية». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٦].

٢٦ ـ جواز قتل الكافر المعادي وهو نائم:

يقول د/ أبو فارس: «وهذا قد أخذناه من طريقة تنفيذ أعضاء السرية لأمر الرسول ﷺ قتل أبي رافع اليهودي، فقد قاموا بقتله وهو نائم في فراشه، وأقرهم الرسول ﷺ ولم ينكر عليهم».
[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٩٦].

٢٧ ـ إزالة تناقض بين الروايات:

يقول أ/ باشميل: «ومع إجماع المؤرخين وأصحاب الحديث على أن الفدائيين الخمسة قد نجحوا في القضاء على طاغية يهود خيبر وهو على فراش نومه، إلا أنهم اختلفوا في كيفية تنفيذ الخطة، ومن هو الذي قام شخصيًا بالقضاء على أبي رافع.

فأكثر أصحاب المغازي والسير وعلى رأسهم إمامهم محمد بن إسحاق، يرون أن الفدائيين الخمسة كلهم اشتركوا مع قائدهم عبد الله بن عتيك ﷺ في القضاء على الطاغية اليهودي، وأن الذين أثبت أبا رافع وقضى عليه هو عبد الله بن أنيس ﷺ.

وكل أصحاب الكتب الستة والسير ـ ما عدا الإمام البخاري ـ يتفقون مع ابن إسحاق في رأيه، إلا أن الإمام البخاري ـ مع اتفاقه مع أصحاب الكتب الستة وأصحاب السير في نجاح الفدائيين في مهمتهم ـ يختلف معهم في أمرين اثنين فقط، وهما:

(١) أنه روى أن قاتل أبي رافع هو قائد الفدائيين عبد الله بن عتيك، لا عبد الله بن أنيس.

(٢) لم يذكر أن بقية الفدائيين لم يدخلوا الحصن.

ورواية ابن إسحاق هي التي عليها الجمهور، ورواية البخاري أكثر تفصيلًا، وأدق في السياق عند وصف الحادث.

وقد يبدو لأول وهلة للقارئ أن هناك تناقضًا بين رواية البخاري وبين رواية ابن إسحاق وبقية أصحاب الكتب الستة حول سياقه قصة الفدائيين الخمسة.

غير أن الناظر بتأمل وتفحص يجد أن لا تناقض بين الروايتين، بل يجدانها قد اتفقتا حول عناصر القصة الأساسية، وأن ما يمكن اعتباره تباينًا بين الروايتين هو تصريح البخاري في روايته بأن قاتل أبي رافع هو قائد الفدائيين عبد الله بن عتيك ﷺ، وقول ابن إسحاق وبقية أصحاب الكتب الستة: أن قاتله هو عبد الله بن أنيس ﷺ، لا عبد الله بن عتيك ﷺ.

وهذا إشكال يمكن حله بالقول أنه: يمكن أنه حصل التباس من الراوي، فأملى أن قاتل الطاغية هو عبد الله بن أنيس ﷺ (كما هو عند ابن إسحاق) بدلًا من اسم عبد الله بن عتيك ﷺ (كما هو عند البخاري)، لا سيما وأن هناك تشابهًا كبيرًا بين الاسمين.

نقول هذا لأننا نرجح رواية الإمام البخاري لا سيما وأنها جاءت في صحيحة الذي هو أصح كتاب بعد كتاب الله العزيز، وأن أسانيد بقية الروايات لا تصل إلى سند رواية البخاري من حيث القوة.

أما ما جاء في صحيح البخاري من أن ابن عتيك ﷺ قال لبقية رجاله: **ابقوا مكانكم حتى أنظر**، فليس فيه ما ينفي اشتراكهم معه في العملية، إذ يحتمل أنه بعد أن نظر وقام بالاستكشاف رجع وأخذهم معه كقائد مسؤول، وأنه كان يتحدث بلسان القائد الذي يُنسب إليه فعل كل شيء حتى وإن لم يكن هو الذي فعل كل شيء، كما أن عدم ذكر دور بقية الفدائيين في رواية البخاري لا ينفي اشتراكهم، إذ يحتمل أن يكونوا ظلوا كالحرس يحمون ظهر قائدهم حتى قام بالقضاء على أبي رافع، أما قول ابن عتيك (في رواية البخاري): **ثم أتيت أصحابي أحجل... إلخ**، فلا ينفي أيضًا اشتراكهم مع قائدهم في العملية إذ لا يستبعد أن يكونوا قد سبقوه فخرجوا قبله وتأخر هو بسبب ما حدث له من كسر في رجله؛ ولأن القائد عند الانسحاب عادة يكون آخر من ينسحب.

بهذا يتضح أنه لا تناقض ولا تباين يُذكر بين الروايتين كما قد يتسرب إلى بعض الأذهان».

[صلح الحديبية لباشميل ٨٧، ٩٣-٩٤].

ويقول د/ أبو فارس: «وقد يتوهم القارئ الكريم أن هناك تناقضًا بين رواية البخاري التي تقول بأن قاتل أبي رافع هو عبد الله بن عتيك ﷺ، وبين ورواية كتب السيرة الأخرى التي تقول: إن الضربة القاضية كانت من عبد الله بن أنيس، والحق أنه ليس كذلك؛ ذلك لأن عبد الله بن عتيك ﷺ يخبر عن نفسه، وأنه غلب على ظنه أنه هو القاتل، وأنه قد حكى عن دوره في ضرب اليهودي أبي رافع، ولا يعني هذا أن غيره لم يشارك في قتله، إذ لم ينف هو مشاركة غيره له في قتل أبي رافع، والروايات يفسر بعضها بعضًا، ويشرح بعضها بعضًا.

والروايات تذكر أن كل واحد من أفراد السرية كان يدعي أن ضربته هي القاضية والمميتة لأبي رافع، وقد نظر رسول الله ﷺ في دعواهم وفحص سيوفهم، وحكم بعد ذلك بأن الضربة القاضية كانت بسيف عبد الله بن أنيس ﷺ لظهور أثر الطعام عليه، أي أن هذا السيف قد دخل جوف أبي رافع ومزق أحشاءه، وقطع أمعاءه، وخلط غذاءه في جوفه». [**الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨٩**].

٢٨ ـ أثر مقتل ابن أبي الحقيق:

وبمقتل أبي رافع دب الرعب في قلوب يهود خيبر، وزالت عن طريق الإسلام عقبة كأداء طالما آذت المسلمين، وكان مقتله كتمهيد لفتح خيبر. [**السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١٠٣**].

٢٩ ـ فوائد ذكرها الإمام ابن حجر:

قال ابن حجر: «وَفِي هَذَا الحَدِيثِ مِنَ الفَوَائِدِ:

(١) جَوَازُ اغْتِيَالِ الْمُشْرِكِ الَّذِي بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ وَأَصَرَّ (على الكفر).

(٢) وَقَتْلُ مَنْ أَعَانَ عَلَى رَسُول الله ﷺ بِيَدِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ لِسَانِهِ.

(٣) وَجَوَازُ التَّجسِيسِ عَلَى أَهْلِ الحَرْبِ [الْمُشْرِكِينَ] وَتَطَلُّبُ غِرَّتِهِمْ.

(٤) وَالأَخْذُ بِالشِّدَّةِ فِي مُحَارَبَةِ الْمُشْرِكِينَ.

(٥) وَجَوَازُ إِبْهَامِ القَوْلِ لِلمَصْلَحَةِ.

(٦) وَتَعَرُّضِ القَلِيلِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لِلكَثِيرِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ.

(٧) وَالحُكْمُ بِالدَّلِيلِ وَالعَلَامَةِ لِاسْتِدْلَالِ اِبْنِ عَتِيكٍ عَلَى أَبِي رَافِعٍ بِصَوْتِهِ، وَاعْتِمَادِهِ عَلَى صَوْتِ النَّاعِي بِمَوْتِهِ، وَاَللهُ أَعْلَمُ.

(٨) وَجَوَازُ اغْتِيَالِ ذَوِي الأَذِيَّةِ البَالِغَةِ مِنْهُمْ، وَكَانَ أَبُو رَافِعٍ يُعَادِي رَسُولَ الله ﷺ وَيُؤَلِّبُ عَلَيْهِ النَّاسَ.

(٩) وَيُؤْخَذ مِنْهُ جَوَازُ قَتْلِ الْمُشْرِكِ بِغَيْرِ دَعْوَةٍ إِنْ كَانَ قَدْ بَلَغَتْهُ الدَّعْوَةُ قَبْلَ ذَلِكَ.

(١٠) وَأَمَّا قَتْلُهُ إِذَا كَانَ نَائِمًا فَمَحَلُّهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مُسْتَمِرٌّ عَلَى كُفْرِهِ، وَأَنَّهُ قَدْ يَئِسَ مِنْ فَلَاحِهِ، وَطَرِيقُ العِلم بِذَلِكَ إِمَّا بِالوَحْيِ وَإِمَّا بِالقَرَائِنِ الدَّالَّة عَلَى ذَلِكَ.

[**فتح الباري كتاب المغازي ٧/ ٤٠٠، وكتاب الجهاد والسير ٦/ ١٨٠**].

٣٠ ـ دروس سبق تفصيلها:

ينظر الدروس المستفادة من سرية محمد بن مسلمة ﷺ لقتل ابن الأشرف، وسرية ابن أنيس ﷺ لقتل خالد الهذلي، وسرية الضمري ﷺ لقتل أبي سفيان في مجموعة (غزوة أحد).

الفصل الثاني
سَرِيَّةُ مُحَمَّدٍ بْنِ مَسْلَمَةَ ﷺ إِلَى نَجْدٍ وَأَسْرُ ثُمَامَةِ بْنِ أُثَالٍ وَإِسْلامُهِ ﷺ

الاثنين ١٠ من المحرم ٦هـ/١ يونيه (حزيران) ٦٢٧م/ ٧ بؤنه ٣٤٣ قبطي

المبحث الأول
عرض سَرِيَّةِ مُحَمَّدٍ بْنِ مَسْلَمَةَ ﷺ إِلَى نَجْدٍ

تاريخ السرية:

قال الواقدي: حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ إِلْيَاسَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مَحْمُودٍ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ: خَرَجْتُ فِي عَشْرِ لَيَالٍ خَلَوْنَ مِنَ الـمُحَرَّمِ، فَغِبْتُ تِسْعَ عَشْرَةَ، وَقَدِمْتُ لِلَيْلَةٍ بَقِيَتْ مِنَ الـمُحَرَّمِ عَلَى رَأْسِ خَمْسَةٍ وَخَمْسِينَ شَهْرًا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٤].

سبب السرية:

يقول أ/ باشميل :«كانت العشائر النجدية من أجرأ العناصر البدوية الوثنية على المسلمين؛ لأن النجديين أهل قوة وبأس وعدد غامر، وقد رأينا كيف أن العمود الفقري لقوات الأحزاب الضاربة، كان من هذه القبائل النجدية حيث كان رجال هذه القبائل الشرسة يشكلون الأغلبية الساحقة من تلك القوة الضاربة: ستة آلاف مقاتل من غطفان وأشجع وأسلم وفزارة وأسد، كانت ضمن الجيوش التي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين، فحاصروا أهل المدينة.

ولهذا فإن أول حملة عسكرية وجهها النبي ﷺ لتأديب خصومه بعد انتصاره الساحق في غزة الخندق وبني قريظة، وهي تلك الحملة التي جردها على القبائل النجدية من بني بكر بن كلاب (بكر بن كلاب من قبائل نجد العظيمة، قال في معجم قبائل العرب: وهي من قيس عيلان من العدنانية، بلادها واسعة، فيها كثير من الجبال والمياه)، الذين كانوا يقطنون القرطاء (بطن من بني بكر. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٢/ ١٧٣)، بناحية ضريَّة (قال ابن بليهد في (صحيح الأخبار): ضرية ـ بالفتح ثم الكسر وياء مشددة قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة من نجد)، على مسافة سبع ليال من المدينة.

ففي أوائل شهر المحرم عام ست للهجرة ـ وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة ـ وجَّه النبي ﷺ إلى هؤلاء الأعراب حملة تأديبية بقيادة رئيس حرسه الخاص محمد بن مسلمة الأنصاري ﷺ، وكان عدد قوات هذه الحملة ثلاثين راكبًا فقط.

ويظهر أن النبي ﷺ أمر قائد هذه الحملة أن لا يتعرض لنساء بني كلاب بالسبي إذا ما ظفر بهم في حملته». [صلح الحديبية لباشميل ٢٢-٢٣].

أحداث السرية:

قال الواقدي: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَنَسٍ الظَّفَرِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ سَعْدٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مَحْمُودٍ زَادَ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ فِي الْحَدِيثِ قَالَا: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ﷺ فِي ثَلَاثِينَ رَجُلًا، فِيهِمْ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ، وَسَلَمَةُ بْنُ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ، وَالْحَارِثُ بْنُ خَزَمَةَ ﷺ إِلَى بَنِي بَكْرِ بْنِ كِلَابٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَسِيرَ اللَّيْلَ وَيَكْمُنَ النَّهَارَ، وَأَنْ يَشُنَّ عَلَيْهِمِ الْغَارَةَ، فَكَانَ مُحَمَّدٌ يَسِيرُ اللَّيْلَ وَيَكْمُنُ النَّهَارَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالشَّرَبَةِ (موضع بين السليلة والربذة، وقيل: هي فيما بين نخل ومعدن بني سليم. وفاء الوفا ٢/ ٣٢٨) لَقِيَ ظُعُنًا، فَأَرْسَلَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْأَلُ مَنْ هُمْ، فَذَهَبَ الرَّسُولُ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: قَوْمٌ مِنْ مُحَارِبٍ، فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنْهُ وَحَلُّوا وَرَوَّحُوا مَاشِيَتَهُمْ، فَأَمْهَلَهُمْ حَتَّى إِذَا ظَعَنُوا أَغَارَ عَلَيْهِمْ، فَقَتَلَ نَفَرًا مِنْهُمْ، وَهَرَبَ سَائِرُهُمْ، فَلَمْ يَطْلُبْ مَنْ هَرَبَ، وَاسْتَاقَ نَعَمًا وَشَاءً، وَلَمْ يَعْرِضْ لِلظُّعُنِ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِمَوْضِعٍ يُطْلِعُهُ عَلَى بَنِي بَكْرٍ بَعَثَ عَبَّادَ بْنَ بِشْرٍ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَأَوْفَى عَلَى الْحَاضِرِ، فَأَقَامَ فَلَمَّا رَوَّحُوا مَاشِيَتَهُمْ وَحَلَبُوا وَعَطَّنُوا (**عطنت الإبل**: رويت ثم بركت)، جَاءَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ فَأَخْبَرَهُ، فَخَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ فَشَنَّ عَلَيْهِمْ الْغَارَةَ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ عَشَرَةً، وَاسْتَاقُوا النَّعَمَ وَالشَّاءَ، ثم انحدروا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَا أَصْبَحَ حِينَ أَصْبَحَ إِلَّا بِضَرِيَّةَ (قال ابن سعد: إن ضرية على سبع ليال من المدينة. الطبقات ٢/ ٥٦) مَسِيرَةَ لَيْلَةٍ أَوْ لَيْلَتَيْنِ، ثُمَّ حَدَرْنَا النَّعَمَ، وَخِفْنَا الطَّلَبَ، وَطَرَدْنَا الشَّاءَ أَشَدَّ الطَّرْدِ، فَكَانَتْ تَجْرِي مَعَنَا كَأَنَّهَا الْخَيْلُ، حَتَّى بَلَغْنَا الْعَدَاسَةَ، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا الشَّاءُ بِالرَّبَذَةِ (قرية بنجد من عمل المدينة على ثلاثة أيام منها، وقيل أربعة أيام. وفاء الوفا ٢/ ٢٢٧)، فَخَلَّفْنَاهُ مَعَ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِي يَقْصِدُونَ بِهِ، وَطُرِدَ النَّعَمُ فَقُدِمَ بِهِ الْمَدِينَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ مُحَمَّدٌ يَقُولُ: خَرَجْت مِنْ ضَرِيَّةَ، فَمَا رَكِبْتُ خُطْوَةً حَتَّى وَرَدْتُ بَطْنَ نَخْلٍ (مكان على يومين من المدينة. وفاء الوفاء ٢/ ٣٨١)، فَقُدِمَ بِالنَّعَمِ خَمْسِينَ وَمِائَةَ بَعِيرٍ وَالشَّاءِ، وَهِيَ ثَلَاثَةُ آلَافِ شَاةٍ، فَلَمَّا قَدِمْنَا خَمَّسَهُ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ فَضَّ عَلَى أَصْحَابِهِ مَا بَقِيَ، فَعَدَلُوا الْجُزُورَ بِعَشْرٍ مِنْ الْغَنَمِ، فَأَصَابَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٤-٥٣٥].

أسر ثُمامَة بن أُثَال وإسلامه ﷺ:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ، فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ سَيِّدُ أَهْلِ الْيَمَامَةِ، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «**مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» (أي: ما الظن بي أن أفعل بك؟)، فَقَالَ: **عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ، إِنْ تَقْتُلْ [تَقْتُلْنِي] تَقْتُلْ ذَا دَمٍ** [1] **[ذَا ذِمٍّ** (أي ذا ذمام وحرمة)**]، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ،**

---

(١) إن تقتل تقتل ذا دم: اختلفوا في معناه، فقال القاضي عياض في المشارق وأشار إليه في شرح مسلم معناه: إن تقتل تقتل صاحب دم لدمه موقع يشتفى بقتله قاتله ويدرك قاتله به ثأره، أي لرياسته وفضيلته، وحذف هذا لأنهم يفهمونه في عرفهم، وقال آخرون: معناه تقتل من عليه دم مطلوب به وهو مستحق عليه فلا عتب عليك في قتله.

فَتَرَكَهُ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» قَالَ: **مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ [تَقْتُلْنِي] تَقْتُلْ ذَا دَم [ذَا ذِمٍّ]، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ**، فَتَرَكَهُ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى كَانَ مِنَ الْغَدِ، فَقَالَ: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: **عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ [تَقْتُلْنِي] تَقْتُلْ ذَا دَم [ذَا ذِمٍّ]، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ المَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**»، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ المَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ المَسْجِدَ، فَقَالَ: **أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ! وَاللهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلادِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟** فَبَشَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: **أَصَبَوْتَ؟** (هكذا هو في الأصول أصبوت، وهي لغة، والمشهور أصبأت بالهمز، وعلى الأول جاء قولهم الصباة كقاض وقضاة، والمعنى: أخرجت من دينك)، فَقَالَ: **لا، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، وَلا وَاللهِ لا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ (قمح) حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ**. [البخاري في المغازي (٤٣٧٢)، وفي الصلاة (٤٦٢، ٤٦٩)، وفي الخصومات (٢٤٢٣، ٢٤٢٢)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٧٩)، والسنن الكبرى للنسائي ذكر ما ينقض الوضوء ولا ينقضه، غسل الكافر إذا أسلم (١٩٠)، وصحيح ابن خزيمة في الوضوء (٢٥٥)، والسنن الصغير للبيهقي في السير (٢٨٤٦)، ومسند أحمد ١٥/ ٥١٧ رقم ٩٨٣٣].

وقال الإمام البيهقي: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ يُوسُفَ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ قُتَيْبَةَ، كِلَاهُمَا عَنِ اللَّيْثِ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ هَكَذَا، وَخَالَفَهُمَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ، عَنِ الْمَقْبُرِيِّ فِي كَيْفِيَّةِ أَخْذِهِ، وَذَكَرَ أَوَّلًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ أَنَّ ثُمَامَةَ بْنَ أُثَالٍ كَانَ رَسُولَ مُسَيْلِمَةَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، **فَدَعَا اللهَ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْهُ**.

ثُمَّ رُوِيَ عَنِ الْمَقْبُرِيِّ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الْحَافِظُ ،وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ مُوسَى بْنِ الْمُفَضَّلِ قَالَا: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ بُكَيْرٍ، عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدٌ الْمَقْبُرِيُّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: كَانَ إِسْلَامُ ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ الْحَنَفِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ دَعَا اللهَ حِينَ عَرَضَ لِرَسُولِ الله ﷺ بِمَا عَرَضَ لَهُ أَنْ يُمَكِّنَهُ اللهُ مِنْهُ، وَكَانَ عَرَضَ لَهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ فَأَرَادَ قَتْلَهُ، فَأَقْبَلَ ثُمَامَةُ مُعْتَمِرًا وَهُوَ عَلَى شِرْكِهِ، حَتَّى دَخَلَ المَدِينَةَ فَتَحَيَّرَ فِيهَا، حَتَّى أُخِذَ، فَأُتِيَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ مُشْرِكٌ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُبِطَ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِ المَسْجِدِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ: «**مَا لَكَ يَا ثُمَامُ؟ هَلْ أَمْكَنَ اللهُ مِنْكَ؟**» فَقَالَ: **قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَعْفُ تَعْفُ عَنْ شَاكِرٍ، وَإِنْ تَسْأَلْ مَالًا تُعْطَهْ**، فَمَضَى رَسُولُ الله ﷺ وَتَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ مَرَّ بِهِ فَقَالَ: «**مَا لَكَ يَا ثُمَامُ؟**»، فَقَالَ: **خَيْرًا يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَعْفُ تَعْفُ عَنْ شَاكِرٍ، وَإِنْ تَسْأَلْ مَالًا تُعْطَهْ**، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ رَسُولُ الله ﷺ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: فَجَعَلْنَا [نحن] الـمَسَاكِينَ نَقُولُ بَيْنَنَا: مَا يَصْنَعُ بِدَمِ ثُمَامَةَ، وَاللهِ لَأَكْلَةٌ مِنْ جَزُورٍ سَمِينَةٍ مِنْ فِدَائِهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دَمِ ثُمَامَةَ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، مَرَّ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مَا لَكَ يَا ثُمَامُ؟**»، فَقَالَ: **خَيْرًا يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَعْفُ تَعْفُ عَنْ شَاكِرٍ، وَإِنْ تَسْأَلْ مَالًا تُعْطَهْ**، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَفَوْتُ عَنْكَ يَا ثُمَامُ**»، فَخَرَجَ ثُمَامَةُ حَتَّى أَتَى حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ فَاغْتَسَلَ بِهِ وَتَطَهَّرَ، وَطَهَّرَ ثِيَابَهُ، ثُمَّ جَاءَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ فِي أَصْحَابِهِ فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ، وَاللهِ لَقَدْ كُنْتَ وَمَا وَجْهٌ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، وَلَا دِينٌ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، وَلَا بَلَدٌ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، ثُمَّ لَقَدْ أَصْبَحْتُ، وَمَا وَجْهٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، وَلَا دِينٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، وَلَا بَلَدٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يا رسول الله، إِنِّي كُنْتُ خَرَجْتُ مُعْتَمِرًا، وَأَنَا عَلَى دِينِ قَوْمِي، فَيَسِّرْنِي [فَبَشِّرْنِي] صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ فِي عُمْرَتِي**، فَيَسَّرَهُ [فَبَشَّرَهُ] رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عُمْرَتِهِ وَعَلَّمَهُ، فَخَرَجَ مُعْتَمِرًا.

فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ وَسَمِعَتْهُ قُرَيْشٌ يَتَكَلَّمُ بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ مِنَ الْإِسْلَامِ قَالُوا: صَبَأَ ثُمَامَةُ، فَأَغْضَبُوهُ فَقَالَ: **إِنِّي وَاللهِ مَا صَبَوْتُ وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ، وَصَدَّقْتُ مُحَمَّدًا، وَآمَنْتُ بِهِ، وَايْمُ الَّذِي نَفْسُ ثُمَامَةَ بِيَدِهِ، لَا تَأْتِيكُمْ حَبَّةٌ مِنَ الْيَمَامَةِ - وَكَانَتْ رِيفَ مَكَّةَ - مَا بَقِيتُ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا مُحَمَّدٌ ﷺ**.

وَانْصَرَفَ إِلَى بَلَدِهِ، وَمَنَعَ الْحَمْلَ إِلَى مَكَّةَ، حَتَّى جَهِدَتْ قُرَيْشٌ، فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ بِأَرْحَامِهِمْ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى ثُمَامَةَ يُخَلِّي [إِلَيْهِمْ] حَمْلَ الطَّعَامِ، فَفَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. [السنن الكبرى للبيهقي في السير (١٦٥٣٥). حديث صحيح وسنده جيد. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٤٤٥].

وقال الإمام البيهقي: وأَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ الْفَقِيهُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو حَامِدِ بْنُ بِلَالٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، قَالَ: حَدَّثَنَا النُّفَيْلِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، قَالَ: فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيُّ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ - يَعْنِي ثُمَامَةَ - فَرُبِطَ بِعَمُودٍ مِنْ عَمَدِ الْحُجْرَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ. فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِمَعْنَاهُ.

وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ تُوهِمُ أَنْ يَكُونَ صَدْرُ الْحَدِيثِ فِي رِوَايَةِ يُونُسَ بْنِ بُكَيْرٍ مِنْ قَوْلِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ شُيُوخِهِ، وَرِوَايَةُ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَمَنْ تَابَعَهُ أَصَحُّ فِي كَيْفِيَّةِ أَخْذِهِ وَالَّذِي رُوِيَ فِي حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ مِنْ قَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ وَغَيْرِهِ فِي إِرَادَةِ فِدَائِهِ يَدُلُّ عَلَى شُهُودِ أَبِي هُرَيْرَةَ ذَلِكَ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ إِنَّمَا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِخَيْبَرَ فَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ قِصَّةُ ثُمَامَةَ فِيمَا بَيْنَ خَيْبَرَ وَفَتْحِ مَكَّةَ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو قُتَيْبَةَ: سَلَمَةُ بْنُ الْفَضْلِ الْآدَمِيُّ بِمَكَّةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَاشِمٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدٍ الرَّازِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو ثميلة يَحْيَى بْنُ وَاضِحٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ خَالِدٍ الْحَنَفِيُّ، عَنْ عَلْبَاءَ بْنِ أَحْمَرَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ ابْنَ أُثَالٍ الْحَنَفِيَّ لَـمَّا أُتِيَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ أَسِيرٌ خَلَّى سَبِيلَهُ، فَأَسْلَمَ فَلَحِقَ بِمَكَّةَ، يَعْنِي ثُمَّ رَجَعَ فَحَالَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ وَبَيْنَ الْمِيرَةِ مِنَ الْيَمَامَةِ، حَتَّى أَكَلَتْ قُرَيْشٌ الْعِلْهِزَ (شيء كانوا يتخذونه في سني المجاعة، يخلطون فيه الدم بأوبار الإبل، ثم

يشوونه بالنار ويأكلونه)، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: **أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ بُعِثْتَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ؟** قَالَ: «بَلَى»، قَالَ: **فَقَدْ قَتَلْتَ الْآبَاءَ بِالسَّيْفِ وَالْأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ**، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون]. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٨١، وقال الشيخ الصوياني: حسن وسنده ضعيف. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٤٤٥].

وقال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ ابْنِ عَجْلَانَ، عَنْ سَعِيدٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ - إِنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ قَالَ سُفْيَانُ: الَّذِي سَمِعْنَاهُ مِنْهُ عَنِ ابْنِ عَجْلَانَ، لَا أَدْرِي عَمَّنْ سُئِلَ سُفْيَانُ: عَنْ ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ؟ فَقَالَ -: كَانَ الْمُسْلِمُونَ أَسَرُوهُ، أَخَذُوهُ، فَكَانَ إِذَا مَرَّ بِهِ قَالَ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» قَالَ: **إِنْ تَقْتُلْ، تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ، تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تُرِدْ مَالًا، تُعْطَ مَالًا**، قَالَ: فَكَانَ إِذَا مَرَّ بِهِ قَالَ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» قَالَ: **إِنْ تُنْعِمْ، تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ، تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُرِدِ الْمَالَ، تُعْطَ الْمَالَ**، قَالَ: فَبَدَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَطْلَقَهُ، وَقَذَفَ اللهُ ﷻ فِي قَلْبِهِ، قَالَ: فَذَهَبُوا بِهِ إِلَى بِئْرِ الْأَنْصَارِ، فَغَسَلُوهُ، فَأَسْلَمَ، فَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ! أَمْسَيْتَ وَإِنَّ وَجْهَكَ كَانَ أَبْغَضَ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَدِينَكَ أَبْغَضَ الدِّينِ إِلَيَّ، وَبَلَدَكَ أَبْغَضَ الْبُلْدَانِ إِلَيَّ، فَأَصْبَحْتَ، وَإِنَّ دِينَكَ أَحَبُّ الْأَدْيَانِ إِلَيَّ، وَوَجْهَكَ أَحَبُّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، لَا يَأْتِي قُرَشِيًّا حَبَّةٌ مِنَ الْيَمَامَةِ**، حَتَّى قَالَ عُمَرُ: «**لَقَدْ كَانَ وَاللهِ، فِي عَيْنِي أَصْغَرَ مِنَ الْخِنْزِيرِ، وَإِنَّهُ فِي عَيْنِي أَعْظَمُ مِنَ الْجَبَلِ، خَلَّى عَنْهُ، فَأَتَى الْيَمَامَةَ، حَبَسَ عَنْهُمْ، فَضَجُّوا وَضَجِرُوا، فَكَتَبُوا: تَأْمُرُ بِالصِّلَةِ؟ قَالَ: وَكَتَبَ إِلَيْهِ**».

[مسند أحمد ١٢/ ٣١٧ عن أبي هريرة ﷺ رقم ٧٣٦١، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده قوي].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ ثُمَامَةَ الْحَنَفِيَّ أُسِرَ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَغْدُو إِلَيْهِ فَيَقُولُ: «**مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» فَيَقُولُ: **إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَمُنَّ تَمُنَّ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تُرِدْ الْمَالَ نُعْطِكَ مِنْهُ مَا شِئْتَ**، وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ يُحِبُّونَ الْفِدَاءَ وَيَقُولُونَ: مَا يُصْنَعُ بِقَتْلِ هَذَا؟ فَمَنَّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا فَأَسْلَمَ، فَحَلَّهُ وَبَعَثَ بِهِ إِلَى حَائِطِ أَبِي طَلْحَةَ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَغْتَسِلَ فَاغْتَسَلَ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَقَدْ حَسُنَ إِسْلَامُ أَخِيكُمْ**».

[صحيح ابن خزيمة في الوضوء (٢٥٦)، والسنن الصغير للبيهقي (١١١)، ومصنف عبد الرزاق كتاب أهل الكتاب (٩٥٥١)، وكتاب أهل الكتابين (١٩٠١٦)].

وعَنْ أَبِي هَرِيرَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: خَرَجَتْ خَيْلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخَذَتْ رَجُلًا مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، لَا يَشْعُرُونَ مَنْ هُوَ حَتَّى أَتَوْا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَنْ أَخَذْتُمْ؟**» [قَالُوا: لَا وَاللهِ يا رسول الله،] قَالَ: «**هَذَا ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ الْحَنَفِيُّ، [هَذَا سَيِّدُ حَنِيفَةَ وَفَارِسُهَا - وَكَانَ رَجُلًا عَلِيلًا -] أَحْسِنُوا إِسَارَهُ**»، وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ: «**اجْمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ مِنْ طَعَامٍ فَابْعَثُوا بِهِ إِلَيْهِ**»، وَأَمَرَ بِلَقْحَتِهِ (اللقحة: واحدة اللقاح من الإبل، وهي الناقة التي لها لبن) أَنْ يُغْدَى (من الغَدْوَة: المرَّة من الغُدُوِّ وهو سير أول النهار نَقِيض الرَّواح، وقد غدا يَغْدُو غُدُوًّا، والغُدْوة بالضم: ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس. النهاية ٣/ ٣٤٦) عَلَيْهِ بِهَا وَيُرَاحُ (يقال: راح القومُ وتَرَوَّحُوا إذا سارُوا أيَّ وقْت كانَ، وقيل: أصْل الرَّواح أن يكونَ بعد الزوال. النهاية

٢/ ٢٧٣)، فَجَعَلَ لَا يَقَعُ مِنْ ثُمَامَةَ مَوْقِعًا، وَيَأْتِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيَقُولُ: «**أَسْلِمْ يَا ثُمَامَةُ**» [«**إِيهًا يَا ثُمَامَةُ**»]، فَيَقُولُ: **إِيهًا يَا مُحَمَّدُ! إِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُرِدْ الْفِدَاءَ فَسَلْ [مَالًا] مَا شِئْتَ**، فَمَكَثَ [فَلَبِثَ] مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ [يَلْبَثَ]، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا: «**أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ**»، فَلَمَّا أَطْلَقُوهُ خَرَجَ حَتَّى أَتَى الْبَقِيعَ [الصَّوْرَيْنِ]، فَتَطَهَّرَ فَأَحْسَنَ طُهُورَهُ ثُمَّ أَقْبَلَ فَبَايَعَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا أَمْسَى جَاؤُوهُ بِمَا كَانُوا يَأْتُونَهُ مِنَ الطَّعَامِ فَلَمْ يَنَلْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا، وَبِاللَّقْحَةِ فَلَمْ يُصِبْ مِنْ حِلَابِهَا إِلَّا يَسِيرًا، فَعَجِبَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ: «**مِمَّ تَعْجَبُونَ؟ أَمِنْ رَجُلٍ أَكَلَ أَوَّلَ النَّهَارِ فِي مِعَى [مِعَاءِ] كَافِرٍ، وَأَكَلَ آخِرَ النَّهَارِ فِي مِعَى [مِعَاءِ] مُسْلِمٍ، إِنَّ الْكَافِرَ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ، وَإِنَّ الْمُسْلِمَ يَأْكُلُ فِي مِعًى [مِعَاءٍ] وَاحِدٍ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣٨-٦٣٩، وتاريخ المدينة المنورة لابن شبة ٢/ ٤٣٦-٤٣٧].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فَبَلَغَنِي أَنَّهُ خَرَجَ مُعْتَمِرًا، حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَطْنِ مَكَّةَ لَبَّى، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ مَكَّةَ يُلَبِّي، فَأَخَذَتْهُ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: لَقَدْ اخْتَرْتَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا قَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: دَعُوهُ، فَإِنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى الْيَمَامَةِ لِطَعَامِكُمْ، فَخَلُّوهُ، فَقَالَ الْحَنَفِيُّ فِي ذَلِكَ:

وَمِنَّا الَّذِي لَبَّى بِمَكَّةَ مُعْلِنًا ... بِرَغْمِ أَبِي سُفْيَانَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمْ

وَحُدِّثْتُ أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ أَسْلَمَ: لَقَدْ كَانَ وَجْهُكَ أَبْغَضَ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَلَقَدْ أَصْبَحَ وَهُوَ أَحَبُّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَقَالَ فِي الدِّينِ وَالْبِلَادِ مِثْلَ ذَلِكَ.

ثُمَّ خَرَجَ مُعْتَمِرًا، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، قَالُوا: أَصَبَوْتَ يَا ثُمَامُ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُ خَيْرَ الدِّينِ دِينَ مُحَمَّدٍ، وَلَا وَاللهِ لَا تَصِلُ إِلَيْكُمْ حَبَّةٌ مِنْ الْيَمَامَةِ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْيَمَامَةِ، فَمَنَعَهُمْ أَنْ يَحْمِلُوا إِلَى مَكَّةَ شَيْئًا، فَكَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: إِنَّكَ تَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّكَ قَدْ قَطَعْتَ أَرْحَامَنَا، وَقَدْ قَتَلْتَ الْآبَاءَ بِالسَّيْفِ، وَالْأَبْنَاءَ بِالْجُوعِ، فَكَتَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَمْلِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣٩].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ الْحَنَفِيِّ يُؤْتَى بِهِ ـ قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: فَأَخْبَرَنِي جَعْفَرٌ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ، أَصَابَهُ بِنَخْلَةٍ فَأَسَرَهُ وَجَاءَ بِهِ ـ ثُمَّ رَجَعَ حَدِيثُ ابْنِ غَزِيَّةَ قَالَ: فَرُبِطَ إِلَى سَارِيَةٍ فِي الْمَسْجِدِ ـ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي حَدِيثِهِ: إِلَى السَّارِيَةِ الَّتِي ارْتَبَطَ إِلَيْهَا أَبُو لُبَابَةَ ـ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَجَدَهُ فَقَالَ: «**يَا ثُمَامُ، مَا تَظُنُّ أَنِّي فَاعِلٌ بِكَ؟**» قَالَ: **إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تَسَلْ مَالًا تُعْطَهْ**، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: **اللَّهُمَّ أَعَلِّقْ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ الْفِدَاءَ، فَوَاللهِ لَأَكْلَةٌ مِنْ لَحْمِ جَزُورٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ دَمِ ثُمَامَةَ**، ثُمَّ مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ رَائِحًا فَأَعَادَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ الْأَوَّلَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا قَالَ لَهُ، ثُمَّ أَعَادَ ذَلِكَ الثَّالِثَةَ فَرَدَّ عَلَيْهِ جَوَابَهُ الْأَوَّلَ، فَجَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَطْلَقَهُ، فَخَرَجَ ثُمَامَةُ إِلَى الْمَنَاصِعِ فَاغْتَسَلَ وَرَحَضَ ثَوْبَيْهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ

حَتَّى وَقَفَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: **أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**، ثُمَّ كَتَبَ أَبُو ثُمَامَةَ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَرْبٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ مَادَّةُ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ قِبَلِ الْيَمَامَةِ: **أَمَ وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، لَا يَأْتِيَنَّكُمْ طَعَامٌ وَلَا حَبَّةٌ مِنْ قِبَلِ الْيَمَامَةِ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ**، فَأَضَرَّ ذَلِكَ بِأَهْلِ مَكَّةَ حَتَّى كَتَبُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُمْ حَرْبٌ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَكَتَبَ إِلَى أَبِي ثُمَامَةَ، أَنْ لَا تَقْطَعْ عَنْهُمْ مَوَادَّهُمُ الَّتِي كَانَتْ تَأْتِيهِمْ، فَفَعَلَ». [تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ٢/ ٤٣٨-٤٣٩].

وقال الإمام ابن شبة: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ حَاتِمٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بنُ ثَابِتٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا عِكْرِمَةُ بنُ عَمَّارٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بنُ عَبَيْدِ بنِ عُمَيْرٍ وَأَبُو زَمِيلٍ: أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ أَخَذُوا ثُمَامَةَ وَهُوَ طَلِيقٌ، وَأَخَذُوهُ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَغْزُو بَنِي قُشَيْرٍ، فَجَاؤُوا بِهِ أَسِيرًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُوثَقٌ، فَأَمَر بِهِ فَسُجِنَ، فَحَبَسَهُ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فِي السِّجْنِ ثُمَّ أَخْرَجَهُ فَقَالَ: «**يَا ثُمَامَةُ إِنِّي فَاعِلٌ بِكَ إِحْدَى ثَلَاثٍ، إِنِّي قَاتِلُكَ، أَوْ تَفْدِي نَفْسَكَ، أَوْ نَعْتِقُكَ**»، قَالَ: إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ سَيِّدَ قَوْمِهِ، وَإِنْ تُفَادِي فَلَكَ مَا شِئْتَ، وَإِن تَعْتِقْنِي تَعْتِقْ شَاكِرًا، قَالَ: «**فَإِنِّي قَدْ أَعْتَقْتُكَ**» قَالَ: فَأَنَا عَلَى أَيِّ دِينٍ شِئْتُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**».

قَالَ: فَأَتَيْتُ الْمَرْأَةَ الَّتِي كَنْتُ مُوثَقًا عِنْدَهَا، فَقُلْتُ: كَيْفَ الإِسْلَامُ؟ فَأَمَرَتْ لِي بِصَحْفَةِ مَاءٍ فَاغْتَسَلْتُ، ثَمَّ عَلَّمَتْنِي مَا أَقُولُ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهَ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، ثَمَّ قَدِمْتُ مَكَّةَ فَقُلْتُ: يَا أَهْلَ مَكَّةَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا تَأْتِيكُمْ مِنَ اليَمَامَةِ تَمْرَةٌ وَلَا بُرَّةٌ أَبَدًا أَوْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَكَتَبَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَهُ بِاللهِ وَبِالرَّحِمِ أَنْ لَا يَحْبِسَ الطَّعَامَ عَنْ مَكَّةَ حَرَمَ اللهِ وَأَمْنِهِ، فَقَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فقَال: «**يَا ثُمَامَةُ لَا يَثْأَرُ الْمُسْلِمُ بِالْكَافِرِ، وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَمَنْ أَقَرَّ مِنْهُمْ بِالإِسْلَامِ وَاتَّبَعَكَ فَانطَلِقْ إِلَى بَنِي قُشَيْرٍ، وَلَا تُقَاتِلْهُمْ حَتَّى تَدْعُوَهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ بَايَعُوكَ حَرُمَتْ عَلَيْكَ دِمَاؤُهُمْ، وَإِنْ لَمْ يُبَايِعُوكَ فَقَاتِلْهُمْ**».

فَدَعَا قَوْمَهُ فَأَسْلَمُوا مَعَهُ، ثَمَّ غَزَا بَنِي قُشَيْرٍ فَثَأَرَ بِابْنِهِ. [تاريخ المدينة المنورة لابن شبة ٢/ ٤٣٧-٤٣٨].

العرض الأدبي للسرية [صور من جهاد الصحابة ﷺ للخالدي ١١٩-١٣٧]:

مجموعة محمد بن مسلمة الأنصاري ﷺ

تأسر ثمامة بن أُثال الحنفي سيد أهل اليمامة

ثمامة بن أثال يُعد الجيش لغزوة المدينة:

ثمامة بن أثال الحنفي زعيم بني حنيفة، وبنو حنيفة أشهر قبائل بني تميم الذين يقيمون في منطقة نجد شرق الجزيرة العربية.

وكان بنو حنيفة يقيمون في منطقة (اليمامة) المعروفة في نجد، وكان ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، يقر له أهل اليمامة بالسيادة والقيادة والمنزلة والزعامة! وكان ثمامة بن أثال كافرًا معاديًا لرسول الله ﷺ شديد

العداوة له حريصًا على حربه والقضاء عليه، وكان متحالفًا في ذلك مع زعماء قريش في مكة وصلته وثيقة بأبي سفيان زعيم مكة.

وكان بنو حنيفة يزرعون أرضهم في اليمامة قمحًا، وكان ثمامة يزوِّد قريشًا بحاجتهم من القمح كل عام! ولهذا كان تموين أهل مكة من الحب يأتيهم من بني حنيفة في اليمامة.

وكان ثمامة بن أثال يتابع أخبار رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة، وأخبار المعارك التي تدور بينهم وبين قريش، ويتألم لهزيمة حلفائه من قريش في معارك بدر وأُحد والخندق وغيرها، ويرى صعود أمر رسول الله ﷺ، والتمكين للإسلام والمسلمين، فيزعجه ذلك، ويزداد بُغضًا لرسول الله ﷺ، وكرهًا للإسلام والمسلمين، وحرصًا على قتالهم! وبعد معركة (الأحزاب) الفاصلة، التي أدت إلى هزيمة قريش ومَنْ معها من الأحزاب الكافرة، وانتصار المسلمين، ازداد ثمامة بُغضًا للنبي ﷺ وكرهًا للإسلام والمسلمين.

وخشي أن يصل الإسلام إلى قبيلته بني حنيفة في اليمامة، وأن يفكِّر رسول الله ﷺ بغزو بلاده وقتاله.

لذلك صمم هو على غزو المدينة، والقضاء على المسلمين فيها، وصار يعد العدة لذلك، ويجهز جيشًا من بني حنيفة وغيرهم لهذه الغاية، وهذا معناه أن ثمامة بن أثال قد أعلن الحرب على المسلمين، وصار من أعدائهم الذين يظهرون عداوتهم، ويعلنون الحرب عليهم! وعليه أن يتحمل نتائج ذلك؛ لأن هذا معناه أن المسلمين يعلنون الحرب عليه، ويهدرون دمه، وقد يجهزون جيشًا لقتاله في اليمامة، وقد يرسلون من يقتله وسط قومه!

علم رسول الله ﷺ بما يفعله ثمامة بن أثال، وانحيازه إلى جانب أعدائه، وتجهيزه الجيش لقتاله، فدعاء رسول الله ﷺ ربه أن يمكنه منه، وأن يريحه من شره، وقال: اللهم مكني من ثمامة بن أثال! ودعاء الرسول ﷺ مجاب، وإن الله ناصر دينه وعاصم رسوله ﷺ، وسيمكن رسوله ﷺ من ثمامة بحكمته سبحانه وسيهيئ الأسباب لذلك!

توجه مجموعة ابن مسلمة لبني بكر ولثمامة:

في محرم من السنة السادسة للهجرة، كلَّف رسول الله ﷺ عبد الله بن أنيس الأنصاري بالتوجه إلى سفيان بن خالد الهُذلي وقتلِه [1]؛ لأنه كان يعد العدة ويجهز لغزو المدينة، ونجح ابن أنيس ﷺ في ذلك على أرفع مستوى، كما مر معنا قبل قليل!

وفي محرم من السنة نفسها وجَّه رسول الله ﷺ مجموعة مجاهدة من الصحابة نحو ثمامة بن أثال؛ وذلك ليقضي على الخطرين المحدقين بالمدينة، خطر ابن نبيح في منطقة نخلة عند مكة، وخطر ابن أثال في منطقة اليمامة!

---

(١) سبق أن أوردتها بعد غزوة أُحُد، وهو الصواب في تاريخها كما سبق أن رجحته. غريب.

شكَّل رسول الله ﷺ مجموعة مجاهدة، مكونة من ثلاثين مجاهدًا، منهم: محمد بن مسلمة، وعباد بن بشر، وسلمة بن سلامة بن وقش ﷺ، وجعل محمد بن مسلمة ﷺ أميرًا على المجموعة، وأمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة ﷺ أن يتوجه بإخوانه جهة نجد، وأن يؤدب بني بكر بن كلاب، والذين كانوا يقيمون في المنطقة بين مكة ونجد، وكانوا يعلنون العداوة للمسلمين، ويتعرضوا إليهم بالأذى، وأن يصلوا إلى ثمامة بن أثال، ويحاولوا التمكن منه وأسره وإحضاره إلى المدينة!

وأمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة ﷺ بأن يأخذ جانب الحذر، ويحرص على أن لا يعلم الأعداء بهم؛ ولتحقيق ذلك أمره أن يسير في الليل حيث لا يراهم الناس، وأن يكمن بإخوانه في النهار، لئلا يراهم الناس!

ودَّع رسولُ الله ﷺ محمد بن مسلمة وإخوانه المجاهدين، وأوصاهم بتقوى الله، وسار ابن مسلمة ﷺ بإخوانه جهة نجد، قاصدًا بني بكر بن كلاب.

وصل ابن مسلمة ﷺ وإخوانه إلى هدفهم، ولما أشرفوا على مضارب بني بكر أرسل ابن مسلمة ﷺ عبَّاد بن بشر ﷺ ليستطلع الأمر، ويتعرف على الوضع.

راقب عباد بن بشر ﷺ مضارب القوم، ورآهم وقد روحوا ماشيتهم، ورووا إبلهم، وأَووا إلى خيامهم يستريحون، فعاد عباد مسرعًا إلى ابن مسلمة ﷺ يخبره الخبر.

علم ابن مسلمة ﷺ أن الفرصة مناسبة لمهاجمة بني بكر بن كلاب، فأصدر أمره لإخوانه المجاهدين الثلاثين بمهاجمة القوم!

مجموعة ابن مسلمة تهزم بني بكر وتنتظر ثمامة:

وما هي إلا لحظات، حتى فوجئ بنو بكر بالمجاهدين ينقضون عليهم مهاجمين محاربين، ونشبت معركة قصيرة سريعة، نتج عنها مقتل عشرة من بني بكر، وهروب الباقين، مخلِّفين وراءهم ماشيتهم وأنعامهم ودوابهم.

وأمر ابن مسلمة ﷺ إخوانه المجاهدين أن يستاقوا أمامهم الماشية والأنعام، وأن يتوجهوا بها غنيمة نحو المدينة! وبعد أن حقق ابن مسلمة ﷺ المرحلة الأولى من مهمته الجهادية بنجاح وتوفيق من الله، بقي عليه أن يحقق المرحلة الثانية، وهي محاولة التمكن من ثمامة بن أثال.

كان ثمامة وسط قومه بني حنيفة في اليمامة، يمني نفسه بغزو المدينة، واليمامة ما زالت أمام ابن مسلمة وإخوانه! لأن بني بكر المهزومين على الطريق بين اليمامة ومكة.

فكيف يتصرف ابن مسلمة ﷺ! لقد غنموا أعدادًا كثيرة من ماشية وأنعام بني بكر، وسوقها معهم نحو اليمامة مستحيل؛ لأن الرسول ﷺ أمرهم بالحذر، والسير في الليل والكمون في النهار! وهذا لا يتحقق مع وجود الماشية!

هل يبقون الماشية في موقعها لحين عودتهم من اليمامة؟ هل يكلف مجموعة من إخوانه بسوق الماشية إلى المدينة، ويسير هو بمجموعة أخرى نحو ثمامة في اليمامة؟

وبينما كان ابن مسلمة ﷺ يقلب وجوه النظر مع إخوانه، ساق الله لهم ما لم يكن لهم بالحسبان!

ساق لهم ثمامة بن أثال سوقًا وأحضره لهم إحضارًا، وأتى به إليهم!

توجه ثمامة لأداء العمرة والتحالف مع قريش:

ترك ثمامة بن أثال رجاله وجنوده من بني حنيفة وغيرهم في اليمامة، يتأهبون لغزو المدينة، وطلب منهم أن يتريثوا قليلًا، وأن ينتظروه لحين عودته من مكة.

توجه ثمامة بن أثال وحده من اليمامة إلى مكة، بهدف أداء العمرة! ومعلوم أن الكفار في الجاهلية كانوا يتوجهون إلى بيت الله الحرام حاجين أو معتمرين، وهذا ورثوه عن دين إبراهيم ﷺ.

أراد ثمامة بن أثال أداء العمرة! ولعل هدفه من ذلك أن ينال بركات (الرب)، وتوفيقه فيما هو مُقدم عليه، من غزو رسول الله ﷺ بعد الانتهاء من العمرة! ولعله أراد الاجتماع بزعماء قريش بعد أدائه العمرة، وتنسيق الأمر معهم فيما هو مقدم عليه من غزو المدينة!

المهم أنه غادرَ (اليمامة) وحيدًا متوجهًا إلى مكة!

وهو سيمر في طريقه على مضارب بني بكر بن كلاب؛ لأنهم على الطريق بين اليمامة ومكة.

سار ثمامة بن أثال في طريقه وحيدًا، وهو لا يدري ما الذي ينتظره في الطريق!

مجموعة ابن مسلمة تأسر ثمامة وتأخذه إلى المدينة:

لا يدري ابن أثال أن محمد بن مسلمة ﷺ في الطريق، ومعه ثلاثون من إخوانه المجاهدين! لا يدري أن المجاهدين قضوا على بني بكر، وأقاموا مكانهم فترة من الزمان قبل عودتهم بالماشية إلى المدينة!

ولعل ثمامة بن أثال كان يفكر في المعركة القادمة التي ستكون بينه وبين الرسول ﷺ بعد عودته من العمرة، وكان يمني نفسه بالانتصار فيها، ويتخيل انتصاره وقتله للمسلمين، وأخذه الأسرى منهم.

ووصل إلى مضارب بني بكر بن كلاب! وفوجئ بما يرى.

وجد نفسه في قبضة ابن مسلمة ﷺ وإخوانه المجاهدين ﷺ!

رأوه قادمًا من بعيد، ولما وصلهم أحاطوا به، وألقوا القبض عليه، ولما تحققوا من هويته فوجئوا بذلك، وشكروا الله على تدبيره الأمور، إنهم يبحثون عن ثمامة، وها هو يأتيهم الله به! إنهم يفكرون في كيفية الوصول إليه في اليمامة، والتغلب على المعوقات والعقبات، وها هو يحضره الله إليهم بدون جهد!

سبحان الله! الذي يدبر الأمور والأحداث، وفق حكمته سبحانه؛ وليحقق إرادته ﷻ! وما سوقه ثمامة بن أثال إليهم على هذه الصورة المفاجئة، وبهذه الكيفية العجيبة إلا دليل على ذلك!

حمدوا الله وشكروه، على ما أنعم به عليهم.

لقد أمرهم رسول الله ﷺ بأسر ثمامة بن أثال إن تمكنوا منه، وليس قتله وهذه حكمة تظهر لنا فيما بعد!

فوجئ ثمامة بن أثال بالرجال الغرباء يحيطون به، وقال له ابن مسلمة: أنت ثمامة بن أثال، الحمد لله الذي أمكننا منك، وجعلك بين أيدينا بلا عقد ولا عهد ولا ذمة!

قال لهم: من أنتم؟

قالوا: نحن أصحاب رسول الله ﷺ جئنا هنا للقبض عليك! وها أنت في قبضتنا!

لم يصدِّق ثمامة ما يجري! أهؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ؟ أنا أعد الجيش لغزو المدينة وقتالهم، وأمني نفسي بذلك بعد فترة؟ وها أنا أقع بين أيديهم وحيدًا، ليس معي جيش! أين أحلامي وخطتي ومواجهتي؟ أين الجيش والمعركة القادمة الفاصلة؟ تبدد كل هذا وتلاشى! وها أنا أسير بيد هؤلاء الذين سيذهبون بي إلى نبيهم وسيقتلني! لقد انتهى كل شيء!

أخذت المجموعة المجاهدة ثمامة بن أثال أسيرًا، وساقوه معهم مخفورًا إلى رسول الله ﷺ واستاقوا معهم ما غنموه من ماشية بني بكر بن كلاب، وعادوا سالمين غانمين مفلحين إلى المدينة!

ولما وصلوا المدينة (خَمَّس) رسول الله ﷺ الغنائم، وقسمها كما أمره الله ﷻ.

ولما رأى عدوه ثمامة أمامه موثوقًا أسيرًا حمد الله، الذي أمكنه منه، ورد كيده إلى نحره، وأبطل خطته.

الرسول ﷺ يربط ثمامة في سارية المسجد النبوي:

أمر رسول الله ﷺ بربط ثمامة بن أثال في عمود من أعمدة المسجد وحبسه فيه!

ثمامة كافرٌ مشرك، ومع هذا أمر ﷺ بربطه في المسجد! أليس هذا الفعل دليلًا على أنه يجوز للكافر أن يدخل في المسجد ويكون فيه إذا دعت الحاجة، أو اقتضت المصلحة ذلك؟ ولعل الرسول ﷺ أَرادَ أَنْ يؤثِّر في ثَمامة، وأَنْ يجعلَه قريبًا من الإِسلام؛ ولذلك لم يُسارع إِلى قتله، ولو قتَلَه لكانَ مُحِقًّا؛ لأَنَّ ثُمامة يُعِدُّ الجيشَ لقتاله، وقد أَوقعهُ الله بأيدي المجاهدين وهو محاربٌ مهدورُ الدم! ولكنَّ الرسول ﷺ لم يأْمر بقتله، كما أَمَرَ بقتلِ المحارب الآخر سفيانَ بن خالد الهذلي، ولعلَّه أَرادَ أَنْ يكسبَ قبيلةَ بني حنيفة الكبيرة القوية، أَو أَنْ يُحَيِّدَها على الأقل! ولذلك أمر بأَسرِ زعيمها ولم يقتله!

ولماذا ربطه في المسجد؟:

إنه يريدُ أَنْ يريه صلاةَ المسلمين الذين يُبغضُهم ويحاربُهم، ويُعَرِّفَه على دينهم، إنه يعاديهم الآن لأنه لا يعرفُ شيئًا عنهم! ومَنْ جهلَ شيئًا عاداه! ولعلَّ وجودَه في المسجد أَسيرًا مربوطًا يُقرِّبُه من المسلمين!

وكأَنَّ ثُمامَةَ كان يتوقعُ أَنْ يسارعَ الرسولُ ﷺ بقتلِه، ولو فعلَ لحقَّ له ذلك؛ ولذلك فوجئ بربطه في عمودِ المسجد! فما معنى هذا؟ هل سيقتلُه رسولُ الله ﷺ بعدَ ذلك؟ أم سيعفو عنه؟ لا يدري ثُمامة شيئًا.

الرسول ﷺ يأمر بالإحسان إلى ثمامة الأَكُول:

تعاملَ رسولُ الله ﷺ مع عدوِّه اللدود ثُمامة الأسير بأَخلاقِ الإسلام، إنه الآن أَسيرٌ عاجزٌ عن التصرف، لا يملكُ لأَمرِ نفسه شيئًا، وإِنَّ الإسلامَ يدعو إِلى إِكرام الأَسير والإحسان إليه!

لذلك أَوصى رسولُ الله ﷺ أَصحابَه بالإحسانِ إِلى الأسير، وقال لهم: هذا أَبو أُمامة، ثُمامةُ بنُ أُثال الحنفي، سيدُ بني حنيفة، فأَحسِنوا إساره وأكرموه!

وتلقى الصحابةُ الأمرَ بالتنفيذ الفوري، فأحسنوا إِلى أَسيرِهم عدوِّهم اللَّدود، وأَكرموه غايةَ الإكرام، رغم علمِهم بعداوته! لأَنه الآن أَسيرٌ بين أَيديهم، لا قوة له ولا خطر منه!

كان ثُمامة (أَكولًا) يأكلُ كثيرًا، لا تكفيه وجبةٌ واحدٍ ولا اثنين ولا أَكثر!

أَمَرَ ﷺ أَهلَه أَنْ يجمعوا ما عندهم من طعام، وأنْ يُقدموه للأَسير، فأَكله كُلَّه، فأَمَرَ الصحابةَ أَنْ يقدموا له طعامًا، فأَكَلَه.

فقالوا: إِنه لا يكادُ يُبقي شيئًا، ولا يَشبع!

فقال: أَحسِنوا إِلى أسيركم!

فأَحْسَنوا إِليه، واستمروا يقدمون له الطعام، وهو يبتلعُ ما يُقَدَّمُ له، ولا يكاد يشبع! ومعلوم أَنَّ طعامَ الصحابة قليل، وهذا الأسير يحتاج إِلى طعامٍ كثير! لكنهم كانوا يُقدِّمون له حاجته من الطعام، لا يَبخلون عليه منه بشيءٍ!

وكان لرسول الله ﷺ ناقةٌ لَقْحَةٌ تَحْلِبُ الحليب، فأمر رسولُ الله ﷺ بأَنْ يسقي أَهلُه ثُمامةَ حليبَ الناقة صباحًا ومساءً! وكان يشربُ ما يُقَدَّمُ له من الحليب!

الحوار بين الرسول ﷺ وثمامة:

وفي اليوم التالي مَرَّ رسولُ الله ﷺ بثمامة المقيَّدِ في المسجد، فقال له: ماذا عندك يا ثُمامة؟

فوجئ ثُمامةُ بالسؤال! وهو ذكيٌّ فطنٌ وليس غبيًّا ساذجًا! لعل توجيهَ هذا السؤال له دليلٌ على أَنَّ الرسولَ ﷺ ليس راغبًا في قتله! وإنما سيتصرفُ معه تصرفًا آخر.

أجابَ ثُمامةُ على السؤال جوابًا حكيمًا، فقال: عندي خير يا محمد! إن تقتل تقتل ذا دم! وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل، تعط منه ما تشاء!

خَيَّرَ ثمامة ـ بحكمة ـ رسول الله ﷺ في التصرفِ المناسب، وقَدَّمَ له ثلاثَ خصال، أَيَّ خصلةٍ يَختارُها يكونُ محقًّا:

إِنْ أَرادَ أَنْ يقتله فليقتله، ولا تثريبَ عليه في ذلك، فهو محقٌّ في قتْلِه؛ لأَنَّ ثُمامةَ هو الذي بدأ بإعلان الحرب على الرسول ﷺ! ولو ظفَر هو به لقتَله، إِنه يقتلُ ذا دم لو أَراد ذلك، ويكون قتْلُه جزاء!

وإن لم يرد قتله فهذا كرمٌ منه، وتنازلٌ عن حقِّه في قتله.

إنْ مَنَّ عليه وأَطلقَ سراحه، وأَعادَه إلى قومه، فهذا تفضُّلٌ وكرمٌ منه، وهو لن ينسى هذه اليد لرسول الله ﷺ، سيبقى يذكرها له بالثناء، وسيشكره عليها، وهو شاكرٌ للفضلِ والكرمِ والمِنَّة!

وإن أَرادَ إطلاقَ سراحِه مقابلَ مالٍ يدفعُه، وفديةٍ يفتدي نفسَه بها، فليطلبْ من المال ما شاء؛ لأن ثمامة غني وعنده مال كثير، وأي مبلغ من المال يطلبه رسول الله ﷺ منه مقابل إطلاق سراحه فسيأخذه!

وتدل هذه الخصال الثلاثة التي ذكرها ثمامة على رجاحة عقله، وحسن تفكيره.

تركه رسول الله ﷺ مُقيدًا في المسجد، وهو يسرح مع أفكاره وهواجسه.

تأثُّر ثمامة بإحسان المسلمين إليه:

وعاد إليه ﷺ في اليوم التالي، فسأله نفس السؤال: ماذا عندك يا ثمامة؟ أجابه ثمامة قائلًا: ما قلت لك يا محمد! إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل، تعط منه ما تشاء!

وكان ثمامة لاحظ بذكائه أن الرسول ﷺ لا يريد أن يقتله، إذ لو أراد قتله لقتله بالأمس! ولهذا قدم المن في جوابه، بينما قدم بالأمس القتل!

قال بالأمس: إن تقتل تقتل ذا دم وإن تمنن تمنن على شاكر، بينما قال اليوم: إن تمنن تمنن على شاكر وإن تقتل تقتل ذا دم!

فتركه رسول الله ﷺ، ودخل اليوم الثالث!

واصل الصحابة إكرام الأسير، وتقديم الطعام والشراب له، وهو يلتهم معظم ما يُقدَّم له من الطعام، وهم يقدمونه له، لم يبخلوا عليه بشيء منه، حتى لو أدى إلى نقص طعامهم! وأثَّر هذا الإكرام والإحسان في نفس ثمامة، فها هم أعداؤه يحسنون إليه، ويؤثرونه على أنفسهم، مع حاجتهم وخصاصتهم! والذي دعاهم إلى هذا الإحسان والإكرام هو رسولهم الكريم ﷺ وأخلاقهم العالية التي التزمت بدينهم!

كذلك تأثر ثمامة بالصحابة وهم يأتون إلى المسجد لصلاة الجماعة، وتأثر بصلاتهم الخاشعة خلف رسول الله ﷺ.

ولعله راح يُسائل نفسه: ها هم محسنون كرماء، وها هو رسولهم كريم معي، مع أني عدوهم الذي يجمع لهم الجيش لقتالهم، وها هي أخلاقهم وأفعالهم طيبة، فلماذا أعاديهم؟ ألا يمكن أن يكونوا هم على صواب وأن أكون أنا على خطأ؟ ألا يمكن أن يكون دينهم هو الصحيح؟

وصار يفكر كثيرًا في هذه المسائل، وهو يرى الصحابة أمامه، ويأسره كرمهم وإحسانهم، أكثر مما تأسره حبالهم التي تقيد يديه!

وفي اليوم الثالث مر به رسول الله ﷺ، وأعاد طرح السؤال السابق عليه: ماذا عندك يا ثمامة؟

وأعاد ثمامة الجواب نفسه: عندي خير يا محمد، إن تمنن تمنن على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا ذم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما تشاء.

وكان الرسول ﷺ لاحظ علامات التأثر على كيان ثمامة، وأنه لم يعد على عداوته السابقة للمسلمين، وأنه وعى هذا الدرس الذي مر به جيدًا.

ولو أمر الرسول ﷺ بقتل ثمامة لكان محقًّا؛ لأنه يستحق القتل، بسبب ما قام به من تجهيز الجيش لغزو المدينة، ولكن الرسول ﷺ يريد أن يسامح ويتنازل عن هذا الحق كرمًا منه ليكسبه ويكسب قومه بني حنيفة!

ولو أراد الرسول ﷺ أخذ الفداء منه، وإطلاق سراحه مقابل مال يدفعه، لكان على صواب؛ لأن الله أذن له أن يأخذ الفداء من الأسرى، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد ﷺ: ٤]، لكنه ما أراد هذا، حتى لا يُساء فهم تصرفه.

الرسول ﷺ يعفو عن ثمامة ويُطلق سراحه:

اختار رسول ﷺ الخيار الثالث: وهو المَنُّ عليه وإطلاق سراحه بدون مقابل!

وذلك ليؤلف قلبه، ويؤلف بذلك قومه، ويكسبهم إلى جانبه، فقد وعده ثمامة أن يشكر له تفضله عليه بإطلاق سراحه: «وإن تمنن تمنن على شاكر».

عندما يطلق سراحه مَنًّا بدون مقابل سيعود إلى قومه شاكرًا شاعرًا مادحًا، سيثني على رسول الله ﷺ والمسلمين، وسيحدِّث قومه عندما يعود إليهم بما أكرمه به المسلمون، وسيؤثِّر هذا المدح والشكر منه في قومه، وينحازون إلى جانب المسلمين، إذن مصلحة المسلمين تقتضي أن يطلق سراحه بدون مقابل!

دخل رسول الله ﷺ المسجد ومعه أصحابه، وقال لثمامة: لقد عفوت عنك يا ثمامة!

ثم قال ﷺ لأصحابه ﷺ: أطلقوا سراحه، ليعود إلى قومه سالمًا!

وأقبل الصحابة على قيود ثمامة ففكوها، وأطلقوا سراحه، ووقف يتحرك بينهم حرًّا طليقًا!

شَكَرَ ثمامة لرسول الله ﷺ فضله وكرمه، وشكر للصحابة إحسانهم إليه، وأخذ متاعه، وخرج من المسجد، وودَّع الرسولَ ﷺ وأصحابه، وغادر المدينة حرًّا مختار.

عودة ثمامة إلى المسجد وإعلان إسلامه:

شيَّع الصحابة ثمامة بن أثال بنظراتهم، وهو يمشي وئيد الخطى، حتى غاب في بساتين المدينة متوجهًا إلى اليمامة.

وما هي إلا فترة قصيرة، حتى فوجئوا بثمامة نفسه قادمًا إليهم!

ما الذي جاء بك يا ثمامة؟ لقد كنت أسيرًا عند هؤلاء، وأقصى ما يريده الأسير هو المَنُّ عليه بإطلاق سراحه دون مقابل! وهذا ما فعلوه بك وخرجت من المدينة حرًّا مختارًا! فلماذا لم تتابع سيرك إلى اليمامة؟ ولماذا رجعت إليهم؟

وإذا ثمامة قد غيَّر موقفه، فلما غادر بيوتَ المدينة، وصار بين البساتين وأيقن أنه الآن حر التصرف، يفعل ما يشاء، ويختار ما يريد ولا يكرهه أحد على شيء، وجدها فرصة مناسبة لإعلان إسلامه، وهو دخوله في الدين الحق، الذي يدين به هؤلاء الرجال الكرماء المحسنون واتّباعه هذا النبي الكريم ﷺ.

لذلك بحث ثمامة عن عين ماء وسط النخيل، واغتسل وتطهر وغير ملابسه، ولبس الملابس البيضاء الجميلة، وأحسن هندامه، ورجع إلى المدينة ليلتقي برسول الله ﷺ.

دخل ثمامة المسجد وكان فيه رسول الله ﷺ ومجموعة من الصحابة، فحياهم ثمامة بإلقاء السلام عليهم، وردوا تحيته بأحسن منها، ثم فوجؤوا به وهو يعلنها واضحة صريحة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله!

كَبَّر الصحابة ﷺ حامدين شاكرين الله، فها هو أبو أمامه ثمامة بن أثال أمامهم، وها هو مسلم معهم، وهو من في قومه زعيم بني حنيفة، وسيد أهل اليمامة، إن إسلامه انتصارٌ كبير للإسلام، ونفع عظيم للمسلمين.

وقام الصحابة ﷺ إلى أخيهم المسلم ثمامة يعانقونه بحرارة، ويعاملونه بأخوة ومودة ومحبة!

لماذا لم يعلن إسلامه أثناء حبسه؟:

سأله أحد إخوانه: يا أبا أمامة! لقد كنتَ مربوطًا في المسجد، وبما أنك كنت مقتنعًا بالإسلام وتريد أن تسلم، فلماذا لم تعلن إسلامك وأنت معنا في المسجد قبل إطلاق سراحك؟ ولماذا انتظرت حتى غادرت المدينة؟

أجابهم أخوهم جوابًا دالًّا على فطنته وحكمته وبُعد نظره: لو أعلنت إسلامي وأنا مُقيَّد أسير، فأخشى أن يُساء تفسير إسلامي، فقد يذهب بعضهم إلى أن إسلامي لم يكن عن قناعة واختيار، وإنما عن إكراه واضطرار، وقد يقولون: أسلم ثمامة لأنه أسير بين أيدي المسلمين، خوف أن يقتلوه، فإسلامه لينفذ نفسه! ولهذا أَخَّرت إسلامي إلى حين إطلاق سراحي، وتمتعي بكامل حريتي، ومغادرتي المدينة حرًّا مختارًا!

لقد تأثرت بكم وبإسلامكم منذ اليوم الأول لسجني في المسجد، وأيقنت أن محمدًا ﷺ هو رسول الله فعلًا، وأن دينكم هو الدين الحق، وكنت أَتمنى أن يطلق رسول الله ﷺ سراحي، لأُعلن إسلامي، وكم كنتُ أَخشى أَنْ يقتلني، وبذلك يحرمني من هذه النعمة! ولكن الله اختار لي الخير، والحمدُ لله رب العالمين!

وتحليلُ ثُمامة ﷺ لطيف، وتبريرُهُ لتأْخير إسلامه إلى حين نَيْل حريته رائع، وهذا دليلُ صدقه في إسلامه، وحرصه على حسن تفسير موقفه، وعلمه بأن الإسلام لا يكون بالإكراه، وإنما يكون بالاختيار والقناعة والرضا، وصدق الله القائل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ثم وجه ثمامة ﷺ كلامه إلى رسول الله ﷺ قائلًا: يا رسول الله! والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك! وقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليَّ! يا رسول الله، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، وقد أصبح دينك أحب الدين كله إليَّ! يا رسول الله! والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، وقد أصبح بلدك أحب البلاد كلها إليَّ!

يا سبحان الله! كيف شرح صدر ثمامة ﷺ للإسلام، وبذلك تحول إلى إنسان جديد، تحول كرهُه إلى حب، وبغضُه إلى ود، وعداوته إلى أخوة!

بالأمس كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين، ويجهز الجيوش للقضاء عليهم، واليوم صار أخًا محبًا لهم، جنديًا لهذا الدين مثلهم.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧ ﴾ [الممتحنة].

ثمامة ﷺ يقلل طعامه بعد إسلامه:

أَنِسَ الصحابة بأخيهم الجديد، وفرحوا بإسلامه كثيرًا، وجلسوا معه يحدثونه بأخوة ومودة، ولما حان وقت الصلاة صلى معهم بخشوع.

وجاء وقت الغداء، وهم الآن سيأكلون معه، إنهم يعرفون ثمامة (أَكولًا) يُقَدَّم له الكثير من الطعام فيأكله! وقد راعوا هذا عندما قدَّموا له الطعام، فوضعوا بين يديه الكثير من الطعام، والكثير من اللبن! وفي ظنهم أنه لن يُبقي منه شيئًا! ولكن ثمامة ﷺ فاجأهم مفاجئة جديدة! قَدَّم يده إلى الطعام وسمَّى الله، وأكل لقيمات من الطعام، ثم مد يده إلى اللبن وسمَّى الله وشرب منه قليلًا من الشراب، ثم حمد الله ورفع يده عن الطعام!

فوجئ الصحابة بأكل ثمامة ﷺ، ونظروا إلى طعامه وكأنه لم ينقص منه شيء! فاستغربوا، وأخبروا رسول الله ﷺ بذلك!

فقال ﷺ: مم تعجبون؟ تعجبون من رجل أكل في أول النهار في (مِعَى) كافر، وأكل في آخر النهار في (مِعَى) مسلم؟ إن الكافر يأكل في سبعة أمعاء، وأن المسلم يأكل في (مِعَىً) واحد!

و(المِعَى) هو (المُصْران)، مفرد الأمعاء، وهي المصارين!

ولا يُراد من هذا الحديث ظاهره، فلا يملك المسلم مِعى واحدًا فقط، بينما يملك الكافر سبعة أمعاء حقيقية!

إن الجهاز الهضمي واحد لجميع البشر، لا فرق في هذا بين مسلم وكافر، لكل إنسان فم ومريء وبلعوم ومعدة وأمعاء، وعدد الأمعاء الدقيقة والغليظة واحد عند الجميع!

إن المراد من الحديث نهم الكافر للطعام في مقابل قناعة المسلم أمامه، الكافر يعيش ليأكل! ويلتهم الطعام بنهم كبير، ويحرص على أن يحتوي على أكبر كمية ممكنة منه! لأن الأكل عنده هدف بحد ذاته، ولا يؤمن بحياة أخرى غير هذه الحياة، فليحصل على أكبر كمية ممكنة من طعامها وشربها وملذتها وشهواتها، وعندما يأكل الكافر فكأنه يدخل الطعام في سبعة أمعاء!

أما المسلم فإنه يتعامل مع الطعام بقناعة واعتدال، يأخذ منه حاجته، ويكفيه منه لقيمات يقمن صلبه؛ ولهذا يأكل ويشرب بدون إسراف، وهو يطبق عمليًّا قول الله سبحانه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف].

وكأنه بهذه القناعة يأكل في معى واحد!

وهذا ما حصل من أبي أمامة ثُمامة بن أثال رضي الله عنه!

وبعد ما أقام ثُمامةُ رضي الله عنه في المدينة أيامًا، آمنًا مطمئنًّا بين إخوانه المسلمين، حان موعد عودته إلى اليمامة!

ثمامة رضي الله عنه يتوجه إلى العمرة ويجهر بالتلبية الإسلامية:

وقبل أن يغادر المدينة استأذن رسول الله ﷺ، واستشاره قائلًا: يا رسول الله، إن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ هل أعتمر أم لا؟ بَشَّره رسول الله ﷺ بالخير والفلاح والجنة، فقد آمن بالحق، ودخل في الإسلام، وحاز بذلك خيري الدنيا والآخرة، ثم أذن له في أداء العمرة!

خرج ثُمامة بن أثال رضي الله عنه من المدينة إلى مكة، مُحْرِمًا بالعمرة، ولا ننسى أن زعماء قريش كانوا حلفاء له، يزورونه ويحالفونه ويؤيدونه! هذا كان في الماضي قبل أن يسلم ثمامة رضي الله عنه! فماذا سيفعل معهم الآن بعدما أسلم!

كان ثمامة رضي الله عنه يلبي طيلة سيره من المدينة إلى مكة!

ووصل مكة وهو مُحرِم، ولما دخلها رفع صوته بالتلبية، ليسمع من لم يكن قد سمع: **لبيك اللهم ما لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك!**

سمع زعماء قريش في مكة تلبيته بصوت مرتفع، وفكروا في مفردات تلبيته إنها ليست كتلبيتهم الجاهلية: **لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك! تملكه وما ملك!**

من هذا الذي يلبي تلبية إسلامية؟ من هذا الذي يجهر بها بصوت مرتفع بغير خوف ولا مراعاة لهم؟ إنه حليفهم بالأمس ثمامة بن أثال الحنفي رضي الله عنه!

إذن: ثُمامة قد أسلم، وهو الآن يؤدي مناسك العمرة، ويُسمعهم ما يكرهون من التوحيد وذم الشرك.

ولهذا افتخر أحد شعراء بني حنيفة المسلمين بعد ذلك، مذكرًا بهذا الموقف الإيماني من ثمامة رضي الله عنه:

وَمِنَّا الَّذِي لَبَّى بِمَكَّةَ مُعْلِنًا ... بِرَغْمِ أَبِي سُفْيَانَ فِي الأَشْهُرِ الحُرُمْ

وبعد ما أدى العمرة اجتمع عليه زعماء قريش، وقالوا له: يا أبا أمامة، لماذا صبوت وغيَّرت دين آبائك الحق واتبعت دين محمد الباطل؟

ثمامة ﷺ يهدد قريشًا بمنع القمح عنهم:

فقال لهم: أنا ما صبوت، ولكني أسلمت، وصدَّقت محمدًا ﷺ، وآمنتُ به، لأَني رأيت أني كنت على باطل، وأن الإسلام هو خير دين، فتركت ما كنتُ عليه من الباطل، واتبعت الحق!

غضبوا منه، وهَمُّوا بقتله! وقالوا له: لقد اجترأت علينا، وجهرت بالتلبية بيننا، والله ما فعلها أحد قبلك! ولا اجترأَ علينا أحدٌ غيرك!

وهَمُّوا أن يقتلوا حليفهم بالأمس! كانوا راضين عنه محبين له، لما كان مشركًا بالله عابدًا للأصنام، محاربًا لرسول الله ﷺ! أما الآن بعدما أسلم واتبع الحق فقد أبغضوه وكرهوه، وأرادوا قتله! الذي حملهم على هذا هو اتباعهم للباطل وكراهيتهم للحق!

ولكن أحدهم نصحهم بالكف عن قتله، وعدم التعرض له، وقال لهم: يا قوم، كيف تقتلونه وهو حليفكم؟ سيد أهل اليمامة، وأنتم تحتاجون إليه في طعامكم! لأن القمح يأتيكم من قومه بني حنيفة!

فكفوا عنه مكرهين، لئلا ينقطع مدد الطعام عنهم من اليمامة!

وبعدما أدى مناسك العمرة، وفرغ من زيارة البيت الحرام، وقبل أن يغادر مكة، أعلن لهم موقفه الجديد منهم، ذلك الموقف المبني على الإسلام، فقال لهم: انتهى ما بيني وبينكم من تحالف! ووالله الذي نفسي بيده، لا تأتيكم من اليمامة حبة قمح بعد اليوم، إلا بعد أن يأذن فيها رسول الله ﷺ!

الله أكبر! إن ثمامة ﷺ ينطلق في ارتباطه مع الآخرين من الإسلام، ويجهر بالولاء والبراء على أساس العقيدة، بالأمس كان حليفًا لقريش، يحالفهم في حرب رسول الله ﷺ، ومن أجل ذلك كان يزودهم بقمح اليمامة، غذاء وتموينًا لهم!

أما الآن فقد أسلم، والإسلام يطلب منه أن يكون تحالفه وولاؤه لله سبحانه، وحبه لله، وبُغضه لله، فيوالي من آمن بالله، ويعادي من كفر بالله، ويتبرأ من أعداء الله، ولو كانوا أولياءه بالأمس، ويحب أولياء الله، ولو كانوا أعداءه بالأمس!

وهذا الموقف الإيماني الجديد في الولاء والبراء، دليل على صدق إيمانه، وحسن فهمه لهذا الدين!

الرسول ﷺ يأذن لثمامة ﷺ بتزويد قريش بالقمح:

وغادر أبو أمامة ثمامة بن أثال الحنفي ﷺ إلى قومه بني حنيفة، ولما وصلهم أخبرهم بأنه دخل في الإسلام، واتبع الحق، ودعاهم إلى الدخول في الإسلام، واستجاب له كثير منهم، ودخلوا في الإسلام.

ونفَّذ تهديده ضد قريش، فمنع توريد القمح إليهم، فاتصلوا به راجين راغبين، وطلبوا منه تزويدهم بالطعام، فوجههم إلى رسول الله ﷺ، وقال لهم: لا تطلبوا ذلك مني، واطلبوه من رسول الله ﷺ، فما أنا إلا جندي عنده، وإن أذن بذلك فعلت، ونفذت أمره!

فطلب منه رسول الله ﷺ أن يزودهم بالقمح! ففعل! رضي الله عنه وأرضاه! ا.هـ.

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ٧/ ٦٨٨-٦٩٠، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢٠+ ٧٢٥.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦٣٨-٦٣٩، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٣٤-٥٣٥، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٧٤، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٧٨-٨١، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤٣٤، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٠، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٧٧، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٧/ ٢٥٢-٢٥٣، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٥٧-٢٥٨، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١١٢-١٢٢.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٩٤ -٢٩٥، السيرة النبوية لرزق الله ٤٦٧ -٤٦٨، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣١١-٣١٣.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٢٢-٢٧، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٨٤ – ٨٧، فقه السرايا للعيساوي ١٤٣ + ١٥١ -١٥٧، مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٣٧-١٥١.

خرائط سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى نجد

(١)

سرية
محمد بن مسلمة الأنصاري
(القُرَطاء)
بطن من بطون بكر بن كلاب
البكرات بناحية ضرية - نجد
١٠ المحرَّم ٦ هـ

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٣٩.



(٢)

غزوات السنة السادسة من الهجرة المباركة

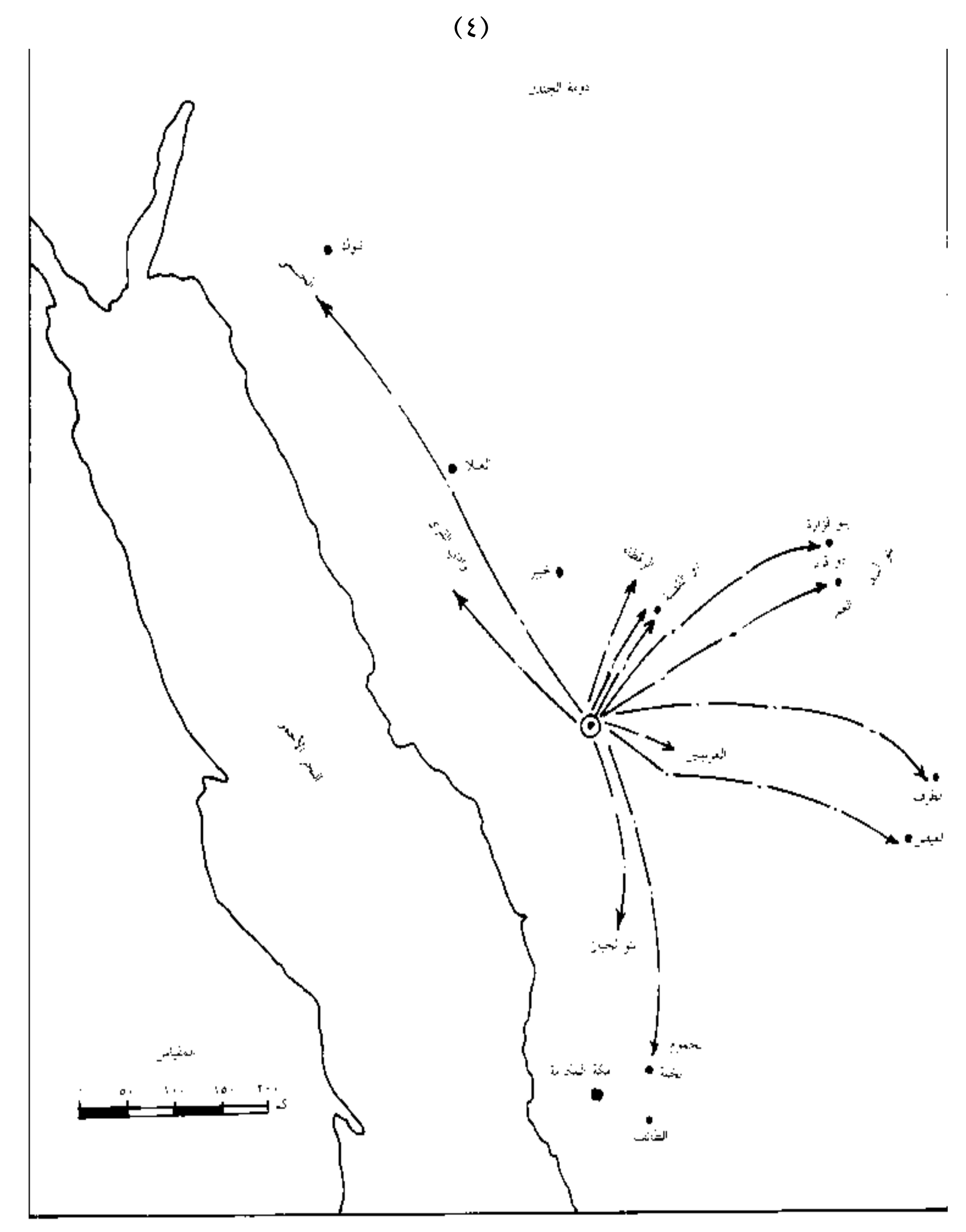
سرايا السنة السادسة من الهجرة المباركة

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ١٧٧.

(٣)

حدائق الأنوار لبحرق ٥٤٣.

(٤)



(خريطة رقم ٧)

التحركات العسكرية الإسلامية بين غزوة بني قريظة وغزوة بني المصطلق

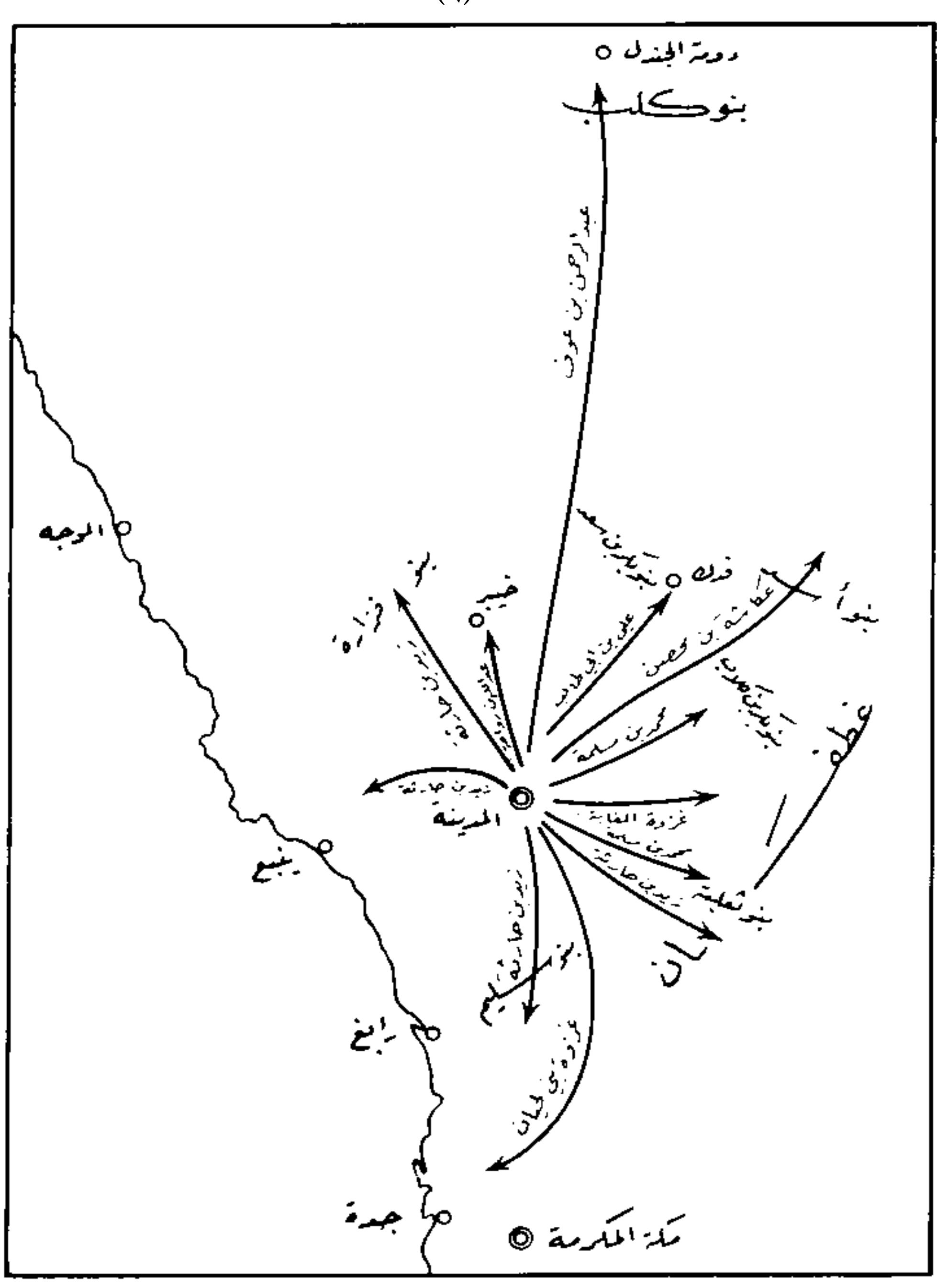
قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ١٩٥.

(٥)

خيبر وموقع القبائل المعادية

محمد ﷺ واليهود لبركات ١٧٥.

(٦)



التاريخ الإسلامي لشاكر ٢/ ٣٠١.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من سَرِيَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ﷺ إِلَى نَجْدٍ

١ ـ جواز القتال في الأشهر الحرم:

سبق تفصيله في سرية عبد الله بن جحش ﷺ إلى نخلة ٢ هـ.

٢ ـ سادات الأوس يشتركون في هذه السرية:

يقول د/ الغضبان: «فهي منتقاة بعناية فائقة، وعلى رأسها محمد بن مسلمة ﷺ، الذي تهتم السماء به، حيث يقول: مررت، فإذا رسول الله ﷺ على الصفا، واضعًا يده على يد رجل، فذهبت، فقال: «**ما منعك أن تُسَلِّم؟**»، قلت: يا رسول الله، فعلتَ بهذا الرجل شيئًا ما فعلتَهُ بأحد، فكرهت أن أقطع عليك حديثك، مَنْ كان يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**جبريل، وقال لي: هذا محمد بن مسلمة لم يُسَلِّم، أما إنه لو سَلَّم رددنا عليه السلام**». [سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/ ٣٧٠].

وهو الذي نجح في المهمة الصعبة الأولى، التي كُلِّف بها، حيث كان مقتل كعب بن الأشرف على يديه.

وبمرور الزمن أصبح رجل المهمات الصعبة الأولى، لدى أمير المؤمنين عمر ﷺ ورئيس مخابراته (وقد كان عمر إذا شُكي إليه عامل نفَّذ محمدًا إليهم ليكشف أمره).

وهو الميزان الذي يرضى أمير المؤمنين عمر ﷺ أن يوزن به: «فعن موسى بن أبي عيسى، قال: أتى عمر ﷺ مشربة (أرض لينة لا يزال فيها نبت أخضر ريان) بني حارثة، فوجد محمد بن مسلمة ﷺ، فقال: يا محمد! كيف تراني؟ قال: أراك كما أحب، وكما يحب من يحب لك الخير، قويًا على جمع المال، عفيفًا عنه، عدلًا في قسمه، ولو ملت عدلناك كما يعدل السهم في الثقات، قال: الحمد لله، الذي جعلني في قوم إذا ملت عدلوني». [سير أعلام النبلاء للذهبي ٢/ ٣٧٢].

وكان رجلًا طُوالًا أسمر معتدلًا أصلع وقورًا، وهو حارثي من حلفاء بني عبد الأشهل.

هذا هو قائد هذه السرية، ومعه من رجالات الأوس، وسادتهم: عبَّاد بن بشر، وسلمة بن سلامة بن وقش، والحارث بن خزمة ﷺ، فتكاد تكون سرية أنصارية أوسية».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٣٤-١٣٥].

٣ ـ الأثر المادي والمعنوي للسرية:

يقول د/ الغضبان: «خلال عشرين ليلة تم غزو القوم في عقر دارهم فقُتل منهم عشرة، واستاقوا النعم والشاء، فقدم بالنعم خمسين ومائة بعير، و الشاء وهي ثلاثة آلاف شاة، وحين نذكر أن عدد البعير في بدر كان سبعين بعيرًا، يتعقبها المسلمون كل ثلاثة على واحد منهم، ندرك أهمية هذه الأعداد المضاعفة،

المضافة إلى الصف الإسلامي، وحين نذكر أن حصيلة قتلى المشركين في الخندق هي ثلاثة نشعر بأهمية قتل عشرة من المشركين في هذه السرية الخاطفة.

ولا شك أن الأثر المعنوي لهذه السرية هو أكبر بكثير من أثرها المادي، فأن يتناقل العرب أن جنود محمد ﷺ كادوا يطرقون أبواب العراق، ويجوبون في نجد، التي شاركت فيها خيالتها الكبرى في الحرب، فهي رسالة موجهة إلى الأحزاب والحلفاء، وأن يد محمد ﷺ ستطالهم أينما كانوا، وفي أي موقع وُجدوا، خصوصًا بعد الصورة التي يريد المشركون أن يرسموها عن رسول الله ﷺ، أنه لجأ إلى الخنادق خوفًا من المواجهة وحصير في المدينة، فأنباء هذه السرية الفدائية سوف تخلخل كل المحاولات الإعلامية، والحرب النفسية التي يريد الحلفاء أن يثيروها ضد رسول الله ﷺ، ففي أقل من شهر، وبعد غزوة الأحزاب، وعودتهم بغيظهم لم ينالوا خيرًا، كانت هذه السرية تجوب الجزيرة لتطرق مضارب أعز العرب بني عامر بن صعصعة الذين كانوا يطمحون أن تكون لهم سيادة البادية كلها؛ ولذلك اختار لها ﷺ أكفأ رجاله وأثقله عنده.

ومكّن الله المؤمنين من الثأر من بني محارب، الذين اتجهت إليهم غزوة ذات الرقاع عقيب الخندق وقريظة، وها هم الآن يرتعون بجوار المؤمنين «حَتَّى إِذَا كَانَ بِالشَّرَبَّةِ (موضع بين السليلة والربذة، وقيل هي فيما بين نخل ومعدن بني سليم) لَقِيَ ظُعُنًا، فَأَرْسَلَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْأَلُ مَنْ هُمْ، فَذَهَبَ الرَّسُولُ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: قَوْمٌ مِنْ مُحَارِبٍ، فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنْهُ وَحَلُّوا وَرَوَّحُوا مَاشِيَتَهُمْ، فَأَمْهَلَهُمْ حَتَّى إِذَا ظَعَنُوا أَغَارَ عَلَيْهِمْ، فَقَتَلَ نَفَرًا مِنْهُمْ، وَهَرَبَ سَائِرُهُمْ، فَلَمْ يَطْلُبْ مَنْ هَرَبَ، وَاسْتَاقَ نَعَمًا وَشَاءً، وَلَمْ يَعْرِضْ لِلظُّعُنِ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٤].

إنه هدف جديد جاء عرضًا سهل المنال مع عدو محارب، ومعلن للعداوة غير القُرطاء، ولم يتمكن الجيش الذي غزاهم في عقر دارهم منهم حيث حصلت المواجهة، ولم تحصل الحرب، فكانت هذه السرية الفدائية تقاتل على طريقة حرب الصحراء حيث أصابت ظعنًا من هذا العدو، فقتلت واستاقت نعمًا، وشاءً، وأعادت الفارين إلى قومهم يخبرونهم بخبر هؤلاء الجن الذين يطلعون عليهم من كل مكان، وينقضون عليهم كل فج فما جدوى حرب محمد ﷺ وصحبه ﭫ؟!».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٣٥-١٣٦].

٤ ـ الحرص على هداية الأعداء:

يقول د/ الغضبان: «إنما النصر الأهم، والفتح المبين في هذه السرية هو أسر ذلك الرجل المجهول لديها، والذي هز أسره ونتائج أسره الجزيرة كلها، وغيرت فيها الموازين رأسًا على عقب.

ولنشهد هذا الأسير، وأحواله، وهو الذي لم يعرفه المسلمون كما في النص الصحيح.

عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: خَرَجَتْ خَيْلٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخَذَتْ رَجُلًا مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، لا يَشْعُرُونَ مَنْ هُوَ حَتَّى أَتَوْا بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَنْ أَخَذْتُمْ؟**» [قَالُوا: لَا وَاللهِ يا رسول الله،] قَالَ: «**هَذَا ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ الحَنَفِيُّ**».

ومن اللحظة التي رآه فيها ﷺ قرَّر أن يغزوه في أعماقه لا أن ينتقم منه في ظاهره، فأصدر أوامره: «**أحسنوا إساره**» فربطوه في سارية من سواري المسجد، ودواعي الانتقام قائمة كما في رواية البيهقي :«أَنَّ ثُمامَةَ بْنَ أُثَالٍ كَانَ رَسُولَ مُسَيْلِمَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَدَعَا اللهَ أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْهُ».

ونفَّذ المسلمون تعليمات نبيهم ﷺ بدقة في إحسان إساره، ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: «**اجْمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ مِنْ طَعَامٍ فَابْعَثُوا بِهِ إِلَيْهِ**»، وَأَمَرَ بِلِقْحَتِهِ (**اللقحة**: واحدة اللقاح من الإبل، وهي الناقة التي لها لبن) أَنْ يُغْدَى عَلَيْهِ بِهَا وَيُرَاحُ، فَجَعَلَ لَا يَقَعُ مِنْ ثُمَامَةَ مَوْقِعًا.

فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**» فَقَالَ: **عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ**».

وتركه ﷺ في حالة بين الخوف والرجاء دون أن يشير إليه بشيء، يأتي فيسأله: «**مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟**»، فَقَالَ: **عِنْدِي يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ**.

لقد عاشر ثمامة ساعات الخوف الرعيبة، وساعات الأمل الفسيحة، فهو يضطرب بينها، ولا يدري أين ترسو به السفينة.

وكان اتجاه المسلمين بعد أزمة الخندق العنيفة، وبعد أجواء الجوع الشديدة كلها تتجه للاستفادة من سيد أهل اليمامة صاحب ريف الحجاز التي تنطلق منه الخيرات والميرات إليهم، كان اتجاههم هو الرغبة الشديدة في فداء ثمامة بالمال، أو بالحنطة والبر، فهو ربح لا يعادله ربح، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: فَجَعَلْنَا [نحن] الـمَسَاكِينَ نَقُولُ بَيْنَنَا: مَا يَصْنَعُ بِدَمِ ثُمَامَةَ، وَاللهِ لَأَكْلَةٌ مِنْ جَزُورٍ سَمِينَةٍ مِنْ فِدَائِهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دَمِ ثُمَامَةَ، ولا يرون فتح جبهة عليهم من بني حنيفة بقتله.

هذه هي النظرة القريبة، أما النظرة البعيدة لرسول الله ﷺ فكانت أبعد غورًا وأعمق أثرًا من مال ثمامة أو دمه، فهو يريد ثمامة كله، بضمه إلى حظيرة الإسلام فيهز بإسلامه أركان نجد كلها، وأركان الحجاز، وحيث أكرمه وأفاض عليه الكثير من الإحسان كانت الخطوة الحاسمة في فقه النفوس، والفراسة النبوية الخالدة في بناء الرجال هو أن يمن عليه بالفداء دون ثمن ودون مال، وهو أحوج ما يكون إلى المال».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٣٦-١٣٧].

٥ ـ الحكمة من ربط ثمامة ﷺ في المسجد:

الظاهر أن الحكمة في ربطه في المسجد لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها فيرق قلبه.

[الفتح الرباني للبنا ٢١/ ٨٩].

٦ ـ المنهج النبوي في الدعوة:

ويقول أ/ باشميل: «وقد أحسن النبي ﷺ معاملة سيد بني حنيفة الأسير، وكان يزوره في معتقله ويلاطفه؛ حتى أثرت هذه المعاملة النبوية الحسنة في نفسه إلى درجة تحول معها من أشد الناس بغضًا للنبي ﷺ إلى أعظمها حبًّا وتفانيًا في تدعيم دعوته.

فقد زاره النبي ﷺ أكثر من مرة وهو في معتقله، غير أن النبي ﷺ لم يقتله ولم يطلب فدية، بل عفا عنه ليذهب حرًّا كيف شاء، إلا أن ثمامة ﷺ ـ وقد ملكت عليه مشاعره وأخذت بزمام قلبه تلك المعاملة النبوية الكريمة النبيلة ـ لم يعد إلى قومه كما جاء مشركًا بل عاد إليهم داعية إلى دين التوحيد، وكأشد ما يكون الداعية المخلص.

فكان من خيرة الصحابة ومن أثبت بني حنيفة إسلامًا، وعندما أشعل مسيلمة الكذاب نيران فتنة الردة في نجد، ثبت ثمامة ﷺ على إسلامه، وكان إلى جانب جيوش الخلافة يقارع الكذاب».

[صلح الحديبية لباشميل ٢٤-٢٥].

ويقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر مواقف منها:

أولًا: فيه مثل من منهج النبي ﷺ الدعوي، فقد عامل ثمامة بن أثال ﷺ معاملة كريمة، وأمر الصحابة ﷺ بإكرامه مع ما سبق منه من عداء للمسلمين.

وقد أثرت هذه المعاملة الكريمة في نفس ثمامة ﷺ حتى رغب في الإسلام، وتغيرت الصورة القاتمة التي كان يحملها عن الإسلام والمسلمين إلى صورة مشرقة استنارت بها بصيرته، فانجذب إلى الإسلام.

ثانيًا: موقف ثمامة ﷺ في إعلان إسلامه والبيان الرائع الذي عرضه فيه، من تجلية ألوان الغشاوة التي كانت مهيمنة على قلبه، وكيف انجلت بنور الله ـ تعالى ـ إلى أضدادها، فأصبحت أبغض الأشياء عنده أحبها إليه، وهكذا يبدأ المسلم بإعلان إسلامه تاريخًا جديدًا يمحو به آثار الجاهلية».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٥١-١٥٢].

ويقول الشيخ الصوياني: «كثير من البشر قد لا يتأثرون بكثرة صلاة المسلم أو صيامه ولا بشكل لحيته وطول ثوبه، بل قد يرونها ـ قبل أن يسلموا ـ نوعًا من تعذيب الذات من أجل الخلاص، هذه النوعية من البشر لا تأبه بالعبادات قبل هدايتها، هي منساقة خلف خلق جميل وتعامل راق، مأخوذة بالدين المعاملة لا بالدين العبادة، وهي طائفة لا تجد أفضل من محمد ﷺ للتعامل معها، لا تجد أفضل من محمد يتهادى خلف كلمات ربه التي تقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل].

تعامل ﷺ بهذا المستوى مع ثمامة فحقق قول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت].

وقد حولت أخلاق محمد ﷺ ثمامة ﷺ إلى ولي حميم بعد أن كان عدوًّا مبغضًا، ودَّع ثمامة ﷺ نبيه ﷺ وأحبابه الجدد متجهًا إلى مكة بقلب آخر وشخصية أخرى وأهداف أرقى وأسمى، وكأنه اغتسل بنهر حياة أخرى، ادفع بالتي هي أحسن، كلمات قليلة حولت أرض اليمامة إلى ربيع في قلب النبي ﷺ وسيف في يده ».[السيرة النبوية للصوياني ٤/ ٧-٩].

٧ ـ جواز اعتقال الأسير الكافر في المسجد:

يقول د/ العيساوي: «وهذا ما يسمى في العصر الحديث بمعتقلات أسرى الحرب، ويجب في القانون الدولي الاكتفاء بحجز الأسرى، أو وضعهم تحت المراقبة مع العناية بهم، حتى يتقرر الإفراج عنهم في نهاية الحرب. [آثار الحرب في الفقه الإسلامي ـ د/ وهبة الزحيلي ص٣٨٤].

ويجوز اعتقال الأسرى في أي مكان بأنحاء الدولة، ويحسن أن يكون بعيدًا عن السكان، وأن يكون مسورًا، بشرط أن يكون محل الاعتقال صحيًّا يُراعى فيه ما يراعى في أماكن إقامة جيش الدولة الآسرة نفسها. [قانون الحرب ـ د/ جنينة ص٢٧٩، والقانون الدولي العام ـ د/ علي صادق أبو هيف ص٦١٩].

وفي الإسلام نجد القرآن الكريم يأمر بشد الوثاق على من قدر عليه من العدو، وهو كناية عن قيد الأسر ووقوع الأعداء أسرى واستقرارهم في قبضة المسلمين. [تفسير البحر المحيط ٨/ ٧٤].

وهذا يدل على أن الأسير يجب أن يُمنع من الفرار وذلك بحبسه، ولم يكن المسلمون في صدر الإسلام ينظمون أماكن مخصصة للاعتقال أو الحبس، وذلك بسبب بساطة الأوضاع حينئذ؛ ولذلك كان يوضع الأسير إما في المسجد مؤقتًا حتى يبت في شأنه، وإما أن يوزع الأسرى على أفراد المسلمين باعتبار أنهم متضامنون مع حكومتهم، وهذا هو الغالب، مع عموم الأمر بالوصية بهم خيرًا،والمسلم ينفذ التعاليم الملقاة إليه بكل الأحوال دون شطط ولا إهمال. [آثار الحرب في الفقه الإسلامي ـ د/ وهبة الزحيلي ص٣٨٥].

يدل لذلك حوادث مشهورة:

الأولى: وهي موضوع بحثنا، ما رواه البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ حبس في مسجد المدينة رجلًا من بني حنيفة، يقال له ثمامة بن أثال، فربطه بسارية من سواري المسجد.

[شرح مسلم ١٢/ ٨٧، وسنن أبي داود ٣/ ٧٦، وسنن البيهقي ٦/ ٣١٩].

والثانية: روى البيهقي بِإِسْنَادِهِ عَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَسْعَدِ بْنِ زُرَارَةَ قَالَ: قُدِمَ بِالأُسَارَى حِينَ قُدِمَ بِهِمُ الْمَدِينَةَ، وَسَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ ﷺ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ آلِ عَفْرَاءَ فِي مَنَاحِهِمْ عَلَى عَوْفٍ وَمُعَوِّذٍ ابْنَيْ عَفْرَاءَ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْهِنَّ الْحِجَابُ،

قَالَتْ سَوْدَةُ: فَوَاللهِ إِنِّي لَعِنْدَهُمْ إِذْ أُتِينَا، فَقِيلَ: هَؤُلاَءِ الأُسَارَى قَدْ أُتِيَ بِهِمْ، فَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي وَرَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِ، وَإِذَا أَبُو يَزِيدَ: سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو [(١)] فِي نَاحِيَةِ الْحُجْرَةِ يَدَاهُ مَجْمُوعَتَانِ إِلَى عُنُقِهِ بِحَبْلٍ، فَوَاللهِ مَا مَلَكْتُ حِينَ رَأَيْتُ أَبَا يَزِيدَ كَذَلِكَ أَنْ قُلْتُ: أَيْ أَبَا يَزِيدَ أَعْطَيْتُمْ بِأَيْدِيكُمْ! أَلاَ مُتُّمْ كِرَامًا؟! فَمَا انْتَبَهْتُ إِلَّا بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْبَيْتِ: «**يَا سَوْدَةُ، أَعَلَى اللهِ وَعَلَى رَسُولِهِ**»، فَقُلْتُ: يا رسول الله، وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا مَلَكْتُ حِينَ رَأَيْتُ أَبَا يَزِيدَ مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ بِالْحَبْلِ أَنْ قُلْتُ مَا قُلْتُ.

[السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٥١-١٥٢ كتاب السير باب الأسير يوثق رقم ١٨١٤٦].

وأسرى بدر كلهم قد حبسوا، روى البيهقي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا أَمْسَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَالأَسَارَى مَحْبُوسُونَ بِالْوَثَاقِ، بَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَاهِرًا أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يا رسول الله، مَا لَكَ لاَ تَنَامُ؟، وَقَدْ أَسَرَ الْعَبَّاسَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**سَمِعْتُ أَنِينَ عَمِّي الْعَبَّاسِ فِي وَثَاقِهِ**»، فَأَطْلَقُوهُ فَسَكَتَ، فَنَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

[السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٥١ كتاب السير باب الأسير يوثق رقم ١٨١٤٥].

الثالثة: ما رواه البيهقي أيضًا بسنده عَنْ جُنْدُبِ بْنِ مَكِيثٍ ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ غَالِبٍ اللَّيْثِيَّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَكُنْتُ فِيهِمْ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشُنُّوا الْغَارَةَ عَلَى بَنِي الْمُلَوَّحِ فِي الْكَدِيدِ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْكَدِيدِ لَقِينَا الْحَارِثَ بْنَ الْبَرْصَاءِ اللَّيْثِيَّ، فَأَخَذْنَاهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا جِئْتُ أُرِيدُ الإِسْلاَمَ، وَإِنَّمَا خَرَجْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ! فَقُلْنَا: إِنْ تَكُ مُسْلِمًا لَمْ يَضُرَّكَ رِبَاطُنَا يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَإِنْ يَكُنْ غَيْرُ ذَلِكَ نَسْتَوْثِقْ مِنْكَ، فَشَدَدْنَاهُ وَثَاقًا. [السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١٥١ كتاب السير باب الأسير يوثق رقم ١٨١٤٤].

وربط الأسير في هذه الوقائع لا يتنافى مع ما يقرره القانون الدولي، من أنه لا يجوز تكبيل الأسير إلا في حالة الهياج العصبي، إذ أن ربط الأسير في صدر الإسلام كان مجرد وسيلة لمنعه من الهرب لعدم تخصيص أماكن لهذا الغرض. [آثار الحرب في الفقه الإسلامي ـ د/ وهبة الزحيلي ص٣٨٦].

فكان ربط الأسير أمرًا مؤقتًا حتى يتقرر مصيره عندما تنتهي الحرب، ولو لم يفعل به كذلك لتمكن من الهروب بعد أسره، كما حدث لأسير أن فر من حجرة عائشة ﷺ كما روى البيهقي بسنده عَنْ عَائِشَةَ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا بِأَسِيرٍ وَعِنْدَهَا نِسْوَةٌ، فَلَهَّيْنَهَا عَنْهُ، فَذَهَبَ الأَسِيرُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ أَيْنَ الأَسِيرُ؟**»، فَقَالَتْ: نِسْوَةٌ كُنَّ عِنْدِي فَلَهَّيْنَنِي عَنْهُ فَذَهَبَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَطَعَ اللهُ يَدَكِ**»، وَخَرَجَ فَأَرْسَلَ فِي إِثْرِهِ فَجِيءَ بِهِ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَإِذَا عَائِشَةُ ﷺ قَدْ أَخْرَجَتْ يَدَيْهَا فَقَالَ: «**مَا**

---

(١) هو سهيل بن عمرو بن عبد شمس، القرشي العامري، من لؤي، خطيب قريش وأحد ساداتها في الجاهلية، أسلم يوم الفتح وهو الذي تولى أمر الصلح بالحديبية، كان عمر ﷺ يخشى مواقفه في الخطابة، مات بالطاعون بالشام سنة ١٨هـ. ينظر: الإصابة ١/ ٢٥٢.

لَكَ؟»، قَالَتْ: يا رسول الله، إِنَّكَ دَعَوْتَ عَلَيَّ بِقَطْعِ يَدِي وَإِنِّي مُعَلِّقَةٌ يَدِي أَنْتَظِرُ مَنْ يَقْطَعُهَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَجُنِنْتِ؟**»، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ مَنْ كُنْتُ دَعَوْتُ عَلَيْهِ فَاجْعَلْهُ لَهُ كَفَّارَةً وَطَهُورًا**».

[السنن الكبرى للبيهقي كتاب السير باب الأسير يوثق ٩/ ١٥٢ رقم ١٨١٤٧، وينظر منه كتاب قسم الفيء والغنيمة باب ما جاء في مَنِّ الإمام على من رأى من الرجال البالغين من أهل الحرب ٦/ ٣١٨].

وربط الأسرى أمر جائز بين الدول في العصر الحاضر، فللدولة أن تتخذ الاحتياطات اللازمة للمحافظة على الأسرى وعدم تمكينهم من اللحاق بالقوات التي كانوا منها، فلها أن تضعهم تحت المراقبة أو تعتقلهم في مدينة أو قلعة أو معسكر خاص. [القانون الدولي العام ـ د/ أبو هيف ص٦١٩].

وأخيرًا فإن الإسلام يقرر كل أوجه العناية بمعتقلات الأسرى وفق المصلحة العامة، وبحسب كل ما يتطلبه القانون الدولي الحديث وأكثر من ذلك؛ لأن أمر الرسول ﷺ: «**اسْتَوْصُوا بِالأَسَارَى خَيْرًا**».

[المعجم الكبير للطبراني ٢٢/ ٣٩٣ عن أبي عزيز بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي أخو مصعب بن عمير ﷺ، مجمع الزوائد ٦/ ١١٥ كتاب المغازي والسير، باب ما جاء في الأسرى رقم ١٠٠٠٧، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن].

أمر للعموم، والعموم يتناول جميع الأمكنة والأزمنة فكل ما يتضايق منه الأسير في حدود الأسر يجب أن يدفع عنه ولا يبقى عليه كما في قصة العباس ﷺ».

[آثار الحرب في الفقه الإسلامي ـ د/ الزحيلي ص٣٨٧]. [فقه السرايا للعيساوي ١٥١-١٥٣].

٨ ـ جواز المن (١) على الأسرى:

يقول د/ العيساوي: «يجيز المالكية أن يمن الإمام على السبي بإطلاق سراحهم إلى بلادهم بدون مقابل. [القوانين الفقهية ص١٤٨].

وكذلك الشافعية والحنابلة يجيزون لولي الأمر المن على السبي، ولكن بشرط استطابة أنفس الغانمين إما بالعفو منهم عن حقوقهم أو بمال يعوضهم من سهم المصالح، فإن كان المن عليهم لمصلحة عامة جاز أن يعوضهم من سهم المصالح، وإن كان الأمر يخصه عاوض عنهم من مال نفسه، ومن امتنع من الغانمين عن ترك حقه لم يجبر. [الأحكام السلطانية للماوردي ص١٢٩، والأحكام السلطانية لأبي يعلي ص١٢٨].

يتبين من هذا أن جمهور الفقهاء يجيزون المن على الأسير مطلقًا، قال الترمذي: العمل عن أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ، أن للإمام أن يمن على من شاء من الأسرى. [جامع الترمذي ٢/ ٣٨٦].

وقد استدل على جواز المن على السبي بعموم آية: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد:٤].

---

(١) المن في اللغة: قال صاحب القاموس: من عليه منًّا: أنعم واصطنع عنده صنيعه. (ترتيب القاموس المحيط ٢/ ٢٨٨، باب الميم)، والمن في اصطلاح الفقهاء: تخلية سبيل الأسير وإطلاق سراحه إلى بلاده بغير شيء يؤخذ منه. راجع فتح القدير ٤/ ٣٠٧.

واستدل أيضًا بما رواه البخاري ومسلم: «أن الرسول ﷺ مَنَّ على ثمامة بن أثال الحنفي».
[نيل الأوطار للشوكاني ٧/ ١٤٢].

والرسول ﷺ بعد قسمة سبي هوازن بحنين جاءه وفودهم مسلمين، فذكروه حرمة رضاعه فيهم من لبن حليمة رضي الله عنها فرد إليهم سبيهم من النساء والأطفال، بعد أن استطاب نفوس الغانمين كما روى البخاري وأبو داود والطبراني. [صحيح البخاري ٥/ ١٥٤، وسنن أبي داود ٣/ ٨٣، ومجمع الزوائد ٦/ ١٨٧].

وقد من الرسول ﷺ بعد بدر على سبي أهل اليمن بلا فدية ولا مال. [الأموال لأبي عبيد ص١٢٠].

وأما الحنفية فإنهم لا يجيزون المن حتى لا يعود السبي حربًا على المسلمين؛ لأن النساء يقع بهن النسل، والصبيان يبلغون فيصيرون حربًا كذلك. [ينظر: تبيين الحقائق للزيلعي ٢/ ٢٤٩، وفتح القدير ٤/ ٣٠٩].

وإن رأى الإمام النظر للمسلمين في المن عليهم على بعض الأساري، فلا بأس بذلك ويجوز للإمام أن يمن على الرقاب تبعًا للأراضي؛ لأن فيه منفعة للمسلمين من حيث الجزية والخراج.
[شرح السير الكبير ٣/ ١٠٣١، والمبسوط ١٠/ ٢٤- ٢٥، والخراج لأبي يوسف ص١٩٦، والبحر الرائق ٥/ ٨٣].

فالمن إذن جائز في الشرع الإسلامي، ثم إنه إذا مَنَّ ولي الأمر على أسير فإن ذلك يكون مدعاة للدخول في الإسلام تقديرًا منه لليد التي أنعمت عليه بإطلاق سراحه، وهذا ما حصل فعلًا، فقد أسلم ثمامة بن أثال رضي الله عنه بعد المن عليه. [نيل الأوطار للشوكاني ٧/ ١٤١].

وأسلم الهرمزان رضي الله عنه بعد أن منَّ عليه عمر رضي الله عنه ولم يقتله. [القسطلاني ٥/ ٢٢٣، الأموال لأبي عبيدة ص١٢٣].

فالمن على الأسير قد يكون مطلقًا وقد يكون مقيدًا. [الشرح الكبير للمقدسي ١٠/ ٥٧١، والمحرر ٢/ ١٨١].

فإذا خالف الأسير شروط المن جاز عقابه، فهذا أبو عزة الشاعر مَنَّ عليه الرسول ﷺ في معركة بدر وأخذ عليه عهدًا أن لا يظاهر عليه أحدًا، وامتدح رسول الله ﷺ بأبيات، ثم قَدِم مع المشركين في أُحُد فأُسر ولم يُؤسر غيره من قريش فقال: يا محمد، إنما خرجت كرهًا ولي بنات فامنن عليَّ، فقال رسول الله ﷺ: أين ما أعطيتني من العهد والميثاق، لا والله، لا تمسح عارضيك بمكة تقول سخرت بمحمد مرتين، ثم أمر بضرب عنقه؛ وذلك لمخالفته شروط المن».

[السنن للبيهقي ٦/ ٣٢٠، والبداية والنهاية لابن كثير ٣/ ٣١٣]. [فقه السرايا للعيساوي ١٥٤-١٥٦].

٩ ـ اغتسال المشرك إذا أسلم:

يقول د/ العيساوي: «دل اغتسال ثمامة رضي الله عنه قبل إسلامه، أنه ينبغي للإنسان أن يغتسل عن الجنابة؛ لأن المشركين لا يغتسلون عن الجنابة ولا يدرون كيف الغسل في ذلك.

وفي هذا بيان أن صفة الجنابة تتحقق في الكافر بمنزلة الحدث إذا وجد سببه، ولكن اختلف مشايخنا في أن الغسل متى يلزمه.

فمَنْ يقول إنهم يخاطبون بالشرائع، يقول الغسل واجب عليه في حال كفره، ولهذا لو أتى به صح.

ومن يقول: إنهم لا يخاطبون بالشرائع، فيقول إنما يلزمه الاغتسال بعد الإسلام؛ لأن صفة الجنابة مستدامة بعد الإسلام كإنشائه، وصحة الاغتسال منه قبل الإسلام لوجود سببه.

ولهذا لو انقطع دم الحائض قبل أن تسلم ثم أسلمت لا يلزمها الاغتسال به؛ لأنه لا استدامة للانقطاع، فإذا لم يوجد السبب بعد الإسلام، حقيقة وحكمًا لا يلزمها الاغتسال.

ومعنى قوله لا يدرون كيف الغسل، أنهم لا يأتون بالمضمضة والاستنشاق في الاغتسال من الجنابة، وهما فرضان؛ فلهذا يؤمر إذا أسلم بالاغتسال من الجنابة. [شرح السير الكبير ١/ ١٣٠].

واستدل عليه بحديث أبي هريرة ﷺ أن ثمامة ابن أثال ﷺ لما أسلم أمره رسول الله ﷺ أن يغتسل».
[نيل الأوطار للشوكاني ٧/ ١٤٢]. [فقه السرايا للعيساوي ١٥٦-١٥٧].

١٠ ـ أهمية معرفة الجوانب الحرجة لدى الأعداء للضغط عليهم:

يقول د/ الحميدي: «ما قام به ثمامة ﷺ من محاولة التضييق على أعداء الإسلام والمسلمين، حيث هدد مشركي مكة بمنع بيع الحنطة لهم، وكانت اليمامة آنذاك مصدرًا مهمًّا لتصدير الطعام إلى مكة.

وكون ثمامة ﷺ رَبط السماح بتصدير الحنطة إليهم بإذن النبي ﷺ يعتبر إعزازًا منه للمسلمين وتقوية لموقفهم مع أعدائهم، ولقد قام فعلًا بتنفيذ هذا التهديد كما جاء في رواية ابن هشام المذكورة، حتى اضطر كفار مكة إلى أن يخضعوا لرسول الله ﷺ فيكتبوا له كتابًا يتوسلون إليه فيه بصلة الرحم أن يأذن بذلك.

وهكذا أشعر ثمامة ﷺ المشركين بحاجتهم إلى رسول الله ﷺ، وذلك مما يضعف من قوتهم، وصمودهم على الوقوف في وجهه.

وكذلك موقف ثمامة ﷺ حينما أعلن إسلامه في مكة المكرمة وهي آنذاك تغلي بأهلها في عداوة الإسلام وأهله، وفي هذا إعزاز للإسلام وتقوية للمسلمين، وقد تعرض بسبب هذه الجرأة إلى الأذى من الكفار حتى قدموه ليضربوا عنقه، ولم ينقذه منهم إلا تذكر أحدهم لمصالحهم الاقتصادية في بلاده.

وقد ثبت على إسلامه ﷺ حينما ارتد قومه وتابعوا «مسيلمة الكذاب»، وارتحل بمن أطاعه من قومه إلى البحرين فقاتل المرتدين مع العلاء بن الحضرمي ﷺ». [التاريخ الإسلامي للحميدي٧/ ١٥٣].

ويقول د/ طنطاوي: «ولقد كان لهذا الرجل الكريم المعدن أثر عظيم في تثبيت قواعد الإسلام في بلاده بعد وفاة الرسول ﷺ، ومن مظاهر ذلك أنه نهى قومه عن اتباع مسيلمة الكذاب، وجعل يقول لهم: **إياكم والأمر المظلم الذي لا نور فيه، إنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه**، فأطاعه عدد كبير من قومه وثبتوا على الإسلام». [السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٨٧].

١١ ـ للإيمان أثره على الجانب المادي والمعنوي:

يقول د/ الغضبان: «ومنذ لحظة إسلام ثمامة ﷺ انقلب إنسانًا آخر، إنه إسلام الأعظم والجوارح والأعصاب لله، وليس كإسلامنا الذي يؤثر فينا تأثير القوة الضعيفة الواهية التي تكاد تنقطع من التيار، ها هو تيار الإيمان بكل قوته، وبكل فاعليته وبكل تأثيره يتدفق في أعماق ثمامة، فماذا فعل؟

فَلَـمَّا أَمْسَى جَاؤُوهُ بِمَا كَانُوا يَأْتُونَهُ مِنَ الطَّعَامِ فَلَمْ يَنَلْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا، وَبِاللَّقْحَةِ فَلَمْ يُصِبْ مِنْ حِلَابِهَا إِلَّا يَسِيرًا، فَعَجِبَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: حِينَ بَلَغَهُ ذَلِكَ: «**مِمَّ تَعْجَبُونَ؟ أَمِنْ رَجُلٍ أَكَلَ أَوَّلَ النَّهَارِ فِي مِعَى [مِعَاءِ] كَافِرٍ، وَأَكَلَ آخِرَ النَّهَارِ فِي مِعَى [مِعَاءِ] مُسْلِمٍ، إِنَّ الْكَافِرَ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ، وَإِنَّ الْمُسْلِمَ يَأْكُلُ فِي مِعًى [مِعَاءٍ] وَاحِدٍ**. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣٩].

هذا هو انعكاس الإيمان عن الجانب المادي فيه، وهو على عظمته ضئيل أمام انعكاسه على الجانب المعنوي فيه، فها هو يدخل الآن مكة بدين جديد وعقيدة جديدة.

قَالَ ابْنُ هِشَام: فَبَلَغَنِي أَنَّهُ خَرَجَ مُعْتَمِرًا، حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَطْنِ مَكَّةَ لَبَّى، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ مَكَّةَ يُلَبِّي، فَأَخَذَتْهُ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: لَقَدْ اخْتَرْتَ عَلَيْنَا، فَلَـمَّا قَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: دَعُوهُ، فَإِنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى الْيَمَامَةِ لِطَعَامِكُمْ، فَخَلُّوهُ، فَقَالَ الْحَنَفِيُّ فِي ذَلِكَ:

وَمِنَّا الَّـذِي لَبَّـى بِمَكَّـةَ مُعْلِنًـا ... بِرَغْمِ أَبِي سُفْيَانَ فِي الْأَشْهُرِ الـحُرُمْ

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣٩].

ولكن الأمر لم ينته عند قوة شكيمته، وعند إعلانه إسلامه في معقل الوثنية، وهو مُقبل على الموت، وقطع العنق، إنما تبلغ قمة التحدي، والاعتزاز بالإسلام أن يعلن في مكة معقل العداوة لمحمد ﷺ حلفه لمحمد، وقطعه كل الإمدادات، والمعونات الاقتصادية عن مكة حتى يأذن له رسول الله ﷺ.

وبذلك أصبحت مكة عُرضة للموت والجوع، أمام إصرار زعيم بني حنيفة وإسلامه.

وأن تتناقل الركبان أن سيد بني حنيفة قد قُتل، فهو حدث مهم، ولكنه مغر بثأر بني حنيفة، ومريح للأحزاب أن تقوم بنو حنيفة بغزو محمد ﷺ لقتله، وأن تتناقل الركبان أن سيد بني حنيفة أُسر وفُدي من الأسر بالمال الربيح، فهو أمر مهم وحديث مسل للسُّمَّار في مضارب البادية، لكن أن تتناقل الركبان أن سيد بنى حنيفة ثمامة بن أثال قد أسلم وقطع الميرة عن مكة بأمر محمد ﷺ فهو الحدث الجلل الذي تهتز له القيادات وتتماوج به المجالس، وتُعقد له الأندية لدراسة آثاره، وهو يؤكد الخطب الرهيب الذي تدفعه الأحزاب، وتكظ بأسنانها دون وقوعه هو أن أمر محمد ﷺ يعلو علوًّا منكرًا، وأنه لا قِبَل لأحد بمحمد ﷺ ولا طاقة، فنَجْدُ كلها بأكبر قبائلها جاهرت بالعداوة ضد محمد ﷺ، وقادت الجموع ضده، وفي أقل من شهرين، يسلم سيد اليمامة وينضم إليه، وهي ثغرة في جدار نجد كلها معقل العداوة الكبرى لسيد تهامة محمد ﷺ.

وانتقل الأمر من التهديد إلى التنفيذ الواقعي، وحاصت قيادات مكة حيصة الحُمُر، فقد انقطعت عنها الحنطة من ريف اليمامة، وعضها الجوع بنابه، وعزَّ الطعام والخبز، وضجت الناس إلى قيادتهم يرجون حلًّا لهذه الأزمة ولو اقتضى الأمر مصالحة محمد ﷺ، لقد أحست المرأة العجوز، والشيخ الفاني، والطفل الرضيع بالأزمة (فَحَالَ بَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ وَبَيْنَ الْمِيرَةِ مِنَ الْيَمَامَةِ، حَتَّى أَكَلَتْ قُرَيْشٌ الْعِلْهِزَ).

[دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٨١].

واتجهت الأنظار كلها إلى زعيم مكة أبي سفيان، فقد بدأت زعامته تهتز، وبدأ النقد العلني يُوجه إليه، فإلى أين يقودهم في حربه؟ وهل يدعهم يموتون جوعًا لهذا التحدي الذي لا طائل تحته؟!

وتزعزع كيان أبي سفيان، واستعرض الشريط الطويل وقاد الجموع من أقصى الأرض لحرب محمد ﷺ، وعادت الآلاف المؤلفة خاسرة حاقدة لم تنل خيرًا، واستنصر بإخوة القردة والخنازير من اليهود، فإذا كان لابد، أليس محمد ﷺ أولى من اليهود بالاتباع؟! ثم يصم أذنه عن هذه الخواطر، لكنه أين يفر من قومه، ومن جوع قومه، فقد يثورون عليه ويهدمون مجده ما لم يعالج الأزمة، وما كان منه ـ وبعد المشاورات المتعددة ـ إلا أن كتب إلى رسول الله ﷺ.

لقد قبلوا الاستكانة لمحمد ﷺ، ولجأوا إليه، لكن بينهم وبين الإيمان والاستكانة لله، والتضرع إليه أشواطًا طويلة لابد أن يقطعوها، حتى يصلوا إلى حظيرة الإيمان.

ونتابع مع ثمامة ﷺ ومع امتداد الزمن في سبر غور شخصيته، وصدق فراسة النبي ﷺ فيه، وذلك حين برزت فتنة مسيلمة الكذاب وانساقت بنو حنيفة كلها وراء هذا المتنبئ الدعي، واختاره رسول الله ﷺ ليكون الرمز الإسلامي المواجه لمسيلمة الكذاب (ولما ظهر مسيلمة وقوي أمره أرسل رسول الله ﷺ فُرات بن حيَّان العِجْلي إلى ثمامة في قتال مسيلمة وقتله). [**أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٤٧٨**].

لكن ثمامة ليس لديه من الجنود ما يستطيع به المواجهة والحرب، لقد بدأ حربه العلنية لمسيلمة بمواجهته الفكرية.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: لَـمَّا ارْتَدَّ أَهْلُ الْيَمَامَةِ عَنِ الإِسْلامِ لَمْ يَرْتَدَّ ثُمَامَةَ بْنِ أُثَالٍ، وَثَبَتَ عَلَى إِسْلَامِهِ، هُوَ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَكَانَ مُقِيمًا بِالْيَمَامَةِ يَنْهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ مُسَيْلِمَةَ وَتَصْدِيقِهِ، وَيَقُولُ: **إِيَّاكُمْ وَأَمْرًا مُظْلِمًا لا نُورَ فِيهِ، وَإِنَّهُ لَشَقَاءٌ كَتَبَهُ اللهُ ﷻ عَلَى مَنْ أَخَذَ بِهِ مِنْكُمْ، وَبَلاءٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِهِ مِنْكُمْ يَا بَنِي حَنِيفَةَ.**

[**أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٤٧٧ ط العلمية، الاستيعاب لابن عبد البر ١/ ٢١٥تح البجاوي**].

وطمع أن يجمع الأنصار والأتباع للمواجهة، لكن طغيان العصبية والقبلية كان أكبر من تأثير الإسلام في هذه النفوس، (فلما عصوه وأصفقوا (اجتمعوا) على اتباع مسيلمة عزم على مفارقتهم).

فهو في عظمة الإسلام في مكة، وإن فاته أن يجاهد المرتدين، فلن يفوته أن يتمايز وينفصل عنهم.

(ومر العلاء بن الحضرمي ومن معه على جانب اليمامة يريدون البحرين، وبها الحُطَم ومن معه من المرتدين من ربيعة)

وشعر أن هذه الكوكبة المسلمة هي أهله، وهي خاصته يحن إليها حنين الإبل إلى أولادها، وهي ماضية في جهادها، فوقف خطيبًا في المجموعة المسلمة معه: (فلما بلغه ذلك قال لأصحابه من المسلمين: إني والله ما أرى أن أقيم مع هؤلاء، وقد أحدثوا، وإن الله ضاربهم ببلية لا يقومون بها ولا يقعدون، وما

أرى أن نتخلف عن هؤلاء، يعني ابن الحضرمي وأصحابه، وهم مسلمون، وقد عرفنا الذي يريدون، وقد مروا بنا ولا أرى إلا الخروج معهم، فمن أراد منكم فليخرج).

وأتبع ثمامة ﷺ القول بالفعل، وانضم مع إخوانه المؤمنين إلى إخوانهم المجاهدين (فخرج ممدًّا للعلاء ومعه أصحابه من المسلمين، ففت ذلك في أعضاد عدوهم حين بلغهم مدد بني حنيفة، وشهد مع العلاء قتال الحطم).

وذاق حلاوة النصر على المشركين مع العلاء بن الحضرمي ﷺ (فانهزم المشركون وقُتلوا، وقسم العلاء الغنائم، ونفل رجالًا، فأعطى العلاء خميصة ـ كانت للحطم يباهي بها ـ رجلًا من المسلمين، فاشتراها منه ثمامة).

وقد اشترى بذلك الشهادة بعد أن ذاق النصر (فلما رجع ثمامة بعد هذا الفتح رأى بنو قيس ابن ثعلبة، قوم الحطم، خميصته على ثمامة، فقالوا: أنت قتلت الحطم، قال: لم أقتله، ولكني اشتريتها من المغنم، فقتلوه. أخرجه الثلاثة). [أسد الغابة لابن الأثير ١/ ٤٧٨]». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٣٨-١٤١].

١٢ ـ أهمية الحرب الاقتصادية على المشركين:

استعمل ﷺ الحصار الاقتصادي كسلاح للضغط على قريش وحلفائها من قبل المسلمين، وهذا ما دلت عليه سرية نجد، حيث قال ثمامة ﷺ وهو سيد اليمامة لقريش: **وَلا وَاللهِ لا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ (قمح) حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ**. [فقه السرايا للعيساوي ١٦٣].

وقد سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

١٣ ـ آداب الحرب وحقوق الإنسان:

يقول أ/ وجدي: «رأى المشركون أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ أن يأذن لثمامة ﷺ في عدم حبس حنطة اليمامة عنهم، فكتب إليه النبي ﷺ أن يخلِّي بينهم وبين حاجتهم منها، وهذا من الصفات العالية التي تؤثر عنه ﷺ، فإن قبوله إمداد أعدائه بما يقوتهم مع تمكنه من إجاعتهم وتضييق الخناق عليهم، يدل دلالة صريحة على أنه يرى أن للنضال آدابًا تجب مراعاتها، وأن للإنسانية حقوقًا فوق جميع الاعتبارات ينبغي الوفاء بها، وسلاح إجاعة الأعداء لتضييق المنادح عليهم مشروعة، ولكن والحرب قائمة، أَمَا والسلام ضارب أطنابه، فلا تصح مهما كانت درجة التوتر في العلاقات بين الفريقين».

[السيرة المحمدية لوجدي ٢٢٦].

١٤ ـ فوائد ذكرها الإمام ابن حجر:

يقول الإمام ابن حجر: «وَفِي قِصَّةِ ثُمَامَةَ ﷺ مِنْ الفَوَائِد:

(١) رَبْطُ الكَافِرِ فِي المَسْجِدِ.

(٢) وَالمَنُّ عَلَى الأَسِيرِ الكَافِرِ.

(٣) وَتَعْظِيمُ أَمْرِ العَفْوِ عَنْ المُسِيءِ؛ لِأَنَّ ثُمَامَةَ ﷺ أَقْسَمَ أَنَّ بُغْضَهُ انْقَلَبَ حُبًّا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَة لِمَا أَسْدَاهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ مِنْ العَفْو.

(٤) وَالمَنُّ بِغَيْرِ مُقَابِلٍ.

(٥) وَفِيهِ الاغْتِسَالُ عِنْدَ الإِسْلَام.

(٦) وَأَنَّ الإِحْسَانَ يُزِيلُ البُغْضَ وَيُثْبِتُ الحُبَّ.

(٧) وَأَنَّ الكَافِرَ إِذَا أَرَادَ عَمَلَ خَيْرٍ ثُمَّ أَسْلَمَ شَرَعَ لَهُ أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي عَمَل ذَلِكَ الخَيْر.

(٨) وَفِيهِ المُلَاطَفَةُ بِمَنْ يُرْجَى إِسْلَامُهُ مِنْ الأَسَارَى إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلإِسْلَامِ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَتَّبِعُهُ عَلَى إِسْلَامِهِ العَدَدُ الكَثِيرُ مِنْ قَوْمه.

(٩) وَفِيهِ بَعْثُ السَّرَايَا إِلَى بِلَادِ الكُفَّارِ، وَأَسْرُ مَنْ وُجِدَ مِنْهُمْ، وَالتَّخْيِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي قَتْلِهِ أَوْ الإِبْقَاءِ عَلَيْهِ». [فتح الباري ٧/ ٦٩٠ كتاب المغازي باب وفد بني حنيفة رقم ٤٣٧٢].

(١٠) الإسلام يُغَيِّر سلوك المؤمن حين يضع المسلم قدراته تحت إمرة الإسلام والمسلمين، كما فعل ثمامة ﷺ بعدم إرساله القمح لأهل مكة إلا بإذن من الرسول ﷺ.

(١١) ينبغي أن يخلع المؤمن على عتبة الإيمان، وعند تركه للكفر، كل علاقاته السابقة، والتزامه بأوامر رب العالمين بعد إيمانه. [صحيح السيرة للعلي ٢٩٥].

الفصل الثالث
غَزْوَةُ بَنِي لِحْيَانَ
الثلاثاء هلال ربيع الأول ٦هـ/٢١ يوليه (تموز) ٦٢٧م/ ٢٧ أبيب ٣٤٣ قبطي
المبحث الأول
عرض غَزْوَةِ بَنِي لِحْيَانَ

تاريخ الغزوة:

قال ابن كثير: هَا هُنَا ذَكَرَهَا الْبَيْهَقِيُّ فِي «الدَّلَائِلِ» (أي بين غزوة بني النضير وغزة ذات الرقاع سنة أربع)، وَإِنَّمَا ذَكَرَهَا ابنُ إِسْحَاقَ - فِيمَا رَأَيْتُهُ مِنْ طَرِيقِ هِشَامٍ عَنْ زِيَادٍ عَنْهُ - فِي جُمَادَى الْأُولَى مِنْ سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهِجْرَةِ بَعْدَ الْخَنْدَقِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ، وَهُوَ أَشْبَهُ مِمَّا ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ، وَاللهُ أَعْلَمُ. [البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٥٥٣].

وقَالَ ابْنِ إِسْحَاقَ: ثُمَّ أَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ بِالْمَدِينَةِ ذَا الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمَ وَصَفَرًا وَشَهْرَيْ رَبِيعٍ، وَخَرَجَ فِي جُمَادَى الْأُولَى عَلَى رَأْسِ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ فَتْحِ قُرَيْظَةَ إِلَى بَنِي لِحْيَانَ يَطْلُبُ بِأَصْحَابِ الرَّجِيعِ: خُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ وَأَصْحَابِهِ، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ الشَّامَ، لِيُصِيبَ مِنْ الْقَوْمِ غِرَّةً.[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٩].

وقال ابن القيم: ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَنِي لِحْيَانَ بَعْدَ قُرَيْظَةَ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ لِيَغْزُوَهُمْ.

[زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٧٦].

وقال الواقدي: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ وَهْبٍ أَبُو الْحَسَنِ الْأَسْلَمِيُّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مَرْوَانَ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ لِهِلَالِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ سِتٍّ فَبَلَغَ غُرَانَ (اسم وادي الأزرق خلف أَمَج بميل) وَعُسْفَانَ (قرية جامعة بين مكة والمدينة على نحو يومين من مكة)، وَغَابَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٥].

وقال المقريزي: صَحَّحَ جَمَاعَةٌ أَنَّ غَزْوَةَ بَنِي لِحْيَانَ هَذِهِ كَانَتْ بَعْدَ قُرَيْظَةَ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَأَنَّهَا كَانَتْ فِي جُمَادَى الْأُولَى، وَصَحَّحَ ابنُ حَزْم أَنَّهَا فِي الخَامِسَةِ». [إمتاع الأسماع للمقريزي ١/ ٢٥٨].

وقال الصالحي: «اختلفوا في أي شهر وفي أي سنة كانت هذه الغزوة، فقال ابن سعد: كانت هذه الغزوة لهلال ربيع الأول سنة ست، وصحح شيخه محمد بن عمر: أنها في سنة ست في رجب، وقال ابن إسحاق في رواية البكائي، وسلمة بن الفضل: على رأس ستة أشهر في جمادى الأولى، وقال في رواية يونس كما ذكره الحاكم: في شعبان، وقال ابن حزم: الصحيح أنها في السنة الخامسة، وذكرها بعضهم أنها في السنة الرابعة، وجزم الذهبي في تاريخ الإسلام وغيره من العلماء: بأنها في السادسة، وصححه في البداية». [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٥/ ٥١].

سبب الغزوة:

يقول أ/ باشميل: «كانت قبائل بني لحيان هذه (وهي من قبائل الحجاز) قد غدرت باثني عشر من خيرة أصحاب النبي ﷺ فقتلوهم جميعًا بعد أن أعطوهم الأمان، وأخذوهم من المدينة في جوارهم وذلك في السنة الرابعة من الهجرة.

وقد ذكرنا في حينه أن وفدًا من هذه القبائل جاؤوا إلى النبي ﷺ في المدينة متظاهرين بالإسلام وطلبوا من النبي ﷺ أن يرسل بعثة من أصحابه تعلم بني لحيان شرائع الإسلام، فاستجاب النبي ﷺ لهذا الطلب، فأوفد معهم بعثة تعليمية من خيرة أصحابه تتكون من عشرة أنفار على رأسهم البطل المشهور عاصم بن ثابت رضي الله عنه.

غير أن هذه البعثة لم تكد تصل ديار بني لحيان حتى غدر بها هؤلاء الخونة، فاستشهد جميع أفراد هذه البعثة حيث قتلوا جميعهم غدرًا. [1]

وقد تألم النبي ﷺ أشد الألم لفقد أولئك العشرة البررة الأعزاء عليه، وخاصة أنهم قتلوا بطريقة تمثل أحط أنواع الخيانة والغدر.

وكان النبي ﷺ راغبًا كل الرغبة في تأديب تلك القبائل الخائنة الغادرة، والاقتصاص منها لأولئك الشهداء من القراء الأبرار المغدور بهم، إلا أن الظروف في تلك السنة (وهي السنة الرابعة من الهجرة) كانت غير مواتية لتحقيق هذه الرغبة، حيث كان النبي ﷺ مشغولًا بدفع الأخطار الجسام التي تهدد الإسلام والمسلمين في عقر دارهم من الداخل والخارج، لا سيما مؤامرات اليهود الخطيرة التي يدبرونها للإطاحة بالمسلمين والتي كانت ثمرتها تلك الغزوة الرهيبة، غزوة الأحزاب، التي قاموا بها لسحق المسلمين في السنة الخامسة الهجرية نفسها». [صلح الحديبية لباشميل ٢٩-٣١].

«لم يُنس مرور الأيام رسولَ الله ﷺ أصحاب الرجيع، خبيب بن عدي وأصحابه رضي الله عنهم، فقد كان وجده شديدًا عليهم، فخرج بعد ستة أشهر من قريظة يريد بني لحيان». [من معين السيرة للشامي ٣٣٨].

«بعد رحيل الأحزاب انتقل المسلمون من دور الدفاع إلى دور الهجوم وأصبحوا يمسكون بأيديهم زمام المبادرة، وحان الوقت لتأديب بني لحيان الذين غدروا بخبيب وأصحابه يوم الرجيع، وأخذ ثأر الشهداء». [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٢١].

النبي ﷺ يقود الحملة بنفسه:

يقول أ/ باشميل: «غير أن النبي ﷺ لم يكد يتخلص من تلك الأخطار الجسام، على أثر فشل غزو الأحزاب واندحارهم ذلك الاندحار المشهور حتى تحرك بنفسه لتأديب أعراب بني لحيان من هذيل الغادرين الخونة.

---

(١) ينظر تفاصيل هذه الحادثة المؤلمة في مجموعة غزوة أحد من هذا الكتاب.

إذ تحرك من المدينة نحو منازل بني لحيان على رأس قوة قوامها مائتا مقاتل بينهم عشرون فارسًا، وذلك بعد مضي حوالي شهرين فقط على العملية الحاسمة الكبرى التي قام بها النبي ﷺ لتصفية يهود بني قريظة في المدينة.

وكانت غزوة (بني لحيان) أول حملة عسكرية يقودها النبي ﷺ بنفسه بعد غزوة بني قريظة التي انتهت في أواخر شهر ذي الحجة من السنة الخامسة للهجرة». [صلح الحديبية لباشميل ٣١].

استعماله ابن أم مكتوم ﷺ على المدينة:

فَخَرَجَ مِنْ الْمَدِينَةِ ﷺ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ﷺ، فِيمَا قَالَ ابْنُ هِشَامٍ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٩].

تضليل العدو:

يقول أ/ باشميل: «لقد كانت أرض (بني لحيان) من هُذيل تبعد عن المدينة أكثر من مائتين من الأميال، وهي مسافة بعيدة، يلاقي مشاقَّ كبيرة كل من يريد قطعها وخاصة إذا كان غازيًا، ولكن النبي ﷺ لم يبال بذلك، فقد كان حريصًا كل الحرص على الاقتصاص لأحبابه من الصحابة الذين استشهدوا (غدرًا) على يد هذه القبائل المتوحشة التي لا تقيم للعهود والمواثيق اعتبارًا.

وكما هي عادة النبي ﷺ في تضليل العدو الذي يريد مهاجمته اتجه بجيشه نحو الشمال بينما تقع منازل بني لحيان (الذين قرر غزوهم) في أقصى الجنوب.

وقد أعلن النبي ﷺ قبل تحركه نحو الشمائل: أنه يريد الإغارة على الشام.

وسبب هذه التعمية: هو أنه أدخل في حسابه وجود جواسيس في المدينة أو حواليها يعملون لحساب قبائل بني لحيان الذين كانت لهم صولة، ودولة قبل الإسلام.

واتجاهه نحو الشمال وإعلانه بأنه يريد غزو الشام يفوت على هؤلاء الجواسيس الغرض الذي من أجل تحقيقه قاموا بالتجسس، وحتى أصحابه كانوا لا يشكون في أنه يريد أن يغزو بهم الشام، ولم يعلموا أنه يريد بني لحيان إلا عندما انحرف بهم نحو الجنوب، بعد أن اتجه بهم متوغلًا نحو حوالي عشرين ميلًا، في حركة تمويهيه على العدو بارعة.

وكان تغيير خط سيره من الشمال إلى الجنوب عند مكان يقال له (البتراء)، ففي ذلك المكان عطف بجيشه نحو الغرب حتى استقام على الجادة منصبًّا نحو الجنوب». [صلح الحديبية لباشميل ٣١-٣٢].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَسَلَكَ عَلَى غُرَابٍ ـ جَبَلٍ بِنَاحِيَةِ الْـمَدِينَةِ عَلَى طَرِيقِهِ إِلَى الشَّامِ ـ ثُمَّ عَلَى مَحِيصٍ، ثُمَّ عَلَى الْبَتْرَاءِ، ثُمَّ صَفَّقَ ذَاتَ الْيَسَارِ، فَخَرَجَ عَلَى بِينٍ، ثُمَّ عَلَى صُخَيْرَاتِ الْيَمَامِ، ثُمَّ اسْتَقَامَ بِهِ الطَّرِيقُ عَلَى الْـمَحَجَّةِ مِنْ طَرِيقِ مَكَّةَ، فَأَغَذَّ السَّيْرَ سَرِيعًا، حَتَّى نَزَلَ عَلَى غُرَانٍ، وَهِيَ مَنَازِلُ بَنِي لِحْيَانَ، وَغُرَانٌ وَادٍ بَيْنَ

آمَجَ وَعُسْفَانَ، إِلَى بَلَدٍ يُقَالُ لَهُ سَايَةُ، فَوَجَدَهُمْ قَدْ حَذِرُوا وَتَمَنَّعُوا فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٩-٢٨٠].

وقال الواقدي: حَدَّثَنِي مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ وَغَيْرُهُمَا قَدْ حَدَّثَنِي، وَقَدْ زَادَ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ قَالُوا: وَجَدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عَاصِمِ بْنِ ثَابِتٍ وَأَصْحَابِهِ (قتلوا يوم بئر معونة) وَجْدًا شَدِيدًا، فَخَرَجَ فِي مِائَتَيْ رَجُلٍ وَمَعَهُمْ عِشْرُونَ فَرَسًا فِي أَصْحَابِهِ فَنَزَلَ بِمَضْرِبِ الْقُبَّةِ (لعله يريد قباء، وهي قرية بعوالي المدينة. وفاء الوفا ٢/ ٣٥٧) مِنْ نَاحِيَةِ الْجُرُفِ، فَعَسْكَرَ فِي أَوَّلِ نَهَارِهِ وَهُوَ يُظْهِرُ أَنَّهُ يُرِيدُ الشَّامَ، ثُمَّ رَاحَ مُبْرِدًا فَمَرَّ عَلَى غُرَابَاتٍ (ويقال غراب، بصيغة المفرد كما في ابن إسحاق، وهو جبل بناحية المدينة. السيرة النبوية ٣/ ٣٩٢)، ثُمَّ عَلَى بِينَ (قرية من قرى المدينة تقرب من السيالة. معجم ما استعجم ص١٨٩) حَتَّى خَرَجَ عَلَى صُخَيْرَاتِ الثُّمَامِ (ويقال الثمامة، كما ذكر السمهودي. وفاء الوفا ٢/ ٢٧٣. ورواه ابن إسحاق بالياء التحتية بدل المثلثة. السيرة النبوية ٣/ ٢٩٢)، فَلَقِيَ الطَّرِيقَ هُنَاكَ، ثُمَّ أَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَطْنِ غُرَانَ حَيْثُ كَانَ مُصَابُهُمْ، فَتَرَحَّمَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: «**هَنِيئًا لَكُمْ الشَّهَادَةُ!**». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٥-٥٣٦].

فرار اللحيانيين قبل وصول النبي ﷺ:

يقول أ/ باشميل: «ولقد بذلت قيادة الجيش النبوي قصارى جهدها في اتباع طريق السرية والكتمان، ومن ذلك سلوك السبل غير المطروقة؛ ليأخذوا الغادرين على حين غرة ويقتصوا منهم للشهداء المغدور بهم.

ولكن هذيل الغادرة، لتوقعها قيام النبي ﷺ بمثل هذه الحملة التأديبية، كانت على غاية التيقظ والانتباه، فقد بثت الأرصاد والجواسيس في الطرق ليتحسسوا لها ويتجسسوا.

لذلك فما كاد النبي ﷺ يقترب بجيشه من منازل هؤلاء الغادرين حتى انسحبوا منها فارين، فاعتصموا برؤوس الجبال وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم».

[صلح الحديبية لباشميل ٣٢-٣٣].

قال الواقدي: فَسَمِعَتْ بِهِ لِحْيَانُ فَهَرَبُوا فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ، فَلَمْ نَقْدِرْ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ، فَأَقَامَ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، وَبَعَثَ السَّرَايَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَحَدٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٦].

المطاردة:

يقول أ/ باشميل: «ولما وصل النبي ﷺ إلى ديار (بني لحيان) وتأكد له فرارهم منه، عسكر في ديارهم بجيشه، ثم بث السرايا، من رجاله ليتعقبوا هؤلاء الغادرين، ويأتوا إليه بمن يقدرون عليه.

وقد استمرت السرايا النبوية في البحث والمطاردة يومين كاملين إلا أنها لم تجد أي أثر لهذه القبائل التي تمنعت في رؤوس تلك الجبال الشاهقة.

الإقامة في أرض العدو:

وبعد أن يئس النبي ﷺ من العثور على (بني لحيان) أقام في ديارهم لإرهابهم وتحديهم (كما هي عادته)؛ وليظهر للأعداء مدى قوة المسلمين وثقتهم بأنفسهم، وقدرتهم على الحركة حتى إلى قلب ديار العدو متى شاؤوا.

إرهاب المشركين بمكة:

ولما كانت الحالة القائمة بين المسلمين ومشركي مكة في ذلك الظرف هي حالة حرب، فقد رأى النبي ﷺ أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريبًا من مكة فقرر أن يقوم بمناورة عسكرية يرهب بها المشركين في مكة.

فتحرك بجيشه حتى نزل به وادي عُسفان (واد شمال وادي فاطمة)، وهناك استدعى أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه وأمره بأن يتحرك بهم نحو مكة ليبث الذعر والفزع في نفوسهم، فاتجه الصدِّيق رضي الله عنه بالفرسان العشرة نحو مكة حتى وصل بهم كراع الغميم وهو مكان قريب جدًّا من مكة». **[صلح الحديبية لباشميل ٣٣-٣٤].**

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا نَزَلَهَا رَسُولُ الله ﷺ وَأَخْطَأَهُ مِنْ غِرَّتِهِمْ مَا أَرَادَ، قَالَ: «**لَوْ أَنَّا هَبَطْنَا عُسْفَانَ لَرَأَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنَّا قَدْ جِئْنَا مَكَّةَ**»، فَخَرَجَ فِي مِائَتَيْ رَاكِبٍ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى نَزَلَ عُسْفَانَ، ثُمَّ بَعَثَ فَارِسَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ حَتَّى بَلَغَا كُرَاعَ الْغَمِيمِ، ثُمَّ كَرَّ وَرَاحَ رَسُولُ الله ﷺ قَافِلًا. **[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٠].**

قال الواقدي: ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى أَتَى عُسْفَانَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه: «**إِنَّ قُرَيْشًا قَدْ بَلَغَهُمْ مَسِيرِي وَأَنِّي قَدْ وَرَدْتُ عُسْفَانَ، وَهُمْ يَهَابُونَ أَنْ آتِيَهُمْ فَاخْرُجْ فِي عَشَرَةِ فَوَارِسَ**»، فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فِيهِمْ حَتَّى أَتَوْا الْغَمِيمَ، ثُمَّ رَجَعَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَلَمْ يَلْقَ أَحَدًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ هَذَا يَبْلُغُ قُرَيْشًا فَيَذْعَرُهُمْ وَيَخَافُونَ أَنْ نَكُونَ نُرِيدُهُمْ**». **[المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٦].**

يقول أ/ باشميل: «سمعت قريش بذلك فظنت أن النبي ﷺ ينوي غزوها فانتابها الخوف والفزع والرعب، وساد صفوفها الذعر، وهذا هو الذي هدف إليه النبي ﷺ بهذه الحركة التي كلف الصديق رضي الله عنه أن يقوم بها.

أما الصديق رضي الله عنه وفرسانه العشرة رضي الله عنهم فبعد أن وصلوا كراع الغميم وعلموا أنهم قد أحدثوا الذعر والفزع في نفوس أهل مكة عادوا سالمين إلى النبي القائد ﷺ فتحرك بجيشه عائدًا إلى المدينة».

[صلح الحديبية لباشميل ٣٤].

الترحم على الشهداء:

يقول أ/ باشميل: «وعندما وصل النبي ﷺ إلى بطن (غران) حيث لقي الشهداء من أصحابه مصرعهم على أيدي الخونة من هذيل، ترحم على هؤلاء الشهداء ودعا لهم.

قال الواقدي: ثُمَّ أَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَطْنِ غُرَانَ حَيْثُ كَانَ مُصَابُهُمْ، فَتَرَحَّمَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: «**هَنِيئًا لَكُمْ الشَّهَادَةُ!**». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٦].

مقالة الرسول ﷺ في رجوعه:

كَانَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله رضي الله عنهما يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ حِينَ وَجَّهَ رَاجِعًا: **آيِبُونَ تَائِبُونَ إِنْ شَاءَ اللهُ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، أَعُوذُ بِالله مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ** (مشقته وشدته)، **وَكَآبَةِ** (الكآبة: سوء الحال والانكسار من الحزن، وتغير النفس بالانكسار وشدة الهم والحزن) **الْمُنْقَلَبِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ**.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٠].

وقال الواقدي: فَانْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ يَقُولُ: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ، عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ عَلَى الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِك مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ، اللَّهُمَّ بَلِّغْنَا بَلَاغًا صَالِحًا يَبْلُغُ إِلَى خَيْرٍ مَغْفِرَةً مِنْك وَرِضْوَانًا**».

وَغَابَ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ الْمَدِينَةِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَكَانَ اسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ رضي الله عنه، وَكَانَتْ سَنَةَ سِتٍّ فِي الْمُحَرَّمِ، وَهَذَا أَوَّلُ مَا قَالَ هَذَا الدُّعَاءَ، ذَكَرَهُ أَصْحَابُنَا كُلُّهُمْ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٧].

شعر كعب بن مالك رضي الله عنه في غزوة بني لحيان:

وَالْحَدِيثُ فِي غَزْوَةِ بَنِي لِحْيَانَ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَعَبْدِ الله بْنِ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه فِي غَزْوَةِ بَنِي لِحْيَانَ:

لَوْ أَنَّ بَنِي لِحْيَانَ كَانُوا تَنَاظَرُوا ... لَقُوا عُصَبًا فِي دَارِهِمْ ذَاتَ مَصْدَقِ [(١)]

لَقُوا سَرَعَانًا يَمْلَأُ السَّرْبَ رَوْعُهُ ... أَمَامَ طَحُونٍ كَالْمَجَرَّةِ فَيْلَقِ [(٢)]

وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا وِبَارًا تَتَبَّعَتْ ... شِعَابَ حِجَازٍ غَيْرَ ذِي مُتَنَفَّقِ [(٣)]

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٠-٢٨١].

---

(١) **تناظروا**: انتظروا. والعصب: الجماعات.

(٢) **سرعان**: من يتقدمون الجيش. **والسرب**: الطريق. **والطحون**: الكتيبة الضخمة. **والمجرة**: مجموعة من النجوم. **والفيلق**: الكتيبة الشديدة.

(٣) **الوبار**: جمع وبر، وهي دويبة صغيرة على قدر الهرة، وتشبه بها العرب الضعيف. **الشِّعاب**: جمع شِعب، وهو المنخفض من الأرض. **وحجاز**: أرض مكة وما يليها. **والمتنفق**: الذي له منفذ ينفذ منه.

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٦٤٤.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٥٣٦-٥٣٩، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٢٧٩-٢٨١، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٣٥، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٧٤، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٥٩٥، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٣/ ٣٦٤-٣٦٨ بعد النضير، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٢٠٦، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٢٤٥-٢٤٦ بعد النضير، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٧٦، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٥/ ٥٥٣-٥٥٨ بعد النضير، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٥٨، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٥/ ٥٠-٥٤.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٩٦، السيرة النبوية لرزق الله ٤٦٨-٤٧٠، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٢١-٣٢٣.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٢٩-٣٥، غزوة الحديبية لأبي خليل ١٧-٢٠، فقه الغزوات للعيساوي ٣٣٥ + ٣٥٩.

خرائط غَزْوَةِ بَنِي لِحْيَانَ

(١)

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٤٤.

(٢)

غزوة بني لحيان في جمادى الأولى من السنة السادسة للهجرة المباركة

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٦٨.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من غَزْوَةِ بَنِي لِحْيَانَ

١ ـ هدف الغزوة:

(١) عقاب بني لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء الرجيع قبل عامين خلوا، وهم ستة من كبار الصحابة: اغتالوا أربعة منهم، وباعوا الاثنين الباقيين لقريش، فضربت قريش عنق أحدهما، وصلبت الآخر.

(٢) التأثير في معنويات قريش والقبائل الأخرى، وإطلاعهم عمليًّا على عاقبة الذين يغدرون بالمسلمين. [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٤٨**].

ويقول د/ الغضبان: «إنها عملية استطلاعية، هدفت إلى بث الذعر والرهبة في صفوف العدو، وقد حققت هذا الهدف، كما بثت الذعر في صفوف بني لحيان، وإن فات رسول الله ﷺ الإيقاع بهم، لكن منطقة الحجاز كلها أصبحت تتحسب لقوة محمد ﷺ، وتتوقع في كل يوم غزوًا جديدًا لمواقعها».

[**التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٥٤**].

ويقول أ/ حوى: «هذه الغزوة وإن لم تحقق هدفها الأساسي، وهو الثأر لحادثة الرجيع، لكنها أوقعت الرعب في قلوب أهل المنطقة، وأرتهم أن محمدًا ﷺ لا ينام على ثأر، وأنه وراء المسيئين لن يتركهم حتى يعاقبهم، أو يُسلموا، أو يعاهدوا». [**الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٤٤**].

٢ ـ جواز الخدعة في الحرب:

حيث إن الرسول ﷺ لما أراد غزوهم توجه إلى الشمال من المدينة، وأظهر أنه يريد الشام، في حين أن القوم يسكنون بين أمج وعُسفان في وادي غُزان، يريد بذلك مفاجأتهم في عقر دارهم.

[**فقه الغزوات للعيساوي ٣٣٦**].

إن رسول الله ﷺ في هذا التحرك أخفى وجهته وغيَّر طريقه؛ حتى يخفي على العدو نيته ليصيبه غرة، وهذا أسلوب جديد في المواجهة يستهدف وقوع المفاجأة في مكان لا يتوقعه العدو.

[**العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣٠٨**].

وسبق تفصيل هذا الدرس في أكثر من غزوة.

٣ ـ أهمية المباغتة في الحرب:

يقول ل/ خطاب: «تكون المباغتة بالوقت، والمكان، والأسلوب.

المباغتة بالمكان: أن تقوم بحركة من مكان لا يتوقعه العدو.

والمباغتة بالزمان: أن تقوم بحركة في وقت لا يتوقعه العدو.

والمباغتة بالأسلوب: أن تقوم بالقتال بأسلوب جديد أو بسلاح جديد.

والقائد العبقري هو الذي يحاول أن يباغت خصمه حتى يقضي عليه ماديًّا ومعنويًّا؛ لأن المباغتة الناجحة تشل حركة العدو وتقضي عليه كليًّا.

لقد طبَّق الرسول ﷺ كل أساليب المباغتة؛ فقد رأينا كيف باغت الأحزاب بأسلوب جديد في القتال هو حفر الخندق، كما رأينا كيف أنه باغت قريشًا بالقتال بأسلوب الصفوف في غزوة (بدر) الحاسمة.

وفي غزوة بني قريظة باغت يهودًا بالزمان في حركته بسرعة ما كانوا ليتوقعوها، فشلَّ معنوياتهم واحتفظ بالمبادأة بيده حتى نهاية المعركة.

وفي غزوة بني لحيان تحرك شمالًا باتجاه الشام حتى لا يعرف بنو لِحيان وقريش اتجاه حركته الحقيقية، وبذلك باغتهم بالمكان.

إنَّ المباغتة أهم مبادئ الحرب قديمًا وحديثًا، حرص المسلمون على تطبيق هذا المبدأ في أكثر غزواتهم، مما ساعدهم على النصر». [**الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٥٨-٢٥٩**].

ومفاجأة العدو بالهجوم ليلًا، أو في أنواء صعبة، أو في مواقع لا يتوقع الهجوم منها، من الخدع الحربية المشروعة في قانون الحرب الدولي العام.

ومشروع أيضًا التخفي والاستتار عن أنظار العدو، وأَخْذه على حين غرة.

[**الحرب في القانون الدولي العام ١١٣، ١١٤، والغرة: الغفلة**]. [**صلح الحديبية لأبي خليل ١٨**].

وسبق تفصيل هذا الدرس في أكثر من غزوة وسرية.

٤ ـ الثأر لشهداء الإسلام في بئر معونة:

يقول الشيخ الصوياني: «انطلق النبي ﷺ وأصحابه ﭫ إلى تلك الأرض التي غُدِرَ فيها بأولئك الشباب الأطهار، انطلق ﷺ بجيشه جنوبًا إلى تلك الأرض التي تقع بين عسفان ومكة، أرض بني سليم: رعل وذكوان ولحيان وعصية التي عصت الله ورسوله ﷺ، فماذا حدث في: غزوة بني لحيان.

يبدو أن بني سليم: رعل وذكوان وعصية، وكذلك لحيان قد علموا بقدوم النبي ﷺ، وأدركوا فداحة جرمهم وشناعة خيانتهم للعهد، وانتهاكهم لحقوق جارهم ملاعب الأسنة، ورأوا بأعينهم ما حدث لذلك الشيطان الذي عبث بعقولهم من عقاب إلهي، وأدركوا بركان الغضب الإسلامي الزاحف نحوهم، فهربوا كحمير مستنفرة فرَّت من قسورة، هؤلاء الخونة يحتاجون إلى من يجرهم من جحورهم فردًا فردًا، والنبي ﷺ وجيشه ليس لديهم وقت لهذا.

فالعودة إلى المدينة أنسب في الوقت الحاضر، لكن لا بد من التخطيط للقضاء على مصادر الشر والجريمة المحيطة بالمدينة، لا بد من تأديب تلك القبائل التي تتآمر على الإسلام والمسلمين، فالنبي ﷺ جاء للأرض كلها، جاء بالسلام للعالم أجمع، ولا يجوز حرمان العالم من هذه الرسالة الإلهية بسبب مجرم أو مجرمين من المشركين أو من اليهود». [**السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٣٠٣-٣٠٤**].

٥ ـ أهمية المناورات العسكرية في إرهاب العدو:

يقول أ/ باشميل: «رأى النبي ﷺ أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريبًا من مكة، فقرر أن يقوم بمناورة عسكرية يرهب بها المشركين في مكة، فتحرك بجيشه حتى نزل به وادي عسفان، وهناك استدعى أبا بكر الصديق ﷺ، وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه وأمره بأن يتحرك بهم نحو مكة ليبث الذعر والفزع في نفوسهم، فاتجه الصديق ﷺ بالفرسان العشرة نحو مكة حتى وصل بهم كراع الغميم، وهو مكان قريب جدًّا من مكة، فسمعت قريشٌ بذلك فظنت أن النبي ﷺ ينوي غزوها فانتابها الخوف والفزع والرعب، وساد صفوفها الذعر، وهذا هو الذي هدف إليه النبي ﷺ بهذه الحركة التي كلف الصديق ﷺ أن يقوم بها». [صلح الحديبية لباشميل ٣٣-٣٤].

ويقول أ/ رضوان: «لم يرد الرسول ﷺ الرجوع إلى المدينة بعد غزوة بني لحيان من غير تحقيق هدف مهم لهذه الحملة، فأمر جيشه بالهبوط إلى عسفان قرب مكة.

وقد أراد الرسول ﷺ بهذا العمل العسكري إرهاب قريش، وتحطيم روحها المعنوية تمامًا، وإفهامها أنه بنصر الله للمؤمنين في غزوة الأحزاب تحولت المواقف لصالح أمة الإسلام المشرقة، وأن النصر النهائي هو من نصيب المسلمين». [محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٩٨].

ويقول أ/ الشامي: «ولا شك أنه كان لهذه الغزوة أثرها المعنوي الكبير، فقد وصلت خيل رسول الله ﷺ قريبًا من مكة، مكة التي كانت تلقي بثقلها قبل أشهر حول المدينة، كما أن كل مَنْ سمع بمسير الرسول ﷺ هابه وخافه، ومن جملة هؤلاء قريش، التي لا شك أصبحت تحسب له حسابه بمقاييس جديدة تختلف عن مقاييسهم قبل الخندق». [من معين السيرة للشامي ٣٣٨].

٦ـ ذِكْر صلاة الخوف في هذه الغزوة:

لم يذكر أحد كُتاب السيرة أن المشركين خرجوا لرسول الله ﷺ في عسفان حينما أرسل أبا بكر ﷺ إليها، ومع ذلك ذكر ابن كثير وغيره أحاديث صلاة الخوف ولقاء خالد بن الوليد ﷺ لهم في عسفان، وربما كان هذا اللقاء في غزوة أخرى أو في غزوة الحديبية كما سبق تفصيله في الحديث عن صلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع من مجموعة غزوة أحد، وفي المرحلة الثانية من غزوة الأحزاب.

الفصل الرابع

سَرِيَّةُ عُكَّاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ ﷺ إِلَى الْغَمْرِ (١)

ربيع الأول ٦هـ/يوليه (تموز) ٦٢٧م/ مسرى ٣٤٣ قبطي

المبحث الأول

عرض سَرِيَّةِ عُكَّاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ ﷺ إِلَى الْغَمْرِ

تاريخ السرية:

أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الْأَصْبَهَانِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ الْجَهْمِ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَرَجِ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْوَاقِدِيُّ، قَالَ: وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ أَوْ قَالَ: الْآخِرِ سَنَةَ سِتٍّ مِنْ قُدُومِهِ الْمَدِينَةَ عُكَّاشَةَ بْنَ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيَّ ﷺ فِي أَرْبَعِينَ رَجُلًا إِلَى الْغَمْرِ، وَفِيهِمْ ثَابِتُ بْنُ أَقْرَمَ وَسِبَاعُ بْنُ وَهْبٍ، فَأَغَذَّ السَّيْرَ، وَنَذِرَ الْقَوْمُ بِهِمْ، فَهَرَبُوا، فَنَزَلَ عَلَى مِيَاهِهِمْ، وَبَعَثَ الطَّلَائِعَ، فَأَصَابُوا مَنْ دَلَّهُمْ عَلَى بَعْضِ مَاشِيَتِهِمْ، فَوَجَدُوا مِائَتَيْ بَعِيرٍ، فَسَاقُوهَا إِلَى الْمَدِينَةِ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٨٢-٨٣].

عرض السرية:

يقول أ/ باشميل: «كانت قبائل بني أسد ـ وهي من أقوى القبائل النجدية ـ قد اشتركت ـ بقيادة طليحة بن خويلد ـ في معركة الخندق إلى جانب الأحزاب ضد المسلمين، فأصبحت بذلك عدوًّا محاربًا للمسلمين.

فكان من البدهي أن يقوم النبي ﷺ بتأديبها وإرهابها بالإغارة عليها لإعطائها درسًا بأن المسلمين في حالة من القوة العسكرية تمكنهم من أن يصلوا بهجماتهم إلى قلب بني أسد.

لذلك جهز حملة تأديبية إلى ديار بني أسد، صغيرة في عدة رجالها، كبيرة في معناها، عظيمة في تأثيرها.

وقد أسند النبي ﷺ قيادة هذه الحملة إلى الصحابي الشهير عكاشة بن محصن ﷺ، وهو من بني أسد أنفسهم، وكان عدد رجال هذه الحملة أربعين فارسًا.

وقد أمره بأن يغير على بني أسد في ديارهم.

فتحرك عكاشة ﷺ برجاله، وما يزال يغذ السير بهم ليفاجئ الوثنيين من قومه، غير أن القوم نذروا به (علموا به) قبل وصوله، فهربوا واعتصموا بالمناطق الجبلية من بلادهم، ولما وصل عكاشة ﷺ إلى ديارهم لم يجد بها أحدًا منهم.

غير أن القائد عكاشة ﷺ لم ييأس، فبعث بشجاع بن وهب ﷺ طليعة (عينًا عليهم)، فعاد وأخبر القائد أنه رأى أثر نعم قريبًا، فتحرك بقواته في اتجاه الأثر فوجد رجلًا نائمًا فسأله عن بني أسد، فقال: وأين بنو أسد؟؟ قد لحقوا بعليات بلادهم عندما نذروا بكم.

---

(١) **الغمر**: هو ماء لبني أسد على ليلتين من فيد، كما قال ابن سعد. الطبقات ٢/ ٦١.

ولما سألوه عن النَّعَم قال: أخذوها معهم، غير أن أحد رجال استخبارات الحملة ضربه بالسوط للحصول منه على معلومات، ولما أحس بالضرب قال: أتؤمنوني على دمي وأطلعكم على نعم لبعض القوم لم يعلموا بمسيركم إليهم؟ قالوا: نعم.

فانطلقوا معه بعد أن أمنوه، فأمعن بهم في الطلب، حتى خافوا أن يكون ذلك منه استدراجًا وغدرًا فاستوقفه القائد عكاشة ﷺ وقال له: والله لتصدقنا أو لنضربن عنقك.

وهنا خاف فقال: ارتقوا هذا المكان المرتفع ثم انظروا، فلما أشرفوا من ذلك المكان الذي أشار إليه وجدوا نعمًا (إبلًا) رواتع، فأغاروا عليها فاستقوها فإذا هي مائتا بعير، فاكتفوا بذلك حيث فاتهم القوم هربًا، ثم عادوا إلى المدينة ولم يلقوا كيدًا. [**صلح الحديبية لباشميل ٢٧-٢٩**].

قال الواقدي: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ، عَنْ عَبْدِ رَبِّهِ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ يُحَدِّثُ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عُكَّاشَةَ بْنَ مِحْصَنٍ فِي أَرْبَعِينَ رَجُلًا - مِنْهُمْ ثَابِتُ بْنُ أَقْرَمَ، وَشُجَاعُ بْنُ وَهْبٍ، وَيَزِيدُ بْنُ رُقَيْشٍ، فَخَرَجَ سَرِيعًا يُغِذُّ السَّيْرَ، وَنَذَرَ الْقَوْمَ، فَهَرَبُوا مِنْ مَائِهِمْ فَنَزَلُوا عَلْيَاءَ بِلَادِهِمْ، فَانْتَهَى إِلَى الْمَاءِ فَوَجَدَ الدَّارَ خُلُوفًا، فَبَعَثَ الطَّلَائِعَ يَطْلُبُونَ خَبَرًا أَوْ يَرَوْنَ أَثَرًا حَدِيثًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ شُجَاعُ بْنُ وَهْبٍ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ رَأَى أَثَرَ نَعَمٍ قَرِيبًا، فَتَحَمَّلُوا فَخَرَجُوا حَتَّى يُصِيبُوا رَبِيئَةً لَهُمْ قَدْ نَظَرَ لَيْلَتَهُ يَسْمَعُ الصَّوْتَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ نَامَ فَأَخَذُوهُ وَهُوَ نَائِمٌ، فَقَالُوا: الْخَبَرَ عَنْ النَّاسِ! قَالَ: وَأَيْنَ النَّاسُ؟ قَدْ لَحِقُوا بِعَلْيَاءِ بِلَادِهِمْ! قَالُوا: فَالنَّعَمُ؟ قَالَ: مَعَهُمْ، فَضَرَبَهُ أَحَدُهُمْ بِسَوْطٍ فِي يَدِهِ، قَالَ: تُؤَمِّنُنِي عَلَى دَمِي وَأُطْلِعُكَ عَلَى نَعَمٍ لِبَنِي عَمٍّ لَهُمْ، لَمْ يَعْلَمُوا بِمَسِيرِكُمْ إِلَيْهِمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَانْطَلَقُوا مَعَهُ، فَخَرَجَ حَتَّى أَمْعَنَ، وَخَافُوا أَنْ يَكُونُوا مَعَهُ فِي غَدْرٍ، فَقَرَّبُوهُ فَقَالُوا: وَاللهِ لَتَصْدُقَنَّا أَوْ لَنَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ! قَالَ: تَطْلُعُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ هَذَا الظُّرَيْبِ (تصغير ظرب، وهو الجبل المنبسط الصغير)، قَالَ: فَأَوْفَوْا عَلَى الظُّرَيْبِ فَإِذَا نَعَمٌ رَوَاتِعُ، فَأَغَارُوا عَلَيْهِ فَأَصَابُوهُ، وَهَرَبَتْ الْأَعْرَابُ فِي كُلِّ وَجْهٍ، وَنَهَى عُكَّاشَةُ ﷺ عَنْ الطَّلَبِ، وَاسْتَاقُوا مِائَتَيْ بَعِيرٍ فَحَدَرُوهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَرْسَلُوا الرَّجُلَ، وَقَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يُصَبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَمْ يَلْقَوْا كَيْدًا.

[**المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٠-٥٥١**].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ - كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢٠.

ب - كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٥٠-٥٥١، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨١، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٦٤٠، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٨٢-٨٣، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٢، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٨٠، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٢٤٠، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٦٥ -٢٦٦، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٢٣-١٢٦.

ج - كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٤٧٠، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٢٤.

د - كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٢٧-٢٩، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٨٧ - ٨٨، فقه السرايا للعيساوي ١١٥ + ١٣٠.

خرائط سَرِيَّةِ عُكَّاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ ﷺ إلَى الغَمْرِ

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٤٦.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من سَرِيَّةِ عُكَّاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ ﷺ إلَى الْغَمْرِ

١ـ مشروعية التعرض لأموال الحربيين والاستيلاء عليها:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٢ ـ حكم الغنائم وكيفية قسمتها:

سبق تفصيله في المرحلة الثالثة من غزوة بدر الكبرى.

٣ ـ النصر بالرعب:

يقول أ/ باشميل: «ولقد أثبتت عمليات هذه الحملة العسكرية أن الرعب من المسلمين قد شحن نفوس الأعراب، وحتى أعظمهم شراسة وأشدهم بأسًا مثل قبيلة بني أسد التي ما كان يتوقع أحد أنها (وهي القبيلة العظيمة) ستفر (وفيها آلاف الفرسان) بمجرد علمها أن المسلمين ينوون القيام بغزو أراضيها، ولا شك أن هذا مصداقًا لقول النبي ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ**» الحديث».

[صلح الحديبية لباشميل ٢٩].

والنصر بالرعب من خصائص هذه الأمة، يقول رسول الله ﷺ: « **نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**...».

[البخاري في التيمم (٣٣٥)، وفي الصلاة (٤٣٨)، وفي الجهاد والسير، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢)].

وفي لفظ لأحمد: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَيُرْعَبُ مِنِّي الْعَدُوُّ عَنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ**».

[مسند أحمد ٣٥/ ٢٢٤ عن أبي ذر الغفاري ﷺ رقم ٢١٢٩٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن إسحاق وقد توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين].

وفي لفظ لمسلم: « **نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى الْعَدُوِّ**». [مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)].

وفي رواية: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى عَدُوِّي مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ: شَهْرٍ خَلْفِي وشَهْرٍ أَمَامِي**».

[سبل السلام ١/ ١٢٦].

٤ ـ دروس سبق تفصيلها:

ينظر الدروس المستفادة من سرية أبي سلمة ﷺ إلى قطن ٤ هـ.

الفصل الخامس

غَزْوَةُ الغَابَةِ (ذِي قَرَدٍ) (١)

السبت ٣ ربيع الآخر ٦هـ/٢٢ أغسطس (آب) ٦٢٧م/ ٢٩ مسرى ٣٤٣ قبطي

المبحث الأول

عرض غَزْوَةِ الغَابَةِ (ذِي قَرَدٍ)

تاريخ الغزوة:

قال الواقدي: حَدَّثَنِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، عَنْ إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَغَارَ عُيَيْنَةُ لَيْلَةَ الْأَرْبِعَاءِ لِثَلَاثٍ خَلَوْنَ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةَ سِتٍّ (٢)، وَغَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي طَلَبِهِ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، فَغِبْنَا خَمْسَ لَيَالٍ وَرَجَعْنَا لَيْلَةَ الِاثْنَيْنِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٧].

وقال ابن القيم: وَهَذِهِ الْغَزْوَةُ كَانَتْ بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَقَدْ وَهِمَ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ المَغَازِي وَالسِّيَرِ، فَذَكَرُوا أَنَّهَا كَانَتْ قَبْلَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَاهُ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَالْحَسَنُ بْنُ سُفْيَانَ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ قَالَ: حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ قَالَ: حَدَّثَنِي إِيَاسُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَدِمْتُ المَدِينَةَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: خَرَجْتُ أَنَا وَرَبَاحٌ بِفَرَسٍ لِطَلْحَةَ أُنَدِّبُهُ مَعَ الْإِبِلِ، فَلَمَّا كَانَ بِغَلَسٍ أَغَارَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُيَيْنَةَ عَلَى إِبِلِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَتَلَ رَاعِيَهَا... وَسَاقَ الْقِصَّةَ، رَوَاهَا مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» بِطُولِهَا.

وَوَهِمَ عَبْدُ المُؤْمِنِ بْنُ خَلَفٍ فِي «سِيرَتِهِ» فِي ذَلِكَ وَهْمًا بَيِّنًا فَذَكَرَ غَزَاةَ بَنِي لِحْيَانَ بَعْدَ قُرَيْظَةَ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ، ثُمَّ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ لَمْ يَمْكُثْ إِلَّا لَيَالِيَ حَتَّى أَغَارَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُيَيْنَةَ وَذَكَرَ الْقِصَّةَ.

وَالَّذِي أَغَارَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَقِيلَ: أَبُوهُ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ سَلَمَةَ ﷺ: قَدِمْتُ المَدِينَةَ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ؟ [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٨٠].

وقال المقريزي: وكانت غزوة الغابة، ويقال: غزاة ذي قرد، وهو ماء على بريدٍ من المدينة، في ربيع الأول، وقال ابن عبد البر: كانت بعد لحيان بليال، وقال البخاري: كانت قبل خيبر بثلاثة أيام، وفي مسلم نحوه، وفيه نظر؛ لإجماع أهل السير على خلافه. [إمتاع الأسماع ١/ ٢٥٩].

---

(١) **ذو قرد:** على نحو يوم من المدينة مما يلي غطفان، ويقال هو بين المدينة وخيبر على يومين من المدينة. وفاء الوفا ٢/ ٣٦٠. وقرد: جبل أسود بأعلى وادي «النقمى» شمال شرقي المدينة، على قرابة ٣٥ كيلًا. المعالم الأثيرة في السنة والسيرة لشراب ص ٢٢٤، ومعجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية للبلادي ص ٢٥٠.

(٢) يبدأ شهر ربيع الآخر ٦ هـ يوم الخميس، وبالتالي فالثالث منه يوم السبت وليس الأربعاء.

قلت: جمعتْ رواية الإمام مسلم بين حديث سلمة ﷺ عن الحديبية، ثم عن غزوة ذي قرد، ثم عن غزوة خيبر، وذكرتْ أن غزوة خيبر كانت بعد عودتهم من غزوة ذي قرد بثلاث ليال، وهذا ما لم يقله أحد من كتاب السيرة، ودواوين السنة، فإن الثابت عن تاريخ صلح الحديبية أنه ﷺ خرج لهلال ذي القعدة سنة ست (ذكر د/ الحكمي أقوال العلماء في الإجماع على ذلك بلا خلاف. مرويات صلح الحديبية ٤٣ وما بعدها)، ومن الثابت تاريخيًّا ـ أيضًا ـ أن غزوة خيبر كانت في المحرم من السنة السابعة [صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٣٨]، فيبعد أن يتأخر النبي ﷺ في مسيره إلى الحديبية والعودة منها من هلال ذي القعدة إلى نهاية ذي الحجة، بل إن أعلى الأقوال في مدة صلح الحديبية شهر ونصف.

[ينظر: مرويات صلح الحديبية للحكمي ص ٤٤٩ وما بعدها].

ومن ناحية أخرى فإن الإمام البخاري ذكر تاريخها معلقًا.

وقد حاول الإمام ابن حجر تقريب الأقوال بقوله: «قَوْله: (وَهِيَ الْغَزْوَةُ الَّتِي أَغَارُوا فِيهَا عَلَى لِقَاحِ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ خَيْبَرَ بِثَلَاثٍ) كَذَا جَزَمَ بِهِ، وَمُسْتَنَدُهُ فِي ذَلِكَ حَدِيث إِيَاسِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ عَنْ أَبِيهِ، فَإِنَّهُ قَالَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِم مِنْ طَرِيقه «قَالَ: فَرَجَعْنَا ـ أَيْ مِنْ الْغَزْوَةِ ـ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللهِ مَا لَبِثْنَا بِالْمَدِينَةِ إِلَّا ثَلَاثَ لَيَالٍ حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ».

وَأَمَّا اِبْنُ سَعْدٍ فَقَالَ: «كَانَتْ غَزْوَةُ ذِي قَرَدٍ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةَ سِتٍّ قَبْلَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَقِيلَ: فِي جُمَادَى الْأُولَى».

وَعَنْ اِبْنِ إِسْحَاقَ فِي شَعْبَانَ مِنْهَا، فَإِنَّهُ قَالَ: «كَانَتْ بَنُو لِحْيَانَ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ سِتٍّ، فَلَمَّا رَجَعَ النَّبِيّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمْ يَقُمْ بِهَا إِلَّا لَيَالِيَ حَتَّى أَغَارَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ عَلَى لِقَاحِهِ».

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ شَارِحُ مُسْلِمٍ فِي الْكَلَامِ عَلَى حَدِيثِ سَلَمَةَ بْن الْأَكْوَعِ: لَا يَخْتَلِفُ أَهْلُ السِّيَرِ أَنَّ غَزْوَةَ ذِي قَرَدٍ كَانَتْ قَبْلَ الْحُدَيْبِيَة، فَيَكُون مَا وَقَعَ فِي حَدِيث سَلَمَةَ مِنْ وَهْمِ بَعْضِ الرُّوَاةِ.

قَالَ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُجْمَعَ بِأَنْ يُقَالَ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ النَّبِيّ ﷺ كَانَ أَغْزَى سَرِيَّةً فِيهِمْ سَلَمَةُ بْن الْأَكْوَع ﷺ إِلَى خَيْبَرَ قَبْلَ فَتْحِهَا، فَأَخْبَرَ سَلَمَةُ عَنْ نَفْسِهِ، وَعَمَّنْ خَرَجَ مَعَهُ، يَعْنِي حَيْثُ قَالَ: «خَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ».

قَالَ: وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَغْزَى إِلَيْهَا عَبْدَ الله بْنَ رَوَاحَةَ ﷺ قَبْلَ فَتْحِهَا مَرَّتَيْنِ. اِنْتَهَى.

وَسِيَاقُ الْحَدِيثِ يَأْبَى هَذَا الْجَمْعَ، فَإِنَّ فِيهِ بَعْد قَوْله :«حِينَ خَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ مَعَ رَسُول الله ﷺ، فَجَعَلَ عُمَرُ ﷺ يَرْتَجِز بِالْقَوْلِ»، وَفِيهِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنِ السَّائِقُ»، وَفِيهِ مُبَارَزَةُ عَلِيٍّ ﷺ لِـمَرْحَبٍ، وَقَتْلُ عَامِرٍ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا وَقَعَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ حِين خَرَجَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَعَلَى هَذَا مَا فِي الصَّحِيح مِنْ التَّارِيخ لِغَزْوَةِ ذِي قَرَدٍ أَصَحُّ مِمَّا ذَكَرَهُ أَهْل السِّيَر.

وَيُحْتَمَلُ فِي طَرِيقِ الْجَمْعِ أَنْ تَكُونَ إِغَارَةُ عُيَيْنَةَ بْن حِصْنٍ عَلَى اللِّقَاحِ وَقَعَتْ مَرَّتَيْنِ: الْأُولَى الَّتِي ذَكَرَهَا اِبْن إِسْحَاق، وَهِيَ قَبْلَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَالثَّانِيَةُ: بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ قَبْلَ الْخُرُوجِ إِلَى خَيْبَرَ، وَكَانَ رَأْسُ الَّذِينَ أَغَارُوا عَبْدُ الرَّحْمَن بْن عُيَيْنَةَ كَمَا فِي سِيَاقِ سَلَمَةَ عِنْد مُسْلِم، وَيُؤَيِّدهُ أَنَّ الْحَاكِمَ ذَكَرَ فِي «الْإِكْلِيل» أَنَّ الْخُرُوجَ إِلَى ذِي قَرَدَ تَكَرَّرَ، فَفِي الْأَوَّلِ: خَرَجَ إِلَيْهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﵁ قَبْل أُحُدٍ، وَفِي الثَّانِيَة: خَرَجَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي رَبِيع الْآخَرَ سَنَةَ خَمْسٍ، وَالثَّالِثَةُ: هَذِهِ الـمُخْتَلَفُ فِيهَا. اِنْتَهَى.

فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا قَوِيَ هَذَا الْجَمْعُ الَّذِي ذَكَرْتُهُ. وَاللهُ أَعْلَمُ. [**فتح الباري لابن حجر ٧/ ٥٢٦**].

ومن هنا رأيت إدراجها هنا جريًا على ترتيب كثير من كُتاب السيرة، ومنهم الإمام ابن القيم ﵀ نفسه.

عداوة عيينة بن حصن:

يقول أ/ باشميل: «كان عيينة بن حصن الفزاري من أعظم الزعماء نفوذًا بين القبائل النجدية حتى إنه لذلك ـ ومع تهوره ـ كان مشهورًا بلقب (الأحمق المطاع)؛ لأنه كانت تتبعه وتطيع أمره عشرة آلاف قناة من فزارة وحدها، يوجه هذه الآلاف أينما شاء فيطيعونه دون أن يسألوه: كيف، ولم؟

وكان عيينة هذا من ألد أعداء رسول الله ﷺ حتى إنه في غزوة الأحزاب كان قائد أحد الأجنحة الأربعة من القبائل النجدية التي اشتركت مع اليهود في حصار المدينة.

ولما كانت الحالة التي أعقبت اندحار الأحزاب وتحزيبهم اليهود في غزوة الخندق، هي حالة حرب بين المسلمين وقبائل غطفان وفزارة، فليس من المستغرب أن يقوم عيينة بن حصن الفزاري بالإغارة على المسلمين وانتهاب أي شيء تابع لهم، ولا سيما وأن منازل فزارة أقرب المنازل النجدية إلى يثرب.

الغابة مرعى إبل المسلمين:

كانت (الغابة) منطقة خصبة كثيرة النبت والشجر، وكانت بها أملاك زراعية للمسلمين، وكانت تعتبر إحدى مراعي المدينة الرئيسة، وكانت (الغابة) أقرب ما تكون إلى منازل عيينة بن حصن وقومه فزارة.

كان النبي ﷺ قد بعث بمجموعة كبيرة من الإبل لترعى في (الغابة) بعث بها مع غلام له، وكان أبو ذر الصحابي المشهور ﵁ موجودًا في هذه الإبل مع ولده، كما كان معهم الفارس العَدَّاء المشهور سلمة بن الأكوع ﵁.

قال الواقدي: حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ، وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، وَعَلِيُّ بْنُ يَزِيدَ وَغَيْرُهُمْ، فَكُلٌّ قَدْ حَدَّثَنِي بِطَائِفَةٍ قَالُوا: كَانَتْ لِقَاحُ رَسُولِ الله ﷺ عِشْرِينَ لِقْحَةً، وَكَانَتْ مِنْ شَتَّى، مِنْهَا مَا أَصَابَ فِي ذَاتِ الرِّقَاعِ، وَمِنْهَا مَا قَدِمَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مِنْ نَجْدٍ، وَكَانَتْ تَرْعَى الْبَيْضَاءَ (موضع تلقاء حمى الربذة) وَدُونَ الْبَيْضَاءِ، فَأَجْدَبَ مَا هُنَاكَ فَقَرَّبُوهَا إلَى الْغَابَةِ، تُصِيبُ مِنْ أَثْلِهَا وَطَرْفَائِهَا

وَتَغْدُو فِي الشَّجَرِ ـ قَالَ أَبُو عَبْدِ الله: الْغَادِيَةُ: تَغْدُو فِي الْعِضَاهِ، أُمُّ غَيْلَانَ وَغَيْرِهَا، وَالْوَاضِعَةُ: الْإِبِلُ تَرْعَى الْحَمْضَ، وَالْأَوَارِكُ: الَّتِي تَرْعَى الْأَرَاكَ ـ فَكَانَ الرَّاعِي يَؤُوبُ بِلَبَنِهَا كُلَّ لَيْلَةٍ عِنْدَ الـمَغْرِبِ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٨].

استئذان أبي ذر ﵁ من الرسول ﷺ:

قال الواقدي: وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ ﵁ قَدْ اسْتَأْذَنَ رَسُولَ الله ﷺ إِلَى لِقَاحِهِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ هَذِهِ الضَّاحِيَةِ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكَ، وَنَحْنُ لَا نَأْمَنُ مِنْ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ وَذَوِيهِ، هِيَ فِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِهِمْ**»، فَأَلَحّ عَلَيْهِ أَبُو ذَرٍّ ﵁ فَقَالَ: يا رسول الله، ائْذَنْ لِي، فَلَـمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَكَأَنِّي بِكَ، قَدْ قُتِلَ ابْنُكَ، وَأُخِذَتْ امْرَأَتُكَ، وَجِئْتَ تَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَاكَ**»، فَكَانَ أَبُو ذَرٍّ ﵁ يَقُولُ: عَجَبًا لِي! إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**لَكَأَنِّي بِكَ**» وَأَنَا أُلِحُّ عَلَيْهِ، فَكَانَ وَالله عَلَى مَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٨].

غارة ابن حصن على لقاح الرسول ﷺ:

وصل المسلمون إلى المرعى في الغابة وباتوا، أغار عليهم عند طلوع الفجر عيينة بن حصن سيد فزارة تسانده قوة كبيرة من فرسان غطفان.

وقد استولى المغيرون على جميع إبل المسلمين واستاقوها بعد أن قتلوا ابن أبي ذر الغفاري الذي دافع عن الإبل واحتملوا امرأته معهم سبية.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ قَدِمَ ﷺ المَدِينَةَ (بعد غزوة بني لحيان)، فَلَمْ يُقِمْ بِهَا إِلَّا لَيَالِيَ قَلَائِلَ حَتَّى أَغَارَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ، فِي خَيْلٍ مِنْ غَطَفَانَ عَلَى لِقَاحٍ (**اللقاح**: الإبل الحوامل ذوات الألبان) لِرَسُولِ الله ﷺ بِالْغَابَةِ (موضع قرب المدينة من ناحية الشام، فيه أموال لأهل المدينة)، وَفِيهَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ وَامْرَأَةٌ لَهُ، فَقَتَلُوا الرَّجُلَ، وَاحْتَمَلُوا المَرْأَةَ فِي اللِّقَاحِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨١].

وقال الواقدي: فَكَانَ أَبُو ذَرٍّ ﵁ يَقُولُ: وَالله، إِنَّا لَفِي مَنْزِلِنَا، وَلِقَاحُ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ رُوِّحَتْ، وَعُطِّنَتْ، وَحُلِبَتْ عَتَمَتُهَا (**العتمة**: ظلمة الليل، وكانت الأعراب يسمون الحلاب باسم الوقت. النهاية ٣/ ٦٧) وَنِمْنَا، فَلَـمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ أَحْدَقَ بِنَا عُيَيْنَةُ فِي أَرْبَعِينَ فَارِسًا، فَصَاحُوا بِنَا وَهُمْ قِيَامٌ عَلَى رُؤُوسِنَا، فَأَشْرَفَ لَهُمْ ابْنِي فَقَتَلُوهُ، وَكَانَتْ مَعَهُ امْرَأَتُهُ وَثَلَاثَةُ نَفَرٍ فَنَجَوْا، وَتَنَحَّيْتُ عَنْهُمْ وَشَغَلَهُمْ عَنِّي إِطْلَاقُ عُقُلِ اللِّقَاحِ، ثُمَّ صَاحُوا فِي أَدْبَارِهَا، فَكَانَ آخِرَ الْعَهْدِ بِهَا، وَجِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ وَهُوَ يَتَبَسَّمُ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٩].

ولم يكن من الصحابة المحاربين حاضرًا ساعة الغارة سوى سلمة بن الأكوع ﵁ الذي كان يركب فرسًا لطلحة بن عبيد الله، استعارها منه عند خروجه مع الرعاة استعدادًا للطوارئ.

الصريخ في المدينة:

ولما كانت المسافة بين الغابة والمدينة غير قريبة، وأنه لابد من إبلاغ النبي القائد ﷺ وأصحابه بسرعة؛ لكي يسرعوا بالنجدة لاستنقاذ الإبل من مشركي فزارة، ورأى سلمة بن الأكوع ﷺ أنه من الصعب عليه وحده الالتحام بالمشركين المغيرين لاستخلاص الإبل منهم، قرر التخلي عن الفرس التي كان يركبها، واستدعى الراعي الوحيد الذي نجا من القتل، فطلب امتطاء ظهر الجواد والانطلاق بأقصى سرعة نحو المدينة لإبلاغ النبي ﷺ خبر اعتداء ابن حصن على إبله، وطلب النجدة لاستنقاذها.

وفعلًا امتطى الراعي (واسمه رباح) ـ امتطى صهوة جواد ابن الأكوع وانطلق نحو المدينة يسابق الريح، ولم تكن إلا سويعات قليلة حتى كان في المدينة يصرخ (الفزع الفزع).

وكانت هذه الكلمة كافية لتعبئة كل من في المدينة من المحاربين لأنه لا يصرخ بها إلا عندما تتعرض بلاد المسلمين لخطر جسيم من قبل أعدائهم.

قال الواقدي: وَكَانَ الْـمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو ﷺ يَقُولُ: لَـمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ السَّرْحِ جَعَلَتْ فَرَسِي سَبْحَةً لَا تَقِرُّ ضَرْبًا بِأَيْدِيهَا وَصَهِيلًا، فَيَقُولُ أَبُو مَعْبَدٍ: وَالله إِنَّ لَهَا شَأْنًا! فَنَنْظُرُ آرِيَّهَا (حبل تشد به الدابة في محبسها)، فَإِذَا هُوَ مَمْلُوءٌ عَلَفًا، فَيَقُولُ: عَطْشَى! فَيَعْرِضُ المَاءَ عَلَيْهَا فَلَا تُرِيدُهُ، فَلَـمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ أَسْرَجَهَا وَلَبِسَ سِلَاحَهُ، وَخَرَجَ حَتَّى صَلَّى الصُّبْحَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، وَدَخَلَ النبي ﷺ بَيْتَهُ، وَرَجَعَ الْمِقْدَادُ إِلَى بَيْتِهِ، وَفَرَسُهُ لَا تَقِرُّ، فَوَضَعَ سَرْجَهَا وَسِلَاحَهُ وَاضْطَجَعَ، وَجَعَلَ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى، فَأَتَاهُ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ الْخَيْلَ قَدْ صِيحَ بِهَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٨-٥٣٩].

قال الواقدي: فَكَانَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ ﷺ يَقُولُ: غَدَوْتُ أُرِيدُ الْغَابَةَ لِلِقَاحِ رَسُولِ الله ﷺ لِأَنْ أُبَلِّغَهُ لَبَنَهَا، حَتَّى أَلْقَى غُلَامًا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ كَانَ فِي إِبِلٍ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَأَخْطَؤُوا مَكَانَهَا وَاهْتَدَوْا إِلَى لِقَاحِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ لِقَاحَ رَسُولِ الله ﷺ قَدْ أَغَارَ عَلَيْهَا عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ فِي أَرْبَعِينَ فَارِسًا، فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُمْ قَدْ رَأَوْا مَدَدًا بَعْدَ ذَلِكَ أُمِدَّ بِهِ عُيَيْنَةُ.

قَالَ سَلَمَةُ ﷺ: فَأَحْضَرْتُ فَرَسِي رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ حَتَّى وَافَيْت عَلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ (عن يمين المدينة ودونها. معجم ما استعجم ص ٨٤١. وقيل هي ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكة، وقيل من يريد الشام. وفاء الوفا ٢/ ٢٧٧) فَصَرَخْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي: **يَا صَبَاحَاهُ!** ثَلَاثًا، أُسْمِعُ مَنْ بَيْنَ لَابَتَيْهَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٩].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَعَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَمَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، كُلٌّ قَدْ حَدَّثَ فِي غَزْوَةِ ذِي قَرَدٍ بَعْضَ الْحَدِيثِ: أَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ نَذَرَ بِهِمْ سَلَمَةُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْأَكْوَعِ الْأَسْلَمِيُّ ﷺ، غَدَا يُرِيدُ الْغَابَةَ مُتَوَشِّحًا قَوْسَهُ وَنَبْلَهُ وَمَعَهُ غُلَامٌ لِطَلْحَةِ بْنِ عُبَيْدِ الله مَعَهُ فَرَسٌ لَهُ يَقُودُهُ، حَتَّى إِذَا عَلَا ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ نَظَرَ إِلَى بَعْضِ خُيُولِهِمْ فَأَشْرَفَ فِي نَاحِيَةِ سَلْعٍ، ثُمَّ صَرَخَ: وَاصَبَاحَاه، ثُمَّ خَرَجَ يَشْتَدُّ فِي آثَارِ الْقَوْمِ، وَكَانَ مِثْلَ السَّبُعِ حَتَّى لَحِقَ بِالْقَوْمِ، فَجَعَلَ يَرُدُّهُمْ بِالنَّبْلِ وَيَقُولُ إِذَا رَمَى: **خُذْهَا**

وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ، الْيَوْمَ يَوْمُ الرُّضَّعِ، فَإِذَا وَجَّهَتْ الْخَيْلُ نَحْوَهُ انْطَلَقَ هَارِبًا، ثُمَّ عَارَضَهُمْ، فَإِذَا أَمْكَنَهُ الرَّمْيُ رَمَى، ثُمَّ قَالَ: **خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ، الْيَوْمَ يَوْمُ الرُّضَّعِ**، قَالَ: فَيَقُولُ قَائِلُهُمْ: أُوَيْكِعُنَا هُوَ أَوَّلُ النَّهَارِ.
[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨١-٢٨٢].

بطولة نادرة لسلمة بن الأكوع ﷺ:

وقد أبدى سلمة بن الأكوع ﷺ في هذه المعركة بطولة نادرة، وخاصة قبل وصول كتيبة الفرسان النبوية، حيث ظل بمفرده يشاغل المغيرين ويراميهم بالنبل، وكان من أعظم الرماة في عصره، وقد استخلص مجموعة من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان النبوية. [صلح الحديبية لباشميل ٤٠].

عَنْ سَلَمَةَ ﷺ قَالَ: خَرَجْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ ذَاهِبًا نَحْوَ الْغَابَةِ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِثَنِيَّةِ الْغَابَةِ لَقِيَنِي غُلَامٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قُلْتُ: وَيْحَكَ، مَا بِكَ؟ قَالَ: أُخِذَتْ لِقَاحُ النَّبِيِّ ﷺ، قُلْتُ: مَنْ أَخَذَهَا؟ قَالَ: غَطَفَانُ وَفَزَارَةُ، فَصَرَخْتُ ثَلَاثَ صَرَخَاتٍ أَسْمَعْتُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا: يَا صَبَاحَاهْ، يَا صَبَاحَاهْ، ثُمَّ انْدَفَعْتُ حَتَّى أَلْقَاهُمْ وَقَدْ أَخَذُوهَا، فَجَعَلْتُ أَرْمِيهِمْ وَأَقُولُ:

أَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ (١)

فَاسْتَنْقَذْتُهَا مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَشْرَبُوا، فَأَقْبَلْتُ بِهَا أَسُوقُهَا، فَلَقِيَنِي النَّبِيُّ ﷺ، فَقُلْتُ: يا رسول الله، إِنَّ الْقَوْمَ عِطَاشٌ، وَإِنِّي أَعْجَلْتُهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا سِقْيَهُمْ، فَابْعَثْ فِي إِثْرِهِمْ، فَقَالَ ﷺ: «**يَا ابْنَ الأَكْوَعِ، مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ** (أي ظفرت وانتصرت فأحسن وكن رفيقًا)، **إِنَّ الْقَوْمَ يُقْرَوْنَ** (من القرى، أي: أنهم وصلوا إلى قومهم، وقدم لهم الطعام) [**يُقْرَبُونَ**] **فِي قَوْمِهِمْ**». [البخاري في الجهاد (٣٠٤١)، ومسند أحمد ٢٧/ ٤١، ٤٣ رقم ١٦٥١٣/ ٢، ١٦٥١٥].

وعن سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ﷺ قَالَ: خَرَجْتُ قَبْلَ أَنْ يُؤَذَّنَ بِالأُولَى (أي الصلاة الأولى، وهي صلاة الصبح)، وَكَانَتْ لِقَاحُ رَسُولِ الله ﷺ تَرْعَى بِذِي قَرَدٍ، قَالَ: فَلَقِيَنِي غُلَامٌ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَقَالَ: أُخِذَتْ لِقَاحُ (جمع لقحة وهي الناقة ذات اللبن قريبة العهد بالولادة) رَسُولِ الله ﷺ، قُلْتُ: مَنْ أَخَذَهَا؟ قَالَ: غَطَفَانُ، قَالَ: فَصَرَخْتُ ثَلَاثَ صَرَخَاتٍ: يَا صَبَاحَاهْ، قَالَ: فَأَسْمَعْتُ مَا بَيْنَ لَابَتَيِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ انْدَفَعْتُ عَلَى وَجْهِي حَتَّى أَدْرَكْتُهُمْ، وَقَدْ أَخَذُوا يَسْتَقُونَ مِنَ الْمَاءِ، فَجَعَلْتُ أَرْمِيهِمْ بِنَبْلِي - وَكُنْتُ رَامِيًا - وَأَقُولُ:

أَنَا ابْنُ الأَكْوَعْ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعْ

وَأَرْتَجِزُ حَتَّى اسْتَنْقَذْتُ اللِّقَاحَ مِنْهُمْ، وَاسْتَلَبْتُ مِنْهُمْ ثَلَاثِينَ بُرْدَةً، قَالَ: وَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَالنَّاسُ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، قَدْ حَمَيْتُ الْقَوْمَ الْمَاءَ وَهُمْ عِطَاشٌ، فَابْعَثْ إِلَيْهِمُ السَّاعَةَ.

فَقَالَ ﷺ: «**يَا ابْنَ الأَكْوَعِ، مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ**».

قَالَ: ثُمَّ رَجَعْنَا، وَيُرْدِفُنِي رَسُولُ الله ﷺ عَلَى نَاقَتِهِ حَتَّى دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ. [البخاري في المغازي (٤١٩٤)].

---

(١) **الرضع**: جمع راضع وهو اللئيم، وأراد أن هذا اليوم هو يوم هلاك اللئام. شرح أبي ذر ص ٣٢٩.

وقَالَ سَلَمَةُ ﷺ (في حديثه عن صلح الحديبية): ثُمَّ قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِظَهْرِهِ (الظهر: الإبل تعد للركوب وحمل الأثقال) مَعَ رَبَاحٍ غُلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَنَا مَعَهُ، وَخَرَجْتُ مَعَهُ بِفَرَسِ طَلْحَةَ أُنَدِّيهِ (أن يورد الماء فيسقى قليلًا، ثم يرسل في المرعى، ثم يرد الماء، ثم المرعى) مَعَ الظَّهْرِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْفَزَارِيُّ قَدْ أَغَارَ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَاقَهُ أَجْمَعَ، وَقَتَلَ رَاعِيَهُ، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَبَاحُ، خُذْ هَذَا الْفَرَسَ فَأَبْلِغْهُ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ، وَأَخْبِرْ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ أَغَارُوا عَلَى سَرْحِهِ، قَالَ: ثُمَّ قُمْتُ عَلَى أَكَمَةٍ فَاسْتَقْبَلْتُ الـمَدِينَةَ فَنَادَيْتُ ثَلَاثًا: يَا صَبَاحَاهْ، ثُمَّ خَرَجْتُ فِي آثَارِ الْقَوْمِ أَرْمِيهِمْ بِالنَّبْلِ، وَأَرْتَجِزُ أَقُولُ:

أَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ

فَأَلْحَقُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَصُكُّ (أضرب) سَهْمًا فِي رَحْلِهِ حَتَّى خَلَصَ نَصْلُ السَّهْمِ إِلَى كَتِفِهِ، قَالَ: قُلْتُ:

خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ

قَالَ: فَوَاللهِ مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ وَأَعْقِرُ بِهِمْ (أصل العقر: ضرب قوائم البعير، ثم استعمل في القتل)، فَإِذَا رَجَعَ إِلَيَّ فَارِسٌ أَتَيْتُ شَجَرَةً فَجَلَسْتُ فِي أَصْلِهَا ثُمَّ رَمَيْتُهُ فَعَقَرْتُ بِهِ، حَتَّى إِذَا تَضَايَقَ الْجَبَلُ فَدَخَلُوا فِي تَضَايُقِهِ عَلَوْتُ الْجَبَلَ فَجَعَلْتُ أُرَدِّيهِمْ بِالْحِجَارَةِ، قَالَ: فَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ أَتْبَعُهُمْ حَتَّى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ بَعِيرٍ مِنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا خَلَّفْتُهُ وَرَاءَ ظَهْرِي، وَخَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، ثُمَّ اتَّبَعْتُهُمْ أَرْمِيهِمْ حَتَّى أَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ بُرْدَةً وَثَلَاثِينَ رُمْحًا يَسْتَخِفُّونَ (أي: يطلبون بإلقائها الخفة ليكونوا أقدر على الفرار)، وَلَا يَطْرَحُونَ شَيْئًا إِلَّا جَعَلْتُ عَلَيْهِ آرَامًا (هي الأعلام) مِنَ الْحِجَارَةِ يَعْرِفُهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى أَتَوْا مُتَضَايِقًا مِنْ ثَنِيَّةٍ (الثنية: العقبة والطريق في الجبل)، فَإِذَا هُمْ قَدْ أَتَاهُمْ فُلَانُ ابْنُ بَدْرٍ الْفَزَارِيُّ، فَجَلَسُوا يَتَضَحَّوْنَ ـ يَعْنِي يَتَغَدَّوْنَ ـ وَجَلَسْتُ عَلَى رَأْسِ قَرْنٍ (هو جبل صغير منقطع من الجبل الكبير)، قَالَ الْفَزَارِيُّ: مَا هَذَا الَّذِي أَرَى؟ قَالُوا: لَقِينَا مِنْ هَذَا الْبَرْحَ (الشدة)، وَاللهِ مَا فَارَقَنَا مُنْذُ غَلَسٍ يَرْمِينَا حَتَّى انْتَزَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي أَيْدِينَا، قَالَ: فَلْيَقُمْ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْكُمْ أَرْبَعَةٌ، قَالَ: فَصَعِدَ إِلَيَّ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ فِي الْجَبَلِ، قَالَ: فَلَمَّا أَمْكَنُونِي مِنَ الْكَلَامِ، قَالَ: قُلْتُ هَلْ تَعْرِفُونِي؟ قَالُوا: لَا، وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: قُلْتُ: أَنَا سَلَمَةُ بْنُ الأَكْوَعِ، وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا أَطْلُبُ رَجُلًا مِنْكُمْ إِلَّا أَدْرَكْتُهُ، وَلَا يَطْلُبُنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ فَيُدْرِكَنِي، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَنَا أَظُنُّ، قَالَ: فَرَجَعُوا، فَمَا بَرِحْتُ مَكَانِي حَتَّى رَأَيْتُ فَوَارِسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَخَلَّلُونَ الشَّجَرَ.

[مسلم في الجهاد والسير (١٨٠٧)، ومسند أحمد ٢٧/ ٧٠ رقم ١٦٥٣٩].

وعن سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ﷺ قَالَ: أَغَارَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُيَيْنَةَ عَلَى إِبِلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَتَلَ رَاعِيَهَا، وَخَرَجَ يَطْرُدُهَا هُوَ وَأُنَاسٌ مَعَهُ فِي خَيْلٍ، فَجَعَلْتُ وَجْهِي قِبَلَ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ نَادَيْتُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: يَا صَبَاحَاهُ، ثُمَّ اتَّبَعْتُ الْقَوْمَ فَجَعَلْتُ أَرْمِي وَأَعْقِرُهُمْ، فَإِذَا رَجَعَ إِلَيَّ فَارِسٌ جَلَسْتُ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى مَا خَلَقَ اللهُ شَيْئًا مِنْ ظَهْرِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا جَعَلْتُهُ وَرَاءَ ظَهْرِي، وَحَتَّى أَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ رُمْحًا وَثَلَاثِينَ بُرْدَةً يَسْتَخِفُّونَ

مِنْهَا، ثُمَّ أَتَاهُمْ عُيَيْنَةُ مَدَدًا، فَقَالَ: لِيَقُمْ إِلَيْهِ نَفَرٌ مِنْكُمْ، فَقَامَ إِلَيَّ أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ، فَصَعِدُوا الْجَبَلَ، فَلَمَّا أَسْمَعْتُهُمْ، قُلْتُ: أَتَعْرِفُونِي، قَالُوا: وَمَنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: أَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ، وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ لا يَطْلُبُنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ فَيُدْرِكُنِي، وَلاَ أَطْلُبُهُ فَيَفُوتُنِي، فَمَا بَرِحْتُ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى فَوَارِسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَخَلَّلُونَ الشَّجَرَ، أَوَّلُهُمُ الأَخْرَمُ الأَسَدِيُّ، فَيَلْحَقُ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُيَيْنَةَ، وَيَعْطِفُ عَلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، فَاخْتَلَفَا طَعْنَتَيْنِ، فَعَقَرَ الأَخْرَمُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَطَعَنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَتَلَهُ، فَتَحَوَّلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَى فَرَسِ الأَخْرَمِ، فَيَلْحَقُ أَبُو قَتَادَةَ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَاخْتَلَفَا طَعْنَتَيْنِ، فَعَقَرَ بِأَبِي قَتَادَةَ، وَقَتَلَهُ أَبُو قَتَادَةَ، فَتَحَوَّلَ أَبُو قَتَادَةَ عَلَى فَرَسِ الأَخْرَمِ، ثُمَّ جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمَاءِ الَّذِي جَلَّيْتُهُمْ عَنْهُ ذُو قَرَدٍ، فَإِذَا نَبِيُّ اللهِ ﷺ فِي خَمْسِمِائَةٍ فَأَعْطَانِي سَهْمَ الْفَارِسِ وَالرَّاجِلِ. [أبو داود في الجهاد (٢٧٥٢)، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح، ومسند أحمد ٢٧/ ٧٠-٧٤ رقم ١٦٥٣٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

وعَنْ سَلَمَةَ بن الأَكْوَعِ ﵁ قَالَ: عَدَا عُيَيْنَةُ بن حِصْنٍ عَلَى لِقَاحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاسْتَاقَهَا، قَالَ سَلَمَةُ بن الأَكْوَعِ الأَسْلَمِيُّ: فَخَرَجْتُ بِقَوْسِي وَنَبْلِي، وَكُنْتُ أَرْمِي الصَّيْدَ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ بِثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ، نَظَرْتُ فَإِذَا هُمْ يَطْرُدُونَهَا، فَعَدَوْتُ فِي الْجَبَلِ فِي سَلْعٍ، ثُمَّ صِحْتُ: يَا صَبَاحَاهُ، فَانْتَهَى صِيَاحِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَصِيحَ فِي النَّاسِ: الْفَزَعُ الْفَزَعُ، وَخَرَجْتُ أَرْمِيهِمْ، وَأَقُولُ: خُذُوهَا وَأَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ رَأَيْتُ خَيْلَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهِيَ تَخَلَّلُ الشَّجَرَ، فَلَحِقَهُمْ ثَمَانِيَةُ فُرْسَانٍ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَحِقَهُمْ أَبُو قَتَادَةَ بن رِبْعِيٍّ، فَطَعَنَ رَجُلًا مِنْ بني فَزَارَةَ يُقَالُ لَهُ مَسْعَدَةُ، فَنَزَعَ بُرْدَتَهُ، فَجَلَّلَهُ إِيَّاهَا، ثُمَّ مَضَى فِي أَثَرِ الْعَدُوِّ مَعَ الْفُرْسَانِ، فَمَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَدْ فَزِعَ النَّاسُ، وَهُمْ يَقُولُونَ: أَبُو قَتَادَةَ مَقْتُولٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ بِأَبِي قَتَادَةَ، وَلَكِنَّهُ قَتِيلُ أَبِي قَتَادَةَ، خَلُّوا عَنْهُ، وَعَنْ سَلَبِهِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَمْعِنُوا فِي أَثَرِ الْقَوْمِ**»، فَأَمْعَنُوا وَاسْتَنْقَذُوا مَا اسْتَنْقَذُوا مِنَ اللِّقَاحِ، وَذَهَبُوا بِمَا بَقِيَ.

قَالَ مُحَمَّدُ بن طَلْحَةَ: وَفِي الْحَدِيثِ وَكَانَ يُسَمِّيهِمُ الَّذِينَ خَرَجُوا فِي طَلَبِ اللِّقَاحِ: عُكَّاشَةُ بن مِحْصَنٍ، وَالْمِقْدَادُ بن عَمْرٍو، وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ ابْنُ الأَسْوَدِ حَلِيفُ بني زُهْرَةَ، وَمُحْرِزُ بن نَضْلَةَ الأَسَدِيُّ حَلِيفُ بني عَبْدِ شَمْسٍ، قِيلَ: لَمْ يُقْتَلْ مِنَ الْقَوْمِ غَيْرُهُ، وَمِنَ الأَنْصَارِ: سَعْدُ بن زَيْدٍ الأَشْهَلِيُّ، وَهُوَ أَمِيرُ الْقَوْمِ، وَعَبَّادُ بن بِشْرٍ الأَشْهَلِيُّ، وَظَهِيرُ بن رَافِعٍ الْحَارِثِيُّ، وَأَبُو قَتَادَةَ بن رِبْعِيٍّ السُّلَمِيُّ، وَمُعَاذُ بن مَاعِصٍ الزُّرَقِيُّ.

وَكَانَ أَبُو عَيَّاشٍ الزُّرَقِيُّ أَحَدَ النَّفَرِ الْخَمْسَةِ، قَالَ: أَقْبَلْتُ عَلَى فَرَسٍ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا عَيَّاشٍ، لَوْ أَعْطَيْتَ هَذَا الْفَرَسَ مَنْ هُوَ أَفْرَسُ مِنْكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: أَنَا أَفْرَسُ الْعَرَبِ، فَمَا جَرَى الْفَرَسُ خَمْسِينَ ذِرَاعًا حَتَّى طَرَحَنِي، فَكَسَرَ رِجْلِي، فَقُلْتُ: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَحَمَلْتُ عَلَى فَرَسِي ابْنَ عَمِّي مُعَاذَ بن مَاعِصٍ الزُّرَقِيَّ.

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠٨-٢٠٩ في المغازي باب غزوة ذي قرد (١٠١٧٦)، وقال الهيثمي: في الصحيح بعضه، رواه الطبراني [المعجم الكبير ٧/ ٣١-٣٢ رقم ٦٢٧٨] وفيه موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي وهو ضعيف].

صراخ الرسولِ ﷺ وتَسَابُقُ الْفُرْسَانِ إليه:

ولما تبلغ المسلمون جلية الخبر، اهتم النبي ﷺ اهتمامًا شديدًا لاستيلاء النجديين على الإبل؛ لأن ذلك يعد تحديًا صارخًا من غطفان للمسلمين واستهانة بقوتهم، حيث جرأت غطفان وأغارت على سرْح المسلمين في منطقة تعتبر من ضواحي المدينة.

واجتياح إبل المسلمين منها اعتبره المسلمون عملًا بالغ الخطورة وفسر بأنه قد يكون بمثابة جس النبض لقوات المسلمين، ومقدمة لهجوم شامل تقوم به قبائل غطفان على المدينة نفسها؛ لأن فزارة وحدها التي يتزعمها عيينة بن حصن، تستطيع أن تحشد عشرة آلاف مقاتل.

لذلك اهتم النبي ﷺ لهذه الحادثة اهتمامًا عظيمًا وجهز جيشًا كبيرًا لمطاردة المغيرين وردعهم قوامه سبعمائة مقاتل تحركوا من المدينة بقيادة الرسول ﷺ نفسه إلى منطقة الغابة.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَبَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ صِيَاحُ ابْنِ الْأَكْوَعِ، فَصَرَخَ بِالْمَدِينَةِ: الْفَزَعَ الْفَزَعَ، فَتَرَامَتْ الْخُيُولُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ الْفُرْسَانِ: الْـمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو، وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْـمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ فَارِسٍ وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ الْـمِقْدَادِ مِنْ الْأَنْصَارِ: عَبَّادُ بْنُ بِشْرِ بْنِ وَقْشِ بْنِ زُغْبَةَ بْنِ زَعُورَاءَ، أَحَدُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، وَسَعْدُ بْنُ زَيْدٍ، أَحَدُ بَنِي كَعْبِ بْنِ عَبْدِ الْأَشْهَلِ، وَأُسَيْدُ بْنُ ظَهِيرٍ، أَخُو بَنِي حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ يَشُكُّ فِيهِ، وَعُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ أَخُو بَنِي أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ، وَمُحْرِزُ بْنُ نَضْلَةَ أَخُو بَنِي أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ، وَأَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رِبْعِيٍّ، أَخُو بَنِي سَلِمَةَ، وَأَبُو عَيَّاشٍ وَهُوَ عُبَيْدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ الصَّامِتِ، أَخُو بَنِي زُرَيْقٍ.

فَلَـمَّا اجْتَمَعُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمَّرَ عَلَيْهِمْ سَعْدَ بْنَ زَيْدٍ فِيمَا بَلَغَنِي، ثُمَّ قَالَ: اُخْرُجْ فِي طَلَبِ الْقَوْمِ، حَتَّى أَلْحَقَكَ فِي النَّاسِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٢].

وقال الواقدي: فَحَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ إِلْيَاسَ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي جَهْمٍ قَالَ: تَوَافَتْ الْخَيْلُ وَهُمْ ثَمَانِيَةٌ ـ الْمِقْدَادُ، وَأَبُو قَتَادَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ مَاعِصٍ، وَسَعْدُ بْنُ زَيْدٍ، وَأَبُو عَيَّاشٍ الزُّرَقِيُّ، وَمُحْرِزُ بْنُ نَضْلَةَ، وَعُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، وَرَبِيعَةُ بْنُ أَكْثَمَ.

حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، قَالَ: مِنْ الْمُهَاجِرِينَ ثَلَاثَةٌ: الْمِقْدَادُ، وَمُحْرِزُ بْنُ نَضْلَةَ، وَعُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، وَمِنْ الْأَنْصَارِ: سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ، وَهُوَ أَمِيرُهُمْ، وَأَبُو عَيَّاشٍ الزُّرَقِيُّ فَارِسُ جُلْوَةَ (قال ابن إسحاق: وفرس أبي عياش جلوة. السيرة النبوية ٣/ ٢٩٦)، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ، وأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَأَبُو قَتَادَةَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٤١-٥٤٢].

قال الواقدي: حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ أَمِيرُ الْفُرْسَانِ الْمِقْدَادَ حَتَّى لَحِقَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذِي قَرَدٍ.

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ عَبِيدِ اللهِ بْنِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ رِفَاعَةَ عَنْ ثَعْلَبَةَ بْنِ أَبِي مَالِكٍ قَالَ: كَانَ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ أَمِيرَ القوم، وَقَالَ لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ: أَرَأَيْتَ حَيْثُ جَعَلْتَ الْمِقْدَادَ رَأْسَ السَّرِيَّةِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ اسْتَعْمَلَنِي عَلَى السَّرِيَّةِ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ لَقَدْ نَادَى الصَّرِيخُ: الْفَزَعَ، فَكَانَ الْمِقْدَادُ أَوَّلَ مَنْ طَلَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «امْضِ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْخُيُولُ»، فَمَضَى أَوَّلَ، ثُمَّ تَوَافَيْنَا بَعْدُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَدْ مَضَى الْمِقْدَادُ أَوَّلَنَا، فَاسْتَعْمَلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى السَّرِيَّةِ، فَقَالَ حَسَّانُ: يَا ابْنَ عَمِّ! وَاللهِ مَا أَرَدْتُ إِلَّا الْقَافِيَةَ حَيْثُ قُلْت: غَدَاةَ فَوَارِسِ الْمِقْدَادِ... فَحَلَفَ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ أَلَّا يُكَلِّمَ حَسَّانًا أَبَدًا.

وَالثَّبْتُ عِنْدَنَا أَنَّ أَمِيرَهُمْ سَعْدُ بْنُ زَيْدِ الأَشْهَلِيُّ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٧-٥٤٨].

اسْتِعْمَالُ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ﷺ عَلَى الْمَدِينَةِ:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ﷺ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٤، المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٧، ٥٤٦].

نَصِيحَةُ الرَّسُولِ ﷺ لأَبِي عَيَّاشٍ ﷺ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَا بَلَغَنِي عَنْ رِجَالٍ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ لِأَبِي عَيَّاشٍ: **يَا أَبَا عَيَّاشٍ، لَوْ أَعْطَيْتَ هَذَا الْفَرَسَ رَجُلًا، هُوَ أَفْرَسُ مِنْكَ فَلَحِقَ بِالْقَوْمِ؟** قَالَ أَبُو عَيَّاشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَفْرَسُ النَّاسِ، ثُمَّ ضَرَبْتُ الْفَرَسَ، فَوَاللهِ مَا جَرَى بِي خَمْسِينَ ذِرَاعًا حَتَّى طَرَحَنِي، فَعَجِبْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَوْ أَعْطَيْتَهُ أَفْرَسَ مِنْكَ، وَأَنَا أَقُولُ أَنَا أَفْرَسُ النَّاسِ، فَزَعَمَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْطَى فَرَسَ أَبِي عَيَّاشٍ مُعَاذَ بْنَ مَاعِصٍ أَوْ عَائِذَ بْنَ مَاعِصِ بْنِ قَيْسِ بْنِ خُلْدَةَ، وَكَانَ ثَامِنًا، وَبَعْضُ النَّاسِ يَعُدُّ سَلَمَةَ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْأَكْوَعِ أَحَدَ الثَّمَانِيَةِ وَيَطْرَحُ أُسَيْدَ بْنَ ظُهَيْرٍ، أَخَا بَنِي حَارِثَةَ، وَاللهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِك كَانَ.

وَلَمْ يَكُنْ سَلَمَةُ يَوْمَئِذٍ فَارِسًا، وَقَدْ كَانَ أَوَّلَ مَنْ لَحِقَ بِالْقَوْمِ عَلَى رِجْلَيْهِ.

فَخَرَجَ الْفُرْسَانُ فِي طَلَبِ الْقَوْمِ حَتَّى تَلَاحَقُوا. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٢-٢٨٣].

قال الواقدي: قَالَ أَبُو عَيَّاشٍ: أَطْلُعُ عَلَى فَرَسٍ لِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ أَعْطَيْتَ فَرَسَكَ مَنْ هُوَ أَفْرَسُ مِنْكَ فَتَبِعَ الْخُيُولَ!**»، فَقُلْتُ: **أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَفْرَسُ النَّاسِ**، فَرَكَضْتُهُ، فَمَا جَرَى بِي خَمْسِينَ ذِرَاعًا حَتَّى صَرَعَنِي الْفَرَسُ، فَكَانَ أَبُو عَيَّاشٍ يَقُولُ: فَعَجَبًا! إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ أَعْطَيْتَ فَرَسَكَ هَذَا مَنْ هُوَ أَفْرَسُ مِنْكَ**»، وَأَقُولُ: «**أَنَا أَفْرَسُ النَّاسِ**». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٢].

خروج طليعة المسلمين:

قال الواقدي: فَحَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ لَبِيدٍ قَالَ: نَادَى: الْفَزَعَ الْفَزَعَ! ثَلَاثًا، ثُمَّ وَقَفَ وَاقِفًا عَلَى فَرَسِهِ حَتَّى طَلَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْحَدِيدِ مُقَنَّعًا فَوَقَفَ وَاقِفًا، فَكَانَ أَوَّلَ

مَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ الـمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو، عَلَيْهِ الدِّرْعُ وَالْمِغْفَرُ شَاهِرًا سَيْفَهُ، فَعَقَدَ لَـهُ رَسُـولُ الله ﷺ لِـوَاءً فِي رُمْحِـهِ، وَقَالَ: **امْضِ حَتَّى تَلْحَقَكَ الْخُيُولُ، إِنَّا عَلَى أَثَرِكَ.**

قَالَ الْمِقْدَادُ: فَخَرَجْتُ وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ الشَّهَادَةَ، حَتَّى أُدْرِكَ أُخْرَيَاتِ الْعَدُوِّ، وَقَدْ أَذَمَّ بِهِمْ (أي أعيت وتأخرت عن جماعة الإبل) فَرَسٌ لَهُمْ فَاقْتَحَمَ فَارِسَهُ وَرَدَفَ أَحَدَ أَصْحَابِهِ، فَآخُذُ الْفَرَسَ الْمُذِمَّ فَإِذَا هُوَ ضَرَعٌ (ضعيف)، أَشْقَرُ، عَتِيقٌ، لَمْ يَقْوَ عَلَى الْعَدْوِ، وَقَدْ غَدَوْا عَلَيْهِ مِنْ أَقْصَى الْغَابَةِ فَحَسِرَ، فَأَرْبِطُ فِي عُنُقِهِ قِطْعَةَ وَتَرٍ وَأُخَلِّيهِ، وَقُلْتُ: إِنْ مَرَّ بِهِ أَحَدٌ فَأَخَذَهُ جِئْتُه بِعَلَامَتِي فِيهِ، فَأُدْرِكُ مَسْعَدَةَ فَأَطْعَنُهُ بِرُمْحٍ فِيهِ اللِّوَاءُ، فَزَلَّ الرُّمْحُ وَعَطَفَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ فَطَعَنَنِي، وَآخُذُ الرُّمْحَ بِعَضُدِي فَكَسَرْتُهُ، وَأَعْجَزَنِي هَرَبًا، وَأَنْصِبُ لِوَائِي فَقُلْتُ: يَرَاهُ أَصْحَابِي، وَيَلْحَقُنِي أَبُو قَتَادَةَ مُعْلِمًا بِعِمَامَةٍ صَفْرَاءَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ، فَسَايَرْتُهُ سَاعَةً وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَى دُبُرِ مَسْعَدَةَ، فَاسْتَحَثَّ فَرَسَهُ فَتَقَدَّمَ عَلَى فَرَسِي، فَبَانَ سَبْقُهُ فَكَانَ أَجْوَدَ مِنْ فَرَسِي حَتَّى غَابَ عَنِّي فَلَا أَرَاهُ، ثُمَّ أَلْحَقُهُ فَإِذَا هُوَ يَنْزِعُ بُرْدَتَهُ فَصِحْتُ: مَا تَصْنَعُ؟ قَالَ: خَيْرًا أَصْنَعُ كَمَا صَنَعْتَ بِالْفَرَسِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ قَتَلَ مَسْعَدَةَ وَسَجَّاهُ بِبُرْدَةٍ، وَرَجَعْنَا فَإِذَا فَرَسٌ فِي يَدِ عُلْبَةَ بْنِ زَيْدٍ الْحَارِثِيِّ، فَقُلْتُ: فَرَسِي هَذَا وَعَلَامَتِي فِيهِ! فَقَالَ: تَعَالَ إِلَى النَّبِيِّ فَجَعَلَهُ مَغْنَمًا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٩-٥٤٠].

سبق مُحْرِزِ بْنِ نَضْلَةَ رضي الله عنه واستشهاده:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ: أَنَّ أَوَّلَ فَارِسٍ لَحِقَ بِالْقَوْمِ مُحْرِزُ بْنُ نَضْلَةَ أَخُو بَنِـي أَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ - وَكَانَ يُقَالُ لِمُحْرِزٍ: الْأَخْرَمُ، وَيُقَالُ لَهُ قُمَيْرٌ - وَأَنَّ الْفَزَعَ لَـمَّا كَانَ جَالَ فَرَسٌ لِـمَحْمُودِ بْـنِ مَسْلَمَةَ فِي الْحَائِطِ، حِينَ سَمِعَ صَاهِلَةَ الْخَيْلِ وَكَانَ فَرَسًا صَنِيعًا جَامًّا، فَقَالَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْـهَلِ حِينَ رَأَيْنَ الْفَرَسَ يَجُولُ فِي الْحَائِطِ بِجِذْعِ نَخْلٍ هُوَ مَرْبُوطٌ فِيهِ: يَا قُمَيْرُ! هَلْ لَكَ فِي أَنْ تَرْكَبَ هَذَا الْفَـرَسَ؟ فَإِنَّهُ كَمَا تَرَى، ثُمَّ تَلْحَقُ بِرَسُولِ الله ﷺ وَبِالـمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَأَعْطَيْنَهُ إِيَّاهُ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ، فَلَـمْ يَلْبَـثْ أَنْ بَذَّ الْخَيْلَ بِجَمَامِهِ، حَتَّى أَدْرَكَ الْقَوْمَ، فَوَقَفَ لَهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، ثُمَّ قَالَ: قِفُوا يَا مَعْشَرَ بَنِـي اللَّكِيعَـةِ (اللئيمـة)، حَتَّى يَلْحَقَ بِكُمْ مَنْ وَرَاءَكُمْ مِنْ أَدْبَارِكُمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

قَالَ: وَحَمَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَتَلَهُ، وَجَالَ الْفَرَسُ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ حَتَّى وَقَفَ عَلَى آرِيِّهِ (الحبل الذي تشد به الدابة، وقد يسمى الموضع الذي تقف فيه الدابة آريًّا أيضًا) مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَلَمْ يُقْتَلْ مِنَ الـمُسْلِمِينَ غَيْرُهُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الـمُسْلِمِينَ مَعَ مُحْرِزٍ وَقَّاصُ بْنُ مُجَزِّزٍ الـمُدْلِجِيُّ، فِيمَا ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٣].

قال الواقدي: وَكَانَ مُحْرِزُ بْنُ نَضْلَةَ حَلِيفًا فِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَلَـمَّا نَادَى الصَّرِيخُ: «الْفَزَعَ الْفَزَعَ!»، كَانَ فَرَسٌ لِـمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ يُقَالُ لَهُ ذُو اللِّمَّةِ مَرْبُوطًا فِي الْحَائِطِ، فَلَـمَّا سَمِعَ صَاهِلَةَ الْخَيْلِ صَهَلَ وَجَالَ فِي

الْحَائِطِ فِي شَطَنِهِ، فَقَالَ لَهُ النِّسَاءُ: هَلْ لَكَ يَا مُحْرِزُ فِي هَذَا الْفَرَسِ فَإِنَّهُ كَمَا تَرَى صَنِيعٌ (**الفرس الصنيع**: هو الذي يخدمه أهله ويقومون عليه) جَامٌّ تَرْكَبُهُ فَتَلْحَقُ اللِّوَاءَ؟ وَهُوَ يَرَى رَايَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَدْ مُرَّ بِهَا الْعُقَابَ يَحْمِلُهَا سَعْدٌ، قَالُوا: فَخَرَجَ فَجَزِعَ وَقَطَعَ وَادِيَ قَنَاةَ فَسَبَقَ الْمِقْدَادَ، فَيُدْرِكُ الْقَوْمَ بِهَيْقَا، فَاسْتَوْقَفَهُمْ فَوَقَفُوا، فَطَاعَنَهُمْ سَاعَةً بِالرُّمْحِ، وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ مَسْعَدَةُ فَطَعَنَهُ بِالرُّمْحِ فَدَقَّهُ فِي صُلْبِهِ، وَتَنَاوَلَ رُمْحَ مُحْرِزٍ وَعَارَ فَرَسُهُ (أي أفلت وذهب على وجهه) حَتَّى رَجَعَ إِلَى آرِيِّهِ، فَلَمَّا رَآهُ النِّسَاءُ وَأَهْلُ الدَّارِ قَالُوا: قَدْ قُتِلَ.

وَيُقَالُ: كَانَ مُحْرِزٌ عَلَى فَرَسٍ كَانَ لِعُكَّاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ يُدْعَى الْجَنَاحَ قَاتَلَ عَلَيْهِ.

وَيُقَالُ: الَّذِي قَتَلَ مُحْرِزَ بْنَ نَضْلَةَ أَوْثَارٌ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٢-٥٤٣].

وقال الواقدي: فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ قَالَ: قَالَ مُحْرِزُ بن نَضْلَةَ: قَبْلَ أَنْ يَلْتَقِيَ الْقَوْمُ بِيَوْمٍ رَأَيْتُ السَّمَاءَ فُرِّجَتْ لِي، فَدَخَلْتُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى السَّابِعَةِ وَانْتَهَيْتُ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَقِيلَ لِي: هَذَا مَنْزِلُكَ، فَعَرَضْتُهَا عَلَى أَبِي بَكْرٍ - وَكَانَ مِنْ أَعْبَرِ النَّاسِ - فَقَالَ: أَبْشِرْ بِالشَّهَادَةِ! فَقُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ بِيَوْمٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٣-٥٤٤].

ثأر أبي قتادة رضي الله عنه لمقتل محرز بن نضلة رضي الله عنه:

قال الواقدي: وَحَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ أُمِّهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: إِنِّي لَأَغْسِلُ رَأْسِي، قَدْ غَسَلْتُ أَحَدَ شِقَّيْهِ إِذْ سَمِعْتُ فَرَسِي جَرْوَةَ تَصْهَلُ وَتَبْحَثُ بِحَافِرِهَا، فَقُلْتُ: هَذِهِ حَرْبٌ قَدْ حَضَرَتْ! فَقُمْتُ وَلَمْ أَغْسِلْ شِقَّ رَأْسِي الْآخَرَ، فَرَكِبْتُ وَعَلَيَّ بُرْدَةٌ لِي، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصِيحُ: الْفَزَعَ الْفَزَعَ! قَالَ: وَأُدْرِكُ الْمِقْدَادَ بْنَ عَمْرٍو فَسَايَرْتُهُ سَاعَةً، ثُمَّ تَقَدَّمَهُ فَرَسِي وَكَانَتْ أَجْوَدَ مِنْ فَرَسِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَنِي الْمِقْدَادُ - وَكَانَ سَبَقَنِي - بِقَتْلِ مَسْعَدَةَ مُحْرِزًا.

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ لِلْمِقْدَادِ: يَا أَبَا مَعْبَدٍ أَنَا أَمُوتُ أَوْ أَقْتُلُ قَاتِلَ مُحْرِزٍ، فَضَرَبَ فَرَسَهُ فَلَحِقَهُمْ أَبُو قَتَادَةَ، وَوَقَفَ لَهُ مَسْعَدَةُ وَحَمَلَ عَلَيْهِ أَبُو قَتَادَةَ بِالْقَنَاةِ فَدَقَّ صُلْبَهُ، وَيَقُولُ: خُذْهَا وَأَنَا الْخَزْرَجِيُّ، وَوَقَعَ مَسْعَدَةُ مَيِّتًا، وَنَزَلَ أَبُو قَتَادَةَ فَسَجَّاهُ بِبُرْدَتِهِ، وَجَنَّبَ فَرَسَهُ مَعَهُ، وَخَرَجَ يُحْضِرُ فِي أَثَرِ الْقَوْمِ حَتَّى تَلَاحَقَ النَّاسُ.

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: فَلَمَّا مَرَّ النَّاسُ وَنَظَرُوا إِلَى بُرْدَةِ أَبِي قَتَادَةَ عَرَفُوهَا، فَقَالُوا: هَذَا أَبُو قَتَادَةَ قَتِيلٌ! وَاسْتَرْجَعَ أَحَدُهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا، وَلَكِنَّهُ قَتِيلُ أَبِي قَتَادَةَ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ بُرْدَتَهُ لِتَعْرِفُوا أَنَّهُ قَتِيلُهُ، فَخَلُّوا بَيْنَ أَبِي قَتَادَةَ وَبَيْنَ قَتِيلِهِ وَسَلَبِهِ وَفَرَسِهِ**»، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، وَكَانَ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ قَدْ أَخَذَ سَلَبَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا وَاللهِ أَبُو قَتَادَةَ قَتَلَهُ ادْفَعْهُ إِلَيْهِ**».

فَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ أَبِيهِ أَبِي قَتَادَةَ، قَالَ: لَمَّا أَدْرَكَنِي النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ وَنَظَرَ إِلَيَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُ فِي شَعَرِهِ وَبَشَرِهِ!**»، وَقَالَ: «**أَفْلَحَ وَجْهُكَ**»، قُلْتُ: وَوَجْهُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**قَتَلْتَ مَسْعَدَةَ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَمَا هَذَا الَّذِي بِوَجْهِكَ؟**». قُلْت: سَهْمٌ رُمِيت بِهِ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَادْنُ**

مِنِّي»، فَدَنَوْتُ مِنْهُ فَبَصَقَ عَلَيْهِ، فَمَا ضَرَبَ (ضرب الجرح: اشتد وجعه) عَلَيْهِ قَطُّ وَلَا قَاحَ، فَمَاتَ أَبُو قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ سَبْعِينَ سَنَةً، وَكَأَنَّهُ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً.

قَالَ: وَأَعْطَانِي يَوْمَئِذٍ فَرَسَ مَسْعَدَةَ وَسِلَاحَهُ، وَقَالَ: «**بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهِ!**».

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٤-٥٤٥].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَـمَّا تَلَاحَقَتْ الْخَيْلُ قَتَلَ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثَ بْنَ رِبْعِيٍّ، أَخُو بَنِي سَلِمَةَ حَبِيبَ بْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ، وَغَشَّاهُ بُرْدَهُ ثُمَّ لَحِقَ بِالنَّاس.

وَأَقْبَلَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الـمُسْلِمِينَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَإِذَا حَبِيبٌ مُسَجًّى بِبُرْدِ أَبِي قَتَادَةَ، فَاسْتَرْجَعَ النَّاس، وَقَالُوا: قُتِلَ أَبُو قَتَادَةَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَيْسَ بِأَبِي قَتَادَةَ، وَلَكِنَّهُ قَتِيلٌ لِأَبِي قَتَادَةَ، وَضَعَ عَلَيْهِ بُرْدَهُ؛ لِتَعْرِفُوا أَنَّهُ صَاحِبُهُ**».

وَأَدْرَكَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ أَوْبَارًا وَابْنَهُ عَمْرو بْنَ أَوْبَارٍ، وَهُمَا عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ، فَانْتَظَمَهُمَا بِالرُّمْحِ فَقَتَلَهُمَا جَمِيعًا، وَاسْتَنْقَذُوا بَعْضَ اللِّقَاحِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٤-٢٨٥].

وقال الواقدي: وَأَقْبَلَ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فَيُدْرِكُ أَوْثَارًا، فَتَوَاقَفَا فَتَطَاعَنَا حَتَّى انْكَسَرَتْ رِمَاحُهُمَا، ثُمَّ صَارَا إِلَى السَّيْفَيْنِ، فَشَدَّ عَلَيْهِ عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فَعَانَقَهُ، ثُمَّ طَعَنَهُ بِخَنْجَرٍ مَعَهُ فَمَاتَ.

وَحَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ أَبِي عَاتِكَةَ، عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: كَانَ أَوْثَارٌ وَعَمْرُو بْنُ أَوْثَارٍ عَلَى فَرَسٍ لَهُمَا يُقَالُ لَهُ الْفُرُطُ رَدِيفَيْنِ عَلَيْهِ، قَتَلَهُمَا عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٣].

وقال البيهقي: وَأَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ الله الْحَافِظُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ حَبِيبٍ الْأَزْرَقِيُّ بِمَرْوَ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَيْفُ بْنُ قَيْسِ بْنِ رَيْحَانَ الْمَرْوَزِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ قَتَادَةَ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ عِكْرِمَةَ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ اشْتَرَى فَرَسَهُ مِنْ دَوَابَّ دَخَلَتِ الْمَدِينَةَ، فَلَقِيَهُ مَسْعَدَةُ الْفَزَارِيُّ، فَقَالَ: يَا أَبَا قَتَادَةَ! مَا هَذَا الْفَرَسُ؟ فَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ: فَرَسٌ أَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: مَا أَهْوَنَ قَتْلَكُمْ وَأَشَدَّ جُرْأَتَكُمْ، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: أَمَا إِنِّي أَسْأَلُ اللهَ ﷻ أَنْ أَلْقَيَنَّكَ وَأَنَا عَلَيْهَا، قَالَ: «آمِينَ».

فَبَيْنَا أَبُو قَتَادَةَ ذَاتَ يَوْمٍ يَعْلِفُ فَرَسَهُ تَمْرًا فِي طَرَفِ بُرْدَتِهِ (البُرْدُ والبُرْدة: الشَّمْلَةُ المخطَّطة، وقيل كِساء أسود مُرَبَّع فيه صورٌ)، إِذْ رَفَعَتْ رَأْسَهَا، وَصَرَّتْ أُذُنَهَا، فَقَالَ: أَحْلِفُ بِالله لَقَدْ حَسَّتْ بِرِيحِ خَيْلٍ، فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: وَالله يَا بُنَيَّ مَا كُنَّا نُرَامُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَيْفَ حِينَ جَاءَ اللهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، ثُمَّ رَفَعَتِ الْفَرَسُ أَيْضًا رَأْسَهَا، وَصَرَّتْ أُذُنَيهَا، فَقَالَ: أَحْلِفُ بِالله لَقَدْ حَسَّتْ بِرِيحِ خَيْلٍ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا سَرْجَهَا (السرج: ما يوضع على ظهر الدابة للركوب)، فَأَسْرَجَهَا وَأَخَذَ سِلَاحَهُ، ثُمَّ نَهَضَ، حَتَّى أَتَى مَكَانًا يُقَالُ لَهُ الزَّوْرَاءُ، فَلَقِيَهُ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ تُسَوِّطُ دَابَّتَكَ وَقَدْ أُخِذَتِ اللِّقَاحُ! وَقَدْ ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَلَبِهَا وَأَصْحَابُهُ،

فَقَالَ: أَيْنَ فَأَشَارَ لَهُ نَحْوَ الثَّنِيَّةِ، فَإِذَا بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ جُلُوسًا عِنْدَ دِبَابٍ، فَقَمَعَ دَابَّتَهُ ثُمَّ خَلَّاهَا، فَمَرَّ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ: «**امْضِ يَا أَبَا قَتَادَةَ صَحِبَكَ اللهُ**».

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: فَخَرَجْتُ، فَإِذَا بِإِنْسَانٍ يُحَاكُّنِي، فَلَمْ أَنْشِبْ أَنْ هَجَمْنَا عَلَى الْعَسْكَرِ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا قَتَادَةَ! مَا تَقُولُ، أَمَّا الْقَوْمُ فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ، فَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ: تَقُولُ إِنِّي وَاقِفٌ حَتَّى يَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ أُرِيدُ أَنْ تَشُدَّ فِي نَاحِيَةٍ وَأَشُدَّ فِي نَاحِيَةٍ، فَوَثَبَ أَبُو قَتَادَةَ، فَشَقَّ الْقَوْمَ وَرُمِيَ بِسَهْمٍ، فَوَقَعَ فِي جَبْهَتِهِ، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: فنزعت فِدْحَهُ، وَأَنَا أَظُنُّ أَنِّي قَدْ نَزَعْتُ الْحَدِيدَةَ، وَمَضَيْتُ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَنْشِبْ أَنْ طَلَعَ عَلَيَّ فَارِسٌ عَلَى فَرَسٍ فَارِهٍ (الخفيف النشيط الماهر)، وَأَدَاةٍ كَلِيلَةٍ عَلَى وَجْهِهِ مِغْفَرٌ (زرد أو غطاء ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة) لَهُ، فَأَثْبَتَنِي وَلَمْ أُثْبِتْهُ، قَالَ: لَقَدْ لَقَّانِيكَ اللهُ يَا أَبَا قَتَادَةَ وَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، فَإِذَا مَسْعَدَةُ الْفَزَارِيُّ، فَقَالَ: أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مُجَالَدَةٌ، أَوْ مُطَاعَنَةٌ أَوْ مُصَارَعَةٌ، قَالَ: فَقُلْتُ ذَاكَ إِلَى اللهِ ﷻ وَإِلَيْكَ، قَالَ: فَقَالَ: صِرَاعٌ، فَأَحَالَ رِجْلَهُ عَنْ دَابَّتِهِ وَأَحَلْتُ رِجْلِي عَنْ دَابَّتِي، ثُمَّ عَلَّقْتُ دَابَّتِي وَسِلَاحِي إِلَى شَيْءٍ، وَعَلَّقَ دَابَّتَهُ وَسِلَاحَهُ إِلَى شَيْءٍ، ثُمَّ تَوَاثَبْنَا فَلَمْ أَنْشِبْ أَنْ رَزَقَ اللهُ ﷻ الظَّفَرَ عَلَيْهِ، فَإِذَا أنا على صدره فو الله إِنِّي لَمِنْ أَهَمِّ النَّاسِ مِنْ رَجُلٍ مُتَأَبِّطٍ (جعله تحت إبطه، والإبط: باطن الذراع) قَدْ عَالَجْتُ مِنْهُ مَا عَالَجْتُ أَنْ أَقُومَ فَآخُذَ سَيْفِي أَنْ يَقُومَ فَيَأْخُذَ سَيْفَهُ وَأَنَا بَيْنَ عَسْكَرَيْنِ لَا آمَنُ أَنْ يَهْجُمَ عَلَيَّ أَحَدُهُمَا إِذَا شَيْءٌ يَمَسُّ رَأْسِي، فَإِذَا نَحْنُ قَدْ تَعَالَجْنَا، حَتَّى بَلَغْنَا سِلَاحَ مَسْعَدَةَ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي إِلَى سَيْفِهِ فَلَمَّا رَأَى أَنَّ السَّيْفَ قَدْ وَقَعَ بِيَدِي، قَالَ: يَا أَبَا قَتَادَةَ اسْتَحْيِنِي، قَالَ: قُلْتُ لَا وَاللهِ، أَوَ تَرِدَ أُمُّكَ الْهَاوِيَةَ، قَالَ: يَا أَبَا قَتَادَةَ فَمَنْ لِلصِّبْيَةِ؟ قَالَ: قُلْتُ النَّارُ، قَالَ ثُمَّ قَتَلْتُهُ، ثُمَّ أَدْرَجْتُهُ(أدخلته) فِي بُرْدِي، ثُمَّ أَخَذْتُ ثِيَابَهُ فَلَبِسْتُهَا، وَأَخَذْتُ سِلَاحَهُ ثُمَّ اسْتَوَيْتُ عَلَى فَرَسِهِ وَكَانَتْ فَرَسِي نَفَذَتْ حِينَ تَعَالَجْنَا، فرجعت راجعة إِلَى الْعَسْكَرِ، قَالَ فَعَرْقَبُوهَا ثُمَّ مَضَيْتُ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَنْشِبْ أَنَا حَتَّى أَشْرَفْتُ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ وَهُوَ فِي سَبْعَةَ عَشَرَ فَارِسًا، قَالَ: فَأَلَحْتُ لَهُمْ فَوَقَفُوا فَلَمَّا أَنْ دَنَوْتُ مِنْهُمْ حَمَلْتُ عَلَيْهِمْ حَمْلَةً فَطَعَنْتُ ابْنَ أَخِيهِ طَعْنَةً دَقَّقَتْ صُلْبَهُ، قَالَ: وَأَكْشَفَ مَنْ مَعَهُ، قَالَ: وَخَشِيتُ اللقاح برمحي، قَالَ: وَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِمُ الْعَسْكَرُ فَرُّوا، قَالَ: فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى مَوْضِعِ الْعَسْكَرِ إِذَا بِفَرَسِ أَبِي قَتَادَةَ قَدْ عُرْقِبَتْ، قَالَ: فقال الرجل مِنَ الصَّحَابَةِ يَا رَسُولَ اللهِ عُرْقِبَتْ فَرَسُ أَبِي قَتَادَةَ! قَالَ: فَوَقَفَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**وَيْحُ أُمِّكَ رُبَّ عَدُوٍّ لَكَ فِي الْحَرْبِ مَرَّتَيْنِ**»، قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي تَعَالَجْنَا فِيهِ إِذَا هُمْ بِأَبِي قَتَادَةَ فِيمَا يَرَوْنَ مُسَجًّى فِي ثِيَابِهِ، قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ: يَا رَسُولَ اللهِ! اسْتُشْهِدَ أَبُو قَتَادَةَ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رَحِمَ اللهُ أَبَا قَتَادَةَ عَلَى آثَارِ الْقَوْمِ يَرْتَجِزُ**»، فَدَخَلَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَى فَرَسٍ قَدْ عُرْقِبَتْ وَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ مُسَجًّى عَلَى ثِيَابِي، قَالَ: فَخَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَوْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَسْعَى حَتَّى كَشَفَ الثَّوْبَ فَإِذَا هُوَ مَسْعَدَةُ، فَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ، مَسْعَدَةُ يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَبَّرَ النَّاسُ، وَلَمْ

يَنْشِبْ أن طلع عليكم أَبُو قَتَادَةَ يَحُوشُ اللِّقَاحَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَفْلَحَ وَجْهُكَ أَبَا قَتَادَةَ، أَبُو قَتَادَةَ سَيِّدُ الْفُرْسَانِ، بَارَكَ اللهُ فِيكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ، وَفِي وَلَدِكَ، وَفِي وَلَدِ وَلَدِكَ**، وَأَحْسَبُ عِكْرِمَةَ قَالَ: «**وَفِي وَلَدِ وَلَدِ وَلَدِكَ، مَا هَذَا بِوَجْهِكَ يَا أَبَا قَتَادَةَ؟**»، قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي وَأُمِّي سَهْمٌ أَصَابَنِي، وَالَّذِي أَكْرَمَكَ بِمَا أَكْرَمَكَ، لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنِّي نَزَعْتُهُ، قَالَ: «**ادْنُ مِنِّي يَا أَبَا قَتَادَةَ**»، قَالَ: فَدَنَوْتُ مِنْهُ قَالَ فَنَزَعَ النَّصْلَ نَزْعًا رَفِيقًا، ثُمَّ بَزَقَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَوَضَعَ راحته عليه، فو الذي أَكْرَمَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالنُّبُوَّةِ مَا ضَرَبَ عَلَيَّ سَاعَةً قَطُّ وَلَا قَرَحَ عَلَيَّ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٩١-١٩٣].

فدائية الأَخْرَمِ الأَسَدِيِّ رضي الله عنه وشجاعة سلمة بن الأكوع رضي الله عنه:

قَالَ سَلَمَةُ رضي الله عنه: فَمَا بَرِحْتُ مَكَانِي حَتَّى رَأَيْتُ فَوَارِسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَخَلَّلُونَ الشَّجَرَ.

قَالَ: فَإِذَا أَوَّلُهُمُ الأَخْرَمُ الأَسَدِيُّ، عَلَى إِثْرِهِ أَبُو قَتَادَةَ الأَنْصَارِيُّ، وَعَلَى إِثْرِهِ الْمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ الْكِنْدِيُّ، قَالَ: فَأَخَذْتُ بِعِنَانِ الأَخْرَمِ، قَالَ: فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، قُلْتُ: **يَا أَخْرَمُ احْذَرْهُمْ لاَ يَقْتَطِعُوكَ حَتَّى يَلْحَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ**، قَالَ: **يَا سَلَمَةُ، إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، فَلاَ تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ**، قَالَ: فَخَلَّيْتُهُ، فَالْتَقَى هُوَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، قَالَ: فَعَقَرَ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَرَسَهُ، وَطَعَنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَقَتَلَهُ، وَتَحَوَّلَ عَلَى فَرَسِهِ، وَلَحِقَ أَبُو قَتَادَةَ - فَارِسُ رَسُولِ اللهِ ﷺ - بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ، فَوَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَتَبِعْتُهُمْ أَعْدُو عَلَى رِجْلَيَّ حَتَّى مَا أَرَى وَرَائِي مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلاَ غُبَارِهِمْ شَيْئًا، حَتَّى يَعْدِلُوا قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى شِعْبٍ فِيهِ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ ذُو قَرَدٍ لِيَشْرَبُوا مِنْهُ وَهُمْ عِطَاشٌ، قَالَ: فَنَظَرُوا إِلَيَّ أَعْدُو وَرَاءَهُمْ، فَحَلَّيْتُهُمْ عَنْهُ - يَعْنِي أَجْلَيْتُهُمْ عَنْهُ - فَمَا ذَاقُوا مِنْهُ قَطْرَةً، قَالَ: وَيَخْرُجُونَ فَيَشْتَدُّونَ فِي ثَنِيَّةٍ، قَالَ: فَأَعْدُو فَأَلْحَقُ رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَصُكُّهُ بِسَهْمٍ فِي نُغْضِ كَتِفِهِ (هو العظم الرقيق على طرف الكتف)، قَالَ: قُلْتُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الأَكْوَعِ، وَالْيَوْمَ يَوْمُ الرُّضَّعِ، قَالَ: يَا ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ أَكْوَعُهُ بُكْرَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ، أَكْوَعُكَ بُكْرَةَ، قَالَ: وَأَرْدَوْا (خلفوا) فَرَسَيْنِ عَلَى ثَنِيَّةٍ، قَالَ: فَجِئْتُ بِهِمَا أَسُوقُهُمَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: وَلَحِقَنِي عَامِرٌ بِسَطِيحَةٍ (إناء من الجلود) فِيهَا مَذْقَةٌ (قليل من لبن ممزوج بماء) مِنْ لَبَنٍ، وَسَطِيحَةٍ فِيهَا مَاءٌ، فَتَوَضَّأْتُ وَشَرِبْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمَاءِ الَّذِى حَلَّيْتُهُمْ عَنْهُ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ أَخَذَ تِلْكَ الإِبِلَ وَكُلَّ شَيْءٍ اسْتَنْقَذْتُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَكُلَّ رُمْحٍ وَبُرْدَةٍ، وَإِذَا بِلاَلٌ نَحَرَ نَاقَةً مِنَ الإِبِلِ الَّذِى اسْتَنْقَذْتُ مِنَ الْقَوْمِ، وَإِذَا هُوَ يَشْوِي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ كَبِدِهَا وَسَنَامِهَا، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، خَلِّنِي فَأَنْتَخِبُ مِنَ الْقَوْمِ مِائَةَ رَجُلٍ فَأَتَّبِعُ الْقَوْمَ، فَلاَ يَبْقَى مِنْهُمْ مُخْبِرٌ إِلَّا قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ فِي ضَوْءِ النَّارِ، فَقَالَ: «**يَا سَلَمَةُ أَتُرَاكَ كُنْتَ فَاعِلًا**»، قُلْتُ: نَعَمْ وَالَّذِى أَكْرَمَكَ، فَقَالَ: «**إِنَّهُمُ الآنَ لَيُقْرَوْنَ فِي أَرْضِ غَطَفَانَ**»، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ غَطَفَانَ، فَقَالَ: نَحَرَ لَهُمْ فُلاَنٌ جَزُورًا، فَلَمَّا كَشَفُوا جِلْدَهَا رَأَوْا غُبَارًا، فَقَالُوا: أَتَاكُمُ الْقَوْمُ، فَخَرَجُوا هَارِبِينَ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قَالَ

رَسُولُ الله ﷺ: «**كَانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا الْيَوْمَ أَبُو قَتَادَةَ، وَخَيْرَ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةُ**»، قَالَ: ثُمَّ أَعْطَانِي رَسُولُ الله ﷺ سَهْمَيْنِ: سَهْمُ الْفَارِسِ، وَسَهْمُ الرَّاجِلِ، فَجَمَعَهُمَا لِي جَمِيعًا، ثُمَّ أَرْدَفَنِي رَسُولُ الله ﷺ وَرَاءَهُ عَلَى الْعَضْبَاءِ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ. [**مسلم في الجهاد والسير (١٨٠٧)، ومسند أحمد ٢٧/ ٧٠ رقم ١٦٥٣٩**].

الاطمئنان على رسول الله ﷺ:

قال الواقدي: فَحَدَّثَنِي زَكَرِيَّا بْنُ زَيْدٍ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ أُمِّ عَامِرِ بِنْتِ يَزِيدَ بْنِ السَّكَنِ قَالَتْ: كُنْتُ مِمَّنْ حَضَّ مُحْرِزًا عَلَى اللُّحُوقِ بِرَسُولِ الله ﷺ، فَوَالله إِنَّا لَفِي أُطُمِنَا نَنْظُرُ إِلَى رَهَجِ الْغُبَارِ إِذْ أَقْبَلَ ذُو اللَّمَّةِ، فَرَسُ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى آرِيِّهِ، فَقُلْتُ: أُصِيبَ وَالله! فَحَمَلْنَا عَلَى الْفَرَسِ رَجُلًا مِنْ الْحَيِّ، فَقُلْنَا: أَطْلِعْ لَنَا رَسُولَ الله هَلْ أَصَابَهُ إِلَّا خَيْرٌ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْنَا سَرِيعًا.

قَالَ: فَخَرَجَ مُحْضِرًا (**أحضر الفرس**، وكذلك الرجل: إذا عدا) حَتَّى لَحِقَ رَسُولَ الله ﷺ بِهَيْقَا فِي النَّاسِ، ثُمَّ رَجَعَ فَأَخْبَرَنَا بِسَلَامَةِ رَسُولِ الله ﷺ، فَحَمِدْنَا اللهَ تَعَالَى عَلَى سَلَامَةِ رَسُولِ الله ﷺ.

[**المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٣**].

اندحار المغيرين واستعادة الإبل:

وكان النبي ﷺ قد بعث أمامه بقوة خفيفة من الفرسان لمقاتلة المغيرين وإشغالهم بقيادة الفارس الأنصاري الشهير سعد بن زيد بن مالك ﷺ، ثم لحقهم النبي ﷺ في عامة الجيش.

وقد اشتبكت فصيلة الفرسان النبوية مع المغيرين، وعلى قلة رجالها وكثرة العدو تمكنت من دحرهم واستعادة كل ما انتهبوه من إبل المسلمين، ثم طاردتهم حتى قذفت بهم إلا ما وراء حدود المسلمين، ولم يصل النبي القائد ﷺ إلى منطقة الغابة إلا بعد أن دحرت فصيلة فرسانه قوات الغطفانيين المعتدين على النحو الذي ذكرنا.

وقد أبدى سلمة بن الأكوع ﷺ في هذه المعركة بطولة نادرة، وخاصة قبل وصول كتيبة الفرسان النبوية، حيث ظل بمفرده يشاغل المغيرين ويراميهم بالنبل، وكان من أعظم الرماة في عصره، وقد استخلص مجموعة كبيرة من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان النبوية.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَسَارَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى نَزَلَ بِالْجَبَلِ مِنْ ذِي قَرَدٍ، وَتَلَاحَقَ بِهِ النَّاس، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ بِهِ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَقَالَ لَهُ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ ﷺ: يا رسول الله، لَوْ سَرَّحْتنِي فِي مِائَةِ رَجُلٍ لَاسْتَنْقَذْتُ بَقِيَّةَ السَّرْحِ، وَأَخَذْت بِأَعْنَاقِ الْقَوْمِ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ فِيمَا بَلَغَنِي: «**إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَغْبَقُونَ** (يسقون اللبن بالعشي) **فِي غَطَفَانَ**». [**السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٥**].

قال الواقدي: وَخَرَجَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ ﷺ عَلَى رِجْلَيْهِ يَعْدُو لِيَسْبِقَ الْخَيْلَ مِثْلَ السَّبُعِ.

قَالَ سَلَمَةُ: حَتَّى لَحِقْتُ الْقَوْمَ فَجَعَلْتُ أَرْمِيهِمْ بِالنَّبْلِ، وَأَقُولُ حِينَ أَرْمِي: خُذْهَا مِنِّي وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ! فَتكِرُّ عَلَيَّ خَيْلٌ مِنْ خَيْلِهِمْ، فإذا وُجِّهَتْ نَحْوِي انْطَلَقْتُ هَارِبًا فَأَسْبِقُهَا، وَأَعْمِدُ إِلَى الْـمَكَانِ الْـمُعْوِرِ (أي ذو عورة)، فَأُشْرِفُ عَلَيْهِ وَأَرْمِي بِالنَّبْلِ إِذَا أَمْكَنَنِي الرَّمْيُ وَأَقُولُ:

خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ وَالْيَـوْمُ يَـوْمُ الرُّضَّـعْ (١)

فَمَا زِلْتُ أُكَافِحُهُمْ وَأَقُولُ: قِفُوا قَلِيلًا، يَلْحَقْكُمْ أَرْبَابُكُمْ مِنْ الْـمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَيَزْدَادُونَ عَلَيَّ حَنَقًا فَيَكِرُّونَ عَلَيَّ، فَأُعْجِزُهُمْ هَرَبًا حَتَّى انْتَهَيْتُ بِهِمْ إِلَى ذِي قَرَدٍ، وَلَـحِقَنَا رَسُولُ الله ﷺ وَالْخُيُولُ عِشَاءً، فَقُلْتُ: يا رسول الله، إِنَّ الْقَوْمَ عِطَاشٌ وَلَيْسَ لَهُمْ مَاءٌ دُونَ أَحْسَاءِ كَذَا وَكَذَا، فَلَوْ بَعَثْتَنِي فِي مِائَةِ رَجُلٍ اسْتَنْقَذْتُ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ السَّرْحِ، وَأَخَذْتُ بِأَعْنَاقِ الْقَوْمِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ**» (أي: قدرت فسهل وأحسن العفو، وهو مثل سائر. النهاية ٢/ ١٤٦]، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّهُمْ لَيُقْرَوْنَ فِي غَطَفَانَ**».

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٠-٥٤١].

قَالُوا: وَذَهَبَ الصَّرِيخُ إِلَى بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، فَجَاءَتْ الْأَمْدَادُ، فَلَمْ تَزَلْ الْخَيْلُ تَأْتِي، وَالرِّجَالُ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، وَالْإِبِلِ، وَالْقَوْمُ يَعْتَقِبُونَ الْبَعِيرَ وَالْحِمَارَ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ بِذِي قَرَدٍ، فَاسْتَنْقَذُوا عَشْرَ لَقَائِحَ، وَأَفْلَتَ الْقَوْمُ بِمَا بَقِيَ وَهِيَ عَشْرٌ. **[المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٢]**.

قال الواقدي: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ سُحَيْمٍ قَالَ: قَالَ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ الْأَشْهَلِيُّ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ السَّرْحِ أَتَانَا الصَّرِيخُ، فَأَنَا فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، فَأَلْبَسُ دِرْعِي وَأَخَذْتُ سِلَاحِي، وَأَسْتَوِي عَلَى فَرَسٍ لِي جَامٍّ حِصَانٍ، يُقَالُ لَهُ النَّجْلُ، فَأَنْتَهِي إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَيْهِ الدِّرْعُ وَالْمِغْفَرُ لَا أَرَى إِلَّا عَيْنَيْهِ، وَالْخَيْلُ تَعْدُو قِبَلَ قَنَاةَ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**يَا سَعْدُ، امْضِ، قَدِ اسْتَعْمَلْتُكَ عَلَى الخَيْلِ حَتَّى أَلْحَقَكَ إِنْ شَاءَ اللهُ**»، فَقَرَّبْتُ فَرَسِي سَاعَةً، ثُمَّ خَلَّيْتُهُ، فَمَرَّ يُحْضِرُ، فَأَمُرُّ بِفَرَسٍ حَسِيرٍ، فَقُلْت: مَا هَذَا؟ وَأَمُرُّ بِمَسْعَدَةَ قَتِيلِ أَبِي قَتَادَةَ، وَأَمُرُّ بِمُحْرِزٍ قَتِيلًا فَسَاءَنِي، وَأَلْحَقُ الْمِقْدَادَ بْنَ عَمْرٍو، وَمُعَاذَ بْنَ مَاعِصٍ، فَأَحْضَرْنَا وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَى رَهَجِ الْقَوْمِ، وَأَبُو قَتَادَةَ فِي أَثَرِهِمْ، وَأَنْظُرُ إِلَى ابْنِ الْأَكْوَعِ يَسْبِقُ الْخَيْلَ أَمَامَ الْقَوْمِ يَرْشُقُهُمْ بِالنَّبْلِ فَوَقَفُوا وَقْفَةً وَنَلْحَقُ بِهِمْ فَتَنَاوَشْنَا سَاعَةً، وَأَحْمِلُ عَلَى حُبَيْبِ بْنِ عُيَيْنَةَ بِالسَّيْفِ فَأَقْطَعُ مَنْكِبَهُ الْأَيْسَرَ، وَخَلَّى الْعِنَانَ، وَتَتَايَعَ (تسارع) فَرَسُهُ، فَيَقَعُ لِوَجْهِهِ، وَاقْتَحَمَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ، وَأَخَذْتُ فَرَسَهُ، وَكَانَ شِعَارُنَا: **أَمِتْ أَمِتْ**.

وَقَدْ سَمِعْنَا فِي قَتْلِ حُبَيْبِ بْنِ عُيَيْنَةَ وَجْهًا آخَرَ.

فَحَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَـمَّا تَلَاحَقُوا هُمْ وَالْعَدُوّ وَقُتِلَ مِنْهُمْ مُحْرِزُ بْنُ نَضْلَةَ، وَخَرَجَ أَبُو قَتَادَةَ فِي وَجْهِهِ، فَقَتَلَ أَبُو قَتَادَةَ مَسْعَدَةَ، وَقُتِلَ أَوْثَارٌ وَعَمْرُو بْنُ أَوْثَارٍ، قَتَلَهُمَا

---

(١) **الرضع**: جمع راضع وهو اللئيم، وأراد أن هذا اليوم هو يوم هلاك اللئام. شرح أبي ذر ص ٣٢٩.

عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، وَإِنَّ حُبَيْبَ بْنَ عُيَيْنَةَ كَانَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ، هُوَ وَفَرَقَةُ بْنُ مَالِكِ ابْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ، قَتَلَهُمْ الْـمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٥-٥٤٦].

صَلاةُ الْخَوْفِ بِذِي قَرَدٍ:

قال الواقدي: قَالُوا: وَتَلاحَقَ النَّاسُ بِذِي قَرَدٍ، وَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ صَلَاةَ الْخَوْفِ.

فَحَدَّثَنِي سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ وَابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي جَهْمٍ عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَامَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الْقِبْلَةِ، وَصَفَّ طَائِفَةً خَلْفَهُ، وَطَائِفَةً مُوَاجِهَةً الْعَدُوِّ، فَصَلَّى بِالطَّائِفَةِ الَّتِي خَلْفَهُ رَكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ انْصَرَفُوا فَقَامُوا مَقَامَ أَصْحَابِهِمْ، وَأَقْبَلَ الْآخَرُونَ فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ الله ﷺ رَكْعَةً وَسَجْدَتَيْنِ، فَكَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ رَكْعَتَانِ، وَلِكُلِّ رَجُلٍ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ رَكْعَةٌ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٦].

أَسْمَاءُ أَفْرَاسِ الْمُسْلِمِينَ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ اسْمُ فَرَسِ مَحْمُودٍ ذَا اللِّمَّةِ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَكَانَ اسْمُ فَرَسِ سَعْدِ بْنِ زَيْدٍ: لَاحِقٌ، وَاسْمُ فَرَسِ الْـمِقْدَادِ: بَعْزَجَةُ، وَيُقَالُ: سُبْحَةُ، وَاسْمُ فَرَسِ عُكَّاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ: ذُو اللِّمَّةِ، وَاسْمُ فَرَسِ أَبِي قَتَادَةَ: حَزْوَةُ، وَفَرَسِ عَبَّادِ بْنِ بِشْرٍ: لَمَّاعُ، وَفَرَسِ أُسَيْدِ بْنِ ظُهَيْرٍ: مَسْنُونٌ، وَفَرَسِ أَبِي عَيَّاشٍ: جُلْوَةُ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ مُجَزِّرًا إِنَّمَا كَانَ عَلَى فَرَسٍ لِعُكَّاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ يُقَالُ لَهُ: الْجَنَاحُ، فَقُتِلَ مُجَزِّرٌ وَاسْتُلِبَتْ الْجَنَاحُ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٤].

قتلى الفريقين في المعركة:

وقد استشهد في هذه العملية ثلاثة من المسلمين، اثنان من أفراد فصيلة الفرسان النبوية هما: محرز بن نضلة رضي الله عنه (لقبه: الأخرم الأسدي واسمه محرز فضلة بن عبد الله، من بني أسد ابن خزيمة، القبيلة العدنانية النجدية العظيمة، يلقب الأخرم هذا بفارس رسول الله ﷺ، شهد مع رسول الله ﷺ بدرًا)، قتله عبد الرحمن بن عيينة بن حصن، ووقاص بن محرز رضي الله عنه (قال في الإصابة: هو وقاص بن محرز المدلجي، ونفى ابن إسحاق أن وقاص قد قتل في هذه العملية)، وابن أبي ذر لم يذكر اسمه أحد فيما رأيت من المؤرخين.

أما قتلى المشركين فقد كانوا ثلاثة من فرسانهم وهم: حبيب وعبد الرحمن، أبناء عيينة بن حصن الفزاري، وفارس يقال له مسعدة، من فزارة.

قال الواقدي: مِنْ الْـمُسْلِمِينَ وَاحِدٌ: مُحْرِزُ بْنُ نَضْلَةَ قَتَلَهُ مَسْعَدَةُ.

وَقُتِلَ مِنْ الْـمُشْرِكِينَ: مَسْعَدَةُ بْنُ حَكَمَةَ، قَتَلَهُ أَبُو قَتَادَةَ، وَأَوْثَارٌ وَابْنُهُ عَمْرُو بْنُ أَوْثَارٍ، قَتَلَهُمَا عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، وَحُبَيْبُ بْنُ عُيَيْنَةَ، قَتَلَهُ الْـمِقْدَادُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٩].

ابن الأكوع ﷺ يفوز في سباق الجري في طريق العودة:

قَالَ سَلَمَةُ ﷺ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ - قَالَ: وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ لاَ يُسْبَقُ شَدًّا.

قَالَ: فَجَعَلَ يَقُولُ أَلَا مُسَابِقٌ إِلَى المَدِينَةِ؟ هَلْ مِنْ مُسَابِقٍ؟ فَجَعَلَ يُعِيدُ ذَلِكَ.

قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُ كَلاَمَهُ قُلْتُ: أَمَا تُكْرِمُ كَرِيمًا، وَلَا تَهَابُ شَرِيفًا، قَالَ: لَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولُ الله ﷺ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله بِأَبِي وَأُمِّي ذَرْنِي فَلأُسَابِقَ الرَّجُلَ، قَالَ: «**إِنْ شِئْتَ**»، قَالَ: قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَيْكَ، وَثَنَيْتُ رِجْلَيَّ، فَطَفَرْتُ فَعَدَوْتُ، قَالَ: فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ أَسْتَبْقِي نَفَسِي، ثُمَّ عَدَوْتُ فِي إِثْرِهِ فَرَبَطْتُ عَلَيْهِ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ، ثُمَّ إِنِّي رَفَعْتُ حَتَّى أَلْحَقَهُ، قَالَ: فَأَصُكُّهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ: قُلْتُ: قَدْ سُبِقْتَ وَالله، قَالَ: أَنَا أَظُنُّ، قَالَ: فَسَبَقْتُهُ إِلَى المَدِينَةِ. [مسلم في الجهاد والسير (١٨٠٧)].

امْرَأَةُ الْغِفَارِيِّ وَمَا نَذَرَتْ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ:

أما المرأة التي أسرها المغيرون من غطفان وهي زوجة ابن أبي ذر الذي قتله المشركون أثناء الغارة في الغابة، فقد عادت إلى المدينة سالمة بعد أن تمكنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقة تابعة لرسول الله ﷺ.

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ: كَانَتْ ثَقِيفُ حُلَفَاءَ لِبَنِي عُقَيْلٍ، فَأَسَرَتْ ثَقِيفُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ، وَأَسَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ، وَأَصَابُوا [وَأُصِيبَتْ] مَعَهُ الْعَضْبَاءَ (أي أخذوها وهي ناقة نجيبة كانت لرجل من بني عقيل ثم انتقلت إلى رسول الله ﷺ)، فَأَتَى عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ فِي الْوَثَاقِ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: «**مَا شَأْنُكَ**»، فَقَالَ: بِمَ أَخَذْتَنِي، وَبِمَ أَخَذْتَ سَابِقَةَ الْحَاجِّ (أراد بها العضباء فإنها كانت لا تسبق أو لا تكاد تسبق معروفة بذلك)، فَقَالَ إِعْظَامًا لِذَلِكَ: «**أَخَذْتُكَ بِجَرِيرَةِ حُلَفَائِكَ ثَقِيفَ**»، ثُمَّ انْصَرَفَ عَنْهُ، فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: «**مَا شَأْنُكَ**»، قَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ، قَالَ: «**لَوْ قُلْتَهَا وَأَنْتَ تَمْلِكُ أَمْرَكَ أَفْلَحْتَ كُلَّ الْفَلَاحِ**» (معناه لو قلت كلمة الإسلام قبل الأسر حين كنت مالك أمرك أفلحت كل الفلاح؛ لأنه لا يجوز أسرك لو أسلمت قبل الأسر فكنت فزت بالإسلام وبالسلامة من الأسر ومن اغتنام مالك، وأما إذا أسلمت بعد الأسر فيسقط الخيار في قتلك ويبقى الخيار بين الاسترقاق والمن والفداء)، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَنَادَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: «**مَا شَأْنُكَ**»، قَالَ: إِنِّي جَائِعٌ فَأَطْعِمْنِي وَظَمْآنُ فَأَسْقِنِي، قَالَ: «**هَذِهِ حَاجَتُكَ**»، فَفُدِيَ بِالرَّجُلَيْنِ.

قَالَ: وَأُسِرَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَأُصِيبَتِ [مَعَهَا] الْعَضْبَاءُ، فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْوَثَاقِ، وَكَانَ الْقَوْمُ يُرِيحُونَ نَعَمَهُمْ بَيْنَ يَدَيْ بُيُوتِهِمْ، فَانْفَلَتَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنَ الْوَثَاقِ، فَأَتَتِ الإِبِلَ فَجَعَلَتْ إِذَا دَنَتْ مِنَ الْبَعِيرِ رَغَا، فَتَتْرُكُهُ، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْعَضْبَاءِ، فَلَمْ تَرْغُ، قَالَ: وَنَاقَةٌ مُنَوَّقَةٌ (أي مدربة مذللة)، فَقَعَدَتْ فِي عَجُزِهَا، ثُمَّ زَجَرَتْهَا فَانْطَلَقَتْ، وَنَذِرُوا بِهَا (أي علموا وأحسوا بهربها)، فَطَلَبُوهَا فَأَعْجَزَتْهُمْ.

قَالَ: وَنَذَرَتْ لله إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا، فَلَمَّا قَدِمَتِ المَدِينَةَ رَآهَا النَّاسُ، فَقَالُوا: الْعَضْبَاءُ، نَاقَةُ رَسُولِ الله ﷺ! فَقَالَتْ: إِنَّهَا نَذَرَتْ إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا.

فَأَتَوْا رَسُولَ الله ﷺ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «**سُبْحَانَ الله! بِئْسَمَا جَزَتْهَا! نَذَرَتْ لله إِنْ نَجَّاهَا اللهُ عَلَيْهَا لَتَنْحَرَنَّهَا، لا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ**»، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ حُجْرٍ «**لاَ نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ الله**».

[مسلم في النذر (١٦٤١)، ومسند أحمد ٣٣/ ١٢٤-١٢٥ رقم ١٩٨٩٥].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَقْبَلَتْ امْرَأَةُ الْغِفَارِيِّ عَلَى نَاقَةٍ مِنْ إِبِلِ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى قَدِمَتْ عَلَيْهِ فَأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ، فَلَـمَّا فَرَغَتْ قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي قَدْ نَذَرْت لله أَنْ أَنْحَرَهَا إِنْ نَجَّانِي اللهُ عَلَيْهَا، قَالَ: فتبسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ: «**بِئْسَ مَا جَزَيْتِهَا أَنْ حَمَلَكِ اللهُ عَلَيْهَا وَنَجَّاكِ بِهَا ثُمَّ تَنْحَرِينَهَا، إِنَّهُ لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ الله، وَلَا فِيمَا لَا تَمْلِكِينَ، إِنَّمَا هِيَ نَاقَةٌ مِنْ إِبِلِي، فَارْجِعِي إِلَى أَهْلِكِ عَلَى بَرَكَةِ الله**».

وَالْحَدِيثُ عَنْ امْرَأَةِ الْغِفَارِيِّ وَمَا قَالَتْ وَمَا قَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ المَكِّيِّ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٥].

وقال الواقدي: قالوا: وَلَـمَّا بَلَغَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ أَقْبَلَتْ امْرَأَةُ أَبِي ذَرٍّ ﷺ عَلَى نَاقَةِ رَسُولِ الله ﷺ الْقَصْوَاءِ، وَكَانَتْ فِي السَّرْحِ، فَكَانَ فِيهَا جَمَلُ أَبِي جَهْلٍ، فَكَانَ مِمَّا تَخَلَّصَهُ المُسْلِمُونَ، فَدَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَأَخْبَرَتْهُ مِنْ أَخْبَارِ النَّاسِ، ثُمَّ قَالَتْ: يا رسول الله، إِنِّي نَذَرْتُ إِنْ نَجَّانِي اللهُ عَلَيْهَا أَنْ أَنْحَرَهَا فَآكُلَ مِنْ كَبِدِهَا وَسَنَامِهَا، فتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ: «**بِئْسَ مَا جَزَيْتِهَا أَنْ حَمَلَكِ اللهُ عَلَيْهَا وَنَجَّاكِ ثُمَّ تَنْحَرِينَهَا، إِنَّهُ لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ الله، وَلَا فِيمَا لَا تَمْلِكِينَ، إِنَّمَا هِيَ نَاقَةٌ مِنْ إِبِلِي، فَارْجِعِي إِلَى أَهْلِك عَلَى بَرَكَةِ الله**».

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٨].

تَقْسِيمُ الْفَيْءِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَقَسَمَ رَسُولُ الله ﷺ فِي أَصْحَابِهِ فِي كُلِّ مِائَةِ رَجُلٍ جَزُورًا، وَأَقَامُوا عَلَيْهَا، ثُـمَّ رَجَـعَ رَسُولُ الله ﷺ قَافِلًا حَتَّى قَدِمَ الـمَدِينَةَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٨٥].

قال الواقدي: حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ أَبِي الرَّجَّالِ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ مَعْمَرٍ قَالَ: أَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ بِذِي قَرَدٍ يَوْمًا وَلَيْلَةً يَتَحَسَّبُ (**التحسب**: الاستخبار) الْخَبَرَ، وَقَسَمَ فِي كُلِّ مِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ جَزُورًا يَنْحَرُونَهَا، وَكَانُوا خَمْسَمِائَةٍ، وَيُقَالُ: كَانُوا سَبْعَمِائَةٍ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٦].

وهذه الغزوة تعتبر من أكبر الغزوات التأديبية التي يقودها النبي ﷺ بنفسه ضد أعراب نجد بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة وقبل غزوة خيبر. [صلح الحديبية لباشميل ٤١].

كرم سعد بن عبادة وطلحة بن عبيد الله ﷺ:

قال الواقدي: وَأَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ فِي ثَلَاثِمِائَةٍ مِنْ قَوْمِهِ يَحْرُسُونَ المَدِينَةَ خَمْسَ لَيَالٍ حَتَّى رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ، وَبَعَثَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِأَحْمَالِ تَمْرٍ وَبِعَشَرَةِ جَزَائِرَ بِذِي قَرَدٍ.

وَكَانَ فِي النَّاسِ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ ﭬ عَلَى فَرَسٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ الْوَرْدُ، وَكَانَ هُوَ الَّذِي قَرَّبَ الْجُزُرَ وَالتَّمْرَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا قَيْسُ! بَعَثَكَ أَبُوكَ فَارِسًا، وَقَوَّى الْمُجَاهِدِينَ، وَحَرَسَ الْمَدِينَةَ مِنَ الْعَدُوِّ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ سَعْدًا وَآلَ سَعْدٍ!**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نِعْمَ الْمَرْءُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ**»، فَتَكَلَّمَتْ الْخَزْرَجُ، فَقَالَتْ: يا رسول الله، هُوَ بَيْتُنَا، وَسَيِّدُنَا، وَابْنُ سَيِّدِنَا، كَانُوا يُطْعِمُونَ فِي الْمَحْلِ وَيَحْمِلُونَ الْكَلَّ (العيال)، وَيَقْرُونَ الضَّيْفَ وَيُعْطُونَ فِي النَّائِبَةِ، وَيَحْمِلُونَ عَنْ الْعَشِيرَةِ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**خِيَارُ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا فَقُهُوا فِي الدِّينِ**».

وَلَـمَّا انْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بِئْرٍ هَمٍّ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله أَلَا تُسَمِّي بِئْرَ هَمٍّ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا وَلَكِنْ يَشْتَرِيهَا بَعْضُكُمْ فَيَتَصَدَّقُ بِهَا**»، فَاشْتَرَاهَا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله فَتَصَدَّقَ بِهَا. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٧**].

عودة النبي ﷺ إلى المدينة:

قَالَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ ﭬ: أَغَارَ عُيَيْنَةُ لَيْلَةَ الْأَرْبِعَاءِ لِثَلَاثٍ خَلَوْنَ مِنْ رَبِيعٍ الْآخِرِ سَنَةَ سِتٍّ، وَغَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي طَلَبِهِ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، فَغِبْنَا خَمْسَ لَيَالٍ وَرَجَعْنَا لَيْلَةَ الِاثْنَيْنِ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٧**].

هديةٌ لرسول الله ﷺ:

قال الواقدي: حَدَّثَنِي فَائِدٌ مَوْلَى عَبْدِ الله عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ جَدَّتِهِ سَلْمَى، قَالَتْ: نَظَرْتُ إِلَى لَقُوحٍ (**ناقة لقوح**: أي غزيرة اللبن) عَلَى بَابِ رَسُولِ الله ﷺ يُقَالُ لَهَا السَّمْرَاءُ، فَعَرَفْتُهَا، فَدَخَلْتُ عَلَى رسول الله ﷺ فقلتُ: هَذِهِ لِقْحَتُكَ السَّمْرَاءُ عَلَى بَابِكَ، فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ مُسْتَبْشِرًا، وَإِذَا رَأْسُهَا بِيَدِ ابْنِ أَخِي عُيَيْنَةَ، فَلَـمَّا نَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ عَرَفَهَا ثُمَّ قَالَ: أَيْمَ بِكَ؟ فَقَالَ: يا رسول الله، أَهْدَيْتُ لَكَ هَذِهِ اللِّقْحَةَ، فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَبَضَهَا مِنْهُ، ثُمَّ أَقَامَ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِ أَوَاقٍ مِنْ فِضَّةٍ، فَجَعَلَ يَتَسَخَّطُ، قَالَ: فَقُلْتُ: يا رسول الله، أَتُثِيبُهُ عَلَى نَاقَةٍ مِنْ إِبِلِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نَعَمْ وَهُوَ سَاخِطٌ عَلَيَّ**».

ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ الظُّهْرَ ثُمَّ صَعِدَ عَلَى الْـمِنْبَرِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُهْدِي لِي النَّاقَةَ مِنْ إِبِلِي أَعْرِفُهَا كَمَا أَعْرِفُ بَعْضَ أَهْلِي، ثُمَّ أُثِيبُهُ عَلَيْهَا فَيَظَلُّ يَتَسَخَّطُ عَلَيَّ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَلَّا أَقْبَلَ هَدِيَّةً إِلَّا مِنْ قُرَشِيٍّ أَوْ أَنْصَارِيٍّ** - وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُ: **أَوْ ثَقَفِيٍّ أَوْ دَوْسِيٍّ**.

[**المغازي للواقدي ٢/ ٥٤٨-٥٤٩**].

شِعْرُ حَسَّانَ ﭬ فِي ذِي قَرَدٍ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ مِمَّا قِيلَ مِنْ الشِّعْرِ فِي يَوْمِ ذِي قَرَدٍ قَوْلُ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ﭬ:

لَوْلَا الَّذِي لَاقَتْ وَمَسَّ نُسُورَهَا ... بِجَنُوبِ سَايَةَ أَمْسِ فِي التَّقْوَادِ (١)

لَلَقِينَكُمْ يَحْمِلْنَ كُلَّ مُدَجَّجٍ ... حَامِي الحَقِيقَةِ مَاجِدِ الْأَجْدَادِ (٢)

وَلَسَرَّ أَوْلَادَ اللَّقِيطَةِ أَنَّنَا ... سِلْمٌ غَدَاةَ فَوَارِسِ الْمِقْدَادِ (٣)

كُنَّا ثَمَانِيَةً وَكَانُوا جَحْفَلًا ... لَجِبًا فَشُكُّوا بِالرِّمَاحِ بَدَادِ (٤)

كُنَّا مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ... وَيُقَدِّمُونَ عِنَانَ كُلِّ جَوَادِ

كَلَّا وَرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مِنًى ... يَقْطَعْنَ عُرْضَ مَخَارِمِ الْأَطْوَادِ (٥)

حَتَّى نُبِيلَ الخَيْلَ فِي عَرَصَاتِكُمْ ... وَنَؤُوبُ بِالْمَلَكَاتِ وَالْأَوْلَادِ (٦)

رَهْوًا بِكُلِّ مُقَلَّصٍ وَطِمِرَّةٍ ... فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ عَطَفْنَ رَوَادِي (٧)

أَفْنَى دَوَابِرَهَا وَلَاحَ مُتُونَهَا ... يَوْمٌ تُقَادُ بِهِ وَيَوْمُ طِرَادِ (٨)

فَكَذَاكَ إِنَّ جِيَادَنَا مَلْبُونَةٌ ... وَالحَرْبُ مُشْعَلَةٌ بِرِيحِ غَوَادِ (٩)

وَسُيُوفُنَا بِيضُ الحَدَائِدِ تَجْتَلِي ... جُنَنَ الحَدِيدِ وَهَامَةَ الْمُرْتَادِ (١٠)

أَخَذَ الْإِلَهُ عَلَيْهِمْ لِحَرَامِهِ ... وَلِعِزَّةِ الرَّحْمَنِ بِالْأَسْدَادِ (١١)

كَانُوا بِدَارٍ نَاعِمِينَ فَبُدِّلُوا ... أَيَّامَ ذِي قَرَدٍ وُجُوهَ عِبَادِ (١٢)

---

(١) أضمر ذكر الخيل، وإن لم يتقدم لها ذكر؛ لأن الكلام يدل عليها، **والنسور**: ما يكون في باطن حافر الدابة، مثل الحصى والنوى. **ساية**: موضع.

(٢) **المدجج**: الكامل السلاح. **الماجد**: الشريف.

(٣) **أولاد اللقيطة**: الملتقطون الذين لا يُعرف آباؤهم. **السلم**: الصلح.

(٤) **الجحفل**: الجيش الكثير. **اللجب**: الكثير الأصوات، ولا يكون إلا عن كثرة عدده. **شكوا**: طعنوا. **بداد**: من التبدد، وهو التفرق.

(٥) **الراقصات**: الإبل، والرقص: ضرب من مشيها. **الأطواد**: الجبال المرتفعة. **المخارم**: الطرق بين الجبال.

(٦) **نبيل**: نجعلها تبول. **العرصات**: جمع عرصة، وهي وسط الدار. **نؤوب**: نرجع. **الملكات**: النساء يسبين في الحرب.

(٧) **الرهو**: المشي في سكون. **مقلص**: مشمر. **طمرة**: فرس وثابة سريعة. **المعترك**: موضع الحرب. **رواد**: قال أبو ذر: من رواه بفتح الراء فمعناه: سريعات، من ردى الفرس يردي، إذا أسرع، ومن رواه بكسر الراء، فهو من المشي الرويد، وهو الذي فيه فتور.

(٨) **دوابرها**: أواخرها. **لاح**: غير وأضعف. **متونها**: ظهورها. **الطراد**: مطاردة الأبطال بعضهم بعضًا.

(٩) **ملبونة**: تسقي اللبن. **مشعلة**: موقدة.

(١٠) **تجتلي**: تقطع. **الجنن**: جمع جنة، وهي السلاح. **المرتاد**: الطالب الحرب.

(١١) **الأسداد**: جمع سد، وهو ما يسد به على الإنسان فيمنعه عن وجهه.

(١٢) **عباد**: أي عبيد.

غَضَبُ سَعْدٍ ﷺ عَلَى حَسَّانَ ﷺ وَمُحَاوَلَةُ حَسَّانَ اسْتِرْضَاءَهُ:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: فَلَـمَّا قَالَهَا حَسَّانُ غَضِبَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ، وَحَلَفَ أَنْ لَا يُكَلِّمَهُ أَبَدًا، قَالَ: انْطَلَقَ إِلَى خَيْلِي وَفَوَارِسِي فَجَعَلَهَا لِلْمِقْدَادِ! فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ حَسَّانُ ﷺ وَقَالَ: وَاللهِ مَا ذَاكَ أَرَدْتُ، وَلَكِنَّ الرَّوِيَّ وَافَقَ اسْمَ الْـمِقْدَادِ، وَقَالَ أَبْيَاتًا يُرْضِي بِهَا سَعْدًا:

إِذَا أَرَدْتُمْ الْأَشَدَّ الـجَلْدَا أَوْ ذَا غِنَاءٍ فَعَلَيْكُمْ سَعْدَا

سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ لَا يُهَدُّ هَدَّا

فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ سَعْدٌ وَلَمْ يُغْنِ شَيْئًا.

شِعْرٌ آخَرُ لِحَسَّانَ ﷺ فِي يَوْمِ ذِي قَرَدٍ:

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ فِي يَوْمِ ذِي قَرَدٍ:

أَظَنَّ عُيَيْنَةُ إِذْ زَارَهَا بِأَنْ سَوْفَ يَهْدِمَ فِيهَا قُصُورَا [(١)]

فَأُكْذِبْتَ مَا كُنْتَ صَدَّقْتَهُ وَقُلْتُمْ سَنَغْنَمُ أَمْرًا كَبِيرَا

فَعِفْتَ المَدِينَةَ إِذْ زُرْتَهَا وَآنَسْتَ لِلْأُسْدِ فِيهَا زَئِيرَا [(٢)]

فَوَلَّوْا صِرَاعًا كَشَدِّ النَّعَامِ وَلَمْ يَكْشِفُوا عَنْ مُلِطٍّ حَصِيرَا [(٣)]

أَمِيرٌ عَلَيْنَا رَسُولُ المَلِيكِ أَحْبِبْ بِذَاكَ إِلَيْنَا أَمِيرَا

رَسُولٌ نُصَدِّقُ مَا جَاءَهُ وَيَتْلُو كِتَابًا مُضِيئًا مُنِيرَا

شِعْرُ كَعْبٍ ﷺ فِي يَوْمِ ذِي قَرَدٍ:

وَقَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ فِي يَوْمِ ذِي قَرَدٍ لِلْفَوَارِسِ:

أَتَحْسَبُ أَوْلَادُ اللَّقِيطَةِ أَنَّنَا عَلَى الخَيْلِ لَسْنَا مِثْلَهُمْ فِي الْفَوَارِسِ

وَإِنَّا أُنَاسٌ لَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً وَلَا نَنْثَنِي عِنْدَ الرِّمَاحِ المَدَاعِسِ [(٤)]

وَإِنَّا لَنَقْرِي الضَّيْفَ مِنْ قَمَعِ الذُّرَا وَنَضْرِبُ رَأْسَ الْأَبْلَجِ الْمُتَشَاوِسِ [(٥)]

نَرُدُّ كُمَاةَ الْمُعْلَمِينَ إِذَا انْتَخَوْا بِضَرْبٍ يُسَلِّي نَخْوَةَ الْمُتَقَاعِسِ [(٦)]

---

(١) **زارها**: أي المدينة.

(٢) **عفت**: كرهت. **آنست**: أحسست ووجدت.

(٣) **الشد**: الجري، ولم يكشفوا عن ملط حصيرًا، أي لم يصيبوا بعيرًا، ولا كشفوا عنه حصيرًا، ويعني بالحصير: ما يكنف به حول الإبل من عيدان الحظيرة. **الملط**: من قولهم لطت الناقة وألطت بذنبها: إذا أدخلته بين رجليها.

(٤) **المداعس**: المطاعن، يقال: دعسه بالرمح، إذا طعنه.

(٥) **القمع**: جمع قمعة، وهي أعلى سنام البعير. **الذرا**: الأسنمة. **الأبلخ**: المتكبر والمتشاوس، الذي ينظر بمؤخر عينه نظر المتكبر.

(٦) **انتخبوا**: تكبروا. **المتقاعس**: الذي لا يلين ولا ينقاد.

بِكُلِّ فَتًى حَامِي الحَقِيقَةِ مَاجِدٍ كَرِيمٍ كَسِرْحَانِ الْغَضَاةِ مُخَالِسِ (١)
يَذُودُونَ عَنْ أَحْسَابِهِمْ وَتِلَادِهِمْ بِبِيضٍ تَقُدُّ الهَامَ تَحْتَ الْقَوَانِسِ (٢)
فَسَائِلْ بَنِي بَدْرٍ إِذَا مَا لَقِيتَهُمْ بِمَا فَعَلَ الْإِخْوَانُ يَوْمَ التَّمَارُسِ (٣)
إِذَا مَا خَرَجْتُمْ فَاصْدُقُوا مِنْ لَقِيتُمْ وَلَا تَكْتُمُوا أَخْبَارَكُمْ فِي المَجَالِسِ
وَقُولُوا زَلَلْنَا عَنْ مَخَالِبِ خَادِرٍ بِهِ وَحَرٌ فِي الصَّدْرِ مَا لَمْ يُمَارِسْ (٤)

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَنْشَدَنِي بَيْتَهُ «وَإِنَّا لَنُقْرِي الضَّيْفَ» أَبُو زَيْدٍ.

شِعْرُ شَدَّادٍ لِعُيَيْنَةَ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ شَدَّادُ بْنُ عَارِضٍ الْجُشَمِيُّ، فِي يَوْمِ ذِي قَرَدٍ لِعُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ وَكَانَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ يُكَنَّى بِأَبِي مَالِكٍ:

فَهَلَّا كَرَرْتَ أَبَا مَالِكٍ وَخَيْلُكَ مُدْبِرَةٌ تُقْتَلُ
ذَكَرْتَ الْإِيَابَ إِلَى عَسْجَرٍ وَهَيْهَاتَ قَدْ بَعُدَ الْمُقْفَلُ (٥)
وَطَمَّنْتَ نَفْسَكَ ذَا مَيْعَةٍ مِسَحَ الْفَضَاءِ إِذَا يُرْسَلُ (٦)
إِذَا قَبَّضَتْهُ إِلَيْكَ الشِّمَا لُ جَاشَ كَمَا اضْطَرَمَ الْمِرْجَلُ (٧)
فَلَمَّا عَرَفْتُمْ عِبَادَ الْإِلَـ ـهِ لَمْ يَنْظُرِ الْآخِرَ الْأَوَّلُ (٨)
عَرَفْتُمْ فَوَارِسَ قَدْ عُوِّدُوا طِرَادَ الْكُمَاةِ إِذَا أَسْهَلُوا (٩)
إِذَا طَرَدُوا الْخَيْلَ تَشْقَى بِهِمْ فَضَاحًا وَإِنْ يُطْرَدُوا يَنْزِلُوا (١٠)
فَيَعْتَصِمُوا فِي سَوَاءِ الْمَقَا مِ بِالْبِيضِ أَخْلَصَهَا الصَّيْقَلُ (١١)

---

(١) **السرحان**: الذئب. **الغضاة**: شجرة، وجمعها غضى، ويقال: إن أخبث الذئاب ذئاب الغضى.

(٢) **يذودون**: يمنعون ويدفعون. **التلاد**: المال القديم. **تقد**: تقطع. **القوانس**: أعالي بيض الحديد، الواحدة قونسة.

(٣) **التمارس**: المضاربة في الحرب والمقاربة.

(٤) **خادر**: أي أسد خادر، وهو الذي يلزم أجمته. **الوحر**: الحقد.

(٥) **الإياب**: الرجوع. **عسجر**: موضع قرب مكة. **المقفل**: الرجوع.

(٦) **ذو ميعة**: فرس ذو نشاط. **المسح**: الكثير الجري. **الفضاء**: المتسع من الأرض.

(٧) **جاش**: تحرك وعلا. **اضطرم**: التهب، ويروى: اضطرب.

(٨) **لم ينظر**: لم ينتظر.

(٩) **الكماة**: الشجعان. **أسهلوا**: نزلوا السهل.

(١٠) **الفضاح**: الفاضحة.

(١١) **أخلصها الصيقل**: أي أزال ما عليها من الصدأ.

العرض الأدبي للغزوة [(١)]:

سلمة بن الأكوع ﷺ يواجه فرسان المشركين بمفرده ويستخلص متاع المسلمين

غزوة ذي قرد بعد الحديبية:

هذه بطولة فذة عجيبة نادرة من الصحابي الجليل سلمة بن الأكوع ﷺ، حيث أغارت جموع من المشركين من غطفان بقيادة عيينة بن حصن الفزاري على إبل وماشية للمسلمين، كانت في منطقة (الغابة) القريبة من المدينة، واستاقوها أمامهم، وعلم بذلك سلمة بن الأكوع ﷺ، فلحق بهم، واستخلص منهم كل ما نهبوه من إبل وماشية ومتاع، وكان يتبعهم بمفرده، وهو يمشي على قدميه!

وتُسمى هذه العملية الجهادية الفذة التي قام بها هذا الصحابي بمفرده (غزوة ذي قرد)؛ وسميت بذلك لأن الرسول ﷺ لما لحق بالجيش، جلس مع أصحابه عند عين ماء في المنطقة، تسمى (ذو قرد) على مسافة يوم من المدينة مما يلي بلاد غطفان.

وكانت هذه العملية الجهادية الجريئة بعد عودة الرسول ﷺ من صلح الحديبية، في نهاية السنة السادسة من الهجرة، وقبيل خروجه بالصحابة إلى غزوة خيبر، على الراجح عند علماء الحديث والسيرة والتاريخ.

وقد حدَّث سلمةُ بن الأكوع ﷺ نفسُه حديث هذه العملية الجهادية، ورواه عنه ابنه (إياس).

بدأ سلمة ﷺ الحديث من خروجه مع رسول الله ﷺ إلى الحديبية، ولخص مجمل أحداث الحديبية، ثم فصَّل أحداث غزوة (ذي قرد)، ثم تابع حديثه محدثًا عن خروجه مع رسول الله ﷺ إلى غزوة خيبر، بعد غزوة ذي قرد مباشرة.

وأحسن رواية لأحداث وتفاصيل غزوة ذي قرد تلك التي أوردها الإمام مسلم في صحيحه، في باب (غزوة ذي قرد) من كتاب الجهاد والسير من صحيحه.

وسنأخذ رواية هذه الغزوة من صحيح مسلم، ونضيف لذلك بعض الإضافات والتفصيلات من السيرة النبوية لابن إسحاق، ودلائل النبوة للبيهقي، ونتصرف في رواية الأحداث وسردها، لتوضيح الأمر للقارئ، وإحسان العرض الحي المؤثر، كما فعلنا في عرض العمليات الجهادية في هذا الكتاب.. والله المستعان!

---

(١) صور من جهاد الصحابة ﷺ للخالدي ١٥٥-١٧٩، وقد عرض فضيلته الصورة من خلال حديث مسلم عن الغزوة بداية من الحديث عن الحديبية حتى خيبر.

سلمة بن الأكوع ﷺ مع رسول الله ﷺ في الحديبية:

خرج سلمة بن الأكوع ﷺ مع رسول الله ﷺ إلى العمرة، وكان عدد الصحابة الخارجين مع رسول الله ﷺ محرمين بالعمرة ألفًا وأربعمائة صحابي.

ولما وصلوا الحديبية قريبًا من مكة، علموا أن قريشًا اجتمعت في مكة ومنعتهم من دخولها، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن ينزلوا في الحديبية، إلى أن يتم بحث الأمر مع قريش! كان الماء في بئر الحديبية قليلًا، لا يكاد يروي خمسين شاة، فكيف سيروي ألفًا وأربعمائة صحابي مع إبلهم وخيولهم ومواشيهم! ويكفيهم لشربهم ووضوئهم وغسلهم؟ دعا الرسول ﷺ ربه، و(تفل) في بئر الحديبية، فأجرى الله فيها معجزة باهرة، وأنبع فيها الماء بقدرته ﷻ، فامتلأت وكفت المسلمين طيلة أيام إقامة المسلمين بالحديبية.

وجرت اتصالات عديدة بين رسول الله ﷺ وقريش، يرسل رسولًا من طرفه ويرسلون هم رسولًا من طرفهم، ولا يعنينا هنا ذكر تفاصيل تلك الاتصالات. (١)

وأرسل رسول الله ﷺ عثمان بن عفان ﷺ من طرفه موفدًا إلى قريش؛ ليخبرهم بمهمته، ويعرِّفهم على قصده، وهو أنه جاء معتمرًا، ولم يأت مقاتلًا، فحبست قريش عثمان ﷺ! ووصلت الإشاعة إلى المسلمين أن قريشًا قتلت عثمان ﷺ!

عند ذلك قال رسول الله ﷺ: لن نبرح حتى نناجز القوم!

ودعاء رسول الله ﷺ المسلمين إلى مبايعته، لحرب قريش، أخذًا بثأر عثمان ﷺ، وكان رسول الله ﷺ جالسًا تحت الشجرة الضخمة فوق بئر الحديبية، فسُميت تلك البيعة بيعة الرضوان، حيث رضي الله عن الصحابة المبايعين تحت الشجرة، وهذا في قوله تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح].

كل الصحابة الذين كانوا في الحديبية بايعوا رسول الله ﷺ، ولم يتخلف إلا واحد كان من المنافقين، هو (الجد بن قيس) أخو بني سلمة!

سلمة بن الأكوع ﷺ يبايع الرسول ﷺ ثلاث مرات:

الصحابي الوحيد الذي بايع رسول الله ﷺ في الحديبية أكثر من مرة هو سلمة بن الأكوع ﷺ!

لما دعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى البيعة تحت الشجرة، وقف سلمة ﷺ في مقدمة الصحابة، فكان أول صحابي يبايعه.

وسَبْقُ سلمة بن الأكوع ﷺ الصحابة إلى البيعة يدل على طبيعته الجريئة القوية، حيث كان حريصًا على المبادرة إلى كل خير وفضل، وسَبْقِ إخوانه إلى الجهاد والمواجهة!

---

(١) سنذكر خلاصة تلك الاتصالات والمراسلات عند حديثنا عن (مجموعة أبي بصير) [بعد صلح الحديبية].

وقف الصحابة ﭬ مصطفين يبايعون رسول الله ﷺ، ولما بايعوا، وقام رسول الله ﷺ لأمر، وكان وسط الناس رأى سلمة بن الأكوع ﭬ، وقال له: بايع يا سلمة!

فقال سلمة: قد بايعتك يا رسول الله!

قال: بايع أيضًا!

فمد سلمة ﭬ يده، وبايع رسول الله ﷺ مرة ثانية!

وذهب سلمة ﭬ إلى بعض شأنه بين الصحابة، ثم مر بالنبي ﷺ، فرآه (عزلًا) ليس معه سلاح، فناوله رسول الله ﷺ (ترسًا) يتترس به إذا نشبت معركة مع المشركين!

سار سلمة ﭬ بين الصحابة، ثم قابله رسول الله ﷺ، فقال: ألا تبايعني يا سلمة؟

فقال سلمة: قد بايعتك يا رسول الله في أول الناس، وفي أوسط الناس!

فقال له ﷺ: بايع أيضًا.

فبايعه سلمة ﭬ المرة الثالثة!

إن الرسول ﷺ يعلم أن سلمة بن الأكوع ﭬ قد بايع، ومع هذا طلب منه البيعة مرة ثانية وثالثة، وهو الصحابي الوحيد الذي خصه بهذا، وهذا من مناقبه وفضائله، التي اختص وتميز بها عن باقي الصحابة ﭬ !

ولعل لهذه البيعة التي تكررت ثلاث مرات صلة بعمليته الجهادية الرائعة التي سيقوم بها وحده ضد المشركين، عند قدومهم المدينة!

وقابل رسول الله ﷺ سلمة ﭬ مرة أخرى على أرض الحديبية فلم يجد معه الترس التي أعطاه إياها! وفوجئ بذلك، وقال له: يا سلمة! أين حَجَفَتُكَ أو دَرَقَتُكَ التي أعطيتُكَ؟

قال سلمة ﭬ: يا رسول الله! لقيني عمي عامر بن الأكوع عزلًا ليس معه سلاح، فأعطيته إياها!

أي إن سلمة ﭬ خص عمه عامرًا بتلك الترس رغم حاجته إليها، وهذا من محبته لعمه، وكرمه وجوده، حيث آثره بالسلاح الذي أعطاه إياه رسول الله ﷺ!

أُعجب رسول الله ﷺ بتصرف سلمة ﭬ، وإيثاره عمه على نفسه، وضحك ﷺ مُظهرًا رضاه بفعله، وقال له: إنك يا سلمة كالذي قال: اللهم أبغني حبيبًا هو أحب إلي من نفسي!

وجرت المفاوضات بين رسول الله ﷺ وبين مندوب قريش سهيل بن عمرو، وانتهت بتوقيع صلح الحديبية.

ولما تم توقيع صلح الحديبية اختلط المسلمون بالمشركين في منطقة الحديبية، وذهب بعض المسلمين يستريحون تحت الأشجار.

ابن الأكوع ﷺ يأسر أربعة من المشركين:

وذهب سلمة بن الأكوع ﷺ يقيل تحت شجرة، وبعد أن نظف تحتها وأزال الشوك والأذى اضطجع مستريحًا، وبعد قليل أتى أربعة من مشركي مكة فجلسوا في ظل الشجرة، بجانب سلمة ﷺ.

وصار الأربعة يتحدثون فيما بينهم، وسلمة ﷺ يسمع حديثهم، فوقعوا في رسول الله ﷺ، وتكلموا عنه بسوء، فتأذى سلمة ﷺ من كلامهم كثيرًا، وأبغضهم، لكنه لا يقدر على أن يُقاتلهم أو يقتلهم؛ لأنه وِقِّع صلحُ الحديبية مع المشركين!

وبما أنه لا يقدر على قتالهم بسبب الصلح فلا أقل من يفارقهم ولا يجلس معهم!

غادرهم، وتوجه إلى شجرة أخرى، اضطجع تحتها! أما هم فقد علَّقوا سلاحهم على الشجرة، ثم ناموا.

وبعد فترة قصيرة، وبينما كان المسلمون يستريحون تحت الأشجار في المنطقة اعتدت مجموعة من المشركين على أحد المسلمين، بينما كان مضطجعًا وحده تحت شجرة، فقتلوه!

فنادى المنادي: يا للمهاجرين! لقد قتل المشركون (ابن زُنَيم)!

ولما سمع سلمة ﷺ المنادي، وعلم أن المشركين هم الذين هم بدأوا بالاعتداء على المسلمين، تحرك فورًا، وقام مسرعًا، واستل سيفه، وتوجه نحو المشركين الأربعة النائمين تحت شجرته الأولى.

نظر إليهم فوجدهم مازالوا نائمين، وما زال سلاحهم معلقًا على الشجرة، فأخذ سلاحهم وجعل سلاحه بإحدى يديه، ثم شهر سيفه بيده الأخرى، ثم صاح بهم!

استيقظ المشركون الأربعة، وفوجئوا بسلاحهم بيد سلمة ﷺ، وفوجئوا بسيفه صلتًا بيده، فلم يستطيعوا فعل شيء!

صاح فيهم سلمة ﷺ قائلًا: والذي كَرَّم وجه محمد رسول الله ﷺ، لا يرفع أحد منكم رأسه، إلا ضربت الذي فيه عيناه! قوموا، سيروا أمامي، وتعالوا إلى رسول الله ﷺ ليحكم فيكم.

قام الأربعة، وساروا (رهائن) أمام سلمة ﷺ، وساقهم أذلاء إلى رسول الله ﷺ وجعلهم بين يديه!

وبعد فترة قصيرة جاء عامر بن الأكوع -عم سلمة ﷺ- يسوق رجلًا مشركًا من قريش اسمه (مكرز)، وهو راكب فرسه، ويسوق معه سبعين رجلًا آخرين من المشركين، وسلمهم لرسول الله ﷺ!

وإذا بعم سلمة ﷺ أكثر شجاعة منه، فإذا كان سلمة ﷺ قد أتى بأربعة مشركين رهائن، فإن عمه عامرًا ﷺ قد أتى بسبعين رجلًا ماشيًا، ومعهم فارس راكب فرسه!

وهرب باقي المشركين من منطقة الحديبية، وأسر المسلمون خمسة وسبعين رجلًا مشركًا، أسرهم سلمة وعمه عامر وحدهما ﷺ.

فعفا رسول الله ﷺ عن المشركين الرهائن، وأطلق سراحهم، وقال: دعوهم يكن عليهم بدءُ الفجور وثناه، وعليهم إثم أوله وآخره، وابتدائه وانتهائه!

وذلك لحرص رسول الله ﷺ على إنفاذ صلح الحديبية؛ لأن مصلحة المسلمين متحققة في إنفاذه، وقد اعتبره الله فتحًا مبينًا!

وأنزل الله تعالى في هذه الحادثة قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح].

وبعد ذلك عاد رسول الله ﷺ بأصحابه إلى المدينة على أن يؤدوا (عمرة القضاء) في نفس هذا الموعد من العام التالي!

ابن الأكوع رضي الله عنه في طريق العودة من الحديبية:

وفي طريق العودة نزل رسول الله ﷺ بأصحابه في أسفل جبل مرتفع، وخلف الجبل منازل (بني لحيان) وهم قبيلة عربية معادية للمسلمين.

وخشي رسول الله ﷺ أن يهجم بنو لحيان على المسلمين ليلًا وهم نائمون، فندب بعض المسلمين أن يصعدوا الجبل ليحرسوا المسلمين، والجبل مرتفع وصعوده شاق مرهق!

استغفر رسول الله ﷺ لمن صعد الجبل، وأثار هذا حماسة سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، فصعد الجبل مرتين أو ثلاثًا!

وهذا من علو همته، وقوة نشاطه، ولياقة بدنه رضي الله عنه.

ولما وصل الرسول ﷺ مشارف المدينة عائدًا بأصحابه من الحديبية، وقعت حادثة خطيرة مفاجئة، كان لسلمة بن الأكوع رضي الله عنه بطولة فذة فيها!

كان لرسول الله ﷺ مجموعة من الإبل (لقاحًا) ـ واللقاح هي الإبل ذوات الألبان، التي يحلبها المسلمون ويشربون ألبانها ـ وكانت هذه اللقاح ترعى في منطقة خضراء قريبة من المدينة تسمى (الغابة)، وكانت كثيفة الأشجار.

ولما وصل رسول الله ﷺ المدينة كانت عشرون لَقْحَة ـ ناقة ـ لرسول الله ﷺ ترعى في منطقة الغابة.

الفزاري يغير على سرح المسلمين في الغابة:

وفي الليل أغار عبد الرحمن بن عيينة بن حصن بن بدر الفزاري ـ ويسمي (حبيب) أيضًا ـ بأربعين فارسًا من بني فزارة الكافرين على لقاح رسول الله ﷺ في الغابة.

استاقوا اللقاح وكل ما وجدوه أمامهم للمسلمين في (الغابة) من ماشية ومتاع، وعادوا بذلك كله إلى (غطفان) ـ القبيلة العربية الكافرة ـ!

ابن الأكوع ﷺ يخبر المسلمين ويلحق بالمغيرين:

وفي الصباح خرج سلمة بن الأكوع ﷺ، ومعه فرس لطلحة بن عبيد الله ﷺ (يُنَدِّيه) في الغابة، ومعه غلام لرسول الله ﷺ اسمه (رباح)، ولم يكن قد علم بما جرى للقاح والماشية التي أخذها الفزاريون الأربعون!

و(تندية) الفرس أن يوردها الماء، فتشرب قليلًا، ثم تترسل في المرعى، فترعى قليلًا، ثم ترد الماء قليلًا لتشرب، ثم ترد إلى المرعى لترعى قليلًا وهكذا!

ولما علم بِسَطْوِ الفزاريين على اللقاح والماشية قال لرباح: يا رباح! خذ هذه الفرس، وأعدها لطلحة بن عبيد الله ﷺ، وأخبر رسول الله ﷺ أن عبد الرحمن بن عيينة قد أخذ اللقاح معه وولى هاربًا، ومعه أربعون فارسًا من قومه.

ثم صعد سلمة بن الأكوع ﷺ على (ثنية الوداع) ـ وهي مرتفع صغير مشرف على المدينة ـ ووجه وجهه نحو المدينة، ونادى بأعلى صوته قائلاً: يا صباحاه، يا صباحاه، يا صباحاه!

وكان صوته عاليًا وصل إلى آذان أهل المدينة، فسمعوا الصوت، وعرفوا أنه صوت سلمة ﷺ، وأنه ينذرهم الخطر، ويخبرهم بما حدث للقاحهم وماشيتهم، ويطلب منهم الخروج في إثر الفزاريين، وقتالهم، واسترداد ما نهبوه وسطوا عليه.

الرسول ﷺ يشكِّل طليعة مجاهدة ثم يلحق الجيش بها:

توافد الفرسان على رسول الله ﷺ، يلبون نداء سلمة ﷺ، ويضعون أنفسهم تحت تصرف رسول الله ﷺ.

شكَّل رسول الله ﷺ طليعة مجاهدة من ثمانية من الفرسان المجاهدين، وأمرهم أن يسرعوا اللحاق بسلمة بن الأكوع ﷺ، ويقوموا بقتال ومواجهة الفزاريين السارقين.

والفرسان الثمانية هم: المقداد بن عمرو الكندي، الذي يقال له: المقداد بن الأسود فارسُ رسول الله ﷺ، وأبو قتادة الأنصاري: الحارث بن ربعي، وعبَّاد بن بشر الأشهلي، وسعد بن زيد الأشهلي، وأسيد بن حضير، وعُكَّاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة الأسدي، الذي يقال له: الأخرم الأسدي، ومعاذ بن ماعص ﷺ، وأمَّر عليهم سعد بن زيد الأشهلي، وأخبرهم أنه سيلحق بهم في الجيش، فخرجوا مجاهدين في سبيل الله.

ونادى رسول الله ﷺ بالخروج لطلب القوم السارقين، وتجمع الرجال الموجودون الجاهزون بين يديه، وأمَّر ﷺ على المدينة عبدَ الله بن أم كلثوم ـ الأعمى ﷺ، وخرج بالجيش لطلب الأعداء!

وهكذا صار المجاهدون ثلاث دفعات:

الدفعة الأولى: سلمة بن الأكوع وحده ﷺ، طليعةُ المجاهدين ومقدمتهم، الذي لحق بالأعداء قبل أن يصله المدد.

الدفعة الثانية: المجاهدون الفرسان الثمانية، كلٌّ على فرسه، بقيادة سعد بن زيد ﷺ، الذين لحقوا بسلمة ﷺ، وجاؤوا مددًا له!

الدفعة الثالثة: الجيش المجاهد بقيادة رسول الله ﷺ الذي خرج مددًا للفرسان الثمانية، وطالبًا للأعداء!

ابن الأكوع ﷺ يجري وحيداً خلف أربعين فارسًا:

فلننظر ما قام به سلمة ﷺ من بطولة جهادية عالية:

بعدما وقف على (ثنية الوداع) وصاح: يا صباحاه.. لحق بالأعداء الفزاريين، وكان (راجلًا) يعدو ويركض، وليس معه فرس! وكان عَدَّاء سريعًا، يسابق الخيل.

خرج يعدو في إِثر الأعداء كالسبع!.. فأدركهم!

لقد أخذوا اللقاح والماشية في الليل، وقطعوا مسافة طويلة خلال الشعاب والأودية، ولحق بهم سلمة ﷺ وحيدا في الصباح، فأدركهم، كم كانت سرعته وهو يعدو ويركض على رجليه؟!

ماذا تقول في شجاعة وبطولة وجرأة هذا الصحابي المجاهد ﷺ؟ وكيف يشتبك مع أربعين فارسًا وحده؟

خرج سلمة بن الأكوع ﷺ في إثر الفرسان الفزاريين الأربعين في الصباح، يعدو على رجليه، ورآهم من بعيد، وهم يسوقون اللقاح والماشية.

اشتبك معهم فورًا، ورماهم بالنبال، وهو يرتجز ويقول:

أنا ابن الأكوع والیوم يوم الرضع

ومعنى (الرضع) اللئام يرضعون اللؤم رضاعة، فاليوم يوم الانتقام منهم، والذي ينتقم منهم هو ابن الأكوع!

لحق ابن الأكوع ﷺ رجلًا منهم ووجَّه له سهمه ـ وكان سلمة ﷺ راميًا ماهرًا ـ ورماه به، فاخترق السهم رحلَه إلى كتفه، ثم إلى كبده، فصرعه، ولما رماه بالسهم ارتجز قائلًا:

خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

ابن الأكوع ﷺ يستخلص كل السرح من المغيرين:

فوجئ الفرسان الأعداء برجل يشتبك معهم، وهو وحيد، وماش على رجليه، لا يرهبهم ولا يخاف منهم!

استمر سلمة ﷺ يرميهم بسهامه، يصيب خيولهم أحيانًا فيعقرُ بها ويقتلها، ويصيب فرسانهم أحيانًا فيصرعهم أو يقتلهم!

وإذا رجع إليه فارس أو فارسان منهم (كَمَنَ) في أصل شجرة، وأمطرهم بوابل من سهامه، فيصرع من يصرع! ويعقر من خيولهم ما يعقر.

واستمرار هكذا، هم سائرون نحو بلاد (غطفان) يريدون أن ينجوا قبل أن يلحق بهم جيش المسلمين، وسلمة بن الأكوع ﷺ خلفهم وحده، يشتبك معهم في قتال، ويرميهم بالسهام والنبال!

وصاروا يتخلصون من الإبل والماشية، يتركونها خلفهم، ويواصلون سيرهم وهروبهم!

ومروا بواد ضيق يلف جبلًا مرتفعًا، وصارت سهام سلمة ﷺ لا تصل إليهم بسبب تعرجات ومنحنيات الوادي الضيق، فلم يتركهم سلمة ﷺ، وإنما صعد على الجبل، وصار يُرديهم بالحجارة، يرميهم بها فتصيبهم، وتوقع بهم الجراح!

ورأى الفرسان الأربعون أنفسهم عاجزين عن مواجهة سلمة ﷺ، هم فرسانٌ على خيولهم ومعهم أسلحتهم، وسلمة ﷺ وحده يعدو خلفهم راجلًا ويسابق خيلهم، ولا يملك إلا السهام والنبال، والحجارة يرميهم بها من أعلى الجبل!

اضطروا إلى التخلص من كل ما سطوا عليه من الإبل والماشية؛ لينجوا بأنفسهم، كما تخلصوا من (لقحة) يأخذها سلمة ﷺ ويتركها خلفه؛ ليأخذها المسلمون الذين وراءه، ويلحق بهم يرميهم بالسهام والنبال والحجارة.

استخلص سلمة ﷺ منهم اللقاح العشرين التي أخذوها، واستخلص منهم ثلاثين بُرْدة، وثلاثين رمحًا وأمتعة أخرى كانوا نهبوها من (الغابة)، وكلما طرحوا شيئًا من هذه الأمتعة كان ابن الأكوع ﷺ يضع عليه (حجارة) لتكون علامة للمسلمين الذين وراءه فيأخذوه.

ولم يَبق مع الفرسان الأربعين شيءٌ مما أخذوه من المسلمين، وساروا في طريقهم نحو بلاد (غطفان) ناجين بأنفسهم.

ابن الأكوع ﷺ يتابع مواجهة الأعداء:

ولكن ابن الأكوع ﷺ لم يتوقف عن متابعتهم والاشتباك معهم، يرميهم بالسهام والنبال والحجارة، فيصيب منهم من يصيب، ويصرع منهم من يصرع، ويعقر من خيولهم ما يعقر!

كل هذا يفعله وحده! لأن الفرسان المجاهدين الثمانية ما زالوا خلفه، لم يدركوه، رغم سيرهم نحوه!

سلمة بن الأكوع ﷺ وحده يقوم بأعمال عديدة تحتاج إلى مجموعة من الرجال: يعدو خلف الأعداء برجليه، ويمطرهم بسهامه ونباله، يجري خلفهم في الوادي، ويكمن منهم خلف الأشجار، ويصعد

الجبل ليرميهم بالحجارة، ثم ينزل عنه ويعدو خلفهم، ثم يأخذ الناقة التـي يستخلصـها ويجعلهـا خلفـه في مأمن، ثم يأخذ البردة التي يحررها، ويضع عليها الحجر علامة!

وهكذا.. يفعل هذا بهمة وقوة وحيوية وشجاعة لا يتوقف ولا يمل، ويستعلي على ما يصيبه من تعـب وجهد ومشقة!

استمر على هذا من الصباح إلى ما بعد انتصاف النهار!

أتى الأعداء على ممر ضيق بين جبلين، وهناك وجدوا مددًا لهم، كانوا من قبل أربعـين فارسًـا يقـودهم عبد الرحمن أو حبيب ـ بن عينية الفزاري، ووجـدوا هنـاك الأب (عيينـة بـن حصـن بـن بـدر الفـزاري) بانتظارهم مع عدد آخر من الرجال، فانضموا إليهم وصاروا مددًا لهم.

هل يرهب هذا المدد سلمة بن الأكوع ﷺ؟ وهل يتوقف عـن متـابعتهم؟ كـلا! إن شـجاعته وجرأتـه تأبى عليه الخوف منهم أو التوقف عنهم! صحيح أنه استخلص منهم كـل مـا سـطوا عليـه وأخـذوه مـن لقاح وماشية ومتاع، بحيث لم يعد بأيديهم شيء مـن ذلـك، ولـو توقَّـف عـن متـابعتهم لـمَّا وجـد المـدد بانتظارهم لما لامه على ذلك أحد!

اجتمع الفزاريون معًا، وجلسوا في مضيق الوادي بأسفل الجبل يتغدَّوْن.

ابن الأكوع ﷺ على قمة الجبل يهدد الأعداء:

وحتى يكون ابن الأكوع ﷺ قريبًا منهم نظر إلى جبل صغير بجانبهم، فارتقاه وصعد إلى قمته، فجلـس عليها!

نظر إليه زعيم المجموعة (عيينة بن حصن الفزاري) فاستغرب، وقال لجماعة: ما هـذا الـذي أرى عـلى رأس الجبل؟

قالوا له: هذا رجل من أصحاب محمد، لَقِينا منه البرح والشدة، والله ما فارقنا منذ الغلس، حيـث لحـق بنا من قبيل شروق الشمس، وما زال يرمينا بالسهام والنبـال والحجـارة، حتـى انتـزع منـا كـل شيء كـان بأيدينا مما أخذناه من لقاح وماشية وأمتعة المسلمين!

فوجئ عيينة بهذا الكلام، فكيف يواجه رجلٌ واحدٌ يعـدو عـلى رجليـه أربعـين فارسًـا مسـلحًا عـلى خيولهم، وكيف يغلبهم وينتزع كل ما بأيديهم، وهو بمفرده؟!

قال لهم عينيه: ليقم إليه أربعة منكم.

نفَّذ رجالٌ أربعة أَمْر زعيمهم، وصعدوا الجبل، يطلبون ابن الأكوع ﷺ، ولما كانوا قريبين منـه، بحيـث يسمعون صوته ويفهمون كلامه صاح فيهم، فتوقفوا.

قال لهم: هل تعرفوني من أنا؟

قالوا: أنا سلمة بن الأكوع أحد المسلمين المتبعين لرسول الله ﷺ، والذي كَرَّم وجه محمد ﷺ لا أطلب رجلًا منكم إلا أدركته وأخذته، ولا يستطيع أحد منكم أن يدركني، فلا تحاولوا أن تصعدوا إليَّ، وعودوا من حيث جئتم!

فقال أحدهم: أنا أظن ذلك، وأن كلامك صحيح، وقد جربنا هذا منك!

فعادوا من حيث أتوا، وأخبروا زعيمهم عيينة أنه لا قدرة لهم عليه!

وبقي سلمة بن الأكوع ﷺ في موقعه الإستراتيجي على قمة الجبل، يراقب الموقف عن كثب، وبقيَ الفرسانُ الفزاريون في أسفل الوادي.

استشهاد الأَخْرَمِ الأسدي ﷺ:

وبعد فترة قصيرة رأى ابن الأكوع ﷺ فوارس رسول الله ﷺ الثمانية قادمين من بعيد، تسير خيولهم وسط الشجر.

كان في مقدمتهم الأخرم الأسدي ـ محرز بن نَضْلَةَ الأسدي ـ يَلِيه أبو قتادة الأنصاري ـ الحارث بن ربعي ـ ثم المقداد بن عمرو الكندي بن الأسدي ﷺ، ثم باقي الفرسان الخمسة.

وكان الأخرم الأسدي متقدمًا على إخوانه بمسافة، مستعدًّا للمعركة، جاهزًا للاشتباك مع الأعداء.

وخشي عليه سلمة ﷺ أن يبدأ القتال مع الأعداء قبل وصول إخوانه الفرسان، وأن يتمكن الأعداء من قتله.

فأتاه، وأمسك بعنان فرسه، وقال له: يا أخرم! احذر الأعداء، ولا تقاتلهم الآن وانتظر حتى يلحق بك إخوانك، فإني أخشى أن يقتلوك! وكان الأخرم حريصًا على البدء بالمعركة، والهجوم على الأعداء، ولو تأخر وصول إخوانه الفرسان؛ لأنه كان راغبًا في الشهادة، طالبًا لها، حريصًا عليها!! وكان قبل يوم قد رأى رؤيا سارة، استبشر بها خيرًا، وفرح لها كثيرًا: رأى أن السماء فُرجت وفُتحت له، ودخل السماء الدنيا، حتى انتهى إلى السماء السابعة، ثم انتهى إلى سدرة المنتهى! وهناك قيل له: هذا منزلك! ولما استيقظ عرض رؤياه على أبي بكر الصديق ﷺ، وكان من أحسن الصحابة تعبيرًا للرؤيا، فقال له أبو بكر ﷺ: أبشر بالشهادة في سبيل الله! تنالها إن شاء الله!

ومنذ تلك الرؤيا والأخرم ﷺ يفكر بالشهادة ويحرص عليها، وها هي الفرصة مناسبة الآن، فالأعداء أمامه، والاشتباك معهم وشيك! ولذلك لم يستمع الأخرم ﷺ لتحذير سلمة ﷺ، وقال له: يا سلمة! إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعلم أن الجنة حق، وأن النار حق، فلا تَحُل بيني وبين الشهادة!

استجاب سلمة ﷺ لرغبة الأخرم ﷺ؛ لأنه لاحظ أن الشهادة مسيطرة على نفسه وشعوره وكيانه، وخلَّى بينه وبين الاشتباك مع الأعداء!

رأى عيينةُ بن حصن زعيم الأعداء الأخرمَ الأسدي ﷺ قادمًا على فرسه من بعيد، فكلف ابنه عبد الرحمن ـ اسمه الآخر حبيب ـ أن يقوم له ويقاتله، اشتبك الأخرم وعبد الرحمن، ووجَّه الأخرم ﷺ ضربة قوية أصابت فرس عبد الرحمن فعقرتها وصرعتها وقضت عليها! ترك عبد الرحمن فرسه، ووجَّه ضربة قوية سريعة للأخرم ﷺ! فأصابته في مقتل! فصُرِع الأخرم ﷺ وسقط عن ظهر فرسه، ولقي الله شهيدًا ﷺ.

وهكذا تحققت رؤياه التي رآها قبل يوم، ونال ما كان يتمناه.

تحول عبد الرحمن إلى فرس الأخرم بعد استشهاده؛ لأن فرسه عُقرت وماتت.

أبو قتادة الأنصاري ﷺ يقتل قاتل الأسدي:

وما إن ركب عبد الرحمن الفزاري فرس الشهيد الأخرم ﷺ حتى أدركه أبو قتادة ـ الحارث بن ربعي ﷺ، فاشتبك معه فورًا، ووجه له طعنة شديدة، أصابته في مقتل، فسقط عبد الرحمن الفزاري عن الفرس قتيلًا! وهكذا أخذ أبو قتادة بثأر أخيه الشهيد الأخرم ﷺ، فقتل قاتله فورًا.

ونزل أبو قتادة ﷺ عن فرسه، إلى جثة القتيل عبد الرحمن الفزاري، فغطاه ببرده، ليعلم المسلمون أنه هو الذي قتله، فيأخذ سلبه.

ودارت معركة بين الفرسان المجاهدين السبعة ـ كانوا ثمانية قبل استشهاد الأخرم الأسدي ﷺ ـ وبين الأعداء الفزاريين، واشتبك أبو قتادة ﷺ مع أحدهم ـ هو مسعدة بن حكمة ـ فضرب مسعدة أبا قتادة، ووقعت ضربته على وجهه، فشجه، وسال دمه غزيرًا، لكن الله أمكن أبا قتادة ﷺ من قتله، فضربه ضربة شديدة أصابته في مقتل، فقضى عليه.

ورأى عُكَّاشة بن محصن ﷺ عمرو بن أوبار وأباه، راكبين على بعير، فهجم عليهما، وقتلهما معًا!

وهكذا قُتل للمشركين أربعة: عبد الرحمن بن عيينة، ومسعدة بن حكمة، قتلهما أبو قتادة ﷺ، وعمرو بن أوبار وأبوه، قتلهما عكاشة بن محصن ﷺ، بينما استشهد من المسلمين مُحرز بن نضلة ـ الأخرم الأسدي ـ ﷺ!

ولما رأى الأعداء قتلاهم في أرض المعركة ولوا هاربين! أكثر من خمسين فارسًا من المشركين يفرون من سبعة من فرسان الصحابة المجاهدين ﷺ!

ابن الأكوع ﷺ يلحق بالمغيرين عند ذي قرد:

ولما ولَّى فرسان المشركين هاربين على خيولهم، لحق بهم سلمة بن الأكوع ﷺ، يعدو على رجليه، وساروا مسرعين، ولحق بهم سلمة ﷺ مسرعًا، وقطعوا شِعابًا ووديانًا، وابتعدوا كثيرًا عن الصحابة المجاهدين، وعن جيش رسول الله ﷺ.

ونظر سلمة ﷺ خلفه فلم ير أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا شيئًا من غبارهم! فعلم أنه ابتعد عنهم كثيرًا! ومع ذلك لم يخف، واستمر يلاحق الفرسان الفزاريين المنهزمين!

وعند غروب الشمس، وصلوا إلى شِعب، فيه ماء يقال له: (ذا قرد) ـ وباسمه سُمِّيت الغزوة (غزوة ذي قرد) ـ وكانوا عطاشًا من السير والجري، فأرادوا أن ينزلوا على الماء ليشربوا منه، ويسقوا خيولهم! ولكن أنى لسلمة بن الأكوع ﵁ أن يُمكنهم من ذلك؟! هم على خيولهم يريدون النزول على الماء، وسلمة ﵁ يعدو خلفهم على رجليه، فلما رآهم على كذلك أمطرهم بوابل من سهامه ونباله، فولوا منهزمين! ولم يذوقوا من الماء قطرة واحدة.

مروا على (ثنية) في الوادي ضيقة، فأدركهم سلمة ﵁ وهو يعدو خلفهم كالسبع، واقترب من رجل منهم على فرسه، فرماه بسهم رمية مُحكمة، فوقع السهم في طرف كتفه، فآذاه وآلمه ألمًا شديدًا، ونزف دمه.

ولما رماه ابن الأكوع ﵁ بالسهم صاح فيه قائلًا:

خذها وأنا ابن الأكوع   واليوم يوم الرضع

فصاح الرجل الفزاري قائلًا: واثكل أمي، وليت أمي تعدمني، أنت الأكوع الذي يطردنا ويلاحقنا منذ الصباح الباكر مع طلوع الشمس؟

قال له سلمة ﵁: نعم يا عدو نفسه! أنا هو!

أي أن سلمة ﵁ أمضي يومًا كاملًا من طلوع الشمس إلى غروبها، وهو يلاحق ويطارد الأعداء، واستخلص منهم جميع ما سطوا عليه من اللقاح والماشية والأمتعة، ومع ذلك لم يكف عنهم.

واضطر الأعداء إلى أن يتخلصوا من فرسين، يبدو أن الجري أتعبهما وأنهكهما، فصارتا عبئًا عليهم؛ ولذلك تخلصوا منهما وولوا هاربين.

انتهاء مطاردة ابن الأكوع ﵁ للأعداء عند المساء:

وعندما أدرك سلمة بن الأكوع ﵁ أنه لا داعي لأن يلاحقهم في أرض (غطفان) وهي ارض واسعة فسيحة، مليئة بالكافرين المعادين.

لا داعي لأن يلاحقهم ويطاردهم؛ لأنه استرد واستخلص منهم جميع ما نهبوه من اللقاح والماشية والأمتعة التي للمسلمين؛ ولأنه أعطاهم درسًا بليغًا لن ينسوه، لا هم ولا غيرهم، وسيفكرون كثيرًا قبل أن يحاولوا مهاجمة المدينة مرة ثانية!

فإذا كان رجل واحد يعدو خلفهم على رجليه فعل بهم هذا الفعل فكيف لو واجههم المسلمون كلهم؟

أخذ الفرسين اللتين تركهما الفزاريون، وجلس على مرتفع في تلك المنطقة ليستريح، وكانت الشمس قد غابت!

ابن الأكوع ﷺ يعود للرسول ﷺ عند ذي قرد:

وفي هذه الأثناء كان رسول الله ﷺ قد وصل بالجيش إلى عين الماء (ذي قرد) التي منع ابن الأكوع ﷺ الأعداء من الشرب منها، ونزل الجيش المجاهد على عين الماء يشربون ويتوضؤون..

وبين (ذي قرد) والمنطقة التي فيها ابن الأكوع ﷺ مسافة، فكلف رسول الله ﷺ عامر بن الأكوع ـ عم سلمة ﷺ ـ أن يلحق بابن أخيه، ويقدم له شيئًا يشربه!

أخذ عامر ﷺ (سطيحة) ـ وعاء من جلد ـ فيها لبن، وسطيحة أخرى فيها ماء، فشرب سلمة ﷺ من اللبن، وتوضأ من الماء، وساق الفرسين اللتين أخذهما من الفزاريين، وأتى إلى رسول الله ﷺ وهو على الماء، جالسًا بين أصحابه!

وجد سلمة ﷺ أن المسلمين قد جمعوا كل ما استنقذه واستخلصه من الأعداء، من لقاح وماشية وأمتعة، ووجد بلال بن رباح ﷺ قد نحر ناقة للرسول ﷺ، وصار يشوي له من كبدها وسنامها.

سلَّم سلمة ﷺ على رسول الله ﷺ، وأخبره بتفاصيل ما جرى، منذ الصباح الباكر، وكيف هزم الله الأعداء الكافرين، وكيف أعانه الله على استخلاص كل ما نهبوه من أنعام ومواشي وأمتعة المسلمين، وحمد الله على هذه النعمة.

وعرض سلمة ﷺ على رسول الله ﷺ عرضًا جريئًا عجيبًا، فقال له: إن الفرسان الفزاريين توجهوا نحو أرض (غطفان) فدعني يا رسول الله أنتخبْ وأختر من أصحابك مائة رجل، فألحق بالأعداء أينما كانوا، فأقضي عليهم، ولا أترك منهم أحدًا!

أُعجب رسول الله ﷺ بهذا العرض الجهادي العجيب من سلمة ﷺ، إنه لا يتوقف عن الجهاد، ولا يتعب ولا يمل منه، ولا يكيفه أنه جاهد الأعداء يومًا كاملًا، من طلوع الشمس إلى غروبها، واستخلص ما بأيديهم، إنما يريد أن يلحق بهم في بلادهم، ويغزوهم في عقر دارهم، فقط يريد مائة مجاهد لهذه الغاية!

فضحك رسول الله ﷺ، حتى بدت نواجذه في ضوء النار، التي يشوون عليها لحم الناقة، وقال: يا سلمة! أتراك كنت فاعلًا؟ قال سلمة ﷺ: نعم، والذي أكرمَكَ يا رسول الله!

فضحك رسول الله ﷺ مرة ثانية حتى بدت نواجذُه، من إعجابه بشجاعة وهمة سلمةَ ﷺ.

وقال لسلمة ﷺ: إنهم الآنَ لَيُقْرَوْن ويُضافون في أَرضِ غطفان! أَيْ إنَّ الرجالَ الفزاريين وصلوا إلى أَرض غطفان، ورجالُ غطفان يقدِّمون لهم طعامَ القِرى والضيافة، بعد يومٍ طويل من السيرِ والجريِ والتعب!

وأقام رسولُ الله ﷺ على (ذي قَرَد) يومًا وليلة، يتحسَّسُ الأَخبارَ عن حركات الأعداء في غطفان.

الأعداء يخافون من المسلمين في ديارهم:

وجاء رجل من غطفان فأخبر رسول الله ﷺ عن أمر عجيب للرجال الفزاريين، الذين طردَهم سلمةُ رضي الله عنه وحده، أخبر أن أحد رجال غطفان نحر لهم جزورًا ليأكلوا اللحم، ويستريحوا من عناء اليوم الطويل، الذي رأوا فيه من سلمة رضي الله عنه ما رأوا.

وبينما كانوا جالسين مستريحين، وكان أحد الرجال يسلخ الجزور، رأوا غبارًا من بعيد، فقاموا مسرعين، وركبوا خيولهم، وولوا هاربين، وتركوا اللحم وراءهم، وقالوا: هذا غبار خيل جيش محمد، هاجمة عليكم، فاهربوا وانجوا بأنفسكم؟

ألا ما أبلغ الدرس الذي لقنهُ سلمةُ بن الأكوع رضي الله عنه وإخوانه المجاهدون رضي الله عنهم، لهؤلاء القوم الكافرين، اللذين تجرؤوا وسطوا على لقاح وماشية المسلمين! لقد أثَّر هذا الدرسُ الجهاديُّ فيهم، وملأ قلوبهم خوفًا وفزعًا ورعبًا من المسلمين، بحيث إذا رأوا خيلًا أو غُبارًا ظنوها للمسلمين، فولوا هاربين!

ثناء الرسول ﷺ على ابن الأكوع رضي الله عنه وإكرامه له:

وأثناءَ إقامةِ الرسول ﷺ بأصحابه على ماءِ (ذي قَرَد) قَسَّمَ الغنائمَ على المجاهدين، وخَصَّ سلمةَ بن الأكوع رضي الله عنه بنصيب كبير منها، للدورِ الجهاديِّ البطوليِّ العظيم الذي قامَ به، أعطاهُ ثلاثةَ أَسهمٍ من الغنائم: سهم الراجل الذي يجاهدُ على رجليْه، وسهمان للفارس، الذي يجاهدُ على فرسه؛ لأنه من المعلوم أنَّ تقسيم الغنائم على أساس: سهمٌ للراجل، وسهمان للفارس!

لقد قام سلمةُ بن الأكوع رضي الله عنه بدور الراجل الذي يجاهد على رجليه، ودور الفارس الذي يجاهد على فرسه، وهزم وحده فرسان الأعداء؛ ولهذا استحق نصيب الراجل والفارس معًا!

وأَعطى رسول الله ﷺ شهادةً لخير فارس وخير راجل، فقال: **كان خيرُ فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رَجَّالَتِنا سلمة!**

أبو قتادة ـ الحارث بن ربعي ـ رضي الله عنه، هو خيرُ فرسان المسلمين في غزوة ذي قرد؛ لأنه قتل رجلين من قادة فرسان الكافرين: عبد الرحمن بن عيينة، ومسعدة بن حكمة!

وخير رَجَّالة المسلمين في هذه الغزوة هو سلمةُ بنُ الأكوع رضي الله عنه؛ لأنه كان يحاربُ راجلًا، ويَصولُ ويجول، ويعدو ويجري على رجليه!

وبعد ما انتهتْ مهمةُ جيشِ المسلمين على ماء (ذي قرد) نادى منادي رسول الله ﷺ بالعودة إلى المدينة.

وأراد رسول الله ﷺ أن يكرم سلمة بن الأكوع رضي الله عنه إكرامًا خاصًّا، لِما قامَ به من جهاد كبير! فأردفَه خلفَه على ناقته (العَضْباء)!

كانت (العَضْباء) ناقة لرسول الله ﷺ، أثيرة عنده، وكانت مشهورةً بقوتها وسرعتها، يركبها رسول الله ﷺ في أسفاره وحروبه!

وكان سلمة بن الأكوع ﵁ في غاية السعادة والسرور والانشراح، وهو يَرى إخوانه المسلمين، كل منهم يركب فرسه أَو ناقته، أو يركب خلفَ أَخيه، إِلا هو فإنه كانَ يركبُ ناقةَ رسول الله ﷺ، والرسول ﷺ أمامه على ظهر الناقة!

ابن الأكوع ﵁ يفوز في سباق الجري في طريق العودة:

وفي طريق العودة إلى المدينة قَدَّم سلمة ﵁ لإخوانه موهبةً جديدةً من مواهبه، الدالة على قوته وحيويته و(لياقته) البدنية العالية: فبينما كان سلمة راكبًا (العَضْباء) خلفَ رسول الله ﷺ، وبينما كان الجميعُ يَسيرون عائدين، نادى رجلٌ من الأنصار: مَنْ يسابقُني إلى المدينة؟ وكان هذا الأنصاري مشهورًا بالجري والعدو، يُسابقُ إخوانه ولا يكادُ يسبقُه أحد.

وبدا لهذا الأنصاريِّ أن يُسابقَ إخوانه، بل أنْ يتحداهم: مَنْ يُسابقُ إلى المدينة؟ ومَنْ يقدرُ على أن يسبقني؟ أعادَ القول أكثر من مرة! وأعلنَ التحدي أكثر من مرة، فلم يردَّ عليه أحد من إخوانه! يبدو أنه لعلمهم بأن أخاهم المتحدي بطلٌ في الجري والسبق، وأنه لا يسبقه أحد، فالتحدي محسومٌ مسبقًا بفوزه وسَبْقه!

وسمع سلمةُ بنُ الأكوع ﵁ التحدي، ولم يشأ أنْ يسكتَ كما سكتَ إخوانُه، ولم يرضَ أنْ يُقال: خشيَ سلمةُ من مسابقة أخيه مسابقةً ودية، فقال لأخيه المتحدي: أما تكرمُ كريمًا، ولا تهابُ شريفًا؟ أي: أتقصدُ بكلامك جميع إخوانك المسلمين؟ ولا تستثني أحدًا كريمًا ولا شريفًا؟ وهل يشمُلني كلامُك وتحدِّيك؟ فأجابهُ أخوه الأنصاري: لا أستثني منكم أحدًا، إلا أنْ يكون رسول الله ﷺ!

واستثار هذا الجوابُ سلمة ﵁، ودفعه إلى قبول التحدي، وتَعَجَّبَ كيف يتحداه أخوه الأنصاريُّ في الجري والسباق! ألا يعلمُ موهبته ومهارته في ذلك؟ ألم يسمع شهادةَ الرسول ﷺ عندما قال: (وخيرُ رَجَّالتِنا سلمة)؟ ألم يقفْ على ما قام به سلمةُ في الغزوة، عندما سابق خيلَ الأعداء، وهو يعدو على رجليه؟

وقَبلَ سلمةُ ﵁ تحدي أخيه، واستأذن رسول الله ﷺ بذلك، أدبًا واحترامًا له، فقد كان رديفًا له على الناقة! قال: يا رسول الله! بأبي أنت و أمي، ذرْني أسابق الرجل، فقال له: افعل، إن شئت، نادى سلمةُ أخاه الأنصاري قائلًا: استعد للسباق، فأنا آتيك الآن، وبدأت المسابقةُ بين الرجلين، وقام الصحابة بمشاهدتها ومراقبتها باستمتاع!

ثَنى سلمةُ بنُ الأكوع ﵁ رجليْه وهو على الناقة، خلفَ رسول الله ﷺ، وقفزَ عن الناقةَ بمنتهى المهارة واللياقة، وجاءَ واقفًا على الأرض ثابتًا، وطلبَ من أخيه أن يجري، وجريا معًا!

بدأ أخوه الأنصاريُّ بالجريِ السريع، وبذل أقصى طاقته وسرعته في ذلك، وسبقَ سَلَمَةَ بشوطٍ أَو شوطين، وقطع مسافةً في ذلك! لماذا تأخر سلمةُ عنه؟ وأين سرعته الفائقة المعهودة؟ إن سلمة ﷺ حكيمٌ خبير في (فَنِ السباق)، يعرفُ كيف يسابقُ الرجال، وكيفَ يسبقُهم! لقد تعمد أن لا يبدأ التسابقَ بالعدوِ السريع، وبذْلِ أقصى طاقتِه وسرعتِه في ذلك! كما فعل الأنصاري؛ لأنَّ عاقبةَ ذلك وخيمة، تنقلبُ عليه، حيثُ تُستنفَدُ طاقتُه وقوتُه وسرعتُه، وينقطعُ نَفَسُه، فيعجز عن الاستمرار في التسابق!

يعرفُ سلمةُ ﷺ هذا؛ ولهذا بدأ الجري بالتدريج، ليحافظ على طاقته ونفسه، ولما تجاوب جسمُه معه، ووازن نفسَه موازنةً دقيقة، نظر إلى أخيه فإذا هو متقدمٌ عليه بشرف أو شرفين ـ بشوط أو شوطين، فبذل ابنُ الاكوع ﷺ طاقته المذخورة المرصودة، وجرى جريًا سريعًا، وما هي إلا لحظاتٌ حتى لحقَ بأخيه الأنصاري، وأدركه، وصَكَّهُ بكفيه بين كتفيه، وقال له: قد سبقتُك! فوجئ الأنصاريُّ بابن الأكوع يدركهُ ويصكُّه بيديه، وقال له: نعم أنت سبقتني! ورأى الصحابةُ مباراةَ التسابق، وحكموا لسلمةَ ﷺ بالفوز على أخيه..

وبعدما وصلَ رسول الله ﷺ المدينة، أقامَ بها مع أصحابه ثلاث ليال فقط، ثم نادى أصحابه الذين شهدوا معه صَلحَ الحديبية بالخروج إلى خيبر لقتال اليهود، وكان سلمة بن الأكوع ﷺ في مقدمة الذين خرجوا إلى غزوة خيبر، هو وعمه (عامر)، وكان لسلمة حديثٌ عجيبٌ في غزوة خيبر، حيث لقيَ عَمُّه عامر وجهَ الله شهيدًا فيها!

وهكذا رأينا سلمة بن الأكوع ﷺ حالًّا مرتحلًا مجاهدًا، ما إنْ يخرجَ من غزوة حتى يدخل في غزوة أخرى، وما إنْ ينتهيَ من معركة حتى يبدأ معركة أُخرى ﷺ! ا.هـ.

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٨/ ٣٣٢ -٣٣٥، مجمع الزوائد للهيثمي (٨٠٧هـ) ٦/ ٢٠٨ -٢٠٩، فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ٧/ ٥٢٦-٥٢٩، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٩٠ -٧٩٤.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٢٨١-٢٨٩، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٣٧-٥٤٩، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٧٦ -٨١، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٥٩٦ -٦٠٤، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ١٧٨ -١٩٣، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٢٠٦-٢١٥، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٣٣-٣٤١، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٧٨ -٢٨٠، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ١٦٥ -١٨٠، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٥٩-٢٦٥، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٥/ ١٤٩-١٧٩.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٣٠ -٣٣٧، السيرة النبوية لرزق الله ٤٩٧، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٢٣-٣٢٤.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٣٦-٤١، غزوة الحديبية لأبي خليل ٢١-٢٨، فقه الغزوات للعيساوي ٣٣٦ + ٣٥٩-٣٦٠.

خرائط غَزْوَةِ الغَابَةِ (ذِي قَرَدٍ)

(١)

غزوة ذي قَرَد

(الغابَـــة)

ربيع الأوَّل ٦ هـ

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٤٥.

(٢)

غزوات السنة السابعة من الهجرة المباركة

سـرايا السنة السابعة من الهجرة المباركة

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٨٣.

(٣)

أرض

جهينة

الغابة

ذو القرد

المدينة النبوية

نجد

بنو سُليم

شبه الجزيرة العربية

الحجاز

البحر الأحمر (القلزم)

خيبر

عقلة الصقور

جبل طامية

نقرة

العيون

الحناكية

جبل رضوى

سوق سويق

ينبع

الحمراء

مسكة

عفيف

أم البرك

مهد الذهب

مستورة

رابغ

خليص

عسفان

الغابة : موضع يقع في الشمال الغربي من المدينة النبوية ويبعد عنها حوالي ستة كيلو مترات تقريباً .

ذو القرد : جبل يميل لونه إلى السواد يقع في الشمال الشرقي للمدينة النبوية بخمس وثلاثين كيلاً .

غزوة الغابة في المحرم من السنة السابعة من الهجرة المباركة

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ص ١٨٤ .

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من غَزْوَةِ الغَابَةِ (ذِي قَرَدٍ)

١ ـ غيرة المسلم على دينه وعرضه:

يقول أ/ رضوان: «وقد دلل الرسول القائد ﷺ بخروجه في هذه الغزوة في سرعة مذهلة، وحزم كامل، على يقظة المسلمين، وعلى أن دفاع المسلم عن ماله وعرضه من أعظم أنواع الجهاد».

[محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٩٩].

٢ ـ أهمية اختيار القادة ذوي القدرات:

يقول د/ الحميدي: «هذه القصة الرائعة تعتبر مثالًا حيًّا للحروب السريعة الخاطفة، التي تعتمد على انتهاز الفرص المناسبة وسرعة الحركة والمهارة الحربية، فما هي المؤهلات التي أهلت هذا البطل المغوار سلمة بن الأكوع السلمي ﵁ لتحقيق هذه النتائج السريعة المذهلة؟!

إذا عدنا إلى سياق القصة وواقع حياة الصحابة نجد أن هذا البطل يتصف أولًا بالإيمان القوي بالله تعالى ورسوله ﷺ، ومن أجل هذا الإيمان يبذل كل طاقته التي وهبها الله تعالى له، فبينما نجد الأربعة الذين صعدوا إليه حتى قربوا منه ينحدرون سراعًا منهزمين أمامه، نجده يقف لهم صامدًا ويهددهم، ولا شك أن هؤلاء الأربعة من شجعان قومهم، إذ أنه لا يبرز عادة في مثل هذه المواطن إلا الشجعان، ولكنهم لم يبذلوا من طاقتهم إلا القليل؛ لأن الذي من أجله يُقدمون على القتال هو الحصول على المال والجاه في هذه الحياة الدنيا، وهذا الهدف ينعدم وجوده إذا قُتلوا، فلماذا يبذلون كل طاقتهم والحال أن ذلك يعرضهم لخطر الموت، فيفوِّت عليهم الهدف الذي من أجله خرجوا وقاتلوا؟

أما الذين يؤمنون بالله تعالى ورسوله ﷺ واليوم الآخر فإنهم لا يقاتلون من أجل الجاه والمال في هذه الحياة الدنيا، ولكنهم يقاتلون لهدف أسمى وأجل، يقاتلون ابتغاء مرضاة الله تعالى والسعادة الأخروية؛ ولذلك رأينا هذا البطل يغامر بنفسه ويركب الأهوال؛ لأنه يؤمل في الظفر بإحدى السعادتين: إما الفوز في الحياة الدنيا وفي ذلك إعزاز للإسلام وحماية للمسلمين، وإما الظفر بالشهادة في سبيل الله تعالى.

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى موجهًا عباده المؤمنين: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[التوبة].

ونجد هذا الصحابي الجليل يتمتع ثانيًا بالشجاعة النادرة فهو في هذه المعركة لإيهاب الأعداء وإن كانوا سرية كاملة.

ونجده بعد ذلك يتمتع بتدريب عالي المستوي من الرياضة البدنية، فهو يعدو سريعًا للِّحاق بالعدو على قدميه طول النهار، وفي أرض جبلية وَعِرَة، فأي تدريب هذا الذي تلقاه هذا البطل؟!

ونجده يتمتع بالصبر وقوة الاحتمال، فقد ظل يومًا كاملًا مصابرًا للعدو متتبعًا له حتى ضاق به عدوه ذرعًا فوقفوا لأخذ الراحة وتناول الطعام، فوقف لهم بالمرصاد فوق الجبل حتى يحول بينهم وبين العودة إلى أخذ ما تخففوا منه من سلاحهم وما انتهبوه، حتى قدم الصحابة ﭫ.

ونجده كذلك بارعًا في المهارة الحربية، وذلك في سرعة التنقل بين الظهور والاستخفاء حسب احتياجات المعركة.

ونجد أن مما ساعده على الظفر بأعدائه والمقدرة على إجلائهم أنه كان راميًا ماهرًا في الرماية، فقلما أخطأ له سهم، وذلك وفَّر أسهمه للنكاية بأعدائه، وحينما دخلوا في مضايق الجبل ووجد أن سهامه لاتصل إليهم استعمل سلاحًا آخر يثيرهم ويزعجهم حيث علاهم فوق الجبل وصار يقذفهم بالحجارة.

وأخيرًا في مواقف سلمة بن الأكوع ﭬ قيامه بمسابقة ذلك الرجل الأنصاري في عودتهم إلى المدينة، وقد شرح في كلامه الطريقة المثلى في العدو، وفاز في المسابقة مع أنه كان يعدو يومًا كاملًا، فأي لياقة بدنية كان يتمتع بها هذا الصحابي الجليل ﭬ!!». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٥-١٧**].

ويقول د/ العفاني: «فيا لبديع صُنع ابن الأكوع ﭬ يطارد جيشًا بمفرده حتى يسترد منهم ما سلبوه، وهو راجل، بل ويأخذ منهم السلب والغنيمة، ولا يسمح لهم حتى بشرب الماء!!

وعلى النقيض، تطارد ملايينَ العرب شرذمةٌ من اليهود، تأخذ منهم كل شيء، ولا تُبقي لهم إلا العطش، تأخذ أغلى مقدساتهم، ولا تعطيهم إلا الذبح، وهتك الأعراض، وبقر البطون، ومع هذا فالمسلمون نائمون، ومَنْ لم توقظه النوائب وتُعلي همته، فليطل نومه».

[صلاح الأمة في علو الهمة للعفاني ٣/ ٣٦٥].

٣ ـ الإيجابية الذاتية لدى المسلم:

فقد أسرع سلمة بن الأكوع ﭬ إلى مطاردة المعتدين، بعد أن أرسل إلى الرسول ﷺ في المدينة بما حدث.

٤ ـ تربية المسلم على اللياقة البدنية (قوي الجسم):

قوة سلمة بن الأكوع ﭬ الجسدية، ومهارته الرياضية مكنته من مطاردة المعتدين.

وهذا يشير إلى أهمية اهتمام المسلم بأن يحافظ على قوة جسمه، فالجسم هو الوسيلة لبلوغ الأهداف السامية، فالعبادات، وجميع الأعمال، والفكر الصحيح، والعقل السليم، إنما تكون في الجسم السليم، فعلى المسلم أن يأخذ نفسه بأسباب الصحة والإعداد والقوة، فالمسلم القوي أحب إلى الله من المسلم الضعيف.

٥ ـ إرخاص النفوس في سبيل الله تعالى:

يقول د/ الحميدي: «وفي ثنايا هذا الخبر نجد موقفًا للصحابي الجليل الأخرم الأسديﭬ، وذلك في قوله: «**يَا سَلَمَةُ، إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتَعْلَمُ أَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، فَلاَ تَحُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّهَادَةِ**» ثم إقدامه على قتال الأعداء حتى استشهد.

فهذا الصحابي الجليل الذي غامر بنفسه وضرب في نحر العدو وحده وهو يناشد سلمة بن الأكوع ﷺ أن لا يحول بينه وبين الشهادة كان يتمتع بالشجاعة الفائقة والمغامرة الجريئة، وإن كان مردود هذه المغامرة بالنسبة لحصول النصر غير متحقق بنسبة ظاهرة، حيث كان في وضع مكشوف للأعداء، بخلاف ما قام به سلمة بن الأكوع ﷺ من الرماية عن بُعد والاستخفاء حين اللزوم، ولكن الغاية التي سعى إليها الأخرم ﷺ هي طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، وقد لاح له موطن من مواطنها فأراد أن يسارع إليه، وحصل له ما أراد ﷺ.

ولكن هل يُحكم على عمله بأنه لا جدوى منه حيث لم يحقق نصرًا للمسلمين في ذلك الموطن بينما حقق بعض النصر للأعداء؟ أم يُحكم عليه بأن له جدوى كبيرة بالنظر لاعتبارات أخرى؟

في الحقيقة أنه مع ما للشهادة من مقام كبير وفائدة عظيمة بالنسبة لصاحبها فإن الإقدام على المغامرة وإرخاص النفوس في سبيل الله تعالى عامل مهم من عوامل الدعوة إلى الإسلام، إذا أن الأعداء يفهمون من هذا التسابق على الاستشهاد أن هناك مبدأ عظيمًا يهيمن على النفوس لا يتوفر لدى غير المسلمين، فيدفعهم ذلك إلى الدخول في الإسلام؛ ولذلك ذكر الله سبحانه في معرض بيان الحكمة من وقوع الإصابة في جيش المسلمين يوم أُحُد: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولقد قام بطل الإسلام وفارس رسول الله ﷺ أبو قتادة ﷺ ـ كما جاء في هذا الخبر ـ بإزالة آثار هذا الانتصار اليسير الذي حققه الأعداء حيث قتل زعيمهم عبد الرحمن الفزاري الذي قتل الأخرم الأسدي ﷺ، وهذا موقف في الشجاعة والتضحية يُذكر لأبي قتادة ﷺ». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٧-١٨**].

٦ ـ إدراك قيمة القوات الخفيفة الحركة:

يقول عميد/ فرج: «ويتلاحظ أن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة أمر نفرًا من أصحابه بالخروج العاجل في إثر القوم حتى يلحق بهم مع باقي الخارجين، وهذا النفر يمثل ما نسميه في حروب اليوم بالقوات الخفيفة الحركة، ومهمتها الاندفاع في اتجاه العدو بقصد إثارة الفزع بين قواته، وإصابة ما يمكن إصابته منها والتمهيد لتقدم القوات الرئيسة، مما يسهل عليها مهمتها عند لقاء العدو، وهذه المهمة هي ذات المهمة التي قامت بها قوة الفرسان، فقد لحقت بالقوم وقتلت أحدهم، ووضعت يدهم على شطر من الإبل، وأنقذت المرأة المخطوفة، مما كان له أثره النفسي على قوات بني لحيان فاشتدت في الهروب.

وهذا سبق عسكري انفرد به تفكير رسول الله ﷺ». [**العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٣١٠**].

٧ ـ إثبات صدق رسول الله ﷺ:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر معجزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر سلمة بن الأكوع ﷺ بأن القوم قد أضافهم رجل من غطفان، فجاء رجل من غطفان فقال: نَحَر لهم فلان جزورًا، وهذا من الإخبار بالمغيبات». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٨-١٩**].

٨ ـ تسخير الإمكانات في سبيل الله عز وجل:

لقد عُرف سلمة ابن الأكوع رضي الله عنه بالعدو السريع، وهو ما سخره في أحداث هذه الغزوة، وهكذا فإنها «إمكانات تسخر في سبيل الله، فإذا هي تؤتي ثمارها، وهكذا يقدم كل مسلم ما عنده وما يحسنه لإعلاء كلمة الله تعالى». [من معين السيرة للشامي ٣٧٣].

٩ ـ النذر لا ينعقد في معصية:

يقول د/ العيساوي: «من الأحكام المستنبطة من غزوة ذي قرد أن النذر لا ينعقد في معصية ولا فيما لا يملك الإنسان.

والنذر: هو التزام قربة غير لازمة في أصل الشرع بلفظ يُشعر بذلك مثل أن يقول المرء: لله عليَّ أن أتصدق بمبلغ كذا، أو إن شفى الله مريضي فعليَّ صيام أيام، ونحو ذلك، ولا يصح إلا من بالغ عاقل مختار ولو كان كافرًا. [فقه السنة ٣/ ١٢٠].

وهو مشروع بالكتاب والسنة والإجماع [المغني ١٠/ ٦٧]، أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان:٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾[الحج].

وأما السنة، فروت السيدة عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ**». [البخاري (٦٦٩٦، ٦٧٠٠)، وأبو داود (٣٢٨٩)، والترمذي (١٥٢٦)، والنسائي (٣٨٠٦، ٣٨٠٧، ٣٨٠٨) كلهم في الأيمان والنذور، وابن ماجه في الكفارات (٢١٢٦) ...].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ـ قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَدْرِي ذَكَرَ ثِنْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا بَعْدَ قَرْنِهِ ـ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ يَنْذُرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ** (المعنى أنهم يحبون التوسع في المآكل والمشارب التي هي أسباب السمن وقيل غير ذلك)». [البخاري في الشهادات (٢٦٥١)، وفي المناقب (٣٦٥٠)، وفي الرقاق (٦٤٢٨)، وفي الأيمان والنذور (٦٦٩٥)، ومسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٢٥٣٥)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٠٩)].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه نَذَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَعْتَكِفَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ـ قَالَ: أُرَاهُ قَالَ ـ لَيْلَةً، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**أَوْفِ بِنَذْرِكَ**». [البخاري في الاعتكاف (٢٠٤٣)، وفي الأيمان والنذور (٦٦٩٧)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٣٢٥)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٩)، وغيرها].

وأما الإجماع: فقد اجتمع المسلمون على صحة النذر في الجملة ولزوم الوفاء به. [المغني ١٠/ ٦٧].

والإسلام وإن كان قد شرعه إلا أنه لا يستحبه. [المغني ١٠/ ٦٧، وفقه السنة ٣/ ١٢١].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ النَّذْرِ، وقَالَ: «**إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**»، وفي روايات: «**النَّذْرُ لاَ يُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا يُؤَخِّرُهُ...**»، «**إِنَّهُ لَا يَرُدُّ مِنَ الْقَدَرِ...**»، «**إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ**»، «**لَا تَنْذُرُوا فَإِنَّ النَّذْرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدَرِ شَيْئًا**»، «**لَا يَأْتِي النَّذْرُ عَلَى ابْنِ آدَمَ شَيْئًا لَمْ يُقَدِّرْهُ عَلَيْهِ**».

[البخاري في القدر (٦٦٠٨)، وفي الأيمان والنذور (٦٦٩٣)، ومسلم في النذر (١٦٣٩، ١٦٤٠)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٨٧)، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٨)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٠١، ٣٨٠٥)].

وهذا نهي كراهة لا نهي تحريم؛ لأنه لو كان حرامًا لما مدح الموفين به؛ لأن ذنبهم في ارتكاب المحارم أشد من طاعتهم في وفائه؛ ولأن النذر لو كان مستحبًّا لفعله النبي ﷺ وأفاضل الصحابة. [المغني ١٠/ ٦٧].

ويصح النذر وينعقد إذا كان قُربة يتقرب بها إلى الله ﷻ، ويجب الوفاء به من غير خلاف وتركه معصية. [أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٥٤٩، والمغني ١٠/ ٦٧].

ولا يصح إذا نذر أن يعصي الله ولا ينعقد ولا يحل الوفاء به إجماعًا. [المغني ١٠/ ٦٧- ٦٩].

والدليل خبر المرأة الغفارية ونذرها، والذي رواه مسلم في صحيحه، أن رسول الله ﷺ قال: «**بِئْسَ مَا جَزَيْتِهَا أَنْ حَمَلَكِ اللهُ عَلَيْهَا وَنَجَّاكِ بِهَا ثُمَّ تَنْحَرِينَهَا، إِنَّهُ لَا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا تَمْلِكِينَ، إِنَّمَا هِيَ نَاقَةٌ مِنْ إِبِلِي، فَارْجِعِي إِلَى أَهْلِكِ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ**».

هذا وأحكام النذر مفصلة في كتب الفقه، ولم أتطرق لها بشيء من التفصيل خشية الإطالة والتكرار».
[فقه الغزوات للعيساوي ٣٥٩-٣٦٠].

١٠ ـ فوائد ذكرها الإمام ابن حجر:

قال الإمام ابن حجر:

١ ـ وَفِي الْحَدِيثِ جَوَازُ الْعَدْوِ الشَّدِيدِ فِي الْغَزْوِ.

٢ ـ وَالْإِنْذَارُ بِالصِّيَاحِ الْعَالِي.

٣ ـ وَتَعْرِيفُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ إِذَا كَانَ شُجَاعًا لِيُرْعِبَ خَصْمَهُ.

٤ ـ وَاسْتِحْبَابُ الثَّنَاءِ عَلَى الشُّجَاعِ وَمَنْ فِيهِ فَضِيلَةٌ لَا سِيَّمَا عِنْدَ الصُّنْعِ الْجَمِيلِ لِيَسْتَزِيدَ مِنْ ذَلِكَ وَمَحَلُّهُ حَيْثُ يُؤْمَنُ الِافْتِتَانُ.

٥ ـ وَفِيهِ الْمُسَابَقَةُ عَلَى الْأَقْدَامِ، وَلَا خِلَافَ فِي جَوَازِهِ بِغَيْرِ عِوَضٍ، وَأَمَّا بِالْعِوَضِ فَالصَّحِيحُ لَا يَصِحُّ. وَاللهُ أَعْلَمُ. [فتح الباري لابن حجر ٧/ ٥٢٩].

الفصل السادس

سَرِيَّةُ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ﷺ إِلَى ذِي الْقَصَّةِ (١) إِلَى بَنِي ثَعْلَبَةَ وَعُوَالٍ

ربيع الآخر ٦هـ/أغسطس (آب) ٦٢٧م/ توت ٣٤٤ قبطي

المبحث الأول

عرض سَرِيَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ﷺ إِلَى ذِي الْقَصَّةِ

تاريخ السرية:

قال البيهقي: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ﷺ فِي رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ سِتٍّ مِنْ قُدُومِهِ المَدِينَةَ فِي عَشَرَةِ نَفَرٍ، فَكَمَنَ الْقَوْمُ بِهِمْ حَتَّى نَامَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، فَمَا شَعَرُوا إِلا بِالْقَوْمِ، فَقُتِلَ أَصْحَابُ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ﷺ، وَأَفْلَتَ مُحَمَّدٌ ﷺ جَرِيحًا. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٨٣-٨٤].

أحداث السرية:

يقول أ/ باشميل: «ذو القَصَّة (بفتح القاف وتشديد الصاد) منزل من منازل بني ثعلبة من غطفان أعداء الرسول ﷺ الألداء، وتبعد عن المدينة أربعة وعشرون ميلًا.

بعث النبي ﷺ إلى ذي القصة بدورية استكشاف قوامها عشرة نفر بقيادة الفارس المشهور محمد بن مسلمة الأنصاري ﷺ.

وكانت عيون بني ثعلبة قد أبلغتهم بتحرك هذه الدورية نحوهم وأنها تقصد ديارهم فاستعدوا لها وكمنوا وأعدوا (للإحاطة بهم) مائة رجل.

فلما وصل ابن مسلمة ﷺ بدوريته إلى (ذي القصة) لم يجد أحدًا فاستراح بأصحابه فأخذهم النوم، ولم يشعر إلا بمائة من فرسان بني ثعلبة يحيطون بهم من كل جانب، فثار الصحابة ﷺ إلى سلاحهم وأخذوا يرامونهم بالنبل ولكن دون جدوى، فالكثرة تغلب الشجاعة كما يقولون.

فقد هجم المشركون على الصحابة ﷺ فأبادوهم عن بكرة أبيهم، أما قائد الدورية (محمد بن مسلمة) فقد وقع جريحًا فضربوا كعبه فلم يتحرك، فظنوه قد مات فتركوه بعد أن أخذوا كل خيلهم وأسلحتهم وحتى الثياب جرَّدوهم منها ثم انصرفوا.

غير أن رجلًا من المسلمين مر بابن مسلمة وأصحابه، فلما رآهم صرعى استرجع، فلما تأكد ابن مسلمة بأنه مسلم تحرك، وهنا حمله الرجل حتى ورد به المدينة، حيث عولج من جراحه حتى شفي».

[صلح الحديبية لباشميل ٤١-٤٢].

---

(١) **ذو القَصَّة**: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلًا، وهو طريق الرَّبذة، كان يقطنه بنو ثعلبة وبنو عوال من ثعلبة. معجم البلدان ٤/ ٣٦٦.

قال الواقدي: حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ الْحَارِثِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ﷺ فِي عَشَرَةٍ، فَوَرَدَ عَلَيْهِمْ لَيْلًا، فَكَمَنَ الْقَوْمُ حَتَّى نَامَ وَنَامَ أَصْحَابُهُ، فَأَحْدَقُوا بِهِ وَهُمْ مِائَةُ رَجُلٍ، فَمَا شَعَرَ الْقَوْمُ إِلَّا بِالنَّبْلِ قَدْ خَالَطَتْهُمْ، فَوَثَبَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ وَعَلَيْهِ الْقَوْسُ فَصَاحَ بِأَصْحَابِهِ: السِّلَاحَ! فَوَثَبَ فَتَرَامَوْا سَاعَةً مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ حَمَلَتِ الْأَعْرَابُ بِالرِّمَاحِ فَقَتَلُوا مِنْهُمْ ثَلَاثَةً، ثُمَّ انْحَازَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِ، فَقَتَلُوا مِنَ الْقَوْمِ رَجُلًا، ثُمَّ حَمَلَ الْقَوْمُ فَقَتَلُوا مَنْ بَقِيَ، وَوَقَعَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ جَرِيحًا، فَضُرِبَ كَعْبُهُ فَلَا يَتَحَرَّكُ وَجَرَّدُوهُمْ مِنَ الثِّيَابِ وَانْطَلَقُوا، فَمَرَّ رَجُلٌ عَلَى الْقَتْلَى فَاسْتَرْجَعَ، فَلَمَّا سَمِعَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ تَحَرَّكَ لَهُ فَإِذَا هُوَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ، فَعَرَضَ عَلَى مُحَمَّدٍ طَعَامًا وَشَرَابًا وَحَمَلَهُ حَتَّى وَرَدَ بِهِ الْمَدِينَةَ.

فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ فِي أَرْبَعِينَ رَجُلًا إِلَى مَصَارِعِهِمْ فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا، وَاسْتَاقَ نَعَمًا ثُمَّ رَجَعَ.

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله: فَذَكَرْتُ هَذِهِ السَّرِيَّةَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مَحْمُودِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ فَقَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ ﷺ خَرَجَ فِي عَشَرَةِ نَفَرٍ: أَبُو نَائِلَةَ، وَالْحَارِثُ بْنُ أَوْسٍ، وَأَبُو عَبْسِ بْنُ جَبْرٍ، وَنُعْمَانُ بْنُ عَصْرٍ، وَمُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَحُوَيِّصَةُ، وَأَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ، وَرَجُلَانِ مِنْ مُزَيْنَةَ، وَرَجُلٌ مِنْ غَطَفَانَ، فَقُتِلَ الْمُزَنِيَّانِ وَالْغَطَفَانِيُّ، وَارْتُثَّ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ مِنَ الْقَتْلَى.

قَالَ مُحَمَّدٌ: فَلَمَّا كَانَتْ غَزْوَةُ خَيْبَرَ نَظَرْتُ إِلَى أَحَدِ النَّفَرِ الَّذِينَ كَانُوا وَلُوا ضَرْبِي يَوْمَ ذِي الْقَصَّةِ، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: أَسْلَمْتُ وَجْهِي لله! فَقُلْتُ: أَوْلَى!». [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٥١-٥٥٢**].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٥١-٥٥٢، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨١-٨٢، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٨٣-٨٤، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٣، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٢٤٠، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٦٦، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٢٧-١٢٩.

ب ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٤٧٠-٤٧١، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٢٤.

ج ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٤١-٤٢، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٨٨-٨٩، فقه السرايا للعيساوي ١١٦-١٣١.

خرائط سَرِيَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ﷺ إِلَى ذِي القَصَّةِ

(١)

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٤٧.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من
سَرِيَّةِ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ ﷺ إِلَى ذِي الْقَصَّةِ

مشروعية التعرض لأموال الحربيين والاستيلاء عليها:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢هـ.

الفصل السابع
سَرِيَّةُ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ ﷺ إِلَى ذِي القَصَّة
ربيع الآخر ٦هـ/أغسطس (آب) ٦٢٧م/ توت ٣٤٤ قبطية

المبحث الأول
عرض سَرِيَّةِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ ﷺ إِلَى ذِي القَصَّة

تاريخها:

فِي رَبِيعٍ الْآخِرِ سَنَةَ سِتٍّ لَيْلَةَ السَّبْتِ وَغَابَ لَيْلَتَيْنِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٢].

سببها وأحداثها:

قال الواقدي: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زِيَادٍ الْأَشْجَعِيُّ، عَنْ عِيسَى بْنِ عُمَيْلَةَ وَحَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ ابْنُ الْحَارِثِ بْنِ الْفَضْلِ، عَنْ أَبِيهِ زَادَ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ قَالَا: أَجْدَبَتْ (الجدب: بفتح الجيم وسكون الدال المهملة نقيض الخصب) بِلَادُ بَنِي ثَعْلَبَةَ وَأَنْمَارٍ، وَوَقَعَتْ سَحَابَةٌ بِالمَرَاضِ إِلَى تَغْلَمَيْنِ (التغلمين: موضع من بلاد بني فزارة قبل ريم. [معجم ما استعجم، ص ٢٠٣]. تبعد عن المدينة ستة وثلاثين ميلًا)، فَصَارَتْ بَنُو مُحَارِبٍ وَثَعْلَبَةَ وَأَنْمَارٍ إِلَى تِلْكَ السَّحَابَةِ، وَكَانُوا قَدْ أَجْمَعُوا أَنْ يُغِيرُوا عَلَى سَرْحِ المَدِينَةِ (المال الراعي)، وَسَرْحُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَرْعَى بِبَطْنِ هَيْقَا، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ فِي أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ حِينَ صَلَّوْا صَلَاةَ المَغْرِبِ، فَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ يَمْشُونَ حَتَّى وَافَوْا (أشرفوا) ذِي الْقَصَّةِ مَعَ عَمَايَةِ الصُّبْحِ(يقال: لقيته في عماية الصبح، أي في ظلمته قبل أن أتبينه)، فَأَغَارَ عَلَيْهِمْ، فَأَعْجَزَهُمْ هَرَبًا فِي الْجِبَالِ، وَأَخَذَ رَجُلًا مِنْهُمْ، وَوَجَدَ نَعَمًا مِنْ نَعَمِهِمْ فَاسْتَاقَهُ وَرِثَّةً (الرثة: السقط من متاع البيت) مِنْ مَتَاعٍ فَقَدِمَ بِهِ المَدِينَةَ، فَأَسْلَمَ الرَّجُلُ، فَتَرَكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ خَمَّسَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَسَّمَ مَا بَقِيَ عَلَيْهِمْ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٢].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ **كتب السنة:** الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢٠.

ب ـ **كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي:** المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٥٢، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨٢، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٨٣، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٢، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٢٤٠، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٦٦، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٣٠-١٣١.

ج ـ **كتب السيرة الحديثة:** السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٢٤.

د ـ **كتب الغزوات والسرايا:** صلح الحديبية لباشميل ٤٢-٤٣، فقه السرايا للعيساوي ١١٦+ ١٣١.

خرائط سرية أبي عبيدة بن الجراح ﷺ إلى ذي القَصَّة

سـريـة
أبي عبيدة بن الجرّاح
إلى ذي القَصَّة
ربيع الآخر ٦ هـ

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٤٩.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من
سرية أبي عبيدة ﷺ إلى ذي القَصَّة

جواز الاستيلاء على أموال الحربيين:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص.

ومن الفقه في هذه السرية: «أَنّ الْإِمَامَ إذَا سَمِعَ بِقَصْدِ عَدُوِّهِ لَهُ وَفِي جَيْشِهِ قُوَّةٌ وَمَنَعَةٌ لَا يَقْعُدُ يَنْتَظِرُهُمْ بَلْ يَسِيرُ إلَيْهِمْ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٤٧٩].

الفصل الثامن
سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى الجَمُومِ (١)
ربيع الآخر ٦هـ/أغسطس (آب) ٦٢٧م/ توت ٣٤٤ قبطية

المبحث الأول
عرض سَرِيَّةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى الجَمُومِ

تاريخ السرية:

قال ابن سعد: ثم سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم في شهر ربيع الآخر سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ. [طبقات ابن سعد ٢/ ٨٣].

سبب السرية وأحداثها:

يقول أ/ باشميل: «كانت بنو سليم من أهل الجموم (وادي فاطمة) قد أعانوا أبا سفيان في حربه ضد المسلمين في معركة (الأحزاب) فاشترك منهم معه حوالي سبعمائة مقاتل، وافوه مر الظهران (وادي فاطمة) وهو في طريقه إلى المدينة.

وكان الأعراب الذين اشتركوا في غزوة الأحزاب (ومنهم بنو سليم) قد أصبحوا بعملهم ذاك أعداء محاربين للنبي ﷺ.

لذلك من البدهي، و(خاصة بعد اندحارهم في معركتهم الخاسرة) أن يلقي عليهم النبي ﷺ دروسًا تأديبية بنقل المعركة إلى ديارهم حتى وإن بعدت، مثل ديار بني سليم القريبة من مكة ليرسخ في أذهان هؤلاء الأعراب المشركين أن المسلمين أصبحوا سادة الموقف في الجزيرة، وأنهم قادرون على نقل المعركة إلى أي مكان يريدون من أرض أعدائهم.

ومن ذلك أن النبي ﷺ بعث إلى ديار بني سليم بسرية بقيادة (زيادة بن حارثة) للإغارة عليهم وإرهابهم في الجموم.

وقد أغار عليهم زيد بن حارثة ﷺ، وفي طريقه وجد امرأة من مزينة يقال لها: (حليمة) فدلتهم على محلة من محال بني سليم، فأغاروا عليهم وأوقعوا بهم، ففر من (سُليم) من قدر على الفرار، ووقع الباقون أسرى في يد رجال السرية.

---

(١) **الجَمُوم** (بفتح أوله وضم ثانيه) منزل من منازل بني سليم، قال ابن بليهد في (صحيح الأخبار): الجموم: عين جارية عليها زروع وغروس وهي في الظهران الذي يقال له اليوم (وادي فاطمة). انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢/ ١٦٣، ومعجم المعالم الجغرافية للبلادي ٨٥.

الجموم: يبعد عن مكة من جهة الشمال قرابة (٣٠) كيلًا وهي منطقة واسعة جدًّا. مرويات الإمام الزهري في المغازي للعواجي ١/ ٥٤٠.

كما استولى رجال زيد بن حارثة على مجموعة من الإبل والغنم، فقفلوا راجعين إلى المدينة ومعهم المرأة (حليمة المزنية) وزوجها أسيرين.

غير أنهم لما وصلوا المدينة وأخبروا النبي ﷺ الخبر، وهب للمرأة المزينية نفسها ووهب لها زوجها مكافأة لها على إرشادها لرجال السرية، فأطلق سراحهما.[**صلح الحديبية لباشميل ٤٤-٤٥**].

ذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في غزوة الجموم، فأصاب زيد نعمًا وشاءً وأسر جماعة من المشركين. [**مغازي الزهري للعواجي ١/ ٥٤٠**].

وقال ابن سعد: ثُمَّ سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى بَنِي سُلَيْمٍ بِالْجَمُومِ فِي شَهْرِ رَبِيعٍ الْآخِرِ سَنَةَ سِتٍّ مِنْ مُهَاجَرِ رَسُولِ الله ﷺ، قَالُوا: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى بَنِي سُلَيْمٍ، فَسَارَ حَتَّى وَرَدَ الْجَمُومَ نَاحِيَةَ بَطْنِ نَخْلٍ عَنْ يَسَارِهَا، وَبَطْنُ نَخْلٍ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى أَرْبَعَةِ بُرُدٍ، فَأَصَابُوا عَلَيْهِ امْرَأَةً مِنْ مُزَيْنَةَ يُقَالُ لَهَا حَلِيمَةُ، فَدَلَّتْهُمْ عَلَى مَحَلَّةٍ مِنْ مَحَالِّ بَنِي سُلَيْمٍ، فَأَصَابُوا فِي تِلْكَ الْمَحِلَّةِ نَعَمًا وَشَاءً وَأَسْرَى، فَكَانَ فِيهِمْ زَوْجُ حَلِيمَةَ الْمُزَنِيَّةِ، فَلَمَّا قَفَلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ بِمَا أَصَابَ وَهَبَ رَسُولُ الله ﷺ لِلْمُزَنِيَّةِ نَفْسَهَا وَزَوْجَهَا، فَقَالَ بِلَالُ بْنُ الْحَارِثِ فِي ذَلِكَ شِعْرًا:

لَعَمْرُكَ مَا أَخْنَى الْمَسُولَ وَلَا وَنَتْ　　　حَلِيمَةُ حَتَّى رَاحَ رَكْبُهُمَا مَعَا

[**الطبقات لابن سعد ٢/ ٨٣**].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢٠.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٥٤٠، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨٣، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٨٤، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٣، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٨١، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٢٤١، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٣٢.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٤٧١.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٤٤-٤٥، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٨٩-٩٠.

خرائط سرية زيد بن حارثة ﷺ إلى الجموم

سرية زيد بن حارثة :

- إلى بني سليم بالجَمُوم ، ربيع الأول ٦ هـ
- إلى العيص ، جمادى الأولى ٦ هـ
- إلى الطرف ، جمادى الآخرة ٦ هـ
- إلى حِسْمَى ، جمادى الآخرة ٦ هـ

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥٠.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من
سَرِيَّةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى الجَمُومِ

١ ـ تربية الأبناء والأقربين على التضحية والفداء:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٢ ـ القائد القدوة يتقدم الناس هو وأقرباؤه:

سبق تفصيله في غزوة بني قينقاع ٢ هـ.

٣ ـ مشروعية التعرض لأموال الحربيين والاستيلاء عليها:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٤ ـ دروس سبق تفصيلها:

ينظر الدروس المستفادة من السرايا قبل بدر الكبرى والسرايا بين بدر وأحد.

الفصل التاسع
سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى الْعِيصِ (١)
جمادى الأولى ٦هـ/سبتمبر (أيلول) ٦٢٧م/ توت ٣٤٤ قبطي
المبحث الأول
عرض سَرِيَّةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى الْعِيصِ

تاريخ السرية:

قال الإمام ابن القيم: وَفِيهَا ـ يعني سنة ست ـ كَانَتْ سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى الْعِيصِ، فِي جُمَادَى الْأُولَى. [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٨١].

سبب السرية:

يقول أ/ باشميل: «كان سبب هذه الحملة أنه بلغ النبي ﷺ أن عيرًا لقريش قد أقبلت من الشام عائدة بالبضائع إلى مكة.

ولم يكن بين النبي ﷺ وبين قريش في تلك الفترة أي صلح أو معاهدة، وإنما كانوا في حالة حرب، والجو بين الفريقين على غاية من التوتر، لا سيما المسلمون الذين لم ينسوا بعدُ ذلك الغزو الظالم الغاشم المخيف الذي تعرضت له المدينة حيث فرض عليها أبو سفيان الحصار الخانق وكان يقود عشرة آلاف مقاتل، قرر أن يقتحم بهم المدينة ويبيد كل من فيها من المسلمين، لم ينس المسلمون هذا الغزو المخيف الذي لم يمر عليه أكثر من ستة أشهر، والذي لو قُدِّر له النجاح لكان المسلمون في خبر كان.

لذلك كان من البدهي أن يتحين المسلمون الفرص للإيقاع بمشركي مكة الذين سعوا ذلك السعي الخطير لتدميرهم وإبادتهم.

ولهذا فإنه عندما تبلغ النبي القائد ﷺ من جهاز استخباراته العسكرية أن قافلة للعدو عائدة من الشام إلى مكة، وأنها قد وطئت التراب الحجازي، جهز كتيبة من الفرسان قوامها مائة وسبعون فارسًا، وأعطى قيادتهم لمولاه زيد بن حارثة ﷺ، وكلفهم بالتعرض لهذه القافلة والاستيلاء عليها كجزء من أموال عدو محارب.

وقد تحرك زيد بن حارثة ﷺ بكتيبته من المدينة حتى وصل منطقة العيص، وهناك التقى بقافلة قريش، فاستولى رجاله على هذه القافلة، وأخذوا جميع الذين يقودونها أسرى، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن قادة القافلة قد أبدوا أي شيء من المقاومة إذ لم يشر أحد إلى أنه جرى أي قتال عند استيلاء المسلمين على هذه القافلة التي كانت فيها يومئذ كمية كبيرة من الفضة عائدة للتاجر القرشي الكبير المعروف (صفوان بن أمية).

---

(١) **العيص**: بينها وبين المدينة أربع ليال، وبينها وبين ذي المروة ليلة. طبقات ابن سعد ٢/ ٦٣.
وقد سبق تفصيل الحديث عنها في سرية حمزة ﷺ رمضان ١ هـ.

وقد عاد زيد بن حارثة ﷺ بالقافلة وبالأسرى القرشيين إلى المدينة. [صلح الحديبية لباشميل ٤٥-٤٦].

قال الواقدي: حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَـمَّا رَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَةِ الْغَابَةِ بَلَغَهُ أَنَّ عِيرًا لِقُرَيْشٍ أَقْبَلَتْ مِنْ الشَّامِ، فَبَعَثَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ فِي سَبْعِينَ وَمِائَةِ رَاكِبٍ، فَأَخَذُوهَا وَمَا فِيهَا، وَأَخَذُوا يَوْمَئِذٍ فِضَّةً كَثِيرَةً لِصَفْوَانَ (بنِ أُمَيَّةَ)، وَأَسَرُوا نَاسًا مِمَّنْ كَانَ فِي الْعِيرِ مَعَهُمْ مِنْهُمْ: أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٣].

قال ابن القيم: وَفِيهَا: أُخِذَتْ الْأَمْوَالُ الَّتِي كَانَتْ مَعَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ زَوْجِ زَيْنَبَ مَرْجِعَهُ مِنْ الشَّامِ وَكَانَتْ أَمْوَالُ قُرَيْشٍ. [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٨٢].

ابنة النبي ﷺ وزوجها الأسير:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَأَقَامَ أَبُو الْعَاصِ بِمَكَّةَ، وَأَقَامَتْ زَيْنَبُ ﵂ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ بِالْمَدِينَةِ، حِينَ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا الْإِسْلَامُ، حَتَّى إذَا كَانَ قُبَيْلَ الْفَتْحِ خَرَجَ أَبُو الْعَاصِ تَاجِرًا إِلَى الشَّامِ، وَكَانَ رَجُلًا مَأْمُونًا، بِمَالٍ لَهُ وَأَمْوَالٍ لِرِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ، أَبْضَعُوهَا مَعَهُ، فَلَـمَّا فَرَغَ مِنْ تِجَارَتِهِ وَأَقْبَلَ قَافِلًا، لَقِيَتْهُ سَرِيَّةٌ لِرَسُولِ الله ﷺ، فَأَصَابُوا مَا مَعَهُ وَأَعْجَزَهُمْ هَارِبًا.

فَلَـمَّا قَدِمَتْ السَّرِيَّةُ بِمَا أَصَابُوا مِنْ مَالِهِ [فَقَسَّمَهُ بَيْنَهُمْ]، أَقْبَلَ أَبُو الْعَاصِ تَحْتَ اللَّيْلِ حَتَّى دَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ، فَاسْتَجَارَ بِهَا، فَأَجَارَتْهُ وَجَاءَ فِي طَلَبِ مَالِهِ [وَسَأَلَهَا أَنْ تَطْلُبَ لَهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ رَدَّ مَالِهِ عَلَيْهِ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ]، فَلَـمَّا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الصُّبْحِ ـ كَمَا حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ ـ فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ مَعَهُ، صَرَخَتْ زَيْنَبُ ﵂ مِنْ صُفَّةِ النِّسَاءِ: **أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ**، قَالَ: فَلَـمَّا سَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ الصَّلَاةِ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، هَلْ سَمِعْتُمْ مَا سَمِعْتُ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى سَمِعْتُ مَا سَمِعْتُمْ، إِنَّهُ يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ**»، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ، فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ، فَقَالَ: «**أَيْ بُنَيَّةُ، أَكْرِمِي مَثْوَاهُ، وَلَا يَخْلُصَنَّ إِلَيْكِ، فَإِنَّكِ لَا تَحِلِّينَ لَهُ**».

[السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٥٧-٦٥٨، زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٨٢].

قال الواقدي: فَأَمَّا أَبُو الْعَاصِ فَلَمْ يَغْدُ أَنْ جَاءَ الْـمَدِينَةَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ بِنْتِ رَسُولِ الله ﷺ سَحَرًا، وَهِيَ امْرَأَتُهُ، فَاسْتَجَارَهَا فَأَجَارَتْهُ.

فَلَـمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ الْفَجْرَ قَامَتْ زَيْنَبُ ﵂ عَلَى بَابِهَا فَنَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا فَقَالَتْ: **إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ سَمِعْتُمْ مَا سَمِعْتُ؟**» قَالُوا: **نَعَمْ**، قَالَ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ حَتَّى سَمِعْتُ الَّذِي سَمِعْتُمْ، الْمُؤْمِنُونَ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَقَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَارَتْ**». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٣].

رد الأموال وإطلاق الأسرى:

ويدل سياق المؤرخين وأهل الحديث، على أن أبا العاص بن الربيع كان قائد هذه العير التي استولت عليها سرية زيد بن حارثة ﷺ بدليل أن زينب لما أجارت زوجها ـ وكان على شركه ـ دخلت على النبي ﷺ، وسألته أن يرد على أبي العاص ما أخذت سرية زيد منه من العير، أجابها إلى ذلك، ولكنه استدعى زيد بن حارثة ﷺ ورجال سريته لأخذ موافقتهم قبل كل شيء، فأجابوا جميعًا بالموافقة، فردوا عليه كل ما أخذوا منه بما في ذلك الأموال التي ائتمنه عليها كفار مكة لشراء البضائع لهم من الشام، والتي جاءت تحملها العير التي وقعت بأكملها في قبضة سرية زيد ابن حارثة ﷺ، وكما وافقوا على أطلاق سراح جميع أسرى العير.

قال الواقدي: فَلَـمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى مَنْزِلِهِ دَخَلَتْ عَلَيْهِ زَيْنَبُ ﷺ فَسَأَلَتْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَى أَبِي الْعَاصِ مَا أَخَذَ مِنْهُ مِنَ المَالِ، فَفَعَلَ، وَأَمَرَهَا أَلَّا يَقْرَبَهَا، فَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لَهُ مَا دَامَ مُشْرِكًا.

ثُمَّ كَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ أَصْحَابَهُ، وَكَانَتْ مَعَهُ بَضَائِعُ لِغَيْرِ وَاحِدٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَدَّوْا إِلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَرُدُّونَ الْإِدَاوَةَ (المطهرة التي يتوضأ بها) وَالْحَبْلَ حَتَّى لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٣-٥٥٤].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرٍ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ إِلَى السَّرِيَّةِ الَّذِينَ أَصَابُوا مَالَ أَبِي الْعَاصِ، فَقَالَ لَهُمْ: «**إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ أَصَبْتُمْ لَهُ مَالًا [وَلِغَيْرِهِ]، فَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَرُدُّوا عَلَيْهِ الَّذِي لَهُ، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَهُوَ فَيْءُ الله الَّذِي أَفَاءَ عَلَيْكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ [وَإِنْ كَرِهْتُمْ فَأَنْتُمْ وَحَقُّكُمْ]**»، فَقَالُوا: **يَا رَسُولَ الله! بَلْ نَرُدُّهُ عَلَيْهِ**، فَرَدُّوهُ عَلَيْهِ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيَ بِالدَّلْوِ وَيَأْتِيَ الرَّجُلُ بِالشَّنَّةِ وَبِالْإِدَاوَةِ، [وَالرَّجُلُ بِالْحَبْلِ]، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَأْتِيَ بِالشِّظَاظِ (هي خشبة محددة الطرف تدخل في عروتي الجوالقين لتجمع بينهما عند حملها على البعير)، حَتَّى رَدُّوا عَلَيْهِ مَالَهُ بِأَسْرِهِ، لَا يَفْقِدُ مِنْهُ شَيْئًا. [السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٥٧-٦٥٨، زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٨٢].

مَثَلٌ مِنْ أَمَانَةِ أَبِي الْعَاصِ ﷺ:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَحَدَّثَنِي أَبُو عُبَيْدَةَ: أَنَّ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ لَـمَّا قَدِمَ مِنْ الشَّامِ وَمَعَهُ أَمْوَالُ الْمُشْرِكِينَ قِيلَ لَهُ: هَلْ لَكَ أَنْ تُسْلِمَ وَتَأْخُذَ هَذِهِ الْأَمْوَالَ، فَإِنَّهَا أَمْوَالُ الْمُشْرِكِينَ؟ فَقَالَ أَبُو الْعَاصِ: **بِئْسَ مَا أَبْدَأُ بِهِ إِسْلَامِي أَنْ أَخُونَ أَمَانَتِي**. [السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٥٩].

رد أبي العاص ﷺ لأموال أهل مكة:

ثم إنه (بعد أن أضمر الإسلام) ذهب بالعير إلى أهل مكة فأعطى كل ذي حق حقه..

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ احْتَمَلَ [خَرَجَ أَبُو الْعَاصِ حَتَّى قَدِمَ] إِلَى مَكَّةَ، فَأَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي مَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَالَهُ، وَمَنْ كَانَ أَبْضَعَ مَعَهُ، ثُمَّ [حَتَّى إِذَا فَرَغَ] قَالَ: **يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! هَلْ بَقِيَ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ عِنْدِي مَالٌ لَمْ**

يَأْخُذُهُ؟ قَالُوا: **لَا، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَقَدْ وَجَدْنَاكَ وَفِيًّا كَرِيمًا،** قَالَ: **فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا مَنَعَنِي مِنَ الْإِسْلَامِ عِنْدَهُ إِلَّا تَخَوُّفُ أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ آكُلَ أَمْوَالَكُمْ، فَلَمَّا أَدَّاهَا اللهُ إِلَيْكُمْ وَفَرَغْتُ مِنْهَا أَسْلَمْتُ.**

ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي دَاوُد بْنُ الْحُصَيْنِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: رَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْنَبَ عَلَى النِّكَاحِ الْأَوَّلِ لَمْ يُحْدِثْ شَيْئًا (بَعْدَ سِتِّ سِنِينَ).

[السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٦٥٧-٦٥٩، زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٨٢، المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٤، قال الشيخ الألباني: حديث صحيح أخرجه أبو داود ١/ ٢٥٠، والترمذي ١٩٦، والحاكم ٣/ ٢٣٧، وأحمد رقم ١٨٧٦، ٢٣٦٦، ٣٢٩٠، وابن هشام في السيرة ١/ ٨٣ من حديث ابن عباس، وإسناده جيد، وقال الترمذي: «ليس به بأس»، وصححه أحمد. فقه السيرة للغزالي هامش ص ٣٥١. ورواه بنحوه: البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٢٤١-٢٤٢ كتاب السير باب الأسير يؤمن فلا يكون له أن يغتالهم في أموالهم وأنفسهم رقم ١٨٤٢٥].

الأسير عند عائشة ﷺ:

قال الواقدي: وَيُقَالُ: إِنَّ هَذِهِ الْعِيرَ كَانَتْ أَخَذَتْ طَرِيقَ الْعِرَاقِ، وَدَلِيلُهَا فُرَاتُ بْنُ حَيَّانَ الْعِجْلِيُّ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: وَأَمَّا الْمُغِيرَةُ بْنُ مُعَاوِيَةَ فَأَفْلَتَ، فَتَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَكَّةَ فَأَخَذَ الطَّرِيقَ نَفْسَهَا، فَلَقِيَهُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ قَافِلًا فِي سَبْعَةِ نَفَرٍ، وَكَانَ الَّذِي أَسَرَ الْمُغِيرَةَ خَوَّاتُ بْنُ جُبَيْرٍ ﷺ، فَأَقْبَلَ بِهِ حَتَّى دَخَلُوا الْمَدِينَةَ بَعْدَ الْعَصْرِ وَهُمْ مُبْرِدُونَ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: فَأَخْبَرَنِي ذَكْوَانُ مَوْلَى عَائِشَةَ عَنْ عَائِشَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: «**احْتَفِظِي بِهَذَا الْأَسِيرِ!**»، وَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَهَوْتُ مَعَ امْرَأَةٍ أَتَحَدَّثُ مَعَهَا، فَخَرَجَ وَمَا شَعَرْتُ بِهِ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَرَهُ فَقَالَ: «**أَيْنَ الْأَسِيرُ؟**» فَقُلْتُ: وَاللهِ مَا أَدْرِي، غَفَلْتُ عَنْهُ وَكَانَ هَاهُنَا آنِفًا، فَقَالَ: «**قَطَعَ اللهُ يَدَكِ**»، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ فَصَاحَ بِالنَّاسِ، فَخَرَجُوا فِي طَلَبِهِ، فَأَخَذُوهُ بِالصَّوْرَيْنِ، فَأُتِيَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ.

قَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ: فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا أُقَلِّبُ بِيَدِي، فَقَالَ: «**مَا لَكِ؟**» فَقُلْتُ: أَنْظُرُ كَيْفَ تُقْطَعُ يَدِي، قَدْ دَعَوْتَ عَلَيَّ بِدَعْوَتِكُمْ! قَالَتْ: فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَرَفَعَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ وَآسَفُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ أَوْ مُؤْمِنَةٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ بِدَعْوَةٍ فَاجْعَلْهَا لَهُ رَحْمَةً**».

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٤-٥٥٥].

وعَنْ عَائِشَةَ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا بِأَسِيرٍ وَعِنْدَهَا نِسْوَةٌ، فَلَهَّيْنَهَا عَنْهُ، فَذَهَبَ الْأَسِيرُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ أَيْنَ الْأَسِيرُ؟**»، فَقَالَتْ: نِسْوَةٌ كُنَّ عِنْدِي فَلَهَّيْنَنِي عَنْهُ فَذَهَبَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَطَعَ اللهُ يَدَكِ**»، وَخَرَجَ فَأَرْسَلَ فِي إِثْرِهِ فَجِيءَ بِهِ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَإِذَا عَائِشَةُ ﷺ قَدْ أَخْرَجَتْ

يَدَيْهَا فَقَالَ: «**مَا لَكَ؟**»، قَالَتْ: يا رسول الله، إِنَّكَ دَعَوْتَ عَلَيَّ بِقَطْعِ يَدِي وَإِنِّي مُعَلِّقَةٌ يَدِي أَنْتَظِرُ مَنْ يَقْطَعُهَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَجُنِنْتِ؟**»، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ مَنْ كُنْتُ دَعَوْتُ عَلَيْهِ فَاجْعَلْهُ لَهُ كَفَّارَةً وَطَهُورًا**». [السنن الكبرى للبيهقي كتاب السير باب الأسير يوثق ٩/ ١٥٢ رقم ١٨١٤٧، وينظر منه كتاب قسم الفيء والغنيمة باب ما جاء في مَنِّ الإمام على من رأى من الرجال البالغين من أهل الحرب ٦/ ٣١٨].

رِوَايَةُ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ لِقِصَّةِ أَبِي الْعَاصِ:

يقول ابن القيم: وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْ الْوَاقِدِيِّ وَابْنِ إِسْحَاقَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قِصَّةَ أَبِي الْعَاصِ كَانَتْ قَبْلَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَإِلَّا فَبَعْدَ الْهُدْنَةِ لَمْ تَتَعَرَّضْ سَرَايَا رَسُولِ الله ﷺ لِقُرَيْشٍ.

وَلَكِنْ زَعَمَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ أَنَّ قِصَّةَ أَبِي الْعَاصِ كَانَتْ بَعْدَ الْهُدْنَةِ، وَأَنَّ الَّذِي أَخَذَ الْأَمْوَالَ أَبُو بَصِيرٍ وَأَصْحَابُهُ ﭫ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِأَمْرِ رَسُولِ الله ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُنْحَازِينَ بِسِيفِ الْبَحْرِ، وَكَانَتْ لَا تَمُرُّ بِهِمْ عِيرٌ لِقُرَيْشٍ إِلَّا أَخَذُوهَا، هَذَا قَوْلُ الزُّهْرِيِّ.

قَالَ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ فِي قِصَّةِ أَبِي بَصِيرٍ: وَلَمْ يَزَلْ أَبُو جَنْدَلٍ وَأَبُو بَصِيرٍ وَأَصْحَابُهُمَا الَّذِينَ اجْتَمَعُوا إِلَيْهِمَا هُنَالِكَ حَتَّى مَرَّ بِهِمْ أَبُو الْعَاصِ بْنُ الرَّبِيعِ، وَكَانَتْ تَحْتَهُ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ الله ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَخَذُوهُمْ وَمَا مَعَهُمْ وَأَسَرُوهُمْ، وَلَمْ يَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا لِصِهْرِ رَسُولِ الله ﷺ مِنْ أَبِي الْعَاصِ، وَأَبُو الْعَاصِ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكٌ، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ لِأَبِيهَا وَأُمِّهَا، وَخَلَّوْا سَبِيلَ أَبِي الْعَاصِ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ عَلَى امْرَأَتِهِ زَيْنَبَ ﭭ فَكَلَّمَهَا أَبُو الْعَاصِ فِي أَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَسَرَهُمْ أَبُو جَنْدَلٍ وَأَبُو بَصِيرٍ وَمَا أَخَذُوا لَهُمْ، فَكَلَّمَتْ زَيْنَبُ ﭭ رَسُولَ الله ﷺ فِي ذَلِكَ، فَزَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَامَ فَخَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: «**إِنَّا صَاهَرْنَا أُنَاسًا، وَصَاهَرْنَا أَبَا الْعَاصِ، فَنِعْمَ الصِّهْرُ وَجَدْنَاهُ، وَإِنَّهُ أَقْبَلَ مِنْ الشَّامِ فِي أَصْحَابٍ لَهُ مِنْ قُرَيْشٍ، فَأَخَذَهُمْ أَبُو جَنْدَلٍ وَأَبُو بَصِيرٍ، وَأَخَذُوا مَا كَانَ مَعَهُمْ، وَلَمْ يَقْتُلُوا مِنْهُمْ أَحَدًا، وَإِنَّ زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ الله سَأَلَتْنِي أَنْ أُجِيرَهُمْ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُجِيرُونَ أَبَا الْعَاصِ وَأَصْحَابَهُ؟**»، فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ، فَلَمَّا بَلَغَ أَبَا جَنْدَلٍ وَأَصْحَابَهُ قَوْلُ رَسُولِ الله ﷺ فِي أَبِي الْعَاصِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا عِنْدَهُ مِنْ الْأَسْرَى رَدَّ إِلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ أَخَذَ مِنْهُمْ، حَتَّى الْعِقَالَ، وَكَتَبَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أَبِي جَنْدَلٍ وَأَبِي بَصِيرٍ يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَيَأْمُرُ مَنْ مَعَهُمَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، وَأَلَّا يَتَعَرَّضُوا لِأَحَدٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَعِيرِهَا، فَقَدِمَ كِتَابُ رَسُولِ الله ﷺ عَلَى أَبِي بَصِيرٍ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَمَاتَ وَهُوَ عَلَى صَدْرِهِ، وَدَفَنَهُ أَبُو جَنْدَلٍ مَكَانَهُ، وَأَقْبَلَ أَبُو جَنْدَلٍ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَأَمِنَتْ عِيرُ قُرَيْشٍ وَذَكَرَ بَاقِيَ الْحَدِيثِ.

تَرْجِيحُ ابنِ القَيِّمِ لِرِوَايَةِ ابْنِ عُقْبَةَ:

وَقَوْلُ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ: أَصْوَبُ، وَأَبُو الْعَاصِ إِنَّمَا أَسْلَمَ زَمَنَ الْهُدْنَةِ، وَقُرَيْشٌ إِنَّمَا انْبَسَطَتْ عِيرُهَا إِلَى الشَّامِ زَمَنَ الْهُدْنَةِ، وَسِيَاقُ الزُّهْرِيِّ لِلْقِصَّةِ بَيِّنٌ ظَاهِرٌ أَنَّهَا كَانَتْ فِي زَمَنِ الْهُدْنَةِ.

[زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٨٢-٢٨٣].

تَرْجِيحُ الأَلْبَانِي لِرِوَايَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ:

قال الألباني تعليقًا على قصة أبي بصير وأخذه لقافلة أبي العاص من فقه السيرة للغزالي:

«لا يصح؛ لأن ابن عقبة رواه عن الزهري مرسلًا، كما في الفتح (٥/ ٣٦٩)، والاستيعاب لابن عبد البر في ترجمة أبي بصير ﷺ، غير أن ابن إسحاق أخرج القصة بسياق آخر، ومن طريقه أخرجه ابن هشام في السيرة مرسلًا، وقد وصله الحاكم في المستدرك من حديث عائشة، وإسناده جيد، وله شاهد من حديث أم سلمة عند البيهقي في سننه ٩/ ٩٥». [فقه السيرة للغزالي هامش ص ٣٥١].

رواية الحاكم للسرية:

حَدَّثَنَا أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بنُ يَعْقُوبَ ثَنَا أَحْمَدُ بنُ عَبْدِ الجَبَّارِ ثَنَا يُونُسُ بنُ بَكِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ عَبَّادٍ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: لَـمَّا بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي فِدَاءِ أُسَارَاهُمْ [أُسَرَائِهِمْ] بَعَثَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ الله ﷺ فِي فِدَاءِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ بِمَالٍ، وَبَعَثَتْ فِيهِ بِقِلَادَةٍ لَهَا كَانَتْ خَدِيجَةُ أَدْخَلَتْهَا بِهَا عَلَى أَبِي الْعَاصِ حِينَ بَنَى عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَلَـمَّا رَأَى رَسُولُ الله ﷺ تِلْكَ الْقِلَادَةَ رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدَةً، وَقَالَ: «**إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا، وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَـهَا، فَافْعَلُوا**»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، فَأَطْلَقُوهُ وَرَدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا.

وَلَمْ يَزَلْ أَبُو الْعَاصِ مُقِيمًا عَلَى شِرْكِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ قُبَيْلَ فَتْحِ مَكَّةَ خَرَجَ بِتِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ بِأَمْوَالٍ مِنْ أَمْوَالِ قُرَيْشٍ، أَبْضَعُوهَا مَعَهُ، فَلَـمَّا فَرَغَ مِنْ تِجَارَتِهِ وَأَقْبَلَ قَافِلًا، لَقِيَتْهُ سَرِيَّةٌ لِرَسُولِ الله ﷺ، وَقِيلَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ هُوَ الَّذِي وَجَّهَ الْسَرِيَّةَ لِلْعِيرِ الَّتِي فِيهَا أَبُو الْعَاصِ قَافِلَةً مِنَ الشَّامِ، وَكَانُوا سَبْعِينَ وَمَائَةِ رَاكِبٍ أَمِيرُهُمْ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ، وَذَلِكَ فِي جُمَادَى الْأُولَى فِي سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الهِجْرَةِ، فَأَخَذُوا مَا فِي تِلْكَ العِيرِ مِنَ الأَثْقَالِ، وَأَسَرُوا أُنَاسًا مِنَ العِيرِ، فَأَعْجَزَهُمْ أَبُو الْعَاصِ هَرَبًا، فَلَـمَّا قَدِمَتْ السَّرِيَّةُ بِمَا أَصَابُوا [مِنْ مَالِهِ]، أَقْبَلَ أَبُو الْعَاصِ من اللَّيْلِ فِي طَلَبِ مَالِهِ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ ابْنَةِ [بِنْتِ] رَسُولِ الله ﷺ، فَاسْتَجَارَ بِهَا، فَأَجَارَتْهُ، فَلَـمَّا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى صَلاةِ الصُّبْحِ، فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ مَعَهُ.

قال ابن إسحاق: فَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ عن عروة عن عائشة ﷺ قال: صَرَخَتْ زَيْنَبُ ﷺ: **أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ أَجَرْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ**، قَالَ: فَلَـمَّا سَلَّمَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ صَلاتِهِ [الصَّلَاةِ] أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، هَلْ سَمِعْتُمْ مَا سَمِعْتُ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ كَانَ حَتَّى سَمِعْتُ الَّذِي سَمِعْتُمْ،، إِنَّهُ يُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ**»، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ، فَدَخَلَ عَلَى ابْنَتِهِ زَيْنَبَ، فَقَالَ: «**أَيْ بُنَيَّةُ، أَكْرِمِي مَثْوَاهُ، وَلَا يَخْلُصَنَّ إِلَيْكِ، فَإِنَّكِ لَا تَحِلِّينَ لَهُ**».

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ أَبِي بَكْرِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَمْرِو بنِ حَزْمٍ عَنْ عَمْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ بَعَثَ إِلَى السَّرِيَّةِ الَّذِينَ أَصَابُوا مَالَ أَبِي الْعَاصِ، فَقَالَ لَهُمْ: «**إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مِنَّا**

حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ، وَقَدْ أَصَبْتُمْ لَهُ مَالًا، فَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَرُدُّوا عَلَيْهِ الَّذِي لَهُ، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَهُوَ فَيْءُ اللهِ الَّذِي أَفَاءَ عَلَيْكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ»، فَقَالُوا: **يَا رَسُولَ اللهِ، بَلْ نَرُدُّهُ عَلَيْهِ**، قَالَ: فَرَدُّوا عَلَيْهِ مَالَهُ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي بِالْحَبْلِ، وَيَأْتِي الرَّجُلُ بِالشَّنَّةِ وَالْإِدَاوَةِ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَأْتِيَ بِالشِّظَاظِ (هي خشبة محددة الطرف تدخل في عروتي الجوالقين لتجمع بينهما عند حملها على البعير) حَتَّى رَدُّوا عَلَيْهِ مَالَهُ بِأَسْرِهِ، لَا يَفْقِدُ مِنْهُ شَيْئًا، ثُمَّ احْتَمَلَ إِلَى مَكَّةَ، فَأَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي مَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ مَالَهُ، مِمَّنْ كَانَ أَبْضَعَ مَعَهُ، ثُمَّ قَالَ: **يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! هَلْ بَقِيَ لِأَحَدٍ مِنْكُمْ عِنْدِي مَالٌ لَمْ يَأْخُذْهُ؟** قَالُوا: **لَا، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، فَقَدْ وَجَدْنَاكَ وَفِيًّا كَرِيمًا**، قَالَ: **فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَمَا مَنَعَنِي مِنَ الْإِسْلَامِ عِنْدَهُ إِلَّا تَخَوُّفًا أَنْ تَظُنُّوا أَنِّي إِنَّمَا أَرَدْتُ أَخْذَ أَمْوَالِكُمْ، فَلَمَّا أَدَّاهَا اللهُ ﷻ إِلَيْكُمْ وَفَرَغْتُ مِنْهَا أَسْلَمْتُ**.

ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي دَاوُد بْنُ الْحُصَيْنِ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: رَدَّ [عَلَيْهِ] رَسُولُ اللهِ ﷺ زينب بِالنِّكَاحِ الْأَوَّلِ لَمْ يُحْدِثْ شَيْئًا، بَعْدَ سِتِّ سِنِينَ.

ثم أن أَبَا الْعَاصِ رَجَعَ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ مَا أَسْلَمَ، فَلَمْ يَشْهَدْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ مَشْهَدًا، ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَتُوُفِّيَ فِي ذِي الْحِجَّةِ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْ عَشَرَ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ، وَأَوْصَى إِلَى الزُّبَيْرِ بنِ العَوَّامِ ﷺ. [المستدرك ٣/ ٢٨٤-٢٨٦ **كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم باب ذكر مناقب أبي العاص بن الربيع ﷺ ختن رسول الله ﷺ رقم ٥١٠٣**].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢١.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ٢/ ٦١٣-٦١٤، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ١/ ٦٥٧-٦٥٩ في حديثه عن غزوة بدر الكبرى، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٥٣-٥٥٥، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨٣، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٨٤-٨٦، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٤ + ٣٥٨-٣٦١، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٨١-٢٨٤، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٢٤١-٢٤٢، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٦٦-٢٦٧، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٣٣-١٣٨.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٤٧١-٤٧٢، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٢٤.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٤٥-٤٩، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٩٠-٩٢، فقه السرايا للعيساوي ١١٧+ ١٣١-١٣٣.

خرائط سَرِيَّةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى العِيصِ

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥٠.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من
سَرِيَّةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى الْعِيصِ

١ ـ تربية الأبناء والأقربين على التضحية والفداء:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٢ ـ القائد القدوة يتقدم الناس هو وأقرباؤه:

سبق تفصيله في غزوة بني قينقاع ٢ هـ.

٣ ـ مشروعية التعرض لأموال الحربيين والاستيلاء عليها:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٤ ـ جواز إجارة المرأة المسلمة وأمانها للرجل الكافر:

يقول د/ العيساوي: «في سرية زيد بن الحارثة ﷺ إلى العيص من الفقه: جواز إجارة المرأة وأمانها للرجل، حيث إن الإسلام لا يعارض طبيعة الحياة، فلا يفرض على جماعة أن تعيش وراء ستار حديدي منقطعة الصلات أو منعزلة عن الجماعات الأخرى في أنحاء العالم، وإنما يقر بوجود علاقات شتى مع مختلف البلدان في حالتي السلم والحرب؛ لأن الإسلام دعوة تهدف إلى التغلغل في أي بقعة من الكرة الأرضية وإلى إقامة الروابط بين الشعوب.

وإذا كان لكل نظام أو عصر أسلوبه في حماية شخص الأجنبي عن بلده، فإن الإسلام جرى على منح الأجنبي في دار الإسلام أو دار الحرب ما يسمى بالأمان، سواء أكان بطريق شفاهي أم كتابي، ولأي غرض، ديني أو دنيوي حتى يسهل امتزاج الشعوب وانتقال المعارف وتمحيص فكرة الدين.

ونظام الأمان في الإسلام يتسع لكل أنواع الحماية والرعاية المعروفة حديثًا لشخص أجنبي وماله في بلاد الإسلام، أو لعقد الصلات السلمية بين المسلمين وغيرهم.

[آثار الحرب في الفقه الإسلامي ـ د/ وهبة الزحيلي ص ٢٠٤].

والأمان إذا أُعطي لأهل الحرب، حرم قتلهم ومالهم والتعرض لهم، ويصح الأمان من كل مسلم بالغ عاقل مختار، ذكرًا كان أو أنثى، حرًّا كان أو عبدًا، وبه قال جمهور الفقهاء.

[المغني لابن قدامة ٩/ ١٩٥، وشرح السير الكبير ١/ ٢٥٢، وفتح القدير ٤/ ٢٩٨، والوجيز ٢/ ١٩٤].

والدليل على ذلك ما يلي:

١ـ من الكتاب: قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة].

والنص عام يشمل كل مسلم، قال ابن كثير في تفسيرها: والغرض أن مَنْ قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح، أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أمانًا أُعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى داره ومأمنه ووطنه. [تفسير القرآن لابن كثير ٤/ ١١٩، وتفسير القرطبي ٨/ ٧٧].

٢ ـ من السنة: قال رسول الله ﷺ: «**ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ، وَمَنْ تَوَلَّى قَوْمًا بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ**». [البخاري في فضائل المدينة (١٨٧٠)، وفي الاعتصام بالكتاب (٧٣٠٠)، ومسلم في الحج (١٣٧١)، وأبو داود في المناسك (٢٠٣٤)، ومسند أحمد ٢/ ٣٠٤، ٤٢٨ رقم ١٠٣٧، ١٢٩٨، ١٥/ ٩١ رقم ٩١٧٣، ونيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٢٧. الصرف: التوبة أو الحيلة].

وفي رواية: «**الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ، وَمُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ ...**». [أبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح، ومعنى المسلمون تتكافأ دماؤهم، أي: يتساوون في القصاص].

والأحاديث بهذا كثيرة، وقد سبق معنا إقرار الرسول ﷺ لأمان ابنته زينب ﵂ في الوصف التاريخي لسرية زيد بن حارثة ﵁.

وكذلك أنفذ الرسول ﷺ أمان أم هانئ ﵂، لرجل أو رجلين من أحمائها، فقد ذهبت عام الفتح إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، زعم ابن أبي علي ﵁ أنه قاتل رجلًا قد أجرته، فقال رسول الله ﷺ: فقد أجرنا مَنْ أجرتِ يا أم هانئ. [عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ٤/ ٦٣].

وفي شرح السير الكبير: «ولهذا يصح أمان الحرة المسلمة؛ لأنها من أهل النصرة، إلا أنه ليس لها بنية صالحة لمباشرة القتال، والأمان نصرة بالقول، وبنيتها تصلح لذلك، ألا ترى أنها تجاهد بمالها؛ لأن مالها يصلح لذلك كمالِ الرجل. [شرح السير الكبير للشيباني ٤/ ٦٣].

وقد استدل على صحة أمانها بما تقدم من إجارة زينب وأم هانئ ﵄.

وعن عمر ﵁ قال: «إن كانت المرأة لتجير على المسلمين فيجوز ذلك، أي: تُعطي الأمان للمشركين»، وفي رواية: لتأخذ، أي: تأخذ العهد بالصلح والأمان، وهكذا قالت عائشة ﵂: إن كانت لتأخذ على المسلمين [المصدر نفسه ١/ ٢٥٥]». [فقه السرايا للعيساوي ١٣١-١٣٣].

٥ ـ تقرير مبدأ المساواة:

يقول أ/ وجدي: «وقول النبي ﷺ: (**يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ**) تقرير لمبدأ المساواة، الذي لم يكن معروفًا لا عند عرب الجاهلية، ولا عند اليونانيين ولا الرومانيين ممن بلغوا في القدم درجات عالية في المدنية، فقد

كان لا يجير عندهم إلا كبار الرجال ذوو الجاه والمكانة المالية، أما أدنى القوم فقد كان لا يأبه بهم أحد، بل كان أهل الطبقة الدنيا في المدنية الرومانية يدخلون في حماية السراة، حتى لا يكونوا عُرضة للعدوان، وإلا بطش بهم الأقوياء». [السيرة المحمدية لوجدي ٢٢٨].

٦ ـ بيان حكم المرأة المسلمة المهاجرة وبقاء زوجها الكافر:

يقول د/ رزق الله: «استدل بقصة زينب ﵂ وابن الربيع ﵁ على أن المرأة المسلمة إذا هاجرت إلى رسول الله ﷺ، وزوجُها كافر، مقيم بدار الكفر، فإن الهجرة تفرق بينه وبين زوجته، إلا أن يَقدم زوجُها مسلمًا مهاجرًا قبل أن تقضي عدتها، فإن الهجرة في هذه الحالة لا تفرق بينهما، وكذلك الحكم إذا أسلم الزوج بعد انقضاء العدة ولو طالت المدة، فهما على نكاحهما الأول، إذا اختار ذلك ما لم تتزوج»

[ينظر: فقه السنة للشيخ السيد سابق ٢/ ٢٣٩-٢٤٠ ففيه تفصيل هام]. [السيرة النبوية لرزق الله ٤٧٢].

٧ ـ الحرص على انضمام أصحاب الوجاهة للدعوة:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر اهتمام النبي ﷺ بدعوة الرجال الذين يرى لهم من مكارم الأخلاق ما يؤهلهم للدخول في الإسلام، ومن ذلك اهتمامه بأبي العاص بن الربيع، وكانت دعوته إياه إلى الإسلام عن طريق المعاملة الكريمة حيث تشفع له عند المرابطين الذين استولوا على جميع ما معه من تجارة.

وهذه المعاملة الكريمة من رسول الله ﷺ لأبي العاص كان لها أبلغ الأثر في انجذابه إلى الإسلام.

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٥٦].

٨ ـ التجرد من الهوى:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر دليل على قوة إيمان أصحاب رسول الله ﷺ وتجردهم من الهوى، حيث قبلوا وساطة النبي ﷺ لأبي العاص ﵁، فردوا عليه كل ما أخذوا منه من غير تكلؤ ولا تردد، ولاشك أن الذين أظهروا الإسلام أمام عتاة الكفر وتحملوا قيودهم وتعذيبهم من أجل الله تعالى لن يغريهم بريق الدنيا وإن قوي لمعانه». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٥٦].

٩ ـ المحافظة على الأمانات وردها:

يقول د/ الحميدي: «ظهر في هذا الخبر نماذج من مكارم الأخلاق التي كان يتمتع بها أبو العاص بن الربيع ﵁، فمن ذلك أنه قام برد الأمانات التي تحملها لقريش مع أنه كان يريد مفارقتهم، وكان معتزًا بالإسلام مدركًا أنه دين الأخلاق والمعاملة الحسنة، فلذلك لما قيل له: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين؟ قال: بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٧/ ١٥٧].

١٠ ـ دروس سبق تفصيلها:

ينظر الدروس المستفادة من السرايا قبل بدر الكبرى وبين بدر وأحد.

الفصل العاشر

سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إلَى الطَّرَفِ (١)

جمادى الآخرة ٦هـ/أكتوبر (تشرين أول) ٦٢٧م/ هاتور ٣٤٤ قبطي

المبحث الأول

عرض سَرِيَّةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إلَى الطَّرَفِ

تاريخ السرية:

يقول الصالحي: «فِي جُمَادَى الآخِرَةِ سَنَةَ سِتٍّ». [سبل الهدى والرشاد ٦/ ١٣٩].

سبب السرية وأحداثها:

يقول أ/ باشميل: «وهي دورية عسكرية قام بها زيد بن حارثة ﷺ ومعه خمسة عشر رجلًا إلى ديار بني ثعلبة، وهم بطن من غطفان الذين شاركوا في الهجوم على المدينة في غزوة الأحزاب.

وقد وصلت دورية زيد بن حارثة منطقة (الطرف) التي بها منازل بني ثعلبة هؤلاء والتي تبعد عن المدينة ستة وثلاثين ميلًا.

غير أن رجالًا دورية زيد بن حارثة ﷺ لم يلاقوا أي صدام مع بني ثعلبة؛ لأن هؤلاء الأعراب كانوا قد هربوا من ديارهم إلى رؤوس الجبال بمجرد علمهم بتحرك هذه الدورية المسلحة نحو ديارهم.

وقد استولى زيد بن حارثة ﷺ ورجال دوريته الصغيرة على عشرين بعيرًا من أباعر هذه القبيلة، فأخذتها الدورية غنيمة وعادت بها إلى المدينة بعد غيبة قصيرة لم تزد على أربع ليال.

قال الواقدي: حَدَّثَنِي أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ اللَّيْثِيُّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ مَنَّاحٍ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ إلَى الطَّرَفِ إلَى بَنِي ثَعْلَبَةَ، فَخَرَجَ فِي خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا، حَتَّى إذَا كَانُوا بِالطَّرَفِ أَصَابَ نَعَمًا وَشَاءً، وَهَرَبَتْ الْأَعْرَابُ وَخَافُوا أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ سَارَ إلَيْهِمْ، فَانْحَدَرَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ حَتَّى صَبَّحَ الـمَدِينَةَ بِالنَّعَمِ، وَخَرَجُوا فِي طَلَبِهِ حَتَّى أَعْجَزَهُمْ فَقَدِمَ بِعِشْرِينَ بَعِيرًا، وَلَمْ يَكُنْ قِتَالٌ فِيهَا، وَإِنَّمَا غَابَ أَرْبَعَ لَيَالٍ.

حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ أَبِي رُشْدٍ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ مَنْ حَضَرَ السَّرِيَّةَ قَالَ: أَصَابَهُمْ بَعِيرَانِ أَوْ حِسَابُهُمَا مِنْ الْغَنَمِ، فَكَانَ كُلُّ بَعِيرٍ عَشْرًا مِنْ الْغَنَمِ، وَكَانَ شِعَارُنَا: أَمِتْ أَمِتْ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٥].

---

(١) قال ابن سعد: هو ماء قريب من المراض دون النُّخَيْل على ستة وثلاثين ميلًا من المدينة طريق البَقَرة على المَحَجَّة. الطبقات ٢/ ٦٣.

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢١.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٥٥، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨٤، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٨٤، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤١٦، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٣، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٦٧ -٢٦٨، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٣٩.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٤٧٢.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٤٩-٥٠، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٩٢، فقه السرايا للعيساوي ١٣٧ + ١٤٦.

خرائط سَرِيَّةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى الطَّرَفِ

سرية زيد بن حارثة :

- إلى بني سليم بالجَمُوم ، ربيع الأول ٦ هـ
- إلى العيص ، جمادى الأولى ٦ هـ
- إلى الطرف ، جمادى الآخرة ٦ هـ
- إلى حِسْمَى ، جمادى الآخرة ٦ هـ

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥٠.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من
سَرِيَّةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى الطَّرَفِ

١ ـ تربية الأبناء والأقربين على التضحية والفداء:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٢ ـ القائد القدوة يتقدم الناس هو وأقرباؤه:

سبق تفصيله في غزوة بني قينقاع ٢ هـ.

٣ ـ أهمية اتخاذ الشعار في الحرب:

يقول د/ العيساوي: «دل قول من حضر سرية زيد ﷺ إلى الطرف: (كان شعارنا: أمت، أمت) على مشروعية استعمال الشعار في الحرب، وأنه من الأمور المهمة التي تدل على حسن التدريب ودقة النظام». [فقه السرايا للعيساوي ١٤٦-١٤٨].

وقد سبق تفصيله في المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

٤ ـ مشروعية التعرض لأموال الحربيين الاستيلاء عليها:

وقد سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٥ ـ هدف السرية:

يقول أ/ باشميل: «ويظهر أن الهدف من إرسال هذه الدورية المسلحة هو إرهاب الأعراب الوثنيين وإشغالهم وترويعهم وجعلهم في حالة خوف دائم لا يستطيعون معه التفكير في القيام بغزو المدينة كما كانوا يفعلون في السابق.

وفعلًا حققت هذه الدورية أهدافها إذ (على قلة عدد رجالها) فرت من أمامها قبيلة بأكملها يُقدر عدد رجالها بعدة مئات قد تتعدى الألف، وبث الدوريات العسكرية المستمرة هو من سياسة النبي القائد ﷺ الناجحة، حيث كانت دورياته العسكرية التي تسمى (في عرف المؤرخين القدامى) بالسرايا تجوس باستمرار خلال ديار القبائل الوثنية المعادية حتى رست قواعد الإسلام وشمخ بناء دولته في السماء عاليًا». [صلح الحديبية لباشميل ٤٩-٥٠].

٦ ـ دروس سبق تفصيلها:

ينظر الدروس المستفادة من السرايا قبل بدر الكبرى وبين بدر وأحد.

الفصل الحادي عشر

سَرِيَّةُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إلَى حِسْمَى (جُذام)

جمادى الآخرة ٦هـ/أكتوبر (تشرين أول) ٦٢٧م/ هاتور ٣٤٤ قبطي

المبحث الأول

عرض سَرِيَّةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إلَى حِسْمَى (جُذام)

التعريف بحسمى:

يقول د/ بريك: «حِسْمَى ـ بكسر الحاء المهملة، وسكون السين المهملة، وفتح الميم ـ مقصور على بناء فِعْلى، يجوز أن يكون أصله من الحسم، وهو المنع.

قال ابن سيده: حِسْمَى موضع باليمن، وقيل: قبيلة جذام.

وقال البكري: قال عنترة:

سيأتيكم عني وإن كنت نائيًا دخان العلندي دون[2] بيتي مود
قصائد من قيل امرئ يحتديكم[1] وأنتم بحُسمى فارتدوا وتقلَّدوا

يخاطب بني فزارة، فدلَّ على أنَّ حسمى من ديارهم، وفي رسم ومران: إنَّ حسمى من الجزيرة في شعر ابن أحمر:

فلله من يسرى ونجران دونه إلى دير حسمى أو إلى دير ضمضم

قال: ودير «حسمى»، ودير ضمضم بالجزيرة، فدل هذا التفسير، ودلَّ قول عنترة أنَّ حسمى موضع آخر في غير ديار جذام.

وقال ابن السكيت: حسمى لجذام جبال وأرض بين أيلة، وجانب تيه بني إسرائيل الذي يلي أيلة وبين أرض بني عذرة من ظهر حرة نِهْيا، فذلك كله حسمى، قال كثير:

سيأتي أمير المؤمنين، ودونه جماهير حسمى قورها وحزونها[3]

وقال ابن الأعرابي: «إذا لم يذكر كثير غيقة فحسمى، وإذا ذكر غيقة فحسناً؟»[4].

وذكر ابن دريد وغيره: «أنَّ آخر ماء نضب من ماء الطوفان حِسْمى، ويُقال: إنَّ الماء بقي بحسمى بعد نضوب ماء الطوفان ثمانين سنة، وبقيت منه بقية إلى اليوم فهو أخبث ماء، فهو من مياه جذام، وهو

---

(١) **يحتديكم**: يريد يطلبنكم. المصدر السابق.

(٢) **العلندي**: جبل لم يُر قط إلا والدخان خارج من رأسه. معجم ما استعجم: ٢/ ٤٤٧.

(٣) **يعني**: جبلها وسهلها.

(٤) قال ابن حبيب: «حسنا جبل يقع قرب ينبع». معجم البلدان ٢/ ٢٥٩.

الصحيح، وفيه أغار الهُنَيْد الصَّلعيُّ، وصليع بطن من جذام، على دحية الكلبي، وقد نزل واديًا من أوديته، يُقال له: شِيَار، وهو منصرف من عند قيصر، حين بعثه النَّبِيُّ ﷺ، فكان ذلك سبب بعثه رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ﷺ في سرية إلى حِسْمى، فأصاب من جذام، وقتل الهنيد بالفضافض (بفتح أوله وثانيه، بعدهما مثلهما، على لفظ الجمع: أرض لجذام. معجم ما استعجم ٣/ ١٠٢٥) من ديارهم.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «**لتخرجنكم الروم منها كفرًا كفرًا إلى سُنْبُك** (**السُّنْبُك**: الأرض الغليظة القليلة الخير، شبه الأرض في غلظها بسُنْبُك الدَّابة وهو طرف حافرها. القاموس المحيط، مادة (سنبك)، والنهاية: ٢/ ١٩٤) **من الأرض، قيل: وما ذاك السُّنْبُك؟ قال: حِسْمى جذام**».

وفي الحديث: «**بشِّر ركيب السُعاة بقطعٍ من جهنَّم مثل قور حِسْمى**».

قال القتبي: وحسمى: بلد جذام.

وقال في الصحاح: «حِسْمى أرض بالبادية غليظة لا خير فيها، تنْزلها جذام، وفيها جبال شواهق ملس الجوانب، لا يكاد القتام (**القتام**: الغبار. القاموس، واللسان، مادة (قتم). قلت: والمقصود به هنا السحاب، أو الضباب، لأنه يكثر في الجبال المرتفعة) يُفارقها».

وفي أخبار المتنبي وحكاية سيره من مصر إلى العراق قال: حسمى أرض طيبة تؤدى لين النخلة من لينها، وتنبت جميع النبات، مملوءة جبالًا في كبد السماء متناوحة (**التناوح**: التقابل، ومتناوحة أي متقابلة. القاموس: تنح)، ملس الجوانب، إذا أراد الناظر النظر إلى قُلَّة أحدها قلَّ عنقه حتَّى يراها بشدة، ومنها ما لا يقدر أحد أن يراه ولا يصعده، ولا يكاد القتام يفارقها، ولهذا قال النابغة:

فأصبح عاقلًا بجبال حسمى دقاق التُّرب محتزم القتام

قال ياقوت: «واختلف الناس في تفسيره ولم يعلموه، ويكون مسيرة ثلاثة أيام في يومين، يعرفها مَنْ رآها مِن حيث يراها؛ لأنَّها لا مثل لها في الدنيا، ومن جبال حِسمى يُعرف بـ «إرم» عظيم العلو، تزعم أهل البادية أنَّ فيه كرومًا وصنوبرًا، وأهل تبوك يرون جبل حسمى في غربيهم وشرقيهم، وأرض حسمى بينها وبين وادي القرى ليلتان.

قال ابن سعد: هي وراء وادي القرى.

وقال محمَّد مرداد: «هي موضع وراء وادي القرى، متصل بالحجر تمامًا من طريق الإبل، ولا يزال موجودًا للآن ومعروفًا، ومن تسلق أعلى نخلة في تبوك يرى جبل حسمى، وكذلك المتسلق لأعلى شجرة في العُلا أو المتسنم لأعلى ذروة في جبال وادي القرى يرى حسمى، وقد مررنا به في رحلتنا ولكننا لم نستطع تسلقه مع أننا أقمنا بـ «حقل»، وأيلة أيامًا عديدة، والسبب في ذلك راجع إلى كثرة العجاج وشدَّة

الريح، إذ كلَّما عزمنا على تسنمه تشتد بنا الريح فنهبط قسرًا، وقد ذكر حسمى أكثر من أربعين مؤرخًا ورحَّالة، ويزعم البدو الرُّحَّل وأهل الماشية هناك أن بقمَّته وحشرجه مياه متعفِّنة لا يقرب منها أحد».

[ينظر: الصحاح، ولسان العرب، والقاموس، مادة (حسم). والبكري: معجم ٢/ ٤٤٦-٤٤٨، والحموي: معجم ٢/ ٢٥٨-٢٥٩، ومدائن صالح ـ محمَّد عبد الحميد مرداد ٤٨ – ٤٩]. [غزوة مؤتة لبريك ٧٣-٧٦].

تاريخ السرية:

أَرَّخ لها الواقدي، وابن سعد بأنَّها كانت في جمادى الآخرة سنة ست من الهجرة، وقطع به اليعمري، وقال به المقريزي، والشامي، وذكرها ابن خياط في سراياه ﷺ أنها كانت سنة سبع.

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٨٠].

سبب السرية:

أجمع أهل المغازي على أنَّ السبب الذي هاج هذه السرية إلى جذام هو ذلك الاعتداء السافر الذي تعرَّض له سفير النَّبِيِّ ﷺ إلى هرقل وحامل كتابه إليه دحية بن خليفة الكلبي ﷺ، بينما كان مقبلًا من عند هرقل الذي أجازه بمالٍ وكساه.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهَا كَمَا حَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ رِجَالٍ مِنْ جُذَامَ كَانُوا عُلَمَاءَ بِهَا، إنَّ رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدٍ الْجُذَامِيَّ، لَـمَّا قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ بِكِتَابِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَاسْتَجَابُوا لَهُ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَدِمَ دِحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ الْكَلْبِيُّ مِنْ عِنْدِ قَيْصَرَ صَاحِبِ الرُّومِ، حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ الله ﷺ إلَيْهِ وَمَعَهُ تِجَارَةٌ لَهُ، حَتَّى إذَا كَانُوا بِوَادٍ مِنْ أَوْدِيَتِهِمْ يُقَالُ لَهُ شَنَارُ، أَغَارَ عَلَى دِحْيَةَ بْنِ خَلِيفَةَ الْهُنَيْدُ بْنُ عُوصٍ وَابْنُهُ عُوصُ بْنُ الْهُنَيْدِ الضُّلَعِيَّانِ، وَالضُّلَيْعُ: بَطْنٌ مِنْ جُذَامَ، فَأَصَابَا كُلَّ شَيْءٍ كَانَ مَعَهُ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦١٢].

وقال الواقدي: حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَقْبَلَ دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ ﷺ مِنْ عِنْدِ قَيْصَرَ، قَدْ أَجَازَ دِحْيَةَ بِمَالٍ وَكَسَاهُ كُسًى، فَأَقْبَلَ حَتَّى كَانَ بِحِسْمَى، فَلَقِيَهُ نَاسٌ مِنْ جُذَامٍ فَقَطَعُوا عَلَيْهِ الطَّرِيقَ وَأَصَابُوا كُلَّ شيء مَعَهُ، فَلَمْ يَصِلْ إِلَى المَدِينَةِ إِلَّا بِسَمَلٍ (الخلق من الثياب)، فَلَمْ يَدْخُلْ بَيْتَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَابِ رَسُولِ الله ﷺ فَدَقَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ هَذَا؟**» فَقَالَ: دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ، قَالَ: «**اُدْخُلْ**»، فَدَخَلَ، فَاسْتَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ عَمَّا كَانَ مِنْ هِرَقْلَ، حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى كُنْتُ بِحِسْمَى فَأَغَارَ عَلَيَّ قَوْمٌ مِنْ جُذَامٍ، فَمَا تَرَكُوا مَعِي شَيْئًا حَتَّى أَقْبَلْت بِسَمَلِي، هَذَا الثَّوْبَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٥-٥٥٦].

فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى حِسْمَى. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٨٤].

«وهي حملة عسكرية تأديبية قام بها إلى منطقة (حسمى) خلف وادي القرى زيد بن حارثة رضي الله عنه لتأديب قبيلة جذام (بضم أوله) قبيلة قحطانية عظيمة وهي من كهلان، كانوا من العناصر اليمنية التي هاجرت من مأرب بعد انهدام السد) الواقعة ديارها قرب تلك المنطقة.

وسبب هذه الحملة العسكرية التأديبية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في تلك السنة قد أرسل دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه برسالة إلى الملك قيصر يدعوه فيها إلى الإسلام.

فأكرم الملك قيصر دحية الكلبي رضي الله عنه وكساه وأجازه، فقفل دحية من الشام عائدًا إلى المدينة، إلا أنه لما وصل إلى منطقة (حسمى) على الحدود الشمالية الغربية لجزيرة العرب هاجمه الهُنَيد (بضم الهاء) ابن عارض وابنه عارض في أناس من جذام فقطعوا عليه الطريق فسلبوه كل ما معه، ولم يتركوا عليه إلا ثوبًا رثًّا خَلِقًا.

غير أن نفرًا من بني الضُّبيب (من قبيلة جذام نفسها ممن أسلموا) لما بلغهم ما فعل الهنيد وابنه برسول رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية الكلبي نفروا إليها واستعادوا منها ومن معهما (بالقوة) كل ما أخذوه من دحية الكلبي رضي الله عنه وأعادوه إليه.

فواصل دحية رضي الله عنه سيرة حتى وصل المدينة، وهنا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما فعل به الهنيد بن عارض وعصابته من قطاع الطرق.

فقرر النبي صلى الله عليه وسلم إرسال حملة عسكرية كبيرة قوامها (خمسمائة رجل) لتجوس خلال ديار المعتدين على دحية الكلبي رضي الله عنه، وتُغير عليهم لتؤدبهم وتجعلهم عبرة لمن اعتبر. [صلح الحديبية لباشميل ٥٠-٥٢].

استنقاذ دحية رضي الله عنه ومتاعه من القوم:

قال الطبراني: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بن دَاوُدَ التُّوزِيُّ، ثنا الْحَسَنُ بن حَمَّادٍ الْبَجَلِيُّ سَجَّادَةٌ، ثنا يَحْيَى بن سَعِيدٍ الأُمَوِيُّ، عَنْ مُحَمَّدِ بن إِسْحَاقَ، عَنْ حُمَيْدِ بن مَازِنٍ، عَنْ نَعْجَةَ بن زَيْدٍ الْجُذَامِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: وَفَدَ رِفَاعَةُ بن زَيْدٍ الْجُذَامِيُّ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا فِيهِ: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ لِرَفَاعَةَ بن زَيْدٍ، إِنِّي بَعَثْتُهُ إِلَى قَوْمِهِ عَامَّةً وَمَنْ دَخَلَ فِيهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ، فَمَنْ آمَنَ فَفِي حِزْبِ اللهِ وَفِي حِزْبِ رَسُولِهِ** صلى الله عليه وسلم، **وَمَنْ أَدْبَرَ فَلَهُ أَمَانُ شَهْرَيْنِ**»، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ أَجَابُوهُ، ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ الْحَرَّةَ، حَرَّةَ الرَّجْلاءِ (الصلبة الشديدة. وقال غيره: هي التي أعلاها أسود وأسفلها أبيض، والرجلاء الصلبة الخشنة لا تعمل فيها خيل ولا إبل ولا يسلكها إلاَّ راجل، وهو علم لحَرَّة في ديار بني القين بن جسر، بين المدينة والشام. الحموي: معجم: ٢/ ٢٤٦، ٣/ ٢٨، والبلادي: معجم: ٩٧. غزوة مؤتة لبريك ٨٥)، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَقْبَلَ دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ مِنْ عِنْدِ قُرَيْظَةَ حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، حَتَّى إِذَا كَانَ بِوَادٍ مِنْ أَوْدِيَتِهِمْ، يُقَالُ لَهُ: شِنَانُ وَمَعَهُ تِجَارَةٌ لَهُ أَغَارَ عَلَيْهِ الْهُنَيْدُ بن عُوَيْصٍ، وَأَبُوهُ الْعُوَيْصُ الضُّبَعِيُّ بَطْنٌ مِنْ جُذَامٍ وَأَصَابُوا كُلَّ

شَيْءٍ مَعَهُ، ثُمَّ إِنَّ نَفَرًا مِنْ قَوْمِ رِفَاعَةَ نَفَرُوا إِلَيْهِ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فِيمَنْ أَقْبَلَ النُّعْمَانُ بن أَبِي جِعَالٍ حَتَّى لَقَوْهُمْ فَاقْتَتَلُوا، وَرَمَى قُرَّةُ بن أَشْقَرَ الضَّلَعِيُّ النُّعْمَانَ بن أَبِي جِعَالٍ بِحَجَرٍ فَأَصَابَ كَعْبَهُ وَدَمَّاهُ، وَقَالَ: أَنَا ابْنُ أُثَالَةَ، ثُمَّ رَمَاهُ النُّعْمَانُ بن أَبِي جِعَالٍ بِسَهْمٍ فَأَصَابَ رُكْبَتَهُ وَقَالَ: أَنَا ابْنُ إِقَالَةَ، وَقَدْ كَانَ حَسَّانُ بن مِلَّةَ الضَّبِّيُّ صَحِبَ مَعَهُ دِحْيَةَ الْكَلْبِيَّ قَبْلَ ذَلِكَ فَعَلَّمَهُ أُمَّ الْكِتَابِ، واسْتَنْقَذُوا مَا فِي أَيْدِيهِمْ فَرَدُّوهُ عَلَى دِحْيَةَ، ثُمَّ إِنَّ دِحْيَةَ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُمْ، واسْتَسْقَاهُ دَمَ الْهُنَيْدِ وَأَبِيهِ عُوَيْصٍ وَذَلِكَ الَّذِي هاجَ زَيْدٌ وَجُذَامُ، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ زَيْدَ بن حَارِثَةَ ﷺ وبَعَثَ مَعَهُ جَيْشًا، وَقَدْ تَوَجَّهَتْ غَطَفَانُ وَجُذَامُ وَوَائِلٌ، وَمَنْ كَانَ مِنْ سَلْمَانَ، وَسَعْدِ ابن هُذَيْلٍ حِينَ جَاءَهُمْ رِفَاعَةُ بِكِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَ الْحَرَّةَ حَرَّةَ الرَّجْلاءِ وَرِفَاعَةُ بِكُرَاعِ الْغَمِيمِ وَمَعَهُ فَارِسٌ مِنْ بني الضُّبَيْبِ، وَسَائِرُ بني الضُّبَيْبِ بِوَادِي مَدَارِقَ مِنْ نَاحِيَةِ الْحَرَّةِ.

[مجمع الزوائد ٥/ ٥٥٩-٥٦٠ في الجهاد (٩٥٩٢)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢٠/ ٣٤٠-٣٤١ رقم ٨٠١] متصلًا هكذا ومنقطعًا مختصرًا عن ابن إسحاق لم يجاوزهم، وفي المتصل جماعة لم أعرفهم وإسنادهما إلى ابن إسحاق جيد].

وقال الواقدي: وَقَدْ كَانَ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ الْجُذَامِيُّ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَافِدًا، فَأَجَازَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَقَامَ بِالـمَدِينَةِ، ثُمَّ سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَكْتُبَ مَعَهُ كِتَابًا، فَكَتَبَ مَعَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، لِرِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ إِلَى قَوْمِهِ عَامَّةً وَمَنْ دَخَلَ مَعَهُمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله وَإِلَى رَسُولِهِ، فَمَنْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ فَهُوَ مِنْ حِزْبِ الله وَحِزْبِ رَسُولِهِ، وَمَنْ ارْتَدَّ فَلَهُ أَمَانُ شَهْرَيْنِ**».

فَلَـمَّا قَدِمَ رِفَاعَةُ عَلَى قَوْمِهِ بِكِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَرَأَهُ عَلَيْهِمْ فَأَجَابُوهُ وَأَسْرَعُوا، وَنَفَذُوا إِلَى مُصَابِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ فَوَجَدُوا أَصْحَابَهُ قَدْ تَفَرَّقُوا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٧].

وقال الواقدي: فَحَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ مُحَمَّدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ شَيْخًا مِنْ سَعْدِ هُذَيْمٍ كَانَ قَدِيمًا يُخْبِرُ عَنْ أَبِيهِ يَقُولُ: إِنَّ دِحْيَةَ لَـمَّا أُصِيبَ ـ أَصَابَهُ الْهُنَيْدُ بْنُ عَارِضٍ وَابْنُهُ عَارِضُ بْنُ الْهُنَيْدِ، وَكَانَا وَالله نَكِدَيْنِ مَشْؤُومَيْنِ فَلَمْ يُبْقُوا مَعَهُ شَيْئًا، فَسَمِعَ بِذَلِكَ نَفَرٌ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ فَنَفَرُوا إِلَى الْهُنَيْدِ وَابْنِهِ، فَكَانَ فِيمَنْ نَفَرَ مِنْهُمْ النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي جُعَالٍ فِي عَشَرَةِ نَفَرٍ وَكَانَ نُعْمَانُ رَجُلَ الْوَادِي ذَا الْجَلَدِ وَالرِّمَايَةِ، فَارْتَمَى النُّعْمَانُ وَقُرَّةُ بْنُ أَبِي أَصْفَرَ الصَّلْعِيُّ، فَرَمَاهُ قُرَّةُ فَأَصَابَ كَعْبَهُ فَأَقْعَدَهُ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ انْتَهَضَ النُّعْمَانُ فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ عَرِيضِ السَّرْوَةِ (السهم العريض النصل)، فَقَالَ: خُذْهَا مِنْ الْفَتَى! فَخَلَّ السَّهْمُ فِي رُكْبَتِهِ فَشَنَّجَهُ وَقَعَدَ، فَخَلَّصُوا لِدِحْيَةَ مَتَاعَهُ، فَرَجَعَ بِهِ سَالِمًا إِلَى الْمَدِينَةِ.

قَالَ مُوسَى: فَسَمِعْت شَيْخًا آخَرَ يَقُولُ إِنَّمَا خَلَّصَ مَتَاعَ دِحْيَةَ رَجُلٌ كَانَ صَحِبَهُ مِنْ قُضَاعَةَ، هُوَ الَّذِي كَانَ اسْتَنْقَذَ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ أُخِذَ مِنْهُ رَدَّهُ عَلَى دِحْيَةَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٦-٥٥٧].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ (أي ما فعله القوم بدحية ﷺ) قَوْمًا مِنْ الضُّبَيْبِ رَهْطُ رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ مِمَّنْ كَانَ أَسْلَمَ وَأَجَابَ، فَنَفَرُوا إِلَى الْهُنَيْدِ وَابْنِهِ، فِيهِمْ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي جِعَالٍ، حَتَّى لَقُوهُمْ،

فَاقْتَتَلُوا، وَانْتَمَى يَوْمَئِذٍ قُرَّةُ بْنُ أَشْقَرَ الضِّفَاوِيُّ ثُمَّ الضُّلَعِيُّ، فَقَالَ: أَنَا ابْنُ لُبْنَى، وَرَمَى النُّعْمَانَ بْنَ أَبِي جِعَالٍ بِسَهْمٍ فَأَصَابَ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ حِينَ أَصَابَهُ: خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ لُبْنَى، وَكَانَتْ لَهُ أُمٌّ تُدْعَى لُبْنَى، وَقَدْ كَانَ حَسَّانُ بْنُ مَلَّةِ الضُّبَيْبِيُّ قَدْ صَحِبَ دِحْيَةَ بْنَ خَلِيفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ، فَعَلَّمَهُ أُمَّ الْكِتَابِ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيُقَالُ قُرَّةُ بْنُ أَشْقَرَ الضَّفَارِيُّ، وَحَيَّانُ بْنُ مِلَّةِ. [السيرة لابن هشام ٢/ ٦١٢-٦١٣].

تحرك زيد ﷺ إلى جذام:

يقول أ/ باشميل: «وقد أعطى النبي ﷺ قيادة هذه الحملة التأديبية لمولاه زيد بن حارثة ﷺ، فتحرك زيد ﷺ برجال هذه الحملة نحو الشمال، ومعهم دحية الكلبي ﷺ نفسه.

ولكي لا يعلم الأعداءُ بخبر هذه الحملة صار القائد زيد ﷺ يسير الليل ويكمن النهار، وكان دليله من بني عذرة (قبيلة عظيمة من قضاعة القحطانيين).

وما زال زيد ﷺ يسير بحملته حتى باغت القوم وأغار عليهم مع (عماية الصبح)، وأحاط رجال حملته بهم من كل جانب فقتلوا منهم عددًا غير قليل من بينهم الهنيد وابنه عارض.

ثم استولى زيد ﷺ ورجاله على ماشيه قوم الهنيد ونعمهم ونسائهم وصبيانهم.

فأخذوا من النعم ألف بعير ومن الشاة خمسة آلاف شاة، ومن السبي مائة من النساء والصبيان.

[صلح الحديبية لباشميل ٥٢].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنْ رِجَالٍ مِنْ جُذَامَ، قَالَ: فَاسْتَنْقَذُوا مَا كَانَ فِي يَدِ الْهُنَيْدِ وَابْنِهِ، فَرَدُّوهُ عَلَى دِحْيَةَ ﷺ، فَخَرَجَ دِحْيَةُ حَتَّى قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُ، وَاسْتَسْقَاهُ دَمَ الْهُنَيْدِ وَابْنِهِ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ، وَذَلِكَ الَّذِي هَاجَ غَزْوَةَ زَيْدٍ جُذَامَ، وَبَعَثَ مَعَهُ جَيْشًا، وَقَدْ وَجَّهَتْ غَطَفَانُ مِنْ جُذَامَ وَوَائِلٌ وَمَنْ كَانَ مِنْ سَلَامَانَ وَسَعْدُ بْنُ هُذَيْمٍ، حِينَ جَاءَهُمْ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا الْحَرَّةَ؛ حَرَّةَ الرَّجْلَاءِ، وَرِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ بِكُرَاعِ رِبَّةَ (بالراء وتشديد الباء ـ بلفظ ربَّة البيت أو ربَّة المال، أي: صاحبته، في ديار جذام. والكراع هو: الجانب المستطيل من الحرَّة. ينظر: الحموي: معجم ٤/ ٤٤٣، وابن الأثير: نهاية ٤/ ١٥. غزوة مؤتة لبريك ٩٠) لَمْ يَعْلَمْ، وَمَعَهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ وَسَائِرُ بَنِي الضُّبَيْبِ بِوَادِي مَدَانٍ، مِنْ نَاحِيَةِ الْحَرَّةِ، مِمَّا يَسِيلُ مُشَرِّقًا، وَأَقْبَلَ جَيْشُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَوْلَاجِ، فَأَغَارَ بِالْمَاقِصِ مِنْ قِبَلِ الْحَرَّةِ، فَجَمَعُوا مَا وَجَدُوا مِنْ مَالٍ أَوْ نَاسٍ، وَقَتَلُوا الْهُنَيْدَ وَابْنَهُ وَرَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي الْأَجْنَفِ ـ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: مِنْ بَنِي الْأَحْنَفِ ـ وَرَجُلًا مِنْ بَنِي الْخَصِيبِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦١٣].

قال الواقدي: ثُمَّ إِنَّ دِحْيَةَ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَسْعَى النَّبِيَّ ﷺ دَمَ الْهُنَيْدِ وَابْنِهِ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْمَسِيرِ، فَخَرَجَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ مَعَهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٧].

وقال الواقدي: وَقَدِمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ خِلَافَهُمْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَبَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي خَمْسِمِائَةِ رَجُلٍ وَرَدَّ مَعَهُ دِحْيَةَ الْكَلْبِيَّ ﷺ، وَكَانَ زَيْدٌ يَسِيرُ اللَّيْلَ وَيَكْمُنُ النَّهَارَ، وَمَعَهُ دَلِيلٌ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ.



وَقَدْ اجْتَمَعَتْ غَطَفَانُ كُلُّهَا وَوَائِلٌ وَمَنْ كَانَ مِنْ سَلَامَات وَبَهْرَاءَ حِينَ جَاءَ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ بِكِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى نَزَلُوا ـ الرِّجَالُ وَرِفَاعَةُ ـ بِكُرَاعِ رُؤَيَّةَ (موضع في ديار بني مازن. معجم ما استعجم ص ٣٤٢، ٣٨٨) لَمْ يُعْلَمْ.

وَأَقْبَلَ الدَّلِيلُ الْعُذْرِيُّ بِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﵁ حَتَّى هَجَمَ بِهِمْ، فَأَغَارُوا مَعَ الصُّبْحِ عَلَى الْهُنَيْدِ وَابْنِهِ وَمَنْ كَانَ فِي مَحَلَّتِهِمْ، فَأَصَابُوا ما وجدوا، وقتلوا فِيهِمْ فَأَوْجَعُوا (أي: أكثروا فيهم)، وَقَتَلُوا الْهُنَيْدَ وَابْنَهُ، وَأَغَارُوا عَلَى مَاشِيَتِهِمْ وَنَعَمِهِمْ وَنِسَائِهِمْ، فَأَخَذُوا مِنْ النَّعَمِ أَلْفَ بَعِيرٍ، وَمِنْ الشَّاءِ خَمْسَةَ آلَافِ شَاةٍ، وَمِنْ السَّبْيِ مِائَةً مِنْ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ.

وَكَانَ الدَّلِيلُ إِنَّمَا جَاءَ بِهِمْ مِنْ قِبَلِ الْأَوْلَاجِ (جمع ولجة، وهي معطوف الوادي. القاموس المحيط ١/ ٢١١). [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٧-٥٥٨].

احتجاج بني الضُّبيب لدى القائد زيد ﵁:

ولما سمع بنو الضُّبيب (وهم مسلمون من جُذام نفسها) لما سمعوا بما صنع زيد ورجاله بقومهم من جُذام جاء أحد زعمائهم إلى قائد الحملة زيد ﵁ محتجًّا بأنهم مسلمون وأنهم (أي بني الضبيب) هم الذين استرجعوا (عنوة) من الهنيد وجماعته كل ما سلبوا من دحيه الكلبي ﵁ وأعادوه إليه، فطلب زيد ﵁ من هذا الزعيم أن يقرأ الفاتحة ليتأكدوا من إسلامه فقرأها، ولكن يظهر أن قائد الحملة زيد ﵁ قرر ألا يعيد إلى القوم ما غنم منهم وما أسر من رجالهم ونسائهم وصبيانهم، فواصل سيره بالسبي والغنائم نحو المدينة جنوبًا.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ فِي حَدِيثِهِ: فَلَـمَّا سَمِعَتْ بِذَلِكَ بَنُو الضُّبَيْبِ وَالْجَيْشُ بِفَيْفَاءِ مَدَانٍ (الفيف: المفازة التي لا ماء فيها من الاستواء والسعة، فإذا أُنِّث فهي الفيفاء. **والمدان**: وادٍ في بلاد قضاعة بناحية حرة الرجلاء يسيل مشرقًا من الحرَّة. (الحموي: معجم البلدان ٤/ ٢٨٥، ٥/ ٧٤). غزوة مؤتة لبريك ٨٨) رَكِبَ نَفَرٌ مِنْهُمْ، وَكَانَ فِيمَنْ رَكِبَ مَعَهُمْ حَسَّانُ بْنُ مِلَّةِ، عَلَى فَرَسٍ لِسُوَيْدِ بْنِ زَيْدٍ يُقَالُ لَهَا: الْعَجَاجَةُ، وَأُنَيْفُ بْنُ مِلَّةِ عَلَى فَرَسٍ لِمِلَّةَ يُقَالُ لَهَا: رِغَالٌ، وَأَبُو زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو عَلَى فَرَسٍ يُقَال لَهَا: شَمِرٌ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى إذَا دَنَوْا مِنْ الْجَيْشِ قَالَ أَبُو زَيْدٍ وَحَسَّانُ لِأُنَيْفِ بْنِ مِلَّةِ: كُفَّ عَنَّا وَانْصَرِفْ فَإِنَّا نَخْشَى لِسَانَك، فَوَقَفَ عَنْهُمَا، فَلَمْ يَبْعُدَا مِنْهُ حَتَّى جَعَلَتْ فَرَسُهُ تَبْحَثُ بِيَدَيْهَا وَتَوَثَّبَ، فَقَالَ: لَأَنَا أَضَنُّ بِالرَّجُلَيْنِ مِنْك بِالْفَرَسَيْنِ، فَأَرْخَى لَهَا، حَتَّى أَدْرَكَهُمَا، فَقَالَا لَهُ: أَمَّا إذَا فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ فَكُفَّ عَنَّا لِسَانَكَ، وَلَا تَشْأَمْنَا الْيَوْمَ، فَتَوَاصَوْا أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ مِنْهُمْ إلَّا حَسَّانُ بْنُ مِلَّةِ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ كَلِمَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَدْ عَرَفَهَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، إذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَضْرِبَ بِسَيْفِهِ قَالَ بُورِي أَوْ ثُورِي؛ فَلَـمَّا بَرَزُوا عَلَى الْجَيْشِ أَقْبَلَ الْقَوْم يَبْتَدِرُونَهُمْ، فَقَالَ لَهُمْ حَسَّانُ: إنَّا قَوْمٌ مُسْلِمُونَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيَهُمْ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ أَدْهَمَ، فَأَقْبَلَ يَسُوقُهُمْ، فَقَالَ أُنَيْفٌ: بُورِي، فَقَالَ حَسَّانُ مَهْلًا، فَلَـمَّا وَقَفُوا عَلَى زَيْد بْنِ حَارِثَةَ ﵁ قَالَ حَسَّانُ: إنَّا قَوْمٌ مُسْلِمُونَ، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ ﵁: فَاقْرَؤُوا أُمَّ الْكِتَابِ، فَقَرَأَهَا حَسَّانُ ﵁، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﵁: نَادُوا فِي الْجَيْشِ إنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْنَا ثُغْرَةَ الْقَوْمِ (ناحيتهم التي يحمونها) الَّتِي جَاؤُوا مِنْهَا إلَّا مَنْ خَتَرَ (نقض العهد). [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦١٣-٦١٤].

وقال الواقدي: فَلَـمَّا سَمِعَتْ بِذَلِكَ الضُّبَيْبُ بِمَا صَنَعَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ رَكِبُوا، فَكَانَ فِيمَنْ رَكِبَ حِبَّانُ بْنُ مِلَّةَ وَابْنُهُ، فَدَنَوْا مِنَ الْجَيْشِ وَتَوَاصَوْا لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا حِبَّانُ بْنُ مِلَّةَ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ عَلَامَةٌ إِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمْ أَنْ يَضْرِبَ بِسَيْفِهِ قَالَ: «قَوَدِي»، فَلَـمَّا طَلَعُوا عَلَى الْعَسْكَرِ طَلَعُوا عَلَى الدُّهْمِ مِنَ السَّبْيِ وَالنَّعَمِ وَالنِّسَاءِ وَالْأُسَارَى أَقْبَلُوا جَمِيعًا، وَالَّذِي يَتَكَلَّمُ حِبَّانُ بْنُ مِلَّةَ يَقُولُ: إِنَّا قَوْمٌ مُسْلِمُونَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيَهُمْ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ، عَارِضٌ رُمْحَهُ، فَأَقْبَلَ يَسُوقُهُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: قَوَدِي! فَقَالَ حِبَّانُ: مَهْلًا! فَلَـمَّا وَقَفُوا عَلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ قَالَ لَهُ حِبَّانُ: إِنَّا قَوْمٌ مُسْلِمُونَ، قَالَ لَهُ زَيْدٌ ﷺ: اقْرَأْ أُمَّ الْكِتَابِ، وَكَانَ زَيْدٌ إِنَّمَا يَمْتَحِنُ أَحَدَهُمْ بِأُمِّ الْكِتَابِ لَا يَزِيدُهُ، فَقَرَأَ حِبَّانُ، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ ﷺ: نَادُوا فِي الْجَيْشِ «إِنَّهُ قَدْ حَرُمَ عَلَيْنَا مَا أَخَذْنَاهُ مِنْهُمْ بِقِرَاءَةِ أُمِّ الْكِتَابِ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٨].

زيد بن رفاعة يحتج لدى الرسول ﷺ:

غير أن أحد زعماء قبيلة (جذام) وهو (زيد بن رفاعة الجذامي) أسرع في نفر من قومه إلى المدينة لمقابلة رسول الله ﷺ.

ولدى مقابلته ﷺ احتج على ما فعل زيد بن حارثة ﷺ في غارته على مناطق (حسمي) قائلًا: **يا رسول الله لا تحرِّم علينا حلالًا، ولا تحل لنا حرامًا،** ثم دفع إليه ﷺ كتابه الذي كان قد كتبه له ولقومه ليالي قدومه عليهم عندما أسلموا.

الأمر بإعادة الغنائم والسبي:

وهنا قرر سيد مَنْ أوفى بالعهد على وجه الأرض ﷺ، قرر ﷺ أن يعيد إلى سادات (جذام) الوافدين عليه المحتجين لديه، قرر أن يعيد إليهم كل ما غنمته وسلبته حملته العسكرية التي قادها ابن حارثة ﷺ.

ولم يكتف بهذا ﷺ بل بحث (مع وفد جذام) موضوع القتلى منهم الذي صُرعوا بسيوف رجال حملة زيد بن حارثة ﷺ قائلًا: (كيف أصنع بالقتلى؟؟)

فقال له أحد سادات جذام المشكِّل منهم الوفد وهو (أبو زيد بن عمرو): أطلق لنا يا رسول الله من كان حيًّا، ومن قتل فهو تحت قدمي، هاتين.

فقال رسول الله ﷺ: صدق أبو زيد.

ثم استدعى ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ، وأمره بأن يكون مبعوثه الخاص إلى قائد الحملة زيد بن حارثة ﷺ ليبلغه أمره ﷺ بأن يرد على القوم كل ما أَخذ منهم في غارته من أموال وسبايا وأسرى، وكانت شيئًا عظيمًا كما تقدم.

فقال علي: يا رسول الله إن زيدًا لا يطيعني، فقال ﷺ: خذ سيفي هذا (أي كعلامة).

فانطلق علي ﷺ ومعه زيد بن رفاعة ﷺ وباقي أعضاء الوفد الجذامي نحو الشمال، ليبلغ القائد زيدًا ﷺ أمر رسول ﷺ، فلقي (وهو في طريقه) رافع بن مكيث الجهني ﷺ (هو رافع بن مكيث (بفتح أوله وكسر

ثانيه) الجهني، قال ابن حجر في الإصابة شهد بيعة الرضوان، وكان يوم فتح مكة يحمل لواء جهينة، استعمله النبي ﷺ على صدقات قومه، شهد الحابية في الشام مع الخليفة عمر ﷺ) على ناقة من إبل القوم، أرسله القائد زيد ﷺ بشيرًا بالنصر، فأخذ الناقة منه وردها على القوم، وأردف البشير خلفه، ثم واصل سيره حتى لقي القائد زيدًا ﷺ وحملته العسكرية ومعهم تلك الغنائم العظيمة في منطقة الفحلتين مكان بين المدينة وذي المروة (قرية بوادي القرى)، وهناك أبلغه أمر رسول الله ﷺ بأن يرد على القوم كل ما أخذ منهم، وروي أن القائد زيد ﷺ قال لعلي ﷺ: ما علامة ذلك؟؟ فقال: هذا سيفه ﷺ، فعرف زيد ﷺ سيف رسول الله ﷺ، فصاح برجال الحملة، فاجتمعوا، فأمرهم بأن يردوا على القوم كل ما أخذوا منهم قائلًا: هذا سيف رسول الله ﷺ، فأطاع الناس الأمر فردوا على القوم كل ما أخذوا منهم من غنائم وسبايا وأطلقوا سراح الأسرى الذين لم يُعرف عددهم.

قدومهم على الرسول ﷺ وشعر أبي جعال:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَإِذَا أُخْتُ حَسَّانَ بْنِ مِلَّةَ، وَهِيَ امْرَأَةُ أَبِي وَبْرِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ الضُّبَيْبِ فِي الْأُسَارَى، فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ: خُذْهَا، وَأَخَذَتْ بِحَقْوَيْهِ (بخصريه)، فَقَالَتْ أُمُّ الْفِزْرِ الضُّلَعِيَّةُ: أَتَنْطَلِقُونَ بِبَنَاتِكُمْ وَتَذَرُونَ أُمَّهَاتِكُمْ؟ فَقَالَ أَحَدُ بَنِي الْخَصِيبِ: إِنَّهَا بَنُو الضُّبَيْبِ وَسِحْرُ أَلْسِنَتِهِمْ سَائِرَ الْيَوْمِ، فَسَمِعَهَا بَعْضُ الْجَيْشِ، فَأَخْبَرَ بِهَا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ، فَأَمَرَ بِأُخْتِ حَسَّانَ فَفُكَّتْ يَدَاهَا مِنْ حِقْوَيْهِ، وَقَالَ لَهَا: اجْلِسِي مَعَ بَنَاتِ عَمِّكَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ فِيكُنَّ حُكْمَهُ، فَرَجَعُوا، وَنَهَى الْجَيْشَ أَنْ يَهْبِطُوا إِلَى وَادِيهِمْ الَّذِي جَاؤُوا مِنْهُ، فَأَمْسَوْا فِي أَهْلِيهِمْ وَاسْتَعْتَمُوا ذَوْدًا (ما بين الثلاث إلى العشر من الإبل. وَاسْتَعْتَمُوا ذَوْدًا: انتظروه إلى عتمة من الليل) لِسُوَيْدِ بْنِ زَيْدٍ، فَلَـمَّا شَرِبُوا عَتَمَتَهُمْ (لبنهم الذي انتظروه إلى ذلك الوقت) رَكِبُوا إِلَى رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَكَانَ مِمَّنْ رَكِبَ إِلَى رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ تِلْكَ اللَّيْلَةَ أَبُو زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو، وَأَبُو شِمَاسِ بْنِ عَمْرٍو، وَسُوَيْد بْنُ زَيْدٍ، وَبَعْجَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَبَرْذَعُ بْنُ زَيْدٍ، وَثَعْلَبَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَمُخَرِّبَةُ بْنُ عَدِيٍّ وَأُنَيْفُ بْنُ مِلَّةَ، وَحَسَّانُ بن مِلَّةِ، حَتَّى صَبَّحُوا رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدٍ بِكُرَاعِ رِبَةَ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ، عَلَى بِئْرٍ هُنَالِكَ مِنْ حَرَّةِ لَيْلَى، فَقَالَ لَهُ حَسَّانُ بْنُ مِلَّةَ: إِنَّكَ لَجَالِسٌ تَحْلُبُ الْمِعْزَى وَنِسَاءُ جُذَامَ أُسَارَى، قَدْ غَرَّهَا كِتَابُكَ الَّذِي جِئْتَ بِهِ، فَدَعَا رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ بِجَمَلٍ لَهُ، فَجَعَلَ يَشُدُّ عَلَيْهِ رَحْلَهُ وَهُوَ يَقُولُ:

هَلْ أَنْتَ حَيٌّ أَوْ تُنَادِي حَيَّا

ثُمَّ غَدَا وَهُمْ مَعَهُ بِأُمَيَّةِ بْنِ ضَفَارَةَ أَخِي الْخَصِيبِيِّ الْمَقْتُولِ مُبَكِّرِينَ مِنْ ظَهْرِ الْحَرَّةِ، فَسَارُوا إِلَى جَوْفِ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَلَـمَّا دَخَلُوا الْمَدِينَةَ، وَانْتَهَوْا إِلَى الْمَسْجِدِ نَظَرَ إِلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ النَّاسِ، فَقَالَ: لَا تُنِيخُوا إِبِلَكُمْ، فَتُقَطَّعَ أَيْدِيهُنَّ، فَنَزَلُوا عَنْهُنَّ وَهُنَّ قِيَامٌ، فَلَـمَّا دَخَلُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَرَآهُمْ أَلَاحَ (أشار) إِلَيْهِمْ بِيَدِهِ: أَنْ تَعَالُوا مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ، فَلَـمَّا اسْتَفْتَحَ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ الـمَنْطِقَ، قَامَ رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ

الله ﷺ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ سَحَرَةٌ، فَرَدَّدَهَا مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ: رَحِمَ اللهُ مَنْ لَمْ يَحْذُنَا (يعطنا) فِي يَوْمِهِ هَذَا إِلَّا خَيْرًا، ثُمَّ دَفَعَ رِفَاعَةُ بْنُ زَيْدٍ كِتَابَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي كَانَ كَتَبَهُ لَهُ، فَقَالَ: دُونَك يَا رَسُولَ الله قَدِيمًا كِتَابُهُ، حَدِيثًا غَدْرُهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: اقْرَأْهُ يَا غُلَامُ وَأَعْلِنْ؛ فَلَمَّا قَرَأَ كِتَابَهُ اسْتَخْبَرَهُ فَأَخْبَرُوهُمَ الْخَبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْقَتْلَى؟**» (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)، فَقَالَ رِفَاعَةُ: أَنْتَ يَا رَسُولَ الله أَعْلَمُ، لَا نُحَرِّمُ عَلَيْكَ حَلَالًا، وَلَا نُحَلِّلُ لَكَ حَرَامًا، فَقَالَ أَبُو زَيْدِ بْنُ عَمْرٍو: أَطْلِقْ لَنَا يَا رَسُولَ الله مَنْ كَانَ حَيًّا، وَمَنْ قُتِلَ فَهُوَ تَحْتَ قَدَمِي هَذِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**صَدَقَ أَبُو زَيْدٍ، ارْكَبْ مَعَهُمْ يَا عَلِيُّ**»، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ ﷺ: إِنَّ زَيْدًا لَنْ يُطِيعَنِي يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «**فَخُذْ سَيْفِي هَذَا**»، فَأَعْطَاهُ سَيْفَهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: لَيْسَ لِي يَا رَسُولَ الله رَاحِلَةٌ أَرْكَبُهَا، فَحَمَلُوهُ عَلَى بَعِيرٍ لِثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرٍو، يُقَالُ لَهُ: مِكْحَالٌ، فَخَرَجُوا، فَإِذَا رَسُولٌ لِزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ عَلَى نَاقَةٍ مِنْ إِبِلِ أَبِي وَبْرٍ يُقَالُ لَهَا: الشَّمْرُ، فَأَنْزَلُوهُ عَنْهَا، فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، مَا شَأْنِي؟ فَقَالَ: مَا لَهُمْ، عَرَفُوهُ فَأَخَذُوهُ، ثُمَّ سَارُوا فَلَقُوا الْجَيْشَ بِفَيْفَاءِ الْفَحْلَتَيْنِ، فَأَخَذُوا مَا فِي أَيْدِيهِمْ، حَتَّى كَانُوا يَنْزِعُونَ لَبِيدَ الْمَرْأَةِ مِنْ تَحْتِ الرَّحْلِ، فَقَالَ أَبُو جِعَالٍ حِينَ فَرَغُوا مِنْ شَأْنِهِمْ:

وَعَاذِلَةٍ وَلَمْ تَعْذُلْ بِطِبٍّ ... وَلَوْلَا نَحْنُ حُشَّ بِهَا السَّعِيرُ [1]

تُدَافِعُ فِي الْأُسَارَى بِابْنَتَيْهَا ... وَلَا يُرْجَى لَهَا عِتْقٌ يَسِيرُ

وَلَوْ وُكِلَتْ إِلَى عُوصٍ وَأَوْسٍ ... لَحَارَ بِهَا عَنْ الْعِتْقِ الْأُمُورُ [2]

وَلَوْ شَهِدَتْ رَكَائِبَنَا بِمِصْرٍ ... تُحَاذِرُ أَنْ يُعَلَّ بِهَا الْمَسِيرُ [3]

وَرَدْنَا مَاءَ يَثْرِبَ عَنْ حِفَاظٍ ... لِرَبْعٍ إِنَّهُ قَرَبٌ ضَرِيرُ [4]

بِكُلِّ مُجَرَّبٍ كَالسِّيدِ نَهْدٍ ... عَلَى أَقْتَادِ نَاجِيَةٍ صَبُورُ [5]

فِدًى لِأَبِي سُلَيْمَى كُلُّ جَيْشٍ ... بِيَثْرِبَ إِذْ تَنَاطَحَتْ النُّحُورُ [6]

غَدَاةَ تَرَى الْمُجَرَّبَ مُسْتَكِينًا ... خِلَافَ الْقَوْمِ هَامَتُهُ تَدُورُ

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: قَوْلُهُ «وَلَا يُرْجَى لَهَا عِتْقٌ يَسِيرُ»: وَقَوْلُهُ «عَنْ الْعِتْقِ الْأُمُورُ» عَنْ غَيْرِ ابْنِ إِسْحَاقَ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦١٤-٦١٦].

---

(١) **بطب**: برفق. **حش**: أوقد.

(٢) **حار**: رجع.

(٣) **يعل**: يكرر.

(٤) **الحفظ**: الغضب. **الربع**: أن ترد الإبل الماء لأربعة أيام. **القرب**: السير في طلب الماء. **ضرير**: مضر.

(٥) **السيد**: الذئب. **النهد**: الغليظ. **الأقتاد**: أدوات الرحل. **الناجية**: السريعة. **صبور**: صابرة، وتروى «ضبور» **والضبور**: الموثقة الخلق.

(٦) **النحور**: الصدور.

وقال الواقدي: فَرَجَعَ الْقَوْمُ وَنَهَاهُمْ زَيْدٌ ﷺ أَنْ يَهْبِطُوا وَادِيَهُمْ الَّذِي جَاؤُوا مِنْهُ، فَأَمْسَوْا فِي أَهْلِيهِمْ، وَهُمْ فِي رَصَدٍ لِزَيْدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ، فَاسْتَمَعُوا حَتَّى نَامَ أَصْحَابُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ، فَلَـمَّا هَدَأُوا وَنَامُوا رَكِبُوا إِلَى رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ ـ وَكَانَ فِي الرَّكْبِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَبُو زَيْدِ بْنُ عَمْرٍو، وَأَبُو أَسَماءَ بْنُ عَمْرٍو، وَسُوَيْدُ بْنُ زَيْدٍ، وَأَخُوهُ وَبَرْذَعُ بْنُ زَيْدٍ، وَثَعْلَبَةُ بْنُ عَدِيٍّ ـ حتى صَبَّحُوا رِفَاعَةَ بِكُرَاعِ رُؤَيَّةَ بِحَرَّةِ لَيْلَى (لبني مرة بن عوف بن سعد بن غطفان، يطؤها الحاج الشامي في طريقه إلى المدينة. وفاء الوفا ٢/ ٢٨٨)، فَقَالَ حِبَّانُ (أي: قال لرفاعة بن زيد): إِنَّكَ لَجَالِسٌ تَحْلُبُ الْـمِعْزَى وَنِساءُ جُذَامٍ أُسَارَى، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ فَدَخَلَ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الـمَدِينَةَ ـ سَارُوا ثَلَاثًا ـ فَابْتَدَأَهُمْ رِفَاعَةُ فَدَفَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ كِتَابَهُ الَّذِي كَتَبَ مَعَهُ، فَلَـمَّا قَرَأَ كِتَابَهُ اسْتَخْبَرَهُمْ فَأَخْبَرُوهُ بِمَا صَنَعَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ، فَقَالَ: «**كَيْفَ أَصْنَعُ بِالْقَتْلَى؟**» فَقَالَ رِفَاعَةُ: يَا رَسُولَ الله، أَنْتَ أَعْلَمُ، لَا تُحَرِّمُ عَلَيْنَا حَلَالًا، وَلَا تُحِلُّ لَنَا حَرَامًا، قَالَ أَبُو زَيْدٍ (أي: أبو زيد بن عمرو): أَطْلِقْ لَنَا يَا رَسُولَ الله مَنْ كَانَ حَيًّا، وَمَنْ قُتِلَ فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صَدَقَ أَبُو زَيْدٍ**»، قَالَ الْقَوْمُ: فَابْعَثْ مَعَنَا يَا رَسُولَ الله رَجُلًا إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، يُخَلِّي بَيْنَنَا وَبَيْنَ حَرَمِنَا وَأَمْوَالِنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**انْطَلِقْ مَعَهُمْ يَا عَلِيُّ**»، فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: يَا رَسُولَ الله، لَا يُطِيعُنِي زَيْدٌ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَذَا سَيْفِي فَخُذْهُ!**»، فَأَخَذَهُ فَقَالَ: لَيْسَ مَعِي بَعِيرٌ أَرْكَبُهُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: هَذَا بَعِيرٌ، فَرَكِبَ بَعِيرَ أَحَدِهِمْ وَخَرَجَ مَعَهُمْ حَتَّى لَقُوا رَافِعَ بْنَ مَكِيثٍ ﷺ بَشِيرَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ عَلَى نَاقَةٍ مِنْ إِبِلِ الْقَوْمِ، فَرَدَّهَا عَلِيٌّ ﷺ عَلَى الْقَوْمِ، وَرَجَعَ رَافِعُ بْنُ مَكِيثٍ ﷺ مَعَ عَلِيٍّ ﷺ رَدِيفًا حَتَّى لَقُوا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ ﷺ بِالْفَحْلَتَيْنِ (بين المدينة وذي المروة، كما قال ابن سعد. الطبقات ٢/ ٦٤) فَلَقِيَهُ عَلِيٌّ ﷺ وَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله يَأْمُرُكَ أَنْ تَرُدَّ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ مَا كَانَ بِيَدِكَ مِنْ أَسِيرٍ أَوْ سَبْيٍ أَوْ مَالٍ، فَقَالَ زَيْدٌ: عَلَامَةً مِنْ رَسُولِ الله! فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: هَذَا سَيْفُهُ، فَعَرَفَ زَيْدٌ ﷺ السَّيْفَ فَنَزَلَ فَصَاحَ بِالنَّاسِ، فَاجْتَمَعُوا، فَقَالَ: «مَنْ كَانَ بِيَدِهِ شَيْءٌ مِنْ سَبْيٍ أَوْ مَالٍ فَلْيَرُدَّهُ، فَهَذَا رَسُولُ رَسُولِ الله ﷺ، فَرَدَّ إِلَى النَّاسِ كُلَّ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ، حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيَأْخُذُونَ الْمَرْأَةَ مِنْ تَحْتِ فَخِذِ الرَّجُلِ.

حَدَّثَنِي أُسَامَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ يُسْرِ بْنِ مِحْجَنٍ الدِّيلِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ فِي تِلْكَ السَّرِيَّةِ، فَصَارَ لِكُلِّ رَجُلٍ سَبْعَةُ أَبْعِرَةٍ وَسَبْعُونَ شَاةً، وَيَصِيرُ لَهُ مِنَ السَّبْيِ الـمَرْأَةُ وَالـمَرْأَتَانِ، فَوَطِؤُوا بِالْمِلْكِ بَعْدَ الِاسْتِبْرَاءِ، حَتَّى رَدَّ رَسُولُ الله ﷺ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى أَهْلِهِ، وَكَانَ قَدْ فَرَّقَ وَبَاعَ مِنْهُ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٥٨-٥٦٠].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦١٢-٦١٦، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٥٥ -٥٦٠، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨٤ -٨٥، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٨٤، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤١٤-٤١٦، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٤، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٢٤٢، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٦٨، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٤٠-١٤٥.

ب ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٤٧٢.

ج ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٥٠-٥٥، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٩٣ -٩٤، فقه السرايا للعيساوي ١٣٨ + ١٤٨-١٤٩، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٧١-٩٣.

خرائط سَرِيَّةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إِلَى حِسْمَى (جُذام)

سرية زيد بن حارثة :

- إلى بني سليم بالجَمُوم ، ربيع الأول ٦ هـ
- إلى العيص ، جمادى الأولى ٦ هـ
- إلى الطرف ، جمادى الآخرة ٦ هـ
- إلى حِسْمَى ، جمادى الآخرة ٦ هـ

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥٠.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من
سَرِيَّةِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ﷺ إلَى حِسْمَى

١ ـ تربية الأبناء والأقربين على التضحية والفداء:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٢ ـ القائد القدوة يتقدم الناس هو وأقرباؤه:

سبق تفصيله في غزوة بني قينقاع ٢ هـ.

٣ ـ مشروعية التعرض لأموال الحربيين والاستيلاء عليها:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٤ ـ أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى وكسب ود الناس:

يقول د/ قلعحي: «ولم يرد الرسول ﷺ لهم أموالهم وسبيهم وفاء بالكتاب الذي كان قد كتبه لزيد بن رفاعة وقومه يوم أسلم كما توهَّم بعض كُتَّاب السيرة؛ لأن هذا الكتاب يبقى ساري المفعول ما تمسكت به جذام بعهدها مع رسول الله ﷺ، أما وأنها قد نكثت به واعتدت، فإن هذا الكتاب أصبح منقوضًا، وإن الذي نقضه من بدأ بالاعتداء وهم جذام.

ولكنه ردها إليهم بنظر سياسي هو غاية في الحكمة وحسن التصرف، ذلك أن هذه الغزوة قد حققت أهدافها في فرض هيبة الدولة الإسلامية وإقامة البرهان للقبائل العربية على أن الدولة الإسلامية قادرة على البطش بمن تسول له نفسه النيل منها.

وطالما أن هذا الغرض قد تحقق بما لا يدع مجالًا للشك فيه، فما المانع من أن تكسب الدولة الإسلامية قلوب هذه القبيلة مسلمها ومشركها وغيرها من القبائل برد أموالها ونسائها وأولادها إليها، وبذلك يتم البرهان لهم أن الدولة الإسلامية لا تبغي تسلطًا بالباطل وسلبًا ونهبًا وأموالًا، ولكنها تريد أن تقر الأمن والاستقرار في الربوع في ظل مبادئ الإسلام العادلة المحققة لمصالح الجماعة التي تعيش في ظلها».

[قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ٢٠٠].

٥ ـ الأشهر الجهادية الست:

يقول د/ الغضبان: «ستة أشهر متتالية ما تكاد السرية تعود حتى تلحقها الثانية، تجوب الأرض العربية كلها، تنفيذًا للكلمة العظيمة التي صدرت من رسول الله ﷺ: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**». [البخاري في المغازي (٤١٠٩، ٤١١٠)، ومسند أحمد ٣٠/ ٢٤٠، ٢٤١ رقم ١٨٣٠٨، ١٨٣٠٩، ٤٥/ ١٨٤ رقم ٢٧٢٠٦].

وكما رأينا من خلال هذه السرايا، أنها لم تدع حزبًا من الأحزاب الذين غزوا المدينة إلا غزته في عقر داره، في عمليات حرب الصحراء، التي لا تعتمد المواجهة المباشرة، إنما تعتمد بث الرعب والفزع في قلوب هذه الأحزاب جميعًا دون استثناء، فاليهود وقريش وغطفان وأسد وسليم ولحيان، قد وقع بهم غزو لهم في عقر دارهم جزاء وفاقًا على تآمرهم وغزوهم المدينة المنورة، ولعل تكرار اللقاء مع بني ثعلبة من غطفان لقربهم من المدينة.

ومن جانب آخر فهي تربية عملية للجيل الجديد الذي انضم للإسلام حديثًا، بحيث تُتاح له أن يتدرب على المواجهة فيما بعد، ويتلقى من رسول الله ﷺ في المدينة، أو يمضي مع هذه السرايا التي شارك الرعيل الأول فيها كلها؛ ليقوم هو بمهمة تربية الوافدين الجدد إلى الإسلام، فهي تربية متكاملة عملية في جو المسجد، والمدينة، ومصدر النور محمد ﷺ، وتربية عملية تطبيقية لمفاهيم ومبادئ هذا الذين من خلال الممارسة العملية، والروح الجهادية التي ينبت فيها المسلم وينمو؛ لتضيف هذه الأعداد الجديدة إلى حزب الله تعالى وتبرز فيها الطاقات، وتتفجر المواهب، وتتجلى القيادات الكفؤ؛ لتأخذ موقعها المناسب من المعركة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٦٠].

٦ ـ دروس سبق تفصيلها:

ينظر الدروس المستفادة من السرايا قبل بدر الكبرى وبين بدر وأحد.

الفصل الثاني عشر
سَرِيَّةُ زَيْدٍ ثُمَّ أبي بَكْرٍ رضي الله عنهما
إِلَى بَنِي فِزَارَةَ بِوَادِي القُرَى

رجب، رمضان ٦هـ/نوفمبر (تشرين ثان)، يناير (كانون ثان) ٦٢٧، ٦٢٨ م/ هاتور، طوبة ٣٤٤ قبطي

المبحث الأول
عرض سَرِيَّةِ زَيْدٍ ثُمَّ أبي بَكْرٍ رضي الله عنهما إِلَى بَنِي فِزَارَةَ بِوَادِي القُرَى

تمهيد:

اختلف أهل الحديث وأهل المغازي في بعض الأمور حول هذه السرية: في قائدها، وتاريخها، وبعض أحداثها، وكذلك تعدد تسميتها، والخلط بينها في الأحداث وبين أسماء سرايا أربع: سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى وادي القرى، وسريته رضي الله عنه إلى أم قرفة بوادي القرى، وسريته رضي الله عنه إلى بني فزارة، وسرية أبي بكر رضي الله عنه إلى بني فزارة بوادي القرى، وقد تعرض لمناقشة الكثير من ذلك د/ بريك في غزوة مؤتة، ومال ـ بعد المناقشة ـ إلى أقوال تجمع شتات هذا التعارض والخلط؛ ولذا رأيت أن أعرضها على تسلسل عرضه لها، مع بعض الإضافات والتصرف والاختصار اليسير.

التعريف بوادي القرى:

يقول د/ بريك: «وادي القُرَى ـ بضم أوَّله، وفتح ثانيه، والقصر ـ جمع قرية، وهو وادٍ بين المدينة والشام، من أعمال المدينة، وهو بين تيماء وخيبر، فيه قرى كثيرة، وبها سُمِّي وادي القُرى، والنسبة إليه «واديٌّ»، قال أبو المنذر: سُمِّي وادي القُرى؛ لأنَّ الوادي من أوَّله إلى آخره قُرىً منظومة.

وقال أبو عبيد الله السكوني: «وادي القُرى والحِجْر والجناب، منازل قضاعة، ثُمَّ جهينة، وعذرة، وبليٌّ، وهي بين الشام والمدينة، يمرُّ بها حاج الشام، وكانت قديمًا منازل ثمود وعاد[(١)]، وبها أهلكهم الله، وآثارها إلى الآن باقية، ونزلها بعدهم اليهود واستخرجوا كظائمها (محابس المياه في الأودية والشعاب)، وأساحوا عيونها، وغرسوا نخلها، فلمَّا نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفًا، وكان لهم فيها على اليهود طُعمة وأكل في كل عام ومنعوها لهم، ودفعوا عنها قبائلهم»[(٢)].

ولـمَّا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر في سنة سبع، امتدَّ إلى وادي القرى، وفتحها عنوة، ثُمَّ صُولِحُوا على الجزية.

---

(١) المعروف أنَّها منازل ثمود، قوم نبي الله صالح عليه السلام، الذين كانوا يسكنون الحجر الذي سُمِّيَ فيما بعد (مدائن صالح)، وذكر عاد هنا وَهْمٌ، فالمعروف أنَّهم كانوا يسكنون الأحقاف في حضرموت، وهي بعيدة جدًّا عن هذه المنطقة، والله تعالى أعلم.

(٢) كان من القبائل التي نزلت بهم غطفان: فزارة، وبني مرة، وأشجع، وغيرها.

وكان يسكن الوادي ناس من ولد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد غلبوا عليه، ويُعْرَفون بالوادِّيين.

وقال الشاعر (هو: جميل بن معمر، المعروف بجميل بثينة):

أَلاَ لَيْتَ شِـعْرِي هَـلْ أَبِيـتَنَّ لَيْلَـةً ... بِـوَادِي القُـرَى إِنِّي إِذًا لَسَـعِيدُ

ويُعْرَف وادي القُرى اليوم بـ «العُلا» بضم العين ثُمَّ لام وألف من غير همزة، والنسبة إليه «عُلَوِيٌّ»، وهي مدينة عامرة شمال المدينة النبوية على قرابة «٣٥٠» ميلًا، كثيرة المياه والزرع والأهل، ويصُبُّ واديها في وادي الجزل، ثُمَّ يَصُبُّ الجزل في وادي الحمض «أضم»، وهي ملاصقة للحجر ديار ثمود، متَّصِلة بها اتِّصالًا تامًّا، لا يفصِلُ بينها وبين المدائن حدود ولا جبال.

وسبب تسميتها بـ «العُلا» أنَّها قامت على أنقاض قصبة وادي القُرى الـمُسَمَّى «قُرح»، وهو موضع كان بالوادي من صدره، فغلب عليه اسم العُلا؛ لأنه أعلى الوادي، وكانت «قُرح» سوقًا مشهورة من أسواق العرب في الجاهلية، وفيها مسجد قُرح الذي بناه رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك، وهو مسجد العُلا اليوم فيما يتوارث أهلها، وتنقسم العُلا إلى حارتين: الشِّقيق ـ بالشين المشددة المكسورة ـ، والحِلف ـ بكسر ـ الحاء وجوُّها جميل، وسكانها خليط من عرب الشمال والحجاز، وبعض أهل القصيم وحائل، وبها محطَّة لسكة حديد الحجاز المعطَّلة.

وتُعدُّ العُلا مِن أكبر محافظات المدينة الزراعية المتطورة، حيث يُزرع بها النخيل، والأترجُّ، والليمون بأنواعه، والفواكه والخضروات، وأكثر صادراتها التمور، وهو أنواع، أجودها البرني، والسكري، وتربطها بالمدينة النبوية طريق معبدة، ويسكن بعض أهلها المدينة. [ينظر: **محمد عبد الحميد مراد: مدائن صالح ٦١-٦٢، ١٥٣، والبلادي: معجم ٢٥، وينظر: مجلة الدارة، العدد الأول، السنة التاسعة ٣٩**]. [**غزوة مؤتة لبريك ٤٥-٤٧**].

تاريخ السرية:

يقول د/ بريك: «تفرَّد الواقدي، وابن سعد من المتقدِّمين من أهل المغازي بتحديد تاريخ هذه السرية، حيث أرَّخ لها الواقدي برمضان سنة ست من الهجرة. [**الواقدي: مغازي ٢/ ٥٦٤**].

وكذلك فعل ابن سعد، ولكنَّه أرَّخ للسرية الأولى برجب سنة ست. [**طبقات ٢/ ٨٩،٩٠**].

وقد مرَّ بنا قول ابن سيِّد النَّاس: كذا ثبت عن ابن سعد، لزيد سريتان بوادي القُرى، إحداهما في رجب، والثانية في رمضان. [**ابن سيد الناس: عيون ٢/ ١٤٥**].

وقد تابعهما في ذلك البلاذري في الأنساب. [**البلاذري: أنساب الأشراف ١/ ٣٧٨**].

ولم يؤرِّخ لها ابن إسحاق، وإنَّما ذكرها في سياق السرايا والبعوث حيث عدَّد سرايا زيد بن حارثة رضي الله عنه، وذكر هذه السرية بعد سريته إلى الطرف من ناحية نخل من طريق العراق. [**ابن هشام: سيرة ٤/ ٦١٧**].

ونقل بعض المتأخرين من أهل المغازي أمثال: ابن سيِّد الناس، والقسطلاني، والمقريزي، والشامي، تاريخ السرية عن ابن سعد، وشيخه الواقدي. [**عيون الأثر لابن سيد الناس ٢/ ١٤٤، وشرح المواهب اللدنية للقسطلاني ١/ ٤٨١، وإمتاع الأسماع للمقريزي ١/ ٢٦٩، وسبل الهدى للشامي ٦/ ١٤٨ - ١٥٧**].

ولم يذكر البيهقي [دلائل ٤/ ٢٩٠]، وتبعه في ذلك ابن كثير [البداية والنهاية ٤/ ٢٢١] سرية زيد ابن حارثة ﵁ إلى بني فزارة، وإنَّما ذكرا سرية أبي بكر الصديق ﵁ إليهم، حيث قال البيهقي: جماع أبواب السرايا التي تذكر بعد فتح خيبر، وقبل عمرة القضية، وإن كان تاريخ بعضها ليس بواضح عند أهل المغازي، ثُمَّ بدأ الحديث عن سرية أبي بكر ﵁. [البيهقي: دلائل ٤/ ٢٩٠].

وكذلك فعل ابن القيم، حيث قال: «وَأَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الـمَدِينَةِ بَعْدَ مَقْدَمِهِ مِنْ خَيْبَرَ إِلَى شَوَّالٍ وَبَعَثَ فِي خِلالِ ذَلِكَ السَّرَايَا، فَمِنْهَا: «سَرِيَّةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﵁ إِلَى نَجْدٍ قِبَلَ بَنِي فَزَارَةَ، وَمَعَهُ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ ﵁، فَوَقَعَ فِي سَهْمِهِ جَارِيَةٌ حَسْنَاءُ، فَاسْتَوْهَبَهَا مِنْهُ رَسُولُ الله ﷺ وَفَادَى بِهَا أَسْرَى مِنَ الـمُسْلِمِينَ كَانُوا بِمَكَّةَ». [زاد المعاد ٣/ ٣٥٩].

هذا بالنسبة لأهل السير والمغازي، أمَّا ما يُفهم من روايات أهل الحديث فيفهم من قول سلمة ﵁ عندما سأله النَّبيُّ ﷺ الجارية: «**يَا رَسُولَ الله! وَالله لَقَدْ أَعْجَبَتْنِي، وَمَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا**» وسكوت رسول الله ﷺ، وتركه الإنكار عليه، دليلٌ على أنَّهم يستبيحون إذ ذاك وطء الوثنيات، وذلك قبل نزول تحريمه بعد الحديبية، ففي ذلك دليل على أنَّ السرية كانت قبل الحديبية.

[ينظر: معالم السنن للخطابي ٣/ ١٤٦، وهذه المسألة خلافية بين الفقهاء].

وكذلك إرسال النَّبيِّ ﷺ الجارية إلى أهل مكة ليفتدي بها أسيرين من المسلمين كانوا عندهم، دليلٌ آخر على أنَّ السرية كانت قبل الحديبية؛ لأنَّ اتفاقية الحديبية كانت اتفاقية سلام ومعاهدة صلح بين المسلمين ومشركي مكة سوَّت الوضع القائم بينهما، وأعتقد أنه كان لا يمكن استثناء الأسرى من الاتفاقية لو وُجِدُوا، فذلك دليلٌ على أنَّ الأسرى قد سُوِّيَ وضعهم قبل الحديبية حيث لم يرد في بنود المعاهدة أيُّ ذكرٍ عنهم، والله تعالى أعلم. [ينظر: مرويات الحديبية ١٦٦]. [غزوة مؤتة لبريك ٥٩-٦١].

سبب السرية:

يقول أ/ باشميل: «قبيلة فَزَارة (بفتح أوله وثانيه) تعتبر من أعظم القبائل النجدية وأكثرها عددًا في العهد النبوي، وكان السيد الذي يرجع إليه أمرها هو عيينة بن حصن الفزاري الملقب (بالأحمق المطاع)، فقد ذكر المؤرخون أن عشرة آلاف رمح من هذه القبيلة تتحرك (مطيعة) أينما تحرك هذا الأحمق.

وكانت بنو فَزَارة من أشد الناس عداوة للمسلمين وأكثرهم تحرشًا بهم لقرب منازلهم من منطقة المدينة، وكانت بعض فخائد هذه القبيلة تنزل وادي القرى الواقع بين المدينة وخيبر.

وكان رجال هذه القبيلة الوثنية طالما شنوا اعتداءات متكررة على المسلمين، وكثيرًا ما يستأجرهم اليهود لمحاربة المسلمين.

وقد عرفنا كيف أغار عبد الرحمن بن عيينة بن حصن على المسلمين في الغابة بضواحي المدينة، فاستاق إبلهم بعد أن قتل مَنْ قتل منهم كما تقدم تفصيله في غزوة الغابة.

ولهذا كان من الطبيعي أن يتحين المسلمون الفرص لضرب هذه القبيلة وإرهابها وكسر شوكتها بنقل المعركة إلى ديارها وضربها في منازلها ومسارحها.

لا سيما وأن المسلمين يتهيؤون لخوض معركة فاصلة مع اليهود في خيبر التي تقع منازل هؤلاء الفزاريين بينها وبين المدينة، الأمر الذي يحتم على القيادة العليا في المدينة القيام بعمل عسكري حاسم تكون به خطوط المسلمين في مأمن عندما يقومون بالزحف على مدينة خيبر والذي قاموا به (بالفعل) في أوائل السنة السابعة من الهجرة. **[صلح الحديبية لباشميل ٦١-٦٢]**.

ويقول د/ بريك: «بالنظر إلى أقوال أهل المغازي في سبب السرية، نجد هنالك قولين:

القول الأوَّل: لابن إسحاق، الذي ذكر أنَّ سببها كان سرية بعثها رسول الله ﷺ قبل هذه السرية مباشرةً، وبقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه نفسه إلى وادي القرى: «فلَقِيَ بِهِ بَنِي فَزَارَةَ [1]، فَأُصِيبَ بِهَا نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَارْتُثَّ [وَانْفَلَتَ] زَيْدٌ مِنْ بَيْنَ الْقَتْلَى، فَلَـمَّا قَدِمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه آلَى [نَذَرَ] أَنْ لَا يَمَسَّ رَأْسَهُ غُسْلٌ مِنْ جَنَابَةٍ حَتَّى يَغْزُوَ بَنِي فَزَارَةَ».

[ذكره ابن سيد الناس (عيون الأثر ٢/ ١٤٢) عن ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر، من الخامسة (تقريب ٢٩٧)، كما ذكره ابن هشام (سيرة ٤/ ٦١٧) عن ابن إسحاق الذي ساقه بلا سند عنده نحوه].

وأخرج أبو نعيم من طريق مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ مَوْلَى ابْنِ مَخْرَمَةَ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها : بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي فَزَارَةَ يُقَالُ لَهَا «أُمُّ قِرْفَةَ» قَدْ جَهَّزَتْ ثَلَاثِينَ رَاكِبًا مِنْ وَلَدِهَا وَوَلَدِ وَلَدِهَا، قَالَتِ: اقْدَمُوا المَدِينَةَ فَاقْتُلُوا مُحَمَّدًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **اللَّهُمَّ أَثْكِلْهَا بِوَلَدِهَا**»، وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ رضي الله عنه فَالْتَقَوْا بِالْوَادِي، وَقُتِلَ أَصْحَابُ زَيْدٍ، فَارْتَثَّ جَرِيحًا وَقَدِمَ المَدِينَةَ فَعَاهَدَ اللَ أَنْ لَا يَمَسَّ رَأْسَهُ مَاءٌ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ، فَبَعَثَ مَعَهُ رَسُولُ الله ﷺ بَعْثًا فَالْتَقَوْا، فَقَتَلَ بَنِي فَزَارَةَ، وَقَتَلَ وَلَدَ أُمِّ قِرْفَةَ، وَقَتَلَ أُمَّ قِرْفَةَ وَبَعَثَ بِدِرْعِهَا (**درع المرأة**: قميصها. النهاية ٢/ ١١٤) إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَنَصَبَهُ بَيْنَ رُمْحَيْنِ، وَأَقْبَلَ زَيْدٌ حَتَّى قَدِمَ المَدِينَةَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها : وَرَسُولُ الله ﷺ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي بَيْتِي، فَقَرَعَ الْبَابَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ يَجُرُّ ثَوْبَهُ حَتَّى اعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ رَسُولُ الله ﷺ [2].

---

(١) بفتح الزاي المعجمة: قبيلة كبيرة مشهورة من غطفان، يُنسبون إلى فزارة بن ذبيان بن بغيض، وكانت مساكنهم بنجد، ووادي القرى. ينظر: ابن قتيبة، المعارف ٨٣، القلقشندي، قلائد الجمان ١١٣.

(٢) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ١/ ٥٣٤ رقم ٤٦٢، وقال د/ العواجي: وهي رواية ضعيفة لعنعنة ابن إسحاق، وقد ذكر هذه الرواية الذهبي في سير أعلام النبلاء ١/ ٢٢٦- ٢٢٧ عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، وفيها عنعنة ابن إسحاق، وذكرها ابن إسحاق (ابن هشام ٢/ ٦١٧) بدون إسناد وبألفاظ مغايرة قليلًا ==

القول الثاني: وقال به الواقدي، وابن سعد، حيث قال: حدثني أَبُو عَبْدِ الله مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ الْوَاقِدِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: خَرَجَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﭬ فِي تِجَارَةٍ إِلَى الشَّامِ، وَمَعَهُ بَضَائِعُ لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَأَخَذَ خُصْيَتَيْ تَيْسٍ فَدَبَغَهُمَا، ثُمَّ جَعَلَ بَضَائِعَهُمْ فِيهِمَا، ثُمَّ خَرَجَ حَتَّى إِذَا كَانَ دُونَ وَادِي الْقُرَى، وَمَعَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، لَقِيَهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ مِنْ بَنِي بَدْرٍ [(١)]، فَضَرَبُوهُ وَضَرَبُوا أَصْحَابَهُ حَتَّى ظَنُّوا أَنْ قَدْ قُتِلُوا، وَأَخَذُوا مَا كَانَ مَعَهُ ثُمَّ اسْتُبِلَّ (برأ) زَيْدٌ ﭬ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَبَعَثَهُ فِي سَرِيَّةٍ إِلَيهِمْ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٤، طبقات ابن سعد ٢/ ٩٠**].

هذا وقد جمع ابن سيد الناس بين روايتي ابن إسحاق، وابن سعد وقال: «كذا ثبت عن ابن سعد، لزيد سريتان بوادي القُرى، إحداهما في رجب، والثانية في رمضان». [**عيون الأثر ٢/ ١٤٥**].

وقال الزرقاني معلِّقًا: «وقد التبس سبب السرية الذي هو السير للتجارة بالسرية نفسها على مَن زعم أنَّ قول اليعمري، لشيخه الدمياطي، كذا ثبت عند ابن سعد لزيد سريتان بوادي القرى، إحداهما في رجب، والأخرى في رمضان، مشكل لاقتضائه أنه أُرسل غازيًا في المرَّتين لبني فزارة مع أنَّه إنَّما كان في الأولى تاجرًا اجتاز بهم، كما دلَّ عليه كلام ابن سعد، ففيه إطلاق السرية على الطائفة الخارجة للتجارة، ولا يختص ذلك بالخارجة للقتال أو تحسس الأخبار، وهو وهم فكلام ابن سعد كما علمت إنما هو في سبب غزوة زيد لهم في رمضان، مع أنَّ الثلاثة مع كونهم حُفَّاظًا متقنين لم ينفردوا بأنَّهما سريتان لزيد، بل سبقهم إلى ذلك الواقدي، وابن عائذ، وابن إسحاق، وإن خالفهم في سببها، ولم يذكر تاريخًا».

[**شرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٦٤**].

وقال في مكانٍ آخر محاولًا الجمع بين القولين: «ويجمع بتعدُّد السبب بأن يكون لما صحَّ (يعني: زيد بن حارثة ﭬ) ذهب للتجارة فنهبوه، فرجع وأخبره ﷺ». [**شرح المواهب ٢/ ١٦٤**].

== وفيها زيادات يسيرة، وكذلك ذكرها ابن سعد في الطبقات ٢/ ٩٠. مرويات الإمام الزهري للعواجي ٥٤١.

وقال د/ بريك: أخرجه أبو نعيم (دلائل٢/ ٥٣٤) والمحاملي (الأمالي ١٨٣ رقم: ١٥٧)، كلاهما من حديث إبراهيم بن يحيى بن محمد بن عباد بن هانئ الشجري عن أبيه عن ابن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة ﭫ. قلت: سنده فيه إبراهيم بن يحيى الشجري، لين الحديث (تقريب ٩٥)، وأبوه يحيى بن محمَّد ضعيف كان يتلقَّن (تقريب٥٩٦)، وفيه عنعنة ابن إسحاق فسند الحديث ضعيف. وذكر الحلبي (سيرة٢/ ١٨١)، والزرقاني (شرح ٢/ ١٦٤) عن بعضهم أنَّه خبر منكر. غزوة مؤتة ٤٨.

(١) هم بنو بدر بن عدي بن فزارة، وفيهم كانت رياسة بني فزارة في الجاهلية، وكانوا - أيضًا - يرأسون جميع غطفان وتدين لهم قيس، وإخوانهم ثعلبة بن عدي، ومنهم حذيفة بن بدر صاحب الفَرَس المعروفة بالغبراء التي هاجت - بسببها وسبب الفَرَس داحس - الحرب الشهيرة المعروفة باسميهما، ومن بني بدر بنو أُم قرفة التي ضُرِبَ بها المثل في العزَّة. المعارف ٨٣، قلائد الجمان ١١٤.

قلت: ذلك يقتضي أنَّ زيد بن حارثة ﷺ خرج ثلاث مرَّات خلال شهرين، وهو أمر متعذِّر لصعوبة المواصلات في ذلك الوقت، ومشقة السفر خاصَّةً وأنه قد ذكر أنَّ زيد قد جرح جراحًا بليغة في المرَّة الأولى حتى اعتقد بنو فزارة بأنَّه قد مات، وشفاؤه من تلك الجراح يتطلب وقتًا ليس بالقصير، كما أنه من المستبعد أن يخرج للتجارة مارًّا بديار أولئك القوم الذين بدت عداوتهم للمسلمين وخاصَّةً أنَّ زيدًا ﷺ قد غزاهم في المرَّة الأولى، فخروجه لمجرَّد التجارة يُعَدُّ مجازفة عظيمة، ما كان للنبي ﷺ أن يوافقه عليها أبدًا.

لذلك أرى أنه لا يمكن الجمع بين القولين، بل لابدَّ من ترجيح أحدهما على الآخر، وهو في نظري قول ابن إسحاق، فهو بالإضافة إلى كونه أقوى إسنادًا مدعومًا بالواقع، فالمسلمون في تلك الفترة لم يفرضوا سلطانهم على تلك المنطقة بَعْدُ، حتَّى تصبح طريقًا سالكةً لتجارتهم إلى الشام، بل كانوا في موقف المواجهة مع القبائل القاطنة في تلك المنطقة خاصَّةً وأنَّها حليفة قوية ليهود خيبر الذين كان المسلمون يعُدُّون العُدَّة السريعة لمواجهتهم بعد الحديبية، وتوقيع الهُدنة مع قريش، نظرًا لنشاطات زعمائهم المعادية للمسلمين ودورهم الكبير في تأليب الأحزاب في الخندق والذي شاركت فيه بعض تلك القبائل [1] القاطنة في تلك المنطقة بفعالية كبيرة. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٤٨-٥٢].

قائد السرية:

يقول د/ بريك: «اختلف في هذه السرية، وقائدها على قولين:

ذكر أهل المغازي المتقدمين، كابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، وابن عائذ هذه السرية، أنَّ قائدها زيد بن حارثة ﷺ، وأنَّ سلمة بن الأكوع ﷺ كان معهم في السرية، وأنه أصاب جارية جميلة من بني فزارة، ذكر أهل المغازي أنَّها بنت أُمِّ قرفة، وأنَّ رسول الله ﷺ استوهبها من سلمة، فوهبها له، فأهداها رسولُ الله ﷺ لخاله حزن بن أبي وهب.

[ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٦١٧، المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٤-٥٦٥، الطبقات لابن سعد ٢/ ٩٠-٩١].

وأخرج أهل الحديث «مسلم، وأحمد، وأبو داود، وابن ماجه، وابن أبي شيبة» عن سلمة بن الأكوع ﷺ، قال: «غَزَوْنَا فَزَارَةَ وَعَلَيْنَا أَبُو بَكْرٍ ﷺ أَمَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ عَلَيْنَا.. فذكر الحديث». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٥٥)، ومسند أحمد ٢٧/ ٢٧-٢٨ عن سلمة بن الأكوع ﷺ رقم ١٦٥٠٢، وأبو داود في الجهاد (٢٦٩٧)، والنسائي في السنن الكبرى في السير (٨٦١٢)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٦)، جميعهم من حديث عكرمة ابن عمار، عن إياس بن سلمة، عن أبيه بن الأكوع. إلا أن البعض اختصر الحديث. والله تعالى أعلم. وسيأتي نصه مفرقًا على الأحداث].

---

(١) ذكرت الروايات التاريخية أنَّ من القبائل التي شاركت بقوة في غزوة الأحزاب: قبائل غطفان، وهي فزارة، وبنو مرة، وأشجع، وغيرها. ينظر: الوفا بأخبار المصطفى ﷺ لابن الجوزي ٦٩٢. وهذه القبائل جميعها تسكن تلك المنطقة وتشارك بحلف قديم مع اليهود في خيبر وما حولها.

وذكر فيه قصة أسره لامرأةٍ من بني فزارة، ومعها ابنة لها من أحسن العرب، وأنَّ أبا بكر رضي الله عنه نفله إيَّاها، وأنه قدم بها المدينة، وأنَّ رسول الله ﷺ سأله إيَّاها فوهبها له، فبعَثَ بها رسولُ الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها ناسًا من المسلمين كانوا أسرى بمكة. [مِمَّا يجدر ذكره أنَّ أهل المغازي لم يذكروا سريَّة أبي بكر رضي الله عنه لبني فزارة، ما عدا ابن سعد (الطبقات ٢/ ١١٨) الذي عَنْوَن لها بـ (سرية أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه إلى بني كلاب بنجد، ثُمَّ يسوق بسنده عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه حديثه عن سرية أبي بكر رضي الله عنه إلى بني فزارة].

وحاول المتأخرون من أهل المغازي الجمع، أو ترجيح إحدى الروايتين على الأُخرى، فقد نقل الحلبي، والزرقاني عن الشامي الجمع بين الروايتين حيث قال: «يُحتمل أنَّهما سريتان، اتَّفق لسلمة بن الأكوع رضي الله عنه فيهما ذلك، أي إحداهما لأبي بكر، والأخرى لزيد بن حارثة، ويؤيد ذلك أنَّ في سرية أبي بكر أنَّ رسول الله ﷺ بعَثَ ببنت أُمِّ قرفة إلى مكة ففدى بها أسرى كانوا في أيدي المشركين، وفي سرية زيد وهبها لخاله حزن بمكة. قال: ولم أرَ من تعرَّض لتحرير ذلك».

[ينظر: سيرة الحلبي ٣/ ١٨١، شرح الزرقاني ٢/ ١٦٤].

وتعقَّبه الحلبي، والزرقاني، بأنَّ في هذا الجمع نظرًا؛ لأنه يقتضي أنَّ أُمَّ قرفة تعدَّدت، وأنَّ كُلَّ واحدة كانت لها بنت جميلة، وأنَّ سلمة بن الأكوع أسرهما، وأنَّه ﷺ أخذهما منه، وفي ذلك بُعد، إلاَّ أن يُقال: لا تعدُّد لأُمِّ قرفة وتسمية المرأة في سرية أبي بكر أُمِّ قرفة وَهَمٌ مِن بعض الرواة، ويدل عليه أنَّ بعضهم أوردها ولم يسم المرأة أُمَّ قرفة، بل قال: فيهم امرأة من بني فزارة معها ابنة لها من أحسن العرب.

[سيرة الحلبي ٣/ ١٨٢].

وفيه توهيم رواية الصحيح بلا حُجَّة، فإنَّ تسميتها فيه من زيادة الثقة، فما في الصحيح أصحَّ كما قال السهيلي. [شرح الزرقاني ٢/ ١٦٤].

قلت: رجَّح السُهيلي ما ورد في روايات أهل الحديث حول الجارية التي استوهبها رسول الله ﷺ من سلمة ففدى بها أسيرين من المسلمين كانوا بمكَّة على روايات أهل المغازي، ومنهم ابن إسحاق، الذين ذكروا أنه ﷺ وهبها لخاله حزن بمكَّة. [الروض الأنف للسهيلي ٧/ ٥٢٨].

ووافقه الزرقاني على ذلك مُعَمِّمًا هذا الحكم على باقي الرواة وبخاصَّةً كون القائد أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وليس زيد بن حارثة رضي الله عنه، كما ذكرت روايات أهل المغازي. [شرح الزرقاني ٢/ ١٦٤].

وقد جمع ابن حجر بين ما ذكره أهل المغازي حول قيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه للسرية، وما ذكره مسلم من رواية سلمة رضي الله عنه، وكأنه ـ أي ابن حجر ـ معتبرٌ إيَّاها قصَّةً واحدة.

[قال ابن حجر (فتح ٧/ ٤٩٨-٤٩٩، باب غزوة زيد بن حارثة رضي الله عنه) بعد أن ذكر حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: وغزوت مع زيد بن حارثة سبع غزوات يؤمره علينا - وقد تتبعت ما ذكره أهل المغازي من سرايا زيد بن حارثة فبلغت سبعًا. كما قاله سلمة، وإن كان بعضهم ذكر ما لم يذكره آخرون... ثُمَّ ساق أسماء تلك السرايا إلى أن قال: والسابعة إلى ناس من بني فزارة... ثُمَّ قال: ولعلَّ هذه الأخيرة مراد المُصَنِّف، وقد ذكر مسلم طرفًا منها من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه].

ولو أمعنا النَّظر في الروايتين: رواية أهل المغازي، ورواية أهل الحديث، لأمكن استنباط قرائن قوية تدل على اتِّحاد القصة، وأنَّ أحداثها تدور حول سرية واحدة، فمن ذلك مثلًا:

١ـ أنَّ كلتا الروايتين تشير إلى أنَّ السرية كانت موجهة لبني فزارة.

٢ـ أشارت روايات أهل الحديث أنَّ قائد السرية صبَّح القوم ثُمَّ أمر بشن الغارة عليهم دون سابق إنذار. [**وقد جعل البيهقي هذا الحديث تحت باب جواز ترك دعاء مَن بلغته الدعوة. (السنن ٩/ ١٠٧)**].

ووقع مثل ذلك في روايات أهل المغازي. [**وقع ذلك في رواية الواقدي، وابن سعد، والسبب أنهما ذكرا تفاصيل لم تذكرها الروايات الأخرى**].

مِمَّا يدل على أنَّ هدف السريتين كان هو المباغتة لتأديب أولئك الأعراب، والمباغتة لا تكون إلا لقومٍ قد بلغتهم الدعوة فأصرُّوا واستكبروا، وبدت منهم العداوة للمسلمين، وتبليغ الدعوة يكون إمَّا بكتاب يبعثه رسول الله ﷺ، أو بعثة دعوية، أو سرية سابقة كما حدث بالنسبة إلى بني فزارة، حيث أُرسل إليهم زيد بن حارثة رضي الله عنه في سرية، فقاتلوه وأصابوا أصحابه، فكانت المباغتة في السرية الثانية لأجل تأديبهم لما كان منهم في السرية الأولى، والله تعالى أعلم.

٣ ـ ذِكْر المرأة الفزارية وابنتها الجميلة اللتان أصابهما سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، ولو سمَّتهما المصادر الحديثية كما فعلت المصادر التاريخية، لحَسِمَ النِّزاع مبكرًا.

وإن كان بعض أهل المغازي المتأخرين قد ذكر ورود التسمية في بعض روايات الصحيح.
[**ينظر ما ذكره الحلبي (سيرة ٣/ ١٨٢)، والزرقاني (شرح ٢/ ١٦٤)**].

ولكن رواية مسلم التي بين أيدينا لم تُسَمِّ المرأة، وكذلك روايات أهل الحديث الأُخرى.

كُلُّ هذه القرائن تقوي الاعتقاد أنَّها سرية واحدة أُرْسِلَت إلى بني فزارة، ولكن هذه المرَّة بقيادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما ذكرت روايات أهل الحديث، ويمكن توهيم روايات أهل المغازي التي ذكرت أنَّ القائد كان زيد بن حارثة رضي الله عنه، فتوهيم روايات أهل المغازي أخف وطأة وأقل تبعية من توهيم روايات أهل الحديث بما فيها رواية الصحيح؛ لأنَّ روايات أهل المغازي على تخصصها فإنَّها جميعًا قد وردت من طرقٍ لا تخلو من مقال، وليس فيها رواية واحدة يمكن أن ترتقي إلى رواية الصحيح أو غيرها من الروايات الحديثية.

وربما وقع الوهم عند أهل المغازي بسبب ما ورد عندهم من خروج زيد بن حارثة رضي الله عنه في السريتين، وبما أنه كان قائدًا للسرية الأولى، ثُمَّ نذره بعد ذلك بسبب ما وقع له ولأصحابه من بني فزارة بغزوهم مرَّةً ثانية، فجعلوه قائدًا للسرية الثانية، ربما يكون قد خرج معهم ولم يكن قائدًا، بل أُنيطت القيادة هذه المرَّة بالصِّدِّيق أبي بكر رضي الله عنه، لكون زيد رضي الله عنه قد أُصِيبَ في المرَّة الأولى، فأراد النبيُّ ﷺ إراحته وإسناد القيادة لأبي بكر رضي الله عنه، وسمح لزيد بالخروج وفاءً لنذره، فشارك بفعالية بأحداث السرية، فوهم أهل المغازي، وذكروا أنه قائد للسرية، ولكن ما في الصحيح أصح، والله تعالى أعلم. [**غزوة مؤتة لبريك ٥٣-٥٨**].

ويقول أ/ باشميل: «اختلف المؤرخون في القائد الذي أسندت إليه قيادة هذه الحملة الكبيرة، فابن سعد يذكر في طبقاته الكبرى أن قيادة هذه الحملة أعطيت لزيد بن حارثة رضي الله عنه، بينما يذكر الإمام مسلم في صحيحه عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: أن قائد هذه الحملة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وعلى كل، فإن الروايتين ليس بينهما اختلاف في التفاصيل، ونحن نرجح رواية الإمام مسلم لأنه وصحيح البخاري أصح الكتب وأصدقها بعد كتاب الله تعالى. [**صلح الحديبية لباشميل٦٣**].

سير الأحداث:

يقول د/ بريك: «في شهر رجب من السنة السادسة من الهجرة النبوية المباركة، كما يذكر ابن سعد [**الطبقات ٢/ ٨٩**]، وصلت إلى النَّبِيِّ ﷺ معلومات هامَّة عن تحركات مُعَادية تقوم بها امرأة من بني فزارة، ذات شأن فيهم، ومنْزلة ورئاسة يُقال لها أُمُّ قرفة [(١)]، يذكر الزهري عن عروة أنَّها: «قد جهَّزت ثلاثين راكبًا من ولدها وولد ولدها، قالت: اقدموا المدينة فاقتلوا محمَّدًا! فقال النَّبِيُّ ﷺ: «**اللهم اثكلها بولدها**»، وبعث إليهم زيد بن حارثة رضي الله عنه، على رأس سرية، لم تذكر الروايات قوتها، ولكنها كانت على ما يبدو قليلة العدد.

«فالتقوا بالوادي (يعني: وادي القرى)، وقُتِلَ أصحاب زيد رضي الله عنهم» منهم:

«وَرْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ مِرْدَاسٍ رضي الله عنه (أحد بني سعد بن هذيم، كتب له النبي ﷺ في عسيب فعدا على العسيب فكسره، ثُمَّ إنَّه أسلم بعد ذلك، وغزا مع زيد بن حارثة رضي الله عنه وادي القرى فاستشهد. طبقات ابن سعد١/ ٢٨٤، الإصابة ٢/ ٨١)، وارتُثَّ (بالبناء للمجهول، أي حمل من المعركة رثيثًا أي جريحًا وبه رمق) زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ مِنْ بَيْنَ وَسْطِ الْقَتْلَى». [**ذكره ابن سيد الناس (عيون ٢/ ١٤٢) من حديث ابن عائذ بسنده عن عروة، وهو مرسل**].

«فَلَمَّا قَدِمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ رضي الله عنه آلَى [نذر] أَلَّا يَمَسّ رَأْسَهُ غُسْلٌ مِنْ جَنَابَةٍ حَتّى يَغْزُوَ بَنِي فَزَارَةَ، فَلَمّا اسْتَبَلَّ مِنْ جِرَاحَتِهِ بَعَثَهُ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَنِي فَزَارَةَ فِي جَيْشٍ، فيهم سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، ويقودهم أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، وَقَالَ لَـهُمْ ﷺ: «**اُكْمُنُوا النَّهَارَ وَسِيرُوا اللَّيْلَ**»، فَخَرَجَ بِهِمْ دَلِيلٌ لَـهُمْ. [مغازي ٢/ ٥٦٤].

يقول أ/ باشميل: «تحرك القائد الصِّدِّيق رضي الله عنه من المدينة على رأس قوة كبيرة من المهاجرين والأنصار، وكان تحركه في شهر رمضان من السنة السادسة للهجرة على ما حققه ابن حزم والسابعة على ما ذكره غيره من المؤرخين». [**صلح الحديبية لباشميل ٦٢-٦٣**].

---

(١) بكسر القاف، وسكون الراء وبالفاء، فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزارية، التي جرى فيها المثل: «أمنع من أُمِّ قِرْفة» لأنه كان يُعَلَّق في بيتها خمسون سيفًا لخمسين فارسًا كلهم لها ذو محرم، كُنِّيت بابنها قِرْفة، قتله النَّبِيُّ ﷺ فيما ذكر الواقدي، وذكر أنَّ سائر بنيها وهم تسعة قُتِلُوا مع طليحة يوم بزاخة. الروض الأنف ٧/ ٥٢٨، شرح المواهب ٢/ ١٦٣، مجمع الأمثال ٢/ ٣٩٢.

قال سلمة رضي الله عنه: «فَلَـمَّا دَنَوْنَا مِنْ الـمَاءِ (الحاضر الذي كانت تقيم عليه بنو بدر من فزارة، ربما كان في وادي القرى) أَمَرَنَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَعَرَّسْنَا (**التعريس**: النزول آخر الليل للراحة)، قَالَ: فَلَمَّا صَلَّيْنَا الصُّبْحَ، أَمَرَنَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَشَنَنَّا الْغَارَةَ (**شن الغارة**: أي فرّقها عليهم من كُلِّ جانب)، فَقَتَلْنَا عَلَى المَاءِ مَنْ قَتَلْنَا، فَكَانَ شِعَارُنَا: **أَمِتْ أَمِتْ**، قال: فَقَتَلْتُ بِيَدِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ سَبْعَةَ أَهْلِ أَبْيَاتٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». [أخرجه أبو داود. (انظر: عون المعبود، حديث رقم: ٢٦٢١)، وابن سعد، (الطبقات ٢/ ١١٨)، واللفظ له، والنسائي (السنن الكبرى ٥/ ٢٧١)، وابن ماجه (السنن، حديث رقم: ٢٨٤)، وأحمد (المسند، حديث رقم: ١٦٥١٦)، كلّهم من حديث عكرمة بن عمار، نحوه].

«وَأَنْظُرُ إِلَى عُنُقٍ (**العُنق**: الجماعة) مِنَ النَّاسِ فِيهِمُ الذَّرَارِيُّ، فَخَشِيتُ أَنْ يَسْبِقُونِي إِلَى الْجَبَلِ، فَرَمَيْتُ بِسَهْمٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَبَلِ، فَلَـمَّا رَأَوُا السَّهْمَ وَقَفُوا، فَجِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ، وَفِيهِمُ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ عَلَيْهَا قِشْعٌ مِنْ أَدَمٍ (جمع أديم وهو الجلد المدبوغ) ـ قَالَ: الْقِشْعُ (الفرو القديم البالي): النِّطَعُ (البساط من الجلد) ـ مَعَهَا ابْنَةٌ لَهَا مِنْ أَحْسَنِ الْعَرَبِ، فَسُقْتُهُمْ حَتَّى أَتَيْتُ بِهِمْ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه فَنَفَّلَنِي(أي أعطاني زيادة على السهم) أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه ابْنَتَهَا».

ويجزم أهل المغازي أنَّ تلك المرأة هي أُم قرفة. [ينظر: السيرة لابن هشام ٤/ ٦١٧، المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٥، الطبقات لابن سعد ٢/ ٩١، دلائل النبوة لأبي نعيم ٢/ ٥٣٥، السيرة للحلبي ٣/ ١٨٠، شرح المواهب للزرقاني ٢/ ١٦٤].

وأنَّها قُتِلَت، وقُتِلَ بعض ولدها.

[ينظر: رواية الزهري عن عروة عند أبي نعيم: دلائل ٢/ ٥٣٥، والسهيلي: الروض ٧/ ٥٢٨].

وذكرت بعض الروايات أنَّها قُتِلَت قتلًا عنيفًا.

[المصادر السابقة، وذكر السهيلي، وابن سيد الناس نقلًا عن الدولابي أنَّها قتلت كذلك لسَبِّها رسول الله ﷺ].

«وأنه بُعِثَ برأسها إلى رسول الله ﷺ، فأمر به فديرَ به في المدينة ليُعلم قتلها».

[ذكر ذلك المقريزي (إمتاع ١/ ٢٧٠)، وهي زيادة منكرة تفرَّد بها، ولا أدري مِن أين جاء بها].

وهذه الروايات إسنادها ضعيف، وتعارضها الأحاديث الصحيحة التي تأمر بإحسان القتل، وتنهى عن المُثْلَة، كما أنه لم يثبت أنه حُمِلَ رأس أحد من الرجال أو من النساء إلى رسول الله ﷺ.

يقول: د/ رزق الله: «ورواية أهل الحديث هي المقبولة لأنها تتمشى في متنها مع وصايا رسول الله ﷺ في عدم قتل النساء، هذا إلى جانب صحتها من ناحية السند.

أما رواية أهل المغازي، فهي مضطربة من ناحية المتن، ومخالفة لأمر النبي ﷺ في النهي عن قتل الأسرى من النساء، وعدم التمثيل بالقتلى، وضعيفة من ناحية السند، فلا يحتج بها».

[السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية لرزق الله ٤٧٦، وقال في الهامش: ينظر: سرية زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بني فزارة دراسة نقدية للروايات التاريخية ـ د/ عبد العزيز الهلابي ـ مجلة كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود سنة ١٩٨٦م ـ م ١٣ ص ٦١-٨٢]. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٦٢-٦٥].

وَقَتَلَ قَيْسُ بْنَ الْمُسَحَّرِ الْيَعْمُرِيُّ مَسْعَدَةَ بْنَ حَكَمَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦١٧].

سَرِيَّة سلمة بن الأكوع رضي الله عنه:

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: غَزَوْنَا فَزَارَةَ، وَعَلَيْنَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه أَمَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْنَا، فَلَمَّا كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمَاءِ سَاعَةٌ أَمَرَنَا أَبُو بَكْرٍ فَعَرَّسْنَا، ثُمَّ شَنَّ الْغَارَةَ فَوَرَدَ الْمَاءَ فَقَتَلَ مَنْ قَتَلَ عَلَيْهِ وَسَبَى، وَأَنْظُرُ إِلَى عُنُقٍ مِنَ النَّاسِ فِيهِمُ الذَّرَارِيُّ، فَخَشِيتُ أَنْ يَسْبِقُونِي إِلَى الْجَبَلِ، فَرَمَيْتُ بِسَهْمٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَبَلِ، فَلَمَّا رَأَوُا السَّهْمَ وَقَفُوا، فَجِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ، وَفِيهِمُ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ عَلَيْهَا قِشْعٌ مِنْ أَدَمٍ - قَالَ: الْقِشْعُ: النِّطَعُ - مَعَهَا ابْنَةٌ لَهَا مِنْ أَحْسَنِ الْعَرَبِ، فَسُقْتُهُمْ حَتَّى أَتَيْتُ بِهِمْ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه فَنَفَّلَنِي أَبُو بَكْرٍ ابْنَتَهَا، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَمَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا (كناية عن عمل الجماع)، فَلَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي السُّوقِ فَقَالَ: «**يَا سَلَمَةُ هَبْ لِي الْمَرْأَةَ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ لَقَدْ أَعْجَبَتْنِي، وَمَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا، ثُمَّ لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْغَدِ فِي السُّوقِ، فَقَالَ لِي: «**يَا سَلَمَةُ هَبْ لِي الْمَرْأَةَ للهِ أَبُوكَ** (قال أبو البقاء: هو في حكم القسم)»، فَقُلْتُ: هِيَ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَوَاللهِ مَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا، فَبَعَثَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ فَفَدَى بِهَا نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا أُسِرُوا بِمَكَّةَ. [مسلم في الجهاد والسير (١٧٥٥)].

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ رضي الله عنه، وَأَمَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْنَا، قَالَ: غَزَوْنَا فَزَارَةَ، فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنَ الْمَاءِ أَمَرَنَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَعَرَّسْنَا، قَالَ: فَلَمَّا صَلَّيْنَا الصُّبْحَ أَمَرَنَا أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَشَنَنَّا الْغَارَةَ، [فَوَرَدْنَا الْمَاءَ فَقَتَلَ أَبُو بَكْرٍ مَنْ قَتَلَ وَنَحْنُ مَعَهُ] فَقَتَلْنَا عَلَى الْمَاءِ مَنْ قَتَلْنَا، قَالَ سَلَمَةُ رضي الله عنه: ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى عُنُقٍ [فَرَأَيْتُ عُنُقًا] مِنَ النَّاسِ، فِيهِ [فِيهِمْ] الذُّرِّيَّةُ [الذَّرَارِيُّ] وَالنِّسَاءُ نَحْوَ الْجَبَلِ، وَأَنَا أَعْدُو فِي آثَارِهِمْ، فَخَشِيتُ أَنْ يَسْبِقُونِي إِلَى الْجَبَلِ [فَأَدْرَكْتُهُمْ]، فَرَمَيْتُ بِسَهْمٍ فَوَقَعَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَبَلِ [فَقَامُوا] [فَلَمَّا رَأَوْا السَّهْمَ]، قَالَ: فَجِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ [أَسُوقُهُنَّ] إِلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه حَتَّى أَتَيْتُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَفِيهِمْ [فَإِذَا] امْرَأَةٌ مِنْ فَزَارَةَ، عَلَيْهَا قَشْعٌ مِنْ أَدَمٍ، وَمَعَهَا ابْنَةٌ لَهَا مِنْ أَحْسَنِ الْعَرَبِ، قَالَ: فَنَفَّلَنِي أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه ابْنَتَهَا، قَالَ: فَمَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا حَتَّى قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ، ثُمَّ بِتُّ [بَاتَتْ عِنْدِي] فَلَمْ أَكْشِفْ لَهَا ثَوْبًا، قَالَ: فَلَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي السُّوقِ فَقَالَ لِي: «**يَا سَلَمَةُ هَبْ لِي الْمَرْأَةَ**»، قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ لَقَدْ أَعْجَبَتْنِي، وَمَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَرَكَنِي، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي السُّوقِ، فَقَالَ: «**يَا سَلَمَةُ هَبْ لِي الْمَرْأَةَ للهِ أَبُوكَ**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ أَعْجَبَتْنِي مَا كَشَفْتُ لَهَا ثَوْبًا، وَهِيَ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: فَبَعَثَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وَفِي أَيْدِيهِمْ أُسَارَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَفَدَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ. [مسند أحمد ٢٧ / ٢٧- ٢٨، ٦٥ -٦٦ رقم ١٦٥٠٢، ١٦٥٣٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأبو داود في الجهاد (٢٦٩٧)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وَعَنْ إياس بن سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ غَزَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، قَالَ: فَبَيَّتْنَا الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ شِعَارُنَا: **أَمِتْ أَمِتْ**، قَالَ: فَقَتَلْتُ سَبْعَةَ أَبْيَاتٍ بِيَدِي، فَنَفَّلَنِي أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه امْرَأَةً مِنْ بَنِي فَزَارَةَ مِنْ

أَحْسَنِ الْعَرَبِ، فَقَدِمْتُ بِهَا، فَلَقِيتُ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**هَبْ لِي الـمَرْأَةَ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، وَالله لَقَدْ أَعْجَبَتْنِي، وَمَا كَشَفْتُ لَهَا عَنْ ثَوْبٍ، ثُمَّ لَقِيتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي السُّوقِ، فَقَالَ: «**يَا سَلَمَةُ هَبْ لِي الـمَرْأَةَ لله أَبُوكَ**»، قُلْتُ: هِيَ لَكَ يَا رَسُولَ الله!، فَأَخَذَهَا فَبَعَثَ بِهَا إِلَى مَكَّةَ، فَفَادَى بِهَا أَسْرَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كَانُوا فِي أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَتْ لَهَا أُمٌّ عِنْدَهُمْ. [السنن الكبرى للنسائي في السير (٨٦١٢)].

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه زَمَنَ النَّبِيِّ ﷺ، فَكَانَ شِعَارُنَا: **أَمِتْ أَمِتْ**.

[أبو داود في الجهاد (٢٥٩٦)، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح].

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: بَيَّتْنَا هَوَازِنَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه، وَكَانَ أَمَّرَهُ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ.

[مسند أحمد ٢٧/ ٢٣ رقم ١٦٤٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه هَوَازِنَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَتَيْنَا مَاءً لِبَنِي فَزَارَةَ فَعَرَّسْنَا حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ شَنَنَّاهَا عَلَيْهِمْ غَارَةً، فَأَتَيْنَا أَهْلَ مَاءٍ فَبَيَّتْنَاهُمْ، فَقَتَلْنَاهُمْ تِسْعَةً أَوْ سَبْعَةَ أَبْيَاتٍ. [ابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٠)، قال الشيخ الألباني: حسن].

وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: أَمَّرَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَيْنَا أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه، فَغَزَوْنَا نَاسًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَبَيَّتْنَاهُمْ نَقْتُلُهُمْ، وكَانَ شِعَارُنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ: **أَمِتْ أَمِتْ**.

قَالَ سَلَمَةُ رضي الله عنه: «فَقَتَلْتُ بِيَدِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ سَبْعَةَ أَهْلِ أَبْيَاتٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

[أبو داود في الجهاد (٢٦٣٨)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه هَوَازِنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ، فَنَفَّلَنِي جَارِيَةً مِنْ بَنِي فَزَارَةَ مِنْ أَجْمَلِ الْعَرَبِ، عَلَيْهَا قِشْعٌ لَهَا، فَمَا كَشَفْتُ لَهَا عَنْ ثَوْبٍ حَتَّى أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَلَقِيَنِي النَّبِيُّ ﷺ فِي السُّوقِ، فَقَالَ: «**لله أَبُوكَ هَبْهَا لِي**»، فَوَهَبْتُهَا لَهُ، فَبَعَثَ بِهَا فَفَادَى بِهَا أُسَارَى مِنْ أُسَارَى الْمُسْلِمِينَ كَانُوا بِمَكَّةَ. [ابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٦)، وقال الشيخ الألباني: حسن].

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه فِي غَزَاةِ هَوَازِنَ، فَنَفَّلَنِي جَارِيَةً فَاسْتَوْهَبَهَا رَسُولُ الله ﷺ، فَبَعَثَ بِهَا إِلَى مَكَّةَ فَفَدَى بِهَا أُنَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

[مسند أحمد ٢٧/ ٣٣ رقم ١٦٥٠٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح].

وقال الواقدي: وَأَقْبَلَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ رضي الله عنه بِالْجَارِيَةِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ جَمَالَهَا، فَقَالَ: «**يَا سَلَمَةُ مَا جَارِيَةٌ أَصَبْتَهَا؟**»، قَالَ: جَارِيَةٌ يَا رَسُولَ الله رَجَوْت أَنْ أَفْتَدِيَ بِهَا امْرَأَةً مِنَّا مِنْ بَنِي فَزَارَةَ، فَأَعَادَ رَسُولُ الله ﷺ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا يَسْأَلُهُ: «**مَا جَارِيَةٌ أَصَبْتَهَا؟**»، حَتَّى عَرَفَ سَلَمَةُ أَنَّهُ يُرِيدُهَا، فَوَهَبَهَا لَهُ، فَوَهَبَهَا رَسُولُ الله ﷺ لِحَزْنِ بْنِ أَبِي وَهْبٍ، فَوَلَدَتْ لَهُ امْرَأَةً لَيْسَ لَهُ مِنْهَا وَلَدٌ غَيْرُهَا.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٥].

استقبال الرسول ﷺ لزيد بن حارثة ﷺ:

ويذكر عروة أنَّ زيد بن حارثة ﷺ لـمَّا قدم المدينة مع أهل السرية أقبل إلى رسول الله ﷺ «قال الواقدي: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ ﷺ، قَالَتْ: وَقَدِمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ﷺ مِنْ وَجْهِهِ ذَلِكَ وَرَسُولُ الله ﷺ فِي بَيْتِي، فَأَتَى زَيْدٌ فَقَرَعَ الْبَابَ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ يَجُرّ ثَوْبَهُ عُرْيَانًا، مَا رَأَيْتُهُ عُرْيَانًا قَبْلَهَا، حَتَّى اعْتَنَقَهُ وَقَبَّلَهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ بِمَا ظَفَّرَهُ اللهُ». [مغازي الواقدي ٢/ ٥٦٥].

نجاح الحملة:

يقول أ/ باشميل: «وقد حققت حملة الصِّدِّيق ﷺ العسكرية التأديبية أهدافها، فقد بث الله الرعب في نفس بني بدر (من فزارة).

إذ لم يكادوا يشعرون بوصول أبي بكر الصِّدِّيق ﷺ برجاله حتى عمهم الذعر والخوف فلم يبدوا أية مقاومة، بل أخذوا في الفرار أشتاتًا.

إلا أن المسلمين حالوا بينهم وبين ذلك فقتلوا عددًا منهم وأسروا عددًا آخر بمن فيهم (أم قرفة) فاطمة بنت ربيعة بن بدر وابنتها جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر.. وهي من أجمل بنات العرب.

أما (أم قرفة) فكانت امرأة شيطانة، وكانت (بَرْزة مسترجلة) وفي شرف من قومها تحتل بينهم مكان القائد والزعيم.

وكان يُعَلَّق في بيتها خمسون سيفًا كل هذه السيوف لها مَحْرَم، وكان لها اثنا عشر ولدًا كلهم يحمل السلاح.

ومن ثم كانت العرب: تضرب بها المثل في العزة، فتقول: لو كنتَ أعز من أم قرفة.

أم قرفة تحاول اغتيال النبي ﷺ:

وقد كانت هذه الشيطانة (أم قرفة) على أشد ما تكون من البغض للنبي ﷺ؛ لذا صممت على اغتياله داخل المدينة.

فجهزت ثلاثين فارسًا من ولدها وولد ولدها وأمرتهم بالذهاب إلى المدينة لكي يقوموا باغتيال الرسول ﷺ إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك. [ينظر: السيرة الحلبية ٢/ ٣٠٣].

ويظهر أن (أم قرفة) هذه كانت القائد الفعلي لقومها من بني بدر، يدل على ذلك أن بعض المؤرخين أسمى هذه الحملة التي أُسرت فيها قرفة وابنتها (بسرية أم قرفة).

[ينظر: طبقات ابن سعد ٢/ ٩٠، ومغازي الواقدي ٢/ ٥٦٥].

أما كيف حققت الحملة أهدافها فقد ذكر المؤرخون أن رجال الحملة المسلمين شنوا الغارة على بني بدر في عماية الصبح، بعد أن فرغوا من أداء فريضة الصلاة، كما سبق بيانه في رواية مسلم».

[صلح الحديبية لباشميل ٦٣-٦٤].

شِعْرُ ابْنِ الْمُسَحَّرِ رضي الله عنه فِي قَتْلِ مَسْعَدَةَ:

قَالَ قَيْسُ بْنُ الْمُسَحَّرِ رضي الله عنه فِي قَتْلِ مَسْعَدَةَ:

سَعَيْتُ بِوَرْدٍ مِثْلَ سَعْيِ ابْنِ أُمِّهِ ... وَإِنِّي بِوَرْدٍ فِي الحَيَاةِ لَثَائِرُ [1]

كَرَرْتُ عَلَيْهِ الْمُهْرَ لَمَّا رَأَيْتُهُ ... عَلَى بَطَلٍ مِنْ آلِ بَدْرٍ مُغَاوِرِ [2]

فَرَكَّبْتُ فِيهِ قَعْضَبِيًّا كَأَنَّهُ ... شِهَابٌ بِمَعْرَاةٍ يُذَكَّى لِنَاظِرِ [3]

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٨/ ٢٦٤-٢٦٥، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢١ + ٧٢٣ + ٧٤٧.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٥٤١-٥٤٢، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦١٧-٦١٨، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٦٤، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨٥ + ٨٦، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٢٩٠-٢٩١، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤١٦-٤١٧، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٥، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٣٥٩، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٧٠-٢٧١، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٤٦- ١٤٧ + ١٤٨ + ١٥٧-١٦١.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: صحيح السيرة النبوية للعلي ٣٦٦، السيرة النبوية لرزق الله ٤٧٣ + ٤٧٤-٤٧٦.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٥٥ + ٦١-٦٦، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٩٥، فقه السرايا للعيساوي ١٤١ + ١٥٠ + ١٦٧-١٦٨ + ١٩١-١٩٥، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٤٤-٧٠.

---

(١) **ثائر**: آخذ بثأره.

(٢) **المغاور**: الكثير الإغراء.

(٣) **قعضبيًّا**: سنانًا منسوبًا إلى قضعب، رجل كان يصنع الأسنة. **المعراة**: الموضع الذي لا يستره شيء. **يذكى**: يشعل.

خرائط سرية زيد ثم أبي بكر رضي الله عنهما إلى بني فزارة بوادي القرى

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥٣.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى نجد.

المبحث الثاني

الدروس والعبر المستفادة من

سَرِيَّةِ زَيْدٍ ثُمَّ أبي بَكْرٍ رضي الله عنهما إِلَى بَنِي فِزَارَةَ بِوَادِي القُرَى

١ ـ من تربية جيل الصبر إلى تربية جيل النصر:

يقول د/ الغضبان: «نحن أمام مرحلة جديدة على أعتاب صلح الحديبية، وعلى أعتاب استقرار دولي وامتداد عالمي للأمة المسلمة، فلابد أن يهيأ هذا الجيل لهذه المرحلة، والشخصيات الكبرى فيه هي التي تقود الأمة إلى معالم النصر، من خلال غزو العدو وبث الرعب فيه، ولابد أن تظهر جلية أخلاقيات المنتصرين الآن في شريعة الله، حيث تذوب الذات، والأنانيات، والغرور، والاعتداد بالنفس، ليحل محلها الطاعة والانقياد لله.

والبراءة من الذات وربط النصر بالله ﷻ، ثم إفساح المجال أمام الطاقات الجديدة المنضمة حديثًا للإسلام، لتمارس دورها العظيم في عملية البناء، وسنشهد بعض معالم هذه التربية من خلال هذه السرايا الخمس، التي سبقت الحديبية وفي النصف الثاني من السنة السادسة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٦١].

٢ ـ المولى الأول في الإسلام:

يقول د/ الغضبان: «زيد بن حارثة رضي الله عنه هو المولى الأول في الإسلام، وهو حِبُّ رسول الله ﷺ ومتبناه، وقد ركزت عليه الأنظار والمهمات في هذه المرحلة، فلم يكن يَرِدْ من سرية إلا ويعود إلى أخرى، وقاد في عام واحد سبع سرايا لرسول الله ﷺ كان هو الأمير فيها بلا منازع، وكما تقول عائشة رضي الله عنها: «**ما بعث رسول الله ﷺ زيدًا في جيش قط إلا أمره عليهم، ولو بقي بعده استخلفه**».

[سير أعلام النبلاء ١/ ٢٢٨، وقال المحقق فيه: «أخرجه أحمد، وابن سعد في «الطبقات»، وأبو بكر ابن أبي شيبة كما في «أسد الغابة»، ثلاثتهم من طريق: محمد بن عبيد الطنافسي، عن وائل ابن داود، عن البهي، عن عائشة، وهذا سند حسن»].

فهو إذن من أعرق القادة عند النبي ﷺ، ويكفي أن نذكر أنه أمَّره على الجيش الذي فيه ابن عمه جعفر بن أبي طالب ذو الجناحين رضي الله عنه وشبيه رسول الله ﷺ خَلقًا وخُلُقًا.

وقد رأينا من قبل مدى تخلقه بخلق النبوة وتأثره بقائده الحبيب ﷺ حتى ليؤثره على أبيه وأمه وأهله وهو في الجاهلية، فقد أتيح له من رحيق النبوة ما لم يتح لمثله من قبل إلا مَنْ يعدون على الأصابع: الصِّدِّيق، وخديجة، وعلي ـ رضوان الله عليهم ـ وكان هو رابع هؤلاء الأربعة، وقد شهد له رسول الله ﷺ فيما بعد في الجنة.

وكان خروج زيد رضي الله عنه في رجب خروج تجارة لا خروج معركة، وكان يحاول الاستخفاء مع أصحابه عن عيون الناس، (وكان سببها أن زيد بن حارثة رضي الله عنه خرج في تجارة إلى الشام، ومعه بضائع لأصحاب النبي ﷺ فلما كان بوادي القرى) لفظ ابن سعد: دون وادي القرى (لقيه ناس من فزارة من بني بدر

فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم) وهذا ظاهر في لقيهم لهم له في ذهابه من المدينة إلى الشام (وقدم على رسول الله ﷺ فأخبره وخبره) وأما ابن إسحاق فقال: إن زيدًا لما لقي بني فزارة بوادي القرى في سريته التي قبل هذه، وأصيب ناس من أصحابه، وارتث زيد من بين القتلى، حلف ألا يمس رأسه غسل جنابة حتى يغزو بني فزارة، ويجمع بتعدد السبب بأن يكون لما صح ذهب للتجارة فنهبوه، فرجع وأخبره ﷺ (فبعثه ﷺ إليهم) في جيش». [شرح المواهب اللدنية للزرقاني ٢/ ١٦٣].

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٨٢-١٨٣].

٣ ـ غطفان وبنو فزارة:

يقول د/ الغضبان: «نستطيع أن نقول: إن العام السادس للهجرة، وبعد الخندق، لم يكن يخلو كله من صراع مع غطفان التي بقيت في حقدها تحاول أن تنال من الإسلام والمسلمين.

ولابد لنا أن نعرض لبني فزارة بإسهاب، فلهم السهم الأوفى في هذه المواجهة.

يقول ابن حزم في كتابه جمهرة أنساب العرب: (وأما بنو بدر بن عمرو.. ابن فزارة فهم بيت فزارة وعددهم، وبنوه (أي بدر) حذيفة الذي يقال له: رب معد، وحَمَل، المقتولان يوم الهباءة، ومالك وعوف المقتولان في أمر داحس، والغبراء، والحارث وربيعة وزبان وزيد سادوا كلهم.

فأما حمل فلم يعقب، وولدُ حذيفة، حصن بن حذيفة، وندبة بن حذيفة قتل إثر أمر داحس، ومالك بن حذيفة، وورد بن حذيفة، وشريك بن حذيفة، وعقبة بن حذيفة.

وولد حصن عشرة ذكور منهم: قيس بن حصن، وعيينة بن حصن ـ كان رسول الله ﷺ يسميه الأحمق المطاع ـ وخارجة بن حصن، وحسان بن حصن، وجابية بن حصن، وعقبة بن حصن، وعمرو بن حصن.

وولد عيينة بن حصن: عمران، وأبان، وعلي، وسعيد، وعقبة، وحبيب، وزيد، وعنبسة.

وولد ربيعة بن بدر: أم قرفة، وهي التي أمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه بقتلها، فقتلها وقتل جميع بنيها، وكانت تحت مالك بن حذيفة بن بدر، فولدت له خرشة، وجبلة، وحكمة، وزفر ومعاوية، وأرطأة، وحصين، وعبيد، وشهرباء، وقيس، وحصن، ومرثد..). [جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٢٥٦، ٢٥٧].

ولقد وجهت أعظم الشخصيات لمواجهة بني فزارة وسيدها عيينة بن حصن حيث كانت سرية الصِّدِّيق رضي الله عنه إليها، وهذه السرية الثانية لزيد بن حارثة رضي الله عنه.

وكان من الممكن أن تكون نهاية زيد رضي الله عنه على يد بني فزارة، لكن الله تعالى أمد في عمره، وارتث من بين القتلى، ومضى إلى المدينة، وأقسم ألا يمس رأسه غسل من جنابة؛ حتى يثأر من بني فزارة الذين نهبوه وقتلوا من معه وهم في طريقهم في تجارتهم إلى الشام». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٨٣-١٨٤].

٤ ـ أم قرفة وعداوة النبي ﷺ:

يقول د/ الغضبان: «وأم قرفة هذه، هدف رئيس من أهداف السرية حتى إن بعض كتب السيرة تشير إلى هذه السرية بأنها لهذا الهدف بالذات كما هو الحال في المواهب اللدنية للقسطلاني، حيث ذكر (سرية زيد إلى أم قرفة) بكسر القاف وسكون الراء وبالفاء وتاء تأنيث (فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزارية، التي جرى فيها المثل «أمنع من أم قرفة»؛ لأنها كان يعلق في بيتها خمسون سيفًا لخمسين رجلًا كلهم لها محرم، كنيت بابنها قرفة، قتله ﷺ فيما ذكره الواقدي، وذكر أن سائر بنيها قُتلوا مع طُليحة يوم بزاخة في الردة، وذكر أن عبد الله بن جعفر أنكر عليه ذلك وهو الصحيح كذا في (الروض) وفي (الزهر الباسم) أن ولدها اثنا عشر، فلا منافاة فالبنون عشرة وبنتان... (وأخذوا أم قرفة وكانت ملكة رئيسة) وعند ابن إسحاق وكانت في بيت شرف من قومها كانت العرب تقول: لو كنت أعز من أم قرفة ما زدت (وأخذوا ابنتها جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر وعمد قيس بن المحسر) الكناني الليثي إلى أم قرفة وهي عجوز كبيرة، زاد ابن إسحاق في رواية يونس فأسرها وابنتها وقتل مسعدة ابن حكمة بن مالك بن بدر فأمره زيد بن حارثة (فقتلها قتلًا عنيفًا). [شرح المواهب اللدنية للإمام الزرقاني ٢/ ١٦٣].

ولا عجب أن تضع خمسين سيفًا في بيتها لرجال كلهم محارم لها، فما ذكره ابن حزم في الجمهرة يؤكد ذلك، فأعمامها وأبوها ثمانية، وأولادها عشرة، ولم يتعرض لإخوانها وأولادهم كما لم يتعرض لأولاد أولادها، وأبناء أخواتها وغيرهم من محارمها؛ ومن أجل هذا استغلت هذا العز والشرف، ووجهته كله لحرب محمد ﷺ، وارثت بنيها وإخوانها، وأبناء قبيلتها جميعًا الحقد على الإسلام، وأهله، وكما تقول بعض روايات السيرة أنها جهزت ثلاثين راكبًا من ولدها وولد ولدها، وقالت: اغزوا المدينة واقتلوا محمدًا) [المصدر السابق ٢ / ١٦٣]، فكأنها كانت بؤرة التجمع الكبرى عند بني فزارة، تقود المواجهة المحتمة للإسلام، ويلتف قومها كلهم حولها، حيث بلغت شهرتها الآفاق، وصارت مضرب المثل في الشرف والسيادة، وإن كان عيينة بن حصن بالمقابل هو الذي انتهت إليه سيادة بني فزارة، ومضى في حرب لا هوادة فيها ضد الإسلام والمسلمين». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٨٤-١٨٥].

٥ ـ الصراع بين المسلمين وغطفان:

يقول د/ الغضبان: «وكأنما الساحة غدت صراع بقاء وصراع خفاء بين الحزبين الكبيرين في الساحة العربية؛ وذلك لتجاورهما المباشر في الصراع، فغطفان يمتدون خارج المدينة من أكثر من اتجاه، وفزارة أقوى قبائلهم، وهم الذين تمرسوا في الحرب وأفنوا حياتهم فيها في حرب داحس والغبراء، بحيث أمضوا عشر سنين حتى أفنتهم الحرب وأكلت أخضرهم ويابسهم، وها هم يريدون الآن أن يعيدوها جذعة جديدة بين المسلمين وبينهم؛ وذلك لوجود حليف قوي قريب ومجاور لهم وهذا الحليف هو اليهود في

خيبر، وخاصة بعد مقتل زعيمهم أبي رافع سلام بن أبي الحقيق، واجتماع اليهود على أسير بن رزام الذي أعلن خطته بقوله: أسير في غطفان فأجمعهم، ونسير إلى محمد في عقر داره فإنه لم يُغز أحد في عقر داره إلا أدرك منه عدوه بعض ما يريد. قالوا له: نعم ما رأيت. [**سبل الهدى والرشاد للصالحي ٦/ ١٧٦**].

إننا نلحظ جانب العنف في هذه المواجهات من خلال قتل أم قرفة، وقتل ابني مسعدة بن حكمة بن مالك بن عبد، وأسر اثنين من أكبر أشرافهم وهما عبد الله بن مسعدة الأخ الثالث للقتيلين، وجارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر بنت القتيلة الثالثة أم قرفة، ثم تفرق بني فزارة على أثر المواجهة، رغم أنهم بذلوا جهدًا مضنيًا خلال شهرين وهم يحرسون الطرق حتى لا يفجؤهم جيش محمد ﷺ وكان خطأ دليل المسلمين رحمة ربانية لجنود الله في فجاج هذه الصحراء، حيث نزلوا على عدوهم من المكان الذي أخطأ بهم دليلهم فيه حيث صبَّحوهم وقد أحاطوا بالحاضر، وكبَّر زيد وكبَّر أصحابه، وحققوا الهدف الكبير في الإغارة على هؤلاء الأعراب». [**التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٨٥**].

٦ـ البطل الجديد سلمة بن الأكوع رضي الله عنه:

يقول د/ الغضبان: «والبطل الذي برز لنا من جديد ولأول مرة هو سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي رضي الله عنه وهو ابتداء من أسلم التي قال رسول الله ﷺ فيها: «**غِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ**».

وكان أول لقاء بين أسلم ورسول الله ﷺ عند الهجرة عندما انضم بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ مع أربعين من قومه، وحمل لواء دخل به المدينة بين يدي رسول الله ﷺ، وكانت أوامر النبي رضي الله عنه إلى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه من بني غفار، وبريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه من أسلم، أن يمكثا في قومهما يدعونهم إلى الإسلام.

ففي رواية مسلم في إسلام أبي ذر رضي الله عنه: فَاحْتَمَلْنَا حَتَّى أَتَيْنَا قَوْمَنَا غِفَارَ، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمْ، وَكَانَ يَؤُمُّهُمْ إِيمَاءُ بْنُ رَحَضَةَ الْغِفَارِيُّ، وَكَانَ سَيِّدَهُمْ، وَقَالَ نِصْفُهُمْ: إِذَا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ أَسْلَمْنَا، فَقَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ، فَأَسْلَمَ نِصْفُهُمُ الْبَاقِي.

وَجَاءَتْ أَسْلَمُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِخْوَتُنَا، نُسْلِمُ عَلَى الَّذِي أَسْلَمُوا عَلَيْهِ، فَأَسْلَمُوا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**غِفَارُ غَفَرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ**». [**مسلم في فضائل الصحابة رضي الله عنهم (٢٤٧٣)**].

ومضت بدر وأحد حيث انضم الداعيتان إلى المدينة فأقاما فيها، وبدأت أفواج أسلم وغفار ترد المدينة بعد الخندق.

وكان سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي رضي الله عنه من هذه الأفواج: حيث يصف نفسه بقوله: وَكُنْتُ تَبِيعًا لِطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ الله، أَسْقِي فَرَسَهُ، وَأَحُسُّهُ وَأَخْدُمُهُ، وَآكُلُ مِنْ طَعَامِهِ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي مُهَاجِرًا إِلَى الله وَرَسُولِهِ ﷺ. [**مسلم في الجهاد والسير (١٨٠٧)**].

وجاء إلى المدينة متدفقًا متلهفًا متشوقًا ليجاهد في سبيل الله، فيقول: (غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، ومع زيد بن حارثة رضي الله عنه تسع غزوات حين أَمَّره رسول الله ﷺ علينا).

وحين نعود إلى هذه الغزوات التسع مع زيد ـ رضوان الله عليه ـ نلاحظ أنها كانت كلها بعد الخندق، وهي:

١ـ سرية بن زيد بن حارثة إلى مدين. ٢ ـ إلى بني سليم في الجموم. ٣ـ إلى العيص.

٤ـ إلى الطرف. ٥ـ إلى جذام من أرض حسمى. ٦ـ إلى وادي القرى في رجب.

٧ـ إلى وادي القرى في رمضان. ٨ـ إلى أم قرفة. ٩ـ إلى مؤتة.

وقد كانت هذه السرايا جميعا خلال السنة السادسة والسابعة، وانتهت بمؤتة حيث استشهد زيد رضي الله عنه في جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة، فهو يخوض خمس عشرة غزوة في ثلاث سنين، ولا يكتفي أن يكون مع رسول الله ﷺ في غزواته وكأنما خُلق للحرب، وستطالعنا بطولاته فيما بعد.

ونشهده هنا وقد استطاع بسهم واحد أن يرميه بين الجبل وبين مجموعة من الناس فيهم الرجال والذراري والنساء أن يوقف تقدمهم نحو الجبل، ويقودهم جميعًا أسرى بين يديه، وفي ذلك مهارة فائقة في كيفية الانقضاض على العدو، وبأقل قدر من الخسائر يستاق هؤلاء الأسرى جميعًا، أي بسهم واحد بينهم وبين الجبل.

ويظهر لنا أثر إسلامه العظيم، وقد رأى في هذا الركب أجمل نساء العرب، فلم تقع عينه قبل ذلك على أجمل منها، وفي غمرة انتصاره وفوزه بهؤلاء الأسرى من النساء، لم يَنْكَب على هذه الجميلة الفائقة الجمال بلا وعي ولم يفقد أعصابه أو ينهار وراء غريزته، كما يمكن أن يفعل في الجاهلية، وقد صاروا سبيًا له، إنما كان منضبطًا بدينه وإسلامه ابتداء، ومضى بهؤلاء الأسرى إلى أميره أبي بكر الصديق رضي الله عنه: (فَجِئْتُ بِهِمْ أَسُوقُهُمْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه حَتَّى أَتَيْتُهُ عَلَى المَاءِ، وَفِيهِمْ امْرَأَةٌ مِنْ فَزَارَةَ، عَلَيْهَا قَشْعٌ مِنْ أَدَمٍ، وَمَعَهَا ابْنَةٌ لَهَا مِنْ أَحْسَنِ العَرَبِ، قَالَ: فَنَفَّلَنِي أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه ابْنَتَهَا).

ها هي إذن صارت حلالًا له بعد أن نفله إياها الأمير، ومع ذلك فتمالك نفسه حتى عن حلاله، (فقدمت المدينة وما كشفت لها ثوبًا).

إنها العفة العظيمة التي تمثل خلق المنتصر المسلم، فهو سوف يعود المدينة، ويقضي وطره منها، فكانت التربية النبوية الأعنف والأشد حين لقي رسول الله ﷺ وجرى بينهما الحوار السابق في عرض السرية.

فلعل رسول الله ﷺ لم يدر أنها أعجبته وأخذت بلبه، ومع ذلك فلم يكشف لها ثوبًا بعد، ومع أن رسول الله ﷺ صمت في اليوم الأول، ولم يلح عليه بهبتها، لكن مستواه الإيماني وحبه لرسوله ﷺ دفعه

إلى أن يتوقف عن الاقتراب منها، ولقي حبيبه المصطفى ﷺ في اليوم الثاني وهو يكابد عاطفته، ويكابد رغبته العارمة في الاقتراب منها احتياطًا فقط، ولاحتمالات يمكن أن تقع فيطلبها ﷺ في اليوم الثاني، وهو لا يود أن يكشف لها ثوبًا لو تم ذلك، وصح ما توقعه في حسه العظيم.

(ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق. فقال لي: «**يا سلمة، هب لي المرأة لله أبوك**»، فقلت: هي لك يا رسول الله، وما كشفت لها ثوبًا).

ورغم إعجابه بها، وفتنته بجمالها، وتعلقه بها، لم يتردد لحظة في اليوم الثاني وهو يرى رغبة قائده ﷺ بها، في أن يهبها له، تكون التربية في أعمق أبعادها لم يقل ﷺ: لم يريدها، حتى ينصرف بسجيته وبمعدنه وبشهامته، وهو لا يشك أنها لذات رسول الله ﷺ فهو يؤثره على حياته، أفلا يؤثره بجاريته ولو كانت من أجمل العرب؟!

وعندما تخلى عن ذاته وعاطفته لله ورسوله عن طواعية ورضًا، عرف فيما بعد أن رسول الله ﷺ إنما يريدها ليستنقذ بها أسرى من مكة، (فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها أناسًا من المسلمين كانوا أسروا بمكة)، نذكر هذا عنه وهو الفقير الذي يعمل عند طلحة بن عبيد الله، يعلف فرسه ويخدمها على قوت يومه، وقد ملك أجمل نساء العرب، فاستوهبها إياه قائده فوهبه إياها؛ ليفطم هذه النفس على السيطرة على مشاعره وملاذها، وتتربى على أن تنضبط في أشد لحظات الإثارة، ولا غرو فقد هجر ماله وأهله في سبيل الله.

ولا شك أن القادة لابد أن يكونوا من هذا الطراز في سيطرتهم على ذاتهم ومشاعرهم وأهوائهم، حتى يتمكنوا من التغيير الحقيقي في الأرض وفق المنهج الرباني الفريد، وشتان بين منهج الله ومنهج العبيد!». [**التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٦٣-١٦٥**].

وعلى رواية أنه ﷺ وهبها لخاله حزن بن أبي وهب يقول د/ الغضبان: «ويبرز بطلنا من جديد سلمة بن الأكوع الأسلمي رضي الله عنه جنديًّا مغوارًا بين يدي الصِّدِّيق وبين يدي زيد بن حارثة رضي الله عنهما، فيقتل ويأسر، وتكون جارية بنت مالك بنت أم قرفة هي أسيرته، وأن مسعدة أسيره الثاني، ويعود سلمة رضي الله عنه لامتحان جديد بين يدي قائده ﷺ ويسأله: «**يا سلمة، ما جارية أصبتها؟**».

قال: جارية يا رسول الله! رجوت أن أفتدي بها امرأة منا من بني فزارة.

فأعاد رسول الله ﷺ مرتين أو ثلاثًا يسأله: «**ما جارية أصبتها؟**»، حتى عرف سلمة أنه يريدها فوهبها له.

إنها أعنف من التجربة السابقة، ففي المرة الأولى كان جوابه لقائده ﷺ أنه يريدها لنفسه ثم وهبها له، فافتدى بها أسرى من المسلمين في مكة، أما الآن فأشد وأقوى لمن نجح في التجربة السابقة، إن سلمة رضي الله عنه

يريدها للسبب نفسه الذي أرادها رسول الله ﷺ من قبل، ليفدي بها امرأة من قومه في بني فزارة، ورسوله الله ﷺ يسأله: «**ما جارية أصبتها؟**».

ومع السؤال الثالث يهبها له، ثم ها هو يهبها ﷺ لخاله حزن بن أبي وهب، فهو لا يفتدي بها الآن، إنما يهبها لغيره.

فلا يغير ذلك شيئًا في نفس هذا البطل العظيم، الذي أحبه رسول الله ﷺ ثم قرَّبه إليه فجعله من أخص خاصته، واختاره من بين المسلمين جميعًا في الحديبية ليبايعه ثلاث مرات عوضًا عن المرة الواحدة، كما سبق بيانه في غزوة ذي قرد.

أبدى رسول الله ﷺ هذا الاهتمام به وهو الغمر من الناس، حيث كان يعمل أجيرًا لطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، يقول: (وَكُنْتُ تَبِيعًا لِطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ رضي الله عنه، أَسْقِي فَرَسَهُ، وَأَحُسُّهُ وَأَخْدُمُهُ، وَآكُلُ مِنْ طَعَامِهِ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ)». [**التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٨٥-١٨٦**].

٧ ـ بطولة سلمة بن الأكوع رضي الله عنه:

يقول د/ الحميدي: «ظهرت بطولة سلمة بن الأكوع رضي الله عنه وجهوده الكبيرة في احتواء المعركة، من سرعة الحركة، والمغامرة بالنفس، واقتناص الفرص المناسبة للسيطرة على الموقف، فلقد كان لمجهوده الحربي الكبير أثر واضح في كسب تلك المعركة لصالح المسلمين». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٩١**].

٨ ـ تقدير أهل الفضل:

يقول د/ الحميدي: «موقف لأبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي كان أميرًا على تلك السرية في تقدير أهل الفضل، حيث منح سلمة بن الأكوع رضي الله عنه تلك الفتاة الجميلة التي كانت في السبي مكافأة له على ما بذل من جهد مشكور في النكاية بالأعداء وإنزال الهزيمة بهم». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٩١**].

٩ ـ جواز التنفيل من أصل الغنيمة:

يقول د/ بريك: «قال النووي: قوله: «فنفلني أبو بكر رضي الله عنه ابنتها» فيه جواز التنفيل، وقد يحتج به مَن يقول التنفيل من أصل الغنيمة، وقد يجيب عنه الآخرون بأنه حسب قيمتها، ليعوض أهل الخُمس عن حصَّتهم. [**النووي على مسلم ١٢/ ٦٨**].

وقد فصَّل ابن قدامة الحديث في النَّفل وأقسامه، وجعل هذا من القسم الثاني من أقسام النَّفل حيث قال: «القسم الثاني: أن ينفل الإمام بعض الجيش لغنائه وبأسه وبلائه، أو لمكروه تحمَّله دون سائر الجيش، قال أحمد: في الرَّجُل يأمره الأميرُ يكونُ طليعةً، أو عندَه، يدفَعُ إليه رأسًا من السَّبْي أو دابةً، قال: إذا كان رجلٌ له غَناءٌ، ويقاتل في سبيل الله، فلا بأس بذلك، ذلك أنفعُ لهم، يُحَرِّضُ هو وغيرُه، يُقاتلون ويَغْنَمون، وقال: إذا نفَّذ الإمامُ صَبِيحةَ المَغَارِ الخيْلَ، فيُصِيبُ بعضُهم، وبعْضُهم لا يأتي بشيءٍ، فللوالي أنْ يَخُصَّ

بعضَ هؤلاء الذين جاؤوا بشيءٍ دونَ هؤلاء. وظاهرُ هذا أنَّ له إعطاءَ مَن هذه حالُه من غيْرِ شرطٍ، وحُجَّةُ هذا حديث سلمة بن الأكوَع رضي الله عنه، أنَّه قال: أغارَ عبدُ الرحمن بنُ عُيَيْنَة على إبلِ رسول الله ﷺ، فتَبِعْتهُم ـ فذكرَ الحديثَ ـ فأعطاني رسولُ الله ﷺ سهمَ الفارِسِ والرَّاجلِ. رواه مسلم، وأبو داود.

وعنه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ أمَّرَ أبا بكرٍ، قال: فبيَّتنا عَدُوَّنا، فقَتَلْتُ لَيْلَتئِذٍ تسعةَ أهل أبياتٍ، وأخذتُ منهم امرأةً، فنفَّلَنيها أبو بكرٍ، فلمّا قَدِمْتُ المدينةَ، استوهبها منِّي رسولُ الله ﷺ، فوهبتها له. رواه مسلم بمعناه. [المغني ١٣/ ٥٦]. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٦٧-٦٨].

١٠ ـ جواز النفل (١) من أمير السرية إلى بعض الجند أو كلهم:

يقول د/ العيساوي: «دل على هذا الحكم ما حدث في سرية أبي بكر رضي الله عنه إلى نجد، حيث إن أبا بكر رضي الله عنه نفل سلمة رضي الله عنه امرأة من السبايا، فأجازه رسول الله ﷺ.

وما دام الكلام عن النفل فلا بد من التعرض لبعض الأحكام المتعلقة به:

حكم النفل:

جواز النفل بعد إعطاء السهام، نقل ذلك العيني عن الإمام الأوزاعي. [عمدة القاري للعيني ١٥/ ٥٩].

واستدل لذلك ما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بعث النبي ﷺ سرية وأنا فيهم قبل نجد فغنموا إبلًا كثيرة فكانت سهمانهم اثني عشر بعيرًا أو أحد عشر، ونفلو بعيرًا» متفق عليه واللفظ لمسلم.

[عمدة القاري للعيني ١٥/ ٥٩، وشرح صحيح مسلم للنووي ٢١/ ٥٤].

وَنُفِّلوا وردت في هذه الرواية بصيغة المجهول، وفي رواية أخرى: نفلوا بعيرًا فلم يغيره رسول الله ﷺ، وفي رواية: ونفلنا رسول الله ﷺ بعيرًا بعيرًا، والجمع بين هذه الروايات أن أمير السرية نفلهم فأجازه رسول الله ﷺ، فيجوز نسبته إلى كل واحد منهم. [عمدة القاري للعيني ١٥/ ٥٩، وشرح مسلم للنووي ٢١/ ٥٥].

وهذا صريح في جواز إعطاء الغنائم زيادة على سهم الغنيمة عن طريق التنفيل، ونقل بعض العلماء الإجماع على جوازه. [بداية المجتهد ـ أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ٢/ ٤٢٧].

---

(١) **النفل**: في الأصل العطية غير اللازمة، وأطلقه الفقهاء على ما يجعله الإمام لبعض الغزاة لأجل الترغيب، وتحصيل مصلحة، أو عوض عنها، وهو ما زاد على القدر المستحق للمقاتل. ينظر: معالم السنن ٢/ ٣٠٩، وإحكام الأحكام لابن دقيق العيد ٢/ ٣٠٨.

والنفل في الغزو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يبعث الإمام أو نائبه بعد دخول الحرب سرية تغير على العدو ويجمع لهم ربع الباقي بعد أخذ الخمس مما غنموا ويقسم الباقي على الجيش بما فيهم السرية.

الثاني: أن ينفل الإمام بعض الجيش لعنائه وبأسه وبلائه أو لمكروه يحمله دون سائر الجيش.

الثالث: أن يقول الأمير من فعل كذا فله كذا. ينظر: المغني ١٠/ ٤٠٨ وما بعدها.

محل النفل:

اختلف الفقهاء في محل النفل، هل هو من أصل الغنيمة أو من أربعة أخماسها أو من خُمس الخمس، على روايتين:

الرواية الأولى: أن النفل من أصل الغنيمة، نقل ذلك عن الإمام الأوزاعي والنووي. [شرح مسلم للنووي ١٢/ ٥٥، طرح التثريب - زين الدين الحسين العراقي ٢/ ٢٥، وعمدة القاري - العيني ١٥ / ٥٩، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ١٤٩، ونيل الأوطار للشوكاني ٧/ ٢٢٩، وعون المعبود - حاشية على سنن أبي داود - محمد أشرف ٣/ ٣١].

وهو قول للشافعي. [مغني المحتاج للشربيني ٣/ ١٠٢].

والحجة لهذا المذهب، ما ورد في حديث ابن عمر المتقدم «ونفلوا بعيرًا بعيرًا» فإن الظاهر فيه أن النفل كان من أصل الغنيمة.

وما روي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان ينفل في البداءة (أي ابتداء السفر للجهاد) الثلث»، رواه ابن ماجه والترمذي وصححه ابن حبان.

[ابن ماجه ٢/ ٩٥١، والترمذي بشرح تحفة الأحوذي ٢/ ٣٨٢، ونيل الأوطار للشوكاني ٢/ ٢٣٠].

وظاهر الحديث أيضًا يدل على أن النبي ﷺ كان ينفل من أصل الغنيمة.

[فقه الإمام الأوزاعي - عبد الله الجبوري ٢/ ٤٦٤].

الرواية الثانية: أن النفل من أربعة أخماس الغنيمة، نقل ذلك ابن قدامة، وبه قال أحمد، وهو قول للشافعي. [المغني لابن قدامة ١٠/ ٤١٦].

والحجة لهذا المذهب ما روي أن النبي ﷺ قال: لا نفل إلا بعد الخمس. الحديث رواه البيهقي.

[السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٣١٤].

وما روي عن حبيب بن مسلمة: «أن رسول الله ﷺ كان ينفل الربع بعد الخمس والثلث بعد الخمس إذا قفل». رواه أبو داود واللفظ له، وابن ماجه، وصححه الحاكم وابن حبان.

[سنن أبي داود ٣/ ٨٠، وسنن ابن ماجه ٢/ ٩٥١، ونيل الأوطار ٧/ ٢٣٠].

المقدار الذي يجوز التنفيل إليه:

اختلف الفقهاء في ذلك.

ومذهب الإمام الأوزاعي: أنه لا يجوز أن ينفل أكثر من الثلث نقل ذلك ابن حزم وغيره.

[المحلى لابن حزم ٧/ ٣٩٩، والبحر الزخار - أحمد بن يحيى المرتضي ٥/ ٤٤٣، والمغني لابن قدامة ١٠/ ٤١١، عون المعبود ٣/ ٣٣]، وبه قال أحمد.

والحجة لهذا المذهب: أن النبي ﷺ انتهى إلى الثلث كما ورد في حديثي عبادة بن الصامت وحبيب بن مسلم المتقدمين فينبغي أن لا يتجاوزه. [المغني لابن قدامة ١٠/ ٤١١].

قال عمر بن عبد العزيز: لم يبلغنا أن النبي ﷺ نفل بأكثر من الثلث. [المحلى لابن حزم ٧/ ٣٩٩].

وإذا شرط الإمام لجماعة من الجيش النفل زيادة على الثلث فليَفِ لهم به ويجعل الزيادة من الخمس، نقل ذلك عن الإمام الأوزاعي ابنُ قدامة. [المغني لابن قدامة ١٠/ ٤١١].

هل يختص النفل بغنيمة معينة أو بنوع من المال؟

اختلفت آراء الفقهاء في ذلك.

الرأي الأول: أنه لا تنفل من الغنيمة الأولى، وكذلك لا نفل من الذهب والفضة، نقل ذلك ابن حجر وغيره عن الإمام الأوزاعي. [فتح الباري لابن حجر ٦/ ١٥٠، والمغني لابن قدامة ١٠/ ٤١٣، ونيل الأوطار للشوكاني ٧/ ٢٣٢، والزرقاني على الموطأ ٣/ ١٥٦].

الرأي الثاني: أن النفل لا يختص بنوع المال ويجوز النفل من الغنيمة الأولى وغيرها، وعلى هذا جمهور الفقهاء. [فتح الباري لابن حجر ٦/ ١٥٠].

والسنة الصحيحة تؤيد هذا الرأي.

فعن جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ قَدْ جَاءَنِي مَالُ البَحْرَيْنِ لَقَدْ أَعْطَيْتُكَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**»، فَلَمْ يَجِئْ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا جاءَ مَالُ البَحْرَيْنِ، أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه مُنَادِيًا فَنَادَى: مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ دَيْنٌ أَوْ عِدَةٌ فَلْيَأْتِنَا، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ لِي كَذَا وَكَذَا، فَحَثَا لِي ثَلَاثًا... [البخاري في فرض الخمس (٣١٣٧)].

بعد هذا العرض عن حكم النفل، وما حدث في سرية أبي بكر رضي الله عنه، وأنه نفل امرأة من السبايا، وهذا فعل صحابي أقره رسول الله ﷺ، ويتضح لنا جواز النفل من أمير السرية إلى بعض الجند والله أعلم».

[فقه السرايا للعيساوي ١٩١-١٩٥، وينظر: مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٨٣-١٨٧].

١١ ـ حكم التفريق بين الوالدة وولدها البالغ:

يقول د/ بريك: «قال الخطابي: «فيه دليلٌ على جواز التفريق بين الأُمِّ وولدها الكبير».

[معالم السنن، حاشية سنن أبي داود ٣/ ١٤٦].

وقال النووي: «ولا خلاف في جوازه عندنا». [صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ٦٩].

وقال ابن قدامة: «أجمَعَ أهلُ العلمِ على أنَّ التفريق بين الأُمِّ وولدِها الطِّفل غيرُ جائزٍ، هذا قول مالك في أهل المدينة، والأوزاعي في أهل الشام، والليث في أهل مصر، والشافعي، وأبي ثور، وأصحاب الرأي فيه. والأصل فيه ما رَوَى أبو أيوب قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ فرَّق بَيْنَ والِدَةٍ ووَلَدِها، فرَّق الله بَيْنَه وبَيْنَ أحِبَّته يومَ القيامةِ**». أخرجه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ غريبٌ. [أخرجه الترمذي، (ينظر: تحفة الأحوذي ٤/ ١٨٤)، والحاكم (المستدرك ٢/ ٥٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٢٦)، وأحمد (المسند ٥/ ٤٠٢)، كلُّهم من طريق حُيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الجبلي، وفيه حُيي ابن عبد الله قال فيه أحمد: أحاديثه مناكير. وقال البخاري: فيه نظر. ولكن تابعه عبد الله بن خباءة عند الدارمي (٢/ ٢٢٧). فلعلَّ الترمذي حسَّنه من أجل المتابعة].

وقال النَّبِيُّ ﷺ: «**لا تُوَلَّهُ والِدَةٌ عن وَلَدِها**». [أخرجه البيهقي في باب الأم تتزوج فيسقط حقها من حضانة الولد... من كتاب النفقات. السنن الكبرى ٨/ ٥. ومعنى (لا تولَّه) أي: لا يفرق بينهما في البيع. وكل أنثى فارقت ولدها فهي واله. (النهاية في غريب الحديث ١/ ٢٢٧)].

قال أحمد: «لا يُفَرَّقُ بيْن الأُمِّ وولدِهَا وإِنْ رَضِيَت، وذلك ـ والله أعلم ـ لِمَا فيه من الإضرار بالولَدِ، ولأنَّ المرأة قد تَرْضَى بما فيه ضَرَرُها، ثُمَّ يَتَغَيَّرُ قلبُها بعد ذلك فتندم». [المغني ١٣/ ١٠٨-١٠٩].

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٦٨-٦٩].

١٢ ـ جواز الاستيهاب من الغنيمة:

وقال النووي: «وفيه جواز استيهاب الإمام أهل جيشه بعض ما غنموه ليفادي به مسلمًا أو يصرفه في مصالح المسلمين، أو يتألَّف به مَن في تألُّفه مصلحة، كما فعل ﷺ هُنا، وفي غنائم حنين».[صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ٦٩].

١٣ ـ وقال النووي أيضًا:

«وفيه جواز قول الإنسان للآخر: لله أبوك، ولله درُّك». [صحيح مسلم بشرح النووي ١٢/ ٦٩].

١٤ ـ جواز قتل من سب الرسول ﷺ:

سبق تفصيله في سرية عمير الخطمي رضي الله عنه لقتل عصماء بنت مروان ٢ هـ.

١٥ ـ أهمية أن يكون لدى القيادة بعد نظر:

يقول د/ الغضبان: «ونقف أمام هذا الإهداء لهذه الجارية لحزن بن أبي وهب، وحزن بن أبي وهب مشرك في ذلك الوقت، وهو حزن بن أبي وهب بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة، فهو من أسياد بني مخزوم، وهم العدو الألد لبني عبد مناف في مكة ومنه خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل قائد قريش في الخندق بجوار أبي سفيان وأهم أركان حربه.

أما خؤولة حزن بن أبي وهب لرسول الله ﷺ فهو من طرف أمه آمنة بنت وهب، وآمنة من بني زهرة لكن أمها هي فاطمة بنت أبي وهب بن عائذ بن عمران، فهو خال أمه آمنة، ولها انتسب ﷺ حين قال: «**أنا ابن الفواطم والعواتك**»، فهي إحدى جداته من الفواطم.

ولكن السر في هذا الإهداء ـ والله أعلم ـ هو رسالة لقريش ذات مغزى عظيم، لعلها ترعوي عن غيها، وبنو مخزوم على رأس المحاربين من قريش، هذه الرسالة هي أن بنت أم قرفة أعز العرب وأمنعهم أصبحت أسيرة بيدي رسول الله ﷺ وأمها أم قرفة، غدت قتيلة عنده، وحمل رأسها على رمحين إلى المدينة؛ ليعرف العرب جميعًا أن لا طاقة لهم بمحمد ﷺ وأصحابه، وتعرف قريش بالذات ذلك، وليس بنو مخزوم بأعز من بني فزارة، وليس عند بني مخزوم كأم قرفة، يعلق في بيتها خمسون سيفًا لمحارمها، ومع ذلك، فلم يمنعها هذا من جند الله أن تقتل، ولم يمنع هذا من ابنتها أن تسبى، ثم تهدى إلى حزن بن أبي

وهب سيد بني مخزوم وأحد أخوال رسول الله ﷺ، فهي رسالة ظاهرها الإهداء، وباطنها بث الرعب والتهديد في قلب قريش، وحين تحدثها نفسها بالمواجهة.

وحزن بن أبي وهب لم يسلم حتى الفتح، وإن كان ابنه المسيب من أهل بيعة الرضوان».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٨٦-١٨٧].

١٦ ـ اهتمام القيادة بالأفراد المميزين:

يقول د/ الغضبان :«وننظر في هذه السرية إلى هذا الاستقبال الحافل الذي استقبل به رسول الله ﷺ قرة عينه زيد بن حارثة رضي الله عنه مظفرًا، منصورًا، قاتلًا لأم قرفة وقيادات فزارة، وأسرًا لابنتها، وبعض قياداتهم كذلك، وشتان بين الاستقبال السابق، وهو حي من بين الأموات، أو في عدادهم، وبين الاستقبال الجديد الذي يتناسب مع هذا النصر المؤزر.

حتى ليخرج إليه رسول الله ﷺ عريانًا لفرحه به، ولم يخرج لأحد غيره كذلك، فهو أخص خاصته من أهله بعد أهله، وهو أسعد الناس به بعد هذا المجد المؤثل، ها هو يعقد تاجًا فوق تاج في هام النصر، فيغدو رجل الحرب الأول حين يقود سبع سرايا خلال سنة واحدة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٨٧].

١٧ ـ تحقيق السرية لأهدافها:

يقول د/ الغضبان: «ونشير أخيرًا إلى نجاح السرية في تأدية مهمتها ضمن التخطيط الذي رسمه الصديق رضي الله عنه حيث غزاهم مع خيوط الفجر، وقد وردوا الماء فقتل منهم من قتل، وفر منهم من فر، ليذهب إلى قومه فيحدثهم عن أن محمدًا وأصحابه وصلت طلائعه الفدائية إلى عقر دارهم، وأن ذلك الهجوم الشرس الذي شارك به قائدهم عيينة بن حصن لن يفلت دون عقاب، ولن يمر دون ثأر، كانوا بغنى عن فتح هذه الجبهة معهم، و التي لن تنتهي أبدًا، فلو قام الإنس والجن إلى محمد لهزمهم، كيف لا وقد صد العرب قاطبة عن أرضه كليلين مهزومين بعد حصار ما يزيد عن عشرين يومًا.

أهلكوا أنفسهم، وذبحوا ماشيتهم، ونفذت أزوادهم، ولم يحصلوا على العير ولا النفير؟».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٦٥].

١٨ ـ اهتمام القيادة بأسرى المسلمين:

يقول د/ الحميدي: «رأينا اهتمام النبي ﷺ بأسرى المسلمين وسعيه في فكاكهم، فقد طلب من سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن يهب له تلك المرأة التي وقعت في نصيبه، وألح عليه في ذلك ليفدي به ناسًا من المسلمين أُسروا بمكة.

وهذا مثل من أمثلة كثيرة تقدم بعضها تدل على عظمة اهتمام النبي ﷺ بأمور المسلمين، وأنه كان يعيش قضاياهم بأحاسيسه، وينتظر الفرص المناسبة لإنقاذهم وحل قضاياهم».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٩١].

١٩ ـ عظمة الرسول ﷺ والرد على مزاعم المستشرقين:

حول الحوار بين رسول الله ﷺ وسلمة بن الأكوع رضي الله عنه حول الأسيرة الفزارية يقول أ/ باشميل: «ولعل في هذا التصرف النبيل من قِبَل النبي الأعظم ﷺ أكبر دليل على دحض مزاعم أعداء الله ورسوله من المستشرقين وفروخهم في الشرق الإسلامي الذين ينكرون على الرسول الأعظم ﷺ تزوجه بتسع نساء، ويَدَّعون أن ذلك منه بدافع الرغبة الجنسية، والميل الشديد إلى اقتناء النساء.

فلو كان كما يزعمون (قبحهم الله) لاحتفظ لنفسه بهذه الفتاة الفزارية التي وهبها له سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، والتي هي ـ بإجماع المؤرخين ـ من أجمل بنات العرب، ولكننا نراه ﷺ يبعث بها إلى مكة ليفتدي بها أسرى من أصحابه، الأمر الذي يؤكد بطلان مزاعم أعداء الله الآنفة الذكر».

[صلح الحديبية لباشميل ٦٤-٦٥].

٢٠ ـ جواز مفاداة الرجل المسلم بالمرأة الكافرة:

يقول د/ العيساوي: «أخذنا من سرية أبي بكر رضي الله عنه حكمًا مفاده جواز مفاداة الرجل المسلم إذا كان أسيرًا بالمرأة الكافرة. **[مسلم بشرح النووي ١٢/ ٥٦].**

وعلى هذا جمهور الفقهاء، ومنهم الإباضية.

[شرح منح الجليل ١/ ٧٦٩، والأم ٤/ ٦٩، وشرح النيل ١٠/ ٤١٤].

واستدلوا بحادثة المرأة التي وهبها سلمة رضي الله عنه للرسول ﷺ ففدى بها ناسًا من المسلمين أُسروا بمكة».

[ينظر: الآلوسي ٢٦/ ٤٠، والصابوني ٢/ ٤٥٦]. [فقه السرايا للعيساوي ١٩٥].

والمسألة سبق تفصيلها في سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه إلى نخلة ٢هـ، وفي الدروس المستفادة من المرحلة الثالثة (بعد المعركة) من غزوة بدر الكبرى، المبحث التاسع: الدروس المستفادة من قضية الأسرى.

٢١ ـ الشيطانة تلد الشياطين:

يقول أ/ باشميل: «قال ابن برهان الدين في السيرة الحلبية: أما ابنها قرفة الذي تكنى به فقد قتله النبي ﷺ، كما أن بقية أولادها قُتلوا مع أهل الردة في نجد، فلا خير فيها ولا في بنيها.

والذي يجدر ذكره هنا أن إحدى بنات أم قرفة هذه واسمها (سلمى) كانت قد قادت تمردًا كبيرًا ضد جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي بعثه الصِّدِّيق رضي الله عنه لإخضاع المرتدين، قادت سلمى (وهي شيطانة مثل أمها) هذا التمرد في منطقة ظفر بنجد فتبعتها جموع غفيرة من فُلال المرتدين الذين انهزموا في معركة بزاخة الشهيرة، وقد قُتلت سلمى هذه في المعركة بعد أن عانت منها جيوش خالد ومن أتباعها الأهوال حيث اشتبكوا معها في قتال مرير ليس بأقل ضراوة من القتال الذي نشب بين جيوش خالد وجيوش المرتد طليحة بن خويلد الأسدي في بُزاخة». **[صلح الحديبية لباشميل ٦٦].**

٢٢ ـ دروس وعبر مستقاة:

يقول د/ بريك: «ومن الدروس والعبر المستقاة:

(١) أدبُ النَّبِيِّ ﷺ مع أصحابه، وعدم إرغامهم على فعل شيء أو بذل شيء دون طيبة نفس.

(٢) طاعة الصحابة رضي الله عنهم لنبيهم ﷺ، وإيثاره على أنفسهم، وتجردهم من مغانم الدنيا ولذَّاتها في سبيل ذلك.

(٣) حرص النَّبِيِّ ﷺ البالغ على المسلمين جميعًا، ورأفته بهم، ومحاولة التخفيف من معاناتهم، وفك أسرهم بأسرع وقت ممكن وبالسبل الممكنة والكفيلة. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ٧٠].

الفصل الثالث عشر
سَرِيَّةُ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ﷺ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ [1] (الخبط)
رجب ٦هـ/نوفمبر (تشرين ثان) ٦٢٧م/ هاتور ٣٤٤ قبطي

المبحث الأول
عرض سَرِيَّةِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ﷺ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ (الخبط)

تاريخ السرية:

قال الإمام ابن القيم: وَهَذَا السِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْغَزْوَةَ كَانَتْ قَبْلَ الْهُدْنَةِ وَقَبْلَ عُمْرَةِ الْحُدَيْبِيَةِ، فَإِنَّهُ مِنْ حِينِ صَالَحَ أَهْلَ مَكَّةَ بِالْحُدَيْبِيَةِ لَمْ يَكُنْ يَرْصُدُ لَهُمْ عِيرًا، بَلْ كَانَ زَمَنَ أَمْنٍ وَهُدْنَةٍ إِلَى حِينِ الْفَتْحِ، وَيَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ سَرِيَّةُ الْخَبَطِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً قَبْلَ الصُّلْحِ وَمَرَّةً بَعْدَهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

[زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٩٠].

وقال الإمام ابن كثير: وَمُقْتَضَى أَكْثَرُ هَذِهِ السِّيَاقَاتِ أَنَّ هَذِهِ السَّرِيَّةَ كَانَتْ قَبْلَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ.

[البداية والنهاية لابن كثير ٦/ ٥٠٤].

وقال الإمام ابن حجر: إِنَّ تَلَقِّي عِيرِ قُرَيْشٍ مَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَكُونَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي ذَكَرَهُ اِبْن سَعْدٍ فِي رَجَبَ سَنَةَ ثَمَانٍ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا حِينَئِذٍ فِي الْهُدْنَةِ، بَلْ مُقْتَضَى مَا فِي الصَّحِيحِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ السَّرِيَّةُ فِي سَنَةِ سِتٍّ أَوْ قَبْلَهَا قَبْلَ هُدْنَةِ الْحُدَيْبِيَةِ. [فتح الباري لابن حجر ٧/ ٦٧٨-٦٧٩].

ويقول د/ بريك: «ولم توضح لنا غالبية الروايات، وخاصة الصحيحة منها تاريخ محدد لهذه السرية، وقد أغرب الشامي حين ذكر أن جمهور أئمة المغازي حددوا تاريخها برجب في السنة الثامنة الهجرية [سبل الهدى للشامي ٦/ ٢٧٥]؛ حيث لم يقل بذلك غير الواقدي ومن تابعه. [ينظر: المغازي للواقدي ١/ ٦، والطبقات لابن سعد ٢/ ١٣٢، وعيون الأثر لابن سيد الناس ٢/ ٢٠٦، وإرشاد الساري للقسطلاني ٦/ ٤٢٧].

وقد رد كل من ابن القيم، وابن حجر هذا القول باعتبار تلك الفترة فترة هدنة مع قريش، فالظاهر أن ذلك وَهْمٌ غير محفوظ، بل مقتضى ما في الصحيح أن تكون هذه السرية في سنة ست أو قبلها قبل الهدنة.

[بتصرف واختصار من: زاد المعاد لابن القيم ٢/ ١٥٨، وفتح الباري لابن حجر ٨/ ٧٨].

وذكر ابن العراقي أن السرية كانت بعد نكث قريش للعهد، وقبل الفتح.

[ينظر: طرح التثريب في شرح التقريب لأبي زرعة العراقي ٦/ ٨-٩].

وعلق الزرقاني بعد ذلك: بأنه لا يعتبر قول ابن القيم كون السرية في رجب وهم غير محفوظ.

[ينظر: شرح المواهب للزرقاني ٢/ ٢٨١].

---

(١) **سيف البحر**: هو ساحله.

وعلى تسليم ظاهره، يحتمل أن يكون البعث في أواخر رجب بحيث لا يصلون إلى جهينة ويلقون العير، إلا في شعبان». [السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١١٦].

ويقول د/ العمري: «أوضح ابن القيم خطأ ابن سيد الناس في تاريخ السرية في رجب سنة ثمان، حيث لم يغزو ولم يبعث سرية في الشهر الحرام، ثم إن صلح الحديبية يمنع اعتراض المسلمين لقافلة قريش، فلابد أن تكون سرية الخبط قبل الصلح، فلعلها كانت في أعقاب الخندق كما أثبتها».

[السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٣٣].

وأقول: إن السبب الثاني صحيح، أما السبب الأول فقد ثبت أن الرسول ﷺ أرسل سراياه في الأشهر الحرم كما سأشير في الدروس المستفادة من هذه السرية.

وعلى هذا فإني أرجح أن يكون تاريخ السرية هو رجب سنة ست.

سبب السرية:

«استثمر المسلمون ما أصاب الأحزاب من فشل، وضيقوا على قريش الخناق الاقتصادي من جديد، فأرسل النبي ﷺ أبا عبيدة ﷺ في ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار لرصد قافلة لقريش قرب ساحل البحر». [السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٣٣].

«وتعتبر سرية الخبط، استمرارًا لسياسة النبي ﷺ العسكرية لإضعاف قريش، ومحاصرتها اقتصاديًّا على المدى الطويل، ولتعويض المهاجرين، ولو جزءًا بسيطًا مما فقدوه من أموال ومتاع استولت عليها قريش عند مغادرتهم وطنهم مكة». [السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١١٦].

قال الإمام ابن حجر: وَقَدْ ذَكَرَ اِبْنُ سَعْدٍ وَغَيْرُهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَهُمْ إِلَى حَيٍّ مِنْ جُهَيْنَةَ بِالْقَبَلِيَّةِ - بِفَتْحِ الْقَافِ وَالْمُوَحَّدَةِ - مِمَّا يَلِي سَاحِلَ الْبَحْرِ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَدِينَةِ خَمْسُ لَيَالٍ، وَأَنَّهُمْ اِنْصَرَفُوا وَلَمْ يَلْقَوْا كَيْدًا، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي رَجَبٍ سَنَةَ ثَمَانٍ، وَهَذَا لَا يُغَايِرُ ظَاهِرُهُ مَا فِي الصَّحِيحِ؛ لِأَنَّهُ يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ كَوْنِهِمْ يَتَلَقَّوْنَ عِيرًا لِقُرَيْشٍ وَيَقْصِدُونَ حَيًّا مِنْ جُهَيْنَةَ، وَيُقَوِّي هَذَا الْجَمْع مَا عِنْد مُسْلِمٍ مِنْ طَرِيقِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مُقْسِمَ عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: «بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْثًا إِلَى أَرْضِ جُهَيْنَةَ» فَذَكَرَ هَذِهِ الْقِصَّةَ.

[فتح الباري لابن حجر ٧/ ٦٧٨].

ويقول د/ بريك: «وقد حاول بعض المتأخرين الجمع بين القولين، فذكر أنه يمكن الجمع بين كونهم يتلقون عيرًا لقريش ويقصدون حيًّا من جهينة لمحاربتهم. [ينظر: المواهب اللدنية للقسطلاني ١/ ١٤٧].

قلت: البعث للمقصدين لا يستقيم لأنه يصعب على دورية قوتها ثلاثمائة فرد أن تقوم بمهمة مزدوجة في آن واحد، وعلى فرض إمكانية ذلك فإنه لَمْ يَقَعْ فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْخَبَرِ أَنَّهُمْ قَاتَلُوا أَحَدًا، بَلْ فِيهِ أَنَّهُمْ قَامُوا نِصْفَ شَهْرٍ أَوْ أَكْثَرَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ. [فتح الباري ٧/ ٦٧٩].

بل إن الواقدي الذي انفرد بهذا القول ساق في روايته تعامل أحد أفراد السرية التجاري مع بعض أفراد قبيلة جهينة. [المغازي للواقدي ٢/ ٧٧٥].

أما ابن حجر فذكر في صدد الجمع بين القولين أنه «يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ تَلَقِّيهِمْ لِلْعِيرِ لَيْسَ لِمُحَارَبَتِهِمْ بَلْ لِحِفْظِهِمْ مِنْ جُهَيْنَةَ». [الفتح لابن حجر ٧/ ٦٧٩].

وهذا الاحتمال بعيد لأن قبيلة جهينة هي من القبائل الداخلة ضمن الإيلاف الصيفي مع قريش، ولم يرد في أخبار المغازي أن رسول الله ﷺ عقد حلفًا معها ضد قريش كما فعل مع القبائل الأخرى كبني مدلج وغيرهم، فليس لجهينة مصلحة في نقض حلفها مع قريش، وعلى فرض أنهم فعلوا ذلك من أجل المسلمين، فلماذا يبعث رسول الله ﷺ سرية تحمي عير قريش منهم. والله تعالى أعلم بالصواب.

[السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١١٧].

أحداث السرية:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْثًا قِبَلَ السَّاحِلِ، فَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ ﷺ، وَهُمْ ثَلاثُمِائَةٍ وَأَنَا فِيهِمْ، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَنِيَ (انتهى ونفد) الزَّادُ، فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادِ (جمع الزاد وهو طعام يتخذ للسفر) ذَلِكَ الْجَيْشِ فَجُمِعَ ذَلِكَ كُلُّهُ فَكَانَ مِزْوَدَيْ (الوعاء يجعل فيه ما يُتَزَوَّد به في السفر من طعام) تَمْرٍ، فَكَانَ يُقَوِّتُنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلًا قَلِيلًا، حَتَّى فَنِيَ فَلَمْ يَكُنْ يُصِيبُنَا إِلَّا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ، فَقُلْتُ: وَمَا تُغْنِي [عَنْكُمْ] تَمْرَةٌ؟ فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَنِيَتْ، قَالَ: ثُمَّ انْتَهَيْنَا إِلَى الْبَحْرِ، فَإِذَا حُوتٌ مِثْلُ الظَّرِبِ(الجبل الصغير أو الرابية الصغيرة)، فَأَكَلَ مِنْهُ ذَلِكَ الْجَيْشُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِضِلَعَيْنِ مِنْ أَضْلاعِهِ فَنُصِبَا، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فَرُحِلَتْ، ثُمَّ مَرَّتْ تَحْتَهُمَا فَلَمْ تُصِبْهُمَا.

[البخاري في الشركة (٢٤٨٣)، وفي المغازي (٤٣٦٠)].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا وَنَحْنُ ثَلاثُمِائَةٍ نَحْمِلُ زَادَنَا عَلَى رِقَابِنَا، فَفَنِيَ زَادُنَا، حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا يَأْكُلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَمْرَةً، قَالَ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، وَأَيْنَ كَانَتِ التَّمْرَةُ تَقَعُ مِنَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَقَدْنَاهَا، حَتَّى أَتَيْنَا الْبَحْرَ فَإِذَا حُوتٌ قَدْ قَذَفَهُ الْبَحْرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَوْمًا مَا أَحْبَبْنَا. [البخاري في الجهاد (٢٩٨٣)].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلاثَمِائَةِ رَاكِبٍ، أَمِيرُنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ، نَرْصُدُ عِيرَ (كل ما جلب عليه المتاع والتجارة من قوافل الإبل والبغال والحمير) قُرَيْشٍ، فَأَقَمْنَا بِالسَّاحِلِ نِصْفَ شَهْرٍ [حَتَّى فَنِيَ زَادُنَا]، فَأَصَابَنَا جُوعٌ شَدِيدٌ حَتَّى أَكَلْنَا الْخَبَطَ (الورق الساقط عند خبط الشجرة بالعصا وهو من علف الدواب، أو هو ما سقط من ورق شجر العضاة بالخبط والنفض)، فَسُمِّيَ ذَلِكَ الْجَيْشُ جَيْشَ الْخَبَطِ، فَأَلْقَى لَنَا الْبَحْرُ دَابَّةً يُقَالُ لَهَا الْعَنْبَرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ نِصْفَ شَهْرٍ، وَادَّهَنَّا (ادهن: تطلى بالدهن) مِنْ وَدَكِهِ (دَسَم

اللَّحْمِ ودُهْنُه الذي يُسْتَخْرَج منه) حَتَّى ثَابَتْ (رجعت إلى حالتها الأولى، أي رجع إلى أجسامنا صحتها وقوتها) إِلَيْنَا [صَلَحَتْ] أَجْسَامُنَا، فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ ﷺ ضِلَعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنَصَبَهُ فَعَمَدَ إِلَى أَطْوَلِ رَجُلٍ مَعَهُ ـ قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: ضِلَعًا مِنْ أَعْضَائِهِ فَنَصَبَهُ وَأَخَذَ رَجُلًا وَبَعِيرًا (ما صلح للركوب والحمل من الإبل، وذلك إذا استكمل أربع سنوات، ويقال للجمل والناقة) ـ فَمَرَّ تَحْتَهُ، قَالَ جَابِرٌ ﷺ: وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ نَحَرَ ثَلَاثَ جَزَائِرَ (جمع جزور، وهو البعير)، ثُمَّ نَحَرَ ثَلَاثَ جَزَائِرَ، ثُمَّ نَحَرَ ثَلَاثَ جَزَائِرَ، ثُمَّ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ نَهَاهُ.

وَكَانَ عَمْرٌو يَقُولُ أَخْبَرَنَا أَبُو صَالِحٍ أَنَّ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ ﷺ قَالَ لأَبِيهِ: كُنْتُ فِي الْجَيْشِ فَجَاعُوا، قَالَ: انْحَرْ، قَالَ: نَحَرْتُ، قَالَ: ثُمَّ جَاعُوا، قَالَ: انْحَرْ، قَالَ: نَحَرْتُ، قَالَ: ثُمَّ جَاعُوا، قَالَ: انْحَرْ، قَالَ: نَحَرْتُ، ثُمَّ جَاعُوا، قَالَ: انْحَرْ، قَالَ: نُهِيتُ.

[البخاري في المغازي (٤٣٦١)، وفي الذبائح (٥٤٩٣، ٥٤٩٤)، ومسند أحمد ٢٢/ ٢١٧ رقم ١٤٣١٥].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: غَزَوْنَا جَيْشَ الْخَبَطِ، وَأُمِّرَ أَبُو عُبَيْدَةَ، فَجُعْنَا جُوعًا شَدِيدًا، فَأَلْقَى الْبَحْرُ حُوتًا مَيِّتًا، لَمْ نَرَ [يُرَ] مِثْلَهُ، يُقَالُ لَهُ الْعَنْبَرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ نِصْفَ شَهْرٍ، فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَظْمًا مِنْ عِظَامِهِ فَمَرَّ الرَّاكِبُ تَحْتَهُ.

فَأَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرًا ﷺ يَقُولُ: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: كُلُوا، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**كُلُوا رِزْقًا أَخْرَجَهُ اللهُ، أَطْعِمُونَا إِنْ كَانَ مَعَكُمْ**»، فَأَتَاهُ بَعْضُهُمْ [بِعُضْوٍ] فَأَكَلَهُ.

[البخاري في المغازي (٤٣٦٢)].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَمَّرَ عَلَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ نَتَلَقَّى [يَتَلَقَّى] عِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيْرَهُ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً، قَالَ: فَقُلْتُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِهَا؟ قَالَ: نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ، ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ فَتَكْفِينَا [فَيَكْفِينَا] يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ، وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالْمَاءِ فَنَأْكُلُهُ، قَالَ: وَانْطَلَقْنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، فَرُفِعَ لَنَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ كَهَيْئَةِ الْكَثِيبِ (الرَّمْل المسْتَطِيل المُحْدَوْدِب) الضَّخْمِ، فَأَتَيْنَاهُ فَإِذَا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى: الْعَنْبَرَ، قَالَ: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَيْتَةٌ؟! [مَيْتَةٌ وَلاَ تَحِلُّ لَنَا]، ثُمَّ قَالَ: لاَ، بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَقَدِ اضْطُرِرْتُمْ [إِلَيْهِ]، فكُلُوا، قَالَ: فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا، وَنَحْنُ ثَلاَثُ مِائَةٍ، حَتَّى سَمِنَّا، قَالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا نَغْتَرِفُ مِنْ وَقْبِ (التجويف والنقرة التي تكون فيها العين) عَيْنِهِ بِالْقِلاَلِ (جمع القلة وهي الجرة الكبيرة) الدُّهْنَ، وَنَقْتَطِعُ مِنْهُ الْفِدَرَ (جمع الفدرة وهي القطعة) كَالثَّوْرِ ـ أَوْ كَقَدْرِ الثَّوْرِ ـ فَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلاَثَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَأَقْعَدَهُمْ فِي وَقْبِ عَيْنِهِ، وَأَخَذَ ضِلَعًا مِنْ أَضْلاَعِهِ فَأَقَامَهَا، ثُمَّ رَحَلَ (أي جعل عليه رحلا) أَعْظَمَ بَعِيرٍ [كَانَ] مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهَا، وَتَزَوَّدْنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَائِقَ (جمع وشيقة وهي أن يؤخذ اللحم فيُغْلَى قليلًا ولا يُنْضج، ويُحْمل في الأسفار. وقيل: هي القديدُ)، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ:

«**هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللهُ لَكُمْ، فَهَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعِمُونَا [مِنْهُ]**»قَالَ: فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ. [مسلم في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (١٩٣٥)، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٤٠)، ومسند أحمد ٢٢/ ٢٤٢ رقم ١٤٣٣٨].

وروى مسلم بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ، وَنَحْنُ ثَلَاثُمِائَةِ رَاكِبٍ، وَأَمِيرُنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ نَرْصُدُ عِيرًا لِقُرَيْشٍ، فَأَقَمْنَا بِالسَّاحِلِ نِصْفَ شَهْرٍ، فَأَصَابَنَا جُوعٌ شَدِيدٌ حَتَّى أَكَلْنَا الْخَبَطَ، فَسُمِّيَ جَيْشَ الْخَبَطِ، فَأَلْقَى لَنَا الْبَحْرُ دَابَّةً يُقَالُ لَهَا: الْعَنْبَرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا نِصْفَ شَهْرٍ، وَادَّهَنَّا مِنْ وَدَكِهَا حَتَّى ثَابَتْ أَجْسَامُنَا، قَالَ: فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ ﷺ ضِلَعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنَصَبَهُ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى أَطْوَلِ رَجُلٍ فِي الْجَيْشِ، وَأَطْوَلِ جَمَلٍ فَحَمَلَهُ عَلَيْهِ، فَمَرَّ تَحْتَهُ، قَالَ: وَجَلَسَ فِي حَجَاجِ (الحاء مكسورة ومفتوحة لغتان مشهورتان وهو بمعنى وقب عينه المذكور في الرواية السابقة، الحجاج: العظم المستدير حول العين) عَيْنِهِ نَفَرٌ، قَالَ: وَأَخْرَجْنَا مِنْ وَقْبِ عَيْنِهِ كَذَا وَكَذَا قُلَّةَ وَدَكٍ، قَالَ: وَكَانَ مَعَنَا جِرَابٌ مِنْ تَمْرٍ، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يُعْطِي كُلَّ رَجُلٍ مِنَّا قَبْضَةً قَبْضَةً، ثُمَّ أَعْطَانَا تَمْرَةً تَمْرَةً، فَلَمَّا فَنِيَ وَجَدْنَا فَقْدَهُ.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ فِي جَيْشِ الْخَبَطِ: إِنَّ رَجُلًا نَحَرَ ثَلَاثَ جَزَائِرَ (جمع جزور وهو البعير ذكرًا كان أو أنثى)، ثُمَّ ثَلَاثًا، ثُمَّ ثَلَاثًا، ثُمَّ نَهَاهُ أَبُو عُبَيْدَةَ.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: بَعَثَنَا النَّبِيُّ ﷺ وَنَحْنُ ثَلَاثُمِائَةٍ نَحْمِلُ أَزْوَادَنَا عَلَى رِقَابِنَا.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ سَرِيَّةً ثَلَاثَمِائَةٍ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ ﷺ، فَفَنِيَ زَادُهُمْ، فَجَمَعَ أَبُو عُبَيْدَةَ زَادَهُمْ فِي مِزْوَدٍ (الوعاء يجعل فيه ما يُتَزَوَّد به في السفر من طعام)، فَكَانَ يُقَوِّتُنَا حَتَّى كَانَ يُصِيبُنَا كُلَّ يَوْمٍ تَمْرَةٌ.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ سَرِيَّةً أَنَا فِيهِمْ إِلَى سِيفِ (ساحل) الْبَحْرِ، وَسَاقُوا جَمِيعًا بَقِيَّةَ الْحَدِيثِ كَنَحْوِ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ وَأَبِي الزُّبَيْرِ غَيْرَ أَنَّ فِي حَدِيثِ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ: **فَأَكَلَ مِنْهَا الْجَيْشُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ لَيْلَةً.**

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ بَعْثًا إِلَى أَرْضِ جُهَيْنَةَ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا... وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِنَحْوِ حَدِيثِهِمْ. [مسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٥)].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَ مِائَةِ رَاكِبٍ أَمِيرُنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ، نَرْصُدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، فَأَقَمْنَا بِالسَّاحِلِ [نصف شهر]، فَأَصَابَنَا جُوعٌ شَدِيدٌ حَتَّى أَكَلْنَا الْخَبَطَ، [فسمي ذلك الجيش جيش الخبط]، قَالَ: فَأَلْقَى الْبَحْرُ دَابَّةً يُقَالُ لَهَا: الْعَنْبَرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ نِصْفَ شَهْرٍ، وَادَّهَنَّا مِنْ وَدَكِهِ فَثَابَتْ أَجْسَامُنَا، وَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ ﷺ ضِلَعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنَظَرَ إِلَى أَطْوَلِ جَمَلٍ وَأَطْوَلِ رَجُلٍ فِي الْجَيْشِ فَمَرَّ تَحْتَهُ، ثُمَّ جَاعُوا فَنَحَرَ رَجُلٌ ثَلَاثَ جَزَائِرَ، ثُمَّ جَاعُوا فَنَحَرَ رَجُلٌ ثَلَاثَ جَزَائِرَ، ثُمَّ جَاعُوا فَنَحَرَ رَجُلٌ ثَلَاثَ جَزَائِرَ، ثُمَّ نَهَاهُ أَبُو عُبَيْدَةَ.

قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ أَبُو الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه فَسَأَلْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**هَلْ مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ؟**»، قَالَ: فَأَخْرَجْنَا مِنْ عَيْنَيْهِ كَذَا وَكَذَا قُلَّةً مِنْ وَدَكٍ، وَنَزَلَ فِي حَجَّاجِ عَيْنِهِ أَرْبَعَةُ نَفَرٍ، وَكَانَ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ جِرَابٌ فِيهِ تَمْرٌ، فَكَانَ يُعْطِينَا الْقَبْضَةَ، ثُمَّ صَارَ إِلَى التَّمْرَةِ، فَلَمَّا فَقَدْنَاهَا وَجَدْنَا فَقْدَهَا.

[النسائي في الصيد والذبائح (٤٣٥٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: بَعَثَنَا النَّبِيُّ ﷺ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ رضي الله عنه فِي سَرِيَّةٍ، فَنَفِدَ زَادُنَا، فَمَرَرْنَا بِحُوتٍ قَدْ قَذَفَ بِهِ الْبَحْرُ، فَأَرَدْنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْهُ فَنَهَانَا أَبُو عُبَيْدَةَ رضي الله عنه، ثُمَّ قَالَ: نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ الله ﷺ، وَفِي سَبِيلِ الله، كُلُوا، فَأَكَلْنَا مِنْهُ أَيَّامًا، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ أَخْبَرْنَاهُ، فَقَالَ: «**إِنْ كَانَ بَقِيَ مَعَكُمْ شَيْءٌ فَابْعَثُوا بِهِ إِلَيْنَا**». **[النسائي في الصيد والذبائح (٤٣٥٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].**

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ رضي الله عنه، وَنَحْنُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ، وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ، فَأَعْطَانَا قَبْضَةً قَبْضَةً، فَلَمَّا أَنْ جُزْنَاهُ أَعْطَانَا تَمْرَةً تَمْرَةً، حَتَّى إِنْ كُنَّا لَنَمُصُّهَا كَمَا يَمُصُّ الصَّبِيُّ وَنَشْرَبُ عَلَيْهَا الْمَاءَ، فَلَمَّا فَقَدْنَاهَا وَجَدْنَا فَقْدَهَا، حَتَّى إِنْ كُنَّا لَنَخْبِطُ الْخَبَطَ بِقِسِيِّنَا وَنَسَفُّهُ، ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ حَتَّى سُمِّينَا جَيْشَ الْخَبَطِ، ثُمَّ أَجَزْنَا السَّاحِلَ، فَإِذَا دَابَّةٌ مِثْلُ الْكَثِيبِ يُقَالُ لَهُ: الْعَنْبَرُ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ رضي الله عنه: مَيْتَةٌ، لَا تَأْكُلُوهُ، ثُمَّ قَالَ: جَيْشُ رَسُولِ الله ﷺ، وَفِي سَبِيلِ الله عز وجل، وَنَحْنُ مُضْطَرُّونَ، كُلُوا بِاسْمِ الله، فَأَكَلْنَا مِنْهُ، وَجَعَلْنَا مِنْهُ وَشِيقَةً، وَلَقَدْ جَلَسَ فِي مَوْضِعِ عَيْنِهِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، قَالَ: فَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ رضي الله عنه ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ، فَرَحَلَ بِهِ أَجْسَمَ بَعِيرٍ مِنْ أَبَاعِرِ الْقَوْمِ، فَأَجَازَ تَحْتَهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**مَا حَبَسَكُمْ؟**»، قُلْنَا: كُنَّا نَتَّبِعُ عِيرَاتِ قُرَيْشٍ، وَذَكَرْنَا لَهُ مِنْ أَمْرِ الدَّابَّةِ، فَقَالَ: «**ذَاكَ رِزْقٌ رَزَقَكُمُوهُ الله عز وجل، أَمَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ؟**»، قَالَ: قُلْنَا: نَعَمْ.

[النسائي في الصيد والذبائح (٤٣٥٤)، وقال الشيخ الألباني: صحيح، ومجمع الزوائد ١٠/ ٥٧٩ كتاب الزهد رقم ١٨٢٧٥، وقال الهيثمي: وهو في الصحيح ولكنه قال: ونحن ثلاث مائة، وهنا قال: ستمائة وبضعة عشر، رواه الطبراني في الأوسط [٩/ ٨٥-٨٦ رقم ٩٢٠٢] وفيه زمعة بن صالح، وهو ضعيف].

وروى الإمام أحمد بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: غَزَوْنَا جَيْشَ الْخَبَطِ، وَأَمِيرُنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه، فَجُعْنَا جُوعًا شَدِيدًا، فَأَلْقَى لَنَا الْبَحْرُ حُوتًا لَمْ نَرَ مِثْلَهُ، يُقَالُ لَهُ: الْعَنْبَرُ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ نِصْفَ شَهْرٍ، وَأَخَذَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَظْمًا مِنْ عِظَامِهِ، فَكَانَ الرَّاكِبُ يَمُرُّ تَحْتَهُ.

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله يُخْبِرُ نَحْوًا مِنْ خَبَرِ عَمْرٍو هَذَا، وَزَادَ فِيهِ قَالَ: وَزَوَّدَنَا النَّبِيُّ ﷺ جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ، فَكَانَ يَقْبِضُ لَنَا قَبْضَةً قَبْضَةً، ثُمَّ تَمْرَةً تَمْرَةً فَنَمْضُغُهَا وَنَشْرَبُ عَلَيْهَا الْمَاءَ حَتَّى اللَّيْلِ، ثُمَّ نَفِدَ مَا فِي الْجِرَابِ، فَكُنَّا نَجْتَنِي الْخَبَطَ بِقِسِيِّنَا، فَجُعْنَا جُوعًا شَدِيدًا، فَأَلْقَى لَنَا الْبَحْرُ حُوتًا مَيِّتًا، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: غُزَاةٌ وَجِيَاعٌ! فَكُلُوا، فَأَكَلْنَا، فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ رضي الله عنه يَنْصِبُ الضِّلَعَ مِنْ أَضْلَاعِهِ فَيَمُرُّ الرَّاكِبُ عَلَى بَعِيرِهِ تَحْتَهُ، وَيَجْلِسُ النَّفَرُ الْخَمْسَةُ فِي مَوْضِعِ عَيْنِهِ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ

وَادَّهَنَّا، حَتَّى صَلَحَتْ أَجْسَامُنَا، وَحَسُنَتْ سَحْنَاتُنَا، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ، قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه: فَذَكَرْنَاهُ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: «**رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللهُ لَكُمْ، فَإِنْ كَانَ مَعَكُمْ مِنْهُ شَيْءٌ فَأَطْعِمُونَاهُ**»، قَالَ: فَكَانَ مَعَنَا مِنْهُ شَيْءٌ، فَأَرْسَلَ بِهِ إِلَيْهِ بَعْضُ الْقَوْمِ. [مسند أحمد ٢٢/ ٢٤٠ رقم ١٤٣٣٧، ٢٣/ ٢٨٩ رقم ١٥٠٤٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم].

وروى مسلم بسنده عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي نَطْلُبُ الْعِلْمَ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ لَقِينَا أَبَا الْيَسَرِ،... ثم ذكر حديثًا طويلًا، وفيه: وَشَكَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم الْجُوعَ، فَقَالَ: «**عَسَى اللهُ أَنْ يُطْعِمَكُمْ**»، فَأَتَيْنَا سِيفَ الْبَحْرِ فَزَخَرَ الْبَحْرُ (أي علا موجه) زَخْرَةً، فَأَلْقَى دَابَّةً، فَأَوْرَيْنَا (أي أوقدنا) عَلَى شِقِّهَا النَّارَ، فَاطَّبَخْنَا وَاشْتَوَيْنَا، وَأَكَلْنَا حَتَّى شَبِعْنَا.

قَالَ جَابِرٌ: فَدَخَلْتُ أَنَا وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ، حَتَّى عَدَّ خَمْسَةً، فِي حِجَاجِ عَيْنِهَا (هو عظمها المستدير بها) مَا يَرَانَا أَحَدٌ، حَتَّى خَرَجْنَا، فَأَخَذْنَا ضِلَعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَقَوَّسْنَاهُ، ثُمَّ دَعَوْنَا بِأَعْظَمِ رَجُلٍ فِي الرَّكْبِ، وَأَعْظَمِ جَمَلٍ فِي الرَّكْبِ، وَأَعْظَمِ كِفْلٍ فِي الرَّكْبِ، فَدَخَلَ تَحْتَهُ مَا يُطَأْطِئُ رَأْسَهُ. [مسلم في الزهد والرقائق (٣٠٠٦، ٣٠١٤)، (وأعظم كفل) قال الجمهور: المراد بالكفل هنا الكساء الذي يحويه راكب البعير على سنامه لئلا يسقط فيحفظ الكفل الراكب، قال الهروي: قال الأزهري: ومنه اشتقاق قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي نصيبين يحفظانكم من الهلكة كما يحفظ الكفل الراكب، يقال منه: تكفلت البعير وأكفلته إذا أدرت ذلك الكساء حول سنامه ثم ركبته، وهذا الكساء كفل].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدَّثَنِي عُبَادَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عُبَادَةَ ابْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَرِيَّةً إِلَى سِيفِ الْبَحْرِ، عَلَيْهِمْ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه، وَزَوَّدَهُمْ جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ، فَجَعَلَ يَقُوتُهُمْ إِيَّاهُ حَتَّى صَارَ إِلَى أَنْ يَعُدَّهُ عَلَيْهِمْ عَدَدًا، قَالَ: ثُمَّ نَفِدَ التَّمْرُ حَتَّى كَانَ يُعْطَى كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ تَمْرَةً، قَالَ: فَقَسَمَهَا يَوْمًا بَيْنَنَا، قَالَ: فَنَقَصَتْ تَمْرَةٌ عَنْ رَجُلٍ، فَوَجَدْنَا فَقْدَهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ، قَالَ: فَلَمَّا جَهَدَنَا الْجُوعُ أَخْرَجَ اللهُ لَنَا دَابَّةً مِنَ الْبَحْرِ، فَأَصَبْنَا مِنْ لَحْمِهَا وَوَدَكِهَا، وَأَقَمْنَا عَلَيْهَا عِشْرِينَ لَيْلَةً حَتَّى سَمِنَّا وَابْتَلَلْنَا، وَأَخَذَ أَمِيرُنَا ضِلَعًا مِنْ أَضْلَاعِهَا، فَوَضَعَهَا عَلَى طَرِيقِهِ ثُمَّ أَمَرَ بِأَجْسَمِ بَعِيرٍ مَعَنَا، فَحَمَلَ عَلَيْهِ أَجْسَمَ رَجُلٍ مِنَّا، قَالَ: فَجَلَسَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَخَرَجَ مِنْ تَحْتِهَا وَمَا مَسَّتْ رَأْسُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَخْبَرْنَاهُ خَبَرَهَا، وَسَأَلْنَاهُ عَمَّا صَنَعْنَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَكْلِنَا إِيَّاهُ، فَقَالَ: «**رِزْقٌ رَزَقَكُمُوهُ اللهُ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣٢-٦٣٣].

وقَالَ الْوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي دَاوُد بْنُ قَيْسٍ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيُّ مِنْ وَلَدِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَخَارِجَةُ بْنُ الْحَارِثِ وَبَعْضُهُمْ قَدْ زَادَ فِي الْحَدِيثِ قَالُوا: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ رضي الله عنه فِي سَرِيَّةٍ فِيهَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، وَهُمْ ثَلَاثُمِائَةِ رَجُلٍ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ إِلَى حَيٍّ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَصَابَهُمْ جَوْعٌ شَدِيدٌ، فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ رضي الله عنه بِالزَّادِ فَجُمِعَ حَتَّى إِذَا كَانُوا لَيَقْتَسِمُونَ التَّمْرَةَ، فَقِيلَ لِجَابِرٍ: فَمَا يُغْنِي ثُلُثُ تَمْرَةٍ؟ قَالَ: لَقَدْ وَجَدُوا فَقْدَهَا، قَالَ: وَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ حَمُولَةٌ (ما يحتمل عليه الناس من الدواب) إِنَّمَا

كَانُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ وَأَبَاعِرَ يَحْمِلُونَ عَلَيْهَا زَادَهُمْ، فَأَكَلُوا الْخَبَطَ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ ذُو مَشْرَةٍ (شبه خوصة تخرج في العضاه وفي كثير من الشجر، أو الأغصان الخضر الرطبة قبل أن تتلون بلون) حَتَّى إِنَّ شِدْقَ أَحَدِهِمْ بِمَنْزِلَةِ مِشْفَرِ الْبَعِيرِ الْعَضَّةِ، فَمَكَثْنَا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَوْ لَقِينَا عَدُوًّا مَا كَانَ بِنَا حَرَكَةٌ إِلَيْهِ لِمَا بِالنَّاسِ مِنْ الْجَهْدِ، فَقَالَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ ﷺ: مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي تَمْرًا بِجُزُرٍ يُوَفِّينِي الْجُزُرَ هَاهُنَا وَأُوَفِّيهِ التَّمْرَ بِالْمَدِينَةِ؟ فَجَعَلَ عُمَرُ ﷺ يَقُولُ: وَاعَجَبَاهُ لِهَذَا الْغُلَامِ! لَا مَالَ لَهُ يَدَّانُ فِي مَالِ غَيْرِهِ! فَوَجَدَ رَجُلًا مِنْ جُهَيْنَةَ، فَقَالَ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ ﷺ: بِعْنِي جُزُرًا وَأُوَفِّيكَ سِقَةً (جمع وسق وهو الحمل، وقدره الشرع بستين صاعًا، ويروى ايضًا بالشين المعجمة) مِنْ تَمْرِ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ الْجُهَنِيُّ: وَاللهِ مَا أَعْرِفُكَ، وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا قَيْسُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ دُلَيْمٍ، قَالَ الْجُهَنِيُّ: مَا أَعْرَفَنِي بِنَسَبِكَ! أَمَّا إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدٍ خُلَّةً، سَيِّدُ أَهْلِ يَثْرِبَ، فَابْتَاعَ مِنْهُمْ خَمْسَ جُزُرٍ كُلَّ جَزُورٍ بِوَسْقَيْنِ مِنْ تَمْرٍ، يَشْرِطُ عَلَيْهِ الْبَدَوِيُّ، تَمْرٍ ذَخِيرَةٍ مُصَلَّبَةٍ (أي يبس) مِنْ تَمْرِ آلِ دُلَيْمٍ، قَالَ: يَقُولُ قَيْسٌ: نَعَمْ، فَقَالَ الْجُهَنِيُّ: فَأَشْهِدْ لِي، فَأَشْهَدَ لَهُ نَفَرًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَمَعَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، قَالَ قَيْسٌ: أَشْهِدْ مَنْ تُحِبُّ، فَكَانَ فِيمَنْ أَشْهَدَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ عُمَرُ: لَا أَشْهَدُ! هَذَا يَدَّانُ وَلَا مَالَ لَهُ، إِنَّمَا الْمَالُ لِأَبِيهِ، قَالَ الْجُهَنِيُّ: وَاللهِ مَا كَانَ سَعْدٌ لَيُخْنِي (أي : يسلمه ويخفر ذمته، هو من أخنى عليه) بِابْنِهِ فِي سِقَةٍ مِنْ تَمْرٍ! وَأَرَى وَجْهًا حَسَنًا وَفَعَالًا شَرِيفًا، فَكَانَ بَيْنَ عُمَرَ وَبَيْنَ قَيْسٍ كَلَامٌ حَتَّى أَغْلَظَ لَهُ قَيْسٌ الْكَلَامَ، وَأَخَذَ قَيْسٌ الْجُزُرَ فَنَحَرَهَا لَهُمْ فِي مَوَاطِنَ ثَلَاثَةٍ، كُلَّ يَوْمٍ جَزُورًا، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ نَهَاهُ أَمِيرُهُ، وَقَالَ: تُرِيدُ أَنْ تُخْفِرَ ذِمَّتَكَ وَلَا مَالَ لَكَ؟

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ سَهْلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ، قَالَ: أَقْبَلَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَمَعَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ فَقَالَ: عَزَمْتُ عَلَيْكَ أَلَّا تَنْحَرَ، أَتُرِيدُ أَنْ تُخْفِرَ ذِمَّتَكَ وَلَا مَالَ لَكَ؟ فَقَالَ قَيْسٌ: يَا أَبَا عُبَيْدَةَ أَتَرَى أَبَا ثَابِتٍ وَهُوَ يَقْضِي دَيْنَ النَّاسِ وَيَحْمِلُ الْكَلَّ وَيُطْعِمُ فِي الْمَجَاعَةِ لَا يَقْضِي سِقَةَ تَمْرٍ لِقَوْمٍ مُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ! فَكَادَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَنْ يَلِينَ لَهُ وَيَتْرُكُهُ حَتَّى جَعَلَ عُمَرُ يَقُولُ: اعْزِمْ عَلَيْهِ، فَعَزَمَ عَلَيْهِ فَأَبَى عَلَيْهِ أَنْ يَنْحَرَ، فَبَقِيَتْ جَزُورَانِ مَعَهُ حَتَّى وَجَدَ الْقَوْمُ الْحُوتَ، فَقَدِمَ بِهِمَا قَيْسٌ الْمَدِينَةَ ظُهْرًا يَتَعَاقَبُونَ عَلَيْهَا.

وَبَلَغَ سَعْدٌ مَا كَانَ أَصَابَ الْقَوْمُ مِنَ الْمَجَاعَةِ، فَقَالَ: إِنْ يَكُنْ قَيْسٌ كَمَا أَعْرِفُهُ فَسَوْفَ يَنْحَرُ لِلْقَوْمِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَيْسٌ لَقِيَهُ سَعْدٌ فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ فِي مَجَاعَةِ الْقَوْمِ حَيْثُ أَصَابَهُمْ؟ قَالَ: نَحَرْتُ، قَالَ: أَصَبْتَ، انْحَرْ! قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: نَحَرْتُ، قَالَ: أَصَبْتَ، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: ثُمَّ نَحَرْتُ، قَالَ: أَصَبْتَ، انْحَرْ! قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: نُهِيتُ، قَالَ: وَمَنْ نَهَاكَ؟ قَالَ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ أَمِيرِي، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: زَعَمَ أَنَّهُ لَا مَالَ لِي، وَإِنَّمَا الْمَالُ لِأَبِيكَ، فَقُلْتُ: أَبِي يَقْضِي عَنْ الْأَبَاعِدِ وَيَحْمِلُ الْكَلَّ وَيُطْعِمُ فِي الْمَجَاعَةِ وَلَا يَصْنَعُ هَذَا بِي! قَالَ: فَلَكَ أَرْبَعُ حَوَائِطَ (بساتين)، قَالَ: وَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ كِتَابًا، قَالَ: وَأَتَى بِالْكِتَابِ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ، فَشَهِدَ فِيهِ،

وَأَتَى عُمَرُ فَأَبَى أَنْ يَشْهَدَ فِيهِ، وَأَدْنَى حَائِطٍ مِنْهَا يَجُدُّ خَمْسِينَ وَسْقًا، وَقَدِمَ الْبَدَوِيُّ مَعَ قَيْسٍ فَأَوْفَاهُ سِقَتَهُ وَحَمَّلَهُ وَكَسَاهُ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فِعْلُ قَيْسٍ، فَقَالَ: «**إِنَّهُ فِي بَيْتِ جُودٍ**».

حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، فَأَلْقَى لَنَا الْبَحْرُ حُوتًا مِثْلَ الظَّرِبِ (الجبل الصغير)، فَأَكَلَ الْجَيْشُ مِنْهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِضِلَعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنُصِبَ، ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فَرُحِّلَتْ ثُمَّ مَرَّ تَحْتَهَا فَلَمْ يُصِبْهَا.

حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَجْلِسُ فِي وَقْبِ عَيْنِهِ، وَإِنْ كَانَ الرَّاكِبُ لَيَمُرُّ بَيْنَ ضِلَعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ عَلَى رَاحِلَتِهِ.

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ الْحِجَازِيِّ عَنْ عُمَرَ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ شُجَاعٍ قَالَ: لَـمَّا قَدِمَ الْأَعْرَابِيُّ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ قَالَ: يَا أَبَا ثَابِتٍ، وَاللهِ مَا مِثْلُ ابْنِكَ صَنَعْتُ وَلَا تَرَكْتُ بِغَيْرِ مَالٍ، فَابْنُكَ سَيِّدٌ مِنْ سَادَةِ قَوْمِهِ، نَهَانِي الْأَمِيرُ أَنْ أَبِيعَهُ، قُلْتُ: لِمَ؟ قَالَ: لَا مَالَ لَهُ! فَلَـمَّا انْتَسَبَ إِلَيْكَ عَرَفْتُهُ فَتَقَدَّمْتُ لِمَا عَرَفْتُ أَنَّكَ تَسْمُو عَلَى مَعَالِي الْأَخْلَاقِ وَجَسِيمِهَا، وَأَنَّكَ غَيْرُ مُذِمٍّ بِمَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ لَدَيْكَ، قَالَ: فَأَعْطَى ابْنَهُ يَوْمَئِذٍ أَمْوَالًا عِظَامًا».

[المغازي للواقدي ٢/ ٧٧٤-٧٧٧].

العرض الأدبي للسرية [صور من جهاد الصحابة ﷺ للخالدي ٨٥-١٠١ بتصرف يسير]:

مجموعة أبي عبيدة بن الجراح ﷺ وإكرام الله ﷻ لها على (سيف البحر)

مهمة مجموعة أبي عبيدة ﷺ على سيف البحر:

كان رسول الله ﷺ يرسل (السرايا) الجهادية للصحابة المجاهدين؛ ليتعرضوا لتجارات قريش، يرصدوها أو يهاجموها، فيستولوا على ما فيها.

واستمر هذا حتى صلح الحديبية في نهاية السنة السادسة من الهجرة، حيث تم التوقيع فيه على هدنة بينه ﷺ وبين قريش لمدة عشر سنوات.

وهذا الفعل من رسول الله ﷺ جهادي مشروع؛ لأنه كان في حالة حرب مع المشركين في مكة، والحرب قد تكون عسكرية، وقد تكون اقتصادية، والهدف من الحرب الاقتصادية هو إنهاك العدو، وإضعاف اقتصاده، والسيطرة على أمواله وموارده؛ ليؤدي هذا إلى هزيمته واستسلامه.

وكانت (السرية) المجاهدة مكونة من (مجموعة) من الصحابة المجاهدين، يشكلها رسول الله ﷺ ويجعل أحد أصحابه أميرًا عليها، ويأمره بالتوجه مع إخوانه إلى منطقة معينة، يعينها له، ويحدد له مهمة جهادية لينفذها.

شكَّل رسول الله ﷺ بعد غزوة الأحزاب ـ وقبل صلح الحديبية ـ سرية مجاهدة وأمَّر عليها أبا عبيدة بن الجراح ﷺ، أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين إلى الإسلام في مكة.

وكان عدد أفرادها يزيد على الثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار، منهم عمر بن الخطاب، ومنهم قيس بن سعد بن عبادة، ومنهم جابر بن عبد الله رضي الله عنهم.

وأمرهم رسول الله ﷺ بالتوجه إلى منطقة (سيف البحر)؛ ليرصدوا فيها (عيرًا) لقريش.

والعير قافلة تجارية تخرج من مكة إلى الشام، أو تعود من الشام إلى مكة، محملة بالبضائع والأموال والأمتعة، يحرسها مجموعة من الرجال.

كما أمرهم ﷺ بتأديب أحياء من قبيلة (جهينة) مقيمين هناك؛ كي لا يتعرضوا للمسلمين بالأذى!

جِراب تمر لثلاثمائة مجاهد:

وكان تشكيل هذه المجموعة المجاهدة في ظرف عصيب، مَرَّ به المسلمون في المدينة، حيث كانوا يعيشون فترة فقر شديدة، لا يكادون يجدون ما يأكلون، ومع أن حياتهم في المدينة كانت دائمًا هكذا، يعانون فيها من الفقر والجوع ما يعانون، إلا أنهم في تلك الفترة كانوا أشد فقرًا!

ومع هذا فلابد أن تستمر العمليات الجهادية، ومنذ متى كان فقر الصحابة وجوعهم مانعًا لهم عن الجهاد؟ كانوا يستعلون على فقرهم وجوعهم، ويصبرون على فاقتهم وحاجتهم، ويجاهدون بقوة وشجاعة!

بحث رسول الله ﷺ عن زاد وتموين يزود فيه هذه المجموعة المجاهدة، حيث سيغيبون عن المدينة مدة، ولابد أن يكون معهم طعام يأكلون منه في سيرهم الجهادي الشاق!

لكن الرسول ﷺ لم يجد لهم إلا جرابًا من التمر! والجراب وعاء من الجلد أو غيره، يوضع فيه التمر؛ ليسهل حمله ويتم حفظه.

وماذا يكفي جراب من تمر لأكثر من ثلاثمائة رجل، يقطعون مسافات طويلة، ويغيبون مدة طويلة، الله أعلم بها؟ وليس معهم طعام غيره؟!

لكن ماذا يفعل ﷺ؟ لم يجد لهم من الطعام غير هذا، فليأخذوا جراب التمر، وليخرجوا للجهاد في سبيل الله، متوكلين على الله، وإن الله سيرزقهم ولن يضيعهم أبدًا.

وقبل أن يخرجوا من المدينة أوصاهم رسول الله ﷺ بوصاياه التي كان يوصي المجاهدين بها، من تقوى وإخلاص لله، وأخوة ومحبة بينهم، وطاعة لأميرهم.

أبو عبيدة رضي الله عنه يقنن الطعام في تناقص متواصل:

خرج المجاهدون من المدينة متوجهين إلى سيف البحر، وكان أميرهم أبو عبيدة رضي الله عنه يشرف على توزيع الطعام عليهم إشرافًا مباشرًا يوزعه بيديه؛ لأن الزاد قليل، وسفرهم طويل، ولابد أن (يقنن) توزيع الطعام!

في الأيام الأولى لمسيرهم كان يعطي كل رجل (قبضة) من التمر، لليوم كاملًا! وهذه القبضة قليلة، قد يأكلها الرجل في وجبة واحدة ثم يطلب المزيد، فكيف تكفيه ليوم كامل؟

وبعد أيام من التوزيع على هذا الأساس تناقص التمر، فقلل أبو عبيدة ﷺ الكمية، وصار يصرف للرجل الواحد ثلاث حبات من التمر لليوم الواحد! بحيث يأكل حبة تمر واحدة في كل وجبة!

ثم تناقص التمر، فصار يصرف للرجل حبة تمر واحدة طيلة اليوم، وأوصى أبو عبيدة ﷺ رجاله المجاهدين قائلًا: لا يأكل أحدكم تمرته؛ لأنه إن أكلها فلن يجد غيرها، وعليه أن يمصها مصًّا، ويشرب عليها ماء، ثم يُخرجها من فمه، ويضعها في جيبه أو رحله، وفي الوجبة التالية يمصها مرة ثانية، ويشرب عليها الماء، ثم يحتفظ بها للوجبة الثالثة!

وهكذا مضت أيام عديدة، وزادُ المجاهد منهم حبة تمر واحدة لليوم كله يمصها كما يمص الصبي الصغير، ثلاث مرات في اليوم، ثم يأكلها ويمضغها في المساء! هذا وهم يسيرون على أقدامهم يقطعون الأراضي الشاسعة، ويبذلون فيه الكثير من الجهد والقوة والطاقة!

حبة تمر لثلاثة رجال في اليوم:

واضطر أبو عبيدة ﷺ إلى تخفيض كمية التمر، وهل هناك تخفيض أقل من حبة تمر للرجل طيلة اليوم؟ نعم! إن الضرورة لها أحكام!

صار يشرك كل ثلاثة رجال في حبة واحدة من التمر، بحيث يكون نصيب الواحد منهم (ثلث) حبة تمر طيلة اليوم! يمص هذا الثلث من الحبة مصًا ويشرب عليه الماء!

ولما روى جابر بن عبد الله ﷺ أحدُ جنود هذه المجموعة ذلك لأحد الرواة فيما بعد، استغرب الرجل، وقال لجابر ﷺ: ماذا ينفع للرجل منكم ثلث حبة تمر في اليوم؟

قال جابر ﷺ: كنا نجوع، ونستعين بالله.

ثم نفد ما معهم من التمر نهائيًّا، ولم يبق منه شيء، وبنفاد التمر وانتهائه وصلوا إلى المكان الذي وجههم له رسول الله ﷺ، فحطوا رحالهم في منطقة (سيف البحر) وليس معهم شيء من الزاد أو الطعام أو التمر!

هكذا إذن كان طعام هذا الجيش المجاهد: قبضة من التمر في اليوم! ثم ثلاث حبات من التمر في اليوم! ثم حبة واحدة من التمر في اليوم! ثم ثلث حبة من التمر في اليوم! ثم لا شيء من الطعام، لا من التمر ولا غيره!

عندما نتذكر هذا، نتذكر مقدار ما بذل الصحابة الكرام ﷺ من الجهد والمشقة والتعب لنصرة هذا الدين، وجهاد أعداء الله الكافرين، وإلا فماذا نقول في هذه المجموعة المجاهدة، التي خرجت للجهاد،

وابتعدت عن المدينة مسافة طويلة، والواحد من أفرادها لا يجد حبة تمر يأكلها طيلة اليوم فيسير يومه على رجليه، وهو جائع جوعًا شديدًا؟!. نزلوا في منطقة (سيف البحر) يرصدون عير قريش، وليس معهم شيء يأكلونه! ومن الممكن أن يهاجمهم الأعداء، وهم على هذه الحالة من الجوع والضعف والإعياء! فكيف يقاتلونه، إنهم يخشون أن لا يقووا على الوقوف في الميدان لقتاله؛ لأنه لم يعد لهم طاقة ولا قوة، وهذا هو الذي يشغل بالهم!، وليس عدم وجود طعام يأكلونه!

المجاهدون يأكلون ورق الشجر:

كان في المنطقة بعض الأشجار الصحراوية تسمى (العضاه) ولها ورق أخضر صغير، يكون حول شوك الشجر الصغير، وكانت الإبل ترعى ذلك الورق وتأكله!

لم يجد المجاهدون في المنطقة شيئًا يأكلونه، وفكروا ماذا يفعلون؟ وإذا فاجأهم قوم من الأعداء فكيف يقاتلون؟ نصحهم واحد منهم قائلًا: يا قوم! أنتم جائعون، والجوع أجهدكم، ويُخشى أن يفاجئكم الأعداء، فتعجزون عنهم، وليس عندكم طعام، وها هو ورق (العضاه) الأخضر أمامكم، فاخبطوه بعصيكم خبطًا، ثم كلوه كما تأكله الإبل؛ ليمنحكم شيئًا من القوة والطاقة، تقاتلون بها عدوكم!

وأقبل الصحابة المجاهدون على شجر العضاه، يضربونه ضربًا، ويخبطونه خبطًا بعصيهم! فيسقط الورق على الأرض، فيجمعون ذلك الورق لأكله! منهم من كان يمضغ ذلك الورق مضغًا، ثم يمص عليه الماء ليسهل ازدراده وبلعه! ومنهم من كان يبله بالماء ليكون لينًا طريًا، ثم يأكله! ومنهم من كان يجفف ذلك الورق، فإذا يبس دقَّه، فإذا كان كالطحين أكله وشرب عليه الماء!

وتأثرت أشداقهم بهذا الورق الذي يمضغونه، ونزل منها الدم، وصارت لهم (مشافر) تكاد تشبه مشافر الإبل! واستمروا أيامًا ليس لهم طعام إلا هذا الورق الذي يخبطونه؛ ولهذا سميت تلك السرية (سرية الخبط)!

ولذلك قال جابر ﷺ لمحدثة: ثم كنا نخبط الخبط بقسينا، ثم نسفه ونشرب عليه من الماء، حتى سُمينا (جيش الخبط)! فعلوا ذلك وهم صابرون محتسبون، يصبرون على آلام الجوع، وعلى آلام ورق الشجر الذي يأكلونه، يجرح أشداقهم، ويؤثر في أمعائهم، ويحتسبون ذلك عند الله!

قيس بن سعد ﷺ يشتري لهم الجمال بالدَّيْن:

فَكَّر قيس بن سعد بن عبادة ﷺ أحد أفراد المجموعة المجاهدة ـ في مخرج، يريح به إخوانه، ويقدم لهم بعض الطعام، وكان شابًّا جوادًا كريمًا، ورث الكرم والجود عن جده وأبيه، وأبوه هو الصحابي الجليل سعد بن عبادة ﷺ، زعيم الخزرج، وسيد الأنصار!

لم يكن مع قيس بن سعد ﷺ مال يحمله، ليشتري به ذبائح لإخوانه يطعمهم إياها، فبحث عن رجل في المنطقة يشتري منه جِمالًا على أن يعطيه ثمنها تمرًا عندما يعودون إلى المدينة!

بحث عن رجل من قبيلة (جهينة) المقيمين في تلك المنطقة، المسالمين للمسلمين، يشتري منه الجِمال بالدَّيْن! كان يقول للجهنيين: من يشتري مني تمرًا بجمال! يعطيني الجمال هنا وأعطيه التمر في المدينة بعد ذلك؟

قيس بن سعد ﷺ يستدين من أجل إخوانه! يريد أن يقدم لهم لحمًا، إكرامًا لهم! هذا هو الجود والكرم في أرفع صوره!

ولما سمع عمرو بن الخطاب ﷺ ـ وكان أحد جنود المجموعة ـ قال: عجبًا لهذا الغلام! إنه لا مال له، وهو يستدين على مال أبيه!

ولكن الصحابة أكبروا من قيس موقفه، وأثنوا عليه كثيرًا.

لقي قيس بن سعد ﷺ رجلًا جُهنيًّا عنده إبل كثيرة، فقال له: أتبيعنُي جِمالًا الآن وأُعطيك ثمنها أوسِقة من التمر في المدينة فيما بعد؟

فقال له الجهني: أنا أفعل، لكن من أنت؟ إنني لا أعرفك!

قال قيس: أنا قيس بن سعد بن عبادة بن دُليم!

عرف الجهنيُّ أباه، فهو زعيم الخزرج، مشهورٌ بالغنى والجود والكرم، فقال لقيس: إنَّ بيني وبين أبيك خلةٌ وصداقة، وهو سيد أهل يثرب ـ اسم المدينة قبل الإسلام ـ وأبيعُك ما تُريد، على أن يكون كلُّ بعيرٍ بوسقين من تمر المدينة، من أجود تمورها، وهو تمر (آل دليم) أهلك!

واتفقا على ذلك، وأشهد على البيع بعض الرجال المجاهدين، وطُلب من عمر بن الخطاب ﷺ أن يشهد على البيع، فرفض أن يشهد، وقال: قيس بن سعد لا مال له، وقد استدان على مال أبيه! فهل يفي أبوه ويدفع الثمن؟

فغضب قيس ﷺ وجرى بينه وبين عمر ﷺ كلام، وقال بعض الصحابة لعمر: ما كان لسعد بن عبادة أن يخفر ذمة ابنه قيس، ويرفض دفع ثمن الإبل، فهو كريم معروف!

اشترى قيس بن سعد ﷺ من الجهنيِّ أحد عشر جملًا، كلُّ جملٍ بوسقين من تمر آل دُليم في المدينة، يدفعها له عندما يأتي الجهنيُّ إلى المدينة.

وينحر لهم تسعة جِمال منها:

وساق قيس ﷺ الجمال، وأتى بها لإخوانه، يكرمهم بها ليأكلوا من لحمها!

كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، ومعلوم أنَّ الجمل يكفي مائة رجلٍ يأكلونه، وهذا معناه أنه يحتاجون إلى ثلاثة جمال يذبحونها لتكفيهم!

نحر قيسُ لإخوانه في اليوم الأول ثلاثة جِمال، وأكرمهم بها، فذبحوها وطبخوها وأكلوها، بعد انقطاع عن اللحم والطعام أيامًا عديدة، فشكروا الله على هذه النعمة، وأثنوا على قيس خيرًا؛ لأنه استدان على مال أبيه ليكرمهم باللحم!

وبعد أيام نحر لهم ثلاثة جمال أخرى، وبعد ذلك بأيام نحر لهم ثلاثة جمال أخرى، فيكون بذلك قد قدَّم لإخوانه تسعة جِمال، وبقيَ عنده جَملان اثنان!

ولما أراد أن ينحر الجملين الباقيين منعه الأمير أبو عبيدة ﷺ وقال له: عزمت عليك يا قيس ألا تنحر، أتريد أن تخفر ذمتك؟ ويُخشى أن لا يعترف أبوك بهذا الدَّيْن؟ وأن لا يدفع للجهني ثمن جماله!

فقال قيس: أترى أبا ثابت (كنية أبيه سعد بن عبادة ﷺ) يقضي ديون الناس، ويُطعم في المجاعة، ويحمل الكَلَّ الضعيف، ولا يقضي دينًا استدنتُه لقومٍ مجاهدين في سبيل الله؟

وبما أن الأمير أبا عبيدة ﷺ عزم على قيس أن لا ينحر الجملين الباقيين، فقد التزم قيس ﷺ وأطاع أميره، وبقي الجَمَلان مع المجموعة المجاهدة، ولما عادوا بعد ذلك إلى المدينة، كانوا يتعاقبون على ركوبهما!

وعاد المجاهدون إلى شجر (العضاه) يخبطونه بعصيِّهم، ويأكلون ورقه الذي يتساقط، ذلك الورق الذي قرَّح أشداقهم، وآذى أمعاءهم.

واستمروا على ذلك أيامًا، صابرين محتسبين، منتظرين الفرج من الله سبحانه.

الله ﷻ يكرمهم بحوت العنبر العجيب:

وأخيرًا جاءهم الفرجُ من عند الله! إنهم جنود الله وأولياؤه، وقد خرجوا مجاهدين في سبيله، ناصرين لدينه، مواجهين لأعدائه، مُطيعين لرسوله ﷺ، وعلم منهم الصدق والإخلاص والجدية، وابتلاهم بالجوع، فصبروا وثبتوا، وجاهدوا وصدقوا!

إنهم يستحقون التكريم من الله سبحانه، وهو على كل شيء قدير، فعَّال لما يريد، يقول للشيء كُن فيكون، لا راد لأمره، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء!

ساق الله لهم رزقًا لم يكونوا يتوقعونه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ﴾ [الطلاق].

في صباح أحد الأيام، صلَّى المجاهدون الفجر خلف أميرهم أبي عبيدة ﷺ، وجلسوا يذكرون الله حتى طلعت الشمس، وكانوا على شاطئ البحر الأحمر، ولما طلعت الشمس نظر أحدهم فرأى منظرًا عجيبًا على شاطئ البحر، رأى شيئًا كبيرًا ضخمًا، كأنه كثيبٌ من رمل، أو كأنه جبلٌ صغير على الشاطئ! ما هذا؟ هل هو جبل صغير؟ عهدُهُ بهذه المنطقة أنها سهلٌ منفسحٌ على الشاطئ، ليس فيها تلٌّ ولا جبل! فمن أين (نبت) فيها هذا الجبل فجأة؟

نادى الرجل إخوانه قائلًا: يا قوم! انظروا، ألا ترون ما أرى على الشاطئ؟

ونظروا نحو الجهة التي أشار أخوهم إليها، فرأوا ذلك المنظر العجيب، الذي فوجئوا به، وتوجهوا إليه يتعرفون عليه!

قال الذين سبقوا إخوانهم إليه: يا قوم، إنه (حوت العنبر) قذفه البحر على الشاطئ!

واجتمع المجاهدون حول (حوت العنبر) ينظرون إليه ويتفحصونه، ويتعجبون من ضخامته! سبحان الله: حوت عظيم كبير، كأنه تلٌّ رمل، أو كأنه جبلٌ صغير! كم وزنُه؟ لعلَه يزِنُ آلاف الأطنان؟ كم طولُه وعرضُه؟ لعلَه عدةُ أمتار!

على كثرة ما رأوا من أسماك وحيتان ودواب البحر، ما سبق أن رأوا حوتًا أو دابةً بحرية، بهذه الضخامة! إنه خَلقٌ عظيمٌ من خلق الله!

أبو عبيدة ﷺ يفتي لهم بالأكل منه بعد تردد:

وقفوا أمام حوت العنبر العجيب مفكرين متسائلين: إنه حوت بحري، وقد أحل الله للمسلمين صيد البحر، فحيتانه وأسماكه ودوابه حلال للمسلمين! لكنه (حوت ميت)! وقد حرَّم الله على المسلمين أكل الميتة! ومع أنه (ميتة) فإن الله أباح أكل الميتة للمضطر، فإذا فقد المسلمُ الطعام، ولم يجد ما يأكله، وأوشك على الموت جوعًا، فإن الله أباح له أكل الميتة!

حوت البحر حلال، لكنه ميت، والميتةُ حرام، صحيح ولكنهم مضطرون، والميتة حلالٌ للمضطر، وهم مضطرون!

إنها أفكار ترِدُ عليهم، فهل يأكلون من هذا الحوت الكبير الميت أم لا؟

قال لهم أميرهم أبو عبيدة: لا تأكلوا منه، إنه ميتة!

فتوقفوا ولم يأكلوا، رغم حاجتهم الماسَّة، وجوعهم الشديد، التزامًا بنهي الأمير، وطاعةً له.

ثم فكَّر الأمير، وأعاد النظر في المسألة: إنَّ الحوت ميتة، لكن المجاهدين مضطرون ومسافرون وجائعون، وليس عندهم ما يأكلون، ولو لم يأكلوا لهلكوا وماتوا جوعًا، فشرح الله صدره للسماح لهم بالأكل، وأنه جائز للضرورة!

فقال لهم: يا قوم، نحن رسلُ رسول الله ﷺ، وقد خرجنا مجاهدين في سبيل الله، وليس معنا ما نأكله، وقد اضطررتم للأكل منه، فكلوا باسم الله!

أكلوا منه شهرًا كاملاً حتى سمنوا:

فرح المجاهدون بإذن الأمير، وشكروا الله على ما أكرمهم به، وساقه لهم، وزال الحرجُ من نفوسهم، فأقبلوا على (حوت العنبر) العظيم العجيب، وصاروا يقتطعون منه اللحم ويأكلونه!

إنه كبير كالتل الكبير، أو الجبل الصغير، وسيكفيهم مدةً طويلة.

أخبر جابر بن عبد الله ﷺ أنهم كانوا يقتطعون منه قطعة اللحم الكبيرة، القطعة الواحدة بحجم الثور، ثم يُقطِّعونها إلى قِطع أصغر، فيطبخونها ويأكلونها!

وكانوا يغترفون الدهن من (تجويف) عينه بالجِرار الكبيرة اغترافًا! فكم كان ذلك الدهن؟ وكم كانت كميته؟

استمروا شهرًا كاملًا، يأكلون من لحمه ودهنه، ولنتصور مقدار وكمية لحمه، الذي كفى أكثر من ثلاثمائة رجل شهرًا كاملًا، وبقي منه الكثير!

عادت إليهم قوَّتُهم، وامتلأت أجسامهم حيوية وطاقة، وسمنت أبدانهم! كيف لا يحصل لهم ذلك، وهم جالسون أكثر من شهر بجانب هذا الحوت العجيب، يأكلون منه كل يوم ثلاث وجبات!

ضخامة الحوت من خلال وقب عينه وضلعه:

وبعدما اقتطعوا كثيرًا من لحمه، وأخذوا كثيرًا من دهنه، أرادوا أن يقفوا على مقدار ضخامته وكِبر حجمه... كانوا قد أفرغوا (وقب) عينه من الدهن، وهو ما في داخل عينه من تجويف، وأصبح وقبُ عينه فارغًا، فأرادوا أن يقفوا على ضخامته.

دعا أبو عبيدة ﷺ ثلاثة عشر رجلًا منهم، فأجلسهم في وقب عينيه، فوسعهم واستوعبهم! أمر عجيب حقًّا، ثلاثة عشر رجلًا يجلسون في عين هذا الحوت! فما مساحتها؟ وكأن عينه بحجم سيارة كبيرة تتسع لهذا العدد من الرجال، وإذا كانت عينُه بهذه المساحة، فما مقدار حجم الحوت كله!

وفي يوم آخر جاؤوا بضلع من أضلاع الحوت، فإذا به كأنه قوس كبير! نصبوا هذا الضلع على شكل (قوس)، وصاروا ينظرون إليه، متعجبين من ارتفاعه وعلوه!

ودعا أبو عبيدة ﷺ أطول رجل فيهم، وهو قيس بن سعد بن عبادة ﷺ ثم أمر بإحضار أعظم بعير عندهم، وأمر بوضع أكبر رحل عليه، ثم أمر قيس بن سعد ﷺ أن يركب البعير، وأن يرفع رأسه، ثم يمر من تحت ضلع الحوت المنصوب!

وقام قيس بن سعد ﷺ بالعملية العجيبة المثيرة، ومر من تحت الضلع ـ القوس ـ المنصوب، ولم يُصب رأسه الضلع، فما مقدار طول الضلع؟ طولُه عدة أمتار!

إن هاتين الحادثتين تشيران إلى ضخامة هذا الحوت! ثلاثة عشر رجلًا يجلسون في عينه فتسعُهم وتستوعبُهم، وأطول رجل يركب أطول بعير ويمر من تحت ضلعه المنصوب!

إنه تكريم من الله ﷻ لهؤلاء الجنود الربانيين المجاهدين، فهو الذي أمر ماء البحر بحمل هذا الحوت العجيب الضخم، ولا ندري من أي البحار والمحيطات جيء به، والله هو الذي أمر البحر بأن يقذف هذا الحوت على شاطئه، بجانب المجاهدين! فجعله رزقًا خاصًّا، ساقهُ لهم، ومكَّنهم منه!

إن الأمر ليس حادثًا عاديًّا لكنه حادث خاص، خارقٌ للعادة، إنه (كرامة) من كرامات أصحاب رسول الله ﷺ، أكرمهم الله بها.

ونعلم أن المعجزة والكرامة يلتقيان على أن كلًّا منهما هو أمر خارق للعادة، لا يستطيع الإنسان فعله، وإنما هو من فعل الله وأمره.. ويفترقان في أن المعجزة الخارقة هي التي يُجريها الله على يد الأنبياء، أما الكرامة فهي الأمر الخارق الذي يجريه الله على يد الأولياء، فالمعجزة للنبي، والكرامة للولي!

عودة المجاهدين ومعهم وشائق من لحم الحوت:

لقد كان حوت العنبر العجيب (كرامة) من كرامات هؤلاء الصحابة المجاهدين! وبعدما أقاموا على الحوت شهرًا كاملًا، رأى الأمير أن مهمتهم قد انتهت، فقد وجههم رسول الله ﷺ إلى منطقة (سيف البحر) لرصد عير قريش، وتأديب المشاغبين من قبيلة جُهينة.

ولما وصلوا المنطقة قبل أكثر من شهر هرب المشاغبون من أمام المجاهدين، وانتظروا مرور قافلة قريش التجارية، فلم تمر! إذن انتهت مهمتهم الجهادية في المنطقة، وسلَّمهم الله فلم ينشب قتالٌ بينهم وبين أعدائهم؛ لذلك لابد من العودة إلى المدينة!

وأثناء إقامتهم في المنطقة، وفي فترة ابتلائهم بالجوع، علم المسلمون في المدينة بما يعانيه هؤلاء المجاهدون من جوع وحاجة، ودعوا لهم بالفرج.

وعلم بذلك سعد بن عبادة ﷺ، فتوقع أن يجتهد ابنه قيس في إكرامهم، وقال: إن يكن قيس كما أعرفه وأعهده من الجود والكرم، فسوف ينحر لهم الجمال!

وكان قيس عند حسن ظن أبيه سعد ﷺ، فقد عرفنا أنه (استدان) أحد عشر جملًا، ونحر لهم تسعة جِمال منها!

أصدر أبو عبيدة ﷺ أمره إلى إخوانه المجاهدين بالاستعداد للعودة إلى المدينة.

وقبل رحيلهم أحبوا أن يتزودوا بشيء من لحم الحوت، يأكلون منه في طريق العودة، ويأخذون الباقي معهم إلى المدينة!

قَطعوا قِطعًا من لحم الحوت، وسَلَقوها بالماء على النار سلقًا، كي لا تفسد أثناء الرحلة، وبعدما سلقوها صارت (وشائق) وحملوها معهم، وفي الطريق كانوا يأخذون هذه الوشائق المسلوقة، فيُنضجونها إنضاجًا جيدًا، ثم يأكلونها!

وعاد المجاهدون إلى المدينة سالمين غانمين مفلحين، كفاهم الله القتال، فلم يحاربوا هناك عدوًّا، ومَنَّ الله عليهم بحوت العنبر، أكلوا منه حتى شبعوا وسمنوا، وعادوا إلى المدينة أحسن صحة، وأسمن أبدانًا، وأكثر قوة وحيوية وبهاء وإشراقًا! وعادوا حامدين شاكرين لله على ما أنعم عليهم به من النعم، وأكرمهم به من الكرامة!

المجاهدون يُطعمون الرسول ﷺ من لحم الحوت:

قابلوا رسول الله ﷺ، ومعهم (وشائق) باقية من لحم الحوت، وذكروا له قصتهم والأحداث التي مرت بهم بالتفصيل.

ثم ذكروا له أمرَ (الحوت العجيب)، وسألوه عن حُكم أكلهم منه! بعدما أكلوا منه!

وكان سؤالهم بهدف طمأنينة قلوبهم، وإزالة ما قد يعلق ببعضها من التحرج، فهم يعتمدون على فتوى أميرهم أبي عبيدة ﷺ، ويعلمون أنه عالم من علماء الصحابة، قادر على الحكم والاجتهاد والفتوى! وقد أكلوا من الحوت ما أكلوا بناء على فتواه، لكنهم سألوا رسول الله ﷺ لزيادة اليقين والطمأنينة.

فقال لهم رسول الله ﷺ: هو رزق ساقه الله إليكم، فهل معكم منه شيء فتطعمونا؟!

قالوا: نعم بقي معنا (وشائق)، قدموها لرسول ﷺ، فأكل منها!

وبذلك أيقنوا أن الأكل من ذلك الحوت مباح، وأنه حلال طيب، وزال ما في قلوب بعضهم من التحرج.

واستخرجوا من ذلك حُكمًا شرعيًّا هو: إن جميع ميتات البحر حلال، وجميع أسماك وحيتان ودواب البحر حلال، وإن المسلم إذا وجد حيتانًا أو أسماكًا طافية على وجه الماء ميتة، أو ألقاها البحر على الشاطئ، فإنها حلال وليست حرامًا، والدليل على ذلك فعلُ المجاهدين، وأكلُهم من لحم الحوت الميت على الشاطئ وإطعامهم رسول ﷺ منه.

سعد بن عبادة ﷺ يثني على ابنه قيس ﷺ لكرمه:

بعد ذلك ذهب قيس بن سعد بن عبادة إلى أبيه ﷺ، فقص عليه ما جرى لهذه المجموعة المجاهدة من أحداث، وما أصابهم من جوع شديد!

فقال له أبوه: ماذا فعلت لإخوانك حينما أصابهم الجوع؟

قال قيس: نحرت ثلاثة جمال استدنتها على تمر أدفعه لصاحبها في المدينة!

قال له أبوه: أصبت وأحسنت، انحر! ثم ماذا فعلت؟

قال قيس: ثم نحرت بعد ذلك ثلاثة جمال.

قال أبوه: أصبت وأحسنت، انحر! ثم ماذا فعلت؟

قال قيس: ثم نحرت بعد ذلك ثلاثة جمال.

قال أبوه: أصبت وأحسنت، انحر! ثم ماذا فعلت؟

قال قيس: بقي معي جملان لم أنحرهما، لأني نُهيتُ عن ذلك!

استغرب أبوه، وقال متسائلًا منكرًا: ومَنْ نهاك؟

قال قيس: نهاني أميري أبو عبيدة؟

قال أبوه: ولماذا نهاك أبو عبيدة؟

قال قيس: قال لي أبو عبيدة: إنك يا قيسُ لا مال لك، والمالُ مال أبيك، وأنت استدنت ثمن الجِمال دينًا على مال أبيك، ونخشى أن لا يدفع أبوك الدين!

قال أبوه: ماذا قلت له؟

قال قيس: قلت له: إن أبي كريم، يقضي عن الأباعد، ويحمل الكَلَّ الضعيف، ويُطعم في المجاعة، يفعل هذا مع الغريب، ألا يفعله مع ابنه؟

أُعجب سعد بن عبادة ﷺ بموقف ابنه قيس، وكلامه مع الأمير، واستدانته على مال أبيه ليكرم إخوانه!

ويمنحه أربعة بساتين مكافأة بشهادة أبي عبيدة ﷺ:

وقرر سعد بن عبادة ﷺ أن يكرم ابنه، وأن يعطيه عطية ثمينة لإكرامه إخوانه، فأعطاه أربعة بساتين من النخيل! أقل بستان منها يؤخذ منه خمسون وَسَقًا من أجود أنواع التمر!

وإن قيسًا ﷺ يستحق هذه الجائزة والمكافأة من أبيه؛ لأن الجود والكرم متعمق في شخصيته.

ولـمّا أعطاه البساتين الأربعة، وكتب بذلك كتابًا، أراد الوالد أن يُشهد على ذلك بعض الصحابة.

اختار سعد بن عبادة ﷺ أميرَ المجموعة المجاهدة أبا عبيدة بن الجراح ﷺ، ليشهد عليه! ويبدو أن السبب في ذلك هو أن أبا عبيدة ﷺ نهى قيس بن سعد ﷺ عن نحر باقي الجمال، وخشي أن لا يعترف أبوه بالدَّيْن، وأن لا يدفعه لصاحبه، بناء على كلام عمر بن الخطاب لأبي عبيدة ﷺ.

اختار سعدٌ أبا عبيدة ﷺ ليشهد على الكتاب، بأنه أعطى ابنه قيسًا أربعة بساتين نخل مثمرة، مكافأة له على إكرامه المجاهدين، عندما نحر لهم تسعة جمال! ليعرف أن الأب رضي كرمَ الابن، ويريد منه الكثير من الكرم، فهو لم يكتف بالاعتراف بدين ابنه، وسداده عنه، وإنما كافأه على ذلك، بشهادة أمير المجاهدين أبي عبيدة ﷺ!

ولما علم النبي ﷺ بما فعله قيس بن سعد ﷺ، ونحرِه تسعة جمال إكرامًا لإخوانه المجاهدين، وشرائها بالدين، أُعجب به، وأثنى عليه، وقال ﷺ: **إنه جوَّاد، في بيت جود!**

وبعد فترة قصيرة جاء الأعرابيُّ الجهنيُّ إلى سعد بن عبادة ﷺ في المدينة ليأخذ ثمن جماله الأحد عشر، وقابل سعدَ بن عبادة ـ وكانت له به صلةٌ من قبل ـ فأخبره الخبر، وأثنى على ابنه قيس.

وقال الجهني لابن عبادة: يا أبا ثابت، إن ابنك قيسًا سيد من سادات قومه، وهو كريم من بيت كرم!

فأعطاه ابنُ عبادة ﷺ أوسقة التمر التي اتفق عليها مع ابنه ثمنًا لجماله. ا.هـ.

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٧/ ٣٨-٤٦، مجمع الزوائد للهيثمي (٨٠٧هـ) ١٠/ ٥٧٩، فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ٧/ ٦٧٨ -٦٨٣، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢١ -٧٢٢.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦٣٢-٦٣٣، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٧٧٤ -٧٧٧، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ١٢٢-١٢٣، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٣/ ٣٢-٣٣، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٤٠٦-٤٠٩، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٣٨٩-٣٩٤، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٥٠٢-٥٠٥، إمتاع الأسماع للمقريزي(٨٤٥هـ) ١/ ٣٤٦، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ٢٧٥-٢٨٦.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٢/ ٤٣٣، السيرة النبوية لرزق الله ٤٧٩-٤٨٠، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣١٣-٣١٧.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: فتح مكة لباشميل ٤٣-٤٦، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١٣٩-١٤١، فقه السرايا للعيساوي ١٨٦-١٨٧ + ٢١١-٢١٥، السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١١٥-١٢٤.

خرائط سَرِيَّةِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الجرَّاحِ ﷺ إِلَى سَيْفِ البَحْرِ (الخبط)

(١)

سرية
أبي عبيدة بن الجرَّاح
إلى القَبَليَّة
(سرية الخَبَط)
رجب ٨ هـ

أطلس السيرة لأبي خليل ١٩٥.

(٢)

الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ١٨٧.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من سَرِيَّةِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ﷺ إِلَى سَيْفِ الْبَحْرِ (الخبط)

١ ـ أهمية الحرب الاقتصادية على المشركين:

يقول د/ العمري: «ولعل هذه السرية آخر ما أرسل رسول الله ﷺ من سرايا وبعوث لتهديد تجارة مكة، حيث توقف ذلك تطبيقًا لمعاهدة صلح الحديبية بعد أن أجهدت اقتصاد مكة حيث عبر أبو سفيان عن ذلك بقوله: «وَكَانَتِ الحَرْبُ قَدْ حَصَبَتْنَا». [فتح الباري ١/ ٣٤]. [السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٣٣].

وقد سبق تفصيل هذا الدرس في عدة مواضع سابقة، منها سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٢ ـ بيان حكم القتال في الأشهر الحرم:

قال الإمام ابن القيم: «فَفِيهَا جَوَازُ القِتَالِ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ إِنْ كَانَ ذِكْرُ التَّارِيخِ فِيهَا بِرَجَبَ مَحْفُوظًا، وَالظَّاهِرُ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ أَنَّهُ وَهْمٌ غَيْرُ مَحْفُوظٍ، إِذْ لَمْ يُحْفَظْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ غَزَا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَلَا أَغَارَ فِيهِ وَلَا بَعَثَ فِيهِ سَرِيَّةً، وَقَدْ عَيَّرَ الْمُشْرِكُونَ الْمُسْلِمِينَ بِقِتَالِهِمْ فِي أَوَّلِ رَجَبَ فِي قِصَّةِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ[1] فَقَالُوا: اسْتَحَلَّ مُحَمَّدٌ الشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ الْآيَةَ [البقرة:٢١٧]، وَلَمْ يَثْبُتْ نَسْخُ هَذَا بِنَصٍّ يَجِبُ الـمَصِيرُ إِلَيْهِ، وَلَا أَجْمَعَتْ الْأُمَّةُ عَلَى نَسْخِهِ، وَقَدْ اُسْتُدِلَّ عَلَى تَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة:٥]، وَلَا حُجَّةَ فِي هَذَا؛ لِأَنَّ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ هَا هُنَا هِيَ أَشْهُرُ التَّسْيِيرِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي سَيَّرَ اللهُ فِيهَا الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَرْضِ يَأْمَنُونَ فِيهَا، وَكَانَ أَوَّلُهَا يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ عَاشِرَ ذِي الْحِجَّةِ، وَآخِرُهَا عَاشِرَ رَبِيعٍ الْآخِرِ، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي الْآيَةِ لِوُجُوهٍ عَدِيدَةٍ، لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهَا». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٩٠-٣٩١].

وقد سبق تفصيل جواز القتال في الأشهر الحرم في سرية عبد الله بن جحش ﷺ إلى نخلة في ٢هـ.

٣ ـ التخلق بخلق الصبر:

يقول د/ الحميدي: «رأينا صبر الصحابة ﷺ البليغ على الجوع حيث بلغ بهم الجوع إلى حد الاكتفاء بتمرة واحدة في اليوم، ثم فقدوا الأكل كله فصاروا يعيشون على أوراق الشجر، وكان الشجر الموجود من النوع الخشن وهو الخَبَط حتى قرح أفواههم، ولغرابة ذلك وكون الإنسان من النادر جدًّا أن يأكل من ذلك الشجر سُمِّيت هذه السرية سرية الخبط.

---

(١) قال الإمام الصالحي: «وقوله في قصة العلاء بن الحضرمي صوابه عمرو بن الحضرمي أخو العلاء، والعلاء ليس صاحب هذه السرية بل صاحبها وأميرها عبد الله بن جحش ﷺ». سبل الهدى والرشاد ٦/ ٢٨٠.

إن أولئك الصحب الكرام مع ما تعرضوا له من هذا البلاء الشديد لم يكن لهم أي تفكير في العودة إلى المدينة قبل أداء مهمتهم، كما أنه لم يُذكر عنهم أي تضجُّر أو تسخُّط على قائدهم، وهذا دليل على عظمتهم وأنهم رجال تم إعدادهم إعدادًا تربويًّا عاليًا لتحمُّل جميع الشدائد التي يمكن أن يطيقها البشر ولو بمشقة كبيرة». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٩٥].

ويقول د/ بريك: «كان أبو عبيدة ﷺ يقوتهم من هذا الجراب كل يوم «قبضة قبضة»، ثم تمرة تمرة، عندما قارب من الانتهاء، وقد أدرك الجند صعوبة الموقف فتقبلوا هذا الإجراء بصدور رحبة دون تذمر أو ضجر، بل إنهم ساهموا في خطة قائدهم التقشفية فصاروا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقت ممكن.

يقول جابر ﷺ أحد أفراد هذه السرية: «كُنَّا نَمَصُّهَا كَمَا يَمَصُّ الصَّبِيُّ، ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيْهَا مِنَ المَاءِ فتكْفِينَا [فَيَكْفِينَا] يَوْمَنَا إِلَى اللَّيْلِ».

وكم هو رائع هذا الموقف المدهش حقًّا والذي أدهش قبلنا وهب بن كيسان ﷺ الذي سأل جابرًا ﷺ دهشًا: «وَمَا تُغْنِي عَنْكُمْ تَمْرَةٌ؟ فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَنِيَتْ».

ومع ذلك لم يؤثر ذلك على معنويات الجيش، ويستسلموا للأمر الواقع بل فكروا في حيلة يُبقون على أنفسهم حيث اضطروا إلى أكل ورق الشجر.

قال جابر ﷺ: «وَكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الْخَبَطَ ثُمَّ نَبُلُّهُ بِالمَاءِ فَنَأْكُلُهُ».

«فسمي ذلك الجيش جيش الخبط». [السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١١٨-١١٩].

٤ ـ توافر الحكمة لدى القيادة:

يقول أ/ الشامي: «حكمة أبي عبيدة ﷺ حيث جمع الأزواد، وسوَّى بين المجاهدين في التوزيع ليستطيع تجاوز الأزمة بهم، وذلك درس تعلمه من رسول الله ﷺ عمليًّا أكثر من مرة».

[من معين السيرة للشامي ٣٥٢].

ويقول د/ الحميدي: «موقف جليل لأمير السرية أبي عبيدة عامر بن الجراح ﷺ فحينما كان يسير مع جيشه فَنِيَ زادهم، فأمر بجمع الطعام الذي مع أفراد الجيش، فكان يعطيهم منه قليلًا قليلًا بقدر القُوت الضروري حتى وصل به الحال إلى إعطاء كل واحد منهم تمرة في اليوم، وهذا دليل على حزمه وحسن إدارته وسياسته، إذ أنه لو تركهم وشأنهم لانتهى زادهم في وقت قليل، وأصبحوا معرضين لخطر الهلاك». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٩٥].

٥ ـ موقف في السخاء والشهامة:

يقول د/ الحميدي: «موقف في السخاء والشهامة يقدِّمه الكريم بن الكريم قيس بن سعد بن عبادة ﷺ فحينما فني زاد القوم وصاروا يأكلون ورق الشجر أبت شهامة قيس وأريحيَّته أن يترك إخوانه في

تلك الحال من المسبغة، وهو قادر على إنقاذ الموقف، فصار يبحث عن رجل من العرب يبيعه إبلًا بثمنها تمرًا في المدينة، وعثر على رجل من جهينة يعرف أباه، فباعه تسع إبل بتمر يتقاضاه الجهني في المدينة، وقد نحر قيس كل يوم ثلاثًا من الإبل، وأراد أن يستمر في الشراء والنحر فأبى أبو عبيدة ﷺ، وقد استسلم لأمر الأمير مع رغبته الشديدة في الاستمرار في نحر الإبل؛ لأنه سليل الكرام، ونشأ في بيت كريم، فهو لا يهدأ ولا يستريح حتى يُسعد الناس بماله.

وفي المحاورة التي جرت بين قيس وأبيه سعد يتبين كرم سعد الفياض ﷺ».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٩٦].

ويقول أ/ الشامي: «كرم قيس بن سعد بن عبادة ﷺ، في وقت عصيب، ليس بيده يومها ما يخفف عن الناس، فلم تعوزه الحيلة أن فكر في الاستدانة على مال أبيه.

فقد اتفق مع رجل من جهينة على أن يشتري منه نوقًا ينحرها للجيش على أن يعطيه بدل ذلك تمرًا بالمدينة وقد وافق الجهني على تلك الصفقة.

وقد حاول عمر ﷺ الوقوف في عدم إتمام الصفقة، ولكن الجهني لم يهتم بذلك ويرى فيه الفعل الشريف.

وعمر ﷺ في ذلك يمثل عفة المهاجرين، ولا يريد أن يحمِّل الرجل ما لا يطيق.

وقد بدأ قيس ﷺ ينحر وينحر حتى نهاه أبو عبيدة ﷺ، وعندما علم سعد بن عبادة ﷺ بنهي أبي عبيدة لقيس بحجة أنه لا مال له، وإنما المال لأبيه، فيهبُ ابنه أربع حوائط أدناها يُجذ منه خمسون وسقًا.

فاستحقا بذلك ثناء الرسول ﷺ: «**إِنَّهُ فِي بَيْتِ جُودٍ**». **[من معين السيرة للشامي ٣٥٢-٣٥٣].**

٦ ـ العفة والتنزه عن الحرام:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر مثل من نزاهة الصحابة وعفتهم عن الحرام، فقد كان بإمكانهم أن يأخذوا الإبل من ذلك الراعي أو غيره بالقوة، ولكنهم يعلمون أن ذلك لا يحل لهم، وهم إنما أسلموا وخرجوا للجهاد طاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ؛ ولهذا كان الناس الذين لم يدخلوا معهم في الحرب في غاية الأمن والسلام معهم، وهذا من الفوارق الواضحة بين المجاهدين من المسلمين والمحاربين من غيرهم».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٩٦-١٩٧].

ويقول أ/ الشامي: «يرى بعض المستشرقين وأعداء الإسلام، أن دعوة الإسلام قامت على قوم أعوزهم الجوع فانطلقوا بذلك الدافع.

والاتهام تافه لا يستحق الرد، ولكن هذه السرية تستوقفنا لما هو أكبر من الرد.

إن المسلمين في هذه السرية بلغ بهم الجوع غايته، فكانت التمرة الواحدة طعام الرجل طوال يوم كامل في سفر ومشقة، ويمرون وهم على تلك الحال من فقد التمر وأكل الخبط على الجهني الذي اشترى منه

قيس أو على قومه، فما يخطر بفكرهم أن يغيروا عليهم لينتزعوا منهم طعامهم، كما كانت الحال في الجاهلية؛ لأنهم اليوم ينطلقون بدين الله الذي جاء ليحفظ على الناس أموالهم ـ في جملة ما حفظ ـ وهم اليوم يفرقون بين الحلال والحرام.

إن عمر ﷺ ـ أخذًا بالحيطة في الحفاظ على أموال الناس ـ لم يقبل الشهادة على استدانة قيس من الجهني؛ ذلك لأنه ليس بصاحب مال، وإنما يستدين على مال أبيه..

فهل هناك ما يحفظ على الناس أموالهم أكثر من ذلك؟ إن الإسلام لا يقود الناس من بطونهم ولكنه يقودهم من قلوبهم وأفئدتهم». [من معين السيرة للشامي ٣٥٣].

٧ ـ حوت العنبر:

يقول د/ بريك: «العنبر سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس، قال الأزهري: العنبر سمكة بالبحر الأعظم يبلغ طولها خمسين ذراعًا يقال لها بالة، وليست بعربية، ويقال: إن العنبر المشموم رجيعها، وقال ابن سينا: بل المشموم يخرج من الشجر، وإنما يوجد في أجواف السمك الذي يبتلعه، ونقل الماوردي عن الشافعي قال: سمعت من يقول: رأيت العنبر نابتًا في البحر ملتويًا مثل عنق الشاة، وفي البحر دابة تأكله وهو سم لها فيقتلها، فيقذفها البحر فيخرج العنبر من بطنها، قال الحلبي: وفي زمن الحاكم بأمر الله وجدت سمكة بدمياط طولها مائتا ذراع، وعرضها مائة وستون ذراعًا، وكان يقف في حلقها خمس رجال بالمجاريف يجرفون الشحم، وأقام أهل دمياط يأكلون من لحمها خمسة أشهر.

وحوت العنبر SPERMWHALE مميز الشكل والهيئة، ومظهره ملتوٍ، ويتميز عن غيره من الحيتان بالرأس الضخم والبوز المَربع الذي يخزن فيه كمية كبيرة من الدهن، وهو من أكبر أنواع المسننات من الحيتان حيث يتراوح طول الذكر منه خمسة عشر إلى عشرين مترًا، ويزن حوالي من خمسة وثلاثين إلى ستين طنًّا، والأنثى أصغر من الذكر، وتعتبر الحبارة هي غذاءه الرئيس إذ يصيد منها كميات كبيرة وضخمة، وقد وجد في معدته من هذه الحبارات ما يبلغ طوله عشرة أمتار.

والعنبر من الكائنات البحرية الغواصة، فهو يستطيع الغوص إلى عمق ألف متر أو أكثر، كما يستطيع البقاء في الأعماق حوالي ساعة من الزمان.

وحوت العنبر متواجد باستمرار في منطقة البحر العربي، وهنالك شواهد تدل على مشاهدته في البحر الأحمر حيث ذكر شهود عيان أنهم رأوه في منطقة جيزان عدة مرات، ولا تُعرف الأسباب العلمية التي تؤدي بمثل هذه الحيتان الضخمة إلى الظهور في البحار القليلة العمق نسبيًّا كالبحر الأحمر، ربما بسبب تعطل أجهزة الاتصال لديها، أو لكبر سنها، وربما بسبب بحث الذكر عن أنثاه.

وبغض النظر عن هذه الشواهد والأسباب فإن ورود الخبر في الصحيحين يُغنينا عن الاستشهاد بغيرهما، فالخبر صحيح، وظهور مثل هذا الحوت الضخم للصحابة في تلك المنطقة غير المألوفة بالنسبة

لأمثاله يُعد كرامة أكرمهم بها الله ورزقًا أخرجه لهم كما أخبرهم بذلك الصادق المصدوق ﷺ، والكرامة والمعجزة تُصنَّف في عِداد خوارق العادات، ولكن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهو على كل شيء قدير» (١). [السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١١٩-١٢٠].

٨ ـ وقوع الكرامة لأولياء الله ﷻ:

يقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر عبرة عظيمة وذلك فيما أجراه الله تعالى من كرامة لأوليائه، حيث أخرج لهم من البحر ذلك الحوت العظيم الذي يشبه الكثيب من الرمل، وقد جاء في هذا الخبر من تعظيم خلقته ما يدل على أن خروج مثل ذلك الحوت العظيم غير مألوف عند العرب، وقد أنقذ الله ـ جلا وعلا ـ به تلك الفتنة من مجاعة مهلكة، والكرامات يجريها الله ـ تعالى ـ لأوليائه لعدة مقاصد، منها: إنقاذهم من مشقة وقعوا فيها». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٩٧].

٩ ـ جواز الاجتهاد في الوقائع في حياة النبي ﷺ:

يقول الإمام ابن القيم: «وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الِاجْتِهَادِ فِي الْوَقَائِعِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِقْرَارِهِ عَلَى ذَلِكَ، لَكِنَّ هَذَا كَانَ فِي حَالِ الْحَاجَةِ إِلَى الِاجْتِهَادِ، وَعَدَمِ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ مُرَاجَعَةِ النَّصِّ، وَقَدْ اجْتَهَدَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ الله ﷺ فِي عِدَّةٍ مِنْ الْوَقَائِعِ، وَأَقَرَّهُمَا عَلَى ذَلِكَ، لَكِنْ فِي قَضَايَا جُزْئِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، لَا فِي أَحْكَامٍ عَامَّةٍ وَشَرَائِعَ كُلِّيَّةٍ، فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَقَعْ مِنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ فِي حُضُورِهِ ﷺ الْبَتَّةَ».

[زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٩٤] [ينظر: مسلم بشرح النووي ١٢/ ٨٦].

والدليل على جواز الاجتهاد في الأمور الفرعية المعينة في حياة النبي ﷺ، ما حدث في هذه السرية من اجتهاد أبي عبيدة، رضي الله عنه في أكل ميتة البحر». [فقه السرايا للعيساوي ٢١٠-٢١١].

١٠ ـ جواز أكل ميتة البحر:

يقول د/ العيساوي: «دل أكل الصحابة رضي الله عنهم من دابة البحر في هذه السرية على إباحة أكل ميتات البحار كلها سواء في ذلك ما مات بنفسه أو باصطياد. [مسلم بشرح النووي ١٢/ ٨٦].

وفي «المحلى»: وأما ما يسكن جوف الماء ولا يعيش إلا فيه فهو حلال كله كيفما وجد سواء أُخذ حيًّا ثم مات أو مات في الماء، طفا أو لم يطف، أو قتله حيوان بحري أو بري، هو حلال أكله.

[المحلى لابن حزم ٧/ ٣٩٣].

---

(١) ينظر: القاموس المحيط للفيروز آبادي، ولسان العرب ابن منظور مادة: عنبر، وينظر: فتح الباري لابن حجر ٨/ ٨٠، والسيرة الحلبية ٣/ ٢٠٣، والمورد قاموس انكليزي – عربي منير للبعلبكي (ص: ٨٨٦) والشديات البحرية، مذكرة من جمع الدكتور محمد موسى العمودي (ص: ١٤) وكلقاء شخصي معه.

AND JAMES W NYBAKKEN ٣٦١AND M. GRANTGROSS, OCCANOGRAPHY A VIEW OF THE EATH: .٩٩BIOLOGYAN ECOLOGICAL APROCH:

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [فاطر:١٢]، وقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦]، فعم تعالى ولم يخص شيئًا من شيء: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم].

وفي «المغني»: «فأما ما لا يعيش إلا في الماء كالسمك، فإنه يباح بغير ذكاة، لا نعلم في هذا خلافًا». [المغني لابن قدامة ٩/ ٣٣٨] لما ذكرنا من الأخبار». [فقه السرايا للعيساوي ٢١١].

وقال الإمام ابن القيم: وَفِيهَا: جَوَازُ أَكْلِ مَيْتَةِ الْبَحْرِ وَأَنَّهَا لَمْ تَدْخُلْ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾ [المائدة:٣]، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦]، وَقَدْ صَحَّ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ ﷺ أَنَّ صَيْدَ الْبَحْرِ مَا صِيدَ مِنْهُ وَطَعَامَهُ مَا مَاتَ فِيهِ. [ينظر: فتح الباري ٩/ ٥٢٩، والطبري ٢٦٨٧،٢٦٩٧، والبيهقي ٩/ ٢٥٤].

وَفِي السُّنَنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا: «**أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ: فَالسَّمَكُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ**». [(١)] حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَهَذَا الْمَوْقُوفُ فِي حُكْمِ الْمَرْفُوعِ؛ لِأَنَّ قَوْلَ الصَّحَابِيِّ: أُحِلَّ لَنَا كَذَا، وَحُرِّمَ عَلَيْنَا يَنْصَرِفُ إِلَى إِحْلَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَحْرِيمِهِ.

فَإِنْ قِيلَ: فَالصَّحَابَةُ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ كَانُوا مُضْطَرِّينَ؛ وَلِهَذَا لَـمَّا هَمُّوا بِأَكْلِهَا قَالُوا: إِنَّهَا مَيْتَةٌ، وَقَالُوا: نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَنَحْنُ مُضْطَرُّونَ، فَأَكَلُوا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا مُسْتَغْنِينَ عَنْهَا، لَـمَا أَكَلُوا مِنْهَا [(٢)].

---

(١) يقول د/ بريك: «أخرجه الشافعي ٢/ ٥٢٩، وأحمد ٢/ ٩٧، وابن ماجه (٣٣١٤) من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر، وعبد الرحمن ضعيف، وأخرجه الدار قطني ص٥٣٩ ـ ٥٤٠ من طريق علي بن مسلم عن عبد الرحمن، ومن طريق مطرف عن عبد الله عن أبيهما زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعًا، وأخرجه البيهقي ١/ ٢٥٤، من طريق ابن وهب، عن سليمان بن بلال، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر موقوفًا، ثم قال: وهذا إسناد صحيح، وهو في معنى المسند، وله حكم الرفع كما قال المصنف ﷺ. السرايا والبعوث لبريك ١٢٣.

(٢) يقول د/ بريك: «ربما أنهم توقفوا بادئ الأمر لعدم معرفتهم بالحكم الذي لم يرد فيه نص قاطع من رسول الله ﷺ إلا في وقت متأخر في الحديث الذي يرويه أبو هريرة ﷺ ـ الذي أسلم بعد فتح خيبر ـ في البحر، وفيه: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**» أخرجه مالك وأصحاب السنن، وصححه ابن خزيمة، وابن حبان، وقال عنه الترمذي: حديث حسن صحيح. ينظر: موطأ مالك ١/ ٢٢، ٢/ ٤٩٥، والمباركفوري، تحفة ١/ ٢٢٥-٢٣٠، والألباني صحيح سنن الترمذي ١/ ٢١، وصحيح سنن أبي داود ١/ ١٩، وصحيح سنن النسائي ١/ ١٤، وصحيح سنن ابن ماجه ١/ ٦٧، وابن حبان، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٧/ ٣٣٧، وكان يمكن لابن القيم الاعتماد على هذا الحديث في بيان حكم ميتة البحر، وإن كان ما ذكره من آثار تدخل ضمن هذا الإطار، والله تعالى أعلم بالصواب». السرايا والبعوث لبريك ١٢٣.

قِيلَ: لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُضْطَرِّينَ، وَلَكِنْ هَيَّأَ اللهُ لَهُمْ مِنَ الرِّزْقِ أَطْيَبَهُ وَأَحَلَّهُ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ قَدِمُوا: «**هَلْ بَقِيَ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، فَأَكَلَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَقَالَ: «**إِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللهُ لَكُمْ**»، وَلَوْ كَانَ هَذَا رِزْقَ مُضْطَرٍّ لَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي حَالِ الِاخْتِيَارِ [(١)]، ثُمَّ لَوْ كَانَ أَكْلُهُمْ مِنْهَا لِلضَّرُورَةِ فَكَيْفَ سَاغَ لَهُمْ أَنْ يَدَّهِنُوا مِنْ وَدَكِهَا وَيُنَجِّسُوا بِهِ ثِيَابَهُمْ وَأَبْدَانَهُمْ، وَأَيْضًا فَكَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ لَا يُجَوِّزُ الشَّبَعَ مِنَ الـمَيْتَةِ، إِنَّمَا يُجَوِّزُونَ مِنْهَا سَدَّ الرَّمَقِ، وَالسَّرِيَّةُ أَكَلَتْ مِنْهَا حَتَّى ثَابَتْ إِلَيْهِمْ أَجْسَامُهُمْ وَسَمِنُوا، وَتَزَوَّدُوا مِنْهَا.

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّمَا يَتِمُّ لَكُمُ الِاسْتِدْلَالُ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ إِذَا كَانَتْ تِلْكَ الدَّابَّةُ قَدْ مَاتَتْ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ أَلْقَاهَا مَيْتَةً، وَمِنَ الـمَعْلُومِ أَنَّهُ كَمَا يُحْتَمَلُ ذَلِكَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْبَحْرُ قَدْ جَزَرَ عَنْهَا، وَهِيَ حَيَّةٌ، فَمَاتَتْ بِمُفَارَقَةِ الـمَاءِ، وَذَلِكَ ذَكَاتُهَا وَذَكَاةُ حَيَوَانِ الْبَحْرِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى دَفْعِ هَذَا الِاحْتِمَالِ، كَيْفَ وَفِي بَعْضِ طُرُقِ الْحَدِيثِ: «**فَجَزَرَ الْبَحْرُ عَنْ حُوتٍ كَالظَّرِبِ**».

قِيلَ: هَذَا الِاحْتِمَالُ مَعَ بُعْدِهِ جِدًّا، فَإِنَّهُ يَكَادُ يَكُونُ خَرْقًا لِلْعَادَةِ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الدَّابَّةِ إِذَا كَانَتْ حَيَّةً إِنَّمَا تَكُونُ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ وَثَبَجِهِ دُونَ سَاحِلِهِ، وَمَا رَقَّ مِنْهُ وَدَنَا مِنَ الْبَرِّ، وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَا يَكْفِي ذَلِكَ فِي الْحِلِّ؛ لِأَنَّهُ إِذَا شُكَّ فِي السَّبَبِ الَّذِي مَاتَ بِهِ الْحَيَوَانُ، هَلْ هُوَ سَبَبٌ مُبِيحٌ لَهُ أَوْ غَيْرُ مُبِيحٍ؟ لَمْ يَحِلَّ الْحَيَوَانُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الصَّيْدِ يُرْمَى بِالسَّهْمِ، ثُمَّ يُوجَدُ فِي الْمَاءِ: «**وَإِنْ وَجَدْتَهُ غَرِيقًا فِي الْمَاءِ، فَلَا تَأْكُلْهُ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي الْمَاءُ قَتَلَهُ أَوْ سَهْمُكَ**»، فَلَوْ كَانَ الْحَيَوَانُ الْبَحْرِيُّ حَرَامًا إِذَا مَاتَ فِي الْبَحْرِ لَمْ يُبَحْ. وَهَذَا مِمَّا لَا يُعْلَمُ فِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ.

وَأَيْضًا فَلَوْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ النُّصُوصُ مَعَ الْمُبِيحِينَ لَكَانَ الْقِيَاسُ الصَّحِيحُ مَعَهُمْ، فَإِنَّ الْمَيْتَةَ إِنَّمَا حُرِّمَتْ لِاحْتِقَانِ الرُّطُوبَاتِ وَالْفَضَلَاتِ وَالدَّمِ الْخَبِيثِ فِيهَا، وَالذَّكَاةُ لَـمَّا كَانَتْ تُزِيلُ ذَلِكَ الدَّمَ وَالْفَضَلَاتِ، كَانَتْ سَبَبَ الْحِلِّ، وَإِلَّا فَالْمَوْتُ لَا يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ، فَإِنَّهُ حَاصِلٌ بِالذَّكَاةِ كَمَا يَحْصُلُ بِغَيْرِهَا، وَاذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَيَوَانِ دَمٌ وَفَضَلَاتٌ تُزِيلُهَا الذَّكَاةُ لَمْ يُحَرَّمْ بِالْمَوْتِ، وَلَمْ يُشْتَرَطْ لِحِلِّهِ ذَكَاةٌ كَالْجَرَادِ؛ وَلِهَذَا لَا يَنْجَسُ بِالْمَوْتِ مَا لَا نَفْسَ لَهُ سَائِلَةٌ، كَالذُّبَابِ وَالنَّحْلَةِ وَنَحْوِهِمَا، وَالسَّمَكُ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ دَمٌ وَفَضَلَاتٌ تَحْتَقِنُ بِمَوْتِهِ، لَمْ يَحِلَّ لِمَوْتِهِ بِغَيْرِ ذَكَاةٍ، وَلَمْ يَكُنْ فَرْقٌ بَيْنَ مَوْتِهِ فِي الْمَاءِ وَمَوْتِهِ خَارِجَهُ، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مَوْتَهُ فِي الْبَرِّ لَا يُذْهِبُ تِلْكَ الْفَضَلَاتِ الَّتِي تُحَرِّمُهُ عِنْدَ الْمُحَرِّمِينَ إِذَا مَاتَ فِي الْبَحْرِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمَسْأَلَةِ

---

(١) إن في أكل الرسول ﷺ من لحم الحوت الذي تغذى منه المسلمون مدة دليل على مشروعية أكل ميتة البحر. السيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصلية لرزق الله ٤٨٠.

نُصُوصٌ لَكَانَ هَذَا الْقِيَاسُ [(١)] كَافِيًا، وَاللهُ أَعْلَمُ. [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٩٢-٣٩٣].

والخلاصة: إباحة ميتات البحر كلها سواء في ذلك ما مات بنفسه أو باصطياد، فكل ما يسكن جوف الماء ولا يعيش إلا فيه فهو حلال كله كيفما وجد، وهذا ما ذهب إليه ابن حزم [المحلى لابن حزم ٧/ ٣٩٣]، والإمام النووي [مسلم بشرح النووي ١٢/ ٨٦]». [فقه السرايا للعيساوي ٢١٤].

١١ ـ قوة الشكيمة، والفكر السليم:

يقول د/ بريك: «قلت: ما أقدم عليه أصحاب السرية من أكل الخبط دليل على قوة شكيمتهم، وتمتعهم بفكر سليم هداهم إلى أكل ورق الشجر كي يبقوا على أنفسهم ولا يستسلموا للجوع فيُقضى عليهم، مع عظيم توكلهم على الله ﷻ الذي لم يخيب ظنهم فأطعمهم رزقًا من عنده من حيث لا يحتسبون. وصدق الله القائل في محكم كتابه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾[الطلاق].

وقد سمعنا في وقتنا الحاضر بأن الجيوش الحديثة لديها فرق خاصة تسمى (قوات الصاعقة) يتم تدريبها تدريبًا عنيفًا يتضمن تعويدهم على أكل ورق الشجر وغيره استعدادًا لما قد يلاقونه من جوع في مهماتهم، وقد رأينا الصحابة ﷺ، في هذه السرية يأكلون ورق الشجر، كل تلك الفترة بدون تدريب مسبق على ذلك، وليس ذلك بمستغرب من جنود سامية أهدافهم يملأ الإيمان جوانحهم».

[السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٢٢].

١٢ ـ فوائد ذكرها الإمام ابن القيم:

قال الإمام ابن القيم:

١ ـ وَفِيهَا: جَوَازُ أَكْلِ وَرَقِ الشَّجَرِ عِنْدَ الْمَخْمَصَةِ وَكَذَلِكَ عُشْبُ الْأَرْضِ.

٢ ـ وَفِيهَا: جَوَازُ نَهْيِ الْإِمَامِ وَأَمِيرِ الْجَيْشِ لِلْغُزَاةِ عَنْ نَحْرِ ظُهُورِهِمْ وَإِنْ احْتَاجُوا إِلَيْهِ خَشْيَةَ أَنْ يَحْتَاجُوا إِلَى ظَهْرِهِمْ عِنْدَ لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ، وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ الطَّاعَةُ إِذَا نَهَاهُمْ. [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٩١].

١٣ ـ فوائد ذكرها الإمامان النووي وابن حجر:

قال الإمام النووي: فِيهِ: أَنَّ الْجُيُوشَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَمِيرٍ يَضْبِطهَا وَيَنْقَادُونَ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِه، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْأَمِيرُ أَفْضَلَهُمْ، أَوْ مِنْ أَفْضَلِهِمْ، قَالُوا: وَيُسْتَحَبُّ لِلرُّفْقَةِ مِنَ النَّاسِ وَإِنْ قَلُّوا أَنْ يُؤَمِّرُوا بَعْضَهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَنْقَادُوا لَهُ...

---

(١) **القياس**: حَمْل معلوم على معلوم في إثبات حكم أو نفيه بإثبات صفة أو حكم أو نفيهما عنهما. ينظر: المنخول للغزالي تحقيق الدكتور هيثم ص ٣٢٣-٣٢٤، وكتاب الحدود للباجي ص ٦٩، ومباحث العلة عند الأصوليين للدكتور عبد الحكيم السعداوي ص ٣٩.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ جَوَازُ صَدِّ أَهْلِ الْحَرْبِ وَاغْتِيَالِهِمْ وَالْخُرُوجِ لِأَخْذِ مَالِهِمْ وَاغْتِنَامِهِ...

وَفِي هَذَا (جراب التمر) بَيَان مَا كَانَ الصَّحَابَةُ ﷺ عَلَيْهِ مِنْ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّقَلُّلِ مِنْهَا، وَالصَّبْرِ عَلَى الْجُوعِ وَخُشُونَةِ الْعَيْشِ، وَإِقْدَامِهِمْ عَلَى الْغَزْوِ مَعَ هَذَا الْحَالِ...

مَعْنَى الْحَدِيث: أَنَّ أَبَا عُبَيْدَة ﷺ قَالَ أَوَّلًا بِاجْتِهَادِهِ: إِنَّ هَذَا مَيْتَةٌ وَالْمَيْتَةُ حَرَامٌ، فَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَكْلُهَا، ثُمَّ تَغَيَّرَ اجْتِهَادُهُ فَقَالَ: بَلْ هُوَ حَلَالٌ لَكُمْ وَإِنْ كَانَ مَيْتَةً؛ لِأَنَّكُمْ فِي سَبِيلِ الله، وَقَدْ اُضْطُرِرْتُمْ، وَقَدْ أَبَاحَ اللهُ تَعَالَى الْمَيْتَةَ لِمَنْ كَانَ مُضْطَرًّا غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ، فَكُلُوا فَأَكَلُوا مِنْهُ.

وَأَمَّا طَلَبُ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ لَحْمِهِ وَأَكْلُهُ ذَلِكَ، فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ الْمُبَالَغَةَ فِي تَطْيِيبِ نُفُوسِهِمْ فِي حِلِّهِ، وَأَنَّهُ لَا شَكَّ فِي إِبَاحَتِهِ، وَأَنَّهُ يَرْتَضِيهِ لِنَفْسِهِ، أَوْ أَنَّهُ قَصَدَ التَّبَرُّكَ بِهِ لِكَوْنِهِ طُعْمَةً مِنْ الله تَعَالَى، خَارِقَةً لِلْعَادَةِ أَكْرَمهمْ اللهُ بِهَا.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا بَأْس بِسُؤَالِ الْإِنْسَانِ مِنْ مَالِ صَاحِبِهِ وَمَتَاعِهِ إِدْلَالًا عَلَيْهِ، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ السُّؤَالِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، إِنَّمَا ذَاكَ فِي حَقِّ الْأَجَانِب لِلتَّمَوُّلِ وَنَحْوه، وَأَمَّا هَذِهِ فَلِلْمُؤَانَسَةِ وَالْمُلَاطَفَةِ وَالْإِدْلَالِ.

وَفِيهِ: جَوَازُ الِاجْتِهَادِ فِي الْأَحْكَام فِي زَمَن النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا يَجُوزُ بَعْدَهُ.

وَفِيهِ: أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِلْمُفْتِي أَنْ يَتَعَاطَى بَعْض الْمُبَاحَات الَّتِي يَشُكُّ فِيهَا الـمُسْتَفْتِي إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَى الـمُفْتِي، وَكَانَ فِيهِ طُمَأْنِينَةٌ لِلْمُسْتَفْتِي.

وَفِيهِ: إِبَاحَةُ مَيْتَاتِ الْبَحْرِ كُلِّهَا سَوَاء فِي ذَلِكَ مَا مَاتَ بِنَفْسِهِ أَوْ بِاصْطِيَادٍ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِبَاحَةِ السَّمَكِ، قَالَ أَصْحَابُنَا: يَحْرُمُ الضُّفْدَع لِلْحَدِيثِ فِي النَّهْي عَنْ قَتْلِهَا، قَالُوا: وَفِيمَا سِوَى ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ أَصَحُّهَا: يَحِلُّ جَمِيعُهُ؛ لِهَذَا الْحَدِيثِ، وَالثَّانِي: لَا يَحِلُّ، وَالثَّالِثُ: يَحِلُّ مَا لَهُ نَظِيرٌ مَأْكُولٌ فِي الْبَرِّ دُونَ مَا لَا يُؤْكَلُ نَظِيرُهُ، فَعَلَى هَذَا تُؤْكَلُ خَيْلُ الْبَحْرِ وَغَنَمُهُ وَظِبَاؤُهُ دُون كَلْبِهِ وَخِنْزِيرِهِ وَحِمَارِهِ، قَالَ أَصْحَابُنَا: وَالْحِمَارُ وَإِنْ كَانَ فِي الْبَرِّ مِنْهُ مَأْكُولٌ وَغَيْرُهُ، وَلَكِنَّ الْغَالِبَ غَيْرَ الْمَأْكُولِ، هَذَا تَفْصِيلُ مَذْهَبِنَا.

وَمِمَّنْ قَالَ بِإِبَاحَةِ جَمِيع حَيَوَانَاتِ الْبَحْرِ إِلَّا الضُّفْدَعُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ، وَأَبَاحَ مَالِكٌ الضُّفْدَعَ وَالْجَمِيعَ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: لَا يَحِلُّ غَيْرُ السَّمَكِ، وَأَمَّا السَّمَكُ الطَّافِي، وَهُوَ الَّذِي يَمُوتُ فِي الْبَحْرِ بِلَا سَبَبٍ فَمَذْهَبنَا إِبَاحَتُهُ، وَبِهِ قَالَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ مِنْ الصَّحَابَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ، مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَأَبُو أَيُّوبٍ وَعَطَاءُ وَمَكْحُولُ وَالنَّخَعِيُّ وَمَالِكٌ وَأَحْمَدُ وَأَبُو ثَوْرٍ وَدَاوُدُ وَغَيْرُهُمْ، وَقَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْد الله وَجَابِرُ بْنُ زَيْدٍ وَطَاوُسٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ: لَا يَحِلُّ، دَلِيلُنَا قَوْله تَعَالَى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦]، قَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ ﷺ وَالْجُمْهُورُ: صَيْدُهُ مَا صِدْتُمُوهُ وَطَعَامُهُ مَا قَذَفَهُ، وَبِحَدِيثِ جَابِرٍ هَذَا وَبِحَدِيثِ: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَته**»، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ، وَبِأَشْيَاءَ مَشْهُورَةٍ غَيْرِ مَا ذَكَرْنَا.

وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ عَنْ جَابِرٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَا أَلْقَاهُ الْبَحْرُ وَجَزَرَ عَنْهُ فَكُلُوهُ، وَمَا مَاتَ فِيهِ فَطَفَا فَلَا تَأْكُلُوهُ**» فَحَدِيثٌ ضَعِيفٌ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ، لَا يَجُوزُ الِاحْتِجَاجُ بِهِ لَوْ لَمْ يُعَارِضْهُ شَيْءٌ، كَيْفَ وَهُوَ مُعَارَضٌ بِمَا ذَكَرْنَاهُ؟ وَقَدْ أَوْضَحْتُ ضَعْفَ رِجَالِهِ فِي شَرْحِ الْمُهَذَّبِ فِي بَابِ الْأَطْعِمَةِ، فَإِنْ قِيلَ: لَا حُجَّةَ فِي حَدِيثِ الْعَنْبَرِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُضْطَرِّينَ، قُلْنَا: الِاحْتِجَاجُ بِأَكْلِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْهُ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ...

وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْعُلَمَاءِ: يُسْتَحَبُّ لِلرُّفْقَةِ مِنْ الْمُسَافِرِينَ خَلْطُ أَزْوَادِهِمْ لِيَكُونَ أَبْرَكَ وَأَحْسَنَ فِي الْعِشْرَةِ، وَأَلَّا يَخْتَصَّ بَعْضُهُمْ بِأَكْلٍ دُونَ بَعْضٍ. وَاللهُ أَعْلَم.

[شرح النووي على مسلم ١٣/ ٨٤-٨٩ كتاب الصيد والذبائح باب إباحة ميتات البحر رقم ١٩٣٥].

وَفِي الْحَدِيثِ مِنْ الْفَوَائِدِ: مَشْرُوعِيَّةُ الْمُوَاسَاةِ بَيْنَ الْجَيْشِ عِنْدَ وُقُوعِ الْمَجَاعَةِ، وَأَنَّ الِاجْتِمَاعَ عَلَى الطَّعَامِ يَسْتَدْعِي الْبَرَكَةَ فِيهِ. [فتح الباري ٧/ ٦٨٣].

كذلك أظهرت هذه السرايا مدى ولاء المسلمين للرسول ﷺ وتعلقهم به وامتثالهم لأمره، وتفانيهم من أجل دعوة الإسلام التي جاء بها ﷺ. [فقه السرايا للعيساوي ١٦٣].

١٤ ـ ما يستفاد من سرية أبي عبيدة ﷺ:

يقول د/ أبو فارس:

(أ) جواز جمع الزاد من أفراد الجيش أو أي جماعة عندما يقل الطعام، ويقع الناس في مجاعة، وتوزيع الطعام على الأفراد بالتساوي.

(ب) **التكامل الاجتماعي في الإسلام**: إذ لا يجوز لمسلم أن يبيت شبعان وأخوه المسلم جائع وهو يعلم، وهذا الحكم أُخذ من فعل أبي عبيدة ومن إقرار النبي ﷺ له عليه.

ويؤيد هذا الحكم بقوله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**». [مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)].

وقوله ﷺ: «**مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ، وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ**». [مجمع الزوائد ٨/ ٣٠٥ في البر والصلة (١٣٥٥٤)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١/ ٢٥٩ رقم ٧٥١]، والبزار [بلفظ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَبِيتُ شَبْعَانَ وَجَارُهُ طَاوٍ». [مسند البزار ١٤/ ٢٦ رقم ٧٤٢٩] وإسناد البزار حسن].

وقوله ﷺ: «**لَيْسَ بِالْمُؤْمِنِ الَّذِي يَبِيتُ شَبْعَانًا [بِالَّذِي يَشْبَعُ]، وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ**».

[مجمع الزوائد ٨/ ٣٠٦ في البر والصلة (١٣٥٥٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٢/ ١٥٤ رقم ١٢٧٤١]، وأبو يعلى [مسند أبي يعلى الموصلي ٥/ ٩٢ رقم ٢٦٩٩، وقال الشيخ أسد: إسناده حسن]، ورجاله ثقات].

(ج) الاجتماع على الطعام يستدعي البركة فيه.

(د) جواز أكل ورق الشجر.

(هـ) أكل السمك الطافي الذي مات حتف أنفه مشروع: فقد أكل الصحابة ﷺ من الحوت الذي انحسر عنه ماء البحر خمسة عشر يومًا، وأقرهم الرسول ﷺ وأكل منه كذلك.

(و) اجتهاد الصحابة جائز في عهد النبي ﷺ: حيث أكلوا من الدابة ثم سألوا الرسول ﷺ فأقرهم على اجتهادهم.

(ز) كرم قيس بن سعد وأبيه سجية أصيلة تستحق المدح: ففي سرية أبي عبيدة حين أصابت الجيش مجاعة، أخذ قيس يشتري الجزائر وينحرها ويطعمها للجيش، ولما بلغ أهل المدينة المجاعة التي حلت بالجيش قال سعد بن عبادة: إن يك قيس كما أعرف فسينحر للقوم.

ولما قدم الجيش وأخبروا بما فعل قيس قال النبي ﷺ: (**إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت**) [فتح الباري ٩/ ١٤٣]». [غزوة الحديبية لأبي فارس ٢١٠-٢١١].

الفصل الرابع عشر
سَرِيَّةُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ إِلى دُومَةِ الْجَنْدَلِ
شعبان ٦هـ/ديسمبر (كانون أول) ٦٢٧م/ كيهك ٣٤٤ قبطي
المبحث الأول
عرض سَرِيَّةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ إِلَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ

التعريف بدومة الجندل:

يقول د/ بريك :«قال في القاموس [مادة (دام)] :«دومة الجندل، ويقال: دوماء الجندل، كلاهما بالضم».

وقال الجوهري: «أصحاب اللغة يقولونه بضم الدال، وأصحاب الحديث يفتحونها».

[الصحاح، مادة (دوم)].

وقال ابن الأثير: «تُضَمُّ دالُها وتُفْتَح». [النهاية ٢/ ١٤١].

وقال ياقوت: «وقد أنكر ابن دريد الفتح، وعدَّه من أغلاط المحدثين». [معجم البلدان ٢/ ٤٨٧].

قال الهجري: «كُلُّ العرب على فتح الراء من رضوى، وضم الدال من دومة الجندل».

[هامش معجم ما استعجم للبكري ٢/ ٥٦٤].

قال في المقتطف: «والصواب في كُلِّ ذلك أنَّها تقال بالضم أو بالفتح على السواء، والسبب هو أنَّ اللفظة أعجمية، وهي تُلْفَظ فيها بحركة بين الضم والفتح، فلمَّا عرَّبها العرب مال بعضهم إلى ضمها وآخرون إلى فتحها، واللغويون في مثل هذا المثال يضمون الحرف، والنقلة يميلون إلى الفتح، والمحققون يروون اللفظ على أصله، ونظن أنَّ هذه الطريقة الأخيرة هي المخيرة في عصرنا لأنها هي الصحيحة لقربها من الأصل المأخوذة عنه». [مجلة المقتطف، مجلد ٥٩/ جزء ٢/ ١٥].

واختلف العلماء واللغويون والمحدِّثون في معنى هذا الاسم:

قال ابن الفقيه :«دومة الجندل من أعمال المدينة، سُمِّيَت بدوم بن إسماعيل بن إبراهيم».

[ينظر: معجم البلدان للحموي ٢/ ٤٨٧].

وقال الزجاجي، والبكري: «سُمِّيَت بدومان بن إسماعيل، كان ينْزلها».

[ينظر: معجم ما استعجم للبكري ٢/ ٥٦٥، ومعجم البلدان للحموي ٢/ ٤٨٧].

وقال ابن الكلبي: «دوماء بن إسماعيل، قال: لـمَّا كثر ولد إسماعيل عليه السلام بتهامة، خرج دوماء بن إسماعيل حتى نزل موضع دومة وبنى بها حصنًا، فقيل: دوماء، ونُسِبَ الحصن إليه».

[ينظر: معجم البلدان للحموي ٢/ ٤٨٧].

وقيل: «كان لإسماعيل ولد اسمه دُما أو دوما أو دمة، والظاهر أنَّ الحكاية ملفقة لفَّقها بعضهم إثباتًا لمدَّعاه، وأمَّا الذي عرفه النسابة بهذا الاسم دوم بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، إلا السيد مرتضى صاحب التاج قال عنه: «لم أره عند النسابة». [مجلة المقتطف: مجلد ٥٩/ جزء ٢ / ١١٣].

ومعنى اسمها الحقيقي: «أنَّها كلمة يونانية معناها (الحصن)، وعند الرومان دوما: «السطح» والظاهر أنَّ العرب الأولين الذين اقتبسوا اللفظة عن اليونان كانوا يعرفون أنَّ معنى دوما: «الحصن، ثُمَّ تُنُوسِيَ مع الزمن، والدليل أَنَّا نجد في معجم البلدان لياقوت الحموي ما نصه: قال أبو سعد: «دومة الجندل في غائط من الأرض خمسة فراسخ، قال: ومن قبل مغربه عين تثجُّ فتسقي ما به من النَّخل والزرع، وحصنها مارد، وسُمِّيَت دومة الجندل، لأنَّ حصنها مبني بالجندل» [معجم البلدان ٢/ ٤٨٧ – ٤٨٨]، فكأنه قال: «الدومة: الحصن، وأضيفت إلى الجندل لأنه مبني به»».

وقال أبو عبيد السكوني: «دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبل طيء كانت به بنو كنانة من كلب، قال: ودومة من القريات من وادي القرى إلى تيماء أربع ليال، والقريات: دومة، وسكاكة، وذو القارة، فأما دومة فعليها سور يتحصن به، وفي داخل السور حصنٌ منيعٌ يقال له مارد، وهو حصن أكيدر الملك». [معجم البلدان ٢/ ٤٨٧ –٤٨٨].

وهذا ـ أيضًا ـ كلام يشعر منه بأنَّ العرب الأقدمين كانوا يعرفون معنى الدومة، وأنها الحصن الحصين أو المنيع، ومن الأدلة على أنَّ الدومة بمعنى الحصن أنها أُضيفت إلى عِدَّة مواضع بُنِيَت فيها حصون، منها دومة الكوفة، أو دومة النجف، ودومة الحيرة، ودومة خبت، ودومة دمشق وغيرها».

[المقتطف، مجلد ٥٩ / جزء ٢ / ١١٤-١١٥].

وذكر البلاذري في فتوح البلدان عن الواقدي قال: «سمعت بعض أهل الحيرة يذكر أنَّ أُكيدر وإخوته كانوا ينْزلون دومة الحيرة، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب فيتغربون عندهم، فإنَّهم لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلَّا بعض حيطانها، وكانت مبنية بالجندل، فأعادوا بناءها، وغرسوا فيها الزيتون وغيره، وسموها دومة الجندل تفرقةً بينها وبين دومة الحيرة».

[فتوح البلدان ٨٤-٨٥].

أمَّا موقعها، فقال البكري: «ودومة هذه على عشرة مراحل من المدينة، وعشر من الكوفة، وثمان من دمشق، واثنتي عشرة من مصر». [معجم البلدان ٢/ ٤٨٧].

وقال ياقوت: «هي على سبع مراحل من دمشق، بينها وبين مدينة الرسول ﷺ».

[معجم البلدان ٢/ ٤٨٧].

وقال الحميري: «ودومة الجندل حصنٌ منيعٌ، ومعقلٌ حصينٌ، وبه عمارة وتَتَّصِل به عين التمر».

[الروض المعطار ٢٤٥].

وقال الواقدي: «كان النَّبِيُّ ﷺ غزا دومة الجندل في سنة خمس، فلم يلق كيدًا، ووجَّه خالد بن الوليد ﷺ إلى أُكَيْدِر في شوَّال سنة تسع بعد إسلام خالد بن الوليد ﷺ بعشرين شهرًا، وهي أرض نخل وزرع

يسقون على النواضح، وحولها عيون قليلة، وزرعهم الشعير، وهي مدينة عليها سور ولها حصن عال مشهور في العرب يُدْعَى مارد».

[ينظر قول الواقدي في: البلاذري: فتوح البلدان ٨٤، وابن عساكر: تاريخ دمشق، المجلدة الأولى ص٣٨٥].

قلت: وكذلك بعث إليها عبد الرحمن بن عوف ﷺ على رأس هذه السرية.

قال البكري: «وكان افتتاح دومة صلحًا، وهي من بلاد الصُّلْح التي أدَّت إلى رسول الله ﷺ الجزية».

[معجم ما استعجم ٢/ ٥٦٥].

وقد تعرَّض أصحاب معلمة الإسلام، وهم جماعة من المستشرقين لذكر دومة الجندل، فقالوا: «جوف السرحان أرض ديار العرب، واقعة في شمال نجد وأنت تتجه إلى سورية على وادي سرحان، وجوف السرحان وتيماء هما الروضتان الكبريان من ديار جزيرة العرب، وأكبر مدينة من مدن جوف السرحان كانت دومة الجندل (ويسميها بطليموس دوميثا) مع حصنها المارد، وقد أقام برخرد في جوف السرحان سنة ١٨١٢م، وزارها أوتنك بعده بسبعين سنة، وهي اليوم عبارة عن طائفة قرى ضخمة تطوف بها بساتين وحدائق وغيطان نخل يسمونها (أسواقًا) فيها من ٨٠ إلى ١٢٠ بيتًا، وجملة سُكَّانها نحو ١٢٠٠٠، والقرى على اختلاف أنواعها تنقاد لأمور شيوخ خاصَّة بهم، وفي عهد إقامة برخرد في الجوف كان أغلب قطَّانها تُجَّارًا صغارًا، وأصحاب مهن، منهم الخفَّاف، والحدَّاد، والنَّجَّار، وكانوا يبدلون أمتعتهم وتجاراتهم مع الأعراب بأباعر، أمَّا اليوم فالتِّجارة والاحتراف في سقوطٍ ليس وراءَه سقوط، وكان أصحاب تلك الربوع من الوهابيين، وكانت أرضهم داخلة في إحدى كور مملكة الوهابيين التي كان على رأسها اثنان من الأُمراء، وبعد انحلال الدولة الوهابية بقي أهلها مستقلين مدَّة مديدة، وفي سنة ١٨٥٥م خضعوا لشمر الذين في حائل». [المقتطف: مجلد ٥٩/ جزء ٢/ ١١٥ عام ١٩٢١م].

ومنطقة الجوف اليوم تعدُّ من أكبر المناطق الزراعية المتميزة في المملكة، حيث تشتهر بزراعة الفواكه والخضروات، وتتميَّز بزراعة الزيتون الذي نجحت زراعته في المنطقة بكميات اقتصادية تُبَشِّر بالخير».

ودومة الجندل تعتبر ثاني أكبر مدينة في المنطقة، وهي اليوم مدينة متطورة شملتها النهضة العمرانية الواسعة في العهد الميمون، ولكنَّها احتفظت أيضًا بتراثها التاريخي القديم». [غزوة مؤتة لبريك ١٧٧-١٨٢].

تاريخ السرية:

يقول د/ بريك: «تفرَّد الواقدي، وعنه ابن سعد، في ذكر تاريخ هذه السرية، وأنَّها كانت في شعبان سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ.

وتابعهما في ذلك كل من الطبري، والبلاذري، والبيهقي، وابن سيد الناس، وابن القيم، وابن كثير، والقسطلاني، والشامي، والمقريزي، والذهبي.

ولم يذكر لها ابن إسحاق تاريخًا، وإنَّما ذكرها في جملة السرايا والبعوث، بعد سرية ابن أبي حدرد ﷺ لقتل رفاعة بن قيس الجُشمي، وقبل سرية أبي عبيدة بن الجراح ﷺ إلى سيف البحر.

وذكرها خليفة ضمن السرايا التي كانت سنة ست من الهجرة، دون أن يحدِّد الشهر.

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٨٣].

واعترض د/ بريك على هذا التاريخ بالنظر إلى أن ميلاد أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ﷺ من ابنة ملك دومة الجندل كان سنة بضع وعشرين تقريبًا، ورأى أن هذا يجعل السرية في تاريخ متأخر عن هذا التاريخ.

وأقول: إن هذا ليس دليلًا على تأخر تاريخ السرية؛ لأنه ربما لم تنجب أمه إلا بعد هذه الفترة الطويلة، وخاصة أنه ولدها الوحيد، أو غير ذلك، لكن مما يتفق عليه الجميع أن السرية لم تكن لتتأخر إلى سنة بضع وعشرين وهي سنة مولد أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ﷺ.

وبهذا أرى أن تاريخ السرية هو ما اتفق عليه هؤلاء العلماء الذين ذكرهم د/ بريك.

سبب السرية:

دعوة أهل دومة الجندل إلى الإسلام. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٨٩].

شَيْءٌ مِنْ وَعْظِ الرَّسُولِ ﷺ لِقَوْمِهِ:

عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ [عِنْدَ] عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ﷺ فَأَتَاهُ فَتًى [مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ] يَسْأَلُهُ عَنْ إِسْدَالِ [إِرْسَالِ] الْعِمَامَةِ [خَلْفَهُ] [فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ]، فَقَالَ ابنُ عُمَرَ: سَأُخْبِرُك [سَأُنَبِّئُكَ] عَنْ ذَلِكَ [عَنْهُ] بِعِلْمٍ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى [حَتَّى تَعْلَمَ]، قَالَ: كُنْتُ عَاشِرَ عَشَرَةٍ [رَهْطٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ] فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَابْنُ مَسْعُودٍ، [وَمُعَاذٌ]، وَحُذَيْفَةُ، وابْنُ عَوْفٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ ﷺ، فجاء فَتًى [رَجُلٌ] مِنْ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: **يَا رَسُولَ اللهِ! [صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ]، أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ؟** قَالَ: **أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا،** قَالَ: **فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟** (الكيس: العقل والفطنة) قَالَ: «**أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ [بِهِ]، أُولَئِكَ مِنَ [هُمُ] الْأَكْيَاسُ**».

ثُمَّ سَكَتَ [أَمْسَكَ] الْفَتَى [ثُمَّ إِنَّ الفَتَى جَلَسَ]، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ [عَلَيْنَا] النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الـمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ [خَمْسُ خِصَالٍ] إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَنَزَلْنَ فِيكُمْ [بِكَمْ] [وَأَدْرَكْتُمُوهُنَّ]، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: [إِنَّهُ] لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يَعْمَلُوا [يُعْلِنُوا] بِهَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الطَّاعُونُ** (المرض العام، والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان) **وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمُ [الَّذِينَ مَضَوْا] [قَبْلَهُمْ]، وَلَمْ [وَلَنْ] يَنْقُصُوا [وَلا انْتَقَصُوا] الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ** (جمع سَنَة وهي الجدب والقحط)، **وَشِدَّةِ الْمؤُنَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ** (الجور: البغي والظلم والميل عن الحق)، **وَلَمْ يَمْنَعُوا الزَّكَاةَ [مِنْ أَمْوَالِهِمْ] إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ** (المطر) **مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ [وَلَنْ] يَنْقُضُوا**

[وَمَا نَقَضُوا] عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ [سُلِّطَ] عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُم [عَدُوًّا، عَدُوٌّ] مِنْ غَيْرِهِمْ وَأَخَذُوا بَعْضَ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ [يَحْكُمُوا] يَحْكُمْ [تَحْكُمْ] أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ [بِمَا أَنْزَلَ اللهُ] [وَيَتَحَرَّوْا فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ] [وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ] إِلَّا أَلْقَى [جَعَلَ] اللهُ بَأْسَهُمْ (شدتهم وحربهم وعداوتهم) بَيْنَهُمْ»[(١)].

وقال الواقدي: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا خَمْسًا قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِكُمْ: مَا نُقِصَ مِكْيَالُ قَوْمٍ إِلَّا أَخَذَهُمْ اللهُ بِالسِّنِينَ، وَنَقْصٍ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، وَمَا نَكَثَ قَوْمٌ عَهْدَهُمْ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ الزَّكَاةَ إِلَّا أَمْسَكَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَطْرَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُسْقَوْا، وَمَا ظَهَرَتْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ الطَّاعُونَ، وَمَا حَكَمَ قَوْمٌ بِغَيْرِ آيِ الْقُرْآنِ إِلَّا أَلْبَسَهُمْ اللهُ شِيَعًا، وَأَذَاقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٦١].

التكليف النبوي بالسَّرِيَّة:

ثُمَّ بدأت مراسم تولية عبد الرحمن بن عوف ﷺ على الجيش، وهي مراسم بسيطة جدًّا ولكنَّها ذات مغزى عظيم ومؤثِّر. [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٨٩].

قَالَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ: ثُمَّ أَمَرَ [النَّبِيُّ ﷺ] عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ ﷺ [أَنْ] يَتَجَهَّزَ لِسَرِيَّةٍ [يَبْعَثُهَا] بَعَثَهُ [أَمَّرَهُ] عَلَيْهَا، وَأَصْبَحَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ﷺ وَقَدْ اعْتَمَّ بِعِمَامَةٍ مِنْ كَرَابِيسَ (القطن كما في النهاية) سَوْدَاءَ، فَأَدْنَاهُ [فَدَعَاهُ] النَّبِيُّ ﷺ [مِنْهُ]، ثُمَّ نَقَضَهُ (فكه وحله) [فَنَقَضَهَا] وَعَمَّمَهُ [بِهَا] بِعِمَامَةٍ بَيْضَاءَ، وَأَرْسَلَ [وَأَرْخَى] [فَاسْتَلَّ] مَنْ خَلْفَهُ أَرْبَعَ أَصَابِعَ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ [أَوْ نَحْوَهَا]، وَقَالَ: «هَكَذَا يَا ابْنَ عَوْفٍ فَاعْتَمَّ، فَإِنَّهُ أَعْرَبُ [أَعْرَفُ] وأَحْسَنُ». [مجمع الزوائد ٥/ ٢٠٩-٢١٠ رقم ٨٥٠٠، وقد سبق تخريجه كاملًا].

وقال الواقدي: «حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ مُسْلِمِ بْنُ قَمَّادِينَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ ﷺ فَقَالَ: «وَتَجَهَّزْ فَإِنِّي بَاعِثُكَ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ يَوْمِكَ هَذَا، أَوْ مِنْ غَدٍ إِنْ شَاءَ اللهُ».

---

(١) مجمع الزوائد ٥/ ٢٠٩-٢١٠ في اللباس (٨٥٠٠)، وقال الهيثمي: روى ابن ماجه طرفًا منه [كتاب الفتن باب العقوبات رقم ٤٠١٩، وقال الشيخ الألباني: حسن]، رواه الطبراني في الأوسط [٥/ ٦١ رقم ٤٦٧١] وإسناده حسن. ومجمع الزوائد ٥/ ٥٧٢-٥٧٣ في الجهاد (٩٦١٥)، وقال الهيثمي: روى ابن ماجه بعضه، رواه البزار [مسند البزار ١٢/ ٣١٥ رقم ٦١٧٥]، ورجاله ثقات. واتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري ٧/ ٤٤٥ -٤٤٦ في الزهد (٧٢٩٧/ ٢)، وقال البوصيري: رواه أبو يعلى بسند رواته ثقات، وابن أبي الدنيا والطبراني في الصغير، والبيهقي في الزهد، ورواه الترمذي وحسنه، وابن ماجه مختصرًا، ولقصة الزكاة شاهد من حديث بريدة بن الحصيب ﷺ وتقدم في أول كتاب الزكاة، ولقصة العمامة شاهد من حديث علي بن أبي طالب ﷺ وتقدم في كتاب اللباس. والمستدرك في الفتن والملاحم (٨٦٨٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والسيرة لابن هشام ٢/ ٦٣١-٦٣٢.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ ﵄: فَسَمِعْتُ ذَلِكَ فَقُلْتُ: لَأَدْخُلَنَّ فَلَأُصَلِّيَنَّ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْغَدَاةَ، فَلَأَسْمَعَنَّ وَصِيَّتَهُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ.

قَالَ: فَغَدَوْتُ فَصَلَّيْتُ فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَنَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِيهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﵁، وَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ كَانَ أَمَرَهُ أَنْ يَسِيرَ مِنَ اللَّيْلِ إِلَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ فَيَدْعُوَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: «**مَا خَلَّفَكَ عَنْ أَصْحَابِكَ؟**»، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَقَدْ مَضَى أَصْحَابُهُ فِي السَّحَرِ فَهُمْ مُعَسْكِرُونَ بِالْجُرْفِ، وَكَانُوا سَبْعَمِائَةِ رَجُلٍ فَقَالَ: **أَحْبَبْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِي بِكَ، وَعَلَيَّ ثِيَابُ سَفَرِي.**

قَالَ: وَعَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﵁ عِمَامَةٌ قَدْ لَفَّهَا عَلَى رَأْسِهِ.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَأَقْعَدَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَنَقَضَ عِمَامَتَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ عَمَّمَهُ بِعِمَامَةٍ سَوْدَاءَ فَأَرْخَى بَيْنَ كَتِفَيْهِ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ: « **هَكَذَا فَاعْتَمَّ يَا بْنَ عَوْفٍ**».

قَالَ: وَعَلَى ابْنِ عَوْفٍ ﵁ السَّيْفُ مُتَوَشِّحَهُ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٠-٥٦١].

الوصية النبوية للسرية:

قَالَ ابْنُ عُمَرَ ﵄: ثُمَّ أَمَرَ النبي ﷺ بِلَالًا ﵁ أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِ اللِّوَاءَ (العَلَم وهو دون الراية) [فَعَقَدَهُ] [فَدَفَعَهُ إِلَيْهِ]، فَحَمِدَ اللهَ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «**خُذْ [يَا] ابنَ عَوْفٍ [فَسَمِّ اللهَ]، فَاغْزُوا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، لا تَغُلُّوا** (الغلول: الخيانة والسرقة)، **وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تُمَثِّلُوا** (التمثيل: جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به)، **وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا [دَابَّةً]**»، فَهَذَا عَهْدُ اللهِ [إِلَيْكُمْ] وَسِيرَةُ [وَسُنَّةُ] نَبِيِّهِ ﷺ فِيكُمْ [فَهَذَا عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَسُنَّتُهُ فِيكُمْ].

[مجمع الزوائد ٥/ ٢٠٩-٢١٠ رقم ٨٥٠٠، وقد سبق تخريجه كاملًا].

فَأَخَذَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﵁ اللِّوَاءَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٣٢].

وقال الواقدي: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اُغْزُ بِاسْمِ اللهِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَاتِلْ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ لَا تَغُلَّ وَلَا تَغْدِرْ وَلَا تَقْتُلْ وَلِيدًا**». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٦١].

أحداث السرية:

قال الواقدي: قَالَ ابْنُ عُمَرَ ﵄: فَخَرَجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ﵁ حَتَّى لَحِقَ أَصْحَابَهُ، فَسَارَ حَتَّى قَدِمَ دَوْمَةَ الْجَنْدَلِ، فَلَمَّا حَلَّ بِهَا دَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَمَكَثَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَقَدْ كَانُوا أَبَوْا أَوَّلَ مَا قَدِمَ يُعْطُونَهُ إِلَّا السَّيْفَ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ أَسْلَمَ الْأَصْبَغُ بْنُ عَمْرٍو الْكَلْبِيُّ، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا، وَكَانَ رَأْسَهُمْ، فَكَتَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ، وَبَعَثَ رَجُلًا مِنْ جُهَيْنَةَ يُقَالُ لَهُ رَافِعُ بْنُ مَكِيثٍ، وَكَتَبَ يُخْبِرُ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُ قَدْ أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ فِيهِمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِنْتَ الْأَصْبَغِ تُمَاضِرَ، فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبَنَى بِهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهَا، وَهِيَ أُمُّ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ.

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي عَوْفٍ عَنْ صَالِحِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ إِلَى كَلْبٍ، وَقَالَ: «**إِنِ اسْتَجَابُوا لَكَ فَتَزَوَّجْ ابْنَةَ مَلِكِهِمْ أَوْ ابْنَةَ سَيِّدِهِمْ**»، فَلَمَّا قَدِمَ دَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَاسْتَجَابُوا، وَأَقَامَ عَلَى إِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ، وَتَزَوَّجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ تُمَاضِرَ بِنْتَ الْأَصْبَغِ بْنِ عَمْرٍو مَلِكِهِمْ، ثُمَّ قَدِمَ بِهَا الْمَدِينَةَ، وَهِيَ أُمُّ أَبِي سَلَمَةَ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٦١-٥٦٢**].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: مجمع الزوائد للهيثمي (٨٠٧هـ) ٥/ ٢٠٩-٢١٠، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢٢.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦٣١-٦٣٢، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٦٠ -٥٦٢، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨٥، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٨٥، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤٢٨، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٦٨-٢٦٩، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٤٩-١٥٢.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٤٧٣، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣١٧-٣٢١.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٥٦- ٥٩، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٩٥ – ٩٧، فقه السرايا للعيساوي ١٣٩ + ١٤٩، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٧٥-١٩٨.

خرائط سَرِيَّةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﵁ إِلَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ

(١)

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥١.

(٢)



الأطلس التاريخي لسيرة الرسول ﷺ للمغلوث ١٧٧.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من
سَرِيَّةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ إِلَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ

١ ـ أهمية دور المسجد في حياة المجتمع:

يقول د/ بريك: «يتبين لنا من هذه السرية معرفة صفة مجالس العلم التي كانت تعقد في مسجد النبي ﷺ، التي كان فيها ﷺ المعلِّم الأوَل، والموجِّه النَّاصح، والمُفْتِي الفقيه.

لقد كان المسجد النبوي في ذلك الوقت بمثابة جامعة بمعلِّمٍ واحدٍ يتلقَّى فيه الصحابة ﷺ العلم والوعظ والفتوى والتوجيه والإرشاد، من مُعَلِّم البشرية النبي محمد ﷺ، كما كان ـ أيضًا ـ بمثابة القاعدة العسكرية التي تنطلق منها الجيوش والسرايا والبعوث.

لقد كانت مراسم بَعْث السرايا، وتولية الأُمراء عليها، تتم في المسجد بشكلٍ مبسَّطٍ، لكنه متقن ومنظَّم، وبانضباطية مدهشة». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٩٦].

٢ ـ الأجواء العلمية للسَّرِيَّة:

يقول د/ بريك: «كانت الأجواء التي تمَّ فيها إرسال هذه السرية تفيض علمًا، وتفوح عبقًا مباركًا، وقد كانت فرصة مناسبة للتعرُّف على مجالس العلم التي كانت تُعقد في المسجد النبوي، وكذلك معرفة المراسم التي يتم من خلالها بعْث السرايا، وتولية الأُمراء عليها، وذلك من خلال راوي الحديث الذي كان شاهد عيان يصف لنا ذلك كُلَّه بأدقِّ عبارة، وأسهل جملة، كما جاء في قول عبد الله بن عمر ﷺ».

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٨٦].

ويقول د/ الغضبان: «لقد لفتت هذه المهمة نظر عبد الله بن عمر ﷺ فسارع إلى المسجد ليشهد وصية رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف ﷺ فيها، وأدرك بحسه الثاقب أن مثل هذه السرية الخطيرة ليست حدثًا عاديًّا في السرايا والبعوث، بل ذات أهمية قصوى فيها، وعبد الله بن عمر ﷺ جندي جديد ينضم إلى الإسلام، فقد كانت الخندق أول مشاهده، ولا يزال في السادسة عشر من عمره ﷺ، وهو إلى جانب جنديته معلم كبير من الحفَّاظ الكبار في مدرسة النبوة، ولئن تأخر انضمامه إلى الجيش الإسلامي عسكريًّا فيه، لكن تلقيه العلم في مدرسة النبوة لم ينقطع لحظة واحدة منذ وصوله إلى المدينة، وهكذا نقل لنا حديثين بهذه المناسبة، وهو في المسجد العظيم وبصحبته عشرة من كبار المسلمين، على رأسهم الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وخامس العشرة المبشَّرين عبد الرحمن بن عوف، المرشح لقيادة السرية، وابن مسعود عالم الإسلام العظيم، ومن الأنصار: معاذ بن جبل أمير العلماء، وحذيفة بن اليمان، صاحب سر رسول الله ﷺ، وأبو سعيد الخدري، وكان أصغرهم وعاشرهم صُحُفيًّا والمتحدث لنا عنهم عبد الله بن عمر.

وأكرمنا بأن نقل لنا الإجابة النبوية العظيمة عن السؤالين: أي المسلمين أفضل؟ وأي المؤمنين أكيس؟ وهذه القيادات الكبرى في المسجد تتلقى هذا العلم كما يتلقاه الشبان الصغار فيه، فكان أحسن المسلمين خلقًا هو الأفضل وأكثر المؤمنين ذكرًا للموت، وأكثرهم استعدادًا له هو الأكيس».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٦٨].

٣ ـ مسؤولية الحُكْم في الإسلام:

يقول د/ الغضبان: «نظر ﷺ إلى هذه النخبة العالية من أصحابه، حيث كان أكثرهم من المهاجرين خاطبهم بقوله: «يا معشر المهاجرين»، وأفاض عليهم ما أفاض عليه ربه على لسان جبريل، محذرًا من هذه الكبائر الكبرى الخمس وهى المهلكات في الأمم.

والذي يلفت النظر في هذا الحديث أنه ذُكر أمام سبعة من المهاجرين، أربعة منهم حكموا الأمة على منهاج النبوة، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ﷺ، والخامس منهم كان أحد الستة المرشحين للخلافة، والسادس منهم وهو عبد الله بن عمر ﷺ رشحه الفاروق ﷺ ليكون حكمًا، ومرجحًا بين أهل الشورى، والسابع منهم ابن أم عبد، عبد الله بن مسعود ﷺ عالم الأمة، والأنصار الثلاثة هم من قادة الأنصار، فماذا نستنتج من هذا العرض النبوي في هذا المشهد؟

للإجابة على هذا السؤال، وبالوقوف مليًّا أمام فقرات الحديث، نلاحظ أنها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالحكم في الإسلام، وبالدولة في الإسلام وتكاد تكون هذه القضايا الخمس هي مسؤولية الدولة بشكل مباشر، فحرب الفاحشة ومقاومتها هي من مهام الحاكم المسلم، وتأدية الزكاة من مهام الحاكم المسلم في تطبيقها على الأمة، ورأينا الصديق ﷺ الرجل الأول في الإسلام، وأحد الشهود العشرة عندما مُنعت الزكاة من بعض فصائل الأمة يعلن: والله لو منعوني عناقًا (وفى رواية: عقالًا) كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة، والزكاة حق المال.

ومسؤولية الحاكم المسلم والمحتسبين الذين يُعيِّنهم أن يراقبوا السوق ويمنعوا تطفيف المكيال والميزان، والمحافظة على عهد الله وعهد رسوله، هي ابتداء مسؤولية الدولة المسلمة، والحاكم المسلم، والحكم بما أنزل الله هي أول وأولى المسؤوليات للحاكم المسلم.

وحيث إننا مع رجال الدولة العشرة، ومع القيادات الكبرى في الأمة، فلابد من وضع منهج يقرر هذه الكليات الخمس؛ ليشعر رجال الحكم هؤلاء بمسؤوليتهم في المستقبل، وأن إنقاذ الأمة المسلمة أو دمارها سيكون من مسؤولياتهم كذلك، والمهاجرون السبعة قرشيون ومرشحون للخلافة العظمى، والأنصار الثلاثة مرشحون للوزارة عندهم.

فنحن إذن أمام تربية القادة الكبار على يد سيد القادة في الوجود محمد ﷺ».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٦٨-١٧٠].

٤ ـ الخطاب النبوي التحذيري للأمة:

يقول د/ بريك: «لقد حذر النَّبِيُّ ﷺ أُمَّته من الوقوع في أسباب المهلكات الموجبة لعذاب الله ﷻ، واجتناب المحظورات، وأبان عن خشيته ﷺ، ورفقه بأُمَّته وخوفه عليهم مِمَّا يهلكهم في الدُّنيا والآخرة.

كم رأينا بلاغة وقوَّة الخطاب التحذيري الذي وجَّهه المصطفى ﷺ إلى أصحابه وأُمَّته مُحَذِّرًا إياهم من المهلكات الخمس بأسلوب سنن الله الكونية التي لابدَّ من وقوعها إذا ما توفرت شروطها، وتهيأت أسبابها، فظهور الفاحشة والإعلان بها بين الناس مَدْعاة لظهور الأمراض الخطيرة، وانتشار الأوبئة المستعصية وغير المعروفة من قبل.

والغش في الكيل والوزن والنقص فيهما، عقوبته تكون بالجدب والغلاء وظلم السلطان.

وتعطيل الزكاة ومنعها يؤدي إلى منع سقوط الأمطار، وبالتالي الجفاف والجدب.

ونقض العهد والميثاق والخيانة والغدر، مدعاة لتسلُّط الأعداء واستبدادهم وظلمهم وغصبهم للحقوق.

وترك الحكم بكتاب الله والحكم بغيره من القوانين والأنظمة الوضعية، عقوبته وقوع الفتنة، وسفك الدماء، واشتعال الحرب الأهلية.

وفي هذا بيان أنَّ العقوبة تكون من جنس العمل». [**غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٩٢-١٩٣**].

٥ ـ اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب:

يقول د/ الغضبان: «وأما رجل السرية ورئيسها فهو عبد الرحمن بن عوف ﷺ أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن رجال الرعيل الأول واليوم الأول في الإسلام، حيث كان أحد الأركان الكبرى للإسلام الذين أسلموا على يد الصديق ﷺ.

وحيث إن مهمة هذه السرية ذات جانبين: مهمة دعوية، ومهمة حربية؛ فلابد أن يختار لها أحد الدعاة الكبار الذين تربوا في محضن الإسلام العظيم منذ أيامه الأولى، وكما كانت مهمة الصديق ﷺ والذي انتزع من مسؤوليات الأمة الكبرى ليقوم بقيادة السرية على بني فزارة، فكذلك انتزع عبد الرحمن بن عوف ﷺ لهذه المهمة الضخمة التي قد تكون مفصلًا من مفاصل الإسلام، ونقطة تحول كبرى في الأرض الإسلامية.

فالدعوة إلى الله تعالى هدف رئيس من السرية، وغاية مقصودة؛ ولذلك لم يبدأ الحرب عبدُ الرحمن ابن عوف ﷺ مباشرة بعد رفضهم الدخول في دين الله ﷻ، إنما استمر ثلاثة أيام يدعو إلى الله ﷻ، ومن أجل هذا لم يبعث الرسول ﷺ على رأس هذه السرية قائدًا يغلب عليه الجانب العسكري، إنما بعث على رأسها سيدًا من سادات هذه الأمة، وواحدًا من أكبر دعاتها، فهو يملك من الحِلْم، والحكمة، والثقافة،

والتجربة، والعبقرية، والقِدم في الإسلام، والبلاء فيه ما لا يملكه غيره، فهو داعيةٌ قبل أن يكون قائدًا عسكريًّا مناورًا؛ ولهذا بذل كل طاقته لتحقيق الهدف الرئيس الأول، وهو الدخول في الإسلام، وكان متريثًا هادئًا خبيرًا بالنفوس والقلوب، فشحن كل الإمكانات الفكرية والحركية؛ لإنجاح هذه المهمة العظمى، وتكلل عمله بفضل الله تعالى بالنجاح الكبير، وخاصة أن الجهد انصب على إقناع الرئيس، حسب توجيهات المصطفى ﷺ.

وهذه ظاهرة نادرة أن يستجيب سيد بني كلب في دومة الجندل الأصبغ بن عمرو للإسلام، فالأصل أن ينضم أفراد مبعثرون من القبائل للإسلام، ويحضروا إلى المدينة مهاجرين لله ولرسوله.

وحين تقارن مهمة عبد الرحمن بن عوف ﷺ في دومة الجندل لا نجد مثيلًا لها إلا المهمة العظمى لجعفر بن أبي طالب ﷺ في الحبشة، حيث تم غزو النجاشي ملك الحبشة، وإقناعه بالإسلام، والمهمة العظمى لمصعب بن عمير ﷺ في المدينة، حيث استجاب سادات الأوس والخزرج وزعاماتهم للإسلام، ودخلوا في دين الله على يد مصعب بن عمير ﷺ، وهذه هي المهمة الثالثة العظمى في أقصى الأرض العربية، حيث ينضم سيد بني كلب في دومة الجندب الأصبغ بن عمرو ﷺ إلى الإسلام، وتُقبل القلوب والنفوس وراء قائدها ملبية نداء الله تعالى لها بالاستجابة إلى الله ورسوله.

وهذه الشخصيات العظمى الثلاثة هم من الرواد الأوائل، ومن المؤسسين في المدرسة الإسلامية الأولى بمكة المكرمة.

وأتيح لعبد الرحمن بن عوف ومصعب بن عمير رضي الله عنهما أن يخوضا معركة الحرب في أُحُد، بعد معركة العقيدة، فيستشهد مصعب ﷺ بعد أن وضع الركائز الأولى لدولة الإسلام في المدينة، ولم يقبض من زهرة الدنيا شيئًا، كما أتيح لعبد الرحمن بن عوف ﷺ أن يخوض معركة أُحُد ويجرح عشرين جراحة أدت بعضها إلى أن يكون عنده عرج من شدتها، وها هو يضع ركائز العقيدة الإسلامية بجيشه المظفر شمال الجزيرة العربية، وينضم الكثيرون إلى الإسلام، لتغدو دومة الجندل موقعًا جديدًا من المواقع الإسلامية، في هذه الأطراف المتنامية، فلا غنى للمسلمين عن هذه القلعة، وعن هذه الموقعة للمستقبل القريب في المواجهة مع العرب والروم المناوئين للإسلام». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٦٧ - ١٦٨، ١٧٣ - ١٧٤].

٦ ـ تواضع القائد لمرؤوسيه وشفقته عليهم:

حيث ألبس ﷺ عبدَ الرحمن بن عوف ﷺ عمامته بيده، وهذا التواضع منه ﷺ يرفع من معنوية الصحابة رضي الله عنهم، ويدفعهم إلى بذل المزيد من الطاقة في سبيل خدمة هذا الدين؛ لأن التلاحم والمودة بين القائد وجنوده من أهم عوامل نجاح العمل وتحقيق الأهداف. [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٨٣-١٨٤].

٧ ـ جواز لبس العمائم في الحرب:

يقول د/ العيساوي: «يؤخذ من سرية عبد الرحمن بن عوف ﷺ إلى دومة الجندل: «استحباب لبس العمائم في الحرب».

قال محمد بن الحسن الشيباني: «ولبس العمائم في الحرب وغيرها حسن في أمر المسلمين، فإن العمائم تيجان العرب».

وقال ﷺ: تعمموا تزدادوا حلمًا. [شرح السير الكبير ١/ ٩١].

ودخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح عليه عمامة سوداء.

[الحديث رواه الجماعة إلا البخاري. ينظر: الترمذي ـ أوصاف النبي ﷺ ص١١٤].

فعرفنا أن ذلك حسن. [شرح السير الكبير ١/ ٩١].

وقد ورد في شرح السير الكبير: دعا رسول الله ﷺ، عبد الرحمن بن عوف ﷺ، فقال: تجهز، فإني باعثك... إلى أن قال: وعلى عبد الرحمن بن عوف ﷺ عمامة قد لفها على رأسه، فدعاه النبي ﷺ فأقعده بين يديه، ونقض عمامته بيديه، ثم عممه بعمامة سوداء وأرخى بين كتفيه شيئًا منها، ثم قال: «**هكذا فاعتم يا بن عوف**»، وإنما فعل ذلك إكرامًا له، خصه بهذه الكرامة من بين الصحابة ﷺ.

وفيه دليل على أن المستحب إرخاء ذنب العمامة بين الكتفين كما فعله الرسول ﷺ، منهم مَنْ قَدَّر ذلك بشبر، ومنهم من قال: إلى وسط الظهر، ومنهم من قال إلى موضع الجلوس.

وفي هذا دليل على أن يجرد اللف لعمامته لا ينبغي أن يرفعها من رأسها دفعة واحدة، ولكن ينقضها كما لفها، فقد فعل رسول الله ﷺ هكذا بعمامة ابن عوف ﷺ، وذلك بمنزلة النشر غبِّ الطي، فيكون أولى من النشر والإلقاء على الأرض دفعة واحدة». [شرح السير الكبير ١/ ٩١ -٩٢]. [فقه السرايا للعيساوي ١٤٩-١٥٠].

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ السَّلَامِ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ ﷺ: «كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْتَمُّ؟ قَالَ: كَانَ يُدَوِّرُ كُورَ عِمَامَتِهِ عَلَى رَأْسِهِ، وَيَغْرِزُهَا مِنْ وَرَائِهِ وَيُرْسِلُهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ».

[مجمع الزوائد ٥/ ٢١٠ كتاب اللباس رقم ٨٥٠١، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٣/ ٢٧٨ رقم ١٤٠٣٩]، ورجاله رجال الصحيح خلا أبا عبد السلام وهو ثقة].

٨ ـ حرص الجنود على أخذ التلقي والتعليمات من القائد:

يقول د/ الغضبان: «ومن هذه التربية العامة لهؤلاء العشرة الكبار، نعود للتربية الخاصة لأحدهم وهو عبد الرحمن بن عوف ﷺ فهو الذي فقه من مدرسة النبوة أن يكون آخر عهده ـ وهو أمير السرية إلى أقصى الجزيرة ـ من الدنيا هو مثوله بين يدي قائده ﷺ؛ ليتلقى التعليمات الأخيرة، التي قد تكون سِرِّية أو علنية،

وليأخذ من رحيق هذا النور النبوي، فيكون زاده في هذه الصحراء المهلكة، والفيافي المحرقة، يأتي إلى قائده ﷺ وهو بلباسه العسكري، بحيث يمضي إلى جيشه الذي سبقه وعسكر بالجرف، وليس الجيش سبعة أو سبعين، إنه سبعمائة عليه أن يقودهم عسكريًّا، ويرعاهم تربويًّا، ويغذيهم ماديًّا ونفسيًّا، على خط التربية الطويل اللاحب، ويعدهم لأخطر مواجهة عسكرية محتملة قد تكون مع الروم مباشرة أو بشكل غير مباشر، حيث لا ناصر لهم إلا الله.

(أَحْبَبْتُ يَا رَسُولَ الله أَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِي بِكَ، وَعَلَيَّ ثِيَابُ سَفَرِي).

وهى تربية عملية لكل القيادات يقدِّمها ابن عوف ﷺ حيث يتعلم منها المرشحون للقيادة أن يكون آخر عهدهم من الدنيا، وقبل الشروع في مسؤولياتهم هو المثول بين يدي القائد الأعظم ﷺ.

لقد كان التقليد الإمبراطوري عند الفرس والروم أن يقوم الإمبراطور الأعظم بتسليم قائد جيوشه القيادة، وإلباسه تاج الحرب، وهنا فالعمائم تيجان العرب، وها هو ﷺ يعمم عبد الرحمن بن عوف ﷺ بيده ويقلده تاج القيادة العظمى لهذا الجيش على مشارف الجزيرة، ويدفع إليه اللواء ليقاتل تحته».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٦٧ – ١٦٨، ١٧٤].

٩ ـ بيان مقاصد الجهاد وأحكامه:

يقول د/ الحميدي: «في وصية رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف ﷺ بيان لبعض مقاصد الجهاد وأحكامه، فالجهاد يكون باسم الله ـ تعالى ـ لا بأسماء رموز الجاهلية، ويكون في سبيل الله ـ جل وعلا ـ إعلاء لدينه، لا في سبيل القوم والوطن والمصالح الدنيوية.

فأهل الجاهلية كانوا يقاتلون باسم أصنامهم وفي سبيل إعلاء شأن قبائلهم وأوطانهم، فلما جاء الإسلام رفع من مستوى المسلمين الفكري فهجروا رموز الجاهلية ونطقوا باسم الله ـ تعالى ـ وحده، وأصبح القوم الذين يعتزون بهم وينتصرون لهم هم المسلمين في كل مكان.

ثم نهى رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف ﷺ عن الغلول وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، ونهاه عن الغدر في العهود، وعن قتل الولدان، وتلك نماذج من الأدب الإسلامي في الجهاد، فالقتال نوع من العنف والقسوة، ولكنه بالنسبة للمسلمين الذين طهَّر الله ـ تعالى ـ قلوبهم من الغل والحسد أمر عارض لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وحماية المحقين من المبطلين، وليس متأصلًا في نفوسهم؛ ولذلك كان محفوفًا بالآداب السامية التي تجعل الإنسان الواحد جامعًا بين منتهى القوة والبطش ومنتهى الرحمة والعطف.

ثم وجَّه النبي ﷺ الكلام لعموم الحاضرين عنده وحذرهم من الفتن الكبيرة التي تترتب على المعاصي الظاهرة، فبيَّن لهم أن التطفيف في المكاييل والموازين يؤدي إلى القحط والجدب ونقص الثمرات،

وأن نقض العهود وعدم الوفاء بها يؤدي إلى تسلط الأعداء على المسلمين، وأن منع الزكاة يؤدي إلى حبس المطر، وأن ظهور الفاحشة يؤدي إلى انتشار الأمراض المهلكة كالطاعون، وأن الحكم بغير ما أنزل الله ـ تعالى ـ يؤدي إلى تفرق الأمة وظهور العداء والقتال بين فئاتها». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٨٤-١٨٥**].

ويقول د/ بريك: «كان من أهم مراسم تولية القادة والأمراء على السرايا والبعوث، الوصايا التي كان القائد الأعلى للقوات الإسلامية ﷺ يُزَوِّدُ بها القادةَ والأُمراءَ كلما بعثهم في بَعْثٍ، أو أرسلهم في سريةٍ، وصايا الحرب تلك كانت بمثابة تشريعات للحرب المقدَّسة التي كان يخوضها المسلمون ضد أعدائهم، والتي توضِّح بجلاء أي نوع من الحرب كان المسلمون يمارسونها ضد الأعداء باختلاف مشاربهم، وتعدُّد عداواتهم.

لقد كانت ـ بشهادة الأعداء قبل الأصدقاء ـ حربًا فروسيةً بمعنى الكلمة، لم يشهد، ولن يشهد التاريخ لها مثيلًا، إنَّ التأكيد في تلك الوصايا بالالتزام بالأخلاق الإسلامية السامية في التعامل مع الأعداء لأمر يثير الدهشة حقًّا.

فالنهي عن الغدر، والتمثيل بالأعداء، والنهي عن التعدي على الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ، وحُسْن التعامل مع أهل البلاد المفتوحة، حقائق ناصعة كانت تسبق الفاتحين، فتتغلغل في القلوب قبل أن تصدعها السيوف، فتسارع بالدخول في الدين الحق، طالما هذه تعاليمه التي يدعو إليها، ويأمر بتطبيقها حتى مع الأعداء.

إن الدول المتحضرة ماديًّا اليوم تفتخر بوضع قوانين للحرب تدعو إلى تطبيقها في الحروب، ولكنها ليست إلا حبرًا على ورق، قابعًا في أوراق المنظمات، وعلى رفوف الهيئات التي أقرتها ووضعتها، بينما في أرض الواقع قانون الغاب هو السائد وهو المهيمن، حيث القويُّ يفتك بالضعيف فتكًا ذريعًا دونما وازع من دين أو خلق أو قيم، وصدق الله القائل في محكم كتابه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور]». [**غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٩٦-١٩٧**].

١٠ ـ جيش المبادئ:

يقول د/ الغضبان: «إن الجديد في بناء الأمة ليس نقض العمامة وإلباسها على أهميته، إنما الجديد هو جيش المبادئ الذي يتحرك في هذا الوجود لأول مرة، إنه جيش العقيدة الذي يمضي ضاربًا في هذه الصحراء المترامية يحمل حديث الله ﷻ إلى خلقه، وهدي رسول الله ﷺ إلى أمته، «**خُذْهُ يَا ابْنَ عَوْفٍ! أُغْزُوَا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ الله، فَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِالله، لا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، فَهَذَا عَهْدُ اللهِ وَسِيرَةُ نَبِيِّهِ فِيكُمْ**».

هذه هي المبادئ الثمانية التي ينطلق بها جيش الإسلام في هذه الأرض، وينساح بها في هذه الجزيرة.

(أ) «**اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ**»: فالجهاد ليس باسم محمد ﷺ فهو عبد الله ورسوله الذي ينقل هذه الرسالة إلى خلقه، ولو كانت مَكرمة في الأرض تستحق أن يكون باسمها غير الله تعالى، لكان هو محمد ﷺ، ولكنه الجيش الرباني الذي يمضي باسم الله وحده في هذا الوجود، ولا مكان لزعيم أو أمة أو قبيلة أو راية أو وطن أو جيش أو قومية بجوار هذه الراية الخفاقة في هذا الوجود، راية الله تعالى، «**اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ**» فحزب الله تعالى هو الذي يحيي هذه الصحراء الظمأى بغيث العقيدة الخالصة عقيدة التوحيد.

(ب) «**فِي سَبِيلِ اللهِ**»: فلابد أن يتحدد الهدف ابتداء، إنه في سبيل الله وحده لا يرافقه أي سبيل آخر: لقد علمونا ونحن صغار على مقاعد الدرس نشيدًا يقول:

في سبيل المجد والأوطان نحيا ونبيد	**كلنا ذو همة شماء جبار عنيد**
لا تطيق السادة الأحرار أطواق العبيد	**إن عيش الذل والإرهاق أولى بالعبيد**
لا نهاب الزمان إن سقانا المحن	**في سبيل الوطن كم قتيل شهيد**

وإبراهيم إمام الأنبياء ﷺ، وأول المسلمين في الأرض عَلَّمَنَا كما في كتاب الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

لقد أراد أعداء الله تعالى أن يبنوا مع مشارف هذا القرن العشرين، وثنية الوطن، فيرفعونه ليكون الموت والحياة في سبيله، ويرفعوا المواطن، ليلقبوه باسم الله، الجبار العنيد، وينزعوا منه أي صفة للعبودية ولو لله، والصراع بينه وبين الزمان الذي يحاول أن يسقيه المحن فلا يهابه؛ لأنه القتيل الشهيد في سبيل الوطن، بهذه القيم، وعلى هذه المبادئ أنشأوا جيل الوطنية، وجيل القومية بثالوثها المقدس، الوحدة والحرية والاشتراكية.

وإذا الأمر بعد قرن من الزمان، يبيع هؤلاء الأبناء الجدد للقومية العربية، يبيعون أمتهم وقوميتهم وأوطانهم لليهود في فلسطين، وينهون الصراع حول الوطن والأرض مرحبين باليهود الغزاة من الأرض ومباركين لهم دولتهم الجديدة، وعاصمتهم القدس؛ حرصًا على السلام العادل المشرِّف، ويَدعُون جنود الله تعالى وحدهم في الساحة، لقتلهم وإبادتهم؛ لأنهم المتطرفون الأصوليون الذين رفضوا هذا البيع، وقاوموا هذه الصفقة، وانتموا إلى محمد ﷺ الذي علمهم أن يغزوا باسم الله، وفى سبيل الله من كفر بالله.

(ج) «**قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ**»: قتالهم لمن كفر بالله وليس القتال على المبدأ الجاهلي:

وَأَحْيَانًا عَلَى بَكْرٍ أَخِينَا	**إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا**

فدينهم هو الغزو والسلب وهو شريعة الصحراء، أما هذا الجيش القوي الفتي، فهو يمضي في الأرض قُدمًا ليقاتل من كفر بالله، ولو كان من أعرق العرب من بني هاشم وقريش، ولا أدل على ذلك

من بدر فاتحة حرب العقيدة بين من قاتل في سبيل الله من كفر بالله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

وحين يقول أبو سفيان: أعل هبل، يكون جوابه: الله أعلى وأجل.

وحين يقول: لنا العزى ولا عزى لكم، يكون جوابه: الله مولانا ولا مولى لكم.

(د) ومن المباحات الخمس في الحرب العربية إلى المحظورات الخمس:

فحيث كانت شريعة الحرب العربية والعالمية تتيح الغل والغدر والنكث والتمثيل وقتل الوليد والمرأة إن اقتضت الظروف ذلك، جاء الإسلام ليحرِّم هذه المبادئ في الحرب والتي كانت تنطلق كلها من الرغبة في السيطرة، والحرص على المجد، والتنازع للشرف والشهرة، وحيث حُدِّد الهدف في هذه الحرب هو سبيل الله تعالى لا أي سبيل آخر، فالله تعالى لا يقر الغل والغدر والنكث والتمثيل وقتل غير المقاتلين؛ لأن الله تعالى حرم الظلم على نفسه وجعله محرمًا بين العباد وأوحى لهم ألا يتظالموا، وما مهمة حزب الله في الأرض إلا إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

وهذا هو عهد الله ﷻ وسنة النبي ﷺ ومهمة هذا الجيش هو تنفيذ هذا العهد، وتطبيق هذه السنة.

ولقد سمع عبد الرحمن بن عوف ﷺ قبل دقائق جزاء من نقض عهد الله وميثاقه وعهد رسوله ﷺ: **«وَلَمْ [وَلَنْ] يَنْقُضُوا [وَمَا نَقَضُوا] عَهْدَ الله وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ [سُلِّطَ] عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُم [عَدُوًّا، عَدُوٌّ] مِنْ غَيْرِهِمْ وَأَخَذُوا بَعْضَ مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ»**.

فلو أخل جيش الرسالة هذا بعهد الله وعهد رسوله، ولو كان أميرة عبد الرحمن بن عوف ﷺ، ولو كان جيش رسول الله ﷺ، فستكون الهزيمة هي التي تحل بساحته، فليس بين إعلان المبادئ الخمس الأولى، للقادة الكبار، وبين إعلان مبادئ الحرب لقادة الجيوش إلا دقائق قليلة.

فلو نُقِضت مبادئ الحرب الإسلامية لانتقضت معها مبادئ الخلافة الإسلامية الراشدة.

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٧٠ – ١٧٣].

١١ ـ إثبات صدق رسالة النبي ﷺ:

يقول د/ بريك: «إنَّ ما ذكره وأخبر به رسول الله ﷺ من تلك العقوبات المستحقة لمن تلبَّس بأسبابها، ووقع في محظوراتها، نؤمن به، ونتيقن وقوعه، لصدق المُخْبِر به الذي لا ينطق عن الهوى، ولكننا نذكر وعلى سبيل الاستئناس بعض ما وقع في هذا الزمان من أمور، ربما تدخُل ضِمن إطار هذا الحديث، فقد شاع قبل مُدَّة وذاع خبر انتشار مرض خطير، وداء عضال، ووباء معدٍ، حار الأطباء ـ رغم البحث المتواصل والدراسات المتعددة والمكثفة ـ في التوصُّل إلى علاجٍ ناجع له، أو حتى مصل واقٍ منه.

هذا الداء العضال نشأ أول الأمر في الدول الغربية الإباحية ـ رغم محاولاتهم اليائسة وادعاءاتهم الكاذبة بأنَّ منشأَهُ كان بعيدًا عنهم في أدغال أفريقية، متناسين البيئة الخصبة التي نشأ فيها المرض وترعرع، وهي بيئة الشذوذ الجنسي والإباحية المطلقة التي كانوا يشجعونها ـ ثم انتشر انتشار النار في الهشيم بطول الأرض وعرضها، وبخاصة في الدول التي تشجع الإباحية في مجتمعاتها بطريقٍ مباشرٍ، وغير مباشر.

هذا المرض الخطير الذي أصبح مجرَّد النُّطْقُ باسمه يثير الفزع، ويبث الرعب في النفوس، هو مرض نقص المناعة المكتسبة، المسمَّى طبيًّا (بالإيدز)، وهو مرض ثبت طبيًّا أنَّ سببه المباشر كان من انتشار الشذوذ الجنسي (عمل قوم لوط) في تلك المجتمعات، وتفشيه بينهم حتى أعلنوا به إعلانًا عظيمًا، لدرجة تبني بعض الحكومات والهيئات والشخصيات المؤثرة في تلك المجتمعات الدفاع عن حقوق الشاذِّين جنسيًّا [(١)] في ممارسة عملهم القذر بحريَّةٍ تامَّة، وسن قوانين اجتماعية رسمية تبيح زواج الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة، ودعم المحاولات المستميتة منهم لوضع هذه الأُمور موضع التنفيذ على شكل مراسيم حكومية رسمية حتى تصبح ممارساتهم الشاذَّة ذات صبغة رسمية شعبية.

لقد كان انتشار هذا القذر في تلك المجتمعات بعد أن ملُّوا وسئموا الممارسات الجنسية الطبيعية ـ بالطبع غير الشرعية ـ بين الرجال والنساء التي كثرت، وأصبحت أمرًا حتميًّا لا مفرَّ منه نتيجة الاختلاط والإباحية والتبرُّج والسُّفُور، والدعايات المركَّزة بشكل مباشر وغير مباشر لممارسة الجنس في كُلِّ وسائل الإعلام بأنواعها، وانتشار النوادي الليلية الحمراء، ونوادي العراة، والمنتجعات الساحلية السياحية، وغير ذلك من دواعي الإباحة ونشر الفاحشة والإعلان بها، ومع توالي الأمراض الوبائية الخطيرة عليهم، التي بدأت بمرض السيلان، ثُمَّ الزهري، إلا أنَّهم لم يرتدعوا، واستمروا في غيهم، حتى بَعَثَ الله عليهم هذا الفيروس القاتل الذي يهاجم الجهاز المناعي في جسم الإنسان فيحطمه ويقضي عليه، فيصبح عندها الجسم نهبة لمختلف الأمراض التي تفتك بالإنسان دون أن تجد ما يقاومها.

ورغم ذلك كله، ورغم النداءات المتوالية من عُقَلاء القوم، والمؤتمرات المتعدِّدة للتحذير من ازدياد انتشار وشيوع هذا الوباء الفتَّاك في المجتمعات، إلا أننا نرى ونسمع في المقابل مؤتمرات أُخرى مشبوهة تُقَام بين حين وآخر بأسماء وشعارات زائفة، ودعايات برَّاقة، تدعو بشكلٍ مبطنٍ وغير مباشر لمزيد من الإباحية، والحرِّية المطلقة، وتشجيع ارتكاب الفواحش بعلاج نتائجها بالإجهاض، وغير ذلك من دَسِّ السُّمِّ في العَسَلِ مِمَّن يُحبون شيوع الفاحشة وانتشارها بين النَّاس لإشباع غرائز بهيمية في نفوسهم، غير مدركين أو متعامِين عن الخطر الدَّاهِم، بتعدُّد الأمراض الوبائية وتجدُّدها، والتي كان آخرها ذلك المرض

---

(١) في الحقيقة تسميتهم بهذا الاسم فيه نوعٌ من التعمية والتدليس، ومحاولة تلطيف حقيقة ممارساتهم البشعة والقذرة المنافية للدين والأخلاق والقيم الإنسانية، بل فيه منافاة شديدة للفطرة الإنسانية السليمة.

القاتل السريع الذي ظهر في بعض بلدان أفريقيا قبل أشهر، والمسمَّى (بفيروس أيبولا القاتل) الذي لا يمهل ضحاياه إلا أيامًا معدودة ليقضي عليهم، حمى الله أُمَّتنا وبلادنا من شرور الأمراض والأوبئة الفتَّاكة، ومن أسبابها التي حذَّرنا منها رسول الله ﷺ». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٩٣-١٩٥].

١٢ ـ نصيحة الحاكم للرعية وشفقته عليهم:

يقول د/ بريك: «لقد حذر النَّبِيُّ ﷺ أُمَّته من الوقوع في أسباب المهلكات الموجبة لعذاب الله ﷻ، واجتناب المحظورات، وأبان عن خشيته ﷺ، ورفقه بأُمَّته وخوفه عليهم مِمَّا يهلكهم في الدُّنيا والآخرة.

كم رأينا بلاغة وقوَّة الخطاب التحذيري الذي وجَّهه المصطفى ﷺ إلى أصحابه وأُمَّته مُحَذِّرًا إياهم من المهلكات الخمس بأسلوب سنن الله الكونية التي لابدَّ من وقوعها إذا ما توفرت شروطها، وتهيأت أسبابها، فظهور الفاحشة والإعلان بها بين الناس مَدْعاة لظهور الأمراض الخطيرة، وانتشار الأوبئة المستعصية وغير المعروفة من قبل.

والغش في الكيل والوزن والنقص فيهما، عقوبته تكون بالجدب والغلاء وظلم السلطان.

وتعطيل الزكاة ومنعها يؤدي إلى منع سقوط الأمطار، وبالتالي الجفاف والجدب.

ونقض العهد والميثاق والخيانة والغدر، مدعاة لتسلُّط الأعداء واستبدادهم وظلمهم وغصبهم للحقوق.

وترك الحكم بكتاب الله والحكم بغيره من القوانين والأنظمة الوضعية، عقوبته وقوع الفتنة، وسفك الدماء، واشتعال الحرب الأهلية.

وفي هذا بيان أنَّ العقوبة تكون من جنس العمل». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٩٢-١٩٣].

١٣ ـ الحرص على دعوة الكفار إلى الإسلام:

يقول د/ الحميدي: «كان عبد الرحمن بن عوف ﷺ مطبقًا للسنة في دعوة الكفار إلى الإسلام فلم يتعجل بقتالهم، وكان من نتائج ذلك أن دخل في الإسلام سيدهم الأصبغ بن عمرو الكلبي ﷺ، ودخول الزعماء في الإسلام يعني انتشار الإسلام في أقوامهم.

لقد كانت هذه السرية دليلًا على أن المسلمين في العهد النبوي لم يكونوا يتعطشون لسفك الدماء، ولم يكن تغريهم قوتهم وعددهم ـ كما في هذه السرية ـ إلى الطمع في أموال الأعداء، بل كان المطلب الأول الذي استمروا يلحون عليه في كل مواجهة بينهم وبين أعدائهم أن يقوموا بدعوة الأعداء إلى الإسلام فإذا أسلموا عصموا دماءهم وأموالهم وأصبحوا في الحقوق كأفراد المسلمين».

[التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٨٥].

ويقول د/ الغضبان: «وداعيتنا العظيم عبد الرحمن بن عوف ﷺ الذي لم تنثن عزيمته، ولم يفقد أعصابه نتيجة الإصرار على المواجهة من خصومه كان يُربَّى في الحقيقة مع إخوانه الكبار من الرعيل الأول، جيل الشباب هذا، على كل هذه المعاني العظيمة؛ ليكون الخميرة الحية، والنواة الكبرى لجيل الحديبية، الذي سيكون خلال أقل من ثلاثة أشهر مجتمعًا جديدًا بعد جيل بدر وأربعة أضعاف ذلك الجيل وتزيد، فيكون جيل الإيمان وجيل الجنة: «**لَنْ يَدْخُلَ النَّارَ رَجُلٌ شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ**».

[مسند أحمد ٢٣/ ٤١٠ رقم ١٥٢٦٢، وقال الشيخ الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد حسن، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢١٦٠]. [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٧٥-١٧٦].

١٤ ـ توطيد العلاقة بين الداعي والمدعوين بالمصاهرة:

ويؤخذ هذا من قول رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف ﷺ: «**إِنِ اسْتَجَابُوا لَكَ فَتَزَوَّجْ ابْنَةَ مَلِكِهِمْ أَوْ ابْنَةَ سَيِّدِهِمْ**».

«وأمثال هذه المصاهرات تعتبر من أعظم الأسباب لتوطيد الود والمحبة بين القبائل، كما أنها عامل من عوامل انتشار الإسلام بين الناس». [السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٩٦-٩٧].

ويقول د/ الغضبان: «يريد النبي ﷺ بزواج عبد الرحمن بن عوف ﷺ من ابنة سيد بني كلب زعيم دومة الجندل أن يزيد الوشيجة، ويعقد اللحمة، ويقوي الروابط بين الملك المسلم الجديد بدومة الجندل وبين دولة الإسلام في المدينة من خلال هذا الزواج، إذ يحتمل أن يكون إسلامه هربًا من السيف، فما أن يغادر الجيش الإسلامي أرضه ويطمئن إلى بُعد الخطر الإسلامي عنه إلا ويرجع عن دينه أو يرتد، فزواج ابنته وكونها في قلب دولة الإسلام قد توقف مثل هذه الظاهرة، وإن كان صادقًا في إسلامه فستفتح قلبه للإسلام أكثر، وتربط مصيره بمصير دولة الإسلام، ومصير الإسلام نفسه حين يشعر أن فلذة كبده مقيمة في العرين الإسلامي الذي أصبح يحن له حنينه لأرضه وبلده». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٧٤].

ويقول د/ الحميدي :«كان النبي ﷺ يحرص على أن يتزوج هو وقادته ببنات سادة القبائل؛ لأن في ذلك كسبًا كبيرًا لدعوة الإسلام، حيث تكون المصاهرة سببًا في القرب وامتصاص أسباب العداء ثم الدخول في الإسلام». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٨٦].

وقد سبق تفصيل هذا في الدروس الدعوية المستفادة من حادثة الإفك.

١٥ ـ مبلغ نفوذ المسلمين:

يقول د/ هيكل: «دومة الجندل واحة على حدود ما بين الحجاز والشام، تقع في منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس، وأنت ترى من هذا التحديد الجغرافي لدومة الجندل مبلغ ما اتسع نفوذ محمد ﷺ وأصحابه، وما بلغ إليه سلطانهم وخوف شبه الجزيرة إياهم، كما ترى كيف كان المسلمون يحتملون المتاعب في غزواتهم، مستهينين بالقيظ والجدب وقلة الماء، مستهينين بالموت نفسه، يحركهم إلى هذا النصر والظفر شيء واحد هو سبب قوتهم المعنوية: الإيمان بالله وحده لا شريك له». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٢٤].

ويقول د/ الوكيل: «إن وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل، وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة في أرض بينها وبين المدينة ستة وثلاثون ميلًا ـ أي ما يقرب من خمسة وستين كيلو مترًا ـ لدليل قاطع على مدى ما وصلت إليه قوة المسلمين، وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للناس في هذه المنطقة، وأن هذه المناطق النائية كانت ضمن حدود الدولة الإسلامية، وأن الدولة أصبحت منيعة، ليس في مقدور أحد أن يعتدي عليها». [**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٧٠**].

ويقول د/ الغضبان: «كانت هذه السرية قد وجهت إلى أبعد مدى وصلت إليه الجيوش النبوية في الجزيرة العربية، وتكاد تكون دومة الجندل قريبة من تخوم الشام، فهي أبعد ثلاثة أضعاف عن المدينة بعدها عن دمشق، وهي تقوم في قلب الصحراء العربية واسطة الصلة بين الروم في أرض الشام والعرب في الجزيرة، وسكانها من قبيلة كلب الكبرى، وقد دخلوا في النصرانية نتيجة جوارهم وتأثرهم بجوار الروم النصارى، وهي تمثل كذلك أول احتكاك بين المسلمين وبين النصارى في جزيرة العرب».
[**التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٦٧**].

١٦ ـ أهمية السِّرِّيَّة في القتال:

يقول أ/ باشميل: «في اليوم الثالث استجاب ملكهم (الأصبغ بن عمرو الكلبي) [١]، فأسلم وتبعه على الإسلام خلق كثير من قومه وكلهم كانوا نصارى.

وهكذا حققت هذه الحملة الكبيرة أغراضها، وكفى الله المؤمنين القتال، أما من بقي من أهل دومة الجندل على النصرانية (وكلهم عرب) فقد تركهم القائد عبد الرحمن بن عوف ﷺ وشأنهم أحرارًا في دينهم على أن يؤدوا الجزية لدولة الإسلام كاعتراف بسلطانها ومقابل حمايتها لهم فقبلوا، وقد تزوج القائد عبد الرحمن بن عوف ﷺ ابنة ملك دومة الجندل واسمها (تماضر بنت الأصبغ)، وأحضرها معه إلى المدينة فولدت له ابنه (سلمة بن عبد الرحمن). [**صلح الحديبية لباشميل ٥٨-٥٩**].

ويقول د/ الغضبان: «وهذه أول مرة يحكم الإسلام خارج حدوده ويتعايش المسلمون والنصارى في دولة واحدة، فالذين أسلموا تُطبق عليهم أحكام الإسلام، والذين بقوا على نصرانيتهم تؤخذ منهم الجزية، وتقوم الدولة الجديدة بعد دولة المدينة على طوائف شتى، وعقائد مختلفة، وهو تدريب جديد على المجتمعات الجديدة التي سينتقلون إليها فيما بعد، وينساحون في العراق والشام وفي قلب فارس والروم، فلابد أن يتدربوا على أن لا إكراه في الدين، وأن العقيدة تنبني من خلال الحوار لا من خلال السيف، وأن

---

(١) اسم الكلبي يطلق على عدة قبائل عربية، ولكن الكلبيين أصحاب دومة الجندل هؤلاء هم بطن من قضاعة من القحطانية، وهم بنو كلب بن وبرة، وهم قبيلة عظيمة تمتد ديارهم حتى تبوك وأطراف الشام، وفي الفتوح الإسلامية كان لقبائل كلب شأن عظيم في نصرة الإسلام، وكانوا عماد جند الشام في عهد معاوية، وكانت مدينة تدمر وسليمة والعاصمية هي منازل كلب، وكان الخليفة معاوية قد أصهر إليهم إذ تزوج منهم، وكان منهم جيل عظيم يسكن الدهناء شرقي جزيرة العرب.

مبادئ الإسلام حين تحكم هذه المجتمعات، وتحقق العدل والحق في الأرض هي التي يمكن أن تقود الناس إلى الإسلام، وليس الإرهاب والقوة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٧٥].

إن مبادئ الإسلام لها قوتها الذاتية التي تشع أنوارها على المجتمعات التي قد انغمست في الظلام البهيم. [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٢٠].

١٧ ـ الفرحة بانتصار العقيدة:

يقول د/ الغضبان: «وعودة إلى هؤلاء السبعمائة الذين مضوا في هذه السرية إلى مجاهل البيد، حيث يمضون في السير مالا يقل عن خمسة عشر يومًا في تدريب عنيف على الجوع والعطش والمشقة والتعب، ثم يعودون بعد هذه الجولة كلها دون شيء، فلا غنائم ولا أموال ولا جِمال، ولا نَعم، ولا شاء، ولا سلاح، إنما يعودون بفرحة غامرة، وهي انتصار هذه العقيدة، وانتشار هذا الدين، وتمكنه في الأرض، وهذه أعظم ثروة يعودون فيها تفوق الغنائم، وتفوق المكاسب، وتفوق الثروات كلها، فقد تعلموا من قائدهم ﷺ قوله: «**فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**».

[البخاري في المغازي (٣٨٨٨) ومواضع أخرى، ومسلم في فضائل الصحابة ﷺ (٤٤٢٣)...].

فكيف إذا أسلم قطاع كبير من قبائل كلب، وعلى رأسهم سيدهم الأصبع بن عمرو ﷺ؟! هي دورة عنيفة عقيدية، خيالية من كل حظوظ الدنيا.

وهكذا يجب أن تكون تربية جيل النصر بحيث لا تبطره المكاسب، وتتحلب أشداقه للمغانم، كما لا يتحسر على فواتها ويندب حظه على فقدانها، إنه جيل يخط في هذه الأرض معالم أمة جديدة كل فرد فيه أمة بذاته.

وإذا كان السبعمائة في أُحُد قد فقدوا النصر؛ لأن فيهم من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة، فلم يتح لهم تلك التجارب العنيفة قبيل المعركة؛ لتتم صياغتهم الكاملة على ضوء العقيدة، وكان الانتشار الأفقي على حساب التغلغل والبناء في الأعماق فبقيت شريحة منهم دون المستوى المطلوب انهارت أمام إغراء الغنيمة، وعصت الله ورسوله، وأدت بتصرفها إلى انتزاع النصر من الأمة المسلمة، بينما نجد هؤلاء السبعمائة، وقد أمضوا قرابة شهر في العَدْوِ والرواح والإقامة أو ما يزيد عن شهر، يتلقون من القيادات المسلمة العليا كل الدورات التربوية النظرية والعلمية والسلوكية، ويصهرون بهذا الدين صهرًا كما تعاد صياغة التركيبات الكيمائية بالنار والحرارة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٧٤-١٧٥].

١٨ ـ حكم طلاق مرض الموت:

ذكر المؤرخون أن عبد الرحمن بن عوف ﷺ توفي وتماضر الكلبية لما تزل في عدتها من طلاقه فورثها فيه الخليفة عثمان ﷺ، وهذا صار سندًا فقهيًّا قويًّا للذين يقولون بعدم صحة الطلاق في المرض الذي يموت فيه المطلق، وهو مذهب المالكية. [صلح الحديبية لباشميل ٥٩].



الفصل الخامس عشر
سَرِيَّةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِلَى بَنِي سَعْدٍ [١] بِفَدَكٍ
شعبان ٦هـ/ديسمبر (كانون أول) ٦٢٧م/ كيهك ٣٤٤ قبطي
المبحث الأول
عرض سَرِيَّةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِلَى بَنِي سَعْدٍ بِفَدَكٍ

التعريف بفدك:

يقول د/ بريك: «فَدَك ـ بفتح أوَّله، وثانيه، وقيل: بالفتح، وقيل: بالتحريك، وآخره كاف، قال ابن دريد: فدَّكت القطن تفديكًا إذا نفشته، وفدك: قرية بالحجاز.

قال عياض: هي على يومين، وقيل: ثلاثة من المدينة، وأقرب الطُّرُق من المدينة إليها من النَّقرة مسيرة يوم على جبل، يُقَال له الحِبَالَة والقذال، ثم جبل يُقَال له: جُبار، ثم يَرْبغ، وهي قرية لولد الرِّضا، وهي كثيرة الفاكهة والعيون، ثم تركب الحرَّة عشرة أميال، فتهبط إلى فدك.

قال الأصمعي: حرَّة النَّار فدك. وطريق أُخرى، وهي طريق مُصَدِّق بني ذبيان وبني محارب من المدينة إلى القصة، وهناك تُصدِّق بنو عوال من بني ثعلبة بن سعد، ثم ينْزل نخلًا، فتصدِّق الخضر خضر محارب، ثُمَّ ينْزل المغيثة فتصدّق سائر بني محارب، ثم الثَّامِلِيَّة لأشجع، ثُمَّ الرقمتين لبني الصَّادر، ثم مرتفقًا لبني قتَّال بن يربوع، ثُمَّ فدك، ثُمَّ الخُرَاضة، ثم خيبر، وفي فدك عين فوَّارة ونخيل كثيرة، وحصن فدك يُقَال له: الشمروخ، وقيل: سُمِّيَت بفدك بن حام لأنه أوَّل من نزلها. وذكر البكري أنَّ أكثر أهلها أشجع».

وقال ياقوت: «كان أهلها يهود (ربَّما كان يسكنها اليهود، وقبيلة أشجع، معًا، أو أنَّ اليهود كانوا هم سُكَّان المدينة، وقبيلة أشجع كانوا يسكنون حول المدينة ويشتركون مع يهودها بحلف مثل بقية القبائل الغطفانية الأخرى)، فلمَّا فُتحت خيبر طلبوا من النَّبِيِّ ﷺ الأمان على أن يتركوا له البلد، فكانت له خاصَّةً، لأنَّها مِمَّا لم يُوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكان يصرف ما يأتيه منها في أبناء السبيل، وفي رواية: «أنَّهم صالحوه على النصف، ولم يزل أهلها بها حتى أجلى عمر ﷺ اليهود فوجَّه إليهم من قوَّم النصف، وعوَّضهم عنه، وأجلاهم إلى الشام».

ولـمَّا قُبِضَ رسول الله ﷺ قالت فاطمة رضي الله تعالى عنها: «إنَّ رسول الله ﷺ نحلنيها (**النَّحْلُ**: هو العَطَاءُ بِلا عِوَض)، فقال أبو بكر الصِّدِّيق ﷺ: أريد لذلك شهودًا، ولها قِصَّة، ثم أدى اجتهاد عمر بن الخطَّاب ﷺ بعده لـمَّا فُتِحَت الفُتُوح واتَّسعت على المسلمين أن يُرُدَّها إلى ورثة رسول الله ﷺ، فكان عليُّ بن أبي طالب ﷺ، والعبَّاسُ بن عبد المطلب ﷺ يتنازعان فيها، ويتخاصمان إلى عمر ﷺ، فيأبى أن يحكم

---

(١) اسم سعد يطلق على عدة قبائل منهم العدنانية والقحطانية، وأما هؤلاء فهم (على ما يظهر) بنو سعد بن ثعلبة، بطن من ذبيان ثم من غطفان العدنانية.

بينهما، ويقول: «**أنتُما أعرف بشأنكما**»، ولـمَّا ولي معاوية ﷺ أقطعها مروان بن الحكم، ووهبها مروان لابنيه عبد الملك، وعبد العزيز، ثم صارت للوليد بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ولـمَّا ولي الوليد استوهبا منه عمر بن عبد العزيز، فكانت له خالِصَةً تغُل له عشرة آلاف دينار، وكانت مِن أحبِّ ماله إليه، ولكنَّه حينما ولي الخلافة، كتَبَ إلى عامله بالمدينة يأمره برد فدك إلى ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها، فلمَّا ولي يزيد بن عبد الملك قبضها، فلم تزل في أيدي بني أُمَيَّة حتى ولي السَّفَّاح الخلافة فدفعها إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، فكان هو القَيِّم عليها يُفَرِّقُها في بني علي بن أبي طالب ﷺ، فلـمَّا ولي المنصور وخرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم، فلمَّا ولي المهدي أعادها عليهم، ثم موسى الهادي ومَن بعده إلى أيام المأمون، فجاءه رسول بني علي بن أبي طالب ﷺ فطالب بها، فأمر أن يُسجل لهم بها، فكُتِبَ السجل وقُرِئَ على المأمون، فقام دعبل الشاعر وأنشد:

أصبح وجه الزمـان قـد ضـحكا　　　برد مأمون هاشم فدكا

ولـمَّا استخلف جعفر المتوكل ردَّها إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر الصديق ﷺ».

وفدك: «قرية مشهورة، وقد استغرب مجد الدين الفيروزآبادي الذي عاش في القرن الثامن، والسمهودي في القرن التاسع، عدم معرفة أهل المدينة لها في ذلك الوقت على شهرتها، فربَّما كان ذلك بسبب خرابها، فقد ذكر الحلبي الذي عاش في القرن العاشر أنَّها كانت خرابًا في عهده، أو ربَّما لتغيُّر اسمها، ففدك اليوم تُعْرَف بالحائط، وتقع ضمن نطاق منطقة حائل الإدارية بين محافظة الحليفة ومحافظة خيبر، وجُلُّ أهلها اليوم هم من قبيلة الرشايدة».

[ينظر: معجم ما استعجم للبكري ٣/ ١٠١٥– ١٠١٦، معجم البلدان للحموي ٤/ ٢٣٨–٢٤٠، الروض المعطار للحميري ٤٣٨، وفاء الوفاء للسمهودي ٤/ ١٢٨٠–١٢٨١، والسيرة الحلبية ٣/ ١٨٥، معجم البلادي ٢٣٥].

هذا ومن الملاحظ أنَّ منطقة عمليات السرايا لم تكن قرية فدك ذاتها، وإنَّما المنطقة المحيطة بها، والتي كانت تسكنها قبيلة بني مرَّة، وقبيلة بني سعد بن بكر، ولكن باعتبار قربها من فدك تجوَّز أهل المغازي بنسبتها إليها.

قال الحلبي، والزرقاني، تعليقًا على أن بشير بن سعد ﷺ قائد السرية، تحامل على نفسه ـ حينما أُصيب هو ومَن معه ـ حتَّى أتى فدك فأقام بها أيامًا حتَّى ارتفع من الجراح، قالا: «وهذا يدل على أن بني مرَّة الذين توجَّه إليهم بشير لم يكونوا بفدك، بل بالقرب منها، فتسمَّحوا في قولهم إلى بني مرَّة بفدك لمجاورتها وكونها من أعمالها». **[السيرة الحلبية ٣/ ١٩٢، شرح المواهب للزرقاني ٢/ ٣٥٠]**.

وكذلك الأمر بالنسبة لسرية علي بن أبي طالب ﷺ إلى بني سعد». **[غزوة مؤتة لبريك ١١٥–١١٨]**.

تاريخ السرية:

يقول د/ بريك: «ذكر ابن إسحاق خبر السرية مقتضبًا في جملة السرايا؛ لذلك لم يذكر لها تاريخًا محدَّدًا، وإنَّما ذكرها بعد سرية غالب بن عبد الله الليثي ﷺ إلى بني الملوح.

وانفرد الواقدي، وابن سعد، بالإسهاب في الحديث عن خبر السرية كعادتهما، نقلًا عن شيوخهما، فكان من الطبعي أن يذكرا لها تاريخًا محدَّدًا حيث ذكرا أنها كانت في شعبان سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ.

وذكرها خليفة بن خياط كذلك ضمن السرايا التي كانت سنة ست من الهجرة، دون أن يحدِّد الشهر الذي أُرسِلَت فيه.

ونقل الطبري، وابن القيم، وابن كثير، حديث الواقدي عنها في أحداث السنة السادسة، دون تعليق منهم على ذلك، وكذلك ابن سيد النَّاس نقلًا عن ابن سعد.

واقتصر الشامي على رواية الواقدي، لكنَّه لم يذكر شيئًا في شرحه عن تاريخ السرية.

أمَّا القسطلاني، والمقريزي، فإنَّهما تابعا الواقدي، وابن سعد في روايتيهما».

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١١٩-١٢٠].

أحداث السرية:

يقول أ/ باشميل: «هي دورية عسكرية كبيرة قام بها علي بن أبي طالب ﷺ لبث الرعب في قلوب قبائل بني سعد بن بكر بفدك، وكان عدد رجال هذه الدورية مائة فارس، أعطى النبي ﷺ قيادتهم لعلي بن أبي طالب ﷺ، وأمره بأن يغير علي بني سعد بعد أن تلقى ﷺ من استخباراته أن بني سعد قد قرروا أن يساندوا يهود خيبر ويمدوهم بالرجال مقابل أن يعطي اليهود هذه القبيلة جزءًا كبيرًا من تمر خيبر.

وهذا يدل على أن اليهود كانوا يستعدون (منذ زمن طويل) للغزو المنتظر الذي قام به النبي ﷺ أخيرًا لخيبر، فأخضعها وأنهى الوجود اليهودي فيها، كما يأتي تفصيله إن شاء الله في غزوة خيبر ٧ هـ.

وقد تحرك على بن أبي طالب ﷺ بدوريته المسلحة، واستمر في تحركه ستة أيام يكمن فيها ليلًا ويسير نهارًا.

وفي اليوم السابع، وصل علي ﷺ بدوريته مشارف (فدك)، وهناك وجد رجلًا (لم يذكر المؤرخون اسمه) فسأله عن العدو من بني سعد، فخاف الرجل، فطمأنه قائد الدورية علي ﷺ بأنهم لا يريدون به شرًّا، فاستوثق لنفسه قائلًا: أخبركم عن مكان القوم على أنكم تؤمنوني، فأعطوه الأمان، فأرشدهم إلى الوادي الذي تتجمع فيه بنو سعد.

فأغار عليهم الإمام علي ﷺ برجال دوريته، وكان على رأس العدو (وبر بن عليم) ولم يثبت بنو سعد (بالرغم من كثرة عددهم) أية مقاومة.

بل كان همهم النجاة بأنفسهم، ففروا ومعهم النساء والأطفال فقط، وتركوا مواشيهم، فاستولى عليها رجال دورية علي بن أبي طالب ﷺ.

وكانت خمسمائة بعير وألفي شاة، قسمها القائد علي ﷺ على رجال دوريته كما تقسم الغنائم بعد أن عزل الخُمس منها ليوضع تحت تصرف النبي ﷺ ورئيس الدولة ليدخرها لنوائب المسلمين كما هو المتبع، ثم عاد علي ﷺ بدوريته إلى المدينة دون أن يلقى كيدًا.

قال الواقدي: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ عُتْبَةَ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيًّا ﷺ فِي مِائَةِ رَجُلٍ إِلَى حَيِّ سَعْدٍ بِفَدَكٍ، وَبَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ لَهُمْ جَمْعًا يُرِيدُونَ أَنْ يَمُدُّوا يَهُودَ خَيْبَرَ، فَسَارَ اللَّيْلَ وَكَمَنَ النَّهَارَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْهَمَجِ (ماء بين خيبر وفدك) فَأَصَابَ عَيْنًا فَقَالَ: «مَا أَنْتَ؟ هَلْ لَكَ عِلْمٌ بِمَا وَرَاءَكَ مِنْ جَمْعِ بَنِي سَعْدٍ؟»، قَالَ: لَا عِلْمَ لِي بِهِ، فَشَدُّوا عَلَيْهِ فَأَقَرَّ أَنَّهُ عَيْنٌ لَهُمْ بَعَثُوهُ إِلَى خَيْبَرَ، يَعْرِضُ عَلَى يَهُودِ خَيْبَرَ نَصْرَهُمْ عَلَى أَنْ يَجْعَلُوا لَهُمْ مِنْ تَمْرِهِمْ كَمَا جَعَلُوا لِغَيْرِهِمْ وَيَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: فَأَيْنَ الْقَوْمُ؟ قَالَ: تَرَكْتُهُمْ وَقَدْ تَجَمَّعَ مِنْهُمْ مِائَتَا رَجُلٍ وَرَاسُهُمْ وَبَرُ ابْنُ عُلَيْمٍ، قَالُوا: فَسِرْ بِنَا حَتَّى تَدُلَّنَا، قَالَ: عَلَى أَنْ تُؤَمِّنُونِي، قَالُوا: إِنْ دَلَلْتنَا عَلَيْهِمْ وَعَلَى سَرْحِهِمْ أَمَّنَّاك، وَإِلَّا فَلَا أَمَانَ لَك، قَالَ: فَذَاكَ فَخَرَجَ بِهِمْ دَلِيلًا لَهُمْ حَتَّى سَاءَ ظَنُّهُمْ بِهِ، وَأَوْفَى بِهِمْ عَلَى فَدَافِدَ (**الفدفد**: الفلاة، والمكان الصلب الغليظ والمرتفع) وَآكَامٍ (**الأكمة** – محرَّكة: التل من القف من حجارة واحدة، أو هي دون الجبال، أو الموضع يكون أشدَّ ارتفاعًا ممَّا حوله، وهو غليظ لا يبلغ أن يكون حجرًا)، ثُمَّ أَفْضَى بِهِمْ إِلَى سُهُولَةٍ فَإِذَا نَعَمٌ كَثِيرٌ وَشَاءٌ، فَقَالَ: هَذَا نَعَمُهُمْ وَشَاؤُهُمْ، فَأَغَارُوا عَلَيْهِ فَضَمُّوا النَّعَمَ وَالشَّاءَ، قَالَ: أَرْسِلُونِي! قَالُوا: لَا حَتَّى نَأْمَنَ الطَّلَبَ، وَنَذَرَ بِهِمْ الرَّاعِيَ رِعَاءَ الْغَنَمِ وَالشَّاءِ، فَهَرَبُوا إِلَى جَمْعِهِمْ فَحَذَّرُوهُمْ، فَتَفَرَّقُوا وَهَرَبُوا، فَقَالَ الدَّلِيلُ: عَلَامَ تَحْبِسُنِي؟ قَدْ تَفَرَّقَتْ الْأَعْرَابُ وَأَنْذَرَهُمْ الرِّعَاءُ، قَالَ عَلِيٌّ ﷺ: لَمْ نَبْلُغْ مُعَسْكَرَهُمْ، فَانْتَهَى بِهِمْ إِلَيْهِ فَلَمْ يَرَ أَحَدًا، فَأَرْسَلُوهُ وَسَاقُوا النَّعَمَ وَالشَّاءَ، النَّعَمُ خَمْسُمِائَةِ بَعِيرٍ، وَأَلْفَا شَاةٍ.

حَدَّثَنِي أُبَيْرُ بْنُ الْعَلَاءِ عَنْ عِيسَى بْنِ عَلِيلَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: إِنِّي لَبِوَادِي الْهَمَجِ إِلَى بَدِيعٍ (أرض من فدك، وهي مال للمغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث المخزومي، ويذكر البلاذري أنها تُسَمَّى اليوم: الحويط. البكري: معجم ٤/ ١٤٤، البلاذري: رحلات ١٩. غزوة مؤتة لبريك ١٢٥) مَا شَعَرْتُ إِلَّا بِبَنِي سَعْدٍ يَحْمِلُونَ الظُّعُنَ وَهُمْ هَارِبُونَ، فَقُلْتُ: مَا دَهَاهُمْ الْيَوْمَ؟ فَدَنَوْتُ إِلَيْهِمْ فَلَقِيتُ رَأْسَهُمْ وَبَرَ بْنَ عُلَيْمٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا الْمَسِيرُ؟ قَالَ: الشَّرُّ، سَارَتْ إِلَيْنَا جُمُوعُ مُحَمَّدٍ، وَمَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، قَبْلَ أَنْ نَأْخُذَ لِلْحَرْبِ أُهْبَتَهَا، وَقَدْ أَخَذُوا رَسُولًا لَنَا بَعَثْنَاهُ إِلَى خَيْبَرَ، فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَنَا، وَهُوَ صَنَعَ بِنَا مَا صَنَعَ، قُلْتُ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: ابْنُ أَخِي، وَمَا كُنَّا نَعُدُّ فِي الْعَرَبِ فَتًى وَاحِدًا أَجْمَعَ قَلْبٍ مِنْهُ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ أَمْرًا قَدْ أَمِنَ وَغَلُظَ، أَوْقَعَ بِقُرَيْشٍ فَصَنَعَ بِهِمْ مَا صَنَعَ، ثُمَّ أَوْقَعَ بِأَهْلِ الْحُصُونِ بِيَثْرِب، قَيْنُقَاعَ وَبَنِي النَّضِيرِ وَقُرَيْظَةَ، وَهُوَ سَائِرٌ إِلَى هَؤُلَاءِ

بِخَيْبَرَ، فَقَالَ لِي وَبَرٌ: لَا تَخْشَ ذَلِكَ! إِنَّ بِهَا رِجَالًا، وَحُصُونًا مَنِيعَةً وَمَاءً وَاتِنًا (**وتن الماء**: أي دام ولم ينقطع)، لَا دَنَا مِنْهُمْ مُحَمَّدٌ أَبَدًا، وَمَا أَحْرَاهُمْ أَنْ يَغْزُوهُ فِي عُقْرِ دَارِهِ، قُلْتُ: وَتَرَى ذَلِكَ؟ قَالَ: هُوَ الرَّأْيُ لَهُمْ، فَمَكَثَ عَلِيٌّ ﷺ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَسَّمَ الْغَنَائِمَ وَعَزَلَ الْخُمُسَ وَصَفِيَّ (**الصَّفِيُّ**: ما كان خالصًا للنبيِّ ﷺ) النَّبِيِّ ﷺ لَقُوحًا (الناقة الحلوب) تُدْعَى الْحَفِدَةَ قَدِمَ بِهَا. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٢-٥٦٣**].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢٢ -٧٢٣.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٦٢ -٥٦٣، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨٦، تاريخ الطبري (٣١٠هـ) ٢/ ٦٤٢، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٨٤-٨٥، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤١٤، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٥، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٢/ ٢٨٤، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٢٤٢، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٦٩ -٢٧٠، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٥٤-١٥٦.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٤٧٣ -٤٧٤، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٢٥.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٥٩-٦٠، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ٩٧ -٩٨، فقه السرايا للعيساوي ١٤٠ + ١٥٠، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١١٣-١٣٠.

خرائط سَرِيَّةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِلَى بَنِي سَعْدٍ بِفَدَكٍ

سرية
علي بن أبي طالب
(فَـدَك)
حيث بنو سعد بن بكر
شعبان ٦ هـ

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥٢.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة ﷺ إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من سَرِيَّةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِلَى بَنِي سَعْدٍ بِفَدَكٍ

١ ـ تربية الأبناء والأقربين على التضحية والفداء:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

٢ ـ القائد القدوة يتقدم الناس هو وأقرباؤه:

سبق تفصيله في غزوة بني قينقاع ٢ هـ.

٣ ـ أهمية جهاز المخابرات:

يقول د/ بريك: «ما ورد أنَّ سبب السرية هو تلك الأخبار التي بلغت النَّبِيَّ ﷺ عن تحرُّكات بني سعد بن بكر المعادية للمسلمين، ذلك يعطينا دلالة واضحة أنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان يتتبع أخبار الأعداء أولًا بأول.

ومثل هذه الروايات تؤكِّد لنا أنَّ رسول الله ﷺ كانت لديه شبكة شبه منظَّمة من العيون، مبثوثة بين أعدائه، جعلته دائمًا وأبدًا في الصورة معهم، يعرف سكناتهم وحركاتهم أولًا بأول، مِمَّا مكَّنه كثيرًا من القضاء على مخطَّطاتهم العدوانية ضد المسلمين ووأدها في مهدها قبل أن تستفحل، مِمَّا وفَّر على المسلمين الكثير من الجهد، وحقن الكثير من الدماء التي كانت ستسيل لو تمكَّن أولئك الأعداء من استكمال مخطَّطاتهم تلك وتنفيذها ضد المسلمين، وذلك ما كان يصبو إليه المصطفى ﷺ في جهاده مع أعدائه؛ لأنه ﷺ كان حريصًا أشدَّ الحِرْصِ على بلوغ أهدافه السامية من ذلك الجهاد المُقَدَّس بأقلِّ قدرٍ ممكنٍ من الخسائر، ودونما إراقة دماء كثيرة.

إلا ما كان من بعض أولئك الأعداء الذين كانوا يشكلون تهديدًا قويًّا ومستمرًّا للمسلمين بقواهم العسكرية والسياسية، والتي كانت تشكل حاجزًا قويًّا أمام الناس لاعتناق ما يريدون بحرِّية، فكان لا بُدَّ من الإثخان في تلك القوى المسيطرة لإضعافها والقضاء على هيمنتها في المنطقة.

إنَّ نظام المخابرات تفتخر به اليوم الدول المتقدمة ماديًّا، وله أولوية كبيرة في جيوشها المتطورة، وتمارسه بأساليب غير حضارية ارتبطت بالظلم والعدوان والغدر.

ولكنَّ الرسول القائد ﷺ كان له قصب السَّبْق فيه، كما أنه مارسه في نطاق الحرب الفروسية المشرفة، دون المساس بالأخلاقيات والمُثُل العُليا». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٢٧-١٢٨].

ويقول أ/ حوى: «إن رسول الله ﷺ كانت تأتيه أخبار تحشدات الأعداء في أوائلها، فلم يكن يفاجأ بحادثة ولا تدبير يدبره الأعداء، وهذا يجعلنا أمام أهم قضية في الحرب والسلم، وهي قضية أجهزة المخابرات، إن العالم كله قد أدرك اليوم أنه بقدر ما يكون جهاز المخابرات قويًّا فإن ذلك يعوض عليك

أشياء كثيرة ويجنبك أشياء خطيرة، صحيح أن ذلك قد يكلف ولكن مهما كانت التكلفة فالربح أكبر، إنه بالنسبة لأي نظام يشكل جهاز المخابرات عينه التي تكشف الخطأ والخطر فتتلافى الأخطاء وتستأصل الأخطار قبل وقوعها، ومهما يقال بالنسبة لأجهزة المخابرات فالمسألة أخطر وأكبر، وكل ما يمكن أن تحققه أجهزة المخابرات في العالم كان يتحقق لرسول الله ﷺ أحيانًا عن طريق عالم الأسباب وأحيانًا عن طريق الغيب، فكم من مؤامرة كشفها جبريل؈، ولكن رسول الله ﷺ مع هذا لم يكن ليغفل فذلك تكليفه، ولقد كانت تتجمع عند رسول الله ﷺ المعلومات من مصادر متعددة: سراياه الاستطلاعية، المسلمون المتخفون، المتعاطفون مع المسلمين، المعاهدون، الفراسة واستكشاف ما وراء السطور، المهم أن رسول الله ﷺ ما كان يفاجأ بتآمر داخلي أو تهديد خارجي، وهذا يجعل المسلمين في عصرنا أمام قضية يجب أن يعطوها كامل الاعتبار، مع ملاحظة الضوابط الشرعية». [**الأساس في السنة ـ السيرة لحوى ٢/ ٧١٢**].

٤ ـ دقة الرصد الحربي:

يقول أ/ الشامي: «كان مركز تجمع اليهود بعد غزوة بني قريظة هو خيبر، وكان من المتوقع أن يتابع اليهود فيها عداوتهم للرسول ﷺ؛ ولهذا كان ﷺ يتحسس أخبار خيبر وما يدور حولها».

[**من معين السيرة للشامي ٣٥٤**].

ويقول د/ الحميدي: «في هذا الخبر مثل من خبرة النبي ﷺ الحربية ودقة رصده لأعدائه، فقد علم عن تحركات بني سعد بفدك التي أرادوا بها إمداد يهود خيبر الذين قد عزموا على غزو المدينة، فأرسل هذه السرية بقيادة علي بن أبي طالب ﷺ لتفريق جمعهم والقضاء على قوتهم قبل أن ينالوا مقصدهم.

وقد نجح علي ومن معه ﷺ في تفريق جمعهم، وإرهابهم وشل قوتهم بما غنموه من أموالهم التي يستعينون بها في الحرب.

وهكذا يكون التخطيط الحربي السليم، وذلك بقطع الطريق على تجمع الأعداء الكبير حتى لا يتقوى بالإمدادات الحربية الصغيرة». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ١٨٨-١٨٩**].

ويقول د/ الغضبان: «إن هدف هذه السرية واضح، هو أن تفتت أي تحالف يمكن أن يتم بين الكفار من اليهود والمشركين من العرب، ومن أجل هذا تراقب التحركات على الساحة العربية كلها، وحتى لا يفاجأ المسلمون بموقف، يفوتهم التصرف بعده، كانت الخطة عند سيد الخلق ﷺ أن يبقى زمام المبادرة بيديه، ولا يفلت أي حدث منه، وعظمة القيادة هي التي تتلافى الأزمة قبل وقوعها، لا التي تعالجها وتعالج آثارها بعد وقوعها، وحيث انتقل ﷺ بالأمة من الدفاع إلى الهجوم، فها هي قواته تجوب الجزيرة العربية لتضرب أي تحالف يمكن أن يتم ضدها، وفي مفهوم القوة، وإثبات الوجود العسكري قبل إثبات الوجود السياسي لابد أن يشعر كل الحلفاء في الساحة أنهم أمام قوة لا تقاوم، والعبقري العظيم،

والعسكري الكبير علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي طارت شهرته في الآفاق، والذي يسبقه صيته دائمًا قبله، وخاصة بعد أن أجهز على عمرو بن عبد ود العامري في الخندق، أشهر أبطال قريش، ها هو يُري العدو الحزم والوعي وسرعة الانقضاض والمبادرة، كما كان يفعل إخوانه من الفدائيين الأنصار، وليس المهم أن تخوض المعركة وتثخن قواتك في الجراح، إنما المهم أن تهدم العدو بالرعب، وتحيط به بالإحباط، وتسلم قواتك فتية لك، وهذا الفهم العسكري هو الذي نفذ علي رضي الله عنه فقد أمسك برأس الخيط لهذا العين الذي اختارته بنو سعد بن بكر؛ ليكون رجلها الدبلوماسي والعسكري في إقامة التحالف مع يهود خيبر، وبالوقوع عليه وأسره، أصبحت كل الخيوط بيد علي ـ رضوان الله عليه ـ وأصبح رهينة عسكرية بيده، حيث نفذوا المهمة الأولى في الدلالة على الشاء والنعم، ورأى أن مهمته قد انتهت لعله يستطيع لو أفلت استدراك ما فاته، لكن وعي الزعيم الهاشمي علي رضي الله عنه، كان أكبر من أن يدعه ينطلق في هذه الصحراء يؤلب الصفوف ضد المسلمين، فاعلمه أنه لن يفلت من الأسر حتى تأمن السرية الإسلامية الطلب من العدو، ولن تأمن الطلب وهي في أرض العدو، حتى يقودها الأسير إلى معسكر قومه، وتتأكد السرية المسلمة أن جَمْع العدو قد تفرق، وقواته قد انسحبت من المواجهة.

إن اليقظة الكبرى لدى القائد العظيم علي رضي الله عنه هي دروس عسكرية عالية في مدرسة الحرب الإسلامية، يشرف على تنفيذها أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقرب الناس إليه ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهي من جهة ثانية خبرة عسكرية ضخمة في حرب الصحراء، تُضاف إلى رصيد هذا القائد البطل».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٧٧-١٧٨].

٥ ـ أهمية المسير الليلي والكتمان:

يقول د/ بريك: «تحرَّكت هذه السرية كما ورد في رواية الواقدي، وابن سعد، في مسيرٍ ليلي إلى أرض العدو، وقد كانت تلك إستراتيجية ذكية تزوَّد بها قائد السرية من مُبْتكِرِ الإستراتيجيات العسكرية رسولِ الله صلى الله عليه وسلم التي استطاع بها تحقيق مبدأ الكتمان مع أعدائه، حرمهم من معرفة نواياه، واتجاه حركة قوَّاته.

لقد كانت معظم القبائل التي غزاها النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، وبعث إليها سراياه قبائل «قوية ولها حلفاء وأنصار، فلو أنها عرفت بمسيره لسارعت بالاستعداد للقائه ولاستعانت عليه بحلفائها وأنصارها لمعاونتها يوم اللقاء، ولكن عناية الله أولًا، ثُمَّ المسير الليلي حال بينها وبين ذلك كله، فاستطاع النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بقواته القليلة بالنسبة لقوات تلك القبائل، أن يتغلَّب عليها ويقضي على نياتها العدوانية، ويُلْقِي الرُّعْبَ في نفوسها ونفوس القبائل الأخر التي سمعت بانتصار المسلمين». **[الرسول صلى الله عليه وسلم القائد لخطَّاب ٢١٦-٢١٧].**

[غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٢٨].

٦ ـ الأخذ بعنصر المباغتة والمفاجأة في الغزو:

يقول د/ بريك: «ما ورد في هذه السرية والسرايا قبلها من شن الغارة على الأعداء ومباغتتهم في ديارهم في غفلةٍ منهم، وتلك إستراتيجيةٌ اتَّبعها الرسول ﷺ مع نوعٍ معيَّنٍ من الأعداء، وهم الأعراب، حيث كان دائمًا يترصَّد أخبارهم من خلال شبكة العيون المبثوثة في ديارهم، فكان دائمًا يباغتهم في ديارهم قبل استكمال جاهزتهم واستعدادهم، فالأعراب أشداء إذا ما استعدوا جيدًا للقتال، وانتظمت صفوفهم فيه، عندها تكون مقاومتهم أكبر، وقتالهم أشرس، كما أنَّهم يستطيعون وبسرعة فائقة حشد قوَّة إمدادات كبيرة يتمكنون بها من الإطباق على أعدائهم وحصرهم من كُلِّ الجهات، وقد عرف رسول الله ﷺ ذلك من خلال تجارب سابقة معهم في الرجيع، وبئر معونة، وسرية زيد بن حارثة ﷺ الأولى إلى بني فزارة، وغيرها».

لذلك فإنَّ في شَنِّ الغارة عليهم ومباغتتهم قبل ذلك، ولو من قوة مهاجمة صغيرة تُفْقِدهم اتزانهم، وتبُثُّ الرُّعْبَ في قلوبهم [(١)]، وتثير الاضطراب والفوضى في صفوفهم، فيسهل حين ذاك السيطرة عليهم وهزيمتهم، كما حدث في هذه السرية». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٢٩].

٧ ـ نفسية العدو وسبب الهزيمة:

يقول د/ الغضبان: «وحتى نعرف الصورة لهذه السرية، وهذا الجيش في نفوس بني سعد بن بكر، نأخذ صورة من داخل معسكر العدو، ومن قلب بني سعد بن بكر، التقطها الإمام الواقدي من أحد شهود العيان الذين شهدوا المعركة، وهذه هي الميزة الكبرى التي امتاز بها الواقدي الإمام في السيرة على كُتَّاب السيرة جميعًا في التقصي الكامل للخبر.

يقول الواقدي: حَدَّثَنِي أُبَيْرُ بْنُ العَلَاءِ عَنْ عِيسَى بْنِ عَلِيلَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: إِنِّي لَبِوَادِي الهَمَجِ إِلَى بَدِيعٍ مَا شَعَرْتُ إِلَّا بِبَنِي سَعْدٍ يَحْمِلُونَ الظُّعُنَ وَهُمْ هَارِبُونَ، فَقُلْتُ: مَا دَهَاهُمْ اليَوْمَ؟ فَدَنَوْتُ إِلَيْهِمْ فَلَقِيتُ رَأْسَهُمْ وَبَرَ بْنَ عُلَيْمٍ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا المَسِيرُ؟ قَالَ: الشَّرُّ، سَارَتْ إِلَيْنَا جُمُوعُ مُحَمَّدٍ، وَمَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، قَبْلَ أَنْ نَأْخُذَ لِلحَرْبِ أُهْبَتَهَا، وَقَدْ أَخَذُوا رَسُولًا لَنَا بَعَثْنَاهُ إِلَى خَيْبَرَ، فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَنَا، وَهُوَ صَنَعَ بِنَا مَا صَنَعَ، قُلْتُ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: ابْنُ أَخِي، وَمَا كُنَّا نَعُدُّ فِي العَرَبِ فَتًى وَاحِدًا أَجْمَعَ قَلْبٍ مِنْهُ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَرَى أَمْرَ مُحَمَّدٍ أَمْرًا قَدْ أَمِنَ وَغَلُظَ، أَوْقَعَ بِقُرَيْشٍ فَصَنَعَ بِهِمْ مَا صَنَعَ، ثُمَّ أَوْقَعَ بِأَهْلِ الحُصُونِ بِيَثْرِبَ، قَيْنُقَاعَ وَبَنِي النَّضِيرِ وَقُرَيْظَةَ، وَهُوَ سَائِرٌ إِلَى هَؤُلَاءِ بِخَيْبَرَ، فَقَالَ لِي وَبَرٌ: لَا تَخْشَ ذَلِكَ! إِنَّ بِهَا رِجَالًا، وَحُصُونًا مَنِيعَةً وَمَاءً وَاتِنًا، لَا دَنَا مِنْهُمْ مُحَمَّدٌ أَبَدًا، وَمَا أَحْرَاهُمْ أَنْ يَغْزُوهُ فِي عُقْرِ دَارِهِ، قُلْتُ: وَتَرَى ذَلِكَ؟ قَالَ: هُوَ الرَّأْيُ لَهُمْ.

---

(١) المباغتة أقوى العوامل وأبعدها أثرًا في الحرب، وتأثيرها المعنوي عظيم جدًّا، وتأثيرها من الناحية النفسية يكمن فيما تحدثه من شللٍ متوقَّعٍ في تفكير القائد الخصم. الرسول القائد ﷺ لخطاب ٤٥١.

فَمَكَثَ عَلِيٌّ ﷺ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَسَّمَ الغَنَائِمَ وَعَزَلَ الخُمُسَ وَصَفِيَّ النَّبِيِّ ﷺ لَقُوحًا تُدْعَى الحَفِدَةَ قَدِمَ بِهَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٣].

فهذه نفسية قائد العدو وبر بن عليم، يتحدث عن فشل مخططه كاملًا حين بوغت بالقوات النبوية تطارد تجمعاته وتلاحق فلوله، ويعرض السر في فشل مخططه كله، حين قبض على ابن أخيه لولب الحركة كلها شجاعة ودهاء وسياسة، فهو المكلف بالصلة بيهود خيبر، وكما وصفه: «وَمَا كُنَّا نَعُدُّ فِي العَرَبِ فَتًى وَاحِدًا أَجْمَعَ قَلْبٍ مِنْهُ».

إننا نذكر على سبيل المقارنة كيف أن حركة إسلامية معاصرة، قامت بثورة مسلحة تواجه بها الطاغوت في أرضها، وقد أحكمت خطتها، وربطت خيوطها بين التحرك العسكري على مستوى الجيش، والتحرك الشعبي على مستوى المجاهدين من خلال رجل واحد انتهت عنده أسرار هذا التنسيق كله، وكيف أن الثورة ضُربت كلها، وكُشفت خيوط التحرك كله حين وقع الرجل المحور أسيرًا بيد الطاغوت، وسالت دماء المسلمين أنهارًا بعدها، ولم تزل تعاني من آثار هذه المحنة حتى اليوم، ومن هنا ندرك عظمة القائد الفتي علي ﷺ حين أخذ الرجل المحور أسيرًا بين يديه، أنهى به حربًا، وخضد به شوكة كان يمكن أن تؤذي المسلمين فترة طويلة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٧٨-١٧٩].

٨ ـ أهمية الحرب الاقتصادية على الأعداء:

يقول د/ بريك: «وفي الاستيلاء على أموال الأعراب التي كانت في غالبها من الماشية والإبل، إضعافٌ لهم اقتصاديًّا؛ لأنَّها تعدُّ عصب حياتهم اليومية، لاعتمادهم عليها كثيرًا، كما أنَّ في ذلك تحفيزًا للمسلمين وتشجيعًا لهم للغزو في سبيل الله لإصابة الغنائم الدنيوية العاجلة، إضافةً لما رُصِدَ لهم من الأجر العظيم عند الله، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أنَّ ذلك يعدُّ دافعًا وهدفًا من أهداف الجهاد في سبيل الله بقدر ما هو ممارسة المسلمين لحقهم المشروع في الغنائم التي أحلَّها الله لهذه الأُمَّة واختصَّها به دون غيرها من الأُمم السابقة.

كما أنَّ ذلك يُعَدُّ تمشيًا مع عادة قديمة متَّبعة لدى العرب في حروبهم في الجاهلية أبقى عليها الإسلام بعد تنظيمها وتقنينها وفق أنظمة الشريعة الإسلامية». [غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية لبريك ١٢٩-١٣٠].

٩ ـ جواز الاستيلاء على أموال الحربيين:

سبق تفصيله في سرية حمزة ﷺ إلى العيص ٢ هـ.

ويقول الإمام ابن القيم: «أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا سَمِعَ بِقَصْدِ عَدُوِّهِ لَهُ وَفِي جَيْشِهِ قُوَّةٌ وَمَنَعَةٌ لَا يَقْعُدُ يَنْتَظِرُهُمْ بَلْ يَسِيرُ إِلَيْهِمْ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٤٧٩].

١٠ ـ تأديب المساعدين لليهود:

يقول أ/ الشامي: «كانت هذه السرية تأديبًا لكل من تسول له نفسه مساعدة اليهود في بغيهم المتوقع، حيث علمت تلك القبائل أن عين المدينة يقظة لكل ما يدور حولها، وأن جميع التحركات كانت تحت المراقبة». [من معين السيرة للشامي ٣٥٤].

١١ ـ رجال تربية النصر:

يقول د/ الغضبان: «ولتربية النصر إذن رجالها، ولا عجب أن يكون ثلاثة من العشرة المبشرين بالجنة واللذين قد أُعدوا من قبل تدريبًا وخلقًا، وعسكرية، وعبقرية؛ ليؤدوا دورهم في هذه المرحلة، فالصديق من جهة وابن أبي طالب من جهة أخرى هما الخميرتان الضخمتان المعدتان للتهيئة الفاصلة مع العدو، وعبد الرحمن بن عوف الذي قاد الجموع إلى أقصى الجزيرة، وأقام عرينًا للإسلام هناك، إضافة إلى زيد ﷺ الذي كان بطل هذه المرحلة». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٧٩-١٨٠].

١٢ ـ دروس سبق تفصيلها:

ينظر الدروس المستفادة من السرايا قبل بدر الكبرى وبين بدر وأحد.

الفصل السادس عشر
سَرِيَّةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ ﷺ
لِقَتْلِ الْيُسَيْرِ بْنِ رِزَامٍ اليهودي
شوال ٦هـ/فبراير (شباط) ٦٢٨م/ أمشير ٣٤٤ قبطي

المبحث الأول
عرض سَرِيَّةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ ﷺ
لِقَتْلِ الْيُسَيْرِ بْنِ رِزَامٍ اليهودي

تاريخ السرية:

أرخها الواقدي وكاتبه ابن سعد في شوال سنة ست من مهاجر رسول الله ﷺ [ينظر: المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٦، والطبقات لابن سعد ٢/ ٨٨، واللفظ له]، بينما ذكرها خليفة ضمن السرايا التي كانت سنة خمس [ينظر: تاريخ خليفة بن خياط ص٧٧]، وأوردها البيهقي وابن القيم بعد فتح خيبر.

[ينظر: دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٩٣-٢٩٤، وزاد المعاد لابن القيم ٣/ ٣٦٠].

قال الصالحي: «قال في النور: وهو الذي يظهر؛ فإنهم قالوا: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك ليستعملك على خيبر، وهذا الكلام لا يناسب أن يقال: إنها قبل الفتح، والله أعلم.

قلت: كونها قبل خيبر أظهر، قال في القصة: إنه سار في غطفان وغيرهم لحرب رسول الله ﷺ بموافقة يهود ذلك، وذلك قبل فتح خيبر قطعًا إذ لم يصدر من يهود بعد فتح خيبر شيء من ذلك، وقول الصحابة لأسير بن رزام: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك ليستعملك على خيبر لا ينافي ذلك؛ لأن مرادهم باستعماله المصالحة وترك القتال والاتفاق على أمر يحصل له بذلك، والله أعلم». [سبل الهدى والرشاد للشامي ٦/ ١٧٨].

أُسَيْرُ بْنُ رِزَامٍ الْيَهُودِيُّ:

يقول د/ بريك: «بعد أن نجحت سرية المغاوير الخزرجية باغتيال أبي رافع زعيم يهود خيبر بعد حُيي بن أخطب اختارت اليهود رجلًا شجاعًا منهم ليكون أميرًا عليهم.

قال ابن سعد: «ثُمَّ سَرِيَّةُ عَبدِ الله بنِ رَواحَةَ ﷺ إِلَى أُسَير بن زارِم اليَهوديِّ بِخَيبَرَ في شَوَّالَ سَنَةَ سِتٍّ مِن مُهاجَر رَسُولِ الله ﷺ، قَالُوا: لَـمَّا قُتِلَ أَبو رافِعٍ سَلَامُ بن أَبِي الحُقَيق أَمَّرَت يَهودُ عَلَيهم أُسَيرَ بنَ زارِمٍ».

[الطبقات الكبرى ٢/ ٨٨].

واختلفت المصادر التاريخية في اسمه واسم أبيه، فمنها ما سماه أُسير بن زارم (سماه كذلك الواقدي، مغازي ٢/ ٥٦٦، وتابعه كاتبه ابن سعد، طبقات ٢/ ٨٨)، وقيل: ابن رزام (ذكر ذلك ابن هشام في زياداته، ابن هشام، سيرة ٣/ ٦١٨)، ويقال: ابن رقرام (ورد اسمه هكذا في الإصابة. ابن حجر، إصابة ٢/ ٣٠٦، ولعل ذلك تصحيف رزام؛ لأن

كتاب الإصابة المتداول غير محقق علميًّا وتكثر فيه التصحيفات)، ولكن الأكثر على أنه اليُسير بن رزام. (وقع ذلك في روايات عروة. ينظر: دلائل النبوة لأبي نعيم ٢/ ٥١٧، وعيون الأثر لابن سيد الناس ٢/ ١٦٤، وفي روايات الزهري. ينظر: دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٩٤، ومرويات موسى بن عقبة في المغازي لباقشيش٢/ ٤٣١-٤٣٢، وفي رواية ابن إسحاق. ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ٦١٨).

وما أن تقلد اليسير مهام منصبه كزعيم اختير تقديرًا لشجاعته حتى أصرَّ على أن يثبت لهم أنه أهل لهذا الاختيار، فقرر إكمال مهمة سلفه والقيام بمحاولة جديدة لحشد اليهود وحلفائهم غطفان وتوجيه طاقاتهم لمباغتة المسلمين في عقر دارهم». [السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٨٢].

قال الواقدي: فَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي حَبِيبَةَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: كَانَ أُسَيْرٌ رَجُلًا شُجَاعًا، فَلَـمَّا قُتِلَ أَبُو رَافِعٍ أَمَّرَتْ الْيَهُودُ أُسَيْرَ بْنَ زَارِمَ، فَقَامَ فِي الْيَهُودِ فَقَالَ: **إِنَّهُ وَاللهِ مَا سَارَ مُحَمَّدٌ إِلَى أَحَدٍ مِنْ الْيَهُودِ إِلّا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فَأَصَابَ مِنْهُمْ مَا أَرَادَ، وَلَكِنِّي أَصْنَعُ مَا لَا يَصْنَعُ أَصْحَابِي**، فَقَالُوا: **وَمَا عَسَيْتَ أَنْ تَصْنَعَ مَا لَمْ يَصْنَعْ أَصْحَابُكَ؟** قَالَ: **أَسِيرُ فِي غَطَفَانَ فَأَجْمَعُهُمْ**، فَسَارَ فِي غَطَفَانَ فَجَمَعَهَا، ثُمَّ قَالَ: **يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ! نَسِيرُ إِلَى مُحَمَّدٍ فِي عُقْرِ دَارِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُغْزَ أَحَدٌ فِي دَارِهِ إِلَّا أَدْرَكَ مِنْهُ عَدُوُّهُ بَعْضَ مَا يُرِيدُ**، قَالُوا: **نِعْمَ مَا رَأَيْتَ**. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٦].

[يقول د/ بريك: «جميع مرويات الخبر لا تخلو من مقال، ولكنه قد يقوى بتعدد طرقه، وقد ذكر د/ باقشيش أن الحديث لا ينزل عن درجة الحسن لغيره. مرويات موسى بن عقبة ٢/ ٤٣١». السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٨٥].

يقول أ/ باشميل: «وفعلًا، غادر أسير بن زارم خيبر لتنفيذ خطته العدوانية ضد المسلمين، فذهب إلى مناطق القبائل النجدية (غطفان وغيرها من القبائل المحيطة بالمدينة) وصار يتنقل بين مضارب البدو ومخيمات العشائر الوثنية يحرضها على حرب رسول الله ﷺ ويجمعها لغزو المدينة.

وكان كسلفيه (حيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق) يستخدم المال لرشوة زعماء العشائر الوثنية ليحشدوا له أكبر عدد ممكن من الرجال لحرب النبي ﷺ، تمامًا كما فعل حي بن أخطب وباقي زعماء خيبر عندما سعوا بين أعراب نجد وعشائر الحجاز فجمعوا تلك الجيوش الجرارة التي جاؤوا يقودونها في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة فاندحروا ذلك الاندحار الشنيع». [صلح الحديبية لباشميل ٩٦].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ الْيُسَيْرِ بْنِ رِزَامٍ أَنَّهُ كَانَ بِخَيْبَرِ يَجْمَعُ غَطَفَانَ لِغَزْوِ رَسُولِ الله ﷺ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ عَبْدَ الله بْنَ رَوَاحَةَ ﵁ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْهُمْ عَبْدُ الله بْنُ أُنَيْسٍ ﵁، حَلِيفُ بَنِي سَلِمَةَ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦١٨].

وقال الواقدي: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: وَقَدِمَ عَلَيْهِ خَارِجَةُ بْنُ حُسَيْلٍ الْأَشْجَعِيُّ، فَاسْتَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ مَا وَرَاءَهُ، فقال: **تركتُ أُسَيْرَ بْنَ زَارِمَ يَسِيرُ إِلَيْكَ فِي كَتَائِبِ الْيَهُودِ**. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٦-٥٦٧].

الاستخبارات النبوية في خيبر:

إن عين رسول الله ﷺ لا تنام عن أعداء الإسلام المتربصين ولا تغفل عن تحركاتهم العدوانية ضد قاعدته الحصينة. [**السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٨٢**].

يقول أ/ باشميل: «ولم تكن المدينة غافلة عن التحركات المشبوهة التي يقوم بها اليهود في خيبر ضد المسلمين، فقد جعلتهم أعمال الخيانة التي قام بها اليهود في غزوة الأحزاب على حذر دائم وتنبه مستمر لكل حركة أو سكنة تقوم بها الزعامة اليهودية في منطقة خيبر.

ولذلك فقد تبلَّغ النبي ﷺ من عيونه على اليهود نبأ المشروع العدواني الذي أخذ أسير بن رزام (ملك خيبر الجديد) في الإعداد لتنفيذه ضد المسلمين.

وكان هذا كافيًا لقيام النبي ﷺ بقتل هذا اليهودي المتآمر الخطير، إلا أن النبي القائد ﷺ أحب التأكد من هذه الأنباء قبل الإقدام على أي عمل كما هي عادته ﷺ في تحري الأمور وعدم التسرع في تصديق كل ما يصل إلى أذنه من أخبار.

عبد الله بن رواحة ﷺ في خيبر:

فاستدعى ثلاثة من أصحابه على رأسهم عبد الله بن رواحة ﷺ وأمره ﷺ بأن يذهب مع صاحبيه إلى خيبر للتحري عن الذي بلغه من اعتزام أسير بن رزام تحشيد الأعراب وقيادتهم لغزو النبي ﷺ، ومحاربته في المدينة.

فصدع عبد الله بن رواحة ﷺ بالأمر وانطلق مع صاحبيه حتى دخلوا خيبر متنكرين، وبعد التحري والبحث وجدوا أن الخبر كان صحيحًا كما بلغ النبي ﷺ». [**صلح الحديبية لباشميل ٩٧**].

لقد أرسل ﷺ «دورية استطلاع منطقة» (استطلاع المنطقة: مجموعة معلومات عن العدو أو الأرض أو الاثنين معًا داخل الحدود المعينة، قد يستخدم عندما يكون الموقف غامضًا ويتطلب استطلاعًا على جبهة عريضة. باهر عبد الهادي مصطلحات ١٦) صغيرة إلى خيبر قوتها ثلاثة أفراد بإمرة قائد خبير بمنطقة خيبر وأهلها هو عبد الله بن رواحة ﷺ». [**السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٨٣**].

قال الْوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ يَعْقُوبَ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ قَالَ: سَمِعْتُ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ قَالَ: غَزَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ ﷺ خَيْبَرَ مَرَّتَيْنِ: بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ الْبَعْثَةَ الْأُولَى إِلَى خَيْبَرَ فِي رَمَضَانَ فِي ثَلَاثَةِ نَفَرٍ يَنْظُرُ إِلَى خَيْبَرَ، وَحَالِ أَهْلِهَا وَمَا يُرِيدُونَ وَمَا يَتَكَلَّمُونَ بِهِ، فَأَقْبَلَ حَتَّى أَتَى نَاحِيَةَ خَيْبَرَ فَجَعَلَ يَدْخُلُ الْحَوَائِطَ، وَفَرَّقَ أَصْحَابَهُ فِي النَّطَاةِ، وَالشَّقِّ، وَالْكَتِيبَةِ (النطاة والشق والكتيبة من آطام خيبر. وفاء الوفا ٢/ ٣٣٠، ٣٦٤، ٣٨٣)، وَوَعَوْا مَا سَمِعُوا مِنْ أُسَيْرٍ وَغَيْرِهِ، ثُمَّ خَرَجُوا بَعْدَ إِقَامَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِلَيَالٍ بَقِينَ مِنْ رَمَضَانَ، فَخَبَّرَ النَّبِيَّ ﷺ بِكُلِّ مَا رَأَى وَسَمِعَ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى أُسَيْرٍ فِي شَوَّالٍ. [**المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٦**].

رأى النبي ﷺ أنه لا بد من القيام بعمل حاسم لدرء خطر هذا اليهودي الشرير؛ لئلا تتعرض المدينة لغزوة أحزاب أخرى قد يصعب على المسلمين النجاة من أهوالها.

توجه السرية إلى خيبر:

استدعى ﷺ ثلاثين من أصحابه وأعطى قيادتهم لعبد الله بن رواحة ﷺ، وأمره بأن يتوجه برجاله إلى خيبر، وأن يتصل أولًا بأسير بن رزام ويحاول بالطرق السلمية إقناعه بالتخلي عن فكرة الحشد ومحاربة المسلمين، وأن يجنح للسلم والتفاوض مع النبي ﷺ. [صلح الحديبية لباشميل ٩٨].

قال الواقدي: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: فَنَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ، فَانْتُدِبَ لَهُ ثَلَاثُونَ رَجُلًا.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ ﷺ: فَكُنْتُ فِيهِمْ، فَاسْتَعْمَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ ﷺ.

فَحَدَّثَنِي خَارِجَةُ بْنُ الْحَارِثِ عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْت أُصْلِحُ قَوْسِي، قَالَ: فَجِئْتُ فَوَجَدْتُ أَصْحَابِي قَدْ وُجِّهُوا إِلَى أُسَيْرِ بْنِ زَارِمَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا أَرَى أُسَيْرَ ابْنَ زَارِمَ!**»، أَيْ أُقْتُلْهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٧، ٥٦٨].

انطلقت السرية إلى هدفها في خيبر بعد الاتفاق على خطة استدراجية مغايرة تمامًا لخطة الفرقة الخزرجية التي قتلت أبا رافع، ومشابهة لخطة الفرقة الأوسية التي قتلت كعب بن الأشرف، وكانت ترتكز أساسًا على تقرير الدورية الاستطلاعية الذي ورد فيه معلومات دقيقة عن اليُسير وشخصيته، فوضعت الخطة بناء على ذلك. [السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٨٤].

رجال السرية مع ملك خيبر:

في أوائل شهر شوال من تلك السنة تحرك عبد الله بن رواحة ﷺ في ثلاثين راكبًا نحو خيبر، وحتى إذا ما وصلوا مشارفها بعث الأمير عبد الله بن رواحة ﷺ إلى ملكها (أسير): بأنه يرغب في مفاوضته ويطلب منه الأمان والسماح له ولرجاله بدخول خيبر قائلًا: (نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له؟) فوافق (أسير) على طلبهم قائلًا: نعم، ولي منكم مثل ذلك، فقالوا: نعم. [الطبقات لابن سعد ٢/ ٨٨].

وبعد أن وثق كل من الفريقين بأمان الآخر، دخل عبد الله بن رواحة ﷺ برجاله مدينة خيبر، ولدى اجتماعه بملكها (أسير بن زارم) أبلغه بأنه يحمل إليه رسالة شفوية من النبي ﷺ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا قَدِمُوا عَلَيْهِ كَلَّمُوهُ وَقَرَّبُوا لَهُ، وَقَالُوا لَهُ: **إِنَّكَ إِنْ قَدِمْتَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ اسْتَعْمَلَكَ وَأَكْرَمَكَ**. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦١٨].

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ ﷺ: فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا خَيْبَرَ فَأَرْسَلْنَا إِلَى أُسَيْرٍ: **إِنَّا آمِنُونَ حَتَّى نَأْتِيَكَ فَنَعْرِضَ عَلَيْك مَا جِئْنَا لَهُ؟** فَقَالَ: **نَعَمْ، وَلِي مِثْلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ؟** قُلْنَا: **نَعَمْ**، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، فَقُلْنَا: **إِنَّ رَسُولَ اللهِ بَعَثَنَا إِلَيْكَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْهِ فَيَسْتَعْمِلَكَ عَلَى خَيْبَرَ وَيُحْسِنَ إِلَيْك**، فَطَمِعَ فِي ذَلِكَ وَشَاوَرَ الْيَهُودَ فَخَالَفُوهُ فِي الْخُرُوجِ،

وَقَالُوا: مَا كَانَ مُحَمَّدٌ يَسْتَعْمِلُ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ: بَلَى، قَدْ مَلِلْنَا الْحَرْبَ.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٧، الطبقات الكبير لابن سعد ٢/ ٨٨].

كانت الرسالة تتضمن دعوة ملك اليهود (أسير) للذهاب إلى المدينة ليقابل النبي ﷺ بنفسه لينهوا حالة الحرب القائمة بين الفريقين على أن يبقيه النبي ﷺ أميرًا على خيبر.

خروج ملك خيبر إلى المدينة:

يقول أ/ باشميل: «ولدى عرض هذه الدعوة على ملك خيبر طلب من المبعوث النبوي إعطاءه مهلة للتشاور مع بقية زعماء خيبر.

ولدى اجتماع (أسير) ببقية الزعماء اليهود أخبرهم بفحوى الدعوة النبوية له إلى المدينة، وطلب استشارتهم، فأشاروا عليه بأن لا يجيب هذه الدعوة وأن لا يذهب إلى المدينة.

ولكن (أسيرًا) خالفهم في رأيهم وقرر الذهاب إلى المدينة لمقابلة النبي ﷺ كما دعاه.

ولما كان أسير ملكًا، فلم يعترض باقي زعماء خيبر على قراره، فخرج في ثلاثين من خلصاء أصحابه بصحبة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وقومه». [صلح الحديبية لباشميل ٩٩].

ويقول د/ بريك: «تردد اليُسير في البداية، ولكنهم ما زالوا به يغرونه ويمنُّونه حتى طمع فيما قالوا، وشاور اليهود فخالفوه في الخروج، ولكنه أصرَّ عليه فخرج في رفقة ثلاثين يهوديًّا لحراسته ركب كل منهم مع رديف من المسلمين أفراد السرية، وحمل عبد الله بن أنيس رضي الله عنه اليُسير على بعيره».

[السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٨٤].

كيف قُتل ملك خيبر:

يقول أ/ باشميل: «لقد كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وأصحابه أمناء في أداء رسالة النبي ﷺ إلى ملك خيبر (أُسير) وصادقين فيما أعطوا من عهد بالأمان لملك خيبر وأصحابه، ولم تراودهم أية فكرة عن قتل هؤلاء اليهود أثناء الطريق؛ لأن الغدر جريمة كبرى حرَّمها الإسلام وخاصة بمن أُعطي عهدًا وأمانًا».

[صلح الحديبية لباشميل ٩٩-١٠٠].

حاولوا الغدر فقُتلوا:

يقول أ/ باشميل: «غير أن طبيعة الغدر المتأصلة في اليهود جعلت عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وأصحابه يكونون على حذر دائم من غدرهم.

ولهذا جعل كل رجل من أصحاب ابن رواحة رجلًا من أصحاب ابن (رزام) رديفًا خلفه.

وبينما كانوا سائرين في اتجاه المدينة حاول اليهود الغدر بالمسلمين، فقد أهوى أسير بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس رضي الله عنه ليقتله، إلا أنه كان أسرع منه إذ فطن لذلك، فانتزع السيف من يده وقتله، ثم دارت معركة بين بقية الركب تمكن فيها المسلمون من القضاء على أُسير وجماعته ما عدا رجلًا واحدًا تمكن من الفرار». [صلح الحديبية لباشميل ١٠٠].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى خَرَجَ مَعَهُمْ فِي نَفَرٍ مِنْ يَهُودَ، فَحَمَلَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ ﷺ عَلَى بَعِيرِهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْقَرْقَرَةِ مِنْ خَيْبَرَ، عَلَى سِتَّةِ أَمْيَالٍ نَدِمَ الْيَسِيرُ بْنُ رِزَامٍ عَلَى مَسِيرِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَفَطَنَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ ﷺ، وَهُوَ يُرِيدُ السَّيْفَ فَاقْتَحَمَ بِهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَ رِجْلَهُ، وَضَرَبَهُ الْيَسِيرُ بِمِخْرَشٍ (المجن، وهو عصا معقوفة يجذب بها البعير ونحوه) فِي يَدِهِ مِنْ شَوْحَطٍ (شجر من النبع تتخذ منه القسي)، فَأَمَّهُ (جرحه في رأسه. **والشجة المأمومة**: التي تبلغ أم الرأس وهي الجلدة التي تجمع الدماغ)، وَمَالَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رسول الله ﷺ عَلَى صَاحِبِهِ مِنْ يَهُودَ فَقَتَلَهُ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا أَفْلَتَ عَلَى رِجْلَيْهِ.

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦١٨-٦١٩].

وقال الواقدي: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ ﷺ: فَخَرَجَ مَعَهُ ثَلَاثُونَ رَجُلًا مِنْ الْيَهُودِ، مَعَ كُلِّ رَجُلٍ رَدِيفٌ مِنْ الـمُسْلِمِينَ.

قَالَ: فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِقَرْقَرَةِ ثِبَارٍ (قاع جنوب خيبر بين الحرة والصهباء المعروفة اليوم باسم جبل عطوة، على ستة أكيال من خيبر يقسمه الطريق إلى المدينة، ويسمى اليوم قعقران. البلادي، معجم ٢٥٣، وقد ذكر البكري أنها تسمى قرقرة الكدر. البكري، معجم ٣/ ١٠٦٦، وفاء الوفا ٢/ ٢٧٣. السرايا والبعوث لبريك ١٨٤) نَدِمَ أُسَيْرٌ حَتَّى عَرَفْنَا النَّدَامَةَ فِيهِ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ ﷺ: وَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى سَيْفِي فَفَطِنْت لَهُ، قَالَ: فَدَفَعْت بَعِيرِي، فَقُلْتُ: **غَدْرًا أَيْ عَدُوَّ اللهِ**، ثُمَّ تَنَاوَمْتُ فَدَنَوْتُ مِنْهُ لِأَنْظُرَ مَا يَصْنَعُ فَتَنَاوَلَ سَيْفِي [فَعَلَ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ]، فَغَمَزْتُ بَعِيرِي وَقُلْتُ: هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَنْزِلُ فَيَسُوقُ بِنَا؟ فَلَمْ يَنْزِلْ أَحَدٌ، فَنَزَلْتُ عَنْ بَعِيرِي، فَسُقْتُ بِالْقَوْمِ حَتَّى انْفَرَدَ أُسَيْرٌ فَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ، فَقَطَعْتُ مُؤَخِّرَةَ الرِّجْلِ وَأَنْدَرْتُ (أسقطه، ويقال ضرب يده بالسيف فأندرها) عَامَّةَ فَخِذِهِ وَسَاقِهِ، وَسَقَطَ عَنْ بَعِيرِهِ وَفِي يَدِهِ مِخْرَشٌ مِنْ شَوْحَطٍ، فَضَرَبَنِي فَشَجَّنِي مَأْمُومَةً، وَمِلْنَا عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَتَلْنَاهُمْ كُلَّهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَعْجَزَنَا شَدًّا، وَلَمْ يُصَبْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ.

[المغازي للواقدي٢/ ٥٦٧-٥٦٨، الطبقات الكبير لابن سعد ٢/ ٨٨].

استقبال النبي ﷺ لرجال السرية:

قال الواقدي: قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُنَيْسٍ ﷺ: ثُمَّ أَقْبَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَبَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ إِذْ قَالَ لَهُمْ: «**تَمَشُّوْا بِنَا إِلَى الثَّنِيَّةِ نَتَحَسَّبُ مِنْ أَصْحَابِنَا خَبَرًا**»، فَخَرَجُوا مَعَهُ، فَلَـمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الثَّنِيَّةِ، فَإِذَا هُمْ بِسَرَعَانِ أَصْحَابِنَا.

قَالَ: فَجَلَسَ رَسُولُ الله ﷺ فِي أَصْحَابِهِ، قَالَ: وَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِ فَحَدَّثْنَاهُ الْحَدِيثَ، فَقَالَ: «**نَجَّاكُمُ اللهُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِـمِينَ!**». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٨، الطبقات الكبير لابن سعد ٢/ ٨٨].

معالجة جرح ابن أنيس رضي الله عنه ووسام النبي ﷺ له:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَـمَّا قَدِمَ عَبْدُ الله بْنُ أُنَيْسٍ رضي الله عنه عَلَى رَسُولِ الله ﷺ تَفَلَ عَلَى شَجَّتِهِ فَلَمْ تَقِحْ وَلَمْ تُؤْذِهِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦١٨].

قال الواقدي: قَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُنَيْسٍ رضي الله عنه: فَدَنَوْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَنَفَثَ فِي شَجَّتِي، فَلَمْ تَقِحْ بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَمْ تُؤْذِنِي، وَقَدْ كَانَ الْعَظْمُ فُلَّ، وَمَسَحَ عَلَى وَجْهِي وَدَعَا لِي، وَقَطَعَ قِطْعَةً مِنْ عَصَاهُ، فَقَالَ: «**أَمْسِكْ هَذَا مَعَكَ عَلَامَةً بَيْنِي وَبَيْنَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْرِفُكَ بِهَا، فَإِنَّكَ تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُتَخَصِّرًا** (أي : يأخذ بيده مخصرة، وهي العصا)»، فَلَـمَّا دُفِنَ جُعِلَتْ مَعَهُ تَلِي جَسَدَهُ دُونَ ثِيَابِهِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٨].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: مرويات الزهري (١٢٤هـ) في المغازي للعواجي ١/ ٥٤٣ – ٥٤٤، السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦١٨–٦١٩، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٦٦–٥٦٨، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨٨، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/ ٢٩٣–٢٩٤، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤١٧، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٦١ –٣٦٢، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٦٠، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٣٥٩–٣٦٠، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٧١ –٢٧٢، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٧٦–١٨٠.

ب ـ كتب السيرة الحديثة: السيرة النبوية لرزق الله ٤٧٦ –٤٧٧، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٣٣–٣٣٤.

ج ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٩٥–١٠٠، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١٠٤–١٠٦، فقه السرايا للعيساوي ١٤١ + ١٥١، السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٨١–١٨٥.

خرائط سَرِيَّةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ ﵁

(١)

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥٧.

وينظر خرائط سرية محمد بن مسلمة ﵁ إلى نجد.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من سَرِيَّةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ ﵁
لِقَتْلِ الْيُسَيْرِ بْنِ رِزَامٍ اليهودي

١ ـ طبيعة الأحداث ومهمة السرية:

يقول د/ الغضبان: «طبيعة الأحداث تقتضي أن يتم هذا السير إلى خيبر، فاليهود قد فجعوا بمقتل زعيمهم أبي رافع، واختاروا زعيمًا جديدًا ليثأر لهم من محمد ﷺ وأصحابه، وغطفان إنما تتحرك بإيحاء مستمر من اليهود، فهذان العدوَّان المحيطان بالمدينة، لابد من مواجهتهما وكسر شوكتهما، وإدخال الرعب والرهبة في قلوبهم؛ ولذلك ما إن انتهت في شعبان سرية زيد بن حارثة ﵁ إلى أم قرفة وبني فزارة، حتى تحركت في مستهل رمضان سرية الثلاثة تتحسس أخبار يهود خيبر وتحركاتهم المريبة، وثبت للقائد الأعظم ﷺ أن التخطيط الخبيث الماكر لم ينته، وأن مقتل أبي رافع لم ينه حرب يهود خيبر وحقدهم، إنما أججها اشتعالًا، فهم يسعون في الأرض فسادًا كما وصفهم الله تعالى، ويشعلون نار الحرب كلما أتيح لهم ذلك». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٨٩].

ويقول أ/ الشامي: «لم تكن مهمة هذه السرية ـ فيما يبدو من النصوص التي أوردتها كتب السيرة ـ هي قتل أُسير، حيث خرج معهم وكل فريق قد أمن الآخر، ولكن مبادرته بالغدر هي التي أودت بحياته وحياة من كان معه، ولعل الرسول ﷺ كان يريد إبرام معاهدة معه، تكون نهاية لتحريض اليهود ضده، ولكن ذلك لم يتم بسبب ما حدث». [من معين السيرة للشامي ٣٥٥].

٢ ـ السَّرِيَّة الأنصارية:

يقول د/ الغضبان: «وأن تُختار السرية من الأنصار لمواجهة اليهود فهذا أمر طبيعي، فالأنصار هم أدرى الناس بهم حربًا وسلمًا، وهم أكثر الناس دربة على فن التعامل معهم، ومن أجل هذا كان أمير السرية عبد الله بن رواحة ﵁ أحد أعضاء الحكومة الإسلامية، أي أحد النقباء الاثني عشر، فهو سيد قومه بني الحارث بن الخزرج الذين يمثلون الخيرية الثالثة في قبائل الأنصار بعد بني النجار وبني الأشهل، وكان معه البطلان العظيمان اللذان ساهما في اغتيال قادة اليهود وهما عبد الله بن أنيس، وعبد الله بن عتيك، فهما خبيرا حرب العصابات في مدرسة النبوة، فابن عتيك وابن أنيس هما اللذان نفذا عملية مقتل أبي رافع، وعند أحدهم خبرة بلهجة اليهود حيث يرطن بلغتهم». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٩٠].

٣ ـ الحوار والمباحثات السلمية:

يقول د/ الغضبان: «كانت الخطة النبوية هي محاولة إيقاف نهر الدم بين اليهود والمسلمين ابتداء، حين ابتعث السرية الثلاثين إلى أُسير بن رزام ملك اليهود، وعقد هدنة مؤقتة معهم من خلال تتويج أُسير

عليهم، وإيجاد نوع من التحالف معهم؛ ولذلك كان دور عبد الله بن رواحة ﷺ في هذا الاتجاه، ونجحت المباحثات، وجاء أُسير وثلاثون معه إلى المدينة ليتم عقد المعاهدة فيها بإقرار رسول الله ﷺ، فشوكة خيبر قوية وقد تجمع يهود الجزيرة العربية جميعًا فيها، وحصونها من القوة والمنعة ما يجعلها تقف أمام أي هجوم شهورًا طوالًا، وإذا كان رسول الله ﷺ قد اعترف بالوجود اليهودي في المدينة وتعايش معه عندما وفى بعهده، وأنهاه عندما غدر، فلا غرو أن يعترف به خارج المدينة، ضمن خيط أمل ضعيف هو عودة أهل الكتاب إلى رشدهم، وإمكانية استئناف الحوار والمباحثات السلمية لعلها تجلو القلوب من الحقد، وتفتح مجال الدعوة إلى الله من جديد.

وكانت تجربة دومة الجندل مع النصارى تجربة فائقة النجاح آنذاك فيمكن أن تتكرر هذه التجربة مع اليهود ومع زعيمهم الجديد أسير بن رزام؛ ومن أجل ذلك دفع بقادة الدعوة من الرعيل الأول ليحققوا هذا الهدف». [التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٩٠].

٤ ـ تأكيد على الحقد اليهودي على المسلمين:

يقول د/ الغضبان: «غير أن الحقد اليهودي الذي أشرب قلوبهم والسم الذي ينفثونه على المسلمين هو الذي غلب آخر الأمر، وأفسد الخطة كلها، ورسول الله ﷺ سيد الخلق لا ينظر للقضية من زاوية واحدة فقط، إنما يضع كل الاحتمالات الممكنة في هذه القضية.

ومن أول وأهم هذه الاحتمالات هو عملية الغدر اليهودي والنكس الذي هو جزء أساسي من تفكيرهم وتكوينهم، وهذا هو سر وجود البطلين العظيمين معهما وغيرهما من مدرسة المدينة؛ ليحققوا الهدف في المواجهة إن نكث القوم العهد، وصح ما توقعه ﷺ، من أن القوم جُبلوا على الغدر، ولا يمكن لهم أن يتعاملوا تعامل الشرفاء مع الآخرين.

ولم يكن ركوب عبد الله بن أنيس ﷺ مع أسير بن رزام عَرَضًا، إنما هو ركوب مخطط لهذا البطل الذي لا يعرف قلبه الخوف عندما حدثنا عن نفسه، فقال: **يَا رَسُولَ اللهِ! مَا فَرِقْتُ مِنْ شَيْءٍ قَطُّ**.

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٣٢].

إنه البطل الذي جُرِّب قبل الآن، وجاء برأس سفيان بن خالد بن نبيح الهذلي شيطانهم المارد الذي كان يجمع الجموع لغزو المدينة، وهو البطل الذي نظر رسول الله ﷺ إلى سيفه في مقتل أبي رافع، فقال: «**هَذَا قَتَلَهُ أَرَى فِيهِ أَثَرَ الطَّعَامِ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٧٥].

ولذلك من حدة يقظته، ما أن رأى بوادر الغدر تبرز من أُسير حتى بيَّت قتله قبل أن ينفِّذ غدرته، فنزل يقود به بعيره حتى انفرد به وانقض عليه انقضاض الصاعقة بسيفه البتار وأطاح معظم فخذه وساقه وقطع مؤخرة الرِّجل.

ولم يكن أُسير بالرجل العادي، فقد كان أُسير رجلًا شجاعًا كما وُصف، فدافع عن ذاته بالمخرش الذي في يده وشج رأس ابن أنيس ﷺ شجة منكرة بلغت العظم في أم رأسه، ولكن هذا لم يحل دون قتل ابن رزام.

وكانت خطة مُعدَّة، فمع مقتل أُسير الذي أراد الغدر، فلابد من مقتل أصحابه وعددهم كعدد السرية المسلمة، وإذا كان شجعان اليهود رياحًا، فقد لاقوا أعاصير حولهم، فالكتيبة مدربة أحسن تدريب، ومعدة أعظم إعداد بحيث إن الثلاثين من المسلمين قتلوا الثلاثين من اليهود، إلا فردًا واحدًا أعجزهم هربًا، وفرَّ إلى قومه يحدثهم عما لاقوه من جِنِّ المسلمين، بعد أن كانوا يمنون قومهم برؤوسهم».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٩٠-١٩١].

٥ ـ التجارب الحاسمة القاصمة:

يقول د/ الغضبان: «وهكذا كانت القضية في الساحة العربية، مع هذا الجيش المؤمن فإما حلف أو هدنة تحفظ الأرواح، والأموال، وتحقق الأمن، والعافية، وإما حرب ضروس تفتك بالبغاة والطواغيت، وتبث الرعب والرهبة في قلوبهم وحيث لم تكن تجربة دومة الجندل، أو تجربة بني قريظة قبل غدرهم بالمدينة، أو تجربة بني النضير أو بني قينقاع، وحيث اختار العدو الحرب، فلتكن التجارب الحاسمة القاصمة، تجربة أبي رافع، وتجربة ابن الأشرف، وتجربة أم قرفة، وختام هذه التجارب بأسير بن رزام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة].

إن البأس في الحرب ما لم يكن غليظًا وشديدًا، فلن تحسم المواجهة مع العدو، وسيجعل الحرب تفني كل شيء، وتأكل كل شيء، فلا بد من بث الرهبة والرعب في قلب العدو، ولابد من الشدة معه حين لا يجدي الحوار أو المناقشة، ولا بد من الغلظة التي تشعر العدو أن مَنْ يقاتله لا يخشى في الله لومة لائم».

[التربية القيادية للغضبان ٤/ ١٩١].

٦ ـ جواز الفتك بأهل الحرب:

وفيها جواز تصفية غير الموالين للدولة الإسلامية الناشئة وقطع الطريق على أولئك الذين تسول لهم أنفسهم من إقامة التحالفات للقضاء على المسلمين ومنعهم من نشر دعوة الإسلام.

وهذا ما دلت عليه هذه السرية وما قام به أفرادها من أعمال عسكرية ضد المتآمرين على أمن دولتهم.

[فقه السرايا للعيساوي ١٦٣].

يقول الإمام ابن القيم: «إِنَّ الْإِمَامَ إِذَا سَمِعَ بِقَصْدِ عَدُوِّهِ لَهُ وَفِي جَيْشِهِ قُوَّةٌ وَمَنَعَةٌ لَا يَقْعُدُ يَنْتَظِرُهُمْ بَلْ يَسِيرُ إِلَيْهِمْ». [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٤٧٩].

٧ـ نتائج مقتل ابن رزام:

وبمقتل ابن رزام تخلص المسلمون من يهودي طاغية أراد أن يغزوهم في دارهم وأظهر الغدر للمسلمين، فجنى على نفسه بغدره وظلمه. [**السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١٠٦**].

٨ـ دروس سبق تفصيلها:

ينظر الدروس المستفادة من سرية محمد بن مسلمة ﷺ لقتل ابن الأشرف ٣هـ، وسرية ابن أنيس ﷺ لقتل خالد الهذلي ٤هـ، وسرية الضمري ﷺ لقتل أبي سفيان بعد بئر معونة، وسرية عبد الله بن عتيك ﷺ لقتل ابن أبي الحقيق ٥ هـ.

الفصل السابع عشر
سَرِيَّةُ كُرْزِ بْنِ جَابِرٍ رضي الله عنه إِلَى العُرَيْنِيين [(١)]
شوال ٦هـ/فبراير (شباط) ٦٢٨م/ أمشير ٣٤٤ قبطي
المبحث الأول
عرض سَرِيَّةِ كُرْزِ بْنِ جَابِرٍ رضي الله عنه إِلَى العُرَيْنِيين

تاريخ السرية:

يقول د/ بريك: «في السنة السادسة الهجرية باتفاق أهل المغازي، ولكنهم اختلفوا في الشهر الذي كانت فيه السرية، فذكر ابن إسحاق أنها كانت بعد غزوة ذي قرد التي كانت في جمادى الآخرة سنة ست، [ابن هشام، سيرة ٤/ ٦٤]، وأرَّخها الواقدي في شوال من نفس السنة [الواقدي، مغازي ٢/ ٥٦٨]، وتابعه ابن سعد [طبقات ٢/ ٩٣]، وابن حبان [السيرة النبوية ص ٢٧٤]، وذكر ابن حجر أن البخاري ذكرها بعد الحديبية [ابن حجر، الفتح ١/ ٣٣٧]، يقول الزرقاني: فالحاصل أن أصحاب المغازي اتفقوا على أنها سنة ست واختلفوا في الشهر [الزرقاني، شرح ٢/ ١٧٢]». [السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ٢٠٠].

سبب السرية وأحداثها:

قال ابن إسحاق: حَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَمَّنْ حَدَّثَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَ: أَصَابَ رَسُولُ الله ﷺ فِي غَزْوَةِ مُحَارِبٍ وَبَنِي ثَعْلَبَةَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ: يَسَارٌ، فَجَعَلَهُ رَسُولُ الله ﷺ فِي لِقَاحٍ لَهُ كَانَتْ تَرْعَى فِي نَاحِيَةِ الْجَمَّاءِ، فَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ نَفَرٌ مِنْ قَيْسٍ كُبَّةٌ [(٢)] مِنْ بَجِيلَةَ، فَاسْتَوْبَؤُوا (من الوباء، وهو كثرة الأمراض وعمومها)، وَطَحِلُوا (أصابهم وجع الطحال وعظمه)، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى اللِّقَاحِ فَشَرِبْتُمْ مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا**»، فَخَرَجُوا إِلَيْهَا.

قَتْلُ العُرَيْنِيين وَتَنْكِيلُ الرَّسُولِ ﷺ بِهِمْ:

فَلَمَّا صَحُّوا وَانْطَوَتْ بُطُونُهُمْ عَدَوْا عَلَى رَاعِي رَسُولِ الله ﷺ يَسَارٍ فَذَبَحُوهُ، وَغَرَزُوا الشَّوْكَ فِي عَيْنَيْهِ، وَاسْتَاقُوا اللِّقَاحَ، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ فِي آثَارِهِمْ كُرْزَ بْنَ جَابِرٍ رضي الله عنه، فَلَحِقَهُمْ، فَأَتَى بِهِمْ رَسُولَ الله ﷺ مَرْجِعه مِنْ غَزْوَةِ ذِي قَرَدَ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ. [السيرة لابن هشام ٦٤٠-٦٤١].

---

(١) نسبة إلى عُرَيْنَةُ: قال في الفتح: وعُرَيْنَةُ بِالْعَيْنِ وَالرَّاءِ الْمُهْمَلَتَيْنِ وَالنُّونِ مُصَغَّرًا حَيٌّ مِنْ قُضَاعَةَ وَحَيٌّ مِنْ بَجِيلَةَ، وَالْمُرَادُ هُنَا الثَّانِي، كَذَا ذَكَرَهُ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي الْمَغَازِي.

(٢) **كبة**: قبيلة من بجيلة. وسيأتي في روايات كتب السنة «عرينة وعكل»، وقال ابن حجر: «وَزَعَمَ ابْنُ التِّينِ - تَبَعًا لِلدَّاوُدِيِّ - أَنَّ عُرَيْنَةَ هُمْ عُكْلٌ وَهُوَ غَلَطٌ، بَلْ هُمَا قَبِيلَتَانِ مُتَغَايِرَتَانِ: عُكْلٌ مِنْ عَدْنَانَ، وَعُرَيْنَةُ مِنْ قَحْطَانَ، وَعُكْلٌ بِضَمِّ الْمُهْمَلَةِ وَإِسْكَانِ الْكَافِ قَبِيلَةٌ مِنْ تَيْمِ الرَّبَابِ، وعُرَيْنَةُ بِالْعَيْنِ وَالرَّاءِ الْمُهْمَلَتَيْنِ وَالنُّونِ مُصَغَّرًا حَيٌّ مِنْ قُضَاعَةَ وَحَيٌّ مِنْ بَجِيلَةَ، وَالْمُرَادُ هُنَا الثَّانِي، كَذَا ذَكَرَهُ مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ فِي الْمَغَازِي، وَكَذَا رَوَاهُ الطَّبَرِيُّ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ أَنَسٍ». فتح الباري، كتاب الوضوء، باب أبوال الإبل والدواب والغنم رقم ٢٣٣.

قال الواقدي: لَـمَّا أُغِيرَ عَلَى لِقَاحِ النَّبِيِّ ﷺ بِذِي الْجَدْرِ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ سِتٍّ وَهِيَ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ (قال ابن سعد: بذي الجدر ناحيةَ قُباءَ قريبًا مِن عَيرٍ عَلَى سِتَّةِ أَميالٍ مِنَ المدينةِ. الطبقات ٢/ ٨٩).

حَدَّثَنَا خَارِجَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَنْ يَزِيدَ بْنِ رُومَانَ، قَالَ: قَدِمَ نَفَرٌ مِنْ عُرَيْنَةَ ثَمَانِيَةٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْلَمُوا، فَاسْتَوْبَؤُوا (أي وجدوها وبئة) الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَ بِهِمْ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى لِقَاحِهِ، وَكَانَ سَرْحُ الْمُسْلِمِينَ بِذِي الْجَدْرِ، فَكَانُوا بِهَا حَتَّى صَحُّوا وَسَمِنُوا، وَكَانُوا اسْتَأْذَنُوهُ يَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَأَذِنَ لَهُمْ، فَغَدَوْا عَلَى اللِّقَاحِ فَاسْتَاقُوهَا (وقد كفروا بعد إسلامهم)، فَيُدْرِكُهُمْ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ نَفَرٌ، فَقَاتَلَهُمْ فَأَخَذُوهُ فَقَطَعُوا يَدَهُ وَرِجْلَهُ وَغَرَزُوا الشَّوْكَ فِي لِسَانِهِ وَعَيْنَيْهِ حَتَّى مَاتَ.

وَانْطَلَقُوا بِالسَّرْحِ، فَأَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ عَلَى حِمَارٍ لَهَا حَتَّى تَمُرَّ بِيَسَارٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَـمَّا رَأَتْهُ وَمَا بِهِ - وَقَدْ مَاتَ - رَجَعَتْ إِلَى قَوْمِهَا وَخَبَّرَتْهُمْ الْخَبَرَ، فَخَرَجُوا نَحْوَ يَسَارٍ حَتَّى جَاؤُوا بِهِ إِلَى قُبَاءَ مَيِّتًا.

فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي أَثَرِهِمْ عِشْرِينَ فَارِسًا، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ كُرْزَ بْنَ جَابِرٍ الْفِهْرِيَّ ﷺ، فَخَرَجُوا فِي طَلَبِهِمْ حَتَّى أَدْرَكَهُمْ اللَّيْلُ، فَبَاتُوا بِالْحَرَّةِ، وَأَصْبَحُوا فَاغْتَدَوْا لَا يَدْرُونَ أَيْنَ يَسْلُكُونَ، فَإِذَا هُمْ بِامْرَأَةٍ تَحْمِلُ كَتِفَ بَعِيرٍ، فَأَخَذُوهَا فَقَالُوا: مَا هَذَا مَعَكِ؟ قَالَتْ: مَرَرْتُ بِقَوْمٍ قَدْ نَحَرُوا بَعِيرًا فَأَعْطَوْنِي، قَالُوا: أَيْنَ هُمْ؟ قَالَتْ: هُمْ بِتِلْكَ الْقِفَارِ مِنَ الْحَرَّةِ، إِذَا وَافَيْتُمْ عَلَيْهَا رَأَيْتُمْ دُخَانَهُمْ.

فَسَارُوا حَتَّى أَتَوْهُمْ حِينَ فَرَغُوا مِنْ طَعَامِهِمْ، فَأَحَاطُوا بِهِمْ فَسَأَلُوهُمْ أَنْ يَسْتَأْسِرُوا، فَاسْتَأْسَرُوا بِأَجْمَعِهِمْ، لَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ، فَرَبَطُوهُمْ وَأَرْدَفُوهُمْ عَلَى الْخَيْلِ حَتَّى قَدِمُوا بِهِمْ الْمَدِينَةَ، فَوَجَدُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْغَابَةِ، فَخَرَجُوا نَحْوَهُ.

قَالَ خَارِجَةُ: فَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي أنس بن مالك ﷺ قَالَ: فَخَرَجْتُ أَسْعَى فِي آثَارِهِمْ مَعَ الْغِلْمَانِ حَتَّى لَقِيَ بِهِمْ النَّبِيُّ ﷺ بِالزَّغَابَةِ بِمَجْمَعِ السُّيُولِ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَسُمِلَتْ أَعْيُنُهُمْ وَصُلِبُوا هُنَاكَ.

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: إِنِّي لَوَاقِفٌ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: فَحَدَّثَنِي إِسْحَاقُ عَنْ صَالِحٍ مَوْلَى التَّوْمَه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: لَـمَّا قَطَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَيْدِي أَصْحَابِ اللِّقَاحِ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾[المائدة]، قَالَ: فَلَمْ تُسْمَلْ بَعْدَ ذَلِكَ عَيْنٌ.

قَالَ: فَحَدَّثَنِي أَبُو جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: مَا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ بَعْثًا إِلَّا نَهَاهُمْ عَنِ الْـمُثْلَةِ.

وَحَدَّثَنِي ابْنُ بِلَالٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: لَمْ يَقْطَعْ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِسَانًا قَطُّ، وَلَمْ يَسْمُلْ عَيْنًا، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى قَطْعِ الْيَدِ وَالرِّجْلِ.

وَحَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي حَبِيبَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: أَمِيرُ السَّرِيَّةِ ابْنُ زَيْدٍ الْأَشْهَلِيُّ.

حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ عَنْ مَرْوَانَ بْنِ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى، قَالَ: لَـمَّا ظَفِرُوا بِاللِّقَاحِ خَلَّفُوا عَلَيْهَا سَلَمَةَ بْنَ الْأَكْوَعِ، وَمَعَهُ أَبُو رُهْمٍ الْغِفَارِيُّ، وَكَانَتْ اللِّقَاحُ خَمْسَ عَشْرَةَ لِقْحَةً غِزَارًا.

فَلَـمَّا أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الـمَدِينَةِ مِنْ الزَّغَابَةِ وَجَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ إِذَا اللِّقَاحُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَتَفَقَّدَ مِنْهَا لِقْحَةً لَهُ يُقَالُ لَهَا الْحِنَاءُ، فَقَالَ: أَيْ سَلَمَةُ أَيْنَ الْحِنَاءُ؟ قَالَ: نَحَرَهَا الْقَوْمُ وَلَمْ يَنْحَرُوا غَيْرَهَا.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**انْظُرْ مَكَانًا تَرْعَاهَا فِيهِ**».

قَالَ: مَا كَانَ أَمْثَلَ مِنْ حَيْثُ كَانَتْ بِذِي الْجَدْرِ، قَالَ: فَرَدَّهَا إِلَى ذِي الْجَدْرِ، فَكَانَتْ هُنَاكَ، وَكَانَ لَبَنُهَا يُرَاحُ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلَّ لَيْلَةٍ وَطْبٌ مِنْ لَبَنٍ.

قَالَ ابْنُ أَبِي سَبْرَةَ: فَحَدَّثَنِي إِسْحَاقُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَنْ بَعْضِ وَلَدِ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ سَلَمَةَ بْنَ الْأَكْوَعِ ﷺ أَخْبَرَهُ بِعِدَّةِ الْعِشْرِينَ فَارِسًا فَقَالَ: أَنَا، وَأَبُو رُهْمٍ الْغِفَارِيُّ، وَأَبُو ذَرٍّ، وَبُرَيْدَةُ بْنُ الْحُصَيْبِ، وَرَافِعُ بْنُ مَكِيثٍ، وَجُنْدُبُ بْنُ مَكِيثٍ، وَبِلَالُ بْنُ الْحَارِثِ الْمُزَنِيُّ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الْمُزَنِيُّ، وَجُعَالُ بْنُ سُرَاقَةَ، وَصَفْوَانُ بْنُ مُعَطَّلٍ، وَأَبُو رَوْعَةَ مَعْبَدُ بْنُ خَالِدٍ الْجُهَنِيُّ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ بَدْرٍ، وَسُوَيْدُ بْنُ صَخْرٍ، وَأَبُو ضُبَيْسٍ الْجُهَنِيُّ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٦٨-٥٧١].

وعَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ قَالَ: قَالَ عُثْمَانُ لِأَبِي ذَرٍّ ﷺ: أَيْنَ كُنْتَ يَوْمَ أُغِيرَ عَلَى لِقَاحِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: كُنْتُ عَلَى الْبِئْرِ أَسْقِي. [المطالب العالية لابن حجر ١٧/ ٤١٢ كتاب السيرة والمغازي باب قصة العرنيين رقم ٤٢٨٢، وكنز العمال للهندي ٤/ ٦١١ رقم ١١٧٦٧].

وفي حَدِيثِ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ ﷺ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ عَمِّ عَلَيْهِمْ الطَّرِيقَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ أَضْيَقَ مِنْ مَسْكِ جَمَلٍ**»، فَعَمَّى اللهُ عَلَيْهِمْ السَّبِيلَ فَأُدْرِكُوا. وَذَكَرَ الْقِصَّةَ. [زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٨٦].

الأحاديث الواردة في عقاب الرسول ﷺ للعُرَيْنِيين:

روى مسلم بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الـمَدِينَةَ، فَاجْتَوَوْهَا [1]، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ فَتَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا**»،

---

(١) **فاجتووا**: أي أصابهم الجوى وهي المرض وداء الجوف إذ تطاول. وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموها. ويقال: اجتويت البلد إذا كرهت المقام فيه وإن كنت في نعمة.

يقول د/ بريك: «الجوى: داء يصيب الجوف، قال ابن فارس: اجتويت البلد إذا كرهت المقام فيه وإن كنت في نعمة، وقيده الخطابي بها إذا تضرر بالإقامة وهو المناسب لهذه القصة. ينظر: أعلام الحديث للخطابي ١/ ٢٨٥، وفتح الباري لابن حجر ١/ ٣٣٧». السرايا والبعوث لبريك ٢٠١.

فَفَعَلُوا، فَصَحُّوا، ثُمَّ مَالُوا عَلَى الرِّعَاءِ (وفي بعض الروايات «الرعاة»، وهما لغتان، يقال: راع ورعاة كقاض وقضاة، وراع ورعاء كصاحب وصحاب) فَقَتَلُوهُمْ، وَارْتَدُّوا عَنِ الإِسْلَامِ، وَسَاقُوا ذَوْدَ (**الذود**: من الإبل ما بين الثنتين إلى التسع، وقيل ما بين الثلاث إلى العشر) رَسُولِ الله ﷺ (أي أخذوا إبله وقدموها أمامهم سائقين لها طاردين)، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ فِي أَثْرِهِمْ، فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ (**سمل أعينهم**: هكذا هو في بعض الروايات «سمل» وفي بعضها «سمر» ومعنى «سمل» فقأها وأذهب ما فيها، ومعنى «سمر» كحلها بمسامير محمية، وقيل: هما بمعنى)، وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ (هي أرض ذات حجارة سود معروفة بالمدينة، وإنما ألقوا فيها لأنها قرب المكان الذي فعلوا فيه ما فعلوا) حَتَّى مَاتُوا.

وحَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ ـ وَاللَّفْظُ لأَبِي بَكْرٍ ـ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ عَنْ حَجَّاجِ بْنِ أَبِي عُثْمَانَ حَدَّثَنِي أَبُو رَجَاءٍ مَوْلَى أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ حَدَّثَنِي أَنَسٌ ﷺ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ (قبيلة من تيم الرباب من عدنان كذا في الفتح) ثَمَانِيَةً قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَبَايَعُوهُ عَلَى الإِسْلَامِ، فَاسْتَوْخَمُوا (أصابهم الوخم بها وكرهوا الإقامة فيها. أي استثقلوها، ولم يوافق هواؤها أبدانهم) الأَرْضَ، وَسَقُمَتْ أَجْسَامُهُمْ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: «**أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ، فَتُصِيبُونَ مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا**»، فَقَالُوا: بَلَى، فَخَرَجُوا، فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ، وَطَرَدُوا الإِبِلَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ، فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ، فَأُدْرِكُوا، فَجِيءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَسُمِرَ (أي كحلهم بمسامير حُميت) أَعْيُنُهُمْ، ثُمَّ نُبِذُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا.

وَقَالَ ابْنُ الصَّبَّاحِ فِي رِوَايَتِهِ: وَاطَّرَدُوا النَّعَمَ، وَقَالَ: وَسُمِّرَتْ أَعْيُنُهُمْ.

وَحَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ عَبْدِ الله حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ مَوْلَى أَبِي قِلَابَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَوْمٌ مِنْ عُكْلٍ أَوْ عُرَيْنَةَ، فَاجْتَوَوُا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ بِلِقَاحٍ (جمع لقحة بكسر اللام وفتحها وهي الناقة ذات الدر (اللبن)، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا... بِمَعْنَى حَدِيثِ حَجَّاجِ بْنِ أَبِي عُثْمَانَ، قَالَ: وَسُمِرَتْ أَعْيُنُهُمْ، وَأُلْقُوا فِي الحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَلَا يُسْقَوْنَ.

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ مُعَاذٍ ح وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عُثْمَانَ النَّوْفَلِيُّ حَدَّثَنَا أَزْهَرُ السَّمَّانُ قَالَا: حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ مَوْلَى أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا خَلفَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: مَا تَقُولُونَ فِي القَسَامَةِ؟ فَقَالَ عَنْبَسَةُ: قَدْ حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ كَذَا وَكَذَا، فَقُلْتُ: إِيَّايَ حَدَّثَ أَنَسٌ ﷺ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قَوْمٌ... وَسَاقَ الحَدِيثَ بِنَحْوِ حَدِيثِ أَيُّوبَ وَحَجَّاجٍ.

قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: فَلَمَّا فَرَغْتُ قَالَ عَنْبَسَةُ: سُبْحَانَ الله، قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: فَقُلْتُ: أَتَتَّهِمُنِي يَا عَنْبَسَةُ؟! قَالَ: لاَ، هَكَذَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ، لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ يَا أَهْلَ الشَّامِ مَادَامَ فِيكُمْ هَذَا أَوْ مِثْلُ هَذَا.

وَحَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ أَبِي شُعَيْبٍ الحَرَّانِيُّ حَدَّثَنَا مِسْكِينٌ ـ وَهُوَ ابْنُ بُكَيْرٍ الحَرَّانِيُّ ـ أَخْبَرَنَا الأَوْزَاعِيُّ ح وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ عَنِ الأَوْزَاعِيِّ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ ثَمَانِيَةُ نَفَرٍ مِنْ عُكْلٍ... بِنَحْوِ حَدِيثِهِمْ، وَزَادَ فِي الحَدِيثِ: وَلَمْ يَحْسِمْهُمْ. (أي لم يكوهم، والحسم في اللغة كي العرق بالنار لينقطع الدم).

وَحَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ عَبْدِ الله حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ حَدَّثَنَا سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: أَتَى رَسُولَ الله ﷺ نَفَرٌ مِنْ عُرَيْنَةَ، فَأَسْلَمُوا وَبَايَعُوهُ، وَقَدْ وَقَعَ بِالمَدِينَةِ المُومُ ـ وَهُوَ البِرْسَامُ[(١)] ـ ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوَ حَدِيثِهِمْ وَزَادَ: وَعِنْدَهُ شَبَابٌ مِنَ الأَنْصَارِ قَرِيبٌ مِنْ عِشْرِينَ، فَأَرْسَلَهُمْ إِلَيْهِمْ وَبَعَثَ مَعَهُمْ قَائِفًا (هو الذي يتتبع الآثار ويميزها) يَقْتَصُّ أَثَرَهُمْ.

حَدَّثَنَا هَدَّابُ بْنُ خَالِدٍ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ أَنَسٍ ح وَحَدَّثَنَا ابْنُ المُثَنَّى حَدَّثَنَا عَبْدُ الأَعْلَى حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ ﷺ ... وَفِي حَدِيثِ هَمَّامٍ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَهْطٌ مِنْ عُرَيْنَةَ، وَفِي حَدِيثِ سَعِيدٍ: مِنْ عُكْلٍ وَعُرَيْنَةَ. بِنَحْوِ حَدِيثِهِمْ.

وَحَدَّثَنِي الفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ الأَعْرَجُ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ غَيْلَانَ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ عَنْ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: إِنَّمَا سَمَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْيُنَ أُولَئِكَ لأَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرِّعَاءِ.

[مسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات (١٦٧١)، ومسند أحمد ٢٠/ ٢٦٧ رقم ١٢٩٣٦].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَدِمَ أُنَاسٌ [أَنَّ قَوْمًا، رَهْطًا] مِنْ عُكْلٍ أَوْ عُرَيْنَةَ، [قَدِمُوا المَدِينَةَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ] فَاجْتَوَوُا المَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمُ [فَأَمَرَ لَهُمْ] النَّبِيُّ ﷺ بِلِقَاحٍ، وَ[أَمَرَهُمْ] أَنْ يَخْرُجُوا فَيَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَانْطَلَقُوا، [فَشَرِبُوا حَتَّى إِذَا بَرِؤُوا] فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِيِّ ﷺ، وَاسْتَاقُوا النَّعَمَ، فَجَاءَ الخَبَرُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، [فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ خَبَرُهُمْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ [غُدْوَةً] فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ] فَبَعَثَ [الطَّلَبَ] فِي آثَارِهِمْ

---

(١) **المُوم**: هو نوع من اختلال العقل ويطلق على ورم الرأس وورم الصدر وهو معرب وأصل اللفظة سريانية.
البرسام: نوع من اختلال العقل.
يقول د/ بريك: «قال النووي، وابن حجر: بكسر الباء سرياني معرب، أطلق على اختلال العقل، وعلى ورم الرأس وورم الصدر، وذكر ابن سينا: أن البرسام هو ذات الجنب، وهو ورم في نواحي الصدر إما في العضلات وفي الحجاب المستبطن للصدر، وإما في الحجاب الحاجز وهو الخالص، أو في العضل الظاهرة الخارجة، أو الحجاب الخارج بمشاركة الجلد أو بغير مشاركة، وأعظم هذا وأهوله ما كان في الحجاب الحاجز نفسه، وعلامته خمس: حمى لازمة لمجاورة القلب، ووجع ناخس تحت الأضلاع، وضيق نفس لضغط الورم، ونبض منشاري، وسعال. انظر ابن حجر، فتح (١/ ٣٣٨٩)، وابن سينا، القانون في الطب (٢/ ٢٣٨-٢٤٠-٢٤١). وانظر اسمه الطبي الحديث (PLEURiSY) وأعراضه المشابهة لما ذكره ابن سينا في
AND PRICE'S TEXT BOOK OF THE DOVIDSON'S PRINCIPALES' AND PRACTIC OF MEDICINE PRACTICE OF MEDICINE». السرايا والبعوث لبريك ٢٠١.

[إِثْرِهِمْ]، فَلَمَّا ارْتَفَعَ النَّهَارُ جِيءَ بِهِمْ [فَمَا ارْتَفَعَ النَّهَارُ حَتَّى جِيءَ بِهِمْ]، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقَطَعَ [فَقُطِعَتْ] أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَرَ [وَسُمِرَتْ، وَسُمِّرَ] أَعْيُنُهُمْ، وَأُلْقُوا فِي الْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَلاَ يُسْقَوْنَ.

قَالَ أَبُو قِلاَبَةَ: فَهَؤُلاَءِ [قَوْمٌ] سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَكَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَحَارَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ.

[البخاري في الوضوء (٢٣٣)، وفي المحاربين (٦٨٠٥)، وأبو داود في الحدود (٤٣٦٤)].

وقال أبو داود: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ بْنِ سُفْيَانَ قَالَ: أَخْبَرَنَا ح وَحَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ حَدَّثَنَا الوَلِيدُ عَنِ الأَوْزَاعِيِّ عَنْ يَحْيَى -يَعْنِي ابْنَ أَبِي كَثِيرٍ- عَنْ أَبِي قِلاَبَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ بِهَذَا الحَدِيثِ قَالَ فِيهِ: فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي طَلَبِهِمْ قَافَةً فَأُتِيَ بِهِمْ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ الآيَةَ [المائدة: ٣٣].

وحَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ أَخْبَرَنَا ثَابِتٌ وَقَتَادَةُ وَحُمَيْدٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ ذَكَرَ هَذَا الحَدِيثَ، قَالَ أَنَسٌ ﷺ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمْ يَكْدِمُ (يعض) الأَرْضَ بِفِيهِ عَطَشًا حَتَّى مَاتُوا.

وحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ عَنْ هِشَامٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ بِهَذَا الحَدِيثِ نَحْوَهُ زَادَ: ثُمَّ نَهَى عَنِ الْمُثْلَةِ، وَلَمْ يَذْكُرْ: «مِنْ خِلاَفٍ».

وَرَوَاهُ شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ وَسَلاَّمِ بْنِ مِسْكِينٍ عَنْ ثَابِتٍ جَمِيعًا عَنْ أَنَسٍ ﷺ لَمْ يَذْكُرَا: «مِنْ خِلاَفٍ»، وَلَمْ أَجِدْ فِي حَدِيثِ أَحَدٍ: «قَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلاَفٍ»، إِلاَّ فِي حَدِيثِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ.

وحَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ عَنْ أَيُّوبَ بِإِسْنَادِهِ بِهَذَا الحَدِيثِ قَالَ فِيهِ: فَأَمَرَ بِمَسَامِيرَ فَأُحْمِيَتْ فَكَحَلَهُمْ، وَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَمَا حَسَمَهُمْ.

[أبو داود في الحدود (٤٣٦٥، ٤٣٦٦، ٤٣٦٧، ٤٣٦٨)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنْ أَبِي الزِّنَادِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا قَطَعَ الَّذِينَ سَرَقُوا لِقَاحَهُ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ بِالنَّارِ عَاتَبَهُ اللهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ الآيَةَ [المائدة:٣٣]. [أبو داود في الحدود (٤٣٧٠)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا ح وَحَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ: كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الحُدُودُ، يَعْنِي حَدِيثَ أَنَسٍ.

[أبو داود في الحدود (٤٣٧١)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف موقوف].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ عُكْلٍ [ثَمَانِيَةً قَدِمُوا] عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا فِي الصُّفَّةِ (مكان في مؤخر المسجد النبوي مكان القبلة الأولى، ظُلل وأُعد لنزول الغرباء والمساكين وضعفاء المسلمين ممن لا مأوى له، وإليها ينسب أهل الصفة)، فَاجْتَوَوُا المَدِينَةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَبْغِنَا رِسْلاً، فَقَالَ: «**مَا أَجِدُ لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَلحَقُوا بِإِبِلِ رَسُولِ اللهِ** ﷺ **[تَلحَقُوا بِالذَّوْدِ]**»، فَأَتَوْهَا [فَانْطَلَقُوا] فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا حَتَّى صَحُّوا وَسَمِنُوا، وَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ الصَّرِيخُ، فَبَعَثَ الطَّلَبَ فِي آثَارِهِمْ، فَمَا تَرَجَّلَ

النَّهَارُ حَتَّى أُتِيَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِمَسَامِيرَ فَأُحْمِيَتْ فَكَحَلَهُمْ وَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَمَا حَسَمَهُمْ، ثُمَّ أُلْقُوا فِي الحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَمَا سُقُوا [يُسْقَوْنَ] حَتَّى مَاتُوا.

قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَحَارَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ [وَسَعَوْا فِي الأَرْضِ فَسَادًا].

[**البخاري في المحاربين (٦٨٠٤)، وفي الجهاد (٣٠١٨)**].

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ نَاسًا كَانَ بِهِمْ سَقَمٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله آوِنَا وَأَطْعِمْنَا، فَلَمَّا صَحُّوا قَالُوا: إِنَّ المَدِينَةَ وَخِمَةٌ، فَأَنْزَلَهُمُ الحَرَّةَ فِي ذَوْدٍ لَهُ، فَقَالَ: «**اشْرَبُوا أَلْبَانَهَا**»، فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِيِّ ﷺ، وَاسْتَاقُوا ذَوْدَهُ، فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَكْدُمُ الأَرْضَ بِلِسَانِهِ حَتَّى يَمُوتَ.

قَالَ سَلَّامٌ: فَبَلَغَنِي أَنَّ الحَجَّاجَ قَالَ لأَنَسٍ رضي الله عنه: حَدِّثْنِي بِأَشَدِّ عُقُوبَةٍ عَاقَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَحَدَّثَهُ بِهَذَا، فَبَلَغَ الحَسَنَ فَقَالَ: وَدِدْتُ أَنَّهُ لَمْ يُحَدِّثْهُ. [**البخاري في الطب (٥٦٨٥)**].

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ نَاسًا أَوْ رِجَالًا مِنْ عُكْلٍ وَعُرَيْنَةَ قَدِمُوا [المَدِينَةَ] عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، وَتَكَلَّمُوا بِالإِسْلَامِ، وَقَالُوا: **يَا نَبِيَّ الله إِنَّا كُنَّا أَهْلَ ضَرْعٍ، وَلَمْ نَكُنْ أَهْلَ رِيفٍ** (أي: كانوا أهل ماشية ولم يكونوا أهل زرع)، وَاسْتَوْخَمُوا المَدِينَةَ، [وَشَكَوْا حُمَّى المَدِينَةِ]، فَأَمَرَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ بِذَوْدٍ وَبِرَاعٍ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا [مِنْ المَدِينَةِ] فِيهِ [فِيهَا] فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَانْطَلَقُوا حَتَّى [إِذَا] كَانُوا نَاحِيَةَ الحَرَّةِ، [فَلَمَّا صَحُّوا] كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ، وَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ الله ﷺ، وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ، فَبَلَغَ [ذَلِكَ] النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ الطَّلَبَ فِي آثَارِهِمْ، [فَأُتِيَ بِهِمْ]، وَأَمَرَ بِهِمْ فَسَمَرُوا [فَسَمَّرَ، فَسَمَلَ] أَعْيُنَهُمْ، وَقَطَعُوا [وَقَطَّعَ] أَيْدِيَهُمْ [وَأَرْجُلَهُمْ] وَتُرِكُوا فِي نَاحِيَةِ الحَرَّةِ [يَقْضَمُونَ حِجَارَتَهَا] حَتَّى مَاتُوا عَلَى حَالِهِمْ.

قَالَ قَتَادَةُ: بَلَغَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ كَانَ يَحُثُّ عَلَى الصَّدَقَةِ، وَيَنْهَى عَنِ المُثْلَةِ.

[قَالَ قَتَادَةُ: فَبَلَغَنَا أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيَةَ [المائدة:٣٣].

وَقَالَ شُعْبَةُ وَأَبَانُ وَحَمَّادٌ عَنْ قَتَادَةَ: مِنْ عُرَيْنَةَ.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ وَأَيُّوبُ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: قَدِمَ نَفَرٌ مِنْ عُكْلٍ.

[**البخاري في الجهاد (٤١٩٢)، وفي الطب (٥٧٢٧)، والنسائي في الطهارة (٣٠٥)، وفي تحريم الدم (٤٠٣٢، ٤٠٣٣)، ومسند أحمد ٢٠/ ١٠٣، ١٥١ رقم ١٢٦٦٨، ١٢٧٣٧، ٢١/ ١١٦ رقم ١٣٤٤٣**].

وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ نَاسًا اجْتَوَوْا فِي المَدِينَةِ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَلْحَقُوا بِرَاعِيهِ - يَعْنِي الإِبِلَ - فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَلَحِقُوا بِرَاعِيهِ، فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، حَتَّى صَلَحَتْ أَبْدَانُهُمْ، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَسَاقُوا الإِبِلَ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ فِي طَلَبِهِمْ، فَجِيءَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ.

قَالَ قَتَادَةُ: فَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الحُدُودُ. [**البخاري في الطب (٥٦٨٦)**].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ نَفَرٌ مِنْ عُكْلٍ، فَأَسْلَمُوا، فَاجْتَوَوُا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَأْتُوا إِبِلَ الصَّدَقَةِ، فَيَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَفَعَلُوا فَصَحُّوا، فَارْتَدُّوا، وَقَتَلُوا رُعَاتَهَا وَاسْتَاقُوا، فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، ثُمَّ لَمْ يَحْسِمْهُمْ حَتَّى مَاتُوا.

[البخاري في المحاربين (٦٨٠٢)].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا الـمَدِينَةَ فَاجْتَوَوْهَا، فَبَعَثَهُمْ [فَبَعَثَ بِهِمْ] رَسُولُ الله ﷺ فِي إِبِلِ الصَّدَقَةِ، وَقَالَ: «**اشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا**»، فَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ الله ﷺ، وَاسْتَاقُوا الْإِبِلَ، وَارْتَدُّوا عَنْ الْإِسْلَامِ، فَأُتِيَ بِهِمْ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ مِنْ خِلَافٍ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، وَأَلْقَاهُمْ بِالْحَرَّةِ.

قَالَ أَنَسٌ ﷺ: فَكُنْتُ أَرَى أَحَدَهُمْ يَكُدُّ الْأَرْضَ بِفِيهِ حَتَّى مَاتُوا.

وَرُبَّمَا قَالَ حَمَّادٌ: يَكْدُمُ الْأَرْضَ بِفِيهِ حَتَّى مَاتُوا.

[الترمذي في الطهارة (٧٢)، وفي الأطعمة (١٨٤٥)، وفي الطب (٢٠٤٢)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَنَسٍ [وَفِي الْبَاب عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ]، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ قَالُوا لَا بَأْسَ بِبَوْلِ مَا يُؤْكَلُ لَحْمُهُ. ومسند أحمد ٢١/ ٤٤٨ عن أنس ﷺ رقم ١٤٠٦١، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَبَعَثَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى ذَوْدٍ لَهُ، فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَلَمَّا صَحُّوا ارْتَدُّوا عَنْ الْإِسْلَام، وَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ الله ﷺ مُؤْمِنًا، وَاسْتَاقُوا الْإِبِلَ، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ فِي آثَارِهِمْ، فَأُخِذُوا، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، وَصَلَبَهُمْ. [النسائي في تحريم الدم (٤٠٢٨)، وقال الشيخ الألباني: صحيح دون قوله «وَصَلَبَهُمْ»].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَدِمَ أَعْرَابٌ مِنْ عُرَيْنَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْلَمُوا، فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ حَتَّى اصْفَرَّتْ أَلْوَانُهُمْ، وَعَظُمَتْ بُطُونُهُمْ، فَبَعَثَ بِهِمْ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى لِقَاحٍ لَهُ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا حَتَّى صَحُّوا، فَقَتَلُوا رَاعِيَهَا وَاسْتَاقُوا الْإِبِلَ، فَبَعَثَ نَبِيُّ الله ﷺ فِي طَلَبِهِمْ، فَأُتِيَ بِهِمْ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ.

قَالَ أَمِيرُ الـمُؤْمِنِينَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِأَنَسٍ ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُهُ هَذَا الْحَدِيثَ: بِكُفْرٍ أَمْ بِذَنْبٍ؟ قَالَ: بِكُفْرٍ.

[النسائي في الطهارة (٣٠٦)، وفي تحريم الدم (٤٠٣٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ ثَمَانِيَةً، قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاسْتَوْخَمُوا الْمَدِينَةَ، وَسَقِمَتْ أَجْسَامُهُمْ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: «**أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ، فَتُصِيبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا**»، قَالُوا: بَلَى، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ الله ﷺ، فَبَعَثَ فَأَخَذُوهُمْ، فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَّرَ أَعْيُنَهُمْ، وَنَبَذَهُمْ فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا.

[النسائي في تحريم الدم (٤٠٢٤)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَأْتُوا إِبِلَ الصَّدَقَةِ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَفَعَلُوا، فَقَتَلُوا رَاعِيَهَا وَاسْتَاقُوهَا، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَلَبِهِمْ، قَالَ:

فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَّرَ أَعْيُنَهُمْ، وَلَمْ يَحْسِمْهُمْ، وَتَرَكَهُمْ حَتَّى مَاتُوا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الْآيَةَ [المائدة:٣٣].

[النسائي في تحريم الدم (٤٠٢٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ نَفَرٌ مِنْ عُكْلٍ أَوْ عُرَيْنَةَ، فَأَمَرَ لَهُمْ، وَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ بِذَوْدٍ أَوْ لِقَاحٍ يَشْرَبُونَ أَلْبَانَهَا وَأَبْوَالَهَا، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَاسْتَاقُوا الإِبِلَ، فَبَعَثَ فِي طَلَبِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَّلَ أَعْيُنَهُمْ. [النسائي في تحريم الدم (٤٠٢٧)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: أَسْلَمَ أُنَاسٌ مِنْ عُرَيْنَةَ، فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى ذَوْدٍ لَنَا [ذَوْدِنَا فَكُنْتُمْ فِيهَا] فَشَرِبْتُمْ مِنْ أَلْبَانِهَا**»، قَالَ حُمَيْدٌ: وَقَالَ قَتَادَةُ عَنْ أَنَسٍ «**وَأَبْوَالِهَا**»، فَفَعَلُوا، فَلَمَّا صَحُّوا كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ، وَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ الله ﷺ مُؤْمِنًا [أَوْ مُسْلِمًا]، وَاسْتَاقُوا ذَوْدَ رَسُولِ الله ﷺ وَهَرَبُوا مُحَارِبِينَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ [فِي آثَارِهِمْ] مَنْ أَتَى بِهِمْ، [فَجِيءَ بِهِمْ] فَأُخِذُوا فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَّرَ [وَسَمَلَ] أَعْيُنَهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا.

[النسائي في تحريم الدم (٤٠٢٩، ٤٠٣٠، ٤٠٣١)، وابن ماجه في الحدود (٢٥٧٨)، وفي الطب (٣٥٠٣)، ومسند أحمد ١٩/ ٩٧ رقم ١٢٠٤٢، ٢٠/ ٣٨٧ رقم ١٣١٢٨، وقال الشيخان الألباني والأرناؤوط: صحيح].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُرَيْنَةَ نَزَلُوا فِي الْحَرَّةِ فَأَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ، فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَكُونُوا فِي إِبِلِ الصَّدَقَةِ، وَأَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ، وَارْتَدُّوا عَنْ الْإِسْلَامِ، وَاسْتَاقُوا الْإِبِلَ فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ فِي آثَارِهِمْ فَجِيءَ بِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَّرَ أَعْيُنَهُمْ، وَأَلْقَاهُمْ فِي الْحَرَّةِ.

قَالَ أَنَسٌ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمْ يَكْدُمُ الْأَرْضَ بِفِيهِ عَطَشًا حَتَّى مَاتُوا.

[النسائي في تحريم الدم (٤٠٣٤)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّ نَاسًا أَتَوْا الْمَدِينَةَ فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ بِإِبِلٍ وَرَاعِيهَا، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، قَالَ: فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ، وَأَطْرَدُوا الْإِبِلَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَلَبِهِمْ فَجِيءَ بِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، وَطَرَحَهُمْ فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا.

[مسند أحمد ٢٠/ ٢٠٥ رقم ١٢٨١٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثَمَانِيَةُ نَفَرٍ مِنْ عُكْلٍ، فَأَسْلَمُوا، فَاجْتَوَوْا الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَأْتُوا إِبِلَ الصَّدَقَةِ، فَيَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَفَعَلُوا، فَصَحُّوا، فَارْتَدُّوا، وَقَتَلُوا رُعَاتَهَا أَوْ رِعَاءَهَا، وَسَاقُوهَا، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ فِي طَلَبِهِمْ قَافَةً، فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَلَمْ يَحْسِمْهُمْ، حَتَّى مَاتُوا، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ.

[مسند أحمد ٢٠/ ٣٤١ رقم ١٣٠٤٥، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أَنَّ رَهْطًا مِنْ عُرَيْنَةَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّا قَدْ اجْتَوَيْنَا الْمَدِينَةَ، فَعَظُمَتْ بُطُونُنَا، وَانْتَهَشَتْ أَعْضَاؤُنَا، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَلْحَقُوا بِرَاعِي الْإِبِلِ، فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، قَالَ: فَلَحِقُوا بِرَاعِي الْإِبِلِ، فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، حَتَّى صَلُحَتْ بُطُونُهُمْ وَأَلْوَانُهُمْ، ثُمَّ قَتَلُوا الرَّاعِيَ، وَسَاقُوا الْإِبِلَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ فِي طَلَبِهِمْ، فَجِيءَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ.

قَالَ قَتَادَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: إِنَّمَا كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الْحُدُودُ.

[مسند أحمد ٢١/ ٤٦٢ رقم ١٤٠٨٦، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وقال البخاري: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بِشْرٍ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الأَسَدِيُّ، حَدَّثَنَا الْحَجَّاجُ بْنُ أَبِي عُثْمَانَ، حَدَّثَنِي أَبُو رَجَاءٍ مِنْ آلِ أَبِي قِلَابَةَ، حَدَّثَنِي أَبُو قِلَابَةَ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ﷺ أَبْرَزَ سَرِيرَهُ يَوْمًا لِلنَّاسِ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي الْقَسَامَةِ؟ قَالَ: نَقُولُ الْقَسَامَةُ الْقَوَدُ بِهَا حَقٌّ، وَقَدْ أَقَادَتْ بِهَا الْخُلَفَاءُ، قَالَ لِي: مَا تَقُولُ يَا أَبَا قِلَابَةَ؟ وَنَصَبَنِي لِلنَّاسِ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، عِنْدَكَ رُؤُوسُ الأَجْنَادِ وَأَشْرَافُ الْعَرَبِ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ خَمْسِينَ مِنْهُمْ شَهِدُوا عَلَى رَجُلٍ مُحْصَنٍ بِدِمَشْقَ أَنَّهُ قَدْ زَنَى، لَمْ يَرَوْهُ أَكُنْتَ تَرْجُمُهُ؟ قَالَ: لاَ، قُلْتُ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ خَمْسِينَ مِنْهُمْ شَهِدُوا عَلَى رَجُلٍ بِحِمْصَ أَنَّهُ سَرَقَ أَكُنْتَ تَقْطَعُهُ وَلَمْ يَرَوْهُ؟ قَالَ: لَا، قُلْتُ: فَوَاللهِ مَا قَتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَطُّ، إِلَّا فِي إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: رَجُلٌ قَتَلَ بِجَرِيرَةِ نَفْسِهِ فَقُتِلَ، أَوْ رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ رَجُلٌ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَارْتَدَّ عَنِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ الْقَوْمُ: أَوَلَيْسَ قَدْ حَدَّثَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَطَعَ فِي السَّرَقِ وَسَمَرَ الأَعْيُنَ، ثُمَّ نَبَذَهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَقُلْتُ: أَنَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثَ أَنَسٍ، حَدَّثَنِي أَنَسٌ ﷺ: أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ ثَمَانِيَةً قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَبَايَعُوهُ عَلَى الإِسْلَامِ، فَاسْتَوْخَمُوا الأَرْضَ فَسَقِمَتْ أَجْسَامُهُمْ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَفَلاَ تَخْرُجُونَ مَعَ رَاعِينَا فِي إِبِلِهِ، فَتُصِيبُونَ مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا**»، قَالُوا: بَلَى، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا فَصَحُّوا، فَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَطْرَدُوا النَّعَمَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمْ، فَأُدْرِكُوا فَجِيءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِهِمْ فَقُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، ثُمَّ نَبَذَهُمْ فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا.

قُلْتُ: وَأَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ: ارْتَدُّوا عَنِ الإِسْلَامِ وَقَتَلُوا وَسَرَقُوا.

فَقَالَ عَنْبَسَةُ بْنُ سَعِيدٍ: وَاللهِ إِنْ سَمِعْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ، فَقُلْتُ: أَتَرُدُّ عَلَيَّ حَدِيثِي يَا عَنْبَسَةُ؟! قَالَ: لَا، وَلَكِنْ جِئْتَ بِالْحَدِيثِ عَلَى وَجْهِهِ، وَاللهِ لَا يَزَالُ هَذَا الْجُنْدُ بِخَيْرٍ مَا عَاشَ هَذَا الشَّيْخُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ.

قُلْتُ: وَقَدْ كَانَ فِي هَذَا سُنَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ نَفَرٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَتَحَدَّثُوا عِنْدَهُ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِنْهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فَقُتِلَ، فَخَرَجُوا بَعْدَهُ، فَإِذَا هُمْ بِصَاحِبِهِمْ يَتَشَحَّطُ فِي الدَّمِ، فَرَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! صَاحِبُنَا كَانَ تَحَدَّثَ مَعَنَا، فَخَرَجَ بَيْنَ أَيْدِينَا، فَإِذَا نَحْنُ بِهِ يَتَشَحَّطُ فِي الدَّمِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**بِمَنْ تَظُنُّونَ أَوْ تَرَوْنَ قَتَلَهُ**»، قَالُوا: نَرَى أَنَّ الْيَهُودَ قَتَلَتْهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْيَهُودِ فَدَعَاهُمْ، فَقَالَ: «**آنْتُمْ قَتَلْتُمْ هَذَا؟**»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «**أَتَرْضَوْنَ نَفَلَ خَمْسِينَ مِنَ الْيَهُودِ مَا قَتَلُوهُ**»، فَقَالُوا: مَا

يُبَالُونَ أَنْ يَقْتُلُونَا أَجْمَعِينَ ثُمَّ يَنْتَفِلُونَ، قَالَ: «**أَفَتَسْتَحِقُّونَ الدِّيَةَ بِأَيْمَانِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ**»، قَالُوا: مَا كُنَّا لِنَحْلِفَ، فَوَدَاهُ مِنْ عِنْدِهِ.

قُلْتُ: وَقَدْ كَانَتْ هُذَيْلٌ خَلَعُوا خَلِيعًا لَهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَطَرَقَ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الْيَمَنِ بِالْبَطْحَاءِ فَانْتَبَهَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَحَذَفَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ، فَجَاءَتْ هُذَيْلٌ فَأَخَذُوا الْيَمَانِيَ فَرَفَعُوهُ إِلَى عُمَرَ ﷺ بِالـمَوْسِمِ، وَقَالُوا: قَتَلَ صَاحِبَنَا، فَقَالَ: إِنَّهُمْ قَدْ خَلَعُوهُ، فَقَالَ: يُقْسِمُ خَمْسُونَ مِنْ هُذَيْلٍ مَا خَلَعُوهُ، قَالَ: فَأَقْسَمَ مِنْهُمْ تِسْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ رَجُلًا، وَقَدِمَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مِنَ الشَّأْمِ فَسَأَلُوهُ أَنْ يُقْسِمَ فَافْتَدَى يَمِينَهُ مِنْهُمْ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، فَأَدْخَلُوا مَكَانَهُ رَجُلًا آخَرَ، فَدَفَعَهُ إِلَى أَخِي الْمَقْتُولِ، فَقُرِنَتْ يَدُهُ بِيَدِهِ، قَالُوا: فَانْطَلَقَا وَالْخَمْسُونَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِنَخْلَةَ، أَخَذَتْهُمُ السَّمَاءُ فَدَخَلُوا فِي غَارٍ فِي الْجَبَلِ، فَانْهَجَمَ الْغَارُ عَلَى الْخَمْسِينَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا فَمَاتُوا جَمِيعًا، وَأَفْلَتَ الْقَرِينَانِ وَاتَّبَعَهُمَا حَجَرٌ فَكَسَرَ رِجْلَ أَخِي الْمَقْتُولِ، فَعَاشَ حَوْلًا ثُمَّ مَاتَ.

قُلْتُ: وَقَدْ كَانَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ أَقَادَ رَجُلًا بِالْقَسَامَةِ، ثُمَّ نَدِمَ بَعْدَ مَا صَنَعَ، فَأَمَرَ بِالْخَمْسِينَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا فَمُحُوا مِنَ الدِّيوَانِ وَسَيَّرَهُمْ إِلَى الشَّامِ. [**البخاري في الديات (٦٨٩٩)**].

وحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ عَوْنٍ قَالَ: حَدَّثَنِي سَلْمَانُ أَبُو رَجَاءٍ مَوْلَى أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ أَنَّهُ كَانَ جَالِسًا خَلْفَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَذَكَرُوا وَذَكَرُوا، فَقَالُوا وَقَالُوا: قَدْ أَقَادَتْ بِهَا الْخُلَفَاءُ، فَالْتَفَتَ إِلَى أَبِي قِلَابَةَ وَهْوَ خَلْفَ ظَهْرِهِ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ زَيْدٍ؟ أَوْ قَالَ: مَا تَقُولُ يَا أَبَا قِلَابَةَ؟ قُلْتُ: مَا عَلِمْتُ نَفْسًا حَلَّ قَتْلُهَا فِي الإِسْلَامِ إِلَّا رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، أَوْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ.

فَقَالَ عَنْبَسَةُ: حَدَّثَنَا أَنَسٌ بِكَذَا وَكَذَا، قُلْتُ: إِيَّايَ حَدَّثَ أَنَسٌ ﷺ قَالَ: قَدِمَ قَوْمٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَكَلَّمُوهُ، فَقَالُوا قَدِ اسْتَوْخَمْنَا (أصابنا الوخم بها وكرهنا الإقامة فيها) هَذِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: «**هَذِهِ نَعَمٌ لَنَا تَخْرُجُ، فَاخْرُجُوا فِيهَا، فَاشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا**»، فَخَرَجُوا فِيهَا فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا وَاسْتَصَحُّوا، وَمَالُوا عَلَى الرَّاعِي فَقَتَلُوهُ، وَاطَّرَدُوا النَّعَمَ، فَمَا يُسْتَبْطَأُ مِنْ هَؤُلَاءِ قَتَلُوا النَّفْسَ وَحَارَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، وَخَوَّفُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! فَقُلْتُ: تَتَّهِمُنِي، قَالَ: حَدَّثَنَا بِهَذَا أَنَسٌ، قَالَ: وَقَالَ: يَا أَهْلَ كَذَا! إِنَّكُمْ لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا أُبْقِيَ هَذَا فِيكُمْ أَوْ مِثْلُ هَذَا. [**البخاري في تفسير القرآن (٤٦١٠)**].

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ، حَدَّثَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ أَبُو عُمَرَ الحَوْضِيُّ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ حَدَّثَنَا أَيُّوبُ وَالحَجَّاجُ الصَّوَّافُ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو رَجَاءٍ مَوْلَى أَبِي قِلَابَةَ ـ وَكَانَ مَعَهُ بِالشَّأْمِ ـ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ اسْتَشَارَ النَّاسَ يَوْمًا قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي هَذِهِ القَسَامَةِ؟ فَقَالُوا: حَقٌّ، قَضَى بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَضَتْ بِهَا الخُلَفَاءُ قَبْلَكَ.

قَالَ: وَأَبُو قِلَابَةَ خَلفَ سَرِيرِهِ، فَقَالَ عَنْبَسَةُ بْنُ سَعِيدٍ: فَأَيْنَ حَدِيثُ أَنَسٍ فِي العُرَنِيِّينَ؟ قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: إِيَّايَ حَدَّثَهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ.

قَالَ عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ عَنْ أَنَسٍ ﷺ: مِنْ عُرَيْنَةَ، وَقَالَ أَبُو قِلَابَةَ عَنْ أَنَسٍ ﷺ: مِنْ عُكْلٍ. ذَكَرَ القِصَّةَ. [البخاري في الجهاد (٤١٩٢)].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ اجْتَوَوُا المَدِينَةَ، فَرَخَّصَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَأْتُوا إِبِلَ الصَّدَقَةِ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَاسْتَاقُوا الذَّوْدَ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ الله ﷺ فَأُتِيَ بِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ، وَتَرَكَهُمْ بِالْحَرَّةِ يَعَضُّونَ الحِجَارَةَ. تَابَعَهُ أَبُو قِلَابَةَ وَحُمَيْدٌ وَثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ.

[البخاري في الزكاة (١٥٠١)].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَطَعَ الْعُرَنِيِّينَ وَلَمْ يَحْسِمْهُمْ حَتَّى مَاتُوا. [البخاري في المحاربين (٦٨٠٣)].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: إِنَّمَا سَمَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْيُنَ أُولَئِكَ لِأَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرُّعَاةِ.

[النسائي في تحريم الدم (٤٠٤٣)، وقال الشيخ الألباني: صحيح].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ نَاسًا أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ مِنْ عُكْلٍ فَاجْتَوَوْا المَدِينَةَ فَأَمَرَ لَهُمْ بِذَوْدٍ لِقَاحٍ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا. [مسند أحمد ٢٠/ ٨٥ رقم ١٢٦٣٩، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين].

وعَنْ سَلَمَةَ بن الأَكْوَعِ ﷺ، قَالَ: «كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ غُلَامٌ يُقَالُ لَهُ: يَسَارٌ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ يُحْسِنُ الصَّلَاةَ، فَأَعْتَقَهُ، وَبَعَثَهُ فِي لِقَاحٍ لَهُ بِالْحَرَّةِ، وَكَانَ بِهَا، فَأَظْهَرَ قَوْمٌ الإِسْلَامَ مِنْ عُرَيْنَةَ مِنَ الْيَمَنِ، وَجَاؤوا وَهُمْ مَرْضَى مَوْعُوكُونَ، وَقَدْ عَظُمَتْ بُطُونُهُمْ، فَبَعَثَ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى يَسَارٍ، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ مِنْ أَلْبَانِ الإِبِلِ حَتَّى انْطَوَتْ بُطُونُهُمْ، ثُمَّ عَدَوْا عَلَى يَسَارٍ فَذَبَحُوهُ، وَجَعَلُوا الشَّوْكَ فِي عَيْنَيْهِ، ثُمَّ طَرَدُوا الإِبِلَ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ فِي آثَارِهِمْ خَيْلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَمِيرُهُمْ كُرْزُ بن جَابِرٍ الْفِهْرِيُّ ﷺ، فَلَحِقَهُمْ، فَجَاءَ بِهِمْ، فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ». [مجمع الزوائد ٦/ ٤٦٠-٤٦١ كتاب الديات (١٠٧٥٨)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٧/ ٦رقم ٦٢٢٣] وفيه موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي وهو ضعيف].

وعَنْ عَبْدِ الله بن عُمَرَ ﷺ: أَنَّ نَاسًا أَغَارُوا عَلَى إِبِلِ النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَاقُوهَا، وَارْتَدُّوا عَنِ الإِسْلَامِ، وَقَتَلُوا رَاعِيَ رَسُولِ الله ﷺ مُؤْمِنًا، فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ، فَأُخِذُوا فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ.

قَالَ: وَنَزَلَتْ فِيهِمْ آيَةُ الْمُحَارَبَةِ، وَهُمُ الَّذِينَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ الْحَجَّاجَ حِينَ سَأَلَهُ.

[أبو داود في الحدود (٤٣٦٩)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٤١)، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح، ومجمع الزوائد ٦/ ٤٦٠ كتاب الديات (١٠٧٥٧)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ١٢/ ٣٢٤ رقم ١٣٢٤٧] عن شيخه أحمد بن محمد بن الحجاج بن رشدين وهو ضعيف].

وعَنْ جَرِيرٍ أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ أَغَارُوا عَلَى لِقَاحِ رَسُولِ الله ﷺ «فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، وَأَنْ تُسَمَّرَ [تُسْمَلَ] أَعْيُنُهُمْ». [مجمع الزوائد ٦/ ٤٦١ كتاب الديات (١٠٧٥٩)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني [المعجم الكبير ٢/ ٣٥٨ رقم ٢٥٠٩] وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف].

وعَنْ أَبِي الزِّنَادِ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَـمَّا قَطَّعَ الَّذِينَ سَرَقُوا لِقَاحَهُ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ بِالنَّارِ عَاتَبَهُ اللهُ فِي ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيَةَ كُلَّهَا [المائدة:٣٣].

[النسائي في تحريم الدم (٤٠٤٢)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد].

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ الـمُسَيَّبِ قَالَ: قَدِمَ نَاسٌ مِنْ الْعَرَبِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَأَسْلَمُوا، ثُمَّ مَرِضُوا، فَبَعَثَ بِهِمْ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى لِقَاحٍ لِيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا، فَكَانُوا فِيهَا، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى الرَّاعِي غُلَامِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَتَلُوهُ، وَاسْتَاقُوا اللِّقَاحَ، فَزَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ عَطِّشْ مَنْ عَطَّشَ آلَ مُحَمَّدٍ اللَّيْلَةَ**»، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ فِي طَلَبِهِمْ، فَأُخِذُوا، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ.

وَبَعْضُهُمْ يَزِيدُ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا أَنَّ مُعَاوِيَةَ قَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: اسْتَاقُوا إِلَى أَرْضِ الشِّرْكِ.

[النسائي في تحريم الدم (٤٠٣٦)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد].

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ قَوْمًا أَغَارُوا عَلَى لِقَاحِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأُتِيَ بِهِمْ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَطَّعَ النَّبِيُّ ﷺ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ. اللَّفْظُ لِابْنِ الـمُثَنَّى.

[النسائي في تحريم الدم (٤٠٣٧، ٤٠٣٨، ٤٠٣٩)، وقال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد].

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَالَ: أَغَارَ نَاسٌ مِنْ عُرَيْنَةَ عَلَى لِقَاحِ رَسُولِ الله ﷺ وَاسْتَاقُوهَا، وَقَتَلُوا غُلَامًا لَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ الله ﷺ فِي آثَارِهِمْ، فَأُخِذُوا، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ. [النسائي في تحريم الدم (٤٠٤٠)، وقال الشيخ الألباني: صحيح لغيره].

مصادر ومراجع للدراسة:

أ ـ كتب السنة: جامع الأصول لابن الأثير (٦٠٦هـ) ٣/ ٤٨٦ -٤٩٣، مجمع الزوائد للهيثمي (٨٠٧هـ) ٦/ ٤٦٠-٤٦١، المطالب العالية لابن حجر (٨٥٢هـ) ١٧/ ٤١٢، فتح الباري لابن حجر (٨٥٢هـ) ١/ ٤٠٠-٤٠٧، ٧/ ٥٢٤-٥٢٥، الأساس في السنة لحوى (١٤٠٩هـ) ٢/ ٧٢٣ + ٧٤٨-٧٤٩.

ب ـ كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي: السيرة النبوية لابن إسحاق (١٥٢هـ) بتهذيب ابن هشام (٢١٨هـ) ٢/ ٦٤٠-٦٤١، المغازي للواقدي (٢٠٧هـ) ٢/ ٥٦٨ -٥٧١، الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ) ٢/ ٨٩ -٩٠، دلائل النبوة للبيهقي (٤٥٨هـ) ٤/٨٦-٨٩، الاكتفاء للكلاعي (٦٣٤هـ) ٢/ ٤٣٦ -٤٣٧، تاريخ الإسلام للذهبي (٧٤٨هـ) ١/ ٣٥٦ -٣٥٨، زاد المعاد لابن القيم (٧٥١هـ) ٣/ ٢٨٥-٢٨٦، ٤/ ٤٦-٤٩، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤هـ) ٦/ ٢٤٣-٢٤٦، إمتاع الأسماع للمقريزي (٨٤٥هـ) ١/ ٢٧٢ -٢٧٤، سبل الهدى والرشاد للصالحي (٩٤٢هـ) ٦/ ١٨١-١٩٣.

ج ـ كتب السيرة الحديثة: صحيح السيرة النبوية للعلي ٢٩٧، السيرة النبوية لرزق الله ٤٧٧ -٤٧٨، السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٢٥-٣٢٨.

د ـ كتب الغزوات والسرايا: صلح الحديبية لباشميل ٦٧-٦٨، السرايا الحربية في العهد النبوي لطنطاوي ١٠٦ - ١٠٧، فقه السرايا للعيساوي ١٤٤ + ١٥٨، السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ١٩٩-٢٠٨، مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٥٢-١٧٤.

خرائط سَرِيَّةِ كُرْزِ بْنِ جَابِرٍ ﷺ إِلَى العُرَيْنيين

سـريـة
كُرْز بن جابر الفهري
(عُرَيْـنة)
شوّال ٦ هـ

البحر المتوسط
القدس
البحر الميت
الأردن
البلقاء
مؤتة
وادي السرحان
صحراء النفود الكبرى
القلزم
البتراء
أيلة
ذات أطلاع
سيناء
دومة الجندل
كلب بن وبرة
عذرة
أسد طي
تبوك
حسمى
تيماء
مويلح
ضبا
ذات السلاسل
غمر مرزوق
تميم
(قطن) فيد
الميفعة
الوجه
وادي القرى
فدك
خضرة
نجد
الطرف
خيبر
الخبط
ذو خشب
الغابة
المدينة المنورة
رضوى
بطن نخل
(إلى اليمامة) الجموم
ذو القصة
البكرات
بئر معونة
إضم
ينبع
ودّان
السي
بنو سليم
مصر
بحر القلزم (الأحمر)
العيص
قديد
العيص
ذات عرق
القردة
ثنية المرة
رابغ
كديد
الخرار
عضل
والقارة
عسفان
بطن نخلة
عرنة
مكة
جدة
الرجيع
هوازن
النوبة
الشعيبة
الطائف
تربة
خثعم
بيشة
عسير
نجران
صعدة
همدان
اليمن
صنعاء

أطلس السيرة لأبي خليل ص ١٥٨.

المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من
سَرِيَّةِ كُرْزِ بْنِ جَابِرٍ ﷺ إِلَى العُرَيْنِيين

١ ـ الوقُوفُ عَلَى هَدْيِهِ ﷺ فِي دَاءِ الاسْتِسْقَاءِ وَعِلاجِهِ:

يقول الإمام ابن القيم: «فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ عَرِينَةَ وَعُكْلٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاجْتَوَوْا المَدِينَةَ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ، فَشَرِبْتُمْ مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا**»، فَفَعَلُوا فَلَـمَّا صَحُّوا عَمِدُوا إِلَى الرُّعَاةِ فَقَتَلُوهُمْ، وَاسْتَاقُوا الإِبِلَ، وَحَارَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي آثَارِهِمْ، فَأَخَذُوا فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، وَأَلْقَاهُمْ فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا».

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هَذَا الـمَرَضَ كَانَ الاِسْتِسْقَاءُ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّا اجْتَوَيْنَا المَدِينَةَ، فَعَظُمَتْ بُطُونُنَا، وَارْتَهَشَتْ أَعْضَاؤُنَا... وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ.

وَالْجَوَى: دَاءٌ مِنْ أَدْوَاءِ الْجَوْفِ، وَالاِسْتِسْقَاءُ: مَرَضٌ مَادِّيٌّ سَبَبُهُ مَادَّةٌ غَرِيبَةٌ بَارِدَةٌ تَتَخَلَّلُ الْأَعْضَاءَ فَتَرْبُوا لَهَا إِمَّا الْأَعْضَاءُ الظَّاهِرَةُ كُلُّهَا، وَإِمَّا الْمَوَاضِعُ الْخَالِيَةُ مِنْ النَّوَاحِي الَّتِي فِيهَا تَدْبِيرُ الْغِذَاءِ وَالْأَخْلَاطُ، وَأَقْسَامُهُ ثَلَاثَةٌ: لَحْمِيٌّ، وَهُوَ أَصْعَبُهَا، وزِقِّيٌّ وَطَبْلِيٌّ.

عِلَّةُ الاسْتِشْفَاءِ بِأَبْوَالِ الإِبِلِ وَأَلْبَانِهَا:

وَلَـمَّا كَانَتْ الْأَدْوِيَةُ الْمُحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي عِلَاجِهِ هِيَ الْأَدْوِيَةُ الْجَالِبَةُ الَّتِي فِيهَا إِطْلَاقٌ مُعْتَدِلٌ، وَإِدْرَارٌ بِحَسْبِ الْحَاجَةِ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ مَوْجُودَةٌ فِي أَبْوَالِ الْإِبِلِ وَأَلْبَانِهَا، أَمَرَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ بِشُرْبِهَا فَإِنَّ فِي لَبَنِ اللِّقَاحِ جَلَاءً وَتَلْيِينًا، وَإِدْرَارًا وَتَلْطِيفًا، وَتَفْتِيحًا لِلسُّدَدِ إِذْ كَانَ أَكْثَرُ رَعْيِهَا الشِّيحُ، وَالْقَيْصُومُ، وَالْبَابُونَجُ، وَالْأُقْحُوَانُ، وَالْإِذْخِرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْأَدْوِيَةِ النَّافِعَةِ لِلِاسْتِسْقَاءِ.

وَهَذَا الْمَرَضُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَعَ آفَةٍ فِي الْكَبِدِ خَاصَّةً [(١)] أَوْ مَعَ مُشَارَكَةٍ، وَأَكْثَرُهَا عَنْ السُّدَدِ فِيهَا، وَلَبَنُ اللِّقَاحِ الْعَرَبِيَّةِ نَافِعٌ مِنْ السُّدَدِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ التَّفْتِيحِ وَالْمَنَافِعِ الْمَذْكُورَةِ.

قَالَ الرَّازِيُّ: لَبَنُ اللِّقَاحِ يَشْفِي أَوْجَاعَ الْكَبِدِ وَفَسَادَ الْمِزَاجِ.

وَقَالَ الْإِسْرَائِيلِيُّ: لَبَنُ اللِّقَاحِ أَرَقُّ الْأَلْبَانِ، وَأَكْثَرُهَا مَائِيَّةً وَحِدَّةً، وَأَقَلُّهَا غِذَاءً؛ فَلِذَلِكَ صَارَ أَقْوَاهَا عَلَى تَلْطِيفِ الْفُضُولِ، وَإِطْلَاقِ الْبَطْنِ، وَتَفْتِيحِ السُّدَدِ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مُلُوحَتُهُ الْيَسِيرَةُ الَّتِي فِيهِ لِإِفْرَاطِ حَرَارَةٍ حَيَوَانِيَّةٍ بِالطَّبْعِ؛ وَلِذَلِكَ صَارَ أَخَصَّ الْأَلْبَانِ بِتَطْرِيَةِ الْكَبِدِ، وَتَفْتِيحِ سُدَدِهَا، وَتَحْلِيلِ صَلَابَةِ الطُّحَالِ إِذَا

---

(١) قال الدكتور عادل الأزهري: الاستسقاء مرض يتميز بانتفاخ البطن نتيجة لوجود سائل مصلي داخل التجويف البريتوني، وأسبابه عديدة أهمها تليف الكبد نتيجة البلهارسيا، وهبوط القلب، أو الدرن البريتوني ونحوه، وعلاجه ينصب على علاج المسبب له.

كَانَ حَدِيثًا، وَالنَّفْعُ مِنَ الِاسْتِسْقَاءِ خَاصَّةً إِذَا اسْتُعْمِلَ لِحَرَارَتِهِ الَّتِي يَخْرُجُ بِهَا مِنَ الضَّرْعِ مَعَ بَوْلِ الفَصِيلِ، وَهُوَ حَارٌّ كَمَا يَخْرُجُ مِنَ الحَيَوَانِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُ فِي مُلُوحَتِهِ، وَتَقْطِيعَهُ الفُضُولَ، وَإِطْلَاقَهِ البَطْنِ، فَإِنْ تَعَذَّرَ انْحِدَارُهُ وَإِطْلَاقُهُ البَطْنِ، وَجَبَ أَنْ يُطْلَقَ بِدَوَاءٍ مُسَهِّلٍ.

قَالَ صَاحِبُ «الْقَانُونِ»: وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَا يُقَالُ مِنْ أَنَّ طَبِيعَةَ اللَّبَنِ مُضَادَّةٌ لِعِلَاجِ الِاسْتِسْقَاءِ.

قَالَ: وَاعْلَمْ أَنَّ لَبَنَ النُّوقِ دَوَاءٌ نَافِعٌ لِـمَا فِيهِ مِنْ الْجَلَاءِ بِرِفْقٍ، وَمَا فِيهِ مِنْ خَاصِّيَّةٍ، وَأَنَّ هَذَا اللَّبَنَ شَدِيدُ الْمَنْفَعَةِ، فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا أَقَامَ عَلَيْهِ بَدَلَ الْمَاءِ وَالطَّعَامِ شُفِيَ بِهِ، وَقَدْ جُرِّبَ ذَلِكَ فِي قَوْمٍ دَفَعُوا إِلَى بِلَادِ الْعَرَبِ، فَقَادَتْهُمْ الضَّرُورَةُ إِلَى ذَلِكَ، فَعُوفُوا.

وَأَنْفَعُ الْأَبْوَالِ: بَوْلُ الْجَمَلِ الْأَعْرَابِيِّ، وَهُوَ النَّجِيبُ. انْتَهَى. [زاد المعاد لابن القيم ٤/ ٤٦-٤٨].

ويقول د/ بريك: «قال ابن سينا: الاستسقاء مرض مادي سببه مادة غريبة باردة تتخلل الأعضاء، وتربو فيها، إما الأعضاء الظاهرة كلها، وإما المواضع الخالية من النواحي التي فيها تدبير الغذاء والأخلاط، وأقسامه ثلاثة:

لحمي: ويكون السبب فيه مادة مائية بلغمية تفشو مع الدم في الأعضاء.

والثاني: زقي، يكون السبب فيه مادة مائية تنصب إلى فضاء الجوف الأسفل وما يليه.

والثالث: طبلي، ويكون السبب فيه مادة ريحية تفشو في تلك النواحي.

[القانون في الطب لابن سينا ٢/ ٣٨٤].

وقد عرف الطب الحديث الاستسقاء (Ascites) بأنه عبارة عن تجمع كمية أكبر من الطبيعي من السوائل في التجويف البريتوني (الغشاء المبطن للبطن) ويكون مصحوبًا بقلة تركيز الدم، وتورم في الجسم، وقلة في البول، وهذه الأعراض المرضية هي انعكاس للخلل الذي يحدث في الأملاح المعدنية، والماء، والبروتين التي تكون أحد مضاعفات أمراض الكبد، فإذا ما قل الضغط الإسموزي في بلازما الدم بسبب نقص تناول المواد البروتينية، أو خلل في الكبد، فإن السوائل يتم رشحها في الغشاء البريتوني وذلك ما يسبب انتفاخ البطن. LOOK: ADAMES BRAUNWALD' PETERSDOROF' WISON' PRINSIPLES OF (INTERNAL MEDICINE 1481-1482).

وقال ابن سينا: ولا تلتفت إلى ما يقال: من أن طبيعة اللبن مضادة للاستسقاء، بل اعلم أنه دواء نافع؛ لما فيه من الجلا برفق ولما فيه من خاصية، واعلم أن هذا اللبن شديد المنفعة، فلو أن إنسانًا أقام عليه بدل الماء والطعام لشفي به، وقد جرب ذلك منه قوم دفعوا إلى بلاد العرب فقادتهم الضرورة إلى ذلك فعوفوا.

وألبان اللقاح قد تستعمل وحدها، وقد تستعمل مخلوطة بغيرها من الأدوية، وقد يخلط بأبوال الإبل، وقد يقتصر عليها طعامًا وشرابًا. [القانون في الطب لابن سينا ٢/ ٣٩٢].

وقد ذكر الدكتور أحمد ناظم النسيمي: أن هذا الاستنتاج خطأ، فإن الاستسقاء الحادث بسبب الكبد (أي الحبن بتشمع الكبد) لا يحدث في جماعة معًا ولمدة غير طويلة، ففي الحديث السابق «فاجتووا المدينة»،

والفاء للتعقيب، وفي رواية ابن السني وأبي نعيم: «فلم يمكثوا في المدينة إلا يسيرًا حتى أصابهم وعك شديد»، كما أن تشمع الكبد والحبن الذي قد يصاحبه لا يشفى شفاء تامًّا، وإذا جمعنا الأعراض التي أصيب بها رهط عرينة وعكل وجدناها: توعكًا وحمى وضخامة بطن ونحولًا وضعف القوة واصفرار اللون أي شحوبه، وهذه الأعراض تدل بالنسبة للمدينة المنورة وما يمكن أن ينتشر فيها من أمراض، تدل على أن مرضهم كان حمى المدينة كما تنص رواية أحمد في مسنده، وحمى المدينة سببها أحد مرضين محتملين:

الأول: حميات الإنتانات المعوية، ففيها تنتفخ البطن بسبب انتفاخ الأمعاء.

والثاني: حمى البرداء (الملاريا) وفيها يزداد حجم الطحال وقد يترافق بضخامة الكبد.

وبيئة المدينة المنورة مساعدة على ظهورهما؛ لأن حول المدينة نخيل وزراعة وفي وادي بطحان مياه آسنة، والبعوض الخبيث ناقل لعامل البرداء ويفضل عيشة الريف والمزارع، وقد يوجد في الحدائق القريبة من المدن يضع بيوضه على شاطئ ماء راكد أو على ما فيه من أجسام سابحة، أما جراثيم الإنتانات المعوية فتكثر في المياه الملوثة.

وللقصور في تشخيص الأمراض في ذلك الزمن وندرة الأطباء في الجزيرة العربية، يمكن أن تعد الإصابة بالإنتانات المعوية أو البرداء من حمَّى المدينة، وأن حديث ابن عباس المرفوع «**إن في ألبان الإبل وأبوالها شفاء للذربة بطونهم**» يرجح احتمال الإصابة بالإنتانات المعوية؛ لأن الذرب يدل على فساد الأمعاء، ولم يجر بحث ولا تجارب علمية في العصر الحديث حول الفوائد العلاجية لألبان الإبل وأبوالها.

[ينظر : الطب النبوي والعلم الحديث ـ د/ محمود ناظم النسيمي ٢/ ٢٤٠-٢٤١].

قلت: ورواية ابن إسحاق: «**فَاسْتَوْبَؤُوا، وَطَحِلُوا**» ترجح إصابتهم بالبرداء، إذًا فالاحتمالان متقاربان، وربما يكونوا قد أصيبوا بهما معًا، والله أعلم.

ويا حبذا لو يكون هناك قسم في الجامعة يقوم بالأبحاث حول الطب النبوي والأدوية النبوية؛ وذلك لإبراز الفوائد العلاجية لتلك الأدوية، وخاصة بعض الأدوية التي لم يجر حولها أبحاث حتى الآن، مثل: السَّنا، والإثمد، والحجامة، وألبان الإبل وأبوالها، وغيرها كثير، فإن أكثر العوام بل أكثر المثقفين من غير أهل العلم لا يعرفون عن هذه الأدوية شيئًا يذكر لبعدهم عن كتب الحديث».

[السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ٢٠٢-٢٠٣].

٢ ـ طهارة بول ما يؤكل لحمه وجواز التداوي ببول الإبل:

يقول الإمام ابن حجر: «وَأَمَّا شُرْبُهُمْ الْبَوْلَ فَاحْتَجَّ بِهِ مَنْ قَالَ بِطَهَارَتِهِ، أَمَّا مِنْ الْإِبِلِ فَبِهَذَا الْحَدِيثِ، وَأَمَّا مِنْ مَأْكُولِ اللَّحْمِ فَبِالْقِيَاسِ عَلَيْهِ، وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ وَأَحْمَدَ وَطَائِفَةٍ مِنْ السَّلَفِ، وَوَافَقَهُمْ مِنْ الشَّافِعِيَّةِ

اِبْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ الْمُنْذِرَ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالاصْطَخْرِيُّ، وَالرُّويَانِيُّ، وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَالْجُمْهُورُ إِلَى الْقَوْلِ بِنَجَاسَةِ الْأَبْوَالِ وَالْأَرْوَاثِ كُلِّهَا مِنْ مَأْكُولِ اللَّحْمِ وَغَيْرِهِ.

وَاحْتَجَّ اِبْنُ الْمُنْذِرِ لِقَوْلِهِ بِأَنَّ الْأَشْيَاءَ عَلَى الطَّهَارَةِ حَتَّى تَثْبُتَ النَّجَاسَةُ، قَالَ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ هَذَا خَاصٌّ بِأُولَئِكَ الْأَقْوَامِ لَمْ يُصِبْ، إِذْ الْخَصَائِصُ لَا تَثْبُتُ إِلَّا بِدَلِيلٍ، قَالَ: وَفِي تَرْكِ أَهْلِ الْعِلْمِ بَيْعَ النَّاسِ أَبْعَارَ الْغَنَمِ فِي أَسْوَاقِهِمْ، وَاسْتِعْمَالِ أَبْوَالِ الْإِبِلِ فِي أَدْوِيَتِهِمْ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ دَلِيلٌ عَلَى طَهَارَتِهَا.

قُلْتُ: وَهُوَ اِسْتِدْلَالٌ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ الْمُخْتَلَفَ فِيهِ لَا يَجِبُ إِنْكَارُهُ، فَلَا يَدُلُّ تَرْكُ إِنْكَارِهِ عَلَى جَوَازِهِ، فَضْلًا عَنْ طَهَارَتِهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى نَجَاسَةِ الْأَبْوَالِ كُلِّهَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ قَرِيبًا: «**دَعُوهُ وَهَرِيقُوا [وَأَهْرِيقُوا] عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**».

[البخاري في الوضوء (٢٢٠)، وفي الأدب (٦١٢٨)، وأبو داود في الطهارة (٣٨٠)، والترمذي في الطهارة (١٤٧)، والنسائي في الطهارة (٥٦)، وفي المياه (٣٣٠)].

وَقَالَ اِبْنُ الْعَرَبِيِّ: تَعَلَّقَ بِهَذَا الْحَدِيثِ مَنْ قَالَ بِطَهَارَةِ أَبْوَالِ الْإِبِلِ، وَعُورِضُوا بِأَنَّهُ أَذِنَ لَهُمْ فِي شُرْبِهَا لِلتَّدَاوِي، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ التَّدَاوِيَ لَيْسَ حَالَ ضَرُورَةٍ بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ، فَكَيْفَ يُبَاحُ الْحَرَامُ لِمَا لَا يَجِبُ؟ وَأُجِيبَ بِمَنْعِ أَنَّهُ لَيْسَ حَالَ ضَرُورَةٍ، بَلْ هُوَ حَالُ ضَرُورَةٍ إِذَا أَخْبَرَهُ بِذَلِكَ مَنْ يُعْتَمَدُ عَلَى خَبَرِهِ، وَمَا أُبِيحُ لِلضَّرُورَةِ لَا يُسَمَّى حَرَامًا وَقْتَ تَنَاوُلِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩]، فَمَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ الْمَرْءُ فَهُوَ غَيْرُ مُحَرَّمٍ عَلَيْهِ كَالْمَيْتَةِ لِلْمُضْطَرِّ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَمَا تَضَمَّنَهُ كَلَامُهُ مِنْ أَنَّ الْحَرَامَ لَا يُبَاحُ إِلَّا لِأَمْرٍ وَاجِبٍ غَيْرُ مُسَلَّمٍ، فَإِنَّ الْفِطْرَ فِي رَمَضَانَ حَرَامٌ، وَمَعَ ذَلِكَ فَيُبَاحُ لِأَمْرٍ جَائِزٍ كَالسَّفَرِ مَثَلًا.

وَأَمَّا قَوْلُ غَيْرِهِ لَوْ كَانَ نَجِسًا مَا جَازَ التَّدَاوِي بِهِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَ أُمَّتِي فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْهَا**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ ﷺ، وَسَتَأْتِي لَهُ طَرِيقٌ أُخْرَى فِي الْأَشْرِبَةِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، وَالنَّجَسُ حَرَامٌ فَلَا يُتَدَاوَى بِهِ؛ لِأَنَّهُ غَيْرُ شِفَاءٍ.

فَجَوَابُهُ: أَنَّ الْحَدِيثَ مَحْمُولٌ عَلَى حَالَةِ الِاخْتِيَارِ.

وَأَمَّا فِي حَالِ الضَّرُورَةِ فَلَا يَكُونُ حَرَامًا كَالْمَيْتَةِ لِلْمُضْطَرِّ، وَلَا يَرِدُ قَوْلُهُ ﷺ فِي الْخَمْرِ: «**إِنَّهَا لَيْسَتْ بِدَوَاءٍ إِنَّهَا دَاءٌ**» فِي جَوَابِ مَنْ سَأَلَهُ عَنْ التَّدَاوِي بِهَا فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِم، فَإِنَّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِالْخَمْرِ، وَيَلْتَحِقُ بِهِ غَيْرُهَا مِنْ الْمُسْكِرِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمُسْكِرِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنْ النَّجَاسَاتِ أَنَّ الْحَدَّ يَثْبُتُ بِاسْتِعْمَالِهِ فِي حَالَةِ الِاخْتِيَارِ دُونَ غَيْرِهِ؛ وَلِأَنَّ شُرْبَهُ يَجُرُّ إِلَى مَفَاسِدَ كَثِيرَةٍ، وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِي الْخَمْرِ شِفَاءً، فَجَاءَ الشَّرْعُ بِخِلَافِ مُعْتَقَدِهِمْ، قَالَهُ الطَّحَاوِيُّ بِمَعْنَاهُ.

وَأَمَّا أَبْوَالُ الْإِبِلِ فَقَدْ رَوَى اِبْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ اِبْنِ عَبَّاسٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «**أَنَّ فِي أَبْوَالِ الْإِبِلِ شِفَاءً لِلذَّرِبَةِ بُطُونُهُمْ**» وَالذَّرَبُ فَسَادُ الْمَعِدَةِ، فَلَا يُقَاسُ مَا ثَبَتَ أَنَّ فِيهِ دَوَاءً عَلَى مَا ثَبَتَ نَفْيُ الدَّوَاءِ عَنْهُ وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يَحْصُلُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ، وَالْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهَا كُلِّهَا.

[فتح الباري ١/ ٤٠٠ كتاب الوضوء باب أبوال الإبل والدواب والغنم ومرابضها ح رقم ٢٣٣].

وقال الإمام ابن القيم: وَفِي الْقِصَّةِ: دَلِيلٌ عَلَى التَّدَاوِي وَالتَّطَبُّبِ وَعَلَى طَهَارَةِ بَوْلِ مَأْكُولِ اللَّحْمِ، فَإِنَّ التَّدَاوِي بِالْمُحَرَّمَاتِ غَيْرُ جَائِزٍ [يقول الشيخ الأرناؤوط: هذا غير متفق عليه، ودليل المجيز أنه لا يكون حينئذ حرامًا]، وَلَمْ يُؤْمَرُوا مَعَ قُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالْإِسْلَامِ بِغَسْلِ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا أَصَابَتْهُ ثِيَابُهُمْ مِنْ أَبْوَالِهَا لِلصَّلَاةِ، وَتَأْخِيرُ الْبَيَانِ لَا يَجُوزُ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ. [زاد المعاد لابن القيم ٤/ ٤٨].

ويقول د/ العيساوي: «استدل بحادثة عرينة مَنْ قال بطهارة بول ما يؤكل لحمه، وهو مذهب العترة والنخعي والأوزاعي والزهري ومالك وأحمد وزفر وطائفة من السلف، ووافقهم من الشافعية: ابن خزيمة وابن المنذر وابن حبان والاصطخري والروياني.

أما في الإبل فبالنص، وإما في غيرها مما يؤكل لحمه فبالقياس.

قال ابن المنذر: ومن زعم أن هذا خاص بأولئك الأقوام فلم يصب، إذ الخصائص لا تثبت إلا بدليل، ويؤيد ذلك تقرير أهل العلم لمن يبيع أبعار الغنم في أسواقهم، واستعمال أبوال الإبل في أدويتهم [نيل الأوطار للشوكاني ١/ ٦٠]، ويؤيده أيضًا أن الأشياء على الطهارة حتى تثبت النجاسة.

[المصدر نفسه، والروضة الندية ١/ ١٦، والمغني ١/ ٤١٤].

والحكم بنجاستها حكم تكليفي تعم به البلوى ولا يحل إلا بعد قيام الحجة. [الروضة الندية ١/ ١٦].

وفي المغني: طهارة بول وروث ما يؤكل لحمه، حيث إن النبي ﷺ أمر العرنيين أن يشربوا من أبوال الإبل، والنجس لا يباح شربه، ولو أبيح للضرورة لأمرهم بغسل أثره إذا أرادوا الصلاة.

[نيل الأوطار للشوكاني ١/ ٦١، والمحلى لابن حزم ١/ ٧٠، وشرح فتح القدير ١/ ٧٨].

وقال الشافعية بنجاسة جميع الأبوال والأزبال ووافقهم الحنفية ونسبه في الفتح إلى الجمهور، ورواه ابن حزم في المحلى عن جماعة من السلف «بالحديث المتفق عليه أنه ﷺ مر بقبرين فقال: «**إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، ثُمَّ قَالَ: بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لا يَسْتَتِرُ [يَسْتَنْزِهُ] مِنْ بَوْلِهِ،...**» الحديث.

[البخاري في الوضوء (٢١٦)، وفي الأدب (٦٠٥٥)، وأبو داود في الطهارة (٢٠)، والترمذي في الطهارة (٧٠)، والنسائي في الطهارة (٣١)، وفي الجنائز (٢٠٦٨)].

قالوا: فعم جنس البول، ولم يخصه ببول الإنسان ولا أخرج عنه بول المأكول وهذا الحديث غاية ما تمسكوا به.

وأجيب عنه بأن المراد بول الإنسان لما في صحيح البخاري بلفظ: «**كَانَ لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ**»، قال البخاري: ولم يذكر سوى بول الناس، فالتعريف في البول للعهد، قال ابن البطال: أراد البخاري أن المراد بقوله: كان لا يستتر من بول الإنسان، لا بول سائر الحيوان، فلا يكون فيه حجة لمن حمله على العموم في

بول جميع الحيوان، وكأنه أراد الرد على الخطابي حيث فيه دليل على نجاسة الأبوال كلها، قال في الفتح: ومحصل الرد أن العموم في رواية من البول أريد به المخصوص، لقوله من بوله، والألف واللام بدل الضمير. انتهى.

والظاهر طهارة البول والأزبال من كل حيوان يؤكل لحمه تمسكًا بالأصل واستصحابًا للبراءة الأصلية، والنجاسة حكم شرعي ناقل عن التحكم الذي يقتضيه الأصل والبراءة، فلا يقبل قول مدعيها إلا بدليل يصلح للنقل عنهما، ولم نجد للقائلين بالنجاسة دليلًا كذلك، وغاية ما جاؤوا به حديث صاحب القبر وهو مع كونه مرادًا به الخصوص ما سلف عموم ظني الدلالة لا ينتهض على معارضته تلك الأدلة المعتضدة بما سلف [**نيل الأوطار للشوكاني ١/ ٦١**]». [**فقه السرايا للعيساوي ١٥٧-١٥٩**].

٣ ـ مناقشة حول عقوبة الرسول ﷺ للعُرَيْنيين:

يقول الشيخ أبو زهرة: «وفي هذه القصة أخبارٌ نجدُ من الواجب أن نذكرها، ونبين مقدار الاطمئنان في الرواية ونسبتها إلى رسول الله ﷺ.

جاء في البخاري ومسلم عن أَبِي قِلاَبَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﵁ قَالَ: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قَوْمٌ مِنْ عُكْلٍ أَوْ عُرَيْنَةَ، فَاجْتَوَوُا المَدِينَةَ... الحديث.

ولقد قال كمال الدين بن الهمام من كبار فقهاء الحنفية: رواه جماعة المحدثين.

ولكن مهما تكن عدد المصادر التي روته، فإنه حديث آحاد، وأن أهل الخبرة في علم الحديث يقولون: إن رواته ثقات، وأن سنده متصل، وأنه لا إنكار في سنده، وإن كان آحادًا، ولكنا ننظر في متنه، فإن الحديث يضعف بإحدى طريقين: إما بضعف سنده، أو بضعف متنه بأن يكون مخالفًا للمقررات الشرعية.

وإنا نرى أن متنه يخالف المبادئ التي قررها النبي ﷺ لوجوه.

أولها: أن فيه مُثلة، بسمل الأعين، وأن المثلة منهي عنها، وإن قالوا: إن المثلة لم يكن قد نهي عنها، فإننا أولًا نقرر أن النبي ﷺ لم يمثل بأحد من قتلى أُحُد، ولا من قتلى الخندق، فدل هذا على أنها كان منهيًا عنها من قبل، وإن قيل: إن الصحابة فعلوا معهم ذلك؛ لأنهم ارتكبوا ما يوجب حدًا، وإذا كان الحد، فهو حد الحرابة الذي بينه الله تعالى بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة]، إلى آخر الآيات، وليس فيها سمل الأعين، ولا يقال: إن النبي ﷺ لم يأمر به؛ لأنه علمه في الرواية ولم ينكر.

ثانيها: أن النبي ﷺ نهى عن القتل عطشًا، ولقد قالت الرواية: إنه تركهم يموتون عطشًا ـ حتى إنهم كانوا يكدمون الأرض من شدة العطش حتى ماتوا، ولا يقال: إن النبي ﷺ ما أمر بذلك، ولكن مفهوم هذه الرواية أنه علم ولو ينكر.

ثالثها: أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ**».

[مسلم في الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (١٩٥٥)، وأبو داود في الضحايا (٢٨١٥)، والترمذي في الديات (١٤٠٩)، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٥، ٤٤١١، ٤٤١٢، ٤٤١٣، ٤٤١٤)].

وإن القتل قصاصًا لا يبرر ذلك، والنبي ﷺ لم يكن ليبيح ذلك في الحرب على أنهم ربما يعتبرون مقاتلين.

والخلاصة أننا لا نرى أن ذلك الخبر تصح نسبته للنبي ﷺ؛ ولذلك لا نقول: إنه صحيح النسبة لرسول الله ﷺ». **[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٦٨-٨٦٩].**

ويقول د/ بريك: «وقد يتصور البعض أن هذا العقاب كان جائرًا وشديدًا، لكن بالنظر إلى ما قام به هؤلاء من جرائم، وقياسًا لما فعلوه من أعمال لا يقرها العقل؛ فضلًا عن الدين الذي تمرَّدوا عليه وارتدوا عنه، فنقول: إن العقاب الذي نالهم كان عادلًا، وكان الجزاء من جنس العمل، فهم قد ارتدوا عن الإسلام، وقتلوا وسرقوا ومثَّلوا وحاربوا الله ورسوله واستهانوا بكل المبادئ والقيم الإنسانية».

[السرايا والبعوث حول المدينة ومكة لبريك ٢٠٦].

٤ ـ بيان حكم المحاربة (١) والإفساد في الأرض:

يقول د/ العيساوي: «والأصل في حكمهم قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة]، وسبب نزولها كما تقدم حادثة العرنيين، وكانوا ارتدوا عن الإسلام وقتلوا الرعاة، فاستاقوا إبل الصدقة فبعث النبي ﷺ من جاء بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وألقاهم في الحرة حتى ماتوا.

ويلاحظ من الحديث وقوع التمثيل بالعرنيين، فهو كان قصاصًا ومعاملة بالمثل ولما فعلوه بالرعاة لأنهم سملوا أعينهم. **[نيل الأوطار للشوكاني ٨/ ٧٥].**

---

(١) **المحارب** ـ ويسمى قاطع الطريق ـ: وهو من شهر السلاح على الناس بغير حق، وكابرهم على أنفسهم وأموالهم.

وقد اتفق الفقهاء على أن: من فعل ذلك في الصحراء يكون له حكم المحارب.

فإن فعل ذلك في المصر فهو محارب أيضًا عند مالك والشافعي.

وقال أبو حنيفة، وأحمد: من فعل ذلك في المصر، فليس له حكم المحارب.

ينظر: المغني لابن قدامة ١٠/ ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، وفقه الإمام سعيد بن المسيب ٤/ ١٤٩.

ثم بعد ذلك نسخت المثلة ـ قال الزهري ـ بعد ذكر مجيء نفر من عرينة.

إن رسول الله ﷺ نهى عن المثلة، وقال ابن سيرين ـ بعد ذكر حديث العرنيين ـ: إن ذلك كان قبل أن تنزل الحدود.

وعن سعيد بن جبير ـ بعد ذكر هذه الحادثة ـ قال: فما مثل رسول الله ﷺ قبل ولا بعد ونهى عن المثلة وقال: لا تمثلوا بشيء. [فتح الباري لابن حجر ٧/ ٣٦٩، والاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الأخبار ص٢٠٨-٢١١].

ويلاحظ أن هذه الأقوال افترضت وقوع التمثيل بالعرنيين، في حين أن الشافعي لا يسلم بوقوع ذلك، بدليل حديث أنس المتقدم، وكان علي بن حسين (هو علي بن الحسين بن حرب الملقب بأبي عبيد، فقيه مجتهد، من القضاة. له تصانيف توفي سنة (٣١٩ هـ). ينظر الزحيلي ص٤٥٨) ينكر حديث أنس في أصحاب اللقاح، أخبرنا ابن أبي يحيى عن جعفر عن أبيه علي بن حسين قال: لا والله ما سمل رسول الله ﷺ عينًا، ولا زاد أهل اللقاح على قطع أيديهم وأرجلهم. [الأم للشافعي ٤/ ١٦٢].

ولا خلاف بين العلماء في أن عقوبة قاطع الطريق أو المحارب هي: القتل والصلب، وقطع يده ورجله من خلاف، والنفي [(١)].

لكنهم اختلفوا في هذه العقوبات:

هل هي على التخيير؟ بمعنى: أن الإمام مخير بين إيقاعها كلها أو بعضها على قاطع الطريق حسب ما يراه مناسبًا، مع قطع النظر عما ارتكبه قاطع الطريق من جرائم.

أو هي على الترتيب؟ بمعنى: أن كل واحدة منها قد شُرعت لتكون عقوبة لجريمة معينة من جرائم قطع الطريق.

---

(١) **الصلب**: اختلف العلماء في كيفيته:

فقال بعضهم: يقتل ثم يصلب. وبه قال أحمد، وهو ظاهر مذهب الشافعي.

وقال بعضهم: يصلب حيًّا ثم يطعن حتى يموت. وبه قال أبو حنيفة ومالك والليث بن سعد.

قطع اليد والرجل من خلاف: هو أن تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى.

النفي: اختلف العلماء في المراد منه: فقال بعضهم: يطلبهم الإمام في كل بلد يجدهم فيه، فيخرجهم منه ويشردهم ولا يتركهم يأوون إلى بلد. وبه قال سعيد بن جبير، وعمر بن عبد العزيز، والزهري، وأحمد.

وقال أبو حنيفة: يسجنون.

وقال مالك: ينفي قاطع الطريق من البلد الذي فارق فيه إلى بلد آخر ويسجن فيه.

وقال الشافعي: يطلبهم الإمام ليقيم عليهم الحد.

وقد فسر بعض الشافعية النفي بأنه: التعزير الذي يوقعه الإمام من حبس أو غيره، على من أخاف السبيل دون أن يأخذ مالًا أو يقتل نفسًا. ينظر: تفسير القرطبي ٦/ ١٥١، الجصاص ٢/ ٥٠٠ والمغني١٠/ ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ومغني المحتاج / ص١٨١، والهداية ٢/ ٩٨ وما بعدها، وفقه سعيد بن المسيب ٤/ ١٥٠.

فذهب الجمهور إلى أن العقوبات السابقة مرتبة على حسب الجريمة التي يرتكبها قاطع الطريق.

فإن أخاف الطريق ولم يقتل ولم يأخذ المال: نفي.

وإن أخذ المال فقط: قطعت يده ورجله من خلاف.

وإن قتل ولم يأخذ المال: قتل.

وإن قتل وأخذ المال فهنا اختلفوا:

فذهب أبو حنيفة والنخعي إلى: أن الإمام مخير بين أربعة أمور:

إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله من خلاف وصلبه، وإن شاءت قطعه وصلبه.

وذهب ابن عباس، والحسن، وقتادة، والشافعي، وأحمد، وصاحبا أبي حنيفة إلى: أنه يقتل ويصلب.

[ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/ ٥٠، والجصاص ٢/ ٤٩٦، وتفسير النيسابوري هامش الطبري ٦/ ١٤٢، وحلية العلماء/ باب قطع الطريق، والرحمة في اختلاف الأئمة/ باب قطع الطريق، وابن العربي ٢/ ٢٤٨، وعون المعبود ٤/ ٢٢٣، والقرطبي ٦/ ١٥٢، ونيل الأوطار/٧/ ١٣٠، والهداية ٢/ ٩٨- ٩٩، ومسائل من الفقه المقارن للدكتور هاشم جميل ق١ ص١٤].

وحجتهم أن العقوبات متفاوتة، والجرائم متفاوتة، فإذا لم تحمل كلمة (أو) على معنى التوزيع وحملت على التخيير فإن ذلك يقتضي عندئذ ترتيب أغلظ العقوبات على أخف الجرائم، وأخف العقوبات على أغلظ الجرائم، وهذا يتنافى مع عدل الشارع.

بينما اختار الإمام مالك وآخرون كلمة (أو) على التخيير، وعليه يكون للسلطان توقيع ما شاء من هذه العقوبات على من شاء من المحاربين الذي يسعون في الأرض فسادًا: سواء قتلوا أو لم يقتلوا وسواء أخذوا المال أو لم يأخذوا. **[مسائل في الفقه المقارن ـ هاشم جميل ـ القسم الأول ص١٤].**

ويمكن لأصحاب هذا المذهب أن يدفعوا المحذور الذي ذكره الجمهور بأن تخيير السلطان لا يتبع فيه الهوى وإنما هو مقيد بالمصلحة، فالمراد بالآية: إن السلطان مخير في اتخاذ ما يراه دارئًا للفساد، محققًا للمصلحة، فقد يرى السلطان أن وجود عصابة مفسدة تخيف الناس وترهبهم أشد خطرًا على الأمة من قتل شخص فقط أو من قتله وأخذ ماله». **[الإسلام عقيدة وشريعة ص٥٢٨ وما بعدها، ومسائل من الفقه المقارن ـ القسم الأول ص١٥]. [فقه السرايا للعيساوي ١٥٩-١٦٣].**

٥ ـ حد الحرابة:

يقول الشيخ أبو زهرة: «الفقهاء يسوقون قصة العرنيين وما نُسب إلى رسول الله ﷺ سبب في حد الحرابة أو قطع الطريق، ويرون أن ما نُسب إلى النبي ﷺ فعله ينطبق على ما نص الله تعالى في كتابه من حد قطاع الطريق، ولكن ذكرنا أن ما نسب إلى النبي ﷺ فعله، لا ينطبق كله على ما في حد الحرابة، فليس في

نص القرآن الكريم سمل الأعين، كما أنه ليس في نص القرآن الكريم القتل بالعطش، حتى يكدمون الأرض من شدة العطش، فلا يستسقون، وقد كذبنا نسبته للنبي ﷺ.

ومهما يكن فإننا نذكر النص القرآني في هذا المقام، ومدى ما ينطبق من قصة العرنيين عليه.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة].

ولا شك إن وصف الحرابة ينطبق على هؤلاء العرنيين، وقد نزلت بعض عقوباتها، وهو قطع الأرجل والأيدي.

وما دمنا قد تعرضنا للحرابة أو قطع الطريق، فإنه يجب أن نشير لبعض أحكامه، على قدر ما يتسع له المقام في سيرة النبي ﷺ الطاهرة، ويترك تفصيله لكتب الفقه، ولموضعه من بحوثنا في **كتاب الجريمة وكتاب العقوبة في الفقه الإسلامي**.

المحاربون أو قُطاع الطريق ناس يخرجون متفقين على القتل أو السرقة، وتكون لهم قوة يقاومون بها الدولة إفسادًا من غير تأويل يتأولونه، بل سعيًا بالشر والإفساد، ونرى ما يراه المالكية أنه لا تقتصر جرائم الحرابة على القتل والسرقة، بل تشمل كل المعاصي، كالزنا وشرب الخمر، ويدخل فيها كل المخدرات سواء أكانت سائلة أم جامدة، وسواء أكانت تتناول بالشرب أم بالتدخين.

وسواء أكانت هذه القوة التي يكونها المحاربون في مدينة أم غير مدينة ما داموا يستطيعون أن يقوموا بجرائمهم بعيدين عن أن يجاب المستغيث إذا استغاث، وللفقهاء كلام وخلاف في هذا المقام.

ويعد من المحاربين الجماعة التي تتفق على ارتكاب جرائمها بطريق الغيلة وذلك في رأي مالك، والنص القرآني يحتمل ذلك كله.

والعقوبات المقررة، هي القتل، والصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف والنفي من الأرض بالإبعاد في مكان ناء لا يستطيعون فيه ارتكاب جرائمهم، وعد الإمام أبو حنيفة أن من النفي السجن؛ لأن المقصود منع اجتماعهم.

وأكثر الفقهاء أن الإمام العادل يضع العقوبة على قدر الجريمة، فإن تولوا القتل قُتلوا ولا فرق بين من باشره، ومن لم يباشره؛ لأن من لم يباشره كان معينًا مع من باشره.

وإذا سرقوا وقتلوا، قُتلوا وصلبوا، ويستوي في العقوبة المباشر وغير المباشر.

وإذا سرقوا وانتهبوا الأموال ولم يقتلوا فإنه تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فإذا قطعت اليد اليمنى، يقطع معها الرجل اليسرى.

وإذا كانوا قد اتفقوا وهموا بالشر، ولكن لم يمكنوا فإن العقوبة تكون النفي، بتفريقهم بعيدًا عن مكان تجمعهم.

هذا ما اختاره جمهور الفقهاء تابعين للتابعين في أقوالهم، ومن الصحابة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ويرى الإمام مالك رضي الله عنه أن الإمام مخير في هذه العقوبة أيًّا كانت الجريمة التي ارتكبوها؛ لأن الجريمة الأصلية هي الاتفاق على ارتكاب هذه المعاصي، ولو لم يمكنوا من تنفيذ إحداها، والإمام ينظر إلى ما هو الأنجع في ردعهم». [**خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٨٦٩-٨٧١**].

٦ ـ القصاص من الجماعة بالواحد:

يقول د/ القرشي: «استدل العلماء من هذه السرية على جواز القصاص من الجماعة بالواحد [**فتح الباري ١/ ٤٢٧، منحة الباري ١/ ٥٣٢، المفهم ٥/ ١٩**]، وذلك من قتل النبي ﷺ للبجليين بسبب أنهم قتلوا راعى الرسول ﷺ يسار، وهذا ما بيناه آنفًا.

وللعلماء في هذه المسألة ثلاثة أراء:

الأول: وهو أن الجماعة إذا قتلوا واحدًا، فعلى كل واحد منهم القصاص إذا كان كل واحد منهم لو انفرد بفعله وجب عليه القصاص.

روي ذلك عن عمر، وعلي، والمغيرة بن شعبة، وابن عباس، وبه قال: سعيد بن المسيب، والحسن، وعطاء، وقتادة، وهو مذهب مالك، والثوري، والأوزاعي، والشافعي، وإسحاق، وأبي ثور، وأصحاب الرأي. [**الأم ص١١٤١، الحاوي ١٢/ ٢٦، المهذب ٣/ ١٧٣، المغني ٩/ ٣٦٧، اللباب ٣/ ١٥٠، القوانين الفقهية ص٥١٧**]، وهو رأى الجمهور.

الرأي الثاني: للولي أن يقتل به من الجماعة واحدًا يرجع فيه إلى خياره، ويأخذ من الباقين قسطهم من الدية، وهو قول: معاذ بن جبل، وابن الزبير، وابن سيرين، والزهري. [**الحاوي ١٢/ ٢٦، المغني ٩/ ٣٦٧**].

الرأي الثالث: لا يُقتلون به وتجب عليهم الدية بالسوية، وهذا قول: ربيعة بن أبي عبد الرحمن، وداود بن علي، وأهل الظاهر. [**الحاوي ١٢/ ٢٦، المغني ٩/ ٣٦٧**].

واستدل أصحاب الرأي الثالث بقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥].

وبقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ﴾ [البقرة:١٧٨]، فاقتضى هذا الظاهر أن لا تقتل بالنفس أكثر من نفس، ولا بالحر أكثر من حر، وبقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء].

ومن السرف قتل الجماعة بالواحد. وغير ذلك من الأدلة.

ودليل الجمهور: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]، قالوا: وسبب الحياة أنه إذا علم القاتل بوجوب القصاص عليه إذا قتل كف عن القتل، فحيَّ القاتل والمقتول، فلو لم تقتص من الجماعة

بالواحد، لما كان في القصاص حياة، ولكان القاتل إذا همَّ بالقتل شارك غيره فسقط القصاص عنهما وصار رافعًا لحكم النص. [الحاوي ١٢/ ٢٦].

ومن دليلهم إجماع الصحابة ﷺ، وحديث ابْنِ عُمَرَ ﷺ، أَنَّ غُلَامًا قُتِلَ غِيلَةً (غفلة وخديعة)، فَقَالَ عُمَرُ: «**لَوِ اشْتَرَكَ فِيهَا أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتُهُمْ**»، وَقَالَ مُغِيرَةُ بْنُ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ: «إِنَّ أَرْبَعَةً قَتَلُوا صَبِيًّا»، فَقَالَ عُمَرُ: مِثْلَهُ وَأَقَادَ (أمر بالقود وهو القصاص) أَبُو بَكْرٍ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ، وَعَلِيٌّ وَسُوَيْدُ بْنُ مُقَرِّنٍ مِنْ لَطْمَةٍ (هي الضرب بالكف على الوجه) وَأَقَادَ عُمَرُ، مِنْ ضَرْبَةٍ بِالدِّرَّةِ (الآلة التي يضرب بها كالسوط والعصا) وَأَقَادَ عَلِيٌّ، مِنْ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ (ثلاث جلدات زادها مقيم الحد على المجلود فاعترف بذلك فأمر المجلود أن يقتص منه ويضربه مقابلها)، وَاقْتَصَّ شُرَيْحٌ، مِنْ سَوْطٍ وَخُمُوشٍ (جمع خمش وهو جرح ظاهر البشرة).

[**البخاري في الديات (٦٨٩٦)**].

وحديث سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَتَلَ نَفَرًا، خَمْسَةً أَوْ سَبْعَةً بِرَجُلٍ وَاحِدٍ قَتَلُوهُ قَتْلَ غِيلَةٍ، وَقَالَ عُمَرُ ﷺ: «لَوْ تَمَالَأَ عَلَيْهِ (أي تَساعَدوا واجتمعوا وتعاونوا. النهاية ٤/ ٣٥٣) أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتُهُمْ جَمِيعًا». [**موطأ مالك كتاب العقول (١٣)**].

وعن علي ﷺأنه قتل ثلاثة قتلوا رجلًا.

وعن ابن عباس ﷺ أنه قتل جماعة بواحد.

ولم يعرف لهم في عصرهم مخالف فكان إجماعًا؛ ولأنها عقوبة تجب للواحد على الواحد فوجبت للواحد على الجماعة، كحد القذف، ويفارق الدية فإنها تتبعض، والقصاص لا يتبعض.

[**الحاوي ١٢/ ٢٦، المغني ٩/ ٣٦٧**].

وردوا على ما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ [البقرة:١٧٨] بأن هذا مستعمل في الجنس؛ لأن النفس تنطق على النفوس، والحر ينطق على الأحرار، وقوله: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء:٣٣] يريد أن لا يقتل غير قاتله، على أن قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣] يقتضى أن يكون سلطانه في الجماعة كسلطانه في الواحد فصارت الآية دليلنا.

[**الحاوي ١٢/ ٢٦، المغني ٩/ ٣٦٧**].

ورأى الجمهور هو ما أميل إليه». [**مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٦٣-١٦٦**].

٧ـ حكم المُثْلَة:

يقول د/ القرشي: «الكلام في هذا الحكم يحتاج أولًا أن نبين أنه قد اختلف العلماء في فعل الرسول ﷺ بالبجليين من القتل وسمر أعينهم بالنار، هل هذا الفعل قصاصًا أم مُثْلَة ؟

والعلماء في ذلك على رأيين:

الأول: يرى أن فعل النبي ﷺ قصاص وليس مُثْلَة؛ لأنهم فعلوا براعي الغنم مثل ذلك، وأصحاب هذا الرأي لا يرون نسخًا في الآية، من هؤلاء الإمام ابن الجوزي، وابن دقيق العيد.

[فتح الباري ١/ ٤٢٦، المنهاج شرح النووي ص١٠٦٩، السراج الوهاج ٦/ ٢٨٥، المفهم ٥/ ٢٠، تحفة الأحوذي ١/ ٢٤٦، الكوكب الداري ١/ ١٠٥، نيل الأوطار ٩/ ١٦٣].

الرأي الثاني: وهؤلاء يرون أن فعل الرسول ﷺ بالبجليين مُثْلَة، ويرون أن هذا قبل نزول الحدود، وأية المحاربة، والنهى عن المُثْلَة، فالآية ناسخه، من هؤلاء الإمام البخاري، والشافعي، وأبو حنيفة، والحافظ ابن حجر. [فتح القدير ٥/ ٤٣٥، نيل الأوطار ٩/ ١٦٣، فتح الباري ١/ ٤٢٦، المنهاج شرح مسلم ص ١٠٦٩، السراج الوهاج ٦/ ٢٨٥، المفهم ٥/ ٢٠، تحفة الأحوذي ١/ ٢٤٦، الكوكب الداري ١/ ١٠٥].

أما عن حكم المُثْلَة فهو حرام. [فتح القدير ٥/ ٤٣٥، نيل الأوطار ٩/ ١٦٣، تحفة الأحوذي ١/ ٢٤٦].

واستدل العلماء على حرمته بآية المحاربة وقصة البجليين، ومن الأدلة أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل].

وسبب نزول هذه الآية: كما أخرجه الإمام النسائي عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: لَـمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ قُتِلَ مِنَ الأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ: لَئِنْ كَانَ لَنَا يَوْمٌ مِثْلُ هَذَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ لَنُرْبِيَنَّ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْفَتْحِ قَالَ رَجُلٌ لا يُعْرَفُ: لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ: أَمِنَ الأَسْوَدُ وَالأَبْيَضُ، إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا، نَاسًا سَمَّاهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نَصْبِرُ وَلاَ نُعَاقِبُ**». [النسائي في سننه الكبرى، كتاب التفسير ٦/ ٣٦٧ رقم ١١٢٩٧].

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ: لـَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنْ الأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ رَجُلًا، وَمِنْ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ، فِيهِمْ حَمْزَةُ ﷺ، فَمَثَّلُوا بِهِمْ، فَقَالَتْ الأَنْصَارُ: **لَئِنْ أَصَبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَنُرْبِيَنَّ** [أي: لنزيدن] **عَلَيْهِمْ**، قَالَ: فَلَـمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]، فَقَالَ رَجُلٌ: **لَا قُرَيْشَ بَعْدَ الْيَوْمِ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُفُّوا عَنْ الْقَوْمِ إِلَّا أَرْبَعَةً**». [الترمذي في تفسير القرآن (٣١٢٨، ٣١٢٩)، وقال الترمذي: هذا حديث حسنٌ غريبٌ من حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح الإسناد، وأخرجه أحمد ٣٥/ ١٥٢، ١٥٤ رقم ٢١٢٢٩، ٢١٢٣٠ وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن، والحاكم ٢/ ٣٥٩ وابن حبان (١٦٩٥). وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٤/ ١٣٥ وزاد نسبته إلى النسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل»].

ومن الأحاديث حديث بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ لهم: «**اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا**

مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، **اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا** (لا تخونوا في الغنيمة)، **وَلَا تَغْدِرُوا** (لا تنقضوا العهد)، **وَلَا تَمْثُلُوا** (لا تشوهوا القتلى بقطع الأنوف والآذان)، **وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا...**». [**مسلم في الجهاد والسير (١٧٣١)، وأبو داود في الجهاد (٢٦١٢، ٢٦١٣)، والترمذي في السير (١٦١٧)، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٥٨)، ومالك في الموطأ كتاب الجهاد باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، والدارمي في السير (٢٤٤٢)، وأحمد عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه (٢٢٤٦٩، ٢٢٥٢١)**].

وحديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم **يَحُثُّنَا عَلَى الصَّدَقَةِ وَيَنْهَانَا عَنِ الْمُثْلَةِ.**

[**أبو داود في الجهاد (٢٦٦٠)**].

والمُثْلَة المَنهِيُّ عنها هي ما كان ابتداء على غير جزاء، أما المُثْلَة بمن مَثَّل جزاء ثابت لم ينسخ، قال به أكثر أهل العلم. [**فتح القدير ٥/ ٤٣٥، فتح الباري ١٢/ ٢٤٣، المنهاج شرح مسلم ص١٠٧٠، الجامع لأحكام القرآن ١/ ٧٢٧**]. [**مرويات السرايا والبعوث النبوية للقرشي ١٦٦-١٦٩، وقد سبق تفصيله في الدروس الفقهية المستفادة من المرحلة الثالثة من غزوة أُحُد**].

٨ـ علاج القرآن الكريم للجريمة:

يقول د/ الصلابي: «قال الجمهور: إن الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة] قد نزلت في هؤلاء العرنيين [**ينظر: سبل الهدى للشامي ٦/ ١٨١-١٩٠ فيها تفصيل**]، وقيلت أسباب أخرى في نزولها [**ينظر: تفسير الطبري١٠/ ٢٤٢- ٢٤٤**].

وعلى كل حال، فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فهذا الحكم باقٍ حتى يومنا هذا، وأدل دليل على ذلك، ما أجمع عليه المسلمون من وجود حكم الحرابة في الإسلام، سواء كانت الآية نزلت في الكفار أم في المسلمين، وهذه الآية نازلة في المشركين كما في البخاري، فدل ذلك على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وكون المُثلة منسوخة أو منهيًا عنها، وأن النبي صلى الله عليه وسلم سمل أعين العرنيين، لا يستدل به في هذه القضية، لكون العرنيين سملوا أعين الرعاة، فصار سمل النبي صلى الله عليه وسلم لهم قصاصًا لا مثلة.

[**ينظر: علاج القرآن الكريم للجريمة ـ د/ عبد الله الشنقيطي ص٢٩٧، ٢٩٨**].

إن حادثة العرنيين ترتب عليها تنفيذ حكم الحرابة، ونزول آيات بينات في هذا الحكم، فقد حصر المولى عز وجل جزاء المحاربين في أربعة أمور، وكان ذلك الحصر بأقوى أدوات الحصر.

ثم إنه وصف هؤلاء المحاربين بأوصاف يشمئز منها كل عاقل، ذلك أنه وصفهم بأنهم حرب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وأنهم يريدون إفساد الأرض بتخويف سكانها، وتقتيلهم وسلبهم ونهب ممتلكاتهم ظلمًا وجورًا، لا مستند لهم ولا باعث إلا الإفساد والطغيان، فكانت رحمة الله تعالى الرحيم بهم وغيرهم من خلقه مقتضية الحكم عليهم بواحد من أمور أربعة وهي: القتل، والصلب، وقطع الأيدي، والأرجل من

خلاف، والإبعاد من مخالطة العامة، وعزلهم عنها بالنفي والتغريب حتى لا تتكرر منهم تلك الجرائم الشنيعة، وحتى يرتدع غيرهم من ارتكاب مثل هذا الجرم الشنيع، ولكي يطهرهم ما يوقع بهم من عقاب من الذنوب والآثام، إن هم تابوا ورجعوا إلى رشدهم وصوابهم.

ثم إن هؤلاء لهم ذلة ومهانة في الحياة الدنيا لأذيتهم المسلمين، وقد علل تعالى لحوق تلك الرذيلة بهم مدة الحياة الدنيا؛ بسبب ما اقترفوه من جريمة الحرابة، وباقية معهم إلى يوم القيامة، لكن الله جل وعلا أعد لهؤلاء في الآخرة عذابًا عظيمًا.

ثم استثنى جل وعلا من هؤلاء من أناب إليه ورجع، في أسلوب حكيم مؤثر داعٍ إلى رجوعهم وتوبتهم من هذه الجريمة المنكرة، فلقد عفا عنهم تعالى إذا ما رجعوا وجاؤوا تائبين قبل القدرة عليهم، لكون تلك التوبة مظنة لصدقهم في توبتهم ورجوعهم عن غيهم؛ لأنهم رجعوا قبل القدرة عليهم، وبتقييد العفو عنهم بتوبتهم قبل القدرة عليهم يفهم أنهم إن قُدر عليهم قبل التوبة لا ينالون من العفو ما ينالونه لو تابوا قبل القدرة عليهم، وهذا نوع من العلاج في غاية الدقة والإنصاف، وفيه من الحفز على التقليل من هذه الجريمة وتركها ما لا يخفى على ذي عقل لبيب.

وكذلك الشأن في جميع أساليب القرآن الكريم العلاجية، كلها توافق الذوق السليم والعقل الراجح المتزن المتمتع بصفاء الفطرة السليمة.

ثم ختم تعالى الآيتين الكريمتين بأنه غفور رحيم لمن تاب منهم وأصلح، فلا يقنط أحد من رحمته الواسعة، ولا يحول بين العبد ورحمة ربه، ومغفرته عظيم ذنبه، وجسيم خطيئه، ما لم يقارف شركًا.

وفي الجملة فقد عالجت الآيات القرآنية الحرابة في المجتمع الإسلامي علاجًا لا مزيد عليه، وذلك واضح مما يلي:

١ـ وصف المحارب بأنه محارب لله تعالى ولرسوله ﷺ.

٢ـ عظم الجزاء المترتب على الحرابة أيًا كان هو.

٣ـ مكانته الدنيئة في الدنيا والآخرة إن لم يتب.

٤ ـ يظهر علاج القرآن الكريم لهذه الجريمة الشنعاء بفتحه باب التوبة لمتعاطيها على مصراعيه حتى لا يكون سده في وجهه حافزًا له على التمادي في جرمه والاستمرار في عتوه.

[ينظر: علاج القرآن الكريم للجريمة ص ٣١٣- ٣١٥].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾[المائدة].

وهكذا كانت حركة بناء المجتمع وإقامة الدولة متشابكة في قضاياها العسكرية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية». [السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٣٢٦-٣٢٨].

٩ ـ مراعاة الحكمة من معاملة الأعداء بشدة:

يقول أ/ وجدي: «شعرنا أن القارئ سيشعر بشيء من الحيرة عندما يقرأ ما عُومل به المستسلمون من بني قريظة من الشدة، وما حُكم به على الجماعة من عكل وعرينة من التمثيل، جزاء قتلهم رجلًا واحدًا وتمثيلهم به، وما كان يُرسَل من أهل الجرأة والفتك لقتل بعض رؤساء الخصوم غيلة؛ فلهذا رأينا أن التعقيب على هذه الحوادث واجب.

جاء الإسلام لينشر إصلاحًا يشمل الأديان والأصول والمبادئ التي كانت تقود الجماعات الإنسانية وأخرجت عن حدودها؛ ولبثِّ أصول ومبادئ أدبية لابد منها لتكميل أدوات التطور الاجتماعي، تكميلًا لا تحتاج بعده لأدوات أخرى؛ واقتضى هذا الإصلاح أن تقام له دولة تمثله وتدافع عنه؛ لأنه ثبت أن كل إصلاح ديني أو اجتماعي لا تتقمص روحُه دولة، تنافح العوامل المحللة دونه، يضمحل ويزول كأن لم يكن، والدليل المحسوس على هذا أنه لم يوجد ولا يوجد دين أو نظام مدني قام بدون دولة، وهذه الديانة النصرانية ظلت فكرة مضطهدة مدة ثلاثة قرون متوالية حتى قامت لها دولة، سُفكت في سبيلها دماء، وهُدمت هياكل وبِيَع، فقويت واشتدت ونشرت رواقها على أوربا برمتها، وعلى بقاع كثيرة من القارات الأخرى.

فكان لابد للإسلام من أن يقيم لنفسه دولة؛ والدولة عمل إنساني يقتضي ككل عمل إنساني أن يناسب البيئة التي يعمل فيها، والنفوس التي يحتك بها، ويحطم العقبات التي تقوم دونه.

وهذا العمل الإنساني في البيئات التي لم تصل بعد إلى أرفع درجات السمو الأدبي لا يجدي فيه القيام على المُثُل العليا إلا بعد أن يصل إلى غايته القصوى؛ أما وهو لا يزال في دور التكوين فلابد للقائم به من أن يتنزل إلى استخدام الأساليب التي لا تتأثر النفوس الراهنة إلا بها، وإذا كان من النفوس من تكفيها الإشارة، ومنها من لا يؤثر فيها إلا السوط يلهب ظهور أصحابها، فمن الجماعات ما تجزئ في زجرها المثل العليا من العدالة، ومنها ما تفسدها هذه المثل العليا نفسها، ولا ينفع معها إلا معاملتها بمثل ما تعمل لتُقتاد إلى ما يصلحها.

إذا أنصف خصوم الإسلام وجب عليهم أن يعجبوا كيف لم تشع هذه المعاملة الشديدة في الدور الأول من تأسيس الدولة الإسلامية، وتكون هي الأسلوب العملي لتقويم أمة جاهلية من الطراز المتحجر، لا أن تقتصر على حادثين أو ثلاثة فيه، فإن معالجة الجماعات التي فسدت نفوسها بالعيش آلافًا من السنين على حالة البداوة، وقست قلوبها حتى صارت كالصخور أو أشد قسوة، تضطر أرق

المصلحين لها أن يعمدوا كارهين إلى وسائل توائم ما هي عليه من التحجر المستعصي، وخاصة إذا كان المراد نقلها عما هي عليه، خلافًا لسنن التطور، في سنين معدودة.

ليس يدرك صحة ما نقول إلا من ابتلي بإصلاح رجل واحد ممن نذكر، ورأى كيف تعجز جميع وسائل التقويم المعروفة في علاجه، وكيف يُلقي المنطق سلاحه، وتتحطم نصال الأدلة الماضية دون إصراره وعناده.

على أن حادثتين أو ثلاثًا مما لاحظه الخصوم واقتضتها أحوال خاصة، لا تكدر صفو تاريخ حافل بآيات، أصغر واحدة منها تنحني أمامها الرؤوس إجلالًا، وتفيض منها القلوب إيمانًا، وتزداد بها العقول عرفانًا». [السيرة المحمدية لوجدي ٢٣١-٢٣٢].

١٠ ـ جزاء الغدر:

يقول الشيخ الصوياني: «ما هو ذنب ذلك الراعي المسكين الذي اعتنى بهم وبصحتهم، سقاهم ومرَّضهم وأطعمهم، فكان جزاؤه أن فقأوا عينيه ثم قتلوه، إن فقأهم لعيني الراعي قبل قتله دليل على توغُّل الإجرام والحقد في نفوس أولئك المجرمين الأنذال، الذين جمعوا كل صفات الخسة والدناءة، كفروا وقتلوا ومثَّلوا وخانوا وسرقوا، فكان عقابهم شَرسًا بحجم جريمتهم، إن أمثال هؤلاء الرعاع والجهلة وقطاع الطرق يشكلون خطرًا على كل أرض يطؤونها بأقدامهم، ولا يمكن أن يوقف نزيف الخوف والدم الذي يسفكونه سوى السيف البتَّار، أمثال هؤلاء يغريهم ضعف الضعيف، وحلم الحليم وتسامح الكريم، فينشرون من خلال ذلك الرعب في قلوب الحجاج والتجار والمسافرين، وربما أغرى هؤلاء الأجلاف ذلك الانكسار الذي حدث للمؤمنين في غزوة أحد». [السيرة النبوية للصوياني ٢/ ٢٨٧- ٢٨٨].

١١ ـ فوائد ذكرها الإمام ابن القيم:

قال الإمام ابن القيم: وَفِيهَا مِنْ الْفِقْهِ:

١ ـ جَوَازُ شُرْبِ أَبْوَالِ الْإِبِلِ.

٢ ـ وَطَهَارَةُ بَوْلِ مَأْكُولِ اللَّحْمِ.

٣ ـ وَالْجَمْعُ لِلْمُحَارِبِ إذَا أَخَذَ الْمَالَ وَقَتَلَ بَيْنَ قَطْعِ يَدِهِ وَرِجْلِهِ وَقَتْلِهِ.

٤ ـ وَأَنَّهُ يُفْعَلُ بِالْجَانِي كَمَا فَعَلَ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا سَمَلُوا عَيْنَ الرَّاعِي سَمَلَ أَعْيُنَهُمْ، وَقَدْ ظَهَرَ بِهَذَا أَنَّ الْقِصَّةَ مُحْكَمَةٌ لَيْسَتْ مَنْسُوخَةً، وَإِنْ كَانَتْ قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الْحُدُودُ، وَالْحُدُودُ نَزَلَتْ بِتَقْرِيرِهَا لَا بِإِبْطَالِهَا.

٥ ـ مُقَاتَلَةِ الْجَانِي بِمِثْلِ مَا فَعَلَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَتَلُوا الرَّاعِيَ وَسَمَلُوا عَيْنَيْهِ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ».

٦ ـ وَعَلَى قَتْلِ الْجَمَاعَةِ، وَأَخْذِ أَطْرَافِهِمْ بِالْوَاحِدِ.

٧ ـ وَعَلَى أَنَّهُ إذَا اجْتَمَعَ فِي حَقِّ الْجَانِي حَدٌّ وَقِصَاصٌ اسْتَوْفَيَا مَعًا، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ حَدًّا للهِ عَلَى حِرَابِهِمْ، وَقَتَلَهُمْ لِقَتْلِهِمْ الرَّاعِيَ.

٨ ـ وَعَلَى أَنَّ الْمُحَارِبِ إِذَا أَخَذَ المَالَ، وَقَتَلَ، قُطِعَتْ يَدُهُ وَرِجْلُهُ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ وَقُتِلَ.

٩ ـ وَعَلَى أَنَّ الْجِنَايَاتِ إِذَا تَعَدَّدَتْ تَغَلَّظَتْ عُقُوبَاتُهَا، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ ارْتَدُّوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ، وَقَتَلُوا النَّفْسَ، وَمَثَّلُوا بِالـمَقْتُولِ، وَأَخَذُوا الـمَالَ، وَجَاهَرُوا بِالـمُحَارَبَةِ.

١٠ ـ وَعَلَى أَنَّ حُكْمَ رَدْءِ الْمُحَارِبِينَ حُكْمُ مُبَاشِرِهِمْ، فَإِنَّهُ مِنَ المَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَمْ يُبَاشِرْ الْقَتْلَ بِنَفْسِهِ، وَلَا سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ.

١١ ـ وَعَلَى أَنَّ قَتْلَ الْغِيلَةِ يُوجِبُ قَتْلَ الْقَاتِلِ حَدًّا، فَلَا يُسْقِطُهُ الْعَفْوُ، وَلَا تُعْتَبَرُ فِيهِ الْمُكَافَأَةُ، وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَأَحَدُ الْوَجْهَيْنِ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ اخْتَارَهُ، شَيْخُنَا (ابن تيمية)، وَأَفْتَى بِهِ.

[زاد المعاد لابن القيم ٣/ ٢٨٦، ٤/ ٤٨-٤٩].

١٢ ـ فوائد ذكرها الإمام ابن حجر:

قال الإمام ابن حجر: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ الْفَوَائِدِ غَيْرِ مَا تَقَدَّمَ:

١ ـ قُدُومُ الْوُفُودِ عَلَى الْإِمَامِ وَنَظَرُهُ فِي مَصَالِحِهِمْ.

٢ ـ وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ الطِّبِّ وَالتَّدَاوِي بِأَلْبَانِ الْإِبِلِ وَأَبْوَالِهَا.

٣ ـ وَفِيهِ أَنَّ كُلَّ جَسَدٍ يُطَبَّبُ بِمَا اِعْتَادَهُ.

٤ ـ وَفِيهِ قَتْلُ الْجَمَاعَةِ بِالْوَاحِدِ سَوَاءً قَتَلُوهُ غِيلَةً أَوْ حِرَابَةً، إِنْ قُلْنَا إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ قِصَاصًا.

٥ ـ وَفِيهِ الْمُمَاثَلَةُ فِي الْقِصَاصِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ الْمُثْلَةِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا.

٦ ـ وَثُبُوتُ حُكْمِ الْمُحَارَبَةِ فِي الصَّحْرَاءِ، وَأَمَّا فِي الْقُرَى فَفِيهِ خِلَافٌ.

٧ ـ وَفِيهِ جَوَازُ اِسْتِعْمَالِ أَبْنَاءِ السَّبِيلِ إِبِلَ الصَّدَقَةِ فِي الشُّرْبِ، وَفِي غَيْرِهِ قِيَاسًا عَلَيْهِ، بِإِذْنِ الْإِمَامِ.

٨ ـ وَفِيهِ الْعَمَلُ بِقَوْلِ الْقَائِفِ، وَلِلْعَرَبِ فِي ذَلِكَ الـمَعْرِفَةُ التَّامَّةُ.

[فتح الباري ١/ ٤٠٧ كتاب الوضوء باب أبوال الإبل والدواب والغنم ومرابضها ح رقم ٢٣٣].

مصادر ومراجع مجموعة غزوة الأحزاب

(١) **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة** ـ الإمام الحافظ شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري (٨٤٠ هـ) ـ تقديم د/ أحمد معبد ـ تح دار المشكاة للبحث العلمي بإشراف أ/ أبو تميم ياسر بن إبراهيم ـ دار الوطن ـ الرياض ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(٢) **الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما** ـ الإمام ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (٦٤٣هـ) ـ دراسة وتحقيق د/ عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ـ ط٣ دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(٣) **أحكام الصلح بالمال في الفقه الإسلامي** (ماجستير) ـ د/ ذو الكفلي بن مودا بن يوسف ـ إشراف د/ سري إسماعيل زيد الكيلاني ـ كلية الدراسات العليا ـ الجامعة الأردنية ـ الأردن ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(٤) **الأحكام الفقهية المستفادة من غزوة الأحزاب وبني قريظة** (ماجستير) ـ د/ خالد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز العبد اللطيف ـ إشراف د/ عبد الرحمن بن عبد الله الدرويش ـ المعهد العالي للقضاء ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٥) **الأحكام الفقهية المستفادة من غزوتي الأحزاب وبني قريظة: دراسة فقهية مقارنة** (دكتوراه) ـ د/ محمد عبده محمد بربر ـ إشراف د/ علي عبد الله محمد الحسين ـ كلية الدراسات العليا ـ جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية ـ أم درمان ـ السودان ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

(٦) **الإدارة العسكرية في حروب الرسول محمد** ﷺ ـ العميد الركن د/ محمد ضاهر وتر ـ مطبعة الرشيد ـ حلب ـ سوريا ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٧) **الأساس في السنة وفقهها: السيرة النبوية** ـ أ/ سعيد حوى ـ دار السلام ـ القاهرة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٨) **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ﭫ ـ الإمام أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي (٤٦٣هـ) ـ تح أ/ علي محمد البجاوي ـ دار الجيل ـ بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢ م.

(٩) **أُسد الغابة في معرفة الصحابة** ﭫ ـ الإمام العلامة عز الدين أبو الحسن علي بن أبي المكارم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، المعروف بابن الأثير (٦٣٠هـ) ـ تح أ/ علي محمد معوض، وأ/ عادل أحمد عبد الموجود ـ دار الكتب العلمية ـ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(١٠) **الإصابة في تمييز الصحابة** ﭭ - الإمام الحافظ أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، ومعه الاستيعاب في أسماء الأصحاب للفقيه الحافظ المحدث ابن عبد البر القرطبي المالكي (٤٦٣هـ) - تح أ/ عادل أحمد عبد الموجود، وأ/ علي محمد معوض - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(١١) **الأطلس التاريخي لسيرة الرسول** ﷺ - أ/ سامي بن عبد الله المغلوث - مكتبة العبيكان - الرياض ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(١٢) **أطلس الحديث النبوي من الكتب الصحاح الستة: أماكن وأقوام** - د/ شوقي أبو خليل - دار الفكر - دمشق ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(١٣) **أطلس السيرة النبوية** - د/ شوقي أبو خليل - دار الفكر - دمشق ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(١٤) **أطلس القرآن** - د/ شوقي أبو خليل - دار الفكر - دمشق ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(١٥) **أطلس تاريخ الإسلام** - د/ حسين مؤنس - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة ١٩٨٨م.

(١٦) **أطلس تاريخ العرب والإسلام** - د/ سيف الدين الكاتب - ط٦ دار الشرق العربي - بيروت ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

(١٧) **الاكتفاء في مغازي رسول الله** ﷺ **والثلاثة الخلفاء** - الإمام أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي (٦٣٤هـ) - تح د/ مصطفى عبد الواحد - مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م.

(١٨) **إمتاع الأسماع بما للرسول** ﷺ **من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع** - الإمام تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (٨٤٥ هـ) - تحقيق وتعليق أ/ محمد عبد الحميد النميسي - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(١٩) **انتصارات عربية خالدة** - أ/ السيد فرج - دار الشعب - القاهرة - د.ت.

(٢٠) **أولو العزم من الرسل ج٢: محمد رسول الله** ﷺ **وخاتم النبيين** - أ/ عمر أحمد عمر - دار حسان - دمشق ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

(٢١) **البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر الثالث للسيرة والسنة النبوية** - الدوحة - قطر ١٤٠٠ هـ - عني بطبعه ومراجعته الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري - إدارة الشؤون الدينية في قطر - الدوحة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٢٢) **البداية والنهاية** - الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤هـ) - تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي - دار هجر - القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٢٣) **بنو إسرائيل في القرآن والسنة** - د/ محمد سيد طنطاوي - دار الشروق - القاهرة ١٩٩٧م.

(٢٤) **تاريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام** ـ الإمام الحافظ المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ) ـ تح د/ عمر عبد السلام التدمري ـ ط٢ دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(٢٥) **التاريخ الإسلامي** ـ أ/ محمود شاكر ـ ط٤ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٩٨٥ ـ ١٩٨٨م.

(٢٦) **التاريخ الإسلامي مواقف وعبر** ـ د/ عبد العزيز بن عبد الله الحميدي ـ دار الأندلس الخضراء ـ جدة، ودار الدعوة ـ الإسكندرية ١٩٩٧م.

(٢٧) **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)** ـ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) ـ تح أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط٤ دار المعارف بمصر ١٩٧٧م ـ ١٩٧٩م.

(٢٨) **تاريخ المدينة المنورة** ـ الإمام ابن شبَّه أبو زيد عمر بن شبه النميري البصري (٢٦٢هـ) ـ تح الشيخ/ فهيم محمد شلتوت ـ مصورة عن النسخة المطبوعة على نفقة أ/ حبيب محمود أحمد ـ جدة ١٣٩٩هـ.

(٢٩) **تأملات حركية في سيرة المصطفى ﷺ** ـ م/ يوسف أبو راس ـ دار الفرقان ـ عمان ـ الأردن ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٣٠) **تأملات في سيرة الرسول ﷺ** ـ د/ محمد السيد الوكيل ـ ط٣ دار المجتمع ـ جدة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(٣١) **التربية الجهادية ـ (المنهج التربوي للسيرة النبوية)** ـ د/ منير محمد الغضبان ـ ط٤ دار الوفاء ـ المنصورة ـ مصر ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

(٣٢) **التربية القيادية (المنهج التربوي للسيرة النبوية)** ـ د/ منير محمد الغضبان ـ ط٤ دار الوفاء ـ المنصورة ـ مصر ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٣٣) **تطور الخيانة اليهودية في عصر النبوة** ـ د/ عبد الباري الطاهر ـ موقع التاريخ على شبكة المعلومات الدولية بتاريخ الاثنين٢٢ أبريل ٢٠٠٧م / ٥ ربيع الثاني ١٤٢٨هـ.

(٣٤) **تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)** ـ الإمام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، ثم الدمشقي (٧٧٤هـ) ـ تح أ/ سامي بن محمد سلامة ـ ط٢ دار طيبة ـ الرياض ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(٣٥) **تفسير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ـ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) ـ تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ دار هجر ـ القاهرة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٣٦) **التفسير من سنن سعيد بن منصور** ـ الإمام أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني (٢٢٧هـ) ـ دراسة وتحقيق د/ سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد ـ دار الصميعي ـ الرياض ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٣٧) **جامع الأصول التسعة من السنة المطهرة** ـ أ/ صالح أحمد الشامي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

(٣٨) **جامع الأصول من أحاديث الرسول** ﷺ ـ الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، ابن الأثير الجَزَري (٦٠٦هـ) ـ حقق نصوصه، وخرَّج أحاديثه، وعلق عليه الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ مكتبة الحلواني ـ دمشق ١٣٨٩هـ ـ ١٣٩٢هـ/ ١٩٦٩-١٩٧٢م.

(٣٩) **جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد** ـ الإمام العلامة محمد بن محمد بن سليمان المغربي (١٠٩٤هـ) ـ تح أ/ سليمان بن دريع العازمي ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٤٠) **الجهاد والقتال في السياسة الشرعية** ـ د/ محمد خير هيكل ـ ط٢ دار البيارق ـ بيروت، توزيع دار ابن حزم ـ بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(٤١) **الجوانب التربوية المستنبطة من غزوة الأحزاب** (ماجستير) ـ د/ أحمد بن علي بن حسن نحاس ـ إشراف د/ نايف بن حامد بن همام الشريف ـ كلية التربية الإسلامية والمقارنة ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ١٤١٨ هـ.

(٤٢) **حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار صلى الله عليه وعلى آله وصحبه المصطفين الأخيار** ـ العالم الفقيه القاضي علامة اليمن محمد عمر بَحْرَقْ الحضرمي الشافعي (٩٣٠هـ) ـ اعتنى به أ/ محمد غسان نصوح عزقول ـ ط ٢ دار المنهاج ـ بيروت، جدة ـ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٤٣) **حديث القرآن عن غزوات الرسول** ﷺ ـ د/ محمد بن بكر بن إبراهيم آل عابد ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت د.ت.

(٤٤) **حياة محمد** ﷺ ـ د/ محمد حسين هيكل ـ الهيئة المصرية للكتاب ـ مصر ٢٠٠١م.

(٤٥) **خاتم الأنبياء محمد** ﷺ (قصص الأنبياء والتاريخ ٧) ـ د/ رشدي البدراوي ـ ط المؤلف ـ القاهرة ٢٠٠٤م.

(٤٦) **خاتم النبيين** ﷺ ـ الإمام محمد أبو زهرة ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة د.ت.

(٤٧) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور** ـ الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٩١١هـ) ـ تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ مركز هجر ـ القاهرة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٤٨) **دروس من حياة الرسول ﷺ** ـ د/ يوسف محمد عيد ـ المكتبة المحمودية التجارية ميدان الأزهر ـ القاهرة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٤٩) **دروس من غزوات الرسول ﷺ** ـ أ/ محمد محمد أبو خوات ـ الهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ـ الإسكندرية ـ دار المعارف ١٩٦٨م.

(٥٠) **دلائل النبوة** ـ الإمام أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني (٤٣٠ هـ) ـ تح د/ محمد رواس قلعه جي وأ/ عبد البر عباس ـ ط ٤ دار النفائس ـ بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(٥١) **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة** ـ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ) ـ توثيق وتخريج وتعليق د/ عبد المعطي قلعجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت، ودار الريان ـ القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٥٢) **دور الحرب النفسية في غزوتي أُحد والأحزاب في ضوء القرآن الكريم** (ماجستير) ـ د/ زين علي حسن السيد ـ إشراف د/ عبد الله عبد الحي محمد ود/ هاشم عبد الظاهر ـ كلية أصول الدين والدعوة ـ جامعة الأزهر ـ القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

(٥٣) **رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود** ـ د/ طه حبيشي ـ مكتبة رشوان ـ القاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(٥٤) **الرسول القائد ﷺ** ـ ل.ر/ محمود شيت خطاب ـ ط٦ دار الفكر ـ بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

(٥٥) **الروض الأَنِفُ في شرح السيرة النبوية لابن هشام** ـ الإمام المحدث أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن الحسن السهيلي (٥٨١ هـ) ـ تحقيق وتعليق وشرح الشيخ عبد الرحمن الوكيل (ومعه السيرة النبوية لابن هشام) ـ مكتبة ابن تيمية ـ الجيزة ـ مصر ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(٥٦) **زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ** ـ الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، ابن قيم الجوزية (٧٥١ هـ) ـ حقق نصوصه، وخرَّج أحاديثه، وعلق عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط والشيخ عبد القادر الأرناؤوط ـ ط ٢٧ مؤسسة الرسالة ـ بيروت، مكتبة المنار الإسلامية ـ الكويت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(٥٧) **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ﷺ (السيرة الشامية)** ـ الإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي (٩٤٢هـ) ـ تح د/ مصطفى عبد الواحد وآخرين ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧٤ – ٢٠٠٧م.

(٥٨) **السرايا الحربية في العهد النبوي** ـ د/ محمد سيد طنطاوي ـ مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧١م.

(٥٩) **السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة: دراسة نقدية تحليلية** (ماجستير) ـ د/ بريك بن محمد بريك أبو مايلة ـ إشراف د/ أكرم ضياء العمري ـ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤١٢هـ ـ ط دار ابن الجوزي ـ الدمام السعودية ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م.

(٦٠) **سلسلة الأحاديث الصحيحة** ـ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ١٩٩٥م.

(٦١) **سلسلة الأحاديث الضعيفة** ـ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ١٩٩٢م.

(٦٢) **السنن** ـ الإمام الحافظ أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني المكي (٢٢٧هـ) ـ حققه وعلق عليه الأستاذ المحدث الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ـ الدار السلفية ـ الهند ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

(٦٣) **سنن الدارمي (مسند الدارمي)** ـ الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (٢٥٥هـ) ـ تحقيق أ/ حسين سليم أسد الداراني ـ دار المغني ـ الرياض ١٤٢٠هـ.

(٦٤) **السنن الصغير** ـ الإمام أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (٤٥٨هـ) ـ تح د/ عبد المعطي أمين قلعجي ـ جامعة الدراسات الإسلامية ـ كراتشي ـ باكستان ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

(٦٥) **السنن الكبرى** ـ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤٥٨هـ) ـ تح أ/ محمد عبد القادر عطا ـ ط٣ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، وط تح د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ مركز هجر ـ القاهرة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

(٦٦) **السنن الكبرى** ـ الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ) ـ قدم له د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ أشرف عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط ـ حققه وخرَّج أحاديثه الشيخ حسن عبد المنعم شلبي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(٦٧) **سير أعلام النبلاء** ـ الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، الدمشقي (٧٤٨هـ) ـ أشرف على تحقيق الكتاب وخرَّج أحاديثه الشيخين شعيب الأرناؤوط وحسين أسد وزملائهما ـ مؤسسة الرسالة بيروت ـ الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، وقسم (السيرة النبوية) ـ حققه، وضبط نصه، وعلق عليه د/ بشار عواد معروف ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(٦٨) **السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون** ﷺ ـ الشيخ علي بن برهان الدين الحلبي (١٠٤٤هـ) لخص فيه عيون الأثر لابن سيد الناس، والسيرة الشامية ـ دار المعرفة ـ بيروت د.ت.

(٦٩) **سيرة الرسول ﷺ: صور مقتبسة من القرآن الكريم** ـ أ/ محمد عزة دروزة ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ د.ت.

(٧٠) **السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة** ـ أ/ محمد فريد وجدي ـ جمعها وراجعها وقدم لها د/ محمد رجب البيومي ـ ط٢ ـ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(٧١) **السيرة النبوية** ـ الإمام أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري الحميري (٢١٨ هـ) ـ تح أ/ مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ـ ط٢ مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

(٧٢) **السيرة النبوية** ـ الشيخ علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي ـ تح أ/ سيد عبد الماجد الغوري ـ ط١٢ دار ابن كثير ـ دمشق ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٧٣) **السيرة النبوية الصحيحة** ـ د/ أكرم ضياء العمري ـ ط٥ مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(٧٤) **السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة** ـ أ/ محمد إبراهيم شقرة ـ مكتبة المعارف ـ الرياض ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

(٧٥) **السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة** ـ د/ محمد بن محمد أبو شهبة ـ ط٧ دار القلم ـ دمشق ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٧٦) **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: دراسة تحليلية** ـ د/ مهدي رزق الله أحمد ـ طبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ـ الرياض ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٧٧) **السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة: قراءة جديدة** ـ أ/ محمد بن حمد الصوياني ـ مكتبة العبيكان ـ الرياض ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤ م.

(٧٨) **السيرة النبوية: دروس وعبر** ـ د/ مصطفى السباعي ـ ط٣ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، وط دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٧٩) **السيرة النبوية: صور تربوية وتطبيقات عملية** ـ أ/ محمد مسعد ياقوت ـ دار البشير للثقافة والعلوم ـ طنطا ـ مصر ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

(٨٠) **السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث** ـ د/ علي محمد الصلابي ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ القاهرة ٢٠٠١م.

(٨١) **سيف الله خالد بن الوليد** رضي الله عنه **: دراسة عسكرية تاريخية عن معاركه وحياته** ـ الجنرال أ.أكرم ـ ترجمة العميد الركن صبحي الجابي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(٨٢) **شرح السيرة النبوية ـ رواية ابن هشام** ـ الإمام أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الخشني (٦٠٤هـ) تصحيح أ/ بولس برونله ـ المطبعة الهندية بالموسكي ـ القاهرة ١٣٢٩هـ.

(٨٣) **صحيح ابن خزيمة** ـ الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (٣١١هـ) ـ تح د/ محمد مصطفى الأعظمي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٨٤) **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)** ـ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ ط٣ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٨٥) **صحيح السيرة النبوية** ـ الشيخ إبراهيم العلي ـ تقديم د/ عمر سليمان الأشقر ـ راجعه د/ همام سعيد ـ دار النفائس ـ عمان ـ الأردن ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(٨٦) **الصحيح من أحاديث السيرة النبوية** ـ أ/ محمد الصوياني ـ مدار الوطن للنشر ـ الرياض ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

(٨٧) **الصراع مع اليهود** ـ د/ محمد عبد القادر أبو فارس ـ دار الفرقان ـ عمان ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

(٨٨) **صلاح الأمة في علو الهمة** ـ د/ سيد بن حسين العفاني ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٨٩) **صلح الحديبية** ـ الشيخ محمد أحمد باشميل ـ ط٣ المكتبة السلفية ـ القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٩٠) **صلح الحديبية : الفتح المبين** ـ د/ شوقي أبو خليل ـ دار الفكر ـ دمشق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٩١) **صور من جهاد الصحابة** رضي الله عنهم **: عمليات جهادية خاصة تنفذها مجموعات خاصة من الصحابة** رضي الله عنهم ـ د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي ـ ط٣ دار القلم ـ دمشق ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٩٢) **صور من حياة الرسول** ﷺ ـ أ/ أمين دويدار ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٧٢م.

(٩٣) **صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة** ـ د/ محمد فوزي فيض الله ـ دار القلم، دمشق ـ الدار الشامية، بيروت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(٩٤) **ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)** ـ الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ ط٢ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(٩٥) **الطبقات الكبرى (الكبير)** ـ الإمام محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري (٢٣٠هـ) ـ تح د/ علي محمد عمر ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ٢٠٠٢م.

(٩٦) **العبقرية العسكرية في غزوات الرسول** ﷺ ـ العميد/ محمد فرج ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٧م.

(٩٧) **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير** ـ الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس (٧٣٤هـ) ـ تح د/ محمد العيد الخطراوي، د/ محيي الدين ديب مستو ـ دار ابن كثير ـ بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٤م.

(٩٨) **الغزوات النبوية المطهرة من وجهة نظر فن الحرب** ـ العميد الركن إبراهيم إسماعيل كاخيا ـ دار حسان للطباعة والنشر ـ دمشق ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(٩٩) **غزوة الأحزاب** ـ الشيخ محمد أحمد باشميل ـ ط ٦ المكتبة السلفية ـ القاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(١٠٠) **غزوة الأحزاب** ـ د/ محمد عبد القادر أبو فارس ـ دار الفرقان ـ عمان ـ الأردن ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(١٠١) **غزوة الأحزاب في ضوء القرآن الكريم: عرض وتحليل** (ماجستير) ـ د/ سعود بن عبد الله الفنيسان ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٩هـ ـ ط مركز الدراسات والإعلام دار إشبيليا ـ الرياض ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(١٠٢) **غزوة الأحزاب وما بعدها** ـ الشيخ منصور الرفاعي عبيد ـ الدار الثقافية للنشر ـ القاهرة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(١٠٣) **غزوة الحديبية** ـ د/ محمد عبد القادر أبو فارس ـ دار الفرقان عمان ـ الأردن ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(١٠٤) **غزوة الخندق: غزوة الأحزاب** ـ د/ شوقي أبو خليل ـ دار الفكر ـ دمشق، ودار الفكر المعاصر بيروت ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(١٠٥) **غزوة بني قريظة** ـ الشيخ محمد أحمد باشميل ـ ط ٣ المكتبة السلفية ومطبعتها بالقاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦ م.

(١٠٦) **غزوة بني قريظة: دراسة وصفية تحليلية مع نقد لبعض آراء المستشرقين** (ماجستير) ـ د/ ناجي بن محمد بن مسفر وقدان ـ إشراف د/ خالد بن سعد بن عبد الرحمن الزهراني ـ كلية الدعوة وأصول الدين ـ الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

(١٠٧) **غزوة فتح مكة** ـ الشيخ محمد أحمد باشميل ـ ط٣ المكتبة السلفية ومطبعتها ـ القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(١٠٨) **غزوة مؤتة والسرايا والبعوث الشمالية: دراسة نقدية** (ماجستير) ـ د/ بريك بن محمد بريك أبو مايلة ـ إشراف د/ أكرم ضياء العمري ـ ط الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

(١٠٩) **غزوتا الأحزاب وبني قريظة في ضوء الآيات القرآنية والروايات الحديثية: دراسة موضوعية** (ماجستير) ـ د/ محسن عبد المجيد الجبوري ـ إشراف د/ محمد سعيد حوا ـ كلية الدراسات العليا ـ جامعة مؤتة ـ الأردن ٢٠١٦م.

(١١٠) **فتح الباري بشرح صحيح البخاري** ـ الإمام ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) ـ تح أ/ محمد فؤاد عبد الباقي وأ/ محب الدين الخطيب ـ دار الريان للتراث ـ القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(١١١) **الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني** ـ الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ـ دار الشهاب ـ القاهرة ـ د.ت.

(١١٢) **الفصول في سيرة الرسول** ﷺ ـ الإمام الحافظ أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ) ـ تح د/ محمد العيد الخطراوي ود/ محي الدين ديب مستو ـ ط ٣ مؤسسة علوم القرآن ـ دمشق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(١١٣) **فقه السرايا** (ماجستير) ـ د/ محمود خلف جَراد العيساوي ـ دار عمار ـ الأردن ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(١١٤) **فقه السيرة** ـ الشيخ محمد الغزالي ـ خرج أحاديثه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ دار الريان للتراث ـ القاهرة ١٩٨٧م، وط دار القلم ـ دمشق ١٤٢٧ هـ.

(١١٥) **فقه السيرة** ـ د/ زيد بن عبد الكريم الزيد ـ دار العاصمة ـ الرياض ١٤٢٤هـ.

(١١٦) **فقه السيرة** ـ د/ محمد سعيد رمضان البوطي ـ ط٦ دار السلام ـ القاهرة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(١١٧) **فقه الغزوات** (دكتوراه) ـ د/ محمود خلف جَراد العيساوي ـ دار عمار ـ الأردن ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(١١٨) **الفن الحربي في صدر الإسلام** ـ ل/ عبد الرؤوف عون ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٦م.

(١١٩) **في ظلال الرسول** ﷺ ـ د/ عبد الحليم عويس ـ دار الاعتصام ـ القاهرة ١٩٨٠م.

(١٢٠) **في ظلال القرآن** ـ أ/ سيد قطب ـ ط٢٢ دار الشروق ـ القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(١٢١) **القاموس المحيط** ـ الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن عمر الشيرازي الفيروزآبادي (٨١٦هـ) ـ دار الكتب ـ القاهرة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.

(١٢٢) **قراءة سياسية للسيرة النبوية** ـ د/ محمد رواس قلعجي ـ ط٢ دار النفائس ـ بيروت ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(١٢٣) **قيادة الرسول** ﷺ **السياسية والعسكرية** ـ أ/ أحمد راتب عرموش ـ دار النفائس ـ بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٨٩م.

(١٢٤) **القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ** (دكتوراه) ـ د/ عبد الله بن محمد بن عبد الله الرشيد ـ إشراف د/ مناع بن خليل القطان ـ المعهد العالي للقضاء ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ط دار القلم ـ دمشق ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

(١٢٥) **القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات** ـ أ/ حسن فتح الباب ـ مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

(١٢٦) **كبرى المعارك والفتوحات الإسلامية الكبرى** ـ أ/ محمد سعيد مرسي ـ مؤسسة اقرأ ـ القاهرة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(١٢٧) **الكتب الستة: البخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه** ـ اعتنى به أ/ رائد بن صبري بن أبي علفة ـ مكتبة الرشد ـ الرياض ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(١٢٨) **كشف الأستار عن زوائد البزار** ـ الإمام الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيثمي (٨٠٧هـ) ـ تح الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(١٢٩) **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال** ـ الإمام علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين بن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري، الشهير بالمتقي الهندي (٩٧٥هـ) ـ ضبطه وفسر غريبه الشيخ بكري حيَّاني، وصححه ووضع فهارسه ومفتاحه أ/ بكري حياني، وأ/ صفوة السقا ـ ط٥ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(١٣٠) **لسان العرب** ـ الإمام جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الأفريقي المصري (٧١١ هـ) ـ تح أ/ عبد الله علي الكبير، وأحمد حسب الله، وهاشم الشاذلي ـ دار المعارف ـ مصر د.ت.

(١٣١) **متى ينتصر المسلمون؟** ـ الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن المسند ـ ط الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ـ د.ت.

(١٣٢) **مجمع الزوائد = بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ـ الإمام الحافظ أبو الحسن نور الدين الهيثمي (٨٠٧ هـ)ـ تح أ/ عبد الله محمد الدرويش ـ دار الفكر ـ بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(١٣٣) **مجموعة الفتاوى** ـ شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني (٧٢٨هـ) ـ اعتنى بها وخرَّج أحاديثها أ/ عامر النجار، د/ أنور الباز ـ ط٢ دار الوفاء ـ المنصورة ـ مصر ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(١٣٤) **محمد ﷺ القائد الأعظم في الحرب والسلام** ـ أ/ محمد عبد المنعم رضوان ـ دار المأمون ـ القاهرة ١٩٨٤م.

(١٣٥) **محمد ﷺ واليهود: نظرة جديدة** ـ د/ بركات أحمد ـ ترجمة أ/ محمود علي مراد ـ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٨م.

(١٣٦) **محمد رسول الله ﷺ: منهج ورسالة، بحث وتحقيق** ـ الشيخ محمد الصادق عرجون ـ دار القلم ـ دمشق ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(١٣٧) **مختار الصحاح** ـ الإمام زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (٦٦٦هـ) ـ تح أ/ يوسف الشيخ محمد ـ ط٥ المكتبة العصرية ـ بيروت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(١٣٨) **مرويات الإمام الزهري في المغازي** (دكتوراه) ـ د/ محمد بن محمد العواجي ـ إشراف د/ أكرم ضياء العمري ـ ط الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(١٣٩) **مرويات السرايا والبعوث النبوية: دراسة حديثية تحليلية** (ماجستير) ـ د/ محمد عبد الستار إبراهيم القرشي ـ إشراف د/ علام محمدين علام، ود/ أحمد مصطفى الخضراوي ـ كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية ـ جامعة المنوفية ـ مصر ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

(١٤٠) **مرويات غزوة الحديبية** (ماجستير) ـ د/ حافظ بن محمد بن عبد الله الحكمي ـ إشراف د/ أكرم ضياء العمري ـ ط٢ منشورات المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٤م.

(١٤١) **مرويات غزوة الخندق** (ماجستير) ـ د/ إبراهيم بن محمد عمير المدخلي ـ إشراف د/ عبد المحسن ابن حمد العباد ـ ط الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

(١٤٢) **المسائل العقدية المستنبطة من غزوة الخندق** (ماجستير) ـ د/ وليد بن محمد سعيد بن عبد القادر طيب ـ إشراف د/ يحيى بن محمد ربيع ـ كلية الدعوة وأصول الدين ـ جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

(١٤٣) **المستدرك على الصحيحين** ـ الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم النيسابوري، المعروف بابن البيع (٤٠٥ هـ) ـ تح أ/ مصطفى عبد القادر عطا ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، وط بتحقيق الشيخ مقبل بن هادي الوادعي ـ دار الحرمين ـ القاهرة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(١٤٤) **المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة** ـ د/ عبد الكريم زيدان ـ ط٢ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(١٤٥) **المستوطنات اليهودية على عهد الرسول ﷺ** ـ د/ أحمد علي المجدوب ـ ط٢ الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(١٤٦) **المسند** ـ الإمام أحمد بن محمد بن حنبل (٢٤١هـ) ـ حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه الشيخ شعيب الأرناؤوط وآخرون ـ ط٢ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(١٤٧) **مسند أبي عوانه** ـ الإمام أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الأسفرائني (٣١٦هـ) ـ تح أ/ أيمن عارف الدمشقي ـ دار المعرفة ـ بيروت ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(١٤٨) **المصنف** ـ الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (٢٣٥هـ) ـ حققه وقوَّم نصوصه وخرَّج أحاديثه أ/ محمد عوَّامة ـ دار القبلة بجدة ومؤسسة علوم القرآن بدمشق ـ ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

(١٤٩) **المصنَّف** ـ الإمام الحافظ أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ) ـ عني بتحقيق نصوصه، وتخريج أحاديثه، والتعليق عليه الشيخ المحدث حبيب الرحمن الأعظمي ـ المجلس العلمي بالهند ـ توزيع المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(١٥٠) **المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية** ـ الإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ) ـ ج١٧ تح د/ خالد بن عبد الرحمن بن سالم البكر ـ تنسيق د/ سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشَّثري ـ دار العاصمة ودار الغيث ـ الرياض ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(١٥١) **المعالم الأثيرة في السنة والسيرة** ـ د/ محمد محمد حسن شراب ـ دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(١٥٢) **معالم السنة النبوية: وهو خلاصة (١٤) كتابًا هي أصول كتب السنة** ـ أ/ صالح أحمد الشامي ـ ط٢ دار القلم ـ دمشق ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

(١٥٣) **المعجم الأوسط** ـ الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠ هـ) ـ تح أ/ طارق بن عوض الله بن محمد وأ/ عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ـ دار الحرمين ـ القاهرة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(١٥٤) **معجم البلدان** ـ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (٦٢٦هـ) ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(١٥٥) **المعجم الصغير = الروض الداني إلى المعجم الصغير للطبراني** ـ الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠ هـ) ـ تح أ/ محمد شكور محمود الحاج أمرير ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(١٥٦) **المعجم الكبير** ـ الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) ـ حققه وخرَّج أحاديثه أ/ حمدي عبد المجيد السلفي ـ ط٢ مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة ط٢ د.ت.

(١٥٧) **المعجم الكبير (قطعة من ج ١٣)** ـ الإمام الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٣٦٠هـ) ـ حققه وخرج أحاديثه أ/ حمدي عبد المجيد السلفي ـ دار الصميعي ـ الرياض ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(١٥٨) **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية** ـ المقدم/ عاتق بن غيث البلادي ـ دار مكة للنشر والتوزيع ـ مكة المكرمة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(١٥٩) **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع** ـ الوزير الفقيه أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (٤٨٧ هـ) ـ حققه وضبطه أ/ مصطفى السقا ـ ط٣ عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(١٦٠) **المغازي** ـ الإمام أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد المعروف بالواقدي (٢٠٧هـ) ـ تحقيق د/ مارسدن جونس ـ طبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ د.ت.

(١٦١) **المغازي** ـ الإمام موسى بن عقبة (١٤١ هـ) ـ جمع ودراسة وتخريج د/ محمد باقشيش أبو مالك ـ جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، المملكة المغربية ١٩٩٤م.

(١٦٢) **من معين السيرة** ـ أ/ صالح أحمد الشامي ـ ط٣ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(١٦٣) **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج** ـ الإمام أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) ـ ط٢ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧١م.

(١٦٤) **المنهج الحركي للسيرة النبوية** ـ د/ منير محمد الغضبان ـ ط٦ مكتبة المنار ـ الأردن ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

(١٦٥) **الموطأ: بروايات، بزياداتها وزوائدها، واختلاف ألفاظها** ـ الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ) ـ تح الشيخ سليم بن عيد الهلالي ـ مجموعة الفرقان التجارية ـ دبي ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(١٦٦) **النهاية في غريب الحديث والأثر** ـ مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (٦٠٦هـ) ـ تح د/ طاهر أحمد الزاوي، ود/ محمود محمد الطناحي ـ المكتبة العلمية ـ بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(١٦٧) **النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية** ـ أ/ محمد فتح الله كولن ـ ترجمة أ/ أورخان محمد علي ـ دار النيل ومؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(١٦٨) **هدي السيرة: في رحاب السيرة العطرة** ـ الشيخ عبد الحفيظ فرغلي القرني ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٨٣م.

(١٦٩) **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ﷺ** ـ الإمام نور الدين علي بن عبد الله بن أحمد الحسيني الشافعي السمهودي (٩١١هـ) ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

[١] فهرس الموضوعات التفصيلي للجزء الثاني من غزوة الأحزاب

[٢] فهرس الموضوعات الإجمالي للجزء الثاني من غزوة الأحزاب